

التبصير

تصنيف

الحافظ جمال الدين أبي الفرج عبد الرحمن بن الجوزي القرشي البغدادي
٥١٠ - ٥٩٧ هجرية

الجزء الأول

دار الكتب العلمية

بيروت - لبنان

الطبعة الاولى

١٤٠٦ هـ - ١٩٨٦ م

بيروت - لبنان

جميع الحقوق محفوظة

لدار الكتب العلمية - بيروت

يطلب من: **دار الكتب العلمية** بيروت - لبنان

هاتف: ٨٠١٣٣٢ - ٨٠٥٦٠٤ - ٨٠٠٨٤٢

ص: ١١/٩٤٢٤ تلکس: Nasher 41245 Le

بسم الله الرحمن الرحيم

المصنّف والمصنّف

المؤلف: الامام «ابن الجوزي» (★)

٥٠٨ - ٥٩٧ هـ

١ - نسبه: هو الإمام أبو الفرج عبد الرحمن بن علي بن محمد بن علي بن عبيد الله بن عبد الله بن هادي بن أحمد بن محمد بن جعفر الجوزي وقد لقب جعفر بالجوزي نسبة إلى مشرعة الجوز على نهر البصرة أو إلى جوزة كانت في داره.

وهو عربي قرشي تيمي بكري يتصل نسبه بأبي بكر الصديق (رضي الله عنه) وعرف بالبغدادي مولداً وإقامة وبالحنبلي مذهباً.

٢ - درس العلم وهو صغير، فسمع الحديث وحفظ القرآن على الحافظ محمد ابن ناصر الحنبلي، ثم درس الوعظ على أبي القاسم الهروي وبعده صاحب الفقيه ابن الزاغوني الحنبلي (ت ٥٢٨) فأخذ عنه من فنون العلم حظاً وافراً وخصوصاً

(★) راجع ترجمته في:

الكامل لابن الاثير ١٠ - ٢٢٨	وفيات الأعيان ١ - ٢٧٩
اليافعي ٣ - ٤٨٩ - ٤٩٢	البداية والنهاية ١٣ - ٢٨ - ٣٠
مختصر دول الاسلام ٩ - ٢ - ٧٩	مفتاح السعادة ١ - ٢٠٧
النجوم الزاهرة ٦ - ١٧٤ - ١٧٦	ذيل الروضتين ٢١ - ٢٨
تذكرة الحفاظ ٤ - ١٣١	ابن الوردي ٢ - ١١٨
الأعلام ٢ - ٣١٦	آداب اللغة ٣ - ٩١
شذرات الذهب ٣ : ٣٤٤	دائرة المعارف ١ - ١٢٥

الحديث والفقہ والوعظ الذي أصبح في عصر ابن الجوزي فناً له أصوله وقواعده.

ثم قرأ الفقہ والخلاف والجدل والأصول على أي بكر الدينوري والقاضي أي يعلى وغيرهم كثير كابن منده الذين تلقى منهم علوم عصره.

ومن شدة انصرافه لطلب العلم لم يكن في صغره على ما كان عليه أترابه من حب اللهو واللعب بل انشغل في العلم وحفظه وكتابته، وهذا لما له من نضوج عقلي إلى جانب حافظه واعية وقد قال عن نفسه (قد رزقت عقلاً وافراً في الصغر يزيد على عقل الشيوخ).

٣ - قال عنه ابن خلكان (٢٧٩/١).

« كان علامة عصره وامام وقته في الحديث وصناعة الوعظ، صنف في فنون كثيرة، منها « زاد المسير في علم التفسير » أربعة أجزاء أتى فيه بأشياء غريبة، وله في الحديث تصانيف كثيرة وله « المنتظم » في التاريخ وهو كبير وله « الموضوعات » في أربعة أجزاء... وبالجملة فكتبه أكثر من أن تعد، وكتب بخطه شيئاً كثيراً، والناس يغالون في ذلك حتى يقولوا إنه جمعت الكراريس التي كتبها وحسبت مدة عمره وقسمت الكراريس على المدة فكان ما خص كل يوم تسع كراريس^(١) وهذا شيء عظيم لا يكاد يقبله عقل ».

ويقال: جمعت براية أقلامه التي كتب بها حديث رسول الله ﷺ فحصل منها شيء كثير، وأوصى أن يسخن بها الماء الذي يغسل به بعد موته، ففعل ذلك فكفت وفضل منها ».

« له أشعار لطيفة^(٢) منها قوله يخاطب أهل بغداد:

عذيري من فتية بالعراق قلوبهم بالجفا قلب

(١) أشتهر هذا الأسلوب في مدح العلماء الذين عرفوا بكثرة التأليف كالطبري مثلاً...

(٢) انظر كتاب « المدهش » من منشورات دار الكتب العلمية - بيروت.

يرون العجيب كلام الغريب وقول الغريب فلا يعجب
ميازيهم إن تندت بخير إلى غير جيرانهم تطلب
وعذرهم عند توبيخهم مغنية الحي لا تطرب»

٤ - وعرف ابن الجوزي بحضور الذهن وسرعة البديهة وحسن التصرف
والإجابات اللبقة تجاه الاسئلة المحرجة.

نقل ابن خلكان أن نزاعاً في المفاضلة بين أبي بكر وعلي قد وقع بين أهل
السنة والشيعة في عهد ابن الجوزي « فرضي الكل بما يجب به الشيخ فأقاموا
شخصاً يسأله عن ذلك وسط مجلس وعظه فقال:

«أفضلها من كانت ابنته تحته»

ونزل في الحال حتى لا يراجع في السؤال، فقال السنية: أراد أبا بكر لأن ابنته
عائشة تحت النبي ﷺ، وقال الشيعة: أراد علياً لأن ابنة النبي فاطمة كانت تحت
علي. وعلق ابن خلكان على ذلك « وهذا من لطائف الأجوبة ولو حصل بعد
الفكر التام وامعان النظر كان في غاية الحسن فضلاً عن البديهة».

٥ - قال عنه ابن كثير في البداية والنهاية.

«أحد أفراد العلماء، برز في علوم كثيرة، وانفرد بها عن غيره وجمع
المصنفات الكبار والصغار نحواً من ثلاثمائة مصنف، وكتب بيده نحواً من مائتي
مجلد».

«وله في العلوم كلها اليد الطولى والمشاركات في سائر أنواعها من التفسير
والحديث والتاريخ والحساب والنجوم والطب والفقہ وغير ذلك من اللغة
والنحو».

«وله من المصنفات في ذلك كله ما يضيق هذا المكان عن تعدادها وحصر
أفرادها منها كتابه في التفسير المشهور «بزاد المسير» وله تفسير أبسط منه لكنه
ليس بمشهور. وله جامع المسانيد استوعب غالب مسند أحمد وصحيح البخاري

ومسلم وجامع الترمذي».

وله كتاب «المنتظم في تواريخ الأمم من العرب والعجم» في عشرين مجلداً.
«وقد أوردنا في كتابنا هذا كثيراً من حوادثه وتراجمه، ولم يزل يؤرخ أخبار
العالم حتى صار هو تاريخاً».

ما زلت تدأب في التاريخ مجتهداً حتى رأيتك في التاريخ مكتوباً
٦ - قال الحافظ الذهبي:

«ما علمت أن أحداً من العلماء صنف ما صنف هذا الرجل».

وقال ابن تيمية «ذيل الروضتين لابن رجب».

«عددت له أكثر من ألف مصنف ورأيت بعد ذلك ما لم أراه».

٧ - وكما شارك ابن الجوزي في علوم عصره وبرز بها، فقد كانت له
المنزلة التي لا تُداني في الوعظ، فاشتهر بمجالس وعظه التي كان يحضرها أهل
الحكم ويقصدها الناس من كل حدب وصوب يجتمعون لها بأعداد كبيرة
وبزحام قل نظيره^(١).

وقد كان له اتصال بالخليفة العباسي الرابع والعشرين «المستضيء» (حكم
٥٦٦ - ٥٧٥) فألف له كتاب «المصباح المضيء في دولة المستضيء»، كما أذن
له الخليفة أن يجلس للوعظ في باب بدر في قصره الذي كان يُفتح للعمامة
ليسمعوا ابن الجوزي.

٨ - وقد وصف الرحالة الأندلسي ابن جبير مجلساً من مجالس وعظه عام
٥٨٠ هـ بعد أن ذكر له مجلساً حضره أولاً:

«ثم شاهدنا مجلساً ثانياً له بكرة الخميس بباب بدر في ساحة قصر الخليفة^(٢)»

(١) وكتابنا هذا يؤكد للقاري مجالس وعظ المؤلف رحمه الله.

(٢) الخليفة وقتها كان الناصر ٥٧٥ - ٦٢٢.

ومناظره مشرفة عليه، وهذا الموضع من حرم الخليفة قد خصّ ابن الجوزي بالوصول إليه والتكلم فيه ليسمعه من تلك المناظر الخليفة نفسه ووالدته ومن حضر من الحرم، ثم يفتح الباب للعمامة فيدخلون إلى ذلك الموضع وقد بسط بالحصر، وجلوس ابن الجوزي بهذا الموضع كل يوم خميس».

«فبكرنا لمشاهدته وقعدنا إلى أن وصل هذا الخبير المتكلم فصعد المنبر وأزاح طيلسانه عن رأسه تواضعاً لحرمة المكان، وقد تسطر قرآء القرآن أمامه على كراسي موضوعة، فابتدروا القراءة على الترتيب، فشوفوا ما شأؤوا وأطربوا ما أرادوا وبادرت العيون بإرسال الدموع».

«فلما فرغوا من القراءة، وقد احصينا لهم تسع آيات من سور مختلفات، صدع ابن الجوزي بخطبته الزهراء، وأتى بأوائل الآيات في أثنائها منتظماً، ومشى في الخطبة على فقرة آخر آية منها في الترتيب إلى أكملها. وكانت الآية ﴿الله الذي جعل لكم الليل لتسكنوا فيه والنهار مبصراً، ان الله لذو فضل على الناس﴾ (١).

«فتأدى على هذا السين، وحسن أي تحسين، فكان يومه هذا أعجب من أسسه، ثم أخذ في الثناء على الخليفة والدعاء له ولوالدته، وكن بها «الستر الأشرف والجناب الأرف» (٢).

«ثم سلك سبيله في الوعظ، كل ذلك بديهية لا روية ويصل كلامه في ذلك بالآيات التي قرأها القراء من قبل في المجلس، فأرسلت وابلها العيون، وأبدت النفوس سر شوقها المكينون، وتطارح الناس عليه بذنوبهم معترفين وبالتوبة معلنين، وطاشت الأبواب والعقول، وكثر الوه والذهول، وصارت الناس لا

(١) سورة غافر، الآية: ٦١

(٢) كثر في العصر العباسي الثاني تدخل نساء الخلفاء في الحكم وخصوصاً الامهات اللواتي كان لهن الأثر الكبير في سير الأحداث في بغداد، فلا بد إذن والحالة هذه أن تذكر النساء في الخطب وتمدح مع الممدوحين.

تملك تحصيلاً ولا تميز معقولاً ولا تجد للبصر سبيلاً» .

« ثم في أثناء مجلسه كان اشعاراً في النسب مبرحة التشويق بديعة الترفيق ،
تشعل القلوب وجداً ويعود موضعها الغزلي وجداً ، فمن ذلك ما أنشده :

أين فؤادي؟ أذابه الوجد وأين قلبي؟ فما صحا بعد
يا سعد زدني جوى بذكرهم بالله زدني - فديت - يا سعد

ولم يزل يردد هذه الأبيات والانفعال قد أثر فيه ، والمدامع تكاد تمنع خروج
الكلام من فيه ، إلى أن خاف الافحام فابتدر القيام ونزل عن المنبر عجللاً ، وقد
أطار القلوب وجللاً ، وترك الناس على أحر من الجمر ، يشيعونه بالمدامع الحمر ،
فلن معلن بالانتحاب ومن متعفر بالتراب ، فيا له من مشهد ما أهول مرآه وما
أسعد من رآه» .

« وما كنا نحسب أن متكلماً في الدنيا يعطي من امتلاك النفوس والتلاعب
فيها ما أعطى هذا الرجل ، فسبحان من يخص بالكلام من يشاء من عباده» ا .
هـ .

٩ - قال ابن عماد في شذرات الذهب ٤ : ٣٣٠ .

« كان يراعي حفظ صحته وتلطيف مزاجه وما يفيد عقله قُوّة وذهنه حِدّة» .

١ - تُوفي أبو الفرج ابن الجوزي - رحمه الله تعالى - ليلة الجمعة ١٢
رمضان عام ٥٩٧ هـ / ١٢٠١ وعمره نحو التسعين ، ودفن بباب حرب بالقرب
من مدفن الامام أحمد بن حنبل ، وأوصى بأن يكتب على قبره هذه الأبيات :

يا كثير العفو عمّن كثر الذنوب لـديسه
جاءك المذنب يسرجو الصفح عن جرم يديه
أنا ضيف وجزاء الضيف إحسان إليه

بسم الله الرحمن الرحيم

خطبة الكتاب

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله . قال الشيخ الإمام العالم جمال الدين أبو
الفرج عبد الرحمن بن علي بن محمد بن الجوزي رحمة الله عليه:

الحمد لله الذي لا أوَّل لوجوده، ولا آخر لوجوده، وصلَّى الله على خير
مبعوث بشرائه وحدوده، وعلى الصحابة وأزواجه وجنوده. وسلِّم تسليماً كثيراً .

أما بعد : فإن جماعةً من أصحابي أحبوا التشاغل بعلم الوعظ ولم يجدوا فيه
كتاباً يجوز الاعتماد عليه، وإنَّ جماعةً من الأعاجم صنعوا كتباً في ذلك ملأوها
بالأحاديث الباطلة والمعاني الفاسدة، ناظرين إلى حُسْن اللفظ غير باحثين عن
الصَّحَّة، فهَمَّتْهم تكثير الجمع، ونَهَمَّتْهم تحريك الطَّبْع، فرمما ذكروا أشعارَ
العشق والمحبة التي توجب انبساط المتبدي وتبعده عن الهيبة والخوف، أو تُميل
قلبه إلى حب الدنيا، وربما ذكروا [من] أحاديث الرُّخْص الكذب ما يهَوِّن
المعاصي. إلى غير ذلك، وقد ذكرت عيوبهم في كتاب القِصَاص عن القِصَاص .

فرغِب أصحابي في إملاء كتاب يُعْتَنِي عن النظر في تلك الكتب، فأجبتهم
لاجتناهم عن الباطل واجتلابهم إلى الحق، فأملتُ في هذا الكتاب مائة مجلس
جعلت، مُعْظَمُ صدورها على روايات، وجعلت أعجازها على آيات، وفيها ما
صَدَّرَهُ مَبْنِيٌّ على أحاديث إلا أني جعلتُ الصدورَ في مجالس الصدور على تسع
طبقات :

الطبقة الأولى: تشتمل على قصص الأنبياء والقدماء، وفضائل الصحابة والصحابيات.

الطبقة الثانية: تشتمل على فضائل أيام السنة ولياليها المذكورات.

الطبقة الثالثة: تشتمل على ذكر خَلْق ابن آدم والأرض والسموات.

الطبقة الرابعة: تشتمل على فضل العلم والمعاملات.

الطبقة الخامسة: تشتمل على ذكر ذم المعاصي والمكروهات.

الطبقة السادسة: تشتمل على ذكر الموت والقبر والقيامة والنار والجنات.

الطبقة السابعة: تشتمل على وعظ أرباب الولايات.

الطبقة الثامنة: تشتمل على التعازي عن الأموات.

الطبقة التاسعة: تشتمل على مواعظ ومختصرات.

فأما أعجاز المجالس فعلى آيات مُطلقات.

وقد جمع هذا الكتاب من فنون المتخيرات المنتخبات ما يغني المبتدي ولا يستغني عنه المنتهي. والله الموفق للخيرات.

وها أنا أذكر عدد المجالس في كل طبقة من الطبقات، وما تحتوي عليه من الآيات، ليتخير المتكلم ما يتكلم به مما يليق بالأوقات.

الطبقة الأولى: فيها أربعة وثلاثون مجلساً:

الأول صدره في ذكر آدم، وعجزه ﴿التائبون العابدون﴾^(١).

الثاني: صدره قصة هابيل وقابيل، وعجزه: ﴿وسارعوا إلى مغفرة من ربكم﴾^(٢).

الثالث: صدره ذكر إدريس وعجزه: ﴿قل انظروا ماذا في السموات﴾^(٣).

الرابع: صدره قصة نوح. وعجزه: ﴿يوم تجد كل نفس ما عملت من خير محضراً﴾^(٤).

(٣) يونس ١٠١.

(١) التوبة ١١٢.

(٤) آل عمران ٣٠.

(٢) آل عمران ١٣٣.

الخامس: صدره قصة عاد. وعجزه: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غَافِلًا عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ﴾ (١).

السادس: صدره قصة ثمود وعجزه: ﴿وَاسْتَمِعْ يَوْمَ يُنَادِي الْمُنَادِي﴾ (٢).

السابع: صدره قصة الخليل صلوات الله عليه، وعجزه: ﴿قَلْنَا يَا نَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ﴾ (٣).

الثامن: صدره قصة بناء الكعبة وعجزه: ﴿فِي بُيُوتٍ أُذِنَ لِلَّهِ أَنْ تَرْفَعَ﴾ (٤).

التاسع: صدره قصة الذبيح، وعجزه: ﴿لَيْسَ بِأَمَانِيكُمْ وَلَا أَمَانِي أَهْلِ الْكِتَابِ﴾ (٥).

العاشر: صدره قصة لوط. وعجزه: ﴿قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ﴾ (٦).

الحادي عشر: صدره قصة ذي القرنين. وعجزه: ﴿فَهَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا السَّاعَةَ﴾ (٧).

الثاني عشر: صدره قصة يوسف صلى الله على محمد وعليه. وعجزه: ﴿وَقُضِيَ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ﴾ (٨).

الثالث عشر: صدره قصة أيوب صلى الله على محمد وعليه وعجزه: ﴿إِنِّي جَزَيْتُهُمُ الْيَوْمَ بِمَا صَبَرُوا﴾ (٩).

الرابع عشر: صدره قصة شعيب صلى الله على محمد وعليه. وعجزه: ﴿كَلَّا إِذَا بَلَغَتِ التَّرَاقِيَ﴾ (١٠).

الخامس عشر: صدره قصة موسى صلى الله على محمد وعليه. وعجزه: ﴿إِن الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ﴾ (١١).

(١) إبراهيم ٤٢.	(٧) محمد ١٨.
(٢) ق ٤١.	(٨) الاسراء ٢٣.
(٣) الأنبياء ٦٩.	(٩) المؤمنون ١١١.
(٤) النور ٣٦.	(١٠) القيامة ٢٦.
(٥) النساء ١٢٣.	(١١) الانفطار ١٣ - المطففين ٢٢.
(٦) النور ٣٠.	

السادس عشر: صدره قصة الخضر. وعجزه: ﴿يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وُلْدَانٌ مَّخْلُودُونَ﴾ (١).

السابع عشر: صدره قصة قارون. وعجزه: ﴿ذَرَهُمْ يَأْكُلُوا وَيَتَمَتَّعُوا﴾ (٢).

الثامن عشر: صدره قصة بلعام وعجزه: ﴿فَاعْتَبِرُوا يَا أُولِي الْأَبْصَارِ﴾ (٣).

التاسع عشر: صدره قصة داود. وعجزه: ﴿أَيَحْسَبُ الْإِنْسَانُ أَنْ يُتْرَكَ سُدًى﴾ (٤).

العشرون: صدره قصة سليمان. وعجزه: ﴿الْقَارِعَةُ مَا الْقَارِعَةُ﴾ (٥).

الحادي والعشرون: صدره قصة بلقيس وعجزه: ﴿لَا أَقْسَمُ بِيَوْمِ الْقِيَامَةِ﴾ (٦).

الثاني والعشرون: صدره قصة سبأ وعجزه: ﴿رَفِيعُ الدَّرَجَاتِ﴾ (٧).

الثالث والعشرون: صدره قصة يونس. وعجزه: ﴿أَفَرَأَيْتَ إِنْ مَتَّعْنَاهُمْ سِنِينَ﴾ (٨).

الرابع والعشرون: صدره قصة زكريا وعجزه: ﴿يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ جَمِيعًا﴾ (٩).

الخامس والعشرون: صدره قصة مريم وعيسى. وعجزه: ﴿وَتَوَبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعًا﴾ (١٠).

السادس والعشرون: صدره قصة أهل الكهف وعجزه: ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ﴾ (١١).

السابع والعشرون: صدره فضل نبينا محمد ﷺ وعجزه: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذَكَرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ (١٢).

(١) الواقعة ١٧.	(٧) غافر ١٥.
(٢) الحجر ٣.	(٨) الشعراء ٢٠٥.
(٣) الحجر ٢.	(٩) المجادلة ١٨.
(٤) القيامة ٣٦.	(١٠) النور ٣١.
(٥) القارعة ١.	(١١) المؤمنون ١.
(٦) القيامة ١.	(١٢) الأنفال ٢.

الثامن والعشرون: صدره فضائل أبي بكر الصديق رضي الله عنه وعجزه: ﴿يا أيها الذين آمنوا لا تلهكم أموالكم ولا أولادكم عن ذكر الله﴾ (١).
التاسع والعشرون: صدره فضائل عمر رضي الله عنه وعجزه: ﴿وجوه يومئذ ناعمة لسيها راضية﴾ (٢).

الثلاثون: صدره فضائل عثمان رضي الله عنه وعجزه: ﴿والله يدعوا إلى دار السلام﴾ (٣).

الحادي والثلاثون: صدره فضائل علي رضي الله عنه وعجزه: ﴿إن الأبرار يشربون من كأس﴾ (٤).

الثاني والثلاثون: صدره فضائل عائشة رضي الله عنها وعجزه: ﴿والذي تولّى كبره منهم﴾ (٥).

الثالث والثلاثون: صدره فضائل الصحابة رضي الله عنهم وعجزه: ﴿ولا تطرد الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي﴾ (٦).

الرابع والثلاثون: صدره فضائل أمة محمد ﷺ وعجزه: ﴿كنتم خير أمة أخرجت للناس﴾ (٧).

الطبقة الثانية: فيها أحد عشر مجلساً:

الأول: صدره في ذكر عاشوراء والمحرم وعجزه: ﴿ولا تقتلوا النفس﴾ (٨).

الثاني: صدره في ذكر رجب وعجزه: ﴿إن عدة الشهور عند الله اثنا عشر شهراً﴾ (٩).

الثالث: صدره في ذكر المعراج وعجزه: ﴿سبحان الذي أسرى بعبده ليلاً﴾ (١٠).

(٦) الانعام ٥٢.

(٧) آل عمران ١١٠.

(٨) الانعام ١٥١.

(٩) التوبة ٣٦.

(١٠) الاسراء ١.

(١) المنافقون ٩.

(٢) الغاشية ٩.

(٣) يونس ٢٥.

(٤) الانسان ٥.

(٥) النور ١١.

الرابع: صدره فضائل شعبان وعجزه: ﴿أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ﴾ (١).

الخامس: صدره فضائل ليلة النصف من شعبان وعجزه: ﴿حَمِ وَالْكِتَابِ الْمُبِينِ﴾.

السادس: صدره فضائل رمضان وعجزه: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ﴾ (٢).

السابع: صدره لانتصاف رمضان وعجزه: ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ﴾ (٣).

الثامن: صدره ذكر العَشرِ وليلة القَدْرِ وعجزه: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ﴾ (٤).

التاسع: صدره في ذكر عيد الفطر وعجزه: ﴿أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ (٥).

العاشر: صدره فضل عَشرِ ذي الحجة وعجزه: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ﴾ (٦).

الحادي عشر: صدره ذكر يوم عرفة وعجزه: ﴿وَأَذِّنْ فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ﴾ (٧).

الطبقة الثالثة: فيها ثلاثة مجالس:

الأول: صدره ذكر خلق ابن آدم وعجزه: ﴿ثُمَّ إِنَّكُمْ بَعْدَ ذَلِكَ لَمَيْتُونَ﴾ (٨).

الثاني: صدره في ذكر خَلْقِ السموات وعجزه: ﴿وَتَرَى كُلَّ أُمَّةٍ جَائِيَةٍ﴾ (٩).

الثالث: صدره في ذكر الأرض وعجائبها وعجزه: ﴿فَإِذَا انشَقَّتْ السَّمَاءُ فَكَانَتْ وَرْدَةً كَالدِّهَانِ﴾ (١٠).

(١) الجائية ٢١.	(٦) الفجر ٦.
(٢) البقرة ١٨٢.	(٧) الحج ٢٧.
(٣) البقرة ١٨٥.	(٨) المؤمنون ١٥.
(٤) القدر ١.	(٩) الجائية ٢٨.
(٥) يونس ٦٢.	(١٠) الرحمن ٣٧.

الطبقة الرابعة: فيها ثمانية وعشرون مجلساً:

الأول: صدره في فضل العِلْم وعجزه: ﴿فاليوم لا تُظلم نفس شيئاً﴾ (١).
الثاني: صدره في ذكر الطهارة وعجزه: ﴿ألم تر أن الله أنزل من السماء ماء﴾ (٢).

الثالث: صدره في ذكر الصلوات وعجزه: ﴿إن الذين سبقت لهم منا الحسنى﴾ (٣).

الرابع: صدره في ذكر الزكاة وعجزه: ﴿لن تنالوا البر﴾ (٤).
الخامس: صدره في ذكر الصيام وعجزه: ﴿ولقد خلقنا الإنسان ونعلم ما توسوس به نفسه﴾ (٥).

السادس: صدره في ذكر الحج وعجزه: ﴿إن الذين يتلون كتاب الله﴾ (٦).
السابع: صدره في حق الأخوة والصدقة وعجزه: ﴿الذين يذكرون الله قياماً وقعوداً﴾ (٧).

الثامن: صدره في ذكر العزلة وعجزه: ﴿تتجافى جنوبهم عن المضاجع﴾ (٨).

التاسع: صدره في الأمر بالمعروف وعجزه: ﴿فإذا نُفخ في الصور﴾ (٩).
العاشر: صدره في ذكر التوبة وعجزه: ﴿الأخلاء يومئذ بعضهم لبعض عدو إلا المتقين﴾ (١٠).

الحادي عشر: صدره في ذكر الصبر وعجزه: ﴿ولنبَلونكم حتى نعلم المجاهدين منكم والصابرون﴾ (١١).

الثاني عشر: صدره في ذكر الشُّكر وعجزه: ﴿إن الذين كذبوا بآياتنا﴾ (١٢).

(٧) آل عمران ١٩١.

(٨) السجدة ١٦.

(١٠) المؤمنون ١٠١.

(١١) الزخرف ٦٧.

(١٢) محمد ٣١.

(١٣) الأعراف ٤٠.

(١) ياسين ٥٤.

(٢) الحج ٦٣.

(٣) الانبياء ١٠١.

(٤) آل عمران ٩٢.

(٥) ق ١٦.

(٦) فاطر ٢٩.

الثالث عشر: صدره في ذكر الخوف وعجزه: ﴿وبالحق أنزلناه وبالحق نزل﴾ (١).

الرابع عشر: صدره في النية والإخلاص وعجزه: ﴿أولم نعممكم ما يتذكر فيه من تذکر وجاءكم النذير﴾ (٢).

الخامس عشر: صدره في اليقين وعجزه: ﴿والصافات صفا﴾ (٣).

السادس عشر: صدره في الزهد وعجزه: ﴿يا أيها الناس اتقوا ربكم﴾.

السابع عشر: صدره في فضل الفقر الفقراء وعجزه: ﴿وإذ صرفنا إليك نفراً من الجن يستمعون القرآن﴾ (٤).

التاسع عشر: صدره في محاسبة النفس وعجزه: ﴿لقد تاب الله على النبي﴾ (٥).

العشرون: صدره في التقوى والمراقبة وعجزه: ﴿يوم نحشر المتقين إلى الرحمن وفدا﴾ (٦).

الحادي والعشرون: صدره في ذكر الورع وعجزه: ﴿يا أيها الرسل كلوا من الطيبات﴾ (٧).

الثاني والعشرون: صدره في ذكر القلب، وعجزه: ﴿أنتم أشد خلقاً أم السماء بناها﴾ (٨).

الثالث والعشرون: صدره في ذكر التفكر، وعجزه: ﴿كلا إنها تذكرة﴾ (٩).

الرابع والعشرون: صدره في ذكر التوكل وعجزه: ﴿ومن آياته أنك ترى الأرض خاشعة﴾ (١٠).

-
- | | |
|------------------|------------------|
| (١) الاسراء ١٠٥. | (٦) مريم ٨٥. |
| (٢) فاطر ٣٧. | (٧) المؤمنون ٥١. |
| (٣) الصافات ١. | (٨) النازعات ٢٧. |
| (٤) الاحقاف ٢٩. | (٩) عبس ١١. |
| (٥) التوبة ١١٧. | (١٠) فصلت ٣٩. |

الخامس والعشرون: صدره في ذكر المحبة وعجزه: ﴿من يرتدّ منكم عن دينه﴾ (١).

السادس والعشرون: صدره في الرضا وعجزه: ﴿والطُّور وكتابٍ مسطور﴾ (٢).

السابع والعشرون: صدره في فعل المعروف وعجزه: ﴿وما قدرّوا الله حق قدره﴾ (٣).

الثامن والعشرون: صدره في الدعاء وعجزه: ﴿إذا وقعت الواقعة﴾ (٤).

الطبقة الخامسة: تشتمل على ذم المعاصي والمكروهات فيها أحد عشر مجلساً:

الأول: صدره في ذم الغيبة ومعاصي اللسان. وعجزه: ﴿فوربك لنحشرنهم والشياطين﴾ (٥).

الثاني: صدره كسر شهوة النفس وعجزه: ﴿لا تأكلوا الرِّبَا﴾ (٦).

الثالث: صدره في ذكر شهوة الفرج وعجزه: ﴿والمَلِك على أرجائها﴾ (٧).

الرابع: صدره في ذم الحسد وعجزه: ﴿إذا الشمس كورت﴾ (٨).

الخامس: صدره في ذم الغضب وعجزه: ﴿إن يومَ الفصل كان ميقاتاً﴾ (٩).

السادس: صدره في ذم الكِبَر وعجزه: ﴿وكذلك أخذ ربك﴾ (١٠).

السابع: صدره في ذم الدنيا وعجزه: ﴿اعلموا أنّما الحياة الدنيا لعب ولهو﴾ (١١).

الثامن: صدره في ذم البخل وعجزه: ﴿الذين يُوفون بعهد الله﴾ (١٢).

التاسع: صدره في ذم الأمل وعجزه: ﴿أقربت الساعة﴾ (١٣).

(١) التكوير ١.

(٢) النبأ ١٧.

(٣) هود ١٠٢.

(٤) الحديد ٢٠.

(٥) الرعد ٢٠.

(٦) القمر ١.

(١) المائدة ٥٤.

(٢) الطور ١.

(٣) الأنعام ٩١.

(٤) الواقعة ١.

(٥) مريم ٦٨.

(٦) آل عمران ١٣٠.

(٧) الحاقة ١٧.

العاشر: صدره في ذكر مكائد الشيطان وعجزه: ﴿كَلَّا بَلْ لَا تُكْرَمُونَ الْيَتِيمَ﴾^(١)

الحادي عشر: في التحذير من الغرور وعجزه: ﴿وَاصْرَبْ لَهُمْ مِثْلَ حَيَاةِ الدُّنْيَا﴾^(٢).

الطبقة السادسة: تشمل على ذكر الموت والقبر والقيامة والنار والجنات فيها خمسُ مجالس:

الأول: صدره في ذكر الموت وعجزه: ﴿قُلْ إِنْ الْمَوْتُ الَّذِي تَفِرُّونَ مِنْهُ فَإِنَّهُ مُلَاقِيكُمْ﴾^(٣).

الثاني: صدره في ذكر القبر، وعجزه: ﴿حَتَّى إِذَا جَاءَ أَحَدَكُمْ الْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ارْجِعُونِي﴾^(٤).

الثالث: صدره في ذكر القيامة وعجزه: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْجِبَالِ﴾^(٥).

الرابع: صدره في ذكر الجنة وعجزه: ﴿مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وَعَدَ الْمُتَّقُونَ﴾^(٦).

الخامس: صدره في ذكر جهنم وعجزه: ﴿قُلُوا أَنْفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا﴾^(٧).

الطبقة السابعة: فيها مجلسان:

الأول: لوعظ السلطان.

الثاني: لتذكير أرباب الولايات.

الطبقة الثامنة: فيها مجلسان: الأول والثاني في التعازي.

الطبقة التاسعة: فيها مواعظ مختصرات. وذلك تمام المائة.

والله المشكور والمحمود على كل حال.

(٥) طه ١٠٥

(٦) الرعد ٣٥

(٧) التحريم ٦

(١) الفجر ١٧

(٢) الكهف ٤٥

(٣) الجمعة ٨

(٤) المؤمنون ٩٩

الطَبَقَةُ الْأُولَى

فِيهَا أَرْبَعَةٌ وَثَلَاثُونَ مَجْلِسًا

بسم الله الرحمن الرحيم

المجلس الأول في ذكر آدم عليه الصلاة والسلام

الحمد لله الذي سَيَّرَ بقدرته الفلكَ والفلكَ، ودَبَّرَ بصنعتِه النورَ والحلكَ، اختارَ آدمَ فحسده الشيطانَ وغَبَطَه المَلَكُ، وافتخروا بالتسبيح والتقدیس، فأما إبليسَ فهلك ﴿ قالوا أَجْعَلُ فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك ﴾ (١) تعالى عن وزير، وتنزه عن نظير، قَبِلَ من خلقه اليسير، وأعطى من رزقه الكثير، أنشأ السحاب الغزير يحمل الماء النмир ليعم عباده بالخير ويمير، فكلما قصر القَطْرُ في الواقع صاح الرعد بصوت الأمير، وكلما أظلمت مسالك الغيث لاح البرق يوضح وينير، فقامت الورقُ على الورق تصدح بالمدح على جنبات الغدير، فالجهد ينطق بلسان حاله، والنبات يتكلم بجر كاته وبأشكاله، والكل إلى التوحيد يُشير، ليس كمثلُه شيء وهو السميع البصير.

أحمدُه وهو بالحمد جدير وأقر بأنه مالك التصوير والتصيير.

وأصلي على محمد رسوله البشير النذير، وعلى صاحبه أبي بكر الصديق، وعلى عمر ذي العَدَلِ العزير، وعلى عثمان مجهز جيش العسرة في الزمان العسير، وعلى عليّ المخصوص بالموالاة يوم الغدير، وعلى عمه العباس المستسقى به الماء النмир، [جد سيدنا الإمام الناصر لدين الله أمير المؤمنين أدام الله أيامه إدامة رَضَوَى وثَبِير].

اللهم صلِّ على محمد وعلى آل محمد وألهمنا القيامَ بحقك، وباركْ لنا في الحلال

(١) البقرة ٣٠.

مِنْ رِزْقِكَ ، وَعَدُّ عَلَيْنَا فِي كُلِّ حَالٍ بِرِفْقِكَ ، وَإِنْفَعِنِي بِمَا أَقُولُ وَالْحَاضِرِينَ مِنْ خَلْقِكَ بِرَحْمَتِكَ يَا أَرْحَمَ الرَّاحِمِينَ .

قال الله تعالى: ﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً ﴾ (١) .

« إذ » كلمةٌ جعلت لما مَضَى من الأوقات ، فكأنه قال : اذكر ذلك الوقت .
والملائكة واحدٌ ملك والأصل مَلَأَكْ وأنشد سيبويه :

فَلَسْتُ بِإِنْسِيٍّ وَلَكِنْ لِمَلَأَكْ تَنْزَلُ مِنْ جَوْ السَّمَاءِ يَصُوبُ
ومعنى مَلَأَكْ : صاحبُ رسالة . يقال مَأَلَكَةٌ وَمَلَأَكَةٌ .

واختلف العلماء ما المقصود بإعلام الملائكة بخلق آدم عليه السلام على تسعة أقوال :

أحدها : أنه أراد إظهار كِبَرِ إبليس ، وكان ذلك قد خَفِيَ على الملائكة لما يرون من تعبده . رواه الضحاك ، عن ابن عباس .

والثاني : لِيَبْلُو طاعةَ الملائكة . قال الحسن .

والثالث : أنه لما خلق الله تعالى النارَ جزعت الملائكة ، فقال : هذه لمن عصاني فقالوا : أو يأتي علينا زمان نعصيك فيه ؟ فأخبرهم بخلق غيرهم . قاله ابن زيد .

والرابع : أنه أراد إظهار عَجْزهم عما يَعْلَمه لأنهم قاسوا على حال من كان قبل آدم .

والخامس : أن الملائكة التي طردت الجن من الأرض قبل آدم أقاموا في الأرض يعبدون ، فأخبرهم أني جاعل في الأرض خليفة ليوطنوا أنفسهم على العزَل .

والسادس : أنهم ظنوا أن الله لا يخلق خلقاً أكرمَ منهم ، فأخبرهم بما يخلق .

(١) البقرة ٣٠ .

والسابع: أنه أعلمهم بما سيكون ليعلموا علمه بالحداثات.

والثامن: أنه أراد تعظيم آدم بذكره قبل وجوده.

والتاسع: أنه أعلمهم أنه خلقه لیسكنه الأرض وإن كان ابتداء خلقه في السماء.

والخليفة: القائم مقام غيره. يقال: خلف الخليفة خلافةً وخليفاً وعلى وزن ذلك أحرف منها: خطيبي من الخطبة، وردّ يدي من الردّ، ودليلي من الدلالة، وحجيزي من حجرت، وهزيمي من هزمت.

قال أبو بكر ابن الأنباري: والأصل في الخليفة: خليف، فدخلت الهاء للمبالغة في مدحه بهذا الوصف كما قالوا: علامة ونسابة وراوية.

وفي معنى خلافته قولان: أحدهما: خليفة عن الله تعالى في إقامة شرعه. روي عن ابن عباس ومجاهد.

والثاني: أنه خلف من كان في الأرض قبله. روي عن ابن عباس.

قوله تعالى: ﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا﴾^(١) الألف للاستفهام وفيها ثلاثة أقوال: أحدها أنه استفهام إنكار، والتقدير: كيف تفعل هذا، وهو لا يليق بالحكمة. وروى يحيى بن كثير عن أبيه قال: كان الذين قالوا هذا عشرة آلاف من الملائكة، فأرسلت عليهم ناراً فأحرقتهم.

والثاني: أنه استفهام إيجاب، تقديره: ستجعل كما قال جرير.

★ أَلَسْتُ خَيْرَ مَنْ رَكِبَ الْمَطَايَا ★

قاله أبو عبيدة.

والثالث: أنه استفهام استعلام.

ثم في مرادهم أربعة أقوال: أحدها أنهم استعلموا وجه الحكمة في جعل من يُفسد.

(١) البقرة ٣٠.

والثاني: أنهم استعظموا معصية المستخلفين فكأنهم قالوا: كيف يعصونك وقد استخلفتهم، وإنما ينبغي أن يسبّحوا كما نسبّح نحن.

والثالث: أنهم تعجّبوا من استخلاف من يفسد.

والرابع: أنهم استفهموا عن حال أنفسهم، فتقدير الكلام: أتجعل فيها من يفسد ونحن نسبّح أم لا. ذكره ابن الأنباري.

والمراد بالفساد العمل بالمعاصي، وسفك الدم: صبّه وإراقته. وشدّد السين أبو نُهَيْك. وقرأ طلحة بن مُصرّف «يَسْفُك» بضم الفاء.

والتسبيح: التنزيه لله من كل سوء. والتقدّيس: التطهير. والمعنى: ننزهك ونعظّمك.

قوله تعالى: ﴿إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾^(١) أي أنه سيكون من ذريته أنبياء وصالحون.

وأما خلق آدم فأخبرنا هبة الله الشيباني قال: أخبرنا الحسن بن علي التميمي، قال: أخبرنا أحمد بن جعفر، قال أخبرنا عبد الله بن أحمد، قال: حدثني أبي، قال حدثني محمد بن جعفر، عن عوف الأعرابي، عن قسامة بن زهير عن أبي موسى، عن النبي ﷺ أنه قال: «إن الله تعالى خلق آدم من قبضة قبضها من جميع الأرض، فجاء بنو آدم على قدر الأرض، جاء منهم الأبيض والأحمر والأسود ويّبن ذلك، والخبيث والطيب والسّهّل والحزن، وبين ذلك».

واختلف العلماء فيمن جاء بالطين الذي خلق منه آدم، على قولين: أحدهما: أنه إبليس. قاله ابن عباس وابن مسعود.

والثاني: ملك الموت قال السّدي عن أشياخه: بعث الله ملك الموت فجاء بالطين فبلّ ثم ترك أربعين سنة حتى أنتن، ثم نُفخ فيه الروح.

(١) البقرة ٢١.

حدثنا عبد الله بن محمد القاضي ويحيى بن علي المدني، قال: أخبرنا أحمد بن يحيى النُّقُور، قال: أخبرنا ابن حَبَّابة، قال: حدثنا البغوي، قال: حدثنا هُدْبَةُ، قال: حدثنا حماد بن سلمة عن ثابت، عن أنس، أن رسول الله ﷺ قال: لما نُفِخ في آدم الروح مارت فطارت فصارت في رأسه فعطس فقال: الحمد لله. فقال له الله تعالى: رحمك الله.

قال العلماء: خُلِقَ آدم يوم الجمعة وكان طوله ستون ذراعاً وعرضه سبعة أذرع.

وفي تسميته آدم قولان: أحدهما لأنه خُلِقَ من أديم الأرض. قاله سعيد بن جبَّير. وأديم الأرض وجهها.

والثاني: أنه مأخوذ من الأذمة وهي سُمرة اللون. قاله الضحاك.

قوله تعالى: ﴿وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا﴾ ^(١) والصحيح أن هذا على إطلاقه، فإن قوماً قالوا: علّمه أسماء الملائكة.

قوله تعالى: ﴿ثُمَّ عَرَضَهُمْ﴾ يعني المسميات فقال للملائكة: ﴿أَنْبِئُونِي﴾ أي أخبروني بأسماء هؤلاء.

وفي قوله: ﴿إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ ثلاثة أقوال: أحدها: إن كنتم صادقين أن بني آدم يفسدون ويسفكون الدماء. قاله السُّدي عن أشياخه.

والثاني: إن كنتم صادقين أي لا أخلق أعلم منكم وأفضل. قاله الحسن.

والثالث: أن المراد إبليس، لأنه قال: إن فضلت عليه لأهلكته، فالتقدير إن كنت صادقاً أنك تفعل ذلك فأنبئني بأسماء هؤلاء.

﴿فَلَمَّا أَنْبَأَهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ﴾ أقرت الملائكة بالعجز ﴿قَالُوا سُبْحَانَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا﴾ فقال: يا آدم أنبئهم بأسمائهم فلما أنبأهم. قال الله تعالى: ﴿أَلَمْ

(١) البقرة ٣٢.

أقل لكم إني أعلم غيبَ السموات والأرض ﴿١﴾ أي ما غاب فيها ﴿وَأَعْلَمَ مَا تَبْدُونَ﴾ من الطاعة ﴿وَمَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ﴾ ﴿١﴾ من أن الله لا يخلق أفضلَ منكم، وقيل: ما كتم إبليسُ من الكبر.

ثم أمر الله تعالى الملائكة بالسجود له، فسجدوا إلا إبليس.

أنبأنا محمد بن عمر الأرموي، قال: أنبأنا أبو الحسين محمد بن علي المهدي، قال: أنبأنا ابن شاهين، قال: أنبأنا عبد الله بن سليمان، قال: حدثنا هارون بن زيد ابن الزرقاء، قال: حدثنا ضمرة بن ربيعة، عن قادم بن مسور، قال: قال عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه: لما أمر الله تعالى الملائكة بالسجود لآدم أول من سجد له إسرافيل فأتاه الله عز وجل أن كتب القرآن في جبهته.

قوله تعالى ﴿اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ﴾ ﴿٢﴾ زَوْجَهُ حَوَاءَ خُلِقَتْ مِنْ ضِلْعِهِ وهو في الجنة. والرَّعْدُ: الرزق الواسع. وفي الشجرة المنهي عنها خمسة أقوال: الأول الحنطة. والثاني الكرم. روى ابن عباس. والثالث: التين، قاله عطاء وقتادة. والرابع: شجرة الكافور، روي عن علي عليه السلام. والخامس: النخلة، قاله أبو مالك.

قوله تعالى: ﴿فَأَزَلَّهَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا﴾ أي حملها على الزلل، وقرأ الأعمش فأزأها أي عن الجنة، قال السدي: دخل الشيطان في فم الحية فكلمها. وقال الحسن: نادها من باب الجنة.

فإن قيل: إن كان آدم تعمد فمعصيته كبيرة والكبائر لا تجوز على الأنبياء وإن كان نسي فالنسيان معفو عنه.

فالجواب: أن العلماء اختلفوا: فقال بعضهم: فعل ذلك عن نسيان، والأنبياء مطالبون بحقيقة التيقظ وتجويد التحفظ أكثر من غيرهم، والنسيان ينشأ من الذهول عن مراعاة الأمر، فكانت المؤاخظة على سبب النسيان.

(١) البقرة ٣٣.

وقال بعضهم: تعمّد [الأكل] لكنه أكل متأوّلاً وفي تأويله قولان: أحدهما أنه تأول الكراهة دون التحريم. والثاني: أنه نُهي عن شجرة فأكل من جنسها ظناً أن المراد عين تلك الشجرة.

قوله تعالى: ﴿ قَلْنَا اهْبِطُوا مِنْهَا جَمِيعًا ﴾^(١) قال ابن عباس: أهبط آدم وحواء وإبليس والحية. أما آدم فأهبط على جبل بالهند يقال له « واسم » وحواء بجدة والحية بنصيبين، وإبليس بالأبلة وكان مكث آدم في الجنة نصف يوم من أيام الآخرة. وهو خمسمائة سنة. وأنزل معه الحجر الأسود وعصا موسى، وكانت من آس الجنة فأمره الله تعالى أن يذبح كبشاً من الضأن مما أنزل الله تعالى إليه، فذبحه ثم جرّ صوفه، فعزلته حواء، فنسج لنفسه جبّة ولحواء درعاً وخاراً، وعلمّ الزراعة، فزرع فنبت في الحال فحصد وأكل، ولم يزل في البكاء.

قال وهب بن منبه: سجد آدم على جبل بالهند مائة عام يبكي حتى جرت دموعه في وادي سرنديب فأنبث الله تعالى في ذلك الوادي من دموعه الدارصيني والقرنفل، وجعل طير ذلك الوادي الطواويس، ثم جاءه جبريل عليه السلام فقال: ارفع رأسك فقد غُفر لك، فرفع رأسه، ثم أتى الكعبة فطاف أسبوعاً، فما أمّه حتى خاض في دموعه.

وأما الكلمات التي تلقّاها آدم فهي قوله تعالى: ﴿ رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا وَإِنْ لَمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴾^(٢).

قال العلماء: التقى آدم وحواء بعرفات فتعارفا، ثم رجعا إلى الهند فاتخذا مغارة يأويان فيها وولادات حواء لآدم أربعين ولداً في عشرين بطناً، وبعرفات مسح الله ظهر آدم فأخرج جميع ذريته فنشرهم بين يديه، فرأى فيهم رجلاً فأعجبه فقال: من هذا؟ قال: داود. قال: كم عمره؟ قال: ستون سنة. قال: فزده من عمري أربعين. فلما انقضى عمر آدم جاءه ملك الموت فقال: أو لم يبق من عمري أربعون سنة؟ قال: أو لم تعطها ابنك داود؟ قال: ما فعلت. فأتم الله

(٢) الأعراف ٢٣.

(١) البقرة ٣٨.

عز وجل لآدم ألف سنة وأكمل لداود مائة.

وهذا الجحْد إنما يُنسَب إلى النسيان.

ومرض آدم أحد عشر يوماً وجاءته الملائكة بالأكفان والحنوط فقبض يوم الجمعة [وصليّ عليه].

وفي حديث أبيّ بن كعب عن النبي ﷺ أن الملائكة لما صلت على آدم كَبَّرت عليه أربعاً.

وقال ابن عباس: مات [آدم] على نود وهو الجبل الذي أهبط عليه فصلي عليه شيث وكَبَّر ثلاثين تكبيرة.

ولما ركب نوح السفينة حمل آدم ودفنه ببيت المقدس، ولم يمِتْ حتى بلغ ولده وولد ولده أربعين ألفاً.

وقال عروة: لما مات آدم وضع عند باب الكعبة وصلى عليه جبريل، ودفنته الملائكة في مسجد الخيف [والله أعلم].

فصل

وقد حذرت قصة آدم من الذنوب وخوّفت عواقبها، وكان بعض السلف يقول: غرقت السفينة ونحن نيام! آدم لم يُسامح بلقمة ولا داود بنظرة، ونحن على ما نحن فيه!

الكلام على البسمة

يا ناظراً يَرْنو بعيني راقداً
مَنيتَ نفسك ظلّة وأبَحْتها
تَصِلُ الذنوبَ إلى الذنوب وترتجبي
ونسيت أن الله أخرج آدمأ
ومُشاهداً للأمر غير مشاهدٍ
طُرِقَ الرجاء وهن غير قواصِدِ
دَرَج الجنان بها وفوز العابدِ
منها إلى الدنيا بذنب واحدٍ
روى الضحاك عن ابن عباس قال: بينما آدم يبكي إذا جاءه جبريل عليهما

السلام، فسلم عليه، فبكى آدم، فبكى جبريل لبكائه وقال: يا آدم ما هذا البكاء؟ فقال: يا جبريل وكيف لا أبكي وقد حولني ربي من السماء إلى الأرض، ومن دار النعمة إلى دار البؤس. فانطلق جبريل بمقاتلته فقال الله تعالى: يا جبريل انطلق إليه وقل له: يا آدم يقول لك ربك: ألم أخلقك بيدي؟ ألم أنفخ فيك من روحي؟ ألم أسجد لك ملائكتي؟ ألم أسكنك جنتي؟ ألم أمرك فعصيتني؟ وعزتي وجلالي لو أن ملء الأرض رجلاً مثلك، ثم عصوني لأنزلتهم منازل العاصين غير أنه يا آدم سبقت رحمتي غضبي، وقد سمعت تضرعك ورحمت بكاءك وأقلت عثرتك.

طوبى لمن قرّن ذنبه بالإعتذار، وتلافاه بلباستغفاره آناء الليل [وأطراف] النهار، والويل كل الويل لمن أحكم عقْد الإصرار، أيها العاصي تفكر في حال أهلك، وتذكر ما جرى له ويكفيك، أبعد بعد القرب من ربه، وأهبط من الجنة لشؤم ذنبه. وأسرّه العدو بخديعته في حربته [ويسعى في هلاكك فاعتبر به] فرحم الله امرأ تأهب لمحاربة عدوه في رواحه وغدوه، فإنه مرآصده في القول والعمل، ويمسّن له بالمكر والتسويق الأمل، ويذكره الهوى وينسيه الأجل، فليلبس أحصن الجنن، فالرامي يطلب الخلل.

اصبر لمرّ حوادث الدهر	فلتحمداً مغبّة الصبر
واجهد لنفسك قبل ميتهها	واذخر ليوم تفاضل الذخر
فكأن أهلك قد دعوك فلم	تسمع وأنت مُحشرج الصدر
وكانهم قد قلبوك على	ظهر السرير وأنت لا تدري
وكانهم قد زودوك بما	يتزود الهلكى من العطر
يأليت شعري كيف أنت إذا	غسلت بالكافور والسدر
أوليت شعري كيف أنت على	نبش الضريح وظلمة القبر
يا ليت شعري ما أقول إذا	وضع الكتاب صبيحة الحشر
ما حجتى فيما أتيت على	علم ومعرفة وما عذري
يا سواتنا مما اكتسبت ويا	أسقي على ما فات من عمري

ألاً أكون عقلت شأني فاسد تقبلت ما استدبرت من أمري

يا مضيع الزمان فيما ينقص الإيمان، يا معرضاً عن الأرباح متعرضاً
للخسران، متى تنتبه من رقادك أيها الوسنان، متى تفيق لنفسك؟ أما حقّ أما
أن؟!

رجوت خلوداً بعد ما مات آدم ونوح ومن بعد النبيين من قرن
وسوّفت بالأعمال حتى تصرّمت سيّوك فلا مال ولا ولد يُعني
فشمّر لدار الخلد فاز مشمّر إليها ونال الأمن في منزل الأمن
لقد شغلتنا أمّ دفر بزخرف شغلنا به عن طاعة الله ذي المن
عجبت لِدُنْيَا لا تسرّ وإنما تشوب على تلك المسرة بالحزن
ونحن عليها عاكفون كأنما بنا به من فعلها حلم الجفن
إلام ترفض قول الناصح وقد أتاك بأمر واضح، أترضى بالشين والقبائح،
كأنّي بك قد نُقلت إلى بطون الصفائح وبقيت محبوساً إلى الحشر تحت تلك
الضرائح، وختم الكتاب على آفاتٍ وقبائح.

إنّا على قلعة من هذه الدار نساق عنها بإمساء وإبكار
نبكي ونندب آثار الذين مضوا وسوف تلحق آثاراً بأثار
طالت عمارتنا الدنيا على غرر ونحن نعلم أنّا غير عمّار
يا من يُحسّ بترحال على عجل ليس المحلة غير الفوز من نار
فاترك مفاخرة الدنيا وزينتها يوم القيامة يوم الفخر والعار
لقد أبانت الدنيا للنواظر عيوبها، وكشفت للبصائر غيوبها، وعدّدت على
المسامع ذنوبها، وما مرّت حتى أمرت مشروبها، فلذتها مثل لَمَعان بَرَق،
ومُصيّتها واسعة الخرق، [سوت] عواقبها بين سلطان الغرب والشرق، وبين
عبد [قن] وحقير ولا فرق، فما نجا منها ذو عدّد ولا سلّم فيها صاحب عدّد،
مزقت والله الكلّ بكف البدّد، ثم ولّت وما ألوت على أحد.

أخبرنا أحمد بن محمد المدادي قال: أنبأنا الحسن بن أحمد بن البناء، قال:
حدثنا الحسين بن بشران، قال: حدثنا ابن صفوان، قال: حدثنا أبو بكر

القرشي، قال: حدثني أبو علي الطائي، قال: حدثني المحاربي، عن ليث، أن عيسى بن مريم عليه السلام رأى الدنيا في صورة عجوز هتاء عليها من كل زينة فقال لها: كم تزوجت؟ فقالت: لا أحصيهم. قال: أو كلهم مات عنك أو كلهم طلقك؟

قالت: بل كلهم قتلت.

فقال عيسى: بؤساً لأزواجك الباقيين كيف لا يعتبرون بأزواجك الماضين!

الإلم تغر بالأمل الطويل وليس إلى الإقامة من سبيل
فدع عنك التعلل بالأماني فما بعد المشيب سوى الرحيل
أتأمن أن تدوم على الليالي وم أفئتن قبلك من خليل
وما زالت بنات الدهر تُفنى بني الأيام جيلاً بعد جيل

لله درّ أقوام تركوا الدنيا فأصابوا، وسمعوا منادي «والله يدعو» فأجابوا، وحضروا مشاهدة التقي فما غابوا، واعتذروا مع التحقيق ثم تابوا، وقصدوا باب مولاهم فما ردّوا ولا خابوا.

أخبرنا عبد الوهاب بن المبارك، قال: حدثنا أبو الحسين بن عبد الجبار، قال: أخبرنا محمد بن علي بن الفتح، قال: أنبأنا محمد بن عبد الله الدقاق، أنبأنا ابن صفوان، حدثنا أبو بكر القرشي، أخبرنا محمد بن الحسين، قال: حدثني عبد الله بن عثمان، قال: حدثني عمار بن عمرو البجلي، قال: سمعت عمر بن ذر يقول: لما رأى العابدون الليل قد هجم عليهم ونظروا إلى أهل الغفلة قد سكنوا إلى فرشهم ورجعوا إلى ملاذهم، قاموا إلى الله سبحانه وتعالى فرحين مستبشرين بما قد وهب الله لهم من السهر وطول التهجد، فاستقبلوا الليل بأبدانهم، وبأشروا ظلّمته بصيفاح وجوههم، فانقضى عنهم الليل، وما انقضت لذتهم من التلاوة، ولا ملّت أبدانهم من طول العبادة، فأصبح الفريقان، وقد ولى الليل بريح وغبن، فاعملوا لأنفسكم في هذا الليل وسواده، فإن المغبون من غبن خير الدنيا والآخرة، كم من قائم لله تعالى في هذا الليل قد اغتبط بقيامه في ظلّمة حُفرته،

وكم من نائم قد ندم على طول نومه عندما يرى من كرامة الله تعالى للعابدين
غداً .

أخبرنا عمر بن ظفر، قال: أنبأنا جعفر بن أحمد، قال: حدثنا عبد العزيز
ابن علي، قال: حدثنا علي بن عبد الله الصوفي، قال: حدثني علي بن العباس،
قال: حدثني علي بن سلمان، قال: رأيت علي بن أبي طالب رضي الله عنه في
النوم فسمعتة يقول:

لولا الذين لهم ورد يقومونا وآخرون لهم سرد يصومونا
لذكيت أرضكم من تحتكم سحرا لأنكم قوم سوء ما تطيعونا
يا من أعماله كلها إذا تؤملت سقط، كم أثبت له عمل فلما عديم الإخلاص
سقط، يا حاضر الذهن في الدنيا، فإذا جاء الدين خلط، يجعل همه في الحساب
فإذا صلى اختلط، يا ساكتاً عن الصواب فإذا تكلم لغط، يا قريب الأجل وهو
يجري من الزلزل على فمط، يا متكاثق الدرّن لم يغسل ولم يمتط، يا من لا يعظه
وهن العظم ولا كلام الشمط أما خطّ الشيب يضحك في مفرق الرأس إذا
وخط، أما المقام للرحيل وعلى هذا شرط، يا من لا يرعوي ولا ينتهي بل على
منهاج الخطيئة فقط، يا مثبتاً قبيح المعاصي لو تاب لأنكشط، أما تميل إلى
الصواب أما ترك الغلط، يا من إذا قيل له: ويحك أقسط قسط، إلى كم جور
وظلم إلى كم جهل وشطط، ويحك بادر هذا الزمان [الخالي] الملتقط، فالصحة
غنيمة والعافية لقط، فكأنك بالموت قد سلّ سيفه عليك واخترط، أين العزيز في
الدنيا، أين الغني المغتبط، خيم بين القبور وضرب فسطاطه في الوسط، وبات في
اللحد محبوساً كالأسير المرتبط، واستلبت ذخائره ففرغ الصندوق والسقط،
وتمزق الجلد المستحسن وتمتط الشعر القلط، فكأنه ما رجله قط وكأنه ما
امتشط، وبعُد [عنه من يحبه إي والله وسخط] ورضي ورآته بما أصابوه وجعلوا
نصبه السخط، وفرّقوا ما كان يجمعه بكف البخل والقتط، ووقع في قفر لا ماء
فيه ولا حنط، وكم حذر من وقوعه وكم أوقف على النقط، وكم حدث أن سعد بن
معاذ في القبر انضغط، ويحك اقبل نصحي ولا تعرّض للسخط، واحذر من

المعاصي فبلقمة زلّ آدم وهبط، ويحك اغتم رخص السّعر فكأنّ قد قحط وبادر
 للسلامة فكأن قبض من بسط، وتفكر كيف كفّ بالعقوبة كفّ من انبسط،
 أترى تقبل [قول] النذير أو لا تصدّق الفرط...

الكلام على قوله تعالى ﴿التَّائِبُونَ الْعَبْدُونَ الْحَمِيدُونَ﴾ (١)

قد أمر الله سبحانه وتعالى بالتوبة فقال: ﴿وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعًا﴾ (٢)
 ووعد القبول فقال: ﴿وهو الذي يقبل التوبة عن عبادة﴾ (٣) وفتح باب الرجاء
 فقال: ﴿لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ﴾ (٤).

أخبرنا هبة الله بن محمد بن المذهب، أنبأنا أبو بكر بن مالك، حدثنا عبد
 الله بن أحمد، حدثني أبي، أخبرنا يحيى بن سعيد، حدثنا شعبة، حدثنا عمرو بن
 مرة، سمعت أبا بردة قال: سمعت الأغرّ يحدث عن ابن عمر أنه سمع رسول
 الله ﷺ يقول: «يا أيها الناس توبوا إلى ربكم، فإني أتوب إليه في اليوم مائة
 مرة».

انفرد بإخراجه مسلم.

والإسناد حدثنا أحمد، حدثنا حسن بن محمد، حدثنا محمد بن مطرف، عن
 زيد بن أسلم، عن عبد الرحمن بن البيهقي قال: اجتمع أربعة من أصحاب النبي
 ﷺ فقال أحدهم: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن الله تبارك وتعالى يقبل
 توبة العبد قبل أن يموت بيوم». فقال الثاني: أنت سمعت هذا من رسول الله
 ﷺ؟ قال: نعم. قال: وأنا سمعته يقول: «إن الله تبارك وتعالى يقبل توبة
 العبد قبل أن يموت بنصف يوم». فقال الثالث: أنت سمعت هذا من رسول الله
 ﷺ؟ قال: نعم. قال: وأنا سمعته يقول: «إن الله تبارك وتعالى يقبل توبة العبد

(١) التوبة ١١٢.

(٢) الشورى (٣)

(٣) الزمر ٥٣.

(٤) النور ٣١.

قبل أن يموت بضحوّة». فقال الرابع: أنت سمعتَ هذا من رسول الله ﷺ؟ قال: نعم. قال: وأنا سمعته يقول: «إن الله تعالى يقبل توبة العبد ما لم يُعْرِغِرْ بنفسه».

وفي الصحيحين من حديث ابن مسعود عن النبي ﷺ أنه قال: لله أفرح بتوبة عبده المؤمن من رجل نزل بأرض دَوِيَّة [مهلكة] معه راحلته، فطلبها حتى إذا أدركه الموت قال: أرجع إلى مكاني الذي أضلَّتها فيه فأموت فيه، فأتى مكانة فغلبته عيناه، فاستيقظ فإذا راحلته عند رأسه عليها طعامه وشرابه وزاده وما يُصلحه، فالله أشد فرحاً بتوبة عبده المؤمن من هذا براحلته وزاده.

وأوحى الله تعالى إلى داود عليه السلام: يا داود لم يعلم المدبرون عني كيف انتظاري لهم ورفقي بهم وشوقي إلى ترك معاصيهم لمتوا شوقاً إليّ وتقطعت أوصالهم من محبتي، يا داود هذه إرادتي في المدبرين عني، فكيف إرادتي بالمقبلين عليّ!

إخواني: الذنوبُ تغطِّي على القلوب، فإذا أظلمت مرآة القلب لم يَبِنْ فيها وجه الهدى، ومن علم ضرر الذنب استشعر الندم.

قال أبو علي الروذباري رحمه الله: «من الاعتار أن تُسيء، فيحسن إليك فتترك التوبة توهاً أنك تُسامح في الهفوات»!

فوا عجباً لمن يأمن ومم قد أخذ آمن من مأمّن، ومن تفكر في الذنوب علم أن لذات الأوزار زالت، والمعاصي بالعاصي إلى النار آلت، ورب سخط قارن ذنباً فأوجب بُعداً وأطال عتياً، وربما بُغت العاصي بأجله، ولم يتلغ بعض أمّله، ومم خير فاته بأفاته، ومم بليّة في طي جنائياته.

قال لقمان لابنه: يا بني لا تؤخّر التوبة، فإن الموت يأتي بغتةً

قأد الغفلة الأمل والهوى رائد الزلّ
قتل الجهل أهله ونجا كل من عقل

فَإِغْتَمَ دَوْلَةَ الشَّيْبَانِيَّةِ وَاسْتَأْذَنَ الْعَمَلَ
 أَيُّهَا الْمُبْتَنِّي الْحَصَوْنَ وَوَقَدْ شَابَ وَكَتَهَلَ
 أَخْبَرَ الشَّيْبَانَ عَنْكَ أَنْكَ فِي آخِرِ الْأَجَلِ
 فَعَلَامَ الْوَقْفِ فِي عَرِصَةِ الْعَجْزِ وَالْكَسَلِ
 مَنْزَلٌ لَمْ يَسْزَلْ يَضِيقُ وَيَنْبُوءُ بِمَنْ نَسَزَلْ
 أَنْتَ فِي مَنْزَلٍ إِذَا حَلَّه نَسَزَلْ رَحَلْ

طوبى لمن غسل درن الذنوب بتوبة، ورجع عن خطاياها قبل قوت الأوبة،
 وبادر الممكن قبل أن لا يمكن، من رأيت من آفات دنياه سلّم، ومن شاهدته
 صحيحاً وما سقم، وأي حياة بالموت لم تنختم، وأي عمرٍ بالساعات لم يتصرم،
 إن الدنيا لغرور حائل، وسرور إلى الشرور آيل، تُردي مُستزيدها وتؤذي
 مستفيدها، بينما طالبها يضحك أبكته ويفرح بسلامته أهلكته، فندم على زلله إذ
 قدم على عمله، وبقي رهين خوفه ووجله، وودّ أن لو زيد ساعة في أجله، فما
 هو إلا أسيرٌ في حُفرتِه، وخسيرٌ في سَفرتِه، وهذه وإن كانت صفةً من عنّا
 نأى، فكذا نكون [لو أن العاقل ارتأى]:

سَيِّلُكَ فِي الدُّنْيَا سَيِّلُ مَسَافِرٍ وَلَا بَدَأَ مِنْ زَادٍ لِكُلِّ مَسَافِرٍ
 وَلَا بَدَأَ لِلْإِنْسَانِ مِنْ حَمَلِ عُدَّةٍ وَلَا سَيِّئًا إِنْ خَافَ سَطْوَةَ قَاهِرٍ
 وَطُرُقَكَ طُرُقَ لَيْسَ تُسَلِّكَ دَائِمًا وَفِيهَا عِقَابٌ بَعْدَ صَعْبِ الْقَنَاظِرِ

أخبرنا المبارك بن علي، أنبأنا علي بن محمد بن العلاف، أنبأنا علي بن أحمد
 الحمامي، حدثنا جعفر بن محمد الخوّاص، حدثني إبراهيم بن نصر، قال: حدثني
 إبراهيم بن بشار، قال: كنت يوماً ماراً مع إبراهيم بن أدهم في صحراء، إذ
 أتينا على قبرٍ مسنّم، فترحم عليه وبكى. فقلت: قبر من هذا؟ فقال: هذا قبر
 حيد بن جابر أمير هذه المدن، كان غريقاً في بحار هذه الدنيا، ثم أخرجه الله
 منها، لقد بلغني أنه سرّ يوم بشيء من ملاهي دنياه ثم قام من مجلسه [ونام] مع
 من يخصه من أهله، فرأى رجلاً واقفاً على رأسه بيده كتاب، فناوله إياه

[فقرأه] فإذا فيه : تُؤثرون فانياً على باقى ، ولا تغترّ بملكك وسلطانك وعبيدك وولّدك ، فإن الذي أنت فيه جسيم لولا أنه عديم ، وهو ملك لولا أن بعده هلك ، وهو فرح وسرور لولا أنه لهو وغرور ، وهو يوم لو كان يوثق فيه بعد ، فسارع إلى أمر الله فإنه يقول : ﴿ وَسَارِعُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ ﴾ (١) .

فانتبه فزعا [مرعوباً] وقال : هذا تنبيه من الله عز وجل وموعظة . فخرج من ملكه لا يعلم به أحد وقصد هذا الجبل فتعبّد فيه ، فلما بلغني أمره قصدته فسألته فحدثني ببدء أمره ، وحدثته ببدء أمري ، فما زلت أقصده حتى مات ، وهذا قبره رحمه الله تعالى .

أخبرنا أبو بكر الصّوفي ، أنبأنا أبو سعيد بن أبي صادق ، أنبأنا ابن باكوية ، حدثنا عمر بن محمد الأردبيليّ ، حدثنا علي بن محمد القرشي ، حدثنا علي بن الموفق ، قال : حدثنا منصور بن عمّار قال : خرجت ليلة وظننت أني قد أصبحت ، وإذا عليّ ليل ، فقعدت عند باب صغير ، وإذا بصوت شاب يبكي ، ويقول : وعزتك وجلالك ما أردت بمعصيتك مخالفتك ، وقد عصيتك حين عصيتك وما أنا بنكالك جاهل ، ولا لعقوبتك متعرّض ولا بنظرك مستخفّ ، ولكن سوّلت لي نفسي وغلّبت عليّ شقوتي ، وغرّني سترك المرخى عليّ ، والآن فمن عذابك من ينقذني ، وبجبل من أتصل إن قطعت حبلك عني ، واسوأته من تصرّم أيامي في معصية ربي ، يا ويلى ! كم أتوب وكم أعود ، قدحان [لي] أن استحي من ربي .

قال منصور : فلما سمعت كلامه قلت : أعوذ بالله من الشيطان الرجيم . بسم الله الرحمن الرحيم : [يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقْوُدْهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ ﴾ (٢) الآية . فسمعت صوتاً واضطراباً شديداً ومضيت لحاجتي ، فلما أصبحت رجعت ، وإذا جنازة موضوعة على ذلك الباب ، وعجوز تذهب وتجيء فقلت لها : من هذا الميت منك ؟ فقالت : إليك عني لا تجدد عليّ أحزاني . قلت

(٢) التحريم ٦ .

(١) آل عمران ١٣٣ .

إني رجل غريب، قالت: هذا ولدي، مرّ بنا البارحة رجل لا جزاء الله خيراً قرأ آية فيها ذكر النار، فلم يزل ابني يبكي ويضطرب حتى مات.

قال منصور: هكذا والله صفة الخائفين يا ابن عمّار.

يا صاحب الخطايا أين الدموع الجارية، يا أسير المعاصي إبكِ على الذنوب الماضية، يا مبارزاً بالقبائح أتصبرُ على الهاوية؟! يا ناسياً ذنوبه والصُّحف للمُنسى حاوية، أسفاً لك إذا جاءك الموت وما أنبت، واحسرةً لك إذا دُعيت إلى التوبة فما أجبت، كيف تصنع إذا نودِي بالرحيل وما تأهّبت، ألسنت الذي بارزت بالكبائر وما راقبت:

قد مضى في اللهو عمري	وتناهى فيه أمري
شمّر الأكياس وأنا	واقفٌ قد شيبَ أمري
بان ربح الناسِ دوني	ولحيني بان خسري
ليتني أقبل وعظي	ليتني أسمع زجري
كلّ يومٍ أنا رهنٌ	بين أثمّامي ووزري
ليت شعري هل أرى لي	همّةً في فكّ أسري
أو أرى في ثوب صدقٍ	قبل أن أنزل قبري
ويح قلبي من تناسٍ	هـ مقامي يوم حشري
واشتغالي عن خطايا	أثقلت والله ظهري

كان لبعض العصاة أمّ تعظه ولا ينتهي؛ فمرّ يوماً بالمقابر فرأى عظماً نحراً، فمسّه فانفتت في يده [فأنفت نفسه] فقال لنفسه: أنا غداً هكذا! فعزم على التوبة فرفع رأسه إلى السماء وقال: يا إلهي اقبلني وارحمني. ثم رجع إلى أمه حزيناً فقال: يا أماه ما يصنع بالآبق إذا أخذه سيده؟ فقالت. يغلّ قدميه ويديه ويخشن ملبسه ومطعمه. قال: يا أماه أريد جبة من صوف وأقراصاً من شعر، وافعلي لي ما يفعل بالعبد الآبق من مولاه، لعل مولاي يرى ذلي فيرحمني. ففعلت به ما طلب.

فكان إذا جنّ عليه الليل أخذ في البكاء والعيول ، فقالت له أمه ليلةً : يا بني إرفق بنفسك . فقال : يا أماه إن لي موقفاً طويلاً بين يدي ربّ جليل ، فلا أدري أيؤمر بي إلى ظلّ ظليل ، أو إلى شرّ مقيّل ، إني أخاف عناءً لا راحة بعده [أبدأ] ، وتوبيخاً لا عفو معه . قالت . فاسترح قليلاً . فقال : الراحة أطلبُ يا أماه ، كأنك بالخلائقِ غداً يُساقون إلى الجنة ، وأنا أساق إلى النار !

فمرت به ليلةً في تهجده هذه الآية : ﴿ فَوَرَبِّكَ لَنَسْتَلَنَّهٗمْ أَجْمَعِينَ ، عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ (١) فتفكّر فيها وبكى واضطرب وغشي عليه ، فجعلت أمه تناديه ولا يجيبها فقالت له : قرّة عيني أين الملتقى ؟ فقال بصوتٍ ضعيف : إن لم تجديني في عرصة القيامة فسلي مالكا عنه ! . ثم شهق شهقة فمات . رحمه الله . فخرجت أمه تنادي : أيها الناس هلموا إلى الصلاة على قتيل النار ! فلم يرَ أكثرُ جمعاً ، ولا أغزر دمعاً من ذلك اليوم .

هذه والله علامة المحبين وأمارات الصادقين وصفات المحزونين .

مآثم المذنبين ما تنقضي	آخر الدهر أو يحلّوا اللّهودا
وحقيق أن ينوحوا ويبكوا	قد عصوا ماجداً رؤوفاً ودوداً
كل ثكلى أحزانها لنفاد	ولنا الحزن قد نراه جديداً
كيف تفتى أحزان من عاهد	الله مِراراً وخان منه العهودا
ويح نفسي ما أقول إذا ما	أحضر الله رُسله لي شهودا
ثم قال اقرأ ماذا عملت وجاوز	ت بما كان منك فيه الحدودا
ثم تخفي لما استترت من الخلد	ق وبارزتي وكنت شهيدا

أيا كثير الشقاق ، يا قليل الوفاق ، يا مرير المذاق ، [يا قبيح الأخلاق] يا عظيم التواني قد سار الرفاق ، يا شديد التادي قد صعب اللحاق ، إخلاصك معدّم وما للنفاق نفاق ، معاصيك في إدراك والعمر في إمحاق ، وساعي الأجل مُجدّ كأنه في سباق ، لا الوعظُ يزجرك ، ولا الموت يندرك ، ما تطّاق .

(١) الحجر ٩٢ ، ٩٣ .

سجع على قوله تعالى

﴿التَّائِبُونَ الْعَابِدُونَ﴾ (١)

سبحان من وَفَّق [للتوبة] أقواماً، ثَبَّت لهم على صراطها أقداماً، كَفَّرَ عنهم الأَكْفَ عن المحارم احتراماً، وأنعبوا في استدراك الفارط عِظَماً، فكفَّر عنهم ذُنوباً وآثاماً، ونشر لهم [بالثناء] على ما عملوا أعلاماً، فهم على رياض المدايح بترك القبائح يتقلَّبون، التائبون العابدون.

كشف لهم سُجُف الدنيا فرأوا عيوبها، [وألاح لهم الأخرى فتلمَّحوا غيوبها، وبأدروا شمسَ الحياة يخافون غيوبها] وأسبلوا من دموع الأَجْفان على تلك الأشجان غُروبها، واشتغلوا بالطاعات فحَصَلُوا مَرغوبها، وحثَّهم الإِيمانُ على الخوفِ فما يَأْمنون، التائبون العابدون.

ندِموا على الذنوب فندبوا، وسافروا إلى المطلوب فاغتربوا، وسَقَّوا غرس الخوفِ دَمَعَ الأسفِ وشربوا، فإذا أَقْلَقَهُم الحذرُ طاشوا وهربوا، وإذا هبَّ عليهم نسيم الرجاء عاشوا وطربوا، فتأمَّل أرباحهم وتلمَّح ما كَسبوا، واعلم أن نَيْلَ النَّصِيبِ بالنَّصَبِ يكون، التائبون العابدون.

نظروا إلى الدنيا بعين الاعتبار، فعلموا أنها لا تصلح للقرار، وتأمَّلوا أساسها، فإذا هو على شَفَا جُرف هار، فنَغَصَّوا بالصيام لذة الهوى بالنهار، وبالأسحار هم يستغفرون، التائبون العابدون.

هجروا المنازل الأنيقة، وفصموا عُرَى الهوى الوثيقة، وباعوا الفائِي بالباقي، وكتبوا وثيقة، وحملوا نجائب الصبر فوق ما هي له مُطِيقَة، وطلبوا الآخرة والله على الحقيقة، هكذا يكون التائبون العابدون.

أبدانهم قَلَّقِي من الجوع والضرر، وأجفانهم قد حالفت في الليل السهر، ودموعهم تجري كما يجري دائمة المطر، والقومُ قد تاهَبوا فهم على أقدام السفر،

(١) التوبة ١١٢.

عبروا عليكم ومَرُّوا لديكم وما عندكم خبر، وترتَّمتْ حُدَاتِهِم لو أنكم تسمعون،
التائبون العابدون.

يا ربَّ سِرِّ بِنَا فِي سَرِّ النَّجَابَةِ، ووقفنا للتوبة والإنابة، وافتح لأدعيتنا
أبواب الإجابة، يا من إذا سأله المضطرُّ أجابه، يا من يقول للشيء كن فيكون،
التائبون العابدون.

المجلس الثاني في قصة قابيل وهابيل

الحمد لله الذي نصَّب من كلِّ كائن على وحدانيته بُرْهاناً، وتشرَّف على خَلْقِهِ كما شاء عزّاً وسلطاناً [وتصرَّف في خليقته كما شاء عزّاً وسلطاناً] واختار المتقين فوهب لهم [بِنِعْمَتِهِ] أماناً وإيماناً، عمَّ المذنبين بِرَحْمَتِهِ عفواً وغفراناً، ولم يقطع أرزاقَ أهلِ المعصية جُوداً وامتناناً، وأعاد شؤمَ الحسد على الحاسد لأنه ارتكب عدواناً، ﴿وَأْتَلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ أَبِي آدَمَ بِالْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا﴾ (١).

رَوَّحَ أهلَ الإخلاص بنسيمِ قُرْبِهِ، وحثَّرَ يومَ القِصاصِ بِجِسْمِ كَرْبِهِ، وحفظ السالك نحو رضاه في سَرْبِهِ، وأكرم المؤمنَ به إذ كتب الإيمانَ في قلبه، حكَّم في بَرِيَّتِهِ فأمر ونهى، وأقام بمعونته ما ضعف ووهى، وأيقظ بموعظته من غفل وسها، ودعا المذنب إلى توبةٍ لغفرانِ ذنبه.

أرسل شَمالاً ودُبُوراً، فأنشَرَ زرعاً لم يكن منشوراً، وجعل الشمس سِراجاً والقمر نوراً، بين شَرْقِهِ وغَرْبِهِ.

رَدَّ عيونَ العقول عن صفته وأعشأها، وأنذر بيوم محاسبته من يَحْشأها، وخلق لآدم حواءَ ﴿فَلَمَّا تَغَشَّاهَا حَمَلَتْ حَمَلاً خَفِيفاً فَمَرَّتَ بِهِ﴾ (٢).

ليس بِجِسْمٍ فيشبه الأجسام، ولا يمتجوف فيحتاج إلى الشراب والطعام، ولا تُحَدِّثُ له صفة فيتطرق عليها انعدام، نَصِيفُهُ بِالنَّقْلِ من غير كَيْفٍ والسلام، ولعن الله الجهميَّ والمشبه.

(٢) الأعراف ١٨٩.

(١) المائدة ٢٧.

أحدُهُ حمدَ عبدٍ لربه معتذر إليه من ذنبه، وأقرّ بتوحيده إقراراً مُخلص من قلبه، وأصلي على رسوله محمد وآله وصحبه، أبي بكر الصديق ضجيعه في تربته، وعمر الذي لا يسير الشيطان في سرّبه؛ وعثمان الشهيد لا في صف حرّبه، وعلى عليّ معينه ومغيثه في كَرّبه، وعمّه العباس المقدّم على أهله وحزبه.

[اللهم أصلح كلاً منا بإصلاح قلبه وأنعم عليه بغفران ذنبه، وانفعي وكلّ حاضر بجسده ولبّه].

قال الله تعالى: ﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ابْنَيْ آدَمَ بِالْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا﴾ (١). ولدت حواء لآدم أربعين ولداً، وكانت لا تلد إلا توأمًا ذكراً وأنثى، وأول الأولاد قابيل وتوأمته قليباً، وجاء هابيل وتوأمته لبودا. وقابيل وهابيل هما المراد بقوله تعالى: ﴿ابْنَيْ آدَمَ﴾. وقد حكى ابن إسحاق أنها حملت بقابيل في الجنة. وفيه بُعد.

و «النَّبَأُ»: الخبر. ومعنى قوله «بالحق»: أي كما كان. والقُرْبَانُ، فُعْلَانٌ من القُرْبِ، قُرْبَاهُ لسبب.

روي السُّدي عن أشياخه أن آدم عليه السلام كان يزوّج غلامَ هذا البطن جارياً البطن الآخر، وجارية هذا البطن غلامَ ذلك البطن. وكانت أخت قابيل أحسنَ من أخت هابيل، فطلب هابيل أن ينكح أخت قابيل، فأبى عليه، فقرباً قُرْبَانًا لِيَتَقَبَّلَ من أحقهما بالمستحسنة.

فقرب هابيلُ جَذَعَةَ سمينة، وقرب قابيل حُزْمَةَ سُنْبُلٍ، فنزلت النار فأكلت قربان هابيل، وتركت قُرْبَان قابيل، فغضب وقال: لأقتلنك.

وقوله: ﴿لَئِن بَسَطْتَ﴾ (٢) اللام لام القسم، تقديره: أقسم لئن بسطت. وجوابه: ﴿مَا أَنَا بِبَاسِطٍ﴾ والمعنى: ما أنتصيرُ لنفسي ﴿إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ﴾ أن

(٢) المائة ٢٨.

(١) المائة ٢٧.

أبسط يدي للقتل .

﴿إِنِّي أُرِيدُ أَنْ تَبُوءَ بِإِثْمِي وَإِثْمِكَ﴾ أي ترجع بإثم قتلي وإثمك الذي منع من قبول قُرْبَانِكَ . والمعنى : إنما أريد هذا إن قتلتني .

﴿فَطَوَّعَتْ لَهُ نَفْسُهُ﴾ أي زَيَّنَتْ له قَتْلَهُ . وفي كيفية قتله ثلاثة أقوال :

أحدها : أنه رماه بالحجارة حتى قتله . رواه أبو صالح عن ابن عباس .

والثاني : جاءه وهو نائم فضرب رأسه بصخره ، رواه مجاهد عن ابن عباس .

والثالث : رضخ رأسه بين حجرين . قاله ابن جُرَيْج .

وفي موضع صَرَعَهُ ثلاثة أقوال : أحدها جبل تَوْرٍ قاله ابن عباس .

والثاني : عند عقبة حِرَاءٍ . حكاه ابن جرير .

والثالث : بالبصرة . قاله جعفر الصادق .

قوله تعالى : ﴿فَأَصْحَبَ مِنَ الْخُسَيْرِينَ﴾ ^(١) أي صار منهم ، وخسرانه بمعصيته ربّه ويأسخاط والديه ، ومصيره إلى النار .

وروي مجاهد عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه لما قتله حمله على عاتقه مائة سنة فإذا مشى تخط رجلاه الأرض ، وإذا قعد وضعه إلى جنبه ، إلى أن رأى غرابين اقتتلا فقتل أحدهما الآخر ، ثم بحث الأرض فواراه ، فقال حينئذ : ﴿يُؤَيِّلَتِي أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَذَا الْغُرَابِ﴾ ^(٢) فأصبح من النادمين على حمله لا على قتله !

وكان عمر هابيل حينئذ عشرين سنة وعُمُرُ قابيل خَسِئاً وعشرين سنة . فلما قتله هرب إلى اليمن .

وحزن آدمُ على هابيل فمكث مائة سنة لا يضحك ! وقال :

تَغَيَّرَتِ الْبِلَادُ وَمِنْ عَلَيْهَا فوجه الأرض مغبرٌ قبيحٌ

(١) المائدة ٣٠ .

(٢) المائدة ٣١ .

تَغَيَّرَ كُلُّ ذِي طَعْمٍ وَلَوْنٍ وَقَسَلَّ بِشَاشَةِ الْوَجْهِ الْمَلِيحِ

وأوصى آدم بنى هابيل ألا يناكحوا بنى قابيل، وشاعت المعاصي في أولاد قابيل، وهم الذين غرقوا في زمن نوح، وانقرض جميع نسل بني آدم سوى نسل شيث، وكان شيث وصي آدم، وأنزل الله عليه خمسين صحيفة. وأقام بمكة يحج ويعتمر، وبنى الكعبة بالحجارة والطين، فلما احتضر أوصى إلى ابنه أنوش، وأنوش أول من غرس النخل، وعاش تسعمائة سنة وخمس سنين، وولد له قينان، فأوصى إليه أنوش، وولد لقينان مهلايل فأوصى إليه، وولد لمهلايل يرد فأوصى إليه، وولد ليرد إدريس عليه السلام.

وفي زمن يرد عُبِدَتِ الْأَصْنَامُ.

وسبب ذلك ما أنبأنا به عبد الوهاب بن المبارك، أنبأنا الحسين بن عبد الجبار أنبأنا أبو جعفر بن المسلمة، أنبأنا محمد بن عمران المرزباني، أنبأنا أبو بكر أحمد بن محمد الجوهري، حدثنا الحسن بن خليل القتيبي، حدثنا أبو الحسن علي بن الصباح، أنبأنا هشام بن محمد بن السائب، قال أخبرني أبي، عن أبي صالح، عن ابن عباس رضي الله عنهما، قال: كان بنو شيث يأتون جسد آدم وهو في مغارة فيعظمونه، فقال رجل من بني قابيل: يا بني قابيل إن لبني شيث دهرًا يدورون حوله ويعظمونه وليس لكم شيء، فنحت لهم صنمًا.

وأخبرني أبي قال: كان ودّ وسوّاع ويغوث ويَعُوق ونسر قومًا صالحين، فماتوا في شهر، فجزع عليهم ذوو أقاربهم، فقال رجل من بني قابيل: هل لكم يا قوم أن أعمل لكم خمسة أصنام على صورهم؟ [قالوا: نعم]. فنحت لهم خمسة أصنام على صورهم [فكان الرجل يأتي أخاه وعمّه وابن عمه، فيعظمه ويسعى حوله حتى ذهب ذلك القرن، وجاء قرن آخر فعظموهم أشدّ من تعظيم القرن الأول، ثم جاء القرن الثالث، فقالوا: ما عظم أولونا هؤلاء إلا وهم يرجون شفاعتهم، فعبدوهم وعظموا أمرهم، واشتدّ كفرهم، فبعث الله عزّ وجل إليهم

إدريس، فدعاهم، فلم يزل أمرهم يشتد حتى أرسل الله تعالى نوحاً وجاء الطوفان.

فأما قابيل فإنه عذَّب بعد قتله أخاه.

فروى ابن جرير عن مجاهد قال: علقت إحدى رجلي القاتل بساقها إلى فخذها من يومئذ إلى يوم القيامة، ووجهه في الشمس حيثما دارت دارت عليه، عليه في الصيف حصيرة من نار، وفي الشتاء حصيرة من ثلج.

قال مجاهد: وقال عبد الله بن عمرو: إنا لنحدث أن ابن آدم القاتل يقاسم أهل النار العذابَ قسمةً صحيحةً، عليه شَطْرَ عذابهم.

ويشهد لهذا القول ما أخبرنا به هبة الله بن محمد بسنده عن مسروق، عن عبد الله قال: قال رسول الله ﷺ: « لا تُقتل نفسٌ ظملاً إلا كان على ابن آدم الأول كِفْلٌ من دمه، لأنه كان أول من سنَّ القتل ». أخرجه البخاري ومسلم في الصحيحين.

وروى أهل السير أن إبليس أتى قابيلَ فقال له: إنما تُقبَّلُ قربان أخيك لأنه كان يعبد النار. فبنى بيت نار وعبدها، واتخذ أولاده المزامير والطبول والمعازف.

وقوله تعالى: ﴿ مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ ﴾ قال أبو الفتح النحوي: يقال: فعلت ذلك من أجلك بفتح الهمزة، ومن إجلك بكسرها، ومن إجلالك، ومن جلكك ومن جرّك.

ومعنى كتبتنا: فرضنا. ﴿ أَنَّهُ مَنْ قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ ﴾ أي قتلها ظملاً ولم تقتل نفساً، ﴿ أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ ﴾ أي وبغير فسادٍ تستحق به القتل، ﴿ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا ﴾ لأن الناس كلهم من شخص، فيتصور من المقتول أن يأتي بمثل ما أتى به آدم. ﴿ وَمَنْ أَحْيَاهَا ﴾ (١) أي استنقذها من هلكة.

(١) المائة ٣٢.

وقد حذرت هذه القصة من الحسد، فإنه أحوج قابيل إلى القتل، كما أخرج إبليس إلى الكفر.

والقتل أمرٌ عظيم، ففي الصحيحين من حديث ابن مسعود رضي الله عنه عن النبي ﷺ: «أول ما يُقضى بين الناس يوم القيامة في الدماء».

أخبرنا أبو الحصين، أنبأنا ابن المذهب، حدثني أحمد بن جعفر، حدثنا عبد الله بن أحمد، حدثني أبي، حدثنا أبو النضر، قال: أنبأنا إسحاق بن مسعود، عن أبيه، عن ابن عمر عن النبي ﷺ قال: «لن يزال المرء في فسحة من دينه ما لم يصب دماً حراماً». انفرد بإخراجه البخاري.

وبالإسناد قال أحمد: حدثنا جعفر، حدثنا شعبة، قال: سمعت يحيى المحبر يحدث عن سالم بن أبي الجعد، عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «تكلته أمه رجلٌ قتل رجلاً متعمداً يجيء يوم القيامة أخذاً قاتله يمينه أو شماله، أوداجه تشخب دماً في قِبل العرش يقول: يا رب سلّ عبدك فيم قتلني!»!

أخبرنا علي بن عبد الله أنبأنا ابن النُّفُور، أنبأنا أبو حفص الكتاني، حدثنا البغوي، حدثنا محمد بن عبّاد المكي، حدثنا حاتم - يعني ابن إسماعيل - عن بشير يعني ابن مهاجر، عن ابن بُريدة، عن أبيه، أن رسول الله ﷺ قال: «لقتل المؤمن أعظم عند الله تعالى من زوال الدنيا».

وفي حديث آخر: «من أعان على قتل امرئ مسلم، ولو بشطر كلمة لقي الله عز وجل مكتوباً بين عينيه: آيس من رحمة الله».

فإن قيل ما معنى شطر كلمة؟ فالجواب: أن يقول «أق» كما قال عليه السلام: «كفى بالسيف شأ» يعني شاهداً.

فالحذر [الحذر] من الذنوب في الجملة، وأشدّها ما يتعلق بالخلق، وأعظمها القتل، والخطايا كلها قبيحة، والدين النصيحة.

الكلام على البسمة

أستغفر المولى فقد ذهبَتْ
 لم يَحْمَهُمَ مما أَلَمَّ بِهِم
 لم يَنْفَعِ الْمُثِيرِينَ ما جَمَعُوا
 فَلْيَفْرَحِ الصُّلَحَاءُ إِذْ صَلَحُوا
 مَيَزَتْ جَسُومُهُمْ حَيَاتَهُم
 إِنَّ الْمُلُوكَ إِذَا هُمْ احْتَضَرُوا
 [فإِذَا أسَائِلُ عَنِ لِذَاتِي فَـ] الأَخْبَارُ تُجْمَعُ أَنَّهُمْ هَلَكُوا
 وَعَلِمْتُ أَيْنَ مَضَى الْخَلِيطُ فَمَا
 وَعَجِبْتُ مَنْ نَفْسِي إِذَا ضَحِكْتُ
 رَحَلَ الْأَعْزَةَ عَنِ دِيَارِهِمْ
 وَالْمَالُ بَيْنَ النَّاسِ مُقْتَسَمٌ
 وَتَغَرَّنَا الدُّنْيَا الْمَسِيئَةَ وَالْآ
 وَنَفُوسُنَا كَحَمَائِمٍ وَقَعَتْ
 مَتَبَصَّرَاتٍ فِي جَبَائِلِهَا
 لِلَّهِ سَبَّحَتْ الْجُواهرُ وَالْأُ
 وَتَقَدَّسَ الظُّلُمَاتُ خَالِقِهَا
 خَشَعَتْ لِبارِئِهَا البَّسِيطَةَ وَالْأَجْبَالَ وَالْقِيَعَانَ وَالنَّبَّكَ
 وَتَحَدَّثَتْ عَنْهُ الطَّوَالِعُ وَالْأَبْرَاجُ وَالسَّكَّانُ وَالْحَرَكَ
 وَالْحَوْتُ مُجَدِّدٌ فِي النُّجُومِ كَمَا
 [وَالْبَيْضُ وَالصُّفْرُ الْفَوَاقِعُ وَالْمَحْ
 وَالطَّيْرُ وَالوَحْشُ الرُّوَاطِعُ وَالْجِنِّيُّ وَالْإِنْسِيَّ وَالْمَلَكُ
 فِي الزَّاخِرَاتِ يَجِدُ السَّمَكُ
 مَرٌّ وَالْمَسْوَدُّ وَالْحَلَكُ

أين آباؤك ميروا وسلَكوا، أين أقرانك أما رحلوا وانصرفوا؟ أين أرباب
 القصور أما أقاموا في القبور وعكفوا، أين الأحباب هجرهم المحبون وصدَّقوا،

فانتبه لنفسك فالمتيقظون قد عرفوا، فستحملك الأهل إلى القبور وربما مروا
فانحرفوا.

[نادت بوشك رحيلك الأيام أفأنت تسمع أما بك استصمام
تأتي الخطوب وأنت منتبه لها فإذا مضت فكأنها أحلام]

يا غافلاً ما يفيق، يا حاملاً ما لا يطيق، ألسـت الذي بارزت بالذنوب
مولاك، ألسـت الذي عصيته وهو يرعاك، أسفاً لك ما الذي دهاك حتى بعث
هداك بهواك، يا ليت عينك أبصرت ذل الخطايا قد علاك.

أتضحك أيها العاصي ومثلك بالبكا أحرى
وبالحزن الطويل على الذي قدّمته أولى
نسيت قبيح ما أسلفت والرحمن لا ينسى
فبادر أيها المسكين من قبل حلول ما تخشى
بإقلاع وإخلاص لعل الله أن يرضى

كان محمد بن السمّك يقول: يا بن آدم أنت في حبسٍ منذ كنت، أنت
محبوس في الصُّلب، ثم في البطن، ثم في القمّاط، ثم في المكتب، ثم تصير محبوساً في
الكدّ على العيال، فاطلب لنفسك الراحة بعد الموت، لا تكون في حبسٍ أيضاً!

وكان أبو حازم يقول: اضمنوا لي اثنين، أضمن لكم الجنة: عملاً بما
تكرهون إذا أحبه الله، وتركاً لما تحبون إذا كرهه الله.

وقال: انظر كلّ عملٍ كرهت الموت لأجله فاتركه، ولا يضرك متى ميت.

يا رضيع الهوى وقد آن فطامه، يا طالب الدنيا وقد حان حِمّامه، ألدنيا
خلقت أم بجمعها أمرت؟!

أخي إنما الدنيا محلّة نَعَصَةٍ ودار غرور آذنت بفراق
تزوّد أخي من قبل أن تسكن الثرى وتلتف ساقٍ للمهات بساقٍ

يا من لا يتعظ بأبيه ولا بابنه، يا مؤثراً للفاني على جوده ذهنه، يا متعوضاً

عن فرح ساعة بطول حزنه، يا مُسْخَطاً للخالق لأجل المخلوق ضللاً لأفنه،
 أمالكِ عبرةً فيمن ضُضِعَ مَشِيدَ رُكْنِهِ، أما رأيتِ راحلاً عن الدنيا يوم طَعْنَهُ،
 أما تصرقتُ في ماله أكفَّ غيره من غيرِ إذنه، أما انصرف الأحبابُ عن قبره
 حين دَفَنَهُ، أما خلا بمسكنه في ضيقِ سجنه، تنبه والله من وَسَنِهِ لقرعِ سِنِّهِ،
 ولقي في وطنه ما لم يخطر على ظنه، يا ذلةً مقتولٍ هواه يا خسران عبدِ بطنه.

يا ليت شعري ما ادخر	ت ليوم بُؤْسِكِ وافتقاركِ
فلتنزلنَّ بمنزلٍ	تحتاج فيه إلى ادخاركِ
أفنيّتِ عمركِ باغتراركِ	ومَنّاكِ فيه بانتظاركِ
ونسيتَ ما لا بد منه	وكان أولى بآذكراكِ
ولو اعتبرتِ بمن مضى	لكفّاكِ علماً باعتباركِ
لك ساعةٌ تأتيكِ مِنْ	ساعاتِ ليلكِ أو نهاركِ
فتصيرُ محضراً بها	فتَهَيَّ من قبلِ احتضاركِ
من قبل أن تُقلِّي وتُقَدِّ	صَي ثم تُخْرِجَ من دياركِ
من قبل أن تتشاغل الز	وار عنكِ وعن مَزاركِ

أخبرنا عمر بن ظفر، أخبرنا جعفر بن أحمد، حدثنا عبد العزيز بن علي،
 أنبأنا ابن جَهْضَم، حدثنا الخُلدي، حدثنا ابن مسروق، حدثنا محمد بن الحسين،
 قال: حدثني ابن عبد الوهاب، قال: قال رجل لداود الطائي: أوصني. فدمعت
 عيناه، وقال: يا أخي إنما الليل والنهار مراحِل ينزلها الناس مرحلةً بعد مرحلة،
 حتى ينتهي ذلك إلى آخر سفرهم، فإن استطعت أن تقدّم كل يوم زاداً لما بين
 يديك فافعل، فإن انقطاع السفر عن قريب والأمر أعجل من ذلك، فتزود
 لنفسك واقض ما أنت قاض، فكأنك بالأمر قد بغتكَ، إني لأقول لك هذا،
 وما أعلم أحداً أشدَّ تقصيراً مني!! ثم قام وتركه.

يا لاهياً بالنيايا قد غره الأملُ	وأنتِ عمّا قليلٍ سوف ترحلُ
تبغي اللحوقَ بلا زادٍ تقدّمه	إن المخفّين لما شَمَّروا وصلّوا
لا تركننَّ إلى الدنيا وزُخرفها	فأنتِ من عاجلِ الدنيا ستنتقلُ

أصبحت ترجو غداً يأتي وبعد غدٍ ورُبَّ ذي أملٍ قد خانه الأملُ
 هذا شبابك قد ولت بشاشته ما بعد شيبك لا هو ولا جدلُ
 ماذا التعلُّلُ بالدنيا وقد نشرتُ لأهلها صححةً في طيها عللُ

الكلام على قوله تعالى:

﴿وَسَارِعُوا إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ﴾^(١)

لقد دعاكم إلى البدار مولاكم، وفتح باب الإجابة ثم استدعاكم، ودلّكم على منافعكم وهداكم، فالتفتوا عن الهوى فقد آذاكم، وحثّو حزمَ جزمكم، وصبّوا ذنوبَ الحزن على ذنبيكم، وسارعوا إلى مغفرة من ربكم.

بأبه مفتوح للطالبين، وجنابه مبذول للراغبين؛ وفضله ينادي: يا غافلين، وإحسانه ينادي الجاهلين، فاخرجوا من دائرة المذنبين، وبادروا مبادرة التائبين، وتعرضوا لتسامات الرحمة تخلّصوا من كربكم، وسارعوا إلى مغفرة من ربكم.

كم شغلتم بالمعاصي فذهب الفرص، وبارزتم بالخطايا ونسيتم العرض، وأعرضتم عن النذير وهو الشعر المبيض، وحضّكم على اكتساب حظكم فما نفع الحظ، وطالت آمالكم بعد أن ذهب الشباب الغض، ورأيتم سلب القرناء ولقد أندر البعضُ بالبعض، ففروا إلى الله من سجن الهوى، فقد ضاق طوله والعرض، وسارعوا إلى مغفرة من ربكم وجنة عرضها السموات والأرض.

روى مسلم في أفرادهِ من حديث أنس بن مالك قال: انطلق رسول الله ﷺ وأصحابه إلى بدر حتى سبقوا المشركين، وجاء المشركون، فقال رسول الله ﷺ: قوموا إلى جنة عرضها السموات والأرض.

قال: يقول عمير بن الحمام الأنصاري: يا رسول الله جنة عرضها السموات والأرض؟! قال: نعم. قال: يخِ يخِ يا رسول الله. فقال: ما يملكك على قولك يخِ يخِ؟ قال [لا] والله يا رسول الله إلا رجاء أن أكون من أهلها، قال:

(١) آل عمران ١٣٣.

فإنك من أهلها.

قال: فأخرج تمرات من قرنه فجعل يأكلهن ثم قال: إن أنا حييت حتى آكل
تمراتي هذه إنها حياة طويلة. فرمى بما كان معه من التمر ثم قاتل حتى قُتل.
وقد روينا أن النبي ﷺ قال أيضاً في يوم أحد: قوموا إلى جنة عرضها
السموات والأرض. فقام عمرو بن الجموح ومن أخرج فقال: والله لأحفرن بها
في الجنة. فقاتل حتى قُتل.

قال: الواقدي: لما أراد عمرو بن الجموح الخروج إلى أحد، منعه بنوه،
وقالوا: قد عذرک الله. فجاء إلى النبي ﷺ فقال: إن بني يريدون حبسي عن
الخروج معك وإني لأرجو أن أطأ بعرجتي [هذه] في الجنة، فقال: «أما أنت
فقد عذرک الله» ثم قال لبنيه: لا عليكم أن لا تمنعوه لعل الله عز وجل يرزقه
الشهادة. فخلّوا سبيله.

قالت امرأته هند بنت عمرو بن خزام: كأني أنظر إليه مؤلياً، قد أخذ
درقته وهو يقول: اللهم لا تردني إلى خربي وهي منازل بني سلمة.

قال أبو طلحة: فنظرتُ إليه حين انكشف المسلمون ثم تابوا، وهو في الرعيل
الأول، لكأني أنظر إلى ظلع في رجله وهو يقول: أنا والله مشتاق إلى الجنة!
ثم أنظر إلى ابنه خلاد [وهو] يعدو [معه] في إثره حتى قتلا جميعاً.

وفي الحديث أنه دُفن عمرو بن الجموح وعبد الله بن عمر وأبو جابر في قبر
واحد، فخرّب السيل قبرهم، فخفر عنهم بعد ست وأربعين سنة فوجدوا لم
يتغيروا كأنهم ماتوا بأمس.

لله درّ قوم بادروا الأوقات، واستدركوا الهفوات، فالعين مشغولة بالدمع
عن المحرمات، واللسان محبوس في سجن الصمت عن الهلكات، والكف قد
كفّت بالخوف عن الشهوات، والقدم قد قيّدت بقيد المحاسبات، والليل لديهم
يجأرون فيه بالأصوات، فإذا جاء النهار قطعوه بمقاطعة اللذات، فكم من شهوة
ما بلغوها حتى الممات، فتيقظ للحاقهم من هذه الرقعات، ولا تطمعن في

الخلاص مع عدم الإخلاص في الطاعات، ولا تُؤمّن النجاة وأنت مقم على
الموبقات ﴿أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ نَجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آمَنُوا
وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ (١).

عجباً لأمنك والحياة قصيرة
أفقد رضىت بأن تعلق بالنى
لا تخدعك بعد طول تجارب
أحلام نوم أو كظل زائل
وتزودن ليوم فقرك دائباً
الغير نفسك لا أبالك تجمع
لما علم الصالحون قصر العمر، وحثهم حادي ﴿وسارعوا﴾ طووا مراحل
الليل مع النهار انتهاباً للأوقات.

كان في مسجد أبي مسلم الخولاني سوط يخوف به نفسه، فإذا فتر ضربها
بالسوط.

وكان مصلى وهب بن منبه فراشه أربعين سنة، وبقي أربعين سنة يصلي
الفجر بوضوء العشاء!

وكان أويس القرني يقول: لأعبدن الله تعالى عبادة الملائكة. فيقطع ليلة قائماً
وليلة راکعاً وليلة ساجداً.

وكان علي بن عبد الله بن العباس يسجد كل يوم ألف سجدة، فسمي
السَّجَاد.

وكان كرز بن وبرة يعصب رجليه بالخرق لكثرة صلاته، فازدحم الناس على
جسر، فنزل يصلي لثلا يبطل.

ودخلوا على زجلة العابدة، وكانت قد صامت حتى اسودت، وبكت حتى
عميت، وصلت حتى أفضت، فذاكروها شيئاً من العفو، فشهقت ثم قالت:

(١) الجانية ٢١.

فأربحهم في المعاملة ربُّ السماء، ينفقون في السراء والضراء.

بذلوا المالَ ومالوا إلى السَّخاءِ، وطرقوا بابَ الفضلِ بأناملِ الرِّجاءِ، وتلمَّحوا وعدَّ الصادقُ بجزيلِ العطاءِ، وتأهَّبوا للحضورِ يومَ اللقاءِ، وقَدِّموا الأموالَ ثقةً بالجزاءِ، ينفقون في السراء والضراء.

أناخوا ببابِ الطَّيِّبِ طلباً للشفاءِ، وصبروا رجاءَ العافيةِ على شُرْبِ الدواءِ، فإنَّ ابتلوا صبروا، وإنَّ أعطوا شكروا، فالأمرُ على السواءِ

تاللهُ لقد شغلهم حُبُّه عن الآباءِ والأبناءِ، ولقد عاملوه بإيثارِ المساكينِ والفقراءِ [الذين] ينفقون في السراء والضراء.

قوله تعالى: ﴿وَالْكٰظِمِينَ الْغَيْظَ﴾^(١) الكظم: الإمساك على ما في النفس.

أخبرنا أحمد، حدثني أبي، حدثنا عبد الله بن يزيد، حدثنا سعيد يعني ابن أبي أيوب، حدثني أبو مرحوم، عن ابن الحُصَيْنِ، قال: أنبأنا ابن المذَّهَبِ، قال ابن مالك، حدثنا عبد الله بن سهل بن معاذ عن أبيه أن رسول الله ﷺ قال: «من كظَمَ غيظاً وهو قادرٌ على أن يُنفِذه دعاه الله تعالى [يوم القيامة] على رؤوس الخلائق ثم يخيَّرُ أي الحور العين شاء».

قال أحمد: حدثنا علي بن عاصم، عن يونس بن عبيد، عن الحسن، عن ابن عمَرَ، قال: قال رسول الله ﷺ: «ما تجرَّعَ عَبْدٌ جُرْعَةً أَفْضَلَ عندَ الله من جُرْعَةٍ غِيظٍ يَكْظُمُهَا ابتغاءَ وجهِ الله تعالى».

قوله تعالى: ﴿وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ﴾.

روي أبو هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ أنه قال: «ما زاد الله عبداً بعفو إلا عزاً».

وقال عليّ عليه السلام: إذا قدرتَ على عدوك فاجعل العفو عنه شكراً للقدرة عليه.

(١) آل عمران ١٣٤.

وشتم رجلٌ عمرَ بنِ دَرِّ فقال: لا تفرطَنَّ في شتْمنا، ودَعْ للصِّلحِ موضعاً،
فإنا لانكافيء من عصي الله فينا إلا أن نطيع الله فيه.
وشتم رجلٌ الشَّعْبِيَّ فجعل يقول: أنت كذا وأنت كذا، فقال الشعبي: إن
كنت صادقاً فغفر الله لي، وإن كنت كاذباً فغفر الله لك.

وأُتِيَ عمرُ بن عبد العزيز برجل كان قد نذر إن أمكنه الله منه ليفعلن به
وليفعلن. فقال له رجاء بن حيوة: قد فعل الله ما تُحِبُّ من الظَّفَرِ فافعل ما
يُحِبُّ من العفو.

وأغلظ رجل لعمر بن عبد العزيز، فأطرق طويلاً، ثم قال: أردت أن
يستفزني الشيطان بعز السلطان فأنال منك اليوم ماتاله مني غداً.
وقال له رجل وهو على المنبر: أشهد أنك من الفاسقين. فقال: لا أجز
شهادتك.

وقيل للفضيل بن مروان: إن فلاناً يشتمك فقال: لأغيظن من أمره، يغفر
الله لنا وله. قيل له: ومن أمره؟ قال: الشيطان.

قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ﴾ (١)
الفاحشة: القبيحة، وهي الكبائر، والاستغفار يمحو أثر الذنوب.

أسفاً لعبدي كلما كثرت أوزاره قلَّ استغفاره وكلما قرُب من القبور قوي عنده
الفتور.

يا مُدْمَنَ الذَّنْبِ أَمَا تَسْتَحِي
اللَّهُ فِي الْخُلُوةِ ثَانِيكاً
غَرَّكَ مِنْ رَبِّكَ إِمهَالُهُ
وَسَتْرَهُ طُولَ مَسَاوِيكَا

إخواني: إنكم مخلوقون اقتداراً، ومربوبون اقتساراً، ومضمتون أجدائاً،
وكائنون رُفَاتاً ومبعوثون أفراداً، فاتقوا الله تقياً من شمَّر تجريداً وجدَّ تشميراً؛

(١) آل عمران ١٣٥.

ونظر في المآل وعاقبة المصير، ومقبة المرجع، وكفى بالجنة نوالاً وبالنار نكالاً.

فرحم الله عبداً اقترب فأعترف، ووجلّ فعلم، وحاذر فبادر، وعمّر فاعتبر، وأجاب فأجاب، وراجع فتأب، وتزوّد لرحيله وتأهب لسيله.

فهل ينتظر أهل غصاصة الشباب إلا الهرم، وأهل بضاعة الصحة إلا السقم، وأهل طول البقاء إلا مفاجأة الفناء، واقتراب القوت ونزول الموت، وأزف الانتقال وإشفاء الزوال، وحقز الأنين، وعرق الجبين وامتداد العرنيين، وعظم القلق وقبض الرمق.

جعلنا الله وإياكم من أفاق لنفسه، وفاق بالتحفظ أبناء جنسه، وأعدّ عدة تصلح لرمسه، واستدرك في يومه ما مضى من أمسه، قبل ظهور العجائب ومشيب الذوائب، وقدوم الغائب وزم الركائب، إنه سميع الدعاء.

المجلس الثالث في ذكر إدريس عليه السلام

الحمد لله الذي لم يزلَ عليماً عظيماً عليّاً، جباراً قهاراً قادراً قوياً، رفع سقفاً السماء بصنعتة فاستوى مَبْنِيّاً، وسَطَحَ المهادَ بقدرته وسقاه كلما عَطِشَ رِيّاً، وأخرج صنوفَ النبات فكسى كل نَبْتٍ زِيّاً، قَسَمَ الخلائقَ سعيداً وشقيّاً، و [قسم] الرزقَ بينهم فترى فقيراً وغنيّاً، والعقلَ فجعلَ [منهم] ذكياً وغبيّاً، أَلْهَمَ إدريسَ الاحتيالَ على جنته فهو يتناول من لذاتها ويلبس حليّاً، ﴿وَأَذْكُرُ فِي الْكِتَابِ إِدْرِيْسَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَبِيًّا﴾ (١).

فهو الذي جادَ على أوليائه بإسعاده، وبيّن لهم مناهج الهدى بفضله وإرشاده، ورمى المخالفين [له] بطردّه وإبعاده، وأجرى البرايا على مشيئته ومراده، واطّلع على سرّ العبد وقلبه وفؤاده، وقدّر صلاحه وقضى عليه بفساده، فهو الباطن الظاهر وهو القاهر فوق عباده.

أحمده على إصداره وإيراده، حمدَ معترفٍ [له] بإنشائه وإيجاده، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، شهادة تجلو قلبَ قائلها من رَيْنِ سواده، [وأشهد] أن محمداً عبده ورسوله [المرسل] إلى [جميع] الناس في جميع بلاده.

صلى الله عليه وعلى أبي بكر حارس الإسلام يومَ الردة على ارتداده، وعلى عمر الذي نطق القرآن بمراده، وعلى عثمان مشتري سلع السهر بنقده رقاده، وعلى عليٍّ قامع أعدائه ومهلك أضداده، وعلى عمه العباس آخذ البيعة ليلة العقبة على مراده.

(١) مريم ٥٦.

اللهم احرسنا بعينك التي لا تنام، واحفظنا من الخطايا والآثام، وارحنا
بفضلك يا ذا الجلال والإكرام، وانفعني والحاضرين بما يجري على لساني من
الكلام برحمتك يا عظيم يا علام.

قال الله تعالى: ﴿وَأذْكَرُ فِي الْكِتَابِ إِدْرِيسَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَبِيًّا﴾ (١).

إدريس اسمه أخنوخ بن يَرْد بن مِهْلَايِيل بن قِيدَار بن أَنُوش بن شِيث بن
آدم عليه السلام.

قال ابن عباس رضي الله عنهما: هو أولُ نبي بُعث بعد آدم، وكان يصعد له
في اليوم من العمل ما لا يصعد لبني آدم في السنة، فحسده إبليس وعصاه قومه،
فرفعه الله مكاناً عليّاً، وأدخله الجنة.

قال علماء السِّير: ولد إدريس في حياة آدم، وقد مضى من عمر آدم ستمائة
سنة واثنتان وعشرون سنة، وأنزل الله تعالى عليه ثلاثين صحيفة. فدعا قومه
ووعظهم ونهاهم ألاَّ يَلَابِسُوا ولد قاييل، فخالفوه فجاهدهم وسبى منهم
واسترق.

وهو أول من خطَّ بالقلم وخط الثياب، ورُفِع وهو ابن ثلاثمائة وخمس ستين
سنة. وعاش أبوه [آدم] بعد ارتفاعه مائة وخمساً وثلاثين سنة.

وفي المكان الذي رفع إليه ثلاثة أقوال: أحدها أنه في السماء الرابعة. وفي
الصحيحين من حديث مالك بن صَعْصَعَة عن النبي ﷺ في حديث المعراج أنه
رأى إدريس في السماء الرابعة. وقد روينا أن الجنة في السماء الرابعة.

والقول الثاني: أنه في السماء السادسة. رواه أبو صالح عن ابن عباس.

والثالث: أنه في السماء السابعة. حكاه أبو سليمان الدمشقي.

وفي سبب رفعه إلى السماء ثلاثة أقوال.

(١) مرم ٥٦.

أحدها: أنه كان يصعد له من العمل مثل ما يصعد لجميع بني آدم، فأحبّه ملك الموت، فاستأذن الله تعالى في خلّته، فأذن له، فهبط إليه في صورة آدمي، وكان يصحبه، فلما عرفه قال: إني أسألك حاجة. قال: ما هي؟ قال: تذيقي الموت فلعلّي أعلم شدّته فأكون أشدّ له استعداداً. فأوحى الله تعالى إليه: أن قبض روحه ساعة، ثم أرسله. ففعل. ثم قال [له]: كيف رأيت الموت؟ قال:

أشدّ مما بلغني عنه، وإني أحبُّ أن تريني النار. فحمله فأراه إياها فقال: إني أحب أن تريني الجنة فأراه إياها فلما دخلها وطاف فيها قال له ملك الموت: اخرج. فقال: والله لا أخرج حتى يكون الله عن وجل يخرجني. فبعث الله عز وجل ملكاً يحكم بينها، فقال: ما تقول: يا ملك الموت. فقص عليه ما جرى. فقال: ما تقول يا إدريس؟ قال: إن الله تعالى يقول: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ﴾^(١) وقد ذقته. وقال: ﴿وَإِنْ مِنْكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا﴾^(٢) وقد وردت. وقال لأهل الجنة: ﴿وَمَا هُمْ مِنْهَا بِمُخْرَجِينَ﴾^(٣) فو الله لا أخرج حتى يكون الله يخرجني، فسمع هاتفاً من قوله يقول: يا ذني دخل وبأمري فعل. فخلّ سبيله.

وهذا معنى ما رواه زيد بن أسلم مرفوعاً إلى رسول الله ﷺ.

فإن قيل: من أين لإدريس هذه الآيات؟

فقد أجاب بعض العلماء فقال: كان الله تعالى قد أعلم إدريس وجوب الورود، وامتناع الخروج من الجنة فقال ذلك.

القول الثاني: أن ملكاً من الملائكة استأذن ربّه عز وجل أن يهبط إلى إدريس، فأذن له، فلما عرفه إدريس قال: هل بينك وبين ملك الموت معرفة؟ قال: ذاك أخي من الملائكة. قال: هل تستطيع أن تنفعي عند ملك الموت؟ قال: [نعم] [سأقول له فيك فيرفق بك. اركب بين جناحي. فركب إدريس فصعد به إلى السماء، فلقي ملك الموت] [فعرفه أنه يريد أن يسأله كم بقي من عمره]

(٣) الحجر ٤٨.

(١) آل عمران ١٨٦.

(٢) مريم ٧١.

فقال الملك للملك الموت: إن لي إليك حاجة. قال: أعلم ما حاجتك، تكلمني في إدريس وقد محي اسمه من الصحيفة، ولم يبق من أجله إلا نصف طرفة عين! فمات إدريس بين جناحي الملك. رواه عكرمة عن ابن عباس.

والثالث: أن إدريس مشى يوماً في الشمس فأصابه وهجها، فقال: اللهم خفف ثقلها عمن يحملها. فأصبح الملك الموكل بالشمس وقد وجد من خفتها ما لم يعرف. فسأل الله تعالى عن ذلك، فقال: إن عبدي إدريس سألني أن أخفف عنك حملها فأجبت. فقال: يا رب اجع بيني وبينه واجعل بيننا خلّة. فأذن له فأتاه فكان فيما قال له إدريس: اشفع لي إلى ملك الموت أن يؤخر أجلي. قال: إن الله تعالى لا يؤخر نفساً إذا جاء أجلها، ولكن أكلّمه فيك، فما استطاع أن يفعل فعل. ثم حمله الملك على جناحه فوضعه عند مطلع الشمس، ثم أتى ملك الموت فأخبره، فقال: ليس ذاك إليّ، ولكن إن أحببت أعلمته متى يموت. فنظر في ديوانه فقال: إنك كَلَّمْتَنِي فِي إِنْسَانٍ مَا أَجِدُهُ يَمُوتُ إِلَّا عِنْدَ مَطْلَعِ الشَّمْسِ. قال: فإنه هناك قال: انطلق فما تجده إلا ميتاً. روي هذا عن ابن عباس وكعب رضي الله عنهما.

وقال علماء السير: وكان إدريس قد أوصى قبل رفعه إلى ولده متوشلخ، وكان ولداً صالحاً. وولد لمتوشلخ لَمَك، وولد لَمَك نوح عليه السلام.

وكان من الملوك في زمن إدريس طهمورت ملك الأقاليم كلها، ونفى الأشرار، وهو أول من كتب بالفارسية واتخذ الخيل والبغال والحمير والكلاب لحفظ المواشي، واستمرت أحواله على الصلاح: ثم ملك أخوه «جَم شيد» وتفسير جم شيد، شيد الشعاع، سمي بذلك لأنه كان وضيئاً جميلاً، فملك الأقاليم كلها وسار السيرة الجميلة، وابتدع عمل السيوف والسلاح وصنعة القز، وجعل الناس أربع طبقات: طبقة مقاتلة، وطبقة فقهاء، وطبقة كتابا وصناعاً وحرّاثين، وطبقة خدماً. عمل أربعة خواتيم: خاتماً للحرب والشرط وكتب عليه: الأناة.

وخاتماً للخراج وجباية الأموال، وكتب عليه: العمارة.

وخاتماً للبريد وكتب عليه: الوحا.

وخاتماً للمظالم وكتب عليه: العدل. فبقيت هذه الرسوم في ملوك الفُرس إلى أن جاء الإسلام.

وألزم من غلبه من أهل الفساد بالأعمال الصعبة من قطع الصخور من الجبال والبناء وعمل الحمامات. وأخرج من البحار والمعادن ما ينتفع به الناس من الذهب والفضة والجواهر والأدوية. وأحدث النيروز فجعله عيداً.

ثم إنه بطر فادعى الربوبية، فسار إليه بيوراسب، وهو الضحاك بن الأهيوب، فظفر به فنشره بمنشار.

وملك الضحاك الفُرس ألف سنة، وكان يدين بدين البراهمة.

وبين إدريس ونوح [كانت] الجاهلية الأولى التي قال الله فيها: ﴿ولا تبرجن تبرج الجاهلية الأولى﴾^(١).

فتفكروا إخواني في أهل الفساد و [في] أهل الصلاح، وميّزوا أهل الخسران من أرباب الأرباح، [فياسرعان عمر يُفنيه المساء والصبح] فتأهبوا للرحيل فياقرب السراح، وتفكروا فيمن غرته أفرأح الراح، كيف راح عن الدنيا فارغ الراح، فالهوى ليل مظلم، والفكر مضباح.

الكلام على البسمة

اسم ما أحلاه لمسمى ما أعلاه، قرب المحب وأذناه، وبلغ المؤمل من فضله مناه، من لاذ بجماه حماه، ومن استعطاه أعطاه، أنست به قلوب العارفين، وولعت من محبته أفئدة المشتاقين، وخضعت لمحبتة رقاب المتكبرين، وإنما يجب كل قلب حزين.

(١) سورة الأحزاب. ٣٣.

ساكنٌ في القلبِ يَعْمُرُهُ لستُ أنساه فأذكره
وهو مَوْلَايَ رَضِيْتُ بِهِ وَنَصِيْبِي مِنْهُ أَوْقَرُهُ
غَابَ عَنِ سَمْعِي وَعَنْ بَصْرِي فَسُوَيْدًا الْقَلْبَ يُبْصِرُهُ

لله دَرَّ ألسنةٌ بذكري تجري، وبأفخرهم وهِمَمُهُم إلى باي تَسْرِي، وبأراحة
أبدانهم تعبت بين نَهْيِي وأَمْرِي، طالما اطلعتُ عليهم وهم على باب شُكْرِي،
رفضوا شهواتهم فالنفوس في أَسْرِي، قطعوا جوادَ الجِدِّ وأنت في الغفلة ما
تدري.

[اذكر] اسم من إذا أظعته أفادك، وإذا أتيته شاكراً زادك، وإذا خدمته
أصلح قلبك وفؤادك.

قال الشَّيْبِي: ليس للأعمى من الجواهر إلا لَمْسُهُ، وليس للجاهل من ذكر الله
عز وجل إلا النطقُ باللسان.

ذَكَرَكَ لِي مَوْئِسٌ يَعَارِضُنِي يَعِدُّنِي عَنْكَ مِنْكَ بِالظَّفَرِ
وكيف أنسك يا مدى هِمَمِي وَأَنْتَ مِنِّي بِمَوْضِعِ النَّظَرِ

يا من يرجو الثوابَ بغير عمل، ويُرْجىء التوبةَ بطول الأمل، أتقول في الدنيا
قولَ الزاهدين وتعمل فيها عملَ الراغبين، لا بقليل منها تقنع، ولا بكثير منها
تشبع، تكره الموت لأجل ذنوبك، وتقيم ما تكره [الموت له] تغلبك نفسك على
ما تظن ولا تغلبها على ما تستيقن، لا تثق من الرزق بما ضمن لك، ولا تعمل من
العمل ما فُرض عليك، تستكثر من معصية غيرك ما تحقره من نفسك.

أَمَا تَعْلَمُ أَنَّ الدُّنْيَا كَالْحَيَّةِ، لَيِّنٌ لَمْسُهَا وَالسَّمُّ النَّاقِعُ فِي جَوْفِهَا، يَهْوِي إِلَيْهَا
الصَّبِيُّ الْجَاهِلُ وَيَحْذَرُهَا ذُو اللَّبِّ الْعَاقِلُ، كَيْفَ تَقْرَأُ بِالدُّنْيَا عَيْنٌ مِنْ عَرَفِهَا، وَمَا
أَبْعَدُ أَنْ يُفْطَمَ عَنْهَا مَنْ أَلْفَهَا:

حَقِيقٌ بِالتَّوَاضُعِ مِنْ مَيُوتَ وَحَسْبُ الْمَرْءِ مِنْ دُنْيَاهُ قُوتُ
فَمَا لِلْمَرْءِ يُصْبِحُ ذَا اهْتِمَامٍ وَحُزْنٍ لَا تَقُومُ بِهِ النُّعُوتُ
فِي هَذَا سَتَرُحَلٍ عَنْ قَرِيبٍ إِلَى قَوْمٍ كَلَامُهُمُ السُّكُوتُ

أخبرنا عمر بن ظُفر، بسنده إلى محمد بن أحمد بن زياد قال: سمعت أبا بكر العطار يقول: حضرت جُنَيْداً عند موته أنا وجماعة من أصحابنا، وكان قاعداً يصلي ويُنِّي رجليه إذا أراد أن يركع ويسجد، فلم يزل كذلك حتى خرجت الروح من رجليه، فثقل عليه تحريكهما، وكانت رجلاه قد تورمتاً، فقال له بعض أصحابه: ما هذا يا أبا القاسم؟ قال: هذه نِعَمُ الله أكبر. فلما فرغ من صلاته قال له أبو محمد: يا أبا القاسم لو اضطجعت؟ فقال: يا محمد هذا وقتٌ يُؤخَذُ منه. الله أكبر. فلم يزل كذلك حتى خرجت روحه.

طوبى لمن تنبّه من رقاده، وبكى على ماضي فساده وخرج من دائرة المعاصي إلى دائرة سَداده، عساه يحو بصحيح اعترافه قبيح اقترافه، قبل أن يقول فلا يَنفع، ويعتذر فلا يُسمع:

قد قلتُ للنفس وبالغتُ	وزدتُ في العتَبِ وأكثرتُ
يا نفسُ قد قصّرتِ ما قد كفى	تيقظي قد قُرب الوقتُ
جدّي عسى أن تُدركي ما مضى	قد سبق الناسُ وخلفتُ
أنا الذي قد قلتُ دهراً غداً	أتوب من دنبي فما تُبتُ
لو كنتُ ذا عقلٍ لما حلّ بي	نُحِت على نفسي ما عِشتُ
واحسرتي يومَ حسابي إذا	وقفتُ للعرضِ وحوسبتُ
واخجلتي إن قيل لي قد مضى	وقتكُ تفريطاً ووبّختُ
ولي كتابٌ ناطقٌ بالذي	قد كنت في دنياي قدّمتُ
تُمليني الدنيا بأهوائها	لولا شقاء الحظّ ما ملّتُ
وقد تحيّرت ولا عُذر لي	إن قلتُ إني قد تحيّرتُ

قال عيسى بن مريم عليه السلام، لا ينتظر امرؤ بتوبته غداً، فإن بينك وبين غدٍ يوماً وليلة، وأمر الله غداً ورائح.

بدر أيها الشاب قبل الهرم، واغتم أيها الشيخ الصحة قبل السقم، قبل أن يتمكن من بدنك الألم، ويقول لسان العتاب: ألم [أقل لك ألم] قال نبينا ﷺ:

« نعمتان متعَبون فيها كثير من الناس: الصحة والفراغ ».

وكان الأسود بن يزيد يصوم حتى يصفراً ويخضراً، وحج ثمانين حجة.

وصام منصور بن المعتمر أربعين سنة وقام ليلها، وكان يبكي طول الليل، فقالت له أمه: يا بني لعلك قتلتَ قتيلاً؟ فيقول: أنا أعلم بما صنعتُ نفسي:

جَنَحْتُ شَمْسُ حِيَايِ وَتَدَلَّتْ لِلْفُرُوبِ
وَتَوَلَّى لَيْلُ رَأْسِي وَبَدَا فَجْرُ الْمَشِيْبِ
رَبِّ خَلَّصْنِي فَقَدْ لَجَّ جُتُّ فِي بَحْرِ الذَّنُوبِ
وَأَنْلِي الْعَفْوَ يَا أَق رَبِّ مَنْ كَلَّ قَرِيْبِ

الكلام على قوله تعالى:

﴿ قُلْ انظُرُوا ماذا في السموات والأرض ﴾ (١)

سبحان من أظهر العجائب في مصنوعاته، ودلَّ على عظمته بمبتدعاته، وحثَّ على تصفح عبّره وآياته، وأظهر قدرته في البناء والنقّض، والهشيم والغصّ، ﴿ قُلْ انظُرُوا ماذا في السموات والأرض ﴾.

سعيد من تدبّر، وسلم من تفكّر، وفاز من نظر واستعبر، ونجا من بحر الهوى من تصبّر وهلك كلُّ الهلاك وأدبر، من نسي الموت مع الشعر المبيض ﴿ قُلْ انظُرُوا ماذا في السموات والأرض ﴾.

يا أرباب الغفلة اذكروا، يا أهل الأعراض احضروا، يا غافلين عن المنعم اشكروا، يا أهل الهوى خلوا الهوى واصبروا، فالدنيا قنطرة فُجوزوا واعبروا، وتأمّلوا هلال الهدى فإنَّ غمَّ عليكم فاقدرُوا، فقد نادى منادي الصلاح حيَّ على الفلاح، فأسمع أهل الطول والعرض ﴿ قُلْ انظُرُوا ماذا في السموات والأرض ﴾ (١).

(١) يونس ١٠١.

إخواني: ليس المراد بالنظر إلى ما في السموات والأرض ملاحظته بالبصر، وإنما هو التفكير في قدرة الصانع.

أخبرنا محمد بن عبد الله، قال: حدثنا عبد الله بن علي الدقاق، أنبأنا أبو الحسين بن بشران، أنبأنا إسماعيل الصفار، حدثنا سعدان، حدثنا أبو معاوية، عن الأعمش، عن عمرو بن مرة، عن سالم بن أبي الجعد، عن أم الدرداء رضي الله عنها أنها قالت: «تفكر لحظة خير من قيام ليلة».

وقيل لها: ما كان أفضل عمل أبي الدرداء؟ قالت: التفكير.

وقال ابن عباس: ركعتان مقتصدتان في تفكر، خير من قيام ليلة.

وقال الحسن: ما زال أهل العلم يعودون بالتفكر على التذكر، وبالتذكر على التفكير، ويناطقون القلوب حتى نطقت، فإذا لها أسمع وأبصار، فنطقت بالحكمة وضربت الأمثال، فأورثت العلم.

وقال: الفكر مرآة تريك حسناتك وسيئاتك. وقال: من لم يكن كلامه حكمة فهو لغو، ومن لم يكن سكوته تفكراً فهو سهو، ومن لم يكن نظره اعتباراً فهو لهو.

وجاء في تفسير قوله تعالى: ﴿سَأَصْرِفُ عَنِ آيَاتِي الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ﴾^(١) قال: أمنع قلوبهم من التفكير في أمري.

وكان لقمان يجلس وحده ويقول: طول الوحدة أفهم للتفكر، وطول التفكير دليل على طريق الجنة.

وقال وهب بن منبه: ما طالت فكرة أمريء قط إلا عليم، ولا عليم إلا عمل. وبينما أبو شريح العابد يمشي جلس فتقنّع بكسائه، وجعل يبكي، فقيل له: ما يبكيك؟ قال: تفكرت في ذهاب عمري وقلة عملي، واقتراب أجلي!

(١) الأعراف ١٤٦.

وبينا داود الطائي في سطح داره في ليلة قَمَرَاء تفكر في ملكوت السموات والأرض فوق إلى سطح جاره، فلما أفاق قال: ما علمت بذلك. وأعلم أن التفكير ينقسم إلى قسمين: أحدهما يتعلّق بالعبد.

والثاني بالمعبود جل جلاله.

فأما المتعلّق بالعبد: فينبغي أن يتفكر: هل هو على معصية أم لا؟ فإن رأى زَلَّةً تداركها بالتوبة والاستغفار، ثم يتفكر في نَقْل الأعضاء، من المعاصي إلى الطاعات، فيجعل شغل العين العيْبَةَ، وشغل اللسان الذِّكْر، وكذلك سائر الأعضاء.

ثم يتفكر في الطاعات ليقوم بواجبها وَيَحْبِرَ واهنَها، ثم يتفكر في مبادرة الأوقات بالنوافل طلباً للأرباح، ويتفكر في قِصَر العمر فينتبه حذراً أن يقول غداً: ﴿يَا حَسْرَتَا عَلَى مَا فَرَطْتُ فِي جَنبِ اللَّهِ﴾ (١).

ثم يتفكر في خِصَالِ باطنه فيَقْمَع الخِصَالَ المذمومة، كالكِبْر والعُجْب والبخل والحسد، ويتولى الخِصَالَ المحمودة، كالصدق والإخلاص والصبر والخوف. وفي الجملة يتفكر في زوال الدنيا فيرفضها، وفي بقاء الآخرة فيَعْمُرُها.

أخبرنا إسماعيل بن أبي بكر المقبُري، أنبأنا عاصم بن الحسن، أنبأنا بشران ابن صفوان، أخبرنا أبو بكر بن عبيد، قال: قال محمد بن الحسين، حدثني عمّار ابن عثمان، حدثني سعيد بن ثعلبة، قال النَّضْرُ بن المنذر لإخوانه: زوروا الآخرة في كل يوم بقلوبكم، وشاهدوا الموت بتوهمكم، وتوسّدوا القبورَ بفكركم، واعلموا أن ذلك كائن لا محالة، فمختار لنفسه ما أحبّ من المنافع والضرر أيامَ حياته.

وأما المتعلّق بالمعبود جل جلاله، فقد منع الشرع من التفكير في ذات الله عز وجل وصفاته فقال عليه السلام: «تفكروا في خَلْقِ الله، ولا تتفكروا في الله، فإنكم لن تَقْدِرُوا قَدْرَهُ».

(١) الزمر ٥٦.

فلم يبق إلا النظر في الآثار التي تدل على المؤثر.
وجميع الموجودات من آثار قدرته.

وأعجب آثاره الآدمي، فإنك إذا تفكرت في نفسك كفى، وإذا نظرت في
خَلْقِكَ شفى. أليس قد فعل في قطرة [من] ماءٍ مالو انقضت الأعمارُ في شرح
حكمته ما وقتاً!

كانت النقطة مغموسةً في دم الحيض، ومقياس القدرة يشقّ السمع والبصر،
خلق منها ثلاثمائة وستين عَظْماً وخمسمائة وتسعاً وعشرين عضلة، كل شيء من
ذلك تحته حكمة، فالعين سبع طبقات، وأربعة وعشرون عضلة لتحريك حدقة
العين، وأجفانها، لو نقصت منها واحدة لاختل الأمر، وأظهر في سواد العين
على صِغَرِهِ صورة السماء مع اتساعها، وخالف بين أشكال الحناجر في الأصوات،
وسخّر المعدة لإنضاج الغذاء، والكبد لإحالة إلى الدم، والطحال لجذب السوداء
والمرارة لتناول الصفراء [كلها] والعروق كالخدم للكبد تنفذ منها الدماء إلى
أطراف البدن.

فيا أيها الغافل ما عندك خبرٌ منك، فما تعرف من نفسك إلا أن تجوع فتأكل
وتشبع فتنام، وتغضب فتخاصم، فماذا تميّزت على البهائم.

ارفع بصرَ فِكْرِكَ إلى عجائب السموات، فتلمح الشمس في كل يوم في
منزل، فإذا المنخفضت برّد الهواء وجاء الشتاء، وإذا ارتفعت قوي الحرّ، وإذا
كانت بين المنزلتين اعتدل الزمان، والشمسُ مثل الأرض مائةً ونيّفاً وستين مرة،
وأصغر الكواكب مثل الأرض ثماني مرات.

ثم اخفض بصرَكَ إلى الأرض ترى فجأجها مذلّلةً للتسخير، فامشوا في
مناكبها وتفكروا في شُرْبِهَا بعد جَدْبِهَا بكأس القَطْرِ، وتلمح خروج النبات
يرْفُلُ في ألوان الحُلَلِ على اختلاف الصُّور والطعوم والأرايح، وانظر كيف نزل
القَطْرُ إلى عِرْقِ الشجر، ثم عاد ينجذب إلى فروعها. ويجري في تجاويها بعروق
لا تفتقر إلى كُفّة.

فلا حظاً للغافل في ذلك إلا سماع الرعد بأذنه ورؤية النبات والمطر بعينه .
كلاً! لو فتح بصرَ البصيرة لقرأ على كل قطرة، ورقة خطأً بالقلم الإلهي،
[تعلم] أنها رِزْقُ فلان في وقت كذا.

ثم انظر إلى المعادن لحاجات الفقير إلى المصالح، فمنها مُودَع كالرصاص
والحديد، ومنها مصنوع بسبب غيره كالأرض السبخة يجمع فيها ماء المطر فيصير
ملحاً.

وانظر إلى انقسام الحيوانات ما بين طائرٍ وماشٍ وإهامها ما يُصلحها .
وانظر إلى بُعد ما بين السماء والأرض كيف ملأ ذلك الفراغ هواءً، لتستشق
منه الأرواح وتَسْبَح الطير في تيّاره إذا طارت .
وانظر بفكرك إلى سعة البحر وتسخير الفُلك فيه، وما فيه من دابة .
قال يحيى بن أبي كثير: خلق الله ألف أمةٍ، فأسكن ستائة في البحر وأربعمائة
في البرّ.

واعجباً لك لو رأيتَ خطأً مستحسنَ الرقم لأدركك الدهشُ من حكمة
الكاتب، وأنت ترى رُقومَ القُدرة ولا تعرف الصانع، فإن لم تعرفه بتلك الصنعة
فتعجب كيف أعمى بصيرتك مع رؤية بصرك!

سجع على قوله تعالى

﴿وما تُغني الآياتُ والنُّذُرُ عن قومٍ لا يؤمنون﴾^(١)

كيف تصحُّ الفكرة لقلبٍ غافلٍ، وكيف تقع اليقظة لعقلٍ ذاهلٍ، وكيف
يحصل الفهمُ للبِّ عاطلٍ، عجباً لمفرطٍ والأيام قلائلٍ، ولماثلٍ إلى ركنٍ مائلٍ،
لقد خاب الغافلون وفاز المتقون ﴿وما تُغني الآياتُ والنُّذُرُ عن قومٍ لا
يؤمنون﴾.

(١) يونس ١٠١.

من كُتِبَ عليه الشقاء كيف يَسَلِّم، ومن عَمِيَ قلبُه كيف يفهم، ومن أَمْرَضَه طبيه كيف لا يَسْقَم، ومن اعوجَّ في أصل وضعه فبعيد أن يتقوم، هيهات من خلق للشقاء فللشقاء يكون، ﴿وما تُغْنِي الآياتُ والنُّذُرُ عن قومٍ لا يؤمنون﴾.

كم عملٍ رُدَّ على عامله، وكم أملٍ رجع بالخيبة على أمِّله، وكم عاملٍ بالغ في إتعاب مفاصله فهبَّت ریحُ الشقاء لتبديد حاصله، لقد نُودِيَ على المطرودين ولكنهم ما يسمعون ﴿وما تُغْنِي الآياتُ والنذرُ عن قومٍ لا يؤمنون﴾.

عشتُ دهرًا بالتظنِّي	هائماً في كل فنِّ
قانعاً من أمِّ دفرٍ	بأباطيل التمني
أبتغيها وهي تضمي	ني من تحتِ المِجَنِّ
فالمئى تُدني إليها	والمُدَى فوق المِسَنِّ
ثم لا آخذُ منها	مثل ما تأخذ مني
أيها المعجَّل عنها	وهو شبه المتأنِّي
ليس للمزعج بالسِّر	ركوبُ المُطمأنِّ
ليت شعري والتي تُغْ	ري بأنِّي ولو أنِّي
أبي شيء صحَّ منها	للحريص المتعنِّي
أنا إذ أشكو فلا تُسُد	مع شكوى المتجنِّي
كمجيبٌ ظلَّ يبكي	للحمام المتغنِّي

سجع على قوله تعالى

﴿فهل ينتظرون إلا مثل أيام الذين خلوا من قبلهم﴾ (١)

قل للمقيمين على معاصيهم وجهلهم، الناسين من سبقهم، المصرين على قبيح فعلهم، كم لعب الردي بمثلهم، لقد بولغ في اجتثاث أصلهم، فتراهم ما يكفي في توبيخهم، ﴿فهل ينتظرون إلا مثل أيام الذين خلوا من قبلهم﴾.

(١) يونس ١٠٢.

قل للمذنبين تأملوا العواقب، الآثامُ تبقى وتَفنى الأطياب، والذنوب تُحصَى
وما يَغفل الكاتب، والسهم مُفَوِّق والرامي صائب، واللذات وإن نِيلَتْ فبعدها
المصائب، فليتذبر العاقل وليحضر الغائب، قبل أن يؤخذ الجهال على جهلهم،
﴿فهل ينتظرون إلا مثل أيام الذين خلّوا من قبلهم﴾.

إن كان غيرك قد أجابَ الداعي
قد طال باعُك والمنيةُ بعدَ ذا
وملأتَ سَمْعَكَ بالمواعظِ ظاهراً
تسعى بنفسك في المتالفِ جاهداً
ولقد جمعتَ من القبائحِ باطناً
كم قد غررتَ بظاهِرٍ متجمّلٍ
بعثَ الذي يَبْقَى بما يفنى غداً
فكأنني بك قد نعاكَ الناعي
ليست إذا صالتَ قصيرة باعٍ
حتى اشتهرتَ به ولستَ بواعي
لا تفعلنَ وارفقُ بها يا ساعي
مالا تَضْمَنُهُ جسومُ أفاعي
مثلَ السَّرابِ جرى بيطنِ القاعِ
يا من رضي بغيينةِ المبتاعِ

أيها العبد انظر بعين فكرك وعقلك، هل تجد سبيلاً لخلاص مثلك مع إقامته
على فعلك، أين اعتبارك بانطلاق أسلافك، أين فكرك في فراق الألفك، متى
تنتقل عن قبيح خِلافك.

قل للمفرط يستعدُّ
قد أخلق الدهرُ الشبا
أو ما يخاف أخو المعاي
يوماً يعاين موقفاً
فالإم يشغل الفتى
أبداً مواعيدُ الزما
يا من يؤمّل أن يقيم به وحادي الموت يحذو
وتروح داعيةُ المنو
يختال في ثوب النعي
والعمر يتقصر كلَّ يَوْمٍ
ما من ورودِ الموت بُدُّ
بَ وما مضى لا يُستردُّ
صي من له البطشُ الأشدُّ
فيه خُطوبٌ لا تُحدُّ
في لهوهِ والأمر جدُّ
ن لأهليه تعبٌ وكَدُّ
ن على مؤملها وتغدو
م ودونته قبرٌ ولحدُّ
م ثم في الآمال مَدُّ

أيقظنا الله وإياكم من هذه الرقدة، وذكّرنا الموتَ وما يأتي بعده، وأهّمنّا
شُكره على النعم وحده، إنه كريم لا يردّ عبده.
[وصلّى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه، وحسبنا الله ونعم الوكيل].

المجلس الرابع في ذكر نوح عليه الصلاة والسلام

الحمد لله الذي تُسبِّحه البحار الطوافح، والسُّحب السوافح، والأبصار اللوامح، والأفكار والقرائح، العزيز في سلطانه، الكريم في امتنانه، ساتر المذنب في عصيانه، رازق الصالح والطالح، تقدّس عن مثل وشبيه، وتنزّه عن نقص يعتريه، يعلم خافية الصدر وما فيه من سير أضمّرتَه الجوانح، لا يشغله شاغل ولا يُبْرِمه سائل ولا يُنْقِصه نائل، تعالى عن النَّد المائل والضد المكادح، يسمع تغريد الورقاء على الغصن، وما شاء كان، وما لم يشأ لم يكن، ويتكلم فكلامه مكتوب في اللّوح مسموع بالأذن بغير آلات، ولا أدوات ولا جوارح. أنزل القطر بقدرته وصنّغ لونَ النبات بحكمته، وخالف بين الطعوم بمشيئته، وأرسل الرياح لواقح. موصوف بالسمع والبصر، يُرى في الجنة كما يُرى القمر، من شبّهه أو كيّفه فقد كفر. هذا مذهب أهل السنة والأثر، ودليلهم جليّ واضح. ينجّي من شاء كما شاء ويهلك، فهو المسلّم للمسلّم، والمسلّم للمهلك، لم ينتفع كنعان بالنسب يوم العرق لأنه مشرك، ﴿قَالَ يَا نُوحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ﴾ (١)

أحمده على تسهيل المصالح، وأشكره على ستر القبائح، وأصلي على رسوله محمد أفضل غادٍ وخير رائج، وعلى صاحبه أبي بكر ذي الفضل الراجح، وعلى عمر العادل فلم يراقب ولم يسامح، وعلى عثمان الذي بايع عنه الرسول، فيالها صفقة رابح، وعلى عليّ البحر الحِصَم الطافح، وعلى عمه العباس الذي أخذ البيعة

(١) هود ٤٦.

له ليلة العقبة، وكلُّ الأهل نازح، اللهم صلِّ على محمد وعلى آل محمد، وهَبْ طالِحنا لصالحنا، وسامِحنا فأنت الحليم المسامِح، واغفر لنا ذنوبنا قبل أن تشهد علينا الجوارح، ونبِّهنا من رَقَدات الغفلات قيل أن يصيح الصائح، وانفِعي بما أقول والحاضرين بمَنِّكَ، فمَنِّكَ الفضل والمنائح.

قال الله تعالى: ﴿وقال اركبوا فيها﴾^(١).

وُلِدَ نوحٌ عليه السلام بعد وفاة آدم بمائة وست وعشرين سنة. وهو نوح بن لَمَك بن متوشلخ بن إدريس.

ولما تَمَّ له خمسون سنة بعثه الله عز وجل، وقيل: إنه بعث بعد أربعائة سنة من عمره، وكان الكفر قد عمَّ، فكان يدعو قومه فيضربونه، حتى يُغشى عليه. فأمره الله تعالى أن يصنع سفينة. ففرس الساج فتكامل في أربعين سنة، ثم قطعه فصنعها وأعانها أولاده، وفجَّرَ الله له عين القار تَغلي غلياناً حتى طلأها.

وجعل لها ثلاثَ بطون، فحمل في البطن الأسفل الوحوش والسباع والهوام، وفي الأوسط الدوابَّ والأنعام، وركب هو ومن معه في البطن الأعلى.

قال ابن عباس رضي الله عنهما: كان طولها ستمائة ذراع وعرضها ثلاثمائة وثلاثين ذراعاً، وفي رواية عنه قال: كان طولها ألفاً ومائتي ذراع، وعرضها ستمائة ذراعاً.

ثم ابتدأ الماء بجنابت الأرض فدار حولها كالإكليل، فجعلت الوحوش تطلب وسط الأرض هرباً من الماء، حتى اجتمعت عن السفينة، فحمل فيها من كلِّ زوجين اثنين.

وقيل له: إذا فار التنور فاركب.

وفي المراد بالتنور أربعة أقوال:

(١) هود ٤١

أحدها: أنه اسم لوجه الأرض. قال ابن عباس قيل له: إذا رأيت الماء قد
عَلَا على وجه الأرض فاركب.

والثاني: تنور الصبح. قاله علي عليه السلام.

والثالث: طلوع الشمس. روي عن علي أيضاً.

والرابع: تنور أهله انبجس منه الماء. قاله مجاهد.

وفي المكان الذي فار منه التنور ثلاثة أقوال:

أحدها: مسجد الكوفة. روي عن علي: وقال زِرِّ بن حَبِيش: فار التنور من
زاوية مسجد الكوفة الأيمن.

والثاني: بالهند. قاله ابن عباس.

والثالث: الشام من عين وردة. وهي منزل نوح قاله. مُقَاتِل.

وفي الذين حملهم في السفينة ثمانية أقوال:

أحدها: كانوا ثمانين رجلاً معهم أهلهم.

والثاني: كانوا ثمانين وبنيه الثلاثة وثلاثة نسوة لبنيه، وامرأة نوح.

والثالث: كلهم كانوا ثمانين. قال مقاتل: كانوا أربعين رجلاً وأربعين امرأة.

والرابع: ثلاثين رجلاً. والأقوال الأربعة عن ابن عباس.

والخامس: كانوا ثمانية: نوح، وامراته، وثلاثة بنين له ونسوانهم. وهذا قول

الحكَم بن عَتْبَةَ والقُرْطَبي وابن جُرَيْج.

والسادس: كانوا سبعة: نوح وبنيه وثلاث كَنَائِن له قاله الأعمش.

والسابع: كانوا ثلاثة عشر: نوح وبنوه ونسأؤهم وستة ممن آمن به. قاله ابن

إسحاق.

والثامن: كانوا عشرة سوى نسائهم. روي عن إسحاق أيضاً.

فركبوا لعشرٍ مَضِينٍ من رجب، وخرجوا يوم عاشوراء.

قوله تعالى: ﴿بِسْمِ اللَّهِ مَجْرِيهَا وَمُرْسَاهَا﴾ (١).

(١) هود ٤١.

قال الزَّجَّاجُ: أَمَرَهُمْ أَنْ يُسْمُوا فِي وَقْتِ جَرْمِهَا وَوَقْتِ اسْتِقْرَارِهَا.
 قوله تعالى: ﴿فِي مَوْجٍ كَالْجِبَالِ﴾^(١) قيل: إن الماء ارتفع على أطول جبل في
 الأرض أربعين ذراعاً.

﴿وَنَادَى نُوحٌ ابْنَهُ﴾ واسمه كنعان ويقال: يام، ﴿وَكَانَ فِي مَعَزٍ﴾ أي في
 مكان مُنْقَطِعٍ، وقيل: في مَعَزٍ من دِينِ أَبِيهِ، وكان ينافقه بإظهار الإيمان،
 فدعاه إلى الركوب ظناً أنه مؤمن فقال: ﴿سَأُؤَيِّدُكَ إِلَى جَبَلٍ يَعْصِمُنِي﴾^(٢) أي
 يعني من الماء. ﴿قَالَ لَا عَاصِمَ﴾ أي لا معصوم كقوله: ﴿مَنْ مَاءٌ إِذَا فُتِقَ﴾^(٣) أي
 مدفوق ﴿إِلَّا مَنْ رَحِمَ اللَّهُ﴾ فإنه معصوم.

﴿وَحَالَ بَيْنَهَا الْمَوْجُ﴾ فيه قولان: أحدهما: بَيَّنَّ كَنَعَانَ وَالْجِبَلَ الَّذِي زَعَمَ أَنَّهُ
 يعصمه. قال ابن عباس.
 والثاني: بَيَّنَّ نُوحٌ وَابْنَهُ. قاله مقاتل.

قوله تعالى: ﴿وَقِيلَ يَا أَرْضُ ابْلَعِي مَاءَكِ﴾ قال ابن عباس: ابتلعت ما ظهر
 منها وبقي ماء السماء بحاراً وأنهاراً.

﴿وَيَا سَمَاءَ أَقْلِعِي﴾ أي أمسكي عن إنزال الماء. ﴿وَغِيضَ الْمَاءِ﴾ نقص
 ﴿وَقُضِيَ الْأَمْرُ﴾ بغرق القوم ﴿وَاسْتَوَتْ﴾ يعني السفينة ﴿عَلَى الْجُودِيِّ﴾^(٤)،
 وهو جبل بالموصل.

وإنما قال نوح: ﴿رَبِّ إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي﴾^(٥) لأن الله تعالى وعده نجاة أهله.
 فقيل له: ﴿إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ﴾^(٦) أي من أهل دينك. وإنما قال تعالى في وعده:
 ﴿وَأَهْلِكَ إِلَّا مَنْ سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ﴾^(٦).

قوله تعالى: ﴿إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ﴾^(٧) يعني السؤال فيه. وقرأ الكسائي:
 «عَمِلٌ» بكسر الميم، يشير إلى أنه مُشْرِكٌ.

(٧) هود ٤٠.

(٤) هود ٤٤.

(١) هود ٤٢.

(٥) هود ٤٥.

(٢) هود ٤٣.

(٦) هود ٤٦.

(٣) الطارق ٦.

أخبرنا المحمّدان ابن ناصر وابن عبد الباقي، قالوا: أنبأنا أحمد بن أحمد، حدثنا أبو نعيم أحمد بن عبد الله، حدثنا أبو بكر بن مالك، حدثنا عبد الله بن أحمد، حدثني أبي، حدثنا عبد الرزاق، حدثنا وهيب بن الورد، قال، قال: لما عاتب الله تعالى نوحاً في ابنه وأنزل عليه: ﴿إِنِّي أَعْظَمُكَ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾ (١) بكى ثمانمائة عام حتى صار تحت عينيه مثل الجدول من البكاء!

قال علماء السيرة: لما خرجوا من السفينة بنوا قرية سموها «ثمانين» بعددهم، ثم ماتوا ولم يبق لهم نسل.

وإنما الناس كلهم من أولاد نوح، وكانوا ثلاثة: سام وحام ويافت.

فمن أولاد سام: فارس وطسم وعمليق، وهو أبو العماليق كلهم، وإرم وأرفخشذ ومن أولاد أرفخشذ: الأنبياء والرسل والعرب كلها، والفرعنة بمصر.

ومن أولاد إرم عابر وعوص، ومن ولد عابر: ثمود وجديس وكانوا عرباً، وولد عوص عاداً، وكانت طسم وعمليق وجاسم يتكلمون بالعربية، وكانت العرب تقول لهم: العرب العاربة، لأنه كان لسانهم الذي جبلوا عليه وتقول لبني إسماعيل: العرب المتعربة. لأنهم تكلموا بلسان الأمم الذين سكنوا بين أظهرهم.

وولد لعابر فالغ ومعناه بالعربية قاسم، لأنه قسم الأرض بين بني نوح. وولد لفالغ أرغو، ولأرغو ساروغ، ولساروغ ناحور، ولناحور تارخ أبو إبراهيم الخليل عليه السلام.

وولد لعابر أيضاً قحطان، وقحطان أول من ملك اليمن، وأول من سلّم عليه بأبيّة اللّعن. ومن أولاد حام كوش، وولد لكوش نمرود الجبار. ومن أولاد ومن أولاد حام كوش، وولد لكوش نمرود الجبار. ومن أولاد نمرود هذا. نمرود الذي ابتلي به الخليل.

(١) هود ٤٦.

ومن أولاد حامِ السُّودان والبربر والقِبَط .
ومن أولاد يافث الترك ويأجوج ومأجوج والصَّقَالِبَة .

ولما كثر أولاد نوح اقتسموا الأرض ، فنزل بنو سام سرَّة الأرض ، فجعل
فيهم النَّبُوَّة والكتاب والجمال - ونزل بنو حام مَجْرَى الجنوب والدَّبُور . ونزل
بنو يافث مجرى الشَّال والصَّبَا ، فاشتدَّ برِّدهم .

ولما قُصَّت قصة نوح على نبينا ﷺ قيل له : ﴿ فاصبرْ إن العاقبة للمتقين ﴾ (١)
والمعنى : اصبر كما صبر نوح ، فإن الظَّفَر والتمكين لمن اتقى . والمراد : ليحصل
لك كما حصل لنوح عليه السلام والمؤمنين .

الكلام على البسمة

عجباً لعيني كيف يطرُقها الكرى
ألهو وأعلم أنه قد فوَّقت
وإذا هممت بتوبة وإنابة
كم قد سمعتُ وقد رأيت مَواعظاً
أين الذين طَعَوْا وجاروا واعتدوا
أو ليس أعطتهم مقاليد العَلا
وتمسكوا بجبالها لكتنها
ما أخذتهم بعد سالفِ رِفعة
وإلى البلى قد نقلوا وتشوهت
لو أخبروك بجالهم ومآلم
أفناهم من ليس يفنى ملكه
فاصرف عن الدنيا طِماعك إنما
وصل السرى عنها فما ينجيك من

يا حاملاً من الدنيا أثقالاً ثقلاً ، يا مطمئناً لا بدَّ أن تنتقل انتقالاً ، يا مُرسِلاً

(١) هود ٤٩ .

عَنانَ لَهْوِهِ فِي مِيدانِ زَهْوِهِ إرسالاً ؛ كأنك بجفنيك حين عَرَضَ الكِتابُ عَلَيْكَ قَد
سألاً .

أين المَعْتَرِفُ بما جَنَّاهُ، أين المَعْتَذِرُ إلى مَولاهُ، أين التائبُ من خَطاياها، أين
الآيبُ مِن سَفَرِ هَواها، نيرانُ الإِعترافِ تَأْكُلُ خَطاياها الإِقترافِ، مَجانيقُ
الزَّفَراتِ تَهْدِمُ حِصونَ السِئاتِ، مِياهُ الحِسرِاتِ تَغسِلُ أُنجاسَ الخَطِياتِ .

يا طالِبَ النِجاةِ دُمِّ عَلى قَرعِ البابِ، وزاحِمَ أَهلِ التَقى أُولي الألبابِ،
ولا تَبْرَحْ وإِنْ لَمْ يَفْتَحْ فَرَبِ نِجاحِ بَعْدِ الياسِ، ورُبَّ غَنيٍّ بَعْدَ الإِفلاسِ .

صِبراً فَمَما يَظْفِرُ إِلا مَن صَبَرَ إِنَّ اللَّياليَ واعداتُ بِالظَّفَرِ
ورَبَّما يَنْهَضُ جَدُّ مَن عَثَرَ ورُبَّ عَظَمَ هِيسَ حِيناً وانجَبِرُ

إِذا تَبَّتَ مِن ذُنوبِكَ فاندِمْ عَلى عِيوبِكَ، وامحُ بدموعِكَ قَبِيعَ مَكتوبِكَ،
والبسِ جِلبابَ الفِرَقِ، وتضَرَّعْ عَلى بابِ القَلقِ، وقِلْ بلسانِ المَحترِقِ :

قَد فَعَلتُ القَبِيعَ وَهُوَ شَبِهي خَطأً فافعَلِ الجَميلَ بَعفوكِ
وَقَدتُ رَغَيتي إِليكِ وَمَا زَلتُ تَحِيَّيَ بِالنُّجَحِ أوجُهُ وَفَدِكَ
قف وقوفَ المَنكسرِينَ، وتبتَلْ تبتَلِ المَعْتَذِرِينَ، واستشعرِ الخِضوعَ،
واستجلبِ الدموعَ، واحتلْ واحذرِ سَهْمَ الغُضبِ أَنْ يَصِيبَ المَقْتَلِ .

يا سِدي ما هَفُوتِ بِغَريبِي مَنِّي ولا عُفَرائِها بِطَريفِ
فإنْ تَقَبَلِ العَبْدَ الضَعيفَ تَطوُّلاً فإنْ رَجائي فيكَ غيرُ ضَعيفِ

كَم أَتيتُ ذَنْباً فَسَترتُ، وَكَم جَنيتُ جَنايَةً فَنَظَرْتُ، فَبالحِلمِ وَالكَرَمِ إِلا غَفرتُ .

فَقَدُ طالَما أَنقَذتَني يَدَاكِ وَقَد قَلَقتَني جِبالُ الرَدَى
فَو اللهُ لا شِمتُ غِثاً سِواكَ فإِما نَدائِكَ وإِما الصَّدى

إِخواني: إِمَّا مَرِضُ القُلوبِ مِنَ الذُنُوبِ، وَأَصِلُ العَافيةِ أَنْ تَتُوبَ، دَوامِ
التَخْلِيطِ يَوقِعُ فِي صِعبِ العِلالِ، أَسَمَعَتْ يا مَرِيضَ الشَّرِّهَ، كَم رأيتُ صَريعاً!

أقرع باب الطبيب يصف لمرضك نسخة، قبل أن تسري سكتة التفريط إلى موت الهلاك.

تلاوة القرآن تعمل في أمراض الفؤاد ما يعمله العسل في عِلل الأجساد،
مواظبة القرآن لأمراض القلوب شافية، وأدلة القرآن لطلب الهدى كافية، أين
السالكون طريق السلامة والعافية، مالي أرى السبل من القوم عافية.

إنّ السعيد لمُدركٍ دَرَكًا وأخو الشقاوة فهو في الدركِ
وإلى الخمول مآلٍ ذي لعبٍ وإلى السكونٍ مصيرٍ ذي حركِ
طار الحِمَامُ وغاص مُقْتَدِرًا فأمات حتى الطير والسمكِ
إنّ الزمان إذا غَدَا وَعَدَا قتل الملوک بکل مُعْتَرِكِ
والعين تُبصرُ أين حَبَّتْهَا لكنها تَعْمَى عن الشَّرِكِ
أنكرتُ هذا الموت ما أرتبكت نفسي هناك أشدَّ مُرْتَبِكِ
ما ضَرَّ ذَاكِرُهُ ونَاظِرُهُ أن لا ينام على سِوَى الحَسِكِ

سجع على قوله تعالى

﴿يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا﴾ (١)

يا من بين يديه يوم لا شك فيه ولا مِرَا، يقع فيه الفراق، وتنفصم العرى،
تدبّر أمرك قبل أن تحضر فترى، وانظر لنفسك نظر من قد فهم ما جرى،
قبل أن يغضب الحاكم والحاكم ربّ الورى، ﴿يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَا عَمِلَتْ مِنْ
خَيْرٍ مُّحْضَرًا﴾.

يوم تشيب فيه الأطفال، يوم تسير فيه الجبال، يوم يظهر فيه الوبال، يوم
تنطق فيه الأعضاء بالخصال، يوم لا تُقال فيه الأعتار، وكم من أعتار تقال فترى
من افتري، يقدم قداماً ويؤخر أخرى ﴿يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ
مُحْضَرًا﴾.

(١) آل عمران ٣٠.

فِيُنصَبَ الصَّرَاطُ فَنَاجُ وَوَاقِعٌ ، وَيُوضَعُ الْمِيزَانُ فَتَكْثُرُ الْفَضَائِعُ ، وَتُنشَرُ الْكُتُبُ
وَتَسِيلُ الْمَدَامِعُ ، وَتَظْهَرُ الْقَبَائِحُ بَيْنَ تِلْكَ الْمَجَامِعِ ، وَيُؤَلِّمُ الْعِقَابُ وَتَمْلَى الْمَسَامِعُ ،
وَيُخْسِرُ الْعَاصِي وَيُرِيحُ الطَّائِعُ ، فَكَمْ غَنِيٍّ قَدْ عَادَ مِنَ الْخَيْرِ مَفْتَقِرًا ﴿يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ
نَفْسٍ مَا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُحْضَرًا﴾ .

أَخْبَرَنَا هَبَةُ اللَّهِ بْنِ مُحَمَّدٍ ، أَنْبَأَنَا الْحَسَنُ بْنُ عَلِيٍّ ، حَدَّثَنَا أَحْمَدُ بْنُ جَعْفَرٍ ، حَدَّثَنَا
عَبِيدُ اللَّهِ بْنُ أَحْمَدَ ، حَدَّثَنِي أَبِي ، حَدَّثَنَا سَلِيمَانُ بْنُ حَيَّانَ ، حَدَّثَنَا ابْنُ عَوْنٍ ، عَنْ
نَافِعٍ ، عَنْ ابْنِ عُمَرَ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ : ﴿يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ (١) يَقُومُ
أَحَدُهُمْ فِي رَشْحِهِ إِلَى أَنْصَافِ أُذُنَيْهِ .

قَالَ أَحْمَدُ : وَحَدَّثَنَا وَكَيْعٌ ، قَالَ : حَدَّثَنَا الْأَعْمَشُ ، عَنْ خَيْثَمَةَ ، عَنْ عَدِيِّ بْنِ
حَاتِمٍ ، قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : « مَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا سَيَكَلِّمُهُ رَبُّهُ عَزَّ وَجَلَّ
لَيْسَ بَيْنَهُ وَبَيْنَهُ تَرْجَمَانٌ ، فَيَنْظُرُ عَنْ أَيْمَنِ مِنْهُ فَلَا يَرَى شَيْئًا قُدَّامَهُ وَيَنْظُرُ عَنْ
أَشْأَمِ مِنْهُ فَلَا يَرَى شَيْئًا قُدَّامَهُ ، وَيَنْظُرُ أَمَامَهُ فَتَسْتَقْبِلُهُ النَّارُ ، فَمَنْ اسْتَطَاعَ مِنْكُمْ
أَنْ يَتَّقِيَ النَّارَ وَلَوْ بِشِقِّ تَمْرَةٍ فَلْيَفْعَلْ » . هَذَا الْحَدِيثَانِ فِي الصَّحِيحِينَ .

رَوَى عْتَبَةُ بْنُ عَبِيدٍ ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ قَالَ : « لَوْ أَنَّ رَجُلًا يُجَرُّ عَلَى وَجْهِهِ مِنْ
يَوْمٍ وُلِدَ إِلَى يَوْمٍ يَمُوتُ هَرَمًا فِي مَرْضَاةِ اللَّهِ لَحَقَرَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ » .

يَا لَهُ مِنْ يَوْمٍ يَقْتَصِّرُ لِلْمَظْلُومِ مِنَ الظَّالِمِ ، وَتَحِيطُ بِالظَّالِمِ الْمَظْلُومَ ، وَتَصْعَدُ
الْقُلُوبُ إِلَى الْعَلَاصِمِ ، وَلَيْسَ لِمَنْ لَا يَرْحَمُهُ الْإِلَهَ عَاصِمٌ .

قَالَ عَلَيْهِ السَّلَامُ : « لَتَوُذَّنَ الْحَقُوقُ إِلَى أَهْلِهَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ حَتَّى يُقَادَ لِلشَّاةِ
الْجَمَاءُ مِنَ الشَّاةِ الْقَرْنَاءُ » .

وَقَالَ ﷺ : « يُحْبَسُ الْمُؤْمِنُونَ عَلَى قَنْطَرَةٍ بَيْنَ الْجَنَّةِ وَالنَّارِ فَيُقْتَصَّرُ لِبَعْضِهِمْ
مِنْ بَعْضٍ ، مِثْلَ مَنْ كَانَتْ بَيْنَهُمْ فِي الدُّنْيَا ، حَتَّى إِذَا هُدِّبُوا وَنُقُوا أُذُنُ لَهُمْ فِي دُخُولِ
الْجَنَّةِ » .

كَمْ مِنْ وَعِيدٍ يَخْرُقُ الْآذَانَ
كَأَنَّمَا يُعْنَى بِهِ سِوَانَا
أَصْمَنَا الْإِهْمَالَ بَلْ أَعْمَانَا.

يا كثير السيئاتِ غداً ترى عملك، يا هاتكِ الحرمات، إلى متى تديمِ زللكِ .
تَيْقُظُ فَإِنَّكَ فِي غَفْلَةٍ يَمِيدُ بِكَ السُّكْرُ فِيمَنْ يَمِيدُ
وَأَيَّ مَنِيْعٍ يَقُوتُ الْبَلَى إِذَا كَانَ يَبْلَى الصِّفَا وَالْحَدِيدُ
إِذَا الْمَوْتُ دَبَّتْ لَهُ حِيلَةٌ فَتَلُكِ الَّتِي كُنْتَ مِنْهَا تَحِيدُ
أَرَاكَ تُؤْمَلُ وَالشَّيْبُ قَدْ أَتَاكَ بِنَعِيكَ مِنْهُ بَرِيدُ
وَتَنْقُصُ فِي كُلِّ تَنْفِيْسَةٍ وَعِنْدَكَ أَنْكَ فِيهَا تَزِيدُ

أما تعلم أن الموت يسعى في تبديد شملك، أما تخاف أن تؤخذ على قبيح فعلك، واعجباً لك من راحل تركت الزاد في غير رحلك، أين فطنتك ويقظتك وتدبير عقلك، أما بارزت بالقبيح فأين الحزن، أما علمت أن الحق يعلم السر والعلن، ستعرف خبرك يوم ترحل عن الوطن، وستنتبه من رقادك ويزول هذا الوسن.

إلى الله تُبِّ قَبْلَ انْقِضَاءِ مِنَ الْعُمُرِ أَخِي وَلَا تَأْمَنُ مُسَاوِرَةَ الدَّهْرِ
فَقَدْ حَدَّثَتْكَ الْحَادِثَاتُ نَزْوِلَهَا وَنَادَتْكَ إِلَّا أَنْ سَمِعَكَ ذُو وَقْرِ
تَنُوحُ وَتَبْكِي لِلْأَجْبَةِ إِنْ مَضَوْا وَنَفْسُكَ لَا تَبْكِي وَأَنْتَ عَلَى الْإِثْرِ

الكلام على قوله تعالى

﴿وَيَحْذَرُكَ اللَّهُ نَفْسَهُ﴾ (١)

يا مبارزاً بالذنوب خذ حذرَكَ، وتوقَّ عقابه بالتقى فقد أُنذرك، وخَلَّ الهوى فإنه كما ترى صيرَكَ، قبل أن يغضب إلهه ويضيق حبسه، ﴿ويحذركم الله نفسه﴾ .

اجتهد في تقوية يقينك قبل خسر موازينك، وقم بتضرعك وخيفتك قبل

(١) آل عمران ٢٨ و ٣٠ .

نَشْرُ دَوَاوِينِكَ، وَابْذُلْ قُوَاكَ فِي ضَعْفِكَ وَلِينِكَ، قَبْلَ أَنْ يَدْنُوَ الْعَذَابُ فَتَجِدَ مَسَّهُ، ﴿وَيُحَذِرُكَ اللَّهُ نَفْسَهُ﴾.

لَمَّا سَمِعَ الْمُتَيْقِظُونَ هَذَا التَّحْذِيرَ فَتَحُوا أَبْوَابَ الْقُلُوبِ لِنَزُولِ الْخَوْفِ، فَأَحْزَنَ الْأَبْدَانَ وَقَلَّلَ الْأَرْوَاحَ فَعَاشَتْ الْيَقِظَةُ بِمَوْتِ الْهَوَى، وَارْتَفَعَتِ الْغَفْلَةُ بِجُلُودِ الْهَيْبَةِ، وَانْهَزَمَ الْكَسَلُ بِجَيْشِ الْحَذَرِ، فَتَهَدَّيْتُ الْجَوَارِحَ مِنَ الزَّلَلِ وَالْعِزَائِمِ مِنَ الْخَلَلِ، فَلَا سَكُونَ لِلْخَائِفِ، وَلَا قَرَارَ لِلْعَارِفِ، كَلِمَا ذَكَرَ الْعَارِفُ تَقْصِيرَهُ نَدِيمٍ عَلَى مُصَابِهِ، وَإِذَا تَصَوَّرَ مَصِيرَهُ حَذِرَ مِمَّا فِي كِتَابِهِ، وَإِذَا خَطَرَ الْعِتَابَ بِفَنَائِهِ فَالْمَوْتَ مِنْ عِتَابِهِ، فَهُوَ رَهِينُ الْقَلْقِ بِمَجْمُوعِ أَسْبَابِهِ.

كَانَ دَاوُدُ عَلَيْهِ السَّلَامُ إِذَا خَرَجَ يَوْمَ نِيَاحَتِهِ عَلَى ذَنْبِهِ أَقْلَعَ مَجْلِسَهُ عَنْ أَلُوفٍ قَدْ مَاتُوا مِنَ الْخَوْفِ عِنْدَ ذِكْرِ رَبِّهِ.

وَكَانَ عَمْرُ بْنُ الْخَطَّابِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يَمُرُّ بِالْآيَةِ فِي وَرْدِهِ فَيَبْكِي حَتَّى يَسْقُطَ، وَيَبْقَى فِي الْبَيْتِ مَرِيضًا يُعَاد.

وَقَرَأَ الْحَسَنُ لَيْلَةً عِنْدَ إِفْطَارِهِ: ﴿إِنَّ لَدَيْنَا أَنْكَالًا وَجَحِيهَاً وَطَعَامًا ذَا غُصَّةٍ﴾ (١) فَبَقِيَ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ لَا يَطْعَمُ.

حَقِيقٌ بِمَنْ عَلِمَ مَا بَيْنَ يَدَيْهِ، وَتَيَقَّنَ أَنَّ الْعَمَلَ يُحْصَى عَلَيْهِ، وَأَنَّهُ لَا بَدَّ مِنَ الرَّحِيلِ عَمَّا لَدَيْهِ، إِلَى مَوْقِفٍ صَعْبٍ يَسَاقُ إِلَيْهِ، يَتَجَافَى عَنْ مُضْطَجَعِ الْبَطَالَةِ بِجَنْبِهِ.

قَالَ حَاتِمُ الْأَصَمِّ: مِنْ خَلَا قَلْبُهُ مِنْ ذِكْرِ أَخْطَارِ أَرْبَعَةٍ فَهُوَ مُغْتَرٌّ، فَلَا يَأْمَنُ الشَّقَاءَ.

الأول: خَطَرَ يَوْمَ الْمِيثَاقِ، حِينَ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: هُوَلَاءُ فِي الْجَنَّةِ وَلَا أَبَالِي وَهُوَلَاءُ فِي النَّارِ وَلَا أَبَالِي؛ وَلَا يَعْلَمُ فِي أَيِّ الْفَرِيقَيْنِ كَانَ؟

والثاني: حِينَ خُلِقَ فِي ظِلْمَاتٍ ثَلَاثٍ، فَنُودِيَ الْمَلِكُ بِالشَّقَاءِ وَالسَّعَادَةِ،

(١) المزمّل ١٢ - ١٣.

ولا يدري أمن الأشقياء هو، أم من السعداء؟

والثالث: ذكر هَوْلِ المَطَّلَعِ، ولا يدري أَيْبَشِرُ برضا الله تعالى أو بسَخَطِهِ؟

والرابع: يوم يَصْدُرُ النَّاسُ أَشْتَاتًا، ولا يدري أي الطريقين يُسَلِّكُ بِهِ.

فمَحْقُوقٌ لصاحب هذه الأخطار أن لا يفارق الحزن قلبه!

بكى عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه ليلة فأطال، فسئل عن بكائه، فقال:
ذَكَرْتُ مُصِيرَ القَوْمِ بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ ﴿فَرِيقٌ فِي الجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِي
السَّعِيرِ﴾ (١) ثم صرخ وغشي عليه.

كأنني لست أدري	كم ذا أغالط أمري
ن في مَقْدَمِ عُمَرِي	أَغْفَلْتُ ذَا الَّذِي كَانَا
حتى تصرم دَهْرِي	ولم أزل أتماذي
بالذنب في رمس قَبْرِي	مَنْ لِي إِذَا صِرْتُ رَهْنًا
رَبِّي ليقبل عذري	بأيِّ عذر أَلْقِي
رك المنى لیت شعري	فليت شعري متى أذ

يا من قد وهى شبابه، وامتلأ بالزَّلَلِ كتابه، أما بلغك أن الجلود إذا
استشهدت نطقت، أما علمت أن النار للعصاة خلقت، إنها لتحرق كل ما
يلقى فيها، فيصعب على خزنتها كثرة تلاقيها، التوبة تحجب عنها، والدمعة
تطفئها، قال ﷺ: « لو أن قطرة من الزقوم قطرت في الأرض لأمرت على
أهل الدنيا معيشتهم » فكيف بمن هو طعامه لا طعام له غيره!

أسفًا لأهل النار لقد هلكوا وشقوا، لا يقدر الواصف أن يصف ما قد لقوا،
كلما عطشوا جيء بالجميم فسقوا، وهذا جزاؤهم إذا خرجوا عن الطاعة
وغسقوا، فطعوا والله بالعذاب ومزقوا، وأفرد كل منهم عن فريقه وفرقوا، فلو
رأيتهم قد كبلوا في السلاسل وأوثقوا واشتد زفيرهم وتضرع أسيرهم وقلقوا،

(١) الشورى ٧.

وَتَمَنَّوْا أَنْ لَمْ يَكُونُوا وَتَأَسَّفُوا كَيْفَ خُلِقُوا، وَنَدَمُوا إِذْ أَعْرَضُوا عَنِ النَّصْحِ وَقَدْ
صَدَّقُوا، فَلَا اعْتِذَارَ لَهُمْ يُسْمَعُ، وَلَا بَكَاءَ لَهُمْ يَنْفَعُ وَلَا أُعْتِقُوا.

لو أبصرت عيناك أهل الشقا
تقول أولاهم لأخراهم
قد كنتم حذرتم حرها
وجيء بالنيران مزمومة
وقيل للنيران أن أحرقني
وأولياء الله في جنّة
تدبروا كم بينهم إخوتي
في النار قد غلّوا وقد طوّقوا
في جحج المهل وقد أغرقوا
لكن من النيران لم تفرقوا
شراها من حوّلها مُحَدِق
وقيل للخزّان أن أطيّقوا
قد توجّوا فيها وقد منطّقوا
ثم أجيلوا فكركم وانتقوا

المجلس الخامس في قصة عاد

الحمد لله المنزه عن الأشباه في الأسماء والأوصاف، المقدس عن الجوارح والآلات والأطراف، خضعت لعزته الأكوان وأقرت عن اعتراف، وانقادت له القلوب وهي في انقيادها تخاف، أنزل القطر فمنه الدر تحويه الأصداف، ومنه قوت البذور يربي الضعاف.

كشّف للمتقين اليقين فشهدوا، وأقامهم في الليل فسهروا وشهدوا، وأراهم عيب الدنيا فرفضوا وزهدوا، وقالوا نحن أضياف.

وقضى على المخالفين بالبعاد فأفاتهم التوفيق والإسعاد، فكلمهم هام في الضلال وما عاد ﴿وَأذْكُرْ أَخَا عَادٍ إِذْ أَنْذَرَ قَوْمَهُ بِالْأَحْقَافِ﴾^(١).

أحده على ستر الخطايا والاقتراف، وأصلي على رسوله محمد الذي أنزل عليه قاف، وعلى صاحبه أبي بكر الذي أمن ببيعته الخلاف، وعلى عمر صاحب العدل والإنصاف، وعلى عثمان الصابر على الشهادة صبر النّظاف، وعلى علي بن أبي طالب محبوب أهل السنة الطّراف، وعلى عمه العباس مقدّم أهل البيت والأشراف.

[جد سيدنا ومولانا أمير المؤمنين بلغه الله ما يرجو وأمنه مما يخاف].

قال الله: ﴿وَأذْكُرْ أَخَا عَادٍ إِذْ أَنْذَرَ قَوْمَهُ بِالْأَحْقَافِ﴾.

الأخ في القرآن على أربعة أوجه: أحدها الأخ من الأب والأم، أو من

(١) الأحقاف ٢١.

أحدهما . ومنه : ﴿ فَطَوَّعْتُ لَهُ نَفْسَهُ قَتْلَ أَخِيهِ ﴾ (١)
والثاني : الأخ من القبيلة ومنه : ﴿ وَاذْكُرْ أَخَا عَادٍ ﴾ .

والثالث : الإخاء في المتابعة . ومنه : ﴿ كَانُوا إِخْوَانَ الشَّيَاطِينِ ﴾ (٢) .

والرابع : الصاحب ومنه قوله تعالى : ﴿ إِنَّ هَذَا أَخِي ﴾ (٣) .

والإنذار : الإعلام مع التخويف . والأحقاف : الرمال العظام . واحدها
حِقْفٌ .

وفي مكان هذه الأحقاف ثلاثة أقوال : أحدها : بالشام . قاله ابن عباس .
والثاني : بينَ عَمَانَ ومهيرة . قاله عطية . والثالث : أرض يقال لها الشَّحْرُ نحو
البحر . قاله قتادة .

وقال ابن إسحاق : كانت منازلهم فيما بين عَمَانَ إلى حضرموت باليمن كله ،
وكانوا قد فسَدُوا في الأرض وقهروا أهلها بفضل قوتهم ، وكانوا أصحاب
أوثان فاتبعه ناسٌ يسير ، وكتبوا إيمانهم . قال مقاتل : كان طول كل رجل منهم
اثنى عشر ذراعاً . وقال مجاهد : وكان الرجل منهم لا يحتلم حتى يبلغ مائتي سنة .
﴿ وَوَقَدْ خَلَّتْ النَّذْرُ ﴾ (٤) أي مضت من قبل هودٍ ومن بعده . وقوله :
﴿ لِتَأْفِكَنَا عَنْ آلِهَتِنَا ﴾ أي لتصرفنا عن آلهتنا بالإفك .

﴿ قَالَ إِنَّمَا الْعِلْمُ عِنْدَ اللَّهِ ﴾ أي هو يعلم متى يأتيكم العذاب ﴿ فَلَمَّا رَأَوْهُ ﴾
يعني ما يوعدون ﴿ عَارِضًا ﴾ (٥) أي سحاباً يعرض في ناحية السماء .

وقوم عاد هؤلاء أولاد عوص بن إرم بن سام بن نوح ، وهي عاد الأولى
بعث الله تعالى إليهم هود بن عبد الله بن رباح ابن الخلود ، بن عاد بن شالخ بن

(٤) الاحقاق ٢١ .

(٥) الاحقاف ٢٤ .

(١) المائدة ٣٠ .

(٢) الإسراء ٢٧ .

(٣) ص ٢٣ .

أرفخشد بن سام. كانوا يعبدون الأوثان فدعاهم إلى التوحيد، فكلما أنذرهم زاد طغيانهم. فحبس الله تعالى عنهم القطر ثلاث سنين، حتى جهدوا فبعثوا إلى مكة وفداً يستسقي لهم، وكانوا سبعين رجلاً، منهم قبيل ونعيم وجلهمة ولقمان بن عاد ومرثد بن سعد، وكان مرثد مؤمناً يكرم إيمانه، وكان الناس مؤمنهم وكافرهم إذا جهدوا سألوا الله تعالى عند الكعبة، فنزلوا على بكر بن معاوية، وكان خارجاً من الحرم فأكرمهم، وكانوا أصهاره وأخواله، وكان سكان مكة العماليق، أولاد عمليق بن لاوذ بن سام بن نوح، فجعل بكر يسقيهم الخمر وتغنيهم الجرادتان شهراً، فلما رأى بكر طول مقامهم عنده قال: هلك أخوالي وأصهارى، هؤلاء ضيفي، فما أدري ما أصنع، وأستحي أن آمرهم بالخروج. فشكا ذلك إلى قينتيه الجرادتين، فقالتا: قل شعراً نغنيهم به لا يدرون من قاله. فقال:

أَلَا يَا قَيْلُ وَيْحَكَ قُمْ فَهَيْمُ لَعَلَّ اللَّهَ يَمْنَحُنَا غَمَامَا
فَتَسْقِي أَرْضَ عَادٍ إِنْ عَادَا قَدْ أَمَسُوا لَا يُبِينُونَ الْكَلَامَا
مِنَ الْعَطَشِ الشَّدِيدِ فَلَيْسَ نَرْجُو بِهِ الشَّيْخَ الْكَبِيرَ وَلَا الْغَلَامَا
وَقَدْ كَانَتْ نَسَاؤُهُمْ بِخَيْرٍ وَقَدْ أُمِسَتْ نَسَاؤُهُمْ عِيَامِي
وَإِنَّ الْوَحْشَ تَأْتِيهِمْ نَهَارًا وَلَا تَخْشَى لِعَادِيَّ سِهَامَا
وَأَنْتُمْ هَاهُنَا فَمَا اشْتَهَيْتُمْ نَهَارَكُمْ وَلَيْلَكُمْ التَّمَامَا
فَقَبِّحْ وَقُدِّمْ مِنْ وَفْدِ قَوْمٍ وَلَا لُقُّوْا التَّحِيَّةَ وَالسَّلَامَا

فلما سمعوا هذا قالوا: ويحكم ادخلوا الحرم فاستسقوا لقومكم. فقال مرثد: إنكم والله لا تسقون بدعائكم، ولكن إن أطعتم نبيكم سقيم. فقال جلهمة: احبسوا عنا هذا ولا يقدم معنا مكة، فإنه قد اتبع دين هود. ثم خرجوا يستسقون، فنشأت ثلاث سحائب: بيضاء وحرء وسوداء. ثم نودي منها: يا قَيْلُ اخْتَرْ. فقال: أختار السوداء لأنها أكثر ماءً. وقيل للوفد: اختاروا. فقال مرثد يا رب أعطني صدقاً وبراً. فأعطني. وقال لقمان بن عاد: أعطني عمراً. فأختار عمر سبعة أنسر، فكان يأخذ الفرخ حين يخرج من البيضة، ويأخذ

الذِّكْر لِقَوْتِهِ، حَتَّى إِذَا مَاتَ أَخَذَ غَيْرَهُ إِلَى أَنْ مَاتَتِ السَّبْعَةُ. فَهَاتِ.

وَأَمَّا السَّحَابَةُ فَسَاقَهَا اللَّهُ تَعَالَى إِلَى عَادَ، حَتَّى خَرَجَتْ عَلَيْهِمْ مِنْ وَادٍ لَهُمْ يُقَالُ لَهُ مُعَيْثٌ، فَلَمَّا رَأَوْهَا اسْتَبَشَرُوا بِهَا وَقَالُوا: ﴿هَذَا عَارِضٌ مُمْطِرُنَا﴾^(١). فَكَانَ أَوَّلَ مَنْ رَأَى مَا فِيهَا أَمْرَأَةً مِنْهَا فَصَاحَتْ وَصَعَقَتْ، فَقِيلَ لَهَا: مَا رَأَيْتِ؟ فَقَالَتْ: رِيحاً فِيهَا كَشْهَبُ النَّارِ، أَمَامَهَا رِجَالٌ يَقُودُونَهَا.

فَسَخَّرَهَا اللَّهُ عَلَيْهِمْ ﴿سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَانِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا﴾ أَيَّ مُتَابَعَةٍ ابْتَدَأَتْ غُدُوَّةَ الْأَرْبَعَاءِ آخِرَ أَرْبَعَاءِ فِي الشَّهْرِ، وَسَكَنْتِ فِي الْيَوْمِ الثَّامِنِ.

وَاعْتَزَلَ هُودٌ وَمَنْ مَعَهُ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ فِي حَظِيرَةٍ مَا يَصِيبُهُمْ مِنْهَا إِلَّا مَا يُلِينُ الْجُلُودَ وَتَلْتَذُ عَلَيْهِ النَّفُوسُ.

فَكَانَتْ الرِّيحُ تَقْلَعُ الشَّجَرَ وَتَهْدِمُ الْبَيْوتَ وَتَرْفَعُ الرِّجَالَ وَالنِّسَاءَ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ فَتَدُقُّ رِقَابَهُمْ فَيَسِينُ الرَّأْسُ عَنِ الْجَسَدِ. فَذَلِكَ مَعْنَى قَوْلِهِ: ﴿كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلِ خَاوِيَةٍ﴾^(٢) ثُمَّ تَدْمَغُهُمْ بِالْحِجَارَةِ. قَالَ عُمَرُ بْنُ مَيْمُونٍ: كَانَتْ الرِّيحُ تَحْمِلُ الطَّعِينَةَ فَتَرْفَعُهَا حَتَّى تُرَى كَأَنَّهَا جَرَادَةٌ.

أَخْبَرَنَا عَبْدُ الْوَهَّابِ بْنُ الْمُبَارَكِ، أَنبَأَنَا عَاصِمُ بْنُ الْحَسَنِ، أَنبَأَنَا عَلِيُّ بْنُ مُحَمَّدِ بْنِ بَشْرَانَ، حَدَّثَنَا الْحَسَنُ بْنُ صَفْوَانَ، حَدَّثَنَا أَبُو بَكْرِ الْقُرَشِيُّ، حَدَّثَنَا ابْنُ عَبْدِ الْوَهَّابِ، حَدَّثَنَا مُحَمَّدُ بْنُ يَزِيدَ، عَنْ جُوَيْرٍ، حَدَّثَنِي أَبُو دَاوُدَ، أَنَّهُ سَمِعَ ابْنَ عَبَّاسٍ يَقُولُ أَوَّلُ مَا عَرَفُوا أَنَّهُ عَذَابٌ: رَأَوْا مَا كَانَ خَارِجًا مِنْ رِجَالِهِمْ وَمَوَاشِيهِمْ يَطِيرُ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ مِثْلَ الرِّيشِ، فَدَخَلُوا بَيْوتَهُمْ وَأَغْلَقُوا أَبْوَابَهُمْ، فَجَاءَتْ الرِّيحُ فَفَتَحَتْ أَبْوَابَهُمْ وَهَالَتْ عَلَيْهِمْ بِالرَّمْلِ، فَكَانُوا تَحْتَ الرَّمْلِ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَانِيَةَ أَيَّامٍ لَهُمْ أَنْيُنٌ، ثُمَّ قَبِضَتْ أَرْوَاحَهُمْ وَطَرَحَتْهُمُ الرِّيحُ وَأَلْقَوْا فِي الْبَحْرِ، ﴿فَأَصْبَحُوا لَا يُرَى إِلَّا مَسَاكِنُهُمْ﴾^(٣).

وَقَالَ مُقَاتِلٌ: بَعَثَ اللَّهُ طَيْرًا أَسْوَدَ فَالْتَقَطَهُمْ حَتَّى أَلْقَاهُمْ فِي الْبَحْرِ.

(١) الاحقاف ٢٤.

(٢) الأحقاف ٢٥.

(٣) الحاقة ٧.

فانظروا رحمكم الله كيف أهلك الخلق العظيم بالريح التي هي أطف الأشياء،
 لبيّن أثر القدرة، جل جلاله، وكذلك يميت الخلق عند نفخة ويحييهم عند
 نفخة، فسبحان من بانّت سَطَوْتُهُ للمعاندين فقهرت، وظهرت آثار قدرته
 للمتقين فبهرت، كم عدّب مريض بريح في حشاه يختلف إلى أن تلف.

الكلام على البسمة

سلطانه في خلقه قاهر	وأمره في ملكه باهر
سَطَوْتُهُ باطشة بالورى	في ذرّة مُعْجَزُهَا ظاهر
إذا تجلّى في جلال العلاء	ذلّ له الأول والآخِرُ
كن حاذراً من بطشه إنه	في أمره وقهره قادر
ولطفه في عطفه راحم	وسيفه في خلقه باير

أيها النائم وهو منتبه، المتحير في أمر لا يشته، يا من قد صاح به الموت في
 سلب صاحبه، يا إخوان الغفلة تيقظوا، يا أقران البطالة تحمّظوا، يا أهل
 المخالفة اقبلوا، يا معرضين عنا اقبلوا، يا مبارزين بالذنوب لا تفعلوا.

أين من كان قبلنا أين أيننا	مين أناسٍ كانوا حجّالاً وزيننا
إن دهرأ أتى عليهم فافتنى	عدداً منهم سيأتي علينا
خدعتنا الأموال حتى جمعنا	وطلبنا لغيرنا وسعينا
وابتغينا من المعاش فضولاً	لو قنعنا بدونها لاكتفينا
ولعمري لنمضين ولا نمـ	ضي بشيء منها إذا ما مضينا
كم رأينا من ميت كان حياً	ووشيكاً يُرى بنا ما رأينا
ما لنا نأمن المنايا كأننا	لا نراهنّ يهتدين إلينا
عجباً لأمرىء تيقن أن الموت	حقّ فقرّ بالعيش عينا

أسفاً لمن ضيع الأوقات وقد عرفها، وسلك بنفسه طريق الهوى فأتلفها،
 أنس بالدنيا فكأنه خلق لها، وأمله لا ينتهي وأجله قد انتهى، سلّمت إليه بضائع
 العمر فلعب بها، لقد ركن إلى ركنٍ ما لبث أن وهى، عجباً لعين أمست

بالليل هاجعة، ونسيت أهوال يوم الواقعة، ولأذن تفرعها المواعظ فتضحى لها سامعة، ثم تعود الزواجر عندها ضائعة، ولنفوس أضحت في كرم الكرم طامعة، وليست له في حال من الأحوال طائعة، ولأقدام سعت بالهوى في طرق شاسعة، بعد أن وضحت لها سبل فسيحة واسعة، ولهمم أسرع في شوارع اللهو شارعة، لم تكن مواعظ العقول لها نافعة، ولقلوب تضمر التوبة عند الزواجر الرائعة، ثم يختل العزم بفعل ما لا يحلّ مراراً متتابعة، ثالثة بعد ثانية، وخامسة بعد رابعة.

كم يوم غابت شمسُه وقلبك غائب، وكم ظلام أسبل ستره وأنت في عجائب، وكم أسبغت عليك نعمة وأنت للمعاصي تواب، وكم صحيفة قد ملأها بالذنوب الكاتب، وكم يُنذرك سلب رفيقك وأنت لاعب، يا من يأمن الإقامة قد زمت الركائب، أفق من سكرتك قبل حسرتك على المعايب، وتذكر نزول حُفرتك وهجران الأقارب، وانهض عن بساط الرقاد وقل: أنا تائب، وبادر تحصيل الفضائل قبل فوت المطالب، فالسائق حثيث والحادي مُجدد، والموت طالب.

لأبكين على نفسي وحق ليّه
يا عين لا تبخلي عني بعبرتيّه
لأبكين فقد بان الشباب وقد
جدّ الرحيل عن الدنيا برحليته
يا نأي منتجعي يا هول مُطلعي
يا ضيق ضطجعي يا بعد شقتيه
المال ما كان قدامي لآخرتي
مالاً أقدم من مالي فليس ليّه

أسفاً لغافل لا يفيق بالتعريض حتى يرى التصريح، ولاتبين له جليّة الحال إلا في الضريح، كأنه وقد ذكره الموت فأفاق، فانتبه لنفسه وهو في السباق، واشتد به الكرب والتفت الساق بالساق، وتحيّر في أمره وضاق الخناق، وصار أكبر شهواته توبة من شقاق، هيهات مضى بأوزاره الثقيلة، وخلا بأعماله واستودع مقيله، وغيب في الثرى، وقيل: لا حيلة، وبات الندم يلزمه وبئس اللاحي له.

فتفكروا إخواني في ذلك الغريب، وتصوروا أسف النادم وقلق المريب،

فلمثل حاله فليحذر اللبيب، وهذا أمر تُبَعِّدُهُ الآمَالُ وهو والله قريب .
 أَبْصَرْتَهُ مُلْقَىً يَجُودُ بِنَفْسِهِ قَدْ كَلَّلَ الرَّشْحُ الْغَزِيرَ جَبِينَهُ
 لَا يَسْتَطِيعُ إِجَابَتِي مِنْ ضَعْفِهِ طَوْرًا يَكْفُ شِمَالَهُ وَيَمِينَهُ
 وَطَبِيبُهُ قَدْ حَارَ فِيهِ وَقَدْ رَأَى أَنْفَاسَهُ تَعْلُو مَعَاً وَأَيْنَسَهُ
 قَدْ عَافَ مَشْرُوبَاتِهِ وَطَعَامَهُ وَقَلِي لَذَاكَ صَدِيقَهُ وَخَدِيدَهُ

إخواني: سَلُّوا الْقُبُورَ عَنْ سَكَّانِهَا، وَاسْتَخْبِرُوا اللَّحُودَ عَنْ قُطَّانِهَا، تَخْبِرَكُمْ
 بِخَشُونَةِ الْمَضَاجِعِ، وَتُعَلِّمُكُمْ أَنَّ الْحَسْرَةَ قَدْ مَلَأَتْ الْمَوَاضِعَ، فَإِنَّ الْمَسَافِرَ يُوَدُّ لَوْ أَنَّهُ
 رَاجِعٌ، فَلْيَتَعِظِ الْغَافِلُ وَلْيَرَاجِعْ .

يَا وَاقِفًا يَسْأَلُ الْقُبُورَ أَفِئْقُ فَأَهْلُهَا الْيَوْمَ عَنْكَ قَدْ شَغِلُوا
 قَدْ هَالَهُمْ مُنْكَرٌ وَصَاحِبِيهِ وَخَوْفٌ مَا قَدَّمُوا وَمَا عَمِلُوا
 رَهَائِنٌ لِلثَّرَى عَلَى مَدَرٍ يُسْمَعُ لِلدُّودِ بَيْنَهُمْ زَجَلُ
 سَرَى الْبَلَى فِي جُسُومِهِمْ فَجَرَّتْ دَمًا وَقِيحًا وَسَالَتِ الْمَقْلُ
 سَكْرَى وَلَمْ يَشْرَبُوا الْفِقَارَ وَمَنْ كَسُوسِ الْمَنُونِ مَا نَهَلُوا
 يَنْتَظِرُونَ النَّشُورَ إِذَا يَقِفُ الدَّ أَمْلَاكُ وَالْأَنْبِيَاءُ وَالرُّسُلُ
 يَوْمًا تُرَى الصُّحُفُ فِيهِ طَائِرَةٌ وَكَلُّ قَلْبٍ مِنْ أَجْلِهِ وَجَلُ
 قَدْ دَنَّتِ الشَّمْسُ مِنْ رُؤُوسِهِمْ وَالنَّارُ قَدْ أَبْرَزَتْ لَهَا شَعْلُ
 وَأَزْلِفَتْ جَنَّةَ النِّعَمِ فِيهَا طُوبَى لِقَوْمٍ بَرَبْعَهَا نَزَلُوا
 أَكْوَابُهُمْ عَسَجَدٌ يُطَافُ بِهَا وَالخَمْرُ وَالسُّلْسِيلُ وَالْعَسَلُ
 وَالْحُورُ تَلْقَاهُمْ وَقَدْ هُتَكَتْ عَنْ وَجْهِهَا الْأَسْتَارُ وَالْكَيْلُ

الكلام على قوله تعالى

﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غَافِلًا عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ﴾ (١)

قال ابن عباس رضي الله عنهما: هذا وعيدٌ للظالم وتعزية للمظلوم.

(١) ابراهيم ٤٢ .

أخبرنا هبة الله بن محمد، أنبأنا الحسن بن علي، أنبأنا أحمد بن جعفر، حدثنا عبد الرحمن بن أحمد، حدثني أبي، حدثنا موسى بن داود، حدثنا عبد العزيز بن سلمة، عن عبد الله بن دينار، عن ابن عمر رضي الله عنهما، عن النبي ﷺ قال: «الظلم ظلمات يوم القيامة».

أخبرنا يحيى بن علي المدبر، أنبأنا عبد الصمد بن المأمون، حدثنا الدارقطني، أخبرنا يحيى بن صاعد، حدثنا محمد بن هشام المروزي، حدثنا أبو معاوية، عن برید، عن أبي بردة عن أبي موسى، قال: قال النبي ﷺ: «إن الله يُملي للظالم فإذا أخذه لم يُفلته». ثم قرأ: ﴿وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَىٰ وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ﴾ (١).

الحديثان في الصحيحين.

أخبرنا عبد الخالق بن عبد الصمد، أخبرنا ابن النُّقُور، أنبأنا المخَّلص، أنبأنا البَغُويّ، حدثنا أبو رَوْح البلدي، حدثنا ابن شهاب الخياط، عن ابن عَوْن، عن إبراهيم، عن ابن شَرِيح، قال: سَيَعْلَمُ الظَّالِمُونَ حَظَّ مَنْ نَقَصُوا! إِنَّ الظَّالِمَ يَنْتَظِرُ الْعِقَابَ وَالْمَظْلُومَ يَنْتَظِرُ النَّصْرَ.

أخبرنا محمد بن ناصر، أنبأنا علي بن أيوب، أنبأنا أبو علي بن شاذان، أخبرنا الطوماري، حدثنا ابن البراء، حدثنا عبد المنعم، عن أبيه، عن وهب، قال: بنى جبار قصرًا وشيّدَه فجاءت عجوزٌ مُسلمة فبنت إلى ظهر قصره كوخًا تعبد الله فيه، فركب الجبارُ يومًا فطاف بفناء القصر، فرأى الكوخ فقال: ما هذا؟ فقيل له: امرأةٌ ها هنا ثاوية، فأمر به فهدم، ولم تكن المرأة حاضرة، فجاءت فرأته قد هُدم، فقالت: من فعل هذا؟ فقيل لها: إن الملك ركب فرأه فأمر بهدمه فرفعت طرفها إلى السماء وقالت: يا رب أنا لم أكن، فأنت أين كنت! قال: فأمر الله عز وجل جبريل أن يقلب القصر على من فيه.

لا تظلمن إذا ما كنت مقتدرًا فالظلم آخره يأتيك بالندم
تمام عينك والمظلوم منتصب يدعو عليك وعين الله لم تتم

(١) سورة هود ١٠٢.

السجع على قوله تعالى:

﴿ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الْأَبْصَارُ ﴾^(١)

المعنى: تشخص أبصار الخلائق لظهور الأهوال فلا تغمض.

الويل لأهل الظلم من ثقل الأوزار، ذكروهم بالقبايح قد ملأ الأقطار،
يكفيهم أنهم قد وُسموا بالأشرار، ذهبت لذاتهم بما ظلموا وبقي العار، وداروا
إلى دار العقاب وملك الغير الدار، وخلوا بالعذاب في بطون تلك الأحجار، فلا
مُعِيث ولا أنيس ولا رفيق ولا جار، ولا راحة لهم ولا سكون ولا مزار، سالت
دموع أسفهم على مسلفهم كالأنهار، شيّدوا بنيان الأمل، فإذا به قد انهار، أما
علموا أن الله جار المظلوم ممن جار، فإذا قاموا في القيامة زاد البلاء على المقدار
﴿ سَرَابِيلُهُمْ مِنْ قَطِرَانٍ وَتَغْشَى وُجُوهَهُمُ النَّارُ ﴾^(٢)، لا يغرنك صفاء عيشتهم
كل الأخير أكدار ﴿ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الْأَبْصَارُ ﴾^(٣).

قوله تعالى: ﴿ مَهْطَعِينَ ﴾ فيه ثلاثة أقوال:

أحدها: أن الإهطاع النظر من غير أن يَطْرَف الناظر. قاله ابن عباس.

والثاني: أنه الإسراع. قاله الحسن وابن جبير.

قال ابن قتيبة: أهطع البعير في سيره إذا أسرع.

وفما أسرعوا إليه قولان: أحدهما الداعي. قاله قتادة. والثاني: النار قاله

مقاتل.

والثالث: أن المهطع الذي لا يرفع رأسه. قاله ابن زيد.

قوله تعالى: ﴿ مُقْنَعِي رُؤُوسِهِمْ ﴾^(٤) فيه قولان: أحدهما: رافعي رؤوسهم:

قاله ابن عباس وابن جبير، وقال ابن قتيبة: المُقْنَع: الذي رفع رأسه وأقبل

(٣) ابراهيم ٤٢.

(١) ابراهيم ٤٢.

(٤) ابراهيم ٤٣.

(٢) ابراهيم ٥٠.

بطرفه إلى ما بين يديه.

وقال الزَّجَّاج: رافعي رؤوسهم ملتصقةً بأعناقهم.

والثاني: ناكسي رؤوسهم. قاله المؤرِّج.

قوله تعالى: ﴿لَا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ﴾^(١) والمعنى: أن نظرهم إلى شيء واحد. قال الحسن: وجوه الناس يوم القيامة إلى السماء لا ينظر أحدٌ إلى أحد.

قوله تعالى: ﴿وَأَفْتَدَتْهُمْ هَوَاءٌ﴾^(٢) في معنى الكلام قولان: أحدها: أن القلوب خرجت من مواضعها، فصارت في الخناجر. رواه عطاء عن ابن عباس. وقال قتادة: خرجت من صدورهم فنشبت في حلوقهم ﴿وَأَفْتَدَتْهُمْ هَوَاءٌ﴾. أي ليس فيها شيء.

والثاني: أن أفئدتهم متجوِّفة لا تُغني شيئاً من الخوف. قاله الزَّجَّاج.

وقال أبو عبيدة: أفئدتهم جوفٌ لا عقول لها. وقال ابن قتيبة: متجوِّفة من الخوف.

قوله تعالى: ﴿وَأَنْذِرِ النَّاسَ﴾ أي خوِّفهم ﴿يَوْمَ يَأْتِيهِمُ الْعَذَابُ﴾ يعني يوم القيامة ﴿فَيَقُولُ الَّذِينَ ظَلَمُوا رَبَّنَا أَخْرْنَا إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ﴾ أي أمهلنا مدةً يسيرة.

قال مقاتل: سألو الرجوع إلى الدنيا ﴿نُجِبَ دَعْوَتَكَ﴾ يعنون التوحيد.

فقال لهم: ﴿أَوْلَمْ تَكُونُوا أَقْسَمْتُمْ مِنْ قَبْلِ﴾^(٣). أي حلفتم بالدنيا أنكم لا تبعثون.

﴿وَسَكَنْتُمْ فِي مَسَاكِينِ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ﴾ أي نزلتم في أماكنهم وقراهم، كالحجر ومدين وغيرها من القرى التي عرفت. ومعنى ظلموا أنفسهم: ضرُّوها بالكفر والمعصية ﴿وَتَبَيَّنَ لَكُمْ كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ﴾ أي حربناهم. وكان ينبغي لكم

(١) ابراهيم ٤٣.

(٢) ابراهيم ٤٤ - ٤٥.

أن تَنْزَجُوا عَنِ الْخِلَافِ ﴿۝۱﴾ وَضَرْبْنَا لَكُمْ الْأَمْثَالَ ﴿۝۲﴾ أَي بَيْنَا لَكُمْ الْأَشْبَاهَ .
﴿۝۳﴾ وَقَدْ مَكَرُوا مَكَرَهُمْ ﴿۝۴﴾ فِي الْمَشَارِ إِلَيْهِ أَرْبَعَةٌ أَقْوَالٌ : أَحَدُهَا : أَنَّهُ نَمْرُودُ .
قال عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه : قال نمرود : لا أنتهي حتى أنظر إلى السماء .
فأمر بأربعة من النسور فربّيت واستعجلت ، ثم أمر بتابوت فنُحِت ، ثم جعل في
وسطه خشبة ، وجعل [على] رأس الخشبة لحماً شديداً الحمرة ، ثم جوعها وربط
أرجلها ، بأوتار إلى قوائم التابوت ، ودخل هو وصاحب له في التابوت ، وأغلق
بابه ثم أرسلها ، فجعلت تريد اللحم ، فصعدت في السماء ما شاء الله تعالى ، ثم قال
لصاحبه : افتح فانظر ماذا ترى . ففتح فقال : أرى الأرض كأنها الدخان . فقال :
أغلق . فصعد ما شاء الله تعالى ، ثم قال : افتح فقال : ما أرى إلا السماء وما تزداد
منها إلا بُعداً . فقال : صَوِّبْ خَشْبَتَكَ . فصوّبها فانقضت النسور تريد اللحم ،
فسمعت الجبال هدتها فكادت تزول عن مواضعها .

والثاني : أنه بختنصر ، وأن هذه القصة له جرّت ، وأن النسور لما ارتفعت
نودي : يا أيها الطاغية أين تريد ؟ ففرق فنزل . فلما رأت الجبال ذلك ظنت أنه
قيام الساعة فكادت تزول . وهذا قول مجاهد .

والثالث : أن الإشارة إلى الأمم المتقدمة ومكرهم شركهم . قاله ابن عباس .

والرابع : [أنهم] الذين مكروا برسول الله ﷺ حين همّوا بقتله وأخرجوه .
ذكره بعض المفسرين .

قوله تعالى : ﴿ وَعِنْدَ اللَّهِ مَكْرُهُمْ ﴾ أي جزاؤه ﴿ وَإِنْ كَانَ مَكْرُهُمْ لِيَنْزُولَ مِنْهُ
الْجِبَالُ ﴾ (١) من كسر اللام الأولى ، فإن المعنى : وما كان مكرهم لتزول منه
الجبال . أي هو أضعف وأهون ومن فتح [تلك] اللام أراد : قد كادت الجبال
تزول من مكرهم .

وفي المراد بالجبال قولان : أحدهما : الجبال المعروفة . قاله الجمهور .

(١) إبراهيم ٤٦ .

والثاني: أنها ضُربت مثلاً لأمر النبي ﷺ. وثبوت دينه كثبوت الجبال الراسية. والمعنى: لو بَلَغ كيدهم إلى إزالة الجبال لَمَا زال أمر الإسلام. قاله الرَّجَّاج.

ويدل على هذا قول الله عز وجل: ﴿فَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ مُخْلِفاً وَعْدِهِ رُسُلَهُ﴾ والمعنى أنه قد وعدك بالنصر عليهم ﴿إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ ذُو انتِقَامٍ﴾ من الكافرين. ﴿يَوْمَ تُبَدَّلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ﴾ وفي معنى تبديلها قولان: أحدهما: [أنه] تَبَدَّلَ بِأَرْضٍ بِيضَاءٍ كَأَنَّهَا فِضَّةٌ.

أخبرنا أبو القاسم الحريري، أنبأنا أبو طالب العُشَّاري، أخبرنا أبو بكر محمد ابن شاذان، أخبرنا محمد بن يعقوب الأصم، حدثنا العباس الديروري، حدثنا أبو العتاب الدَّلال. حدثنا جرير بن أيوب البجلي، حدثنا أبو إسحاق، عن عمرو ابن ميمون، قال: سمعت ابن مسعود يقول: قال رسول الله ﷺ في قول الله عز وجل ﴿يَوْمَ تُبَدَّلُ الْأَرْضُ﴾ (١) قال: «أَرْضٌ بِيضَاءٌ كَأَنَّهَا فِضَّةٌ لَمْ يُسْفَكْ فِيهَا دَمٌ حَرَامٌ، وَلَمْ يُعْمَلْ عَلَيْهَا خَطِيئَةٌ» وهذا قول ابن عباس.

والثاني: أنها تَبَدَّلَ بِأَرْضٍ مِنْ فِضَّةٍ. قاله أنس بن مالك.

والثالث: أنها تبدل بجزء بيضاء يأكل المؤمن من تحت قدمه - قاله أبو هريرة وابن جُبَيْر والقُرْطُبي.

والرابع: أنها تبدل ناراً. قاله أبي بن كعب.

والقول الثاني أن تبديلها: تغيير أحوالها. وروى أبو هريرة عن النبي ﷺ أنه قال: «يَبْسُطُهَا وَيَمُدُّهَا مَدَّ الْأَدِيمِ» وقال ابن عباس، يزداد فيها ويُنْقَصُ منها، وتذهب آكامها وجبالها وأوديتها وشجرها وتمد.

وفي تبديل السماوات سبعة أقوال: أحدها أنها تجعل من ذهب قاله علي بن أبي طالب رضي الله عنه.

(١) إبراهيم ٤٨.

والثاني: تصير جِنَانًا. قاله أُبَيِّ بن كعب.

والثالث: أن تبدلها تَكْوِير شمسها وتناثر نجومها. قاله ابن عباس.

والرابع: أنها تبدل بساوات كأنها الفضة. قاله مجاهد.

والخامس: [أن تبدلها تغيير أحوالها، فمرة تكون كالمُهَل، ومرة كالدَّهَان.

قاله ابن الأنباري.

والسادس: [أن تبدلها أن تُطَوَّى كطَيِّ السَّجَل للكِتَاب.

والسابع: أن تشقّ فلا تُظِل. ذكرها الماوردي.

قالت عائشة: قلت: يا رسول الله، يوم تبدل الأرض غير الأرض، فأين

الناس يومئذ؟ قال: «على الجِسْرِ، فمنهم من يمشي مُكَبًّا على وجهه ومنهم من

يمشي سَوِيًّا».

قوله تعالى: ﴿وترى المجرمين﴾ يعني الكفار ﴿يومئذٍ مقرنين﴾ فيه ثلاث

أقوال: أحدها يُقرنون مع الشياطين. قاله ابن عباس.

والثاني: تُقرن أيديهم وأرجلهم إلى رقابهم. قاله ابن زيد.

والثالث: يُقرن بعضهم إلى بعض. قاله ابن قتيبة.

والأصفاد: الأغلال.

قوله تعالى: ﴿سرابيلهم من قَطْران﴾ وهي القُمْص، واحدها سِرْبَال،

والقَطْران: معروف، وهو شيء يتحلَّب من شجر تُهَنَّا به الإبل.

قال الزجاج: إنما جعل القَطْران لأنه يبالغ في اشتعال النار في الجلود،

فحذرهم ما يعرفون.

وقرأ ابن عباس والحسن «من قَطْرٍ» بكسر القاف وسكون الطاء والتنوين

«وَأَن» بقطع الهمزة وفتحها ومدّها. والقَطْر: الصُّفْر والنحاس وَأَن [قد]

انتهى حرّه.

﴿وتغشى وجوههم النار﴾^(١) أي تَعْلُوها .

﴿لِيَجْزِيَ اللَّهُ﴾ اللام متعلقة بقوله تعالى: ﴿وبرزوا﴾ وفي سرعة حسابه قولان: أحدهما: عجلة حضوره ومجيئه .

والثاني: سرعة فراغه . قال ابن عباس: يفرغ الله عز وجل من حساب الخلق في قدر نصف يوم من أيام الدنيا .

أين من لعب ولها، أين من غفل وسها، دهاه أفضع ما دهي، وحط ركنه فوهي، ذهبت لذة ذنوبه وحبس بها، نظر في عاجله ونسي المنتهى .

نادِ القُصورَ التي أقوتَ معالمِها	أين الجسوم التي طابت مطاعمها
أين الملوك وأبناء الملوك ومن	ألهاه ناضِرُ دنياه وناعِمها
أين الأسود التي كانت تحاذرها	أسد العرين ومن خوفٍ تسالِمها
أين الجيوش التي كانت لو اعترضت	لها العقاب لخانتها قوادِمها
أين الحِجاب ومن كان الحِجاب له	وأين رُتبته الكبرى وخادِمها
أين الذين لهُوا عمّا له خلِقوا	كما لهُت في مراعيها سوائِمها
أين البيوت التي من عَسجدٍ نُسجت	هل الدنانير أغنت أم دراهمها
أين الأسيرة تَعلوها ضراغمها	هل الأسيرة أغنت أم ضراغمها
هذي المعاقِلُ كانت قبلُ عاصمةً	ولا يرى عصم المغرور عاصمها
أين العيون التي نامت فما انتبهت	واهاً لها نومةً ما هبَّ نائمها

(١) إبراهيم ٥٠ .

سجع على قوله تعالى ﴿ هذا بلاغ للناس ولينذروا به ﴾^(١)

يعني القرآن

يا مشغولاً بذنوبه، مغموراً بعيوبه، غافلاً عن مطلوبه، أما نهاه القرآن عن حُوبه ﴿ هذا بلاغ للناس ولينذروا به ﴾.

أنسي العاصي قبيح مكتوبه، لا بُدَّ عن سؤاله عن مطعمومه ومشروبته، وحركاته وخطواته في مرغوبه، ألا يذكر في زمان راحته أحيان كُروبته، ألا يحذر من الأسد قبل وقت وثوبه، ألا يتخذ ثقاه تقيّة من شر هُبوبه، ألا يدخر من خصبه لأيام جدُوبه، ألا يتفكر في فراقه لمحبوبه، ألا يتذكر النعش قبل ركوبه، كيف يغفل من هو في صفّ حروبته، ربّ إشراق لم يدرك زمن غُروبته، إلى متى في حرصه على الفاني ودُوبته، متى يردّ يوسف قلبه على يعقوبه، لقد وعظه الزمان بفنون ضرُوبه، وحذّره استلابه بأنواع خطُوبه، ولقد زجره القرآن بتخويفه مع لذة أسلوبه، ﴿ هذا بلاغ للناس ولينذروا به ﴾.

أيقظنا الله وإياكم من رقدة الغفلة، ووقفنا الله وإياكم للتزوّد قبل النقلة، وألهمنا اغتنام الزمان ووقت المهلة: إنه سميع قريب.

(١) إبراهيم .

المجلس السادس في قصة ثمود

الحمد لله الذي مهّد لطلبيه سبيلاً واضحاً، ولكم ابتعث نبياً مرشداً ناصحاً، فأرسل آدم غادياً على بنيه بالتعليم ورائحاً، فخلّفه شيث ثم إدريس، وجاء نوح نائحاً، وأمر هوداً بهداية عادٍ فلم يزل مُكادِحاً ﴿وإلى ثمود أخاهم صالحاً﴾^(١).

أحمده ما بدأ بَرَقَ لائِحاً، وأصَلِّي على رسوله محمد ما دام الفلكُ ساجحاً، وعلى صاحبه أبي بكر الصّدِّيق، وقُلُ في الصّدِّيق مادِحاً، وعلى عمر الفاروق الذي لم يزل بنور الحق لامِحاً، وعلى عثمان واعجبُ بمثل دمه طائِحاً، وعلى علي وأعلِن بفضائله صائِحاً، وعلى عمه العباس وما زال عَرَفَ طيبه نافعاً.

قال الله تعالى: ﴿وإلى ثمود أخاهم صالحاً﴾^(١).

ثمود: هو ابن عابر بن إرم بن سام بن نوح. أرسل إلى أولاده وهو: صالح ابن عبيد بن أنيف [بن ماشح بن عبيد بن جادر ابن ثمود].

والثمد: الماء القليل الذي لا مادة له، وإنما قال «أخاهم» لأنه من قبيلتهم.

﴿قال يا قوم اعبدوا الله﴾ أي «وحدوه» فلم يزداهم دعاؤه إلا طغياناً، فقالوا: ائتنا بآية فاقترحوا عليه ناقّة، فأخرجهم إلى صخرة ملساء فتمخّضت تمخّض الحامل، ثم انفلقت عن ناقّة على الصّفّة التي طلبوها، ثم انفصل عنها فصيل فقال: ﴿ذرّوها تأكل في أرض الله﴾ أي ليس عليكم مؤنتها ولا علفها. وتأكل مجزومة على جواب الشرط المقدّر، والمعنى إن تذورها تأكل.

(١) الاعراف ٧٣.

﴿ وَلَا تَمْسُوْهَا بِسُوْءٍ ﴾ .

والسوء في القرآن على عشرة أوجه :

أحدها الشدة ﴿ يَسُوْمُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ ﴾ (١) .

والثاني: الزنا: ﴿ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِنْ سُوءٍ ﴾ (٢) .

والثالث: البرص ﴿ تَخْرُجُ بِيضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ ﴾ (٣) .

والرابع: العذاب ﴿ لَا يَمْسَهُمُ السُّوءُ ﴾ (٤) .

والخامس: الشرك: ﴿ مَا كُنَّا نَعْمَلُ مِنْ سُوءٍ ﴾ (٥) .

والسادس: السب ﴿ وَأَلْسِنَتُهُمُ بِالسُّوءِ ﴾ (٦) .

والسابع: الضر ﴿ وَيَكْشِفُ السُّوءَ ﴾ (٧) .

والثامن: الذنب ﴿ يَعْمَلُونَ السُّوءَ بِجَهَالَةٍ ﴾ (٨) .

والتاسع: القتل والمزيمة ﴿ لَمْ يَمْسَسْهُمْ سُوءٌ ﴾ (٩) .

والعاشر: العقر ﴿ وَلَا تَمْسُوْهَا بِسُوْءٍ ﴾ (١٠) .

فكانت تشرب ماء الوادي كله [في يوم] . وتسقيهم الدرّ مكانه .

قوله تعالى: ﴿ وَيَوْمَآكُمْ فِي الْأَرْضِ ﴾ أي أنزلكم ﴿ تَتَّخِذُونَ مِنْ سَهُولِهَا

قُصُورًا ﴾ السهل: ضد الحزن. والقصر: ما شيدت وعلا من المنازل .

قال ابن عباس رضي الله عنها: اتخذوا القصور في سهول الأرض للصيف

ونقبوا في الجبال للشتاء .

قال وهب بن منبه: كان الرجل منهم يبني البنيان فيمرّ عليه سنة، فيخرب،

(١) البقرة ٤٩ .

(٢) يوسف ٥١ .

(٣) النمل ٦٢ .

(٤) النمل ١٢ .

(٥) النساء ١٧ .

(٦) الزمر ٦١ .

(٧) آل عمران ١٧٤ .

(٨) النحل ٢٨ .

(٩) الأعراف ٧٣ .

ثم يجدده، فيمر عليه مائة سنة فيخرب، فأضجرهم ذلك، فاتخذوا من الجبال بيوتاً.

قال علماء السير: لم يلتفتوا إلى قول صالح، واحتالوا على قتله، فذلك قوله تعالى ﴿لَنُبَيِّنَنَّ لَهُمْ وَاٰهْلَهُ﴾ وقعدوا في أصل جبل ينتظرونه، فوقع الجبل عليهم فهلكوا، ثم أقبل قومٌ منهم يريدون قتلَ الناقة فقال لهم صالح: ﴿نَاقَةَ اللَّهِ وَسُقْيَاهَا﴾ أي احذروا ناقة الله وشربها من الماء. فكمن لها قاتلها وهو قذّار بن سالف في [أصل] شجرها فرماها بسهم فانتظم به عضلة ساقها، ثم شدَّ عليها بالسيف، فكشف عرقوبها، ثم نحرها.

وقالوا: يا طالح ائتنا بما تعدنا من العذاب. فقال لهم صالح: تمتعوا في داركم ثلاثة أيام.

قال [المفسرون]: لما عقروها صعد فصيلها إلى الجبل فرغاً ثلاث مرات، فقال صالح: لكل رغوّة أجلُّ يوم، إلا أن اليوم الأول تصبح وجوهكم مصفرة، واليوم الثاني محرّة، واليوم الثالث مسودة. فلما أصبحوا في اليوم الأول إذا وجوههم مصفرة، فصاحوا وبكوا وعرفوا أنه العذاب.

فلما أصبحوا في اليوم الثاني إذا وجوههم محرّة، فضجّوا وبكوا. فلما أصبحوا في اليوم الثالث إذا وجوههم مسودة، كأنما طليت بالقار، فصاحوا بأجمعهم: ألا قد حضركم الموت. فتكفّنوا وألقوا أنفسهم بالأرض لا يدرون من أين يأتيهم العذاب.

فلما أصبحوا في اليوم الرابع أتتهم صيحة من السماء فيها صوت كل صاعقة، فتقطعت قلوبهم في صدورهم.

وقال مقاتل: حفروا لأنفسهم قبوراً. فلما ارتفعت الشمس من اليوم الرابع [ولم يأتيهم العذاب] ظنوا أن الله قد رحمهم، فخرجوا من قبورهم يدعو بعضهم بعضاً. فقام جبريل عليه السلام فوق المدينة فسدت ضوء الشمس، فرجعوا إلى قبورهم، فصاح [بهم] صيحة عظيمة: موتوا عليكم اللعنة. فأتوا وزلزلت

بيوتهم فوقعت عليهم ﴿فَدَمَدَمَ عَلَيْهِم رَّبُّهُمْ﴾ (١) أي أطبق عليهم العذاب .
ولما مرَّ النبي ﷺ على ديارهم قال: « لا تَدْخُلُوا عَلَى هَؤُلَاءِ الْمَعْدِيَّينَ إِلَّا أَنْ تَكُونُوا بَاكِينَ » .

اعتبروا إخواني بهؤلاء الهالِكين، وانظروا سوءَ تدبيرِ الخاسرين، لا بالناقاة
اعتبروا، ولا لتعويضهم اللبَنَ شكروا، وعتَوْا عن النِّعمِ وبطروا، وعموا عن
الكرمِ فما نَظروا، وأوعِدوا بالعذابِ فما حَذِروا، كلما رأوا آيةً من الآياتِ
كفروا .

الطبع الخبيث لا يتغيَّر، والمقدَّر ضالَّه لا يزال يتحَيَّر، خرجت إليهم ناقاة
من أحسن النِّعم، ودرَّ لبنها لهم فتواترت النِّعم فكفروا وما شكروا، فأقبلت
النِّقم .

أعاذنا الله وإياكم من الكفران، وحفظنا من مُوجِباتِ الخسران إنه إذا لطف
صان .

الكلام على البسمة

أَيُّهَا السُّكْرَانُ بِأَلَا	مَالٌ قَدْ حَانَ الرَّحِيلُ
وَمَشِيْبُ الرَّأْسِ وَالْفَوْ	دَيْنٌ لِلْمَوْتِ دَلِيلُ
فَانْتَبِهْ مِنْ رَقْدَةِ الْغَف	لَةٍ فَالْعَمْرُ قَلِيلُ
وَاطَّرَحْ سَوْفَ وَحَتَّى	فَهِيَ دَائِلٌ دَخِيْلُ

يا من صُبِحَ شبيهه بعد لَيْلٍ شبابه قد تَبَلَّج، ونذيره قد حَامَ حولَ حِمَاه
وعرَّج، كأنك بالموتِ قد أتى سريعاً وأزْعج، ونقلك عن دارٍ أمنتَ مَكْرَهَا
وأخرج، وحلك على خشونةِ النعش بعد لين الهودج، وأفصح بهلاكك وقد طال
ما مَجْمَع، وأفقرَكَ إلى قليلٍ من الزادِ وأحْرَج، يا لاهياً في دارِ البلاءِ ما أقبح
فعلك وما أَسْمَج، ويا عالماً نظَرَ الناقدِ وبضاعته كُلُّهَا بَهْرَج، ويا غافلاً عن
رحيله سَلَبُ الأقرانِ أُنْمُوذَج .

(١) الشمس ١٤ .

سَيَقْطَعُ رَبِّبَ الدَّهْرِ بَيْنَ الْفَرِيقَيْنِ لكل اجْتِمَاعٍ فُرْقَةٌ مِنْ يَدِ الْبَيْنِ
وَكُلٌّ يَقْضِي سَاعَةً بَعْدَ سَاعَةٍ تخاتله عن نفسه سَاعَةُ الْحَيِّنِ
وما العيش إلا يومٌ موتٍ له غَدٌ وما الموتُ إلا رَقْدَةٌ بَيْنَ يَوْمَيْنِ
وما الحشرُ إلا كالصباحِ إذا انجلى يقومُ له اليَقْظَانُ من رَقْدَةِ الْعَيْنِ
فيا عجباً منِّي ويا طولَ غَفْلتي أوْمَلُ أن أبقَى وأئى وَمِنْ أَيْنِ

يا من يبارز مَوْلَاهُ يَمَا يَكْرَهُ، ويخالفه في أمره أَمَنًا مَكْرَهُ، وَيُنْعِمُ عَلَيْهِ وَهُوَ
يُنْسِي شُكْرَهُ، وَالرَّحِيلَ قَدْ دَنَا وَمَالَهُ فِيهِ فِكْرَةٌ، يَا مِنْ قَبَائِحِهِ تُرْفَعُ عَشِيًّا
وَبُكْرَةً، يَا قَلِيلَ الزَّادِ مَا أَطْوَلَ السَّفْرَةَ، وَالنَّقْلَةَ قَدْ دَنَتْ وَالْمَصِيرَ الْحَفْرَةَ، مَتَى
تَعْمَلُ فِي قَلْبِكَ الْمَوَاعِظَ، مَتَى تَرَاقِبَ الْعَوَاقِبَ وَتَلَاحِظَ، أَمَّا تَحْذَرُ مِنْ أَوْعَدِ
وَهَدَدِ، أَمَّا تَخَافُ مِنْ أُنْذَرِ وَشَدَدِ، مَتَى تَضْطَرُّمْ نَارُ الْخَوْفِ فِي قَلْبِكَ وَتَتَوَقَّدُ،
إِلَى مَتَى بَيْنَ الْقُصُورِ وَالتَّوَانِي تَتَرَدَّدُ، مَتَى تَحْذَرُ يَوْمًا فِيهِ الْجُلُودُ تَشْهَدُ، مَتَى تَتْرَكَ
مَا يَفْنَى رَغْبَةً فِيمَا لَا يَنْفَدُ، مَتَى تَهَبُّ بِكَ رِيحُ الْخَوْفِ كَأَنَّكَ غَصْنٌ يَتَأَوَّدُ، الْبِدَارُ
الْبِدَارُ إِلَى الْفَضَائِلِ، وَالْحَذَارُ الْحَذَارُ مِنَ الرِّذَائِلِ، فَإِنَّمَا هِيَ أَيَّامٌ قَلَائِلُ:

اِغْتَنِمْ فِي الْفِرَاقِ فَضْلَ رُكُوعٍ فَعَسَى أَنْ يَكُونَ مَوْتُكَ بَعْتَةً
كَمْ صَحِيحٍ رَأَيْتَ مِنْ غَيْرِ سُقْمٍ ذَهَبَتْ نَفْسُهُ السَّلِيمَةَ فَلْتَةً
حَجَّ مَسْرُوقٍ فَمَا نَامَ إِلَّا سَاجِدًا، وَكَانَ مَجِيرُ بْنُ الرَّبِيعِ يَصْلِي حَتَّى مَا يَأْتِي
فِرَاشَهُ إِلَّا حَبْوًا.

اِغْتَنِمْ رُكْعَتَيْنِ زُلْفَى إِلَى الْإِلَهِ لَهُ إِذَا كُنْتَ فَارِغًا مُسْتَرِيحًا
وَإِذَا مَا هَمَمْتَ أَنْ تَفْعَلَ الْبَا طِيلَ فَاجْعَلْ مَكَانَةَ تَسْبِيحًا

يَا سَكْرَانَ الْهُوَى، وَإِلَى الْآنَ مَا صَحَّاحًا، يَا مُفْنِيًا زَمَانَهُ الشَّرِيفَ لِهَوًى وَمَرَحًا، يَا
مُعْرِضًا عَنِ لَوْمٍ مِنْ لَامٍ وَعَتَبٍ مِنْ لَحَا، مَتَى يَعُودُ هَذَا الْفَاسِدُ مُصْلِحًا، مَتَى
يَرْجِعُ هَذَا الْهَالِكُ مُفْلِحًا.

لَقَدْ أَتَعَبْتَ النَّصْحَاءَ الْفَصْحَاءَ، أَمَا وَعِظْتَ بِمَا يَكْفِي، أَمَا رَأَيْتَ مِنَ الْعِبْرَةِ
مَا يَشْفِي، فَاَنْظُرْ لِنَفْسِكَ قَبْلَ أَنْ يَعْمَى النَّاضِرُ، وَتَفَكَّرَ فِي أَمْرِكَ بِالْقَلْبِ

الحاضر، ولا تساكن الفتورَ فإنك إلى [مسكن] القبور صائر، فالحيُّ للمات،
والجمع للشّات [والأمر] ظاهر.

عاصِ الهوى إنَّ الهوى مَرَكَبٌ يَصْعَبُ بعدَ اللَّينِ منه الذَّلُولُ
إنَّ يَجْلِبِ اليَوْمَ الهوى لَذَّةً ففي غَدٍ منه البُكَاءُ والعَوِيلُ
ما بين ما يَحْمَدُ فيه وما يدعُو إليه الذَّمُّ إلا القليلُ

الكلام على قوله تعالى ﴿وَاسْتَمِعْ يَوْمَ ينادي المُنادي﴾^(١)

والمعنى: استمع حديثَ ذلك اليوم. والمنادي: إسرافيل، يقف على صخرة
بيت المقدس فينادي: يا أيها الناس هلمُّوا إلى الحساب. إن الله تعالى يأمركم أن
تجتمعوا لِفَصْلِ القضاء.

وهذه الصيحة هي الأخيرة.

قوله تعالى: ﴿من مكانٍ قريبٍ﴾ المكان القريب هو الصخرة. قال كعب
ومقاتل: هي أقربُ الأرضِ إلى السماءِ بثمانية عشر ميلاً. وقال ابن المسيّب: باثني
عشر ميلاً. قال الزجاج: ويقال: إن تلك الصخرة في وسط الأرض.

سجع

يا من يدُعى إلى نجاته فلا يجيب، يا من قد رضي أن يخسر ويخيب، إن
أمرك طريفٌ وحالك عجيب، اذكر في زمان راحتك ساعةَ الوجيب ﴿واستمع
يوم ينادي المُنادي من مكانٍ قريبٍ﴾.

ويحك إنَّ الحق حاضر ما يغيب، تُحصى عليك أعمالُ الطَّلوعِ وأفعال
المغيب، ضاعت الرياضةُ في غير نجيب [سيماك تدلُّ وما يخفي المريب] اسمع

(١) ق ٤١.

لا بد لغربان الفراق من نعيب، أنساكن الغفلة ولغيرنا نعيب، يا من سلعه كلها
معيب، اذكر يوم الفزع والتأنيب ﴿واستمع يوم ينادي المنادي من مكانٍ
قريب﴾.

لا بد والله من فراق العيش الرطيب، والتحاف البلى مكان الطيب، واعجباً
للذات بعد هذا كيف تطيب، ويحك أحضر قلبك لوعظ الخطيب ﴿واستمع
يوم ينادي المنادي من مكان قريب﴾.

تذكر من قد أصيب كيف نزل بهم يوم عصيب، وانتبه لأحظ الحظ
والنصيب [واحترز] فعليك شهيداً ورقيب، إذا حل الموت حل التركيب،
وتقلب مقل القلوب في قلب التقلب، فتزعج الروم انزعاج الصرمة [إذا]
أحست بذيبي، فالتفت يا محب الهوى عن هذا الحبيب ﴿واستمع يوم ينادي
المنادي من مكان قريب﴾.

ستخرج والله من هذا الوادي الرحيب، ولا ينفعك البكاء والنحيب، لا بد
من يوم يتحير فيه الشبان والشيب، ويذهل فيه الطفل للهول ويشيب، يا من
عمله كله رديء فليته قد شيب ﴿واستمع يوم ينادي المنادي من مكانٍ
قريب﴾.

كيف بك إذا أحضرت في حال كئيب، وعليك ذنوب أكثر من رمل
كئيب، والمهيمن الطالب والعظيم الحسيب، فحينئذ يبعد عنك الأهل والنسيب،
النوح أولى بك يا مغرور من التشيب، أتؤمن أم عندك تكذيب، أم [تراك]
تصبر على التعذيب كأنك بدمع العين ومائها قد أذيب، اقبل نصحي وأقبل على
التهديب ﴿واستمع يوم ينادي المنادي من مكان قريب﴾.

يا مطالباً بأعماله، يا مسؤولاً عن أفعاله، يا مكتوباً [عليه] جميع أقواله، يا
مناقشاً على كل أحواله، نسيانك لهذا أمر عجيب، أتسكن إلى العافية وتساكن
العيشة الصافية وتظن أيمان الغرور واقية، لا بد من سهم مصيب ﴿واستمع يوم
ينادي المنادي من مكان قريب﴾.

لو أحسنت الخلاص أحسنت، لو آمنت بالعرض لتجمّلت وتزيّنت، يا من قد انجمت عليه الأمور لو سألت لتبيّنت، ويحك أحضر قلبك إنما أنت في الدنيا غريب ﴿واستمع يوم ينادي المنادي من مكان قريب﴾.

إلى متى أنت مع أغراضك، متى ينقضي زمان إغراضك، يا زمن البلى متى زمن إنهاضك، تالله لقد كعّ من أمراضك الطبيب.

قوله تعالى ﴿يوم يسمعون الصيحة﴾ وهي النفخة الثانية ﴿بالحق﴾ أي بالبعث الذي لا شك فيه ﴿ذلك يوم الخروج﴾^(١) من القبور، تنشق السماء ذات البروج انشقاق الثوب المنسوج، بأعجب فطور وأظرف فروج، ويُنثر حَبُّ السماء ويسقط الدملوج وتُقبل الملائكة إقبال الفيوج وتميد الأرض فتفلق وتموج، وتعود جرّداء بعد الرياض والمروج، وتذلل العتاة وتنكسر العلوج، وتستوي أقدام العرب والعجم والزنوج، فأخس الخلائق يومئذ يأجوج ومأجوج، وأحقّر الناس على طوله عوج، ويقرب الحساب ويروج، ويُنصّب الصراط والريح خجوج، أين حرارة القلوب أضربت بالثلوج ﴿يوم يسمعون الصيحة بالحق﴾ ذلك يوم الخروج.

قوله تعالى: ﴿إنا نحن نحي ونحيي ونميت﴾ أي نميت في الدنيا ونحيي بالبعث ﴿وإلينا المصير﴾ بعد البعث ﴿يوم تشقق الأرض عنهم سراعاً﴾^(٢) المعنى: فيخرجون منها سراعاً.

يا له من يوم لا تستطيع له دفاعاً، صاح بهم من لم يزل أمره مطاعاً، فنازلتهم الحشرات فأسرّتهم فزاعاً، واستسلموا للهلاك وما مدّ بعدُ باعاً، سماعاً لما يجري يومئذ سماعاً ﴿يوم تشقق الأرض عنهم سراعاً﴾.

مزقتهم اللحود تمزيقاً مشاعاً، وصيرت تلك الأبدان رفاتا شيعاً، ونفخ في الصور فقاموا عطاشاً جيعاً، وعلموا أن الهوى كان لهم خداعاً، فتداعى بالويل من كان بالسرور تداعى ﴿يوم تشقق الأرض عنهم سراعاً﴾.

(١) ق ٤٢ .

(٢) ق ٤٤ .

حضرُوا من صحراء القيامة قاعاً، فوجدوه أصعبَ البقاع بقاعاً، وتناولوا
بالأيام والشمائل رِباعاً، حَفِظْتَ أعمالهم فما وجدوا شيئاً مضاعاً، وكيّلَ الجزاء
بكفِّ الوكيلِ كما كالواصاعاً بصاعاً، ذلك يوم لا يراعى فيه إلا من كان راعياً
﴿يَوْمَ تَشَقُّقُ الْأَرْضُ عَنْهُمْ سِرَاعاً﴾.

قوله تعالى: ﴿ذَلِكَ حَشْرٌ عَلَيْنَا يَسِيرٌ﴾ أي هينٌ ﴿نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ﴾
أي في تكذيبك. وهذه تسليّة له ﴿وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِجَبَّارٍ﴾^(١) أي بمسلّط فتقهرهم
على الإسلام، وهذا منسوخ بآية السيف.

قوله تعالى: ﴿فَذَكَّرْ بِالْقُرْآنِ﴾ أي فعِظْ به. قال بعض السلف: من لم يعظه
القرآن ولا الشيب، فلو تناطحت بين يديه الجبال ما اتعظ!

يا ذا النفسِ اللاهية، تقرأ القرآن وهي ساهية، أمالك ناهية في الآية
الناهية، كم خوفك القرآن من داهية، أما أخبرك أن أركان الحياة واهية، أما
أعلمك أن أيام العمر متناهية، أما عرفك أسباب الغرور كماهية؟

قد يرعوى المرء يوماً بعد هفوته
والعلم يجلي العمى عن قلب صاحبه
والذكر في حياة للقلوب كما
لا ينفع الذكر قلباً قاسياً أبداً
والموت جسر لمن يمشي على قدم
فهم يجوزون أفواجاً وتجمعهم
لا يلبث الشيء أن يبلى إذا اختلفت
وكل بيت خراب بعد جدته
بيننا يرى الغصن لدناً في أرومته
كم من جميع أشت الدهر شملهم
أبعد آدم ترجون البقاء وهل
لكم بيوت بمستن السيول وهل

ويُحكّم الجاهل الأيام والعبير
كما يجلي سواد الظلمة القمر
يجي البلاد إذا ماتت المطر
وهل يلين لقول الواعظ الحجر
إلى الأمور التي تخشى وتنتظر
داراً إليها يصير البدو والحضر
يوماً على نقصه الروحات والبكر
ومن وراء الشباب الموت والكبر
ريان صار خطاماً جوفه نخر
وكل شمل جميع سوف ينتشر
تبقى فروع لأصل حين ينقصر
يبقى على الماء بيت أسه مدر

(١) ق ٤٥.

إلى الفناء وإن طالَّتْ سلامتهم
 والمرء ما عاش في الدنيا له أملٌ
 لها حلاوةٌ عيشٍ غيرُ دائمٍ
 إذا قضتْ زُمرٌ آجالها نزلتْ
 وليس يزجركم ما تُوعظون به
 مالي أرى الناسَ والدنيا موليّة
 لا يشعرون بما في دينهم نقصوا
 يا متحيراً في طريقه قد بان البيان، يا بليدَ الاعتبارِ وقد أُنذره الأقران، يا
 من تفرَّع قلبه المواعظُ وهو قاسٍ ما لان، لو حضرتَ بالذهن كفاك زَجْرُ
 القرآن.

كتب زِرُّ بن حبيش إلى عبد الملك بن مروان: لا يُطمعك في طول الحياة ما
 ترى من صحة بدنك واذكر قول الأول:
 إذا الرجالُ ولدتْ أولادها وبليت من كير أجسادها
 وجعلتْ أسقامها تعتادها تلك زروعٌ قد دنا حصادها
 فلما قرأ الكتابَ بكى حتى بُلَّ طرفُ ثوبه.

كان الربيع بن خثيم يقول: أمّا بعدُ، فأعدّ زادك وجدّ في جهازك، وكُنْ
 وصيّاً نفسك.

وكان إذا جنَّ عليه الليلُ لا ينام، فتناديه أمه: ألا تنام؟ فيقول: يا أماه من
 جنَّ عليه الليل وهو يخاف البيات حقَّ له أن لا ينام!

فلما بلغ ورأت ما يلقى من البكاء والسهر قالت: يا بني لعلك قتلت قتيلاً!
 فقال: نعم يا أماه. فقالت: ومن هذا القتيل، فلو علم أهله ما تلقى من البكاء
 والسهر لرحموك. فقال: هي نفسي!

وقالت له ابنته: يا أبت ألا تنام؟ فقال: يا بنية إن جهنم لا تدعني أنام.
 أيها الغافل زاحم أهل العزم وبادر، فكأن قد نزل بك ما تخاف وتحاذر،

فيختم الكتاب على الرذائل ، ويفوت تحصيل الفضائل [فالدنيا منزل قلعة كأنها يومٌ أو جمعة] .

كلُّ حيٍّ إلى فناء وما الدا ر يَدَار ولا المقام مُقَامٌ
يستوي ساعةَ المنية في الرُّتْبة وَجَدُ الغني والإعدامُ
والذي زال وانتقضى من نعيم أو شقاء كأنه أحلامُ

السجع على قوله تعالى:

﴿ فذَكَرَ بِالْقُرْآنِ مَنْ يَخَافُ وَعِيدٌ ﴾ (١)

لقد وعظ القرآن المجيد ، يُبدي التذكارَ عليكم ويُعيد ، غير أن الفهم منكم بعيد ، ومع هذا فقد سبق العذاب التهديد ، ﴿ فذَكَرَ بِالْقُرْآنِ مَنْ يَخَافُ وَعِيدٌ ﴾ .

إنَّ في القرآن ما يُلين الجلاميد ، لو فهمه الصخر كأنَّ الصخر يَميد ، كم أخبرك بإهلاك الملوك الصبيد ، وأعلمك أن الموت بالباب والوصيد ﴿ فذَكَرَ بِالْقُرْآنِ مَنْ يَخَافُ وَعِيدٌ ﴾ .

إن مواعظ القرآن تُذيب الحديد ، وللفهوم كلَّ لحظةٍ زَجْرٌ جديد ، وللقلوب النيرة كلَّ يوم به عيد ، غير أن الغافل يتلوه ولا يستفيد ﴿ فذَكَرَ بِالْقُرْآنِ مَنْ يَخَافُ وَعِيدٌ ﴾ .

أما الموت للخلائق مُبِيد ، أما تراه قد مزَّقهم في البيد ، أما داسهم بالهلاك دَوْس الحصيد ، لا بالبسيط ينتهون ولا بالتشديد ، أين من كان لا يَنْظُر بين يديه ، أين من أبصر العبر ولم ينتفع لعينيه ، أين من بارز بالذنوب المطلع عليه ﴿ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ ﴾ (٢) .

أين من كان يتحرك في أغراضه ويميد ، ويغرس الجنان لها طلع نَصِيد ،

(٢) هود ١٠٥ .

(١) ق ٤٥ .

ويعجبه نعمات الورق على الورق بتغريد ، كان قريباً منّا فهو اليوم بعيد ﴿ فذكر
بالقرآن من يخاف وعيد ﴾ .

أحضروا قلوبكم فإلى كم تقليد ، يا معشر الشيوخ في عقل الوليد ، أما فيكم
من يذكر أنه في قبره وحيد ، أما فيكم من يتصور تمزيقه والتبديد ، غداً يباع
أثاث البيت فمن يزيد ، غداً يتصرف الوارث كما يريد ، غداً يستوي في بطون
اللحود الفقير والسعيد ، يا قوم ستقومون للمبديء المعيد ، يا قوم ستحاسبون على
القريب والبعيد ، يا قوم المقصود كله وبيت القصيد : ﴿ فمنهم شقي
وسعيد ﴾ (١) .

ألمنا الله وإياكم ما ألهم الصالحين ، وأيقظنا من رقاد الغافلين ، إنه أكرم منعم
وأعز معين .

(١) هود ١٠٥ .

المجلس السابع في قصة إبراهيم الخليل عليه السلام

الحمد لله العليّ القويّ المتين، القاهر الظاهر المبين، لا يعزّب عن سمعه أقلّ الأنين، ولا يخفى على بصّره حركات الجنين، ذلّ لكبريائه جبابرة السلاطين، وقلّ عند دفاعه كيد الشياطين، قضى قضاءه كما شاء على الخاطئين، وسبق اختياره لَمَّا اختار الماء والطين، فهؤلاء أهل الشمال وهؤلاء أهل اليمين، جرى القدر بذلك قبل عمل العاملين ﴿ولقد آتينا إبراهيم رُشدَه من قبلُ وكُنَّا به عالمين﴾ (١).

أحده حمد الشاكرين، وأسأله معونة الصابرين، وأصلي على رسوله المقدم على النبيين، وعلى صاحبه الصديق أول تابع له على الدين، وعلى الفاروق عمر القويّ الأمين، وعلى عثمان زوج ابنته ونعم القرين، وعلى عليّ بجر العلوم الأنزع البطين، وعلى عمه العباس ذي الفخر القويم والنسب الصميم.

قال الله تعالى: ﴿ولقد آتينا إبراهيم رُشدَه من قبلُ وكُنَّا به عالمين﴾.

إبراهيم بن تارخ بن ناحور بن ساروغ بن أرغو بن فالغ [بن عابر] بن شالخ بن أرفخشذ بن سام بن نوح [بن لامك بن متوشلخ بن أهنخ بن يرد بن مهلاييل بن قايين بن أنوش. وأمه نونا بنت كرينا بن كوئا] [من بني] أرفخشذ.

وكرينا هو الذي كرى نهر كوثي.

(١) الأنبياء ٥١.

وكان بين الطوفان ومَوْلِد إبراهيم ألف سنة وتسع وسبعون. وقيل: ألف ومائتا سنة وثلاث وستون، وذلك بعد خلق آدم عليه السلام بثلاثة آلاف سنة وثلاثمائة وسبع وثلاثين سنة.

ولما أراد الله عز وجل إيجاد إبراهيم عليه السلام قال المنجمون لنمرود، إننا نجد في علمنا أن غلاماً يولد في قرينتك هذه يقال له: إبراهيم، يفارق دينكم ويكسر أوثانكم في شهر كذا وكذا من سنة كذا وكذا. فلما دخلت السنة المذكورة بعث نمرود إلى كل امرأة حامل بقريته فحبسها عنده، ولم يعلم بجبل أم إبراهيم، فجعل لا يولد غلام في ذلك الشهر إلا ذبحه، فلما أخذ أم إبراهيم الطلق خرجت ليلاً إلى مغارة فولدت فيها إبراهيم وأصلحت من شأنه، ثم سدت عليه باب المغارة ثم رجعت إلى بيتها، وذلك بمدينة كوثى، وكانت تتردد إليه فتراه يمص إبهامه قد جعل الله رزقه في ذلك، وكان آزر قد سألها عن حملها فقالت: ولدت غلاماً فمات. فسكت عنها. وقيل: بل أخبرته فأتاه فحفر له سرّاً وسدّ عليه بصخرة، وكانت أمه تختلف إلى رضاعه. فلما تكلم قال لأمه: من ربّي؟ قالت: أنا. قال: فمن ربك؟ قالت: أبوك. قال: فمن رب أبي؟ قالت له: اسكت. فسكت فرجعت إلى زوجها فقالت له: إن الغلام الذي كنا نتحدث أنه يغيّر دين أهل الأرض هو ابنك. فأتاه فقال له مثل ذلك.

فدنا [إبراهيم عليه السلام] بالليل من باب السرب فرأى كوكباً، قال ابن عباس: هو الزهرة. قال: وكان له حينئذ سبع سنين. وقال مجاهد: هو المشتري. فقال: هذا ربّي [أي على زعمكم] فلما خرج كان أبوه يصنع الأصنام ويقول له بعها. فيأخذ الصنم ويخرج فيقول: من يشتري ما يضره ولا ينفعه!

فشاع بين الناس استهزاؤه بالأصنام.

وجعل يقول لقومه: ﴿ما هذه التماثيل التي أنتم لها عاكفون﴾^(١) أي مقيمون على عبادتها ﴿قالوا وجدنا آباءنا لها عابدين﴾ أي إنا نقتدي بهم ونقلدهم.

(١) الأنبياء ٥٢.

فخرجوا يوماً إلى عيد لهم فخرج معهم، ثم ألقى نفسه في الطريق وقال: ﴿أَنْبِي سَقِيم﴾ فلما مضوا قال: ﴿تَاللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَامَكُمْ﴾ والكيد: احتيال الكائد في ضر المكيد وأراد لأكسرتها. فسمع الكلمة رجل منهم فأفشاها عليه. فدخل بيت الأصنام، وكانت اثنين وسبعين صنماً من ذهب وفضة ونحاس وحديد وخشب، فكسرها وجعلهم جُذاذاً، أي فُتاتاً.

ثم وضع الفأس في عنق الصنم الكبير ﴿لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ﴾. في هاء الكناية قولان: أحدهما: أنها ترجع إلى الصنم فيظنون أنه فعل. والثاني: إلى إبراهيم، والمراد الرجوع إلى دينه.

فلما رجعوا ﴿قالوا: من فعل هذا بِالْهَيْتِنَا﴾ فتمَّ عليه الذي سمع منه: ﴿لَأَكِيدَنَّ﴾ فقالوا ﴿سَمِعْنَا فَتَى يَذُكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُ إِبْرَاهِيمُ﴾ أي يعيهم. ﴿قالوا فَأَتَوْا بِهِ عَلَى أَعْيُنِ النَّاسِ﴾ أي برأى منهم ﴿لَعَلَّهُمْ يَشْهَدُونَ﴾ فيه ثلاثة أقوال:

أحدها: يشهدون أنه قال لآهتنا ما قال. قاله ابن عباس.

والثاني: أنه فعل ذلك. قاله السدي.

والثالث: يشهدون عقابه. قاله ابن إسحاق.

﴿قالوا أَنْتَ فَعَلْتَ هَذَا بِالْهَيْتِنَا يَا إِبْرَاهِيمُ؟﴾ قال: بل فعله كبيرهم ﴿^(١)﴾ والمعنى أنه غضب أن تُعبد معه الصغار فكسرها.

وكان الكِسائي يقف على قوله: ﴿بل فعله﴾ ويقول: معناه فعله من فعله، ثم يتديء ﴿كبيرهم هذا﴾ وقال ابن قتيبة: هذا من المعاريض، فتقديره: ﴿إن كانوا ينطقون فقد فعله كبيرهم هذا﴾.

﴿فَرَجَعُوا إِلَى أَنْفُسِهِمْ فَقَالُوا إِنَّكُمْ أَنْتُمُ الظَّالِمُونَ﴾ حين عبدتم من لا يتكلم ﴿ثُمَّ نَكِسُوا عَلَى رُؤُوسِهِمْ﴾ أي أدركتهم حيرة.

(١) الانبياء ٦٣.

فلما ألزهم الحُجَّةَ حملوه إلى نمرود فقال له: ما إلهك الذي تَعْبُدُ؟ قال: ربي الذي يُحيي ويميت. قال: أنا أحيي وأميت، آخذ رجُلين قد استوجبا القتل، فأقتل أحدهما فأكون قد أمَّته، وأعفو عن الآخر، فأكون قد أَحْيَيْتَهُ. قال: ﴿فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ﴾ (١).

فبهت نمرود وحبسه سبع سنين وجوَّع له أسدين، وأرسلها عليه، فكانا يلحسانه ويسجدان له، ثم أوقد له ناراً ورماه فيها فسَلِمَ. فكفَّ نمرودُ عنه.

فخرج مهاجراً إلى الشام فتزوج سارة، وهي بنت ملك حَرَآن، وكانت قد خالفت دينَ قومها. ومضى فنزل أرضَ فلسطين فاتخذ مسجداً، وبُسط له الرزق، وكان يُضَيِّفُ كُلَّ مَنْ نَزَلَ بِهِ، وأنزل الله عليه صُحُفًا.

أخبرنا أبو بكر محمد بن عبد الباقي، أنبأنا أبو الحسين ابن المهدي، أنبأنا الحسن بن أحمد بن علي الهَمَّانِي، حدثنا أبو بكر محمد بن أحمد الشَّمْشَاطِي، حدثنا جعفر بن محمد الفَرِيَّابِي، حدثنا إبراهيم بن هشام بن يحيى العَسَّانِي، حدثنا أبي، عن جدي عن إدريس الخَوْلَانِي، عن أبي ذَرِّ رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «أَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى عَلَى إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ عَشْرَ صَحَافٍ». قلت: ما كانت صحف إبراهيم؟ قال: «كانت أمثالاً كلها: أيها الملك المسَلِّطُ المبتلى المغرور، إني لم أبعثك لتجمع الدنيا بعضها إلى بعض، ولكن بعثتك لتردَّ عني دعوة المظلوم، فإني لا أردُّها وإن كانت من كافر». وكان فيها: «وعلى العاقل ما لم يكن مغلوباً على عقله أن تكون له ساعات: ساعة يناجي فيها ربَّه، وساعة يتفكَّرُ فيها في صنع الله، وساعة يحاسب فيها نفسه، وساعة يخلو فيها بحاجته من الحلال. وعلى العاقل أن لا يكون ظاعناً إلا في ثلاث: تزوّد لمعاد، ومرة لمعاش ولذّة في غير محرّم، وعلى العاقل أن يكون بصيراً بزمانه مُقبلاً على شأنه، حافظاً للسانه. ومن حسب كلامه من عمله قلَّ كلامه فيما يعنيه».

ثم إن الله تعالى اتخذهُ خليلاً، وفي سبب ذلك ثلاثة أقوال.

(١) البقرة ٢٥٨.

أحدها: لإطعامه الطعام، وكان لا يأكل إلا مع ضيف. روى عبد الله بن عمرو بن العاص، عن النبي ﷺ أنه قال: يا جبريل لم اتخذ الله إبراهيم خليلاً؟ قال: لإطعامه الطعام.

والثاني: أن الناس أصابتهم سنة فأقبلوا إلى باب إبراهيم يطلبون الطعام، وكانت له ميرة من صديق له بمصر في كل سنة، فبعث غلامه بالإبل إلى صديقه فلم يعطه شيئاً، فقالوا: لو احتملنا من هذه البطحاء ليرى الناس أننا قد جئنا بميرة. فملأوا الغرائر رملاً، ثم أتوا إلى إبراهيم فأعلموه، فاهتم لأجل الخلق. فنام، وجاءت سارة وهي لا تعلم ما كان، ففتحت الغرائر فإذا دقيق حواري فأمرت الخبازين فخبزوا وأطعموا الناس، فاستيقظ إبراهيم فقال: من أين هذا الطعام؟ فقالت: من عند خليلك المصري. فقال: لا بل من عند خليلي الله! فحينئذ اتخذ الله خليلاً!

رواه أبو صالح عن ابن عباس.

والثالث: اتخذ الله خليلاً لكسره الأصنام وجداله قومه.

قاله مقاتل.

أخبرنا محمد بن أبي طاهر البزار، أنبأنا أبو محمد الحريري، أنبأنا أبو عمر بن حيوة، أنبأنا أحمد بن معروف، حدثنا الحارث بن أبي أسامة، حدثنا محمد بن سعد، حدثنا هشام بن محمد، عن أبيه، عن أبي صالح، عن ابن عباس رضي الله عنهما قال، لما اتخذ الله إبراهيم خليلاً ونبأه، وله يومئذ ثلاثمائة عبدٍ أعتقهم لله وأسلموا، فكانوا يقاتلون معه بالعصي.

وابتلاه الله عز وجل بالكلمات فأتمهن.

روى طاوس عن ابن عباس قال: ابتلاه الله بالطهارة، خمس في الرأس: قص الشارب، والمضمضة، والاستنشاق، والسواك، وفرق الرأس. وخمس في الجسد: تقليم الأظفار، وحلق العانة الختان ونتف الإبط، وغسل أثر الغائط والبول وبالماء.

وفي الصحيحين من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، عن النبي ﷺ أنه قال: اختن إبراهيم بالقدوم. والقدوم مَوْضِع، وكان له يومَ اختن ثمانون سنة. وقيل مائة وعشرون سنة، وهو ختن نفسه.

وسأل ربّه عز وجل أن يريه كيف يحيى الموتى. وفي سبب ذلك أربعة أقوال: أحدها: أنه رأى ميتةً تمزّقها السباعُ والهوامُّ، فسأل ذلك. قاله ابن عباس. والثاني: أنه لما بُشِّرَ باتخاذه خليلاً سأل ليَعْلَمَ بإجابته صحة البشارة. قاله السُّدِّي عن أشياخه.

والثالث: أنه أحب أن يزيل عوارضَ الوسواس. قاله عطاء بن أبي رباح.

والرابع: أنه لما قال لنمرود: ربي الذي يحيى ويميت. أحبّ أن يرى ما أخبر به. قاله ابن إسحاق.

وأما نمرود فإنه بقي بعد إلقاء الخليل في النار أربعمئة عام لا يزداد إلا عتوّاً، ثم حلف ليطلبنَّ إله إبراهيم. قال السُّدِّي عن أشياخه: أخذ أربعة أفراخ من أفراخ النسور، فربّاهن باللحم والخمر، حتى إذا كَبُرْنَ واستفحلن قرهنن بتابوت، وقعد في ذلك التابوت، ثم رفع هن اللحم فطِرْنَ به، حتى إذا ذهب في السماء أشرف ينظر إلى الأرض، فراها كأنها فُلُك في ماء، ثم صعد فوقع في ظلمة فلم ير ما فوقه ولا ما تحته، ففزع فنكّس اللحم فاتبعنه مُنْقَضَات، فلما نزل أخذ يَبْنِي الصَّرْح فسقط الصرْحُ.

قال زيد بن أسلم: بعث الله تعالى إلى نمرود ملكاً فقال له: آمينُ بي وأتركك على مُلكك. فقال: وهل ربُّ غيري. فأتاه ثانياً وثالثاً، فأبى. ففتح عليه باباً من البعوض فأكلت لحومَ قومه وشربت دماءهم. وبعث الله عز وجل عليه بعوضةً فدخلت في منخره فمكث أربعمئة عام يُضرب رأسه بالمطارق، وأرحمُ الناس به من يجمع يديه ثم يضرب بهما رأسه، فعذب بذلك إلى أن مات.

وقال مقاتل: عذب بالبعوضة أربعين يوماً ثم مات.

الكلام على البسمة

إخواني: السعيد من اعتبر، وتفكّر في العواقب ونظر، أضرّ الخليل ما عليه جرى وهذه مدائح كما ترى، من صابر الهوى ربح واستفاد، ومن غفل فاته المراد.

يا فؤادي غلبتني عصياناً فإطعني فقد عصيت زماناً
يا فؤادي أما تحنّ إلى طوبى إذا الريح حرّكت أغصاناً
مثل الأولياء في جنة الخلد إذا ما تقابلوا إخواناً
قد تعالوا على أسيرة دُرّ لابسين الحرير والأرجواناً
وعليهم تيجانهم والأكاليل بُهاهي مجسّنها التيجاناً
ثم آووا فاستقبلتهم حساناً من بنات النعيم ففطن الحساناً
بوجوه مثل المصابيح نوراً ما عرفن الظلال والأكناناً
فهّم الدهر في سرورٍ عجيب ويزورون ربهم أحياناً
يا غافلين عما نالوا، ملّتم عن التقوى وما مالوا، ما أطيب ليلهم في المناجاة،
وما أقربهم من طريق النجاة.

كان بشر الخافي طويل السهر يقول: أخاف أن يأتي أمر الله وأنا نائم.

كم منع نفسه من شهوة فما أنالها، حتى سمع: كل يا من لم يأكل لما أتى لها، كم حمل عليها حملاً وما رثي لها، كم همّت بنيل غرض بدا لها لما خافت عتبي مرض ينالها، أصبح زاهداً وأمسى عفيفاً، ما أخذ من الدنيا إلا طفيفاً، وما خرج عنها إلا نظيفاً، هذا وم وجد من الدنيا سعة وريفاً، تقلّب في ثياب الصبر نحيفاً، وتوغّل في طريق التقوى لطيفاً، تالله لقد كان رأيه حصيفاً، وما قدر حتى أعانه الرحمن ﴿وخلق الإنسان ضعيفاً﴾^(١).

بكت عينه رحمة للبدن فعقى البكاء مكان الوسن

(١) النساء ٢٨.

وَأَلْبَسَهُ الشُّوقُ ثَوْبَ السَّقَامِ كَأَنَّ السَّقَامَ عَلَيْهِ حَسَنٌ
وَأَنْسَ مَدَامَعَهُ بِالدموعِ لَمْ يَدْعِ السَّرَّ حَتَّى عَلَنَ
فِيَا طَوَّلَ عِصْيَانَهُ لِلغَرَامِ وَيَا حُسْنَ طَاعَتِهِ لِلحَزَنِ

إخواني: من عرف قدر نفسه عليه هانت الدنيا كلها لديه، إن العقلاء
نظروا إلى مشارع الدنيا فأروها متوشحة بأقذار الفِرَاطِ فاقتنعوا بثغب الغُدْرَانِ .

لِللهِ سَاعٍ بَلَغَتْهُ قَدْمُهُ حَيْثُ تَعَدَّتْ عَالِيَاتُ هِمَمِهِ
أَوْ قَاعِدٍ مَعَ العِفَافِ قَانِعٍ يَبْلُغَةُ الزَادِ حَشَاهُ وَقَمَمُهُ
لَمْ يَنْتَقِصْ طَلَاوَةً مِنْ وَجْهِهِ وَرَفَقَهُ ذُلٌّ سَأْوَالِ يَصِمُّهُ
تَلَوَّنَتْ خَلَائِقُ الدَّهْرِ بِهِ فَحَنَكْتَهُ صُهْبَهُ وَدُهْمُهُ
وَاخْتَبَرَ النَّاسَ فُلُو سَاوَمْتَهُ قُرْبَ أَخِيهِ عَلَيْهِ يَحْتَشِمُهُ
وَاللهِ مَا عَفْتُكَ يَا دُنْيَا بَلَى وَإِنَّ فِيكَ لِمَتَاعاً أَعْلَمُهُ
لَكِنْ أَبْنَاءُكَ مَنْ لَا صِبْغِي صِيغْتُهُ وَلَا وَقَائِي شِيمُهُ
أَخْرَجَ مِنْ حِكْمَةِ الصَّدْرِ وَمَا فِيهِمْ بِسِحْرِي مَنْ يَصِحُّ سَقَمُهُ
كَمْ بِاسْمِي لِي مِنْ وَرَاءِ سِرِّهِ وَاللَيْثُ لَا يَغُرَّنِي تَبَسُّمُهُ
وَحَاطِبٍ عَلَى اتِّخَاذِي صُحْبِي وَالبَدْرُ مَوْلُودٌ بِغَيْرِ تَوَامِهِ

سبحان من كشف لأحبابه ما غطى على الغير، وأعطاهم من جوده كل خير
ومير، فقطعوا مفاوز الدنيا بالصبر ولا ضمير، وكابدوا المجاعة حتى استحيا
راهب الديار، أفي أحوال هذه الدنيا تتمارى، أما ترى زيتها مسترداً مستعاراً،
وسلب القرين يكفي وعظماً واعتباراً. أمّا اللذات فقد فنيت وأبقت عاراً، وأما
العمر فمتمتت جهاراً، إياك وإيا الدنيا فراراً فراراً، لقد قررت عيون الزاهدين
وماتوا أحراراً، قتلت أقرانهم فانتفضوا يأخذون ثاراً، وباعوها بما يبقى لا
كرها بل اختياراً، قطعوا بالقيام ليلاً وبالصيام نهاراً، واتخذوا الجدّ لحافاً
والصبر شعاراً، وركبوا من العزم أمضى من العربان المهارى، واهتدوا إلى نجاتهم
والناس في الجهل حيارى.

رَبِحَ الْقَوْمُ وَخَسِرْتَ، وَسَارُوا إِلَى الْمَحْبُوبِ وَمَا سِرْتَ، وَأَجِيرُوا مِنَ اللُّومِ
 وَمَا أُجِرْتَ، وَاسْتَزِيدُوا إِلَى الْقُرْبِ وَمَا اسْتُرِدْتَ، ذُنُوبِكَ طَرَدَتْكَ عَنْهُمْ،
 وَخَطَايَاكَ أَبْعَدَتْكَ مِنْهُمْ، قُمْ فِي اللَّيْلِ تَرَى تِلْكَ الرَّفِيقَةَ، وَاسْلُكْ طَرِيقَتَهُمْ، وَإِنْ
 بَعَدَتْ الشُّقَّةَ، وَابْكِ عَلَى تَأْخُرِكَ وَاحْذِرِ الْفُرْقَةَ.

شَمَّرَ عَسَى أَنْ يَنْفَعَ التَّشْمِيرُ وَانْظُرْ بِفِكْرِكَ مَا إِلَيْهِ تَصِيرُ
 طَوَّلْتَ آمَالاً تَكْتَفِهَا الْهُوَى وَنَسِيتَ أَنَّ الْعُمَرَ مِنْكَ قَصِيرُ
 قَدْ أَفْضَحْتَ ذُنُوبَكَ عَنْ غَدْرَاتِهَا وَأَتَى مَشِيْبِكَ وَالْمَشِيْبُ نَذِيرُ
 دَارٌ لَهْوَتَ بَزْهَوِهَا مَتَمْتَعاً تَرْجُو الْمَقَامَ بِهَا وَأَنْتَ تَسِيرُ
 وَاعْلَمْ بِأَنَّكَ رَاحِلٌ عَنْهَا وَلَوْ عَمَّرْتَ فِيهَا مَا أَقَامَ ثَبِيرُ
 لَيْسَ الْغِنَى فِي الْعَيْشِ إِلَّا بُلْغَةً وَيَسِيرُ مَا يَكْفِيكَ مِنْهُ كَثِيرُ
 لَا يَشْغَلُنْكَ عَاجِلٌ عَنْ آجِلٍ أَبْداً فَمُلْتَمِسِ الْحَقِيرِ حَقِيرُ
 وَالْقَدَّ تَسَاوَى بَيْنَ أَطْبَاقِ الثَّرَى فِي الْأَرْضِ مَأْمُورٌ بِهَا وَأَمِيرُ

الكلام على قوله تعالى

﴿قُلْنَا يَا نَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ﴾ (١)

لما كسّر الخليلُ الأصنامَ حملوه إلى نمرود، فعزم على إهلاكه، فقال رجل:
 حرّقه. قال شعيب الحبّائي: خسفت الأرض بالذي قال حرّقه، فهو يتجلجل
 فيها إلى يوم القيامة.

وألقى الخليل في النار وهو ابن ست عشرة سنة. قال علماء السير: حبسه
 نمرود، ثم بنوا له حوالي سفح جبل مُنِيف طول جداره ستون ذراعاً، ونادي
 منادي نمرود: أيها الناس احتطبوا لإبراهيم، ولا يتخلفن عن ذلك صغير
 ولا كبير، فمن تخلف ألقى في تلك النار.

ففعّلوا ذلك أربعين ليلة حتى إن كانت المرأة لتقول: إن ظفرت بكذا

(١) الأنبياء ٦٩.

لأحتطبّن لنار إبراهيم. حتى إذا كان الحطب يساوي رأس الجدار قذفوا فيه النار فارتفع لهيباً، حتى كان الطائر يمر بها فيحترق. ثم بَنَوْا بنياناً شامخاً وبنوا فوقه منجنيقاً.

ثم رفعوا إبراهيم على رأس البنيان، فرفع إبراهيم رأسه إلى السماء فقال: اللهم أنت الواحد في السماء [وأنا الواحد في الأرض] ليس في الأرض أحدٌ يعبدك غيري، حَسْبِيَ اللهُ ونعم الوكيل.

ثم رُمِيَ به فاستقبله جبريل فقال: يا إبراهيم ألك حاجة؟ فقال له: أمّا إليك فلا، فقال جبريل: سَلْ رَبَّكَ. فقال حَسْبِيَ من سؤالي علمه بحالي!

أخبرنا محمد بن أبي منصور، حدثنا جعفر بن أحمد، أنبأنا الحسن بن علي التيمي، أنبأنا أبو بكر بن أحمد بن جعفر، أخبرنا عبد الله بن أحمد بن حنبل، حدثنا شيبان، حدثنا أبو هلال: قال: حدثنا بكر، قال: لما ألقى إبراهيم في النار جأرت عامة الخليقة إلى ربها عز وجل فقالوا: يا رب خَلِّيكْ يُلقَى في النار، فأذن لنا أن نطفيء عنه. فقال: هو خليلي، وليس لي في الأرض خليل غيره، وأنا ربُّه ليس له ربٌّ غيري، فإن استغاث بكم فأغيثوه، وإلا فدعوه!

قال: فجاء ملك القطر فقال: يا رب خَلِّيكْ يُلقَى في النار، فأذن لي أظفيء عنه بالقطر، فقال: هو خليلي ليس لي في الأرض خليل غيره، وأنا ربه ليس له رب غيري، فإن استغاث بك فأغيثه وإلا فدعه!

فلما ألقى في النار دعا ربّه فقال الله تعالى: ﴿يا نار كُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ﴾^(١) فبردت يومئذ على أهل المشرق والمغرب فلم ينضج بها كراع.

قال ابن عباس: لم يبق في الأرض يومئذ نار إلا طففت، ظننت أنها هي التي تُعنى، ولو لم يُتبع بردها سلاماً لمات إبراهيم من بردها.

أخبرنا أبو بكر بن حبيب، أنبأنا علي بن صادق، أنبأنا أبو عبد الله

(١) الأنبياء: ٦٩.

الشَّيرَازِي، حَدَّثَنَا أَبُو الْعَبَّاسِ مُحَمَّدُ بْنُ الْحَسَنِ الْخَشَابُ، حَدَّثَنَا أَبُو الْقَاسِمِ بْنِ مُوسَى، حَدَّثَنَا يَعْقُوبُ بْنُ إِسْحَاقَ، قَالَ سَمِعْتُ أَحْمَدَ بْنَ حَنْبَلٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وَقَدْ سئِلَ عَنِ التَّوَكُّلِ قَالَ: هُوَ قَطْعُ الْإِسْتِشْرَافِ بِالْيَأْسِ مِنَ الْخَلْقِ. قِيلَ لَهُ: فَمَا الْحِجَّةُ فِيهِ؟ قَالَ: قِصَّةُ الْخَلِيلِ، لَمَّا وَضِعَ فِي الْمَنجْنِيقِ مَعَ جَبْرِيلَ عَلَيْهَا السَّلَامَ، لَمَّا قَالَ: أَمَّا إِلَيْكَ فَلَآ، فَقَالَ لَهُ: فَسئِلُ مِنْ لَكَ إِلَيْهِ الْحَاجَةُ. قَالَ: أَحَبُّ الْأُمُورِ إِلَيَّ أَحَبُّهَا إِلَيْهِ.

قال علماء السِّير: لما أُلْقِيَ فِي النَّارِ أَخَذَتِ الْمَلَائِكَةُ بِضَبْعَيْهِ وَأَجْلَسُوهُ عَلَى الْأَرْضِ، فَإِذَا عَيْنٌ مِنْ مَاءٍ عَذْبٍ وَوَرْدٍ أَحْمَرَ وَلَمْ تَحْرُقِ النَّارُ إِلَّا وَثَاقَهُ. وَنَزَلَ جَبْرِيلُ بِقَمِيصٍ مِنَ الْجَنَّةِ وَطَنْفِيسَةٍ مِنَ الْجَنَّةِ فَأَلْبَسَهُ الْقَمِيصَ وَأَجْلَسَهُ عَلَى الطَّنْفِيسَةِ وَقَعَدَ مَعَهُ يَحْدِثُهُ، فَأَقَامَ هُنَاكَ أَرْبَعِينَ يَوْمًا. فَجَاءَ آزَرَ إِلَى نَمْرُودَ فَقَالَ: ائْذَنْ لِي أَنْ أَخْرَجَ عِظَامَ إِبْرَاهِيمَ وَأَدْفِنُهَا فَخَرَجَ نَمْرُودُ مَعَهُ النَّاسَ، فَأَمَرَ بِالْحَائِطِ فَنُقِبَ، فَإِذَا إِبْرَاهِيمَ فِي رَوْضَةٍ تَهْتَزُ وَنَبَاتُهَا يَنْدَى وَعَلَيْهِ الْقَمِيصُ، وَتَحْتَهُ الطَّنْفِيسَةُ، وَالْمَلِكُ إِلَى جَنْبِهِ [وَالْمَاءُ يَجْرِي فِي جَبِينِهِ] فَنَادَاهُ نَمْرُودُ: يَا إِبْرَاهِيمَ إِنَّ إِهْلَكَ الَّذِي بَلَغَتْ قُدْرَتُهُ هَذَا لَكَبِيرٌ: هَلْ تَسْتَطِيعُ أَنْ تَخْرُجَ؟ قَالَ: نَعَمْ: فَقَامَ إِبْرَاهِيمَ يَمْشِي حَتَّى خَرَجَ. فَقَالَ: مَنْ هَذَا الَّذِي رَأَيْتُ مَعَكَ؟ قَالَ مَلِكٌ أَرْسَلَهُ اللَّهُ تَعَالَى لِيُؤَنِّسَنِي. فَقَالَ نَمْرُودُ: إِنِّي مُقَرَّبٌ إِلَى إِهْلِكَ قَرْبَانًا لَمَّا رَأَيْتُ مِنْ قُدْرَتِهِ فَقَالَ: إِذَا لَا يُقْبَلُ مِنْكَ مَا كُنْتَ عَلَى دِينِكَ. فَقَالَ: يَا إِبْرَاهِيمَ لَا اسْتَطِيعُ أَنْ أَتْرِكَ مُلْكِي، وَلَكِنْ سَوْفَ أَذْبِحُ لَهُ. فَذَبَحَ أَرْبَعَةَ آلَافِ بَقَرَةٍ وَكَفَّ عَنْ إِبْرَاهِيمَ.

سَجَّعَ عَلَى قَوْلِهِ تَعَالَى

﴿قُلْنَا يَا نَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَى إِبْرَاهِيمَ﴾ (١)

سبحان من أخرج هذا السيِّدَ من آزر، ثم أعانَه بالتوفيقِ فقصد آزر، ثم بعث إليه البيان فأعان ووازر، فلما رأيناه قد رحل عن المنجنيق وسافر ولم يتزوّد

(١) الأنبياء: ٦٩.

إلا التسليم، ﴿قلنا يا نارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ﴾.

عبدٌ بذل نفسه لنا فبلَّغناه منَّا المتى، وعرفناه المتأسك عند البيت ومِنِّي، ولما رُمي في النار لأجلنا قلنا له بلسان التفهم: ﴿كُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ﴾.

قدّم ماله إلى الضيفان، وسلّم ولده إلى القربان، واستسلم للرمي في النيران، فلما رأينا محبنا في بيداء الوجد يهيم ﴿قلنا يا نار كوني برداً وسلاماً على إبراهيم﴾.

ابتليناه بكلمات فآتمهن، وأريناه قدرتنا يوم ﴿فَصْرُوهُنَّ﴾ وكسر الأصنام غيرةً لنا منهن، فلما أجمت النيران ذهبت بلطفنا حرارتهن، وغرسنا شجر الجنة في سواء الجحيم ﴿قلنا يا نار كوني برداً وسلاماً على إبراهيم﴾.

بنوا له بنياناً إلى سفح جبل، واحتطب من أجله من شرب وأكل، وألقوه فيها وقالوا قد اشتعل، فخرج نمrod ينظر ماذا فعل، وقد خرج توقيع القدم من القديم: ﴿يا نارُ كوني برداً وسلاماً على إبراهيم﴾.

اعترضه وتعرض لحوائجه الملك، حين قطع بيداء الهوى وسلك، فقال له بلسان الحال: معي من ملك، إياك والتعريض بما ليس لك، فلما لم يتعلق بخلق دُونِي إذ أضيم ﴿قلنا يا نارُ كوني برداً وسلاماً على إبراهيم﴾.

تعرضت له الأملاك فكفها كفاً، فلما رأينا لا يمد إلى غيرنا كفاً، مدحناه ويكفي في مدحنا [له]: ﴿الذي وقى﴾ واجتمع الخلائق صفاً ينظرون من صفا، فلما أتانا في وقت القلب بقلب سليم: ﴿قلنا يا نار كوني برداً وسلاماً على إبراهيم﴾.

تنحَّ يا جبريل فماذا موضع زحمة، وخلني وخليلي فإليه الرحمة، وهل بذلت له إلا لحمة تبلى أو شحمة، فلما وطن نفسه على أن يصير فحمة، وحوشي من ذاك الكريم ﴿قلنا يا نار كوني برداً وسلاماً على إبراهيم﴾.

كانت الملائكة تدعي الفناء بالطاعة فخرج هاروت وماروت فخسرت

البضاعة، وشاهدوا يومَ الخليل ما ليس لهم به استطاعة، رأى ما رأى وما أزعجه
ولا راعه، فلما رأيناه ساكناً والأملاك في مُقْعِدِ مُقِيمِ ﴿﴾ قلنا يا نار كوني بَرْدًا
وسلاماً على إبراهيم ﴿﴾.

[قابل القومُ رسولنا بأقبح تكذيب، وقصدوا خليلنا بأشدَّ تعذيب، ونسوا
يومَ الفزع والتأنيب، والخليلُ سرّه صافٍ والحالُ مستقيم ﴿﴾ قلنا يا نار كوني بَرْدًا
وسلاماً على إبراهيم ﴿﴾.

اللهم إننا نتوسل إليك بالخليل في منزلته، والحبيب في رُتْبته، وكلّ مخلص في
طاعته، أن تغفر لكلِّ منا زلّته يا كريم برحمتك يا أرحم الراحمين.

المجلس الثامن في قصة بناء الكعبة

الحمد لله الملك الجليل، المنزه عن النّظير والعدّيل المنعم بقبول القليل، المتكرم بإعطاء الجزيل، تقدّس عما يقول أهل التعطيل، وتعالى عما يعتقد أهل التمثيل، نصّب للعقل على وجوده أوضح دليل، وهدى إلى وجوده أبين سبيل، وجعل للحسن حظاً إلى مثله يميل، فأمر ببناء بيتٍ وجلّ عن السكّنى الجليل ﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ﴾^(١).

ثم حاه لما قصده أصحاب الفيل، فأرسل عليهم حجارةً من سجيل. أحده كلّما نطق بحمده وقيل، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له المنزه عن ما عنه قيل، وأصلي على نبيه محمد النبي النبيل، وعلى أبي بكر الصديق الذي لا يُغضه إلا ثقيل، وعلى عمر وفضل عمر فضل طويل، وعلى عثمان، وم لعثمان من فعل جميل، وعلى عليّ وجحد قدر عليّ تغفيل، وعلى عمه العباس المستسقى بشيئته، فإذا السحب تسيل.

قال الله تعالى: ﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ﴾.

اختلف العلماء في المبتدئ ببناء البيت على ثلاثة أقوال: أحدها: أن الله تعالى وضعه لا ببناء أحد، ثم في زمن وضعه إياه قولان: أحدهما: قبل خلق الدنيا. قال أبو هريرة: كانت الكعبة حشفةً على الماء، عليها ملكان يُسبحان الليل والنهار قبل خلق الأرض بألفي عام. الحشفة: الأكمة الحمراء.

(١) البقرة: ١٢٧.

وقال ابن عباس رضي الله عنهما: لما كان العرش على الماء قبل خلق السموات بعث الله تعالى ريحاً فصفت الماء فأبرزت عن حشفة في موضع البيت كأنها قبة، فدحا الأرض من تحتها.

وقال مجاهد: لقد خلق الله تعالى موضع هذا البيت قبل أن يخلق شيئاً من الأرض بألفي سنة، وإن قواعده لفي الأرض السابعة السفلى.

وقال كعب: كانت الكعبة غُشاء على الماء قبل أن يخلق الله السموات والأرض. بأربعين سنة.

وقد روى ابن عباس عن النبي ﷺ أنه قال: كان البيت قبل هبوط آدم ياقوتة من يواقيت الجنة، وفيه قناديل من الجنة، فلما أهبط الله تعالى آدم أنزل عليه الحجر الأسود فأخذه فصمّه إليه استثناساً به، وحج آدم فقالت له الملائكة: بَرَّ حَجُّكَ، لقد حججنا هذا البيت قبلك بألفي عام. فقال: يا رب اجعل له عمّاراً من ذريتي. فأوحى الله تعالى: إني مُعمّره بأبناء نبيّ من ذريتك اسمه إبراهيم.

القول الثاني: أن الملائكة بنته. قال أبو جعفر الباقر: لما قالت الملائكة: ﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا﴾ (١) غضب عليهم، فعادوا بالعرض يطوفون حوله يسترضون ربهم، فرضي عنهم وقال: ابنوا في الأرض بيتاً يعودُ به كل من سخطُ عليه، ويطوفون حوله، كما فعلتم بعرشي، فبنوا هذا البيت.

والثالث: أن آدم لما أهبط أوحى الله إليه: ابن لي بيتاً واصنع حوله كما رأيت الملائكة تصنع حول عرشي. رواه أبو صالح عن ابن عباس رضي الله عنهما. وروي عنه عطاء أنه بناه آدم من خسة أجبل: لبنان، وطور سيناء، وطور زينا، والجوديّ وجرّاء.

قال وهب: فلما مات آدم بناه بنوه بالطين والحجارة، فنسفه الغرق. قال

(١) البقرة ٣٠.

مجاهد: وكان موضعه بعد الغرق أكمة حمراء لا تعلوها السيول وكان يأتيها المظلوم ويدعو عندها المكروب.

قال علماء السير: لما سلّم الخليل من النار خرج بمن معه من المؤمنين مهاجراً، فتزوج سارة بجران، وقدم مصر، وبها فرعون من الفراعنة، فوصف له حسنها فبعث فأخذها، فلما دخلت قام إليها فقامت تصلي وتقول: اللهم إني آمنت بك وبرسولك وأحصنت فرجي إلا على زوجي، فلا تسلط علي الكافر. فغط حتى ركض الأرض برجله فقالت: ثم قام إليها فدعت فغط حتى ركض الأرض برجله، ثم أرسل فقال: ردّوها إلى إبراهيم وأعطوها هاجر.

فوهبتها لإبراهيم وقالت: لعله يأتيك منها ولد، وكانت سارة قد منعت الولد، فولدت له إسماعيل فهو بكر أبيه، ولد له وهو ابن تسعين سنة. فلما ولدت غارت سارة وأخرجتها، وحلفت لتقطعن منها بضعة. فحفظتها ثم قالت: لا تساكيني في بلدي.

فأوحى الله تعالى إليه أن يأتي مكة، فذهب بها وبابنها، والبيت يومئذ ربوة حمراء فقال: يا جبريل أهنأ أمرت أن أضعهما؟ قال: نعم. فأنزلها موضع الحجر، وأمر هاجر أن تتخذ فيه عريشاً.

أخبرنا عبد الأوّل، قال: أنبأنا أبو الحسن الداودي، قال: أنبأنا ابن أعين السرخسي، حدثنا أبو عبد الله الغريزي حدثنا البخاري، حدثنا عبد الله بن محمد، حدثنا عبد الرزاق، أنبأنا معمر، عن أيوب السختياني، وكثير بن كثير عن المطلب بن أبي وداعة، يزيد أحدهما على الآخر، عن سعيد بن جبير، قال: قال ابن عباس رضي الله عنهما: أول ما اتخذ النساء المنطق من قبل أم إسماعيل، اتخذت منطقاً لتعقي أثرها على سارة. ثم جاء بها إبراهيم وبابنها إسماعيل، وهي ترضعه حتى وضعها عند البيت عند دوحة فوق زمزم في أعلى المسجد، وليس بمكة يومئذ أحد، وليس بها ماء، فوضع عندهما جراباً فيه تمر وسقاءً فيه ماء، ثم قفى إبراهيم منطلقاً، فتبعته أم إسماعيل فقالت: يا إبراهيم أين

تذهب وتركنا في هذا الوادي الذي ليس فيه أنيس، ولا شيء؟ فقالت له ذلك مراراً، وجعل لا يلتفت إليها. فقالت له: الله أمرك بهذا؟ قال: نعم. قالت إذاً لا يُضيعنا الله!
ثم رجعت.

فانطلق إبراهيم حتى إذا كان عند الثنية حيث لا يرونه استقبل بوجهه البيت ثم دعا بهؤلاء الدعوات ورفع يديه فقال: ربّ ﴿إني أسكنت من ذريتي بواد غير ذي زرع عند بيتك المحرم﴾ (١) حتى بلغ: ﴿يشكرون﴾.

وجعلت أم إسماعيل ترضع إسماعيل وتشرب من ذلك الماء، حتى إذا نفذ ما في السقاء عطشت وعطش ابنها، وجعلت تنظر إليه يتلوّى من العطش، أو قال يتلبّط، فانطلقت كراهية أن تنظر إليه فوجدت الصفاً أقرب جبل في الأرض يليها، فقامت عليه ثم استقبلت الوادي تنظر هل ترى أحداً، فلم تر أحداً. فهبطت من الصفاً، حتى إذا بلغت الوادي رفعت طرف درعها، ثم سعت سعيَ الإنسان المجهود، حتى جاوزت الوادي فلم تر أحداً، ففعلت ذلك سبع مرات.

قال ابن عباس: قال النبي ﷺ: «فلذلك سعى الناس بينها». فلما أشرفت على المروة سمعت صوتاً فقالت: صه. تريد نفسها ثم تسمعت أيضاً فقالت: قد أسمعت إن كان عندك غواث، فإذا هي بالملك عند موضع زمزم. فبحث بعقبه أو قال بجناحه حتى ظهر الماء. فجعلت تحوضه وتقول بيدها وجعلت تعرف من الماء في سقائها، وهو ينفور بعدما تعرف. قال ابن عباس: قال النبي ﷺ: يرحم الله أم إسماعيل لو تركت زمزم، أو قال: لو لم تعرف من الماء لكانت زمزم عيناً معيناً.

قال: فشربت وأرضعت ولدها فقال لها الملك: لا تخافي الضيعة، فإن هذا بيت الله بينه هذا الغلام وأبوه، وإن الله لا يضع أهله.

وكان البيت مرتفعاً من الأرض كالرأية تأتيه السيول فتأخذ عن يمينه وعن

(١) إبراهيم ٣٦، ٣٧.

شماله . فكانت كذلك حتى مرّت بهم رُفقة من جُرحهم مقبلين من طريق كُدَى فنزلوا في أسفل مكة فأروا طائراً عائفاً فقالوا: إنّ هذا الطائر ليدور على ماء لعهْدُنَا بهذا الوادي وما فيه ماء، فأرسلوا جَرِيّاً أو جَرِيّتين، فإذا هم بالماء، فرجعوا فأخبروهم بالماء فأقبلوا . قال: وأمّ إسماعيل عند الماء قالوا: أتأذنين لنا أن ننزل عندك؟ قالت: نعم، ولكن لا حقّ لكم في الماء، قالوا: نعم .

قال ابن عباس: قال النبي ﷺ: فألفى ذلك أمّ إسماعيل، وهي تحب الأُنس فنزلوا . وأرسلوا إلى أهليهم فنزلوا معهم . حتى إذا كان بها أهلُ أبيات منهم وشبّ الغلام وتعلّم العربية منهم وأنفَسَهم وأعجَبَهم حين شبّ . فلما أدرك زوَجوه امرأةً منهم وماتت أمّ إسماعيل .

فجاء إبراهيم بعدما تزوج إسماعيلُ يطالع تَرَكتَه، فلم يجد إسماعيلَ فسأل امرأته عنه فقالت: خرج يبتغي لنا . ثم سألها عن عيشتهم وهيأتهم فقالت: نحن بشرّ، نحن في ضيق وشدة وشكت إليه . قال: إذا جاء زوجك فاقرئي عليه السلام، وقولي له يغيّر عتبةً بابه . فلما جاء إسماعيلُ كأنه آنسَ شيئاً فقال: هل جاءكم من أحدٍ؟ قالت: نعم جاءنا شيخ كذا وكذا فسألنا عنك فأخبرته، وسألني كيف عيشنا فأخبرته أنا في جهْد وشدة . قال: فهل أوصاك بشيء؟ قالت: نعم، أمرني أن أقرأ عليك السلام ويقول: غير عتبةً بابك . قال: ذاك أبي، وقد أمرني أن أفارقك . الحقّي بأهلك . فطلّقها وتزوج منهم أخرى . فلبث عنهم إبراهيم ما شاء الله، ثم أتاهم بعدُ فلم يجده، فدخل على امرأته فسألها عنه فقالت: خرج يبتغي لنا . فسألها عن عيشتهم وهيأتهم فقالت: نحن بخير وسعة، وأثنت على الله عز وجل . فقال: ما طعامكم؟ قالت: اللحم . قال: فما شرابكم؟ قالت الماء . قال: اللهم بارك لهم في اللحم والماء .

قال رسول الله ﷺ: « ولم يكن لهم يومئذ حَبٌّ، ولو كان لهم دعا لهم فيه . » قال: فهما لا يخلو عليهما أحد بغير مكة إلا لم يوافقاه . قال: فإذا جاء زوجك فاقرئي عليه السلام ومُريه يثبّت عتبةً بابه . فلما جاء إسماعيلُ، قال: هل جاءكم من

أحد؟ قالت: نعم جاءنا شيخٌ حسن الوجه، وأثنت عليه، فسألني عنك فأخبرته، فسألني كيف عيشتنا فأخبرته أننا بخير. قال: فأوصاك بشيء؟ قالت: نعم هو يقرأ عليك السلام، ويأمرك أن تثبت عتبة بابك. قال: ذاك أبي وأنت العتبة، أمرني أن أمسكك.

ثم جاء بعد ذلك وإسماعيلُ يَبْرِي نَبلاً له تحت دَوْحَةٍ قريباً من زمزم، فلما رآه قام إليه فصنعا كما يفعل الوالدُ بالولد والولد بالوالد، ثم قال: يا إسماعيل إن الله قد أمرني بأمرٍ. قال: فاصنع ما أمرك ربك. قال: وتُعِينني؟ قال: وأعينك. قال: فإن الله تعالى قد أمرني أن أبني ها هنا بيتاً. وأشار إلى أكمة مرتفعة على ما حَوَّها.

فعند ذلك رفع القواعدَ من البيت.

فجعل إسماعيلُ يأتي بالحجارة وإبراهيمُ يبني، حتى إذا ارتفع البناء جاء بهذا الحجر فوضعه له، فقام عليه وهو يبني وإسماعيلُ يناوله الحجارة، وهما يقولان: ﴿رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾^(١). انفرد بإخراجه البخاري.

قال علماء السِّير: لما أمر الخليل عليه السلام ببناء البيت قال: يا رب بين لي صفته فأرسل الله تعالى سحابةً على قَدْرِ الكعبة، فسارت معه حتى قدم مكة، حتى وقفت في موضع البيت ونودي: ابنِ على ظلِّها لا تزد ولا تنقص. وكان جبريلُ حين الغرق قد استودع أبا قَيْسِ الحجرِ الأسودَ، فلما بنى إبراهيمُ البيتَ أخرجه إليه فوضعه.

أخبرنا الكَرُوخِيُّ، أنبأنا العُورَجِيُّ، أنبأنا الجَرَّاحِيُّ، حدثنا المحبوبي، حدثنا الترمذي، حدثنا قتيبة، حدثنا جرير، عن عطاء بن السائب، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس، قال: قال رسول الله ﷺ: «نزل الحجر الأسود من الجنة وهو أشدُّ بياضاً من اللبنِ فسودَّته خطايا بني آدم».

(١) البقرة ١٢٧.

قالوا: وولد لإسماعيل اثنا عشر ولداً واتخذه الله نبياً، وبعثه إلى العماليق وجرهم وقبائل اليمين، فنهاهم عن عبادة الأوثان وتوفيت هاجر، وهي بنت تسعين سنة، وإسماعيل عشرون سنة، فدفنها في الحجر، وعاش مائة وسبعاً وثلاثين سنة، وكان قد شكأ إلى ربه حرّ مكة، فأوحى الله تعالى إليه أني أفتح لك باباً من الجنة في الحجر يجري عليك منه الرّوح إلى يوم القيامة. وفي الحجر قبره.

ولما توفي دبّر أهل الحرم بعده ابنه نابت، ويقال نبت، ثم غلبت جرهم على البيت وانهدم، فبنته العمالق، ثم بنته جرهم. وقصده أصحاب الفيل.

وكان السبب أن أبرهة بنى كنيسة، وأراد أن يصرف إليها الحج، فسمع بذلك رجل من العرب فأحدث فيها، فغضب أبرهة وقصد الكعبة، فلما دنا من مكة أغار أصحابه على نعم الناس فأصابوا إبلاً لعبد المطلب، ثم قال لبعض أصحابه، سل عن شريف مكة. فأتي بعبد المطلب، فقال له: ما حاجتك؟ قال: حاجتي أن ترد عليّ إبلي. قال: أولاً تسألني عن بيتي هو دينك ودين آبائك؟ فقال: أنا ربّ هذه الإبل، ولهذا البيت ربّ يمينه!

فأمر قريشاً أن يتفرقوا في الشعاب وأخذ بحلقة باب الكعبة وقال:
يا ربّ لا أرجو لهم سواك
يا رب فامنع منهم حماكا
إن عدوّ البيت من عاداك
امنعم أن يخربوا قراكا
ثم قال:

لا همّ إن المرء يمنع رحله
ولا يغلبن صليبه
جرّوا جوع بلادهم
عمدوا حياك بكيدهم
وإذا كنت تاركهم وكعبتنا
فأمر ما بدا لك
وإذا لم يمنع رحلك
ومحالم غدوا محالك
والفيل كي يسبوا عيالك
جهلاً وما رقّبوا جلالك
فأمر ما بدا لك

فبعث الله تعالى عليهم طيوراً رءوسها كرسوس السباع، وقيل: كأمثال الخطاطيف مع كل طير ثلاثة أحجار: حجران في رجله، وحجر في منقاره، وكانت كأمثال الحمص، وقيل كراس الجمل، فكانت تقع على الرجل فتخرج من دبره.

والأبائيل: جماعات متفرقة، والسجّيل: الشديد الصلب، والعصف: تبين الزرع وورقه.

ثم بنته قريش ورسول الله ﷺ يومئذ شاب، ثم بناه ابن الزبير، ثم نقضه الحجاج وبناه.

سبحان من اختص من عباده الأخيار، فجعل منهم الأنبياء والأبرار، وأبعد العصاة والفجار ﴿وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ﴾ (١).

الكلام على البسمة

تُزَيَّنْ أَعْمَالًا خَوَاتِيمُهَا فَانْسِكْ وَزَيِّنْ عَمَلًا بِالْحَتَامِ
أَفْضَلُ مَا زُوِّدَتْ زَادُ التَّقَى وَشَرُّ مَا تَحْمَلُ زَادُ الْأَثَامِ
وَالجِسْمُ يُنْسِيهِ الْبَلَى فِي الثَّرَى مَا كَانَ عَانَى مِنْ خُطُوبِ جِسَامِ
أَخَاصِمِ الْقَلْبِ لِإِعْرَاضِهِ عَنِ الْهَدَى وَهُوَ أَلْدُ الْخِصَامِ
وَيَحْطِمْ السَّنُّ أَخَا كَثْرَةٍ وَهَمُّهُ مُتَّصِلٌ بِالْحَطَامِ
كَأَنْ عُمُرِي مَرْكَبٌ سَارِي حَتَّى إِذَا بَلَغَ الْحَيْنَ قَامِ
سَهَّدَ هَذَا الْخَلْقُ فِي شَأْنِهِمْ تَمَّتْ لِأَقْوَامِ أَنْامُوا الْأَنَامِ
لِيَأْتِيَنَّكَ مِنَ الْمَوْتِ مَا لَا يَقْبَلُ رِشْوَةَ وَمَالًا، إِذَا مَالَ عَلَى الْقَوْمِ وَالْقَوْمِ مَالًا،
يَا مَخْتَارَ الْهَوَى جَهْلًا وَضَلَالًا، لَقَدْ حَمَلْتَ أَرْكَ أَوْزَارًا ثِقَالًا، إِيَّاكَ وَالْمَنَى فَكَمْ
وَعَدَ الْمَنَى مُحَالًا، كَمْ قَالَ الطَّالِبُ نَعَمْ نَعَمْ سَاعَطَى نَوَالًا، ثُمَّ نَوَالًا، كَمْ سَقَا مِنْ
الْحَسْرَاتِ كَوْسًا، وَفَرَّخَ رَبْعًا بَعْدَ أَنْ كَانَ مَأْنُوسًا، وَطَمَسَ بِهَوْلِهِ بُدُورًا
وَشُمُوسًا، وَأَغْمَضَ عَيُونًا وَنَكَّسَ رُءُوسًا، وَأَبْدَلَ التَّرَابَ عَنِ الثِّيَابِ مَلْبُوسًا:

(١) القصص ٦٨.

إذا كان ما فيه الفتى عنه زائلاً فسيان فيه أدرك الخطأ أو أخطأ
وليس يفي يوماً سرور وغبطة بجزن إذا المعطي استردّ الذي أعطى

لقد وعظ الزمن بالآفات والمحن، لقد حدث من لم يظعن بالظعن، وخوف المطلق بالمرتتهن، تالله لو صفت الفطن لأبصرت ما بطن، إخواني: أمر الموت قد علن، كم طحطح الردى وكم طحن، يا بائعاً لليقين مشترياً للظنن، يا مؤثراً الرذائل في اختيار الفتن، إن السرور والشورور في قرآن.

أجل هبات الدهر ترك المواهب تمدد لما أعطاك راحة ناهب
وأفضل من عيش الغنى عيش فاقة ومن زي ملك رائق زي راهب
ولي مذهب في هجري الإنس نافع إذا القوم خاضوا في اختيار المذاهب
أرانا على الساعات فرسان غارة وهن بنا يجرين جري السلاه
ومما يزيد العيش إخالق ملبس تأسف نفس لم تطق ردّ ذاهب

لقد تكاثفت ذنوبك يركب بعضها بعضاً، وتعاطمت عيوبك فملأت الأرض طولاً وعرضاً، وهذا الموت يركض نحو روحك ركضاً، وعندك من الدنيا فوق ما يكفي وما ترضى، أأمنت على مبسوط الأمل بسطاً وقبضاً، كم حصر الردى إذا أتى غصناً غضاً، كم بلبل بالاً وما بالى هدماً ونقضاً، اسمع مني قولاً نفوعاً ونصحاً محضاً، كم قد جنيت طويلاً فكن من اليوم ذليلاً أرضاً.

قال ذو النون المصري رحمة الله عليه: لقيت جارية سوداء قد استلبها الوله من حب الرحمن شاحصة ببصرها نحو السماء فقلت: علميني شيئاً مما علمك الله. فقالت: يا أبا الفيض، ضع على جوارحك نيران القسط حتى يذوب كل ما كان لغير الله، فيبقى القلب مصفى ليس فيه غير الرب عز وجل، فعند ذلك يقيمك على الباب، ويولييك ولاية جديدة ويأمر الخزان لك بالطاعة. فقلت: زيديني رحك الله! فقالت: خذ من نفسك لنفسك وأطلع الله إذا خلوت بعبك إذا دعوت.

ثم ولت عني وتركتني.

إخواني: من النفوس نفوس خلقت طاهرة، ونفوس خلقت كدرة. وإنما تصلح الرياضة في نجيب. الجلود الطاهرة إذا وردت عليها النجاسة يطهرها الدبّاغ لأن الأصل طاهر، بخلاف جلد الخنزير!

للفنوس الخيرة علامات: الجِدُّ في الغالب، والحذر من الزلل، والاحتقار للعمل، والقلق من خوف السابقة، والجزع من حذر الخاتمة، فترى أحدهم يستغيث استغاثة الغريق، ويلجأ لجأ الأسير، الذل لباسه، وسهر الليل فراشه، وذكر الموت حديثه، والبكاء دأبه.

بات عتبة الغلام ليلة على ساحل البحر، فجعل يقول: إن تعدّني فإني لك مُحِبٌّ، وإن ترحمني فإني لك محب. فلم يزل يرددّها ويبكي إلى الصباح.

وكان عابد يقول: يا إخوانه ابكوا على خوف فوات الآخرة حيث لا رجعة ولا حيلة. لما أسرَ النومُ سار القومُ، فقطعَ نفسك باللوم اليوم:

يا مقلّة سَهَّرت	لم تَدُرْ بالسَاهِدَة
كأنها سَهَّرت	نجومَهَا الرَاكِدَة
بدا سُهَيْلٌ لها	فانحرفت عَائِدَة
كانه درهم	رمت به الناقِدَة
يانفس لا تجزعي	قد تجدُ الفاقِدَة
أيّ الورى خالِدٌ	أنفسهم واحِدَة
والموت حوضٌ لها	وهي له وارِدَة
حائِدة جُهْدَهَا	إن سلمت حائِدة
في كل فَجِّ لها	مَنِيّة راصِدَة
تفرّ من حَنَفَهَا	وهي له قاصِدَة
لا تُخدَعَنَّ بالمنى	قد تُكذِبُ الرَائِدَة
هوان على مِيَّتِ	ما تجدُ الواجِدَة

الكلام على قوله تعالى

﴿ فِي بَيْتِ أذْنِ اللَّهِ أَنْ تَرْفَعَ وَيُذَكَّرَ فِيهَا اسْمُهُ ﴾ (١)

البيوت هاهنا: المساجد و «أذِنَ» بمعنى أمر. و «تَرْفَعُ» بمعنى تُعْظَمُ و
«اسمُهُ» توحيدة وكتابه.

وفي أفراد مسلم من حديث أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ أنه قال:
«أحبُّ البلادِ إلى الله تعالى مساجدها، وأبعَضُ البلادِ إلى الله تعالى أسواقها».

وفي الصحيحين من حديث عثمان رضي الله عنه عن النبي ﷺ أنه قال: «من
بَنَى لله عز وجل مسجداً بَنَى الله له مثله في الجنة». وفيها من حديث أبي
هريرة قال: «من غداً إلى المسجد وراح أعدَّ الله له في الجنة نزلاً كلما غدا أو
راح»..

أخبرنا يحيى بن علي، أنبأنا أبو جعفر بن المسلمة، وأنبأنا سعيد بن أحمد،
حدثنا علي بن أحمد بن السيدي، قالاً: أخبرنا المخلص، حدثنا البغوي، حدثنا
عبد الجبار بن عاصم، حدثني عبيد الله بن عمرو، عن زيد بن أنيسة، عن عدي
ابن ثابت، عن أبي حازم الأشجعي، عن أبي هريرة، قال: قال رسول الله ﷺ:
«من تطهَّر في بيته ثم مشى إلى بيتٍ من بيوت الله ليقضي فريضةً من فرائض
الله كانت خُطواته إحداهما تُحطَّ خطيئةً، والأخرى تَرْفَعُ درجةً».

أخبرنا هبة الله بن محمد، أنبأنا الحسن بن علي، أنبأنا أحمد بن جعفر، حدثنا
عبد الله بن أحمد، حدثني أبي، حدثنا هشام، حدثنا ليث، حدثني سعيد، يعني
المقبري، عن أبي عبيدة، عن سعيد بن يسار، أنه سمع أبا هريرة يقول: قال:
رسول الله ﷺ: «لا يتوضأ أحدٌ فيحسن وضوءه ثم يأتي المسجدَ لا يريد إلا
الله فيه إلا تَبَشَّبَ الله به كما تَبَشَّبَ أهلُ الغائب بطلعته».

(١) النور ٣٦.

قوله تعالى: ﴿يَسَّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ﴾ : قال الزجاج لا خلاف بين أهل اللغة أن التسبيح هو التنزيه لله عز وجل عن كل سوء. والغُدُو جمع غُدُوَّة. والآصال جمع أصْل، وأصل جمع أصِيل، فالآصال جَمْع الجمع. والآصال: العشيات.

وللمفسرين في المراد بهذا التسبيح قولان: أحدهما أنه الصلاة. ثم في صلاة الغدُو قولان: أحدهما أنها الفجر؛ رواه ابن أبي طلحة عن ابن عباس. والثاني: صلاة الضحى وروي ابن أبي مَلِيكة عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال: إن صلاة الضحى لفي كتاب الله وما يغوص عليها غَوَّاص، ثم قرأ: ﴿يَسَّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ﴾.

وفي صلاة الآصال قولان: أحدهما: أنها الظهر والعصر والمغرب والعشاء. قاله ابن السائب. والثاني: صلاة العصر. قاله أبو سليمان الدمشقي.

قوله تعالى: ﴿رَجَالٌ لَا تُلْهِهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ﴾^(١) أي لا تشغلهم.

قال ابن السائب: التجار الجلابون والباعة المقيمون.

وفي المراد بذكر الله ثلاثة أقوال:

أحدها: الصلاة المكتوبة. قاله ابن عباس. وروي سالم عن ابن عمر أنه كان في السوق فأقيمت الصلاة فأغلقوا حوانيتهم ودخلوا المسجد فقال ابن عمر: فيهم. نزلت: ﴿رَجَالٌ لَا تُلْهِهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ﴾.

والثاني: أنه القيام بحق الله تعالى. قاله قتادة.

والثالث: ذكر الله تعالى باللسان. قاله أبو سليمان الدمشقي.

قوله تعالى: ﴿وَأَقَامِ الصَّلَاةَ وَإِيتَاءَ الزَّكَاةِ﴾ أي أداؤها لوقتها وإتمامها.

قال سعيد بن المسيب رضي الله عنه: ما أذن المؤذن منذ ثلاثين سنة إلا وأنا

(١) النور ٣٧.

في المسجد : وقال سُفيان بن عُيينة : لا تكن مثل عبد السوء لا يأتي حتى يُدعى ،
 ايت الصلاة قبل النداء .

أخبرنا المبارك بن أحمد الأنصاري ، أخبرنا الحسين بن عبد الجبار ، أخبرنا
 محمد بن علي بن الفتح ، أنبأنا علي بن الحسين بن سكينه ، أنبأنا محمد بن القاسم ،
 حدثنا أبو بكر بن عبيد ، أنبأنا أبو الحسين ابن أبي قيس ، أنبأنا سويد بن
 سعيد ، أنبأنا علي بن مُسهر ، عن عبد الرحمن بن القاسم ، عن شهر بن حوشب .
 عن أسماء بنت يزيد قالت : قال رسول الله ﷺ : « إذا جمع الله الأولين
 والآخريين يومَ القيامة جاء منادٍ ينادي بصوت يُسمع الخلائق : سيعلم الخلائقُ
 اليومَ من أُولى بالكرم . ثم يرجع فينادي : فليقم الذين كانوا لا تلهيهم تجارةٌ
 ولا بيعٌ عن ذكر الله . فيقومون وهم قليل . ثم ينادي : ليقم الذين كانوا يحمدون
 الله عز وجل في السراء والضراء . فيقومون وهم قليل . ثم يرجع فينادي : أين
 الذين كانت تتجافى جنوبهم عن المضاجع [فيقومون] وهم قليلون . ثم يحاسب
 الناس . »

قال بعض الزهاد : رأيت رجلاً قد أقبل من بعض جبال الشام ، فسلمت عليه
 فردّ ووقف ينظر كالحيران ، فقلت له : من أين أقبلت ؟ فقال : من عند قومٍ
 لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله . فقلت : وأين تريد ؟ قال : إلى قوم تتجافى
 جنوبهم عن المضاجع . ثم قال : وأسفا ! قلت : على ماذا ؟ قال : على ما هم فيه إذ
 كانوا بأعمالهم على طريق نجاتهم .

الناسكون يُحاذرو	ن وما بسيئةٍ ألمّوا
كانوا إذا رامّوا كلا	مأً مُطلقاً خَطّموا وزمّوا
إن قيلت الفحشاء أو	ظهرت عمّوا عنها وصمّوا
فمضّوا وجاء معاً شراً	بالمنكرات طمّوا وطمّوا
فقمّ لطعمٍ فاغرٍ	ويدّ على مالٍ تضمّ
عدلوا عن الحسن الجمي	ل وللخنا عمّدوا وأمّوا

وَإِذَا هُمْ أَعْيَتْهُمُ شَعَاهُمْ كَذَبُوا وَتَمَّوْا
فَالصَّدْرُ يَغْلِي بِأَهْوَا جَسْ مِثْلَ مَا يَغْلِي الْمَحَمُّ

قوله تعالى: ﴿يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَالْأَبْصَارُ﴾ تصعد القلوب إلى
الحناجر وتنقلب الأبصار إلى الزرق عن الكحل، والعمى بعد النظر.

أخبرنا ابن الحصين، قال: أنبأنا ابن المذهب، أنبأنا أحمد بن جعفر، أخبرنا
عبد الله بن أحمد، حدثني أبي، حدثنا سليمان بن حيان، أخبرنا ابن عون، عن
نافع، عن ابن عمر، عن النبي ﷺ قال: «يقوم أحدهم في رَشْحِهِ إِلَى أَنْصَافِ
أُذُنِهِ».

أخبرنا عبد الأول، حدثنا الداوودي، حدثنا ابن أعين، حدثنا الفربري
حدثنا البخاري، حدثنا عبد العزيز بن عبد الله، حدثني سليمان، عن ثور بن
زيد، عن أبي الغيث، عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: «يعرق الناسُ يوم
القيامة حتى يذهب عرقهم في الأرض سبعين ذراعاً ويُلْجِمُهُمْ حَتَّى يَبْلُغَ آذَانَهُمْ».

الحديثان في الصحيحين. وفي لفظ: «سبعين باعاً» قال. مغيث بن سمي:
تركز الشمس فوق رؤوسهم على سبعة أذرع وتُفْتَحُ أَبْوَابُ جَهَنَّمَ فِيهِبَ عَلَيْهِمْ مِنْ
رِيَّاحِهَا وَسَمُومِهَا وَيُخْرِجُ عَلَيْهِمْ مِنْ نُفَاحِهَا حَتَّى تَجْرِيَ الْأَنْهَارُ مِنْ عَرَقِهِمْ.
والصائمون في ظل العرش.

يا من لا يردعه ما يسمعه، يا من لا يقنعه ما يجمعه، أما القبر عن قريب
موضعه، أما اللحد عن قريب مضجعه، أما يرجع عنه من يشعه ويأخذ ما جمعه
أجمعه، كم يخرق خرقاً بالخطأ ثم لا يرقعه، كم يحطه القبيح والنصح يرفعه، كم يعلم
غرور الهوى وهو يتبعه:

لَا تَعْدِلْنَهُ فَإِنَّ الْعَدْلَ يُؤَلِّعُهُ قَدْ قَلَّتْ حَقًّا وَلَكِنْ لَيْسَ يَسْمَعُهُ

أشرف راهب من الرهبان من صومعته فإذا رجل جالس فقال: يا هذا ما
جلوسك ها هنا؟ فقال له: اسكت يا فارغ القلب ودع التشاغل بغيره، فإنه منك

قريب! فصرخ الراهب وخرّ مغشياً عليه، فلما أفاق قال: سيدي لك العُتْبَى لا أعود فيما يقطعني عنك. فصمت عن الكلام حتى مات.

كم غرّ الغرور غرّاً، أمدّ له أطناب الطمع على أوتاد الهوى، وسامرّه في خيمة المنى يملي عليه أمالي الآمال، وما أجال فيما جال سهو ذكّر الآجال، ثم وجه إلى جهة الجهل والغفلة، فسلماً إليه منشور التسوية، فلما ضرب بوق الرحلة وقربت نوق النقلة سلّ ما سلّمًا إليه، فألقي كاللقى على باب الندم!

إلام أمّني النفس مالا تناله وأذكر عيشاً لم يعدّ مذ تصرّماً وقد قالت الستون للهو والصبأ دعا لي أسيري واذهباً حيث شئتما

أخبرنا محمد بن عبد الملك، أنبأنا أحمد بن الحسين الشاهد، حدثني عبد العزيز بن علي، حدثنا أبو بكر محمد بن أحمد الحافظ، أخبرنا إبراهيم بن نصر، حدثني إبراهيم بن بشر، قال: سمعت إبراهيم بن أدهم يقول لرجل رآه يضحك: لا تطمعن في بقائك، وأنت تعلم أن مصيرك إلى الموت، فلم يضحك من يموت، ولا يدري أين مصيره: إلى الجنة أم إلى النار، ولا يدري أيّ وقت يكون الموت: صباحاً أو مساءً، بليلٍ أو نهار. ثم قال: أوه وسقط مغشياً عليه.

سجع على قوله تعالى

﴿يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَالْأَبْصَارُ﴾^(١)

لو رأيت أرباب القلوب والأسرار، وقد أخذوا أهبة التعبد في الأسرار، وقاموا في مقام الخوف على قدم الاعتذار ﴿يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَالْأَبْصَارُ﴾.

عقدوا عزم الصيام وما جاء النهار، وسجنوا الألسنة فليس فيهم مهذار، وغضّوا أبصارهم ولازم غصّ الأبصار، فانظر مدحهم إلى أين انتهى وصار، أحزانهم أحزان تكلى ما لها اصطبار، ودموعهم لولا التحري لقلت كالأنهار،

(١) النور ٣٧.

ووجوههم من الخوف قد علاها الصفار، والقلق قد أحاط بهم ودار ﴿ يخافون يوماً تتقلب فيه القلوب والأبصار ﴾ .

جَدُّوا في انطلاقهم إلى خَلَّاقهم، وراضوا أنفسهم بتحسين أخلاقهم، فإذا بهم قد أذابهم كَرْبُ اشتياقهم، أتدري ما الذي حبسك عن لحاقهم: حَبُّ الدرهم والدينار.

أيقظنا الله وإياكم من هذه السَّنة، ورزقنا اتباع النفوس المحسنة، وآتانا في الدنيا حَسنة وفي الآخرة حسنة، ووقانا عذاب النار.

المجلس التاسع في ذكر إسحاق وقصة الذبح

الحمد لله الذي أنشأ وبرأ، وخلق الماء والنرى، وأبدع كل شيء ذرا، لا يغيّب عن بصره ديبب النمل في الليل إذا سرى، ولا يعزب عن علمه ما عن وما طرا، اصطفى آدم ثم عفا عما جرى، وابتعث نوحاً فبنى الفلك وسرى، ونجى الخليل من النار فصار حرّاً ثرى، ثم ابتلاه بذبح الولد فأدهش بصبره الورى ﴿يا بُنَيَّ إِنِّي أَرَى فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانظُرْ مَاذَا تَرَى﴾ (١).

أحداه ما قطع نهاراً بسيرٍ وليلٍ بسرّى، وأصلي على رسوله محمد المبعوث في أم القرى، وعلى أبي بكر صاحبه في الدار والغار بلا مرآ، وعلى عمر المحدث عن سيره فهو بنور الله يرى، وعلى عثمان زوج ابنته ما كان حديثاً يفترى، وعلى عليّ بحر العلوم وأسد الشرى، وعلى عمه العباس الرفيع القدر الشامخ الدررى.

قال الله: ﴿فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ قَالَ يَا بُنَيَّ إِنِّي أَرَى فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانظُرْ مَاذَا تَرَى﴾ (١).

المراد بالسعي: مشيه مع وتصرفه، وكان حينئذ ابن ثلاث عشرة سنة، وهذا الزمان أحب ما يكون الولد إلى والده، لأنه وقت يستغنى فيه عن مشقة الحضانة والتربية، ولم يبلغ به وقت الأذى والعقوق، فكانت البلوى أشد.

وللعلماء في الذبيح قولان: أحدهما: أنه إسماعيل. قاله ابن عمر وعبد الله بن سلام والحسن البصري، وسعيد بن المسيّب، والشّعبي ومجاهد، ويوسف بن مهران والقرظي، في آخرين.

(١) الصّافات ١٠٢.

والثاني: أنه إسحاق.

أخبرنا علي بن عبيد الله، وأحمد بن الحسين، وعبد الرحمن بن محمد. قالوا: أنبأنا عبد الصمد المأمون، أنبأنا علي بن عمر الحرثي، حدثنا أحمد بن كعب، حدثنا عبد الله بن عبد المؤمن، حدثنا عبد الصمد بن عبد الوارث، عن المبارك ابن فضالة، عن الحسن، عن الأحنف بن قيس، عن العباس بن عبد المطلب، عن النبي ﷺ قال: الذبيح إسحاق.

وهذا قول عمر وعلي والعباس وابن مسعود، وأبي موسى، وأبي هريرة وأنس وكعب ووهب ومسروق، في خلق كثير. وهو الصحيح.

أخبرنا الحسين: أنبأنا أبو طالب بن غيلان، أنبأنا أبو بكر الشافعي، حدثنا الهيثم بن خلف، حدثنا أبو كريت، حدثنا زيد بن الحباب، عن الحسن بن دينار، عن علي بن زيد بن جدعان، عن الحسن، عن الأحنف بن قيس، عن العباس، قال: قال رسول الله ﷺ: «سأل داود عليه السلام ربه فقال: إلهي أسمع الناس يقولون: إله إبراهيم وإسحاق ويعقوب. فاجعلني رابعاً. فقال: لست هناك، إن إبراهيم لم يعدل بي شيئاً إلا اختارني عليه، وإن إسحاق جاد لي بنفسه، وإن يعقوب في طول ما كان لم يئأس من يوسف».

وأما سبب أمره بذبحه: فروى السدي عن أشياخه، أن جبريل لما بشر سارة بإسحاق قالت: ما آية ذلك؟ قال: فأخذ عوداً يابساً في يده فلواه بين أصابعه فاهتز خضيراً، فقال إبراهيم: هو لله إذا ذبيح. فلما كبر إسحاق أتى إبراهيم في النوم فقيل له: أوف بندرك. فقال لإسحاق: انطلق تقرب قرباناً إلى الله. وأخذ سكيناً وحبلاً، ثم انطلق معه حتى إذا ذهب بين الجبال فقال له الغلام: يا أبت أين قربانك؟ قال: ﴿يَابَنِي إِنِّي أَرَى فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ﴾ فقال إسحاق: اشدد رباطي كي لا أضطرب، واكفف ثيابك لا ينتضح عليها من دمي فتراه سارة فتحزن، وأسرع مر السكين على حلقني ليكون أهون للموت علي، وإذا أتيت سارة فافقرأ عليها السلام مني.

فأقبل عليه إبراهيم يقبله ويبكي، وربطه وجرّ السكين على حلقه فلم تذبح السكين. وقال غيره: انقلبت. فنودي: ﴿يا إبراهيم قد صدقت الرؤيا﴾^(١) فإذا بكبش فأخذه وخلّى عن ابنه وأكبّ عليه يقبله ويقول: يا بنيّ اليوم وهبت لي. ورجع إلى سارة فأخبرها الخبر فقالت: أردت أن تذبح ابني ولا تعلمني؟! قال شعيب الجبائيّ: لما علمت بذلك ماتت في اليوم الثالث.

وإنما قال: ﴿فانظر ماذا ترى﴾^(٢) أي ما عندك من الرأى، ولم يقل ذلك على وجه المؤامرة في أمر الله سبحانه ﴿قال: يا أبتِ افعل ما تؤمر﴾ أي ما أمرت. ﴿فلما أسلما﴾ أي استسلا لأمر الله سبحانه ورضيا وفي جواب هذا قولان: أحدهما أن جوابه ﴿ناديناه﴾ والواو زائدة. قاله الفراء. والثاني: أنه محذوف تقديره سعد وأثيب.

قوله تعالى: ﴿وتلّه للجبين﴾ قال ابن قتبية: صرعه على جبينه فصار أحد جبينيه على الأرض وهما جبينان والجهة بينهما. ﴿وناديناه﴾ قال المفسرون: نودي من الجبل: ﴿يا إبراهيم قد صدقت الرؤيا﴾^(١) وفيه قولان: أحدهما قد عملت بما أمرت به. وذلك أنه قصد الذبح بما أمكنه، فطاوعه الابن بالتمكين من الذبح، إلا أن الله صرف ذلك كما شاء، فصار كأنه ذبح، وإن لم يقع الذبح.

والثاني: أنه رأى في المنام معالجة الذبح ولم ير إراقة الدم، فلما فعل في اليقظة ما رأى في المنام قيل له: ﴿قد صدقت الرؤيا﴾.

وقرأ أبو المتوكّل وأبو الجوزاء، وأبو عمران والجحدريّ: ﴿قد صدقت الرؤيا﴾ بتخفيف الدال.

﴿إنا كذلك﴾ أي كما ذكرنا من العفو عن ذبح ولده، كذلك ﴿نجزي المحسنين﴾.

(٢) الصافات ١٠٢.

(١) الصافات ١٠٥.

﴿إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْبَلَاءُ الْمُبِينُ﴾ وفيه قولان: أحدهما: النعمة البيّنة، وهو العفو عن الذبح. والثاني: الاختبار العظيم، وهو امتحانه بالذَّبْح ﴿وَفَدَيْنَاهُ بِذَبْحٍ﴾ وهو بكسر الهمزة والفتح اسم ما ذُبِح وبفتحها مصدر ذبجت. والمعنى: خلّصناه من الذبح بأن جعلنا الذَّبْح فداءً له. وفي هذا الذبح ثلاثة أقوال: أحدها: أنه كان كبشاً أقرن قد رعى في الجنة قبل ذلك أربعين عاماً. قاله ابن عباس في رواية مجاهد. و[قال] في رواية سعيد بن جبّير: هو الكبش الذي قرّبه ابن آدم فتقبّل منه، كان في الجنة حتى فُدى به، والثاني: أن إبراهيم فدى ابنه بكبشين أبيضين أعينين أقرنين. رواه الطفيل عن ابن عباس. والثالث: أنه كان ذكراً من الأروى أهبط عليه من ثبير قاله الحسن.

وفي قوله ﴿عَظِيمٌ﴾ قولان: أحدهما: لأنه قد رعى في الجنة. قاله ابن عباس. والثاني: أنه مُتَقَبَّلٌ. قاله مجاهد. قال وهب بن منبه: كان ذلك بيّلياء من أرض الشام.

سبحان المفاوت بين الخلق! يقال للخليل: اذبح ولدك. فيأخذ المديّة ويضجعه للذَّبْح، ويقال لقوم موسى: ﴿اذبحوا بقرة﴾ فذبحوها وما كادوا يفعلون!

ويخرج أبو بكر من جميع ماله، ويبخل ثعلبةً بالزكاة! ويجود حاتم بقوته، ويبخل بضوء ناره الحباحب.

وكذلك فاوت بين الفهوم، فسحبان أنطق متكلم، وباقل أقبح من أخرس وفاوت بين الأماكن فزرد تشكو العطش والبطائح تصيح: الغرق.

قال علماء السير: لم يمت إبراهيم حتى نبي إسحاق وبعث إلى أرض الشام. وكان إبراهيم قد زوج إسحاق أروقة بنت بتأويل، فولدت له العيص ويعقوب، وهو ابن ستين سنة. فأما العيص فتزوج بنت عمه إسماعيل، فولدت له الروم، فكل بني الأصفر من ولده، وكثر أولاده حتى غلبوا الكنعانيين بالشام، وصاروا إلى البحر والسواحل وصار الملوك من ولده وهم اليونانية

وأما يعقوب فتزوج ليا فولدت أكثر أولاده، ثم تزوج راحيل فولدت له

يوسف وبنيامين. وعاش إسحاق مائة وستين سنة، وتوفي بفلسطين ودفن عند أبيه إبراهيم.

إخواني: تأملوا عواقب الصبر، وتخيلوا في البلاء نور الأجر، فمن تصور زوال المحن وبقاء الشاء هان الإبتلاء عليه، ومن تفكّر في زوال اللذات وبقاء العار هان تركها عنده، وما يلاحظ العواقب إلا بصراً ناقب.

الكلام على البسمة.

فراك من الأيام نابٍ ومخلب
فحتام لا تنفك جامع همّة
تسرّ بعيش أنت فيه منغص
تغذيك والأوقات جسمك تغذي
وتعجب من آفاتا متلفتاً
وتحسبها بالبشر تبطن خلّة
إذا رضيت أعمتك عن طرق الهدى
وفي سلبها ثوب الشباب دلالة
أترضى بأن ينهك شيبك والحجّا
أجدك لا تسمع لندياك موعداً
ودونك درياق الترجي من الورى
إخواني: الأيام لكم مطايا، فأين العدة قبل المنايا، أين الأتفة من دار الأذايا، أين العزائم؟ أترضون الدنيايا، إن بليّة الهوى لا تشبه البلايا، وإن خطيئة الإصرار لا كالخطايا، وسريّة الموت لا تشبه السرايا، وقضية الأيام لا كالقضايا، راعي السلامة يقتل الرعايا [رامي التلّف يضمني الرمايا]، ملك الموت لا يقبل الهدايا، يا مستورين ستظهر الخبايا.

استغفروا [الله] خجلاً من العثرات، ثم اسكبوا حزنًا لها العبرات، عجباً لمؤثر الفانية على الباقية، ولبائع البحر الخضمّ بساقية، ولمختار دار الكدر على

الصافية، ولقدّم حبّ الأمراض على العافية، أيها المستوطن بيتَ غُروره تأهّبْ
 لإزعاجك، أيها المسرور بقصوره تهبّاً لإخراجك، خذ عدّتك وقم في قضاء
 حاجتك قبل فراق أولادك وأزواجك، ما الدنيا دار مقامك، بل حلبة
 إدلاجك:

أيها الناكبُ عن نهج الهدى وهو بادٍ واضحٌ للسالكين
 إلهٌ عن ذِكر التصابي إنّه سرفٌ بعد بلوغ الأربعين
 واجعل التقوى معاذاً تحتمي بجماه إنّه حصن حصين
 واسأل الله تعالى عفوه واستعينه إنّه خير معين

أأمن بطشَ ذي البطش، وتبارزه عالماً برؤيته ولم نخش، يا من إذا وزن
 طفف وإذا باع غشّ، أنسيتَ النزول في بيداء الديب والوحش، أنسيتَ الحلول
 في لحدٍ خشن الفرش، يا مغترّاً بزخرف الهوى قد ألهاه النقش، إذا جنّيتَ على
 نفسك فعلى من الأرش، يا من إذا جاء الفرض التوى وإذا حان اللّهُ هَشّ، يا
 من لا يصبر للقضاء ولو على خدش، كن مستيقظاً فإنك بعين ذي العرش:

تعلّل بالآمال والموتُ أسرع وتغترّ بالأيام والوعظُ أنفع
 وما المرء إمّالم يمتّ فهو ذائق فراق الأخلاء الذي هو أوجع
 فودّع خليل النفس قبل فراقه فما الناس إلا ظاعنٌ أو مودّع

يا حزيناً على فراق موتاه، كثيباً لمطلوبٍ ما واتاه، كأنه بالموت قد أتاه،
 فألحقه ما أباه أباه، ووفاه ما أطبق [فاه] فما فاه:

يا كثير الحرص مشغو لا بدنياً ليس تبقى
 ما رأينا الحرص أدنى من حريص قط رزقا
 لا ولكن في قضاء اللّهُ أن نغنى ونشقى
 قد رأينا الموت أفنى قبلنا خلقاً فخلقنا
 درجوا قرناً فقرنا وبقي من ليس يبقى

قدم على محمد بن واسع ابن عم له فقال له: من أين أقبلت؟ فقال: من طلب
 الدنيا. فقال: هل أدركتها؟ قال: لا. قال: واعجباً! أنت تطلب شيئاً لم تدركه،

فكيف تدرك شيئاً لم تطلبه!

يا هذا عليك بالجد والاجتهاد، واخلّ [هذا] الكسل والرقاد، فطريقك لا بد لها من زاد.

انهض إلى المعالي
وخذ من الزمان
الهمم العلية
تقرب المنيّة
المجد بالمخاطرة
كم راحة في العزلة
ليس يسدوم حال
ما للورى في غفلة
ألا لييب يعقل
أنتم في ريبنة
دنياً حبيبة
لكنها غدارة
ليس لها حبيب
كالومس البغي
خالوبة خوانة
عزيزها ذليل
تفرق الأحبابا
حرب لمن سألها
لقاؤها فراق
وصالها صدود
وصالها عناء
عقودها منقوضة
شربها سراب

واقبل ولا تبالي
حظاً فأنت فاني
والمهج الأيية
منك أو الأميية
والنصر بالمصابرة
وعمل في العطلية
شحم المنى هزال
قد خدعوا بالمهلة
ألا جهول يسأل
ما أعظم المصيبة
لحسنها والطيبة
خداعة غرارة
زوالها قريب
تلبس ككل زي
ليس لها أمانة
كثيرها قليل
تشئت الأترابا
تمل من لزمها
وعرّسها طلاق
ووعدها وعيد
صدودها بلا
عهدها مرفوضة
نعيمها عذاب

إِنَّ أَقْبَلْتُمْ فَفْتَنَةٌ أَوْ أَدْبُرْتُمْ فَمِحْنَةٌ
 أَخْلَاقُهَا مَذْمُومَةٌ لَدَاتُهَا مَسْمُومَةٌ
 يَحْظَى بِهَا الْجَهَّالُ وَيَنْعَمُ الْأَنْدَالُ
 يَشْقَى بِهَا اللَّيِّبُ وَيَتَعَبُ الْأَرِيْبُ
 فَخَلَّ عَنْهَا يَا فَتَى إِلَى مَتَى إِلَى مَتَى!

الكلام على قوله تعالى:

**﴿لَيْسَ بِأَمَانِيكُمْ وَلَا أَمَانِيَّ أَهْلُ الْكِتَابِ مَنْ يَعْمَلْ
 سُوءًا يُجْزَ بِهِ﴾** ^(١)

في سبب نزولها ثلاثة أقوال:

أحدها: أن أهل الأديان اختصموا. فقال أهل التوراة: كتابنا خير الكتب، ونبينا خير الأنبياء. وقال أهل الإنجيل: فنزلت هذه الآية. رواه العوفي عن ابن عباس رضي الله عنهما.

والثاني: أن العرب قالت: لا تُبعث ولا نحاسب ولا نعذب. فنزلت قاله مجاهد.

والثالث: أن اليهود والنصارى قالوا: لا يدخل الجنة غيرنا. وقالت قريش: لا نبعث. فنزلت هذه الآية قاله عكرمة.

وقال الزجاج: اسم ليس مضمّر. والمعنى ليس ثواب الله بأمانيتكم. وقد جاء ما يدل على الثواب وهو قوله تعالى: ﴿سندخلهم جنّات تجري من تحتها الأنهار﴾ ^(٢) وانسوا المعاصي والجزاء واقع بالعاصي.

أخبرنا ابن الحصين، قال: أبنا ابن المذهب، أبنا أبو بكر بن جعفر، حدثنا عبد الله بن أحمد، حدثني أبي، حدثنا وكيع، حدثنا ابن أبي خالد، عن أبي

(١) سورة النساء ١٢٣.

(٢) النساء ١٢٢.

بكر بن زهير الثَّقفي، قال: لما نزلت: ﴿لَيْسَ بِأَمَانِيكُمْ وَلَا أَمَانِيَّ أَهْلَ الْكِتَابِ مَنْ يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ﴾ قال أبو بكر: يا رسول الله إنا لنجازي بكل سوء نعمله؟ فقال رسول الله ﷺ: «يرحمك الله أَلست تَنْصَبُ أَلست تحزن، أليس تصيبك اللَّأواء فهذا ما تجزون به».

وأخرج مسلم في أفرادهِ من حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: لما نزلت: ﴿مَنْ يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ﴾ بلغت من المسلمين مبلغاً شديداً، فقال رسول الله ﷺ: «قاربوا وسدّدوا، ففي كل ما يصاب به المسلم كفّارة، حتى النكبة يُنكَبها والشوكة يشاكها».

واعلم أن المؤمن إذا جُوزي بذنّب عَجَلَّ له جزاؤه في الدنيا.

أخبرنا محمد بن عبد الله بن نصر، أنبأنا طرّاد، أخبرنا علي بن عبد الله بن إبراهيم الهاشمي، أخبرنا محمد بن عمر، أخبرنا أحمد بن مَلّاعب، حدثنا عفان، عن حماد بن سلمة، حدثنا يونس، عن الحسن، عن عبد الله بن مغفل، أن رجلاً أتى امرأة كانت في الجاهلية بغياً فجعل يلاعبها حتى بسط يده إليها، فقالت المرأة: مه إن الله تعالى ذهب بالشرك وجاء بالإسلام: فولّى الرجل فأصاب وجهه جدار فأدماه، فأتى النبي ﷺ فأخبره فقال: «أنت عبدّ أراد الله بك خيراً، إن الله إذا أراد بعبد خيراً عَجَلَّ له عقوبة ذنبه، وإذا أراد بعبدٍ شراً أمسك عنه حتى يوافي به يوم القيامة كأنه بَعير».

واعلم أنّ من تفكّر في ذنبه وجدَ الزمانَ الذي عصى فيه قد خلا عن طاعة وامتلاً بخطيئة، ثم يحتاج إلى زمان يتشاغل فيه بالتوبة، ثم يتأسف على ما سبق. ويكفي هذا.

وقد روى أبو هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ أنه قال: «قال ربكم عز وجل: لو أن عبادي أطاعوني لأسقيتهم المطرَ بالليل، وأطلعت عليهم الشمس بالنهار، ولما أسمعتمهم صوتَ الرعد».

أنبأنا أحمد بن علي المحلّي، أنبأنا أبو بكر الخطيب، أنبأنا الحسين بن بشران،

أنبأنا أبو علي البردعي، حدثنا أبو بكر القرشي، حدثنا الزبير بن أبي بكر، حدثني أبو ضمرة، عن نافع بن عبد الله، عن فروة بن قيس، عن عطاء عن ابن عمر رضي الله عنهما، عن النبي ﷺ قال: « ما ظهرت الفاحشة في قومٍ حتى أعلنوها إلا ابتلوا بالطّواعين والأوجاع التي لم تكن في أسلافهم الذين مضوا، ولا نقصوا المكيالَ والميزانَ إلا ابتلوا بالسّنين وشدة المؤنة وجور السلطان، وما منع قومٌ زكاة أموالهم إلا مُنعوا القطر من السماء ولولا البهائم لم يُمطروا، ولا خفر قومٌ العهدَ إلا سلط الله عليهم عدوّهم من غيرهم فأخذ بعض ما في أيديهم.»

قال القرشي: وحدثني إبراهيم بن سعيد، قال: حدثنا إبراهيم بن مهدي، قال: حدثنا أبو حفص الأبار، عن أشعث بن سوار، عن كردوس التغلبي، قال: حدثني رجل من أهل المسجدِ مسجد الكوفة، وكان أبوه ممن شهد بدرًا قال: مررت على قرية تنزل فوقفتُ قريباً أنظر، فخرج عليّ رجل فقلت: ما وراءك؟ فقال: تركتها تنزل وإن الحائطان ليصطكان ويُرَمَى بعضها ببعض، فقلت: وما كانوا يعملون؟ قال: كانوا يأكلون الربا.

وقال رجل للحسن: أعياني قيامُ الليل؟ قال: قيّدتك خطاياك!

أنبأنا محمد بن أبي منصور، عن عبد القادر بن محمد الجوهري، أنبأنا أبو الفضل الزهري، حدثنا عبد الرحمن بن الحسن الذهبي، حدثنا أحمد بن منصور الرمادي، حدثنا أحمد بن المشي، حدثنا عبد القدوس الحواري، عن هشام قال: أغتمّ ابن سيرين مرة فقليل له: يا أبا بكر ما هذا الغم؟ قال: هذا بذنب أصبته منذ أربعين سنة.

أخبرنا أبو بكر بن حبيب، قال: حدثنا أبو سعيد بن أبي صادق، قال: أنبأنا أبو عبد الله الشيرازي، قال: سمعت محمد بن فارس يقول: أنبأنا علي بن قرين قال: سمعت الجنيد يقول، من همّ بذنب لم يعمله عوقب بذنب لم يعرفه.

أخبرنا عبد الرحمن بن محمد، أنبأنا أبو الغنائم الدجاني، أنبأنا علي بن معروف، حدثنا محمد بن الهيثم، حدثنا إبراهيم بن سعد الجوهري، حدثنا هاشم

ابن القاسم، عن صالح المرّي، عن أبي عمران الجونيّ قال: مكتوبٌ في الإنجيل:
تعملون الخطايا وتُتكرون العقوبة!

يا من معاصيه جَمّة مشهورة، ونفسه بما يجني عليها مسرورة، أفي العين كَمّة
أم عشي، أإليك الأمر كما تشاء، أعلى القلب حجاب أم غشا، يا كثير المعاصي
قعد، أو مشى، عظمت ذنوبك فمتى تقضي، يا مقياً وهو في المعني يمضي،
أفنيّت الزمان في الخطايا ضياعاً، وساكنت غروراً من الأمل وأطباعاً، وصرت
في تحصيل الدنيا مُحترقاً صناعاً، تصبح جامعاً وتُمسي متاعاً، فتش على قلبك
ولبتك قد ضاعا، تفكر في عمرك مضى نهياً مشاعا، لافي الشباب أصلحت، ولا
في الكهولة أفلحت، كم حلت أزرِك وزراً ثقيلاً، واجترحت يا بُعد صلاح ما
جرحت، ياسيء السريرة كم عليك جريرة، ويحك أتسى الحفيرة، أم هي عندك
حقيرة، أيام عمرك قصيرة وتضيعها على بصيرة، لقد قطع الأجل مسيره، ولكن
على أقبح سيرة، ذنوبك جَمّة كثيرة، وعينك بها قريرة، ما تُظلم بها مقدار
شعيرة.

قال محمد بن كعب القرظي: إنما الدنيا سوقٌ خرج الناس منها بما يضرهم وبما
ينفعهم، وكم اغترّ ناسٌ فخرجوا ملومين واقسم ما جمعوا من لم يحمدهم،
وصاروا إلى من لا يعذرهم، فيحق لنا أن ننظر إلى ما نغبطهم به من الأعمال
فنعلمها، وإلى ما نتخوف فنجتنبها.

وقال يحيى بن معاذ: المغبون من عطل أيامه بالبطالات، وسلط جوارحه على
الهلكات، ومات قبل إفاقته من الجنائيات:

بدت دَهْياء تُنذر بالخطوبِ نلاحظها بأبصار القلوبِ
وقد دلّ المجيء على ذهابِ كما دلّ الطلوع على الغروبِ
ولكن القلوب محجّباتٌ وسوء حجابها كسب الذنوبِ

يا هذا الطالب حيت فبادر، والفضائل معرضةٌ ثابر، اترك الهوى محمودا،
قبل أن يترك مذموما، إن فاتتك قصباتُ السبّ في الولاية، فلا تفوتك

ساعاتُ الندم في الإنابة، آه للسانٍ نطقَ بِأثم كيف غفل عن قوله تعالى: ﴿اليومَ نَحْمُ على أفواههم﴾ آه ليدِّ امتدَّت للحرام كيف نسيت: ﴿وتكلّمنا أيديهم﴾ آه لقدمِ سعتَ في الآثام كيف لم تتدبّر: ﴿وتشهدُ أرجلهم﴾ (١) آه لجسدِ ربا على الربِّ، أما سمع منادي التحدير على ربِّي: ﴿فلا يربُّو عندَ الله﴾ آه لذي فمٍ ففره لتفريغِ كأسِ الخمر، أما بلغه زجرٌ: ﴿فاجتنبوه﴾.

قد كان عُمرك ميلاً فأصبح الميلُ شِيراً
وأصبح الشبر عقداً فاحفر لنفسك قبراً

يا من راح في المعاصي وغداً، ويقول: سأتوب اليوم أو غداً، كيف تجمع قلباً قد صار في الهوى مبدداً، كيف تُلينه وقد أمسى بالجهل جلمداً، كيف تحته وقد راح بالشهوات مقيداً، لقد ضاع قلبك فاطلب له ناشداً، تفكّر بأيّ وجهٍ تتلقى الردى، تذكر ليلةً تبيت في القبر منفرداً:

أيها المشغوفُ بالذنن يا صُبُواً وعراماً
أبدأً هي أبدأً تُبُّ طِنٌ في الشَّهد سَمَاماً
تُخضع الراضع بالدرِّ رِ وتُنسيه الفِطَاماً
فإذا هُزَّ بوعظٍ صَمَّ عنه وتعامى
فهو كالشاكبي الذي يَزُّ داد بالطبِّ سَقَاماً
وكمِثْل الطفل في المهـ د إذا حُرِّك نَاماً

سجع على قوله تعالى

﴿من يَعْمَلْ سُوءاً يُجْزَ بِهِ﴾ (٢)

يا معرضاً عن الهدى لا يسعى في طلبه، يا مشغولاً بلهوه مفتوناً بلعبه، يا من قد صاح به الموتُ عند أخذ صاحبه ﴿من يعمل سوءاً يُجْزَ بِهِ﴾.

جُزْ على قبر الصديق، وتلمح آثار الرفيق، يخبرك عن حسنه الأنيق، أنه

(٢) النساء ١٢٣.

(١) الروم ٢٤.

استلَبَ بكفِّ التمزيق، هذه لحدّه وأنت غداً به ﴿من يعمل سوءاً يُجْزَ به﴾ .

كَمْ نُهيَّ عن الخطايا وما انتهى، وكم زجرته الدنيا وهو يسعى لها، هذا ركنه القويم قد وهى، وها أنت في سلّبه ﴿من يعمل سوءاً يُجْزَ به﴾ .

أين من عتا وظلم، ولقي الناسُ منه الألم، اقتطعه الردى اقتطاعَ الجلم، فما نفعه ما جمعه، لا والله ولم يدفع عنه عزّ منصبه ﴿من يعمل سوءاً يُجْزَ به﴾ .

بات في لحدّه أسيراً، لا يملك من الدنيا تقيراً، بل عاد بوزر ذنبه عقيراً، وأصبح من ماله فقيراً على عزّ نسبه وكثرة نشبه ﴿من يعمل سوءاً يُجْزَ به﴾ .

اللذات تَفنى عن قليلٍ وثمّر، وآخر الهوى الخلو مرّ، وليس في الدنيا شيء يسرّ إلا يعرّ ويضّر، ثم يخلو ذو الزلل بمكتسبه ﴿من يعمل سوءاً يُجْزَ به﴾ .

الكتاب يحوي حتى النّظرة، والحساب يأتي على الذرّة، وخاتمة كأس اللذات مرّة، والأمر جلّيّ للفهوم ما يشتهه ﴿من يعمل سوءاً يُجْزَ به﴾ .

تقوم في حشرِك ذليلاً، وتبكي على الذنوب طويلاً، وتحمل على ظهرِك وزراً ثقيلاً، والويل للعاصي من قبيح مُنقلبه ﴿من يعمل سوءاً يُجْزَ به﴾ .

يُجمع الناس كلهم في سعيد، وينقسمون إلى شقيّ وسعيد، فقومٌ قد حلّ بهم الوعيد، وقومٌ قيامتهم نزهةٌ وعيد، وكل عامل يغترف من مشربه. ﴿من يعمل سوءاً يُجْزَ به﴾ .

إنما يقع الجزاء على أعمالك، وإنما تلقي غداً غيباً أفعالك، وقد قصدنا إصلاح حالك، فإن كنت متيقظاً فاعمل لذلك، وإن كنت نائماً فانتبه ﴿من يعمل سوءاً يُجْزَ به﴾ .

المجلس العاشر في قصة لوط عليه السلام

الحمد لله الذي أحكم الأشياء كلها صنعا، وتصرف كما شاء إعطاءً ومنعا،
أنشأ الآداميَّ من قطرة فإذا هو يسعى، وخلق له عينين ليبصر المسعى، ووالى
لديه النعم وتراً وشفعا، وضمَّ إليه زوجةً تدبِّر أمر البيت وترعى، وأباحه محلاً
الحرث وقد فهم مقصود المرعى، فتعدَّى قومٌ إلى الفاحشة الشنعا، وعدوا سبنا
سبعا، فرجموا بالحجارة فلو رأيتهم صرعى ﴿وَلَمَّا جَاءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِيءَ بِهِمْ
وضاقَ بهم ذرْعاً﴾ (١).

أحمده ما أرسل سبحانه وأنبت زرعاً، وأصلي على رسوله محمد أفضل نبيِّ علم
أمته شرعا، وعلى أبي بكر الذي كانت نفقته للإسلام نفعاً، وعلى عمر ضيف
الإسلام بدعوة الرسول المستدعى، وعلى عثمان الذي ارتكب منه الفجار بدعاً،
وعلى عليّ الذي يحبه أهل السنة طبعاً، وعلى العباس أبي الخلفاء أئمة المسلمين
قطعا.

قال الله عز وجل: ﴿وَلَمَّا جَاءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِيءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا﴾.

هو لوط بن هاران بن تارخ، فهن ابن أخي إبراهيم الخليل عليه السلام، وقد
آمن به وهاجر معه إلى الشام بعد نجاته من النار، واختن لوط مع إبراهيم، وهو
ابن ثلاث وخسين سنة، فنزل إبراهيم فلسطين ونزل لوط الأردن.

فأرسل الله تعالى لوطاً إلى أهل سدوم، وكانوا مع كفرهم بالله عز وجل
يرتكبون الفاحشة، فدعاهم إلى عبادة الله ونهاهم عن الفاحشة، فلم يزددهم ذلك

(١) هود ٧٧.

إلا عتوا. فدعا الله أن ينصره عليهم، فبعث الله عز وجل جبريل وميكائيل وإسرافيل فأقبلوا مشاةً في صورة رجال شباب، فنزلوا على إبراهيم فقام يخدمهم، وقدم إليهم الطعام فلم يأكلوا، فقالوا: لا نأكل طعاماً إلا بئمنه. قال: فإن له ثمناً. قالوا: ما هو؟ قال: تذكرون اسم الله تعالى على أوله وتحمدونه على آخره. فنظر جبريل إلى ميكائيل وقال: حقّ لهذا أن يتخذ الله خليلاً!

فلما رأى امتناعهم خاف أن يكونوا لصوصاً، فقالوا: ﴿لا تخف إنا أرسلنا إلى قوم لوط﴾ (١) فضحكت سارة تعجباً وقالت: نخدمهم بأنفسنا، ولا يأكلون طعامنا! فقال جبريل: أيتها الضاحكة أبشري بإسحاق، ومن وراء إسحاق يعقوب، وكانت بنت تسعين سنة وإبراهيم ابن مائة وعشرين سنة.

فلما سكن روع إبراهيم وعلم أنهم ملائكة أخذ يُناظرهم، فقال: أتهلكون قرية، فيها أربعمائة مؤمن؟ قالوا: لا. قال: ثلاثمائة؟ قالوا: لا. قال: مائتان؟ قالوا: لا. قال: أربعون؟ قالوا: لا. قال: أربعة عشر؟ قالوا: لا. وكان يعدّهم أربعة عشر مع امرأة لوط. فقال: إن فيها لوطاً. قالوا: نحن أعلم بمن فيها. فسكت واطمأنت نفسه. ثم خرجوا من عنده فجاءوا إلى لوط، وهو في أرض له يعمل، فقالوا: إنا متضيّقون الليلة بك. فانطلق بهم والتفت إليهم في بعض الطريق فقال: أما تعلمون ما يعمل أهل هذه القرية؟ والله ما أعلم على ظهر الأرض أخبث منهم!

فلما دخلوا منزله انطلقت امرأته فأخبرت قومها.

قوله تعالى: ﴿سِيءَ بِهِمْ﴾ أي ساءه مجيء الرسل، لأنه لم يعرفهم وخاف عليهم من قومه ﴿وضاق بهم ذرعاً﴾ إذا لم يجد من المكروه مخلصاً. وقال ابن الأنباري: ضاق بهم وسعته، فناب الدرّع عن الوسع ﴿وقال هذا يوم عصيب﴾ يقال هذا يوم عصيب [وعصّبصّب] إذا كان شديداً.

(١) هود ٧٠.

﴿وجاءه قومه يهْرعون إليه﴾ قال الكسائي والفراء: لا يكون الإهراع إلا إسراعاً مع رِعْدَةٍ. قال ابن الأنباري: الإهراع فعل واقع بالقوم، وهو لهم في المعنى، كما قالت العرب: قد أولع الرجل بالأمر فجعلوه مفعولاً، وهو صاحب الفعل، ومثله: «أرعدَ زيد» و«سهي عمرو» من السهو. كل واحد من هذه الأفاعيل خرج الاسم معه مقدراً تقدير المفعول، وهو صاحب الفعل لا يُعرف له فاعل غيره.

قوله تعالى ﴿وَمِن قَبْلُ﴾ أي مجيء الأضياف ﴿كانوا يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ﴾ فقال لوط: ﴿هؤُلاءِ بَنَاتِي﴾ يعني النساء، ولكنهن من أمته صار كالأب لمن ﴿أَطَهَّرَ لَكُمْ﴾ أي أحلَّ ﴿فاتقوا الله﴾ أي احذروا عقوبته ﴿ولا تُخْزُونِ فِي ضَيْفِي﴾ أي لا تفعلوا بهم فعلاً يوجب حيائي ﴿أليسَ مِنْكُمْ رَجُلٌ رَشِيدٌ﴾ فيأمر بالمعروف وينهى عن المنكر ﴿قالوا: لقد عَلِمْتَ مالنا في بَنَاتِكَ مِنْ حَقِّ﴾ أي من حاجة ﴿وانك لَتَعَلَّمْ ما تُرِيدُ﴾ أي إنما نريد الرجال لا النساء. قال: ﴿لو أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةً﴾ أي جماعة أقوى بهم عليكم ﴿أو آوِي إِلَى رُكْنٍ شَدِيدٍ﴾ (١) أي إلى عشيرة متينة.

وإنما قال هذا لأنه كان قد أغلق بابه وهم يعالجون الباب ويرومون تسوّر الجدار، فلما رأت الملائكة ما يلقى من الكرب ﴿قالوا: يا لوطُ إِنَّا رُسلُ رَبِّكَ﴾ فافتح الباب ودعنا وإياهم. ففتح الباب ودخلوا. واستأذن جبريل ربه عز وجل في عقوبتهم فأذن [لهم] فضرب بجناحه وجوههم فأعماهم فانصرفوا يقولون النجاء النجاء إن في دار لوط أسحر قوم في الأرض. وجعلوا يقولون: يا لوط كما أنت حتى تصبح. [يوعدونه]. فقال لهم لوط: متى موعد هلاكهم؟ قالوا: الصبح. قال لو أهلكتموهم الآن؟ فقالوا: أليس الصبح بقريب!

ثم قالت له الملائكة: ﴿فأسرِ بأهلك﴾. فخرج بامرأته وابنتيه وأهله وبقريه وغنمه ﴿بِقِطْعٍ مِنَ اللَّيْلِ﴾ أي ببقية تبقى من آخره.

(١) هود ٨٠.

وأوحى الله تعالى إلى جبريل: تولّ هلاكهم. فلما طلع الفجر غداً عليهم جبريل عليه السلام فاحتمل بلادهم على جناحه، وكانت خمس قرى أعظمها سدّوم، في كل قرية مائة ألف، فلم ينكسر في وقت رَفَعَهُمْ إِنْاء، ثم صعد بهم حتى خرج الطير في الهواء لا يدري أين يذهب، وسمعت الملائكةُ نباح كلابهم، ثم كفّأها عليهم وسمعوا وَجِبَةً شديدة، فالتفتت امرأة لوط فرماها جبريل بحجر فقتلها، ثم صعد حتى أشرف على الأرض، ثم جعل يتبع مُسَافِرَهُمْ ورُعَاتَهُمْ ومن تحوّل عن القرية، فرماهم بالحجارة حتى قتلهم. وكانت الحجارة من سِجِّيل. قال أبو عبيدة: هو الشديد الصُّلب من الحجارة ﴿مُسَوِّمَةٌ﴾. أي مُعَلِّمَةٌ قال ابن عباس: كان الحجر أسود، وفيه نقطة بيضاء. وقال الربيع: كان على كل حجر منها اسم صاحبه. وحكي عن من رآها قال: كانت مثل رؤوس الإبل ومثل قبضة الرجل.

﴿وما هي مِنَ الظَّالِمِينَ بَبَعْدٍ﴾ (١) تخويف للمخالفين.

أخبرنا ابن الحصين، أنبأنا ابن المذهب، أنبأنا أحمد بن جعفر، حدثنا عبد الله بن أحمد، حدثني أبي، حدثنا محمد بن سلمة، عن محمد بن إسحاق، عن عمرو بن أبي عمرو، عن عكرمة، عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «ملعون من عمل عمل قوم لوط».

وروي أنس عن النبي ﷺ قال: «من مات من أمتي يعمل عمل قوم لوط نقله الله إليهم حتى يحشره معهم».

فَلْتَحذَرَ مَعْبَةَ الْخَطَايَا وَالذُّنُوبِ، فَإِنَّهَا بِصَاحِبِهَا إِلَى الْغَضَبِ تَوُّوبٍ، الْحَذَرُ الْحَذَرُ مِنْ عَلَامِ الْغُيُوبِ.

الكلام على البسمة

يا عامراً خرابِ الدهرِ مجتهداً تالله ما خرابِ الدهرِ عُمرانُ

(١) هود ٨٣.

وكلُّ وُجْدَانٍ حَظٌّ لَا ثَبَاتَ لَهُ فَإِنِ مَعْنَاهُ فِي التَّحْقِيقِ فُقُودَانُ
صُنِّ الْفُؤَادِ عَنِ الدُّنْيَا وَزَخْرَفَهَا فَصَفَّوْهَا كَدْرًا وَالْوَصْلُ هَجْرَانُ

يا هذا، الأيامُ ثلاثة: أمس قد مضى بما فيه، وغداً لعلك لا تدركه، وإنما هو يومك هذا فاجتهد فيه. لله درّ من تنبّه لنفسه وتزوّد لرسمه، واستدرك ما مضى من أمسه قبل طول حبسه.

فيا جامعَ الدُّنْيَا لِغَيْرِ بِلَاغَةٍ سَتَّرَكْهَا، فَانظُرْ لِمَنْ أَنْتَ جَامِعُ
لَوْ أَنَّ ذَوِي الْأَبْصَارِ يُوعُونَ كُلَّ مَا يَرُونَ مَا جَعَّتْ لَعَيْنِ مَدَامِعُ
وَمَنْ كَانَتْ الدُّنْيَا مَنَاهُ وَهَمَّهُ سَبَاهَ الْمَنَى وَاسْتَعْبَدَتْهُ الْمَطَامِعُ

يا نائماً في لهوه، وما نام الحافظ، لاحظْ نور الهدى فلاحظْ إلا للملاحظ، وحافظ على التقي فقد فاز المحافظ، وخذ حذرَكَ فقد أُنذِرَكَ العاتبان الغلائط، ولا تغترّ ببرّد العيش فزمانُ الحساب قاتط، وتذكّرْ وقت الرحلة حمْلَ الثقل الباهظ، ولا تلتفت إلى المادح فكم قد ضرّ مدح قارظ، وتيقظ للخلاص فما ينجو إلا متياقظ، يا مدبراً أمر دنياه ونسي أخراه فخفف النداء الالفاظ، عجائب الدهر تُغني عن وعظ كلِّ واعظ:

أَلَلْعُمُرُ فِي الدُّنْيَا تَجِدُّ وَتَعْمُرُ وَأَنْتَ غَدًا فِيهَا تَمُوتُ وَتُقْبَرُ
تَلْقَحُ آمَالًا وَتَرْجُو نِتَاجَهَا وَعَمْرُكَ مِمَّا قَدْ تَرْجِيهِ أَقْصَرُ
وَهَذَا صَبَاحُ الْيَوْمِ يَنْعَاكَ ضَوْؤُهُ وَلَيْلَتُهُ تَنْعَاكَ إِنْ كُنْتَ تَشْعُرُ
تَحُومُ عَلَى إِدْرَاكَ مَا قَدْ كُفَيْتَهُ وَتُقْبَلُ بِالْآمَالِ فِيهِ وَتُدْبِرُ
وَرِزْقُكَ لَا يَعْدُوكَ إِمَّا مُعْجَلٌ عَلَى حَالِهِ يَوْمًا وَإِمَّا مُؤَخَّرُ
فَلَا تَأْمَنِ الدُّنْيَا إِذَا هِيَ أَقْبَلَتْ عَلَيْكَ فَمَا زَالَتْ تَخُونُ وَتَعْدُرُ
فَمَا تَمَّ فِيهَا الصَّفْوُ يَوْمًا لِأَهْلِهِ وَلَا الرِّفْقُ إِلَّا رِيثًا يَتَغَيَّرُ
تَذَكَّرْ وَفَكَّرْ فِي الَّذِي أَنْتَ صَائِرٌ إِلَيْهِ غَدًا إِنْ كُنْتَ مِنْ يَفَكَّرُ
فَلَا بَدَّ يَوْمًا أَنْ تُصِيرَ لِحْفَرَةٍ بِأَنْثَائِهَا تُطَوِّي إِلَى يَوْمِ تُحْشَرُ

إخواني: تدبروا الأمور تدبّر ناظر، وأصغُوا إلى ناصحكم والقلب حاضر، واحذروا غضب الحليم وهتِك الساتر، وتأهبوا للحِمَام فسيوفه بواتر، وهاجروا إلى دار الإِنابة بهجران الجرائر، وصابِرُوا عدوكم مصابرة صابر، وتبيأوا للرحيل إلى عسكر المقابر، قبل أن يَبُلَّ وابلُ الدموع ثرى المحاجر، ويندم العاصي ويخسر الفاجر، ويتكاثف العرق وتقوى الهواجر، وتصعد القلوب إلى أعلى الحناجر، ويعزّ الأمنُ ويُعرض الناصر، ويفرح الكامل ويمجن القاصر، ويقوّت اكتساب الفضائل، وتحصيل المفاخر، فتأمّلوا عواقب مصيركم فاللييب يرى الآخر.

وقائلة لو كنت تلتمسُ الغنى
أبى الناسُ إلا حبَّ دنيا ذميمة
فقلت سلي عن ذي الثراء تُخَبّري
يمرون أرسالاً ونُضجِي كأننا
فهل ينفعنا ما نرى أو يرُوعنا
رشدتَ، وما أوصت بما كان راشداً
تقضّى ويأبى الموتُ إلا التزودا
وذي الملك بعد الملك ماذا توسّدا
لِمَا ناهم بالأمس لم نكُ شُهّدا
وهل نذكرنّ اليومَ متنزّلنا غداً

أخبرنا يحيى بن علي، حدثنا القاضي أبو الحسين السّمْناني، حدثنا أبو الحسن ابن الصامت، حدثنا القاضي أبو عبد الله المحامليّ، حدثنا يوسف بن موسى، حدثنا محمد بن بشر، حدثنا الحُجَيد بن أبي العلاء، عن محمد بن سعيد، عن إسماعيل بن عبيد الله، عن أم الدرداء، عن علي الدقاق، عن أبي الدرداء قال: قال رسول الله ﷺ: «تفرّغوا من الدنيا ما استطعتم، فإنه من كانت الدنيا أكبر همّه أفسى الله ضيعته، وجعل فقره بين عينيه، ومن كانت الآخرة أكبر همّه جمع الله له أمورَه وجعل غِنَاه في قلبه، وما أقبلَ عبدٌ بقلبه إلى الله عز وجل إلا جعل الله قلوبَ المؤمنين تقبلُ إليه بالودِّ والرحمة، وكان الله عز وجل إليه بكل خير أسرع».

أخبرنا إسماعيل بن أحمد، أنبأنا رزق الله، أنبأنا ابن شاذان، أنبأنا أبو جعفر ابن يزيد، أنبأنا أبو بكر القرشي، أنبأنا يعقوب بن عبيد الله، حدثنا يزيد بن هارون، حدثنا سُفيان الثوري، عن زيد الشامي، عن مهاجر العامري، قال: قال:

علي بن أبي طالب رضي الله عنه: إن أخوف ما أخاف عليكم اثنتان: اتباع الهوى وطول الأمل. فأما اتباع الهوى فيصُدُّ عن الحق، وأما طول الأمل فينسي الآخرة، ألا وإن الآخرة قد ارتحلت مُقبلةً ألا وإن الدنيا قد ولت مُدبرة، ولكل واحدة منهما بنون، فكونوا من أبناء الآخرة ولا تكونوا من أبناء الدنيا، فإن اليوم عمل ولا حساب، وغداً حساب ولا عمل.

يا صِحاحِ الأَجْسَادِ كَيْفَ بَطَلْتُمْ
لو علمتم أن البطالة تُجدي
لتبادرْتُمْ إلى ما يقيكم
إنما هذه الحياة غرورٌ.
كَيْفَ يَهْنِيكُمْ القَرَارُ وأنتم
الهُدَى واضح فلا تعدلوا عند
وأنبيوا قبل المات وتوبوا
لا لعذر عن صالح الأعمال
حسرة في معادكم والمآل
من حجيم في بعثكم ونكال
أبدأ تطمع الورى في المحال
بعد تمهيدكم على الارتحال
ه ولا تسلكوا سبيل الضلال
تسلموا في غد من الأهوال

الكلام على قوله تعالى

﴿قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ﴾ (١)

اعلموا أن إطلاق البصر سبب لأعظم الفتن، وهذا القرآن يأمرك باستعمال الحمية عن ما هو سبب الضرر، فإذا تعرضت بالتخليط فوَقعتَ إذاً في أذى، فلم تَضجُ من ألم الألم.

أخبرنا إسماعيل بن أحمد المقرئ، وعبيد الله بن محمد القاضي، ويحيى بن علي المدبر، قالوا: أنبأنا أبو الحسين بن النُّقُور، أنبأنا ابن حَبَّابة، حدثنا البغوي، حدثنا هُدُبة، حدثنا حماد بن سلمة، عن محمد بن إسحاق، عن محمد بن إبراهيم التيمي، عن سلمة بن أبي الطَّفيل، عن علي عليه السلام أن رسول الله ﷺ قال: «يا علي إن لك في الجنة كنزاً، وإنك ذو قرنيها، فلا تتبع النظرة النظرة، فإن

(١) النور ٣٠.

لك الأولى وليست لك الآخرة».

وفي هذا الحديث إشكال من أربعة وجوه:

أحدها: من حيث إسناده، فربما خيّل إلى السامع أنه قد سقط منه رجل، لأنه إذا سمع سلمة بن أبي الطفيل عن علي، وقد عرف أن أبا الطفيل يروي عن علي يظن ذلك، بل هو صحيح. وسلّمه يروي عن علي أيضاً.

والثاني: الكناية في قوله: « وإنك ذو قرنيها » وفيه وجهان: أحدهما: أنها كناية عن هذه الأمة، كنى عنها من غير ذكرٍ تقدّم لها كما قال الله عز وجل: ﴿ حَتَّى تَوَارَتْ بِالْحِجَابِ ﴾ ^(١) يعني الشمس، ولم يتقدم لها ذكر. والثاني: عن الجنة.

والثالث: يعني تسميته بذوي القرنين، وفيه وجهان: أحدهما: إن قلنا إن الكناية عن الأمة، فإن عليّاً عليه السلام ضرب على رأسه في الله عز وجل ضربتين الأولى ضربة عمرو بن ودّ والثانية ابن ملجم، كما ضرب ذو القرنين على رأسه ضربةً بعد ضربة. وإن قلنا: الكناية عن الجنة فقرّناها: جانبها. ذكره ابن الأنباري.

والرابع: قوله: « فلا تُتبع النظرة النظرة » ربما تخالّل أحد جواز القصد للأولى، وليس كذلك، وإنما الأولى لم تُقصد.

وفي أفراد مسلم من حديث جرير بن عبد الله قال: سألت رسول الله ﷺ عن نظرة الفجأة فقال: « اصرف بصرك ».

وهذا لأنّ النظرة الأولى لم يحضرها القلب فلا يتأمل بها المحاسن ولا يقع الالتذاذ، فمتى استدامها بمقدار حضور الذهن كانت كالثانية في الإثم.

وفي حديث النعمان بن سعد، عن علي عليه السلام قال: قال رسول الله ﷺ: « يا علي اتق النظرة بعد النظرة، فإنها سهمٌ مسموم تورث شهوةً في القلب ».

(١) ص ٣٢.

وروى أنس عن النبي ﷺ أنه قال: «نظرُ الرجلِ إلى مَحاسنِ المرأةِ سهمٌ مسمومٌ من سهامِ إبليس، من تركه ابتغاء وجه الله أعطاه الله عز وجل عبادة يجد طعم لذتها».

وكان عيسى عليه السلام يقول: النظرةُ تزرع في القلب الشهوة، وكفى بها خطيئة.

وقال ابن مسعود رضي الله عنه: ما كان من نظرة، فإن للشيطان فيها مطمعا، والإثم خراز القلوب. وقال: من أطلق طرفه كان كثيراً أسفه.

وقد كان السلف رضي الله تعالى عنهم يبالغون في الاحتراز من النظر. وكان في دار مجاهد علية قد بُنيت، فبقي ثلاثين سنة ولم يشعر بها.

وخرج حسان بن أبي سنان يوم عيد، فلما عاد قالت له امرأته: كم من امرأة حسناء قد رأيت؟ فقال: والله ما نظرت إلا في إبهامي منذ خرجت من عندك إلى أن رجعت إليك!

وانما بالغ السلف في الغض حذراً من فتنة النظر، وخوفاً من عقوبته.

فأما فتنته فكم من عابد خرج عن صومعته بسبب نظرة، وكم استغاث من وقع في تلك الفتنة.

قال إبراهيم بن صول:

من كان يُؤْتَى من عدوٍّ وحاسدٍ
فإني من عيني أتيتُ ومن قلبي
فما أبقيا لي من رقادٍ ولا لب

وقال آخر:

وأنا الذي اجتلب المنية طرفه
فمن المطالب والقتيل القاتل

وقال آخر:

عاتبْتُ قلبي لَمَّا رأيتُ جِسمي نحيلاً

وقال كنتَ الرسولاً
بل كنتَ أنتَ الدليل
تـــركتاني قتيلاً

أجاب قلبي طرفي
فألزم القلبُ طرفي
فقلتُ كُفَا جميعاً

وقال آخر:

دُ وَعَلَّتِي تُعْيِي طَبِيبِي
تَجْنِي العيونُ على القلوبِ

يا من يَرى سُقْمِي يَزِي
لا تَعَجَبَنَّ فَهَكَذَا

وقال آخر:

وأنفسنا مأخوذة بالجرائرِ
تصدق أخبارَ العيونِ الفواجرِ
أذنَّ على أحشائه بالفواقِرِ

لَواحظنا تَجْنِي ولا علمَ عندها
ولم أرَ أَعْيِي من نفوسِ عفايفِ
ومن كانتِ الأَجْفانُ حُجَّابَ قلبه

وقال آخر:

وِنِمْتَ جَرَى مِنْ تَحْتِكَ المَاءُ سائِحاً
فَأَمْهَلْتَهُ مَسْتَأْنِساً مَسائِحاً
وَهَبَّتْ رِياحُ المَهْجَرِ فِيهِ لواقِحاً
عَلَيْكَ وَتَسْتَدْنِي مِنَ النَوْمِ نازِحاً

إذا أنتَ لم تَرَ عَ البروقِ اللوامِحاً
غَرَسْتَ المَوَى بِاللَّحْظِ حَتَّى احْتَقَرْتَهُ
ولم تَدْرِ حَتَّى أَيْنَعْتَ سَجْرانَهُ
وَأَمْسَيْتَ تَسْتَدْعِي مِنَ الصَّبْرِ عازِباً

وقال آخر:

في أَعْيِنِ العَيْنِ موقوفٌ على الخَطَرِ
لا مَرِحَباً بِسُرورٍ جاءَ بالضررِ

والمرءُ ما دامَ ذا عَيْنٍ يَقلِّبُها
يسرُّ مُقلِّتَه ما ضرَّ مُهْجَتَه

وقال آخر:

فيها جَرَتْ بالدَمْعِ أوفاضتُ دَمًا
حَتَّى يَصِيرُ على الجَفونِ محرَّمًا
وهي التي بدأتُ فكانتُ أَظْلَمًا
لو لم تكنَ نَظَرْتُ لَكنْتُ مُسَلِّمًا

لَأَعْدَبَنَّ العَيْنَ غيرَ مَفْكَرٍ
ولأَهْجِرَنَّ مِنَ الرِقادِ اذِيذَه
سَفَكَتُ دَمِي فَلأَسْفَكَنَّ دَموعَها
هي أوقعتني في جائلِ فتنه

وقال آخر:

وسهامُ اللَّحْظِ يُسْتَحْلَيْنَ فِي وَقْتِ الْوَقُوعِ
ثُمَّ يُصْرَفْنَ فَلَا يُقْلَعْنَ إِلَّا عَن صَرِيحِ

وقال آخر:

إِنْ كَانَ طَرْفِي أَصْلَ سُقْمِي فِي الْهَوَى
لَوْ تَحَرَّيْتُ فِي مَرَامِي لَحَظْتَهُ
لَا أَذَاقَ اللَّهُ عَيْنِي الْوَسْنَ
يَوْمَ سَلَعِ مَا عَنَانِي مَا عَنَا

غيره:

يَا عَيْنُ أَنْتِ قَتَلْتِنِي
وَأَرَاكِ تَهْشَوْنَ الدَّمُوعَ
تَاللَّهِ أَحْلَفُ صَادِقاً
لَوْ مَيَّزْتَ نُوبَ الزَّمَا
وَجَعَلْتِ ذَنْبَكَ مِنْ ذُنُوبِي
عَ كَأَنَّهَا رِيْقُ الْحَبِيبِ
وَالصَّدَقُ مِنْ شِيمِ الْأَرِيبِ
نَ مِنَ الْبَعِيدِ إِلَى الْقَرِيبِ
جَنَّتِ الْعَيُونُ عَلَى الْقُلُوبِ
مَا كُنَّ إِلَّا دُونَ مَا

وأما عقوبة النظر، فقد روي ابن عباس رضي الله عنهما أن رجلاً جاء إلى النبي ﷺ يتشلسل دماً، فقال له: مالك؟ فقال: مررت بي امرأة فنظرت إليها فلم أزل أتبعها بصري فاستقبلني جدار فضربني، فصنع بي ما ترى. فقال: «إن الله عز وجل إذا أراد بعدد خيراً عجل له عقوبته في الدنيا».

أخبرنا أبو بكر بن حبيب، أنبأنا أبو سعيد الحيري، أنبأنا ابن باكوية، أنبأنا أبو عبد الله الرازي، عن أبي يعقوب النهرجوري، قال: رأيت في الطواف رجلاً بفرء عين وهو يقول في طوافه: أعوذ بك منك. فقلت له: ما هذا الدعاء؟ فقال: إني كنت مجاوراً منذ خمسين سنة فنظرت إلى شخص يوماً فاستحسنته، فإذا بلطمة وقعت على عيني فسالت على خدي، فقلت: آه. ف وقعت أخرى، وقائل يقول: لوزدت لزدناك.

أخبرنا عبد الرحمن بن محمد القزاز، أنبأنا أحمد بن علي الحافظ، قال كتب لي أبو حاتم أحمد بن الحسين الرازي، يذكر أنه سمع محمد بن أحمد بن عبد الوهاب

الحافظ يقول: قال أبو سعيد أحمد بن محمد الصوفي: حدثنا عبد الرحمن بن أحمد ابن عيسى، عن أبي الأديان قال: كنت مع أستاذي أبي بكر الدقاق فمرّ حدث فنظرتُ إليه، فرآني أستاذي وأنا أنظر إليه فقال: يا بني لتجدنَّ غيبها ولو بعد حين. فبقيتُ عشرين سنة وأنا أراعي الغيب، فنمت ليلةً وأنا متفكر فيه، فأصبحت وقد نسيْتُ القرآن كله.

أخبرنا أبو بكر الصوفي، أنبأنا أبو سعد بن أبي صادق، حدثنا أبو عبد الله الشيرازي، أنبأنا محمد بن أحمد النجار، أخبرني أبو بكر الكتّاني، قال: رأيت بعض أصحابي في المنام فقلت له: ما فعل الله بك؟ فقال: عرض عليّ سيئاتي وقال: فعلتَ كذا وكذا؟ فقلت: نعم. قال: وفعلتَ كذا؟ فقلت: نعم. قال: وفعلتَ كذا وكذا فاستحييتُ أن أقرّ، فقلت له: ما كان ذلك الذنب؟ فقال: مرّ بي غلامٌ حسن الوجه فنظرتُ إليه.

وقد روي عن أبي عبد الله الزرّاد أنه رُئي في المنام فقيل له: ما فعل الله بك؟ قال: غفر لي كلّ ذنب أقررتُ به إلا واحداً استحييتُ أن أقرّ به، فأوقفني في العرق حتى سقط لحمٌ وجهي. قيل: ما كان الذنب؟ قال: نظرتُ إلى شخص جميل.

وقد روي أبو هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ أنه قال: كلّ عينٍ باكيةٍ يومَ القيامة إلا عينٌ غضتُ عن محارم الله، وعينٌ سهرتُ في سبيل الله، وعينٌ يخرج منها مثلُ رأس الذباب - يعني الدموع - من خشية الله.

إخواني: تذكروا مصير الصُّور، وتفكروا في نزول بيت المدر، وتلمحوا بعين الفكر في حال الصفا والكدر، واعلموا أنكم في دار البلاء فالحذر الحذر.

أخبرنا أحمد بن أحمد الهاشمي، حدثنا أبو بكر الخطيب، حدثنا عبد الرحمن ابن محمد النيسابوري، أنبأنا محمد بن عبد الله بن شاذان؛ قال: سمعتُ أبا عبد الله القرشي يقول: كان لي جار شاب وكان أديباً، وكان يهوى غلاماً أديباً، فنظر يوماً إلى طاقاتٍ شعرٍ بيض في عارضيه فوقع له شيء من الفكر فهجر الغلام،

فكتب إليه الغلام:

مالي جُفِيْتُ وكنْتُ لا أُجْفَى
وأراك تَمْزِجُني وتَشْرِبُني
ودلائِلُ الهِجْرانِ لا تَحْفَى
ولقد عهدتُك شارِبِي صِرْفًا

فقلب الرقعة وكتب في ظهرها:

التَّصَاي مع الشَّمَط
لا تَلْمِني على جَفَا
سُمْتِي خَطَاةً شَطَطُ
يَ فحَسبي الذي فسرَطُ
أنا رَهْنٌ بما جَنِي
تُ فذَرْنِي من الغلَطُ
قد رأينا أبا الخلا
ثِق في زَلَّة هَطُ

إخواني: الدنيا سُوموم قاتلة، والنفوس عن مكائدها غافلة، كم من نظرة تحلو في العاجلة، مرارتها لا تطاق في الآجلة، يابن آدم قلبك قلب ضعيف، ورأيتك في إطلاق الطرف رأيي سخي، يا طفل الهوى متى يؤنس منك رشد، عينك مُطلقة في الحرام، ولسانك مُهمَل في الآثام، وجسدك يتعب في كسب الحطام، كم نظرة محتقرة زلت بها الأقدام.

فَتَبَصَّرْ ولا تَشِمْ كلَّ بَرْقٍ
واغضُضْ الطرفَ تَسْرَحْ من غرامٍ
رُبَّ بَرْقٍ فيه صَواعقُ حَيْنِ
تكتسب فيهِ ثوبَ ذلٍّ وشَيْنِ
وبلاءُ الهوى موافقةُ النفسِ
وبداءُ الهوى طموحُ العَيْنِ

سجع على قوله تعالى

﴿قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ﴾ (١)

يا عجباً للمشغولين بأوطارهم عن ذكر أخطارهم، لو تفكروا في حال صفائهم في أكدارهم، لما سلخوا طريق اغترارهم، أما يكفي في وعظهم وازدجارهم: ﴿قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ﴾.

(١) النور ٣٠.

الدنيا دار الآفات والفتن، كم غرَّتْ غِرًّا وما فطن، أرته ظاهرها والظاهر حسن، فلما فتح عين الفكر من الوسن قال: ربّ ارجعون ولن، ويحّ المقتولين بسيف اغترارهم، والشّرْع ينهاهم عن أوزارهم ﴿قل للمؤمنين يغضّوا من أبصارهم﴾.

أين أربابُ الهوى والشهوات، ذهبت والله اللذاتُ دون التبعات، وندموا إذ قدّموا على مافات، وتمنوا بعد يُيس العود العودَ وهيهات، فتلمّح في الآثار سوء أذكارهم ﴿قل للمؤمنين يغضّوا من أبصارهم﴾.

نازلم الموتُ على الذنوب، فأسروا في قيود الجهل والعيوب، فرحلت لذاتُ خلّت عن الأفواه والقلوب، وحزنوا على الفائت ولا حُزن يعقوب، حين خرجوا من ديارهم في ثياب إديارهم [وعصيّ التويخ في أدبارهم] ﴿قل للمؤمنين يغضّوا من أبصارهم﴾.

قل للنّاظرين إلى المشتهى في ديارهم، هذا أُمّوذج من دار قرّارهم، فإن استعجل أطفالُ الهوى فديارهم، وعِدْهم قُرب الرّحيل إلى دارهم ﴿قل للمؤمنين يغضّوا من أبصارهم﴾.

احذروا نظرةً تفسد القلوب، وتجنّي عليكم الذمّ والعيوب، تُسخط مولاكم عالم الغيوب، لقد وصف الطيب حميةً للمطوب، فلو استعملوا الحمية لم تتعرض الحمى بأبشارهم ﴿قل للمؤمنين يغضّوا من أبصارهم﴾.

وفقنا الله وإياكم للهدى، وعصمنا من أسباب الجهل والردى، وسلّمنا من شرّ النفوس فإنها شرّ العدى، وجعلنا من المنتفعين بوعظ أخيارهم ﴿قل للمؤمنين يغضّوا من أبصارهم﴾.

وصلّى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه.

المجلس الحادي عشر

في قصة ذي القرنين

الحمد لله الذي أسرى لطفه ففك الأسرى، وأجرى بإنعامه للعاملين أجراً،
وأسبل بكرمه على العاصين سترًا، وقسم بني آدم عبداً وحرًا، ودبر أحوالهم غنى
وفقرًا [كما رتب البسيطة عامراً وقفراً] وقوى بعض عبادَه [على السَّيَاحَةِ]
فقطعها شبراً شبراً ﴿ وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ ذِي الْقَرْنَيْنِ قُلْ سَأَتْلُو عَلَيْكُمْ مِنْهُ
ذِكْرًا ﴾ (١)

أحمدُه حمدًا يكون لي عنده ذخراً، وأصلي على رسوله مقدّم الأنبياء في
الدنيا والأخرى، وعلى أبي بكر الذي أنفق المال على الإسلام حتى مال الكفُّ
صِفراً، وعلى عمر الذي كسرت هيئته كسرى، وعلى عثمان المقتول من غير
جُرمٍ صبراً، وعلى عليّ الذي كان الرسول يعزّه بالعلم عزّاً، وعلى عمه العباس
أعلاهم في النسب قدراً.

قوله تعالى: ﴿ وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ ذِي الْقَرْنَيْنِ ﴾ .

الذين سألوا رسول الله ﷺ هم اليهود . وفي اسم ذي القرنين أربعة أقوال :
أحدها : عبد الله . قاله عليّ عليه السلام . والثاني : الإسكندر . قاله وهب .
والثالث : عباس . قاله محمد بن علي بن الحسين . والرابع : الصَّعْبُ بن جابر . ذكره
ابن أبي خيثمة .

وفي تسميته بذِي القرنين عشرة أقوال :

(١) الكهف ٨٣ .

أحدها: أنه دعا قومه إلى الله عز وجل فضربوه على قرنه فهلك فغبرَ زماناً، ثم بعثه الله تعالى، فدعاهم إلى الله، فضربوه على قرنه الآخر فهلك، فذانك قرناه. قاله علي عليه السلام.

والثاني: أنه سمِّي بذي القرنين لأنه سار من مغرب الشمس إلى مَطْلَعِهَا. رواه أبو صالح عن ابن عباس.

والثالث: لأن صفحتي رأسه كانتا من نحاس.

والرابع: لأنه رأى في النوم كأنه امتد من السماء إلى الأرض فأخذ بقرني الشمس، فقصَّ ذلك على قومه فسمي بذي القرنين.

والخامس: لأنه ملك الروم وفارس.

والسادس: لأنه كان في رأسه شِبْهُ القرنين. رويت هذه الأقوال الأربعة عن وهب بن منبه رضي الله عنه.

والسابع: لأنه كانت له غدירתان من شعر. قاله الحسن. قال ابن الأنباري: والعرب تسمي الضفيرتين من الشعر غديرتين وقرنين.

[قال: ومن قال سمي بذلك، لأنه ملك فارس والروم قال: لأنها عاليان على جانبيين من الأرض يقال لهما قرنان].

والثامن: لأنه كان كريم الطرفين من أهل بيت ذي شرف.

والتاسع: لأنه انقرض في زمانه قرنان من الناس، وهو حيّ.

والعاشر: لأنه ملك الظلّمة والنور. ذكر هذه الأقوال الثلاثة أبو إسحاق الثعلبي.

واختلفوا: هل كان نبياً أم لا على قولين: أحدهما: أنه كان نبياً. قاله عبد الله بن عمرو والضحاك. والثاني: أنه كان عبداً صالحاً ولم يكن نبياً ولا ملكاً، قاله علي عليه السلام. وقال وهب: كان ملكاً ولم يوحَ إليه.

وفي زمان كونه ثلاثة أقوال: أحدها: أنه كان من القرون الأولى من ولد يافث بن نوح. قاله عليّ عليه السلام. والثاني: أنه كان بعد نوح. قاله الحسن. والثالث: كان في الفترة بين عيسى ومحمد عليهما السلام. قاله وهب، وفيه بُعد.

قوله تعالى: ﴿سَاتُلُوْا عَلَيْكُمْ مِنْهُ ذِكْرًا﴾ أي خبراً يتضمن ذكْره ﴿إِنَّا مَكْنَّا لَهُ فِي الْأَرْضِ﴾ أي سهّلنا عليه السير فيها. قال علي عليه السلام: إنه أطاع الله فسخر له السحاب، فحمله عليه، ومدّ له في الأسباب وبسط له النور، فكان الليل والنهار عليه سواء. قال مجاهد: ملّك الأرض مؤمنان وكافران. فالمؤمنان: سليمان بن داود وذو القرنين. والكافران: نمرود وبختنصر.

قوله تعالى: ﴿آتَيْنَاهُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ سَبَبًا﴾^(١) قال ابن عباس: علم ما يتسبب به إلى ما يريد. وقيل: هو العلم بالطرق والمسالك ﴿فَاتَّبَعَ سَبَبًا﴾ أي قفا الأثر. وقرأ عاصم وابن عامر وحزرة والكسائي: ﴿فَاتَّبَعَ﴾ في المواضع الثلاثة. قال أبو علي: التقدير فاتبع سبباً سبباً. والسبب: الطريق.

قوله تعالى: ﴿فِي عَيْنٍ حَمِئَةٍ﴾ أي ذات حمأة. وقرأ ابن عامر وحزرة: «حامية» أي حارة. قال الحسن: وجدها تغرب في ماء يغلي كغليان القدر ويفيض من الماء تلك العين الحارة حتى يفيض حولها مسيرة ثلاثة أيام، فلا يأتي على شيء إلا احترق، ووجد عندها قوماً لباسهم جلود السباع، وليس لهم طعام إلا ما أحرقت الشمس من الدواب إذا غربت نحوها، وما لفظت العين من الحياتان.

﴿قُلْنَا يَاذَا الْقَرْنَيْنِ﴾ من قال هو نبي قال: هذا وحي، ومن قال ليس بنبي قال: إلهام ﴿إِنَّمَا أَنْ تَعَذَّبَ﴾ أي تقتلهم إن أبوا ما تدعوهم إليه، وإما أن تأسرهم فتبصرهم الرشد. ﴿قَالَ أَمَّا مَنْ ظَلَمَ﴾ أي أشرك ﴿فَسَوْفَ نَعَذِّبُهُ﴾ بالقتل إذا لم يرجع عن الشرك ﴿ثُمَّ يُرَدُّ إِلَىٰ رَبِّهِ﴾ فيعذبه بالنار.

قوله تعالى: ﴿فَلَهُ جَزَاءُ الْحُسْنَىٰ﴾ قال الفراء: الحسنى الجنة، وأضيف الجزاء

(١) الكهف ٨٤.

إليها . وهي الجزاء كقوله تعالى : ﴿ وَإِنَّ لِحَقِّ الْيَقِينِ ﴾ (١) ﴿ وَلَدَارُ الْآخِرَةِ ﴾ (٢) قال أبو علي الفارسي : المعنى فله جزاء الخلال الحسنی . وقرأ حمزة والكسائي : ﴿ فله جزاء ﴾ بالنصب والتنوين . قال الزجاج : وهو مصدر منصوب على الحال . والمعنى : فله الحسنی مجزئاً بها جزاء . ﴿ وسنقول له مِنْ أَمْرِنَا يُسْرًا ﴾ أي قولاً جميلاً .

﴿ ثُمَّ أَتَبَعَ سَبَبًا ﴾ أي طريقاً آخر توصله إلى المشرق . قال قتادة : مضى يفتح المدائن ويجمع الكنوز ويقتل من لم يؤمن حتى أتى مطلع الشمس ، فوجد أقواماً عراة في أسراب له ليس له طعام إلا ما أحرقت الشمس إذا طلعت ، فإذا توسطت السماء خرجوا من أسرابهم في طلب معاشهم مما أحرقت ، وبلغنا أنهم كانوا في مكان لا يثبت عليه بنيان . قال الحسن : إنهم كانوا إذا غربت الشمس خرجوا يرعون كما يرعى الوحش .

قوله تعالى : ﴿ كَذَلِكَ ﴾ أي كما بلغ مغرب الشمس بلغ مطلعها ﴿ وَقَدْ أَحَطْنَا بِمَا لَدَيْهِ ﴾ أي بما عنده ، ومعه من الجيوش ﴿ خَبْرًا . ﴾ ثم أَتَبَعَ سَبَبًا ﴿ أي طريقاً ثالثاً بين المشرق والمغرب ﴾ حتى إذا بَلَغَ بَيْنَ السَّدِّينِ ﴿ قال وهب بن منبه : هما جبلان مُنِيفان في السماء من ورائهما البحر . وقرأ نافع بضم السين . قال ثعلب : هما لغتان . وقال أبو عبيدة : ما هو مِنْ فِعْلٍ اللَّهُ تَعَالَى فَهُوَ مَضْمُومٌ . وما هو من فعل الأدميين فمفتوح .

قوله تعالى ﴿ لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلًا ﴾ (٣) أي لا يفهمونه إلا بعد إبطاء .

وأما يأجوج ومأجوج فهما رجلان من أولاد يافث بن نوح قال علي عليه السلام : منهم من طوله شبر ، ومنهم من هو مُفْرَطٌ في الطول ، ولهم شعر يواريهم من الحر والبرد ، وكان فسادهم قتل الناس ﴿ فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجًا ﴾ وقرأ حمزه : خراجاً قال الليث : هما لغتان . وقال أبو عمرو بن العلاء : الخَرْجُ ما تبرعت

(٣) الكهف ٩٣

(١) الخاقعة ٥١ .

(٢) الرعد ١٠٩

به، والخراج: ما لزمك أدأؤه. ﴿قال ما مَكَّنِّي فيه رَبِّي خَيْرٌ﴾ (١) مما تبدلون ﴿فَاعِينُونِي بِقُوَّةٍ﴾ قال مجاهد: بالرجال وقال ابن السائب: بالآلة. والردم: الحاجز. والزبر: القطع والصدفان: جانباً الجبل.

قال علماء السير: لما وصل إلى مدنٍ معطلةٍ قد بقي فيها بقايا سألوه أن يسدَّ ما بينهم وبين يأجوج ومأجوج، فأمر الصُّناع فضربوا اللِّين من الحديد، طولُ كل لينة ذراع ونصف وسُمكها شبر.

وروى سلامُ الترجمان قال: بعثني الواثق إلى السدِّ، وضم إليَّ خمسين رجلاً، وأعطانا مالا، فما زلنا نتنقل البلادَ وتبعث الملوكُ معنا الأدلاءَ إلى أن صرنا إلى أرض سوداء منتنة الريح، فسرنا فيها عشرة أيام، ثم صرنا إلى مدنٍ خرابٍ فسرنا فيها خمسة وعشرين يوماً، وهي التي كانت يأجوج ومأجوج يَطْرُقونها، ثم صرنا إلى حصون بالقرب من السدِّ، وفيها قومٌ يتكلمون بالعربية والفارسية مسلمون يقرأون القرآن، فسألونا: من أين أقبلتم؟ قلنا: نحن رسل أمير المؤمنين. قالوا: ما سمعنا بهذا قط. ثم صرنا إلى جبل أملس وفيه السدِّ، وهناك باب حديد له مصراعان مُغلقتان، عرضُ كل مصراعٍ خمسون ذراعاً في ارتفاع خمسين في ثخن خمسة أذرع، وقائمتاهما في دَوَّارة، وعلى الباب قفلٌ طوله سبعة أذرع غلَّق طوله أكثر من طول القفل، وقفيز، وعلى الغلق مفتاح معلق في سلسلة طولها ثمان أذرع في استدارة أربعة أشبار، وعتبة الباب عشرة أذرع، ورئيس تلك الحصون يركب في كل جمعة في عشرة فوارس، مع كل فارسٍ مرزبة حديد، فيضرب القفل بتلك المرزبات مرات ليسمعوا الصوت فيعلموا أن هناك حفظة.

وقد روينا أن يأجوج ومأجوج يحفرون السد كل يوم. أخبرنا ابن الحصين، أنبأنا ابن المذهب، أنبأنا أحمد بن جعفر، حدثنا عبد الله بن أحمد، حدثني أبي، حدثنا رَوْح، حدثنا سعيد بن أبي عَرُوبة، عن قتادة، حدثنا أبو رافع، عن أبي هريرة، عن النبي ﷺ قال: إن يأجوج ومأجوج ليحفرون السد كل يوم حتى

(١) الكهف ٩٥.

إذا كادوا يرون شعاع الشمس، قال الذي عليهم؛ ارجعوا فستحفرونه غداً. فيعودون إليه فيرونه كأشد ما كان، حتى إذا بلغت مدتهم، وأراد الله أن يبعثهم على الناس؛ [حفروا] حتى إذا كادوا يرون شعاع الشمس قال الذي عليهم: أرجعوا فستحفرونه غداً إن شاء الله. فيعودون إليه وهو على هيئته التي تركوه فيحفرونه ويخرجون على الناس فينشفون المياه ويتحصن الناس منهم في حصونهم، فيرمون بسهام إلى السماء، وترجع وعليها كهية الدم فيقولون. قهرنا أهل الأرض وعلونا أهل السماء، فيبعث الله عليهم نغماً في أقفائهم فيقتلهم بها. فقال رسول الله ﷺ: والذي نفسي بيده إن دواب الأرض لتسمن [وتشكر] من لحومهم ودمائهم.

ثم إن ذا القرنين لما عاد بلع بابل، فنزل به الموت فكتب إلى أمه يعزيها عن نفسه، وكان في كتابه: اصنعي طعاماً واجمعي من قدرتي عليه من أبناء المملكة، ولا يأكل من طعامك من أصيب بمصيبة. ففعلت فلم يأكل أحد، فعلمت ما أراد.

فلما وصل تابوته إليها قالت: ياذا الذي بلغت السماء حكمته وجاز أقطار الأرض ملكه، مالك اليوم نائم لا تستيقظ، وساكت لا تتكلم، من يبلغك عني أنك وعظمتي فاتعظت وعزيتي فتعزيت، فعليك السلام حياً وميتاً!

الكلام على البسمة

أنتكر أمر الموت أم أنت عارف	بمنزلة تفي وفيها المتألف
كأنك قد غيبت في اللحد والثرى	كما لقي الموت القرون السوالف
أرى الموت قد أفنى القرون التي مضت	فلم يبق مألوف ولم يبق ألف
كأن الفتى لم يصحب الناس ليلة	إذا عصيت يوماً عليه اللائف
وقامت عليه عصابة يدفنونه	فمستذكراً يبكي حزيناً وهاتف
وغيب في لحد كريبه فناؤه	ونضد من لبن عليه السقائف
وما صاحب البحر القطيع مكانه	إذا هاج آذى من عليه وقاصيف

أحقَّ بطول الحُزْن من ضَيْفِ غُرْبَةٍ تصدَّع عنه أهله والمعارفُ

أين من ربح في متاجر الدنيا واكتسب، أين من أعطى وأولي ثم والى
ووهب، أما رحل عن قصره الذهبُ فذهب، أما حلَّ به في الحرب المصْطَلِم
الحرب، أما نازله التلْفُ وأسره العطب، أما نابتة نائبة لا تُشبه التوب، أنفعه
بكاء من بكى، أو ندب من ندب، أما ندم على كل ما جنى وارتكب، أما
توقنون أن طالبه لكم في الطلب، تدبّروا قول ناصحكم صدق أو كذب.

قال ميمون بن مهران: خرجتُ مع عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه إلى
المقبرة، فلما نظر إلى القبور بكى ثم أقبل عليّ فقال: يا أبا أيوب: هذه قبور آبائي
كأنهم لم يشاركوا أهل الدنيا من لذتهم وعيشهم، أما تراهم صرّعى قد حلّت بهم
المثلاث واستحكّم فيهم البلاء، وأصاب الهوامُّ في أبدانهم مقيلاً! ثم بكى حتى
غشي عليه، ثم أفاق فقال: انطلق بنا فوالله ما أعلم أحداً أنعم ممن صار إلى هذه
القبور وقد أمِن من عذاب الله عز وجل:

صَوَّرَ طَوَاهَا المَوْتَ طَيِّبَا	كَانَتْ مَحَبِّبَةً إِلَيَا
تَبَلَّى وَيَأْكُلَهَا التَّرَا	بُ وَذَكَرَهَا غَضُّ إِلَيَا
صَرَعِي بِأَنْوَاعِ الحَتْوِ	فِي كَأَنَّهُمْ شَرَبُوا الحُمَيَّا
لَهْفِي عَنِ تَلْكَ الوَجْوِ	هِ وَهَلْ يَرُدُّ اللَّهْفُ شَيَّا
أَبْكِي عَلَيْهِم، ثُمَّ أَرُ	جَع بَعْدَهُم أَبْكِي عَلَيَا
أَنَا مَيِّتٌ بَعْدَ الحَيَا	ةٍ وَمَيِّتٌ لِلحُزْنِ حَيَا
بَيْتِي التَّرَى وَلَوْ أَنِّي	نَلَيْتُ السَّمَاءَ أَوْ الثَّرِيَّا
وَلَوْ اعْتَبَرْتَ لَعَادَ لِي	غَيْلَانٌ وَهُوَ يَذْمُ مَيَّا
مَنْ لِّلسَّمَاءِ بَأْنَ تَدُو	مَ وَأَنهَا تُدْعَى سُمَيَّا
هِيَهَاتَ لَا تَرْجُو البَقَا	ةً وَابِكِ نَفْسِكَ يَا أُخَيَا

كَأَنَّكَ بِالمَوْتِ وَقَدْ فَصَمَ العَرَى الَّتِي بِهَا قَدْ تَمَكَّنْتَ، وَنَقَلْنَاكَ إِلَى قَبْرِ تَرَى فِيهِ

ما أسأت وما أحسنت، ثم تقوم للجزاء على ما أسررت وما أعلنت، فترزَيْن
بالتقوى فطوبى لك إن تزيتت، واعمل اليوم ما ينفعك غداً، وإلا فمن أنت .

كم طوى الموت من نعيمٍ وعزٍّ وديارٍ من أهلها أخلاها
وجنودٍ أحالها وجُودود ووجوهٍ أحال منها جلاها
أين من كان ناعماً في قصور بعلا المكرمات شيدت علاها
قد جفاها من كان يرتاح حيناً نحوها بعد إلفه وقلاها

يا من في حَلَل جهله يرفل ويَميس، يا مؤثراً الرذائل على أنفس نفيس، يا
طويل الأمل ماذا صنع الجليس، يا كثير الخطايا أشمت إبليس، من لك إذا
فجأك مُذِل الرئيس، واحتوشتك أعوانُ ملك الموت وحمي الوطيس، ونُقلت
إلى الحدِّ مالك فيه إلا العمل أنيس، أين أَسُكُك يا من أمسك عرى أمله، أما
ذهب عن كل عبد ببعض أجله، أين لذات شهواتك فيما مضى من عمرك، أما
تصرّمت والوزر على ظهرك، أما الدنيا تخدع مريدها، أما العبر تجاذب
مستفيدها، أما زيادات الأيام تنقص الأجل، أما كمال الأمن قرين الوجل .

[ومَن ليكسرى لو فدَى نفسه بكل ما أحرزه من بدرٍ
أنصبت العُمّارَ ساحاتهم ثم تخلّى عامراً من عمّر
فأسمرُ بذكر الله لا غيره فإن ذكر الله خير السمر
وشمر الذيل إلى عفوه فكل مسعودٍ إليه انشمر]

كان الحسن يقول: الثواءُ ها هنا قليل، وأنتم آخر أمتكم، وأمتكم آخر
الأمم، وقد أسرع بخياركم، فماذا تنظرون إلا المعاينة، فكأنها والله قد كانت، ما
بعد نبىكم نبي ولا بعد كتابكم كتاب، ولا بعد أمتكم أمة، تسوقون الناس
والساعة تسوقكم، وما ينتظر أولكم إلا أن يلحق آخركم، فيا لها موعظة لو
واقفت من القلوب حياة .

رضيَ الفتى بعثائه وشقائه لو أن ظلَّ بقائه ممدودٌ

ويُحّ له ما إن يعدّ لنفسه ويبيده نفس له معدودٌ
يُعْذِي بِأَسْقِيَةٍ لَهُ وَأَلِدَّةٌ لو كان ينفع في الحياة لدودٌ
مِلِكٌ يَشِيدُ مَا بَنَى وَيَشِيدُ أَرْ كان البناء وركنُه مهدودٌ
ويرى طريقَ الحقِّ كلُّ أخِي حَجًّا وكأنه عن فعله مَصْدودٌ
جَسَدٌ يَكْدُّ لَأَن يَفُوزَ بِقُوَّتِهِ فإن استراح فقلْبُه المكْدودُ

الكلام على قوله تعالى

﴿ فَهَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا السَّاعَةَ أَنْ تَأْتِيَهُمْ بَغْتَةً ﴾ (١)

﴿ فَهَلْ يَنْظُرُونَ ﴾ بمعنى ينتظرون. والساعة: القيامة. سميت ساعة لأنها تكون في ساعة. والبغْة: الفجأة. والأشراط: العلامات.

أخبرنا أبو نصر الطوسي، وأبو القاسم السمرقندي وأبو عبد الله بن البناء، وأبو الفضل بن العالمة، وأبو الحسن الخياط، قالوا: أنبأنا أبو الحسين بن النقور، أنبأنا ابن حنّابة، حدثنا البغوي، حدثنا طلوت بن عباد، حدثنا فضال بن جبّير، عن أبي أمامة قال: سمعتُ النبي ﷺ يقول: « إن أول الآيات طلوعُ الشمسِ من مغربها ».

أخبرنا أبو القاسم الكاتب، حدثنا الحسن بن علي، أنبأنا أبو بكر بن مالك، حدثنا عبد الله بن أحمد، حدثنا أبي، حدثنا عبد الرحمن بن مهدي، عن مالك ابن أبي الزناد، عن الأعرج، عن أبي هريرة، رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: « لا تقوم الساعة حتى يمرّ الرجلُ بقبر الرجل فيقول: يا ليتني مكانك ».

أخرجاه في الصحيحين.

وفي لفظ: وما به إلا البلاء.

وفي الصحيحين من حديث أنس عن النبي ﷺ قال: إن من أشراط الساعة

(١) محمد ١٨.

أن يُرْفَعَ الْعِلْمُ وَيُظْهِرَ الْجَهْلُ وَتُشْرَبَ الْخَمْرُ وَيُظْهِرَ الزَّانَا، وَيَقْلَّ الرِّجَالُ وَيَكْثُرَ النِّسَاءُ حَتَّى يَكُونَ قِيَمٌ خَمْسِينَ امْرَأَةً رَجُلًا وَاحِدًا.

وفي أفراد البخاري من حديث أنس أن عبد الله بن سلام أتى رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله ما أولُ أَسْرَاطِ السَّاعَةِ؟ قال: أولُ أَسْرَاطِ السَّاعَةِ نَارٌ تَخْرُجُ مِنَ الْمَشْرِقِ، فَتَحْشُرُ النَّاسَ إِلَى الْمَغْرِبِ.

وفي صحيح البخاري من حديث أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: لا تقوم الساعة حتى يُقْبَضَ الْعِلْمُ وتكثر الزلازلُ وتظهر الفتن، ويتطاول الناسُ في البنيان ولتقومن الساعة وقد نشر الرجالان ثوبها فلا يتبايعانه، ولا يطويانه، ولتقومن الساعة وقد انصرف الرجلُ بلبن لِقْحَتِهِ فلا يطعمه، ولتقومن الساعة، وقد رفع الرجلُ أكلته إلى فيه فلا يَطْعُمُهَا.

وفي حديث أبي سعيد عن النبي ﷺ أنه قال: «والذي نفسي بيده لا تقوم الساعة حتى تكلم السباعُ الإنسَ، ويكلم الرجلَ عَذْبَةُ سَوْطِهِ، وشِرَاكُ نَعْلِهِ وتخبِره فخذُه بما أحدثَ أهلهُ بعده».

أخبرنا عبد الملك بن أبي القاسم الكروخي، حدثنا أبو عامر الأزدي، وأبو بكر الغورجي، قالوا: أنبأنا الجراحى، حدثنا المحبوبي، حدثنا الترمذي، حدثنا صالح بن عبيد الله، حدثنا الفرج بن فضالة، عن يحيى بن سعيد، عن محمد بن عمر، عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: إذا فعلتُ أمي خمس عشرة خصلة حل بها البلاء. قيل: وما هي يا رسول الله؟ قال: إذا كان المغممُ دُولاً، والأمانة مَغْنَمًا، والزكاة مَغْرَمًا، وأطاع الرجلُ زوجته وعقَّ أمه، وبرَّ صديقه، وجفا أباه، وارتفعت الأصوات في المساجد، وكان زعيم القوم أَرْدَاهُمْ، وأكرم الرجلُ نخافة شره، وشربت الخمر، ولبس الحرير، واتخذت القيان والمعازف، ولعن آخر هذه الأمة أولها، فليرتقبوا عند ذلك رجياً حراء، أو خسفاً أو مسخاً».

اعلم أنك إن لم تدرك أَسْرَاطَ الْقِيَامَةِ فقيامتك العاجلة موتك، فإذا حانت

ساعة الوفاة فات زمن الاستدراك وخرج ربيع البدار، فسُدَّ باب الإجابة عن دعاء الإنابة، كما قال عز وجل في القيامة: ﴿فَأَنَّى لَهُمْ إِذَا جَاءَتْهُمْ ذِكْرَاهُمْ﴾^(١) أي فمن أين إذا جاءتهم الساعة أن يتذكروا ويتوبوا إذا جاءت، فكذلك عند صرعة الموت لا عثرة تُقال ولا توبة تُنال.

روى مروان بن سالم عن البرجُمي رفعه، قال: احضروا موتاكم ولقنوهم لا إله إلا الله وبشروهم بالجنة، فإن الحليم العليم يتحير عند ذلك المصارع، وإن إبليس أقرب ما يكون من العبد في ذلك الموطن عند فراق الدنيا وترك الأُحبة. خذْ لا أبالك للمنية عُدةً واحتل لنفسك إن أردت صلاحها لا تغترر فكأنني بعقاب ريب الدهر قد نشرت عليك جناحها ويحك! أمن الأخرى عوض؟ أنتم في الدنيا عراض، يا من كلما بنى نقض، يا من كلما رفع انخفض، يا عجيب الداء والمرض، كم شاهدت مسلوباً، كم عاينت مغلوباً، كم مخفوض بعد الرفع، كم مضروب بعد النفع، كم مدفوع عن أغراضه أقبح الدفع، بينما هو في ثياب أوجاعه ومنى السلامة تخطر في أطباعه، أسرع الموت ونادى بإسراعه، فعجز عن مقاومته، أو عن دفاعه، فحارت من حاله قلوب أتباعه، واشتغل بضياع أمره عن ضياعه، وأقبلت قبائله على تقبيله ووداعه، وبكى لميله إلى الهوى عند نزعه ونزاعه، وهذا مصيرك فانتبه له وراعِه.

تردّ بالنسك وأفعاله يا من إذا حان منك المرّة
وردّت دنياك على غيرة فويح مغرورٍ عليها وردّ
إن مرّ ذا الفاتك في جهله فليخش يوماً ماله من مرّة

[إخواني] ما بال النفوس تعرف حقائق المصير، ولا تعرف عوائق التقصير، وكيف رضيت بالزاد اليسير، وقد علمت طول المسير، أم كيف أقبلت على التبذير، وقد حدّرت غاية التحذير، أما تخاف زلل التعشير إذا حوسبت على القليل والكثير.

(١) محمد ١٨.

كان خُلَيْدُ البصري يقول: كلنا قد أيقن بالموت وما نرى له مستعدّاً، وكلنا قد أيقن بالجنة وما نرى لها عاملاً، وكلنا قد أيقن بالنار، وما نرى لها خائفاً، فعلام تعرّجون، وماذا عسيتم تنتظرون، فهذا الموت ل وارِدٍ عليكم من الله بخير، أو بشر. فيا إخوتاه سيروا إلى ربكم سيراً جميلاً.

سَيَكْفِي بَعْضُ مَا فَاتَكَ فَلَا تَأْسَ لِمَا فَاتَكَ
وَلَا تَرْكُنْ إِلَى الدُّنْيَا أَمَا تَذْكَرُ أَمْوَاتَكَ

دخل بعض العباد على بعض الأمراء فقال له الأمير: ما أزهذك وأصبرك. فقال: إن صبري جزع من النار، وزهدي رغبة في الجنة.

يا غافلاً في بطالته، يا من لا يفيق من سكرته، أين ندّمك على ذنوبك، أين حسرتك على عيوبك، إلى متى تؤذي بالذنب نفسك، وتضيع يومك تضييعك أمسك، لامع الصادقين لك قدّم، ولا مع التائبين لك ندم، هلاً بسطت في الدّجى يداً سائلة، وأجريت في السحر دموعاً سائلة.

خَدَعْتُنَا زُخَارِفُ الأَمَالِ فَلَهَوْنَا بِهَا عَنِ الأَجَالِ
عَجَبِي مِنْ مُؤَمِّلِ أَمِنِ السَّرِّ بَ بِهَا وَهِيَ خُطَّةُ الأَوْجَالِ
نَحْنُ سَفَرٌ وَإِنَّمَا أَمَهَلْتُنَا رَيْثَمَا تَسْتَعِدُّ لِلتَّرْحَالِ

أسفاً لمن إذا ربح العاملون خسر، وإذا أطلق المقيّدون أسر، من له إذا خوصم فلم ينتصر، ونسي يوم الرحمة فما ذكر، فالجدّ الجد أيها الغافل، فأيام العمر كلها قلائل.

سجع على قوله تعالى

﴿فَأَنَّى لَهُمْ إِذَا جَاءَتْهُمْ ذِكْرَاهُمْ﴾

[لو رأيت العصاة والكرّب يغشاهم، والندم قد أحاط بهم وكفاهم، والأسف، على ما فاتهم قد أضناههم، يتمنون العافية وهيئات مناهم، ﴿فَأَنَّى لَهُمْ

إذا جاءتهم ذكراهم ﴿٤٠﴾ .

نزل بهم المرض فألقاهم كالحرّص، فانفكّ أملهم وانقبض، وانعكس عليهم الغرض، ورحمهم في صرّعتهم من عاداهم ﴿٤١﴾ فأتى لهم إذا جاءتهم ذكراهم ﴿٤٢﴾ .

يتمنّون عند الموت راحة، ويشتهون من الكرب استراحة، ويناقدشون على الخطايا ولا ساحة، فهم كطائر قصّر الصائد جناحه، في حبس النزاع والكرب يغشاهم ﴿٤٣﴾ فأتى لهم إذا جاءتهم ذكراهم ﴿٤٤﴾ .

يتأسفون وأسفهم أشدّ ما في العلة، ويتحسرون وتحسروهم على ما مضى من زلّة، وجبل ندمهم قد شقّ كأنه ظلّة، فلو رأيتهم بعد الكبر قد صاروا أذلة، وتملك أموالهم بعدهم سيواهم ﴿٤٥﴾ فأتى لهم إذا جاءتهم ذكراهم ﴿٤٦﴾ .

ما نفعهم ما تعبوا لتحصيله وجالوا، ولا ردّ عنهم ما جمعوا واحتالوا، جاء المرض فأذلتهم بعد أن صالوا، فإذا قال العائد لأهليهم: كيف باتوا؟ قالوا: إن السقم قد وهّاهم وهاهم ﴿٤٧﴾ فأتى لهم إذا جاءتهم ذكراهم ﴿٤٨﴾ .

نزلوا بطون الفلا فلا يقبل عذرهم، ولا ذو وُدّ ينفعهم، قد أضناهم بلاء البلى، فلو رأيتهم في بلاءهم وهم في بلاءهم ﴿٤٩﴾ فأتى لهم إذا جاءتهم ذكراهم ﴿٥٠﴾ .

فالبدار البدار قبل الفوات، والحذار الحذار من يوم الغفلات، قبل أن يقول المذنب رب ارجعون فيقال: فات، ويح الغافلين عن عقابهم ما أعماهم ﴿٥١﴾ فأتى لهم إذا جاءتهم ذكراهم ﴿٥٢﴾ .

نبهنا الله وإياكم من هذه الرقدة، وذكّرنا وإياكم الموت وما بعده إنه قريب مجيب .

المجلس الثاني عشر في قصة يوسف عليه السلام

الحمد لله أحسن الخالقين وأكرم الرازقين، مكرم الموفقين ومعظم الصادقين، ومُجِل المتقين، ومذِل المنافقين، حفِظ يوسف لعلمه بعلم اليقين، فألبسه عند الهمِّ دروعاً يقين، وملّكه إذ ملّك عنان الهوى ميدان السابقين، فذلّ له إخوته يوم: ﴿وما كُنَّا سَارِقِينَ﴾^(١) ﴿قالوا تالله لقد آثرك الله علينا وإن كُنَّا لَخَاطِئِينَ﴾^(٢).

أحمده حمدَ الشاكرين وأصلي على رسوله محمد أشرف الذاكرين، وعلى أبي بكر سابق المبكرين، وعلى عمر سيد الأمرين بالمعروف والمنكرين، وعلى عثمان الشهيد بأيدي الماكرين، وعلى عليّ إمام العباد المتفكرين، وعلى عمه العباس أبي الخلفاء الراشدين.

قال الله عز وجل: ﴿تالله لقد آثرك الله علينا﴾.

كان يعقوب قد ولد في زمن إبراهيم ونبيء في زمانه أيضاً. وكان هو والعيص توأمين فاختصها فخرج هارباً إلى خاله لابان فزوجه ابنته ليا، فولدت له روبيل، ثم شمعون ولاوي ويشجب ويهوذا وزبالون. ثم توفيت فتزوج أختها راحيل، فولدت له يوسف وبنيامين، ومعناه ابن الوجد لأنها ماتت في نيفاسه، وولد له من غيرها أربعة فكان أولاده اثني عشر، وهم الأسباط.

وكان أحب الخلق إليه يوسف، فحسده إخوته فاحتالوا عليه، فقالوا: يا

(٢) يوسف ٩١.

(١) يوسف ٧٣.

يوسف أما تشتاق أن تخرج معنا فتلعب وتتصيد؟ فقال: بلى. قالوا: فسل أباك، أن يرسلك معنا، فاستأذنه فأذن له، فلما أضحروا أظهروا له ما في أنفسهم من العداوة، فجعل كلما التجأ إلى شخص منهم آذاه وضربه، فلما فطن لما عزموا عليه قال: يا أبتاه يا يعقوب لو رأيت يوسف وما نزل به من إخوته لأحزنك ذلك وأبكاك، يا أبتاه ما أسرع ما نسوا عهدك وضيعوا وصيتك. فأخذه روبيل فضرب به الأرض، وجثم على صدره ليقتله وقال: يا بن راحيل قل لرؤياك تخلّصك، وكان قد رأى وهو ابن سبع سنين الشمس والقمر والنجوم ساجدين له. فصاح: يا يهوذا حلّ بيني وبين من يريد قتلي فقال يهوذا: ألقوه في غيابة الجب. فنزعوا قميصه لإلقائه، فقال: ردّوه عليّ أستر به عورتى، ويكون كفنًا لى في مماتى.

فلما ألقوه أخرج الله له حجراً مرتفعاً من الماء فاستقرت عليه قدماه، وكان يعقوب عليه السلام قد أدرج قميص إبراهيم عليه السلام الذي كسبه يوم ألقى في النار في قصبة وجعلها في عنق يوسف، فبعث الله عز وجل ملكاً فاستخرج القميص فألبسه إياه وأضاء له الجبّ وعذب ماؤه وجاءه جبريل يؤنسه، فلما أمسى نهض جبريل ليذهب، فقال له يوسف: إنك إذا خرجت عني استوحشت فقال إذا رهبت شيئاً فقل: يا صريخ المستصرخين ويا غياث المستغيثين، ويا مفرج كرب المكروبين، وقد ترى مكاني، وتعلم حالي ولا يخفى عليك شيء من أمري، فلما قالها حقت به الملائكة فاستأنس بهم.

وذبح إخوته جدياً فطخوا به القميص، وقالوا أكله الذئب، ومكث في الجبّ ثلاثة أيام وإخوته يرعون حوله، ويهوذا يأتيه بالقوت.

فلما جاءت السيارة تسقي من الجب تعلّق بالخبل فأخرجوه، فجاء إخوة يوسف فقالوا: هذا عبدّ أبق منا. فباعوه منهم بعشرين درهماً وحلّة ونعلين.

فحملوه إلى مصر فوقفوه للبيع، فتزايد الناس في ثمنه، حتى بلغ وزنه مسكاً ووزنه ورقاً ووزنه حريراً، واشتراه بذلك قطنير، وكان أمين ملكهم وخازنه، وقال لامرأته زليخا: أكرمي مثواه. فراودته فعصم منها، فسجنته إذ لم يوافقها،

فبقي مسجوناً إلى حين منام الملك، فلما أخرجه من السجن فوَّض إليه أمر مصر، فجمَّع الأقوات في زمن الرخاء وباع في زمن القحط، فروي أنه باع مكَّوكَ بَرَّ بمكوكِ دَرَّ، وباع أهل مصر بأموالهم وحلَّيهم ومواشيهم وعقارهم وعبيدهم، ثم بأولادهم ثم بَرِقايمهم، ثم قال: إني قد أعتقتهم ورددت عليهم أموالهم.

وكان يوسف عليه السلام لا يشبع في تلك الأيام ويقول: أخاف أن أنسى الجائع! وبلغ القحط إلى كنعان فأرسل يعقوب ولده للميرة، وقال: يا بني قد بلغني أن بمصر ملكاً صالحاً فانطلقوا إليه فأقرئوه مني السلام. فمضوا فدخلوا عليه فعرفهم وأنكروه، فقال: من أين أتيتم؟ فقالوا: من أرض كنعان، ولنا شيخ يقال له يعقوب، وهو يقرئك السلام. فبكى وعصر عينيه وقال: لعلكم جواسيس. فقالوا: لا والله. قال: فكم أنتم؟ قالوا: أحد عشر، وكنا اثني عشر، فأكل أحدنا الذئب. فقال: ائتوني بأخيكم الذي من أبيكم، ثم درج بضاعتهم في رحالهم، فعادوا إلى أبيهم، فقالوا: إنا مُنِع منا الكيل فأرسل معنا أخانا نكتل. فقال يعقوب: هل آمنكم عليه إلا كما أمَّنتكم على أخيه من قبل؟! ثم حمله احتياجه إلى الطعام إلى أن أرسله معهم.

فلما دخلوا على يوسف أجلس كلَّ اثنين على مائدة، فبقي بنيامين وحيداً يبكي، وقال: لو كان أخي حياً لأجلسني معه! فضمه يوسف إليه وقال: أتحب أن أكون أخاك؟ فقال: أيها الملك ومن يجد أخاً مثلك، ولكن لم يلدك يعقوب، ولا راحيل، فبكى يوسف، وقام إليه فاعتقه وقال: أنا أخوك. ثم احتال عليه فوضع الصاع في رَحْله، فلما لم يقدرُوا على خلاصه أقام يهوذا ورجعوا إلى يعقوب يقولون: إن ابنك سرَّق. فتلقاهم بصبرٍ جميل، وانفرد بجزئه.

قال الحسن: ما فارقه الحزنُ ثمانين سنة، وما جفَّت عيناه، وما أحد أكرم على الله منه.

ثم إن ملك الموت لقي يعقوب فسأله: هل قبضت روح يوسف؟ قال: لا.

فأصبح يقول لبيه: ﴿ اذهبوا فتحسسوا من يوسف وأخيه ﴾ (١) فلما عادوا إليه ببضاعة مُزجاة وهي القليلة، وقفوا موقف الذل، وقالوا: تصدق علينا. فقال: ﴿ هل علمتم ما فعلتم بيوسف ﴾ وكشف الحجاب عن نفسه، فعرفوه فقالوا: ﴿ أئنك لأنت يوسف ﴾ فحينئذ قالوا: ﴿ تالله لقد آثرك الله علينا ﴾. قال الزجاج: تالله بمعنى: والله. إلا أن التاء لا يُقسَم بها إلا في الله عز وجل. ولا يجوز: تالرحمن ولا تربي. والتاء تُبدل من الواو كما قالوا في وراث: تراث. وقالوا: يتزن. وأصله يوتزن، من الوزن. ومعنى ﴿ آثرك الله ﴾ اختارك وفضلك، وكان قد فضل عليهم بالحسن والعقل والحلم والصبر وغير ذلك ﴿ وإن كنا لخطئين ﴾ أي لمدنبن آتمين في أمرك.

﴿ قال: لا تثريب عليكم اليوم ﴾ أي لا أعيركم بما صنعتم. ثم سألم عن أبيه فقالوا: ذهبت عيناه. فأعطاهم قميصه وقال: ﴿ اذهبوا بقميصي هذا فألقوه على وجه أبي يأت بصيراً ﴾ وهو قميص الخليل الذي كان في عنق يوسف، وكان من الجنة، فلما خرجوا من مصر حمل القميص يهوذا وقال: أنا حملت قميص الدم، وها أنا أحمل قميص البشارة. فخرج حافياً حاسراً يعدو، ومعه سبعة أرغفة لم يستوف أكلها، فقال يعقوب: لمن حضر من أهله وولد ولده: ﴿ إنني لأجد ريح يوسف لولا أن تُفندون ﴾ أي تنكرون علي لأخبرتكم أنه حي.

﴿ فلما أن جاء البشير ألقاه على وجهه فارتد بصيراً ﴾ (٢) ثم خرج في نحو من سبعين من أهله، وخرج يوسف لتلقيه، فلما التقيا قال يعقوب: السلام عليك يا مُذهب الأحزان، فقال يوسف: بكي يا أبتى حتى ذهب بصرُك، أما علمت أن القيامة تجمعي وإياك! فقال: يا بني خشيت أن يُستلب دينك، فلا نجتمع! وكان يوسف عليه السلام يركب في كل شهر ركبة في ثمانمائة ألف، ومعه ألف لواء وألف سيف، فيدور في عمله فينصف المظلوم من الظالم.

وكانت زليخا تلبس جبة صوف، وتشدّ وسطها بجبل من ليف، وتقف على

(٢) يوسف ١٩٦.

(١) يوسف ٨٧.

قارعة الطريق فتناديه فلا يسمع ، فنادته يوماً ، أيها العزيز سبحانه من جعل العبيد بالطاعة ملوكاً ، وجعل الملوك بالمعصية عبيداً ! فسمعها فبكى وقال لفتاه : انطلق بهذه العجوز إلى الدار واقض لها كل حاجة . فقال لها الغلام : ما حاجتك يا عجوز ؟ فقالت : حاجتي محرمة أن يقضيها غير يوسف . فلما جاء يوسف قال : من أنت يا عجوز ؟ فقالت : أنا زليخا ، قال : ما فعل حُسنك وجمالك ؟ قالت ذهب به الذي أذهب ذلكَ ومَسَكنتك . فقال : يا زليخا عندي قضاء ثلاث حوائج فسلي ، فوحق شيبة إبراهيم لأقضيها . فقالت : حاجتي الأولى أن تدعو الله لي أن يرده على بصري وشبابي . فدعا لها ، فردَّ الله عليها بصراً وشبابها ، ثم قالت : ادع الله أن يرده عليَّ حُسني كما كان . فدعا لها ، فردَّ عليها حسنها وزيد فيه . فصارت كأنها بنت ثمانية عشرة سنة وكان لها من العمر مائة وعشرون سنة . فقالت : وحاجتي الثانية أن تسأله الله تعالى أن يغفر لي ما كان مني . وحاجتي الثالث أن تزوج بي . فتزوج بها فأصابها بكرّاً وأولدها اثني عشر ولداً . ذكر هذا أبو الحسين بن المنادي وغيره عن وهب

وأقام يعقوب عند يوسف أربعاً وعشرين سنة في أهنأ عيش ، فلما حضرته الوفاة أوصى إلى يوسف أن يحمله إلى الشام حتى يدفنه عند أبيه إسحاق ، ففعل . ثم إن يوسف عليه السلام رأى أن أمره قد تم فقال : ﴿ توفني مسلماً ﴾ وأوصى إلى يهوذا .

فتلمَّحوا علوَّ قدر يعقوب ببلائه وعزَّ يوسف في صبره ، وليكن حظكم من هذه القصة : ﴿ إنه من يتقَّ ويصبرُ فإنَّ الله لا يضيع أجرَ المحسنين ﴾ (١) . وليتفكر العاصي في لذات فنيت وتبعات بقيت ، وليتدبر الصابر لذة مديحة ثبتت ومرارة مصابرة خلَّت ، والأمر بأخره وللعواقب يعمل المتيقظ .

رزقنا الله وإياكم صبراً يزينا ، وعصمةً من هوى يشيننا ، إنه إن فعل سلمت دنيانا وديننا ، إنه قريب مجيب .

(١) يوسف ٩٠ .

الكلام على البسمة

إلى أي حين أنت في صَبْوَة لاهِي أمالك من شيء وعِظت به ناهي
ويا مُذنباً يرجو من الله عفوَه أترضى بسبِّق المتقين إلى الله

يا مبارزاً بالعظائم كيف أمنت فمنت، يا مصرّاً على الجرائم عجباً لك إن سلمت، يا مبدراً مُنذراً كأنه ما يسمع، إن فاجأك العذاب فإذا تصنع، تدبّر عقيب أبي الآباء إلى ما أب، وتفكّر في حال المذنبين فبئس المآب، يتناهم في أمن قد فرق بينهم ونعق بينهم للبين غراب، فتراكم ركام الهوامّ عليهم في الهواء واللّغاب، ومرّ مرير الرّيق فمسي في المشارع العذاب، وامتد ساعد البلاء إلى إغلاق باب العتاب، وسئلوا عن جورهم فقوي قلق الجوى في الجواب، وذاقوا بعد حلاوة الخِلاف من أخلاف الأوصاب الصاب، وانتقى الانتقام نقي لذاتهم فجلت مما لذّ أو طاب، ونشبت في شبيهم وشبابهم شبا سيوف الذم وعنا العتاب، ودخلوا إلى نار تُهَاب أوصافها قبل أن يُنتهى إلى الالتهاب، فلما سالت العيون دماً قرّعوا بالأنامل ندماً لِمَا ناب الناب، وخطّ من ربا منهم على الرّبا فاستبدل صوت الأسي عن الرّباب، فاحذروا أن يصيبكم من نصيبكم مثل حصصهم، فلقد كان في قصصهم عبرة لأولي الألباب.

ولقد رأيتُ معاشراً جمحتُ بهم تلك الطبيعة نحو كل تيار^(١)
تهوى نفوسهم هوى أجسامهم شغلاً بكل دناءة وصغار
تبعوا الهوى فهوى بهم وكذا الهوى منه الهوان بأهله فحذار
فانظر بعين الحق لا عين الهوى فالحق للعين الجليّة عار
قاد الهوى الفجار فانقادوا له وأبت عليه مقادة الأبرار

إخواني: من فعل ما يجب لقي ما يكره، ومن صبر على ما يكره نال ما يجب، لا تقطع مشاورة العقل قبل مشاورة الهوى، فإن المستبد برأيه واقف على مداحض الزلل، لم تزل أكفّ العقل ضابطة أعنة النفوس غير أن العزم ينقلب،

(١) هكذا بالأصل ولعلها «تبار» بمعنى هلاك.

ركوب الأخطار يسوق الأقدار، من قرأ والناس نيام تكلم والناس سكوت.

وهب بعضُ الملوك جاريةً يحبها . فقال الموهوب له : لا أفرق بينك وبين من تهواه . فقال : خذها وإن كنت أحبها ليعلم هوايَ أي غير طائع له .

وقيل للمرتعش : إن فلانا يمشي على الماء ، فقال : إن من مكَّنه الله عز وجل من مخالفة هواه أعظم من المشي على الماء !

فإن المرَّ حين يسرَّ حُلُو وإن الحلوَ حين يضُرَّ مُرُّ
فخذ مُرّاً تصادف منه نفعاً ولا تعدل إلى حُلُوٍ يضُرَّ

صابرٌ ليل البلا فقد دنا الفجر ، واثبت لعملِ نهارِ العمر تستوف الأجر ،
واحس نفسك عن هواها فسينفعك الحجر ، وارجز لها ، فإن لم تسر بالرجز
فبالزجر ، ما نال من نال ما نال إلا بالصبر ، وبه علا ذكر كل عابد وحبير ،
وهو وإن مرّت مذاقته بانث حلاوته في القبر ، أيها النائم وهو منتبه ، المتحير في
أمر لا يشتهه ، يامن قد صاح به الموت في سلب صاحبه ، وهو مغرور بجهله
مفتون بلعبه ، يا واقفاً مع الهوى والطبع ، أأمنت شين القلب بالختم والطبع .

[يا عظيم الشقاق يا قليل الوفاق يا مرير المذاق ، يا قبيح الأخلاق ، يا كثير
التواني قد سار الرفاق ، يا شديد التهادي قد صعب اللحاق ، إخلاصك معدوم
وما للنفاق نفاق ، ومعاصيك في ازدياد والعمر في انمحاق ، وساعي أجلك مجده
كأنه في سباق ، لا الوعظ يندرك ولا الموت يزجرك ، ما تطاق] .

اترك الشرَّ ولا تأنس بِشَرِّ وتواضعْ إنما أنت بِشَرِّ
هذه الأجسامُ تُربُّ هامدٌ فمن الجهل افتخارٌ وأشَرُّ
جسدٌ من أربع تلحظها سبعة من فوقها في اثني عشر
فعجيب فرح النفس إذا شاع في الأرض ثناها وانتشر
مستشارٌ خائن في نصحه وأميين ناصح لم يُستشَرُّ
فافعل الخير وأمل غيبه فهو الدُّخر إذا الله حَشَرُّ

أَضْمَرَ الخيفة وأظهر ندماً قلّ ما أحرز الطرف المدى حين ضمّر
وهي الدنيا إذاها أبدأ زُمراً وارداً بعد مَرٍّ
في حياة كخيال طارقٍ شغل الفكر وخلّاك ومَرٍّ

الكلام على قوله تعالى

﴿وَقَضَى رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ﴾

أصل القضاء الحتم. وهو في القرآن على ثلاثة عشر وجهاً: أحدها الفراغ: ﴿فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ﴾ (١) والثاني الفعل: ﴿فَأَقْضِي مَا أَنْتَ قَاضٍ﴾ (٢) والثالث: الإعلام: ﴿وَقَضَيْنَا إِلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ (٣). والرابع: الموت: ﴿لَيَقْضِيَ عَلَيْنَا رَبُّكَ﴾ (٤) والخامس وجوب العذاب: ﴿وَقُضِيَ الْأَمْرُ﴾ (٥) والسادس التام: ﴿مِنْ قَبْلِ أَنْ يُقْضَى إِلَيْكَ وَحْيُهُ﴾ (٦) والسابع الفصل: ﴿وَقُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْحَقِّ﴾ (٧) والثامن الخلق: ﴿فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَوَاتٍ﴾ (٨) والتاسع الحتم: ﴿وَكَانَ أَمْرًا مَقْضِيًّا﴾ (٩) والعاشر: ذبح الموت: ﴿إِذْ قُضِيَ الْأَمْرُ﴾ (١٠) والحادي عشر: إغلاق أبواب جهنم: ﴿وَقَالَ الشَّيْطَانُ لِمَا قُضِيَ الْأَمْرُ﴾ (١١) والثاني عشر الحكم: ﴿حَرَجًا مِمَّا قَضَيْتَ﴾ (١٢) والثالث عشر: الأمر: ﴿وَقَضَى رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ﴾ (١٣).

قوله تعالى: ﴿وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾ وهو البرّ والإكرام ﴿إِمَّا يَبْلُغَنَّ﴾ قال

- | | |
|----------------|------------------|
| (١) الجمعة ١٠. | (٨) فصلت ١٢. |
| (٢) طه ٧٢. | (٩) مريم ٢١. |
| (٣) الإسراء ٤. | (١٠) الزمر ٦٩. |
| (٤) الزخرف ٧٧. | (١١) إبراهيم ٢٢. |
| (٥) هود ٤٤. | (١٢) النساء ٦٥. |
| (٦) طه ١١٤. | (١٣) الإسراء ٢٣. |
| (٧) الزمر ٧٥. | |

الفرّاء: جعلت يبلغن فعلاً لأحدهما، وكرر عليه ﴿كَلَاهُمَا﴾ وقرأ حمزة والكسائي: يَبْلُغَانَّ على التثنية، لأنها قد ذُكِرَا قَبْلَ ذَلِكَ. ثم قال: ﴿أحدهما أو كلاهما﴾ على الاستئناف كقوله ﴿فَعَمُوا وَصَمُّوا﴾ ثم استأنف فقال: ﴿كثيراً منهم﴾.

﴿فَلَا تَقُلْ لَهَا أَفَّ﴾ أي لا تقل لها كلاماً تتبرم فيه بها إذا كَبِرَا؛ قال أبو منصور اللغوي: أصل أف نفخك الشيء يسقط عليك من تراب أو نحوه، وللمكان تريد إمطة الأذى عنه، فقيلت لكل مُسْتَقَلَّ.

قوله تعالى: ﴿وَلَا تَنْهَرْهُمَا﴾ أي لا تكلمهما ضَجْرًا صائحًا في وجههما. قال عطاء بن أبي رباح: لا تنفض يدك عليهما. قال العلماء: إنما نهى عن الأذى لها في حالة الكبر وإن كان منهيًا عنه في كل حال، لأن حال الكبر يظهر فيها منها ما يُضجر ويؤذي، وتكثر خدمتها.

﴿وَقُلْ لَهَا قَوْلًا كَرِيمًا﴾ أي لينا لطيفا أحسن ما تجد. وقال سعيد بن المسيب: قول العبد المتذلل للسيد الفظ.

﴿وَاخْفِضْ لَهَا جَنَاحَ الدَّلِّ﴾ أي ألين لها جانبك متذلاً لها من رحمتك إياها. وخفض الجناح عبارة عن السكون، وترك التصعب والإيذاء ﴿وقل ربّ ارحمهما كما ربياني صغيراً﴾^(١) أي مثل رحمتها إياي في صغيري حين ربياني.

أخبرنا هبة الله بن محمد، أنبأنا الحسن بن علي، أنبأنا أبو بكر بن مالك، أنبأنا عبد الله بن أحمد، حدثني أبي، حدثنا وكيع، حدثنا مسعر وسفيان، عن حبيب بن أبي ثابت، عن أبي العباس المكي، عن عبد الله بن عمر، قال: جاء رجل يستأذن النبي ﷺ في الجهاد، فقال رسول الله ﷺ: «أحيي والدك؟ قال: نعم. قال: ففيها فجاهد».

أخرجاه في الصحيحين.

(١) الاسراء ٢٤.

وبالإسناد حدثنا وكيع، قال: حدثنا سفيان، عن سهيل بن أبي صالح، عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: « لا يجزي ولدٌ والده، إلا أن يجده مملوكاً فيشتره فيعتقه ». »

أخبرنا علي بن عبد الله بن أحمد بن الحسن، وعبد الرحمن بن محمد، قالوا: حدثنا عبد الصمد بن المأمون، أنبأنا علي بن عمر السكري، حدثنا محمد بن علي ابن حرب، حدثنا سليمان بن عمر، حدثنا عيسى بن يونس. ح. وأنبأنا علي بن عبد الله، ومحمد بن عبد الباقي، أنبأنا أبو محمد الصريفي، أنبأنا أبو حفص الكِنَاني، أنبأنا أبو عبد الله بن مخلد، حدثنا يونس بن يعقوب، حدثنا علي بن عاصم، ح. وأنبأنا محمد بن عبد الباقي، أنبأنا أبو إسحاق البرمكي، حدثنا أبو محمد بن ماسي، أنبأنا أبو مسلم الكجّي، حدثنا محمد بن عبد الله الأنصاري، عن بهز بن حكيم بن معونة بن حيدة القشيري، عن أبيه عن جده، قال: قلت: يارسول الله من أبر؟ قال: أمك، قلت: ثم من؟ قال: أمك، قلت: ثم من؟ قال: أمك، ثم أباك ثم الأقرب فالأقرب. »

أخبرنا عمر بن ظفر، أنبأنا أبو غالب الباقلاوي، أخبرنا القاضي أبو العلاء الواسطي، أنبأنا أبو نصر النيازكي، أنبأنا أبو الخير الكرمانى، حدثنا البخاري، حدثنا سعيد بن أبي مریم، أنبأنا محمد بن أبي جعفر بن أبي كثير، أخبرني زيد بن أسلم، عن عطاء بن يسار، عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه أتاه رجل فقال: إني خطبت امرأة فأبّت أن تنكحني، وخطبها غيري فأحبّت أن تنكحه، فغيرت عليها فقتلتها، فهل من توبة؟ قال: أمك حية؟ قال: لا. قال: تب إلى الله عز وجل وتقرّب إليه ما استطعت. فسألت ابن عباس: لم سألته عن حياة أمه؟ قال: إني لا أعلم عملاً أقرب إلى الله عز وجل من برّ الوالدة.

وكان أبو هريرة رضي الله عنه إذا أراد أن يخرج من بيته وقف على باب أمه فقال: السلام عليك يا أماه ورحمة الله وبركاته. فتقول: وعليك السلام، ورحمة الله وبركاته. فيقول: رحمك الله كما رببتني صغيراً. فتقول: رحمك الله كما بررتني كبيراً. وإذا أراد أن يدخل صنع مثل ذلك.

وقالت عائشة رضي الله عنها: كان رجلان من أصحاب رسول الله ﷺ أبرد من كان في هذه الأمة بأمهما: عثمان بن عفان، وحاتمة بن النعمان رضي الله عنهما. أما عثمان فإنه قال: ما قدرت أتأمل وجه أمي منذ أسلمت. وأما حاتمة، فكان يطعمها بيده ولم يستفهما كلاماً قط تأمره به، حتى يسأل من عندها بعد أن يخرج: ماذا قالت أمي؟.

وكان حُجْر بن عدي بن الأُدْبَر يلتمس فراش أمه بيده فيتهم غلظ يده، فينقلب عليه على ظهره، فإذا أمن أن يكون عليه شيء أضجعها.

وكان ظَبْيَان بن علي من أبرد الناس بأمه، فباتت ليلة وفي صدرها عليه شيء فقام على رجله قائماً يكره أن يوقظها ويكره أن يقعد، حتى إذا ضعف جاء غلامان من غلمانها فما زال معتمداً عليها حتى استيقظت من قتل نفسها.

وكان محمد بن سيرين لا يكلم أمه بلسانه كلمة تخشعاً لها.

وكان محمد بن المنكدر يضع خده على الأرض ثم يقول لأمه: ضعي قدمك عليه! وقال ابن المنكدر: بت أغمز رجل أمي وبات أخي عمر يصلي، وما يسرني أن ليلتي بليته!

وروينا عن ابن عون أن أمه نادته فأجابها، فعلا صوتُه على صوتها، فأعتق رقبتهن.

وقال بشر الحافي: الولد يُقْرَب من أمه بحيث يُسْمَع أمه أفضل من الذي يضرب بسيفه في سبيل الله، والنظر إليها أفضل من كل شيء!.

وفي الصحيحين من حديث أنس عن النبي ﷺ أنه ذكّر في الكباثر عقوق الوالدين. وفيها من حديث جبير بن مطعم عنه ﷺ أنه قال: «لا يدخل الجنة قاطع» قال سفيان: قاطع رحيم.

وفي حديث عبد الله بن عمرو عن النبي ﷺ أنه قال: لا يدخل الجنة عاق. وقال محمد بن مُحَيْرِيز: من مشى بين يدي أبيه فقد عقّه، إلا أن يمشي

فيميط الأذى عن طريقه، ومن دعا أباه باسمه، أو بكنته فقد عقّه، إلا أن يقول: يا أبت.

وفي حديث أبي أسيد أن رجلاً قال: يا رسول الله هل بقي من برّ أبويّ شيء بعد موتها؟ قال: «نعم خصال أربع: الدعاء والاستغفار لها، وإيفاء عهدها، وإكرام صديقتها، وصلة الرحم التي لا رحم لك إلا من قبلها». وروى ابن عمر رضي الله عنهما عن النبي ﷺ أنه قال: «أبرُّ البرِّ صلة المرء أهلاً وداً أبيه بعد أن توفي».

أخبرنا ابن الحصين، أنبأنا ابن المذّهب، أنبأنا أبو بكر بن مالك، أنبأنا عبد الله بن أحمد، حدثني أبي، حدثنا يحيى بن غيلان، حدثنا رشدين، عن زيان، عن سهل بن معاذ بن أنس الجهني، عن أبيه، عن النبي ﷺ أنه قال: «إن لله تعالى عبداً لا يكلمهم يوم القيامة، ولا يزيكهم، ولا ينظر إليهم. قيل له: من أولئك يا رسول الله؟ قال: متبرّيء من والديه راغب عنها، ومبتريء من ولده، ورجل أنعم عليه قوم فكفر نعمتهم وتبرأ منهم».

وفي الصحيحين من حديث عبد الله بن عمر رضي الله عنهما عن النبي ﷺ أنه قال: «إن من أكبر الكبائر أن يلعن الرجل والديه. قيل: يا رسول الله وكيف يلعن الرجل والديه؟ قال: يسب الرجل أبا الرجل، فيسب أباه، ويسب أمه فيسب أمه».

سجع على قوله تعالى

﴿وقل ربّ ارحمهما كما ربياني صغيراً﴾ (١)

الويل كل الويل لعاق والديه، والخزي كل الخزي لمن ماتا غضاباً عليه، أف هل جزاء المحسن إلا الإحسان إليه، أتبع الآن تفريطك في حقها أنيناً وزفيراً ﴿وقل ربّ ارحمهما كما ربياني صغيراً﴾.

(١) الاسراء ٢٤.

كم آثراك بالشهوات على النفس، ولو غبت ساعة صاراً في حبس، حياتها
عندك بقايا شمس، لقد راعيك طويلاً فأرعهما قصيراً، ﴿وقل ربّ ارحمهما كما
رَبَّيَانِي صَغِيرًا﴾.

كم ليلة سهرت معك إلى الفجر، يداريانك مداراة العاشق في الهجر، فإن
مرضت أجزيتاً دمعاً لم يَجْر، تالله لم يرضياً لتربيتك غير الكف والحجر سريراً
﴿وقل ربّ ارحمهما كما رَبَّيَانِي صَغِيرًا﴾.

يعالجان أنجاسك ويحبان بقاءك، ولو لقيت منها أذى شكوت شقاءك، ما
تشتاق لهما إذا غابا ويشتاقان لقاءك، كم جرّعاك حلوا، وجرّعتها مريراً ﴿وقل
ربّ ارحمهما كما رَبَّيَانِي صَغِيرًا﴾.

أتحسّن الإساءة في مقابلة الإحسان، أو ما تأنف الإنسانية للإنسان، كيف
تعارض حُسن فضلها بقبح العصيان، ثم ترفع عليهما صوتاً جهيراً ﴿وقل ربّ
ارحمهما كما رَبَّيَانِي صَغِيرًا﴾.

تحب أولادك طبعاً، فأحبّ والديك شرعاً، وارع أصلاً أثمر لك فرعاً،
واذكر لطفها بك وطيب المرعى أولاً وأخيراً ﴿وقل ربّ ارحمهما كما ربباني
صغيراً﴾.

تصدّق عنها إن كان ميتين، وصلّ لها واقض عنها الدين، واستغفر لها
واستدم هاتين الكلمتين، وما تُكَلّف إلا أمراً يسيراً ﴿وقل ربّ ارحمهما كما
ربباني صغيراً﴾.

المجلس الثالث عشر في قصة أيوب عليه السلام

الحمد لله الذي ابتعث بلطفه السحاب، فرَوَى الأودية والهضاب، وأنبت
الحدائق وأخرج الأعناب، وألبس الأرض نباتاً أحسن من ثياب العنّاب، يبتلي
ليُدْعَى، وإذا دُعِيَ أجاب، قضَى على آدم بالذنب، ثم قضى أن تاب، ورفع
إدريسَ بلطفه إلى أكرم جناب، وأرسل الطوفان وكانت السفينة من العُجَاب،
ونجّى الخليلَ من نار شديدة الالتهاب، وكانت سلامة يوسف عبرةً لأولي
الألباب، وشدّد البلاء على أيوب ففارقه الأهل والأصحاب، وعضه البلاءُ إلى
أن كَلَّ الظَّفَر والناب، فنادى مستغيثاً بالمولَى فجاء الجواب ﴿اركضْ بِرِجْلِكَ
هَذَا مُغْتَسِلٌ بَارِدٌ وَشَرَابٌ﴾^(١).

أحدّه حدّ من أخلص وأتاب، وأصلي على رسوله أفضل نبيّ نزل عليه أفضل
كتاب، وعلى أصحابه أبي بكر مقدّم الأصحاب، وعلى الفاروق عمر بن
الخطاب، وعلى عثمان شهيد الدار وقتيل المحراب، وعلى عليّ المهيب وما سلّ
سيفاً بعدد من قراب، وعلى عمه العباس المقدم نسبه على الأنساب.

قال الله عز وجل: ﴿وَاذْكُرْ عَبْدَنَا أَيُوبَ إِذَا نَادَى رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الشَّيْطَانُ
بُنُصْبٍ وَعَذَابٍ﴾^(٢) أيوب اسم أعجمي، وهو أيوب بن أموص بن رزاح بن
العيص بن إسحاق بن إبراهيم. وأبوه ممن آمن بالخليل يوم أحرق، وأمه بنت
لوط النبي عليه السلام. وكان أيوب في زمن يعقوب عليه السلام، فتزوج ابنة
يعقوب، وكان غزير المال كثير الضيافة، وكان إبليس لا يُحجّب يومئذ من

(٢) ص ٤١.

(١) ص ٤٢.

السموات، فسمع تجاوب الملائكة بالصلاة على أيوب فحسده فقال: يا رب لو صدمت أيوب بالبلاء لكفر، فسَلَّطني عليه. فقالت: قد سلطتُك على ماله وولده. فجمع إبليس جنوده فأرسل بعضهم إلى دوابه وبعضهم إلى زرعه وبعضهم إلى أولاده، وكان له ثلاثة عشر ولداً. وقال إبليس لأصحابه: تابعوه المصائب بعضها إثر بعض. فجاء صاحبُ الزرع فقال: يا أيوب ألم تر إلى ربك أرسل إلى زرعك ناراً فأحرقته. وقال راعي الإبل: ألم تر إلى ربك أرسل غَدَداً فذهبت بالإبل. وقال كذلك صاحب البقر والغنم فقال: الحمد لله الذي رزقني وقبله مني. وتفرد إبليس لبنيه فجمع أركان البيت فهدمه عليهم، وجاء فقال: يا أيوب إن البيت وقع على بنيك، فلو رأيت كيف اختلطت دماؤهم ولحومهم بطعامهم وشرابهم. فقال: لو كان فيك خير لقبضك معهم، فانصرف خائباً. فقال: يا رب سلَّطني على جسده فسَلَّط فنفخ تحت قدميه نفخة ففرح بدنه. قال مجاهد: أول من أصابه الجدري أيوب. وقال وهب: كان يخرج عليه مثل ثدايا النساء، ثم يتفقاً. قال العلماء: لم يبق منه إلا اللسان للذكر والقلب للمعرفة، وكان يرى معاه وعروقه وعظامه، ووقعت به حِكَّة لا يملكها، فحك بأظفاره فسقطت، ثم بالمسوح ثم بالحجارة وأنتن جسمه وتقطع، وأخرجه أهل القرية فجعلوا له عريشاً على كنانة، ورفضه الخلق سوى زوجته رحمة بنت أفراهيم بن يوسف بن يعقوب، فكانت تختلف إليه بما يصلحه.

وفي مدة لبثه في البلاء أربعة أقوال:

أحدها: ثماني عشرة سنة. رواه أنس عن النبي ﷺ.

والثاني: سبع سنين. قاله ابن عباس وكعب.

والثالث: سبع سنين وأشهر قاله الحسن.

والرابع: ثلاث سنين. قاله وهب.

وفي سبب سؤاله العافية ستة أقوال:

أحدها أنه اشتهى أدمماً فلم تصبه امرأته حتى باعت قرناً من شعرها، فلما علم

ذلك قال: مَسَّنِي الضَّرُّ. رواه الضحاك عن ابن عباس.
والثاني: أن الله تعالى أنساه الدعاء مع كثرة ذكره لله تعالى، فلما انتهى زمان
البلاء ألهمه الله تعالى الدعاء. رواه العوفي عن ابن عباس.

والثالث: أن نَفَرًا من بني إسرائيل مرّوا به فقال بعضهم: ما أصابه هذا إلا
بذنب عظيم. فعندها دعا. قاله نَوْفُ البكالي. وقال عبد الله بن عبيد بن عمر:
كان له أخوان فأتياه يوماً فوجدوا ريحاً فقالا: لو كان الله علم منه خيراً ما بلغ به
هذا. فما سمع شيئاً أشد عليه من ذلك، فقال: اللهم إن كنت تعلم أني لم أبت
ليلةً شعبان، وأنا أعلم مكانَ جائعٍ فصدّقني. فصَدَّقَ وهما يسمعان. ثم قال: اللهم
إن كنت تعلم أني لم ألبس قميصاً، وأنا أعلم مكانَ عارٍ فصدّقني. فصدق، وهما
يسمعان. فخر ساجداً، ثم قال: اللهم لا أرفع رأسي حتى تكشف ما بي. فكشف
ما به.

والرابع: أن إبليس جاء إلى زوجته بسَخْلَةٍ فقال: ليذبح أيوب هذه لي
وقد برأ. فجاءت فأخبرته فقال: إن شفاني الله لأجلدتك مائة جلدة، أمرتني أن
أذبح لغير الله. ثم طردها عنه فذهبت فلما رأى أنه لا طعام ولا شراب
ولا صديق خر ساجداً وقال: مَسَّنِي الضَّرُّ. قاله الحسن.

والخامس أن الله أوحى إليه في عنفوان شبابه: إني مبتليكَ. فقال: يا رب
وأين يكون قلبي. قال: عندي فصب عليه من البلاء حتى إذا بلغ البلاء منتهاه
أوحى الله: إني معافيك قال: يا رب وأين يكون قلبي. قال: عندك. قال: مَسَّنِي
الضَّرُّ. قاله إبراهيم بن شيبان.

والسادس: أن الوحي انقطع عنه أربعين يوماً، فخاف هجران ربه فقال:
مَسَّنِي الضَّرُّ ذكره الماوردي.

ومعنى: ﴿نَادَى رَبَّهُ﴾ دعا، وإنما أضاف الأمر إلى الشيطان، لأن الشيطان
سَلَطَ عليه.

قوله تعالى: ﴿بَنَصْبٍ﴾ قرأ الحسن: «بَنَصَبٍ» بفتح النون والصاد. قال
الفراء: هما كالرشد والرشد. وقال أبو عبيدة: النَّصْبُ بتسكين الصاد: الشر.
وبتحريكها الإعياء. والمراد: بالعذاب الأليم.

قوله تعالى: ﴿ارْكُضْ بِرِجْلِكَ﴾ . قال المفسرون: جاءه جبريل فأخذه بيده فقال: قم. فقام فقال: اركض برجلك. فركض فنبعت عين، فقال: اغتسل. فاغتسل. ثم نجاه قال: اركض برجلك، فركض. فنبعت عين فقال: اشرب فشراب. قال: ﴿هَذَا مُغْتَسَلٌ﴾ قال ابن قتيبة: المغتسل: الماء، وهو المغسول أيضاً. ثم ألبسه جبريل حلّة من الجنة. وجاءت امرأته فقالت: يا عبد الله أين المبتلى الذي كان هنا لعل الذئاب ذهبت به. فقال: ويحك أنا أيوب. فقالت: اتق الله ولا تسخر بي. قال ابن مسعود ردّ الله عليه أهله بأعيانهم وآتاه مثلهم معهم في الدنيا. قال ابن عباس: كانت قد ولدت له سبع بنين وسبع بنات. فنشروا له، وولدت له تسعة بنين وسبع بنات. وقال مجاهد: آتاه الله أجور أهله في الآخرة، وآتاه مثلهم في الدنيا.

قوله تعالى: ﴿وَحُذِّبِيكَ صِغْتًا﴾ كان قد حلف ليجلدن زوجته مائة جلدة.

وفي سبب هذه اليمين ثلاثة أقوال:

أحدها: حديث السلخة الذي سبق.

والثاني: أن إبليس جلس في طريق زوجته كأنه طبيب، فقالت له: عبد الله ها هنا رجل مبتلى، فهل لك أن تداويه؟ قال: نعم إني شافيه على أن يقول لي إذا برأ أنت شفيتي. فجاءت فأخبرته فقال: ذاك الشيطان، لله عليّ إن شفاني الله أن أجلدك مائة. قاله ابن عباس.

والثالث: أن إبليس لقيها فقال: أنا الذي فعلت بزوجك، وأنا إله الأرض، وما أخذته منه فهو بيدي فانطلقني فأريك. فمشى غير بعيد، ثم سحر بصرها فأراها وادياً عميقاً فيه أهلها، وما لها وولدها، فأنت أيوب عليه السلام فأخبرته فقال: ذاك الشيطان، ويحك كيف وعى سمعك قوله، والله لئن شفاني الله لأجلدنك مائة. قاله وهب.

وأما الضغث فقال ابن قتيبة هو الخزمة من الخلال والعيذان. قال المفسرون: جرى الله زوجته بحسن صبرها أن أفتاه في ضربها، فسهّل الأمر، فجمع لها مائة

عود وقيل مائة سنبله، وقيل كانت أسلا، وقيل: كانت شأريخ، فضر بها ضربة واحدة.

وهل ذلك خاص له أم عام؟ فيه مذهبان: أحدهما أنه عام. قاله ابن عباس وعطاء.

والثاني: خاص له. قاله مجاهد. وقد اختلف الفقهاء فيمن حلف أن يضرب عبده عشرة أسواط فجمعها وضر به بها ضربة واحدة، فقال مالك والليث بن سعد: لا يبرّ. وهو قول أصحابنا. وقال أبو حنيفة والشافعي: إذا أصابه في الضربة الواحدة كل واحد منها فقد برّ، واحتجوا بعموم قصة أيوب.

قوله تعالى: ﴿إنا وجدناه صابراً﴾ قال مجاهد يجاء بالمريض يوم القيامة فيقال: ما منعك أن تعبدني؟ فيقول: يا رب ابتليتني. فيجاء بأيوب في ضربه فيقول: أنت كنت أشدّ ضرّاً أم هذا؟ فيقول: بل هذا. فيقول: هذا لم يمنعك ذلك أن عبدني!

ما ضرّ أيوبَ ما جرى، كأنه سنّة كرى، ثم شاعت مدائحُه بين الورى، وإنما يصبر من فهم العواقب ودرى.

الكلام على البسمة

منافسة الهوى فيما يزول على نقصان همته دليلٌ
ومختارُ القليل أقلّ منه وكلُّ فوائِدِ الدنيا قليلٌ

يا قليل الصبر عن اللهو والعبث، يا من كلما عاهد غدر ونكث، يا مغترّاً بساحر الهوى كلما نفث، تالله لقد بولغ في توبيخه وما اكثرت، وبعث إليه النذير ولا يدري من العبث من بعث، سيندم من اللقيح حرث، سيكي زمان الهوى حين الظمّ عند اللهث، سيعزف خبره العاصي إذا حلّ الحدث، سيرى سيره إذا ناقش المسائل وبحث، سيقرع سنّ الندم إذا نادى ولم يعث، عجباً لجاهل باع تعذيب النفوس براحات الجثث.

كان الشبلي يقول: لا تغترر بدار لا بد من الرحيل عنها، ولا تخرب داراً لا بد من الخلود [فيها].

أخبرنا أحمد بن أحمد الهاشمي، أنبأنا أبو بكر الخطيب، أنبأنا الحسن بن أحمد الدورقي، حدثنا جعفر بن محمد بن أحمد المؤدب، حدثنا محمد بن يونس، حدثنا شداد بن علي الهرايبي، حدثنا عبد الواحد بن زيد، قال: مررت براهب فناديته: يا راهب من تعبد؟ قال: الذي خلقتني وخلقك. قلت: عظيم هو؟ قال: قد جاوزت عظمته كل شيء. قلت: فمتى يذوق العبد حلاوة الأُنس بالله؟ قال: إذا صفا الودَّ وخلصت المعاملة. قلت: فمتى يصفو الود؟ قال: إذا اجتمع المهم في الطاعة. قلت: فمتى تخلص المعاملة؟ قال: إذا كان المهم هماً واحداً. قلت: فكيف تخليت بالوحدة؟ قال: لو ذقت حلاوة الوحدة لاستوحشت إليها من نفسك. قلت: فما أكثر ما يجد العبد من الوحدة. قال: الراحة من مداركة الناس والسلامة من شرهم. قلت: بماذا يستعان على قلة المطعم؟ قال: بالتحري في المكسب. قلت: زدني خلالاً. قال: كل خلالاً، وارقد حيث شئت. قلت: فأين طريق الراحة؟ قال: خلاف الهوى. قلت: لم تعلق في هذه الصومعة؟ قال: من مشى على الأرض عثر، فتحصنت بمن في السماء من فتنة أهل الأرض، لأنهم سرّاق العقول، وذلك أن القلب إذا صفا ضاقت عليه الأرض فأحبّ قرب السماء. قلت: يا راهب من أين تأكل؟ قال: من زرع لم أبدره. قلت: من يأتيك به؟ قال: الذي نصب الرحا يأتيها بالطحين. قلت: كيف ترى حالك؟ قال: كيف يكون حال من أراد سفرًا بلا أهبة، ويسكن قبراً بلا مؤنس، ويقف بين يدي حكم عدل. ثم أرسل عينه وبكى. قلت: ما يبكيك؟ قال: ذكرت أياماً مضت من أجلي لم أحقق فيها عملي، وفكرت في قلة الزاد وفي عقبه هبوط إلى الجنة، أو إلى النار. قلت: يا راهب: بم يستجلب الحزن؟ قال: بطول الغربة، وليس الغريب من مشى من بلد إلى بلد، ولكن الغريب صالح بين فسّاق.

ثم قال: إن سرعة الاستغفار توبة الكذابين، لو علم اللسان مما يستغفر لحنف في الحنك، إن الدنيا منذ ساكنها الموت ما قرّت بها عين، كلما تزوجت الدنيا زوجاً

طلّقه الموت، فمثلها كمثل الحية لتين مسّها والسّم في جوفها .

ثم قال: عند تصحيح الضمائر يغفر الله الكبائر، وإذا عزم العبد على ترك الآثام أتته من السماء الفتوح، والدعاء المستجاب الذي تحرّكه الأحزان .

قلت: فأكون معك يا راهب؟ قال: ما أصنع بك ومعني معطي الأرزاق وقابض الأرواح، يسوق إليّ الرزق في كل وقت، لم يكلفني جمعه ولم يقدر على ذلك أحدٌ غيره .

اسمع يا خائن الذم ما مُضِيع الحُرْم، يا من على التوبة عزم زعم، غير أنه كلباً بنى أن يَلُود بنا هدم، يسعى إلى الهدى فإذا رأى جيفة الهوى جثم، ويحك إطلاق البصر في سُود الخدر ثم، عجباً لامنك وأنت بين فكّي جلم، كأنك بك تتمنى العدم، وتبكي على تفريطك بندم، إلى كم هذا التواني كم كم وم، اياك والدنيا فما تشفى من قرَم، لمن تحدث لقد نفخنا من غير ضرم .

كم أسير لشهوةٍ وقتيلٍ أفّ لشتيرٍ خلافَ الجميلِ
شهواتُ الإنسان تُورثه الذلّ وتلقّيه في البلاء الطويلِ

يا حائرًا لم يؤثر إلا خلافا، يا واعدًا بالتوبة ولم نرَ إلا إخلافا، متى ستعمل عدلاً وتورث إنصافاً، أتصافي الهوى من اليوم إن صافى، أما ترى الناس بهذه الدار أضيافاً، أتوقن بالحساب وترمي الفعل جُرأفاً، أنتسى الموت، وم كم قد أقام سيّافاً، أما بقي القليل ثم تلحق أسلافاً، متى تعاملنا باليسير فنضاعفه أضعافاً .

إذا كُثرت منك الذنوبُ فنداوها برفع يدٍ في الليلِ والليلُ مظلمٌ
ولا تقنطن من رحمة الله إنما قنوطك منها من خطاياك أعظمٌ
فرحمته للمحسنين كرامةٌ ورحمته للمسرفين تكبرمٌ

قال بنان: دخلت على ابن العرجي وهو في بيت مملوء كتباً، فقلت له: اختصر لي من هذه الكتب كلمتين أنتفع بهما . قال: ليكن همك مجموعاً فيما يرضي الله عز وجل، فإن اعترض عليك شيء فتب من وقتك .

الكلام على قوله تعالى ﴿إِنِّي جَزَيْتُهُمُ الْيَوْمَ بِمَا صَبَرُوا﴾^(١)

كان كفار قريش كأبي جهل وعتبة والوليد قد اتخذوا فقراء الصحابة كعمّار وبلال وخبّاب وصُهَيْب سِخْرِيًّا يستهزئون بهم ويضحكون منهم، فإذا كان يوم القيامة قيل لهم: ﴿إِنِّي جَزَيْتُهُمُ الْيَوْمَ بِمَا صَبَرُوا﴾ على أذاكم واستهزائكم.

لَمَّا علم الصالحون أن الدنيا دار رحلة دافعوا زمان البلاء وأدّجوا في ليل الصبر علماً منهم بقربهم فجر الأجر، فما كانت إلا رقدة حتى صَبَّحُوا منزلَ السلامة، نفذت أبصارُ بصائرهم بنور الغيب إلى مشاهدة موصوف الوعد، فتعلقت يد الآمال بما عاينتُ بواطنِ القلوب، وأخَمَصُوا عن الحرام البطون، وغَضُوا عن الآثام الجفون، وسبكوا في ظلام الليل الدموع، وتملّموا تملّمَ الملسوع، استقاد قلوبهم زمانُ التطلّف، ثم جثّها سائقُ التعسف، فكلما ألاح لهم الرجاء نورَ الوصال طَبَّقَ ظلامُ الخوف سماء الأعمال، فهم في بيداء التحير يَسْرَحُونَ، ومن باب التضرع لا يَبْرَحُونَ، وحُزْنُهُمْ أُولَى مما يفرحون، فإذا عمّهم الغمُّ فبالذّكر يتروّحون، رفضوا الدنيا فسلموا وطلبوا الأخرى فما ندموا، يا بشراهم إذا قدّموا وغنموا.

أخبرنا أبو بكر الصوفي، أنبأنا أبو سعد الحيريّ، أنبأنا أبو عبد الله الشّيرازيّ، حدثنا أبو زُرْعَةَ الطبري، حدثني يحيى بن عبد الله بن الحارث، حدثنا محمد بن يزيد بن عبد الصمد، حدثنا سعيد بن نصر، حدثني محمد بن يحيى بن عبد الكريم، عن الوليد بن مسلم، عن الأوزاعي، قال: حدثني حكيم من الحكماء قال: مررت بعريش مصر، وأنا أريد الرّباط، فإذا أنا برجل في مظلة قد ذهب عيناه ويدها ورجلاه، وبه أنواع البلاء وهو يقول: الحمد لله حمداً يوافي

(١) المؤمنون ١١١.

شكرك بما أنعمت عليّ وفضلتني على كثير من خلقك تفضيلاً. فقلت: لأنظرن
أشياء علّمه أو ألّمه إلهاماً.

فقلت: على أي نعمة تحمده، فو الله ما أرى شيئاً من البلاء إلا وهو بك!
فقال: ألا ترى ما قد صنع بي؟ فو الله لو أرسل السماء عليّ ناراً فأحرقنتي، وأمر
الجبال فدكّنتي وأمر البحار فغرقتني ما ازددتُ له إلا حمداً وشكراً، ولكن لي
إليك حاجة، بُنيّة لي كانت تخدمني وتتعاهدني عند إفطاري فانظر هل تحس بها؟
فقلت: والله إني لأرجو أن يكون لي في قضاء حاجة هذا العبد الصالح قربة إلى
الله عز وجل. فخرجت أطلبها بين تلك الرمال، فإذا السبع قد أكلها فقلت: إنا
لله وإنا إليه راجعون! من أين آتيت هذا العبد الصالح فأخبره بموت ابنته، فأتيته
فقلت: أنت أعظم عند الله منزلةً أم أيوب؟ ابتلاه الله تعالى في ماله وأهله
وولده وبدنه حتى صار غرضاً للناس؟ فقال: لا بل أيوب. فقلت: إن ابنتك
التي أمرتني أن أطلبها أصبتها فإذا السبع قد أكلها. فقال: الحمد لله الذي لم
يخرجني من الدنيا وفي قلبي شيء. ثم شهق شهقة فمات. فصليتُ عليه أنا وجماعة
معي ثم دفنته. ثم بت ليلتي حتى إذا مضى من الليل قدر ثلثه، وإذا به في روضة
خضراء، وإذا عليه حلّتان خضراوان وهو قائم يتلو القرآن، فقلت: ألسنتُ
صاحبي بالأمس؟ فقال: بلى. فقلت: ما صيرك إلى ما أرى؟ فلقد زدت على
العابدين درجة لم ينالوها. قال: بالصبر عند البلاء، والشكر عند الرخاء.

أخبرنا محمد بن أبي منصور، أنبأنا أبو طالب اليوسفي، أنبأنا يوسف بن محمد
المهراني، أنبأنا أحمد بن محمد بن حسنون، حدثنا جعفر الخوّاص، حدثنا ابن
مسروق، حدثنا محمد بن الحسين، حدثني يحيى بن بسطام الأصغر، حدثني
حريث بن طرفة قال: كان حسان بن أبي سنان يصوم الدهر، ويفطر على قرص
ويتسحر بآخر، فنحل وسقم جسمه حتى صار كهيئة الخيال، فلما مات وأدخل
مغتسله ليغسل كشف الثوب عنه، فإذا هو كالخيط الأسود، قال: وأصحابه
يكون حوله. قال حريث: فحدثني يحيى البكاء وإبراهيم بن محمد العُرنيّ قال: لما
نظرنا إلى حسان على مغتسله، وما قد أبلاه الدؤوب استدمع أهل البيت وعلت

أصواتهم، فسمعنا قائلاً يقول من ناحية البيت:
تَجْوَعُ لِلإِلهِ لَكِي يَراه نَحِيلُ الجِسمِ من طول الصيامِ
فو الله ما رأينا في البيت إلا باكياً ونظرنا فلم نر أحداً. قال حُرَيْثُ: فكانوا
يرون أن بعض الجن قد بكاه.

قال بعض أصحاب بشر بن الحارث: جئت إلى بابه فإذا هو في الدهليز وبين
يديه بطيخة وهو يقول لنفسه: أكلتها، فكان ماذا؟ فطرقت عليه الباب
ودخلت، وقلت: أي شيء هذه تعاتب نفسك فيها. فقال:

صبرتُ على الأيامِ حتى تَوَلَّيتُ وألزمتُ نفسي صبرها فاستمرتِ
وما النفسُ إلا حيث يَجْعَلُها الفتى فإن أطمعتُ تَاقَتُ وإلا تَسَلَّتِ
ثم رمي بالبطيخة إليّ وأنشأ يقول:

وإن كَدِّي لَشَبَعُ بطني يبيع ديني بلا محال
من نال دُنْيَا بغير دينٍ نالَ وبالأعلى وبال

أخبرنا يحيى بن علي، أنبأنا أبو بكر الخياط، أنبأنا الحسن بن الحسين بن
حكان، حدثنا أبو بكر النقاش، عن محمد بن إسحاق السراج، قال سمعت أحمد
ابن الفتح يقول: رأيت بشر بن الحارث في منامي، وهو قاعد في بستان، وبين
يديه مائدة، وهو يأكل منها فقلت له، يا أبا نصر ما فعل الله بك؟ قال: رحمني
وغفر لي وأباحني الجنة بأسرها وقال لي: كل من جميع ثمارها واشرب من
أنهارها وتمتع بجميع ما فيها، كما كنت تحرم على نفسك الشهوات في دار الدنيا.

أخبرنا عبد الوهاب الحافظ، أنبأنا أبو الحسين بن عبد الجبار، أنبأنا الحسين
ابن علي الطنَّاجيري أنبأنا عبيد الله بن عثمان، أخبرنا علي بن محمد العنبري،
أخبرنا عبد الرحمن ابن معاوية القُرشي، حدثنا محمد بن الفرج الصدفي، حدثنا
جعفر بن هارون، عن مسلمة بن جعفر، عن الحسن قال: إن الله تعالى عبداً
كمن رأى أهل الجنة في الجنة مخلدين وكمن رأى أهل النار في النار معذبين،

قلوبهم محزونة، وشرورهم مأمونة وأنفسهم عفيفة، وحوادثهم خفيفة، صبروا أياماً قصاراً تُعقب راحة طويلة، أما الليل فصافّة أقدامهم تسيل دموعهم على خدودهم، يجأرون إلى ربهم عز وجل ربّنا ربنا. وأما النهار فعلماء حُلَمَاء بَرَّة أتقياء ينظر إليهم الناظر فيحسبهم مرضى، أو قد خُولطوا، وما بهم مرض، ولكن خالط القومَ أمرٌ عظيم.

أخبرنا أبو بكر الصوفي، أنبأنا أبو سعد الحيريّ، حدثنا أبو عبد الله الشيرازي، حدثنا محمد بن الحسين الزنجاني، حدثنا عيسى بن هارون، حدثنا إبراهيم بن الجنيد، حدثني محمد بن صالح بن يحيى، عن شعيب بن حرب، قال: كان قوم من الخواريين على شاطئ البحر يتحدثون في ملكوت السماء، وفي خدعة الدنيا لمن فيها، فسمعوا هاتفاً من البحر يقول: إن لله عبادة أخلصتكم الخشية وأذاهم الحزن، فلم تجفّ دَمْعَتُهُمْ ولم يشغلهم عن ربهم شاغل، تفرّغوا له ونصّبوه بين أعينهم، أولئك على كراسي من نور عند قائمة العرش يضحك الله إليهم، ويضحكون إليه فصُعِقُوا وسقط بعضهم في البحر ومات باقيهم.

أخبرنا ابن ناصر، أنبأنا محمد بن علي القرشي، حدثنا أبو عبد الله محمد بن علي الحسيني، حدثنا أبو حازم محمد بن علي الوشاء، حدثنا زيد بن محمد بن جعفر، حدثنا داود بن يحيى الدهقان، حدثنا محمد بن حماد بن عمرو، حدثنا حسين بن حسين بن محمد بن بكر، عن أبي الجارود، عن عطية، عن أبي سعيد قال: قال رسول الله ﷺ: «إنه ليبلغ من كرامة العبد على الله عز وجل يوم القيامة أنه ليكون له في الجنة ألف باب، ما منها باب إلا عليه خدَم من خدمه، فتقبل الملائكة حتى ينتهوا الى تلك الأبواب فيقولون: هل على سيدكم من إذن؟ فيقولون: ما ندري. فيأتونه فيقولون إن ملائكة من ملائكة الله على الأبواب يقولون: هل على سيدكم من إذن؟ فيقولون: نعم. فيدخلون عليه بالتحية».

يا قليل الصبر إنما هي مراحل، فصابر لُجَّة البلاء، فالموت ساحل، تأمل تحت سُجف ليل الصبر صُبْح الأجر، واحبس لسانك عن الشكوى في سجن

الصبر، واقطع نهار اللأواء بحديث الفكر، وأوقد في دياجى الآلام مصباح
 الشكر، وقلّب قلبك بين ذكر الثواب وتمحيص الوزر، وتعلّم أن البلاء يمزّق
 رُكّام الذنوب تمزيق الشّبّك، ويرفع درجات الفضائل إلى كاهل السّكّ، ومن
 تفكر في سر: ﴿إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ أنيس بجليسه، ومن تذكّر ﴿إِنَّمَا يُوفَى
 الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾^(١) فرح بامتلاء كيسه.
 إذا أنت لم ترّحل بزادٍ من التّقَى ولا قيتَ بعدَ الموتِ من قد تزوّدَا
 ندمتَ على أن لا تكون كميّله وأنك لم تُرصد كما كان أرصداً.

سجع على قوله تعالى ﴿إِنِّي جَزَيْتُهُمُ الْيَوْمَ بِمَا صَبَرُوا﴾

لله أقوام امتثلوا ما أمروا، وزُجروا عن الزلل فانزجروا، فإذا لاحت الدنيا
 غابوا، وإذا بانّت الأخرى حَضروا، فلو رأيتهم في القيامة إذا حشروا ﴿إِنِّي
 جَزَيْتُهُمُ الْيَوْمَ بِمَا صَبَرُوا﴾.

جنّ عليهم الليل فسهروا، وطالعوا صحفَ الذنوب فانكسروا، وطرقوا باب
 المحبوب واعتذروا، وبالغوا في المطلوب ثم حذروا، فانظر بماذا وعدوا في الذكر
 وذُكروا ﴿إِنِّي جَزَيْتُهُمُ الْيَوْمَ بِمَا صَبَرُوا﴾.

ربحوا والله ما خسروا، وعاهدوا على الزهد فما غَدِروا، واحتالوا على
 نفوسهم فملكوا وأسروا، وتفقدوا أنعمَ المولى فاعترفوا وشكروا ﴿إِنِّي جَزَيْتُهُمُ
 الْيَوْمَ بِمَا صَبَرُوا﴾.

بيوتهم في خلّوها كالصوامع، وعيونهم تنظر التّقَى من طرف [خاشع]
 والأجفان قد سحّت سحب المدامع تسقي بذرَ الفكر الذي بذروا ﴿إِنِّي جَزَيْتُهُمُ
 الْيَوْمَ بِمَا صَبَرُوا﴾.

(١) الزمر ١٠.

استوحشوا من كل جليس، شُغلاً بالمعنى النفيس، وزمّوا مطايا الجِدِّ فسارت العيس، وبادروا الفرصة ففاتوا إبليس، لا وقفوا ولا فتروا ﴿إني جزيتهم اليوم بما صبروا﴾ .

قلوبٌ في الخدمة حضرت، أسرارٌ بالصدق عمّرت، كم شهوة في صدورهم انكسرت، أخبارهم تحيي القلوب إذا نُشرت، ويقال عن القوم إذا نُشروا ﴿إني جزيتهم اليوم بما صبروا﴾ .

جدّوا فليس فيهم من يلعب، ورفضوا الدنيا فتركوها تخرب، وأذابوا قلوبهم بقلّة المطعم والمشرب، فغداً يقال: كُلُّ يا من لم يأكل واشرب يا من لم يشرب، أذكّارهم في الحياة وإن كانوا قُبروا ﴿إني جزيتهم اليوم بما صبروا﴾ .

علموا أن الدنيا لعب ولهو وزينة، وأن من وافق مرادها فارق دينه، فحذروا من غرور يُجدي غيبنة، فركبوا من التقى في سفينة أشحنوها بالزاد وعبروا ﴿إني جزيتهم اليوم بما صبروا﴾ .

طوبى لهم والأملak تتلقّاهم، كشف الحجاب عن عيونهم فأراهم، هذا اقصى آمالهم وقد ظفروا ﴿إني جزيتهم اليوم بما صبروا﴾ .

بلّغنا الله ذلك المبلّغ، وأسمعنا زجر الناصح فقد أبلّغ، وسرنا من العقاب، فإنه إن عفا أسبغ، ولولا عونه ما قدرنا ﴿إني جزيتهم اليوم بما صبروا﴾ .

المجلس الرابع عشر في ذكر قصة شعيب عليه السلام

الحمد لله القديم فلا يقال متى كان، العظيم فلا يحويه مكان، أنشأ آدم وأخرج ذريته بنعمان، ورفع إدريس إلى أعالي الجنان، ونجى نوحاً وأهلك كنعان، وسلم الخليل بلطفه يوم النيران، ويوسف من الفاحشة حين البرهان، وبعث شعيباً إلى مدين ينهى عن البخس والعدوان، ويناديهم في ناديتهم ولكن صمّت الأذان ﴿قد جاءكم بيّنة من ربكم فأوفوا الكيل والميزان﴾ (١).

أحده حمداً يملأ الميزان، وأصلي على رسوله محمد الذي فاق دينه الأديان، وعلى صاحبه أبي بكر أول من جمع القرآن، وعلى عمر الفاروق الذي كان يفرق منه الشيطان، وعلى زوج الابنتين عثمان بن عفان، وعلى علي بجر العلوم، وسيد الشجعان، وعلى عمه المستسقى بشيئته فأقبل السحّ الهتان.

قال الله عز وجل: ﴿وإلى مدين أخاهم شعيباً﴾ (٢).

قال قتادة: مدين ماء كان عليه قوم شعيب، وقال مقاتل: مدين هذا هو ابن إبراهيم الخليل لصنّبه. وقال أبو سليمان الدمشقي: هو مدين بن مديان بن إبراهيم.

والمعنى: أرسلنا إلى ولد مدين. فعلى هذا هو اسم قبيلة.

وشعيب هو ابن عيفا بن نويب بن مدين بن إبراهيم، أرسل إلى مدين وهو ابن عشرين سنة، وكانوا مع كفرهم يبخسون المكاييل والموازين، فدعاهم إلى

(٢) هود ٨٤.

(١) الاعراف ٨٥.

التوحيد ونهاهم عن التطفيف، وكان يقال له خطيب الأنبياء لحسن مراجعته قومه.

قوله تعالى: ﴿وَقَدْ جَاءَتْكُمْ بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ﴾ ولم يذكر معجزته. ﴿وَلَا تَبْخَسُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ﴾ أي لا تنقصوا ﴿وَلَا تَفْسُدُوا فِي الْأَرْضِ﴾ أي لا تعلموا فيها المعاصي بعد أن أصلحها بالأمر بالعدل ﴿وَلَا تَقْعُدُوا بِكُلِّ صِرَاطٍ﴾ أي بكل طريق ﴿تُوْعِدُونَ﴾ وإنما لم يقل بكذا لأن العرب إذا أخلت الفعل من المفعول لا يدل إلا على شرّ، يقولون: أوعدت فلاناً، وكذلك إذا أفردوا ﴿وعدت﴾ من مفعول فإنه لا يدل إلا على خير. قال القراء: يقولون: وعدته خيراً ووعدته شرّاً، فإذا أسقطوا الخير والشر قالوا: وعدته في الخير، وأوعدته في الشر.

وللمفسرين في المراد بهذا الإيعاد ثلاثة أقوال: أحدها: أنهم كانوا يوعدون من آمن بشعيب. قاله ابن عباس: والثاني: أنهم كانوا عشارين قاله السدي. والثالث: أنهم كانوا يقطعون الطريق. قاله ابن زيد.

قوله تعالى: ﴿وَتَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ﴾ أي تصرفون عن دينه، ﴿مَنْ آمَنَ بِهِ وَتَبِعُونَهَا عِوَجًا﴾ أي تطلبون للسبيل عوجاً أي زيفاً ﴿وَاذْكُرُوا إِذْ كُنْتُمْ قَلِيلًا فَكَثَرْتُمْ﴾^(١) يحتمل ثلاثة أشياء: أحدها: كنتم فقراء فأغناكم، وقليلاً عددكم فكثركم، وغير ذي مقدرة فأقدركم. وكانوا مع كثرة أموالهم قد أغروا بالتطفيف.

وكان من جملة ما ردّوا عليه: ﴿أَصْلَاتُكَ تَأْمُرُكَ﴾ أي دينك وقراءتك. ﴿أَنْ تَتْرَكَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا أَوْ أَنْ نَفْعَلَ فِي أَمْوَالِنَا﴾ المعنى: [أو] أن نترك أن نفعل. وقرأ الضحّاك بن قيس الفهري: (ما تشاء) فاستغنى عن الإضمار. وقال سفيان الثوري: أمرهم بالزكاة فامتنعوا. وقالوا: ﴿إِنَّكَ لَأَنْتَ الْحَلِيمُ الرَّشِيدُ﴾ استهزاء به.

(١) الاعراف ٨٦.

فخَوَّفَهُمْ أَخَذَاتِ الْأُمَمِ وَقَالَ: ﴿لَا يَجْرِمَنَّكُمْ شِقَاقِي﴾ (١) أَي لَا تَحْمِلَنَّكُمْ عِدَاوَتَكُمْ إِيَّاي أَنْ تَعَذَّبُوا. وَكَانَ أَقْرَبَ إِلَهْلَاكَاتِ إِلَيْهِمْ قَوْمَ لُوطٍ فَقَالَ: ﴿وَمَا قَوْمٌ لُوطٍ مِنْكُمْ بِبَعِيدٍ﴾.

فَقَالُوا: ﴿مَا نَفَقَهُ كَثِيرًا مِمَّا تَقُولُ﴾ أَي مَا نَعْرِفُ صِحَّةَ ذَلِكَ ﴿وَإِنَّا لَنَرَاكَ فِينَا ضَعِيفًا﴾ وَكَانَ قَدْ ذَهَبَ بَصْرَهُ. كَذَا يَقُولُ سَعِيدُ بْنُ جُبَيْرٍ. وَقَالَ ابْنُ الْمُنَادِيِّ: وَهَذَا إِنْ ثَبَتَ كَانَ فِي آخِرِ عَمْرِهِ، لِأَنَّهُ لَا يَبْعَثُ نَبِيًّا أَعْمَى؛ قَالَ أَبُو رَوْقٍ: لَمْ يَبْعَثِ اللَّهُ نَبِيًّا أَعْمَى وَلَا مِنْ بَهْ زَمَانَةٍ. قَالَ ابْنُ الْمُنَادِيِّ: وَهَذَا الْقَوْلُ أَلْيَطُ بِالْقُلُوبِ مِنْ قَوْلِ سَعِيدِ بْنِ جُبَيْرٍ.

﴿وَلَوْلَا رَهْطُكَ﴾ يَعْنِي عَشِيرَتَكَ ﴿لَرَجَمْنَاكَ﴾ (٢) أَي لَقَتَلْنَاكَ بِالرَّجْمِ، فَقَالَ لَهُمْ: ﴿أُرَهْطِي أَعَزَّ عَلَيْكُمْ مِنَ اللَّهِ﴾ أَي تَرَاعُونَ رَهْطِي فِي وَلَا تَرَاعُونَ اللَّهَ فِي ﴿وَاتَّخَذْتُمُوهُ وَرَاءَكُمْ ظَهْرِيًّا﴾ أَي رَمَيْتُمْ أَمْرَ اللَّهِ وَرَاءَ ظُهُورِكُمْ.

ثُمَّ كَانَ آخِرُ أَمْرِهِ أَنْ قَالَ: ﴿وَارْتَقِبُوا إِنِّي مَعَكُمْ رَقِيبٌ﴾ (٣) قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: ارْتَقِبُوا الْعَذَابَ فَإِنِّي ارْتَقِبُ الثَّوَابَ. قَالَ مُحَمَّدُ بْنُ كَعْبٍ عَذَّبَ أَهْلَ مَدِينِ بَنِي لَئِيْلَةَ أَصْنَافًا: أَخَذْتُهُمْ رَجْفَةً فِي دِيَارِهِمْ حَتَّى خَافُوا أَنْ تَسْقُطَ عَلَيْهِمْ، فَخَرَجُوا مِنْهَا فَأَصَابَهُمْ حَرٌّ شَدِيدٌ، فَبَعَثَ اللَّهُ تَعَالَى الظَّلَّةَ فَنَادُوا: هَلُمُوا إِلَى الظِّلِّ. فَدَخَلُوا فِيهِ فَصَبَّحَ بِهِمْ صَبْحَةً وَاحِدَةً فَهَاتُوا كَلِمَهُمْ.

وَهَذَا الْقَوْلُ عَلَى أَنَّ أَهْلَ مَدِينِ أَصْحَابَ الظَّلَّةِ، وَإِلَيْهِ ذَهَبَ جَمَاعَةٌ مِنَ الْعُلَمَاءِ، فَعَلِيَ هَذَا إِنَّمَا حَذَفَ ذِكْرَ الْأَخِ مِنْ سُورَةِ الشُّعَرَاءِ تَخْفِيفًا.

وَذَهَبَ مَقَاتِلٌ إِلَى أَنَّ أَهْلَ مَدِينٍ لَمَّا هَلَكُوا بَعِثَ شُعَيْبٌ إِلَى أَصْحَابِ الْأَيْكَةِ فَأَهْلَكُوا بِالظَّلَّةِ.

قَالَ أَبُو الْحُسَيْنِ بْنُ الْمُنَادِيِّ: وَكَانَ أَبُو جَادٍ وَهُوَ وَحْطِي وَكَلْمُونٌ وَسَعْفَصٌ وَقَرِيشَاتُ بْنُ الْأَحْمَضِ بْنُ جَنْدَلِ بْنِ يَعِصِبِ بْنِ مَدِينِ بْنِ إِبْرَاهِيمَ مَلُوكًا، وَكَانَ

(٣) هود ٩٣.

(٢) هود ٩١.

(١) هود ٨٩.

أبو جاد ملك مكة وما والاها من تهامة، وكان هواز وحطي ملكي وَجَّ وهو الطائف، وكان سعفص وقريشات ملكي مدين، ثم خلفهم كلمون فكان عذاب يوم الظلة في مُلكه. فقالت حالفه بنت كلمون ترثيه:

كلمون هـدّ ركني هُلكه وَسَطَ المحلّه
سيد القوم أتاه الـ حَتَفَ نار وَسَطَ ظلّه
كونت ناراً فأضحت دارهم كالمضمحلة

قال ابن المنادي: ثم إن شعيباً مكث في أصحاب الأيكة باقي عمره يدعوهم إلى الله تعالى فما ازدادوا إلا عتواً فسلط عليهم الحر، فجائز أن تكون الأمتان اتفقتا في التعذيب.

وقد قال قتادة: أما أهل مدين فأخذتهم الصيحة والرجفة، وأما أصحاب الأيكة فسلط عليهم الحر سبعة أيام، ثم إن الله تعالى أرسل عليهم ناراً فأكلتهم، فذلك عذاب يوم الظلة.

ثم إن شعيباً زوج موسى ابنته، ثم خرج إلى مكة فمات بها، وكان عمره مائة وأربعين سنة، ودفن في المسجد الحرام حيال الحجر الأسود.

وأعلم أن الله تعالى عظم ذكر البخس في قصتهم وشدّد فيه وأطنب في ذكره، وأشار إلى التوحيد، لينبهنها على ما نرتكبه، فإذا قد عرفنا قُبْحَ الشرك لم نحتاج إلى الإطناب في ذكره، وكذلك عاب قوم لوط بالفاحشة وبالغ في ذكرها، وكل ذلك لتخويفنا.

قال ابن عباس: لما قدم النبي ﷺ المدينة كانوا من أخبث الناس كيلاً فأنزل الله تعالى: ﴿وَيْلٌ لِلْمُطَفِّفِينَ﴾ (١).

واعلم أنه خوَّفَ المطففين بذكر الويل لهم، ثم قال: ﴿أَلَا يَظُنُّ أُولَئِكَ أَنَّهُمْ مَبْعُوثُونَ﴾ (٢) والمعنى: لو ظنوا البعث ما بَخَسُوا ﴿يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ (٣) أي لأمر الجزاء.

(٣) المطففين: ٦.

(٢) المطففين: ٤.

(١) المطففين: ١.

وفي الصحيحين من حديث ابن عمر رضي الله عنهما عن النبي ﷺ أنه قال: «يقوم أحدهم في رَشْحِه إلى أنصاف أذنيه» وقال كعب: يقفون ثلاثمائة عام.

أخبرنا ابن الحصين، أنبأنا ابن المذْهَب، أنبأنا أحمد بن جعفر، حدثنا عبد الله بن أحمد، حدثني أبي، حدثنا سفيان، عن العلاء، عن أبيه عن أبي هريرة، رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ مرَّ برجل يبيع طعاماً فسأله: كيف تبيع؟ فأخبره، فأوحى الله تعالى إليه: أدخل يدك فيه. فأدخلَ يده فإذا هو مبلول، فقال رسول الله ﷺ: «ليس منا من غَشَّ».

وقد روينا عن محمد بن واسع أنه رئي يعرض حماراً له على البيع فقال له رجل: أترضاه لي؟ فقال: لو رضيتُه لم أبعه.

وفي أفراد البخاري من حديث أبي هريرة عن النبي ﷺ أنه قال: «ليأتين على الناس زمانٌ لا يبالي المرء بما أخذ المال من حلال أم حرام».

وفي الصحيحين من حديث حذيفة رضي الله عنه قال: حدثنا رسول الله ﷺ عن رفع الأمانة فقال: «ينام الرجلُ النومةَ فتقبَّض الأمانة من قلبه».

الكلام على البسمة

يا أخسي كُنْ على حذر	قبل أن تحدث الغيْر
لا تكن جاهلاً كأن	ك لا تعرف الخبر
نشَر العيشُ صَفْوَه	فطأوى الموتُ ما نَشَر
فإذا ما صفالك الـ	دهرُ فاعمل على الحذر
أين من طال عُمُرُه	أين من كان ذا قِصر
لا الرُقْمي أخرتهم	من طيب ولا البُشر
رحم الله من تفكّر	ر في الموت واعتبر
قبل أن تخرج النفوس	س ولا تمكّن الفِكَر
فكأننا بيومنا	قد أتانا به القدر

واستوى عنده الموا
وعَدِمْنَا النهار والليل
وانقضى العَدُّ بالنجو
ما انتظاري وكل حَيِّ
رَقَّ جُلُودي ودَقَّ عَظْ
كلما تُبِتت من دُنُو
صِل فيه ومن هَجَرَ
لَ والحِر والمَطَرُ
م وبِالشمس والقَمَرُ
لله الموتُ يَنْتَظَرُ
مِي وقلبي فمن حَجَرَ
بِ تَفَحَّمْتُ في أَخَرُ

يا غريقاً في لَجَج لجأه، يا راحلاً عن قليل عن أهله وماله وأزواجه، يا
مسئولاً ماله جواباً في احتجائه، متى يأتي الهدى من طُرُقهِ وفِجَاجِهِ، متى تنير
القلوبُ بإيقادِ سراجِهِ، متى يُكْتَم هذا الجرحُ بانتساجِهِ، متى يفتح بابٌ يا طُول
ارتياجِهِ، متى يُستدرك عمرٌ قد مرَّ باندماجِهِ، متى يرجع سَفَر الندم بقضاء
حاجِهِ، إلى متى يقال فلا تقبل، أمَّا الموتُ نحوكَ قد أقبل، أما العمرُ أيام تُنهب،
أما الساعاتُ أحلامٌ تذهب، أما المعاصي تضر الكاسب، أما الخطايا شَرُّ
المكاسب، أبعَد احتجاجِ الشيب ما ترعوي، أبعَد اعوجاجِ الصُّلب ما تستوي.

إلى كم يكون العَتَبُ في كلِّ لحظةٍ ولم لا تَمَلُّون القَطِيعَةَ والهَجْرَ
رُوَيْدِكَ إنَّ الدهرَ فيه كفايَةٌ لتفريقِ ذاتِ البينِ فانْتَظِرِ الدهرَ

لله در أقوام نظروا إلى الأشياءِ بعيبها، فكشفت لهم العواقبُ عن غيبها،
وأخبرتهم الدنيا بكل عيبها، فشمروا للجدِّ عن سوقِ العزائمِ وأنت في الغفلة
نائم.

أخبرنا يحيى بن علي، أنبأنا أبو الحسين بن المهدي، حدثنا محمد بن يوسف
العلاف، حدثنا عبد الله بن محمد البغوي، حدثنا عبد الله بن عون، حدثنا
يوسف بن عطية، عن ثابت البناني، عن أنس بن مالك رضي الله عنه، قال بينما
رسول الله ﷺ يمشي استقبله رجل من الأنصار فقال له رسول الله ﷺ : كيف
أصبحت يا حارثة؟ قال: أصبحت مؤمناً بالله حقاً، قال: انظر ما تقول، فإن
لكل قول حقيقة، فما حقيقة إيمانك؟ قال: يا رسول الله عرفت نفسي الدنيا

فأسهرت ليلي وأظلماتُ نهاري، وكأني بعرش ربي بارزاً، وكأني أنظر إلى أهل الجنة يتزاورون فيها، وكأني أنظر إلى أهل النار يتعاوون فيها. قال: أبصرت فالزم.

عبدُ نور الله الإيمان في قلبه فقال: يا رسول الله ﷺ، ادعُ الله لي بالشهادة، فدعا له رسول الله ﷺ، فنودي يوماً في الخيل، فكان أول فارس ركب، واول فارس استشهد قال: فبلغ ذلك أمه فجاءت إلى رسول الله ﷺ فقالت: إن يكن في الجنة لم أبك عليه، ولكن أحزن، وإن يكن في النار بكيت عليه ما عشت في دار الدنيا. فقال: «يا أم حارثة إنها ليست بجنة ولكن جنات، والحارث في الفردوس الأعلى». فرجعت وهي تضحك وتقول: بخ بخ لك يا حارثة!

يا هذا سبقك أهل العزائم وأنت في الغفلة نائم، لقد بعث للعالي بالكسل، وآثرت البطالة على العمل، أزعج ذكر القيامة قلوب الخائفين، وقَلَّ خَوْفُ العتاب أفئدة العارفين فاشتغلوا عن طعام الطَّعام، ومال بهم حذر الباس عن تنوُّق اللباس.

كان أويس القرني يلتقط الرِّقاع من المزابل ويغسلها في الفرات ويضع بعضها على بعض:

أظماره رتةٌ فقد ضاعَ لا ضاعَ، وضاع الثمين في بَلَدِهِ ليس له ناقد فيعرفه وآفة التبر ضعفٌ مُنتقده

يا مفرطاً في ساعاته بالليل والنهار، لو علمت ما فات شابهت دموعك الأنهار، يا طول النوم عَدِمْتَ خيراتِ الأسحار، لو رأى طرفك ما نال الأبرارُ حار، يا مخدوعاً بالهوى ساكناً في دار، قد حام حول ساكنها طارقُ الفناء ودار، سار الصالحون فاجتهد في اتباع الآثار، واذكر بظلام الليل ظلام القبر وخلو الديار، وحارب عدواً قد قتلك بالهوى واطلب الثار، فقد اريتك طريقاً إن سلكتها أمِنت العثار، فإن فزت بالمراد فالصيد لمن أثار.

من لنفسٍ أبتِ * ناصحاً إذا صبَّتِ
وأطاعت من هوى * فهوت إذ هفتِ
ويك يا نفس ألا * حذرَّ من غفلةِ
إن بنت ما شيدت * هدمت ما بنتِ
أو صفت عند فتى * كدرت ما أصفتِ
كم غبي غافل * أسمعت إذ نعتِ
لم يكن ينفعه * كل عين بكتِ

كم جديدٍ من صيأ * في جديد أبلتِ
عدمت يفتتها * فيه حتى قضتِ
إنما الدنيا أسي * كم دموع أذرتِ
أوحبت سائلها * رجعت في الهبةِ
كم صريع نقلت * إذا قلت في قلّةِ
غادرته جثة * لرفات علةِ
آه يوماً حسرة * لأموّرٍ جرتِ

الكلام على قوله تعالى

﴿ كَلَّا إِذَا بَلَغَتِ التَّرَاقِيَ ﴾ (١)

كَلَّا رَدْعٌ وَرَجْرٌ. والمعنى: ارتدعوا عن ما يؤدي إلى العذاب ﴿ إذا بلغت ﴾ يعني النفس. وهذه كناية عن غير مذكور. والتراقي: العظام المكتنفة لثغرة النحر عن يمين وشمال، وواحد التراقي ترْقُوة. ويكنى ببلوغ النفس إلى التراقي عن الإشفاء على الموت. ﴿ وقيل مَنْ راق ﴾ فيه قولان: أحدهما أنه قول الملائكة بعضهم لبعض: من يرقى روحه؟ ملائكة الرحمة، أو ملائكة العذاب. والثاني: أنه من قول أهله: من يرقيه بالرقى. والقولان عن ابن عباس.

قوله تعالى: ﴿ وَظَنَّ ﴾ أي أيقن الذي بلغت روحه إلى التراقي ﴿ أنه الفراق ﴾ للدنيا ﴿ والتفت الساق بالساق ﴾ فيه خمسة أقوال:

أحدها: أمر الدنيا بأمر الآخرة. قاله ابن عباس.

والثاني: اجتمع فيه الحياة والموت. قاله الحسن.

والثالث: التفت ساقاه عند الموت. قاله الشعبي.

والرابع: التفت ساقاه في الكفن. قاله سعيد بن المسيّب.

(١) القيامة ٢٦.

والخامس: التفت الشدة بالشدة. قاله قتادة. قال الزجاج: آخرُ شدة الدنيا بأول شدة الآخرة.

يالها من ساعة لا تشبهها ساعة، يندم فيها أهل التقي، فكيف أهل الإضاعة، يجتمع فيها شدة الموت إلى حسرة الفوت.

لما احتضر أبو بكر الصديق رضي الله عنه قالت عائشة:
لعمرك ما يُغني الثراء عن الفتي إذا حشرجت يوماً وضاق بها الصدرُ
فقال: ليس كذلك ولكن قولي: ﴿وجاءت سكرة الموت بالحق ذلك ما كنت منه تحيد﴾^(١) ولذلك كان يقولها أبو بكر.

وقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه عند الموت: ويئي وويل أُمي إن لم يرحمني ربي!

ولما دخلوا على عثمان رضي الله عنه جعل يتمثل:

أرى الموت لا يُبقي حزيناً ولا يدعُ لعادٍ ملاًكا في البلادِ ومُرتقى
بيت أهل الحصن والحصن مُعلق ويأتي الجبال من شأريخها العلى

ولما جرح علي بن أبي طالب رضي الله عنه جعل يقول:

شُدَّ حيازيمك للموت فإن الموت لا يقبلك
ولا تجزع من الموت إذا حلَّ بواديك

ولما احتضر معاوية جعل يقول:

إن تناقش يكن نقاشك يا رب ب عذابا لا طوق لي بالعذاب
أو تجاوزت فأنت رب عفو عن مسيء ذنوبه كالتراب

ولما احتضر معاذ جعل يقول: أعوذ بالله من ليلة صباحها النار، مرحباً بالموت مرحباً زائر مُغيب حبيب جاء على فاقه، اللهم إني قد كنت أخافك، وأنا اليوم أرجوك، اللهم إنك تعلم أني لم أكن أحب الدنيا وطول البقاء فيها لكربي

(١) ق ١٩.

الأمهار، ولا لغرس الأشجار، ولكن لظم الهواجر ومكابدة الساعات ومزاحمة العلماء بالركب عند حلق الذكر.

ولما احتضر أبو الدرداء جعل يقول: ألا رجل يعمل مثل مَصْرَعِي هذا؟ ألا رجل يعمل مثل ساعتِي هذه، ألا رجل يعمل مثل يومي هذا! وبكى. فقالت له امرأته: تبكي وقد صاحبت رسول الله ﷺ؟ فقال: وما لي لا أبكي ولا أدري علام أهجم من ذنوبي.

ولما احتضر أبو هريرة بكى، فقيل له: وما يبكيك؟ فقال: بعد المفازة وقلة الزاد وعقبة كثود، المهبط منها إلى الجنة، أو إلى النار.

وقيل لحذيفة في مرضه: ما تشتهي؟ قال الجنة. قيل: فما تشتهي؟ قال: الذنوب.

ولما احتضر عمرو بن العاص قيل له: كيف تجددك؟ فقال: والله لكأن جني في تحت، وكأني أتفس من سم الخياط، وكأن غصن شوك يجربه من قدمي إلى هامتي. ثم قال:

ليتني كنت قبل ما قد بدا لي في قلال الجبال أرعى الوعولا
ليتني كنت حمضا عركتني الإماء بذرير الإذخر. ونظر إلى صناديق فيها مال فقال لبنيه: من يأخذها بما فيها؟ يا ليته كان بعراً!

وكان عبد الملك بن مروان يقول في مرضه: وددت أني عبد لرجل من تهامة أرعى غنيمات في جبالها، وأني لم أل من هذا الأمر شيئاً.

ولما احتضر عمر بن عبد العزيز قال: إلهي أمرتني فلم أثمر، وزجرتني فلم أنزجر، غير أني أقول: لا إله إلا الله.

ولما احتضر الرشيد أمر بحفر قبره، ثم حمل إليه فاطلع فيه فبكى حتى رجم ثم قال: يا من لا يزول ملكه ارحم من قد زال ملكه.

وكان المعتصم يقول عند موته: ذهب الحيل فلا حيلة.

وبكى عامر بن عبد قيس لما احتضر وقال: إنما أبكي على ظمأ الهواجر،
وقيام ليل الشتاء.

وبكى أبو الشعثاء عند موته فقيل له: ما يبكيك؟ فقال: لم أشتف من قيام
الليل.

وبكى يزيد الرقاشي عند موته فقيل: ما يبكيك؟ فقال: أبكي على ما يفوتني
من قيام الليل وصيام النهار. ثم جعل يقول: يا يزيد من يصلي لك، ومن يصوم
عنك، ومن يتقرب إلى الله عز وجل بالأعمال بعدك، ويحکم: يا إخواني، لا
تغترّوا بشبابكم، فكأن قد حلّ بكم مثل ما قد حل لي.

وقال المزني: دخلت على الشافعي في علته التي مات فيها فقلت له: أبا عبد
الله كيف أصبحت؟ قال: أصبحت من الدنيا راحلاً وإخواني مفارقاً، وبكأس
المنية شارباً، وعلى الله تعالى وارداً، ولا أدري نفسي تصير إلى الجنة فأهنئها، أم
إلى النار فأعزيبها. ثم بكى وقال:

ولمّا قسا قلبي وضاقّت مذاهبي جعلت رجائي نحو عفوك سلّماً
تعاظمني ذنبي فلما قرنته بعفوك ري كان عفوك أعظماً
وما زلت ذا عفو عن الذنب سيدي تجود وتغفو منّة وتكرماً
ولولاك لم يغوى بإبليس عابداً فكيف وقد أغوى صفيك آدمًا

وقال إبراهيم بن أدهم: مرض بعض العباد فدخلنا نعوده، فجعل يتنفس
ويتأسف فقلت له: على ماذا تتأسف؟ قال: على ليلة نمتها ويوم أفطرت، وساعة
غفلت فيها عن ذكر الله عز وجل.

وبكى بعض العباد عند موته فقيل له: ما يبكيك؟ فقال: أن يصوم
الصائمون ولست فيهم، ويذكر الذاكرون ولست فيهم، ويصلي المصلون ولست
فيهم.

وقال أبو محمد العجلي: دخلت على رجل وهو في الموت فقال لي: سخرت لي
الدنيا حتى ذهبت أيامي.

ولما احتضر عَضُدُ الدُولَةِ تَمَثَّلَ :

قَتَلْتُ صَنَادِيدَ الرِّجَالِ فَلَمْ أَدْعُ
وَأَخْلَيْتُ دَوْرَ الْمَلِكِ مِنْ كَالِ نَازِلِ
فَلَمَّا بَلَغْتُ الْمَجْدَ عَزًّا وَرَفْعَةً
رِمَانِي الرَّدَى سَهْمًا فَأَخْمَدَ جَمْرَتِي
فَأَذْهَبْتُ دُنْيَايَ وَدِينِي سَفَاهَةً
عَدُوًّا وَلَمْ أُمْهَلْ عَلَى ظَنَّةِ خَلْقَا
فَشَرَّدْتُهُمْ غَرْبًا وَبَدَّدْتُهُمْ شَرْقَا
وَصَارَتْ رِقَابُ الْخَلْقِ أَجْعَ لِي رِقَا
فَهَا أَنَاذَا فِي جَفَوْنِي عَاطِلًا مَلَقَا
فَمَنْ ذَا الَّذِي مَنِّي بِمَصْرَعِهِ أَشْقَى

ثم جعل يقول: ﴿ مَا أَغْنَى عَنِّي مَالِيهِ * هَلْكَ عَنِّي سُلْطَانِيهِ ﴾ (١). فرددها إلى أن مات.

رَكِبَ الْأَمَانَ مِنَ الزَّمَانِ مَطِيَّةً
وَالْمَرْءِ مِثْلَ الْخَوْفِ بَيْنَ سَهَادِهِ
لَيْسَتْ كَمَا اعْتَادَ الرِّكَايِبُ تَبْرُكُ
وَكِرَاهِ يَسْكُنُ تَارَةً وَيُحَارِكُ

يا مشغولاً قلبه بلبني وسعدى، يا مستلذذ الرقاد وهذي الركائب تُحْدِي، يا عظيم المعاصي يا مخطئاً جداً، يا طالما قال ما عتأ وتعدى، كم جاوز حدّاً وكم أتى ذنباً عمداً، يا أسير الهوى قد أصبح له عبداً، يا ناظماً خرزات الأمل في سيلك المنى عقداً، يا معرضاً عما قد حلّ كم حلّ عقداً، كم عاهد مرةً وكم قد نقض عهداً، من لك إذا سقيت كأساً لا تجد من شربها بدءاً، مزجت أوصاباً وصار المصاب عندها شهداً، من لك إذا لحقت أباً وأماً وأخاً وعماً وجدداً، وتوسدت بعد اللين حجراً صلباً صلداً، وسافرت سفراً يا له من سفرٍ بعداً، واحتوشك عملك هزلاً كان أو جدّاً، ولقيت منكراً ونكيراً، فهل لقيت أسداً، فبادر قبل الموت فما تستطيع للفتوت ردّاً.

نَهَاكَ عَنِ الْبَطَالَةِ وَالتَّصَايِبِ
إِذَا مَا مَاتَ بَعْضُكَ فَبَابِكَ بَعْضًا
نُحُولُ الْجِسْمِ وَالرَّأْسِ الْخَضِيبُ
فَبَعْضُ الشَّيْءِ مِنْ بَعْضٍ قَرِيبُ

أخبرنا محمد بن أبي منصور، أنبأنا علي بن الحسين، أنبأنا أبو علي بن شاذان، سمعت أبا صالح كاتب الليث يذكر عن الفضل بن زياد، عن الأوزاعي، أنه

(١) الخاقعة ٢٩.

وعظ فقال في مواعظته:

أيها الناس تقووا بهذه النعم التي أصبحت فيها على الهرب من النار الموقدة التي تطلع على الأفئدة، فإنكم في دار الشقاء فيها قليل، وأنتم فيها مؤجلون وخلائف من بعد القرون، الذين استقبلوا من الدنيا زخرفها وزهرتها، فهم كانوا أطول منكم أعماراً، وأمد أجساماً وأعظم آثاراً، فخذدوا الجبال وجابوا الصخور، ونقبوا في البلاد مؤيدين ببطش شديد وأجسام كالعماد، فما لبثت الأيام والليالي أن طوت مدتهم، وعفت آثارهم، وأخوت منازلهم، وأنست ذكركم، فما تحس منهم من أحد، ولا تسمع لهم ركزاً. كانوا بلهوى الأمل آمنين كبيات قوم غافلين، أو كصباح قوم نادمين، ثم إنكم قد علمتم الذي قد نزل بساحتهم بيئات فأصبح كثير منهم في ديارهم جائمين، وأصبح الباقون ينظرون في آثار نقمة وزوال نعمة ومساكن خاوية، فيها آية للذين يخافون العذاب الأليم وعبرة لم يخشى، وأصبحتم من بعدهم في أجل منقوص ودنيا مقبوضة، في زمان قد ولى عفوهم وذهب رجائهم، فلم يبق منه إلا حجة شر وصبابة كدر وأهاويل عبر [وعقوبات غير] وأرسال فتن وردالة خلف، بهم ظهر الفساد في البر والبحر، فلا تكونوا أشباهاً لمن خدعه الأمل وغره طول الأجل، نسأل الله عز وجل أن يجعلنا ممن وعى نذره وعقل سراه فمهّد لنفسه.

تزوج دنياه الغبي جهله
فقد نثرت من بعد ما قبض المهر
تطهر بيعد من أذاها وكيدها
فتلك بغي لا يصح لها طهر
ونحن كركب الموج ما بين بعضهم
وبين الردى إلا الذراع أو الشبر

الكلام على قوله تعالى

﴿وما عندكم ينفد وما عند الله باق﴾ (١)

يا كثير الخلاف يا عظيم الشقاق، يا سبي الآداب، يا قبيح الأخلاق، يا

(١) النحل: ٩٦.

قليل الصبر يا عديم الوفاق، يا من سبيكي كثيراً إذا انتبه وفاق ﴿والتفت الساق بالساق﴾ أين من أينس بالدنيا ونسي الزوال، أين من عمر القصور وجمع المال، تقلبت بالقوم أحوال الأهوال، كم أراك عبرة، وقد قال: ﴿سنريهم آياتنا في الآفاق﴾ (١).

أين صديقك المؤانس، أين رفيقك المجالس، أين الماشي فقيراً، وأين الفارس، امتدت إلى الكل كف الخاليس، فنزلوا تحت الأطباق.

وكان قد رحلت كما رحلوا، ونزلت وشيكاً حيث نزلوا، وحملت إلى القبر كما حملوا ﴿إلى ربك يومئذ المساق﴾.

من لك إذا ألم الألم، وسكت الصوت وتمكن الندم، ووقع بك الفوت، وأقبل لأخذ الروح ملك الموت، وجاءت جنوده ﴿وقيل من راق﴾.

ونزلت منزلاً ليس بمسكون، وتعوضت بعد الحركات السكون، فيا أسفاً لك كيف تكون، وأهوال القبر لا تطاق، وفرق مالك وسكنت الدار، ودار البلاء فما دار إذ دار، وشغلك الوزر عن هجر وزار، ولم ينفعك ندم الرفاق.

أما أكثر عمرك قد مضى، أما أعظم زمانك قد انقضى، أفي أفعالك ما يصلح للرضا، إذا التقينا يوم التلاق. يا ساعياً في هواه تصور رمسك، يا موسعاً إلى خطاه تذكّر حبسك، يا مأسوراً في سجن الشهوات خلص نفسك قبل أن تعز السلامة وتعتاق الأعناق، وينصب الصراط ويوضع الميزان، وينشر الكتاب يحوي ما قد كان، ويشهد الجلد والملك والمكان، والنار الحبس والحاكم الخلاق، فحينئذ يشيب المولود، وتخرس الألسن وتنطق الجلود، وتظهر الوجوه بين بيض وسود، يوم يكشف عن ساق. فبادر قبل أن لا يمكن، وحاذر قبل أن يفوت الممكن، وأحسن قبل أن لا تحسن، فالיום البرهان وغدا السباق.

فانتهب عمراً يفنى بال مساء والصباح، وعامل مولى يجزل العطايا والأرباح، ولا تبخل فقد حث على السباح ﴿ما عندكم ينفد وما عند الله باق﴾ (٢).

(١) فصلت: ٥٣.

(٢) النحل: ٩٦.

المجلس الخامس عشر في قصة سيدنا موسى عليه السلام

الحمد لله الذي لا نِدَّ له فيبارى، ولا ضد له فيجارى، ولا شريك له فيدارى، ولا معترض له فيمارى، بسط الأرض قراراً وأجرى فيها أنهاراً، وأخرج زرعاً وثماراً، وأنشأ ليلاً ونهاراً، خلق آدم وأسكنه الجنة داراً، فغفل عن النهي وما دارى، أمر أن يأخذ يميناً فأخذ يساراً، وأهبط فقيراً قد عَدِم يساراً غير أنه جبرَ منه بقبول توبته انكساراً، وأقامه خليفةً ويكفيه افتخاراً، ثم ابتعث الأنبياء من ذريته ونصّب لهم في أدلته مناراً، وجعل إدريس ونوحاً والخليل رؤوساً، ﴿وهل أتاك حديث موسى إذ رأى ناراً﴾ (١).

أحمده سراً وجهاراً، وأصلي على رسوله محمد الذي أصبح وادي النبوة برسالته معطّاراً، وعلى صاحبه أبي بكر المنفق سراً وجهاراً، وعلى عمر الفاروق الذي لاث عن وجهه الإسلام خِمّاراً، وعلى عثمان الذي صرف عن جيش العسرة يانفاقه إعساراً، وعلى عليّ أخيه وابن عمه الذي لا يتارى، وعلى عمه العباس أبي الخلفاء ويكفيهم افتخاراً.

قال الله عز وجل: ﴿وهل أتاك حديث موسى﴾ هل بمعنى قد. كقول رسول الله ﷺ: اللهم هل بلغت.

وموسى: هو ابن عمران بن قاهث بن لاوي بن يعقوب، واسم أمه يوخابذ. وبين موسى وإبراهيم ألف سنة، وكانت الكهنة قد قالوا لفرعون: يولد مولود من بني إسرائيل يكون هلاكك على يده فأمر بذبح أبنائهم، ثم شكت القبط إلى

(١) طه ٩.

فرعون ، فقالوا إن دُمَّتْ على الذبيح لم يبق لنا من بني إسرائيل من يخدمنا . فصار يذبح سنَّةً ويترك سنة . فذبح سبعين ألف مولود . وولد هارون في السنة التي لا يُذبح فيها ، وولد موسى في السنة التي يذبح فيها . فولدته أمه وكتمت أمره فدخل الطَّلَبُ إلى بيتها فرمته في التنَّور ، فسَلِمَ ، فخافت عليه فصنعت له تابوتاً وألقتة في اليم ، فحمله الماء إلى أن ألقاه إلى فرعون ، فلما فتح التابوت نظر إليه فقال: عِبْرَانِيَّ من الأعداء كيف أخطأه الذَّبْحُ؟ فقالت آسية: دعه يكون قُرَّةَ عين لي ولك ، وكان لا يولد لفرعون إلا البنات . فتركه .

ولما رمته أمه أدركها الجزع فقالت لأخته مريم: قُصِّيهِ . فدخلت دار فرعون ، وقد عُرِضت عليه المرضعات فلم يقبل ثدياً ، فقالت: ﴿هل أدلكم على أهل بيَّت يكفلونه لكم﴾^(١) فجاءوا بأمه فشرب منها ، فلما تم رضاعه ردتة إلى فرعون فأخذه يوماً في حجره فمد يده للحيته فقال: علي بالذَّبَّاح فقالت آسية: إنما هو صبي لا يعقل . وأخرجت له ياقوتاً وجرماً فأخذ جمره فطرحها في فيه فأحرقت لسانه فذلك قوله: ﴿واحلل عقدة من لساني﴾^(٢) .

فلما كبر كان يركب مراكب فرعون ويلبس ملابس فرعون ، فلما جرى القدر بقتل القبطي وعلموا أنه هو القاتل خرج عنهم فهداه الله إلى مدين ، فسقى لبنتي شعيب واسمها صفورا وليا ، فاستدعاه شعيب وزوجه صفورا ، ثم خرج بزوجه يقصد أرض مصر فولدت له في الطريق فقال لأهله: ﴿امكثوا﴾ أي أقيموا ﴿إني آنستُ نارا﴾ أي أبصرتُ . وإنما رأى نورا ، ولكن وقع الإخبار بما كان في ظنه . والقبس: ما أخذته من النار في رأس عود ، أو فتيلة ﴿أو أجدُ على النار هُدًى﴾ وكان قد ضلَّ الطريق فعلم أن النار لا تخلو من واقد .

أخبرنا محمد بن أبي منصور ، أنبأنا جعفر بن أحمد ، أنبأنا أبو علي التميمي ، أنبأنا أبو بكر أحمد بن جعفر ، حدثنا عبد الله بن أحمد ، حدثني أبي ، حدثنا إسماعيل بن عبد الكريم ، حدثنا عبد الصمد بن مغفل ، عن وهب بن منبه ، قال :

(١) القصص ١٢ .

(٢) طه ٢٧ .

لما رأى موسى النار انطلق يسير حتى وقف منها قريباً، فإذا هو بنار عظيمة تفور من فروع شجرة خضراء شديدة الخضرة لا تزداد النار فيما يرى إلا عِظْماً وتضرمًا، ولا تزداد الشجرة على شدة الحريق إلا خضرة وحُسْنًا، فوقف ينظر لا يدري ما يصنع أمرها، إلا أنه قد ظن أنها شجرة تحرق أو قد إليها موقد فناها فاحترقت، وأنه إنما يمنع النار شدة خضرتها وكثرة ما بها، فوقف وهو يطمع أن يسقط منها شيء فيقتبسه، فلما طال ذلك عليه أهوى إليها بضغث في يده ليقتبس فمالت نحوه كأنها تريده، فاستأخر، ثم عاد، فلم يزل كذلك فما كان بأوشك من خودها فتعجب وقال: إن لهذه النار لشأنا، فوقف متحيراً فإذا بخضرتها قد صارت نوراً عموداً ما بين السماء والأرض، فاشتد خوفه وكاد يخالط في عقله من شدة الخوف، فنودي من الشجرة: ﴿يا موسى﴾ فأجاب سريعاً وما يدري من دعاه فقال: لَبَّيْكَ من أنت، أسمع صوتك ولا أرى مكانك، فأين أنت؟ قال: أنا فوقك ومعك وأمامك وأقرب إليك منك، فلما سمع هذا موسى علم أنه لا ينبغي ذلك إلا لربه تعالى فأمن به فقال: كذلك أنت يا إلهي، فكلامك أسمع أم كلام رسولك فقال: بل أنا الذي أكلّمك فاذن مني، فجمع موسى يديه في العصا ثم تحامل حتى استقل قائماً فارتعدت فرائصه حتى اختلفت واضطربت رجلاه ولم يبق منه عَظْمٌ يحمل الآخر، وهو بمنزلة الميت إلا أن روح الحياة تجري فيه، ثم زحف على ذلك وهو مرعوب حتى وقف قريباً من الشجرة، فقال له الرب تعالى: ﴿وما تِلْكَ بِيَمِينِكَ يا موسى؟ قال: هي عَصَاي﴾ قال: وما تصنع بها؟ قال: ﴿أتوكأ عليها وأهشُّ بها على غَنَمِي ولي فيها مآربٌ أخرى﴾ (١) وكانت لها شُعْبَتَانِ وَمِحْجَنٌ تَحْتَ الشَّعْبَتَيْنِ ﴿قال أَلْقِهَا يا موسى﴾ فظن أنه يقول له ارفضها، فألقاها على وجه الرفض، ثم حانت منه نظرة، فإذا بأعظم ثعبان نظر إليه الناظر يدب يلتمس كأنه ينتغي شيئاً يريد أخذه، يمرّ بالصخرة مثل الخليفة من الإبل فيقتلعها، ويطعن بالناب من أنيابه في أصل الشجرة العظيمة فيجذبها، وعيناه توقدان ناراً وقد عاد المحجّن عرفاً فيه

(١) طه ١٧ - ١٨ .

شعر مثل النَّيَّازِكِ، وعادت الشعبتان فماً مثل القليب الواسع فيه أضراس وأنياب لها صريف، فلما عاين موسى ذلك ولَّى مُدْبِرًا، فذهب حتى أمعن، ورأى أنه قد أعجز الحية، ثم ذكر ربه عز وجل فوقف استحياءً منه.

ثم نودي: يا موسى إليّ فارجع حيث كنت. فرجع وهو شديد الخوف فقال: ﴿خُذْهَا وَلَا تَخَفْ سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا الْأُولَى﴾^(١) وعلى موسى حينئذٍ مِدْرَعَةٌ من صوف قد خلَّلها بِخِلَالٍ من عيدان، فلما أمره بأخذها ثنى طرف المدرعة على يده فقال له ملك: أرايت يا موسى لو أذن الله عز وجل لِمَا تُحَاذِرُ أَكَانَتِ المِدْرَعَةُ تُغْنِي عَنْكَ شَيْئًا؟ قال: لا ولكنني ضعيف ومن ضَعَفٍ خُلِقْتُ. فكشف عن يده ثم وضعها في في الحية حتى سمع حسَّ الأضراس والأنياب، ثم قبض فإذا هي عصاه التي عَهِدَها وإذا يدها في الموضع الذي كان يضعها فيه إذا تَوَكَّأَ بَيْنَ الشَّجَبَتَيْنِ، فقال الله عز وجل: اذْنُ فَلَـمْ يَزَلْ يَدْنِيهِ حَتَّى أَسْنَدَ ظَهْرَهُ بِمَجْدَعِ الشَّجَرَةِ، فاستقر وذهبت عنه الرَّعْدَةُ، ثم جمع يديه في العصا وخشع برأسه وعنقه، ثم قال له: إني قد أقمتك اليوم مَقَامًا لا ينبغي لبشر بعدك أن يقوم مقامك، أدنيتك وقربتك حتى سمعت كلامي، وكنت بأقرب الأمكنة مني، فانطلق برسالتني، فإنك بعيني وسمعي وإن معك يدي وبصري، فأنت جندٌ عظيم من جندي بعثتك إلى خلقٍ ضعيف من خلقي، بطر نعمتي وأمن مكري، وغرته الدنيا عني حتى جحد حقي، وأنكر ربوبيتي وعبد دوني، وزعم أنه لا يعرفني.

وإني أقسم بعزتي لولا العذر والحجة اللذان وضعتُ بيني وبين خلقي لبطشت به بطشة جبار يغضب لغضبه السموات والأرض والجبال والبحار، فإن أمرت السماء حصبته، وإن أمرت الأرض ابتلغته، وإن أمرت الجبال ذمرتته، وإن أمرت البحار غرقتة، ولكن هان عليّ وسقط من عيني ووسعه حلمي واستغنيت بما عندي، وحق لي، إني أنا الله الغني لا غني غيري، فبلغه رسالاتي وادعه إلى عبادتي وتوحيدي والإخلاص باسمي، وذكره بأيامي وحذره نقمتي وبأسي، وأخبره أني أنا الغفور والمغفرة أسرع مني إلى الغضب والعقوبة، ولا يرعك ما

(١) طه ١٢١.

أُلَيْسَ مِنْ لِبَاسِ الدُّنْيَا ، فَإِنَّ نَاصِيَتَهُ بِيَدِي ، لَيْسَ يَطْرَفُ وَلَا يَنْطِقُ وَلَا يَتَكَلَّمُ وَلَا يَتَنَفَسُ إِلَّا بِإِذْنِي ، قُلْ لَهُ : أَجِبْ رَبِّكَ عِزَّ وَجَلَّ ، فَإِنَّهُ وَاسِعُ الْمَغْفِرَةِ ، وَإِنَّهُ قَدْ أَمَهَلَكَ أَرْبَعِمِائَةَ سَنَةٍ ، وَفِي كُلِّهَا أَنْتَ مُبَارِزٌ بِمُحَارَبَتِهِ تَشَبَّهُهُ وَتَمَثَّلْ بِهِ ، وَتَصَدَّقْ بِعِبَادِهِ عَنْ سَبِيلِهِ ، وَهُوَ يُمَطِّرُ عَلَيْكَ السَّمَاءَ وَيُنْبِتُ لَكَ الْأَرْضَ ، لَمْ تَسْقُمْ وَلَمْ تَهْرَمْ وَلَمْ تَفْتَقِرْ وَلَمْ تُغْلَبْ ، وَلَوْ شَاءَ أَنْ يَعْجَلَ ذَلِكَ لَكَ أَوْ يَسْلُبَكَ فِعْلًا ، وَلَكِنَّهُ ذُو أُنَاةٍ وَحِلْمٍ ، وَجَاهِدْهُ بِنَفْسِكَ وَأَخِيكَ وَأَنْتَا مُحْتَسِبَانِ بِجِهَادِهِ ، فَإِنِّي لَوْ شِئْتُ أَنْ آتِيَهُ بِجُنُودٍ لَا قِتْلَ لَهَا بِهَا لَفَعَلْتُ ، وَلَكِنْ لِيَعْلَمَ هَذَا الْعَبْدُ الضَّعِيفُ الَّذِي قَدْ أَعْجَبْتَهُ نَفْسَهُ وَجُمُوعَهُ أَنَّ الْفِتْنَةَ الْقَلِيلَةَ وَلَا قَلِيلَ مَنِّي ، تَغْلِبُ الْفِتْنَةَ الْكَثِيرَةَ بِإِذْنِي ، وَلَا تَعْجَبِكُمَا زِينَتُهُ وَمَا مَتَّعَ بِهِ وَلَا تَمُدَّانِ إِلَى ذَلِكَ أَعْيُنِكُمَا ، فَإِنَّهَا زَهْرَةٌ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَزِينَةُ الْمُرْتَفِقِينَ ، فَإِنِّي لَوْ شِئْتُ أَنْ أَزَيِّنَكُمَا مِنَ الدُّنْيَا بِزِينَةٍ يَعْلَمُ فِرْعَوْنُ حِينَ يَنْظُرُ إِلَيْهَا أَنَّ مَقْدَرَتَهُ تَعْجِزُ عَنْ مِثْلِ مَا آتَيْتَكُمَا فَعَلْتُ ، وَلَكِنْ أَرْغَبُ بِكُمَا عَنْ ذَلِكَ وَأَزْوِيهِ عَنْكُمَا ، وَكَذَلِكَ أَفْعَلُ بِأَوْلِيَائِي ، وَقَدِيمًا مَا خِرْتُ لَهُمْ فِي ذَلِكَ فَإِنِّي أَذُودُهُمْ عَنْ نَعِيمِهَا وَرِخَائِهَا كَمَا يَذُودُ الرَّاعِي الشَّفِيقُ إِبْلَهُ عَنْ مَرَاتِعِ الْمَهْلِكَةِ ، وَإِنِّي لِأَجْنِبُهُمْ سَكُونَهَا وَعَيْشَهَا كَمَا يَجْنِبُ الرَّاعِي الشَّفِيقُ إِبْلَهُ عَنْ مَبَارِكِ الْعُرَّةِ ، وَمَا ذَلِكَ لِهَوَانِهِمْ عَلَيَّ ، وَلَكِنْ لِيَسْتَكْمِلُوا نَصِيحَتَهُمْ مِنْ كِرَامَتِي مَوْفِرًا لَمْ تَكَلِّمَهُ الدُّنْيَا ، وَلَمْ يُطْفِئِ الْهَوَى ، وَاعْلَمْ أَنَّهُ لَمْ يَتَزَيَّنْ الْعِبَادُ بِزِينَةٍ أَبْلَغَ مِنَ الزَّهْدِ فِي الدُّنْيَا ، وَإِنَّهَا زِينَةُ الْمُتَّقِينَ ، عَلَيْهِمْ مِنْهَا لِبَاسٌ يُعْرَفُونَ بِهِ مِنَ السَّكِينَةِ وَالْخُشُوعِ ﴿سَيِّمَاهُمْ فِي وَجُوهِهِمْ مِنْ أَثَرِ السُّجُودِ﴾ (١) أَوْلَئِكَ أَوْلِيَائِي حَقًّا ، فَإِذَا لَقِيْتَهُمْ فَاخْفُضْ لَهُمْ جَنَاحَكَ ، وَذَلِّلْ لَهُمْ قَلْبَكَ وَلِسَانَكَ ، وَاعْلَمْ أَنَّ مَنْ أَهَانَ لِي وَلِيًّا أَوْ أَخَافَهُ فَقَدْ بَارَزَنِي بِالْمُحَارَبَةِ ، وَبَادَأَنِي وَعَرَّضَ نَفْسَهُ وَدَعَانِي إِلَيْهَا ، وَأَنَا أَسْرَعُ شَيْءٍ إِلَى نَصْرَةِ أَوْلِيَائِي ، أَفِيظُنُّ الَّذِي يَحَارِبُنِي أَنْ يَقُومَ بِي ؟ أَوْ يَظُنُّ الَّذِي يَعَادِينِي أَنْ يُعْجِزَنِي ؟ أَمْ يَظُنُّ الَّذِي يَبَارِزُنِي أَنْ يَسْبِقَنِي ، أَوْ يَفُوتَنِي ؟ فَكَيْفَ وَأَنَا الثَّائِرُ لَهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ لَا أَكِيلُ نُصْرَتَهُمْ إِلَى غَيْرِي .

قال: فأقبل موسى إلى فرعون في مدينة قد جعل حولها الأسد في غيضة قد غرسها والأسد فيها مع ساستها إذا أسدتها على أحد أكيل، وللمدينة أربعة

أبواب في العَيْضَة، فأقبل موسى من الطريق الأعظم الذي يراه فرعون، فلما رآته الأسد صاحت صياح الثعالب، فأنكر ذلك الساسة وفرقوا من فرعون، فأقبل موسى حتى انتهى إلى الباب فقرّعه بعصاه وعليه جبة صوف وسراويل، فلما رآه البواب عجب من جرأته، فتركه ولم يأذن له وقال: هل تدري باب من أنت تضرب! إنما تضرب باب سيّدك! فقال: أنا وأنتِ وفرعون عبيد الله عز وجل وأنا ناصره. فأخبر البواب الذي يليه حتى بلغ ذلك أدناهم، ودونهم سبعون حاجباً كل حاجب منهم تحت يده من الجنود ما شاء الله عز وجل كأعظم أمير اليوم إمارة، حتى خلص الخبر إلى فرعون فقال، أدخلوه عليّ، فأدخل فقال له فرعون: أعرّفك، قال: نعم. قال: ألم نربّك فينا وليداً. فردد موسى عليه السلام الذي ذكره الله عز وجل في القرآن، فقال خذوه.

فبادرهم موسى فألقى عصاه، فإذا هي ثعبان مبین، فحملت على الناس فانهزموا فمات منهم خمسة وعشرون ألفاً، قتل بعضهم بعضاً، وقام فرعون منهزماً حتى دخل البيت وقال لموسى: اجعل بيني وبينك أجلاً تنظر فيه. فقال موسى: لم أؤمر بذلك، وإنما أمرت بمناجرتك، فإن أنت لم تخرج إليّ دخلت عليك.

فأوحى الله تعالى إلى موسى: أن اجعل بينك وبينه أجلاً، وقل له يجعله هو. فقال فرعون: اجعله إلى أربعين يوماً. ففعل. وكان فرعون لا يأتي الخلاء إلا في أربعين يوماً مرة، فاختلف ذلك اليوم أربعين مرة. قال: وخرج موسى فلما مر بالأسد مضغت بأذنانها وسارت مع موسى تشيعه ولا تبيجه.

قال علماء السّير: قال له فرعون ﴿إِنْ كُنْتَ جِئْتَ بِآيَةٍ فَأْتِ بِهَا﴾ (١) فألقى العصا ثم أخرج يده وهي بيضاء لها نور كالشمس، فبعث فرعون فجمع السحرة وكانوا سبعين ألفاً، وكان رءوسهم سابور وعازور وحطحط ومصفي، وهم الذي آمنوا، فجمعوا حبالهم وعصيتهم وتواعدوا يوم الزينة، وكان عيداً لهم فألقوا

(١) الأعراف ١٠٦.

يومئذ ما معهم، فإذا حيات كأمثال الجبال قد ملأت الوادي، فألقى موسى عصاه فتلقفت ما صنعوا، فسجدت السحرة فقتلهم فرعون.

ثم جاء الطوفان وهو مطرٌ أغرق كل شيء لهم، ثم الجراد فأكل زرعهم، والقُمَّل وهو الدَّبَّاءُ، والضفادع فملأت البيوت والأواني، والدم فكان الإسرائيلي يستقي ماءً ويستقي القبطي من ذلك الموضع دمًا، فمكث موسى يريهم هذه الآيات عشرين سنة.

ثم أمره الله تعالى أن يخرج ببني إسرائيل، فخرج ومعه ستمائة ألف وعشرون ألفاً، ودعا عليهم حين خرج فقال: ﴿رَبَّنَا اطْمَسْ عَلَى أَمْوَالِهِمْ﴾ (١) فجعلت دراهمهم ودنانيرهم حجارة حتى الحمص والعدس، وألقي الموت عليهم ليلة خروج موسى، فشغلوا بدفن موتاهم، ثم تبعهم فرعون على مقدمته هامان في ألف ألف وسبعمائة ألف حصان ﴿فلما تراءى الجمعان قال أصحابُ موسى إنا لمدركون﴾ هذا البحر بين أيدينا وهذا فرعون من خلفنا «قال» موسى ﴿كَلَّا إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ﴾ (٢) فأوحى الله تعالى إلى موسى أن اضرب بعصاك البحر فضربه فانفلق اثني عشر طريقاً، على عدد الأسباط. فسار موسى وأصحابه على طريق يَبَس والماء قائم بين كل فرقتين، فلما دخل بنو إسرائيل ولم يبق منهم أحد أقبل فرعون على حصان له حتى وقف على شفير البحر، فهاب الحصان أن يتقدم فعرض له جبريل عليه السلام على فرس أنثى فتقدم [فدخل] فرعون وقومه وجبريل أمامهم وميكائيل على فرس خلف القوم يستحثهم، فلما أراد أولهم أن يصعد وتكامل نزول آخرهم انطبق البحر عليهم، فنادى فرعون: آمنتُ. قال جبريل: يا محمد لو رأيتني وأنا آخذ من حمأة البحر فأدسه في فرعون مخافة أن تدركه الرحمة!

ثم إن بني إسرائيل طلبوا من موسى أن يأتيهم بكتاب من عند الله، فوعده الله ثلاثين ليلة وأتمها بعشر، فعبدوا العجل في غيبته، فلما جاءهم بالتوراة، وما

(٢) الشعراء ٦٢.

(١) يونس ٨٨.

فيها من التثقيل أبوها فنتق عليهم الجبل ، فلما سكنوا خرج يعتذر عن من عبد العجل فأمروا بقتل أنفسهم ، فبعث عليهم ظلمة فاقتتلوا فيها فانكشفت عن سبعين ألف قتيل ، فجعل القتل للمقتول شهادة وللحي توبة ، ولم يزل يلقي من أصحابه الشدائد إلى أن توفي بأرض التيه وهو ابن مائة وعشرين سنة .

الكلام على البسمة

يا نفسُ أئى تُوفِّكينا حتى متى لا ترعَوينا
 حتى متى لا تعقلينا من وتسمعين وتُبصرينا
 يا نفس إن لم تصلحني فتشبهني بالصالحينا
 وتفكيري فيما أقوم لعل رُشدك أن يحيننا
 فليأتين عليك ما أفنى القرون الأولينا
 أين الأولى جمعوا وكا نوا للحوادثِ آميننا
 أفناهم الموت المط ل على الخلائق أجمعينا
 فإذا ساكنهم وما جمعوا لقومِ آخرينا

يا من يُؤمر بما يصلحه فلا يقبل ، أما الشيبُ نذير بالموت قد أقبل ، أما أنت الذي عن أفعاله تسأل ، أما أنت تخلو في اللحد بما تعمل ، ستعلم يوم الحساب عند العتاب من يحجل ، يا مبادراً بالخطايا توقّف لا تعجل ، يا مفسداً ما بيننا وبينه لا تفعل .

[ترى الدنيا وزينتها فتصبو
 فضول العيش أكثرها هموم
 فلا يغرك زخرف ما تراه
 إذا ما بلغة جاءتك عفواً
 إذا اتسق القليل وفيه سلّم
 وما يخلو من الشهوات قلب
 وأكثر ما يضرّك ما تحب
 وعيش لئن الأطراف رطب
 فخذها فالغنى مرعى وشرب
 فلا ترد الكثير وفيه حرب

إخواني : أيامكم قلائل ، وآثامكم غوائل ، ومواعظكم قوائل ، وأهواؤكم قوائل ، فليعتبر الأواخر بالأوائل . يا من يوقن أنه لا شك راحل ، وماله زاد ولا

رواحل، يا من لَجَّ في لُجَّة الهوى متى يرتقي إلى الساحل، هَلَا تَنبَهت من رقاد شامل، وحضرت المواعظ بقلب قابل، وقمت في الدجى قيامَ عاقل، وكتبت بالدموع سطور الرسائل، تحفّ بها زفراءُ الندم كالوسائل، وبعثتها في سفينة دمعٍ سائل، لعلها تُرْسَى بساحلِ « هل مِنْ سائلٍ » وأسفا لمغرور غفول جاهل قد أثقل بعد الكهولة بالذنب الكاهل، وضع في البضاعة وبذر الحاصل، وركن إلى ركن لو رآه مائل، يبني الحصون ويشيد المعقل، وهو عن شهيد قبره متناقل، ثم يدعي بعد هذا أنه عاقل، تالله لقد سبقه الأبطال إلى أعلى المنازل، وهو يؤمل في بطلته فوزَ العامل، هيهات ما علق بَطَال بظائل.

إذا بكيتُ ما مضى من زمنٍ فحُتَّ لي أبكي ومن لي بالبكا
 من أبصرَ الدنيا بعينِ عقله أدرك أن الدار ليست للبقا
 مطيئةً واردة إلى لردى وإن تراخى العمر وامتد المدى
 إن هي أعطتْ كان همًّا حاضرًا أو منعتْ كان عذاباً وأذى
 والمرء رهنُ أملٍ ما ينتهي حتى يوافي أجلاً قد انتهى

كان بشر الحافي إذا ذكر عنده الموت يقول: ينبغي لمن يعلم أنه يموت أن يكون بمنزلة من جمع زاده فوضعه على رحله لم يدع شيئاً مما يحتاج إليه إلا وضعه عليه.

أخبرنا أحمد بن أحمد الهاشمي، أنبأنا أبو بكر الخطيب، أنبأنا محمد بن الحسن الأهوازي، سمعت أبا بكر الدِّيف الصوفي يحدث عن جامع بن أحمد قال: سمعت يحيى بن معاذ يقول: ليكن بيتك الخلوّة وطعامك الجوع، وحديثك المناجاة، فيما أن تموت بدائك، أو تصل إلى دوائك.

أخبرنا عمر بن ظفر، أنبأنا جعفر بن أحمد، حدثنا عبد العزيز بن علي: أنبأنا ابن جَهْضَم، حدثنا محمد جعفر الوراق، حدثنا أحمد بن عبد الرحمن بن القاسم بن عبد الله المكي، قال: قال رجل للفضيل بن عيَّاض: رأيت البارحة في النوم كذا وكذا. فقال له الفضيل: ألسنت حامل القرآن؟ قال: بلى. قال: فتنام

بالليل وأنت حامل القرآن! أما تخاف أن يأخذك وأنت نائم.

يا غافلاً طول دهره عن ممر يومه وشهره، يا موعوظاً في سره وجهره بجفاف
النبات وزهره، يا منبهاً في أمره بأسره على حبسه وأسره، يا مذكوراً في عسره
ويسره، سل حادثات الزمان عن يسره، يا عصفوراً لا بد من ذبجه وتخريب
وكره، ثم لا يجول ذلك على فكره، متى يفيق سكران الهوى من سكره فيستبد
العرف بئكره، ألا يتنبه هذا المبذر لبذره، ألا يتيقظ الجاني لإقامة عذره، والله
لو سكن قلبه خوف حشره لخرج في أعمال الجد من قشره، بل لو تفكر حق
التفكير في نشره لم يبع ثوباً ولم يشره، مضى الزمان في مدّ اللهو وجزره، وما
خطي المفرط بغير وزره، تالله لقد اغتبط المحسن في قبره وندم المسيء على قلة
صبره، يا حسن ما أطاع بترتيل القرآن أبو عمرو ويا خسر ما أضاع أبو نواس
في خمّره.

حياة وموت وانتظار قيامة	ثلاث أفادتنا ألوف معاني
فلا تمهر الدنيا الدينية إنها	تفارق أهلها فراق لعان
ولا تطلبوها من سنان وصارم	بيوم ضراب أو بيوم طعان
فإن شئنا أن نخلصنا من أذاتها	فحطاً بها الأثقال واتبعاني
عجبت من الصبح المنير وضده	على أهل هذا الضد يطلعان
وقد أخرجاني بالكرامة منها	كأنها للضيف ما وسعاني
دعاني إلى هذا التفرد إنني	خير فجدًا في السرى ودعاني

سجع على قوله تعالى

﴿إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ﴾

ما أشرف من أكرمه المولى العظيم، وما أعلى من مدحه في الكلام القديم، وما
أسعد من خصّه بالتشريف والتعظيم، وما أقرب من أهله للفوز والتقديم، وما

أَجَلٌ مِنْ أَثْنَى عَلَيْهِ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿١﴾ إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ ﴿١﴾ ..

نعموا في الدنيا بالإخلاص في الطاعة، وفاضوا يوم القيامة بالريح في البضاعة، وتنزهوا عن التقصير والغفلة والإضاعة، ولبسوا ثياب التقى وارتدوا بالقناعة، وداموا في الدنيا على السهر والمجاعة، فيافخرهم إذا قامت الساعة، وقد قربت إليهم مطايا التكريم ﴿١﴾ إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ ﴿١﴾ .

نعموا في الدنيا بالوحدة والخلوة، واعتذروا في الأسحار من زلة وهفوة، وحذروا من موجبات الإبعاد والجفوة، فأولئك هم المختارون الصفوة، الصدق قرينهم والصبر نديم ﴿١﴾ إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ ﴿١﴾ .

حرسهم مولاهم من موجبات الشين، وحفظهم من جهل وعيب ومين، وأراهم محجة الهدى رأى العين، وأزال في وصالهم قاطع الجفاء وعارض البين، وكمل لهم جميع المآثر كمال الزين، وكشف عن قلوبهم أغطية الهوى وحجب الغين، فقاموا بالأوامر على غاية الوفا في قضاء الدين، واعتذروا بعد الأذى وقيل الغريم ﴿١﴾ إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ ﴿١﴾ .

طال ما تعبت أجسامهم من الجوع والسهر، وكفت جوارحهم عن اللهو والأشرف، وحبسوا أعراضهم عن الكلام والنظر، وانتهوا عما نهاهم وامتلوا ما أمر، وتقبلوا مفروضاته بالسمع والبصر، وتغنوا بكلامه والقلب قد حضر، واستعدوا من الزاد ما يصلح للسفر، فالخوف يقلقهم فيمنعهم قضاء الوطر، والعبرة تجري والقلب قد اعتبر، فيا حسنهم في جوف الليل ووقت السحر، السر صافي والحال مستقيم ﴿١﴾ إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ ﴿١﴾ .

جنّ الظلام فزمت مطاياهم، وجاء السحر فتوفرت عطاياهم، وكثر الإستغفار فحطت خطاياهم، وكلما طلبوا من فضل سيدهم أعطاهم، فسبحان من اختارهم من الكل واصطفاهم، وخلصهم بالإخلاص من شوائب الكدر

(١) المطففين ٢٢ .

وصفّاهم، فليس المقصود من الخلق بالمحبة سيّاهم، أزعجتهم عواصف المخافة فتداركهم من الرجاء نسيم ﴿إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ﴾. قصورهم في الجنان عالية، وعيشتهم في القصور صافية، وهم في عفو ممزوج بعافية، وقطوف الأشجار من القوم دانية، وأقدامهم على أرض من المسك ساعية، وأبدانهم من السندس والإستبرق كاسية، والعيش لذيد والملك عظيم ﴿إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ﴾.

رضي عنهم جبارهم، وأشرقت برضاه دارهم، وصفت ببلوغ المنى أسرارهم، فارتفعت من كل وجه أقدارهم، ووردت في الجنان أشجارهم، واطردت تحت القصور أنهارهم، وترنمت على الورق أطيّارهم، والملائكة تحفّهم وتخصّهم بالتسليم، والعيون تجري من رحيق وتسني، والملك قد وصفهم في الكلام القديم ﴿إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ﴾.

قال النبي ﷺ: «يقول الله عز وجل: أنا ربكم الذي صدقتكم وعدي وأتممت عليكم نعمتي فهذا محل كرامتي، فاسألوني ما شئتم. فيقولون: نسألك رضوانك. فيقول: رضواني أحلّكم داري وأدناكم من جوارِي».

وروينا أن الله تعالى يقول لأوليائه في القيامة: «أوليائي طال ما لمحتكم في الدنيا وقد غارت أعينكم وقلّصت شفاهكم عن الأشربة وخفقت بطونكم، فتعاطوا الكأس فيما بينكم وكلوا واشربوا هنيئاً بما أسلفتم في الأيام الخالية».

سجع على قوله تعالى ﴿على الأرائك ينظرون﴾

وقوله تعالى: ﴿على الأرائك ينظرون﴾^(١) الأرائك: السرر في الحجال. قال ثعلب: لا تكون الأريكة إلا سريراً في قبة عليه شواره ومتاعه. والشوار متاع البيت.

(١) المطففين ٢٣.

وفي قوله ﴿ينظرون﴾ قولان: أحدهما: ينظرون إلى ما أعطاهم الله عز وجل من الكرامة. والثاني: إلى أعدائهم حين يعذبون.

كانوا في الدنيا على المجاهدة يصرون، وفي دياجى الليل يسهرون، ويصومون وهم على الطعام يقدرون، ويسارعون إلى ما يرضي مولاهم ويبادرون، فشكر من راح منهم وغدا فهم غداً ﴿على الأرائك ينظرون﴾.

كانوا يحملون أعباء الجهد والعناء، ويفرحون بالليل إذا أقبل ودنا، ويرفضون الدنيا لعلمهم أنها تصير إلى الفناء، ويخلصون الأعمال من شوائب الآفات لنا، ويحاربون الشيطان بسلاح من التقى أقطع من السيف وأصلب من القنأ، فغداً يتكئون على الأرائك وقطوفهم دانية المجتنى، وأعظم من هذا النعيم أن أتجلى لهم أنا، كفى فخراً أنهم عندي غداً يحضرون ﴿على الأرائك ينظرون﴾.

كانت جنوبهم تتجافى عن مضاجعها، ولا تسكن لأجلي إلى مواضعها، وتطلب مني نفوسهم جزيل منافعها، وتستجيرني من موانعها وتستعيدُ بجلاي من قواطعها، وتصلو بعزتي على مُخادعها، فقد أبدلتهم بتعب تلك المجاهدة لذة السكون، فهم ﴿على الأرائك ينظرون﴾.

يا حسنهم والولدان بهم يحفون، والملائكة لهم يزفون، والخدام بين أيديهم يقفون، وقد أمنوا ما كانوا يخافون، وبالخور العين الحسان في خيام اللؤلؤ يتنعمون، وعلى أسيرة الذهب والفضة يتزاورون، وبالوجوه النضرة يتقابلون، ويقولون بفضلهم ونعمتي للشيء كن فيكون ﴿على الأرائك ينظرون﴾.

سجع على قوله تعالى

﴿تَعْرِفُ فِي وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ النَّعِيمِ﴾^(١)

قال الفرّاء: بريق النعيم.

(١) المطففين ٢٤.

وجوهٌ طال ما غسلتها دموع الأحزان، وجوه طال ما غبّرتها حُرقات
الأشجان، وجوه تُخبر عن القلوب إخبارَ العنوان، حرسوا الوقتَ باليقظة
وحفظوا الزمان، وشغلوا العيون بالبكاء والألسن بالقرآن، فإذا رأيتهم يوم
الجزاء رأيتَ الفوز العظيم ﴿تَعْرِفُ فِي وجوههم نَصْرَةَ النِّعَمِ﴾.

وجوهٌ ما توجَّهت لغيري ولا استدارت، وأقدامٌ إلى غير ما يرضيني ما
سارت، وعزوم لغير مرضاتي ما ثارت، وقلوب بغيري قط ما استجارت،
وأفئدة بغير ذكرني ما استنارت، ولو رأيت عيونُ الغافلين ما أعددت لهم لحارتُ
من فضل عظيم، ومُلْكٍ جسيم ﴿تَعْرِفُ فِي وجوههم نَصْرَةَ النِّعَمِ﴾.

أشرقت وجوههم في الدنيا بحسن المجاهدة، وتشرق وجوههم يوم القيامة
بالقرب والمشاهدة، أشرقت وجوههم في الليل بنور السهر، وتشرق غداً بمشاهدة
الحق إذا ظهر، أشرقت وجوههم في الدنيا بجريان الدموع على الخدود، وتُشرق
غداً في جنان الخلود، فإذا رأيتهم في سرور ما فيه ما يَضِمُّ ﴿تَعْرِفُ فِي وجوههم
نَصْرَةَ النِّعَمِ﴾.

سجع على قوله تعالى

﴿يُسْقَوْنَ مِنْ رَحِيقٍ مَخْتُومٍ﴾^(١)

قوله تعالى: ﴿يُسْقَوْنَ مِنْ رَحِيقٍ مَخْتُومٍ﴾^(١) في الرحيق ثلاثة أقوال.
أحدها: أنه الخمر. قاله ابن عباس. وفي صفة الخمر المسماة بالرحيق أربعة
أقوال:

أحدها: أنها أجود الخمر. قاله الخليل بن أحمد.

والثاني: الخالصة من الغش. قاله الأخفش.

والثالث: الخمر البيضاء. قاله مقاتل.

والرابع: الخمر العتيقة. قاله ابن قتيبة.

(١) المطففين ٣٥.

والقول الثاني: أنه عَيِّنَ في الجنة مَشُوبَةً بالمسك. قاله الحسن.

والثالث: الشراب الذي لا غش فيه. قاله ابن قتيبة والزجاج.

وفي قوله «مختوم» ثلاثة أقوال، أحدها: ممزوج. قاله ابن مسعود. **والثاني:**

مختوم على إنائه وهو مُذْهَب. قاله مجاهد. **والثالث:** له ختام أي عاقبته رِيح.

يا له من كأسٍ مَصُونٍ تَقَرُّ به العيون، يقول له المَلِكُ: كن فيكون، يوجدُه بين الكاف والنون، إذا شربوه لا يَحْزَنُونَ، إذا استوعبوه لا يَسْكُرُونَ، نعيمهم لا كَدْرَ فيه ولا هموم ﴿يُسْقَوْنَ من رحيقٍ مختوم﴾.

شراب قد حلاً وطاب، كأسٌ يصلح للأحباب، نعيم من فضل الوهاب، لَذَّتْ لذةُ الدارِ ودارَ الشراب، كَمَل الصفا وزال العتاب، طاب الوقت ورفيع الحِجاب، صَفَّتِ الحالُ وفتحت الأبواب، زار المحب وسمع الخطاب، تَمَّ فرح القوم بقُرب القيوم ﴿يُسْقَوْنَ من رحيقٍ مختوم﴾.

زال العنا عنهم وأقبل الرُّوح والفرح، وارتفعت الهموم عن الصدور فانفسح الصدر وانشرح، ورضي الرب فأعطى المني وأولى ومدح، وطاف عليهم الولدان بالأكواب فيالذة الشراب ويا حُسْنَ القَدَح، واستراح من التعب من كان يسهر ويصوم ﴿يُسْقَوْنَ من رحيقٍ مختوم﴾.

قوله تعالى: ﴿خِتَامَهُ مِسْكِ﴾ فيه قولان: أحدهما: خَلَطَهُ مِسْكَ. قاله ابن مسعود ومجاهد. **والثاني:** أن الذي يُخْتَمُ به طعم الإناء مسك. قاله ابن عباس. قوله تعالى: ﴿وَفِي ذَلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ﴾^(١) أي فليجدوا في طلبه وليحرصوا عليه بطاعة الله تعالى، والتنافس كالتشاح على الشيء والتنازع فيه.

سجع على قوله تعالى ﴿وَفِي ذَلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ﴾

أيها الغافل رِيحِ القوم وخسرت، وساروا إلى الحبيب وما سيرت، وقاموا

(١) المطففين ٢٦.

بالأوامر وضيّعت ما به أمرت، وسلّموا من رِقِّ الهوى واغتررت فأسّرت،
فالدنيا تخدمهم والسعادة تقدّمهم حين يُحشرون ﴿ وفي ذلك فليتنافس
المتنافسون ﴾ .

لقد شوّقتم إلى الفضائل فما اشتقتم، وزُجرتم عن الرذائل وأنتم في سكر الهوى
ما أفقتم، فلو حاسبت أنفسكم وحققتم، علمتم أنكم بغير وثيق توثقتم، فاطلبوا
الخلاص من أسر الهوى فقد جدّ الطالبون ﴿ وفي ذلك فليتنافس المتنافسون ﴾ .

أيقظنا الله وإياكم لمصالحنا، وعصمنا من ذنوبنا وقبائحنا، واستعمل في طاعته
جميع جوارحنا، ولا جعلنا ممن يرضى بدونٍ، ﴿ وفي ذلك فليتنافس
المتنافسون ﴾ .

المجلس السادس عشر

في قصة موسى والخضر عليهما السلام

الحمد لله جعل العلم للعلماء نسباً، وأغناهم به وإن عَدِمُوا مَالاً ونَشَباً، ولأجله سجدت الملائكةُ إلا إبليسَ أبى، وبجيلة العلم اتَّكَأ إدريس في الجنة واحتبى، ولطلبه قام الكليم ويوشع وانتصبا، فسارا إلى أن لَقِيَا من سفرهما نصباً: ﴿وَإِذ قَالَ مُوسَى لِفَتَاهُ لَا أَبْرَحُ حَتَّى أَبْلُغَ مَجْمَعَ الْبَحْرَيْنِ أَوْ أَمْضِيَ حُقُبًا﴾ (١).

أحده حمداً يدوم ما هبَّتْ جَنُوبٌ وصبا، وأصلي على رسوله محمد أشرف الخلائق عجباً وعرباً، وعلى أبي بكر الذي أنفق المال وما قَلَّلَ حتى تَخَلَّلَ بالعَبَا، وعلى عمر الذي من هيبته ولَّى الشيطان وهرباً، وعلى عثمان الذي حَيَّته الشهادة فقال مرحباً، وعلى علي بن أبي طالب الذي ما قُلَّ سيفُ شجاعته قط [ولا] نَبَا، وعلى عمه العباس العالِي نسبَه على جبال الشرف والرَّبِّي.

قال الله تعالى: ﴿وَإِذ قَالَ مُوسَى لِفَتَاهُ لَا أَبْرَحُ حَتَّى أَبْلُغَ مَجْمَعَ الْبَحْرَيْنِ أَوْ أَمْضِيَ حُقُبًا﴾.

معنى الكلام: اذكر يا محمد ﴿إِذ قَالَ مُوسَى﴾ وهو موسى بن عمران، ﴿لِفَتَاهُ﴾ وهو يوشع بن نون، وإنما سَمِّي فتاه لأنه كان يلازمه ويأخذ عنه العلم ويخدمه: ﴿لَا أَبْرَحُ﴾ أي لا أزال، أي لا أنفك. وليس المراد به لا أزل لأنه إذا لم يزلْ لم يقطع أرضاً. قال الشاعر:

إذا أنت لم تَبْرَحْ تَوَدِّي أمانةً وتحمل أخرى أفرحتك الودائعُ

(١) الكهف ٦٠.

أي أثقلتك. ومعنى الآية: لا أزال أسير حتى أبلغ مَجْمَع البحرين أي ملتقاهما، وهو الذي وعده الله تعالى بقاء الخضير فيه. قال قتادة: بحر فارس وبحر الروم فبحر الروم نحو المغرب، وبحر فارس نحو المشرق.

وفي اسم البلد الذي بمجمع البحرين قولان: أحدهما: إفريقية. قاله أبي بن كعب. والثاني: طَنْجَة. قاله محمد بن كعب القرظي.

قوله تعالى: ﴿أَوْ أَمْضِي حُقْبًا﴾ وقرأ الحسن وقاتدة ﴿حُقْبًا﴾ بإسكان القاف وهما لغتان. قال ابن قتيبة: الحُقْب: الدهر. يقال حُقْبٌ وحُقْبٌ، كما يقال قفلٌ وقفلٌ، وأكُلٌ وأكُلٌ، وعُمُرٌ وعُمُرٌ. ومعنى الآية: لا أزال أسير، ولو احتجت أن أسير حُقْبًا.

﴿فَلَمَّا بَلَغَا﴾ يعني موسى وفتاه ﴿مَجْمَعٍ بَيْنَهُمَا نِسْيًا حُوتَهُمَا﴾ وكانا قد تزودا حوتاً مالحاً في مِكْتَلٍ، فكانا يصيبان منه عند الغداء والعشاء، فلما بلغا هناك وضع يوشعُ المِكْتَلَ فأصاب الحوتَ بللُّ البحر، فعاش واسترب في البحر، وقد كان قيل لموسى تزود حوتاً مالحاً، فإذا فقدته وجدت الرجل.

وكان موسى حين ذهب الحوتُ قد مضى لحاجة، فعزم يوشعُ أن يخبره بما جرى فَنَسِي، وإنما قيل: ﴿نَسِيًا﴾ توسعاً في الكلام، لأنها جميعاً تزوداه. ومثله: ﴿يَخْرُجُ مِنْهَا اللَّوْلُؤُ وَالْمَرْجَانُ﴾^(١) وإنما يخرج من المالح لا من العذب. ﴿فَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ سَرَبًا﴾ أي مَسْلَكًا. قال ابن عباس: جعل الحوتُ لا يمس شيئاً من البحر إلا يمس حتى يكون صخرةً. وفي حديث أبي بن كعب أن الماء صار مثل الطاق على الحوت.

﴿فَلَمَّا جَاوَزَا﴾ ذلك المكان أدركهما النصبُ فدعا موسى بالطعام فقال يوشع: ﴿أَرَأَيْتَ إِذْ أَوْتِنَا إِلَى الصَّخْرَةِ فَإِنِّي نَسِيتُ الْحُوتَ﴾^(٢) فيه قولان: أحدهما: نسيت أن أخبرك خبر الحوت. والثاني: نسيت حمل الحوت.

(٢) الكهف ٦٣ .

(١) الرحمن ٢٢ .

﴿واتخذَ سبيلَهُ﴾ في هاء الكناية قولان: أحدهما أنها ترجع إلى الحوت. والثاني: إلى موسى، اتخذَ سبيلَ الحوت في البحر، أي دخل في مدخله فرأى الخضيرَ. فعلى الأول: المخبر يوشع وعلى الثاني المخبر الله عز وجل.

قال موسى: ﴿ذلك ما كنا نَبَغِ﴾ أي الذي كنا نطلب من العلامة الدالة على مطلوبنا، لأنه كان قد قيل له: حيثُ تَفْقَدُ الحوتَ تجدُ الرجلَ.

﴿فارتدَّا﴾ أي رجعا في الطريق التي سلكاها يَقْضَانِ الأثر. ﴿فوجدَا عَبْدًا مِنْ عِبَادِنَا﴾ وهو الخضير. قال وهب: اسمه اليسع. وقال ابن المنادي: أرميا.

وفي تسميته بالخضير قولان: أحدهما: أنه جلس على فروة بيضاء فاهتز ما تحته خضراً. رواه أبو هريرة عن رسول الله ﷺ. والفروة: الأرض اليابسة. والثاني: أنه كان إذا جلس اخضَرَ ما حوله. قاله عكرمة. وقال مجاهد: كان إذا صلى اخضَرَ ما حوله.

وهل كان نبياً؟ فيه قولان.

قوله تعالى: ﴿آتَيْنَاهُ رَحْمَةً مِنْ عِنْدِنَا﴾ أي نعمة ﴿وَعَلَّمْنَاهُ مِنْ لَدُنَّا﴾ أي من عندنا ﴿عِلْمًا﴾ قال ابن عباس: أُعطي من علم الغيب.

﴿قال له موسى: هل أتبعك﴾ وهذا تحريض على طلب العلم، وحثٌّ على الأدب والتواضع للمصحوب، وإنما قال الخضر: ﴿إنك لن تستطيعَ معيَ صَبْرًا﴾^(١) لأنه كان يعمل بعلم الغيب. والخُبْر: العلم بالشيء. والمعنى: أنت تنكر ظاهر ما ترى ولا تعلم باطنه. فلما ركب السفينة قلع الخضرُ منها لوحاً فحشاها موسى بثوبه وأنكر عليه بقوله: ﴿أخرقتها﴾ والإمر: العجب.

ثم اعتذر بقوله: ﴿لا تُؤَاخِذْنِي بِمَا نَسِيتُ﴾ وفيه ثلاثة أقوال: أحدها: أنه نسي حقيقةً.

(١) الآيات في الصفحة من سورة الكهف الآية ٦٦ - ٦٨.

والثاني: أنه من معارِض الكلام، تقديره: لا تؤاخذني بنسياني الذي نسيت في عمري، فأوهمه بنسيان هذا الأمر.

والثالث: أنه بمعنى التَّرك. والمعنى: لا تؤاخذني بتركي ما عاهدتك عليه. وترهقني بمعنى تعجلني. والمعنى: عاملني باليسر.

فلما لقيا الغلامَ قتله الخضر، وهل كان بالغاً أم لا؟ فيه قولان. وفي صفة قتله إياه ثلاثة أقوال: أحدها: أنه اقتلع رأسه، وهو في حديث أبي عن النبي صلى الله عليه وآله.

والثاني: كسر عنقه. قاله ابن عباس.

والثالث: أنه أضجعه وذبحه بسكين. قاله سعيد بن جبير.

﴿قال أقتلت نفساً زكية﴾^(١) وقرأ ابن عامر: زكيةً. قال الكسائي: فيها وجهان كالقاسية والقسيّة. وقال أبو عمرو بن العلاء: الزاكية التي لم تُذنب. والزكية التي أذنبت ثم تابت. وقال أبو عبيدة: الزاكية في البدن، والزاكية في الدين.

قوله تعالى: ﴿بغيرِ نفسٍ﴾ أي بغير قتل نفس. والنكر: المنكر.

﴿قال ألم أقل لك﴾ إن قيل: لم ذكر لفظه ﴿لك﴾ ها هنا ولم يذكرها في الأولى؟ فالجواب من وجهين: أحدهما أنه ذكرها للتوكيد وتركها لوضوح المعنى، والعرب تقول: قد قلت لك: اتق الله. وقد قلت لك: يا فلان اتق الله. يا هذا أطعني وانطلق.

والثاني: أن المواجهة بكاف الخطاب نوع حطّ من قدر التعظيم، فلما كانت الأولى منه نسيانا فحَمَّ خطابَه بترك كاف الخطاب [ولما كانت الثانية عمداً جزاه] بالمواجهة بكاف الخطاب.

(١) الكهف ٧٤.

قوله تعالى: ﴿فَلَا تُصَاحِبُنِي﴾ وقرأ أبو المتوكل: فلا تصاحبني بتشديد النون. وقرأ ابن عبلة: ﴿تُصَحِّبُنِي﴾ بفتح التاء من غير ألف، وقرأ ابن مسعود كذلك؛ إلا أنه شدد النون. وقرأ النَّحْعِي والجحدري ﴿تُصَحِّبُنِي﴾ بضم التاء وكسر الحاء وسكون الصاد والباء. قال الزجاج: وفيها وجهان: أحدهما لا تتابعني في شيء ألتسمه منك، يقال أَصْحَبَ المَهْر إذا انقاد.

والثاني: لا تُصَحِّبُنِي عِلْماً من عِلْمِكَ ﴿قَدْ بَلَغْتَ من لَدُنِّي﴾ قرأ نافع: ﴿مِنْ لَدُنِّي﴾ بضم الدال مع تخفيف النون.

فلما انطلقا إلى القرية وفيها ثلاثة أقوال:
أحدها: أنها أنطاكية. قاله ابن عباس.

والثاني: الأبلّة. قاله ابن سيرين.

والثالث: باجروان. قاله مقاتل.

﴿اسْتَطَعَمَا أَهْلَهَا﴾. أي سألوها الضيافة ﴿فَأَبَوْا أَنْ يُضَيَّفُوهُمَا﴾ وكانوا بجلاء ﴿فَوَجَدَ فِيهَا جِدَاراً﴾ أي حائطاً ﴿يُرِيدُ أَنْ يَنْقَضَ﴾ وقرأ أبي بن كعب: ﴿يَنْقَاضَ﴾ بألف ممدودة وضاد معجمة. وقال ابن مسعود مثله بالصاد غير معجمة. قال الزجاج، يَنْقَضُ: يسقط بسرعة، وينقاص غير معجمة: ينشق طولاً، يقال: انقاصت سِنَّهُ إذا انشقت. ونِسْبَةُ الإِرَادَةِ إلى الحائط تَجَوَّز. وأنشد:

ضَحِكُوا والدهرُ عنهم ساكتٌ ثم أبكاهم دماً حينَ نطقِ

وفي قوله ﴿فَأَقَامَهُ﴾ قولان: أحدهما: أنه دفعه بيده فقام.

والثاني: هدمه ثم قعد بينيه. والقولان عن ابن عباس.

فلما أنكر عليه ﴿قال: هذا فِرَاقٌ بَيْنِي وَبَيْنِكَ﴾^(١) أي إنكارك هو المفارق

بيننا.

(١) الآيات من سورة الكهف ٧٧ - ٧٨.

ثم بين له أن خرّقه السفينة لتسلم من الملك الغاصب، وقتله الغلام لتسلم دين أبويه قال نبينا ﷺ: إن الغلام الذي قتله الخضر طبع كافراً، ولو عاش لأرّهق أبويه طغياناً وكفراً. والزكاة: الدين. وقيل العمل. قاله ابن عباس. قوله تعالى: ﴿خيراً منه﴾ وأوصل للرحم.

وإقامته للجدار لأنه كان ليتيمين في المدينة. وفي الكنز الذي كان تحته ثلاثة أقوال:

أحدها: أنه كان ذهباً وفضة. رواه أبو الدرداء عن النبي ﷺ. والثاني: أنه كان لوحاً من ذهب فيه مكتوب: عجباً لمن أيقن بالموت كيف يفرح، عجباً لمن أيقن بالقدر ثم هو ينصب، عجباً لمن أيقن بالنار، ثم يضحك، عجباً لمن أيقن بالرزق كيف يتعب، عجباً لمن أيقن بالحساب كيف يعقل، عجباً لمن رأى الدنيا وتقلّبها بأهلها كيف يطمئن إليها. أنا الله لا إله إلا أنا، محمد عبدي ورسولي.

وفي الشق الثاني: أنا الله لا إله إلا أنا وحدي لا شريك لي، خلقت الخير والشر، فطوبى لمن خلقت له للخير، وأجرته على يديه، والويل لمن خلقت له للشر، وأجرته على يديه.

رواه عطاء عن ابن عباس.

والثالث: أنه كنز علم. رواه العوفي عن ابن عباس، وقال مجاهد: صحف فيها علم.

ثم أخبره أني مأمور فيما فعلت. والسبب في أمر الله عز وجل موسى بهذا السفر أنه قام خطيباً في بني إسرائيل فسئل: أيّ الناس أعلم؟ فقال: أنا. فعتب الله عليه إذا لم يردّ العلم إليه، فأوحى الله تعالى إليه: إن لي عبداً بجمّع البحرين هو أعلم منك، قال: فكيف لي به؟ قال: تأخذ معك حوتاً مالخاً فتجعله في مكّتل فحيثما فقدت الحوت فهو تمّ. فانطلق حتى لقيه.

الكلام على البسمة

مَنْ عَلَى هَذِهِ الدَّارِ قَامَا أَوْ صَقَا مَلْبَسَ عَلَيْهِ فِدَامَا
 عُجَّ بِنَا نُنْدَبُ الَّذِينَ تَوَلَّوْا بَاقْتِيَادِ الْمُنُونِ عَامَاً فَعَامَاً
 فَارَقُوا كَهَلَاً وَشِيخَاً وَهَمَّأ وَوَلِيدَا مَوْمَلًا وَغُلَامَا
 وَشَحِيحَاً جَعَدَ الْيَدِينَ بِجَبَلَاً وَجَوَادَاً مُخَوَّلَاً مِطْعَامَاً
 سَكَنُوا كُلَّ ذُرْوَةٍ مِنْ أَشْمٍ يَحْسِرُ الطَّرْفَ ثُمَّ حَلَّوْا الرِّغَامَاً
 يَا لَحَا اللَّهُ مُهْمَلَاً حَسِبَ الدَّهْرَ نَوُومَ الْجُفُونِ عَنْهُ فَنَامَاً
 عَلِقَاً فِي يَدِ الْمَنَى كَلِمَا نَال هَوَى يَبْتَغِيهِ رَامَ مِنْهُ مَرَامَاً
 هَل لَنَا، بِالْغَيْنِ كُلِّ مُرَادٍ غَيْرُ مَا يَمَلَأُ الضُّلُوعَ طَعَامَاً
 فَإِذَا أَعْوَزَ الْحَلَالُ فَشَلَّ اللَّهُ كَفَّأ جَرَّتْ إِلَيْهَا الْحَرَامَاً
 وَمَا لِسَغَابِ الْبَطُونِ أَحْظَى لَذِي الْمَجْدِ مِنَ الْقَوْمِ يَأْكُلُونَ الْخَطَامَاً
 دَعَّ عَلَى أَرْبَعِ الرِّخَاءِ رِجَالَاً سَكَنُوا فِي رُبَى الرِّخَاءِ خِيَامَاً
 كُلَّمَا أَقْحَطُوا اسْتَمَرُّوا مِنَ الْعَا وَإِمَا صَدَّوْا تَرَوُّوْا أَثَامَاً
 وَقَمِ اللَّيْلِ نَاجِيَاً خِدَعِ الدَّهْرِ وَإِنْ لَمْ تَجِدْ رِجَالَاً قِيَامَاً
 وَاخْشَ مَا قِيلَ فِيهِ قَدْ تَمَّ فَالْجُدُّ الَّذِي لَا يَخَافُ إِلَّا التَّمَامَاً
 أَيُّهَا الْمَوْتُ كَمْ حَطَّطْتَ عَلَيَّا سَامِي الطَّرْفِ أَوْ جَدَّذْتَ سَنَامَاً
 وَإِذَا مَا حُدِرْتَ خَلْفَاً وَظَنُّوْا نَجَاةً مِنْ يَدَيْكَ كُنْتَ أَمَامَاً

إخواني: كأن القلوب ليست متنا، وكان الحديث يُعنى به غيرنا.

كَمْ مِنْ وَعِيدٍ يَخْرُقُ الْآذَانَا كَأَنَّمَا يُعْنَى بِهِ سِوَانَا

أَصَمَّنَا الْإِهْمَالُ بَلْ أَعْمَانَا

إخواني: غاب الهدهد عن سليمان فتوعده بلفظ ﴿لَا عُدْبَنَهُ﴾ فيا من يغيب طول عمره عن طاعتنا، أما تخاف من غضبنا؟! خالف موسى الخضر في طريق الصَّحْبَةِ ثلاث مرات فحلَّ عُقْدَةَ الْوِصَالِ بِكَفٍّ: ﴿هَذَا فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنِكَ﴾

أما تخاف يا من لم يَفِ لمولاه أبداً أن يقول في بعض خطاياك ﴿ هذا فراق بيني وبينك ﴾ .

كان الحسن شديد الخوف والبكاء فعوتب على ذلك فقال : وما يؤمني أن يكون اطّلع عليّ في بعض زلّاتي فقال : اذهب فلا غفرت لك !

لعلك غضبانّ وقلبي غافلٌ سلامٌ على الدارين إن كنت راضياً
أخبرنا ابن حبيب أنبأنا أبو سعد بن أبي صادق، أنبأنا ابن باكويه، حدثنا
أبو الفرج الشريحي، سمعت علي بن عبد الله التميمي، عن محمد بن يحيى، حدثنا
ابن موسى الزاهد، عن عبد الله بن المبارك، قال: بيّنا أنا ذات ليلة في الجبّان إذ
سمعت حزيناً يناجي مولاه، ويشكو إليه ما يلقيه يقول:

سيدي ! قصدك عبدٌ روحه لديك، وقيّاده بيديك، واشتياقه إليك،
وحسراته عليك، ليله أرق، ونهاره قلق، وأحشاؤه تحترق، ودموعه تسبّق شوقاً
إلى رؤيتك، وحنيناً إلى لقائك، ليس له راحة دُونَكَ، ولا أملٌ غيرك .

ثم بكى ورفع طرفه إلى السماء وقال : سيدي ؟ عظّم البلاء وقلّ العزاء ، فإن
أَكُ صادقاً فأمتني . وشهق شهقة فحرّكته فإذا هو ميت ، فبيّنا أنا أراعيه ، وإذا
بجماعة قد قصدوه فغسلوه وحنطوه وكفنوه وصلوا عليه ودفنوه وارتفعوا نحو
السماء فأخذني فكرٌ وغشيتني غشية فلم أفق إلا بعد حين .

يا سالكاً طريقَ الجاهلين ، راضياً بلعب الغافلين ، متى نرى هذا القلب القاسي
يلين ، متى تباع الدنيا وتشتري الدين ، واعجباً لمن آثر الفاني على ما يدوم ،
وتعجّل الهوى واختار المذموم ، ودنت هيمته فهو حول الوسخ يحوم ، وأقبل على
القبيح ناسياً يوم القدوم ، فأصبح شرّاً خاسراً وأبعد مَلُوم .

أَتَقَرُّنِي آمَالِيهِ بَعْدَ الْقُرُونِ الْخَالِيَةِ
أَهْلُ الْمَرَاتِبِ وَالْمَنَاصِبِ وَالْقُصُورِ الْعَالِيَةِ
عَادَتْ لَهُمْ دُنْيَاهُمْ بَعْدَ الْمُدَّةِ الْقَالِيَةِ

نادت منازلهم قفوا وتأمّلوا أطلاليه
فغمّوض باطن حالهم يُبديه ظاهراً حاله
كانوا عقوداً عطّلت منها النّحور الحاليه
إنّي لأذكر معشراً ما النفس عنهم ساليه
فأقول والهففي على تلك الوجوه الباليه

أفق من سكرتك أيها الغافل، وتحقق أنك عن قريب راحل، فإنما هي أيام
قلائل، فخذ نصيبك من ظل زائل، وأقض ما أنت قاضٍ، وافعل ما أنت فاعل.

أنسيت يا مغروراً أنك ميت أيقن بأتك في المقابر نازل
تفنى وتبلى والخلائق للبلبلى أمثل هذا العيش يفرح عاقل

يا لاحقاً بأبائه وأمّهاته، لا بد أن يصير الطلّ إلى مهاته، يا من جلّ همته
جل خياطه وطهاته، يقلبه الهوى وهو غالب دّهاته، إن كان لك في تفريطك
عذر فهاته، يا متيّماً بالدنيا في ثياب صبّ، يا من أتى المعاصي ونسي الرب، يا
مُدنفاً بالخطايا وما استطبّ، يا أسير فحّ الأمانى، وما نال الحبّ.

إخواني: ذهبت الشيبه الحبيبه، ونبال المصيبة بها مصيبة، كانت أوقات
الشباب كفصل الربيع، وساعاته كأيام التشريق، والعيش فيها كنور الرياض،
فأقبل الشيب يعد بالفناء ويوعده بصفر الإناء، فحلّ وأجلّ المريرة.

لأمواه الشيبه كيف غضنه ورؤضات الصبا في اليبس أضنه
وآمال النفوس معلّلات ولكن الحوادث يعترضنه
فلا الأيام ترضى من أذاه ولا المهجات من عيش عرضنه
هي الأشباح كالأسماء يجري القضاء فيرتفعن ويخفضنه

الكلام على قوله تعالى ﴿يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُّخَلَّدُونَ﴾^(١)

الولدان: الغلمان. وفي المراد بقوله ﴿مُخَلَّدُونَ﴾ قولان: أحدهما: أنه من الخُلْد، والمعنى. أنهم مخلوقون للبقاء لا يتغيرون، وهم على سِنٍّ واحد. والثاني: أنهم المقرّطون، ويقال: المسوّرون.

سجع

هذه صفات أقوام كانوا في مَرَضِينَا يَجْتَهِدُونَ، ولأعدائنا بصِدْقٍ ولأئنا يجاهدون، وفي جادة الجد والاجتهاد يَجِدُونَ، وبين الخوف منا والطمع فينا يترددون، فهم عند شقاء العصاة بالخلاف يَسْعُدُونَ، وفي جِنَانِ الخلود على حياض السعود يَرِدُونَ ﴿يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُّخَلَّدُونَ﴾.

وضحت لهم مَحَجَّةَ النجاة فساروا، ولاحت لهم أنوار الهدى فاستناروا، وعرفوا دارَ الكريم فطافوا حولها وداروا، وصانوا مطلوبهم عن الأغيار وغاروا، ولم يرضوا في حال من الأحوال بالدُّون ﴿يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُّخَلَّدُونَ﴾. أعددنا لهم القصور والأرائك، وأخذمناهم الولدان والملائك، وأبَحْنَاهم الجِنَانِ والممالك، وسلّم عليهم في قصورهم المالك، وإنما وهبنا لهم جميع ذلك لأنهم كانوا في خدمتنا يَجْتَهِدُونَ ﴿يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُّخَلَّدُونَ﴾.

استنارت بالتحقيق طريقهم، وتمّ إسعادهم وتوفيقهم، وتحقّق بالجد والاجتهاد تحقيقهم، وساروا صادقين فوضّحت طريقهم، وشرف بهم مُصَاحِبَهُم ورفيقهم، لأنهم أخلصوا في طلب ما يَقْصِدُونَ ﴿يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُّخَلَّدُونَ﴾. يا من سبقوه إلى الخيرات وتخلّف، وأذهب عُمره في البطالة وتسوّف،

(١) الواقعة ١٧.

وعرّف المصيرَ فما عرّف النجاة ولا تعرّف، وكلف بالدينا، فإذا طلب الأخرى تكلف، يا من مرضه قد تمكّن من جملته وتصرف، اطلب الشفاء يا من على شفا هلكه قد أشرف، وابك على ضلالك في الهوى فالقوم مهتدون ﴿يطوف عليهم ولدان مخلدون﴾.

قوله تعالى: ﴿بأكواب وأباريق﴾^(١) الكوب إناء لا عروة له ولا خرطوم. والأباريق: آنية لها عرى وخراطيم.

سجع

تركوا لأجلنا لذيد الطعام، وساروا يطلبون جزيل الإنعام، وقاموا في المجاهدة على الأقدام، وتدرّعوا ملابس الأتقياء الكرام، نُشرت لهم بصدقهم الأعلام، وحلوا حلية الرضا وأحلّوا محل التوفيق ﴿يطوف عليهم ولدان مخلدون بأكواب وأباريق﴾.

طال ما عطشوا في دنياهم وجاعوا، وذلّوا لسيدهم صادقين وأطاعوا، وخافوا من عظمتهم وارتاعوا، وبأخراهم ما يفنى من دنياهم باعوا، وحرسوا بضائع التقى فما فرطوا ولا أضعوا، وجانبوا ما يشين، وصاحبوا ما يليق، فطاف الولدان على شفاه يبست بالصيام وأتى الرقيق ﴿يطوف عليهم ولدان مخلدون بأكواب وأباريق﴾.

تحملوا أثقال التكليف، ورفضوا التماذي والتسويق، وقطعوا طريق الفوز للتشريف، وجانبوا موجب العتاب والتعنيف، فتولّاهم مولاهم وحمّاهم في الطريق، وأقاموا الولدان تسقيهم من الرحيق ﴿بأكواب وأباريق﴾.

قوله تعالى: ﴿وكأس من معين﴾^(٢) الكأس: الإناء بما فيه والمعين: الماء الطاهر الجاري، قال الزجاج: المعين ها هنا: الخمر يجري كما يجري الماء على وجه الأرض من العيون.

(٢) الواقعة ١٨.

(١) الواقعة ١٨.

سج

طال ما ظمئت لأجلنا هواجرهم، طال ما يبست بالصيام لنا حناجرهم، طال ما غرقت بالدموع محاجرهم، طال ما أزعجتهم مواعظهم وزواجرهم، طال ما صدقت معاملتهم ومتاجرهم، فغدا يطوف عليهم الولدان والهور العين ﴿بأكوابٍ وأباريقٍ وكأسٍ من معين﴾ .

نظر إليهم مولاهم فارتضاهم، وأنعم عليهم فاخترهم واصطفاهم وأعطاهم من فضله وإحسانه مناهم، ومنحهم ما لا يحصى من الخير وحباهم، فإذا قدموا عليه أطعمهم وسقاهم وأجلسهم على موائد الفوائد من زوائد التمكين ﴿بأكوابٍ وأباريقٍ وكأسٍ من معين﴾ .

لقد لَدَّ نعيمهم وطاب، وصين حريمهم يومَ الثواب، ودام تكريمهم وزال العتاب، وتوقَّر تعظيمهم بين الأحباب، ونجا غريمهم من ورطات الحساب، فأشرقت ديارهم وفتحت الأبواب، وطاف عليهم الولدان في المقام الأمين ﴿بأكوابٍ وأباريقٍ وكأسٍ من معين﴾ .

قوله تعالى: ﴿لَا يُصَدَّعُونَ عَنْهَا﴾ أي لا يلحقهم الصداع الذي يلحق شارب خمر الدنيا. وعنها: كناية عن الكأس المذكورة، والمراد بها الخمر ﴿وَلَا يُنْزَفُونَ﴾ قرأ ابن كثير ونافع وأبو عمرو وابن عامر بفتح الزاي. وقرأ حمزة والكسائي بكسرها. قال الفراء: فمن فتح فالمعنى: لا تذهب عقولهم بشربها: يقال للسكران: نزيف ومنزوف. ومن كثر ففيه وجهان: أحدهما: لا يُنفدون شرابهم أي هو دائم أبداً. والثاني: لا يسكرون. قال الشاعر:

لعمري لئن أنزفتم أو صحوتم لبئس الندامى كنتم آل أبجرا

فان قال قائل: المقصود من الخمر السكر. فالجواب: أن السكر إنما يراد ليزيل الهم، وليس في الجنة هم، فلا فائدة في إزالة العقل، ألا ترى أن النوم لما أريد للراحة، ولم يكن في الجنة تعب لم يكن نوم.

سجع

دار ليس فيها ما يُشِينها، دار لا يفنى منها ما يزيِنها، دار لا يزول عِزّها وتمكينها، دار لا تَهْرَم فيها عَيْنُها، لذّة خمرهم تفوق ما كانوا يعرفون ﴿ لا يُصدِّعون عنها ولا يُنزفون ﴾^(١)

دار أشرقت حِلّاهَا، دار عزت عُلاهَا، دار جَلَّ مَنْ بناها، دار طاب للأبرار سَكَنُها، دار تبلغ النفوسُ فيها مَنّاها، أين خاطبوا فقد وصَفناها، سَكَنَها قد أمِنوا ما كانوا يخافون ﴿ لا يُصدِّعون عنها ولا يُنزفون ﴾ .

ما أتمّ نعيمهم، ما أعزّ تكريمهم، ما أظرف حديثهم وقديمهم، ما أصون حريمهم، ما أكرم كريمهم، قد مُنحوا الخلودَ فما يبرحون ﴿ لا يُصدِّعون عنها ولا يُنزفون ﴾ .

قوله تعالى: ﴿ وفاكهةٍ مما يتخيرون ﴾^(٢) أي يختارون تقول: تخيّرت الشيء إذا أخذت خيره.

قوله تعالى: ﴿ ولحم طيرٍ مما يشتهون ﴾^(٣) قال ابن عباس: يخطر على قلب أحدهم الطير فيصير متمثلاً بين يديه على ما اشتهى. وقال مغيث بن سمي: يقع على أغصان شجرة طوبى طير كأمثال البُخْت، فإذا اشتهى الرجل طيراً دعاه فيجيء، فيقع على خِوانه فيأكل من أحد جانبيه قديداً ومن الآخر شِواءً، ثم يعود طيراً فيطير، فيذهب.

سجع

ثمارهم في أشجارهم وافرة، وفواكههم من العيوب طاهرة، ووجوههم بأنوار القبول ناضرة، وعيونهم إلى مولاهم ناظرة، وقد حازوا شرف الدنيا وفوز الآخرة، وأجلّ النعيم أنهم لا يتغيرون ﴿ وفاكهةٍ مما يتخيرون ﴾ .

(١) الواقعة ١٩

(٢) الواقعة ٢٠

(٣) الواقعة ٢١

كانوا في أوقات الأسحار يَنْتَبِهون، وبالأَسَارَى في الاعتذار يتشبهون، وقد تركوا النفاق فما يَمُوهون، والتزموا الصدق فيما به يتفوهون، وإذا أَمْوَا فضيلةً فما ينتهون عنها حتى يَنْتَهون، فقد فازوا يومَ القيامة بما كانوا يطلبون ﴿وفاكهة مما كانوا يتخيرون﴾.

قوله تعالى: ﴿وَحُورٍ عِينٍ﴾ قرأ ابن كثير، ونافع، وأبو عمرو، وابن عامر وعاصم: ﴿وَحُورٌ عَيْنٌ﴾ بالرفع فيهما، وقرأ حمزة والكسائي بالخفص فيهما. وقرأ أبي بن كعب وعائشة: ﴿وَحُوراً عِيناً﴾ بالنصب فيهما. قال الزجاج: الذين رفعوا كرهوا الخفص لأنه معطوف على قوله ﴿يطوف عليهم﴾ قالوا: والهور ليس مما يطاف به. ولكنه محفوظ على غير ما ذهب إليه هؤلاء، لأن المعنى: يطوف عليهم ولدان بأكواب ينعمون بها، وكذلك ينعمون بحور عين والرفع أحسن. والمعنى: ولهم حور عين ومن نصّب حملّه على المعنى، لأن المعنى يُعْطُونَ هذه الأشياء ويُعْطُونَ حُوراً عِيناً. ويقال: عَيْن حَوْرَاء إذا اشتد بياضها وخلص، واشتد سوادها، ولا يقال: امرأة حَوْرَاء إلا أن تكون مع حَوْر عِينها بيضاء. والعَيْن: كبار العيون حِسَانها. قال: ومعنى كَأَمْثال اللؤلؤ: أي صفاؤها وتلألؤها كصفاء اللؤلؤ وتلألؤه. والممكنون: الذي يخرج من صدفة فلم يغيره الزمان واختلاف أحوال الاستعمال.

﴿جَزَاءً﴾ منصوب مفعول له، والمعنى: يفعل بهم ذلك جزاء بأعمالهم. قال: ويجوز أن يكون منصوباً على أنه مصدر، لأن المعنى: يطوف عليهم ولدان يُجَازون جزاءً بأعمالهم مخلدون.

سجع

على قوله تعالى: ﴿جَزَاءً بما كانوا يعملون﴾

منحهم من الخبر ما ليس بِمَمْنُون، وأمَّنهم في الجنة حوادث المنون،

وجعلهم على حفظ سره يؤتمنون، إذ كانوا بأسمائه وصفاته يؤمنون، فلهم [من] فضله فوق ما يشاءون ﴿وحور عِين، كأمثال اللؤلؤ المكنون﴾ (١).

خلقهم لخدمته وأرادهم، وأربحهم في معاملته وأفادهم، وجعل الرضا بقضائه زادهم، وأعطاهم من جزيل رِفْده وزادهم؛ وأثابهم ما لم يخطر على الظنون ﴿جزاء بما كانوا يعملون﴾.

كانوا يصدقون في الأقوال ويخلصون في الأعمال، ولا يرضون بالدنيء من الحال، ولا يأنسون بما ينتهي إلى زوال، فجزاهم على أفعالهم ذو الجلال، إذ أسكنهم في جنته في ظلال على الأرائك متكئون ﴿جزاء بما كانوا يعملون﴾.

قوله تعالى: ﴿لا يسمعون فيها لغواً ولا تأثيماً﴾ (٢) اللغو [ما] لا يفيد. والمعنى: أن خمر الجنة لا تذهب بعقولهم فيلغوا ويأثموا كما يكون في خمر الدنيا.

فإن قال: التأثيم لا يُسمع فكيف ذُكر مع المسموع؟ فالجواب: أن العرب تُتبع آخر الكلام أوله، وإن لم يحسن في أحدهما ما يحسن في الآخر، فيقولون: أكلتُ خبزاً ولبناً. قال الشاعر:-

إذا ما الغانياتُ برزْنَ يوماً وزجَّجْنَ الحواجِبَ والعيونَا
والعين لا تزجِّجُ، فردّها على الحاجب. وقال آخر:

ولقد لقيتُك في الوغَى متقلداً سيفاً ورُمحاً

وقال آخر:

عَلَفْتُهَا تَبْنًا وَمَاءً بَارِدًا

(١) الواقعة ٢٢.

(٢) الواقعة ٢٥.

سجع علي قوله تعالى

﴿ لا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا تَأْتِيهَا ﴾

أعرضوا في الدنيا عن اللغو، وتركوا رائق الشهوات واللهو، وآثروا الذلَّ على الغنى والزَّهْوِ، وتيقظوا للأوامر معرضين عن السهو، فأسكنهم في جنته يوم زيارته حريمًا ﴿ لا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا تَأْتِيهَا ﴾.

أَجْرَلْنَا لَهُمُ الثَّوَابَ، وَسَمَّيْنَاهُمْ بِالْأَحْبَابِ، وَأَمَّنَاهُمْ مِنَ الْعَذَابِ، وَاصْطَفَيْنَاهُمْ لِلْمَخَاطَبَةِ وَالْجَوَابِ، وَالْمَلَائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِمْ مِنْ كُلِّ بَابٍ، بِبَشَارَاتٍ تَوْجِبُ تَقْدِيمًا ﴿ لا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا تَأْتِيهَا ﴾.

تبدؤهم بالسلام، وتخصهم بالتحايا والإعظام، وتأتيهم بأنواع التحف والإكرام، وتبشّرهم بالخلود في دار السلام، وقد آمنوا أن يسمعوا من اللغو كلاماً إلا قليلاً سلاماً سلاماً.

قوله تعالى: ﴿ وَأَصْحَابُ الْيَمِينِ مَا أَصْحَابُ الْيَمِينِ ﴾ في أصحاب اليمين سبعة أقوال:

أحدها: أنهم الذين كانوا على يمين آدم حين خرجت ذريته من صلبه. قاله ابن عباس.

والثاني: أنهم الذين يُعْطُونَ كُتُبَهُمْ بِأَيْمَانِهِمْ. قاله الضحاك والقرظي.

والثالث: أنهم كانوا ميامين على أنفسهم مباركين. قاله الحسن والربيع.

والرابع: أنهم الذين أخذوا من شِقِّ آدَمِ الْإِيمَانَ. قاله زيد بن أسلم.

والخامس: أنهم الذين منزلتهم عن اليمين. قاله ميمون بن مهران.

والسادس: أنهم أهل الجنة. قاله السُّدِّي.

والسابع: أنهم أصحاب المنزلة الرفيعة. قاله الزجاج.

وقوله: ﴿ مَا أَصْحَابُ الْيَمِينِ ﴾ تعظيم لشأنهم. تقول: زيد ما زيد.

سجع على قوله تعالى

﴿وأصحاب اليمين ما أصحاب اليمين﴾

أصحاب فهم ويقين، أصحاب جد وتمكين، أصحاب عزّ مكين، أصحاب خوف ودين، ينتزهون عن من يمين ﴿وأصحاب اليمين ما أصحاب اليمين﴾. أصحاب مُلك لا يزول، أصحاب فخر لا يحُول، أصحاب تقديم ووصول، أصحاب شرف بالقبول، أصحاب تمكن في مقام أمين ﴿ما أصحاب اليمين﴾.

أصحاب قرب وحضور، أصحاب عز ونور، أصحاب جَنان وقصور، فيها حِسَان من الحور، أصحاب مُكنة ليس فيها قصور، أصحاب مُثَمَّن ثمين ﴿وأصحاب اليمين ما أصحاب اليمين﴾.

قوله تعالى: ﴿في سِدْرٍ مَّخْضُودٍ﴾^(١) السِّدْر: شجر النَّبَق. والمخضود: الذي لا شوك فيه. والطلّح: الموز. قاله ابن عباس والحسن وعطاء ومُجاهد. فإن قيل: غير الطّللح أحسن منه؟ فالجواب: أنّ الصحابة رضي الله عنهم مروا بوجّ وهو وادٍ بالطائف فأعجبهم سِدْره فقالوا: يا ليت لنا مثل هذا. فنزلت هذه الآية ووعدّهم ما يعرفون ويميلون إليه.

والمخضود: قال ابن قتبية: هو الذي قد نُضدّ بالحِمل، أو بالورق والحِمل من أوله إلى آخره، فليس له ساق بارزة.

سجع على قوله تعالى

﴿في سدر مخضود﴾

عباد طاعوا المعبود، وأوصلوا الركوع والسجود، وسألوا من يتفضل ويوجد، فوفّر نصيبهم من الرِّقْد المرفود ﴿في سدر مخضود﴾.

(١) الواقعة ٢٨.

وردوا إليه أكرم ورود، وأمنوا في وصالهم عائق الصدود، وأتعبوا الأعضاء في خدمته والجلود، فمنحهم طيب العيش في جنات الخلود ﴿ في سدر مخضود ﴾ .

تصافوا فاصطفوا في خدمته كالجنود، واستلوا سيوف الجهاد من الغمود، وقمعوا بالصدق العدو الكنود، وأرغموا بسبقتهم أنف الحسود، فخصهم مولاهم بالفضل والسعود ﴿ في سدر مخضود ﴾ .

طلبوا بالصدق الصادق الودود، وسعوا إليه يسألون إنجاز الوعود، وطمعوا في كرمه أن يتفضل ويعود، وأسبلوا دموعهم من خشيته على الخدود، فيا لتعيمهم وأطيب منه الخلود ﴿ في سدر مخضود ﴾ .

شكروا من أخرجهم من العدم إلى الوجود، وتفضل عليهم بكر خير وجود، وعلموا أن الإخلاص هو المقصود، فاستعدوا وأعدوا لليوم المشهود ﴿ في سدر مخضود ﴾ .

تمكنوا بالكتاب القديم، وطلبوا من المنعم الكريم أن يعمهم بالفضل والتكريم، فمن عليهم بالخير العميم، فهم في الجنان في أحلى نعيم، عند ملك كبير عظيم، ليس بوالد ولا مولود ﴿ في سدر مخضود وطلح منضود ﴾ (١) .

أعد لهم أوفى الذخائر، وهذب منهم البواطن والظواهر، وجعلهم بين عباده كالنجوم الزواهر، وبنى لهم الغرف باللؤلؤ والجواهر، فهم في مجد كريم، وسعد غير محدود ﴿ في سدر مخضود وطلح منضود ﴾ .

استزارهم إلى جنته، وخصهم بكرامته، وأنعم عليهم برؤيته وجعلهم في حصن حصين من رعايته، في ظل نعيم دائم ممدود ﴿ في سدر مخضود وطلح منضود ﴾ .

طال ما حملوا تكليفه واستقلوا، وسعوا إلى مرضيه فما ضلوا، وتفتياوا

(١) الواقعة ٢٨ .

ظلالَ التوكّل عليه واستظلّوا، ورضوا بقضائه صابرين فما ملّوا، وائتمنهم على الإيمان فما خانوا ولا غلّوا، وكفّوا أكفّهم عن غيره ثقةً به وغلّوا، فعزوا بخدمته، إذ لخدمته ذلّوا، فأثابهم نعيماً ليس بمجدود ولا محدود ﴿ في سِدْرٍ مخضودٍ وطلحٍ منضودٍ ﴾.

مألوا إليه وتركوا المال، وعلّقوا بالطمع في فضله الآمال، وأعرضوا عن الدنيا شغلاً بالمال، وألّفوا خدمته وهجروا المال، وراضوا أنفسهم بالفقر ورضوا بالإقلال، وأنسوا بمناجاته ونسوا الآل، فإذا تلقّاهم مَوْلَاهم قال: مرحباً بالوفود ﴿ في سِدْرٍ مخضودٍ وطلحٍ منضودٍ ﴾.

اللهم فاجعلنا من المتقين الأبرار، وأسكنا معهم في دار القرار، ولا تجعلنا من المخالفين الفجار، وآتينا في الدنيا حسنةً، وفي الآخرة حسنةً، وقنا عذاب النار، يا من لم يزل يُنعم ويوجود، برحمتك يا أرحم الراحمين. والحمد لله وحده وصلى الله على محمد وآله وصحبه.

المجلس السابع عشر

في قصة قارون

الحمد لله الذي يمحو الزلزال ويصفح، ويغفر الخطأ ويمسح، كل من لاذ به أنجح، وكل من عامله يربح، تشبيهه بخلقه قبيح وجحدته أقبح، رفع السماء بغير عمد فتأمل والمح، وأنزل القطر فإذا الزرع في الماء يسبح، والمواشي بعد الجذب في الخصب تسرح، وأقام الورق على الورق تشكر وتمدح، ويندب هديلها ولا ندب ابن الملوّح، أغنى وأفقر والفقير في الأغلب أصلح، كم من غني طرّحه البطر والأشر أقبح مطّرح، هذا قارون ملك الكثير وبالقليل لم يسمع، يتجشأ شيعاً وينسى الطلنّفح، نُبّه فلم يزل نومه، وليم فلم ينفع لومه ﴿إذ قال قومه لا تفرح﴾ (١).

أحمدته ما أمسى السماء وما أصبح، وأصلّى على رسوله محمد الذي أزل عليه: ﴿ألم نشرح﴾ (٢)، وعلى أبي بكر صاحبه في الدار والغار لم يبرح، وعلى عمر الذي لم يزل في إعزاز الدين يكدح، وعلى عثمان ولا أذكر ما جرى ولا أشرح، وعلى عليّ الذي كان يغسل قدميه في الوضوء ولا يمسح، وعلى عمه العباس أقرب الكل نسباً وأرجح.

قال الله تعالى: ﴿إنّ قارون كان من قوم موسى﴾ (٣) قارون بن يصهر بن قاهث. وفي نسبه إلى موسى ثلاثة أقوال:
أحدها أنه كان ابن عمه. رواه سعيد بن جبّير. عن ابن عباس، وبه قال النخعيّ وابن جرّيج.

(٣) القصص ٧٦.

(١) القصص ٧٦.

(٢) الإنشراح ١.

والثاني: ابن خالته. رواه عطاء عن ابن عباس.

والثالث: كان عمّ موسى. قاله ابن إسحاق.

قوله تعالى: ﴿فَبَعَىٰ عَلَيْهِمْ﴾ وفيه خمسة أقوال:

أحدها: أنه جعل لبغية جُعلاً على أن تقذِفَ موسى بنفسها. ففعلت فاستحلّفها موسى على ما قالت فأخبرته بقصتها. فهذا بَعَيْه قال ابن عباس.

والثاني: أنه بَعَى بالكفر. قاله الضحاك.

والثالث: بالكِبْر. قاله قَتَادَة.

والرابع: أنه زاد في طول ثيابه شِيراً. قاله عطاء الخراساني وشَهْر بن حَوْشَب.

والخامس: أنه كان يخدم فرعون ويتعدّى على بني إسرائيل ويظلمهم. حكاه الماوردي.

وفي المراد: بمفاتيحه قولان: أحدهما: أنها مفاتيح الخزائن التي تُفتح بها الأبواب. قاله مجاهد وقَتَادَة. قال خَيْثَمَة: كانت المفاتيح التي تفتح بها الأبواب وقرستين بغلاً، وكانت من جلود، كلُّ مفتاح مثل الإصبع.

والثاني: أن المراد بالمفاتيح الخزائن، قاله السُّدي وأبو صالح والضحاك. قال الزَّجَّاج: وهذا الأشبه، وإلى نحو هذا ذهب ابن قُتَيْبَة. قال أبو صالح: كانت خزائنه تُحمل على أربعين بغلاً.

قوله تعالى: ﴿لَتَنُوْا بِالْعُصْبَةِ﴾ أي تُثْقَلُهم وتُمِيلُهم. و العُصْبَة: الجماعة. وفي المراد بها ها هنا ستة أقوال:

أحدها: أربعون رجلاً. رواه عكرمة عن ابن عباس.

والثاني: ما بين الثلاثة إلى العشرة رواه الضحاك عن ابن عباس.

والثالث: خمسة عشر. قاله مجاهد.

والرابع: فوق العشرة إلى الأربعين. قاله قتادة.

والخامس: سبعون رجلاً. قاله أبو صالح.

والسادس: ما بين الخمسة عشر إلى الأربعين. حكاه الزجاج.

قوله تعالى: ﴿إِذْ قَالَ لَهُ قَوْمُهُ﴾ يعني المؤمنين ﴿لَا تَفْرَحْ﴾ أي لا تَبْطُر ﴿وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ﴾ يعني الجنة بإنفاقه في طاعته. ﴿وَلَا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا﴾ وهو أن تعمل فيها للآخرة ﴿وَأَحْسِنْ﴾ بإعطاء فضل مالك ﴿كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ﴾ بأن زادك على قدر حاجتك ﴿وَلَا تَبْغِ الْفُسَادَ﴾ بأن تعمل بالمعاصي.

﴿قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ عِنْدِي﴾ (١) فيه خمسة أقوال:

أحدها: على علم عندي بصنعة الذهب. رواه أبو صالح عن ابن عباس. قال الزجاج: وهذا لا أصل له، لأن الكيمياء باطل لا حقيقة له.

والثاني: رضا الله عني. قاله ابن زيد.

والثالث: على خير علمه الله مني. قاله مقاتل.

والرابع: إنما أعطيتني بفضل علمي. قاله الفراء.

والخامس: على علم عندي بوجوه المكاسب. ذكره الماوردي.

قوله تعالى: ﴿وَلَا يُسْأَلُ عَنْ ذُنُوبِهِمُ الْمُجْرِمُونَ﴾ (٢) قال قتادة: يدخلون النار بغير حساب.

﴿فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِ فِي زِينَتِهِ﴾ في ثياب حُمْرٍ وَصُفْرٍ. قال عكرمة: في ثياب مَعْصُفْرَةٍ. قال وهب بن منبه: خرج على بغلة شهباء عليها سرج أحمر من أرجوان، ومعه أربعة آلاف مقاتل وثلاثمائة وصيفة عليهن الحلى والزينة، على بغال بيض. قال الزجاج: الأرجوان: صنغ أحمر.

قوله تعالى: ﴿وَلَا يُلْقَاهَا﴾ يعني الكلمة التي قالها المؤمنون وهي: ﴿ثَوَابُ

(٢) القصص ٧٨.

(١) القصص ٧٧ - ٧٨.

اللَّهُ خَيْرٌ ﴿١﴾ .

قال ابن عباس: لما نزلت الزكاة أتى موسى وهرون قارون فصالحه على كل ألف دينار ديناراً، وعلى كل ألف درهم درهماً وعلى كل ألف شاة شاة. فوجد ذلك مالاً كثيراً فجمع بني إسرائيل وقال: إن موسى يريد أموالكم. قالوا: فماذا تأمرنا؟ قال: نجعل لفلانة البغية جُعللاً، فتقذفه بنفسها. ففعلوا. ثم أتاه قارون فقال: إن قومك قد اجتمعوا لتأمرهم وتنهاهم. فخرج فقال: يا بني إسرائيل من سرق قطعنا يده، ومن افترى جلدناه ثمانين، ومن زنى وليست له امرأة جلدناه مائة فإن كانت له امرأة جلدناه حتى يموت. فقال له قارون: وإن كنت أنت؟ قال: وإن كنت أنا. قال: فإن بني إسرائيل يزعمون أنك فجرت بفلانة. قال: ادعوها فلما جاءت قال موسى: يا فلانة أنا فعلت ما يقول هؤلاء؟ قالت: لا كذبوا، وإنما جعلوا لي جُعللاً على أن أقذفك. فسجد فأوحى الله عز وجل إليه مَرِ الْأَرْضَ بما شئت. فقال: يا أرض خذيه. فأخذته حتى غيبت سريره، فلما رأى ذلك ناشده بالرحم فقال: خذيه فأخذته حتى غيبت قدميه، فما زال يقول: خذيه. حتى غيبتهُ فأوحى الله تعالى إليه: يا موسى ما أفطك! وعزتي وجلالي لو استغاث بي لأعنته!

قال سمره بن جندب: يُخسف به كل يوم قامة، فيبلغه إلى الأرض السفلى يوم القيامة.

فلما هلك قال بنو إسرائيل: إنما أهلكه موسى ليأخذ ماله وداره. فخسف الله بداره وبماله بعد ثلاثة أيام.

﴿فَمَا كَانَ لَهُ مِنْ فِئَةٍ يَنْصُرُونَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ أي ينعونه من الله.

فأصبح المتمنون مكانه قد ندموا على تمنيمهم، فجعلوا يقولون: ﴿لَوْلَا أَنْ مَنْ اللَّهُ عَلَيْنَا لَخَسَفَ بِنَا وَيُكَانَّهُ﴾ (١) قال ابن الأنباري: إن شئت قلت: ﴿ويك﴾ حرف ﴿وأنه﴾ حرف. والمعنى ألم تر أنه قال الشاعر:

(١) القصص ٨٢.

تسألاني الطلاق أن تريناني قَلَّ مالي قد جئتما بهُجْرٍ
ويك أن من يكن له نَشَبٌ يُحِبُّ ومن يفتقر يعيش عيشَ ضُرِّ

وإن شئت جعلت « وَيَّ » حرفاً ويكون معنى « وَيَّ » التعجب كما تقول:
وي ! لِمَ فعلت كذا؟ ويكون معنى ﴿ كَأَنَّهُ ﴾ أظنه وأعلمه، كما تقول: كأنك
بالفرج قد أقبل. والمعنى أظنه مقبلاً. وإنما وصلوا الياء بالكاف لأن الكلام
بهما كَثُرَ.

وذكر الزجاج عن الخليل أنه: قال « وَيَّ » مفصولة من « كَأَنَّ » وذلك أن
القوم ندموا فقالوا: وي. متندمين على ما سلف منهم.

﴿ تِلْكَ الدَّارُ الآخِرَةُ ﴾ يعني الجنة ﴿ وَنَجَعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي
الأَرْضِ ﴾ وهو البغي ﴿ وَلَا فساداً ﴾ وهو العمل بالمعاصي ﴿ والعاقبة ﴾
المحمودة ﴿ لِلْمُتَّقِينَ ﴾.

الكلام على البسمة

أَيَا وَالِيَّ المِصْرِ لَا تَظْلَمَنَّ
وقد أَبَرَ النخْلَ مَلَأَكُوهُ
فَلَا تُرْسِلَنَّ حِيَالَ المَنَى
تقارِفِ مستكثراتِ الذنوبِ
فكم جاء مثلك ثم انصرف
فَنَقَّضَ عِزَّهُمُ واحترف
وَأَمْسَكَ بكفك منها طرف
وتَغْفَلُ عن ذنبك المقترف

أين من جمع الأموال وتمولها، وطاف البلادَ وجولها، وشق أنهار الأرض
وجدولها، رأت والله كلَّ عاملة عملها، ونزلت بعد سفرها منزلاً، عنت
الوجه على جسور المنايا الحوابس، وأذلَّ قبر الموتِ الشوامس، وصير الفصحاء
في مقام الهوامس، يالليالي المرض إنها ليالٍ دوامس، يالأساعة اللحد حين تحشو
الروامس، كم لقيت وحوه نواعم من أكف طوامس، كم ترحلت من دار
السلامة إلى عسكر البلى فوارس.

سُتْفِر الأَمصارُ من أهلها بحادثاتٍ تَعْمَرُ السَّبَّابَا

يؤثَّب الحافظ أفعالَه وتَفْتَح الآفاتُ ما أشبَّها
لقد هلكت في الزمان جديسه وطُسمه، ولقد ذهب من كان وكان اسمه،
فلا عينه ترى ولا رسمه، ولا جوهره يُحسن ولا جسمه، تبددَ والله باللمات
نظمه، ولحق بالرفات عظمه.

كم طوّفوا بالبلاد وجوّلوا، كم أوعدوا أعداءهم وهوّلوا، كم جمعوا وكم
تحوّلوا، كم اقتنوا وكم تمولّوا، كم طالّوا وما تطوّلوا، والمحنة أنهم على
الأمل عوّلوا، فما كان إلا القليل وتغولوا، وجملة الأمر أنهم تحوّلوا،
واستطالت على الورى عصب ما تطوّلوا، ظهوروا في البلاد عصراً، وطافوا
وجوّلوا، خوّلوا نعمة فلم يشكروا ما تحولوا، فانظر الآن فيهم أيّ غولٍ
تغولوا، وأقاموا فما قيل فازوا ولكن تحولوا.

كم ملأوا سهلاً وجبلاً شاءً وإبلاً، فلما سلّكوا إلى الموت سُبلاً، وعابنوه
يوم الرحيل قبلاً، وتهياؤوا للنزول في دار البلى علموا أن ما كانوا فيه عين
البلا.

أطاعوا ذا الخداع وصدّقوه
ولم يرضوا بما سكنوا مشيدٍ
أظلموا بالقبيح فتابعوه
نهاهم عن طلاب المال زهد.
فألقاها إلى أسمع غُثري
وحبّل العيس منتكث ضعيف
حسبتم يا بني حوا شقاءً
أدين الشر منكم فاحذروه
وكم نصّح النصيح فكذبوه
إلى أن فضضوه وذهبوه
ولو أمروا به لتجنّبوه
فنادى الحرص ويلكم اطلبوه
إذا عرفوا الطريق تنكبّوه
ونعم الرأي أن لا يجذبوه
نجاؤكم الذي لم تحسبوه
ومات الخير فيكم فاندبوه

كان الحسن يقول: أسمع أصواتاً ولا أرى أنيساً، إنما دين أحدهم لعقة
على لسانه، ولو سألته: أتعرف يوم الحساب؟ قال: نعم. وكذب وما لك يوم
الدين.

يامن كتابه يحوي حتى حبة خردلة، وعليه شاهدان كلامهما مُعدّل،
وسيلتحف التراب ويتوسد الجندل، وهو يمشي مُعجباً بنفسه مشية الشمرّدل.

لعمرك ما الدنيا بدار إقامة ولا الحيّ في دار السلامة آمِنُ
تحاربنا أيامنا ولنا رضى بذلك لو أن المنايا تهادنُ
أرى الحيرة البيضاء عادت قصورها خلأء ولم تثبت لكسرى المدائنُ
ركبنا من الآمال في الدهر لجةً فما صبرت للموج تلك السفائنُ
تجيء الرزايا بالمنايا كأنما نفوس البرايا للجمام رهائنُ

الكلام على قوله تعالى

﴿ذَرَهُمْ يَأْكُلُوا وَيَتَمَتَّعُوا وَيُلْهِمِ الْأَمَلُ﴾ (١)

إخواني: اعتبروا بمن مضى من الأقران، وتفكروا في من بنى كيف بان،
تقلبت والله بهم الأحوال، ولعبت بهم أيدي البلبال، ونسيهم أحبابهم بعد ليال،
وعانقوا التراب وفارقوا المال، فلو أُذِن لصامتهم لقال:

من رأنا فليحدّث نفسه أنه مُوفٍ على قُرْب زوال
وصروفُ الدهر لا يتقى لها ولما تأتي به صمّ الجبال
رُبَّ رَكْبٍ قد أناخوا حوّلنا يشربون الخمرَ بالماء الزلال
والأباريق عليها قدم وعتاق الخيل تردي في الجلال
عمروا دهرًا بعيش حسنٍ آمني دهرهم غير عجال
ثم أضحوا لعب الدهر بهم وكذاك الدهرُ حالٌ بعد حال

يا مشغولاً بالأمل والمنى، تأهّب لمصرعٍ قد قارب ودنا، وتزود للقبر من
الصبر كفنا، وتهياً لحرب الهوى، فإذا عزمت فألق القنا، فاللُحودُ المقيـل
وبيت الموتى لا يُبتنى، وحاكم العدل يجازي كلاً بما جنى.

(١) الحجر ٣.

لا بُدَّ لِلإنْسَانِ مِنْ ضَجْعَةٍ لا تَقْلِبِ المَضْجَعِ عَنِ جَنْبِهِ
يَنْسَى بِهَا مَا كَانَ مِنْ عُجْبِهِ بِمَا أَذَاقِ المَوْتَ مِنْ كَرْبِهِ
نَحْنُ بَنُو المَوْتَى. فَمَا بَالُنَا نَعَافُ مَا لَا بُدَّ مِنْ شَرْبِهِ
يَمُوتُ رَاعِي الضَّأْنِ فِي جَهْلِهِ مَوْتَةً جَالِنُوسٍ فِي طَبِّهِ
وَرَبِّمَا زَادَ عَلَيَّ عُمُرَهُ وَزَادَ فِي الأَمَنِ عَلَيَّ سِرْبِهِ
وَغَايَةَ المَفْرَطِ فِي سِلْمِهِ كَغَايَةَ المَفْرَطِ فِي حَرْبِهِ

كَأني بك وقد مدَّ كَفَّهَ إِيكَ المَخَالِسِ، وَافْتَرَسَكَ أَجَلَ كَمِ قَدِ قَرَى فِي
الفَرَائِسِ، وَحَلَلْتَ بِقَاعِ اللَّيْلِ فَحَلَّتْ مِنْكَ المَجَالِسِ، وَنَفَرَ وَبَعُدَ عَنكَ الصَّدِيقِ
الصَّدُوقِ وَالمُودُودِ الجَانِسِ، وَتَرَكَ زِيَارَتَكَ مِنْ كَانَ لَكَ فِي الوَحْدَةِ يُوَانِسِ،
وَحُبَسْتَ فِي ضَنْكَ ضَيْقٍ مِنَ المَحَابِسِ، وَأَصْبَحَ رَبِّعَكَ بَعْدَ بَعْدِكَ وَهُوَ خَالٍ
دَارِسِ، وَنَزَلْتَ لِحَدِّكَ وَحَدِّكَ فِي ظَلَمِ الحَنَادِسِ، وَبَكَى الأَهْلُ سَاعَةً وَالرَّءُوسِ
لِلنَّوَى نَوَاقِسِ، ثُمَّ عَادُوا إِلَى الحِلَّةِ وَكَلَّ فِي حِلَّةِ آيَسِ، وَانْطَلَقُوا فَاطْلَقُوا
أَمْوَالِكَ الحَبَائِسِ، وَأَنْتِ تَتَمَنَّى العُودَ كَلًّا وَالعُودَ يَابَسِ، وَلَقِيتِ قِرْنَ مِنَ الرَّدَى
فِي شِدَّةِ المَتَشَاوِسِ، وَتَعَوَّضْتَ الرِّعَامَ عَلَى الرِّغَمِ وَالثَّرَى بِالثَّرَى بَعْدَ المَلَابِسِ،
فِي بؤْسِ هَذَا المَلْبُوسِ، وَيَا ذَلَّ هَذِهِ اللَابِسِ، فَلَوْ أَطَّلَعَ عَلَيْكَ بَعْدَ يَوْمِ خَامِسِ
أَوْ سَادِسِ لَرَبِّي أَثْرَ بَعْدَ عَيْنٍ قَدِ غَيَّرَتْهُ الطَّوَامِسِ، وَجَاءَكَ مِنْكَ وَنَكِيرٍ فَخَبَّرَ
عَنْ حَرْبِ البَسُوسِ وَدَاحِسِ، وَبَقِيتِ حَدِيثًا يَجْرِي عَلَى مَرِّ المَدَى فِي
المَدَارِسِ، فَاعْتَنَمَ حَيَاتِكَ قَبْلَ المَمَاتِ فَانْفَاسَ النَفُوسِ نَفَاسِ، يَا ذَا الأَمَلِ
الطَّوِيلِ كَمِ آذَى حَدِيثِ الوَسَاوِسِ، يَا مَنَاعِي المَنَى وَدَعَّ هَذِهِ الهَوَاجِسِ، أَيْنَ
أَرْبَابِ القُصُورِ، هَذِهِ طَوْلُهَا تَمَنَّتْ بِالخَرَابِ سُورُهَا فَنَطَّقَ مُحِيلُهَا، سَحَبَتْ
عَلَى جِيوبِهَا مِنْ جَنُوبِهَا ذِيولُهَا، قَلَّ لَهَا أَيْنَ عَامِرُهَا، أَمْ أَيْنَ نَزِيلُهَا، يَا كَثِيرَ
الأَسْئَلَةِ لَهَا كَمِ تَطِيلُهَا، كَانَتْ فِيهَا جِيرَةٌ ثُمَّ أَتَى رَحِيلُهَا، فَالْيَوْمِ تَنْدُبُ أَطْلَالَهَا
وَالعَرَبَانَ رَسِيلُهَا، مَا رَدَّتْ شَوَاجِرُ الرَّمَاحِ وَلَا دَفَعَ صَقِيلُهَا، وَلَا مَنَعَتْ تَلَكَّ
الظُّبَا كَالرَّعْدِ صَلِيلُهَا، أَمْرًا لَا مَرَدَّ لَهُ مَرَّتْ بِهِ مُرْدُهَا وَكَهُولُهَا، وَتَتَابَعَتْ بِهِ
أَسَادُهَا فِي بَحْرِ الهَلَاكِ وَشِيولُهَا، وَعَقَرَتْ فِي جَوَادِ النُّوَى بِسَيْفِ الشَّوَاءِ خِيولُهَا

وتساوى في جرير الآفات صَعَبُهَا وَذُلُّوْلَهَا، أَمَا يَكْفِي الْقُلُوبَ الْغَافِلَةَ وَعِظًا دَلِيلُهَا، يَالنَّفُوسَ أَمْرَضَهَا الْهَوَى مَا يُشْفَى غَلِيلُهَا، أَمَا هَذِهِ طَرِيقُهَا، أَمَا هَذِهِ سَبِيلُهَا، يَا لَهَا مِنْ مَوْعِظَةٍ كَمْ تَسْمَعُهَا وَكَمْ تَقُولُهَا.

خَلَجَ وَاللَّهِ الْبَيْنُ مِنَ الْقَوْمِ مَنْ خَلَجَ، وَأَمَّ الْمَوْتَ أَمَلَهُمْ فَلَا تَسْأَلُ كَيْفَ انْزَعَجَ، وَاسْتَنْزَلَ عَلَيْهِمْ مِنْ أَعَالِي الدَّرَجِ فَدَرَجَ، وَسَارُوا فِي عَسْكَرِ الْبَلَى فَاتْلَفَهُمُ الْوَهْجَ، وَزَفَرَتْ أَبْدَانَهُمْ بَعْدَ طَيْبِ الأَرَجِ، وَنَسَجَ لَهُمُ الْبَلَى ثَوْبًا فَيَا بئسَ مَا نَسَجَ، وَعَامُوا فِي بَحْرِ الأَسَى فَلَجَّجَ بِهِمْ فِي اللُّجَجِ، وَلَقِيَهُمْ مِنَ الْبَلَايَا مَا ضَوْعَفَ وَازْدَوْجَ، وَاسْتَغَاثُوا وَلَكِنْ فِي غَيْرِ أَوَانِ الْفَرَجِ، وَطَلَبُوا رَاحَةً وَلَكِنْهُ زَمَانُ الْحَرَجِ، وَسئَلُوا فَعَدَمُوا تَصْحِيحَ الْجَوَابِ وَتَحْقِيقَ الْحُجَجِ، فَيَا أَسْفَاً لِمَسئُولِهِمْ لَا فَازَ وَلَا فَلَاحَ:

انَّ قَوْمِي صَدَّ عَنْهُمْ تَوْبَةً شُقِّقَ البُرْدُ الْيَمَانِي يُعْطُ
قُلْ لِأَحْدَاثٍ رَمَى الدَّهْرَ بِهِمْ فَهَمُّ فِي رَقْعِ الدَّهْرِ نَقْطُ
ذَاقَهُمْ مُسْتَحْلِيًّا أَرْوَاحَهُمْ وَرَأَى الْمَضْغَ طَوِيلًا فَاشْتَرَطُ
وَتَوَاقَ غَيْرَ بَاقِينَ وَكَمْ يَلْبَثُ الْقَارِبُ مِنْ بَعْدِ الْفَرَطُ
وَإِذَا كَشَفْتُ مَا يُرْمِضُنِي مِنْ مَضِيضِ الدَّاءِ قَالَ الْجِلْمُ غَطُّ

أخبرنا محمد بن عبد الله بن حبيب، أنبأنا علي بن عبد الله بن أبي صادق، أنبأنا أبو عبد الله بن باكوية، حدثنا عبد الواحد بن بكر الروياني، حدثنا محمد ابن أحمد المارستاني، حدثنا الحسن بن إسماعيل الربيعي، عن عبد الرحمن بن إبراهيم الفهري، عن أبيه أن فتى كان على عهد الحسن، وكان مفرطاً في حق الله عز وجل، فبينا هو كذلك في تفريطه أخذته الله بالمرض أخذة شديدة، فلما آله الوجع نادى بصوت منكسر محزون: إلهي وسيدي أقبل عثرتي وأقمني من صرعتي، فإني لا أعود.

فأقامه الله من صرعته فرجع إلى أشد مما كان فيه، فأخذته الله أخذة ثالثة، فقال: إلهي أقبلني عثرتي، وأقمني من صرعتي فإني لا أعود أبداً. فأقامه الله من

صرعته فرجع إلى أشد مما كان، فبينما هو مار في بعض أيامه إذا نظر إليه الحسن يضرِبُ بأرْدَانِه وينظر في أعطافه فقال: يا فتى خَفِ اللهُ كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك. فقال: إليك عني يا أبا سعيد، فإننا أحداث نريد أن ندوق الدنيا. فقال الحسن: كأنكم بالموت قد نزل بساحة هذا الشاب فرضه رضاً. فبينما الحسن في مجلسه إذ أقبل أخو الفتى إليه فقال: يا أبا سعيد إن الفتى الذي كنت تعظه هو أخي، وقد وقع في سكرات الموت وعُصَصِه.

فقال الحسن لأصحابه: قوموا ننظر ما فعل الله به. فلما أقبل الحسن قرع الباب، فقالت أمه من الباب؟ فقال: الحسن. فقالت: يا أبا سعيد مثلك يأتي إلى مثل ولدي! أي شيء تعمل على باب ولدي، وولدي لم يترك ذنباً إلا ركبِه ولا محرماً إلا انتهكه. فقال: استأذني لنا عليه، فإن ربنا سبحانه يُقبل العثرات. فقالت: يا بني هذا الحسن بالباب فقال: يا أماه أترى جاءني الحسن عائداً أو موبخاً؟ افتحي له الباب. ففتحت له فدخل، فلما نظر إليه يعالج سكرات الموت قال له: يا فتى استقل الله يُقلِّك. فقال: يا أبا سعيد إنه لا يفعل. قال: أو تصف الله بالبخل وهو الجواد الكريم! فقال: يا أبا سعيد إني عصيته فاستقلته فأقالني، فعصيته فأمرضني، فاستقلته فأقالني، وهذه الخامسة، فلما استقلته نادى منادٍ من زاوية البيت، أسمع الصوت ولا أرى الشخص: لا لبيك ولا سعديك قد جربناك مراراً فوجدناك غداراً. فقال الحسن لأصحابه: قوموا بنا. فلما أن خرج الحسن قال لأمه: هذا الحسن قد آتسني من سيدي وسيدي يقبل التوبة عن عباده، ويعفو عن السيئات، يا أماه إذا رأيتني وقد تحول السواد بياضاً ورشح للموت جبيني، وغارت العينان واصفرَّ البنان وانقطع اللسان، فخذني المدرعة من تحت رأسي وضعي خدي على الثرى واستوهبيني من سيدي، فإن سيدي يقبل التوبة. فلما نظرت إليه يعالج سكرات الموت أخذت المدرعة من تحت رأسه، ووضعت خده على التراب وشدت وسطها بجبل من ليف ونشرت شعرها، ورفعت رأسها نحو السماء ثم نادت: إلهي وسيدي أسألك بالرحمة التي رحمت بها يعقوب، فجمعت بينه وبين ولده، وأسألك بالرحمة التي رحمت بها أيوب

فكشفت عنه البلاء إلا ما رحمت ولدي، ووهبت لي ذنبه. وسمع الحسن هاتفاً يقول: إن الله تعالى قد رحم الفتى، وهو من أهل الجنة. فحضر الحسن وجميع أصحابه جنازته.

يا أهل الذنوب لا يغرنكم الإمهالُ فإنما هي أيام وليال، ربّ مشغول بِلذّاته عن ذكر تخريب ذاته، يلهو بأمله عن تجويد عمله، يتقلب في أغراضه ناسياً قُرب إمرأته، بغتة الفاجع بيأسه فأخذه عن أهله وجُلّاسه.

سجع على قوله تعالى ﴿ذَرَهُمْ يَأْكُلُوا وَيَتَمَتَّعُوا وَيُلْهَهُمُ الْأَمَلُ﴾

كم مأخوذٍ على الزلل خُتم له بسوء العمل، نزل به الموت، فياهول ما نزل، فأسكنه القبر فكأن لم يزل، وهذا مصير الغافل لو غفل ﴿ذَرَهُمْ يَأْكُلُوا وَيَتَمَتَّعُوا وَيُلْهَهُمُ الْأَمَلُ﴾.

كم نائم على فراش التقصير، مغتر بعمري قصير، صاح به فلم يبال النذير، فاستلبه الخطأ والتبذير، فلما أحسّ البأس نارت من نيرات الندم شعل ﴿ذَرَهُمْ يَأْكُلُوا وَيَتَمَتَّعُوا وَيُلْهَهُمُ الْأَمَلُ﴾.

كم مستحلّ شراب الهوى شرب من كأسه حتى ارتوى، بينا هو على جادة إغراضه هوى، فما نفعه عند الموت ما حوى، ولا ما شرب ولا ما أكل ﴿ذَرَهُمْ يَأْكُلُوا وَيَتَمَتَّعُوا وَيُلْهَهُمُ الْأَمَلُ﴾.

لا تغتري بنعيم القوم، فإن غداً بعد اليوم، دَعَهُمْ فما يؤثر فيهم اللوم، وهل ينفع التحريك ميتاً وهل ﴿ذَرَهُمْ يَأْكُلُوا وَيَتَمَتَّعُوا وَيُلْهَهُمُ الْأَمَلُ﴾.

يجمعون الحطام بكسب الحرام، ويتفكرون في نصب شرك الآثام والناسُ نيام، يرقدون في الليل وفكرهم في الويل طويل لا ينام، والأقدام فيما لا يحل إقدام تسعى في هواها سعى الرّمل ﴿ذَرَهُمْ يَأْكُلُوا وَيَتَمَتَّعُوا وَيُلْهَهُمُ الْأَمَلُ﴾.

ما عندهم خبر من الساعة، والعمر يمضي ساعة فساعة، خسروا في أشرف

تجارة وأعلى بضاعة، يتناقلون تناقل عطارٍ في الطاعة، فإذا لاح الذنب فزحل
﴿ذَرَّهُمْ يَأْكُلُوا وَيَتَمَتَّعُوا وَيُلْهَوُّهُمُ الْأَمَلُ﴾ .

كيف بكف يعيا ويعيث، كيف نَحَذَّرُها شر الخطايا وكلُّ فعلها خبيث.

كيف نخوفها قليل الذنب ولسان الحال يستغيث، أنا الغريق فما خوفي من البَلَل
﴿ذَرَّهُمْ يَأْكُلُوا وَيَتَمَتَّعُوا وَيُلْهَوُّهُمُ الْأَمَلُ﴾ .

وصلى الله على محمد وآله وصحبه وسلم.

المجلس الثامن عشر في قصة بلعام

الحمد لله الذي إذا لطف أعان، وإذا عطف صان، أكرم من شاء كما شاء وأهان، أخرج الخليل من آزر ومن نوح كنعان، يميت ويحيي ويغني ويشقي كل يوم هو في شان، يُزيّن بموهبة العلم فإذا لم يُعمل به شان، خلع خلعة العلم على بلعام فلم يصنّها ومال بهواه إلى ما عنه يُنهي ﴿وَأْتَلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا فَانْسَلَخَ مِنْهَا فَاتَّبَعَهُ الشَّيْطَانُ﴾ (١).

أحمده في السرّ والإعلان، وأصلي على رسوله محمد الذي انشق ليلة ولادته الإيوان، وعلى أبي بكر أول من جمع القرآن، وعلى الفاروق الموصوف بالعدل وكذلك كان، وعلى التقيّ الحبيّ عثمان، وعلى عليّ سيد العلماء والشجعان، وعلى عمه العباس المستسقى به فسال التهتان.

قال الله تعالى: ﴿وَأْتَلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا فَانْسَلَخَ مِنْهَا﴾.

في المشار إليه ستة أقوال: أحدها: أنه أُمّية بن أبي الصّلت. قاله عبد الله بن عمرو بن العاص، وسعيد بن المسيّب، وزيد بن أسلم، وكان قد قرأ الكتب وعلم أنه سيأتي رسول، ورجا أن يكون هو، فلما بُعث رسول الله ﷺ حسده وكفر.

والثاني: أبو عامر الراهب. قال ابن عباس: الأنصار تقول: إنه أبو عامر.

والثالث: أنه كان رجلًا من بني إسرائيل، أعطى ثلاث دعوات مستجابات، وكانت له امرأة دَميمة، فقالت له: ادع الله أن يجعلني أجل امرأة فدعا لها

(١) الأعراف ١٧٥.

فرغبت عن زوجها، فدعا عليها أن يجعلها كلبه نبأحة، فجاء بنوها وقالوا:
لا صبر لنا على تغيير الناس لنا بأمننا، فدعا أن تكون كما كانت، فذهبت الثلاثة
دعوات. رواه عكرمه عن ابن عباس.

والرابع: أنه كل من انسلخ من الحق بعد أن أعطيه من اليهود والنصارى
والحنفاء. قاله عكرمة.

الخامس: أنه المنافق. قاله الحسن.

والسادس: أنه بلعام، قاله ابن مسعود وابن عباس ومجاهد وعكرمة والسدي
وهو المشهور والأثبت.

وفي الآيات التي أوتيتها أربعة أقوال:
أحدها اسم الله الأعظم. رواه ابن أبي طلحة عن ابن عباس، وبه قال ابن
جرير.

والثاني: أنها كتاب من كتب الله. روي عن ابن عباس.

والثالث: أنها حجج التوحيد وفهم أدلته.

والرابع: أنها العلم بكتب الله تعالى.

وكان من خبر بلعام: أن موسى عليه السلام غزا البلد الذي هو فيه وكانوا
كفاراً، وكان هو مجاب الدعوة، فأتاه قومه فقالوا، هذا موسى قد جاء يُخرجنا
من بلادنا ويقتلنا ويحلها بني إسرائيل، ونحن قومك فادع الله عليهم. فقال:
ويلكم نبي الله ومعه الملائكة والمؤمنون، فكيف أدعو عليهم؟ فقالوا: ما لنا من
مترك. فلم يوالوا يرققونه ويتضرعون إليه حتى افتتن، فركب حماراً له متوجهاً
إلى عسكر موسى، فما سار إلا القليل حتى ربضت دابته به، فنزل عنها فقرأها،
فقال: ويحك يا بلعام أين تذهب! ألا ترى الملائكة أمامي تردني عن وجهي
هذا، أتذهب إلى نبي الله والمؤمنين تدعو عليهم؟ فلم ينزع عنها وضربها،
فانطلقت به حتى إذا أشرف على عسكر موسى جعل لا يدعو عليهم بشيء إلا
صرف الله به لسانه إلى بني إسرائيل، فقال له قومه: إنما تدعو علينا. فقال: هذا
شيء لا أملكه. إلا أنه دعا ألا يدخل موسى المدينة فوقعوا في التيه، فقال

موسى: اللهم كما سمعت دعاءه عليّ فاسمع دعائي عليه، فدعا الله أن ينزع منه الاسم الأعظم، فنزع منه، واندلع لسانه فوقع على صدره. فقال لقومه: قد ذهبت مني الآن الدنيا والآخرة، فلم يبق إلا المكر والحيلة، جملوا النساء وأعطوهن السلع وأرسلوهن في العسكر يبعنها، ومروهن أن لا تمنع امرأة نفسها ممن أرادها، فإنه إن زنى رجلٌ منهم كفيتموهم! ففعلوا ذلك فوقع رجلٌ منهم على امرأة فأرسل الله تعالى الطاعون على بني إسرائيل حينئذ، فهلك منهم سبعون ألفاً في ساعة واحدة!

وروي السدي عن أشياخه أن بلعام قال لقومه: لا ترهبوا بني إسرائيل فإنكم إذا خرجتم لقتالهم دعوتُ عليهم. وكان رغبه فيما عندهم من الدنيا. وقال غيره: خوِّفه ملكهم فنحت له خشبة ليصّلبه عليها، فدعا عليهم.

وقوله: ﴿فانسُلخ منها﴾ أي خرج من العلم بها ﴿فأتبعه الشيطان﴾ أي أدركه ﴿فكان من الغاوين﴾ يعني الضالين.

قوله تعالى: ﴿ولو شئنا لرفعناه بها﴾ في هاء الكناية قولان: أحدهما أنها تعود إلى الإنسان المذكور. قاله الجمهور. والثاني: إلى الكفر بالآيات، فيكون المعنى: ولو شئنا لرفعنا عنه الكفر بآياتنا. روي عن مجاهد. ﴿ولكنه أخذ إلى الأرض﴾ أي ركن إلى الدنيا وسكن ﴿واتبع هواه﴾ أي انقاد إلى ما دعاه إليه الهوى.

وهذه الآية من أشدّ الآيات على العلماء، إذا مالوا عن العلم إلى الهوى. ﴿فمثله كمثل الكلب إن تحمّل عليه يلهث أو تتركه يلهث﴾ (١) المعنى: أن الكافر إن زجرته لم ينزجر، وإن تركته لم يهتد، كالكلب إن طرد كان لاهثاً وإن ترك كان لاهثاً.

قال ابن قتيبة: كل لاهث إنما يكون من إعياء أو عطش إلا الكلب، فإنه يلهث في حال راحته وحال كلاله؛ وفي حال الري وحال العطش.

(١) الاعراف ١٧٦.

قال المفسرون: زجر في منامه عن الدعاء على بني إسرائيل فلم ينزجر،
وخاطبه أتانته فلم ينته.

وهذا رجل لم ينفعه علمه بل ضرّه. قال سفيان بن عيينة: العلم يضرك إذا لم
ينفعك. وقال منصور بن زاذان: نبئت أن بعض من يلقي في النار يتأذى أهل
النار بريحه فيقال له: ويحك ما كنت تعمل؟ أما يكفيننا ما نحن فيه من الشر حتى
ابتلينا بك وبتن ريحك، فيقول: كنت عالماً، ولم أنتفع بعلمي.

وكتب حكيم إلى حكيم: يا أخي قد أوتيت علماً فلا تدنس علمك بظلمة
الذنوب فتبقى في الظلمة يوم يسعى أهل العلم بنور علمهم!

وكان عيسى بن مريم يقول: يا معاشر العلماء مثلكم مثل الدفلى يعجب وردّه
من نظر إليه ويقتل طعمه من أكله، كلامكم دواء يبرىء الداء، وأعمالكم داء
لا يقبل الدواء، والحكمة تخرج من أفواهكم، وليس بينها وبين آذانكم إلا أربع
أصابع، ثم لا تعيها قلوبكم! معشر العلماء كيف يكون من أهل العلم من يطلب
الكلام ليخبر به، ولا يبلبه ليعمل به، العلم فوق رؤوسكم والعمل تحت
أقدامكم، فلا أحرار كرام ولا عبيد أتقياء.

الكلام على البسمة

جدّوا فإن الأمر جدّ	وله أعيّدوا واستعيدوا
لا يستقال اليوم إن	ولّى ولا للأمر ردّ
لا تغفلنّ فإنما	آجالكم نفس يُعدّ
وحوادث الدنيا ترو	ح عليكم طوراً وتعدو
أين الأولى كنا نرى	ماتوا ونحن نموت بعدّ
مالي كأن مناي يُبس	ط لي وأمالي تُمدّ
ما غفلتي عن يوم تجدّ	مع شرتي كفنّ ولحدّ
ضيعت ما لا بد لي	منه بمالي منه بُدّ
ما نحن فيه متاع أي	ام يُعَار ويُسرّد

إن كان لا يعينك ما يكفي فما يعينك جَدُّ
هون عليك فليس كل الناس يُعْطَى ما يَودُّ
وتوقَّ نفسك في هواك فإنها لك فيه ضِدُّ
من كان مُتَّبِعاً هواه فإنَّه لهواه عَبْدٌ

إخواني: متى أصبح الهوى أميراً أمسى العقلُ أسيراً، التقوى درع، والدرع
مجموع حَلَقٍ، فَغَضُّ البصرِ حَلَقَةٌ، وَحَبْسُ اللسانِ حَلَقَةٌ، وعلى هذا سائر ما
يُتوقَّى، فإياك أن تترك خَللاً في درعك، فإن الرامي يَقْصِدُ الخللَ، متى فسحت
لنفسك في تفريط وإن قَلَّ الخرق حرزُ احترازك!

كان بعض المتعبدين يمشي في وسط الوحل ويتقيّه ويشمّر عن ساقيه، إلى أن
زلقت رِجله، فجعل يمشي في وسط الوحل ويبكي، فقيل له: ما يبكيك؟ فقال:
هذا مثل العبد لا يزال يتوقى الذنوب حتى يقع في ذنب وذنوبين، فعندها يخوض
الذنوب خوفاً.

قيل لعبيدة بنت أبي كلاب: ما تشتهين؟ فقالت: الموت. فقيل: ولم؟ قالت:
لأنني والله في كل يوم أصبح أخشى أن أجني على نفسي جناية يكون فيها عطي
أيام الآخرة.

يا مَسْتوراً على الذنب انظر في سِتْر من أنت، لو عرفتني أعرضت عن
غيري، لو أحببتي أَبْغَضْتِ ما سِوَايَ، لو لاحظت لُطْفِي لتوكلتِ ضرورةً عليّ،
خاصمتُ عنك قبلَ وجودك ﴿إِنِّي أَعْلَمُ ما لا تَعْلَمُونَ﴾ (١) واستكثرتُ قليل
عملك: ﴿والذاكرين الله كثيراً والذاكرات﴾ (٢) واعتذرتُ لك في ذلك:
﴿فذلّاهما بغيرِ﴾ (٣) وغطيتُ قبيحَ فعلك ﴿يا أيها الذين آمنوا توبوا إلى
الله﴾ (٤) ولقنتك عُدْرَكَ عند ذلك: ﴿ما عَرَكَ برَبِّكَ الكريم﴾ (٥) وأرجمتك
معاملتك: ﴿فله عَشْرُ أمثالِها﴾ (٦)، من خاصم عنك وأنت مفقود لا يُسَلِّمُكَ وأنت

(٥) الانفطار ٦.

(٣) الأعراف ٢٢.

(١) البقرة ٣٠.

(٦) الأنعام ١٦٠.

(٤) التحريم ٨.

(٢) الأحزاب ٣٥.

موجود، فاعرف عليك حقِّي، ولا تكن من شرار خلقي، فكم أرى زلّة فأحلم وأبقي.

يا قائماً في مقام الجهالة قد رسخ، يا متكبراً على إخوانه قد علاّ وشمخ، يا خارجاً عن الحد شُعلاً باللهو والمطبخ، يا من في بصره كَمّه وفي سمعه صَمخ، يا طامعاً في السلامة مع ترك الاستقامة، أَلقيتَ البذر في السبخ، متى ينقى قلبك من هذا الدرّن والوسخ، متى تتصور نفخة إسرافيل في الصور إذا نفخ.

ياذا الأمل الطويل العريض، أما أنذرتك الشّعرات البيض، أما الموت بُرّق والشيب وميض، عجباً لتأميل الكسير المهيض، لقد فات الفوز قدح المغيض، يا دائم الخطأ وكم علّم ورِيض، يا معجباً بالسلامة وهو في الحقيقة مريض، لا اللسان محفوظ ولا الجفن غضيض، لا بالنثر ترجع إلينا ولا بالقريض، لقد نزلت بك المعاصي إلى أسفل حضيض.

ليت شعري بعد الموت إلى أين تذهب، لقد تعمى والله عليك المذهب، لا بد مرةً من كأس الحِمام تشرب، ولهذه الأجساد المبنية أن تخرب، ولولا فراخ الحياة ما كانت فخاخ الموت تُنصب.

ما لي بما بعد الردى مُحيرَه	قد أذمت الأنف هذه البُرَه
الليل والإصباح واليقظ	والإبراد والمنزل والمقبرة
عشنا وجسر الموت قدامنا	فشمّروا الآن لكي نعبره
عيس تباري بالفلا خذلها	فجد لها يا ربّ بالمغفرة
أفقر بالمطعم ركبها	والقوم بالدويّه المقفرة
كم جاوزوا من حِندس مظلم	ليبلغوا رحمته المسفرة

الكلام على قوله تعالى ﴿فاعتبروا يا أولي الأبصار﴾

الاعتبار: النظر في الأمور ليُعرف بها شيء آخر من غير جنسها.
والأبصار: العقول. والمعنى: تدبّروا.

إخواني: الدنيا دار عيْرَة، ما وقعت فيها حَبْرُه إلا وردتْها عِبْرَة، أين من
عاشرناه كثيراً وألفنا، أين من ملنا إليه [بالوداد] وانعطفنا، أين من ذكرناه
بالمحاسن ووصفنا، ما نعرفهم لو عنهم كَشَفنا، ما ينطقون لو سألناهم
وألحفتنا، وستصير كما صاروا فليتنا أنصفنا، كم أغمضنا من أحببنا على
كُرْههم جَفْنَا، كم ذكرتنا مصارعُ من فنى من يفنى، كم عزيزٍ أحببنا دفنناه
وانصرفنا، كم مؤانس أضجعناه في اللحد وما وقفنا، كم كريم علينا إذا جُزْنَا
عليه انحرفنا، ما لنا نتحقق الحق فإذا أيقننا صدقنا، أما ضرَّ أهله التسوية وها
نحن قد سوّفنا، أما التراب مَصِيرنا فلماذا منه أنفنا، إلّا مَ تغرنا السلامة وكأن
قد تَلَفْنَا.

أين جبيننا الذي كان وانتقل، أما غمسه التلفُ في بحره ومقل، أين الكثير
المال الطويل الأمل، أما خلاً في لُحده وحده بالعمل، أين من جرّ ذيلَ الخيلاء
غافلاً ورفل، أما سافرَ عنّا وإلى الآن ما قفل، أين من تنعم في قصره وفي قبره
قد نزل، فكأنه في الدار ما كان وفي اللحد لم يزل، أين الجبابرة الأكاسرة
العتاة الأوّل، ملّك أموالهم سيواهم والدنيا دُول.

خلا والله منهم النادِي الرحيب، ولم ينفعهم طول البكاء والنحيب، وعانوا
من هَوْل المَطَّلَع كلَّ عجيب، وسئل عاصيهم فلم يدر كيف يجيب.

مضى والله الكلُّ على منهاج، وساروا بين غوارب وأحداج، ورحلوا إلى
البلى أفواجاً بعد أفواج. ولقوا لَعَب الطريق على تعب الإدلاج، وتوسطوا بحرَ
الجزء المدلّهم العجاج، وظنوا سلامتهم فهاجت أمواجٌ بعد أمواج، ونُشرت

صحائفهم فإذا بها كالليل الداج، وباشروا خشن التراب بعد لين الديداج،
وتعوضوا لحداً غامراً عن عامر الأبراج، وحلوا إذ خلوا فيه حلية المدر بعد
التاج، فمخاً محاسنهم بعد بهاء الإبهاج، وسئلوا عما تمّ فتمتم اللسان اللجلج،
وعادت نساؤهم أيامى بعد الأزواج:

إنني سألت التراب ما فعلتُ بعدُ وجوةً فيك منعفـره
فأجابني: صيّرتُ ريحهم يؤذيك بعدَ روائحِ عطـره
وأكلتُ أجساداً منعمّةً كان النعيم يهزّها نصـره
لم يبقَ غيرُ جماجمٍ عريتُ بيضِ تلّوحٍ وأعظمِ نخـره

تذكّر يا من جنى ركوب الجنازة، وتصوّر يا من ما وفى طولَ المفازة، ودّع
الدنيا مودّعاً للحلاوة والمزازة، وارقم من قلبك ذكر الموت على جزازة،
وخلّص نفسك من غلّ الغلّ وحزّ الحزّازة، وذكّرها يوم تُمسي في التراب
منحازه.

سَلْ بَغْمَدَانِ أَيْنَ سَاكِنَهُ سَيْفٌ وَقِلْ لِنُعْمَانَ أَيْنَ السَّـدِيرُ
أَيُّهَا الظَّاعِنُونَ لَا زَالَ لِلْعِي سِ رَوَاحٍ عَلَيْكُمْ وَبُكُورُ
قَدْ رَأَيْنَا دِيَارَ كَمْ وَعَلَيْهَا أَثَرٌ مِنْ عَقَائِكُمْ مَهْجُورُ
وَسَأَلْنَا أَطْلَالَهَا فَأَجَابَتْ وَمِنَ الصَّمْتِ وَاعْظُ وَنَذِيرُ
بِأَنَّ ذُلَّ الْأَسَى عَلَيْهَا فَلَد غَيْثِ بَكَاءٍ وَلِلنَّسِيمِ زَفِيرُ
ذَكَّرْنَا عَهْدَكُمْ بَعْدَمَا طَا لَت لِيَالٍ مِنْ بَعْدِهَا وَشَهُورُ
عَجَبًا كَيْفَ لَمْ تَمِتْ فِي مَعَا سِيهَا أَسَى مَا الْقُلُوبُ إِلَّا صَخُورُ
يَا دِيَارَ الْأَحْبَابِ غَيَّرَكَ الدَّه رُ وَكَانَتْ بَعْدَ الْأُمُورِ أُمُورُ

أخبرنا سعيد بن أحمد بن البناء، أنبأنا عاصم بن الحسن، أنبأنا علي بن
محمد المعدّل، أنبأنا أبو علي البرذعي، حدثنا أبو كبر القرشي، حدثني محمد
ابن الحسين، قال: حدثني الصلت بن حكيم، قال: حدثني محبوب العابد، قال:
مررت بدار من دور الكوفة فسمعت جاريةً تغني من داخل الدار:

ألا يا دار لا يدُخلكِ حُزنٌ ولا يَغدر بصاحبك الزمانُ
قال: ثم مررت بالدار، فإذا الباب مسدود وقد علتة وحشة، فقلت: ما
شأنهم؟ قالوا: مات سيدهم، مات رب الدار، فقلت: إني سمعت من ها هنا
صوت جارية تقول:

ألا يا دار لا يدُخلكِ حُزنٌ

فقلت امرأة من الدار وبكت: يا عبد الله إن الله يغيّر ولا يتغير، والموت
غاية كل مخلوق. فرجعت من عندهم باكياً حزيناً.

قال القرشي: وحدثنا أبو سعيد المدائني قال: حدثنا أحمد بن محمد
المهدي، قال: حدثني رجل من عبد قيس، قال: دخلت ابنة النعمان بن المنذر
على معاوية فقال لها: أخبريني عن حالكم كيف كان؟ قالت: أطيل أم أقصر.
قال: لا بل أقصري. قالت: أمسينا مساءً وليس في العرب أحد إلا وهو يرغب
إلينا ويرهب منا، فأصبحنا صباحاً وليس في العرب أحد إلا ونحن نرغب إليه
ونرهب منه. ثم قالت:

بئنا نسوس الناسَ والأمرُ أمرنا إذا نحن فيهم سوقةٌ ليس نُنصف
فأفٍ لدنيا لا يدوم نعيمها تَقَلَّبُ تاراتٍ بنا وتَصَرَّفُ

قال القرشي: وحدثني محمد بن الحسين، قال: حدثني داود بن المحبر،
قال: حدثنا كثير بن سعيد السلمي، عن أبيه قال: أعرس رجلٌ من الحي على
ابنة عمه، فاتخذوا لذلك لهوا، وكانت منازلهم إلى جانب المقابر، فبيناهم في
لهوهم ذلك ليلاً إذ سمعوا صوتاً أفرعهم فأصغوا إليه، فإذا بهاتف يهتف من
بين القبور:

يا أهل لذةٍ دنيا لا تدوم لهم إن المنايا تُبِيدُ اللهوَ واللعبا
كم من رأيناه مسروراً ببلذته أمسى فريداً من الأهلين مُغْتَرِباً

قال: فوالله ما لبثنا بعد ذلك إلا أياماً حتى مات الفتى المتزوج.

قال القرشي: وقال علي بن محمد القرشي، عن المنهال بن عبد الملك، قال: حبس هشام بن عبد الملك عياض بن مسلم، وكان كاتباً للوليد بن يزيد وضربه وألبسه المِسوح، فلما ثَقُلَ هشام أرسل عياض إلى الخُزَّان: احفظوا ما في أيديكم. فمات هشام وخرج عياض، فختم الأبواب والخزائن ومنع أن يكفَّنَ هشام من الخزائن، واستعاروا له قمقمًا فأسخنوا فيه الماء، فقال الناس: إن في هذا لعبرة لمن اعتبر!

قال القرشي: وقال الحسن بن عثمان: سمعت الوليد يقول عن عبد الرحمن ابن يزيد بن جابر، قال: كان عبد الرحمن بن يزيد بن معاوية خِلاًّ لعبد الملك ابن مروان، فلما مات عبد الملك وتصدَّع الناسُ عن قبره وقف عليه فقال له: أنت عبدُ الملك الذي كنت تَعِدني فأرجوك، وتوعدني فأخافك، وليس معك من مُلكك غير ثوبيك، وليس لك منه غير أربع أذرعٍ في عرض ذراعين!

ثم أنكفأ إلى أهله واجتهد في العبادة حتى صار كأنه شَن، فدخل عليه بعضُ أهله فعاتبه في نفسه، وإضراره بها، فقال للقاتل: أسألك عن شيء تصدَّقني عنه؟ قال: نعم. قال: أخبرني عن حالك التي أنت عليها أترضاه للموت؟ قال: اللهم لا. قال: فهل عزمتَ على انتقالِ منها إلى غيرها؟ قال: ما أنصحت رأيي في ذلك. قال: أفتأمن أن يأتيك الموت على حالك التي أنت عليها؟ قال: اللهم لا. قال: حالٌ ما أقام عليها عاقل. ثم انكفأ إلى مُصَلَّاه.

وَرَدَ الْمَهْلِكُ قَبْلَنَا أُمَّمٌ فَلَنْتَبَعَنَّ مَعَاشِرًا وَرَدُّوا
حَمَلَتْهُمْ جُرْدٌ مَقْرَبَةٌ ثُمَّ انطَوَوْا بِالْمَوْتِ وَانجَرَدُوا

أخبرنا محمد بن أبي منصور، أنبأنا المبارك بن عبد الجبار، أنبأنا أبو الحسين محمد بن عبد الواحد، أنبأنا محمد بن عبد الرحيم المازني، حدثني أبو القاسم الكوكبي، حدثنا أبو بكر الضرير، حدثني غسان بن عمر، عن محمد بن عبد الرحمن الهاشمي، قال: دخلت على أُمي في يوم أضحى وعندها امرأة بَرَزَة في أثواب رثة. فقالت لي: أتعرفُ هذه؟ قلت: لا. قالت: هذه

عبادة أم جعفر بن يحيى بن خالد . فسلمت عليها ورحتُ بها ، وقلتُ : يا خالة ، حدثيني ببعض أمركم . قالت : أذكر جملةً فيها اعتبار وموعظة لمن فكّر ، هجم عليّ مثل هذا العيد ، وعلى رأسي أربعمائة وصيفة ، وأنا أزعم أن ابني جعفر عاقٌّ لي ، وقد دفع إليّ خمسمائة دينار ، وقال : أنفقي هذه في عيدكم ، وأنا الآن قد أتيتكم والذي يُفنعني جلد شاتين أجعل أحدهما شعاراً والآخر دثاراً .

أي مطمئن لم يُزعج ، أي قاطن لم يُخرج ، إخواني قد عُرف المنهج ، زال الشكُّ والحق أبلج ، إخواني فرسُ الرحيل مُسرج ، وإلى بوادي القبور المخرج ، والنعشُ المركوبُ بعد الهودج ، والعرقُ يكون صِرْفاً لا يُمزج ، ما هتف الموت بمقيم إلا أدلج ، ولا استدعى نُطقَ فصيح إلا لَجَلج . إخواني : ما جرى على الإخوان أنموذج .

رَكَنُوا إِلَى الدُّنْيَا الدِّينِيَّةِ وَتَبَوَّأُوا الرِّتَابَ السَّيِّئَةَ
حَتَّى إِذَا اغْتَرَّوْا بِهَا صَرَعَتْهُمُ أَيْدِي المَنِيِّ

سلوا عن الجيران المنازل ، وقولوا لها : أين النازل ، لا والله ما تجيب السائل ، بلى إن البلى ينطق بالبلابل . إخواني : الدنيا ظل زائل ، وحالٌ حائل ، وركن مائل ورفيق خاذل ، ومسئول باخل ، وغولٌ غائل ، وسمٌّ قاتل ، كم تعدّ الدنيا وتماطل ، كل وعودها غرور باطل . والله ما فرح بها عاقل ، مَكْرُها لا يمرُّ على لقمان ، بل على باقل .

خَلِيلِي كَمْ مَيِّتَ قَدْ حَضَرْتَهُ وَلَكِنِّي لَمْ أَنْتَفِعْ بِحَضُورِي
وَكَمْ مِنْ خُطُوبٍ قَدْ طَوَّنِي كَثِيرَةً وَكَمْ مِنْ أُمُورٍ قَدْ جَرَتْ وَأُمُورِي
وَمَنْ لَمْ يَزِدْهُ الدَّهْرُ مَا عَاشَ عِبْرَةً فَذَلِكَ الَّذِي لَا يَسْتَنِيرُ بِنُورِ

سجع على قوله تعالى

﴿فاعتبروا يا أولي الأبصار﴾

كم من ظالمٍ تعدَّى وِجار، فما راعى الأهل ولا الجار، بيِّنا هو يعقد عقْد
الإصرار حلَّ به الموت، فحلَّ من حُلته الأزرار ﴿فاعتبروا يا أولي الأبصار﴾ .
ما صحبه سوى الكفن إلى بيت البلى والعفن، لو رأيته وقد حلَّت به
المِحن، وشين ذلك الوجه الحسن، فلا تسأل كيف صار ﴿فاعتبروا يا أولي
الأبصار﴾ .

سال في اللحد صديده، وبلي في القبر جديده وهجره نسيبه ووديده،
وتفرق حشمه وعبيده والأنصار ﴿فاعتبروا يا أولي الأبصار﴾ .

أين مجالسه العالية، أين عيشته الصافية، أين لذاته الحالية، كم كم تسفى
على قبره سافية، ذهبت العين وأخفيت الآثار ﴿فاعتبروا يا أولي الأبصار﴾ .

تقطعت به جميع الأسباب، وهجره القرناء والأتراب، وصار فراشه الجندل
والتراب، وربما فتح له في اللحد باب النار ﴿فاعتبروا يا أولي الأبصار﴾ .

خلا والله بما كان صنع، واحتوشه الندم وما نفع، وتمنى الخلاص وهيئات
قد وقع، وخلاه الخليل المصافي وانقطع، واشتغل الأهل بما كان جمع،
وتملك الضد المال والدار ﴿فاعتبروا يا أولي الأبصار﴾ .

نادم بلا شك ولا خفا، باك على ما زلَّ وهفاً، يود أن صافي للذات ما
صفا، وعلم أنه كان يبني على شفا جرف هار ﴿فاعتبروا يا أولي الأبصار﴾ .

قارنه عمله من ساعة الحين، فهو يتمنى الفرار وهيئات أين، ويقول: يا
ليت بيني وبينك بعد المشرقين، فهو على فراش الوحدة وحده والعمل ثاني
اثنين، ولكن لا في الغار ﴿فاعتبروا يا أولي الأبصار﴾ .

وهذه وإن كانت حالة من غداً، فلكل منكم مثلها غداً، فانتبهوا من
رقادكم قبل الردى ﴿أَيَحْسَبُ الْإِنْسَانُ أَنْ يُتْرَكَ سُدًى﴾^(١) إنما هي جنة أو
نار ﴿فَاعْتَبِرُوا يَا أُولِي الْأَبْصَارِ﴾ والحمد لله وحده.

(١) القيامة ٣٦.

المجلس التاسع عشر في قصة داود عليه السلام

الحمد لله رب الأرباب ومسبب الأسباب ومُنزل الكتاب، حفظ الأرض
بالجبال من الاضطراب، وقهر الجبارين وأذل الصعاب، وسمع خفي النطق
ومهموس الخطاب، وأبصر فلم يستر نظره حجاب، أنزل القرآن يحث فيه على
اكتساب الثواب، وزجر عن أسباب العقاب ﴿كتاب أنزلناه إليك مبارك
ليدبروا آياته وليتذكر أولوا الألباب﴾^(١) ابتلى المصطفين بالذنوب ليُعلم أنه
توّاب، أمّا سمعت بزلة آدم وما جرى من عتاب ﴿وهل أتاك نبأ الخصم إذ
تسوروا المحراب﴾^(٢).

أحمده على رفع الشك والارتباب، وأشكره على ستر الخطايا والعباب، وأقرّ
له بالتوحيد إقراراً نافعاً يوم الحساب، وأعترف لنيه محمد أنه لباب اللباب،
صلى الله عليه وعلى صاحبه أبي بكر خير الأصحاب، وعلى عمر الذي إذا
ذكر في مجلس طاب، وعلى عثمان المقتول ظلماً وما تعدى الصواب، وعلى
عليّ البدر يوم بدر، والصدر يوم الأحزاب، وعلى عمه العباس الذي نسبه
أشرف الأنساب.

اللهم يا من ذلّت له جميع الرقاب وجرت بأمره عزالي السحاب، احفظنا في
الحال والمآب، وألهمنا التزود قبل حلول التراب، وارزقنا الاعتبار بسالفي
الأتراب، وارشدنا عند السؤال إلى صحيح الجواب، وهبّ لشيئنا معاصي
الشباب، وارزقني والحاضرين عمارة القلوب الخراب، برحمتك يا كريم يا
وهاب.

(٢) ص ٢١.

(١) ص ٢٩.

قال الله عز وجل: ﴿وهل أتاك نبأ الخصم إذ تسوروا المحراب﴾ المعنى: قد أتاك فاستمع له نقصصه عليك.

والخصم يصلح للواحد والاثنين والجماعة والذكر والأنثى، و ﴿تسوروا﴾ يدل على علوّ والمحراب ها هنا كالغرفة. قال الشاعر.

رَبَّةٌ محراب إذا جئتها لم القها أو أرتقي سلماً

﴿إذ دخلوا على داود﴾ وهو داود بن إيشا بن عويد من نسل يهوذا بن يعقوب.

وكان مبدأ أمره أن الله تعالى لما بعث طالوت ملكاً خرج من بني إسرائيل معه ثمانون ألفاً لقتال جالوت، فقالوا: لا طاقة لنا اليوم بجالوت وجنوده، فلم يثبت معه غير ثلاثمائة وثلاثة عشر، وكان فيهم أبو داود وثلاثة عشر ابناً له، وداود أصغرهم، وإنه مرّ بثلاثة أحجار، فكلمته وقلن: يا داود خذنا معك تقتل بنا جالوت. فأخذهن ومشى إلى جالوت فوضعهن في قدّافته فصارت حجراً واحداً، ثم أرسله فصكّ به بين عينيّ جالوت فقتله، ثم هلك طالوت فملك داود وجعله الله نبياً وأنزل عليه الزبور وعلمه صنعة الحديد وألّاه له، وأمر الجبال والطير أن يُسبّحن معه، وكان إذا قرأ الزبور خضع له الوحش حتى تؤخذ بأعناقها.

وكان كثير التعب، فتذاكر بنو إسرائيل يوماً عنده: هل يأتي على الإنسان يومٌ لا يصيب فيه ذنباً؟ فأضمر أنه يطبق ذلك، فابتلى يومَ عبادته بالنظر، وذلك أنه رأى طائراً في محرابه فمد يده إليه فتنحى فأتبعه بصره، فإذا بامرأة فخطبها، مع علمه أن أوريا قد خطبها، فتزوجها، فاغتمّ أوريا، فعوتب إذا لم يتركها لخطبها الأول.

هذا أجود ما قيل في فتنته، ويدل عليه قوله تعالى: ﴿وعزّني في

الخطاب ﴿١﴾ .

فأما ما يُنقل أن زوجها بُعث في الغزوات حتى قُتل، فلا يجوز أن يكون صحيحاً .

فجاءه الملكان فتسوّرا عليه من سور داره ففزع منهم لأنهما أتياه على غير صفة مجيء الخصوم، وفي غير وقت الحكومة وتسوروا من غير إذن و ﴿خَصْمَانِ﴾ مرفوع بإضمار نحن .

وهذا مثلٌ ضرباه له والتقدير: ما تقول إن جاءك خصمان؟ وقال ابن الأنباري: نحن كخصمين ومثل خصمين فسقطت الكاف، وقام الخصمان مقامهما، تقول العرب: عبد الله القمرُ حُسناً. أي مثل القمر، قالت هند بنت عتبة:

من حَسَّ لي الأخوين كالي	غصنين أو من راهما
أسدين في غيلٍ يحيي	د القوم عن عُرواهما
صقريين لا يتذللا	ن ولا يبّاح حمّاهما
رُمحين خَطَّيَّين في	كبد السماء تراهما

أرادت مثل أسدين ومثل صقريين، ثم صرف الله النون والألف في ﴿بعضنا﴾ إلى نحن المضمّر، كما تقول العرب: نحن قوم شرف أبونا، ونحن قوم شرف أبوهم والمعنى واحد .

قوله تعالى: ﴿ولا تُشْطِط﴾، أي لا تجرُّ يقال: شَطَّ وأشَطَّ إذا جار ﴿واهدينا إلى سواء الصراط﴾ أي إلى قِصْد الطريق. والمعنى: احملنا إلى الحق .

فقال داود: تكَلَّمَا. فقال أحدهما: ﴿إن هذا أخي له تسع وتسعون نعجة ولي نعجة واحدة﴾ قال الزجاج: كنى عن المرأة بالنعجة. قال المفسرون: إنما

(١) ص ٢٣ .

ذكر هذا العدد لأنه عدد نساء داود ﴿فقال: أَكْفَلْنِيهَا﴾ أي انزل أنت عنها واجعلني أنا أكفلها ﴿وَعَزَّنِي فِي الْخِطَابِ﴾ أي غلبني في القول. وقرأ عمر بن الخطاب رضي الله عنه وابن أبي عبلة: ﴿وَعَازَّنِي﴾ أي غالبني قال ابن عباس: إن دعا ودعوت كان أكثر مني وإن بطش وبطشت كان أشد مني.

﴿قال لقد ظلمك بسؤال نعجتك إلى نعاجه﴾^(١) فإن قيل: كيف حكم ولم يسمع كلام الآخر؟ فالجواب: أن الآخر اعترف، فحكم عليه باعترافه، وحذف ذكر ذلك اكتفاءً بفهم السامع، والعرب تقول: أمرتك بالمتجارة فكسبت الأموال. أي فتجرت فكسبت.

والخلطاء الشركاء وظن أي أيقن وعلم ﴿أَمَا فَتَنَّا﴾ أي ابتليناها بما جرى له في حق المرأة.

وفي سبب تنبيهه لذلك ثلاث أقوال:

أحدها: أن الملكين أفصحاً له بذلك. قال السدي: قال داود للخصم الآخر: ما تقول؟ قال: نعم أريد أن آخذها منه وأكمل بها نعاجي، وهو كاره. قال: إذاً لا ندعك، وإن رمت هذا ضربنا منك هذا وهذا. يشير إلى أنفه وجهته. فقال له: أنت يا داود أحق أن يضرب هذا منك، حيث لك تسع وتسعون امرأة ولم يكن لأوريا إلا واحدة. فنظر داود فلم ير أحداً فعرف ما وقع.

والثاني: أنهما عرجا وهما يقولان: قضى الرجل على نفسه، فعلم أنه عني بذلك قاله وهب.

والثالث: أنه لما حكم بينهما نظر أحدهما إلى صاحبه وهو يضحك، ثم صعد إلى السماء وهو ينظر، فعلم أن الله ابتلاه بذلك. قاله مقاتل.

قوله تعالى: ﴿وَخَرَّ رَاكِعًا﴾^(٢). قال ابن عباس: أي ساجداً فعبّر بالركوع عن السجود، لأنه بمعنى الإحناء. قال المفسرون: بقي في سجوده أربعين ليلة لا يرفع رأسه إلا لوقت صلاة مكتوبة، أو حاجة لا بد منها، ولا يأكل

(٢) ص ٢٤.

(١) ص ٢٤.

ولا يشرب، فأكلت الأرض من جبهته ونبت العشب من دموعه، وهو يقول في سجوده، رَبِّ زَلِّ دَاوُدَ زَلَّةً أَبْعَدَ مَا بَيْنَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ.

أخبرنا علي بن عبيد الله، أنبأنا ابن النقور، أنبأنا عمر بن إبراهيم الكناني، حدثنا البغوي، حدثنا داود بن رشيد. حدثنا أبو حفص الأبار، عن ليث عن مجاهد، قال كانت خطيئته في كفه مكتوبة، قال: فسجد حتى نبت من البقل ما وارى أذنيه، أو قال رأسه، ثم نادى: أَيُّ رَبِّ قَرَحَ الْجَيْنَ وَجَمَدَتِ الْعَيْنَ وَدَاوُدَ لَمْ يَرْجِعْ إِلَيْهِ مِنْ ذَنْبِهِ شَيْءٌ. قال: فنودي: أَجَائِعُ فَتُطْعَمُ أُمُّ عَارٍ فَتُكْسَى، أُمُّ مَظْلُومٍ فَيَنْتَصِرُ لَكَ؟ فَلَمَّا رَأَى أَنَّهُ لَمْ يَرْجِعْ إِلَيْهِ فِي ذَنْبِهِ شَيْءٌ نَحَبَ نَحْبَةً فَهَاجَ مَا تَمَّ.

أخبرنا عبد الوهاب، أنبأنا ابن المبارك، أنبأنا أبو الحسين بن عبد الجبار، أنبأنا أبو بكر الخياط، أنبأنا أبو عبد الله أحمد بن يوسف العلاف، حدثنا أبو علي بن صفوان، حدثنا أبو بكر القرشي، حدثني محمد بن الحسين، حدثنا عمرو بن جرير، حدثنا عامر بن يساف، عن يحيى بن أبي كثير، قال: بلغنا أنه كان داود مكث قبل ذلك سبعة لا يأكل الطعام، ولا يشرب الشراب، ولا يقرب النساء، فإذا كان قبل ذلك بيوم أخرج له منبرا إلى البرية وأمر سليمان منادياً يستقريء البلاد وما حولها من الغياض والآكام والجبال والبراري والديارات والصوامع، والبيع فينادي فيها: أَلَا مِنْ أَحَبَّ أَنْ يَسْمَعَ نَوْحَ دَاوُدَ فَلِيَّاتٍ. فتأتي الوحوش من البراري والآكام، وتأتي السباع من الغياض، وتأتي الهوام من الجبال وتأتي الطير من الأوكار، وتأتي الرهبان من الصوامع والديارات، وتأتي العذارى من خدورها، ويجتمع الناس لذلك اليوم، ويأتي داود عليه السلام حتى يرقى، على المنبر، ويحيط به بنو إسرائيل كلُّ صفٍّ على حدته. قال: وسليمان قائم على رأسه. قال: فيأخذ في الثناء على ربه، فيضجون بالبكاء والصراخ، ثم يأخذ في ذكر الجنة والنار فيموت طائفة من الناس وطائفة من السباع والهوام والوحوش، وطائفة من الرهبان والعذارى المتعبدات، ثم يأخذ في ذكر الموت وأهوال القيامة، ثم يأخذ في النياحة فيموت من كل صنف

طائفة، فإذا رأى سليمان ما قد كثر من الموت ناداه: يا أبتاه قد مرّقت المستمعين كلّ ممّزق وماتت طوائف من بني إسرائيل، ومن الرهبان ومن الوحوش. فيقطع النياحة ويأخذ في الدعاء ويغشى عليه، فيحمل على سرير، فإذا أفاق قال: سليمان ما فعل فلان وفلان؟ فيقول: ماتوا. فيقوم فيدخل بيت عبادته ويغلق عليه بابه وينادي: أغضبان أنت على داود إله داود؟ أم كيف قصّرت به أن يموت خوفاً منك!

قال علماء السّير: كان داود عليه السلام قد اتخذ سبع حشائياً من شعر، وحشاهن بالرماد، ثم بكى حتى أنفذها دموعاً، ولم يشرب شرباً إلا ممزوجاً بدموع عينيه، وكان له جاريتان قد أعدهما، فكان إذا أتاه الخوف سقط واضطرب، فقعدتا على صدره ورجليه مخافة أن تتفرق أعضاؤه، وكان قد نقش خطيئته في كفه لئلا ينساها، وكان إذا رآها اضطربت يدها.

ويقال: لو وزنت دموعه عدلت دموع الخلائق، ولم يرفع رأسه إلى السماء حتى مات حياةً.

إخواني: تأملوا عواقب الذنوب، تفنّى اللذة وتبقى العيوب، احذروا المعاصي فبئس المطلوب، ما أقبح آثارها في الوجوه والقلوب.

الكلام على البسمة

ابك من جرمك خوفاً	فحقيق بك تبكي
كم ركبت الذنوب مغرو	راً وكم أسرع في الفتك
وتبرّجت بعصيانك قد	غرّك إمهالي وتركي
من إذا ألبستك الذلّ	يراعيك ويشكي
من ترى يترك اليوم	م إذا عمّك هتكى
كم تجرّدت لعصيا	ني وكم خالفت نسكي
أترى تجهل عزي	أم ترى تُصغّر ملكي

يا بن آدم: فرح الخطيئة اليوم قليل وحرزها في غدٍ طويل، ما دام المؤمن في نور التقوى، فهو يبصر طريق الهدى، فإذا طبَّق ظلامُ الهوى عدم النور.

كان داود يسجد ويقول في سجوده: سبحان خالق النور! إلهي: خلَّيتَ بيني وبين عدوي [إبليس] فلم أقم لفتنته إذ نزلت بي، سبحان خالق النور، إلهي: يُغسل الثوب فيذهب دَرَنه ووسخه، والخطيئة لازمةً لي لا تذهب عني، سبحان خالق النور! إلهي: تبكي التَّكَلَّى على ولدها إذا فقدته وداود يبكي على خطيئته! سبحان خالق النور! إلهي: الويل لداود إذا كشف عنه الغطاء قيل هذا داود الخاطيء سبحان خالق النور! إلهي: بأي عينٍ أنظر إليك يوم القيامة وإنما ينظر الظالمون من طَرَفٍ خَفِيٍّ، سبحان خالق النور! إلهي: بأي قَدَمٍ أقوم ببابك يوم تَزَلُّ أقدام الخاطئين، سبحان خالق النور! إلهي من أين يطلب العبد المغفرة إلا من عند سيده، سبحان خالق النور! إلهي: أنا الذي لا أطيع صوت الرعد، فكيف أطيع صوت جهنم! سبحان خالق النور! إلهي: كيف يستتر الخاطئون بخطاياهم دونك وأنت شاهدهم حيث كانوا، سبحان خالق النور! إلهي: قَرِحَ الجبين وجَمَدت العينان من مخافة الحريق على جسدي، سبحان خالق النور! إلهي! أنت المغيث، وأنا المستغيث، فمن يدعو المستغيثُ إلا المغيثَ؟ سبحان خالق النور! إلهي: قَرَّرْتُ إليك بذنوبي فاعترفتُ بخطيئتي فلا تجعلني من القانطين ولا تُخزني يوم الدين، سبحان خالق النور! إلهي: إذا ذَكَرت ذنوبي أيست من كل خير، وإذا ذَكَرتُ رحمتك رجوتُها، سبحان خالق النور! إلهي: أمدد عيني بالدموع وقلبي بالخشية وضعفي بالقوة حتى أبلغ رضاك عني، سبحان خالق النور!

يا سكران الهوى مت تصحو، يا كثير الذنوب متى تمحو، إلى كم تهفو وتغفو، وتتكرر ونعمنا تصفو، ابكٍ لما بك، واندب في شيبتك على شبابك، وتأهب لسيف المنون فقد علق الشَّبَابُ بك.

انتبه الحسن ليلة فبكى، فضجَّ أهلُ الدار بالبكاء، فسأله عن حاله فقال:

ذَكَرْتُ ذَنْباً لِي فَبَكَيْتُ!

يا مريض الذنوب مالك دواء كالبكاء .

روي ابن عباس عن النبي ﷺ قال: « عَيْنَانِ لَا تَمَسُّهُمَا النَّارُ : عَيْنٌ بَكَتْ فِي جَوْفِ اللَّيْلِ مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ ، وَعَيْنٌ بَاتَتْ تَحْرُسُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ . »

وروى عنه أبو أمامة أنه قال: « ليس شيء أحبب إلى الله عز وجل من قطرة دمع من خشية الله تعالى وقطرة دم تُهْرَاقُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ . »

لا تحسَنُ ماءَ الجفونِ فإنه لك يا لَدِيغَ هواهمُ درِياقُ
شَنُوا الإِغَارَةَ فِي القلوبِ بأَسْهَمٍ لا يُرْتَجَى لِأَسِيرِهَا إِطْلَاقُ
واستعذبوا ماءَ الجفونِ فعذبوا أَلْ أَسْرَاءَ حَتَّى ذَرَّتِ الأَمَاقُ

قال محمد بن علي الحسين: ما اغرورقت عين بمائها إلا حَرَّمَ اللهُ وَجْهَ صاحبها على النار، فإن سالت على الحَدَّينِ لم يَرَهَقِ وَجْهَهُ قَتْرٌ ولا ذِلَّةٌ يوم القيامة .

يا من أفعاله حتى الخُطَى خَطَا، يا حاملاً على الأزر أتعبت المطا، يا من إذا قدر ظلم، وإذا خاصم شطا، يا مسرعاً في الشر، فإذا لاح الخيرُ جا البطا .

جُرَّتِ الثَّلاثِينَ خَطَا فاعذِرْ مَشِيئاً وَخَطَا
وابكِ زماناً لم تزلْ اللهُ فِيهِ مُسْخِطَا
واندبْ على آثاره مستدرِكاً ذَا الغلطا
واعدد صواب العيش ما فارقه التقوى خَطَا

يا كثير الذنوب متى تُفْضِي، يا مقيماً وهو في المعنى يمضي، أفنيت الزمان في الهوى ضياعاً، وساكنت غروراً من الأمل وأطماعاً، وصرت في طلب الدنيا خبيراً صناعاً، تصبح جامعاً وتسمي متناعاً، فتش على قلبك ولُبُّكَ فقد ضاعاً، تفكر في عمرك فقد ذهب نهباً مُشاعاً، اترك الهوى محموداً قبل أن يتركك مذموماً، إن فاتتك قصبات السبق في الزهد فلا تفوتك ساعات الندم في التوبة .

الكلام على قوله تعالى ﴿أَيَحْسَبُ الْإِنْسَانُ أَنْ يُتْرَكَ سُدًى﴾ (١)

عبادَ الله: من استحضرت قلبه أخبره أنه مسؤول عن فعله، وأمره بالتزود ليوم رحيله، ومن وافق الهوى هوى إلى محل الإضاعة وأصبح من الخاسرين.

قال بعض المعتبرين: لما خلوتُ بالعقل في بيت الفكر علمت أني مخلوق للتكليف معاقب على التحريف، لست بمهمّل فأسهو، ولا بمتروك فألهو، يُحصَى عليّ قليل العمل وكثيره، ويكرّ عليّ الزمانُ فيبين لي تأثيره، ورأيت الليل والنهار يقوداني إلى قبّري ويُفنيان في سيرهما عمري، ويريانني من العبر ما يصلح به طريق الهدى، فيبين سلب الكبير والصغير، والرفيق والقرين، فعلمت أن الهلاك آخر السلامة، وأن عاقبة التفریط الندامة، وأن وهن البدن أبين دليل على الموت وأقوى علامة، وعرفت بدليل السمع الجزاء يوم القيامة.

فلما تيقنت أني مكلف محاسب ومحفوظ عليّ عملي مراقب، مثاب على الفعل ومعاقب، مأخوذ بالتفریط ومطالب، هممت أن انهض نهضة عازم صدوق إلى أداء التكليف وقضاء الحقوق، فقيّدتني نفسي بقيود الهوى، وأفسدت من حالي ما استقام واستوى.

فبقيت أتفكر فيما جرى، وأمسح عيني من سنة الكرى وأقول: ماذا منعتني من مقصودي، وأي شغلٍ شغلني عن معبودي؟ ومالي أقصر في سيري وكيف سبقني إلى الفضائل غيري؟ فتعجبت مما نابني وحزنت لما أصابني، ولم أزل أنظر في الموانع حتى فهمتها، وأتدبر طريق الهدى حتى علمتها.

وذلك: أن الله تعالى جبل النفس على حب الشهوة، وجعلها في حبس الغفلة، وخلق لها من رائق مقصودها ما يشغلها وجوده عن وجودها، فهي تميل إلى مشتهاها، وإن أدّى إلى المهالك، لِمَا وضع في طبعها من حب ذلك،

(١) القيامة ٣٦.

وتنهمك على تحصيل غرضها، وإن أعقبها طول مرضها، فينسيها عاجل ما يسرّ
أجل ما يضر.

فلما وضعها الحق على هذا وألفها، خاطبها بمخالفة هواها وكلفها، وبين
لها طريق الهدى وعرفها، ولطف بها في أحوالها وتألفها، وذكّرها من النعم ما
سلفها، وأقامها على مَحَجَّة التعليم ووقفها، وحذرها من الزلل وخوفها، وضمن
لها أنها إن جاهدت أسعفها، وإن تركت أغراضها أخلفها، وما وعدّها وعداً
قط فأخلفها، وأوضح لها عيوب العاجلة وكشفها، ورغبها في لذة جنّة وصفها،
فذكر لها منازلها وغرفها وأنهارها وطرفها، وحذّرها جهنم وأسفها، وغیظها
على العصاة ولَهْفها، وأعلمها أن لها ما كسبت وعليها ما اكتسبت، ولقد
أنصفها.

فعدلتها وقرّنتها وأوعدها وأسمعتها، فلم ترتدع عن هواها ولم تنزع عما
آذاها، ورأت مصارع القرناء وما كفاها، ولم تأنف من ذنوبها وذلل المعاصي قد
علاها، وكان الخطاب الذي أتى ممن سواها إلى سواها.

فعلمت حينئذ أنها تحتاج إلى من يحاسبها وتفتقر إلى من يطالبها، ولا
تستغني عن موبخ يعاتبها، ولا بد من راضٍ إن وتت يعاقبها.

فالعجب ممن عرف نفسه كيف أهملها، والله لقد ضرّها وقتلها.

أخبرنا محمد بن الملك، أنبأنا أحمد بن الحسين ابن خيرون، أنبأنا أحمد
ابن عبد الله المحاملي، أنبأنا أبو بكر ابن عبدويه، حدثنا الحسين بن داود
البلخي، حدثنا شقيق بن إبراهيم، حدثني أبو هاشم الأيلي، عن أنس بن مالك
رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «يا بن آدم لا تزول قدمك يوم
القيامة من بين يدي الله عز وجل حتى تسأل عن أربع: عُمرك فيما أفنيته،
وجسدك فيما أبليت، ومالك من أين اكتسبته وأين أنفقته».

أخبرنا ابن أبي منصور، أنبأنا علي بن محمد العلاف، أنبأنا أبو الحسين
الحمامي، أنبأنا جعفر بن محمد الخواص، حدثني إبراهيم بن نصر، قال:

حدثني إبراهيم بن يسار، قال: حدثني يوسف بن أسباط، قال: كتب إلي محمد بن سمرة السائح: يا أخي إياك وتأمير التسويف على نفسك وإمكانه من قلبك، فإنه محل الكلال، وموئل التلف، وبه تُقَطع الآمال، وفيه تنقطع الآجال، فإنك إن فعلت ذلك أدلته من عزمك فاجتمع وهواك عليك فغلبا واسترجعا من بدنك من السلامة ما قد ولي عليك، فعند مراجعته إياك لا تنتفع نفسك من بدنك بِنافعة، وبادر يا أخي فإنه مبادر بك، وأسرع فإنه مُسرع بك وجدَّ فإن الأمر جدّ، وتيقظ من رقدتك، وانتبه من غفلتك، وتذكَّر ما أسلفت وقصرت وجنيت، فإنه مُثبَّت مُحصّي، وكأنك بالأمر قد بغتكَ فاغتبطت بما قدّمت وندمت على ما فرطت، فعليك بالحياء والمراقبة والعزلة، فإن السلامة في ذلك موجودة. وفقنا الله وإياك لأرشد الأمور، ولا قوة بنا وبك إلا بالله.

إن عُمِر الفتاة مَرارة دهر	راشِفهاها الغدوُّ والآصالُ
فتذكَّرَ كم قد صَحِيَّتْ عزيزاً	ثم أمسى وأرضه صلِّصال
غفل الناسُ والقريبُ بعيد	من ردى الموت واليقينُ مُحالُ
كم لبيب يهدي سِوَاه لِرشدٍ	وهو في عيش نفسه ليس يالو
يطلب المرءُ أن ينال رِضاه	ورضاه في غايةٍ لا تُنالُ
كلما زادَه الزمانُ ثراءً	أحرمتَه لذَّةُ الآمال

إخواني: الأيام سَفَرٌ ومراحل، وما يحسنَ سيرها الراحل حتى يبلغ البلد، أو الساحل، فليبادر المستدرِك، وما أظنه يدرك، ما هذه الغفلة والفتور، أمّا المآل إلى اللحد والقبور، أمّا علمتم منتهى السرور، أمّا الأجداث المنازل إلى النشور، أيها الشاب ضيعت الشباب في جهلك، أيها الكهل بعضُ فِعلك يُهلك، أيها الشيخ آن الرحيل عن أهلك، أيها المغتر بالأمل قد نقضت كَفُّ الأجل مجدولَ حَبْلِكَ، أيها الغافل، أمّا أنذرك من كان من قبلك.

مات الابُّ الأعلى وتابعه	أبناءؤه ففنوا ونحن نَسَقُ
في التراب من أبنائنا رِمَمٌ	كانوا لنا سلفاً ونحن لِحَق

لقد نطقت العبر فأين سامعها ، واستنارت طريق الهدى فأين تابعها ،
وتجلت الحقائق فأين مُطالعها ، أما المنية قد دنت واقتربت فما بال النفوس
قد غفلت ولعبت ، أمن المفرط أن يؤخذ بكظمه ويجازى من تفریطه على
أعظمة ، ويأتيه الموت فيذله بعظمه ، ويفاجئه بغتة بشئات مُنتظمة ، يا من على
ما يضره قد استمر ، يا من أعلن المعاصي وأسرّ ، يا مؤثراً ما شان وما ضر ،
يامحباً ما قد قتل غيره وغرّ ، يا من إذا دُعِيَ إلى نفعه تولّى وفرّ ، أما تعتبر
بمن رحل من القرناء ومرّ ، أما تعلم أن من حالف الذنوب استضر ، أما تعلم
أن الموت إذا أتى حمل وكرّ ، كأنني بك إذا برق البصر تطلب المفرّ ، إلى متى
تؤثر الفساد على السداد ، وتسرع في جواد الهوى أسرع من الجواد ، متى يتيقظ
القلب ويصحو الفؤاد ، كيف بك إذا حشرت فحشرت يوم المعاد .

يسرك أن تكون رفيق قومٍ لهم زاد وأنت بغير زاد
أسمع قولاً بلا عمل ، وأرى خِلاًلاً خالها الخلل ، إذا دعيت إلى الخير جاء
الكسل وقلت : لو شاء أن يوفقني فعل ، وإذا لاحت المعاصي كَرَّ البطل ، ويقول :
خلق الإنسان من عجل . ويحك هذا الشيب قد نزل يخبرك بقرب الأجل ، خلت
الديار وناح الطلل ، أيجتاج المهم إلى اعتدال ، يا قبيح الخصال إلى كم زلل ، ما
لكبير في العذل لا ناقة ولا جل .

عليك بما يفيدك في المعاد وما تنجو به يوم التّناد
فمالك ليس ينفع فيك وعظّم ولا زجر كأنك من جماد
ستندم إن رحلت بغير زاد وتشقى إذ يناديك المنادي
فلا تفرح بمال تقنتيه فإنك فيه معكوس المراد
وتبّ مما جنيت وأنت حيّ وكن متنبهاً من ذا الرقاد

سجع

أيها الضال عن طريق الهدى ، أما تسمع صوت الحادي وقد حداً ، من لك
إذا ظهر الجزاء وبدا ، وربما كان فيه أن تشقى أبداً ﴿أيحسب الإنسان أن

يُتْرِكُ سُدَى ﴿١﴾

يا من تكتب لحظاته، وتجمع لفظاته، وتعلم عزماته، وتحسب عليه حر كاته إن راح أو غدا ﴿أحسب الإنسان أن يُترك سُدَى﴾.

ويحك إن الرقيب حاضر، يرمى عليك اللسان والناظر، وهو إلى جميع أفعالك ناظر، إنما الدنيا مراحل إلى المقابر، وسينقضي هذا المدى ﴿أحسب الإنسان أن يُترك سُدَى﴾.

مالي أراك في الذنوب تعجل، وإذا زجرت عنها لا تقبل، ويحك انتبه لقبح ما تفعل، لأن الأيام في الآجال تعمل مثل عمل المدى ﴿أحسب الإنسان أن يُترك سُدَى﴾.

سترحل عن دنياك فقيراً، لا تملك مما جمعت نقيراً، بلى قد صرت بالذنوب عقيراً بعد أن ردّك التلف رداء الردى ﴿أحسب الإنسان أن يُترك سُدَى﴾.

كأنك بالموت قد قطع وبتّ، وبدد الشمل المجتمع وأشتّ، وأثر فيك الندم حينئذ وقتّ، انتبه لنفسك فقد اشمّت والله العدا ﴿أحسب الإنسان أن يُترك سُدَى﴾.

كأنك ببساط العمر قد انطوى، وبعود الصحة قد ذوى، وبسلك الإمهال قد قطع فهوى، اسمع يا من قتله الهوى وما ودّى ﴿أحسب الإنسان أن يُترك سُدَى﴾.

تالله ما تقال وما تُعذر، فإن كنت عاقلاً فانتبه واحذر، كم وعظك أخذ غيرك وكم أعذر، ومن أنذر قبل مجيئه فما اعتدى ﴿أحسب الإنسان أن يُترك سُدَى﴾.

فبادر نفسك واحذر قبل الفوت، وأصخّ للزواجر فقد رفعت الصوت، وتنبه فطال ما قد سهوت، واعلم قطعاً ويقيناً أن الموت لا يقبل الفدا

(١) القيامة ٣٦.

﴿أحسب الإنسان أن يترك سُدَي﴾ .

أنهض إلى التقوى بقريحة، وابك الذنوب بعين قريحة، وأزعج للجِدِّ
أعضاءك المستريحة، تالله لئن لم تقبل هذه النصيحة لتندمنَّ غدا ﴿أحسب
الإنسان أن يترك سُدَي﴾ .

المجلس العشرون

في قصة سليمان عليه السلام

الحمد لله المتعالي عن الأنداد، المقدس عن الأضداد، المنزه عن الأولاد، الباقي على الآباد، رافع السبع الشداد عالية بغير عماد، مزينة بكل كوكب منير وقاد، وواضع الأرض للمهاد مثبتة بالراسيات الأطواد، خالق المائع والجماد، ومبتدع المطلوب المراد، المطلع على سر القلب وضمير الفؤاد، مقدّر ما كان وما يكون من الضلال والرشاد، والصلاح والفساد، والغنى والإرشاد، والوفاق والعناد، والبغض والوداد، في بحار لطفه تجري مراكب العباد، وعلى عتبة بابه مناخ العبّاد، وفي ميدان حبه تجول خيل الزهاد، وعنده مبتغى الطالبين وآمال القُصّاد، وبعينه ما يتحملون من ثقل الإجهاد، رأى حتى ديبب النمل السّود في السواد، وسمع صوت المدنّف المجهود غاية الإجهاد، وعلم ما في سويداء السرّ وباطن الاعتقاد، وجاد على الآملين فزادهم من الزاد، وأعطى فلم يخف من العوز والنفاد، وألف الأجساد وليس يشبه الأجساد، وخلق من كل شيء زوجين وتوحّد بالإنفراد، وعاد بالإنلاف على الموجودات ثم أعاد، يباهي بهاجر الوِسّاد إذا نام في السجود أو ماد، ابتلى بالغفلة أهل اليقظة والإجتهاد لينكسروا بالزلزل وانكسار العبد هو المراد، بسط لسليمان بساط النّيل فوقع الميّل إلى الخيّل عن بعض الأوراد ﴿إذ عرّض عليه بالعشيّ الصّافناتُ الجيادُ﴾^(١).

أحمدُه حمداً يفوت الأعداد، وأشهد أنه الواحد لا كالأحاد، وأصلي على

رسوله المبعوث إلى جميع الخلق في كل البلاد، وعلى صاحبه أبي بكر الذي بذل نفسه وماله وجاهه، وعلى الفاروق الذي بالغ في نصر الإسلام وأجاد، وعلى عثمان الشهيد فبا فخره يوم يقوم الأشهاد، وعلى علي الذي يفتى البحر وما لعلومه الزواجر نفاذ، وعلى عمه العباس أبي الخلفاء الأمجاد.

قال الله تعالى: ﴿ووهبنا لداود سليمان﴾ (١).

داود: اسم أعجمي وسليمان اسم عبراني، وكان لسليمان من الفطنة ما بان بها الصواب في حكمه دون حكم أبيه في قصة الحرث وغيره. قال الله عز وجل: ﴿فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ﴾ (٢) فلما مات داود ملك سليمان، وله من العمر ثلاث عشرة سنة، فزاده الله تعالى على ملك داود، وسخر له الجن والإنس والطير، وكان عسكره مائة فرسخ، خمسة وعشرون للإنس وخمسة وعشرون للجن، وخمسة وعشرون للوحش، وخمسة وعشرون للطير، وكان له ألف بيت من قوارير فيها ثلاثمائة امرأة وسبعمائة سرية، ولا يتكلم أحد بشيء إلا جاءت به الريح إلى سمعه، وكان إذا جلس على البساط جلس أشرف الإنس مما يليه، وأشرف الجن وراءهم، ثم يدعو الطير فتظلمهم، ثم يدعو الريح فتحملهم، والطباخون في أعمالهم لا يتغير عليهم عمل فيسير في الغداة الواحدة مسيرة شهر، وكان يطعم كل يوم مائة ألف، فإن أقلّ أطمع ستين ألفاً، وكان يذبح كل يوم مائة ألف شاة وثلاثين ألف بقرة، ويطعم الناس النقي، ويطعم أهله الخشكار ويأكل هو الشعير.

وروى سيّار عن جعفر بن سليمان عن مالك بن دينار قال: خرج نبي الله سليمان والجن والإنس عن يمينه ويساره، فأمر الريح فحملتهم حتى سمعوا زجل الملائكة في السموات بالتقديس، ثم أمرها فخفضتهم حتى مسّت أقدامهم البحر، فسمعوا صوتاً من السماء يقول: لو كان في قلب صاحبكم من الكبر مثقال ذرة لخشفت به أبعد مما رفعت!

(٢) الأنبياء ٧٩.

(١) ص ٣٠.

قوله تعالى: ﴿نعم العبدُ إنه أُوَّابٌ﴾ هذه نهاية في المدح ﴿أُوَّابٌ﴾: أي رَجَّاعٌ بالتوبة إلى الله مما يقع من سهو وغفلة.

﴿إِذْ عَرِضَ عَلَيْهِ بِالْعَشِيِّ﴾ وهو ما بعد الزوال ﴿الصَّافِنَاتُ﴾^(١) وهي الخيل وفيها قولان: أحدهما القائمة على ثلاثة قوائم، وقد أقامت الأخرى على طرف الحافر من يد أو رجل. وهذا قول مجاهد وابن زيد، واختاره الزجاج، واحتج بقول الشاعر:

ألف الصُّفُونِ فما يزال كأنه مما يقومُ على الثلاث كَسِيرَا

والثاني: أنها القائمة سواء كانت على ثلاث، أو غير ثلاث. قال الفراء: على هذا رأيت العرب، وأشعارهم تدل على أنها القائم خاصة. واحتج ابن قتيبة لهذا بقول النبي ﷺ: من سره أن يقوم له الرجال صُفُونًا فليتبوأ مقعده من النار.

وأما الجياد فهي السَّرَاعُ في الجري. وفي سبب عرضها عليه أربعة أقوال: أحدها: أنه عرضها لأنه أراد جهادَ عدو. قاله علي بن أبي طالب. والثاني: أنها أخرجت له من البحر. قال الحسن: خرجت من البحر وكانت لها أجنحة.

والثالث: أنها كانت لأبيه فعرضت عليه. قاله ابن السائب. وفي عددها أربعة أقوال: أحدها: ثلاثة عشر ألفاً. قاله وهب.

والثاني: ألف فرس. قاله ابن السائب.

والثالث: عشرون ألفاً. قاله سعيد بن جبيرة ومسروق.

والرابع: عشرون. قاله إبراهيم التيمي.

قال المفسرون: لم تزل تُعرض عليه إلى أن غابت الشمس ففاتته صلاة العصر، ولم يذكره لأنه كان مهيباً لا يبتدئه أحدٌ بشيء، فلما غابت ذكر فقال: ﴿إِنِّي أَحْبَبْتُ حُبَّ الْخَيْرِ﴾ يعني الخيل، والمعنى آثرتُ ذلك على ذكرك ربي.

(١) ص ٣١.

قال الزجاج: عن: بمعنى علي. ﴿حتى توارت﴾ يعني الشمس. قال: وأهل اللغة يقولون لم يجز للشمس ذكر، ولا أحسبهم أعطوا في هذا الفكر حقه، لأنه في الآية دليل على الشمس وهو قوله ﴿بالعشي﴾ والمعنى: عرض عليه بعد زوال الشمس، ولا يجوز الإضمار إلا أن يجري ذكر، أو دليل ذكر.

قوله تعالى: ﴿رُدُّوْهَا عَلَيَّ﴾ أي أعيدوا الخيل ﴿فطفق﴾ أي أقبل ﴿مسحاً بالسوق﴾ (١) وهي جمع ساق. وفي المراد بالمسح قولان: أحدهما: أنه ضربها بالسيف. رواه أبي بن كعب عن النبي ﷺ. وقال ابن عباس. مسح أعناقها وسوقها بالسيف. وهو اختيار الجمهور.

والثاني: أنه كوى سوقها وأعناقها وحبسها في سبيل الله. حكاه الثعلبي. والعلماء على الأول.

فإن قيل: كيف نختار القول الأول وهو عقوبة لمن لم يذنب على وجه التشفي، وهذا بفعل الجبارين أشبه منه بفعل الأنبياء؟

فالجواب: أنه نبي معصوم، فلم يكن ليفعل إلا ما قد أجز له فعله، وجائز أن يباح له ما يمنع منه في شرعنا. على أنه إذا ذبحها كانت قرباناً، وأكل لحمها جائز، فما وقع تفريط.

قال وهب: لما فعل ذلك شكر الله تعالى له فعله، فسخر له الريح مكانها.

قوله تعالى: ﴿ولقد فتنا سليمان﴾ أي ابتليناه بسلب ملكه ﴿وألقينا على كُرْسِيِّهِ﴾. أي على سريره. ﴿جسداً﴾ (٢)، وهو شيطان يقال له صخر، ولم يكن ممن سخر له ﴿ثم أناب﴾ أي رجع عن ذنبه، وقيل: إلى ملكه.

وفي سبب ابتلائه ثلاثة أقوال: أحدها: أنه كانت له امرأة، وكانت بين بعض أهلها وبين قوم خصومة، ففرض بينهم بالحق، إلا أنه ود أن لو كان الحق لأهلها. فعوقب إذ لم يكن هواه فيهم واحداً. قاله ابن عباس.

(٢) ص ٣٤

(١) ص ٣٣.

والثاني: أن هذه الزوجة كانت آثر النساء عنده، فقالت له يوماً: إن بين أخي وبين فلانة خصومة، وإني أحب أن تقضي له. فقال: نعم. ولم يفعل فابتلي لأجل ما قال [نعم]. قاله السدي.

والثالث: أن هذه الزوجة كانت قد سبها فأسلمت، وكانت تبكي الليل والنهار وتقول: أذكر أبي وما كنت فيه، فلو أمرت الشياطين أن يصوروا صورته في داري أتسلى بها. ففعل. وكان إذا خرج تسجد له هي وولائدها، فلما علم سليمان كسر تلك الصورة وعاقب المرأة وولائدها واستغفر، فسلب الشيطان عليه بذلك. هذا قول وهب.

وفي كيفية ذهاب الخاتم قولان: أحدهما: أنه كان جالساً على شاطئ البحر فوق منه. قاله علي بن أبي طالب رضي الله عنه والثاني: أن شيطاناً أخذه ثم في كيفية أخذه له أربعة أقوال:

أحدها: أنه وضعه تحت فراشه ودخل الحمام فأخذه الشيطان فألقاه في البحر. قاله سعيد بن المسبب.

والثاني: أن سليمان قال للشيطان: كيف تفتنون الناس؟ قال: أرني خاتمك أخبرك، فأعطاه إياه فنبذه في البحر. قاله مجاهد.

والثالث: أنه وضعه عند أوثق نسائه في نفسه، فتمثل لها الشيطان في صورته فأخذه منها. قاله سعيد بن جبير.

والرابع: أنه سلمه إلى الشيطان فلقاه في البحر. قاله قتادة.

وأما الشيطان فإنه ألقي عليه شبه سليمان فجلس على كرسيه وحكم في سلطانه، إلا أنه كان لا يقدر على نسائه، وكان يحكم بما لا يجوز، فأنكره بنو إسرائيل، فأحدقوا به ونشروا [له] التوراة، فقرأوا فطار من بين أيديهم حتى ذهب إلى البحر.

وأما سليمان فإنه لما ذهب ملكه انطلق هارباً في الأرض، فكان يستطعم فلا يطعم فيقول: لو عرفتموني أطعمتموني. فيطردونه، حتى إذا أعطته امرأة حوتاً شقه فوجد الخاتم في بطن الحوت بعد أربعين ليلة، في قول الحسن.

وقال سعيد بن جبير: بعد خمسين ليلة. فلما لبسه ردّ عليه ملكه وبهاءه وأظله الطير، فأقبل لا يستقبله إنسي ولا جني ولا طائر، ولا حجر ولا شجر إلا سجد له، حتى انتهى إلى منزله. ثم أرسل إلى الشيطان فجيء به، فجعله في صندوق من حديد وأقفل عليه، وختم عليه بخاتمه؛ ثم أمر به فألقي في البحر، فهو فيه إلى ان تقوم الساعة.

قوله تعالى: ﴿لا ينبغي لأحدٍ من بعدي﴾^(١) إنما طلب هذا الملك ليعلم أنه قد غفر له ويعرف منزلته بإجابته دعائه، ولم يكن حينئذ في ملكه الريح ولا الشياطين. ﴿والرّخاء﴾ اللينة، مأخوذة من الرخاوة و ﴿أصاب﴾. بمعنى قصد.

فإن قيل: قد وصفت في سورة الأنبياء بأنها عاصفة؟ فالجواب: أنها كانت تشتد إذا أراد، وتلين إذا أراد. وكانت الشياطين تغوص في البحر فتستخرج له الدرّ وتعمل له الصّور. والجفان: القصع الكبار، يجتمع على القصعة الواحدة ألف رجل يأكلون منها، ويأكل من كل قدر ألف رجل، وكانت لا تنزل من مكانها.

فتأملوا إخواني هذا السلطان العظيم كيف تزلزل بالزلل، واختلت أموره إذ دخل عليه الخلل، فخطؤه أوجب خروجه من المملكة، ولقمة آدم كادت توقعه في المهلكة فعليكم بالتقوى، فإنها سبيل السلامة، فمن أخطأها أخطأته الكرامة.

الكلام على البسمة

عمر ينقضي وذنّب يزيدُ ورقيب يُحصي على شهيدُ
واقترابٌ من الحِمَامِ وتأميـ لَطول البقاء عندي جديدُ

(١) ص ٣٥.

أنا لاهٍ وللمنيسة حثم
كل يوم يميت مني جزءاً
كم أخ قد رزئته فهو وإن أض
خلسته المنون مني فما لي
هل لنفسي بواعظات الجدي
حيث يمتت منهل مورود
وحياتي تنفس معدود
حي قريب المحل مني بعيد
خلف منه في الوري موجود
دئين عن منزل سييد

ألاً متيقظ لِمَا بين يديه، ألاً متأهب للقادم عليه، ألاً عامر للقبر قبل الوصول إليه، يا واقفاً مع هواه وأغراضه، يا معرضاً عن ذكر عوارضه إلى أعراضه، يا غافلاً عن حكم الموت وقد بُت بمقراضه، سيعرف خبره إذا اشتد أشدُّ أمراضه، وأورده حوضاً مريراً من أصعب حياضه، ونزل به ما يمنعه من اغتماضه، واستبدل بانسباط كفه عن انقباضه، وأخذت يد التلف بعد إحكامه في انتقاضه، وأخرج عن خضر الرئي وروضه وغياضه، وألقي في لحدٍ وعُر يخلو برضاضه، وعلم أنه باع عمره بأردأ أعواضه.

يا من الهوى كلامه وحديثه، يا من في المعاصي قديمه وحديثه، يا من عمره في المعاصي حفيفه وأثيبه، من له إذا لم يجد في كربه من يغيبه، آه من قهر لا يرفق بطاشه، ومن حريق لا يُرحم عطاشه، ومن نزول لحدٍ لا يُرفع خشاشه، عمل المقبول فيه لحافه وفراشه، آه من سحاب عقاب رذأه يُردي ورشاشه، من يخلصه اليوم من هوى قد أشربه مُشاشه.

كانكم بالسماء قد انشقت وأذنت لربها وحقت، وبأقدام الصالحين قد ترققت، وبأيمانهم للصحائف قد تلتقت، صبر القوم على حصر الحبس، فخرجوا إلى رَوْح السعة.

قال أحمد بن [أبي] الحواري: قلت لزوجتي رابعة: أصائمة أنت اليوم؟ فقال: ومثلي من يفطر في الديننا!

وكانت إذا طبخت قِدراً قالت: كُلها يا سيدي فما نضجت إلا بالتسيح والتقديس!

وكانت تقول: ما سمعت الأذان إلا ذكرتُ منادي القيامة، ولا رأيت الثلج إلا تذكرت تطايرَ الصحف، ولا رأيت جراداً إلا ذكرت الحشر، وربما رأيت الجنَّ يذهبون ويحيئون، وربما رأيت الحورَ يستترن مني بأكمامهنَّ.

قال: ودعوتها مرةً فلم تُجبني، فلما كان بعدَ ساعة أجابتني وقالت: إنَّ قلبي كان قد امتلأ فرحاً بالله، فلم أقدر أن أجيبك.

قال: وكانت لها أحوال شتى، فمرة يغلب عليها الحبُّ فتقول:

حبيبٌ ليس يَعدِّله حبيبٌ ولا يسواه في قلبي نصيبٌ
حبيبٌ غاب عن بصري وسمعي ولكن عن فؤادي ما يغيبُ

وتارة يغلب عليها الأُنس فتقول:

ولقد جعلتُكَ في الفؤادِ محدثي وأبحتُ جسمي من أراد جلوسي
فالجسمُ منِّي للجلسِ مؤانسٌ وحبيبُ قلبي في الفؤادِ أنيسي

وتارة يغلب عليها الخوف فتقول:

وزادني قليل ما أراه مُبلَّغي أَلزَّادُ أبكي أم لطول مسافتي
أُتحرقني بالنار يا غاية المنى فأين رجائي فيك أين محبَّتي

ويح قلبك! ما هذه القسوة، أتغلبك، وأنت رجل نسوة!

كانت أم هارون من العابدات تقول: إني لأغتم بالنهار حتى يجيء الليل، فإذا جاء الليل قمت، فإذا جاء السَّحر دخل الرُّوح قلبي.

وخرجت إلى بيت المقدس فعارضها سبع فقال: تعال إن كان لك رزق فكلِّ، فأفعى السبع ثم عاد.

وكانت ثويبة بنت بهلول تقول: قرّة عيني! ما طابت الدنيا والآخرة إلا بك، فلا تجمع عليّ فقدك والعذاب!

قال خُشيش الموصلي: جاءني كتاب من حمّادة العابدة فإذا فيه: أبلغ كلَّ

محزون بالشام عني السلام.

أخبرنا عمر بن ظفر، أنبأنا جعفر بن أحمد، أنبأنا عبد العزيز بن علي، أنبأنا علي بن عبد الله بن جهضم، حدثنا محمد بن داود الدينوري، عن أبي زكريا الشيرازي، قال: تهت في البادية بالعراق أياماً كثيرة لم أجد شيئاً ارتفق به، فلما كان بعد أيام رأيت في الفلاة خباءً شعر مضروراً، فقصدته فإذا فيه بيت وعليه ستر مُسَبَّل، فسلمت فردت عليّ عجوز من داخل الخباء وقالت يا إنسان من أين أقبلت؟ قلت: من مكة. قالت: وأين تريد؟ قلت: الشام. قالت: أرى شبحك شبح إنسان بطال، هلاً لزمّت زاويةً تجلس فيها إلى أن يأتيك اليقين، ثم تنظر هذه الكسرة من أين تأكلها!؟

ثم قالت: تقرأ شيئاً من القرآن؟ قلت: نعم. فقالت: اقرأ عليّ آخر سورة الفرقان. فقرأتها فشهقت وأغمي عليها، فلما أفاقت قرأت هي الآيات، فأخذت مني قراءتها أخذاً شديداً، ثم قالت: يا إنسان اقرأها ثانية. فقرأتها، فلحقها مثل ما لحقها في الأول فصبرت أكثر من ذلك فلم تفق، فقلت كيف أستكشف حالها، هل ماتت أم لا؟ فتركت البيت على حاله ومشيت أقلّ من نصف ميل، فأشرفت على وادٍ فيه أعراب، فأقبل إليّ غلامان معهما جارية، فقال أحد الغلامين: يا إنسان أتيت البيت في الفلاة؟ قلت: نعم. قال: وتقرأ القرآن؟ قلت: نعم. قال: قتلت العجوز ورب الكعبة!

فمشيت مع الغلامين والجارية حتى أتينا البيت، فدخلت الجارية، فكشفت عن وجهها فإذا هي ميتة، فأعجبني خاطر الغلام، فقلت للجارية: من هذان الغلامان؟ فقالت: هذه أختهم، منذ ثلاثين سنة لم تأنس بكلام الناس، وإذا نزلنا بوادي توارى بيتها بالفلاة لثلاثين سنة لم تأنس بكلام الناس، وإذا نزلنا بوادي توارى بيتها بالفلاة لثلاثين سنة لم تأنس بكلام أحد، وكانت تأكل في كل ثلاثة أيام أكلةً وتشرب شربة.

تَوَرُّهَا الْحَادِي عَلَى فَرْطِ الرَّجَا تَأْمَلُ مَعَ ضَوْءِ الصَّبَاحِ الْفَرَجَا
تَقْطَعُ فِي الْيَدِ سَبِيلًا حَرَجًا بِأَسْطَةِ عَقَّالِهَا جُنَجَ الدُّجَا

غيره:

حَثَّ عَلَيْهَا فِي السَّرِيِّ حَادِيهَا فَلَا تَقُلْ فَشَوْقُهَا يَكْفِيهَا

غيره:

يَا سَائِقِهَا عَلَيَّ وَحَاها مَهْلًا ارْتَدُّ لِمَسِيرِهَا طَرِيقًا سَهْلًا
وَأَشْدُّ قَلْبِي إِنْ جُرْتُ بَابَ الْمَعْلَى مَا بَيْنَ قُبُورِ الْعَاشِقِينَ الْقَتْلَى

غيره:

يَا سَاكِنِي بَطْنَ وَجَرَّةٍ مِنْ نَجْدٍ هَلْ عِنْدَكُمْ لِسَائِلٍ مَا يُجَدِّي
مَقْتُولٌ هُوَ بِه رَسِيسُ الْوَجْدِ مَا حَالَ عَنِ الْعَهْدِ لَطُولِ الْعَهْدِ

الكلام على قوله تعالى

﴿القارعة ما القارعة﴾

القارعة القيامة، سميت قارعة لأنها تفرع بالأهوال.
وقوله: ﴿ما القارعة﴾ استفهام معناه التفخيم لشأنها، كما تقول: زيد ما زيد.

﴿وما أدراك ما القارعة﴾ أي لأنك لم تعابنها ولم تر ما فيها لشدة الأهوال
﴿يوم يكون الناس كالفراش المبثوث﴾ قال الفراء الفراش: غوغاء الجراد،
وهو صِغَارُهُ.

وقال ابن قتيبة: ما تهافت في النار من البعوض. شبه الناس بذلك، لأنهم
إذا بُعثوا ماج بعضهم في بعض. والمبثوث: المنتشر المتفرق.

﴿وتكون الجبال كالعهن﴾ (١) أي كالصوف، شبهها في ضعفها ولينها
بالصوف. وقيل: شبهها في خفتها وسيرها. وقال ابن قتيبة: العهن: الصوف

(١) الآيات من سورة القارعة: ١ - ٣.

المصبوغ. والمنفوش: المندوف. فإذا رأيت الجبل قلت هذا جبل، فإذا مسسته لم تر شيئاً، وذلك من شدة الهول.

يا من عمله بالنفاق مغشوش، تتزين للناس كما يزين المنقوش، إنما يُنظر إلى الباطن لا إلى النقوش، إذا هممت بالمعاصي، فاذا ذكر يوم النعوش، وكيف تُحمل إلى قبر بالجدل مفروش، من لك إذا جُمع الإنس والجن والوحوش، وقام العاصي من قبره حيران مدهوش، وجيء بالجبار العظيم وهو مغلول مخشوش، فحينئذ يتضائل المتكبر وتذل الرءوس، ويومئذ يبصر الأكمة ويسمع الأطروش، ويُصب الصراط، فكم واقع وكم مخدوش، ليس بجادة يقطعها قصل ولا مرعوش، ولا تقبل في ذلك اليوم فدية ولا تؤخذ الأروش، والمتعوس حينئذ ليس بمنعوش، وينقلب أهل النار في الأقدار والريح كالخشوش، لحافهم جمر وكذلك الفروش، ﴿وتكون الجبال كالعهن المنفوش﴾

قوله تعالى: ﴿فأما من ثقلت موازينه﴾ أي رجحت بالحسنات. قال الفراء: والمراد بموازينه وزنه. والعرب تقول: هل لك في درهم بميزان درهمك ووزن درهمك. وأراد بالموازنين: الوزنات ﴿فهو في عيشة راضية﴾ أي مَرْضِيَّة. ﴿وأما من خفت موازينه فأمه هاوية﴾ (١) فيه قولان: أحدهما: أنه يهوي في النار على أم رأسه هاوية. والمعنى أنه هاو في النار على رأسه. قاله عكرمة. **والثاني** معناه: فمسكنه النار، فالنار له كالأم، لأنه يأوي إليها. قاله ابن زيد والفراء وابن قتيبة.

أنبأنا محمد بن عبد الملك بن خيرون، قال: أنبأنا إسماعيل بن مسعدة، قال: أنبأنا عمرو بن يوسف، قال: أنبأنا أبو أحمد بن عدي، حدثنا أحمد بن عمير بن يوسف، حدثنا إسماعيل بن إسرائيل، قال: حدثنا أسد بن موسى، قال: حدثنا سلام التميمي، عن ثور بن زيد، عن خالد بن معدان، عن أبي

(١) الآيات من سورة الفارعة ٤ - ٦.

رُهِم، عن أبي أيوب الأنصاري، قال: قال رسول الله ﷺ: «إن المؤمن إذا مات تلقتّه البشري من الملائكة ومن عباد الله كما يتلقى البشري في دار الدنيا، فيقبلون عليه، ويسألونه فيقول بعضهم لبعض: رَوَّحوه ساعة فقد خرج من كرب عظيم. ثم يقبلون عليه فيسألونه فيقولون: ما فعل فلان؟ ما فعل فلان؟ هل تزوجت فلانة. فإن سأله عن إنسان قد مات قال: هيهات مات ذاك قبلي. فيقولون: إن لله وإنا إليه راجعون، سلِّك به إلى أمه الهاوية فبئست الأم وبئست المربيّة.

قال: وتعرض على الموتى أعمالكم، فإن رأوا خيراً استبشروا وقالوا: اللهم إن هذه نعمتك فأتّمها على عبدك، وإن رأوا سيئة قالوا: اللهم راجع بعبدك. فلا تحزنوا موتاكم بأعمال السوء، فإن أعمالكم تُعرض عليهم».

وقد روي هذا الحديث موقوفاً على أبي أيوب، وقد روي من كلام عبّيد ابن عمّير. والموقوف أصح.

ألك عملٌ إذا وضع في الميزان زان، عملك قِشر لا لب، واللب يُثقل الكفة لا القِشر.

سجع

يا من أغصان إخلاصه ذاوية، وصحيفته من الطاعات حاوية، لكنها لكبار الذنوب حاوية، يا من همته أن يملأ الحاوية، كم بينك وبين البطون الطاوية، كم بين طائفة الهدى والغاوية، اعلم أن أعضاءك في التراب ثاوية، لعلها تنفرد بالجد في زاوية، قبل أن تعجز عند الموت القوة المقاوية، وترى عنق الميزان لقلة الخير لاوية ﴿وأما من خفت موازينه فأمه هاوية﴾.

ذِكْر الحساب أطار عن أعين المتقين النعاس، ولتثقل الميزان فرغت أكياس الكيَّاس.

قالت مولاة أبي أمامة: كان أبو أمامة لا يردّ سائلاً ولو بتمرة، فأتاه سائل

ذات يوم وليس عنده إلا ثلاثة دنانير فأعطاه ديناراً، ثم أتاه سائل فأعطاه ديناراً، ثم أتاه سائل فأعطاه ديناراً، ثم أتاه سائل فأعطاه ديناراً، قالت: فغضبت وقلت: لم تترك لنا شيئاً؟ فوضع رأسه للقائلة، فلما نودي للظهر أيقظته فتوضأ ثم راح إلى المسجد. قالت: فرققت عليه وكان صائماً، فاقترضت ما جعلت له عشاء وأسرجت له سراجاً، وجئت إلى فراشه لأمهده له، فإذا صرّة ذهب فعَدَدتها، فإذا هي ثلاثمائة دينار، فقلت: رحمك الله! ما صنع الذي صنع إلا وقد وثق بما عنده. فأقبل بعد العشاء فلما رأى المائدة والسراج تبسم وقال: هذا خير من غيره. فقممت على رأسه حتى تعشى، فقلت: رحمك الله! خلّفت هذه النفقة في سبيل الله مضيعة ولم تخبرني فأدفعها؟ قال: وأي نفقة؟ ما خلّفت شيئاً. قالت: فرفعت الفراش، فلما رآه فرح واشتد تعجبه. قالت: فقممت فقطعت زُنَّاري وأسلمتُ على يده. وكانت تُعلِّم النساء القرآن والفرائض والسنن.

انظروا ثمرة المعاملات: هذا نقد فكيف الوعد.

أخبرنا ابن ناصر وعبد الله بن علي، قالوا: أنبأنا طراد، قالوا: أنبأنا أبو الحسين بن بشران، أنبأنا ابن صفوان، حدثنا أبو بكر، عم محمد بن الحسين، قال: حدثني أحمد بن سهيل، قال: حدثني خالد بن الغور، قال: كان حيوة بن شريح من البكائين، وكان ضيق الحال جداً، فجلست إليه يوماً وهو وحده فقلت له: لو دعوت الله يوسع عليك؟ فالتفت يميناً وشمالاً فلم ير أحداً، فأخذ حصاة من الأرض فقال: اللهم اجعلها ذهباً، فإذا هي والله تبرة في كفه ما رأيت أحسن منها. فرمى بها إليّ فقلت: ما أصنع بها قال: استنفقها فهبته والله أن أرده.

أخبرنا ابن ناصر، أنبأنا الحسين بن أحمد، أنبأنا هلال بن محمد، أنبأنا جعفر الخُلدي، حدثنا ابن مسروق، حدثنا محمد بن الحسين، عن محمد بن عبد العزيز بن سليمان، قال: سمعت دَهْمًا وكان من العابدين يقول: اليوم الذي لا آتي فيه عبد العزيز كنت مغبوناً. فأبطأت عليه يوماً أتيته فقال: ما الذي أبطأ بك؟ قلت: خير. قال: على أي حال. قلت: شغلنا العيال، كنت

أَلْتَمَسَ لَهُمْ شَيْئًا . قَالَ : فَوَجَدْتَهُ ؟ قُلْتُ : لَا . قَالَ : فَهَلُمَّ فَلْنُدْعُ . فِدْعَا وَأَمَّنْتُ
وَدَعَوْتُ وَأَمَّنْتُ . ثُمَّ نَهَضْنَا لِنَقُومَ ، فِإِذَا وَاللَّهِ الدَّرَاهِمُ وَالذَّنَانِيرُ تَتَنَاقِرُ فِي
حُجُورِنَا . فَقَالَ : دُونَكُمَا . وَمَضَى .

ما خِسرَ معنا مُعَاوِلَ ، وَلَا قَاطَعَنَا مُوَاصِلَ .

قوله تعالى : ﴿ وَمَا أَدْرَاكَ مَا هِيَ ﴾ يعني الهاوية ﴿ نار حامية ﴾ أي حارة قد
انتهى حرها .

كان عطاء السَّلَمِيِّ إِذَا عَوْتِبَ فِي كَثْرَةِ بَكَائِهِ يَقُولُ : إِنِّي إِذَا ذَكَرْتُ أَهْلَ
النَّارِ مَثَلْتُ نَفْسِي بَيْنَهُمْ ، فَكَيْفَ بِنَفْسٍ تُغْلَى وَتَسْحَبُ أَنْ لَا تَبْكِي .

رحم الله أَعْظَمًا نَصَبْتُ فِي الطَّاعَةِ وَانْتَصَبْتُ ، جَنَّ عَلَيْهَا اللَّيْلُ ، فَلَمَّا تَمَكَّنَ
وَتَبَّتْ ، كَلِمًا ذَكَرْتُ جَهَنَّمَ رَهَبْتُ وَهَرَبْتُ ، وَكَلِمًا تَصَوَّرْتُ ذُنُوبَهَا نَاحَتْ عَلَيْهَا
وَنَدَبْتُ .

كان ابن مسعود يبكي حتى أخذ بكفيه من دموعه فرمى بها . وكان عبد الله
ابن عمر يبكي حتى نشفت دموعه ، وقلصت عيناه ، وبكى هشام الدستوائي ،
حتى فسدت عينه ، وكانت مفتوحة لا يبصر لها . وكان الفضيل قد أَلِفَ الْبُكَاءَ
فَرُبَّمَا بَكَى فِي نَوْمِهِ فَيَسْمَعُهُ أَهْلُ الدَّارِ .

بَكَى الْبَاكُونَ لِلرَّحْمَنِ لَيْلًا وَبَاتُوا دَمْعُهُمْ لَا يَسْأَمُونَ
بِقَاعِ الْأَرْضِ مِنْ شَوْقِ إِلَيْهِمْ تَحَنُّنٌ مَتَى عَلَيْهَا يَسْجُدُونَ

إِذَا لَانَتْ الْقُلُوبُ لِلْخَوْفِ وَرَقَّتْ ، رَفَعْتُ دَمْعَهَا إِلَى الْعَيْنِ وَرَقَّتْ ،
فَأَعْتَقْتُ رِقَابًا لِلْخَطَايَا رَقَّتْ ، يَا قَاسِي الْقَلْبِ ابْكْ عَلَيَّ قَسْوَتِكَ ، يَا ذَاهِلَ الْفَهْمِ
بِالْهُوَى نُحْ عَلَيَّ غَفْلَتِكَ ، يَا دَائِمَ الْمَعَاصِي خَفْ غِبَّ مَعْصِيَتِكَ ، أَمَا عَلِمْتَ أَنَّ
النَّارَ أَعِدَّتْ لِعَقُوبَتِكَ .

وَمَجَلَسْنَا مَاتَمًّا لِلذُّنُوبِ فَبَاكُوا فَقَدْ حَانَ مِنَّا الْبُكَاءُ
وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ مِعَادِنَا لِكَشْفِ السُّتُورِ وَهَتْكَ الْغَطَاءِ

جات امرأة في ليلة مطيرة إلى راهب وقصدت أن تفتنه، فقالت: هذا المطر ولا مأوى لي فأوئني. ففتح لها الباب فدخلت واضطجعت، وجعلت تتره محاسنها، فدعته نفسه إليها فقال لنفسه: لا حتى أنظر صبرك على النار. فأتى المصباح فوضع إصبعه فيه فاحترقت، ثم أتى صلاته فعاودته نفسه فم يزل كذلك حتى احترقت الأصابع الخمس. فلما رأت المرأة فعله بنفسه ذلك صعقت فماتت.

وكان الأحنف بن قيس يقدم إصبعه إلى المصباح، فإذا وجد حرارة النار قال لنفسه: ما حملك على ما صنعت يوم كذا.

قال بعض السلف: دخلت على عابد وقد أوقد ناراً بين يديه، وهو يعاتب نفسه وينظر إلى النار فلم يزل كذلك حتى خر ميتاً.

دخل ابن وهب إلى الحمام فسمع قارئاً يقرأ: ﴿وَإِذْ يَتَحَاجُّونَ فِي النَّارِ﴾ (١) فسقط مغشياً عليه فحمل.

سجع

يا من أركان إخلاصه واهية، أما لك من عقلك ناهية، إلى متى نفسك ساهية، معجبة بالدنيا زاهية، مفاخرة للإخوان مضاهية النار بين يديك وتكفي داهية ﴿وما أدراك ماهية نارٍ حامية﴾.

تقوم من قبرك ضعيف الجأش، وقد جأ قلبك في بدنك وجاش، ووابل الدمع يسبق الرشاش، أتدري ما يلاقي العطاش الظائمة ﴿نارٍ حامية﴾.

أين من عتي وتجبّر، أين من علا وتكبر، أين من للدول بالظلم دبر، ماذا أعدت للحضرة السامية، ﴿نار [حامية]﴾.

لو رأيت العاصي وقد شقي، يصيح في الموقف وأقلقي، اشتد عطشه وما

(١) العاشية ٤.

سُقي، وشرر النار إليه يرتقي، فمن يتقي تلك الرامية ﴿نار حامية﴾ .
لو رأيته يقاسي حرّها ويعاني ضرّها، جحيمها وقرّها، والله لا يدفع اليوم
شرّها إلا عينٌ هامية ﴿نار حامية﴾ .

يفر الولد من أبيه، والأخ من أخيه؛ وكلُّ قريب من ذوّيه، أسمعته يا من
معاصيه نامية ﴿نار حامية﴾ .

لهذا كان المتقون يَقلقون ويخافون ربهم ويشفقون، وكم جرّت من عيون
القوم عيون، كانت جفونهم دائمة دامية [من خوفهم من ﴿نار حامية﴾ .
أجارنا الله بكرمه منها ووقفنا لما ينجّي عنها، وجعلنا بفضلها ممن قام بما
يؤمّر واجتنب ما عنه يُنهى، فكم له من نعم سامية ﴿نار حامية﴾ .

المجلس الحادي والعشرون

في قصة بلقيس

الحمد لله الذي يخضع لقدرته من يعبد، ولعظمته يخشع من يركع ويسجد، ولطيب مناجاته يسهر العابد ولا يرقد، ولطلب ثوابه يقوم المصلي ويقعد، إذا دخل الدَّخْل في العمل له يفسد، وإذا قُصِدت به سوقُ الخلق يَكْسُد، يعجل كلامه عن أن يقال مخلوق ويبعد، جَدَّد التسليم لصفاته مستقيم الجَدِّد، وكرمه سَيَّاح [فلا يحتاج] أن يقال نجدُ جدُّ، من شبَّه أو عطَّل لم يرشد، ما جاء في القرآن قَبِلْنَا، أو في السُّنَّة لم تَرُدَّد، فأما أن تقول في الخالق برأيك فإنك تَبْرُد، أليس هذا اعتقادكم يا أهل الخير، وكيف لا أتفقَّد العقائد خوفاً من الضَّيْر، فإن سليمان تفقَّد الطير ﴿فقال: مالي لا أرى الهدهد﴾.

أحمدته حمدًا من يرشد بالوقوف على بابه ولا يشرد، وأصلي على رسوله محمد الذي قيل لحاسده: ﴿فَلْيَمْدُدْ﴾، وعلى الصَّدِيق الذي في قلوب محبِّيه فرحات، وفي صدور مبغضيه قرحات لا تَنفَد، وعلى عمر الذي لم يزل يقوِّي الإسلام ويعضد، وعلى عثمان الذي جاءته الشهادة فلم يَرُدَّد، وعلى علي الذي كان ينسف زرع الكفر بسيفه ويحصد، أتجبه وتبغض أبا بكر تبرد، وعلى عمه العباس الذي يعلو نسبه الأنساب ويمجد.

قال الله عز وجل: ﴿وتفقَّد الطيرَ فقال ما لي لا أرى الهدهد﴾ (١).

كان سليمان عليه السلام إذا أراد سفراً قعد على سريره، ووضعت الكراسي

(١) النمل ٣٠.

يميناً وشمالاً، فتجلس الإنس والجن وتظلمهم الطير، ويأمر الريح فتحملهم.
 فنزل في بعض أسفاره مفازةً، فسأل عن بُعد الماء هناك، فقالوا: لا نعلم.
 فقالت الشياطين: إن يك من يعلم فالهدهدُ. فقال: عليّ بالهدهد. فلم يوجد
 ﴿فقال: ما لي لا أرى الهدهد﴾ والمعنى: ما للهدهد لا أراه ﴿أم كان﴾ أي بل
 كان ﴿من الغائبين. لأعدتته عذاباً شديدا﴾ قال ابن عباس: [كان] ينتف
 ريشه، وقال الضحاك: يشد رجليه ويشمسه. ﴿أو ليأتيني بسُلطان﴾ أي حجة،
 وكان الهدهد حين نزل سليمانُ قد ارتفع في السماء يتأمل الأرض فرأى بستاناً
 بلقيس، فمال إلى الخصرة، فإذا هو بهدهد لها فقال: من أين أقبلت؟ قال:
 من الشام مع صاحبي سليمان. فمن أين أنت؟ قال: من هذه البلاد وملكتها
 بلقيس. فانطلق معه فرأى بلقيس ومُلُكها. وبلقيس لقب واسمها بلقمة بنت
 ذي مسرح. وقيل: بنت الشَّيْبَانِ ملك سبأ، فلما احتضر استخلفها لما عرف
 من رأيها وتدبيرها، فملكته، وكانت ساكنةً في أرض سبأ وهي مأرب،
 وكانت تحت يدها الملوك.

فلما رآها الهدهد وجاء قال له سليمان: ما الذي غيَّبك؟ ﴿قال أَحَطْتُ بما
 لم تُحِطُ به وجئتُك من سبأ﴾ وسبأ هي القبيلة التي هي من أولاد سبأ بن يشجب
 ابن يعرب بن قحطان. وهو اسم رجل.

أخبرنا ابن الحُصَيْن، قال: أنبأنا ابن المذَّهَب، قال: أنبأنا أحمد بن جعفر،
 حدثنا عبد الله بن أحمد، حدثني أبي، حدثنا أبو عبد الرحمن بن لهيعة، عن
 عبد الله بن هُبَيْرَة، عن عبد الرحمن بن وعله، عن ابن عباس، قال: سأل رجلٌ
 رسولَ الله ﷺ عن سبأ أرجل أم امرأة أم أرض؟ فقال: بل هو رجل، ولد له
 عشرة أولاد، فسكن اليمن منهم ستة ومنهم بالشام أربعة. فأما اليمانيون
 فمدحج وكندة والازد والأشعريون وأنمار وحَمِير. وأما الشامية فلحُم وجُذام
 وعاملة وعَسَّان.»

﴿إني وجدتُ امرأة تملكهم﴾ يعني بلقيس ﴿وأوتيتُ من كل شيء﴾.

يعطاه الملوك ﴿ولها عرشٌ عظيم﴾ (١) وهو السرير. وكان من ذهب وقوائمه من جوهر مكلَّل باللؤلؤ.

قوله تعالى: ﴿الَّا يَسْجُدُوا لِلَّهِ﴾ والمعنى: وزَيْنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَلَّا يَسْجُدُوا لِلَّهِ ﴿الَّذِي يُخْرِجُ الْخَبْءَ﴾ (٢) أي المستتر.

فقال سليمان: ﴿سَنَنْظُرُ أَصَدَقْتَ﴾ وإنما شك في خبره لأنه أنكر أن يكون لغيره في الأرض سلطان.

ثم كتب كتاباً وختمه بخاتمه ودفعه إلى الهدهد وقال: ﴿اذهب بكتابي هذا فألقه إليهم ثم تولَّ عنهم﴾ أي استتر ﴿فانظر ماذا يَرْجِعُونَ﴾ من الجواب فحمله في منقاره حتى وقف على رأس المرأة فرفرف ساعة والناس ينظرون إليه فرفعت رأسها، فألقى الكتاب في حجرها، فلما رأت الخاتم أرعدت وخضعت وقالت: ﴿إِنِّي أَلْقِي إِلَيْكَ كِتَابَ كَرِيمٍ﴾ لكونه مختوماً.

فاستشارت قومها فقالت: ﴿يا أيها الملأ﴾ تعني الأشراف، وكانوا ثلاثمائة وثلاثة عشر قائداً مع كل قائد منهم عشرة آلاف، وقيل، كان معها مائة ألف ﴿أَفْتُونِي فِي أَمْرِي﴾ أي بيِّتوا لي ما أفعل وأشيروا عليّ ﴿مَا كُنْتُ قَاطِعَةً أَمْرًا حَتَّى تَشْهَدُونَ﴾ أي تحضرون وأقطع بمشورتكم.

﴿قالوا نحن اولوا قُوَّةٍ﴾ والمعنى نقدر على القتال ﴿والأمرُ إليك﴾ في القتال وتركه.

﴿قالت إن الملوك إذا دخلوا قرية﴾ أي عنوة ﴿أفسدوها﴾ أي خربوها وأذلوا أهلها. فصدقها الله تعالى فقال: ﴿وكذلك يفعلون﴾ ﴿وإني مرسلَةٌ إليهم بهدية﴾ (٣) وذلك أنها أرادت أن تعلم: هل هو نبي فلا يريد الدنيا، أو ملك فيسترضى بالحمل. فبعثت ثلاث لبنات من ذهب، في كل لبنة مائة رطل وياقوتة حمراء طولها شبر مثقوبة، وثلاثين وصيفة وألبستهم لباساً واحداً، فلا

(٣) الآيات من سورة النمل ٣٣ - ٣٥.

(١) النمل ٢٣.

(٢) النمل ٢٥.

يعرف الذكر من الأنثى. ثم كتبت إليه: قد بعثت كذا وكذا فأدخل في الياقوتة خيطاً، واختم على طرفيه بخاتمك، وميّز بين الجواري والغلمان، فأخبره أمير الشياطين بما بعثت به قبل القدوم فقال: انطلق فافرش على طريق القوم من باب مجلسي ثمانية أميال في ثمانية أميال لِبَنَاتٍ من ذهب. فبعث الشياطينَ فقطعوا اللَّبَنَ من الجبال وطلّوه بالذهب وفرشوه، ونصبوا في الطريق أساطين الياقوت الأحرر. فلما جاءت الرسل قال بعضهم لبعض: كيف تدخلون على هذا الرجل بثلاث لِبَنَاتٍ وعنده ما رأيتهم؟ فقالوا: إنما نحن رسل.

فلما دخلوا عليه ﴿قال: أتمِدُّونَ بَمالٍ﴾ ثم دعا دودة فربط فيها خيطاً وأدخلها في ثقب الياقوتة حتى خرجت من طرفها الآخر، ثم جمع طرفي الخيط فختم عليه، ثم ميّز بين الغلمان والجواري، بأن أمرهم بالوضوء، فبدأ الغلامُ من مِرْفَقِهِ إلى كفه وبدأت الجارية من كفها إلى مرفقها. هذا قول سعيد بن جبّير. وقال قتادة: بدأ الغلام يغسل ظواهر السواعد قبل بطونها، والجواري على عكس ذلك.

ثم قال للرسول ﴿ارجعْ إليهم فلنأتينهم بجنودٍ لا قِبَلَ لهم بها﴾ قلما عادت الرسل وأخبرت بلقيس بعثت إليه، إني قادمة إليك لأنظر ما تدعو إليه، ثم أمرت بعرشها فجعل وراء سبعة أبواب، ووكلت به جرساً يحفظونه، وشخصت إلى سليمان في اثني عشر ألف ملك، تحت يدي كلّ ملك ألوف. فجلس سليمان عليه السلام على سرير ملكه، فرأى رهجاً فقال: ما هذا: بلقيس قد نزلت بهذا المكان. فقال: ﴿أَيْكُمْ يَأْتِينِي بَعْرَشَهَا﴾ ﴿قال عفريت﴾ وهو القويّ الشديد: ﴿أنا آتيك به قبل أن تقوم من مقامك﴾ أي مجلسك. فقال: أريد أسرع من ذلك ﴿قال الذي عنده علم من الكتاب﴾ وهو واصف بن برخيا، وكان يعرف الاسم الأعظم، وكان يقوم على رأس سليمان بالسيف. قال مجاهد: دعا فقال: يا ذا الجلال والإكرام. فبعث الله تعالى الملائكة فحملوا السرير تحت الأرض يخذون به الأرض خدّاً، حتى انخرقت الأرض بالسرير بين يدي سليمان فقال: ﴿نكروا لها عرشها﴾ فغيروه وزادوا فيه

ونقصوا فلما ﴿ قيل: أمكذا عَرَشُكَ ﴾ ؟ ﴿ قالت: كأنه هو وأوتينا العِلْمَ مِنْ قَبْلِهَا ﴾ أي قالت قد أوتيت العلم بصحة نبوة سليمان بأمر الهدهد والرسول الذي بعثت من قبل هذه الآية ﴿ وصدَّها ما كانت تعبد ﴾ (١) والمعنى: أنها كانت عاقلة، وإنما كانت تتبع دين آبائها.

فامر سليمان الشياطين فبنوا لها صَرْحاً على الماء من زجاج، وهو القصر، وكانت الشياطين قد وقعت فيها عنده وقالوا: رَجُلُهَا كَرَجُلِ الْحِمَارِ، فأراد أن يرمي ذلك، فقبل لها: ﴿ ادخلي الصَّرْحَ ﴾ فحسبته لَجَّةً وهو مُعْظَمُ الْمَاءِ ﴿ وكشفت عن ساقِهَا ﴾ لدخول الماء، فقال سليمان: ﴿ إنه صَرْحٌ مُمَرَّدٌ ﴾ أي مملس ﴿ من قوارير ﴾ أي من زجاج. فعلمت أن مُلْكُ سليمان من الله تعالى: فقالت: ﴿ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي ﴾ (٢) أي بما سبق من الكفر.

ثم تزوجها سليمان عليه السلام وردها إلى ملكها، وكان يزورها في كل شهر مرة، ويقيم عندها ثلاثة أيام، وبقي ملكها إلى أن توفي سليمان، فزال ملكها بموته.

الكلام على البسمة

وضح البيان وأنت في غرر الهوى
ترتاح في حلل المشيب مُنعمًا
كم ناظرٍ قد راق حُسناً ناظراً
لم يُغن عنه جماله وكماله
وأناه من حرب المنون مُعاجلٌ
فرأى اكتساب يديه ليس بنافع
وحياؤه لحد ضيق متهدم

متشاغلٌ ببطالةٍ وتصابي
أأخذت ميثاقاً من الأوصابِ
أبلاه بالآفاتِ شرُّ مصابِ
ومقام مُلك في أعز نصابِ
صعبٌ شديد الوهن غير محابِ
ودعا ذويه فكان غير مُجابِ
يعلوه كرب جنادل وترابِ

(١) الآيات من سورة النمل ٤٠ - ٤٣.

(٢) النمل ٤٤.

فأفُق لِنفِسِكِ وَالزَّمَانُ مَسَاعِدٌ وَأَطَعِ نَصِيحَتَكَ سَاعِيَا لِصَوَابِ
 وَارْجِعْ إِلَى مَوْلَاكَ حَقًّا تَائِبًا مِنْ قَبْلِ أَنْ تَعْيِيَ بَرْدٌ جَوَابِ
 أَلَا مَتَيْقِظٌ لِمَا بَيَّنَّ يَدِيهِ، أَلَا مَتَأَهَّبٌ لِلْقُدُومِ عَلَيْهِ، أَلَا عَامِرٌ لِلْقَبْرِ قَبْلَ
 الْوَصُولِ إِلَيْهِ .

تَسْمَعُ فَإِنَّ الْمَوْتَ يَنْذِرُ بِالصَّوْتِ وَبَادِرُ بِسَاعَاتِ التَّقَى سَاعَةَ الْمَوْتِ
 وَإِنْ كُنْتَ لَا تَدْرِي مَتَى أَنْتَ مَيِّتٌ فَإِنَّكَ تَدْرِي أَنْ لَا بُدَّ مِنْ مَوْتِ
 إِخْوَانِي: إِنَّمَا الْعُمُرُ مَرَاحِلُ، وَكَأَنَّ قَدْ بَلَغْتَ سَفِينَةَ الرَّاحِلِ .

دَخَلُوا عَلَى أَعْرَابِي يَعْودُونَهُ فَقَالُوا: كَمْ أَتَى عَلَيْكَ؟ فَقَالَ: خَمْسُونَ وَمِائَةٌ
 سَنَةً. فَقَالُوا: عُمُرُ وَاللَّهِ. فَقَالَ: لَا تَقُولُوا ذَلِكَ، فَوَاللَّهِ لَوْ اسْتَكْمَلْتُمُوهَا
 لَأَسْتَقْلَلْتُمُوهَا .

إِخْوَانِي: مِنْ أَخْطَاتِهِ سَهَامُ الْمَنِيَةِ قَيْدُهُ عِقَالُ الْهَرَمِ، إِنْ لِكُلِّ سَفَرٍ زَادًا
 فَتَزَوَّدُوا لِسَفَرِكُمُ التَّقْوَى، وَكُونُوا كَمَنْ عَايَنَ مَا أُعِدَّ لَهُ، وَلَا يَطُولَنَّ عَلَيْكُمْ
 الْأَمَدُ فَتَقْسُو قُلُوبَكُمْ، وَاللَّهِ مَا بُسِطَ أَمَلٌ مِنْ لَا يَدْرِي: أَيُصْبِحُ إِذَا أَمْسَى، أَوْ
 يُمْسِي إِذَا أَصْبَحَ .

لَا تَحْسَبَنَّ الزَّمَانَ يُنْسئُكَ الـ قَرَضٌ وَلَكِنَّهُ يَبْدَأُ بِيَدِ
 يُعْطِيكَ يَوْمًا فَيَقْضِيكَ غَدًا مَرِيرَةً مِنْ مَرِيرَةِ الْحَسَدِ
 يَسْرِقُ الشَّيْءَ مِنْ قُؤَاكِ وَإِنْ كَانَ خَفِيًّا عَنْ أَعْيُنِ الرَّمِيدِ
 حَالًا فَحَالًا حَتَّى يَرُدَّيْكَ بِالْكَبِيرَةِ بَعْدَ الشَّبَابِ وَالغَيْدِ

إِخْوَانِي: إِنْ الْعَبْرَ قَدْ وَضَحْتَ، وَإِنْ النَّذْرَ قَدْ نَصَحْتَ، وَإِنْ الْمَوَاعِظَ قَدْ
 أَفْصَحْتَ، وَلَكِنْ النُّفُوسُ مِنْ سُكْرِهَا مَا صَحَّتْ، أَيْنَ الْهَمُّ الْمَجْتَمِعُ تَفْرُقُ فَمَا
 تَنْتَفِعُ، يَدْعُوكَ الْهَوَى فَتَتَّبِعُ، وَيَحْدِثُكَ الْمَنَى فَتَسْتَمِعُ، كَمْ زَجْرُكَ نَاصِحٌ فَلَمْ
 تَطْعُ، وَصَلَّ الصَّالِحُونَ يَا مَنْقَطِعُ، أَمَا الَّذِي عَاقَبَكَ هُوَ مُخْتَدِعٌ، شَرُّوَا بِمَا يَفْنِي
 مَا يَبْقَى وَلَمْ تَشْرُ وَلَمْ تَتَّبِعْ، أَيْنَ تَعْبَهُمْ نُسَخُ بِالرُّوحِ وَلَمْ يَضَعْ، تَلْمَحُ الْعَوَاقِبَ

فلتلمحك العقلُ وضع، كأنه ما شبع من جاع، ولا جاع من شبع، أين الهمم
 المجدة، أين النفوس المستعدة، أين المتأهب قبل الشدة، أين المتيقظ قبل
 انقضاء المدة، عاتبُ نفسك على قُبْحِ الشِّيم، وحذرها من مشمرات الحزن
 والندم، وامنعها تخليطها فقد طال السقم، وذكرها لحاقها بمن قد سبق من
 الأمم، واحضر معها باب الفكر، فإنه نعم الحكم، ونادها في الخلوات إلى كم
 مع السَّباتِ وكم.

رُبَّ حَتْفٍ بَيْنَ أَثْنَاءِ الْأَمْلِ وحياةُ المرءِ ظِلٌّ يَنْتَقِلُ
 لو نَجَا شَيْءٌ تَحْتَ صَارِيَةٍ يُهْجِرُ السَّهْلُ وَيُجْبِلُ الْجَبَلَ
 أين من كان خَفِيٍّ شَخْصَهُ مثلُ قَدِّ السَّيْرِ إِنْ عَضَّ قَتْلُ
 أين من يَسْلَمُ مِنْ صَرَفِ الرَّذَى حَكَمَ الْمَوْتُ عَلَيْنَا فَعَدَلُ
 وكأنا لا نرى ما قد نرى وخطوبُ الدهرِ فِينَا تَنْتَضِلُ
 فرويداً بظلامِ صبحه فهي الأيامُ والدهرُ دَوْلُ

الكلام على قوله تعالى

﴿وَلَا أُقْسِمُ بِيَوْمِ الْقِيَامَةِ﴾

قال المفسرون: لا زائدة. والمعنى: أقسم. وقال بعضهم: ﴿لا﴾ ردّ على
 منكر البعث. قال ابن قتيبة: زيدت «لا» على نية الرد على المكذبين، كما
 تقول: لا والله ما ذاك كما تقول.

﴿وَلَا أُقْسِمُ بِالنَّفْسِ اللّوَّامَةِ﴾ فيها ثلاثة أقوال:

أحدها: أنها التي تلوم نفسها حين لا ينفعها اللوم. قال ابن عباس.
 والثاني: أنها نفس المؤمن التي تلومه في الدنيا على تقصيره. قاله الحسن.
 فعلى هذا تكون ممدوحة.

والثالث: أنها جميع النفوس. قال الفراء: ليس من نفس برّة ولا فاجرة إلا

وهي تلوم نفسها، إن كانت عملت خيراً قالت: هلاً زِدْتُ. أو شراً قالت: ليتني لم أفعل. وجواب القسم محذوف، تقديره: لَتُبْعَثَنَّ، يدل عليه قوله: ﴿أَيَحْسَبُ الْإِنْسَانُ أَنْ لَنْ نَجْمَعَنَّ عِظَامَهُ﴾ والمراد به الكافر.

﴿بلى قادرين﴾ المعنى: بل نجمعها قادرين ﴿على أن نُسَوِّيَ بَنَانَهُ﴾ (١) والبنان: أطراف الأصابع. وفي المعنى قولان: أحدهما أن نجعل أصابع يديه ورجليه شيئاً واحداً كحافر الحمار وَخَفَّ البعير، فيُعَدَّم الإرفاق بالأعمال اللطيفة، كالكتابة والخياطة. هذا قول الجمهور.

والثاني: نقدر على تسوية بنانه كما كانت، وإن صَغُرَتْ عظامها، ومن قدر على جمع صغار العظام كان على جمع كبارها أقدر. وهذا قول ابن قتيبة والزجاج.

قوله تعالى: ﴿بل يريد الإنسان ليفجر أمامه﴾ فيه قولان: أحدهما: يكذب بما أمامه من البعث والحساب. قاله ابن عباس.

والثاني: يقدم الذنب ويؤخر التوبة ويقول: سوف أتوب. قاله سعيد بن جبير. فعلى هذا يراد بالإنسان المسلم وعلى الأول الكافر.

قوله تعالى: ﴿يَسْأَلُ أَيَّانَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ﴾ أي متى هو، تكذيباً به. فهذا هو الكافر. ﴿فَإِذَا بَرِقَ الْبَصَرُ﴾ قرأ ابن كثير وابن عامر وأبو عمرو وحمزة والكسائي: «بَرِقَ» بكسر الراء. وقرأ نافع بفتحها، وهما لغتان، تقول العرب: برق البصر يَبْرِقُ وبرق يَبْرِقُ، إذا رأى هَوَلاً يَفزع منه.

ومتى يبرق البصر؟ فيه قولان: أحدهما يوم القيامة يَشْخَصُ بصر الكافر، فلا يطرف لما يرى من الأمور التي كان يكذب بها في دار الدنيا. قاله الأكثرون.

والثاني: عند الموت. قاله مجاهد.

(١) الأيات من سورة القيامة: ١ - ٤.

قوله تعالى: ﴿وخسف القمر﴾ أي ذهب ضَوْؤُهُ. قال أبو عبيدة: خسف وكسف بمعنى واحد.

قوله تعالى: ﴿وجُمعَ الشمسُ والقمرُ﴾ قال أبو عبيد: إنما قال جُمع لتذكير القمر. وفي هذا الجمع قولان: أحدهما جمع بين ذاتيهما. قال ابن عباس: جمعاً كالبعيرين وكالفرسين. وقال عطاء بن يسار: يُجمعان ويقذفان في البحر. وقيل: في النار. وقيل: يجمعان فيطلعان من المغرب.

والثاني: جمع بينهما في ذهاب نورهما. قاله الفراء والزجاج.

قوله تعالى: ﴿يقولُ الإنسانُ﴾ يعني المكذِّب بيوم القيامة: ﴿أين المَفْرَ﴾ أين الفرار ﴿كَلَّا لَا وَزَرَ﴾ أي لا ملجأ إلى ربك يومئذ المستقر ﴿أي المنتهى والرجوع﴾ ﴿يُنَبِّأُ لِإِنسَانٍ يَوْمئذٍمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ﴾ (١) فيه ثلاثة أقوال:

أحدها: بما قَدَّمَ قبل موته وما سَنَّ من شيء فعَمِلَ به بعد موته. قاله ابن مسعود.

والثاني: بأول عمله وآخره. قاله مجاهد.

والثالث: بما قَدَّمَ من الشر وأخَّر من الخير. قاله عكرمة وقال: بما قدم من معصيته وأخَّر من طاعته.

وأسفًا من الصحيفة إن نشرها، واحزنًا على الذنوب إن أظهرها، واحسرتنا على خطايا ما غفرها، من لمن حادَ عن الطريق وقد أبصرها، من لمن شاهد نجاته وكأنه لم يرها، تالله لقد آذى العاصي نفسه وعثرها، كم سمع موعظة من مذكَّر قد كررها، ثم أعرض عنها بعد أن فهمها وتدبَّرها، ويحك إلى متى تضيع زمنك، وإلى متى إيثار فتنك، أما آن التنبه من وسنك، أما حق أن تميل عن سننك، يا لاهياً أتُنسى وقت حزنك، يا بائعاً نفسه أرضيت الفاني بثمانك، أين فهمك الثاقب وجودة فطنك، كم بقي بين سرِّك وبين علنك، أين زاد رحيلك وعدة كفنك، إلى متى مع الدنيا كم مع وثنك، كيف السبيل

(١) الآيات من سورة القيامة: ٦ - ١٣.

إلى صلاحك وتلافيك، وكل ما ذكره العائب وتلاً فيك، أما يزعجك تخويف: ﴿وتلك القرى أهلكناهم﴾ (١) أما يندرك إعلام: ﴿وكذلك أخذ ربك﴾ (٢) أما يقصم عرى عزائمك: ﴿وكم قصصنا من قرية﴾ (٣) أما يقصر من قصورك: ﴿وبئر معطلة وقصر مشيد﴾ (٤) أما يكفي لمثلك مثل: ﴿وقد خلت من قبلهم المثالات﴾ (٥) أما رأيت شمال العقوبة كيف فرقت شملهم، لقد مرت في جو التخويف تهتف بالعصاة: ﴿فكلاً أخذنا بذنبه﴾ (٦).

يا هذا لا نوم أثقل من الغفلة، ولا ريق أملاك من الشهوة، ولا مصيبة كموت القلب، ولا نذير أبلغ من الشيب:

ألا تسلو فتقصر عن هواكا فقدّر شيب رأسك كان ذاكاً
أكل الدهر أنت كما أراكا تراك إلى الممات كذا تراكا
أراك تزيد جذقاً بالمعاصي وتغفل عن نصيحة من دعاكا

يا قوم غرقت السفينة ونحن نيام! أبوكم لم يسمع في حبة حنطة، وداود لم يساهل في نظرة.

يا مُدمن الذنوب مذ كان غلاماً، علام عولت قل لي على ما، أؤمن ما أتى من أتى حراماً، أما ترى ما حلّ بهم من الذنوب إليك قد ترامى، آه لجفن عليم ما سيلقى كيف يلقي مناماً، أين أرباب الأسمار والندامي، كل القوم في قبورهم ندامي، قل لي من اتخذت في أمورك إماماً، أما ما جرى على العصاة يكفي أماما، إلى كم تضيع حديثاً طويلاً وكلاماً، ما أرى داءك إلا داء عقاماً، أما تؤثر نيران تخويفك؟ صارت برداً وسلاماً.

فذكر النفس هولاً أنت راكبه وكربة سوف تلقى بعدها كربة
إذا أتيت المعاصي فاخش غايتها من يزرع الشوك لا يجنى به عبا

(٤) سورة الحج ٤٥.

(٥) سورة الرعد ٦.

(٦) سورة العنكبوت ٤٠.

(١) سورة الكهف ٥٩.

(٢) سورة هود ١٠٢.

(٣) سورة الأنبياء ١١.

إلى متى أعمالك كلها قبيح، أين الجِدَّة إلى كم مزاح، كثر الفساد فأين
 الصلاح، ستفارق الأجساد الأرواح، إما في غدو، وإما في رواح، سينقضي
 هذا المساء والصبح، وسيخلو البلي بالوجوه الصَّبَّاح، أفي هذا شك، أم الأمر
 مزاح، أين سكران الراح راح، حلَّ للبلبي والدود مباح، لهما اغتباق به، ثم
 اصطباح، عليه نطاق من التراب ووشاح، عنوانه لا يزول مفهومه لا بَرَّاح، أتاه
 منكر ونكير كذا في الأحاديث الصَّحاح، فمن لمحتج مرعوب ومقاتل بلا
 سلاح، مشغول عن من مدح، أو ذم، أو بكى، أو ناح، لو قيل له: تمنَّ كان
 العود الاقتراح، وأتى، وهل يطير مقصوصُ الجناح.

إخواني: لا تقولوا من مات استراح، أما هذا لنا قليل، إنَّا لوقاح.

وَتَعَامُوا عَنِ الْعَيْرِ	أَنِسَ النَّاسُ بِالْغَيْرِ
فِي غَدٍ تَعْرِفُ الْخَبَرَ	قَلَّ لِلَّاهِ بِيَوْمِهِ
ثُرَّ وَالْبَغْيِ وَالْبَطْرِ	يَا بَنِي الْحَرَصِ وَالتَّكَا
فَكُونُوا عَلَى حَذَرٍ	لَيْسَ بِسَاقِ كَفَّانٍ
فُضِرَ الصَّخْرُ وَالْمَدْرُ	يَا ضَجِيجَ الْبَلَى عَلَى
وَإِلَى رَبِّكَ السَّفَرُ	قَدْ تَزَوَّدْتَ مَأْتَمًا

سجع على قوله تعالى

﴿يُنَبِّأُ الْإِنْسَانَ يَوْمَئِذٍ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ﴾

يا من يخطر في ثياب الغفلة يتبختر ويتجبر، وقبائحته تكتب وهو لا يحس
 ويؤزبر، بين يدك يوم قريب ما يتأخر ﴿يُنَبِّأُ الْإِنْسَانَ يَوْمَئِذٍ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ﴾
 يا معترضاً بالذنب والعقاب، يا غافلاً عن يوم السؤال والجواب، يا مبارزاً
 بالمعاصي ربَّ الأرباب، من أعظم جرأة منك على العذاب قل لي ومن أصبر،
 نسيت معادك وأطلت أملك، وأعرضت إلى الهوى عن أمر من ملك، ولو
 رفعت والله عملك إلى ملك أعظم ذلك وأكبر، لقد أناخ التقصير والتماهي

ببابك، وقلَّ أن يعبق بريح الثواب شيء من أثوابك، والشيطان يجري منك محرى الدم من آراك، فهو متمكن منك، إذا قمت في محرابك إلى حين قولك الله أكبر.

تقوم إلى صلاتك وأنت متكاسل، وتدخل في الصلاة بقلب غافل، وتستعجل في الصلاة لأجل العاجل، وإذا نظرت بعد الصلاة إلى الحاصل: فالجسد أقبل والقلب أدبر.

يا من ذل المعاصي يعلوه، يا مظلم القلب متى تجلوه، هذا القرآن يتلى عليك وتتلوه، ولكن ما تتدبر.

يا مغترّاً بالزخارف والتمويه، تُعجّب بما تجمعه من الدنيا وتحويه، هلك والله ذو عجب أو كبر أو تيه، ونجا والله أشعث أغبر؛ أنت في دار انزعاج فاحذر منها لا تركن إليها ولا تأمنها، إنما أسكنتها لتخرج عنها، فتأهب للنقلة فما يستوطن معبر، أين من كان يتنعم في قصورها قد فسح لنفسه في توانيها وقصورها، خدعته والله بغرير غرورها بعد أن ساس الرعايا ودبر، نقلته والله صريعاً سريعاً، وسلبته والله ما جمعه جميعاً، وبزته كبيراً كبيراً وعزاً منيعاً، أتراه يفتخر في قبره أو يتكبر، خلا بعمله في ظلام لحده لم ينفعه غير اجتهاده وجدّه، لو قضي برجوعه إلى الدنيا وردّه لحدثنا بهذا أو أخبر.

فتنبه أنت من رقداتك، وكن وصي نفسك في حياتك، فلقد بالغت الزواجر في عظاتك، كم تسمع موعظة وكم تجلس تحت منبر، يا لها من نصيحة لو وجدت نفاذاً، هي حجة عليك، إذا لم تكن ملاذاً، والشيء إذا لم ينفع فربما آذى، وأنت يا هذا بعد هذا بنفسك أخبر..

المجلس الثاني والعشرون في قصة سبأ

الحمد لله المتفرد بالعز والجلال، المتفضل بالعطاء والإفضال، مسخر السحاب الثقال، مربّي الزرع تربية الأطفال، جلّ عن مثل ومثال، وتعالى عن حكم الفكر والخيال، قديم لم يزل ولا يزال، يتفضل بالإنعام، فإن شُكِرَ زاد، وإن لم يُشكَّر أزال ﴿لقد كان لسبأ في مسكنهم آيةً جنتان عن يمينٍ وشمالٍ﴾ .

أحمده على كل حال، وأصلي على رسوله محمد أشرف من نطق وقال، وعلى صاحبه أبي بكر الصديق باذل النفس والمال، وعلى عمر الفاروق العادل، فما جارَ ولا مال، وعلى عثمان الثابت للشهادة ثبوت الجبال، وعلى [عليّ] بحر العلوم وبطل الأبطال، وعلى عمه العباس المقدم في نسبه على جميع الأهل والآل.

قال الله تعالى: ﴿ولقد كان لسبأ في مسكنهم آيةً جنتان عن يمينٍ وشمالٍ﴾ (١).

سبأ هي القبيلة التي هم من أولاد سبأ، وكانت بلقيس لما ملكت قومها تراهم يقتلون على ماء واديهم فجعلت تنهاهم فلا يطيعونها، فتركت ملكها وانطلقت إلى قصرها فنزلته، فلما كثُر الشرُّ بينهم أتوها فسألوها أن ترجع إلى ملكها فأبت، فقالوا: لترجعنّ أو لنقتلك. فقالت: إنكم لا تطيعونني. فقالوا: إنا نطيعك. فجاءت إلى واديهم وكانوا إذا مطروا أتاه السيل من مسيرة خمسة

(١) سبأ ١٥.

أيام ، فأمرت فسُدَّ ما بين الجبلين بمُسْتَاة وحبست الماء من وراء السد ؛ وجعلت له أبواباً بعضها فوقَ بعض . وبنّت من دونه بِرِكة ، وجعلت فيها إثني عشر مَخْرَجاً على عدد أنهارهم ، فكان الماء يخرج منها بالسوية ، إلى أن أسلمت مع سليمان .

وقيل : إنما بنوا ذلك لثلاثي السيلُ أموالهم فتهلك ، فكانوا يفتحون من أبواب السد ما يريدون ، فيأخذون من الماء ما يحتاجون إليه ، وكانت لهم جنتان عن يمين واديهم وعن شماله ، فأخضبت أرضهم وكثرت فواكههم ، وإن كانت المرأة لتمرّ بين الجنتين والمِكتل على رأسها فترجع ، وقد امتلأ من الثمر ولا تمس بيدها شيئاً منه ، ولم يكن في بلدتهم حيّة ولا عقرب ولا بعوضة ، ولا ذبابة ولا برغوث .

فبعث الله تعالى إليهم ثلاثة عشر نبياً وقيل لهم : ﴿ كَلُوا من رزق ربكم واشكروا له بلدة طيبة ﴾ (١) أي هذه بلدة طيبة ، ولم تكن سبخة ، ولا فيها ما يؤذي ﴿ وربّ غفور ﴾ أي والله رب غفور .

﴿ فأعرضوا ﴾ عن الحق وكذبوا الأنبياء ﴿ فأرسلنا عليهم سيل العرم ﴾ (٢) وفيه أربعة أقوال :

أحدها : أن العرم : الشديد . رواه ابن أبي طلحة عن ابن عباس . وقال ابن الأعرابي : إن العرم : السيل الذي لا يطاق .
والثاني : أنه اسم الوادي . رواه عطية عن ابن عباس . وبه قال قتادة والضحاك .

والثالث : أنه المسناة . قاله مجاهد والفراء وابن قتيبة . وقال أبو عبيدة : العرم جمع عرمة وهي السكر والمسناة .

والرابع : أن العرم : الجرد الذي نقب عليهم السكر . حكاه الزجاج .

(٢) سبأ ١٦ .

(١) سبأ ١٥ .

وفي صفة إرسال هذا السيل عليهم قولان. أحدهما: أن الله تعالى بعث عليهم على سكرهم دابة فنقبت. روى عطية العوفي عن ابن عباس أنه قال: بعث الله تعالى عليهم دابة من الأرض فنقبت فيه نقباً فسال ذلك الماء إلى موضع غير الموضع الذي كانوا ينتفعون به. وقال قتادة والضحاك: بعث الله عليهم جُرُذاً يسمى الخلد، والخلد الفأر الأعمى، فنقبه من أسفله فأغرق الله به جناتهم وخرب الله به أرضهم.

والثاني: أنه أرسل عليهم ماءً أحمر فنسف السدَّ وهدمه وحفر الوادي. قاله مجاهد.

قوله تعالى: ﴿وَبَدَّلْنَا هُمُومَهُمْ﴾ يعني اللتين كانتا تطعم الفواكه ﴿جَنَّتَيْنِ ذَوَاتِي أَكُلِ خَمَطٍ﴾ قرأ ابن كثير ونافع وابن عامر وعاصم وحمزة والكسائي: «أَكُلِ». بالتثنية وقرأ أبو عمرو «أَكُلِ» بالإضافة. والأكل: الثمر. وفي المراد بالخَمَط ثلاثة أقوال:

أحدها: أنه الأراك. قاله الحسن ومجاهد والجمهور. فعلى هذا أكله ثمرة. وثمرة الأراك: البربر.

والثاني: أنه كلُّ شجرة ذات شوك. قاله أبو عبيدة.

والثالث: أنه كلُّ نبت قد أخذ طعماً من المرارة حتى لا يمكن أكله. قاله المبرد والزجاج. فعلى هذا القول: الخَمَط: اسم للمأكول.

والأثل: الطَّرْفَاء. قاله ابن عباس. وقوله تعالى: ﴿وَشِيءٌ مِنْ سِدْرٍ﴾ وهو شجر التَّبَق. والمعنى أنه كان الخمط والأثل في جنتهم أكثر من السدر.

﴿ذَلِكَ جَزَيْنَاهُمْ بِمَا كَفَرُوا﴾ أي ذلك التبديل جزيناهم بكفرهم ﴿وَهَلْ نُجَازِي إِلَّا الْكَافِرَ﴾ قال طاوس: الكافر يجازى ولا يُغفر له، والمؤمن لا يناقش الحساب. وقال الفراء: المؤمن يُجَزَى ولا يجازى، فيقال في أفصح اللغة: جزى الله المؤمن ولا يقال جازاه بمعنى كافأه. والكافر يجازى بسبب مثله مكافأة له، والمؤمن يتفضل عليه.

قوله تعالى: ﴿وجعلنا بينهم﴾ هذا معطوف على قوله ﴿لقد كان لِسِيًّا﴾ والمعنى: مِنْ قِصَصِهِمْ أَنَّا جَعَلْنَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ الْقُرَى الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا، وَهِيَ قُرَى الشَّامِ ﴿قُرَى ظَاهِرَةً﴾ أَي مُتَوَاصِلَةٌ يَنْظُرُ بَعْضُهَا إِلَى بَعْضٍ ﴿وَقَدَّرْنَا فِيهَا السَّيْرَ﴾ ^(١) فِيهِ قَوْلَانِ: أَحَدُهُمَا: أَنَّهُمْ كَانُوا يَغْدُونَ فَيَقِيلُونَ فِي قَرْيَةٍ وَيَرْجِعُونَ فَيَقِيلُونَ فِي قَرْيَةٍ. قَالَ الْحَسَنُ وَقْتَادَةَ.

والثاني: أَنَّهُ جَعَلَ مَا بَيْنَ الْقَرْيَةِ وَالْقَرْيَةِ مَقْدَارًا وَاحِدًا. قَالَ ابْنُ قَتَيْبَةَ.

قوله تعالى: ﴿سَيَرُوا فِيهَا﴾ المعنى: وَقَلْنَا لَهُمْ سَيَرُوا فِيهَا ﴿لَيَالِي وَأَيَّامًا﴾ أَي لَيْلًا وَنَهَارًا آمِنِينَ مِنْ مَخَافِ السَّفَرِ مِنْ جُوعٍ، أَوْ عَطَشٍ، أَوْ سَبْعٍ أَوْ تَعَبٍ.

فَبَطَرُوا النِّعْمَةَ وَمَلَّوْهَا، كَمَا مَلَ بَنُو إِسْرَائِيلَ الْمَنَّ وَالسَّلْوَى ﴿فَقَالُوا: رَبَّنَا بَاعِدْ بَيْنَ أَسْفَارِنَا﴾ قَرَأَ ابْنُ كَثِيرٍ وَأَبُو عَمْرٍو. ﴿بَعْدُ بَيْنَ أَسْفَارِنَا﴾ وَقَرَأَ نَافِعٌ وَعَاصِمٌ وَحَمْزَةُ وَالْكَسَائِيُّ: ﴿بَاعِدْ﴾ رَوَى عَطِيَّةٌ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ أَنَّهُ قَالَ: بَطَرُوا عَيْشَهُمْ وَقَالُوا: لَوْ كَانَ جَنَى جَنَاتِنَا أَبْعَدَ مِمَّا هِيَ كَانَ أَجْدَرَ أَنْ نَشْتَهِيهِ.

﴿وظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ﴾ بِالْكَفْرِ وَتَكْذِيبِ الرِّسْلِ ﴿فَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ﴾ لِمَنْ بَعْدَهُمْ يَتَحَدَّثُونَ بِمَا فَعَلَ بِهِمْ ﴿وَمَزَقْنَاهُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ﴾ ^(٢) أَي فَرَقْنَاهُمْ فِي كُلِّ وَجْهِ مِنَ الْبِلَادِ كُلِّ التَّفْرِيقِ، لِأَنَّ اللَّهَ تَعَالَى لَمَّا أَغْرَقَ مَكَانَهُمْ وَأَذْهَبَ جَنَّتَهُمْ تَبَدَّدُوا فِي الْبِلَادِ، وَصَارَتِ الْعَرَبُ تَتَمَثَّلُ فِي الْفِرْقَةِ بِقَوْمٍ سَبَأٌ يَقُولُونَ: تَفَرَّقُوا أَيَّدِي سَبَأٍ.

وَقَدْ حَذَّرَتْ هَذِهِ الْقِصَّةُ مِنَ الْخِلَافِ وَبَيَّنَّتْ عِقَابَ تَارِكِي الشُّكْرِ.

الكلام على البسمة

تَعَلَّقَتْ بِأَمَالٍ طِيَّالٍ أَيَّ آمَالٍ
وَأَقْبَلَتْ عَلَى الدُّنْيَا مَلِحًا أَيَّ إِقْبَالٍ

(٢) سبأ ١٩.

(١) سورة سبأ الآيات ١٣ - ١٨.

فيا هذا تجهّز لـ فراق الأهل والمال
فلا بُدَّ مِنَ المَوْتِ على حالٍ من الحال

متى تفيق من هذا المرض المراض، متى تستدرك هذه الأيام الطوال
العِراض، يا غافلاً عن سهام الموت الحِداد المَواض، تالله لقد أصاب السهم
من قبل الإنباض، ولقد آن لجمع الحياة الشّتات والانفضاض، وحان لبنيان
السلامة الخراب والانتقاض، وحقّ للمقرض أن يطالب المقرض بالإقراض،
ودناً من مبسوط الآمال الإجماع والإنقباض، أما الأعمار كل يوم في
انقراض، لقد نهت قبل شكة السهم صكة المقرض، أما ترى الراحلين ماضياً
خلف ماض، كم بنيان ما تمّ حتى تمّ ماتم، وهذا قد استفاض، كم حطّ ذو
خفّض على رعم في رغام وانخفاض، انهض بجذك والعاقل ناهض قبل
الإنهاض، إن الموت إليك كما كان لأبويك في إرتكاض، إن لم تقدر على
مشارع الصالحين ردّ باقي الحياض، إن لم تكن بنت لبون فلتكن بنت
مخاض، إلى متى وحتى أتعبت الرواض، أمالك أنفة من هذا التوبيخ ولا
امتعاض، كلما بنى نصيحتك نقضت وما يعلو بنا مع نقاض، يا من باع نفسه
بلذة ساعة بيعاً عن تراض، لبئس ما لبست أتدري ما تعراض، يا علة لا
كالعليل، ويا مرضاً لا كالأمراض، إنما تجزى بقدر عملك عند أعدل قاض.

قصرك الشيب فاقض ما أنت قاض يبدار من قبل حين البياض
إن شرخ الشباب قرص الليالي فتصرف فيه قبل التقاضي

العاقل من راقب العواقب، والجاهل من مضى قدماً ولم يراقب، أين لذة
الهُوى زالت وكأنها لم تكن إذ حالت، أين الذين برّوا أقلام المنى وقطّوا،
وكتبوا صيكاك الآمال وخطّوا، وتحكّموا في بلوغ الأغراض واشتطّوا،
وانفردوا بما جمعوا فخرّنوا ولم يعطوا، علّوا على عالٍ وما أسرع ما انحطّوا،
وسارت بهم مطايا الرحيل تُخذي بهم وتمطّو.

فكم من صحيح بات للموت آمناً أتته المنايا بغتة بعدما هجع

فلم يستطع إذ جاءه الموتُ فجأةً فراراً ولا منه بقسوته امتنعُ
فأصبح تبكيه النساءُ مقنَّعاً ولا يسمعُ الداعي وإن صوتَه رَفَعُ
وقُرِّبَ من لحدٍ فصارَ مقيلاًه وفارقَ ما قد كان بالأمسِ قد جَمَعُ

يا حريصاً على الدنيا مضى عمرك في غير شيء، انقشع غيمُ الزمان لا عن
هلالِ الهدى، ما لذت الدنيا إلا لكافر لا يؤمن بالآخرة، أو لقليل العقل لا
ينظر في عاقبة، الدنيا خراب وأخربُ منها قلبُ من يعمرها، إلى أيّ حين مع
الصبّاء، أما يكفي ما قد مضى، إلى كم هذا الكرى أين التيقظ لحلول الثرى،
كم قد قتل قبلك المني، وإنما يفهم أولوا النهي، ما ينفعه النصح على كثرة
ترداده، سواءً عليه ناداه، أم لم يناده، تالله لقد غمزتك الحوادث بسلب
القرناء غمّزاً، ولزك المتقاضي بالأجل لو فهمت لزا، أما في كل يوم
بمحبوب تُعزّي، أما ترى الأسيّة تعمل طعنًا ووخزاً، أما تشاهد مهنّات
السيوف تُهز هزاً، أين من أوعده ووعد، هل تحس منهم من أحدٍ، أو تسمع
لهم ركزاً.

على ذا ماضى وعليه نمضي طوالُ مني وآجالُ قصارُ
وأيامٌ تعرّفنا مداها أما أنفاسنا فيها سفارُ
ودهرٌ ينشر الأعمار نثرًا كما للغصن بالورق انتشارُ
ودنيا كلما وضعت جنينًا غذاه من نوائبها طوارُ
هي العشواء ما خبطت هسيمٌ هي العجماء ما جرحت جبارُ
فمن يومٍ بلا أمسٍ ليومٍ بغير غدٍ إليه بنا يسارُ

الكلام على قوله تعالى

﴿رفيع الدرجات﴾

قال ابن عباس: رافع السموات ﴿ذوالعرش﴾ أي هو خالقه ومالكه.

سجع

زين السماء بالنجوم تزيين النَّقْش، وجمع الثَّرَيَا وفرَّق بنات نَعْش، ومدَّ الأرض كتمهيد الفَرَش، وأنزل القَطْر بين الوَبْل والطَّش، وحمل الآدمي على الفرش والنَّعْش، بيِّنا هو يلهو جاء أمرٌ زاد على الحَرَش، وضجَّ لمرضه وما يصبر على الحَدَش، ثم يقيمه للقيامة بالبعثرة والنَّبش، سبحانه من عظيمٍ شديد البطش ﴿رفيع الدرجات ذو العرش﴾.

قوله تعالى: ﴿يَلْقَى الرُّوحَ﴾ وهو الوحي ﴿من أمره﴾ أي بأمره ﴿على من يشاء من عباده﴾ وهم الأنبياء ﴿لِيُنذِرَ يَوْمَ التَّلَاقِ﴾ (١) وفيه خمسة أقوال: أحدها أنه يلتقي أهل السماء والأرض. رواه يوسف بن مهرا عن ابن عباس وبه قال بلال بن سعد.

والثاني يلتقي الأولون والآخرون. روي عن ابن عباس أيضاً.

والثالث: يلتقي الخالق والمخلوق. قاله قتادة.

والرابع: المظلوم والظالم. قاله ميمون بن مهرا.

والخامس: يلتقي المرء بعمله. قاله الثعلبي.

سجع على قوله تعالى

﴿لِيُنذِرَ يَوْمَ التَّلَاقِ﴾

يومٌ تذل فيه الأعناق لهيبة الخلاق، ويخسر أهل الشقاق بالرياء والنفاق، وتشهد الصحف والاوراق بالأعمال والأخلاق، وتسيل دموع الآماق من الأحداق على تفریط الأباق، ويضيق على العصاة الخناق إذا عزَّ الإعتاق، وتبرز الجحيم فيها الحميم والغساق معدة للفجار والفساق، لفتحهم فأحالت

(١) غافر ١٥.

جَمَالَهُمْ وما لهم من الله من واق، واطلعت على الأفئدة وبواطن الأعماق يَحَلُّون بها ولا يُحَلَّ لهم وثاق، حرها شديد ويزيد بإطباق الأطباق، وأسفا كم يُهَدَّون وكم كم إحداق، هذا وأهل الجنة قد نالوا الرضا بالوفاق، فازوا وحازوا مراتب السِّباق، فهم في ضياء نورٍ كامل وإشراق، ونعيم لا يحاط بوصفه مديد الرواق، وكؤوس مملوءة فيا حُسْنُ الدِّهَاق، كانوا يشتاقون إلى المحبوب وهو إليهم بالأشواق، حدا له حادي العزم فجدت النِّيَاق، وقد أعلمنا بما يجري على الفريقين يومَ الإفتراق ﴿على من يشاء من عباده لينذر يوم التلاق﴾.

﴿يوم هم بارزون﴾ أي ظاهرون من قبورهم ﴿لا يخفى على الله منهم شيء﴾ (١) فيه ثلاثة أقوال:

أحدها: لا يخفى عليه من أعمالهم شيء. قاله ابن عباس. والمراد التهديد بالجزاء وإن كان لا يخفى عليه اليوم شيء.

والثاني: لا يستترون منه بجبل ولا مدر. قاله قتادة.

والثالث: أن المعنى: أبرزهم جميعاً. حكاه الماوردي.

قوله تعالى: ﴿لَمَن المَلِكُ اليَوْمَ﴾ اتفقوا على أن هذا الكلام يقوله الله تعالى بعد فناء الخلق، واختلفوا في وقت قوله على قولين: أحدهما: أنه يقوله عند فناء الخلائق إذا لم يبق مجيب، فإرد هو على نفسه فيقول: لله الواحد القهار. قاله الأكثرون.

والثاني: أنه يقوله في القيامة. وفيمن يجيبه قولان:

أحدهما أنه يجيب نفسه، وقد سكنت الخلائق لقوله، قاله عطاء.

والثاني: أن الخلائق يجيبونه فيقولون: لله الواحد القهار. قاله ابن جريج.

سجع

إذا خلت الدِّيار ولم يبق دِيَّار، وذهب الليل والنهار، والإنس والجن

(١) غافر ١٦.

والأطيار، ونَضَبَتِ البحارُ والأنهارُ، وبُسَّتِ الجبالُ فصارت كالغبار، قال
 الملك العظيم الجبار ﴿لَمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ﴾ .
 [قوله تعالى]: ﴿الْيَوْمَ تُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ﴾ (١).

سجع

قامت الأقدام حتى تعبت ونصبت، وكلما سعتُ تعثرت في الطريق
 وكبتُ، وسقطت الجبال، ولطالما انتصبت، وظهرت المخبات التي كانت قد
 احتجبت، والحوضُ غزير الماء وكم نفسٍ ما شربت، فجيء بالنيران فزفرت
 وغضبت، ونهضت مسرعة إلى أربابها ووثبت، فانزعجت القلوب ورهبت
 وهربت، وكيف لا تجزع وهي تدري أنها قد طليت، وموازين الأعمال على
 العدل قد نُصبت، ونادى المنادي فبكت العيون وانتحبت: ﴿الْيَوْمَ تَجْزَى كُلُّ
 نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ﴾ .

قوله تعالى: ﴿لَا ظُلْمَ الْيَوْمَ﴾

ميزان العدل تبين فيه الذرّة فاحذروا، الظلم ظلماتٌ يوم القيامة فاذكروا،
 إلى الله سريع الحساب قد بقي القليل لإتيانه.

﴿وَأَنْذِرْهُمْ يَوْمَ الْآزِفَةِ﴾ يعني يوم القيامة. وسميت آزفةً لقربها، يقال
 أزف شُخصُ فلانٍ أي قُرب.

﴿إِذِ الْقُلُوبُ لَدَى الْحَنَاجِرِ﴾ وذلك أنها ترتقي إلى الحناجر فلا تخرج ولا
 تعود ﴿كَاطِمِينَ﴾ أي مغمومين ممثلين خوفاً وحنناً ﴿مَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ
 حَمِيمٍ﴾ أي قريب ينفعهم ﴿وَلَا شَفِيعَ يُطَاعُ﴾ (٢) فيهم فتقبل شفاعته.

(٢) غافر: ١٨.

(١) غافر: ١٧.

سج

لو رأيت الظلمة قد ذلّوا بعد الارتفاع، وصاروا تحت الأقدام وكانوا على
يَفَاع، وبكوا ولا ينفعهم على وفاق الطَّبَاع، وكِيل لهم الجزاء عدلاً بأوفر
صاع، وعلموا أن الأعمار مرّت بالغرور والخِداَع، وأن مُلكاً كانوا فيه بئس
المتاع، ودّوا لو أن لقاء الدنيا كان لهم الوداع، مرضوا بالحسراتِ،
والحسرات أشدّ الأوجاع، وندم من مدّة الباع فاشترى ما يَفْنَى وباع، لا يُنظر
إليهم يوم القيامة كأنهم رَدِيء المتاع، ظهر ذلّهم بين الخلائق كلّهم وشاع،
ورأوا من الأهوال ما أزعجهم وراع، حشر الخلائق كلهم يومئذ في قاع،
وطارت الصحف والرّقاع في تلك البقاع، وقربّت الأعمال ونودي: سَماع
سَماع، ونفعت الشفاعة للمؤمنين وما للفجار انتفاع ﴿ ما لِلظّالّمين مِن حَمِيم
ولا شَفِيع يُطاع ﴾ .

قوله تعالى: ﴿ يَعْلَم خائِنَةَ الأَعْيُن ﴾ قال ابن قتيبة: الخائنة والخيانة واحد .
وللمفسرين فيها ثلاثة أقوال:

أحدها: أنه الرجل يكون في القوم فتمرّ به المرأة فيريهم أنه يغضّ بصره،
فإذا رأى منهم غفلةً لحظ إليها، فإن خاف أن يَفْطنوا له غضّ بصره . قاله ابن
عباس .

والثاني: أنه نظر العين إلى ما نُهي عنه . قاله مجاهد .

والثالث: الغمز بالعين . قاله الضحاك . وقال قتادة: هو الغمز بالعين فيما لا
يجبه الله تعالى ولا يرضاه .

قوله تعالى: ﴿ وما تُخْفِي الصُّدُورُ ﴾ ^(١) فيه ثلاثة أقوال:

أحدها: ما تضمّره من الفعل أنّ لو قدرت على ما نظرت إليه . قاله ابن
عباس .

(١) غافر ١٩ .

والثاني: الوسوسة. قاله السدي.

والثالث: ما تُسرّه القلوب من أمانة أو خيانة. حكاه الماوردي.

سجع

ذنوبك ظاهرة لا تحتاج إلى تفتيش، حية لسانك في الملاهي من الحيات المناهيش، كيف تلحق الصالحين، وهل يطير طائر بلا ريش، تغتاب الرفقاء وتعيب الأصدقاء مع من تعيش، لا عملك لنا خالص ولا تُقَاك لهواك قانص، لمقد رضىت المعايب والنقائص أما ظلّ الحياة ظلّ قانص، كم قبض الموت كفّ قانص. كم أشخص الردى من طرف شاخص، كأنك بك وقد جاءك المغافص ولقيت كلّ الأذى من أدنى القوارص، ورأيت هولاً تُرعد منه الفرائص، وصاحوا ثم قالوا خلّوه فهو عائص، وبكى لمصرعك العدو، والولي المخالص.

سألتُ بني الأيام عن ذاهل الصبّا كأنك قلت الآن ما فعل الطّسّمُ
مضى الشخصُ ثمّ الذّكر فانقرضاً معاً وما مات كلّ الموت من عاش منه اسمُ
ألا دَلّوا هذي النفوسَ فإنها ركائب شرٍ ليس يضبطها الحزمُ

يا من عليه منازل الموت تدور، وهو مستأنس بالمنازل والدور، لا بد أن تخرج من القصور على التواني والقصور، لا بد من الرحيل إلى بلاد القبور على الغفلات وعلى الفتور، أهلكك والله الغرور بفتون الخداع والغرور، يا مظلم القلب وما للقلب نور، الباطن خراب والظاهر معمور، لو ذكرت القبر للمحفور كانت عين العين تفور، ولو تفكرت في الكتاب المسطور دفنت الاستغفار بين السطور، ولو تصورت النفخ في الصور والسماء تتغير وتمور، والنجوم تنكدر وتغور، والصراط ممدود ولا بد من عبور، وأنت متحير في الأمور تبكي على خلاف الأمور، ستحاسب على الأيام والشهور، وترى ما فعلته من فجور في النهار والديجور، ستحزن بعد السرور على تلك الشرور إذا

وَقِيَّتِ الأَجُورَ، وبان المواصل من المهجور، ونجا المخلصون دون أهل
الزور، تصلي ولكن بلا حضور، وتصوم والصوم بالغيبة مغمور، لو أردت
الولدان والهور لسألتهم وقت السحور، كم نتلطف بك يا نَفُور، كم نُنعم
عليك يا كفور، كم بارزت بالقبيح والكريم غفور ﴿يَعْلَمُ خَائِنَةَ الأَعْيُنِ وما
تُخْفِي الصدور﴾ .

وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم.

المجلس الثالث والعشرون في قصة يونس عليه السلام

الحمد لله الواحد الماجد العظيم، الدائم العالم القائم القديم، القدير البصير
النصير الحليم، القوي العلي الغني الحكيم، قضى فأسقم الصحيح وعافى السقيم،
وقدر فأعان الضعيف وأوهى القويم، وقسم عباده قسمين طائع وأثيم، وجعل
مآلهم إلى دارين دار النعيم ودار الجحيم، فمنهم من عصمه من الخطايا كأنه
في حریم، ومنهم من قضى له أن يبقى على الذنوب ويقيم، ومنهم من يتردد
بين الأمرين والعمل بالخواتيم، خرج موسى راعياً وهو الكليم، وذهب ذو
النون مغاضباً فالتقمه الحوت وهو مليم، وكان محمد ﷺ يتيماً، فكان
الكونُ لذلك اليتيم، وعصى آدم وإبليس، فهذا مَرحوم وهذا رَجيم، فإذا
سمعت بنيل الممالك، أو رأيت وقوع المهالك فقل: ﴿ذلك تقديرُ العزيز
العليم﴾^(١) أنعم علينا بالفضل الوافر العميم، وهداننا بمنّته
إلى الصراط المستقيم، وحدّثنا بلطفه من العذاب الأليم، ومنّ علينا بالكتاب
العزیز القديم، فهو مستحق الحمد ومستوجب التعظيم، أحمده وكيف لا
يُحمد، وأشهد أنه لم يلد ولم يُولد، وأن محمداً عبده الأُمجد ورسوله
الأوحد، أخذ له الميثاق على أقرب الأنبياء والأبّعد، وأقام عيسى يقول:
﴿ومبشراً برسول يأتي من بعدي اسمه أحمد﴾^(٢) وتوسل به آدم وقد أسجد
له من أسجد من ملك كريم صلى الله عليه وسلم ما سلك الطريق القويم،
وعلى صاحبه أبي بكر الصديق السابق إلى الإيمان والتصديق، المحبّ الشفيق

(٢) الأحزاب: ٤٥.

(١) فصلت ١٢.

والرفيق الرقيق حين يسافر وحين يقيم، وعلى عمَر الذي عمّر من الدين ما عمّر
ودفع الكُفْر فدبّر بأحسن تدبير وأكمل تقويم، وعلى عثمان الشريف قدّره
الكثيف ستره الذي أحسب عند الله صَبْرَه على ما ضيّم، وعلى عليّ مدار
العلماء وقُطبهم، ومقدّم الشجعان في حَرْبهم، والمؤمنون من كربهم في مُقعد
مُقيم، وعلى العباس عمه وصينو أبيه، أقرب الخلق إليه نسباً يليه.

قال الله تعالى: ﴿وَإِنْ يُونسَ لِمَنَ المرسلين﴾ (١) يونس اسم أعجمي. وفيه
ست لغات: ضم النون وفتحها وكسرها والهمز مع اللغات الثلاث.

وكان يونس من ولد يعقوب، وكان عابداً من عبّاد بني إسرائيل فرأى ما
هم فيه من الكفر، فخاف أن تنزل بهم عقوبة، فخرج هارباً بنفسه وذريته
وكانوا بيننوى قرية من أرض الموصل، فبعثه الله رسولاً إليهم فدعاهم إلى الله
تعالى وأمرهم بترك عبادة الأوثان، وكان رجلاً فيه حِدّة، فلما لم يقبلوا
أخبرهم أن العذاب مُصَبَّحهم بعد ثلاث. فأقبل العذابُ. قال ابن عباس رضي
الله عنهما: لم يبق بين العذاب وبينهم إلا قدر ثلثي ميل، ووجدوا حرّه على
أكتافهم. وقال سعيد بن جبّير: غشيهم العذابُ كما يغشى الثوبُ الضنفر. وقال
غيره: غامت السماءُ غيماً أسود يُظهر دخاناً شديداً، فغشي مدينتهم فاسودت
أسطححتهم، فلما أيقنوا بالهلاك لبسوا المسوح وحثوا على رءوسهم الرماد،
وفرّقوا بين كل والدّة وولدها من الناس والأنعام، وعجّوا إلى الله تعالى بالتوبة
الصادقة وقالوا: آمنا بما جاء به يونس. فكشف عنهم العذاب فليل ليونس:
ارجع إليهم فقال: كيف أرجع إليهم فيجدوني كاذباً، وكان من يكذب فيهم
يُقتل.

فركب السفينة مغاضباً.

فإن قيل: فلمن غاضب؟ فالجواب: أنه غاضب قومَه قبل التوبة واشتهى أن
ينزل بهم العذاب لِمَا عانى من تكذيبهم، فعوتب على كراهية العفو عنهم، فلما

(١) الصفات ١٣٩.

ركب السفينة وقفت فقال: ما لسفينتكم؟ قالوا: لا ندري. قال: لكني أدري، فيها عبدٌ أبق من ربه وإنها والله لا تسير حتى تلقوه. قالوا: أمّا أنت والله يا نبي الله لا نُلقيك. قال: فاقترعوا ففزع يونس. وهو معنى قوله تعالى: ﴿فَسَاهَمَ﴾ فألقي نفسه في الماء ﴿فالتقمه الحوت وهو مليم﴾ أي مُذنب ﴿فلولاً أنّه كان من المسبّحين﴾ أي من المصلّين قبل التقام الحوت. وقيل: بل في بطن الحوت.

وفي قدر مكثه في بطن الحوت خمسة أقوال:

أحدها: أربعون يوماً. قاله أنس وكعب وابن جريج.

والثاني: سبعة أيام. قاله سعيد بن جبّير.

والثالث: ثلاثة أيام. قاله مجاهد وقتادة.

والرابع: عشرون يوماً. قاله الضحاك.

والخامس: بعض يوم. قال الشَّعْبِيّ: ما مكث إلا أقلّ من يوم، التقمه الحوت ضحى فلما كان بعدَ العصر وقاربت الشمسُ الغروبُ تشاءب الحوتُ فرأى يونسُ ضوءَ الشمس فقال: ﴿لا إله إلا أنت سبحانك إنّي كنت من الظالمين﴾.

﴿فبذناه بالعرَاء﴾ وهي الأرض التي لا يُتوارى فيها بشجر ولا غُبرة ﴿وهو سقيم﴾ أي مريض. قال ابن مسعود: كههيئة الفَرْخِ الممعوط الذي ليس له ريش ﴿وأنبتنا عليه شجرةٌ من يَفْطِين﴾ وهي الدُّبَاء. وإنما أنبتت عليه دون غيرها ليغطيها ورقُّها ويمنع الذباب عنه، فإنه لا يسقط على ورقه ذبابة. وقِيضَ الله تعالى أروية من الوحش تروح عليه بكرةً وعشية، فيشرب من لبنها. وقال وهب بن منبه: أنبت الله عليه الدُّبَاء فأظلمته، ورأى خضرتها فأعجبته، ثم نام فاستيقظ وقد يبست فحزن عليها فقبل له: أنت لم تخلق ولم تسق ولم تُنبت تحزن عليها، وأنا الذي خلقت مائة ألفٍ من الناس أو يزيدون، ثم رحمتهم فشقَّ عليك!

قوله تعالى: ﴿ وَأرسلناه إلى مائة ألف ﴾^(١) المعنى: « وكنا أرسلناه إلى مائة ألف أو يزيدون » المعنى: بل يزيدون. قاله ابن عباس.

والثاني: أنها بمعنى الواو تقديره: ويزيدون قاله ابن قتيبة. وفي زيادتهم أربعة أقوال:

أحدها: عشرون ألفاً، رواه أبي بن كعب عن رسول الله ﷺ.

والثاني: ثلاثون ألفاً.

والثالث: بضعة وثلاثون ألفاً، والقولان عن ابن عباس.

والرابع: سبعون ألفاً، قاله سعيد بن جبيرة.

فإن قيل: كيف قبلت توبتهم، ولم يقبل إيمان فرعون؟

فالجواب من ثلاثة أوجه:

أحدها: أن ذلك كان خاصاً لهم. كما في الآية.

والثاني: أن فرعون باشره العذاب، وهؤلاء لم يباشروهم. ذكره الزجاج.

والثالث: أن الله تعالى علم منهم صدق النيات بخلاف غيرهم. ذكره ابن

الأنباري.

فانظروا [إخواني] إلى التوبة [النصوح] الصادقة كيف أثرت، وقاومت العذاب فدفعت ونفعت، فليلجأ العاصي إلى حرم الإنابة، وليطرق بالأسحار باب الإجابة، فما صدق صادق فردّ، ولا أتى الباب مخلص قصداً، وكيف يُرد من قد استدعى فليل لهم ﴿ وتوبوا ﴾ إنما الشأن في صدق التوبة.

وليست التوبة نُطق اللسان إنما هي ندم القلب وعزمه أن لا يعود، ومن شرط صحتها: أن تكون قبل معاينة أمور الآخرة، فمن باشره العذاب، أو عاينه فقد فات موسم القبول، فاستدركوا قبل المفاجأة بالفوات الذي لا يؤمن نسأل الله يقظة تحركنا إلى البدار، قبل أن يقع الفوت والحسار.

(١) الآيات من سورة الصافات ١٤٥ - ١٤٧.

الكلام على البسمة

يأتي على الناس إصباح وإمساء
يَتَوَي الملوکُ ومِصْرٌ في تغيّرهم
خَسِستِ يا دار دُنْيانا فأفّ لمن
لقد نَطَقْتِ بأصناف العِظات لنا
إذا تَعَطَّفتِ يوماً كنت قاسيةً
أين الملوکُ وأبناء الملوکِ ومن
نالوا يسيراً من اللذات وارتحلوا
وكلُّنا لِصُرُوفِ الدهر نَسَاءُ
مِصْرٌ على العَهْدِ والأحساء أحساءُ
يَرْضَى الخسيسة أو ناسٌ أخصاءُ
وأنت فيما يظن الناسُ خرساءُ
وإن نظرتِ بعين فهبي شَوْسَاءُ
كانت لهم عِزَّةٌ في المُلْکِ قَعْسَاءُ
برغْمهم فإذا النعماء بأَسَاءُ

الدنيا دار كدر، بذلك جرى القدر، فإن صفا عيش لحظة ندر، ثم عاد التخليط فبدر، الورود فيها كالصدر، ودم قتلها هدر، بلاؤها متتابع متواصل وسيفها إذا ضربت سيف فاصل، وحرصها على الحقيقة مفاصل، وخيرها مضمون وشرها حاصل.

نوائب إن حلَّت تخلَّت سريعة
ودُنْيَاك إن قَلَّتْ أَقَلَّتْ، وإن قَلَّتْ
غَلَّتْ وأغالت، ثم غالت وأوحشت
وصلت بنيران وصلت سيوفها
أزالت وزلت بالفتى عن مقامه
وإما تولت في الزمان توالت
فمن قلة في الدين نجت وعلت
وحشت وحاشت واستمالت وملت
وسلت حساما من أذاة وسلت
وحلت فلما أحكم العقْدُ حلَّتْ

أين أرباب البيض والسمر، والمراكب الصفر والحمرة، والقباب والقبّ الضمر، ما زالوا يفعلون أفعال العُمُر إلى أن تقضى جميع العمر، لو رأيت مرتفعهم بعد النصب قد جرّ إلى بيت لا يدري فيه الحرّ والقرّ، وعليه ثوب لا خيط ولا زرّ، المحنة أنه ما انتقل بما يسرّ، تالله لقد حال حلّوهم إلى المرّ، وصار ما كان ينفع يضر، باعوا بمخشاب الهوى ثمين الدرّ، ولا يمكن أن يقال: البائع غير لأنه باع، وهو يدري أنه حرّ.

المَشِيدانِ التَّي رُفِعَتِ
أَقَامَ لِلأَيامِ فِي أذُنِي
مُهَجَّتِي ضِدَّ تَحارِبِنِي
إِنما دُنْيَاكَ غانِيَةٌ
فالقها بِالزهدِ مُدَرَّعا
ليس يَبقى فِرْعَ نائِبَةٌ
أرْبَعُ مِنَ أَهلِها دُرُسُ
واعظُ مِنَ شَأْنِها الخَرَسُ
أنا مَنِّي كَيْفَ أَحْتَرَسُ
لَم يُهَنَّأُ زَوْجُها العُرْسُ
فِي يَدَيْكَ السيفُ والتُّرسُ
أصلُها فِي الموتِ مُفْتَرَسُ

إخواني: حاسبوا أنفسكم قبل الحساب، وأعدوا للسؤال صحيح الجواب، واحفظوا بالتقوى هذه الأيام، واغسلوا عن الأجرام هذه الأجرام، قبل ندم النفوس في حين سيقاها، قبل طمس شمس الحياة بعد إشراقها قبل ذوق كأس مرّة في مذاقها، قبل أن تدور السلامة في أفلاك محاقها، قبل أن تجذب النفوس إلى القبور بأطواقها، وتفترش في اللحد أخلاق أخلاقها، وتنفصل المفاصل بعد حسن اتساقها، وتشد شدائد الحسرة حاسرة عن ساقها، وتظهر مخبات الدموع بسرعة اندفاقها، وتتقلب القلوب في ضنك ضيق خناقها، ويطول جوع من كان في الدنيا فاكها، وتبكي النفوس في أشرها على زمان إطلاقها.

إخواني: الأيام مطايا بيدها أزمة ركبائها، تنزل بهم حيث شاءت، فبيناهم على غواربها ألفتهم فوطنتهم بمناسمها.

قال الحسن: يُعرض على العبد يوم القيامة ساعات عمره، فكل ساعة لم يحدث فيها خيراً تقطع نفسه عليها حشرات.

وكان يونس بن عبيد جالساً مع أصحابه يحدثهم فنظر في وجوههم وقال: لقد ذهب من أجلي وأجلكم ساعة.

وكتب الأوزاعي إلى أخ له: أما بعد فقد أحيط بك من كل جانب، واعلم أنه يسار بك في كل يوم وليلة مرحلة، فاحذر الله تعالى والمقام بين يديه، وأن يكون آخر عهدك به والسلام.

خَلَّ الذَّنُوبَ صَغِيرَهَا وكبيرها فهو التَّقَى
كن مثل ماش فوق أر ض الشوكِ يَحْذِرُ ما يَرَى
لا تَحْقُرَنَّ صَغِيرَةً إنَّ الجبالَ مِنَ الحصى

قال أعرابي: لا تأمن من جعل في ثلاثة دراهم قطع خير عضو منك أن يكون عقابه غداً هكذا.

قال رجل لبعض الحكماء: أوصني. فقال: إياك أن تسيء إلى من تحب.
قال: وهل يسيء أحد إلى من يحب؟ قال: نعم تعصى فتعدَّب، فتكون مسيئاً إلى نفسك.

أَعْطَيْتَ سِيفاً لكَ بَعْضَ العِدا وليس في كَفِّكَ غير القِرَابِ
فاهرب مِنَ العَيِّ وأشِيعِهِ وَحِينَ لِلنَّسْكِ حِينِ الضَّرَابِ
تَزْجُرُ هذِي النَفْسَ عَن طَبْعِهَا والأَسَدُ لا تترك قَصْدَ الرِوَابِ

الكلام على قوله تعالى

﴿افرأيت إن متَّعناهم سنين﴾ (١)

اعلم أن الآدمي ابن وقته، لأن ما مضى لا لذّة له، لا تغترر بمد المهل، ولا تنس قرب الأجل، فالأيام مراحل وستصل الرّواحل، تأهّب لحوضِ سترده، يا خاسراً رأس المال وما يفتقده، يا طالباً طول البقاء وما يجده.

دهرٌ يشيِّعُ سَبْتَهُ أَحَدُهُ مُتَّابِعٌ ما ينقضي أَمَدُهُ
يَوْمٌ يبْكِينا وَأَوْنَةٌ يَوْمٌ يبْكِينا عليه غَدُهُ
نَبْكي على زمنٍ ومِنْ زمنٍ فبِكاؤنا موصولة مُدَدُهُ
ونرى مكارهنا مخلّدة والعمر يذهب فائتاً عدده

(١) الشعراء ٢٠٥.

لا خيرَ في عيشِ تَخَوَّننا أوقائهُ وتغولنا مُدَدَه
من أقرضَ الأيامَ أتلفها وقضى جميعَ قروضها جَسَدَه
حتى يُعيَّب في مُطمَطمَة لا أهلُه فيها ولا ولَدُه

تدبروا أموركم تدبر ناظر، أين السلطان الكبير القاهر، كم جمع في مملكته
من عساكر، وكم بنى من حصون وديساكر، وكم تمتع بحلّل وأساور، وكم علا
على المنابر ثم آخر الأمر إلى المقابر، العاقل من ينظر فيما سيأتي، ويقهر
بِعزمه شرَّ الهوى العاتي، وإذا قالت النفس حظِّي قال: حظي نجاتي.

عجبت لِمَا تُتَوَّق النفسُ جهلاً إليه وقد تصرّم لانبثاتِ
وعصيانِي العذولِ وقد دعاني إلى رُشدي وما فيه نجاتي
أؤمِّل أن أعيشَ وكلَّ يومٍ بسمعي رتّةً من مُعولاتِ
وأيدي الحافرين تكِلّ مما تُسوِّي من مساكن موحشاتِ
نُراع إذا الجنائزُ قابلتنا ونسكن حين تخفّي ذاهباتِ
كَرُوعَة قلةً لظهور ذيبٍ فلما غاب عادت راتعاتِ
فإن أمّلت أن تَبقى فسائلُ بما أفنى القرون الخالياتِ
فكم من ذي مَصانع قد بناها وشيّدتها قليلَ الخوف عاتي
قليلَ الهَم ذو بال رَخِيٍّ أصمّ عن النصائح والعظاتِ
فبات وما تروّع من زوالِ صحيحاً ثم أصبح ذا شكاتِ
فباكره الطيب، فريع لما رآه لا يبيز إلى الدعاةِ
فلو أن المفرط وهو حيٌّ توخّى الباقيات الصالحاتِ
لَفاز بغيطةٍ وأصاب حظاً ولم يَغشَ الأمورَ الموبقاتِ
فيا لك عندها عِظَة لحيٍّ ويا لك من قلوبِ قاسياتِ
وكل أخِي ثراءٍ سوف يُمسي عديماً والجميعُ إلى شتاتِ
كَأن لم يَلَف شيئاً ما تقضى وليس بفائتٍ ما سوف ياتي

كَأنك بك وقد ملّ الناعت، وحلّ بمحلك المستلب الباغث، وردك من

مقام ناطق إلى حال صامت، وبقيت متحيراً كالأسير الباهت، وإنما هي نفس تخرج ونفس هافت، وقد مضى فمن يرّد الفأنت، وصرت في حالة يرثي لها الشامت، يا عجباً كيف يفرح هالك فأنت.

عباد الله: النظرَ النظرَ إلى العواقب، فإن اللبيب لها يراقب، أين تعب من صام الهواجر، وأين لذة العاصي الفاجر، رحلت اللذة من الأفواه إلى الصحائف، وذهب نصّب الصالحين بجزع الخائف، فكأن لم يتعب من صابر اللذات، وكأن لم يلتذ من نال الشهوات.

أخبرنا هبة الله بن محمد، أنبأنا أبو الحسين بن علي، أنبأنا أبو بكر بن مالك، حدثنا عبد الله بن أحمد، حدثني أبي، حدثنا يزيد، حدثنا حمّاد بن سلمة، عن ثابت، عن أنس قال: قال رسول الله ﷺ: «يُؤْتَى بِأَنْعَمِ أَهْلِ الدُّنْيَا مِنْ أَهْلِ النَّارِ فَيُصْبَغُ فِي النَّارِ صَبْغَةً، ثُمَّ يُقَالُ لَهُ: يَا بَنَ آدَمَ هَلْ رَأَيْتَ خَيْرًا قَطُّ؟ هَلْ مَرَّ بِكَ نَعِيمٌ قَطُّ؟ فَيَقُولُ: لَا وَاللَّهِ يَا رَبِّ. وَيُؤْتَى بِأَشَدِّ النَّاسِ بُؤْسًا فِي الدُّنْيَا مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ، فَيُصْبَغُ فِي الْجَنَّةِ صَبْغَةً ثُمَّ يُقَالُ لَهُ: يَا بَنَ آدَمَ هَلْ رَأَيْتَ بُؤْسًا قَطُّ؟ هَلْ مَرَّ بِكَ شِدَّةٌ قَطُّ؟ فَيَقُولُ: لَا وَاللَّهِ يَا رَبِّ مَا مَرَّ بِي بُؤْسٌ قَطُّ، وَلَا رَأَيْتَ شِدَّةً قَطُّ.»

انفرد بإخراجه مسلم.

وقيل: حبس بعض السلاطين رجلاً زماناً طويلاً ثم أخرجه فقال له: كيف وجدتَ مَحْبِسَكَ؟ قال: ما مضى من نعيمك يومٍ إلا ومضى من بُؤسي يوم، حتى يَجْمَعُنَا يَوْم.

وروي أن داود عليه السلام رأى راهباً في قُلة جبل فصاح به: يا راهب من أنيسك. فقال: اصعد تره. فصعد داود، فإذا ميت مُسَجَّى قال: من هذا؟ قال: قصته مكتوبة عند رأسه. فدنا داود عليه السلام. فإذا عند رأسه لوح عليه

مكتوب فقرأه فإذا فيه : أنا فلان ابن فلان ملك الأملاك ، عشت ألف عام ،
وبنيت ألف مدينة ، وهزمت ألف عسكر ، وأحصنت ألف امرأة ، وافتضضت
ألف عذراء ، فبينما أنا في ملكي أتاني ملك الموت فأخرجني مما أنا فيه فيها
أنذا : التراب فراشي والدود جيرانني . قال : فخر داود مغشياً عليه .

حصَلوا بأنواع من الأحداثِ من كل ما عمروا على الأجداتِ
فإذا الذي جمَعوه طولَ حياتهم نَهَبُ العِدَى وقَسِمةَ الوراثِ
حالت منازلهم على طول المدى ووجوههم في الأرض بعد ثلاث
يا من يُسرّ بيته وأثائه لك في الثرى بيتٌ بغير أثاثِ

أخبرنا أبو القاسم الحريري ، أنبأنا أبو بكر الخياط ، حدثنا أبو عبيد الله بن
رؤسب ، حدثنا ابن صفوان ، حدثنا عبد الله بن محمد ، حدثنا الحسن بن
جمهور ، حدثنا الهيثم بن عدي ، عن عبد الله بن عباس وابن حصين بن عبد
الرحمن وغيره ، عن عمرو بن ميمون ، عن جرير بن عبد الله قال : افتتحنا
بفارس مدينة فدلنا على مغارة ذكر لنا أن فيها أموالاً ، فدخلناها ومعنا من
يقرأ بالفارسية فأصبنا في تلك المغارة من السلاح والأموال شيئاً كثيراً ، ثم
صرنا إلى بيت يشبه الأزج عليه صخرة عظيمة فقلبناها ، وإذا في الأزج سريراً
من ذهب عليه رجلٌ وعليه حلٌّ قد تمزقت ، وعند رأسه لوح فيه مكتوب
فقريء لنا ، فإذا [فيه] : أيها العبد المملوك لا تتجبر على خالفك ، ولا تعدُّ
قدرك التي جعل الله لك ، واعلم أن الموت غايتك وإن طال عمرك ، وأن
الحساب أمامك ، وأنك إلى مدة معلومة تُترك ثم تؤخذ بغتة أحب ما كانت
الدنيا إليك ، فقدم لنفسك خيراً تجده مُحضراً ، وتزوّد لنفسك من متاع الغرور
ليوم فافتك ، أيها العبد الضعيف اعتبر بي فإن في معتبرا ، أنا بهرام بن بهرام
ملك فارس ، كنت من أغلاهم بطشاً وأقساهم قلباً وأطولهم أملاً ، وأرغبهم في
اللذة ، وأحرصهم على جمع الدنيا ، قد جبيت البلاد النائية ، وقتلت الملوك
الساطية ، وهزمت الجيوش العظام وعشت خمسمائة عام ، وجمعت من الدنيا ما
لم يجمعه أحد قبلي ، فلم أستطع أن أفتدي نفسي من الموت إذ نزل بي

وقال محمد بن سيرين: أخذت معاوية قُرّة [أي من البرد] فاتخذ أغشية خفّافاً فكانت تُلقَى عليه فلا يلبث أن ينادي: ادفعوها. فإذا أخذت عنه سألت أن تُردّ عليه فقال: قَبَّحَكَ اللهُ من دار! مكثتُ فيك عشرين سنة أميراً وعشرين سنة خليفة، ثم صرتُ إلى ما أرى!

وكان عبد الملك بن مروان يقول عند موته: والله وددت أني عبدٌ لرجلٍ من تِهامة أرعى غنيماتٍ في جبالها، ولم أكن ألي من هذا الأمر شيئاً.

كلّ حَيّ لاقِي الجِمَامِ فمُودِي
لا تهابُ المنونُ شيئاً ولا تُبْ
يَقْدَحُ الدهرُ في شَمَارِيخِ رَضْوَى
ولقد تتركُ الحوادثُ والأيا
وأرانا كالزراعِ يحصدُه الده
وكأنا للموتِ رَكْبٌ مُخْبِو
أيها الجاهلُ الذي أَمِنَ الده
أين عادٌ وتُبّعُ وأبو ساسا
أين ربُ الحصنِ الحصينِ بسُورا
شدّاً أركانهُ وصاغَ له العِقْيَا
كان يُجَبِي إليه ما بيّنَ صنعا
وترى حوله زُرَافَاتِ خيلِ
فرمى شخصَه فأقصدَه الده
ثم لم يُنْجِه من الموتِ حِصْنٌ
وملوكٌ من قَبْلُه عَمَرُوا الدنيس
بينما ذاك مرّت الطيرُ تجري
وصروفُ الأيامِ أسهَلْنَ بالحِ
ما وقاهمُ ما حاولوا لَوْعَةَ الده
وكذاك العَصْرانُ لا يُلبِثان الم

ما لحيّ مؤمّلٍ من خلودِ
قبي على والدٍ ولا مولودِ
ويحطّ الصخورَ من هَبُودِ
مُ وهياً في الصخرةِ الصيخودِ
رُ فمن بين قائمٍ وحصيدِ
نَ سِراعاً لمنهَلٍ مورودِ
رَ وفي الدهرِ عاقراتِ الخدودِ
ن كسرى وأين صحبِ ثمودِ
ءَ بناه وشاده بالشيدِ
ن باباً وحقّه بالجنودِ
ء ومصرِ إلى قري يئُودِ
حافلاتٍ تَعُدو بمثلِ الأسودِ
رُ بسَهْمٍ من المنايا شديدِ
دونه خَنَدِقٍ وبابٍ حديدِ
ما أُعِينوا بالنصرِ والتأييدِ
لهمُ بالثُّحوسِ لا بالسُّعودِ
ن إليه من المحطّ الكؤودِ
ر وما أكّدوا من التأكيدِ
رء أن يأتيه بالموعودِ

وبعيداً ما ليس يأتي وما يُدْنِيهِ هـ منك العَصْرانَ غيرُ بعيدٍ

سجع على قوله تعالى

﴿ ما أغنى عنهم ما كانوا يُمتعون ﴾^(١)

أين الذين كانوا في اللذات يتقلبون، ويتجبرون على الخلق ولا يُغلبون،
مُزجت لهم كؤوس المنايا فباتوا يتجرعون ﴿ ما أغنى عنهم ما كانوا
يمتعون ﴾ .

مدوا أيديهم إلى الحرام، وأكثروا من الزلل والآثام، وكم وعظوا بمنشور
ومنظوم من الكلام، لو أنهم يسمعون ﴿ ما أغنى عنهم ما كانوا يُمتعون ﴾ .

حُمِل كل منهم في كفن، إلى بيت البلى والعفن، وما صحبهم غيره من
الوطن، من كل ما كانوا يجمعون ﴿ ما أغنى عنهم ما كانوا يُمتعون ﴾ .

ضمهم والله التراب، وسدَّ عليهم في ثراهم الباب، وتقطعت بهم الأسباب،
والأحبابُ يرجعون ﴿ ما أغنى عنهم ما كانوا يمتعون ﴾ .

أين أموالهم والذخائر، أين أصحابهم والعشائر، دارت على القوم الدوائر،
فقيم أنتم تطمعون ﴿ ما أغنى عنهم ما كانوا يمتعون ﴾ .

شغلوا عن الأهل والأولاد، وافتقروا إلى يسير من الزاد، وباتوا من الندم
على أخس مهّاد، وإنما هذا من حصاد ما كانوا يزرعون ﴿ ما أغنى عنهم ما
كانوا يُمتعون ﴾ .

أين الجنود والخدم، أين الحرّم والحرّم، أين النعم والنعم، بعدما كانوا
يربعون فيما يرتعون ﴿ ما أغنى عنهم ما كانوا يُمتعون ﴾ .

لو رأيتهم في حُلل الندامة، إذا برزوا يوم القيامة، وعليهم للعقاب علامة،

(١) الشعراء: ٢٠٧ .

يساقون بالذل لا بالكرامة، إلى النار فهم يُوزَعُونَ ﴿ مَا أَغْنَىٰ عَنْهُمْ مَا كَانُوا
يُمْتَعُونَ ﴾ .

يا معشر العاصين قد بقي القليل، والأيام تنادي: قد دنا الرحيل، وقد صاح
بكم إلى الهدى الدليل إن كنتم تسمعون ﴿ مَا أَغْنَىٰ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يُمْتَعُونَ ﴾ .

المجلس الرابع والعشرون

في قصة زكريا ويحيى عليهما السلام

الحمد لله الذي لم يزل عظيماً علياً، يخذل عدواً وينصر ولياً، أنشأ الآدمي خلقاً سوياً، ثم قسمهم قسمين رشيداً وغويّاً، رفع السماء سقفاً مبنياً، وسطح المهاد بساطاً مدحياً، ورزق الخلائق بحرياً وبرياً، كم أجرى لعباده سريراً أخرج منه لحماً طرياً، كم أعطى ضعيفاً ما لم يعطِ قوياً، فبلغه على الضعف ضعف المراد ووهب له على الكبر الأولاد ﴿كهيعص﴾ ذكر رحمة ربك عبده زكرياً ﴿١﴾.

أحمدته إذ فضل وأعطى شيعاً ورياً، وأصلي على رسوله محمد أفضل من امتطى تبرياً، وعلى أبي بكر الذي أنفق وما قلل حتى تخلل ويكفي زياً، وعلى عمر الذي كان مقدماً في الجدّ جرياً، وعلى عثمان الذي لم يزلّ عفيفاً حيياً، وعلى عليّ أشجع من حمل خطياً، وعلى عمه العباس المستسقى بشيئته، فانتفعت الأرض رياً.

قال الله تعالى: ﴿كهيعص﴾ للعلماء في تفسيرها قولان:

أحدها: أنه من المتشابه الذي انفرد الله تعالى بعلمه.

والثاني: أنها حروف من أسماء الله عز وجل، فالكاف من الكافي، والهاء من الهادي والياء من حكيم، والعين من عليم، والصاد من صادق.

قوله تعالى: ﴿ذُكِرَ رَحْمَةً رَبِّكَ﴾ المعنى: هذا الذي نتلو عليك ذكر

(١). مريم ١.

رحمة ربك ﴿عبدَه زكريا﴾ وفيه ثلاثة لغات: أهل الحجاز يقولون: هذا زكريا قد جاء مقصوراً. وزكرياء ممدوداً. وأهل نجد يقولون زكريّ فيجروونه، ويلقون الألف.

قوله تعالى: ﴿إِذْ نَادَى رَبَّهُ نِدَاءً خَفِيًّا﴾^(١) والمراد بالنداء الدعاء، وإنما أخفاه لئلا يقول الناس: انظروا إلى هذا الشيخ يسأل الولد على الكبر.

﴿قال ربّ إنّي وهنّ العظمُ منّي﴾ أي ضعُف، وإنما خصّ العظمُ لأنه الأصل في التركيب. وقال مجاهد وقتادة: شكا ذهابَ أضراسه. ﴿واشتعلُ الرأسُ شيباً﴾ أي انتشر الشيبُ فيه كما ينتشر شعاع النار في الحطب. والمراد ﴿بدعائك﴾: أي بدعائي إياك ﴿ربّ شقيّاً﴾ أي لم أكن أتعب بالدعاء ثم أخيبُ، لأنك قد عوّدتني الإجابة.

﴿وإنّي خفتُ الموالِي﴾ يعني الذين يلونه في النسب، وهم بنو العم والعصبة، فخاف أن يتولّوا ماله، وإن لم يكن على جهة الميراث، وأحب أن يتولّاه ولده. وقرأ عثمان وسعد بن أبي وقاص وابن جبّير، وابن أبي سريّج، عن الكسائي: ﴿خَفَّتُ المَوالِي﴾ بفتح الخاء وتشديد الفاء على معنى: قلّت. فعلى هذا إنما يكون خاف على علمه ونبوته ألا يُورثا فيموت العِلْم.

قوله تعالى: ﴿وكانت امرأتي عاقراً﴾ والعافر من الرجال والنساء الذي لا يأتيه الولد، وإنما قال عاقراً، ولم يقل عاقرة، لأن الأصل في هذا الوصف للمؤنث، والمذكر كالمستعار، فأجري مجرى طالق وحائض. قال ابن عباس: وكان سنّه يومئذ مائة وعشرين سنة وامرأته ثمان وتسعين سنة.

﴿فهب لي من لدنك﴾ من عندك ﴿ولياً﴾ أي ولداً صالحاً يتولاني. وسبب سؤاله: أنه لما رأى الفاكهة تأتي مريم لا في حينها طمع في الولد على الكبر فسأل.

قوله تعالى: ﴿يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ﴾ المراد النبوة من الكل

(١) مريم ٢.

﴿واجعله رَبَّ رَضِيًّا﴾ أي مرضياً. فَصْرِيفٍ عَنْ مَفْعُولٍ إِلَى فَعِيلٍ كَمَا قَالُوا:
مَقْتُولٌ وَقَتِيلٌ.

﴿يَا زَكَرِيَّا إِنَّا نُبَشِّرُكَ﴾ أي نَسْرَكَ وَنُفْرِحُكَ. قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: لَمْ يَسْمَعْ
يَحْيَى قَبْلَهُ فَشَرَّفَ بِأَنْ سَمَاهُ اللَّهُ تَعَالَى، وَلَمْ يَكِلْ تَسْمِيَتَهُ إِلَى أَبِيهِ.

﴿قَالَ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ﴾. وَكَانَتْ امْرَأَتِي عَاقِرًا ﴿^(١)﴾ وَإِنَّمَا قَالَ هَذَا
لِيَعْلَمَ أَيَاتِيهِ الْوَلَدُ عَلَى هَذِهِ الْحَالِ، أَمْ يُرَدُّ هُوَ وَزَوْجَتُهُ إِلَى حَالَةِ الشَّبَابِ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَقَدْ بَلَغْتَ مِنَ الْكِبَرِ عِتِيًّا﴾ وَهُوَ نَحْوُ الْعِظَمِ وَيُبْسَهُ.

﴿وَقَالَ كَذَلِكَ﴾ أَي الْأَمْرُ كَمَا قِيلَ لَكَ مِنْ هِبَةِ الْوَلَدِ عَلَى الْكِبَرِ ﴿قَالَ
رَبُّكَ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ﴾ أَي خَلَقَ يَحْيَى عَلَيَّ سَهْلًا ﴿وَقَدْ خَلَقْتُكَ﴾ أَي أَوْجَدْتُكَ
﴿مَنْ قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْئًا﴾.

﴿قَالَ رَبِّ اجْعَلْ لِي آيَةً﴾ أَي عِلَامَةً عَلَى وُجُودِ الْحَمْلِ، وَأَرَادَ أَنْ
يَسْتَعْجَلَ السَّرُورَ وَيَبَادِرَ بِالشُّكْرِ. ﴿قَالَ آيَتُكَ أَلَّا تَكَلَّمَ النَّاسُ ثَلَاثَ لَيَالٍ
سَوِيًّا﴾ وَالْمَعْنَى تُمْنَعُ مِنَ الْكَلَامِ، وَأَنْتَ سَوِيٌّ سَلِيمٌ مِنْ غَيْرِ خَرَسٍ.

﴿فَخَرَجَ عَلَى قَوْمِهِ﴾ وَهَذَا فِي صَبِيحَةِ اللَّيْلَةِ الَّتِي حَمَلَتْ فِيهَا امْرَأَتُهُ ﴿مِنْ
الْمِحْرَابِ﴾ أَي مُصَلَّاهُ ﴿فَأَوْحَى إِلَيْهِمْ﴾ وَفِيهِ قَوْلَانِ:
أَحَدُهُمَا: كَتَبَ إِلَيْهِمْ فِي كِتَابٍ. قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ.

وَالثَّانِي: أَوْمَأَ بِرَأْسِهِ وَيَدَيْهِ. قَالَ مَجَاهِدٌ ﴿أَنْ سَبَّحُوا﴾ أَي صَلَّوْا.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿يَا يَحْيَى﴾ الْمَعْنَى: وَهَبْنَا لَكَ يَحْيَى، وَقَلْنَا لَكَ: يَا يَحْيَى ﴿خُذِ
الْكِتَابَ﴾ وَهُوَ التَّوْرَةُ ﴿بِقُوَّةٍ﴾ أَي بِجِدِّ وَاجْتِهَادٍ فِي الْعَمَلِ بِمَا فِيهَا ﴿وَأَتَيْنَاهُ
الْحُكْمَ﴾ وَهُوَ الْفَهْمُ ﴿صَبِيًّا﴾ وَفِي سَنَةِ يَوْمِئِذٍ قَوْلَانِ:

أَحَدُهُمَا: سَبَعُ سَنِينَ. رَوَاهُ ابْنُ عَبَّاسٍ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ.

وَالثَّانِي: ثَلَاثُ سَنِينَ قَالَهُ قِتَادَةُ وَمُقَاتَلُ.

(١) مريم ٣ - ٦.

قوله تعالى: ﴿وَحَنَانًا﴾ أي وآتيناه حناناً أي رحمة ﴿من لَدُنَّا وَزَكَاةً﴾ أي عملاً صالحاً ﴿وَكَانَ تَقِيًّا﴾ فلم يفعل ذنباً ﴿وَبِرًّا بِالَّذِي﴾ أي جعلناه براً بالديه .

قوله تعالى: ﴿وَسَلَامٌ عَلَيْهِ﴾ أي سلامة له ﴿يَوْمَ وُلِدَ وَيَوْمَ يَمُوتُ وَيَوْمَ يُبْعَثُ حَيًّا﴾ (١) قال سفيان بن عيينة: أوحش ما يكون ابن آدم في ثلاث مواطن: يوم يولد فيخرج إلى دار همّ ، وليلة يموت مع الموتى فيجاور جيراناً لم ير مثلهم، ويوم يُبعث فيشهد مشهداً لم ير مثله قط، فسلمه في هذه المواطن كلها .

قال علماء السير: لما حملت مريم اتهمت اليهودُ زكريا، وقالوا هذا منه . فطلبوه ليقتلوه فهرب حتى انتهى إلى شجرة عظيمة، فتجوّفت له، فدخل فيها فجاءوا يطوفون بالشجرة فرأوا هُدْبَةً ثوبه فقطعوا الشجرة حتى خلصوا إليه فقتلوه. ونبيء يحيى وهو صغير في زمن أبيه، وكان كثير البكاء فساح في الأرض يدعو الناسَ إلى الله تعالى، وكان طعامه الجراد وقلوب الشجر.

أخبرنا المحمّدان ابن ناصر، وابن عبد الباقي، قالا: حدثنا أحمد بن أحمد، أخبرنا أبو نعيم الأصفهاني، حدثنا عبد الله بن محمد، حدثنا أحمد ابن الحسين، حدثني سعيد بن شُرْحُبَيْل، حدثنا سعيد بن عَطَّارْد، عن وهيب ابن الورد، قال: كان يحيى بن زكريا له خَطَّان في خديه من البكاء فقال له أبوه زكريا: إني إنما سألت الله عز وجل ولداً تقرّ به عيني فقال: يا أبت إن جبريل عليه السلام أخبرني أن بين الجنة والنار مَفَاذَةً لا يقطعها إلا كلُّ بَكَّاء .

واختلفوا في سبب قتل يحيى .

فروى سعيد بن جبير عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: بعث عيسى يحيى بن زكريا في جماعة من الحواريين يعلمون الناس، فكان فيما نهاهم عنه

(١) مريم ١٠ - ١٥

نكاح ابنة الأخ، وكان لملكهم ابنة أخ تُعجبه، فأراد أن يتزوجها وكان لها في كل يوم حاجة مقضية، فبلغ ذلك أمها فقالت: إذا سألك الملك حاجتك فقولي: حاجتي أن تذبح يحيى. فقالت له، فقال: سَلِّي غير هذا. قالت: ما أسألك غيره. فدعا يحيى فذبحه، فبدرت قطرة من دمه على الأرض، فلم تزل تَغلي حتى بعث الله تعالى بختنصر فقتل على ذلك الدم سبعين ألفاً منهم حتى سكن.

وقال الربيع بن أنس: كانت للملك بنت شابة، وكانت تأتيه فيسألها حاجتها فيقضيها لها، وإن أمها رأت يحيى وكان جميلاً فأرادته على نفسها فأبى. فقالت لابنتها: إذا أتيت أباك فقولي له: حاجتي رأس يحيى. فجاءت فسألته ذلك فردها فرجعت فقال: سَلِّي حاجتك. فقالت: رأس يحيى. فقال: ذلك لك. فأخبرت أمها فبعثت إلى يحيى: إن لم تأت حاجتي قتلتك. فأبى فذبحته، ثم ندمت وجعلت تقول: ويل لها ويل لها. حتى ماتت، فهي أول من يدخل جهنم.

وفي حديث آخر [أن] اسمها ربّة. وقيل: أزميل. وقد قتلت قبله سبعين نبياً، وهي مكتوبة في التوراة مُقْتَلَة الأنبياء، وأنها على منبر من النار يسمع صراخها أقصى أهل النار.

الكلام على البسملة

أَيْنَ مَنْ كَانَ قَبْلَنَا أَيْنَ أَيْنَا	من رجال كانوا جمالاً وزيناً
إِنْ دَهْرًا أَتَى عَلَيْهِمْ فَأَفْنَى	عدداً منهم سيأتي علينا
خَدَعْنَا الْأَمَالَ حَتَّى جَمَعْنَا	وطلبنا لغيرنا وسعينا
وَابْتَنَيْنَا وَمَا نَفَكْرَ فِي الدَّهْرِ	ر وفي صرفه غداة ابتيننا
وَابْتَعَيْنَا مِنَ الْمَعَاشِ فُضُولًا	لو قنعنا بدونها لاكتفيننا
وَلَعَمْرِي لَنَرَحَلْنَ وَلَا نَمُوتُ	ضحي بشيء منها إذا ما مضينا
اِخْتَلَفْنَا فِي الْمَقْدَرَاتِ وَسِوَى اللَّهِ	ه بالموت بيننا فاستوينا
كَمْ رَأَيْنَا مِنْ مَيِّتٍ كَانَ حَيًّا	ووشيكاً يُرى بنا ما رأينا

مالنا نأمن المَنُون كأنَّا لا نَراهنَّ يهتدين إلينا
عجباً لامرئٍ تيقن أن الـ موت حقّ فقرّاً بالعيش عينا

إخواني: ما الدنيا لولا الشقاء المكتوب، كل طُلابها قتلت فبئس المطلوب،
إلى متى مع الدنيا، أين الذين اشتروا سلع الشكّ بسلع اليقين، يا مستور الحال
غداً تبين، إذا حشُرجت في الصدر وجاء الأنين، وبرزت كُماة الموت من
الكَمين، وصيرت بعد التجبّر أذلّ مسكين، وذُبحت وشيكاً بغير سكين،
ونُقلت إلى لحدٍ أنت فيه رهين، انظر لنفسك أيها المتقاعد، تدبّر عملك قبل
عَرَضه على الناقد، وتأهبْ فكم بين يديك شدائد، لا ينفَعك فيه ولد ولا
والد.

سبيل الخلق كلهم الفناء
يقربنا الصباح إلى المنايا
فلا تركب هواك وكن مُعدّاً
أتمل أن تعيش وأيُّ غصنٍ
تراه أخضر العيدان غصّاً
وجَدنا هذه الدنيا غروراً
فلا ترُكن إليها مطمئناً
فما أحدٌ يدوم له البقاء
ويُدنينا إليهن المساء
فليس مقدراً لك ما تشاء
على الأيام طال له النماء
فيُصبح وهو مُسودّ غُثاء
متى ما تُعط يُرتجع العطاء
فليس بدائم منها الصفاء

عباد الله: على نيّة النقص وضع البنيان، وعلى شرط الرحيل الأرواح في
الأبدان، وإنما الدنيا مَعَبَرٌ إلى دار الحيوان، وليس للإقامة فالعجبُ لاغترار
الإنسان، أين العقل والنظر، إلام الجهل والبطر، كم من منزل دثر، كم ساع
عثر وأنت في الأثر، إلام هذا الأشر وقد علمت مآل البشر، أين العقول
والفِكر، كم واردٍ ما صدر، البلياً مثل المطر، وإنك لعلّى خطر، كم حضرت
لدى محتَضِر، وذَمَع المآقي قد انهمر، لقلّة الزاد وطول السفر، ويحك إلى
متى تختار الضرر، لقد بعث الدّر بالبعر، إن العاقل ليختار الأجود، وإن
الحازم لا يرضى أن يُستعبد، يا من كلما جمَعناه تبدّد، يا من كلما زجرناه مدّد

اليد، يا من إذا دعوانه لم يسدّد، كيف يختار الضلال من يعرف الطريق
الأرشد، كيف يؤثّر النزول من يقال له اصعد، إن اللبيب ليرى بعين الفكر ما
في غد، لو سمعت الحجارة وَعَظْنَا لانفطر الجلمد، كم نصّبنا لك شركاً،
وإلى الآن لم نصطد.

حتى متى لا تزال مُعْتَذِرًا من زلّة منك لا تزال راكبها
تُعقبها مثلها وتُعقبك الحسّ رة من مثلها عواقبها
لتركك الذنب لا تقاربه أيسر من توبة تطالبها

أيها المعرض عن شكر الإفضال والنعم، زاحمت على حوض الغفلة النعم،
تمدّ يد الجهل بالإنعام إلى أخذه واقتباسه، وتنسى عقوبة ما قد جنّيته في وقت
بأسه، أين الهرب بخطاك، عجباً منك وعيني تراك، تراك تستحي من غيري
ومني لا تراك، من الذي ستر على القبيح فيما مضى، من الذي لطف بك في
دين دينه إذا اقتضى، يا هذا إن وجدت من يصلح لك غيرنا فاذهب، وإن
رأيت مشرباً يلدّ غير حلّنا فاشرب، لو أعلمت أباك ما نعلم منك أباك، ولو
أرّيت أخاك ما أرّيتنا جفاك، نعلمنا عليك قديمة كم نبعث لك ديمة لطف بعد
ديمة، أتراك تحن إلى ودنا، أو تراعي عهداً عهدنا.

يا هذا: جُبلت القلوب على حبّ من أحسن إليها، فواعجباً ممن لم ير
محسناً سوى الله عز وجل كيف لا يميل بكلّيته إليه، يا منعماً عليه بالعافية
بئس ما أنفقت فيه رأس المال، كم ذنب لك فعله غيرك، فهتك ذاك
وسّرت.

ويحك! إحذر نِقَار النعم فما كل شاردٍ بمردود! إذا وصلت إليك أطرافها
فلا تنفّر أقصاها بقلة الشكر!

لك نفس يسرها كل شيء يضرها
هي تفنى على الزمان ويكزّاد شرها

قوله تعالى ﴿يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ جَمِيعاً﴾

البعث: إخراج أهل القبور أحياءً عند النفخة الثانية في الصور. وذلك أن الله تعالى يُنزل من السماء ماءً فَتَنْبُتُ الأَجْسَادُ فِي القبور، فتعود كما كانت، ثم ينفخ إسرافيل في الصور فتنشق القبور، فيقومون جميعاً إلى العرض والحساب ﴿فَيَنْبِئُهُمْ بِمَا عَمِلُوا﴾ (١) من المعاصي وتضييع الفرائض ﴿أَخْصَاهُ اللَّهُ﴾ أي حَفِظَهُ ﴿وَنَسُوهُ﴾.

أخبرنا ابن الحصين، أنبأنا ابن المذهب، أنبأنا أحمد بن جعفر، حدثنا عبد الله بن أحمد، حدثني أبي، حدثنا عفان، حدثنا همام، حدثنا قتادة، عن صفوان بن مُحَرِّز، عن ابن عمر قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ يُدْنِي الْمُؤْمِنَ وَيُضَعُّ عَلَيْهِ كَنَفَهُ وَيَسْتَرُهُ مِنَ النَّاسِ وَيَقْرُرُهُ بِذُنُوبِهِ وَيَقُولُ لَهُ: أَتَعْرِفُ ذَنْبَ كَذَا أَتَعْرِفُ ذَنْبَ كَذَا أَتَعْرِفُ ذَنْبَ كَذَا؟ حَتَّى إِذَا قَرَّرَهُ بِذُنُوبِهِ، وَرَأَى فِي نَفْسِهِ أَنَّهُ قَدْ هَلَكَ قَالَ: فَإِنِّي سَتَرْتُهَا عَلَيْكَ فِي الدُّنْيَا وَأَنَا أَغْفِرُهَا لَكَ الْيَوْمَ».

أخرجاه في الصحيحين.

وبالإسناد حدثنا أحمد، قال: حدثنا وكيع، قال: حدثنا الأعمش، عن المعروف بن سُوَيْد، عن أَبِي ذَرٍّ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «يُؤْتَى بِالرَّجُلِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَيَقَالُ: اعْرَضُوا عَلَيْهِ صِغَارَ ذُنُوبِهِ فَتُعْرَضُ عَلَيْهِ وَيُخَبَّرُ عَنْ كِبَارِهَا. فَيَقَالُ: عَمَلْتَ كَذَا، وَكَذَا، وَهُوَ مُقَرَّرٌ لَا يُنْكِرُ وَهُوَ مُشْفِقٌ مِنْ كِبَارِهَا، فَيَقَالُ: أَعْطَوْهُ مَكَانَ كُلِّ سَيِّئَةٍ عَمِلَهَا حَسَنَةً. قَالَ: فَيَقُولُ: إِنَّ لِي ذُنُوباً مَا أَرَاهَا». قَالَ أَبُو ذَرٍّ: فَلَقَدْ رَأَيْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَضْحَكُ حَتَّى بَدَتْ نَوَاجِذُهُ.

انفرد بإخراجه مسلم.

(١) المجادلة ٦.

وفي أفرادهِ من حديث الشَّعْبِيِّ، عن أنس قال: كنا عند رسول الله ﷺ فضحك وقال: هل تدرون ممَّ أضحك؟ قال: فقلنا الله ورسوله أعلم. قال: من مخاطبة العبد ربَّه عز وجل يقول: يا رب ألم تُجرِّني من الظُّلْم؟ قال: يقول: بلى. قال: فيقول: إني لا أُجيز على نفسي إلا شاهداً مني فيقول: كفى بنفسك اليوم عليك شهيداً وبالكرام الكاتِبين شهوداً. قال: فيختم على فيه، ويقال لأركانه: انطقي. قال: فتَنطق بأعماله. ثم يُخَلِّي بينه وبين الكلام فيقول: بعداً لَكِنَّ وَسُحْقاً فعنكُنَّ كنت أناضل.

إخواني: ما من الموت بد، باب البقاء في الدنيا قد سُدَّ، كم قدَّ في القبر قد قدَّ، كم خَدَّ في الأخدود قد خُدَّ، يا من ذنوبه لا تُحصى إن شكَّت عدَّ، يا من أتى بابَ الإنابة كاذباً فُرِدَّ، يا شدَّة الوجل عند حضور الأجل، يا قلة الحيل، إذا حل الموت ونزل، يا قوة الأسي إذا نوقش من أسا، يا خجل العاصين، يا حسرة المفرطين، يا أسف المقصرين يا سوء مصير الظالمين، كيف يصنع من بضائعه القبائح، كيف يفعل من شهوده الجوارح، عدموا والله الوسيلة، وأظلمت في وجوههم وجوه الحيلة، أصبحوا جثيًا على ركبهم، مأسورين بما في كتبهم، لا يدرون ما يُراد بهم، قد جُمعوا في صعيد ينتظرون حلول الوعيد، والأرض بالخلق كلهم تميد، والعبرات على العثرات تزيد، ﴿إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ﴾ (١) زَفَرْتُ وَاللَّهِ الحُطْمَةَ فِي وَجْهِ الظَّلْمَةِ، فذلوا بعد العظْمَة، وخرسوا عن كلمة.

إخواني: أيام أعماركم قصيرة، وقد ضاعت على بصيرة، وآخر الأمر حَفيرة فيها أهوال كثيرة، يا مشاهداً حاله بحال الحيرة، ألك عُدَّة أم لك ذخيرة، هذا الملك يحصى عمله حرفاً حرفاً، ويُملي فيملاً بالخطايا صحفاً، يا من جمرات حرصه على الهوى ما تُطفى، وقد أشفى به مرض ما أراه يُشفى، إلام هذا التعليل، كم نقومك وتميل، متى يبرأ هذا العليل، يا مقابلاً

جميلنا بغير الجميل، آن رحيلاً فأعدّ الزاد، آن معاداً فاذا ذكر المعاد، ألا يهلك
العمر وإن تماذى.

أيها المعرض عنا تذكر عَرْضك، أيها الراقِد في غفلته اذكر غَمَضك، أيها
الذليل بالمعاصي اذكر عرضك، كم عتاب ما أمرضك ولا أمصّك.

ويحك! استصغر أملاً يمنعه الفؤت، استقصير أجلاً يقطع الموت.
أقبل على العقل مستشيراً فكفى به نصيحاً ونذيراً، إنه ليحلّ نقاب الشبه
بأنامل البيان.

أولا يعلم العاصي أنه قد غرس لنفسه شجرة يتساقط عليه كل حين منها
ثمرة ندم من غير هزّ، فإذا قام في القيامة شاهد أغصان ما غرس قد تعاضمت
حتى أخذت برّ البرّ، فإن عُفِر له لم يذل حَيّاً مما جنى، وإن عوقب ذاق مر
الجنى، وهذا الأسى الطويل إنما جرّه جرّجرة الهوى، ولو وقع بالطاق التي
تسمع بها عين المباح لارتوى، من غير أذى.

المراء في تأخير مُدّته	كالثوب يخلّق بعد جدّته
ومصيره من بعد معرفة	للناس ظلمة بيت وحِدّته
من مات مال ذوو مودّته	عنه وحالوا عن مودّته
عجباً لمنتبه يضيّع ما	يحتاج فيه ليوم رَقْدّته
أزف الرحيل ونحن في لعب	ما نستعدّ له بعدّته

قال عتبة الغلام: رأيت الحسن عند الموت وقد قهقهه، وما رأيته قط تبسم،
فقلت: يا أبا سعيد من أي شيء تضحك؟ فما كَلّمني لِثَقَل حاله، فلما مات
رأيته في المنام فقلت: يا معلم الخير من أي شيء ضحكت؟ فقال: من أمر
ملك الموت، إنه نوّدي وأنا أسمع: شدّد عليه فإنه بقي عليه خطيئة، فضحكت
لذلك. فقلت: ما كانت؟ فلم يجبني.

وأسفا: هذا حال الحسن وما عُرِف منه إلا الحسن، فكيف يكون حالنا
إذن مع ما لنا من مَحِن.

يا من قد لعب الهوى بفهمه، وسوّدت شهواته وجة عزمه، يا مبنياً عن عزم

الباني على هدمه، يا محمولاً إلى البلي: لتمزيق لحمه، أما يكفيه مُنذراً وهنُ
عَظْمه، كم تقربك وأنت متباعد، كم نهضك إلى العلاء يا قاعد، كم نحرصك
وما تساعِدُ ساعِد، كم نوقظك وأنت في اللهو راقد، يا أعمى البصيرة وما له
قائد، يا قتيل الأمل لست بخالد، يا مفرّق الهُموم والمقصود واحد، إن
لاحت الدنيا فشیطانَ مارد، تقاتل عليها فتكرّر وتطارِد، فإذا جاءت الصلاة
فقلبٌ غائبٌ وجسم شاهد، وتقول: قد صليت أتبهّج على الناقد، ما تعرفنا إلا
في أوقات الشدائد، أمّا ذنوبك كثيرة فما لِلطَّرَف جامد، ملكك الهوى،
ونحن نضرب في حديد بارد.

وربما غوفِص ذو غفلة أصحّ ما كان ولم يستقم
يا واضع الميِّت في قبره خاطبك القبرُ فلم تفهم
كم ليلة سهرتها في الذنوب، كم خطيئة أملتيتها في المكتوب، كم صلاة
تركتها مهملاً للوجوب، كم أسبلت ستراً على عتبة عيوب، يا أعمى القلب بين
القلوب، ستدري دمع من يجري ويذوب، ستعرف خبرك عند الحساب
والمحسوب، أين الفرار وفي كف الطالب المطلوب، تنبّه للخلاص أيها
المسكين، أعتق نفسك من الرقّ يا رهين، اقلع أصل الهوى فعرِّق الهوى
مكِين، احذر غرور الدنيا فما للدنيا يمين، يا دائم المعاصي سجن الغفلة
سجّين، تثب على الخطايا ولا وثبة تينين، كأنك بالموت قد برز من كمين،
وآن الأمر فوقعت في الأنين، وأسْتَبْتِ أَنْك في أحوال عنين، كيف ترى
حالك إذا عبث الشمال باليمين، ثم نُقلت ولقبت بالميت الدفين، وأسفا لعظم
حيرتك ساعة التلقين، يا مستوراً على الذنوب غداً تنجلي وتبين، متى هذا
القلب القاسي يرعوي ويلين، عجباً لقسوته وهو مخلوق من طين.

وقبلَ شُخوص المرء يجمع زاده وتُملاً من قبل الرماء الكنائنُ
حصادك يوماً ما زرعت وإنما يدان المرء يوماً بما هو دائنُ
ساعات السلامة بين يديك مبدولة، سابق سيوف الآفات فإنها مسلولة،

وبادر ما دامت المعاذير مقبولة، واقرا علوم النجاة فهي منقوطة مشكولة،
وافتح عينك فإلى كم بالنوم مكحولة، وغير قبائحك القباح المرذولة، يا لها
نصيحة غير أن النفس على الخلائق مجبولة.

سجع على قوله تعالى:

﴿فِينبئهم بما عملوا﴾

ويح العصاة لقد عَجِلوا، لو تأملوا العواقب ما فعلوا، أين ما شربوا أين ما
أكلوا، بماذا يجيئون إذا أحضروا وسئلوا ﴿فِينبئهم بما عملوا﴾.

آه لهم في أي حَزْن من الحُزْن نزلوا، لقد جدَّ بهم الوعظ غير أنهم هزلوا،
ما نفعهم ما اقتنوا من الدنيا وعزّلوا، إنما كانت ولاية الحياة يسيراً ثم عزّلوا،
وانفردوا في زاوية الأسي واعتزلوا، فإذا شاهدوا ذنوبهم مكتوبة ذهلوا
﴿فِينبئهم بما عملوا﴾.

ما نفعتهم لذاتهم إذ خرجت ذواتهم، لقد جمعت زلاتهم فحوّتها
مكتوباتهم، فلما عاينوا أفعالهم خجلوا ﴿فِينبئهم بما عملوا﴾.

ذهبت من أفواههم الحلاوة، وبقيت آثار الشقاوة، وحطّوا إلى الحضيض
من أعلى رباوة، وحملوا عدلي الموت والقوت والحسرة علاوة، فأعجزهم والله
ما حملوا ﴿فِينبئهم بما عملوا﴾.

سجع على قوله تعالى

﴿أحصاه الله ونسّوه﴾

اجتمعت كلمة إلى نظرة، إلى خاطر قبيح وفكرة، في كتاب يُخصي حتى
الذرة، والعصاة عن المعاصي في سكرة، فجنوا من جنّي ما جنوا ثمار ما
غرسوه ﴿أحصاه الله ونسّوه﴾

كم تنعم بجال المظلوم الظالم، وبات لا يبالي بالظالم، والمسلوب يبكي ويُبكي

الحائم، وما كفاهم أخذُ ماله حتى حبسوه ﴿أحصاه الله ونسوه﴾ .
أين ما كانوا جمعوه ، كم ليمُوا وما سمعوه ، كم قيل لهم لو قبلوه ، ذهب
العرضُ غير أن العرضُ دَنَسوه ﴿أحصاه الله ونسوه﴾ .

كم كاسب للمال من حرامه وحلاله ، كان يحاسب شريكه على عود
خِلاله ، ولا ينفق منه شيئاً في تقويم خِلاله ، فلما وقع صريعاً بين أشباله اشتغلوا
عنه بانتهاب ماله ، ثم في اللحد نكسوه ﴿أحصاه الله ونسوه﴾ .^(١)

جعلنا الله وإياكم من الذين عرفوا الحق فاتبعوه ، وزجروا الهوى عنهم
وَرَدَعُوهُ ، إنه قريب مجيب .

(١) المجادلة ٦ .

المجلس الخامس والعشرون

في قصة مريم وعيسى عليهما السلام

الحمد لله الذي لا شأن يَشْغله، ولا نسيان يذهله، ولا قاطع لمن يَصله، ولا ناصر لمن يخذله، جلَّ عن مثل يطاوله، أو نِدَّ يشاكلة، أو نظير يقابله، أو مناظر يقاوله، يُثِيبُ بالعمل القليل ويَقْبَلُه، ويحلم عن المعاصي فلا يعاجله، ويدَّعي الكافرُ شريكاً ويمهله، ثم إذا بطش هلك كسرى وصَوَاهِلُه، وذهب قيصرٌ ومعاقله، استوى على العرش وما العرش يحمله، ويُنزَلُ لا كالمنتقل تخلو منازلُه، هذه جملةُ اعتقادنا وهذا حاصلُه، من ادَّعى علينا التشبيه فالله يقابله، مذهبنا مذهب أحمد ومن كان يطاوله، وطريقنا طريق الشافعي، وقد علمت فضائله، ونرفض قوله جهّم وقد عرف باطله، ونؤمّل رؤية الحق ومتى خاب آمله، لقد حتّت حنّة إلى ولد فسألته من لا يُردّ سائله، فيا لها من مكفول ما تعنّى كافله، فلما بلغت حملت بمن شرف حامله، فعجبت من ولد لا من والدٍ يشاكلة، فقيل: ﴿هَؤُلَاءِ إِلَيْكَ﴾ فهزت جذعاً يابساً تزاوله، فأخرج في الحال رطباً رطباً يلتذّ آكله، فاستدلت على تكوين ولد تُحمد شمائله، فالنصارى غلّت واليهود عتت ﴿فأتت به قومها تحمله﴾.

أحمدُه حمداً أديمه وأوصله، وأصلي على رسوله محمد الذي ارتجت ليلة ولادته أعالي الإيوان وأسافله، وعلى أبي بكر ثاني اثنين فاعرفوا من قائله، وعلى عمر الذي صفا الإسلام بجده وعدّبت مناهله، وعلى عثمان الذي زارته الشهادة، وما تعبت رواحله، وعلى عليّ بحر العلوم فما يدرك ساحله، وعلى العباس أقرب الخلق نسباً فمن يساجله.

قال الله تعالى ﴿واذكر في الكتاب مريم﴾ (١).

الكتاب: القرآن ومريم اسم أعجمي، وكان اسم أمها حنة، فتمنت ولدًا، فلما حملت جعلت حملها مُحَرَّرًا خادماً للكنيسة، فلما وضعتها أنثى حملتها إليهم فكفلها زكريا.

فلما بلغت خمس عشرة سنة ﴿انبتذت﴾ أي تنحت عن أهلها ﴿مكاناً شَرْقِيًّا﴾ مما يلي المشرق ﴿فاتخذت من دونهم حجاباً﴾ أي حاجزاً يمنع من النظر. قال ابن عباس: ضربت سترًا لتطهر من الحيض وتمتشط. وقال السُّدي: احتجبت بالجدار.

﴿فأرسلنا إليها رُوحَنَا﴾ وهو جبريل ﴿فتمثل لها﴾ أي تصوّر في صورة البشر التام الخُلقة. قال ابن عباس: جاءها في صورة شاب جَعَدَ قَطَطَ حين اخضرّ شاربه. ﴿قالت إني أَعُوذُ بالرحمن منك إن كنتَ تقيًّا﴾ المعنى: إن كنت تقي الله فستنتهي بتعويذي.

﴿قال: إنما أنا رسولُ رَبِّكَ﴾ أي فلا تخافي ﴿لأهب﴾ لك أي ارسلني ليهب ﴿لك غلاماً زكياً﴾ أي طاهراً من الذنوب ﴿قالت: أنى يكون لي غلامٌ﴾ أي كيف يكون ﴿ولم يمسسني بشرٌ﴾ تعني الزوج ﴿ولم أك بغيًّا﴾ والبغيّ الفاجرة.

﴿قال كذلك قال ربك هو عليّ هين﴾ أي يسير أن أهب لك غلاماً من غير أب ﴿وَلِنَجْعَلَهُ آيَةً للناس﴾ أي دلالة على قُدْرَتنا ﴿وَرَحْمَةً منا﴾ أي لمن اتبعه وآمن به ﴿وكان أمراً مَقْضِيًّا﴾ (٢) أي محكوماً به مفروغاً منه. قال ابن عباس: فنفخ جبريل عليه السلام في جيب درعها فاستمر بها حَمْلُها.

وفي مقدار حملها سبعة أقوال:

أحدها: أنها حين حملت وضعت. قاله ابن عباس.

(٢) الآيات من سورة مريم ١٧ - ٢١.

(١) مريم ١٦.

والثاني: حملته تسع ساعات. قاله الحسن.

والثالث: تسعة أشهر. قاله سعيد بن جبير.

والرابع: ثلاث ساعات، حملته في ساعة، وصوّر في ساعة ووضعت في ساعة. قاله مقاتل.

والخامس: ثمانية أشهر فعاش. ولم يعيش مولود قط لثمانية أشهر. فكان هذا آية. حكاة الزجاج.

والسادس: ستة أشهر. حكاة الماوردي.

والسابع: ساعة واحدة. حكاة الثعلبي.

قال وهب: أصبحت الأصنام ليلة ولادة عيسى منكسة على رءوسها، كلما ردوها انقلبت، فحارت الشياطين وطاف إبليس الأرض ثم جاء فقال: رأيت مولوداً فلم أستطع أن أدنو إليه.

قوله تعالى: ﴿فانتبذت به﴾ أي بالحمل ﴿مكاناً قصياً﴾ أي بعيداً، قال ابن إسحاق: مشت ستة أميال فراراً من قومها أن يعيروها بولادتها من غير زوج ﴿فأجاءها المخاض﴾ [المعنى: فجاء بها] والمخاض وجع الولادة ﴿إلى جذع النخلة﴾ وهو ساق نخلة يابسة في الصحراء ليس لها رأس ولا سعف. ﴿قالت يا ليتني ميتٌ قبلَ هذا﴾ اليوم وهذا الأمر، قالتها حياءً من الناس ﴿وكنت نسياً منسياً﴾ أي ليتني لم أكن شيئاً.

﴿فناداها من تحتها﴾ وفيه قولان:

أحدهما المَلِك. وكانت على نشز.

والثاني: عيسى لما ولدته. والسري: النهر الصغير. وكانت قد حزنت لجذب مكانها وخلوّه عن ماء أو طعام، فقبل لها قد أجرينا لك نهراً وأطلعنا لك رطباً، وفي ذلك آية تدل على قدرة الله عز وجل في إيجاد عيسى. ﴿وهزّي

إليك بجذع النخلة ﴿ الباء زائدة ﴿ تساقط عليك رطباً جيئاً ﴿ وهو الطري
المجتنى ﴿ فكلي ﴿ من الرطب ﴿ واشري ﴿ من النهر ﴿ وقرى عيناً ﴿ بولادة
عيسى . والصوم : الصمت . وإنما أمرت بالسكوت ، لأنها لم يكن لها حجة عند
الناس .

وفي سنها يومئذ ثلاثة أقوال :

أحدها : خمس عشرة سنة . قاله ابن عباس وهب .

والثاني : اثنتي عشرة سنة . قاله زيد بن أسلم .

والثالث : ثلاث عشرة [سنة] قاله مقاتل .

قال ابن عباس : فلما مضت عليه أربعون يوماً وطهرت من نفاسها جاءت
إلى قومها بعيسى ، فبكوا ، وكانوا صالحين ، وقالوا : ﴿ يا مريم لقد جئت شيئا
فريئاً ﴿ أي عظيماً ﴿ يا أخت هارون ﴿ ^(١) وفيه أربعة أقوال :

أحدها : أنه أخ لها من أمها ، كان أمثال فتى في بني إسرائيل .

والثاني : أنها كانت من بني هارون أخي موسى .

والثالث : أنه رجل صالح من بني إسرائيل شبهوها به في الصلاح . وهذه
الأقوال عن ابن عباس .

والرابع : أنه رجل من فستاق بني إسرائيل . قاله وهب .

﴿ ما كان أبوك ﴾ يعنون عمران ﴿ امرأ سوء ﴾ أي زانيا ﴿ وما كانت أمك
بغياً ﴾ أي زانية ﴿ فأشارت إليه ﴾ أي أومأت إلى عيسى أن كلموه ، وكان
عيسى قد كلمها قبل قومها وقال : يا أماه أبشري فإني عبد الله ورسوله . فلما
أشارت أن كلموه تعجبوا وقالوا : ﴿ كيف نكلّم من كان في المهد صبيّاً ﴾
وكان زائدة . فنزع فمه من ثديها وجلس وقال : ﴿ إني عبد الله آتاني الكتاب ﴾ ^(٢)

(١) الآيات من سورة مريم ٢٤ - ٢٨ . (٢) الآيات من سورة مريم ٢٩ - ٣٢ .

قال عكرمة: قضى أن يؤتيني الكتاب. وقال غيره: علم التوراة وهو في بطن أمه.

وأوحى الله تعالى إليه وهو ابن ثلاث سنين وأنزل عليه الإنجيل، وكان يرى الأكمه والأبرص، وكان يجتمع على بابهِ من المرضى خمسون ألفاً، فداويهم بالدعاء، فاتبعوه وسألوه أن يحيي لهم سام بن نوح، فأتى قبره، فناده فانشق القبر وقام فقال: هذا عيسى بن مريم فاتبعوه. ثم قال: سل ربك أن يردني كما كنت. فسأل [ربه] فعاد.

وكان عيسى عليه السلام يلبس الصوف، ويتخذ نعلين من لحاء الشجر شراكهما ليف، وكانت مريم تلتقط فإذا علم بها نُثر لها فتتحول إلى مكان لا تُعرف فيه.

وكان يقول: لباسي الصوف، وشعاري الخوف، وبيتي المسجد، وطبيبي الماء، وأذمي الجوع، ودابتي رجلاي، وسراجي بالليل القمر، ومُصْطَلَايَ في الشتاء مشارق المس، وفاكهتي وريحاني بقول الأرض، وجلسائي المساكين. وكان يقول لأصحابه: أهينوا الدنيا تكرمكم الآخرة، إنكم لا تدركون ما تأملون إلا بالصبر على ما تكرهون، ولا تبغون ما تريدون إلا بترك ما تشتهون.

أخبرنا الحسن بن أحمد، عن محمد بن سباع التميمي، قال: بينا عيسى بن مريم عليه السلام يسيح في بعض بلاد الشام اشتد به المطر والرعد والبرق، فجعل يطلب شيئاً يلجأ إليه فرفعت له خيمة من بعيد، فإذا فيها امرأة فحاد عنها، فإذا هو بكهف في جبل فأتاه فإذا في الكهف أسد، فرفع يده ثم قال: إلهي جعلت لكل شيء مأوى، ولم تجعل لي مأوى!

فأجابه الجليل: مأواك عندي في مستقر رحمتي، لأزوجنك يوم القيامة مائة حوراء حلّيتها [بيدي]. ولأطعمن في عرسك أربعة آلاف عام، كل عام منها

كعمر الدنيا، ولآمرن منادياً ينادي: أين الزاهدون في الدنيا، زوروا عُرْس الزاهد عيسى بن مريم.

وقال أبو علي الجند: لقي عيسى بن مريم عليه السلام إبليس فقال: أسألك بالحي القيوم الذي جعل عليك اللعنة ما الذي يسلك جسمك ويقطع ظهرك؟ فضرب نفسه الأرض ثم قام فقال: لولا أنك أقسمت عليّ بالحي القيوم ما أخبرتك، أما الذي يقطع ظهري فصلاة الرجل في بيته نافلة وفي الجماعة، وأما الذي يسلك جسمي فصهيل الفرس في سبيل الله!

وقال ابن عباس: دخل عيسى عليه السلام خوخةً، فدخل وراء رجل من اليهود فألقي عليه شبه عيسى، فقتلوه وصلبوه.

قال علماء النقل: رفع لثلاث ساعات من النهار، وألبس النور وكسي الريش وقطعت عنه لذة المطعم والمشرب، فأصبح إنسياً ملكياً.

وقال بعضهم: رفع ليلة القدر وكان عمره ثلاثاً وثلاثين سنة وأشهرًا، ومات أمه بعد رفعه بست سنين، وكان عمرها نيفاً وخمسين سنة.

وجاء في الحديث عن النبي ﷺ أن عيسى عليه السلام ينزل على المنارة البيضاء بشرقي دمشق، فيكسر الصليب، ويقتل الخنزير ويضع الجزية ويقاوم الناس على الإسلام، ويقتل الدجال ويتزوج ويولد له، ويمكث خمساً وأربعين سنة، ثم يموت فيدفن مع رسول الله ﷺ.

الكلام على البسمة

حُكْمُ المَنِيَّةِ فِي البَرِيَّةِ جَارِي	مَا هَذِهِ الدُّنْيَا بِدَارِ قَرَارِ
بَيْنَا يُرَى الْإِنْسَانُ فِيهَا مُخْبِرًا	حَتَّى يُرَى خَبْرًا مِنَ الْأَخْبَارِ
طُبِعَتْ عَلَيَّ كَدْرٌ وَأَنْتَ تَرِيدُهَا	صَتَقُوا مِنَ الْأَقْدَارِ وَالْأَكْدَارِ
وَمَكَلَّفَ الْأَيَّامَ ضِدَّ طِبَاعِهَا	مَتَطَلَّبَ فِي الْمَاءِ جَذْوَةَ نَارِ
وَإِذَا رَجَوْتَ الْمَسْتَحِيلَ فَإِنَّمَا	تَبْنِي الرَّجَاءَ عَلَيَّ شَفِيرِ هَارِ

فالعيش نومٌ والمنيّة يقظّة
والنفس إن رضيتْ بذلك أو أبّتْ
فاقضُوا مآربكم عَجَالاً إنما
وتراكضوا خيلَ الشباب وبادروا
والدهرُ يخدع بالئني وَيَعَصَّ إن
قد لاح في ليل الشباب كواكبٌ

لقد خرقت المواعظ السامع، وما أراه انتفع السامع، ولقد بدا نور الهدى
في المطالع لكنه قد عمي المطالع، ولقد بانت عبرٌ من غير لمن عبر المصارع،
فما بالها ما انسكبت المدامع، يا من شبابه قد مضى هل ما مضى من العمر
راجع، تيقظ، الحذر ثم اعتذر وراجع، فالهول شديدٌ والحساب دقيق والطريق
شاسع، ﴿إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَاقِعٌ﴾ (١).

أيها المطمئن إلى الدنيا وهي تطلبه بذحل، قد مرضت عينٌ بصيرته فيها
فما ينفع الكحل، يتبخر في رياضها وما تمّ إلا وحل، اقبل نصحي واشدد
الرحل عن محلّ المحل، وتأمر على نفسك فللنحل فحل.

أياح صاح نهى الصاحي
إلى كم مع دنياك
تخون الأول العهد
متى يلحقني بالركب
ألا قد ذهب الناسُ
بجبلٍ منك مُدّاركُ
وتلك المومس الفاركُ
فخلّ العرس أو شاركُ
هذا الجمّلُ البارِكُ
ونضوي رازمٌ بارِكُ

آه لنفس انفصلت ساعاتها وما حصلت طاعاتها، تبعثها تبعاتها، وما نفعتها
دُعاتها، شهورها وجمعاتها ومجالسها وجماعاتها، ومذكروها ودعاتها
وقصائدها ومسجعاتها، والدنيا ولّسعاتها، والمحن وجزعاتها، والمنون
ووقعاتها، وما لانت مع هذا مُمتنعاتها، ولا خفت من رقاد الغفلة هجعاتها.

يامن قد شاب أقبل على شانك، واكشف هذا الحجاب وأسبل دمع شانك،
خلعت خلة الشباب وكانت عارية، ولبست ثوباً تخلعه في البرية، فدع الهوى
ودع كل بلية، فقد أثار الهدى بمصايح جلية.

سار الشباب فلم نعرف له خبراً ولا رأينا خيالاً منه مُنتاباً
وحق للعيس لو نالت بنا بلداً فيه الصبا كَوْنُ عود الندّ أقتاباً
ألقى إليه قميص الشيب رهن يلى ثم استجدّ قميص الشيب محتاجاً
ما زال يمطل دنياه بتوبته حتى أتته منياه وما تاباً

كان الحسن يقول: يابن آدم بع عاجلتك بعاقبتك تريحهما جميعاً، ولا تبع
عاقبتك بعاجلتك فتخسرهما جميعاً، الثواء هنا قليل، وقد أسرع بخياركم
فماذا تنتظرون؟ المعاينة فكأنها والله قد كانت، وإنما ينتظر بأولكم أن يلحق
بآخركم.

يابن آدم دينك دينك، فإن سلم لك دينك لك لحمك ودمك، وإن تكن
الأخرى فإنها نار لا تطفي، ونفس لا تموت، إنك معروض على ربك ومرتهن
بعملك، فخذ مما في يديك لما بين يديك عند الموت يأتيك الخير، يا ابن
آدم ترك الخطيئة أهون من معالجة التوبة. يا ابن آدم لا تعلق قلبك بالدنيا
فتعلقه بشر معلق، قطع حبالها وأعلق عنك بابها، حسبك ما بلغك المحل.

استغفر الله منياً خاشعاً واهجر ليميس واجتنب ديارها
من زاره عاتي الصبا فإنما زار من الأسد الجثوم دارها
وأفضل الأزر إزار عفة إذا الرجال طرحت آزارها
من أبر النخل إبار محسن أحمد في إرطابها آثارها
والعقل خير لا يخاف غشه إذا الرجال اتهمت أخبارها
فأجبر النفس على التقوى ولا تقل لم أستطع إجبارها

الكلام على قوله تعالى

﴿يا أيها الذين آمنوا توبوا إلى الله توبةً نَصُوحاً﴾ (١)

قرأ الجمهور: نَصُوحاً بفتح النون. وقرأ أبو بكر عن عاصم بضمها. قال الزجاج: من فتح فعلى صفة التوبة، والمعنى توبة بالغة في النصح. وقَعُول من أسماء الفاعلين التي تُستعمل للمبالغة في الوصف. يقال: رجل صَبُور وشَكُور. ومن قرأ بالضم فمعناه يُنصِّحون بها نصوحاً يقال: نصحتُ له نُصْحاً، ونصاحَةً، ونُصوحاً.

قال عمر بن الخطاب: التوبة النصوح: أن يتوب العبد من الذنب، وهو يحدث نفسه أن لا يعود.

وسئل الحسن البصري عن التوبة النصوح فقال: ندمٌ بالقلب، واستغفار باللسان، وترك الجوارح، وإضمار أن لا يعود.

وقال ابن مسعود: التوبة النصوح تكفر كل سيئة. ثم قرأ هذه الآية. إعلم أن التائب الصادق كلما اشتد ندمه زاد مَقْتَه لنفسه على قُبْح زلته، فمنهم من قَوِيَ مَقْتَه لها ورأى تعريضها [للقتل] مباحاً في بعض الأحوال فعرضها له، كما فعل ماعز والغامديّة.

أخبرنا ابن عبد الواحد، أنبأنا الحسن بن علي، أخبرنا أحمد بن جعفر، حدثنا عبد الله بن أحمد، حدثني أبي، حدثنا أبو نعيم، حدثني بشير بن المهاجر، عن عبد الله بن بريدة، عن أبيه قال: كنت جالساً عند النبي ﷺ إذ جاءه رجل يقال له ماعز بن مالك فقال: يا نبي الله إني قد زنيْتُ، وأنا أريد أن تُطَهِّرني فطَهِّرني. فقال له النبي ﷺ: ارجع. فلما كان من الغد أتاه أيضاً، فاعترف عنده بالزنا فقال له النبي ﷺ: ارجع. ثم أرسل النبي ﷺ إلى قومه

(١) التحريم ٨.

فسألهم عنه فقال: ما تملمون من معاذ بن مالك الأسلمي؟ هل ترون به بأساً، وما تنكرون من عقله شيئاً؟ قالوا: يا نبي الله ما نرى به بأساً ولا ننكر من عقله شيئاً. ثم عاد إلى النبي ﷺ الثالثة فاعترف عنده بالزنا، وقال: يا نبي الله طهرني. فأرسل النبي ﷺ إلى قومه أيضاً فسألهم عنه فقالوا له كما قالوا في المرة الأولى: ما نرى به بأساً وما ننكر من عقله شيئاً. ثم رجع إلى النبي ﷺ الرابعة فاعترف عنده بالزنا، فأمر النبي ﷺ فحفر له حفيرة فجعل فيها إلى صدره ثم أمر الناس أن يرموه.

قال بريدة: وكنت جالساً عند النبي ﷺ فجاءته امرأة من غامد فقالت: يا نبي الله، إني قد زنيت وإني أريد أن تطهرني. فقال لها النبي ﷺ: ارجعي. فلما كان من الغد أتته أيضاً فاعترفت عنده بالزنا، فقال لها: ارجعي. فلما كان من الغد أتته فاعترفت عنده بالزنا وقالت: يا نبي الله طهرني، فلعلك أن تردني كما رددت معاذ بن مالك، فوالله إني لحبلى من الزنا. فقال لها النبي ﷺ: ارجعي حتى تلدي. فلما ولدت جاءت بالصبى تحمله فقالت: يا بني الله، هذا قد ولدت. قال: فاذهبي حتى تظطمي. فلما فطمته جاءت بالصبى في يده كسرة خبز فقالت: يا نبي الله. هذا قد فطمته. فأمر النبي ﷺ، فدفع إلى رجل من المسلمين، وأمر بها فحفر لها حفيرة فجعلت فيها إلى صدرها، ثم أمر الناس أن يرموها، فأقبل خالد بن الوليد بحجر فرمى رأسها فنضح الدم على وجه خالد فسبها، فسمع النبي ﷺ سبها إياها فقال: مهلاً يا خالد فوالذي نفسي بيده لقد تابت توبة لو تابها صاحب مكس لغفر له. ثم أمر بها فصلى عليها ودفنت.

انفرد بإخراج الحديثين مسلم.

وقد أخرج في بعض الطرق أن معاذاً قال لرسول الله ﷺ: طهرني. فقال له: ويحك ارجع فاستغفر الله وتب إليه. فرجع غير بعيد ثم جاء فقال: يا رسول الله طهرني فقال: ويحك ارجع فاستغفر الله وتب إليه فرجع، ثم جاء فقال: طهرني حتى إذا كانت الرابعة قال له رسول الله ﷺ: مم أطهرك؟ قال: من الزنا. فلما رجه قال: «لقد تاب توبة لو قُسمت بين أمة لوسعتهم».

فانظر إلى مَقت هؤلاء أنفَسهم حتى أسلموها إلى الهلاك غضباً عليها لما فعلت.

ومن التائبين من لم يُجْز له التعريض بقتلها، فكان ينغص عيشها.

قال بعض السلف: رأيت ضيغماً العابد قد أخذ كوزاً من ماء بارد فصبّه في الحُبّ واكتال غيره، فقلت له في ذلك، فقال: نظرتُ نظرةً وأنا شاب فجعلت على نفسي ألا أذيقها الماء البارد، أنغص عليها أيام الحياة.

يا نادماً على الذنوب أين أثرُ ندمك، أين بكائك على زلة قدمك، أين حذرُك من أليم العقاب، أين قلقُك من خوف العتاب، أتعتقد أن التوبة قول باللسان، إنما التوبة نار تحرق الإنسان. جرّد قلبك من الأقدار، ثم ألبسه الاعتذار، ثم حلّه حلة الإنكسار، ثم أقمه على باب الدار.

لهج بعضُ العبّاد بالبكاء، فعوتب على كثرتِه فقال:

بكيْتُ على الذنوبِ لعِظْمِ جُرْمي وحقّ لكل من يعصي البكاء
فلو أن البكاء يردّ همّي لأسعدتِ الدموعُ معاً دماي

أعلم أن التائب المحقق يشغله تنظيف ما وسخ، والحزن على ما فرط عن تصوير زلّة ثانية.

[يا هذا] اكتب قصة الرجوع بقلم النزوع بمداد الدموع، واسع بها على قدم الخضوع إلى باب الخشوع، وأتبعها بالعطش والجوع، وسلّ رَفْعها فَرُبّ سؤالٍ مسموع، كم هتّك سِتْر من فعل خطيئة قد فعلتها وسِترت، فابك على كثرة الذنب أو [على] قلة الشكر.

لئن جَلّ ذنبي وارتكبتُ المآثم وأصبحتُ في بحر الخطيئة عائمًا
أجرّ ذيلي في مُتابعة الهوى لأقضي أوطار البطالة هائمًا
فها أنا ذا ياربّ أقررتُ بالذي جنيتُ على نفسي وأصبحتُ نادماً
أجلّ ذنوبي عند عفوك سيدي حقيرٌ وإن كانت ذنوبي عظامًا

تَشَبَّثُ بِذَيْلِ الْحِلْمِ، وَصِيحُ بِصَاحِبِ الْعَفْوِ لَعْلَ شَفِيعِ الْإِعْتِرَافِ يَسْأَلُ فِي
أَسِيرِ الْإِقْتِرَافِ.

ذَنْبِي إِلَيْكَ عَظِيمٌ وَأَنْتَ لِلْعَفْوِ أَهْلٌ
فَإِنْ عَفَوْتَ بِفَضْلٍ وَإِنْ أَخَذْتَ فَعَدْلٌ

[يا هذا] مناجاتك منجاتك، وصلاتك صلأتك، ناد في نادي الأسحار
والناس نائمون: يا أكرم من أمّله الآملون .

عَلِيَّ دَيْنٌ ثَقِيلٌ أَنْتَ قَاضِيهِ يَا مَنْ يُحَمِّلُنِي ذَنْبِي رَجَائِيهِ
الْحَالُ مُرْهِقَةٌ وَالنَّفْسُ مُشْفِقَةٌ مِنْ دَائِهَا الْمَتْمَادِي أَوْ تُدَاوِيهِ
إِنْ طَرَدْتَنِي فإِلَى مَنْ أَذْهَبُ، وَإِنْ أْبَعَدْتَنِي فإِلَيْكَ أَنْسَبُ، عَلِمْتَ ذَنْبِي
وَخَلَقْتَنِي، وَرَأَيْتَ زَلَّتِي وَرَزَقْتَنِي.

بَرَّنِي مَعْرُوفَكُمْ قَبْلَ أَبِي وَغَدَانِي بِرِّكُمْ قَبْلَ اللَّبَنِ
وَإِذَا أَنْتُمْ وَأَنْتُمْ أَنْتُمْ لَمْ تَوَلُّونِي وَتَوَلُّونِي فَمَنْ

يا هذا: ماء العين في الأرض حياة الزرع، وماء العين على الحدّ حياة
القلب، يا طالب الجنة: بذنب واحد أخرج أبوك منها، أتطمع في دخولها
بذنوب لم تتب عنها، إن أمراً تنقضي بالجهل ساعاته، وتذهب بالمعاصي
أوقاته، لخَلِيقَ أَنْ تَجْرِي دَائِماً دَمُوعَهُ، وَحَقِيقَ أَنْ يَقْلَّ فِي الدَّجَى هُجُوعَهُ.

وَأَسْفَا لِمَنْ ذَهَبَ عَمْرُهُ فِي الْخِلَافِ، وَصَارَ قَلْبُهُ بِالْخَطَايَا فِي غِلَافٍ، لَمَّا
سُتِرَتْ عَنِ التَّائِبِينَ الْعَوَاقِبُ فزَعُوا إِلَى الْبُكَاءِ وَاسْتَرَا حُوا إِلَى الْأَحْزَانِ، كَانُوا
يَتَزَاوَرُونَ فَلَا تَجْرِي فِي خَلْوَةِ الزِّيَارَةِ، إِلَّا دَمُوعُ الْحَذَرِ.

بَاحَتْ بِسَرِّي فِي الْهَوَى أَدْمُعِي وَدَلَّتِ الْوَاشِي عَلَيَّ مَوْضِعِي
يَا قَوْمَ إِنْ كُنْتُمْ عَلَيَّ مَذْهَبِي فِي الْوَجْدِ وَالْحُزْنِ فَنُوحُوا مَعِي
يَحِقُّ لِي أَبْكَي عَلَيَّ زَلَّتِي فَلَا تَلُومُونِي عَلَيَّ أَدْمُعِي

آه لِنَفْسٍ لَا تَعْقِلُ أَمْرَهَا، ثُمَّ قَدْ جَهَلَتْ قَدْرَهَا، تَضِيعُ فِي الْمَعَاصِي عَمْرَهَا،

وتخوض من الذنوب غمرها، إلى متى تعصى وكم تتمرد، وأقبح من قبحك أنك تتعمد، يا رديء العزم يا سيء المقصد، يا نقي الثوب والقلب أسود، ما هذا الأمل ولست بمخلد، أما تخاف من أوعدك وهدد، يا مستورا على القبيح أتقر أم تجحد، يا من شاب وما تاب هذا الدأب مذ أنت أمرد، يا مشترياً لبذة تزول بالعذاب السرمد، يا مرمياً في جب الهوى هذا الحبل وما تصعد، بالله عليك تأمل نصحي وتفقد، أما الطريق طويلة فاقبل مني وتزود، تخلص من أسر الهوى فإلى كم مقيد، ميز ما يبقى بما يفنى، ثم اطلب الأجود، ما أرى قولي يؤثر فيك ولو درس مجلد، أظرف من فعلك قلة فهمك وأنت تتبغدد، أسفاً لأيام مضت في الذنوب وتولت، تحكمت فيها النفس فأفسدتها إذ تولت، وعلى ليال كست الصحائف لونها فوكست وأذلت، وعلى ساعات في طلاب الهوى هوت واضمحلت، حسرة عن حسير ذهبت وحلت، آه لشيب كان الشباب منه أصلح، ولذي عيب ما قرمه العتاب ولا أصلح، ولمفرط يخسر كل يوم ولا يربح، ولتخبط في ظلام الظلم وال صباح قد أصبح.

قد تناهت في بلائي حيلتي	وبلائي كله من قبلي
كلما قلت تجلت غمتي	عدت في ثانية لا تنجلي
لعبت بي شهواتي وانقضت	لي حياتي في غرور الأمل
وأحلت بي ذنوبي سقماً	كيف بالبرء منه كيف لي
قد رمتني سيئاتي والهوى	بسهام فأصابت مقتلي
وأتى شبيبي وحالي كالذي	كنت فيه في الزمان الأول

سجع على قوله تعالى

﴿توبوا إلى الله توبة نصوحا﴾

لو رأيت التائب لرأيت جفنًا مقروحاً، تبصره في الأسحار على باب الاعتذار مطروحاً، سمع قول الإله يوحى فيما يوحى ﴿توبوا إلى الله توبة نصوحا﴾.

مطمعه يسير، وحزنه كثير، ومزعجه مثير، فكأنه أسير قد رمي مجروحاً،

أَنْحَلَ بَدَنَهُ الصِّيَامَ، وَأَتَعَبَ قَدَمَهُ الْقِيَامَ، وَحَلَفَ بِالْعِزْمِ عَلَى هَجْرِ الْمَنَامِ، فَبَدَلَ
جَسَدًا وَرُوحًا ﴿تَوَبُوا إِلَى اللَّهِ تَوْبَةً نَّصُوحًا﴾ .

الذَّلَّ قَدْ عَلَاهُ وَالْحُزْنَ قَدَّوَاهَا، يَذْمُ نَفْسَهُ عَلَى هَوَاهُ، وَبِهَذَا صَارَ مَمْدُوحًا .

أَيْنَ مِنْ يَبْكِي جُنَايَاتِ الشَّبَابِ الَّتِي بِهَا اسْوَدَّ الْكِتَابُ، أَيْنَ مَنْ يَأْتِي إِلَى
الْبَابِ يَجِدُ الْبَابَ مَفْتُوحًا ﴿تَوَبُوا إِلَى اللَّهِ تَوْبَةً نَّصُوحًا﴾ .

والحمد لله وحده ...

المجلس السادس والعشرون

في قصة أهل الكهف

الحمد لله الذي لا يتأثر بالمدى ولا يتغير أبداً، لم يزل واحداً أحداً، لم يتخذ صاحبةً ولا ولداً، اختار من شاء فنجّاه من الردى، أنقذ أهل الكهف وأرشد وهدى، وأخرجهم بقلق راح بهم وغداً، فاجتمعوا في الكهف يقولون: كيف حالنا غداً، فأراحهم بالنوم من تعب التعبُد مُدداً ﴿إِذَا أَوَى الْفِتْيَةَ إِلَى الْكَهْفِ، فَقَالُوا رَبَّنَا آتِنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً وَهِيَ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشِداً، فَضْرَبْنَا عَلَى آذَانِهِمْ فِي الْكَهْفِ سِنِينَ عَدَدًا، ثُمَّ بَعَثْنَاهُمْ لِنَعْلَمَ أَيُّ الْحِزْبَيْنِ أَحْصَى لِمَا لَبِثُوا أَمَدًا، نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُم بِالْحَقِّ، إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ آمَنُوا بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَاهُمْ هُدًى﴾ (١).

أحمده ما ارتجز حادٍ وحَدًا، وأصلي على محمد أشرف متبوع وأفضل مُقْتدى، وعلى أبي بكر المتخذ بإنفاقه عند الإسلام يداً، وعلى عمر العادل الذي ما جاز في ولايته ولا اعتدى، وعلى عثمان الصابر في الشهادة على وقع المدى، وعلى عليّ محبوب الأولياء ومُبيد العدى، وعلى عمه العباس أشرف الكلّ نسباً ومحتدًا.

قال الله عز وجل: ﴿أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَابَ الْكَهْفِ وَالرَّقِيمِ كَانُوا مِنْ آيَاتِنَا عَجَبًا﴾.

سبب نزولها: أن اليهود سألوها عن أصحاب الكهف فنزلت.

(١) الكهف ٦٠.

ومعنى: ﴿أُم حَسِبْتَ﴾: أَحَسِبْتَ. والكهف: المغارة في الجبل، إلا أنه واسع فإذا صَعُرُ فهو غار.

وفي الرقيم سنة أقوال:

أحدها: أنه لوحٌ من رصاص كان فيه أسماء الفتية مكتوبة ليَعْلَم من اطلَّع عليهم يوماً من الدهر ما قِصَّتْهم، رواه أبو صالح عن ابن عباس، وبه قال وهب.

والثاني: أنه اسم الوادي الذي فيه الكهف. قاله قتادة والضحاك.

والثالث: أنه اسم القرية التي خرجوا منها. قاله كعب.

والرابع: أنه اسم الجبل. قاله الحسن.

والخامس: أن الرقيم الدواة بلسان الروم. قاله عكرمة.

والسادس: أنه اسم الكلب. قاله سعيد بن جبَّير.

ومعنى الكلام: أَحَسِبْتَ أن أهل الكهف كانوا أعجب آياتنا؟ قد كان في آياتنا ما هو أعجب منهم.

﴿إِذْ أَوْى الْفِتْيَةَ إِلَى الْكَهْفِ﴾ أي جعلوه مأوى لهم. والفتية: جمع فتى، مثل غلامٍ وغِلْمَةٍ. والفتى: الكامل من الرجال.

واختلف العلماء في بدء أمرهم، ومصيرهم إلى الكهف على ثلاثة أقوال:

أحدها: أنهم هربوا ليلاً من ملكهم حين دعاهم إلى عبادة الأصنام، فمروا براعٍ له كلب فتبعهم على دينهم، فأووا إلى الكهف يتعبدون. قاله ابن عباس.

وقال عبيد بن عمير: فقدّم قومهم فطلبوهم، فعمى الله عليهم أمرهم، فكتبوا أسماءهم في لوح: فلان وفلان أبناء ملوكونا فقدناهم في شهر كذا في سنة كذا في مملكة فلان. ووضعوا اللوح في خزانة الملك.

والثاني: أن أحد الحواريين جاء إلى مدينة أصحاب الكهف، فلقى هؤلاء الفتية فأمنوا به، فطلبوا فهربوا إلى الكهف. قاله وهب بن منبه.

والثالث: أنهم كانوا أبناء عظماء المدينة وأشرفهم، فخرجوا واجتمعوا وراء المدينة على غير ميعاد، فقال كبيرهم: إني لأجد في نفسي شيئاً ما أظن أحداً يجده، قالوا: ما هو؟ قال: إن ربّي ربّ السموات والأرض. فتوافقوا فدخلوا الكهف فناموا. قاله مجاهد.

قوله تعالى: ﴿فَضَرَبْنَا عَلَى آذَانِهِمُ﴾ المعنى أنّهم ﴿ثم بعثناهم لنعلم أيّ الحزبين﴾ أي ليعلم خلقنا. وأراد بالحزبين المؤمنين والكافرين وكان قد وقع بينهم تنازع في مدة لبثهم. ومعنى قاموا: خلّوا.

وكانت الشمس إذا طلعت تَرَّاور عن كهفهم، وإذا غربت تَقْرَضهم أي تَعْدل عنهم. وفي سبب ذلك قولان:
أحدهما: أن كهفهم كان بإزاء بنات نعش. قاله الجمهور.

والثاني: أن ذلك كان آية. قاله الزجاج. والفجوة: المتسع.

﴿وتَحَسَّبهم أَيْقَاطاً﴾ لأن أعينهم كانت مفتحة وهم نيام لثلاث ذنوب. قال ابن عباس: كانوا يقبلون في كل عام مرتين، ستة أشهر على هذا الجنب، وستة أشهر على هذا الجنب. وقال مجاهد: بقوا على شقّ واحد ثلاثمائة عام، ثم قلبوا تسع سنين، والوصيد: الفناء والباب.

﴿لو اطلّعت عليهم لَوَكَّيت منهم فِراراً﴾^(١) لأنهم طالت شعورهم وأظفارهم جداً. قال وهب: خرج الملك وأصحابه في طلبهم فوجدوهم نياماً، فكانوا كلما أراد أحد أن يدخل أخذه الرعب، فقال قائل للملك: أليس أردت قتلهم؟ قال: بلى قال: فابن عليهم باب الكهف حتى يموتوا جوعاً وعطشاً. ففعل.

(١) الكهف ١٨.

فأما سبب بَعَثَهُمْ فقال عكرمة: جاءت أُمَّةٌ مُسَلِّمَةٌ، وكان ملكهم مسلماً، فاختلَفوا في الروح والجسد فقال قائل: تُبْعَثُ الروح، وأما الجسد فتأكله الأرض. وقال قائل: تبعث الروح والجسد. فشق اختلافهم على الملك فانطلق، فلبس المسوح وقعد على الرماد، ودعا الله تعالى أن يبعث لهم آية تبين لهم. فبعث الله أهل الكهف.

وقال وهب: جاء راعٍ قد أدركه المطر إلى الكهف ففتح بابه ليأوي إليه الغنم، فرد الله إليهم أرواحهم.

قال ابن إسحاق: قعدوا فرحين فسَلَّم بعضهم على بعض لا يرون في وجوههم ولا أجسادهم ما ينكرون، وإنما هم كهيئتهم حين رقدوا، وهم يرون أن ملكهم في طلبهم فصلَّوا، وقالوا: ليمليخا صاحب نفقتهم: انطلق فاستمع ما نُذَكِّرُ به، وابتنع لنا طعاماً. فوضع ثيابه وأخذ ثياباً يتنكر فيها، وخرج مستخفياً، متخوفاً أن يراه أحد، فرأى على باب المدينة علامة تكون لأهل الإيمان، فخيَّل إليه أنها ليست بالمدينة التي يعرف، ورأى ناساً لا يعرفهم، فجعل يتعجب ويقول: لعلي نائم. فلما دخلها رأى قوماً يحلفون باسم عيسى فأسند ظهره إلى جدار وقال في نفسه: والله ما أدري ما هذا؛ عشية أمس لم يكن على الأرض من يذكر عيسى إلا قتل، واليوم أسمعهم يذكرونه! لعل هذه ليست بالمدينة التي أعرف، والله ما أعرف مدينة قرب مدينتنا فقام كالحيران، وأخرج ورقاً وأعطاه رجلاً وقال: بعني طعاماً فنظر الرجل إلى نقشه فجعل يتعجب، ثم ألقاه إلى آخر فجعلوا يتطارحونه بينهم ويتعجبون ويتشاورون، وقالوا: إن هذا قد أصاب كنزاً. ففرق منهم، وظن أنهم قد عرفوه فقال: أمسكوا طعامكم فلا حاجة بي إليه. فقالوا له: من أنت يا فتى، والله لقد وجدت كنزاً فشاركنا فيه، وإلا أتينا بك السلطان. فلم يدر ما يقولون فطرحوا كساءه في عنقه، وهو يبكي ويقول: فُرِّقَ بيني وبين إخوتي، يا ليتهم يعلمون ما لقيت.

فأتوا به إلى رجلين كانا يدبران أمر المدينة فقالا: أين الكنز الذي وجدت؟ قال: ما وجدتُ كنزاً، ولكن هذه ورق آبائي، وتُقش هذه المدينة وضربها، ولكن والله ما أدري ما شأني ولا ما أقول لكم. وكان الورق مثل أخفاف الإبل فقالوا له: من أنت وما اسم أبيك؟ فأخبرهم، فلم يجدوا من يعرفه فقال له أحدهما: أتظن أنك تسخر منا وخزائن هذه المدينة بأيدينا، وليس عندنا من هذا الضرب درهم ولا دينار، فإني سأمر بك فتعذب عذاباً شديداً، ثم أوثقك حتى تعترف بهذا الكنز. فقال يميخا: أنبتوني عن شيء أسألکم عنه، فإن فعلتم صدقتکم. قالوا: سل. قال: ما فعل الملك دقيانوس؟ قالوا: لا نعرف على وجه الأرض اليوم ملكاً يسمى دقيانوس، وإنما هذا ملك قد كان منذ زمان طويل، وهلكت بعده قرون كثيرة. فقال: والله ما يصدقني أحد بما أقول، لقد كنا فتية وأكرهنا الملك على عبادة الأوثان، فهربنا منه عشية أمس فنمنا، فلما انتبهنا خرجتُ اشتري لأصحابي طعاماً، فإذا أنا كما ترون، فانطلقوا معي إلى الكهف أريكم أصحابي.

فانطلق [معه] أهل المدينة، وكان أصحابه قد ظنوا لإبطائه عليهم أنه قد أخذ، فبيناهم يتخوفون ذلك، إذ سمعوا الأصوات وجلبة الخيل، فظنوا أنهم رُسُل دقيانوس، فقاموا إلى الصلاة وسلم بعضهم على بعض، فسبق يميخا إليهم وهو يبكي، فبكوا معه وسألوه عن شأنه فأخبرهم خبره، وقص عليهم الخبر، فعرفوا أنهم كانوا نيّاماً بأمر الله تعالى، وإنما أوقظوا ليكونوا آية للناس وتصديقاً للبعث.

وجاء ملكهم فاعتنقهم وبكى. فقالوا له: نستودعك الله ونقرأ عليك السلام حفظك الله وحفظ ملكك. فبينما الملك قائم رجعوا إلى مضاجعهم وتوفى الله عز وجل نفوسهم وحجبتهم بحجاب الرعب، فلم يقدر أحد أن يدخل عليهم. وأمر الملك فجعل على باب الكهف مسجداً يصلّي فيه، وصار عندهم عيد في كل سنة.

وقد نبهت قصتهم على أن من فرَّ إلى الله عز وجل حرَّسه ولطف به وجعله سبباً لهداية الضالين.

الكلام على البسمة

جِدُّوا فقد زُمْت مطاياكم لِنَقْلِكُمْ عن دار دُنْيَاكُمْ
وحصَّلوا زاداً لِمَسْرَاكُمْ من قبل أن تَدْنُو منيَاكُمْ
إيمانكم دَعَوَى فَطُوبَى لَكُمْ إن صَحَّ في الإيمانِ دَعْوَاكُمْ

يا من يعاتبه القرآن وقلبه غافل، وتناجيه الآيات وفهمه ذاهل، اعرف قدر المتكلم وقد عرفت الكلام، وأحضر قلبك الغائب، وقد فهمت الملام.

مكتوب في التوراة: يا عبدي أما تستحي مني! يأتيك كتاب من بعض إخوانك وأنت في الطريق تمشي فتعدّل عن الطريق، وتعدّد لآجله وتقرأه وتتدبّره حرفاً حرفاً حتى لا يفوتك منه شيء، وهذا كتابي أنزلته إليك، وأنت معرض عنه، أفكنت أهون عليك من بعض إخوانك!

يا عبدي: يقعد إليك بعض إخوانك فتقبل عليه بكل وجهك، وتُصغى إلى حديثه بكل قلبك، وها أنا مُقبل عليك ومحدّث لك، وأنت مُعرض بقلبك عني.

كان السلف لمعرفةهم بالمتكلم يلهجون بتلاوة القرآن.

قال عثمان بن عفان رضي الله عنه: لو طهرت قلوبكم ما شبعتم من كلام ربكم.

وكان كهمس بن الحسن يختم في الشهر تسعين ختمة. وكان كُرُز بن وبرة يختم كل يوم وليلة ثلاث ختمات.

وكان في السلف من يمنعه التفكير من كثرة التلاوة فيقف في الآية يردددها.

قام تَمِيمُ الدَارِيَّ لَيْلَةً إِلَى الصَّبَاحِ بآيَةٍ: ﴿أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا
السَّيِّئَاتِ﴾ (١) وَقَامَ سَعِيدُ بْنُ جَبْرِ لَيْلَةً بآيَةٍ: ﴿وَامْتَازُوا الْيَوْمَ أَيُّهَا
الْمُجْرِمُونَ﴾ (٢).

وقال سليمان الداراني: إني لأتلو الآية وأقيم فيها أربع ليال، أو خمساً،
ولولا أنني أقطع الفكر فيها ما جاوزتها.

وقال بعض السلف: لي في كل جمعة ختمة، وفي كل شهر ختمة، وفي كل
سنة ختمة، ولي ختمة منذ ثلاثين سنة ما فرغت منها بعد.

وقال أسلم بن عبد الملك: صحب رجل رجلاً شهرين، فما رآه نائماً لا
ليلاً ولا نهاراً، فقال: ما لي أراك لاتنام؟ فقال: إن عجائب القرآن أطرُن
نومي، فما أخرج من أعجوبة إلا وقعت في أخرى.

وقال ابن مسعود: من أراد عِلْمَ الأوَّلِينَ والآخِرِينَ فليكثر [تلاوة] القرآن.

يا معرضاً عن تلاوة القرآن مشغولاً باللهو والهذيان، ستدري من يندم يوم
الخسران، استدرك ما قد فات من هذا الزمان، وقم في الأسحار فليسترح مع
الرحمة شان، وسلِّ العفو عما سلف منك وكان.

مولاي جئتك والرجا	ء قد استجازَ بحُسن ظنِّي
أبغني فواضلك التي	تمحو بها ما كان منِّي
فانظر إلي بحق لطفك	يا إلهي واعفُ عنِّي
لا تخزني يوم المعام	د بما جئيتُ ولا تُهنِّئني

قال بعض السلف: كان لنا جارٌّ من المتعبدين قد برزَّ في الإجهاد، فصلى
حتى تورمت قدماه، وبكى حتى مرضت عيناه، فاشترى جارية وكانت تُحسِّن
الغناء، وهو لا يعلم قَبِينا هو في محرابه رفعت صوتها بالغناء فطار لُبُّه، ورام
ما كان عليه من التعب فلم يَقْدِر عليه، فقالت له الجارية: يا مولاي لقد أبلت

(٢) يس ٥٩.

(١) الجاثية ٢١.

شبابك ورفضت لذات الدنيا في أيام حياتك، فلو تمتعت بي. فمال إلى قولها،
وترك التعب واشتغل بفنون اللذات، فبلغ ذلك أخاً له كان يوافقه في العبادة
فكتب إليه:

بسم الله الرحمن الرحيم. من الناصح الشفيق والطبيب الرفيق، إلى من سلب
حلاوة الذِّكْر والتلذذ بالقرآن: بلغني أنك اشتريت قينة بعث بها حظك من
الآخرة، فإن كنت بعثت الجزيل بالقليل، والقرآن بالقيان، فإني محذرك هاذم
اللذات ومنغص الشهوات، فكأنه قد جاءك على غرة فأبكم منك اللسان، وهدت
منك الأركان وقرب منك الأكفان، واحتوشك من بين الأهل والجيران،
وأحذرك من الصيحة، إذا جئت الامم لملك جبار.

ثم طوى الكتاب وبعثه إليه، فوافاه وهو على مجلس سروره، فأذهله
وأغصه بريقه، فنهض من مجلسه وعاد إلى اجتهاده حتى مات.

قال الذي وعظه: فرأيته في المنام بعد ثلاث فقلت: ما فعل الله بك؟
فقال:

الله عوضني ذو العرش جاريةً حوراء تسقيني طوراً وتهنيني
تقول لي اشرب بما قد كنت تأملني وقرّ عيناً مع الولدان والعيّن
يا من تخلّى عن الدنيا وأزعجه عن الخطايا وعيد في الطواسين

يا ويح عزيمة نُقضت بالهوى عهدُها، ترقّت في درجات العُلا، ثم
انعكس صعودها؛ بينما ثمرها الجدّ يبس عودها، لقد سوّدت الصحائف في
طلب مالا تصادف، متى تذكر المتألف، إلى كم وكم تخالف، كم طوى الدهر
من طوائف، إنما يسلم في الشدة من هو في الرجاء خائف، إلى متى تضيع
الوقت الشريف، وتعرض عن الإنذار والتخويف، وتبيع أفضل الأشياء بقدر
طفيف، وتؤثر الفاني على الباقي، وهذا الرأي السخيف، أين لذة فرحك بعد
ترحك، وأين سرور مَرَحك في مُجْتَرَحك، إنما العمر أيام معدودة، والسلامة
عوارٍ مردودة.

وأي هوى أو أي لهو أصبته
 وترخي على السوء الستور وإنما
 ألا أيها الباكي على الميت بعده
 وما هذه الساعات إلا على الفتى
 أرى صاحب الدنيا مقيماً بجهله
 على لذة إلا وأنت مفارقته
 تقلب في علم الإله خلائقه
 رؤيدك لا تعجل فإنك لاجقه
 تغافسه طوراً وطوراً تسارقته
 على ثقة من صاحب يوائقه

أين من اعتمد على رضي الأمل والمنى، واتخذهما مالا؟ مالا، أين من
 تنعم بالعز والفخر وجعلهما حالاً؟ حالاً، أين من جمع الأموال بعضها فوق
 بعض، وتصرف بشهواته في طول المنى والعرض، ونسي الحساب يوم السؤال
 والعرض، ولم يبال بعد نيل غرضه بضياح الواجب والفرص، أما حط عن ظهر
 قصره إلى بطن الأرض، خلا والله بقبيحه وحسنه، وانتبه في قبره من وسنه،
 فما نفعته الإفاقة في إبان الفاقة، ولا أفاده التيقظ وقد انقضى وقت التحفظ،
 تبدل بالأتراب التراب، وواجه أليم الحساب والعتاب، وندم على ما خلا في
 خلاف الصواب، وتقطعت به الوصل والأسباب، فاعتبروا يا أولي الألباب.

سَلِ الْأَجْدَاثَ عَنْ صُورِ بَلِينَا
 وَعَنْ مَلِكٍ تَغَرَّرَ بِالْأَمَانِي
 لَقَدْ أَبَتِ الْقُبُورُ عَلَى حَزِينِ
 هِيَ الدُّنْيَا تُفَرِّقُ كُلَّ جَمْعٍ
 وَعَنْ خَلْقٍ نَعِمْنَ فَصِرْنَ طِيناً
 وَكَانَ يظُنُّ أَنَّ سَعِيشَ حِيناً
 أَتَاهَا أَنَّ تَفُكَّ لَهَا رَهِيناً
 وَإِنْ [أَلْف] الْقَرِينِ بِهَا الْقَرِيناً

الكلام على قوله تعالى

﴿قد أفلح المؤمنون﴾

أخبرنا ابن الحصين، أنبأنا ابن المذهب، أنبأنا أحمد بن جعفر، حدثنا
 عبد الله بن أحمد، حدثني أبي، حدثنا عبد الرزاق، أخبرني يونس بن سليم،
 قال: أملى عليّ يونس بن يزيد الأيلي عن ابن شهاب، عن عروة بن الزبير،

عن عبد الرحمن بن عبد القادر، قال سمعت عمر بن الخطاب رضي الله عنه يقول: قال رسول الله ﷺ لقد أنزلت عليّ عشر آيات من أقامهن دخل الجنة. ثم قرأ علينا ﴿قد أفلح المؤمنون﴾ حتى ختم العشر.

وأخبرنا أحمد بن عبد الباقي، أنبأنا أحمد بن أحمد، أنبأنا أبو نعيم أحمد ابن عبد الله، أخبرنا محمد بن علي بن مسلم، حدثنا عثمان بن عمر الضبي، أخبرنا أبو عمر الضري، أخبرنا عدي بن الفضل، عن سعيد الجريري، عن أبي نضرة، عن أبي سعيد الخدري عن النبي ﷺ أنه قال: إن الله تعالى بني جنات عدن بيده وبناها لبنة من ذهب ولبنة من فضة، وجعل ملاحظها المسك وتراها الزعفران وحصاها اللؤلؤ ثم قال: تكلمي. فقالت: ﴿قد أفلح المؤمنون﴾.

وقال ابن قتيبة: أصل الفلاح: البقاء فالمفلحون الفائزون ببقاء الأبد. وقرأ أبي بن كعب وعكرمة بضم الألف، والمعنى أصيروا إلى الفلاح.

لقد ربح القوم وأنت نائم، وخبت ورجعوا بالغنائم، أنت بالليل راقد وبالنهار هائم، وغاية ما تشتهي مشاركة البهائم، نظروا في عواقب الأمور فقبروا أنفسهم قبل القبور، وخرجوا من ظلام الشبهة إلى أجلى نور، فما استفزهم فان ولا أذلهم غرور، عرّضوا على النفوس ذكر العرّض فاعترضها القلق، وصوروا إحراق الصور فأحرقهم الفرق، وتفكروا في نشر الصحائف فأزعجهم الأرق، وتذكروا محمّدة المخاوف فسالت الجِدق، أطار خوف النار نومهم، وأطال ذكر العطش الأكبر صومهم، وهون فكّرهم في العتاب نصّبهم، ونصّبهم على الأقدام ذكرُ القيام وأنصّبهم، أما الأجساد فالخوف قد أنحلها، وأما العقول فالحدّر قد أذهلها، وأما القلوب فالفكر قد شغلها، وأما الدموع فالإشفاق قد أرسلها، وأما الأكف فقد كفت عما ليس لها، وأما الأعمال فقد والله قبلها، حوانيتهم الخلوات وبضائعهم الصلوات، وأرباحهم الجنات، وأزواجهم الحسنات.

قوله تعالى: ﴿الذين هم في صلاتهم خاشعون﴾ (١).

أصل الخشوع: الخضوع والتواضع. وفي المراد به هاهنا ثلاثة أقوال: أحدها: أنه ترك الإلتفات في الصلاة. قاله علي عليه السلام.

والثاني: السكون في الصلاة. قاله مجاهد.

والثالث: النظر إلى مواضع السجود. قاله قتادة.

عرفوا طريق النجاة فوقفوا على قدم الأدب في المناجاة، فنال كلُّ منهم ما رجاه، فلهم عنده أعظم قدرٍ وجاه.

أخبرنا عبد الوهاب الحافظ، أنبأنا أبو الحسين بن عبد الجبار، أنبأنا إسماعيل بن إسحاق، حدثنا سليمان بن حرب، حدثنا يزيد بن إبراهيم، عن عمرو بن دينار، قال: كان عبد الله بن الزبير يوماً يصلي في الحجرِ مُرخياً يديه، فوافى حجرٌ قذّاف، فذهب بطائفة من ثوبه، فما انفتل من صلاته.

قال محمد بن القاسم: وحدثنا عمرو بن بكّار الباقلاوي، قال: حدثنا محمد بن إسحاق، قال: سمعت يحيى بن معين يقول: كان المعلى بن منصور الرازي يوماً يصلي فوقع على رأسه كورُ الزنابير، فما التفت وما انفتل حتى أتم صلاته، فنظروا فإذا رأسه قد صار هكذا من شدة الانتفاخ.

وكان مسلم بن يسار لا يلتفت في صلاته، ولقد انهدمت ناحية من المسجد ففزع لها أهلُ السوق فما التفت. وكان إذا دخل منزله سكت أهلُ بيته، فإذا قام يصلي تكلموا أو ضحكوا علماً منهم بأن قلبه مشغول عنهم. وكان يقول: إلهي متى ألقاك وأنت عني راضٍ.

إذا اشتغل اللاهون عنك بشغلهم
جعلتُ اشتغالي فيك يا مُنيّتي شُغلي
فمن لي بأن ألقاك في ساعة الرضا
ومن لي بأن ألقاك والكلُّ لي من لي

(١) المؤمنون ٢.

أخبرنا أبو بكر الصوفي، أنبأنا أبو سعيد الحيري، أنبأنا أبو عبد بن من
 باكوية الشيرازي، حدثنا عبد الواحد بن بكر، حدثني نصر بن أبي نصر، عن
 هبة الله بن أحمد البغدادي، قال: سمعت أحمد بن سعيد الدارمي يقول: صلى
 أبو زُرعة الرازي في مسجده عشرين سنة بعد قدومه من السفر، فلما كان يوم
 من الأيام قدم عليه قوم من أصحاب الحديث، فنظروا فإذا في محرابه كتابة
 فقالوا له: كيف تقول في الكتابة في المحراب؟ فقال: قد كرهه قوم ممن
 مضى. فقالوا له: هو ذا في محرابك كتابة، أما علمت به؟ فقال: سبحان الله!
 رجل يدخل على الله تعالى، ويدري ما بين يديه!.

أخبرنا المحمّدان ابن ناصر، وابن عبد الباقي، قالا: أنبأنا أحمد بن
 أحمد، أخبرنا أبو نعيم الحافظ، أخبرنا عبد الله بن محمد بن جعفر، أخبرنا
 عبد الرحمن بن أبي حاتم، حدثني عفان بن الحسين الربيعي، عن رياح بن
 أحمد الهروي، قال: مرَّ عصام بن يوسف بحاتم الأصب، وهو يتكلم في مجلسه
 فقال: يا حاتم كيف تصلي؟ قال: حاتم: أقوم بالأمر، وأمشي بالسكينة،
 وأدخل بالنية، وأكبر بالعظمة، وأقرأ بالترتيل والتفكير، وأركع بالخشوع،
 وأسجد بالتواضع، وأسلمها بالإخلاص إلى الله تعالى، وأخاف ألاَّ يتقبَّل
 مني! فقال: تكلم فأنْتَ تُحسِن [أن] تصلي.

يا هذا: بين صلواتك وصلاتهم كما بين وقتك وأوقاتهم.

أخبرنا علي بن عبد الله، أنبأنا ابن النُّقور، أنبأنا ابن مدرك، حدثنا محمد
 ابن علي الكاتب، أنبأنا أحمد بن يحيى السوسي، حدثنا داود بن المحبّر،
 حدثنا ميسرة، عن الزبيدي، عن الزهري، عن عطاء بن يزيد، عن أبي أيوب
 الأنصاري، أن النبي ﷺ قال: «إنَّ الرجلين ليتوجَّهان إلى المسجد فيصلَّيان
 فينصرف أحدهما وصلاته أوزن من أحد، وينصرف الآخر، وما تعدل صلته
 مثقال ذرّة».

أخبرنا محمد بن عمر الفقيه، وأحمد بن زفر، قالا: أخبرنا عبد الصمد

ابن نمأمون، أنبأنا الدارقُطَنيّ، حدثنا عمرو بن محمد بن شعيب، حدثنا عبد الله بن شبيب، حدثني الوليد بن عطاء، حدثنا عبد الله بن عبد العزيز، حدثنا يحيى بن سعيد الأنصاري، عن سعيد بن المسيّب، عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: ما من مُصلٍّ إلا ومَلَكٌ عن يمينه، ومَلَكٌ عن يساره، فإن أتمها عرجا بها، وإن لم يتمها ضربا بها وجهه.

يا غائب القلب في صلاته، يا شتيت الهم في جهاته، يا مشغولاً بأفاته عن ذكر وفاته، يا قليل الزاد مع قُرب مماته، يا من يرحل عن الدنيا في كل لحظة مرّحلة، وكتابه قد حوى حتى مقدار خَرَدَلَة، وما ينتفع بنذيرٍ والنذر متصلة، وما يرعوي لنصيح، وكم قد عدّله، ودروعه متخرقة والسهام مُرسّلة، ونور الهدى قد يُرى، وما رآه ولا تأمّله، وهو يأمل البقاء وقد رأى مصير من أمّله، وأجلّه قد دنا، ولكنّ أمّله قد شغله، وقد انعكف على العيب بعد الشيب بصبايةٍ وولّه، ويحضر بدنه في الصلاة، فأما القلب فقد أهمله، كن كيف شئتَ فبين يديك الحساب والزلزلة، ونعمّ جسدك فلا بد للذود أن يأكله، يا عجباً من فتور مؤمنٍ بالجزاء والمسألة، أيقينّ بالنجاة أم غرور وبّله، بادر ما بقي من العمر واستدرك أوّله، فبقية عمر المؤمن لا قيمة له.

إخواني: حسن الأدب في الصلاة دليل على معرفة المخدم، والتفات البدن دليل على إعراض القلب، وقد وصفت لك أحوال الخاشعين، فهل أنت منهم، أو من الغافلين.

سجع على قوله تعالى ﴿الذين هم في صلاتهم خاشعون﴾

سبحان من قومهم وأصلحهم، وعاملوه باليسير فأربحهم، واعتدروا من التقصير فسامحهم، وقد أثنى عليهم ومدحهم، أفْتَعُونَ ﴿الذين هم في صلاتهم خاشعون﴾ (١).

(١) المؤمنون ٢.

اغتنم القومُ الأيامَ، واجتنبوا الخطايا والآثامَ، وصمتوا عن رديء الكلامِ،
وصمّوا عن استماع الحرامِ، فكأنهم ما يسمعون ﴿الذين هم في صلاتهم
خاشعون﴾ .

كفّوا الأكفَّ عن الفسادِ، وهجرت الرؤوسُ الوَسَادَ، وحضر القلب
للمناجاة وانقاد، وأنتم في سكر الرقاد وهم يركعون ويسجدون ﴿الذين هم في
صلاتهم خاشعون﴾ .

ما أوفى تلك الأحوالِ، ما أصفى تلك الخصالِ، ما أركى تلك الأعمالِ،
جمعوا الهمومَ، فأما الأموال فلا يجمعون ﴿الذين هم في صلاتهم خاشعون﴾ .
نقّوا بالرياضة وهذبوا، وابتلوا بفراق المحبوب وجربوا، وأديروا في فنون
التكليف وقلّبوا، فإذا بعدتم يوم الحضور وقربوا فماذا تصنعون ﴿الذين هم
في صلاتهم خاشعون﴾ .

ما ضرّ النفوسَ ما تكأ فيها حين نُكافِئها، نعفر عنها يوم اللقاء ونعافئها،
وندخلها جنّةً يروق [فيها] صافئها، ولهم فيها ما يدعون ﴿الذين هم في
صلاتهم خاشعون﴾ .

نزلوا والله المقام الأمين، وكتبوا في أصحاب اليمين، ونالوا كلّ مُثمّن
ثمين، وأسكنوا القصور وأعطوا الحورَ العين، كلها أبحار ليس فيها عون، قد
عوضوا عن حريق القلق الرحيق، وأبدلوا عن بريق السيوف الأباريق، وقوبلت
رياضتهم بالرّوض الأنيق، فهم يرتعون فيما يربعون ﴿الذين هم في صلاتهم
خاشعون﴾ .

إخواني: توانيتم وسيرُ القوم حثيث، وصفت أعمالهم وفعلكم كدر خبيث،
ونصحناكم، ولكن قد ضاع الحديث، وما أراكم تسمعون ﴿الذين هم في
صلاتهم خاشعون﴾ .

[يا ربنا وفقنا لما وفقك القوم، وأيقظنا يا مولانا من سِنَّة الغفلة والنوم،
وارزقنا الاستعداد لذلك اليوم الذي يربح فيه العاملون ﴿الذين هم في صلاتهم
خاشعون﴾ وصى الله على محمد وآله وصحبه وسلم .

المجلس السابع والعشرون

في قصة نبينا ﷺ في ابتداء أمره

الحمد لله قاهر المتجبر ومُذِلُّه، ورافع المتواضع ومُجَلِّه، القريب من عبده، فهو أقرب من ظِلِّه، وهو عند المنكسر لاجلِّه حالٌ ذُلُّه، لا يعزب عن سمعه وقع القطر في أضعف طَلِّه، ولا بُغَامُ ظَبِّي البرِّ وكَشِيشِ صِلِّه، ولا يغيب عن بَصَره في الدَّجَى ديببُ نملة، رفع من شاء بإعزازه كما حطَّ من شاء بذلِّه، اختار محمداً من الخلق فكأن الكَلَّ خُلِقُوا من أجلِّه ﴿هو الذي أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله﴾ (١).

أحمده على أجلِّ الإنعام وأقلِّه، وأشهد بوحدانيته شهادة مصدِّق قوله بفعله، وأن محمداً عبده ورسوله أرسله لنقض الكفر وحلِّه، فقام معجزه ينادي: ﴿فائتوا بسورةٍ من مثله﴾ (٢) صلى الله عليه وعلى أبي بكر الصديق واصل حبِّله، وعلى عمر الذي كان يفرق الشيطان من ظِلِّه، وعلى عثمان مجهِّز جيش العسرة وعاقِد شمِّله، وعلى عليٍّ أخيه وابن عمه، ومقدِّم أهله، وعلى عمه العباس صينو أبيه وأصله.

اللهم يا من جميع الخلائق مفتقرون إلى فضله، يا منعماً بالجزيل على من ليس من أهله، سامح كلاً منا في جدِّه وهزَله، وارزقنا إقدام شجاع وِلِّي العدوِّ وجمعه ولم يؤلِّه، وارحمنا يومَ يذهل كلُّ خليلٍ عن خِله، وانفعني والحاضرين بما اجتمعنا لأجلِّه.

(٢) البقرة ٢٣.

(١) الفتح ٢٨.

قال الله تعالى: ﴿هو الذي أرسل رسوله بالهدى﴾ .

اعلموا أن نبينا ﷺ المصطفى على الخلق كلهم. صان الله أباه من زلة الزنا .

أخبرنا محمد بن عبد الباقي البزار، أنبأنا أبو محمد الجوهري، أخبرنا أبو عمر بن حيوية أنبأنا أحمد بن معروف، أنبأنا الحارث بن أبي أسامة، أنبأنا محمد بن سعد، أنبأنا محمد بن عمر الأسلمي، أنبأنا أبو بكر بن عبد الله بن أبي سبرة، عن عبد المجيد بن سهل، عن عكرمة، عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «خرجت من لَدُنْ آدَمَ من نكاح غير سِفَاح» .

قال علماء السِّير: لَمَّا حملت به آمنة قالت: ما وجدتُ له ثِقلاً .

وكانت ولادته يوم الاثنين لليلتين خلتا من ربيع الأول. وقال بعضهم: لعَشْرَ خَلَوْنَ منه .

فلما ظهر خرج معه نور أضاء له ما بين المشرق والمغرب .

وتوفي أبوه وهو حَمَلٌ، فخَلَّفَ له خمسة أجمال وقطعة غنم، وأمَّ أيمن كانت تحضنه .

وماتت أمه وهو ابن ست سنين . وكفَّله جدُّه عبد المطلب، ومات وهو ابن ثمان سنين، وأوصى به أبا طالب .

وكان يسمَّى في صغره الأمين .

وكانت آيات النبوة تظهر عليه قبل النبوة، فكان يرى النور والضوء، ولا يمرّ بحجر ولا شجر إلا قال السلام عليك يا رسول الله . وقال: «إني لأعرف حجراً بمكة كان يسلم عليّ قبل أن أبعث، إني لأعرفه الآن» .

ثم رُميت الشياطين بالشهب لمبعثه .

فأما نسبه ﷺ فهو: محمد، بن عبد الله، بن عبد المطلب، بن هاشم، بن

عبد مناف، بن قُصَيِّ، بن كِلاب، بن مُرَّة، بن كَعْب، بن لُؤَيِّ، بن غالب،
ابن فَهْر، بن مالك، بن النَّضْر، بن كِنانة، بن خُزَيْمة، من مُدْرَكة، بن
إلياس، بن مضر، بن نزار، بن مَعَدَّة، بن عَدْنان، بن أدد، بن الهَمَيْسَع، بن
حمل، بن النبت بن قيدار، بن إسماعيل، بن إبراهيم عليه السلام.

واسمه ﷺ: محمد، وأحمد، والحاشر، والمقفي، والماحي، والخاتم،
والعاقب، ونبي الرحمة، ونبي التوبة، ونبي الملاحم، والشاهد والبشير،
والنذير، والضحوك والقتال، والمتوكل، والفتاح، والأمين، والمصطفى،
والرسول، والأُمِّي والقُثم.

فالحاشر: الذي يحشر الناس وهو يُقدِّمهم. والمقفي آخر الأنبياء. وكذلك
العاقب. والملاحم: الحروب. والضحوك اسمه في التوراة، وذلك أنه ﷺ
كان طيب النفس فكها. من القُثم وهو الإعطاء، وكان أجود الناس.

فأما صفته ﷺ فإنه كان ربعة ليس بالطويل ولا بالقصير، أزهر اللون،
أشعر، أدعج العينين، أجرد ذو مسربة.

وكان أجود الناس وأصدقهم لهجة، وألينهم عريكة، وأكرمهم عشرة.
أرضعته ثويبة مولاة أبي لهب أياماً ثم قدمت حليلة فأكملت رضاعه.
تزوجته خديجة وله خمس وعشرون سنة، فأنت منه بزینب ورقية وأم
كلثوم وفاطمة والقاسم والطاهر والطيب. وقيل: ولدت له عبد الله في الإسلام،
فلقب بالطاهر والطيب. وولدت مارية إبراهيم.

وبعث لأربعين سنة فنزل الملك عليه بحراء يوم الاثنين لسبع عشرة ليلة
خلت من رمضان: وكان إذا نزل عليه كرب [له] وتريد وجهه وعرق جبينه.
ورُميت الشياطين بعد عشرين يوماً من مبعثه.

وبقي ثلاث سنين يستتر بالنبوة ثم نزل عليه: ﴿فاصدع بما تؤمر﴾ (١)

(١) سورة الحجر ٩٤.

فأعلن الدعاء .

ولقي الشدايد من قومه وهو صابر . وأمر أصحابه أن يخرجوا إلى أرض
الحبشة فخرجوا .

وفي الصحيحين أنه كان يصلي وسلاً جَزُور قريباً منه ، فأخذه عُقبة بن
أبي معيط فألقاه على ظهره ، فلم يزل ساجداً حتى جاءت فاطمة فأخذته عن
ظهره . فقال حينئذ : « اللهم عليك بالملأ من قريش » .

وفي أفراد البخاري : أن عُقبة بن أبي معيط اخذ يوماً بمنكبه ولوى ثوبه في
عُنقه فخنقه به خنقاً شديداً ، فجاء أبو بكر فدفعه عنه وقال : « اتَّقَتلون رجلاً
أن يقول ربِّي الله ! » .

فلما مات أبو طالب وماتت خديجة بعده خرج إلى الطائف ، وعاد إلى
مكة ، وكان في كل موسم يخرج فيعرض نفسه على القبائل ويقول : من
يؤويني ؟ من ينصرني ؟ فإن قريشاً قد منعوني أن أبلغ كلام ربي ! .

ثم أسري به في سنة ثنتي عشرة من النبوة ، وبايعه أهل العقبة ، وتسلل
أصحابه إلى المدينة ، ثم خرج هو وأبو بكر إلى الغار ، فأقاما فيه ثلاثاً وعمي
أمرهم على قريش .

ثم دخل المدينة فتلقاه أهلها بالرحب والسعة ، فبنى مسجده ومنزله .

وغزا سبعاً وعشرين غزاة ، قاتل منها في تسع : بدر وأحد والمريسيع
والخندق وقريظة وخيبر والفتح وحنين والطائف . وبعث ستاً وخمسين سرية .

وما زال يَلْطَفُ بالخلق ويريهم المعجزات ، فانشق له القمر ، ونبع الماء من
بين أصابعه ، وحنَّ إليه الجذع ، وأخبر بالغيابات فكان كما قال .

وفضّل على الأنبياء ، فصلى بهم في ليلة المعراج ، وهو المتقدم عليهم يوم

الشفاعة .

أنبأنا عبد الأول، أنبأنا الداودي، حدثنا ابن أعين، حدثنا
 الفرّبري، حدثنا البخاري، حدثنا محمد بن سنان، حدثنا هُشيم، أنبأنا سيارُ
 عن يزيد الفقير، أنبأنا جابر بن عبد الله، أن النبي ﷺ قال: «أعطيت خمساً
 لم يُعْطهن أحدٌ قبلي: نُصِرت بالرُّعب مسيرة شهر، وجُعِلت لي الأرض مسجداً
 وطهوراً، فأَيُّما رجل من أمتي أدركته الصلاةُ فليصل، وأُحلت لي الغنائم، ولم
 تحلّ لأحدٍ قبلي، وأُعطيت الشفاعة، وكان النبي يُبعث إلى قومه ويبعث إلى
 الناس كافة.»

أخرجاه في الصحيحين.

وفي أفراد مسلم من حديث أنس عن النبي ﷺ أنه قال: «أنا أول الناس
 يَشْفَع يوم القيامة، وأنا أكثر الأنبياء تبعاً يوم القيامة، وأنا أول من يَقْرَع باب
 الجنة.»

وفي أفراد من حديث أبي هريرة عن النبي ﷺ أنه قال: «أنا سيد ولد
 آدم يوم القيامة، وأول من يَنْشَقُّ عنه القبر، وأول شافع وأول مُشَفَّع.»

أنبأنا الكروخي، أنبأنا أبو عامر الأزدي وأبو بكر الغورجي، أنبأنا
 الجراحي، حدثنا المحبوبي، حدثنا الترمذي، حدثنا الحسين بن يزيد الكوفي،
 حدثنا عبد السلام بن حرب، عن ليث بن الربيع، عن أنس بن مالك رضي الله
 عنه قال: «قال رسول الله ﷺ: «أنا أول الناس خروجاً إذا بُعثوا، وأنا
 خطيبهم إذا وَقَدوا، وأنا مبشّرهم إذا أيسوا، لواء الحمد بيدي، وأنا أكرم ولد
 آدم على ربي ولا فخر.»

قال ابن الأنباري: أراد لا أتبعج بهذه الأوصاف، لكن أقولها شكراً
 ومنبها على إنعام ربي علي.

وفي حديث جابر أن رسول الله ﷺ قال: «والذي نفسي بيده لو أن موسى
 كان حياً ما وَسِعَهُ إلا أن يتبعني.»

أخبرنا ابن الحصين، أنبأنا ابن المذهب، أنبأنا القطيعي، حدثنا عبد الله بن أحمد، حدثني أبي، حدثنا عبد الرزاق، حدثنا معمر، عن همام بن منبه، عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «مَثَلِي وَمَثَلُ الْأَنْبِيَاءِ مِنْ قَبْلِي كَمَثَلِ رَجُلٍ ابْتَنَى بَيْتًا فَأَحْسَنَهَا وَأَكْمَلَهَا وَأَجْمَلَهَا إِلَّا مَوْضِعَ لَبْنَةٍ مِنْ زَاوِيَةٍ مِنْ زَوَايَاهَا، فَجَعَلَ النَّاسُ يَطُوفُونَ وَيُعْجَبُونَ الْبِنَانَ فَيَقُولُونَ: أَلَا وَضَعْتَ هَا هُنَا لَبْنَةً فَيَتَمُّ بِنَانُكَ؟ فَكَنتَ أَنَا اللَّبْنَةُ».

أخرجاه في الصحيحين.

وفيهما من حديث عائشة قالت: كان رسول الله ﷺ يقوم حتى تنفطر قدماه. قالت. وكان ضجّاعه الذي كان ينام عليه في الليل من آدم محشواً ليفاً.

وفيهما من حديث أبي هريرة قال: ما شبع رسول الله ﷺ ثلاثة أياماً تباعاً من خبز حنطة حتى فارق الدنيا.

وفي أفراد مسلم من حديث عمر رضي الله عنه قال: لقد رأيت رسول الله ﷺ يظلّ اليوم يلتوي ما يجد دِقْلاً يملأ به بطنه.

أخبرنا محمد بن عبد الباقي، أنبأنا الجوهري، أنبأنا ابن حيويه، أنبأنا ابن معروف، أنبأنا الحارث بن أبي أسامة، حدثنا محمد بن سعد، أنبأنا هشام بن عبد الملك، حدثنا أبو هاشم صاحب الزعفران، عن محمد بن عبد الله، أن أنس بن مالك حدّثه أن فاطمة جاءت بكسرة خبز إلى النبي ﷺ فقال: ما هذه الكسرة؟ قالت: قرصٌ خبزته فلم تطب نفسي حتى أتيتك منه بهذه الكسرة. فقال: أما إنه أول طعام دخل فم أبيك منذ ثلاثة أيام.

أخبرنا هبة الله بن محمد، عن حميد بن هلال، عن أبي بردة، قال: أخرجت إلينا عائشة كساء ملبّداً وإزاراً غليظاً فقال: فُبِضَ رسول الله ﷺ في هذين.

أخرجاه في الصحيحين .

ما ضرّه من الدنيا ما فات، وهو سيّد الأحياء والأموات .

وفي أفراد مسلم من حديث أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: « من صلى عليّ واحدةً صلى الله عليه عشرًا » .

وفي حديث أنس عن النبي ﷺ أنه قال: « من صلى عليّ واحدةً صلى الله عليه عشر صلوات، وحطّ عنه عشر خطيئات » .

وفي حديث ابن مسعود عن النبي ﷺ أنه قال: « إن لله عز وجل ملائكة سيّاحين يبلغوني من أمّتي السلام » .

فالحمد لله الذي جعلنا من أمته، وحشّرنا الله على كتابه وسنته .

الكلام على البسمة

عجبتُ لُحَرَ النفس كيف يُضامُ
وراضٍ بأوساطِ الأمور تقاعداً
يُسْمُونُ عيشاً في الخمولِ سلامةً
ويستبعدون الرزقَ طالَت به يدُ
جزى الله خيراً عارفاً بزمانه
دعِ الناسَ فيما أجمعوا بعض واحدٍ
وحرٍ يخاف العتَبَ وهو ينامُ
وفيه إلى غاياتهن قِيامُ
وصحةً أيامِ الخمولِ سَقامُ
إذا أسمنَ الأجسام وهو سِمَامُ
تجارِبُه قد شينَ وهو غلامُ
فَنَقْصُكُ مما لا يُعدُّ تمامُ

ألا قرين عزم يبادر، ألا خدين حزم يحاذر، ألا شريف الهمة يأنف، ألا متجافٍ عن الرذائل يتجانف .

إخواني: الدنيا دار قلعة لا حصن قلعة، فرحها يحول وترحها يظول، لو صحّت فكرة عشاقها في مقابح أخلاقها لرفضوها لعيوبها وهجروها لذنوبها، ولكنهم لم ينظروا عيب عيبها، ولم يعلموا خضاب شيبها .

تُبْتُ إلى خالقي أفرّ من الـ دنيا وإني بها لمغتَرُّ

تضحك لي خدعةً لاتبعتها وهي عن الموبقات تفتّر
من نزل بساحة القناعة ذاق حلاوة الغنى، من قرع بأنامل التفكر باب الحزن
فتح له عن رياض الأُنس، مراعاة الأسرار من علامات التيقظ، لكل باب مفتاح
ومفتاح الحكمة طرد الهوى.

إخواني: فيكم من يترك ما يهوى لما يأمل؟

وَحَتَمَ قِسْمَةَ الْأَرْزَاقِ فِينَا وَإِنْ ضَعُفَ الْيَقِينُ مِنَ الْقُلُوبِ
وَكَمْ مِنْ طَالِبٍ رِزْقًا بَعِيدًا أَتَاهُ الرِّزْقُ مِنْ أَمْرٍ قَرِيبِ
فَأَجْمَلُ فِي الطَّلَابِ وَكُنْ رَفِيقًا بِنَفْسِكَ فِي مَعَالِجَةِ الْخَطُوبِ
فَمَا الْإِنْسَانُ إِلَّا مِثْلُ شَلْوِ تَوَاكَلَهُ النَّوَائِبُ بِالنِّيَابِ
فَغَرِبَانَ الْمَنِيَّةِ إِنْ نَعَتَهَا فَلَيْسَ بِفَائِتٍ رَجْمَ الْمَشِيبِ

قال أبو ذر: لك في المال شركاء ثلاثة: القدر لا يستأمرك أن يذهب
بخير، أو شر من هلاك أو موت، والوارث ينتظر أن تضع رأسك، ثم يستاقه
وأنت ذميم، وأنت الثالث، فإن استطعت أن لا تكون أعجز الثلاثة فلا تكن!

قال علي بن عبيدة: لولا لَهَبٌ من الحرص ينشأ في القلوب لا يملك
الاعتبار أطفأ توقده، ما كان في الدنيا عوض من يوم يضيع فيها يمكن فيه
العمل الصالح.

الرأيُ أَخَذُكَ بِالْجِزَامَةِ فِي الَّذِي تَبْغِي فَقَصْرُكَ مَيْتَةً وَذَهَابُ
غَلَبَ الْفَسَادُ عَلَى الْعُقُولِ فَكُذِّبَتْ صُدُقُ الْأَنَامِ وَصُدُقُ الْكِذَابِ
ضَرَبُوا الْجَمَاجِمَ بِالسُّيُوفِ عَلَى الَّذِي يَفْنَى وَطَالَ عَنِ الْهَوَى الْإِضْرَابُ
وَتَغَرَّنَا آمَالُنَا فَنَخَالُهَا مَاءً يَمُوجُ وَكُلْهِنَ سِرَابُ

يا ناسياً مهلاً عن قليل حادث، حادث قلبك بما بين يديك حادث، يا
راحلاً وهو يظن أنه مقيم لاث، يا نائماً قد أزعجته المقلقات البواعث، يا
لاعباً والليالي في سيره حثاث، يا ساهياً قد علقته به برائن الموت الضوابث،

يا مُعْجَباً بزخارف في ضمنها الحوادث، يا مقبلاً على سَحَار من الهوى نافث،
يا مخموراً بالمنى الخمرُ أمَّ الخبائث، يا مطلوباً بالجدِّ وفعله فعلُ عابث،
حريصاً على المال ماله حظ وارث، إياك والدنيا، فإن حَلَفها حلف حانث، لا
تسمعن قولها، فالعزم عزمُ ناكث.

قد أصبحت ونُعَاتها نُعَاتها وكذلك الدنيا تَخِيب ساعاتها
كذارة أحزانها ضرارة أشجانها مرارة ساعاتها
فمتى يُنبه من رُقَادٍ مُهْلِك من قد أضرَّ بعينه هَجَعَاتُهَا
من يغتبط بمعيشةٍ وأمامه نُوبٌ تطيل عناءه فجَعَاتُهَا
وإذا رجعت إلى التَّهَى فذواهب الأيَّام غيرُ مؤمِّلٍ رَجَعَاتُهَا
أو ما تفيق من الغرام بعاركٍ مشهورة مع غيرنا وقَعَاتُهَا

يا من عُمره كلما زاد نقص، يا من يأمن الموت وكم قد قَنَص، يا مائلاً
إلى الدنيا هل سَلِمْتَ من نُعَص، يا مفرطاً في الوقت هلاً بادرت الفرص. يا
من إذا ارتقى في سَلْم الهدى فَلَاح له الهوى نكص، من لك يومَ الحشر إذا
نُشِرت القِصَص، ذنوبك كثيرة جَمَّة، ونفسك بغير الصلاح مهتمة، وأنت في
المعاصي إمام وأمة، يا من إذا طُلب في المتقين لم يوجد ثَمَّة، يا من سيلحق
في مصرعه، وإن أباه وأمه، متى تنقشع هذه الظلمة والغمَّة، متى تنشق
أَكِمَّة أكمه ذي كمه، يا من قد أعماه الهوى، ثم أصمَّه، يا من لا يفرق بين
المديح والمذمَّة، يا من باع فرحَه، ثم اشترى غَمَّه؟ يا عقلاً خَرِباً يحتاج إلى
مرمَّة.

يا آدميُّ أتدري ما مُنيتَ به أم دونَ ذهنك سِتْرٌ ليس ينجابُ
يومٌ ويومٌ ويفنى العُمُر منطويّاً عامٌ جَدِيبٌ وعامٌ فيه إخصابُ
غيره:

فلا تَغَرَّتْكَ الدنيا بزخرفها فأرِيها إن بلاها غافلٌ صابُ
والحَرَمُ يَجْنِي أموراً كلها شرفٌ والحِرصُ يجني أموراً كلها عابُ

الكلام على قوله تعالى

﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ (١)

قال الزجاج: المعنى إذا ذكرت عظمته وقُدْرته، وما خوف به من عصاه فزعت قلوبهم. يقال: وجِلَ يُوْجِلُ ويَاجِلُ وَيُجَلُّ وَيُجَلِّ وَيُجَلِّجُ.

وقال السدي: هو الرجل يهَمُّ بالمعصية، فيذكر الله فينزع عنها.

كان الحسن يقول: إن لله عبداً كمن رأى أهل الجنة في الجنة، وأهل النار في النار، ينظر إليهم الناظر فيحسبهم مَرْضَى.

وكان سميّط يقول: أتاهم من الله وعيد وقذهم فناموا على خوف، وأكلوا على تنغيص.

وقال سري: أكلهم أكل المرضى ونومهم نوم الفرقي.

قال أبو طارق: شهدت ثلاثين رجلاً ماتوا في مجالس الذكر يمشون بأرجلهم صيحاءاً إلى المجلس، وأجوافهم قريحة، فإذا سمعوا الموعظة تصدعت قلوبهم فماتوا.

وقال أحمد بن حنبل رضي الله عنه: الخوف يمنعني من أكل الطعام والشراب فما أشتهيه.

وقيل: صَلَّى زُرَّارة بن أبي أوفى بالناس فقراً «المدثر» فلما بلغ: ﴿فَإِذَا نُفِرَ فِي النُّاقُورِ﴾ (٢) خَرَّ مَيِّتاً.

وكان إبراهيم التيمي يذكر، وأبو وائل ينتفض انتفاض الطير.

وقال يوسف بن أسباط: لما أتى ذو القرنين السد قال، دلّوني على أعبد رجل فيكم. فقالوا: في هذا الوادي رجل يبكي حتى نبت من دموعه الشجر. فهبط الوادي فأتاه فوجده ساجداً وهو يقول: إلهي اقْبِضْ رُوحِي فِي الْأَرْوَاحِ،

(٢) المدثر ٨.

(١) الأنفال ٢.

وادفن جسدي في التراب، واركني هملاً لا تبعثني يوم الحساب.

وقال مالك بن دينار: رأيت جُوَيْرِيَةَ تطوف بالبيت وتقول: يا رب كم من شهوةٍ ذهبتْ لذتها، وبقيتْ تبعثها! يا رب ما كان لك عقوبة إلا بالنار!؟
فما زالت كذلك إلى الصباح.

يا عجباً كيف تنام عينٌ مع مخافة، أم كيف تلهو نفس مع ذكر المحاسبة.
كان داود الطائي يقول: في ظلام الليل همك عطل عليّ الهموم، وحالف بيني وبين السُّهَاد، فأنا في سجنك أيها الكريم مطلوب.

وقيل: كان عتبة الغلام طويلَ البكاء ف قيل له: ارفق بنفسك. فقال: إنما أبكي على تفصيري.

وقيل لعبد الواحد بن زيد: ما نفهم كلامك من بكاء عتبة فقال: أبكي عتبة على نفسه، وأنهاه أنا! لبس واعظ قوم.

وكان يزيد بن مرثد دائم البكاء، فكانت زوجته تقول: ويحي ما خصصت به من طول الحزن معك ما تقرّ لي عين.

لو أن دمعي لم ينطق بتبيان
ماء يولده نيران أحزاني
سدت سبيل امريء في الحب يلحاني
ما أبعد الصبر ممن شوقه داني
ففاض دمعي فأرواه وأظماني
لو أن دمعي لم ينطق بتبيان
ماء يولده نيران أحزاني
سدت سبيل امريء في الحب يلحاني
ما أبعد الصبر ممن شوقه داني
ففاض دمعي فأرواه وأظماني

لما خفيت العواقب على المتقين فزعوا إلى القلق واستراحوا إلى البكاء.

قال مالك بن دينار: وددت أن الله عز وجل أذن لي يوم القيامة إذا وقفت بين يديه أن أسجد سجدة فأعلم أنه قد رضي عني، ثم يقول: يا مالك كن تراباً.

قد أُوْبِقْتَنِي ذَنْبٌ لَسْتُ أَحْصُرُهَا فاجعل تغمدها من بعض إحصائك
وارفق بنفسي يا ذا الجود إن جهلت مقدار زلتها مقدار غفرانك
أعقلُ الناسَ مُحْسِنُ خائفٌ، وأحمقُ الناسَ مسيءُ آمنٌ.

كان يَشْرُ الحافي لا ينام الليل ويقول: أخاف أن يأتي أمرُ الله وأنا نائمٌ.
وكلما همَّ بِذَوْقِ الكَرَى صاح به الهجرانُ قم لا تنم
ذكرت نفوسُ القومِ العذابَ فأنتَ، وتفكرت في شدة العتاب فأرنتَ،
تذكرت ما جنتُ مما تجنتَ فجنتُ، أزعجها الحدَرُ، ولولا الرجاء ما اطمأنتِ.
آه لِنَفْسٍ ضنَّتْ بما بذلوه، ثم رجعت ما نالوه، بشس ما ظننتِ، ما نفسٌ سابقتُ
كنفسٍ تأنتُ.

طربْتُ لِذِكْرِي منك هزَّتْ جوانحي كما يُطربُ النشوانَ كأسُ مُدامٍ
وما ذكرتكُ النفسُ إلا أصابها كلذعِ ضيرامٍ أو كوخزِ سِيهامٍ
وإنَّ حديثاً منك أحلى مذاقه من الشهد ممزوجاً بماءِ غمامٍ

كيف لا يخاف من قلبه بيد المقلب، من ظن أن عمراً يُسلم، من ظن أن
برصيصاً يكفر، رب غرس من المنى أثمر، وكم من مستحصد تلف، كرة
القلب بحكم صولجان التقلب، إن وقفت الكرة طردت، وإن بعدت طلبت،
ليبين سرّ، لو وُزن خوف المؤمن ورجاؤه لا عدلاً، نادى نادي البعد ألا
«تَقْنَطُوا» ويقال للمذنبين ﴿وَيُحَذِّرُكُمْ اللهُ نَفْسَهُ﴾^(١) لما قرّب جبريل وميكائيل
اهتزت الملائكة فخرّاً بقرب جنسها من جناب العِزّة، ففُطِعَ من أغصانها شجرة
هاروت، وكُسِرَ غُصْنُ ماروت، وأخذ من لُبّها كُرّة ﴿وَإِنَّ عَلَيْكَ لَعْنَتِي﴾^(٢)
فتزودت في سَفَرِ العبودية زاد الحدَرُ، وقادت في سبيل معروفها نُجَبَ التطوّع
للمنقطعين ﴿وَيَسْتَغْفِرُونَ لِمَنْ فِي الْأَرْضِ﴾^(٣).

نودي من نادي الإفضال: ﴿من جاء بالحسنة فله عشر أمثالها﴾^(٤) فسارت

(١) عمران ٣٠. (٢) ص ٧٨. (٣) الشورى ٤٢. (٤) الأنعام ١٦٠.

نجائب الأعمال إلى باب الجزاء، فصيح بالدليل: ﴿وَلَوْلَا أَنْ تَبْتَئَا﴾ (١)
فقال: ﴿مَا مِنْكُمْ مَنْ يَنْجِيهِ عَمَلُهُ﴾.

رحم الله أعظمًا طالما نصبت وانتصبت، جن عليها الليل، فلما تمكّن وثبت
وثبت، إن ذكرت عدله ذهبت وهربت، وإن تصوّرت فضله فرحت وطربت،
اعترفت إذا نبتت عن طاعته أنها قد أذنت، وقفت شاكرة لمن لحمها على
جوده نبتت، هبتت على أرض القلوب عقيم الحذر فاقشعرت وندبت، فبكت
عليها سحائب الرجاء فاهتزت وربّت.

بحسبك أن قومًا موتى تحيا بذكرهم النفوس، وأن قومًا أحياء تقسو
برؤيتهم القلوب! رحل القوم وبقيت الآثار في الآثار، سألوا طول التبعّد عنهم
فقالته خلت الديار.

إذا دَمَعِي شَكَا الْبَيْنَ بَيْنَهَا شَكَا غَيْرُ ذِي نُطْقٍ إِلَى غَيْرِ ذِي فَهْمٍ

جال الفكر في قلوبهم فلاح صوابهم، وذكروا التسويق فمحا التذكر
إعجابهم، ومادوا للمخافة فأصبحت دموعهم شرابهم، وترنموا بالقرآن فأمسى
مزهّهم وربّابهم، وكلفوا بطاعة الإله فألفوا محرابهم، وخدموه مبتدلين في
خدمته شبابهم، فيا حسنهم وريح الأسحار قد حرّكت أثوابهم، وحملت
قصيص القصص، ثم ردّت جوابهم:

نسيم الصبا إن زرت أرض أحييتي فخصّهم عنّي بكلّ سلام
وبلّغهم أني رهين صباية وأن غرامي فوق كلّ غرام
وأنّي ليكفيني طروق خيالهم لو أن جفوني متّعت بمنام
ولست أبالي بالجنان وباللّطى إذا كان في تلك الديار مقامي
وقد صمّت عن لذات دهري كلها ويوم لقاكم ذاك فطر صيامي

لا يطمعن البطال في منازل الأبطال، إن لذة الراحة لا تنال بالراحة، من

(١) الإسراء ٧٤.

زرع حصدًا ومن جدّ وجد .

وكيف يُنال المجدُّ والجِسْمُ وادعُ وكيف يُجاء الحمدُ والوفْرُ وافرُ
أي مطلوب نيل من غير مشقة، وأي مرغوب لم تبعد على طالبه الشقة،
المال لا يحصل إلا بالتعب، والعلم لا يُدرك إلا بالنصب، واسم الجواد لا يناله
بخيل، ولقب الشجاع [لا يحصل إلا] بعد تعب طويل .

لا يدرك المجدّ إلا سيّد فِطْنِ	لما يشقّ على الساداتِ فعَالُ
أَمْضَى الفريقيْنِ في أقرانِه ظَبَّةٌ	والبيض هادية والسمر ضلالُ
يريك مخبّره أضعاف منظره	بيّن الرجال ففيها الماء والآلُ
لولا المشقة ساد الناس كلهم	الجودُ يُفقر والإقدام قتالُ
وإنما يبلغ الإنسانُ طاقته	ما كل ماشية بالرحل شِمَالُ
إنّا لفي زمنٍ ترك القبيح به	من أكثر الناس إحسانًا وإجمالُ
ذكر الفتى عمره الثاني وحاجته	ما قاته وفُضولُ العيش أشغالُ

سبحان من أيقظ المتقين، وخلع عليهم خلع اليقين، وألحقهم بتوفيقه
بالسابقين، فباتوا في جلباب الجد متسابقين .

سجع على قوله تعالى

﴿وَجِلَّتْ قُلُوبُهُمْ﴾

كلما أذهب الأعمارَ طلوعُهُم وغروبُهُم، سالت من الأجفان جزعاً غروبُهُم،
وكلما لاح لهم في مرآة الفكر ذنوبُهُم تجافت عن المضاجع خوفًا جنوبُهُم،
وكلما نظروا فساءهم مكتوبُهُم ﴿وَجِلَّتْ قُلُوبُهُمْ﴾ .

دموعهم على الدوام تجري، وعزّتي: لأرْبِحَنَّهُمْ في معاملتي وتجرّي،
عظمت قدرتي في صدورهم وقَدْرِي، فاستعاذوا بوصلي من هجرّي، عاملوا
معاملة من يفهم ويدري، فنومُهُم على فراش القلق وهبوبُهُم ﴿إذا ذكر الله
وَجِلَّتْ قُلُوبُهُمْ﴾ .

أموات عن الدنيا ما دُفِنوا، أغمضوا عنها عيونهم وحزنوا ولو فتحوا أجفانَ
الشَّرِّه لَفُتِنُوا، باعوها بما يبقى فلا والله ما غُنِبُوا، تالله لقد حصلَ مَطْلُوبُهُمْ
﴿إِذَا ذَكَرَ اللَّهُ وَجِلَّتْ قُلُوبُهُمْ﴾ (١).

حبسوا النفوسَ في سجنِ المحاسبة، وبسَطُوا عليها ألسُنَ المعاتبة، ومدوا
نحوها أكْفَ المعاقبة، وتحقَّقَ لمن بين يديه المناقشةَ والمطالبة، فارتفعت
بالمعاتبة عيوبُهُمْ ﴿إِذَا ذَكَرَ اللَّهُ وَجِلَّتْ قُلُوبُهُمْ﴾.

شاهدوا الأخرى باليقين كراي العَيْنِ، فباعوا العقارَ وأخرجوا العَيْنَ،
وعلموا بمقتضى الدِّينِ أن التَّقَى دِينٌ، فدنياهم خراب وأخراهم على الزَّيْنِ، قد
قنعوا بكسرتين وجرعتين، هذا مأْكولُهُمْ وهذا مشروبُهُمْ ﴿إِذَا ذَكَرَ اللَّهُ وَجِلَّتْ
قُلُوبُهُمْ﴾.

والحمد لله وحده.

(١) الأنفال ٢.

المجلس الثامن والعشرون في فضل أبي بكر الصديق رضي الله عنه

الحمد لله الذي أحكم بحكمته ما فطر وبنى، وقرب من خلقه برحمته ودنا، ورضى الشكر من بريته لنعمته ثمنا، وأمرنا بخدمته لا لحاجته، بل لنا، يغفر الخطايا لمن أسأ وجنا، ويُجزل العطايا لمن كان محسنا، بين لقاصديه سيلاً وسننا، ووهب لعباده جزياً يُقتنى، وأثاب حامديه ألدَّ ما يُجتنى ﴿والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا﴾ (١).

أحمده مُسِرّاً للحمد ومُعَلِّناً، وأصلي على رسوله محمد أشرف من تردّد بين جمع ومنى، وعلى صاحبه أبي بكر المتخلل بالعبا راضياً بالعنا، وهو الذي أراد بقوله تعالى وعنى: ﴿ثانِي اثْنين إِذْ هُمَا فِي الْغارِ إِذْ يَقولُ لِصاحبه لا تَحْزَنْ إِنّ اللهَ مَعنا﴾ (٢) وعلى عمر المجدّ في عمارة الإسلام فيما ونى، وعلى عثمان الراضي بالقدر وقد دخل بالفناء الفنا، وعلى عليّ الذي إذا بالغنا في مدحه فالفخر لنا، وعلى عمه العباس الذي أسس الله قاعدة الخلافة لبنيه وبنى.

قال الله تعالى: ﴿إلا تَنْصُرُوهُ فقد نصره الله﴾ (٣) إلا تنصروه بالنفير معه ﴿فقد نصره الله﴾ أي أعانه على أعدائه ﴿إذ أَخْرَجَهُ الذين كَفَرُوا﴾ أي اضطروه إلى الخروج بقصدهم إهلاكه ﴿ثانِي اثْنين﴾ (٤) قال الزجاج: المعنى فقد نصره الله أحد اثنين، أي نصره منفرداً إلا من أبي بكر. وهذا معنى قول الشعبي: عاتب الله أهل الأرض جميعاً في هذه الآية غير أبي بكر.

(١) العنكبوت ٦٩.

(٢) التوبة ٤٠.

فأما الغار فهو الثَّقْبُ في الجبل. وهذا الغار في جبل نَوْرَ بمكة، وكان المشركون يُؤذون المسلمين، فتجهز أبو بكر رضي الله عنه ليلحق بالمدينة، فقال له رسول الله ﷺ: «على رسلك فإني أرجو أن يؤذَن لي».

ثم خرجا إلى الغار، فجعل أبو بكر يشق ثوبه ويسد الأثقاب، فبقي ثقب فسده بَعْبُه.

فمكثا ثلاث ليل في الغار، فخرجت قريش تطلب الآثار، فلما مروا بالغار رأوا نَسْجَ العنكبوت فقالوا: لو دخل ها هنا لم يكن نسج العنكبوت على الباب. وقال أنس بن مالك رضي الله عنه: أمر الله تعالى شجرة فنبتت في وجه رسول الله ﷺ فسرتَه، وأمر العنكبوت فنسجت وأمر حمامتين وحشيتين فوقعتا على فم الغار. وقال مقاتل: جاء القائف فنظر إلى الأقدام فقال: هذا قدم ابن أبي قحافة والأخرى لا أعرفها، إلا أنها تشبه القدم التي في المقام. ﴿إذ يقول لصاحبه﴾ يعني بالصاحب أبا بكر بلا خلاف.

أخبرنا ابن الحصين، أنبأنا ابن المذهب، أنبأنا القَطِيعي، حدثنا عبد الله بن أحمد، حدثني أبي، حدثنا عفان، حدثنا همام، حدثنا ثابت، عن أنس رضي الله عنه أن أبا بكر رضي الله عنه قال: قلت للنبي ﷺ ونحن في الغار: لو أن أحدهم نظر إلى قدميه لأبصرنا تحت قدميه. فقال: «يا أبا بكر ما ظنك باثنين الله ثالثهما».

أخرجاه في الصحيحين.

أنا مولاي إمامٌ ضحكت	من ثانياً فضله أي الزمّر
صدق المرسل إيماناً به	ولحا في الله من كان كفر
ثم بالغار له منقبة	خصه الله بها دون البشر
ثاني اثنين وقول المصطفى	معنا الله فلا تُبدي الحذر

قوله: ﴿فأنزل الله سكينته عليه﴾ والسكينة السكون والطمأنينة. وفي

﴿عليه﴾ قولان: أحدهما أنها ترجع إلى أبي بكر قاله علي بن أبي طالب وابن عباس. والثاني: أنها في معنى تثنية، فالتقدير عليهما كقوله: ﴿والله ورسوله أحق أن يرضوه﴾^(١) ذكره ابن الأنباري. ﴿وأَيُّده﴾ يعني النبي ﷺ، وإنما قالوا ذلك، لأن كل حرف يُردّ إلى اللاحق به، فلما كان الانزعاج لأبي بكر وحده حسن رد هاء السكينة عليه، ولما كان التأييد بالجنود لا يصلح إلا للرسول رُدّت هاء ﴿أَيُّده﴾ عليه. ومثله قوله تعالى: ﴿لتؤمنوا بالله ورسوله وتعزروه وتوقّروه وتُسَبِّحوه﴾^(٢).

قال العلماء: بعث الله ملائكة صرفت وجوه الكفار عنهما.

واعلم أن أبا بكر معروف الفضل في الجاهلية والإسلام.

ولد بمنى. واسمه عبد الله بن عثمان بن عامر بن عمر بن كعب بن سعد بن تميم بن مرة بن كعب، وعند مرة يلقب رسول الله ﷺ في النسب. وأمه أم الخير سلمى بنت صخر، أسلمت.

وكانت إليه في الجاهلية الأَسْبَاق وهي الذِّيات، والمُغْرَم، وكان إذا احتمل شيئاً فسأل فيه قريشاً صدقوه وأمضوا حمالةً من نهض معه، وإن احتملها غيره خذلوه.

ولما جاء الإسلام كان أول من أسلم، ولقبه رسول الله ﷺ عتيقاً لحسن وجهه، وقال: يكون بعدي اثنا عشر خليفة، أبو بكر لا يلبث إلا قليلاً.

وكان علي بن أبي طالب رضي الله عنه يحلف بالله أن الله عز وجل أنزل اسم أبي بكر من السماء «الصدِّيق». وقال رسول الله ﷺ ليلة أسري به لجبريل: إن قومي لا يصدقوني، فقال له جبريل: يصدقك أبو بكر، وهو الصدِّيق.

وهو أول من خاصم عن رسول الله ﷺ.

(٢) الفتح ٩.

(١) التوبة ٦٢.

روت أسماء بنت أبي بكر قالت: أتى الصريحُ أبا بكر فقبل له: أدرك صاحبك. فخرج من عندنا، وإن له غدائر فدخل المسجد وهو يقول: ويلكم أتقتلون رجلاً أن يقول ربي الله؟ فلهوا عن رسول الله ﷺ وأقبلوا على أبي بكر، فرجع إلينا فجعل لا يمسن شيئاً من غدائره إلا جاء معه، وهو يقول: تباركت يا ذا الجلال والإكرام.

وفي الصحيحين من حديث أبي سعيد الخدري عن النبي ﷺ أنه قال: «إن آمن الناس علي في صحبته وماله أبو بكر، ولو كنت متخذاً خليلاً غير ربي لاتخذت أبا بكر خليلاً، ولكن أخوة الإسلام ومودته، لا ببقى في المسجد باب إلا سدّ إلا باب أبي بكر».

وروى أبو هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ أنه قال: «ما لأحدٍ عندنا يد إلا وقد كافأناه ما خلا أبا بكر، فإن له عندنا يداً يكافئته الله بها يوم القيامة، وما نفعتني مالٌ أحدٍ ما نفعتني مال أبي بكر». فبكى أبو بكر وقال: فهل أنا ومالي إلا لك يا رسول الله.

أخبرنا محمد بن عبد الباقي، أنبأنا أبو طالب العشاري، أنبأنا علي بن عمر الحافظ، حدثنا البغوي، حدثنا وهب بن بقية، حدثنا عبد الله بن سفيان الواسطي، عن ابن جريج، عن عطاء، عن أبي الدرداء رضي الله عنه قال: رأني النبي ﷺ أمشي أمام أبي بكر فقال: يا أبا الدرداء أتمشي أمام من هو خير منك في الدنيا والآخرة! ما طلعت شمس ولا غربت على أحدٍ بعد النبيين والمرسلين أفضل من أبي بكر.

أخبرنا عبد الأول، أخبرنا الداودي، أخبرنا ابن أعين، أخبرنا القبري، حدثنا البخاري، حدثني هشام بن عمار، حدثنا صدقة بن خالد، حدثنا زيد ابن واقد، عن بشر بن عبد الله، عن عابد الله أبي إدريس، عن أبي الدرداء رضي الله عنه قال: كنت جالساً عند النبي ﷺ إذ أقبل أبو بكر رضي الله عنه أخذاً بطرف ثوبه حتى أبدى عن ركبتيه فقال النبي ﷺ: أمّا صاحبكم فقد

غامر . فسَلَّم وقال : إني كان بيني وبين ابن الخطاب شيء فأسرعتُ إليه ، ثم ندمت فسألته أن يغفر لي فأبى عليّ ، فأقبلت إليك . فقال : يغفر الله يا أبا بكر ثلاثاً . ثم إن عمر رضي الله عنه ندم فأتى منزلَ أبي بكر فسأل : أتمَّ أبو بكر؟ قالوا : لا . فأتى إلى النبي ﷺ فجعل وجه النبي ﷺ يتمرّ حتى أشفق أبو بكر فجثّاً على ركبتيه : وقال يا رسول الله أنا كنت أظلم مرتين . فقال النبي ﷺ : إن الله بعثني إليكم فقلتم : كذبت ، وقال أبو بكر : صدقت ، وواساني بنفسه وماله . « فهل أنتم تاركوا لي صاحبي » مرتين . فما أودى بعدها .

وقد انفرد أبو بكر رضي الله عنه بأن أفتى في حَضرة النبي ﷺ وقدمه في الصلاة ، ونص عليه نصّاً خفياً بإقامته مكانه في الصلاة .

أخبرنا عبد الأول ، أنبأنا الداوديّ ، أنبأنا ابن أعين ، أنبأنا الفربريّ ، حدثنا البخاريّ ، حدثنا الحميديّ ، حدثنا إبراهيم بن سعيد ، عن أبيه ، عن أبيه ، عن محمد بن جبير بن مطعم ، عن أبيه ، قال : أتت امرأة إلى النبي ﷺ فأمرها أن ترجع إليه . فقالت : رأيت إن جئتُ ولم أجِدك . كأنها تقول : الموت . قال : فإن لم تجديني ، فأتي أبا بكر .

أخرجاه في الصحيحين .

وفي الصحيحين أنه عليه السلام قال لعائشة رضي الله عنها : « ادعي لي أباك وأخاك حتى أكتب لأبي بكر كتاباً ، فإني أخاف أن يقول قائل ويتمنى مُتمنّ ، ويأتي الله والمؤمنون إلا أبا بكر » .

وأعلم أن خِلالَ أبي بكر رضي الله عنه معلومة ، من الورع والخوف والزهد والبكاء والتواضع ، وأنه لما استُخلف أصبح غادياً إلى السوق ، وكان يحلب للحيّ أغنامهم قبل الخلافة ، فلما بويع قالت جارية من الحيّ : الآن لا يحلب لنا . فقال : بلى لأحلبنها لكم ، وإني لأرجو ألاّ يغيرني ما دخلتُ فيه .

وجميع الصحابة رضي الله عنهم اعترفوا بفضله .

أخبرنا ابن الحصين، أنبأنا أبو طالب ابن غيلان، أنبأنا أبو بكر محمد بن عبد الله الشافعي، أنبأنا أبو بكر بن أبي الدنيا، أنبأنا خالد بن خراش، أخبرنا حماد بن زيد، عن يحيى بن عتيق، عن الحسن بن أبي الحسين، أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال: وددت أني في الجنة حيث أرى أبا بكر.

يا أيها الرافضي لا تسمع مدح أبي بكر من فيه، اسمع، قول، علي عليه السلام فيه.

أنبأنا عبد الأول، أنبأنا الداودي، أنبأنا ابن أعين، حدثنا الفربري، حدثنا البخاري، حدثنا محمد بن كثير، حدثنا سفيان، عن جامع بن أبي راشد، حدثنا أبو يعلى، عن محمد بن الحنفية، قال: قلت لأبي: أي الناس خير بعد رسول الله ﷺ؟ قال: أبو بكر. قلت: ثم من؟ قال: ثم عمر قال: وخشيت أن أقول ثم من؟ فيقول: عثمان: فقلت: ثم أنت. فقال: ما أنا إلا رجل من المسلمين.

انفرد بإخراجه البخاري.

أخبرنا عبد الرحمن بن محمد القزاز، أنبأنا أبو الحسين بن المهدي، أنبأنا القاسم بن حبابة، حدثنا أبو علي إسماعيل بن العباس الوراق، عن أحمد بن منصور بن زاج، حدثني أحمد بن مضعب، حدثني عمر بن إبراهيم بن خالد القرشي، عن عبد الملك بن عمير، عن أسيد بن صفوان، قال: لما قبض أبو بكر الصديق رضي الله عنه وسجى عليه ارتجت المدينة بالبكاء كيوم قبض رسول الله ﷺ، قال: فجاء علي بن أبي طالب رضي الله عنه مستعجلاً مسرعاً مسترجعاً وهو يقول: اليوم انقطعت النبوة، حتى وقف على البيت الذي فيه أبو بكر فقال: رحمك الله يا أبا بكر، كنت إلف رسول الله ﷺ وأيسه ومُستراحه وثقتة وموضع سرّه ومشاورته، وكنت أول القوم إسلاماً وأخلصهم إيماناً وأشدّهم لله يقيناً، وأخوفهم لله وأعظمهم غناءً في دين الله عز وجل، وأحوطهم على رسول الله ﷺ وأحدبهم على الإسلام، وأحسنهم صحبةً،

وأكثرهم مناقب وأفضلهم سوابق وأرفعهم درجةً، وأقربهم وسيلة، وأشبههم برسول الله ﷺ هدياً وسمناً، وأشرفهم منزلةً وأرفعهم عنده وأكرمهم عليه، فعجزاك الله عن رسوله، وعن الإسلام أفضل الجزاء.

صدقت رسول الله حين كذبه الناس، وكنت عنده بمنزلة السمع والبصر، سماك الله في تنزيله صديقاً فقال: ﴿والذي جاء بالصدق وصدق به﴾ (١) وأسيتته حين بخلوا، وقمت معه على المكاره حين قعدوا، وصحبته في الشدة أكرم الصحبة، ثاني اثنين صاحبه في الغار، والمنزل عليه السكينة، ورفيقه في الهجرة، وخلفته في دين الله وأمته أحسن الخلافة حين ارتدوا.

فقمت بالأمر ما لم يقم به خليفة نبي نهضت حين وهن أصحابه، وبرزت حين استكانوا، وقويت حين ضعفوا، ولزمت منهاج رسوله إذ وهنوا، كنت خليفة حقاً لن تنازع ولن تضارع، برغم المنافقين وكبت الحاسدين، قمت بالأمر حين فشلوا فاتبعوك فهدوا، وكنت أخفضهم صوتاً وأعلاهم فوقاً، وأقلهم كلاماً وأصدقهم منطوقاً وأطولهم صمتاً وأبلغهم قولاً وأكرمهم رأياً، وأشجعهم نفساً، وأشرفهم عملاً. كنت والله للدين يعسوباً، أولاً حين نفر عنه الناس، وآخر حين أقبلوا.

كنت للمؤمنين أباً رحيماً، صاروا عليك عيالاً، حملت أثقال ما عنه ضعفوا، ورعيت ما أهملوا وعلمت ما جهلوا، وشمرت إذ ظلعوا، وصبرت إذ جزعوا وأدركت أوتار ما طلبوا، وراجعوا برأيك رُشدهم فظفروا، ونالوا برأيك ما لم يحتسبوا.

كنت على الكافرين عذاباً صلباً ولهياً، وللمؤمنين رحمة وأنساً وحصناً، طرت والله بعنائها وفزت بحياتها، وذهبت بفضائلها وأدركت سوابقها لم تغفل حجتك ولم تضعف بصيرتك، ولم تجبن نفسك ولم يزعج قلبك، فلذلك كنت كالجبال لا تحركها العواصف ولا تنزليها القواصف، كنت كما قال رسول الله

(١) الزمر ٣٣.

ﷺ ، أمنَّ الناس عليه في صحبتك وذات يدك ، وكنت كما قال ضعيفاً في بدنك قوياً في أمر الله تعالى ، متواضعاً في نفسك عظيماً عند الله تعالى ، جليلاً في أعين الناس كبيراً في أنفسهم ، لم يكن لأحدهم فيك مَغْمَزٌ ولا لقائل فيك مَهْمَزٌ ، ولا لمخلوق عندك هَوَادَةٌ ، الضعيفُ الذليلُ عندك قويٌّ عزيزٌ حتى تأخذ بحقه ، القريبُ والبعيدُ عندك في ذلك سواء وأقربُ الناس عندك أطوعهم لله عز وجل وأتقاهم ، شأنك الحق والصدق والرفق ، قولك حُكْمٌ وحُتْمٌ ، وأمرُك حِلْمٌ وحزمٌ ، ورأيك علمٌ وعزْمٌ ، اعتدل بك الدينُ وقوي بك الإيمان ، وظهر أمرُ الله فسبقتَ والله سبقاً بعيداً وأتعبتَ مَنْ بَعْدَكَ إِتْعَاباً شديداً ، وفُزْتُ بالخير فوزاً مبيناً .

فجَلَّتْ عن البكاء وعظمتْ زريَّتُكَ في السماء ، وهَدَّتْ مصيبتك الأنام ، فإنَّا لله وإنا إليه راجعون . رضينا عن الله عز وجل قضاءه ، وسلمنا له أمره . والله لن يصاب المسلمون بعد رسول الله ﷺ بمثلِكَ أبداً ، كنت للدينِ عزاً وحرزاً وكهفاً .

فألحقك الله عز وجل بنبيك محمد ﷺ ، ولا حرماً أجرك ولا أضللاً بعدك .

فسكت الناس حتى قضى كلامه ، ثم بكوا حتى علت أصواتهم وقالوا :
صدقت يا ختن رسول الله ﷺ

أنفق المالَ قبل إنفاقك العُمُدَ ر ففي الدهرِ رِيْبُهُ وَمَتُونُهُ
قَلَمًا يَنْفَعُ الثَّرَاءَ بِخِيَالًا غَلِقْتَ فِي الثَّرَى الْمَهِيلَ رُهُونُهُ
لَوْ نَجَا مِنْ حِمَامِهِ جَاعِلِ الْمَا ل مَعَاذًا لَهُ نَجَا قَارُونُهُ
خَازِنُو الْمَالِ سَاجِنُوهُ وَمَا كَا ن يَسْعَى لِسَاجِنٍ مَسْجُونُهُ

لما طُبِعَ رسول الله ﷺ على أشرف الأخلاق كان منها الكرم ، فأعطى غنماً بين جبلين ، فلما سار في قِيَافِي الْجُودِ تَبِعَهُ صَدِيقُهُ فَجَاءَ بِكُلِّ مَالِهِ فَقَالَ :
« ما أبقيتَ ؟ » قال : أبقيتُ الله ورسوله .

سَبَقَ النَّاسَ إِلَيْهَا صَفْقَةً لَمْ يَعُدَّ رَائِدُهَا عَنْهَا بَغَبَنُ
هَيْزَةً لِلْجُودِ صَارَتْ نَشْوَةً لَمْ يَكْدُرْ عِنْدَهَا الْعُرْفُ بِمَنْ
طَلَبُوا الشَّاءَ فَوَافَى سَابِقاً جَزَعُ غَبَّرَ فِي وَجْهِهِ الْمَشْنُ

جاز أبو بكر رضي الله تعالى عنه على بلال وهو يعدب، بجذب مغناطيس
صبر بلال حديد صدق الصديق، ولم يبرح حتى اشتراه، وكسر قفص حبسه،
فكان عمر رضي الله عنه يقول: أبو بكر سيدنا وأعتق بلالاً سيدنا.

تعب في المكاسب فنالها حلالاً، ثم أنفقها حتى جعل في الكساء خِلالاً،
قال له الرسول أسلم فكان الجواب نعم بلال: لا، ولو لم يفعل في الإسلام إلا
أنه أعتق بلالاً.

أَبُو بَكْرٍ حَبَا فِي اللَّهِ مَالاً وَأَعْتَقَ فِي مَحَبَّتِهِ بِلَالاً
وَقَدْ وَاسَى النَّبِيَّ بِكُلِّ فَضْلٍ وَأَسْرَعَ فِي إِجَابَتِهِ بِلَالاً: لَا
لَوْ أَنَّ الْبَحْرَ يَقْصِدُهُ بَعْضٌ لَمَا تَرَكَ إِلَالَهُ بِهِ بِلَالاً

كانت فضائله الباطنة مستورة بنقاب « ما سبقكم أبو بكر بصوم ولا صلاة،
ولكن بشيء وقر في صدره » فهي نجاسة لمنقبة: ﴿ فَأَوْحَى إِلَى عَبْدِهِ مَا
أَوْحَى ﴾ (١).

إِنْ كَانَ حُبَّ عَتِيقٍ عَقْدَ النَّوَاصِبِ فَإِنِّي نَاصِبِي مَنْ نَسَلَ نَاصِبِي
مَنْ كَانَ خَيْرَ رَفِيقٍ لِخَيْرِ صَاحِبٍ كَهْفًا لَهُ وَمَعِينًا عَلَى النَّوَاصِبِ
لَهُ الْأَمَانَةُ بِالنَّصِّ غَيْرِ غَاصِبٍ أَتَشْبَهُ سِتْرًا بِنَسِجِ الْعِنَاكِبِ
وَلِلسَّكِينَةِ فِيهِ أَعْلَى الْمَنَاقِبِ مَنَاقِبٌ هُنَّ كَالْأَنْجَمِ الثَّوَاقِبِ

جمع يوم الردة شمل الإسلام بعد أن نعق غراب البين، وجهاز عساكر العزم
فمرت على أحسن زين، وصاح لسان جده فارتاع من بين الصفتين، فقال:
أقاتلهم ولو بابنتي هاتين.

(١) النجم ١٠.

عاد به روض العلى مُضَرّاً
سائلٌ به يومَ بني حنيفةِ
وليس إلا السيفُ قاضٍ في الوغى
كم خَلَلِ رَمِّ ولولا عَزْمُهُ
وكم له من نائلٍ يَسِير ما
سكينةُ الله عليه أنزلتْ
أقسم بالله يميناً صادقاً

من بعد ما كان العلى قد أضمحلَّ
والبيضُ في بيض الرءوس تنّضلُ
ولا رسولٌ غيرَ أطرافِ الاسلِ
ما رَمَّ في الإسلامِ هذاك الخَللُ
بين الأنامِ ذكره سَيْرَ مَثَلُ
وفضله في سورة الفتح نزلُ
لو فاضلُ الأملاكِ بالصدقِ فضلُ

من نهض كنهضته يومَ الردة، ومن عانى من القوم تلك الشدة، وأي إقدام يشبه تلك الحدة، كانت آراؤه من التوفيق مستمدة.

لم يَسْمَحُوا بزمام أمرهم له
لم يرهبوه ولا اتقوه مخافةً
كلاً ولا خافوا بوائق بأسه
لكنهم عَلِمُوا شريفَ محلّه
ورأوا نظامَ الدين عن آرائه
أرذَى حنيفة واليمامة إذ طغت

حتى رأوه لكل خيرٍ جامعاً
جيشاً أطلَّ ولا حُساماً قاطعاً
إن خالفوه ولا رأوه مخادعاً
عند الرسولِ تُقى وقدرًا بارِعاً
مُستحكماً وسنى الشريعة طالِعاً
فأعادَ مأنوسِ الديارِ بلاعِياً

أترى تقدم أبو بكر لكسل، أو مدح بالبخل، كلا بل هانت الدنيا لديه إذ عزت نفسه عليه. لما علم الصديق قُرب الممات فرّق المالَ وتخللَ بالعباء، فخرج من الدنيا قبل أن يُخرج.

يَمَّتْ هِمَّتُهُ قُصوى الورى
يَجِدُ الْمُتَلَفِ مِنْ أَمْوالِهِ
فهو لا يَفْتَرُ مِنْ سَخِّ النَّدى
غير لاهٍ باللَّها بل عالمًا
مستزيداً من فَعَالِ جَمَّة
كلُّ ذخيرٍ لمعاشٍ عنده

فجرى جَرِيَّ جِوادٍ لجِوادِ
واقِعاً مِنْهُ وَقوعَ المُستفادِ
بينانِ سَيِّطاتِ لا جِعادِ
أن بَدَلَ العُرفِ مِنْ خَيْرِ عِتادِ
ليس فيها لامرئٍ من مُستزادِ
مُقْتَنِيٍّ مِنْ فَضْلِ زادِ لمعادِ

سالكاً في كل فجٍ وحدَه حين لا يوحشه طولُ انفرادِ
وكذاك البدر يسري في الدجى وله من نفسه نورٌ وهادِ
نزع أبو بكر ثوبَ مَخِيطِ الهوى فمزقه عليّ، رمى الصديق جهازَ المطلقة
فوافقه عليّ في نزع الخاتم.

حَبَّبَ الْفَقْرَ إِلَيْهِ أَنَّهُ سُودِدٌ وَهُوَ بِذَلِكَ الْفَقْرِ يَغْنَى
وَشَرِيفُ الْقَوْمِ مَنْ يُبْقِي لَهُمْ شَرَفَ الذِّكْرِ وَخَلَى الْمَالَ يَغْنَى
مَا اطمأن الوفر في بحبوحه فرأيتَ المجدَ فيها مُطْمَئِنًّا
تُهْدَمُ الْأَمْوَالُ مِنْ آسَاسِهَا أبدأً ما دامت العلياء تُبْنَى
توافق أبو بكر وعليّ على رَفْضِ الدنْيَا، فاسلك سبيلهما وجانب الرَفْضِ.

وخيّر ما يَذْخِرُ عَبْدٌ لِعَدِ حُبُّ أَبِي بَكْرٍ الْإِمَامِ الْمُرْتَضَى
حُبِّ إِمَامٍ أَوْضَحَ اللَّهُ بِهِ مِنْ سَبِيلِ الْإِسْلَامِ مَا كَانَ عَقَا
لَمْ يَعْبُدِ اللَّاتَ وَلَكِنْ لَمْ يَزَلْ مَعْتَرِفًا بِاللَّهِ مِنْ حِينَ نَشَأَ
لأنه كان زميلَ المصطفى يجري على منهاجه حين جرى
حتى إذا الله اصطفاه مرسلًا أجاب بالتصديق لما أن دعا
وما ارتضاه للصلاة دونهم حتى رآه ذرّوة لا تُرْتَقَى
ثم دعوه بعده خليفة عن ملأ منهم وأعطوه الرضا
قال أقبلوني فليست خيركم فأعظموها وأبوا كلَّ الإبا
والله إنني لمُوالٍ حيدرًا مثل موالاتي عتيقًا ذا السنا
هما إمامي وأمني في غدٍ مما أخاف ورجائي واللجأ
وإن دين الرَفْضِ كُفْرٌ مُوبِقٌ فمن صحّا من سكرة الرَفْضِ نجّا

لقد بان الهدى، ولاحت الطريق، فشمّر أيها البخيل واخرج من المضيق،
وياك والدنيا فكم قتلت من صديق، أفعَلْ بها فعل عليّ، أو فَعَلَ الصّدِيقُ، يا
هذا من صفة المؤمن الكرم، والكريم من أعطى ما لا يجب وأنت تبخل
بالواجب، يا هذا مؤدّي الدّين لا يُحمد، لا يزال عبدي يتقرب إلي بالنوافل،

يا عجباً ممن لا يُخرج اليسيرَ المرذول كيف يُطلب منه الكثير المحبوب.
إذا ما شحَّ ذو المال شحَّ الدهرُ بإيهايه
إذا لم يُثمر العُودُ فقَطَّع العودَ أولى به

الكلام على قوله تعالى

﴿يا أيها الذين آمنوا لا تلهيكم أموالكم ولا أولادكم عن ذكر

الله﴾ (١)

معنى تلهيكم: أي تشغلكم. وفي المراد بذكر الله تعالى أربعة أقوال:

أحدها: طاعته في الجهاد. رواه أبو صالح عن ابن عباس.

والثاني: الصلاة المكتوبة. قاله عطاء.

والثالث: الفرائض كلها. قاله الضحاك.

والرابع: أنه على إطلاقه فحضمهم على إدامة الذكر. قاله الزجاج. قال بعضُ السلف: كل شيء يشغلك عن الله عز وجل من مال وولد فهو مشغوم عليك.

قوله تعالى: ﴿وأنفقوا مما رزقناكم﴾ في هذه النفقة ثلاثة أقوال:

أحدها: الزكاة. قاله ابن عباس.

والثاني: النفقة في الحقوق الواجبة بالمال. قاله الضحاك.

والثالث: صدقة التطوع. ذكره الماوردي. فيكون [على] هذا القول ندباً، وعلى ما قبله واجباً.

قوله تعالى: ﴿من قبل أن يأتي أحدكم الموت﴾ أي من قبل أن يعاين ما يعلم معه أنه ميت ﴿فيقول رب لولا﴾ أي هلاً ﴿أخرتني إلى أجل قريب﴾

(١) المنافقون ٩.

يريد بذلك الاستزادة في أجله ليتصدق.

قوله تعالى: ﴿وَأَكُنْ مِنَ الصَّالِحِينَ﴾ وقرأ أبو عمرو: ﴿وأكون من الصالحين﴾ قال الزجاج: من قرأ ﴿وأكون﴾ بالواو فهو على لفظ فأصدق ومن جزم: ﴿وأكن﴾ فهو على موضع فأصدق، لأن المعنى: إن أخرتني أصدق وأكن. قال ابن عباس: ﴿فأصدق﴾ أزكي مالي. ﴿وأكن من الصالحين﴾ أي أحج مع المؤمنين. قال: وما من أحد يموت قد كان له مال لم يركه وأطاق الحج، فلم يحج إلا سأل الرجعة عند الموت.

واعلم أن أفضل الصدقة في حال الصحة والسلامة.

أخبرنا ابن عبد الواحد، أنبأنا ابن المذهب، أخبرنا أبو بكر بن مالك، حدثنا عبد الله بن أحمد، حدثني أبي، حدثنا جرير بن عبد الحميد، عن عمارة بن القعقاع، عن أبي زرعة، عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: سئل رسول الله ﷺ: أي الصدقة أفضل؟ قال: «أن تصدق وأنت شحيح صحيح تأمل البقاء وتخاف الفقر، ولا تمهل حتى إذا بلغت الحلقوم قلت: لفلان كذا ولفلان كذا، ألا وقد كان لفلان».

أخرجه في الصحيحين.

أخبرنا محمد بن عمر الفقيه، أخبرنا محمد بن علي بن المهدي، حدثنا عبد الله بن أحمد بن الصَّبَّاح، حدثنا محمد بن مَعْن، حدثنا محمد بن محمد ابن حَيَّان، حدثنا محمد بن كثير، حدثنا سفيان، عن أبي إسحاق، عن أبي حبيبة الطائي، عن أبي الدرداء رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «الذي يَعتق عند الموت كمثل الذي يُهدى إذا شبع».

وقيل لميمون بن مهران: إن فلاناً أعتق كل مملوك له يعني عند الموت. فقال: يعصون الله مرتين: يبخلون به وهو في أيديهم، حتى إذا صار لغيرهم أسرفوا فيه!

وليعلم البخيل أن ما أخرجه له وما تركه لغيره.

وفي أفراد البخاري من حديث ابن مسعود رضي الله عنه عن النبي ﷺ أنه قال: «أيكم مالٌ وارثه أحبُّ إليه من ماله؟» قالوا: يا رسول الله ما منا أحدٌ إلا ماله أحبُّ إليه. قال: «فإن ماله ما قدّم، ومال وارثه ما أخر».

وفي أفراد مسلم من حديث أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ أنه قال: «يقول العبد: مالي مالي. وإنما له من ماله ثلاث: ما أكل فأفنى، أو لبس فأبلى، أو أعطى فافتنى، ما سوى ذلك فهو ذاهب وتاركه للناس».

أخبرنا الكروخي، أنبأنا الأزدي والغوري، قالوا: أنبأنا الجراحي، حدثنا المحبوبي، حدثنا الترمذي، حدثنا محمد بن بشر، حدثنا يحيى بن سعيد، عن سفيان، عن أبي إسحاق، عن أبي ميسرة، عن عائشة رضي الله عنها أنهم ذبحوا شاةً فقال النبي ﷺ: «ما بقي منها؟ قالت: ما بقي منها إلا كتفها. قال: بقي كلها إلا كتفها».

من علم فضل الإيثار بالصدقة حمل النفس على الإخراج.

بعث إلى عائشة بمال عظيم ففرقته على الفقراء فقالت جاريتها: لو خبأت درهماً نشرتي به لحمًا نفطر عليه؟ فقالت: لو ذكرّيتني لفعلت.

بالجد فاز من فاز، وبالعزم جاز من جاز، وما حاز الشاء من للمال حاز.

وسائلٍ عنهم ماذا تقدّمهم
فقلتُ فضلٌ به عن غيرهم بأنوا
كما عرضوا للمنايا الحمر أنفسهم
فحان قومٌ توقّوها وما حانوا
وألهج الحمد بالأبطال بينهم
أن ليس بينهم للمال إبطان

واعجباً لغني يبخل بما يفنى، ولفقير لا يصبر على ما يبقى.

أعاذل إن المال غير مُخلدٍ
فكم من جوادٍ يُفسد اليوم جوده
وإن الغنى عاريةٌ فتزود
وساوسٌ قد خوفته الفقر في غدٍ

كم ناداك مولاك وما تسمع، وكم أعطاك ولكن ما تقنع، لقد استقرضك

مالك فمالك تجمع، وضمن أن تنبت الحبة سبعمائة وما تزرع، ليكن همك في طلب المال الإفضال به، فإن الشريف الهمة لا يطلب الفضل إلا للفضل.

قال أعرابي لأخيه: إن مالك إن لم يكن لك كنت له، فكله قبل أن يأكلك.

كم مَخْلَفٌ لمتخلف، ترك لمن لا يحمده وقدم على من لا يعذره، ران على القلوب حب الدنيا فجمعتها كف الشره، وتمسكت بها أيدي البخل، فلو تلمحت معنى: ﴿مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرَضُ﴾ (١) أو أشتقت إلى أرباح ﴿فِيضَاعِفَهُ﴾ لرأيت إنفاق كل محبوب حقيراً في جنب ما ترجو.

فتدبروا إخواني أحوالكم، وأنفقوا في الخير أموالكم، فإن المال إذا أخذتم في سيركم لغيركم.

يا مال كل جامع و حارث أبشر بريب حادث و وارث
إن الغنى والفقير غير لابط ولا يهاب الموت نفث نافث
قد يحصد الجنة غير الحارث ويدهق الدلو لغير النابث
جد الزمان وهو مثل العابث أقسم أن يسيء غير حانث

أخبرنا محمد بن ناصر، أنبأنا أحمد بن جعفر، حدثنا الحسن بن علي، أنبأنا أحمد بن جعفر حدثني أبي، حدثنا المغيرة، حدثنا صفوان، عن يزيد بن ميسرة، قال: كان رجل ممن مضى جمع مالا فأوعى، ثم أقبل على نفسه، وهو في أهله فقال: انعمي سنين. فأتاه ملك الموت فقرع الباب فخرجوا إليه وهو متمثل بمسكين فقال لهم: ادعوا لي صاحب الدار. فقالوا: يخرج سيدنا إلى مثلك! ثم مكث قليلاً، ثم عاد فقرع باب الدار وصنع مثل ذلك فقال: أخبروه أنني ملك الموت. فلما سمع سيدهم قعد فزعاً، وقال: ليتنوه بالكلام. فقالوا: ما تريد غير سيدنا بارك الله فيك؟ قال: لا. فدخل عليه فقال له: قم فأوصي ما كنت موصياً فإني قابض نفسك قبل أن أخرج. قال: فصاح أهله وبكوا، ثم قال: افتحوا الصناديق والتوابيت وافتحوا أوعية الذهب والفضة. ففتحوها

(١) الحديد ١١.

جميعاً فأقبل على المال يلعنه ويسبّه ويقول: لعنت من مال! أنت الذي أنسيتني ربي تبارك وتعالى وأغفلتني عن العمل وأخرتني حتى بلغني أجلّي. فتكلم المال وقال: لا تسبني، ألم تكن وضعياً في أعين الناس فرفعتك؟ ألم يرّ عليك من أثرى؟ وكنت تحضر سوق الملوك فتدخل ويحضر عبادُ الله الصالحون فلا يدخلون؟ ألم تكن تخطب بنات الملوك والسادات فتُنكح، ويخطب عبادُ الله الصالحون، فلا يُنكحون، ألم تكن تنفقي في سبيل الخبيث فلا أتعاصي، ولو أنفقتني في سبيل الله لم أتعاص عليك؟ فأنت اليوم ألوَمَ مني، إنما خلقت أنا وأنتم يا بني آدم من تراب، فمنطلق ببرٍ ومنطلق بإثم.

فهكذا يقول المال فاحذروا.

كان ملك الموت يأتي الناس في صورة البشر، فركب بعضُ الجبارين في جُنده يوماً فلقه ملك الموت فقال: من أنت؟ قال: أنا ملك الموت. فقال: دعني آتي ارضي التي خرجتُ إليها، ثم أرجع من موكبّي. فقال: لا والله لا ترى أرضك أبداً، ولا ترجع من موكبك أبداً، قال: فدعني أرجع إلى أهلي. فقال: لا والله لا ترى أهلك أبداً. فقبض روحه.

وبينا رجل ينظر في أصناف ماله طلع ملك الموت فقال: والذي خوّلك ما ترى، ما أنا بخارج من منزلك حتى أفرق بين روحك وبدنك، قال: فالمهلة حتى أفرقه، قال: هيهات! انقطعت عنك المهلة.

ولاح ملك الموت لرجل فقال لأهله: ايتوني بصحيفة. فقال ملك الموت: الأمر أعجل من ذلك فقبض روحه قبل أن يؤتى بالصحيفة.

إخواني: استدرکوا قبل الفوت، وانتهوا قبل الموت، وأصيخُوا فقد أسمع الصوت.

سجع على قوله تعالى

﴿ولن يؤخر الله نفساً إذا جاء أجلها﴾ (١)

واعجباً لنفس الموت مؤثلاً والقبر منزلها واللحد مدخلها، ثم يسوء عملها
﴿ولن يؤخر الله نفساً إذا جاء أجلها﴾.

كم قاطع زمانه بالتسويق، بائع دينه بالحبّة والرغيف، مشترٍ للويل بتطيف
الطّيف، يتمنى العود إذا رأت نفسه ما يذهلها ﴿ولن يؤخر الله نفساً إذا جاء
أجلها﴾.

كم مشغولٍ بالقصور يعمرها، لا يفكر في القبور ولا يذكرها، بيت
الليالي في فكر الدنيا يسهرها، يجمع الأموال إلى الأموال يثمرها، وقع في
أشراك المنايا، وهو لا يبصرها، أفٍ لدنيا هذا آخرها وآه لأخرى هذا أولها
﴿ولن يؤخر الله نفساً إذا جاء أجلها﴾.

إذا ملك شمس الحياة المغيب، قام عن المريض الطبيب، فأخذ النفس من
باطنها التويخ والتأنيب، فلو رأيتها تسأل عما بها ولا تجيب من يسألها ﴿ولن
يؤخر الله نفساً إذا جاء أجلها﴾.

آه لساعات شديدة الكُرْبَات، فيها غَمَرَات ليست بنوم ولا سَبَات، تتقطع
فيها الأفتدة باللوم على الفوات، وتبكي عينُ الأسف لما مضى من هَفَوَات،
والمريض ملقى على فراش الحُرَقَات، فآه ثم آه من جبال حَسَرَات
يحملها ﴿ولن يؤخر الله نفساً إذا جاء أجلها﴾.

لقد صاح بك الصائح بأخذ غادٍ وسلَب رائح، يكفي ما مضى من قبائح،
فاقبل اليوم هذه النصائح، فإن المسكين من يهملها ﴿ولن يؤخر الله نفساً إذا
جاء أجلها﴾.

والحمد لله وحده.

المجلس التاسع والعشرون

في فضل عمر بن الخطاب

الحمد لله خالق كل مخلوق، ورازق كل مرزوق، سابق الأشياء، فما دونه مسبوق، موجد المنظور والملبوس والمذوق، أنشأ الآدمي بالقدرة من ماء مدفوق، وركب فيه العقل يدعو إلى مراعاة الحقوق، والهوى يحث على ما يوجب العقوق، فاحذر وفاق المشتهم فإنه يرمي لا من فوق فوق، فسح داود لنفسه في نظرة فاتسعت الخروق، وغفل ابنه سليمان عن طاعته ﴿فطفق مسحاً بالسوق﴾ (١).

أحمدته على ما يقضي ويسوق مما يغم وما يشوق، وأقر له بالتوحيد هاجراً يغوث ويعوق، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله، أرسله وقد ازدحمت سوق الباطل في أروج سوق، فدمغ بحقه أهل الزيغ وأرباب الفسوق، صلى الله عليه وسلم وعلى آله ماهب الهواء ولمعت البروق، وعلى صاحبه أبي بكر الصديق، وعلى عمر الملقب بالفاروق. وعلى عثمان الصابر من الشهادة على مرّ المذوق، وعلى علي مطلق الدنيا فما غره الزخرف والراووق، وعلى العباس أقرب الكل نسباً وأخصّ العروق.

اللهم يا ملك المساء والشروق، إحفظنا من مساءة الحوادث والطروق، وهب لنا من فضلك ما يصفو ويرووق، وزد آمالنا من إحسانك فوق ما نرجو ونتوق، وافتح لي وللحاضرين موق بصر البصيرة لحبيب الموق.

(١) ص ٣٣.

أخبرنا هبة الله بن محمد، أخبرنا الحسن بن علي، أخبرنا أحمد بن جعفر، حدثنا عبد الله بن أحمد، حدثني أبي، حدثنا قزارة بن عمر، حدثنا إبراهيم يعني ابن سعد عن أبيه، عن أبي سلمة، عن عبد الرحمن، عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إنه كان فيمن مضى قبلكم من الأمم ناسٌ محدثون وإنه إن كان في أمتي هذه منهم أحد، فإنه عمر بن الخطاب».

أخرجاه في الصحيحين.

واعلم أن عمر رضي الله عنه ممن سبقت له الحسنى، وكان مقدماً في الجاهلية والإسلام.

أما في الجاهلية فكانت له السفارة والمفاخرة، فإن وقع بين قريش وغيرهم بعثوه سفيراً، وإن فاخرهم حيّ بعثوه مفاخراً ورضوا به.

وأما في الإسلام ففضائله كثيرة.

وهو عمر بن الخطاب بن نفيل بن عبد العزى بن رياح بن عبد الله بن قرظ ابن رزاح بن عدي بن كعب، وعند كعب يلقى رسول الله ﷺ في النسب.

أخبرنا محمد بن عبد الباقي، أنبأنا أبو محمد الجوهري، أنبأنا أبو عمر بن حيويه، أنبأنا أبو الحسن بن معروف، أنبأنا الحسين بن الفهم، حدثنا محمد بن سعد، أنبأنا إسحاق بن يوسف الأزرق، حدثنا القاسم بن عثمان البصري، عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: خرج عمر متقلداً السيوف فلقيه رجل من بني زهرة، قال: أين تَعُمد يا عمر؟ فقال: أريد أن أقتل محمداً. قال: وكيف تأمن في بني هاشم وبني زهرة، وقد قتلت محمداً؟ فقال له عمر: ما أراك إلا قد صبأت وتركت دينك الذي أنت عليه. قال: أفلا أدلك على العجب يا عمر؟ إن ختنك وأختك قد صبأ وتركا دينك الذي أنت عليه فمشى عمر ذامراً حتى أتاهما وعندهما رجل من المهاجرين يقال له: خباب، فلما سمع خباب حساً

عمر تواری فی البيت، فدخل علیهما فقال: ما هذه الهیمة التي سمعتها عندکم؟ قال: وکانوا یقرءون ﴿طه﴾ فقالا: ما عدا حديثاً تحدثناه بیننا قال: فأعلمكما قد صباتما. فقال له ختنه: أرأیت یا عمر إن کان الحق فی غیر دینک؟ فوثب عمر علی ختنه فوطئه وطئاً شديداً، فجاءت أخته فدفعته عن زوجها، فنفحها نفحةً بيده فدمى وجهها فقالت وهي غضبي: یا عمر إن کان الحق فی غیر دینک فأنا أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمداً رسول الله.

فلما بیس عمر قال: أعطوني هذا الكتاب الذي عندکم فأقرأه. فقالت: إنک رجس ولا یمسه إلا المطهرون، فقم فاغتسل أو توضأ. فقام فتوضأ، ثم أخذ الكتاب فقرأ: ﴿طه﴾ حتى انتهى إلى قوله ﴿إني أنا الله لا إله إلا أنا فاعبدني وأقم الصلاة لذكري﴾^(١) فقال عمر: دلوني علی محمد. فلما سمع حجاب قول عمر خرج من البيت فقال: أبشر یا عمر، فإني أرجو أن تكون دعوة رسول الله ﷺ لك ليلة الخميس: اللهم أعز الإسلام بعمر بن الخطاب، أو بعمر بن هشام.

قال: ورسول الله ﷺ في الدار التي في أصل الصفا. فانطلق عمر حتى أتى الدار قال: وعلى باب الدار طلحة وحمزة وأناس من أصحاب رسول الله ﷺ، فلما رأى حمزة وجل القوم من عمر قال حمزة: نعم فهذا عمر فإن یرد الله بعمر خيراً یسلم ويتبع النبي ﷺ، وإن یکن غیر ذلك یکن قتله علينا هيناً. قال: والنبي ﷺ داخل یوحى إليه، فخرج رسول الله ﷺ حتى أتى عمر فأخذ بمجامع ثوبه وحمائل السيف، فقال: ما أنت منتهياً یا عمر حتى ينزل الله بك ما أنزل بالوليد بن المغيرة! اللهم هذا عمر بن الخطاب، اللهم أعز الإسلام بعمر بن الخطاب. فقال عمر: أشهد أنك رسول الله. فأسلم وقال: اخرج یا رسول الله.

وقد روى أنه لما أسلم قال:

(١) طه ١٤.

الحمد لله الذي وجبت له
وقد بدأنا فكذبنا وقال لنا
وقد ظلمت ابنة الخطاب ثم هدى
وقد ندمت على ما كان من زلل
لما دعيت ربها ذا العرش جاهدة
أيقنت أن الذي تدعوه خالقها
فقلت أشهد أن الله خالقنا
نبي صدق أتى بالحق من ثقة

علينا أيادي مالها غير
صدق الحديث نبي عنده الخبر
ربي عشية قالوا قد هدي عمر
بلطمها حين تئلى عندها السور
والدمع من عينها عجلان يتندر
فكاد يسبقني من عبرة درر
وأن أحمد فينا اليوم مشتهر
وافي الأمانة ما في عوده خور

قال ابن عباس: لما أسلم عمر كبر أهل الدار تكبيراً سمعها أهل المسجد.
وقال: يا رسول الله ألسنا على الحق إن متنا، وإن حيينا؟ قال: بلى والذي
نفسى بيده. قال: ففيم الإختفاء، والذي بعثك بالحق لتخرجن. قال عمر:
فأخرجناه في صفين، حمزة في أحدهما وأنا في الآخر له كديد ككديد
الطحين، حتى إذا دخلنا المسجد نظرت قريش إلى حمزة وعمر فأصابتهم
كآبة لم يصبهم مثلها. قال: فسماني رسول الله ﷺ يومئذ الفاروق، وفرق الله
بي بين الحق والباطل.

قال ابن مسعود: ما زلنا أعزة منذ أسلم عمر.

وفي الصحيحين من حديث أنس رضي الله عنه قال: قال عمر: وافقت ربي
في ثلاث: قلت: يا رسول الله لو اتخذنا من مقام إبراهيم مصلى؟ فنزلت
﴿واتخذوا من مقام إبراهيم مصلى﴾^(١) وقلت: يا رسول الله إن نساءك يدخل
عليهن البر والفاجر، فلو أمرتهن أن يحتجن. فنزلت آية الحجاب. واجتمع
على رسول الله ﷺ نساؤه في الغيرة عليه فقلت لهن: عسى ربه إن طلقكن أن
يبدله أزواجاً خيراً منكن. فنزلت هذه الآية.

وفي الصحيحين من حديث أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال:

(١) البقرة ١٢٥.

« بَيْنَا أَنَا نَائِمٌ رَأَيْتَنِي فِي الْجَنَّةِ ، فَإِذَا امْرَأَةٌ تَتَوَضَّأُ إِلَى جَانِبِ قَصْرِ فَقُلْتُ : لِمَنْ هَذَا الْقَصْرُ ؟ قَالُوا لِعَمْرِ بْنِ الْخَطَّابِ . فَذَكَرْتُ غَيْرَتَكَ فَوَلَّيْتُ مُدْبِرًا » . فَبَكَى عَمْرٌ وَقَالَ : أَعَلَيْكَ أَغَارٌ يَا رَسُولَ اللَّهِ .

وفيهما من حديث سعد بن أبي وقاص ، عن النبي ﷺ أنه قال لعمر : « وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ مَا لَقَيْكَ الشَّيْطَانُ قَطُّ سَالِكًا فَجًّا ، إِلَّا سَلَكَ فَجًّا غَيْرَ فَجِّكَ » .

قال ابن مسعود : لقي رجل من أصحاب النبي ﷺ الشيطان في زقاق من أزقة المدينة فدعاه الجنِّي إلى الصِّرَاعِ ، فصرعه الإنسيُّ ، فقال : دَغْنِي . ففعل . فقال : هل لك في المعاودة ففعل فصرعه فجلس على صدره ، فقال : ما الذي يُعيدنا منكم ؟ قال : آية الكرسي . فقال رجل لابن مسعود ؟ من ذاك الرجل أعمر هو ؟ فعبس وبسر وقال : ومن عسى أن يكون إلا عمر ! وفي حديث ابن عمر عن النبي ﷺ أنه قال : « عُمَرُ سَرَّاجُ أَهْلِ الْجَنَّةِ » .

وفي حديث أبي هريرة عنه عليه السلام قال : « إِنْ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ جَعَلَ الْحَقَّ عَلَى لِسَانِ عَمْرِ وَقَلْبَهُ » وفي حديث أنس عنه عليه السلام أنه قال : « أَشَدُّ أُمَّتِي فِي أَمْرِ اللَّهِ عَمْرٌ » .

وفي حديث ابن عباس عنه عليه السلام قال : جاء جبريل عليه السلام فقال : أقرئ عمر السلام ، وأخبره أن رضاه عِزٌّ وَغَضَبُهُ حِلْمٌ . وفي حديث علي عليه السلام أنه قال : اتقوا غضبَ عمر إذا غضب ، فإن الله يغضب إذا غضب .

وفي حديث عقبة بن عامر عنه عليه السلام أنه قال : « لَوْ كَانَ بَعْدِي نَبِيٌّ لَكَانَ عَمْرٌ » .

كان عمر رضي الله عنه جدًّا كله ، وكان يُقَدِّمُ عَلَى صَاحِبِ الشَّرِيعَةِ وَيُنَبِّطُ فِيحْتَمَلُهُ ، لَعَلَّمَهُ بِصِحَّةِ قَصْدِهِ .

فمن ذلك : أنه أراد أن يصلي على ابن أبيّ فوقف في صدره وقال : أتصلي عليه ؟!

وقال رسول الله ﷺ يوماً لأبي هريرة: اذهب بنعلي هاتين فمن لقيت من وراء هذا الحائط يشهد أن لا إله إلا الله مستيقناً به قلبه فبشره بالجنة. فذهب فلقى عمر فأخبره الخبر، فضرب بين ثديه حتى خرَّ وقال: ارجع فرجع. فقال يا رسول الله: إني أخشى أن يتكل الناس عليها فخلّهم يعملون. قال: فخلّهم. وفي حديث عمّار بن ياسر قال: قال رسول الله ﷺ سألت جبريل فقلت: أخبرني عن فضائل عمر؟ فقال: لو كنت معك ما لبثت نوح في قومه ألف سنة إلا خمسين عاماً ما نفذت فضائل عمر، وإن عمر حسنة من حسنات أبي بكر رضي الله عنهما.

تحدّث ولا تخرج بكل عجيبةٍ عن البحر أو تلك الخِلالِ الزّواهرِ
ولا عيب في أخلاقه غير أنها فرائد دُرٍّ مالها من نظائر
يُقرّ لها بالفضل كلُّ مُنازعٍ إذا قيل يومَ الجَمع هل من مُفاخِر

قويّت شدة عمر في الدّين فصلّبت عزائمها، فلما حانت الهجرة تسللوا
تسلّل القُطا واختال عمرٌ في مشية الأسد، فقال عند خروجه: ها أنا أخرج إلى
الهجرة، فمن أراد لقائي فليلقني في بطن هذا الوادي.

لما ولي الخلافة شمرّ عن ساق جدّه، فكظّم على هوى نفسه، وحمل في
الله فوق طوّقه .

متيقظ العزّماتٍ مُد نهضت به عزماته نحو العلى لم يقعد
ويكاد من نور البصيرة أن يرى في يومه فعل العواقب في غدٍ

نبد الدنيا من وراء ظهره فتخفف من الأثقال لأجل السباق، كان يخطب،
وفي إزاره ثنتا عشرة رقعة، كفّ كفّه عن المال زاهداً فيه حتى أمّلق أهله.

رأى يوماً صبيّة تمشي في السّوق والريح يلقبها لضعفها، فقال: من يعرف
هذه؟ فقال ابنه عبدُ الله: هذه إحدى بناتك. قال: أيّ بناتي؟ قال: بنت عبد
الله بن عمر. قال: فما بلغ بها ما أرى؟ قال: إمساكك ما عندك. قال: إمساكي

ما عندي يمنعك أن تطلب لبناتك ما يطلب الناس؟ أما والله ما لك عندي، إلا سَهَمَك مع المسلمين وَسِعَكَ أو عَجَزَ عَنْكَ، بيني وبينكم كتاب الله!

عَفَّ عن الدنيا وقد تزخرفتُ مُمَكِنَةً وعافها وقد قدرَ مُحَكَّم في الناس يقضي بينهم بِمُحَكَّم الآيِ وَمَنْصُوص السُّورِ حَدَّثت عنه مثل ما تحدثت عن كرم الأغصان حَلْواء الثمرِ

وفي أفراد البخاري أنه قسم مُرُوطاً بين نساء المدينة فبقي منها مِرْطٌ جيد فقال له بعض من عنده: يا أمير المؤمنين أعط هذا المِرْط ابنة رسول الله ﷺ الذي عندك، يريدون أم كلثوم بنت علي. قال: أم سَلِيْط أحقُّ به، فإنها ممن بايع رسولَ الله ﷺ، وكانت تزفر لنا القِرْب يوم أحد.

ورآه طلحة يدخل بيتاً، فلما أصبح دخل طلحة ذلك البيت فرأى عجوزاً عمياء مُقْعَدَةً فقال: ما صنع عندك ذلك الرجل؟ فقالت: إنه يتعاهدني منذ كذا، ويأتيني بما يُصلحني ويخرج عني الأذى. فقال طلحة: ثكلتك أمك يا طلحة! أعرثات عمر تتبّع.

وروى ثابت عن أنس قال: بينما عمر يعسّ بالمدينة، إذ مر برحبة من رحابها، فإذا هو بيت من شعّر، فدنا منه، فسمع أنين امرأة ورأى رجلاً قاعداً، فدنا منه فسلم عليه ثم قال: من الرجل؟ فقال: رجل من أهل البادية جئت إلى أمير المؤمنين أصيب من فضله. قال: فما هذا الصوت في هذا البيت؟ قال امرأة تمخض. قال: هل عندها أحد؟ قال: لا. فانطلق حتى أتى منزله فقال لامرأته أم كلثوم بنت علي: هل لك في أجر ساقه الله إليك؟ قالت: وما هو؟ قال: امرأة غريبة تمخض ليس عندها أحد. قالت: نعم إن شئت. قال: فخذني ما يصلح المرأة لولادتها من الخرق والدُّهن، وجيئيني ببرمة وشحم وحبوب. فجاءت به فقال: انطلقني. وحمل البرمة ومشت خلفه حتى انتهى إلى البيت فقال لها: ادخلي إلى المرأة، وجاء حتى قعد إلى الرجل فقال له: أوقد لي ناراً. ففعل فأوقد تحت البرمة حتى أنضجها وولدت المرأة،

فَقَالَتْ امْرَأَتُهُ: يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ بَشِّرْ صَاحِبَكَ بِغَلَامٍ. فَلَمَّا سَمِعَ الرَّجُلُ بِأَمِيرِ
 الْمُؤْمِنِينَ هَابَهُ فَجَعَلَ يَتَنَحَّى عَنْهُ، فَقَالَ: مَكَانَكَ كَمَا أَنْتَ. فَحَمَلَ الْبُرْمَةَ عَمْرُ
 رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، فَوَضَعَهَا عَلَى الْبَابِ، ثُمَّ قَالَ أَشْبِعِيهَا. فَفَعَلَتْ، ثُمَّ أَخْرَجَتْ
 الْبُرْمَةَ فَوَضَعَتْهَا عَلَى الْبَابِ، فَقَامَ عَمْرُ فَأَخَذَهَا فَوَضَعَهَا بَيْنَ يَدَيْ الرَّجُلِ فَقَالَ:
 كُلْ وَيَحْكُ فَإِنَّكَ قَدْ سَهَرْتَ مِنَ اللَّيْلِ. فَفَعَلَ ثُمَّ قَالَ لَامْرَأَتِهِ: أَخْرِجِي. وَقَالَ
 الرَّجُلُ: إِذَا كَانَ غَدًا فَائْتِنَا نَأْمُرُ لَكَ بِمَا يَصْلِحُكَ. فَفَعَلَ الرَّجُلُ فَأَجَازَهُ وَأَعْطَاهُ.

وكان يقول: لو مات جدِّي بطفِّ الفُرَاتِ لخشيتُ أن يحاسبَ اللهَ بهِ عُمُرِ.

وكان في وجهه خطان أسودان مثل الشَّرَاكِ مِنَ الْبُكَاءِ. وكان يَمِرُّ بِالآيَةِ مِنْ
 وَرْدِهِ بِاللَّيْلِ، فَيَبْكِي حَتَّى يَسْقُطَ وَيَبْقَى فِي الْبَيْتِ، حَتَّى يُعَادَ لِلْمَرَضِ. وكان
 يصوم الدهر.

قالت عائشة رضي الله عنها: إذا شئتم أن يطيب المجلس فعليكم بذكر عمر
 ابن الخطاب رضي الله عنه.

وَطَرِيفٌ مِنَ الْمَنِيِّ وَتِلَادٌ	كُلُّ يَوْمٍ مَجْدٌ وَفَخْرٌ يَشَادُ
عَجَزَتْ عَنْ طِلَابِهَا الْحُسَّادُ	وَكِرَامٌ مِنَ الْمَسَاعِي حِسَانٌ
عَزَمَاتٍ لِلنَّارِ فِيهَا اتِقَادُ	هَمَمٌ دُونَهَا الْكُوكُوبُ تَلَوُ
فَلرَأَى الْفَسَارُوقَ فِيهِ زِنَادُ	كَلِمًا قِيلَ دَجَى لَيْلُ خَطْبُ
ضَمَّ أَبْكَارَهَا إِلَيْهِ الْوِلَادُ	مُعْرَمٌ بِالْمَكَارِمِ اِكْلَعُرَّ لَمَّا
نَ وَقَدْ قَيَّدَ الْعِيُونَ الرِّقَادُ	سَاهَرُ الْعَيْنِ بِالْعِزَائِمِ يَقْظَا
مَدْحُنَا مِنْ صِفَاتِهِ يَسْتَفَادُ	قَدْ كَفَّتْهُ الْمُنَاقِبُ الْمَدْحَ إِلَّا

ما زال الإسلام قرير العين ما دام مفتوح العين. كان يقول: والله لئن بقيتُ
 ليأتين الراعي بجبل صنعاء حَظَّهُ من هذا المال، وهو يرعى مكانه.

أَعْدَى الْجَهَامَ جُودَهَا فَهَتَّنَا	وَقَبْضُ الْمَحَلِّ بِيَسْطِ رَاحِهِ
مَا سَطَّرَ الْمَجْدُ لَهُ وَدَوَّنَا	أَوْصَافَهُ تُمْلِي عَلَى مُدَّاحِهِ

إِذَا رَوَّاهَا الدَّهْرُ فِي آيَاتِهِ طَرَّبَ إِعْجَاباً بِهَا وَلَحْنًا
وَإِنْ بِهَا وَرَقَاءَ لَيْلٍ غَرَّدَتْ مَدًّا إِلَيْهَا كُلُّ غُصْنٍ فَنَّنَا
كَانَ عَمْرٌ بَعْدَ أَعْمَالِهِ الْجَمِيلَةِ يَقُولُ عِنْدَ مَوْتِهِ: الْوَيْلَ لِعَمْرٍ، إِنْ لَمْ يَغْفِرَ اللَّهُ
لَهُ!

وفي الصحيحين أنه لما توفي قال عليّ عليه السلام: ما خلفت أحداً أحبّ إليّ
أن ألقى الله بمثل عمله منك يا عمر.

الكلام على قوله تعالى

﴿وجوه يومئذ ناعمة﴾^(١)

كانت أقدامهم في الدجى قائمة، وعيونهم ساهرة لا نائمة، وقلوبهم على
الطاعات عازمة، وهذه أفعال النفوس الحازمة، فوجب لهم نجاة قطعية جازمة
﴿وجوه يومئذ ناعمة﴾.

وجوه طال ما غسلتها الدموع، وجوه طال ما أذلها الخشوع، وجوه أظهر
عليها للإصفرار الجوع، خاطرت في المهالك فأصبحت سالمة ﴿وجوه يومئذ
ناعمة﴾.

وجوه أذعنّت إذ عنّت ولذّت، وجوه ألفت السجودَ فما ملّت، وجوه
توجهت إلينا وعن غيرنا تولّت، وزالت عنها فترة الهجر وتجلّت، فحلت غائمة.

سهرهم إلى الصبّاح قد أثر في الوجوه الصّبّاح، واقتناعهم بالخبز القفّاز والماء
القراح، قد عمل في الأجسام والأشباح، وخوفهم من اجتراح الجناح قد صيرهم
كمقصّوص الجناح، وعلى الحقيقة فكل الأرواح من الخوف هائمة.

تجري دموعهم في الحدود كالمياه في الأخدود، وتعمل نار الحذر في الكبود

(١) الغاشية ٨.

فيتمنون عدم الوجود، فهم بين الركوع والسجود ونصب الأقدام القائمة.
يتفكرون في السابقة، ويحذرون من اللاحقة وكأنهم يتقون صاعقة، أو كأن
السيوف على أعناقهم بارقة، يا شدة قلقهم من الخاتمة ﴿وجوه يومئذ ناعمة﴾.
قال المفسرون: معنى قوله تعالى: ﴿ناعمة﴾ أي في نعمة وكرامة
﴿لِسَعِيهَا﴾ في الدنيا ﴿راضية﴾ المعنى أنها رضيت ثواب عملها ﴿في جنّة
عالية﴾ المنازل ﴿لا تسمع فيها لا غيبة﴾ أي كلمة لغو.
قوله تعالى: ﴿فيها عينٌ جارية﴾^(١).

طالما أطالوا البكاء في الليل، تجري دموعهم جري السيل، وتستبق في صحراء
الحدود كالخيل، وإنما يكال للعبد على قدر الكيل، فإذا دخلوا الجنة فلكل عين
جارية ﴿فيها عينٌ جارية﴾.

جنّ الليل وهم قيام، وجاء النهار وهم صيام، وتورّعوا قبل الكلام، وسلّموا
على الدنيا لدار السلام، فالبطون جائعة والأجساد عارية.

ائتروا بمئزر القنوع، وارتدّوا برداء الخشوع، واستلذوا بشراب الدموع،
ولولا صحو السهر والجوع ما بان عند الجبل هلال «يا سارية».

قوله تعالى: ﴿فيها سرٌّ مرفوعة﴾^(٢) قال ابن عباس: ألواحها من ذهب
مكّلة بالزبرجد والياقوت، مرتفعة ما لم يجيء أهلها، فإذا أراد صاحبها أن
يجلس عليها تواضعت له حتى يجلس عليها، ثم ترفع.

وفي حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه عن النبي ﷺ في قوله تعالى:
﴿وفُرشٌ مرفوعة﴾^(٢) قال: والذي نفسي بيده إن ارتفاعها كما بين السماء
والأرض^(٢).

قوله تعالى: ﴿وأكواب موضوعة﴾^(٢) وهي الأباريق التي لا عرى لها،

(٢) الآيات من سورة الغاشية ١٣ - ١٤.

(١) الغاشية ١٢.

موضوعة عندهم وإنما كانت بلا عَرَى، لأن العُرْوَة تردّ الشاربَ من جهتها، وإنما تراد العُرْوَة لِيُمْسِكَ بها الإِناء. وقد قال أبو أمامة: إن الرجل لِيَشْتَهِي الشراب فيجىء الإِناء، فيقع في يده فيشرب ثم يعود مكانه. ثم هناك أباريق بعُرَى فقد جمع الشيطان لهم.

قوله تعالى: ﴿وَنَمَارِقُ مَصْفُوفَةٌ﴾ وهي الوسائد واحدها ونُمرِّقَةٌ بضم النون والراء ونُمرِّقَةٌ بكسرها. ﴿مَصْفُوفَةٌ﴾ بعضها إلى جنب بعض ﴿وَزَرَائِبِيَّ﴾ وهي الطَّنَافِسُ لها خَمَلٌ رقيق ﴿مَبْنُوثَةٌ﴾ (١) كثيرة متفرقة.

يا غافلاً عن هذه الدار، يا راضياً عن الصفا بالأكدار، البدار البدار، سابق وقوع الموت قبل فوت الاقتدار، ويحك أما ترى سلب الجار، أما يَشُوقُكَ مدح الأبرار، أما تخاف الشين، أما تحذر العار، إلى كم هذا الجهل والنقار، ما هذا التقاعد وألمحِّقْ قد سار، إن طوفان الملاك قد دار حول الدار، وإن خيرات الأسحار إذا رآها الطرف حار، يا سكران الهوى قد قتل الخمار، يا بصيراً هو أعمى ﴿فإنها لا تَعْمَى الأبصار﴾ (٢).

روى ابن عمر رضي الله عنهما عن النبي ﷺ أنه قال: «إن أدنى أهل الجنة منزلةً لمن ينظر في ملكه ألفي سنة، وإن أفضلهم لمن ينظر في وجه الله عز وجل كل يوم مرتين».

قال المفسرون: لما نعت الله عز وجل الجنة وما فيها عجب الكفار من ذلك، فذكّرهم صنعته وقدرته فقال: ﴿أَفَلَا يَنْظُرُونَ إِلَى الإِبْلِ كَيْفَ خُلِقَتْ﴾ (٣) وقال قتادة: ذكر الله عز وجل ارتفاع سُرر الجنة وفرشها فقالوا: كيف يُصعد إليها؟ فنزلت هذه الآية.

قال العلماء: إنما خص الإبل بالذكر، لأن العرب لم يروا بهيمة قط أعظم منها، ولم يشاهد الفيل منهم إلا الشاذّ، ولأنها كانت أنفَسَ أمواهم وأكثرها لا

(١) الآيات من سورة الغاشية ١٥ - ١٦. (٢) الغاشية ١٧.

(٣) الحج ٤٦.

تفارقهم، فيلاحظون فيها العبر الدالة على قدرة الخالق من عجائب خلقها، وهي على عظمها مذللة للحمل الثقيل، وتنقاد للصبي الصغير، وليس في ذوات الأربع ما يحمل وقره، وهو باريك فيطبق النهوض به سواها.

يا مقيماً قد حان سفره، يامن عساكر الموتى تنتظره، سيغزل الصحة السقم، وسيغلب الوجود العدم، الساعات مراحل والموت ساحل، البدار قبل فواته، اجمع الزاد قبل شتاته:

إذا كنت أعلم علماً يقيناً بأن جميع حياتي كساعة
فلم لا أكون ضنيناً بها وأجعلها في صلاح وطاعة

كم أخلى الموت داراً، كم ترك المعمور قفاراً، كم أوقد من الأسف ناراً، كم أذاق الغصص المرّة مراراً، لقد جال يمينا ويساراً، فما حابى فقراً ولا يساراً. أين الجيش العرمم، أين الكبير المعظم. إن الزمان يقدح في يلملم، ألحق أخيراً بمن تقدم، وبنى يسيراً ثم هدم، تبنا يرى بحر الأمل لمن تيمم فرآه سراياً فتيّم.

أين الذين على عهد الثرى وطئوا وحكموا في لذيذ العيش فاحتكموا
وملكوا الأرض من سهل إلى جبل وخولوا نِعماً ما مثلها نِعْم
لم يبق منهم على صنّ القلوب بهم إلا رسوم قُبورٍ حشوها رِمَم

ساروا إلى دار الجزاء على الأعمال، رحل القوم فاسأل الأطلال، وإنما كانت
ففتيت آجال، لا يجيبون داعياً، القوم في اشتغال، غالهم من البلى أقبج ما غال،
آلت أموالهم إلى أكف الآل، بضع الأهل بضائعهم وقفلها إلى الأقفال، وتلذذوا
بكدّ غيرهم فسئل سالباً عن شلّشال، هذا مصيركم عن قريب ما يمر على البال
﴿وتبين لكم كيف فعلنا بهم وضربنا لكم الأمثال﴾^(١)

ومُسندون تعاقروا كأس الردى ودعا بشرهم الحِمَامُ فأسرعوا
برك الزمان عليهم بجرانِه وهفت بهم ريح الخطوب الزغزغ

(١) إبراهيم: ٤٥.

وَعَظُوا بِمِيزَانِ اللَّيْلِ فَاسْمَعُوا
 فَلَمَنْ تُعَدَّ كَرِيمَةً أَوْ تَجْمَعُ
 وَيُظَلُّ يَحْفَظْهُنَّ وَهُوَ مُضَيِّعُ
 مُلْقَى لَهُ بَطْنُ الصَّفَائِحِ مَضْجَعُ
 مِنْ كَأْسِهِ أضعافَ مَا يَتَجَرَّعُ
 خُرسٌ إِذَا نَادَيْتَ إِلَّا أَنَّهُمْ
 وَالدهرُ يَفْتِكُ بِالنَّفوسِ حِمَامَهُ
 عَجَباً لِمَنْ يُبْقِي ذَخَائِرَ مَالِهِ
 وَلِغَافِلٍ وَيَرَى بِكُلِّ ثَنِيَّةٍ
 أترَاهُ يَحْسِبُ أَنَّهُمْ مَا أَسْأَرُوا

كَأَنكُمْ بِالْأُمُورِ الْفُطَيْعَةَ قَدْ حَلَّتْ، وَبِالدُّنْيَا الَّتِي تَوَلَّتْ قَدْ تَوَلَّتْ، وَبِالنَّفْسِ
 الْعَزِيزَةِ عِنْدَ الْمَوْتِ قَدْ ذَلَّتْ، وَيَجَاءُكُمْ أَخْطَاتٌ وَكُمْ قَدْ زَلَّتْ، مَتَى يُقَالُ لِهَذِهِ
 الْعَمْرَةِ الَّتِي قَدْ جَلَّتْ قَدْ تَجَلَّتْ، عَجَباً لِنَفْسٍ كَلِمَا عَقَدْنَا نَفْعَهَا حَلَّتْ.

أَوْجَزَ الدَّهْرُ فِي الْعِظَاتِ إِلَى
 مَنْطِقٍ لَيْسَ بِالنَّثِيرِ وَلَا الشُّعْرِ
 وَعَدْتَنَا الْأَيَّامُ كُلَّ عَجِيبٍ
 وَاللَّيَالِي هَوَازِي ۚ رَاجِعَاتٍ
 أَوْعَزَ الدَّهْرُ بِالنَّفْسِ إِلَى النَّاسِ
 أَعْرَضُوا عَنِ مَدَائِحِ وَتَهَانِ
 أَنْ جَعَلَ الصَّمْتَ غَايَةَ الْإِيحَازِ
 ر وَلَا فِي طَرَائِقِ الرَّجَّازِ
 وَتَكُونُ الْوَعُودُ بِالْإِيحَازِ
 فِي أَبِي جَادِهَا وَفِي هَوَازِ
 فَوَاهِأَ لَذَلِكَ الْإِيحَازِ
 فَالْمَرَاثِي أَوْلَى بِكُمْ وَالتَّعَازِي

أَحْضَرُوا قُلُوبَكُمْ لِلنَّصِيحِ وَالتَّوَاصِي، وَاحْذَرُوا يَوْمَ الْأَخْذِ بِالنَّوَاصِي،
 تَذَكَّرُوا جَمْعَ الدَّانِي وَالْقَاصِي، أَسْمَعْتَ يَا مَنْ يَرُوحُ فِي الْمَعَاصِي وَيُبْكَرُ ﴿فَذَكَّرْ﴾
 إِنَّمَا أَنْتَ مَذَكَّرٌ ﴿١﴾.

وَاعْجَباً كَيْفَ نَحَدَّثُ السَّكْرَى وَقَدْ مَلَأْتَهُمُ الْغَفْلَةَ، سَكْرَى مَا يَعْقِلُونَ إِلَّا
 بِطَارِقِ النَّكْرَا، وَكُمْ تُلِي عَلَيْهِمُ الْوَعْظُ ذَكْرَى، هِيَهَاتَ إِنَّمَا تَنْفَعُ الذَّكْرَى
 الْمَتَذَكَّرَ.

أَيُّهَا النَّصِيحُ، أَتَرَى الْمَنْصُوحَ أَصَمَّ، بَيْنَ لَهُ قُبْحٌ مَا قَدْ جَمَعَ وَضَمَّ، فَإِنَّ أَفْعَالَه
 جَمِيعُهَا تَوْجِبُ الذَّمَّ، وَمَتَى رَأَيْتَ النِّسْيَانَ لِلْعَوَاقِبِ قَدْ عَمَّ، يَا مَنْ يَرَى هَوَاهُ

(١) الغاشية ٢١.

الحاضر وينسى مولاه الناظر، ولا ناصر له إلا الأخير ناصر، علينا أن نقول
تثبتت وفكر، كأنك بمذل القوي ومفقر الغني، وموقظ الغبي وقاصم الفتى الفتي،
وما يأتي في زي متنكر.

كم أجرى الموتُ دمعاً وابلاً ورذاذاً، كم قطع البلاء صحيحاً، فجعله جُذاذاً،
كم من متجبر أذله فلم يجد منه معاذاً، أتعرف صحة هذا أم تنكر.

كم موعوظ زجر فارعوى، كم فاسدٍ وبيع فاستوى، كم مستقيم بالوعظ بعد ما
التوى، عادوا إلى الزلل بموافقة الهوى، والمحنة أن الهوى يعكّر ﴿فذكر إنما
أنت مذكر﴾.

وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم.

المجلس الثلاثون

في فضائل عثمان بن عفان

الحمد لله الذي لم يزلّ قديماً دائماً، وخبيراً بالأسرار عالماً، قرّب من شاء فجعله صائئاً قائماً، وطرد من شاء فصار في بيّداء الضلال هائماً، يفعل ما يريد وإن يأتى العبد راغماً، ويقبل توبة التائب إذا أمسى نادماً، أحده حمداً من التقصير سالماً، وأصلي على رسوله محمد الذي سافر إلى قاب قوسين، ثم عاد غانماً، وعلى صاحبه أبي بكر الذي لم يزلّ رفيقاً ملائماً، وعلى عمر الذي يعبد ربه مُسيراً كامماً، وعلى عثمان الذي قُتل مظلوماً، ولم يكن ظالماً، وفيه أنزل: ﴿أَمَّنْ هُوَ قَانَتْ آتَاءَ اللَّيْلِ سَاجِداً وَقَائِماً﴾ (١) وعلى عليّ الذي كان في العلوم بحرّاً، وفي الحروب صارماً، وعلى عمه العباس الذي لم يزل حول نصرته حائماً.

اللهم صلي على محمد، وعلى آل محمد، واجعل ذكر الآخرة لقلوبنا ملازماً، ووفّقنا للتوبة توفيقاً جازماً، وذكّرنا رحيلنا قبل أن نرى الموت هاجماً، واقبل صالحنا واغفر لمن كان آثماً.

أخبرنا هبة الله بن أحمد الحريري، أخبرنا أبو طالب العُشّاري، أنبأنا ابن سمعون، حدثنا محمد بن يونس المطرّز، حدثنا يعقوب بن إسحاق المكتّب، حدثنا يحيى بن سليمان المحاربي، حدثنا مسعر بن كدام، عن عطية، عن ابن سعيد الخدري رضي الله عنه، قال: رأيت رسول الله ﷺ من أول الليل رافعاً يديه يدعو لعثمان بن عفان. يقول: «اللهم عثمان رضيّتُ عنه فارضُ عنه». إلى أن طلع الفجر.

(١) الزمر ٩.

إعلم أن عثمان رضي الله عنه ممن تقدم إسلامه قبل أن يدخل رسول الله ﷺ دار الأرقم، فلما أسلم أخذه عمه الحكم بن أبي العاص فأوثقه رباطاً، فلما رأى صلابته في دينه تركه. وهاجر إلى أرض الحبشة الهجرتين، ومعه فيها رقية بنت رسول الله ﷺ.

حدثنا هبة الله بن محمد، أنبأنا الحسن بن علي، أخبرنا أحمد بن جعفر، أخبرنا عبد الله بن أحمد، حدثني أبي، حدثنا الحجاج، حدثنا ليث، حدثني عقيل، عن ابن شهاب، عن يحيى بن سعيد بن العاص، أن سعيد بن العاص أخبره أن عائشة زوج النبي ﷺ وعثمان حدثاه أن أبا بكر استأذن على رسول الله ﷺ وهو مضطجع على فراشه لابس مِرْطَ عائشة، فأذن لأبي بكر وهو على حاله، ففضى إليه حاجته ثم انصرف. قال: وكذا عمر. قال عثمان: ثم استأذنتُ عليه فجلس، وقال لعائشة: «اجمعي عليك ثيابك». قال: فقضيتُ إليه حاجتي، ثم انصرفت، فقالت عائشة: يا رسول الله مالي لا أراك فزعت لا لأبي بكر، ولا لعمر كما فزعت لعثمان؟ قال: إن عثمان رجل حَيٍِّ وإني خشيت إن أذنت له على تلك الحالة أن لا يبلغ إليّ في حاجته.

قال الليث: وقال جماعة من الناس: إن رسول الله ﷺ قال: «ألا نستحي ممن تستحي منه الملائكة؟».

قال أحمد: وحدثنا أبو قطن، حدثنا يونس، يعني ابن أبي إسحاق، عن أبيه، عن أبي سلمة بن عبد الرحمن، قال: أشرف عثمان من القصر وهو محصور فقال: أنشد بالله من شهد رسول الله ﷺ يوم حراء إذ اهتز الجبل فوكزه برجله ثم قال: اسكن حراء ليس عليك إلا نبي، أو صديق، أو شهيد، وأنا معه؟ فانتشد له رجال. فقال: أنشد بالله من شهد رسول الله ﷺ يوم بيعة الرضوان إذ بعثني إلى المشركين أهل مكة قال: هذه يدي وهذه يد عثمان. فبايع لي؟ فانتشد له رجال. ثم قال: أنشد بالله من شهد رسول الله ﷺ يوم قال: «من يوسّع لنا بهذا البيت في المسجد بيت له في الجنة؟» فابتعته من

مالي فوسّعت به المسجد؟ فانتشد له رجال. قال: وأنشد بالله من شهد رسول الله ﷺ يوم جيش العُسرة قال: من ينفق اليوم نفقة متقبّلة؟ فجهزت نصف الجيش من مالي؟ قال: فانتشد له رجال. قال: وأنشد بالله من شهد بئر رومة يباع ماؤها لابن السبيل فابتعتها من مالي وأباحتها ابن السبيل؟ فانتشد له رجال.

وقال عبد الرحمن بن سمرة: جاء عثمان بألف دينار في ثوبه حين جهز النبي ﷺ جيش العُسرة فصبّها في حجر النبي ﷺ فجعل يقبلها ويقول: « ما ضرَّ عثمان ما فعل بعد هذا ».

وقال عبد الرحمن بن حَبّاب: شهدت رسول الله ﷺ حثَّ عليّ جيش العسرة، فقام عثمان فقال: يا رسول الله عليّ مائة بعير بأحلاسها وأقتابها في سبيل الله. ثم حثَّ عليّ الجيش، فقام عثمان فقال: يا رسول الله ﷺ عليّ مائة بعير بأحلاسها وأقتابها في سبيل الله. قال: ثم حضَّ رسول الله ﷺ عليّ الجيش، فقام عثمان فقال: يا رسول الله عليّ مائة بعير بأحلاسها وأقتابها في سبيل الله. قال عبد الرحمن: فأنا رأيت رسول الله ﷺ على المنبر، وهو يقول: ما على عثمان ما عمل بعد اليوم.

وروت عائشة رضي الله عنها قالت: كنت عند النبي ﷺ فقال: يا عائشة لو كان عندنا من يحدثنا؟ فقلت: ألا أبعث إلى أبي بكر؟ فسكت ثم قال: لو كان عندنا من يحدثنا فقلت: ألا أبعث إلى عمر؟ فسكت ثم دعا وصيفاً بين يديه فسارّه فذهب قالت: فإذا عثمان يستأذن فأذن له فدخل. فناجاه النبي ﷺ طويلاً ثم قال: يا عثمان إن الله عز وجل مقمّصك بقميص، فإن أراد المنافقون عليّ أن تخلعه فلا تخلعه لهم ولا كرامة. يقولها له مرتين أو ثلاثاً.

وقال مطرف: لقيتُ عليّاً فقال لي: يا أبا عبد الله ما أبطأ بك عنا؟ أحبّ عثمان؟ أمّا إن قلت ذلك، لقد كان أوصلنا للرحم وأنقانا للرب تعالي.

وقال الحسن: رأيت عثمان بن عفان يقبل في المسجد، وهو يومئذ خليفة ويقوم وأثر الحصى بجنبه فنقول: هذا أمير المؤمنين هذا أمير المؤمنين.

قال شَرَحْبِيل بن مسلم: كان عثمان يطعم الناس طعام الإمارة، ويدخل بيته فيأكل الخَلَّ والزيت.

وقال ابن سيرين: قالت امرأة عثمان حين أطافوا به يريدون قتله: إن تقتلوه، أو تتركوه فإنه كان يحيى الليل في ركعة يجتمع فيها القرآن!

وقال ابن عمر: جاء عليٌّ إلى عثمان يوم الدار، وقد أغلق الباب ومعه الحسن بن علي وعليه سلاحه فقال للحسن: ادخل إلى أمير المؤمنين وأقرئه السلام وقل له: إنما جئت لنصرتك فمُرني بأمرك. فدخل الحسن، ثم خرج فقال لأبيه: إن أمير المؤمنين يقرئك السلام ويقول لك: لا حاجة لي في قتال واهزاق الدماء. قال: فنزع عليّ عمامةً سوداء فرمى بها بين يدي الباب وجعل ينادي: ﴿ذَلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ، وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي كَيْدَ الْخَائِنِينَ﴾ (١).

وكان عليّ رضي الله عنه يقول: إني لأرجو أن أكون أنا وعثمان ممن قال الله عز وجل [فيهم] ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غِلٍّ﴾ (٢).

رأى الرسول في منامه ليلة قتلته وهو يقول: أفطر عندنا الليلة. فأصبح صائماً، فلما دخلوا عليه ضربه رجل بالسيف، فقطع يده فقال: أما والله لأول كُفَّ خَطَّتِ الْمُفْصَلِ.

وَأَكْفُ الزَّجْرِ بِالْوَعْظِ كَفَّتْ	شَفَّتِ الْعَبْرَةَ بِالنُّطْقِ شَفَّتْ
وَرَأَيْنَا غَدْرَهَا إِذَا مَا وَفَّتْ	قَدْ رَأَيْنَا فِي الدُّنَا مِنْ عَاهَدَتْ
قَدْ صَفَا يَا وَيْحَهَا مَا أَنْصَفَتْ	إِنْ صَفَّتْ عَادَتْ بِتَكْدِيرِ الَّذِي
أَخْلَفَتْ إِلَّا بَأْنَ قَدْ أَخْلَفَتْ	حَلَفَتْ أَنْ تُخْلِفَ الْمَاضِي وَمَا
ثُمَّ غَالَتْ وَقَفَّتْ فِيمَا قَفَّتْ	وَقَفَّتْ لَهُوَ النَّفْسِ سَاعَةً
بَلْ عَجِبْنَا مِنْ نَفْسٍ عَرَفَتْ	مَا عَجِبْنَا مِنْ مَكْرٍ مَكْرَهَا

(٢) الحجر ٤٧.

(١) يوسف ٥٢.

إخواني: قد أعذرتُ إليكم الأيام بمن سلب من الأنام، وأيقظت الخطوب من غفلٍ ونام، وما على المنذرِ قبل الأخذ ملام، أما علمتم أن هذه الدنيا غدارة، أما برُدٌ لذتها ينقلب حرارة، أما رُبِحها على التحقيق خسارة، أما يَنْقُص الدَّيْنُ كلما ازدادت عِمارة، لا تغرنكم فكم قد غرت سَيَّارة، أما قتلتُ أحبَّها وإليك الإشارة، إذا قال حبيبها: إنها لي ومعِي. قتلته وقالت: اسمعي يا جارة، بيِّنا نورها قد لاح وسنح ومحبَّها في بحرِها قد سبح، يسعى في جمعها على أقدام المرح، كلما جاء باباً من أبوابها فُتِح، وكلما عانى أمراً من أمورِها صلح، وكلما لاحت له رياض غياضها مَرِح، فبيِّنا هو في لذاته يُدير القَدَح، قُدَح زناد العَمِّ في حراق الفرح، فمن يستدرِك ما فات، ومن يداوي ما جَرِح، ما نفعه أن نزح الجفنَ دمعَه إذا نزح.

لو رأيتَه وقتَ التلف شاخصاً، وفي سكرات الأسف غائصاً، وقد عاد ظل الأمل قاصفاً، ولون السرور حائلاً ناقصاً، ولاح صائد المَنُون لطريدته قانصاً، يتمنى وقد فات الوقت، وينظر إلى نفسه بعين المقت، ويصيح إلى نصيحه: قد صدقت، أمَل فخانهُ الأمل، وندم على الزاد لَمَّا رحل، فلو حمَل حَبلاً ما حمل.

تمنَّت أحوالِبَ الرِّعَاءِ وَحَيْمَةً بَنَجِدِ فَلَمْ يُقَدِّرْ لَهَا مَا تَمَنَّتِ
إِذَا ذَكَرَتْ نَجْدًا وَطَيْبَ تَرَابِهِ وَبَرَدَ حِصَاةِ آخِرِ اللَّيْلِ حَنَّتِ

رُبَّ يومٍ معدود ليس في العدد، رحل الإخوان ومرؤوا على جدِّد، هذه ديارهم سلَّوها ما بقي أحد، مضت والله والخيل بفرسانها، وتهدمت الحصون على سُكَّانها، وخلَّت ديار القوم من قُطَّانها، فجَزَّ عليها واعتبر بشأنها.

يا خِليِّي أَسْعِدْني على الوج بِدِ فَقَدْ يُسْعِدُ الحَمِيمَ الحَمِيمُ
وَقِفْني على الديار فعندي مُقْعِدُ مَنْ سَأَلَهَا وَمُقِيمُ

تنبه لنفسك أيها المظلوم، تيقظ من رقداتك فإلى كم نوم، حصَّل شيئاً تُرضي به الخصوم، قتلك همُّ الدنيا فبئس الهموم، أتَلعب بالأبتر ولم تشرب

دِرْيَاقَ السُّمُومِ، قد بقي القليل فبادر تحصيل المَرُومِ، هذا هاجم الموت قد
تهيأ للهجوم.

يا فَنِيَّ الهمَّ مع كِبَرِهِ وقليل الحظ من عُمُرِهِ
كن مع الدنيا على حَذَرٍ فأمانُ المرء في حَذَرِهِ
واتخذ زاداً لمنتظَرٍ شأنه إزعاجُ منتظِرِهِ

أتجتلي من الهوى كلَّ يوم عروسا، وتدير في مجالس الغفلة كؤوسا، وتملاً
بالأموال كيساً كَبِيساً، وتنسى يوماً شديداً عُبُوساً، كم تلقى فيه هولاً وكم
ترى بؤسا تخشع فيه الأبصار وقد كانت شُوسا وينزعج لزلزله إبراهيم
وموسى، والخلائق للفرع قد نكسوا رؤوسا، وجاءوا عُرَاةً لا يملكون ملبُوساً،
وصار كل لسان منطلقٍ محبوسا، يا من تصير غداً في التراب مرموسا، يا من
لا يجد في لحده غير عمله أنيساً، يا من سيعود عُوده بعد التثني بيبساً، يا
مؤثراً رَذِيلاً ومضيعاً نفيساً، من لك إذا أوقد الموت في الدار وطيّسا، وأخلى
رَبْعاً قد كان يجمعك مأنوسا، فالبِدَارُ البدار لقد رحل لك عيساً، وتب
فالتوبة تطرد الشيطان، وما يلبث الدجال مع عيسى.

أفقُ وابك حانتُ كَبْرَةً ومَشِيبُ أمّا للتَّقَى والحقّ فيك نصيبُ
أيا من له في باطن الأرضِ مَنْزَلٌ أتأنس بالدنيا وأنت غريبُ
وما الدهرُ إلا مرٌّ يومٍ وليلَةٌ وما الموتُ إلا نازلٌ وقريبُ

الكلام على قوله تعالى

﴿والله يدعو إلى دار السلام﴾ (١)

دار السلام هي الجنة، وفي تسميتها بذلك أربعة أقوال:
أحدها: أن السلام هو الله، وهي داره، قاله ابن عباس والحسن وقتادة.

(١) يونس ٢٥

والثاني: أنها دار السلامة التي لا تنقطع. قاله الزجاج.

والثالث: أن تحية أهلها فيها السلام. ذكره أبو سليمان الدمشقي.

والرابع: أن جميع حالاتها مقرونة بالسلام، ففي ابتداء دخولهم: ﴿ادخلوها بسلام﴾^(١) وحين استقرارهم: ﴿والملائكة يَدْخُلُونَ عَلَيْهِمْ مِنْ كُلِّ بَابٍ سَلَامٌ﴾^(٢) وكذلك قوله. ﴿إِلَّا قِيلاً سَلَاماً سَلَاماً﴾^(٣). وعندئذ رؤية ربهم عز وجل: ﴿تَحِيَّتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُ سَلَامٌ﴾^(٤).

عزت الدار وجلّ المرام، ونال ساكنها فوق المرام، فيا مشغولاً عنها بأضغاث أحلام، وصل كتاب الملك العلام ﴿والله يَدْعُو إِلَى دَارِ السَّلَامِ﴾.

دار الإعزاز والإكرام، بُنيت لقوم كرام، لا غُرْم فيها ولا غَرَام، ما يسكنها من يُضَام، ثمنها يا مشتري بين: صلاة وصيام، نعيمها في دوام لذاتها في تمام، والخور في القصور والخيام، شهواتها لم تَحْطُر على الأوهام، انتبهوا لطلبها يا نيام، قد جمعت كلَّ مشتَهَى وزادت على كل الغرض المنتَهَى، عجباً لمن غفل عنها وسها، انهض لها يا غلام ﴿والله يَدْعُو إِلَى دَارِ السَّلَامِ﴾.

أما آن يا صاح أن تَسْتَفِيحَا
وقد ضَحِكَ الشَّيْبُ فاحزن له
وركب أتاهم وقد عرَّسوا
يُدِير عليهم كؤوس المنون
وما زال فيهم غراب الحِمَام
ويَحْجِل في عَرَصات القصور
ألا فازجر النفس عن غِيَّهَا
ودُونَ الصراط لنا موقِفٌ
فَتُبْصِر ما شيت كَفَا يُعْضُ

وَأَنْ تَأْتِينَ الحِمَى والعَقِيحَا
وصار مساؤك فيه شُرُوقَا
على القاع راعي المنايا طُرُوقَا
صَبُوحاً على كرهها، أو غَبُوقَا
يُسْمِعُهُم للمنايا نَعِيحَا
حتى أعادَ الفَسِيحَاءَ ضِيْقَا
تَجُوزُ إِلَيَّ الصراطَ الدَقِيْقَا
به يتناسى الصديقُ الصديقَا
وعينا تسحَّ وقلباً حَفُوقَا

(٣) الواقعة ٢٦.

(٤) الأحزاب ٤٤.

(١) الحجر ٤٦.

(٢) الرعد ٢٣، ٢٤.

إِذَا طَبَّقَتْ فَوْقَهُمْ لَمْ تَكُنْ
 شَرَابُهُمُ الْمُهْلُ فِي قَعْرِهَا
 أَذَلِكَ خَيْرٌ أَمْ الْقَاصِرَاتُ
 قُضِرْنَ عَلَى حُبِّ أَزْوَاجِهِنَّ
 وَيَرْفَلْنَ فِي سِرْقَاتِ الْحَرِيرِ
 وَأَكْوَابِهِمْ ذَهَبٌ أَحْمَرٌ
 إِذَا جَرَّتِ الرِّيحُ فَوْقَ الْكَثِيبِ
 وَيَوْمَ زِيَارَتِهِمْ يَرْكَبُونَ
 كَلُوا وَاشْرَبُوا فَلَقَدْ طَالَمَا
 لِيَسْمَعَ إِلَّا الْبُكَاءَ وَالشَّهيقَا
 يَقْطَعُ أَوْصَالَهُمْ وَالْعُرُوقَا
 تَخَالُ مَبَاسِمَهُنَّ الْبُرُوقَا
 مَشَاقِقَةٌ تَتَلَقَى مَشُوقَا
 فَتَبْصُرُ عَيْنَاكَ أَمْرًا أُنَيْقَا
 يَطَافُ بِهَا مُتْرَعَاتٌ رَحِيقَا
 أَثَارَتْ عَلَى الْقَوْمِ مِسْكَاً سَحِيقَا
 إِلَيْهِ مِنَ النُّورِ نُجُبَا وَنُوقَا
 أَقْمَتُمْ بَدَارَ الْغُرُورِ الْحَقُوقَا

أَخْبَرَنَا ابْنُ الْحُصَيْنِ، أَنبَأَنَا ابْنُ الْمُذْهَبِ، أَخْبَرَنَا أَحْمَدُ بْنُ جَعْفَرٍ، حَدَّثَنَا
 عَبْدُ اللَّهِ بْنُ أَحْمَدَ، حَدَّثَنِي أَبِي، حَدَّثَنَا أَبُو النَّضْرِ، حَدَّثَنَا زَهِيرٌ، عَنْ سَعْدِ
 [عَنْ] أَبِي الْمُدَّةِ أَنَّهُ سَمِعَ أَبَا هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يَقُولُ: قُلْنَا يَا رَسُولَ اللَّهِ:
 حَدَّثْنَا عَنِ الْجَنَّةِ مَا بِنَاؤُهَا؟ قَالَ: لَبِنَةٌ فِضَّةٌ وَلَبِنَةٌ ذَهَبٌ، وَمِلَاطُهَا الْمَسْكُ
 وَالْأَذْفَرُ، وَحَصْبَاؤُهَا اللَّوْلُؤُ وَالْيَاقُوتُ وَتَرَابُهَا الزَّعْفَرَانُ، مَنْ يَدْخُلُهَا يَنْعَمُ وَلَا
 يَبْأَسُ، وَيَخْلُدُ لَا يَمُوتُ، لَا تَبْلَى ثِيَابُهُ وَلَا يَفْنَى شَبَابُهُ.

وَفِي حَدِيثٍ آخَرَ أَنَّهُ ذَكَرَ الْجَنَّةَ فَقَالَ: «أَلَا مَتَشَمَّرٌ لَهَا؟ هِيَ وَرَبُّ الْكَعْبَةِ
 رِيحَانَةٌ تَهْتَزُ وَنُورٌ يَتَلَأَلُ، وَنَهْرٌ مَطْرَدٌ، وَزَوْجَةٌ لَا تَمُوتُ فِي جَبُورٍ وَنَعِيمٌ مَقَامٌ
 أَبَدًا».

قَوْلُهُ تَعَالَى ﴿وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ﴾ عَمَّ بِالْدَعْوَةِ وَخَصَّ بِالْهَدَايَةِ، إِذِ الْحَكْمُ
 فِي خَلْقِهِ.

وَفِي الصِّرَاطِ الْمُسْتَقِيمِ أَرْبَعَةٌ أَقْوَالٌ:

أَحَدُهَا: كِتَابُ اللَّهِ. رَوَاهُ عَلِيُّ بْنُ النَّبِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

وَالثَّانِي: الْإِسْلَامُ. رَوَاهُ النَّوَّاسُ بْنُ سَمْعَانَ، عَنِ النَّبِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

وَالثَّلَاثُ: الْحَقُّ قَالَهُ مُجَاهِدٌ.

والرابع: المخرج من الضلال والشبهة قاله أبو العالية.

قوله تعالى: ﴿لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾ (١) أحسنوا: عملوا بما

أمروا به

يا من لا يُحْسِنُ أَنْ يُحْسِنَ اسْمِعْ صِفَةَ الْمُحْسِنِينَ :

أقلقهم الخوف والفرق، أحرقهم لذكر الموت الأرق، طعامهم ما حضر من حلال واتفق، يا نورهم في الدجى إذا العسق، يا حسنهم وجُند الدمع محذوق بسور الحدق، انقطع سلك المدامع، فسالت على نسق، وكتبت على صحائف الخدود العذرة لا في ورق، فإن كان المداد سواداً فذا المداد يقق، يا لذة تضرعهم، ويا طيب الملق، أذاب الخوف أجسامهم فما أبقى إلا الرمق، ربحت تجارتهم ومتاع الغافل ما نفق.

وما كل من أومى إلى العز ناله ودون العلى ضرب يدمي النواصي

جرت دموع حزنهم في سواقي أسفهم، إلى رياض صفائهم فأورقت أشجاراً وصالهم، ودموعهم تجري كالديم كلما ذكروا زلة قدم، يرعون العهد والذمم، يحذرون ناراً تعيد الجسم كالجمم، يخافون حرّها ومن له بتحلة القسم، الليل قد سجنى والدمع قد سجم، يراوحون بين الجبهة والقدم، كم بينك وبينهم عند النقد تبين القيم، تالله ما جعل من نام مثل من لم ينم، جاعوا من طعام الهوى وأذاك التخم، يا قبيح العزائم يا ستيء الهمم، يا مرذول الصفات يا رديء الشيم، كأنك بك تمنى إذا حُشرت العدم، نُثرت عطايا الأسحار فبسط القوم حجور الآمال كاتبوا بالدموع فجاءهم أطف جواب، اجتمعت أحزان السر على القلب فأوقد حوله الأسف، وكان الدمع صاحب الخبر فتم.

كان عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه كثير البكاء، فما زال يبكي حتى بكى الدم. تغريب لون المداد يعجب القارئ!

هذا كتابي إليكم فيه معذرتي يُنبئكم اليوم عن سُقْمِي وعن ألمي

(١) يونس ٢٦.

أَجَلَّتْ ذِكْرُكُمْ عَنْ أَنْ يَدْنِسَهُ لَوْ أَنَّ الْمِدَادَ فَقَدَ سَطَّرْتَهُ بِدِمِّي
ولو قدرت على جفني لأجعله طرسي وأبري عظامي موضع القلم
لكان هذا قليلاً في محبتكم وما وجدت له والله من ألم

- تالله ما نال الكرامة إلا من قال للكري: مة. إن أردت لحاقهم فطلق الهوى
طلاق البتات، اخل بنفسك في بيت الفكر وخطبها بلسان النصح، واعزم على
الوفاق من غير تردد، قف على باب الصبر ساعة، وقد ركب على قفل العسر
مفتاح النجاح.

فأما الحسنى فهي الجنة. والزيادة: النظر إلى الله عز وجل.

أخبرنا أبو القاسم الحريري، أنبأنا أبو طالب العشاري، حدثنا أبو الحسين
ابن سمعون، حدثنا محمد بن مخلد، حدثنا حسين بن بحر، حدثنا عمرو بن
عاصم، حدثنا حماد بن سلمة، عن ثابت، عن عبد الرحمن بن أبي ليلى، عن
صهيب رضي الله عنه أنه قال: قال رسول الله ﷺ: ﴿لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَى
وَزِيَادَةٌ﴾ قال: إذا دخل أهل الجنة الجنة، وأهل النار النار نادى مناد: «يا أهل
الجنة إن لكم عند الله موعداً يريد أن يُنجزكموه. فيقولون: ما هو؟ ألم يُثقل
موازينا ويُبَيِّض وجوهنا وَيُجِرُّنا من النار! فيكشَف الحجاب فينظرون إلى الله
عز وجل فما شيء أعطوه أحب إليهم من النظر إليه. وهي الزيادة».

انفرد بإخراجه مسلم.

وفي الصحيحين من حديث جرير بن عبد الله أنه قال: كنا عند رسول الله
ﷺ [إذ نظر إلى القمر] ليلة البدر فقال: إنكم سترون ربكم عز وجل كما
ترون [هذا] القمر لا تضامون في رؤيته.

أخبرنا الكروخي، أخبرنا أبو عامر الأزدي وأبو بكر العورجي، قالوا:
أخبرنا الجراحي، حدثنا المحبوبي، حدثنا الترمذي، حدثنا سويد بن نصر،
أنبأنا ابن المبارك، أخبرنا مالك بن أنس، عن زيد بن أسلم، عن عطاء بن

يسار، عن أبي سعيد الخُدري رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله عز وجل يقول لأهل الجنة: يا أهل الجنة. فيقولون: لبيك ربنا وسعديك. فيقول: هل رضيتم؟ فيقولون: ما لنا لا نرضى، وقد أعطيتنا ما لم تعط أحداً من خلقك. فيقول: إني لأعطيكم أفضل من ذلك: قالوا: وأي شيء أفضل من ذلك؟ قال: أحلّ عليكم رضواني فلا أسخط عليكم أبداً.

لي إلى وجهك شوقٌ وإلى قُربك فاقه
ليس لي والله يا سُوءَ لي بهجرانك طاقه
لا ولا حَدّثت عن حبك قلبي بإفائه

سجع على قوله تعالى

﴿لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾ (١)

سبحان من اختار أقواماً للإفادة، فصارت نهمتهم في تحصيل استفادة، وما زالت بهم الرياضة حتى تركوا العادة، شغلّتهم مخاوفهم عن كل عادة، وأنالهم المقام الأسمى ﴿لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾.

كلّ منهم قد هجر مراده، وشمّر لتصحيح الإرادة، علت همهم فطلبوا الزيادة، وعاملوا محبوبهم يرجون وِدادَه، ورفعوا مكتوبَ الحزن وجعلوا الدمع مداده ﴿لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾.

رفضوا الدنيا شغلاً بالدين، وسلكوا منهاج المهتدين، وسابقوا سباق العابدين، فصاروا أئمة للمريدين وقادة ﴿لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾.

هجروا في محبته كلّ غرض، وأقبلوا على أداء المفترض، والتفتوا إلى الجوهر معرضين عن العرض، فأنحلّهم الخوفُ فصاروا كالحرص، يا له من مرض لا يقبل عيادة ﴿لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾.

(١) يونس ٢٦.

ولو رأيتهم والليل قد سَجَى، وقد أقبلوا إلى باب المرتجَى، فلم يجدوا
دون ذلك الباب مُرتجًا، حلفوا في ظلام الدجَى على هجر الوسادة ﴿للذين
أحسنوا الحسنَى وزيادة﴾ .

سبحان من أنعم عليهم وأفادهم، وأعطاهم مَنَاهم وزادهم، ما ذاك بقوتهم،
بل هو أرادهم، سبقت إرادتهم تلك الإرادة ﴿للذين أحسنوا الحسنَى
وزيادة﴾ .

لطف بهم وهداهم، وأحسن إليهم وراعاهم، وعطشوا من مياه الهوى
فسقاهم، ودلّلوا له النفوس فرقاهم إلى مقام السادة ﴿للذين أحسنوا الحسنَى
وزيادة﴾ .

أجرى لهم أجرًا لا يوازى، ووهب لهم في مفازة الخطر مفازا، وأنجز
مؤعدهم يوم اللقاء إنجازا، وجازى عباده على سابق العبادة ﴿للذين أحسنوا
الحسنَى وزيادة﴾ .

المجلس الحادي والثلاثون في فضل علي بن أبي طالب رضي الله عنه

الحمد لله الذي أصبحت له الوجوه ذليلة عانية، وحذرتة النفوس مُجِدَّة ومتوانية، وعظ فدم الدنيا الحقيمة الفانية، وشوق إلى جنة قُطوفها دانية، وخوف عطاش الهوى أن يُسَقِّوا من عين آنية، أحمده على تقويم شأنه وأستعينه من شر شانيء وشانية. وأحصل بتحقيق التوحيد إيمانيه، وأصلي على رسوله محمد صلاةً ممهدة لعزة بانية، وعلى صاحبه أبي بكر الصديق السابق في الوفاق والاتفاق، وفي الدار والغربة في الغار، أربح للفخر بانية، وله فضيلة التخلل والتقلل والرافة والخلافة، صارت ثمانية، وعلى عمر مقيم السياسة على كل نفس جانية، وعلى عثمان الذي اختاره الرسول بعد ابنته للثانية، وعلى علي المنزل فيه ﴿الذين يُنفقون أموالهم بالليل والنهار سراً وعلانية﴾^(١) وعلى عمه العباس المستسقى بشيبته، فإذا أسباب الغيث والغوث دانية.

أخبرنا أبو القاسم الكاتب، أنبأنا أبو علي التميمي، أنبأنا أبو بكر بن مالك، حدثنا عبد الله بن أحمد، حدثني أبي، حدثنا محمد بن جعفر، حدثنا شعبة، عن الحكم، عن مُصْعَب بن سعد، عن سعد بن أبي وقاص، قال: خَلَفَ رسولُ الله ﷺ عليَّ بن أبي طالب في غزوة تبوك فقال: يا رسول الله تُخَلِّفني في النساء والصبيان؟ قال: أما ترضى أن تكون مني بمنزلة هارون من موسى، غير أنه لا نبي بعدي!؟».

قال أحمد: وحدثنا قُتَيْبَة، حدثنا يعقوب بن عبد الرحمن، عن أبي حازم،

(١) البقرة ٢٧٤.

عن سهل بن سعد أن رسول الله ﷺ قال يومَ خيبر: «لأعطين هذه الراية غداً رجلاً يفتح الله على يديه يحب الله ورسوله، ويحبه الله ورسوله». قال: فبات الناس يدوكون أيهم يُعطاها، فلما أصبح الناس غدواً على رسول الله ﷺ كلهم يرجو أن يُعطاها، فقال: أين علي بن أبي طالب؟ فقيل: هو يا رسول الله يشتكي عينيه. قال فأرسلوا إليه. فأتى به، فبصق رسول الله ﷺ في عينيه ودعا له، فبرأ حتى كأن لم يكن به وجع، فأعطاه الراية فقال علي: يا رسول الله أقاتلهم حتى يكونوا مثلنا؟ فقال: «انفذ على رسلك حتى تنزل بساحتهم، ثم ادعهم إلى الإسلام وأخبرهم بما يجب عليه من حق الله، فو الله لأن يهدي الله بك رجلاً واحداً خير لك من أن يكون لك حمر النعم».

قال أحمد: وحدثنا ابن نَصِير، حدثنا الأعمش، عن عدي بن ثابت، عن زرّ بن حبّيش قال: قال عليّ: والله إنه عهد إليّ رسول الله ﷺ: أنه لا يُبغضني إلا منافق، ولا يحبني إلا مؤمن.

انفرد مسلم بإخراج هذا الحديث، واتفقا على الحديثين قبله.

اعلم أن عليّاً رضي الله عنه لا يزاحم في قُرب نسبه، وقد أقرّ الكل بعلمه وفضله.

وبعث رسول الله ﷺ، وهو ابن سبع سنين فتبعه، ولم يزل معه يكشف الكروب عن وجهه. وصعد على منكب رسول الله ﷺ فرمى صنماً.

أخبرنا هبة الله بن محمد، أنبأنا الحسن بن علي، أخبرنا أحمد بن جعفر، حدثنا عبد الله بن أحمد، حدثني أبي، حدثنا أسباط، حدثنا نعيم بن حكيم، عن أبي مريم، عن علي بن أبي طالب قال: انطلقت أنا والنبي ﷺ حتى أتينا الكعبة فقال لي: اجلس. وصعد على منكبي، فذهبتُ لانهض فلم أقدر، فرأى مني ضعفاً، فنزل وجلس إليّ نبيُّ الله ﷺ وقال: اصعد على منكبي. فصعدت على منكبه. قال: فنهض بي قال: فإنه يخيل إليّ أني لو شئت لنت أفق السماء، حتى صعدت على البيت وعليه تمثال صُفْر أو نحاس، فجعلت أزاوله عن يمينه

وشماله وبين يديه ومن خلفه، حتى إذا استمكنتُ منه قال لي رسول الله ﷺ: اقدف به. فقدفتُ به فكسر كما تنكسر القوارير، ثم نزلت، فانطلقتُ أنا ورسول الله ﷺ نستبق حتى تواريتنا بالبيوت خشيةً أن يلقانا أحدٌ من الناس.

وكان الخلق يحتاجون إلى علم عليّ حتى قال عمر رضي الله عنه: آه من مُعضلة ليس لها أبو حسن.

فلما وليّ لم يتغير عن الزهد في الدنيا، وكان أحمد بن حنبل يقول: إن عليّاً ما زانته الخلافةُ، ولكن هو زانها.

ما زانه المُلْك إذ حواه بل كلُّ شيء به يُزانُ
جرى ففات الملوک سبّقا فليس قُدامه عِنانُ
نالت يَداه ذُرَى مَعَالٍ يَعْجِز عن مثلها العِيان

أخبرنا محمد بن أبي منصور، أخبرنا جعفر بن أحمد، أخبرنا الحسن بن علي، أنبأنا أبو بكر بن مالك، حدثنا عبد الله بن أحمد، حدثني أبي، حدثنا وهيب بن إسماعيل، حدثنا محمد بن قيس، عن علي بن ربيعة، عن علي بن أبي طالب أنه جاءه ابن النّباح فقال: يا أمير المؤمنين امتلأ بيتُ المال من صفراء وبيضاء. قال: الله أكبر. قال: فقام متوكئاً على ابن النّباح حتى قام على بيت المال فقال:

هذا جنائي وخياره فيه وكل جان يَدُه إلى فيه

فأعطى جميع ما في بيت المال المسلمين وهو يقول: يا صفراء يا بيضاء غُرِّي غيري. حتى ما بقي فيه دينار، ولا درهم، ثم أمر بتّضحته وصلّى فيه ركعتين.

أخبرنا محمد بن عبد الباقي، أنبأنا الجوهري، أنبأنا ابن حَيوية، حدثنا أحمد بن معروف، حدثنا الحسين بن الفهم، حدثنا محمد بن سعد، أنبأنا الفضل بن دُكين، حدثنا الحرّ بن جُرموز، عن أبيه، قال: رأيت عليّاً وعليه

قطریتان إزار إلى نصف الساق ورداء مشمّر، ومعه درّة له يمشي بها في الأسواق يأمرهم بتقوى الله، وحسن البيع ويقول: أوفوا الكيل والميزان.

أخبرنا أبو بكر بن حبيب الصوفي، أنبأنا أبو سعيد بن أبي صادق الحبيري، حدثنا أبو عبد الله بن باكوية الشيرازي، حدثنا عبد الله بن فهد بن إبراهيم الساجي، حدثنا محمد بن زكريا، حدثنا العباس بن بكار، حدثنا عبد الواحد بن أبي عمرو الأسدي، عن الكلبي، عن أبي صالح قال: قال معاوية بن أبي سفيان لضرار بن حمزة: صف لي علياً فقال: أو تعفيني. قال: بل تصفه. فقال: أو تعفيني. قال: لا أعفيك. فقال: أما أن لا بُدّ، فإنه كان بعيد المدى شديد القوى، يقول فصلاً ويحكم عدلاً، يتفجر العلم من جوانبه وتنطق الحكمة من نواحيه، يستوحش من الدنيا وزهرتها، ويستأنس بالليل وظلمته، كان والله غزير الدمعة طويل الفكرة، يقلّب كفه ويخاطب نفسه، يُعجبه من اللباس ما حشّن ومن الطعام ما جشّب، كان والله كأحدنا يجيبنا إذا سألناه ويبتدئنا إذا أتينا، ويأتينا إذا دعوانه، ونحن والله مع تقريبه لنا وقربه منا لا نكلمه هيبَةً [له] ولا نبتديه تعظمة، فإن تبسّم فعن مثل اللؤلؤ المنظوم، يعظّم أهل الدّين ويحب المساكين، لا يطمع القويّ في باطله، ولا ييأس الضعيف في عدله، فأشهد بالله لرأيتّه في بعض مواقفه وقد أرخى الليل سجوفه وغارت نجومه، وقد مثّل في محرابه قابضاً على لحيته يتملّم تململ السليم ويبكي بكاء الحزين، وكأني أسمعوه وهو يقول: يا دنيا يا دنيا أبي تعرّضت أم بي تشوّفت؟ فيها غرّي غيري، قد بتتّك غيري، قد بتتّك ثلاثاً لا رجعة لي فيك، فعمرك قصير وعيشك حقير وخطرك كبير، آه من قلة الزاد، وبعد السفر ووحشة الطريق.

قال: فدرّفت دموع معاوية فما يملكها، وهو ينشفها بكّمته، وقد اختنق القوم بالبكاء، ثم قال معاوية: رحم الله أبا الحسن! كان والله كذلك، فكيف حزنك عليه يا ضرار؟ قال: حزن من ذبح ولدها في حجرها، فلا ترّقا عبّرتها ولا يسكن حزنها.

الكلام على البسمة

أَهْوَى عَلِيًّا وَإِيمَانٌ مَحَبَّتُهُ كَمِ مُشْرِكِ دَمُهُ مِنْ سَيْفِهِ وَكَفَا
 إِنْ كُنْتَ وَيَحْكُ لَمْ تَسْمَعْ مَنَاقِبَهُ فَاسْمَعِ مَنَاقِبَهُ مِنْ « هَلْ أَتَى » وَكَفَى
 كَانَ عَلَيْهِ السَّلَامُ خَلِيقًا بِالسِّيَادَةِ، إِنْ نَظَرْتَ فِي عِلْمِهِ فَقَدْ احْتِجَّ إِلَى
 السَّادَةِ، وَإِنْ نَظَرْتَ فِي زَهْدِهِ فَلَا فِرَاشَ وَلَا وَسَادَةَ.

وَحَنَّ إِلَى الْمُلْكِ عِنْدَ وِلَادِهِ وَصَافِحَ كَفَّاهُ النَّدَى وَهُوَ فِي الْمَهْدِ
 وَأَحْكَمَهُ التَّجْرِيْبُ كَهَلًا وَيَافِعًا يُنْقَلُهُ مِنْ شَأْوٍ مَجْدٍ إِلَى مَجْدٍ
 تَنَقَّلَ مِنْهُ رَتْبَةً بَعْدَ رَتْبَةٍ كَمَا زَادَ طَوْلَ الرُّمْحِ عَقْدًا عَلَ عَقْدٍ
 وَلَمْ يَرِ إِلَّا الْكَدَّ رَاحَةً نَفْسِهِ وَنَيْلَ الْمَنَى يُنْسِي الْفَتَى تَعَبَ الْكَدِّ
 إِذَا لَاحِظَ الْغَايَاتِ عَادَتْ فَرِيْسَةً مَقِيْدَةً مِنْ نَاضِرِ الْأَسَدِ الْوَرْدِ
 كَانَ يُشْبَهُ الْقَمَرَ الزَّاهِرَ وَالْبَحْرَ الزَّاخِرَ، وَالْأَسَدَ الْحَادِرَ وَالرَّبِيْعَ الْبَاكِرَ، أَشْبَهَ
 مِنَ الْقَمَرِ ضَوْؤَهُ وَبِهَاءَهُ، وَمِنَ الْغُرَابِ حَذْرَهُ، وَمِنَ الدِّيَكِ سَخَاءَهُ، وَمِنَ الْأَسَدِ
 شَجَاعَتَهُ وَمِضَاءَهُ، وَمِنَ الرَّبِيْعِ خِصْبَهُ وَمَاءَهُ.

لَأَلَاؤُهُ وَمِضْضَاؤُهُ وَغَنَاؤُهُ فِي كُلِّ مَشْهَدٍ
 فَمَتَى رَأَى زَلَلًا أَقْبَا لَ وَإِنْ رَأَى خَلَلًا تَعَمَّ دُ
 وَيَخَافُهُ الْقَوْمَ الْبَرَا ءُ وَلَا أَخَافَ وَلَا تَهْدَدُ
 لَكِنَّهُ لَبَسَ الْمَهَا بَةً فَالْفَرَائِصُ مِنْهُ تَرْعَدُ
 وَإِذَا ارْتَمَى فَكَمَنْ رَأَى وَإِذَا سَهَا فَكَمَنْ تَفَقَّدُ
 وَإِذَا تَأَمَّلَ أَمْرَهُ فَهُوَ الشَّهَابُ إِذَا تَوَقَّدُ
 هَذَا لَعَمْرُكَ سُودِد لَكِنَّهُ أَيْضًا مَوْكَدُ

كَلَنْ يُظَنُّ فِي الْكُرْمِ بَحْرًا وَيُحْسَبُ لَفْظُهُ لِلْحُسْنِ سِحْرًا، إِذَا أَنْشَأَ فَصَلًّا
 رَأَيْتَهُ يَقُولُ فَصَلًّا، وَإِذَا أَصَلَ أَصَلِي، لَمْ يَسْتَطِعْ أَحَدٌ مِثْلَهُ أَصَلًّا، كَانَ يَقُولُ فِي
 صِفَةِ نَفْسِهِ :

إذا المشكلاتُ تصدّين لي
وإن رقيتُ في محلّ الصواب
مُفَنّعة بغيوب الأمور
لسانُ كَشْفِشَقِيّة الأرحبيّ

كشفتُ حقائقها بالنظرِ
عمياء لا يجليها البصرُ
وضعتُ عليها صحيح الفكرِ
أو كلسان الحُسام الذكّرُ

بادر الفضائل، فكان في الأوائل، وخاض بحر الشجاعة فلم يرض بساحل،
وحاز العلوم، فحار لجوابه السائل، ولازم السهر لسمع: «هل من سائل»
وزهد في الدنيا لأنها أيام قلائل.

القائد الخيلَ تُرغيتها شكائتها
مابات إلا على همّ ولا اغتمضت
خطيب مَجْمَعَةٍ تغلي شقاشقه
يدوق بالعين طعمَ النوم مَضْمُضَةً

والمطعمِ البزلَ بالديمومة القاع
عيناه إلا على عزمٍ وإزماع
إذا رمّوه بأبصارٍ وأسماع
إذا الجبان ملا عيناً بتَهْجَاعِ

سبحان من جمع له المناقب والفضائل، بحر من البراعة، ونجم من الشجاعة
ثاقب.

مجّلي الكروبِ وليث الحروب
وبحر العلوم وغيظ الخصوم
يقلّب في فمه مِقْوَلًا
وكان أخاً لنبيّ الهُدَى

في الرّهج الأسطع الأصبهب
متى يصطرع وهم يغلب
كشْفِشَقِيّة الجمّل المصعب
وخُصَّ بذلك فلا يكذب

عشاء إلى الفلق الأشهب
موطّن نفسٍ على الأصعب
سقاهم حساً الموت في يثرب
تخبّرك عنه وعن مرّحب

وسيطاه جدّهما أحمد
وعمرو بن ودّ وأحزابه
وسلّ عنه خيبر ذات الحصون
فبَخْ بَخْ بجدّهما والأب

كان بغير خوفه إذا جنّ الليلُ أطّ، وموسى ولايته، إذا رأى خراج ظلم
بظّ، يرمي إلى جوفه لقم الشعر لا الدجاج ولا البط، تزيت الدنيا لباسها

فمزق لباسها وعَطَّ، كان إذا كَرَبَ الكَرْبَ علا عليه وحَطَّ، ما برى قَلَمَ رأسٍ من رؤساء الكفر قَطَّ، إلا قَطَّ، رَقَمَ الجهادِ في وجهه الكريم ضربه في الزمان كله وحَطَّ، فيا حُسْنَه من مكتوب ويا شرفه من حَطَّ، كان يفتخر بأخوة الرسول ويحق له ما اشتط.

كريم النَّجَار عفيفُ الإزار حوى المَكْرُمات وشادَ الفخارًا
 أعاد وأبْدَى وللفضل أسدى وللقرن أزدى وللريح بارى
 كريم الصَّنِيعَة ضخمُ الدَّسِيعَة سهلُ الشَّرِيعَة لم يأت عارًا
 غنى للفقير ونعم النصير إذا المستجير إليه استجارًا
 يخوض العِمَار ويحمي الذَّمَار ويبنى الفخار ويرعى الجوارًا

طالت عليه أيام الحياة وكان يستطيء القاتل حبًّا للقاء ربه، فيقول: متى يُبعث أشقاها، وجرىء إليه فقيل له: خذ حذرَكَ فإن الناس يريدون قتلك. فقال: إن الأجل جنة حصينة. فلما خرج لصلاة الفجر يوم قُتل ألهم أن ترنم:

أشدُّ حَيَازِمِكَ للموتِ فإن الموت لا قِيكَ
 ولا تجزع من الموت إذا حلَّ بواديك

أخبرنا ابن الحُصَيْن، أنبأنا ابن المذْهَب، أنبأنا أحمد بن جعفر، حدثنا عبد الله بن أحمد، حدثني أبي، حدثنا وكيع، عن شريك، عن أبي إسحاق، عن هُبَيْرَة قال: خطبنا الحسن بن علي فقال: لقد فارقكم رجلٌ بالأمس لم يسبقه الأولون بعلم ولم يدركه الآخرون، كان رسول الله ﷺ يبعثه بالراية جبريلُ عن يمينه وميكائيلُ عن شماله، فلا ينصرف حتى يفتح له.

الكلام على قوله تعالى

﴿إِنَّ الْأَبْرَارَ يَشْرَبُونَ مِنْ كَأْسٍ كَانَ مِزَاجُهَا كَافُورًا﴾ (١)

الأبرار واحدٌ بَرٌّ وبار. وهو الصادق المطيع ﴿يَشْرَبُونَ مِنْ كَأْسٍ﴾ أي

(١) الدهر ٥.

من إناء فيه شراب كان مزاج الكأس كافوراً. والمطلوب من الكافور برّده وريحه.

قوله تعالى: ﴿عَيْنًا﴾ قال الأخفش: المعنى. أعني عيناً. وقال الزجاج: الأجود أن يكون المعنى من عين.

قوله تعالى: ﴿يَشْرَبُ بِهَا﴾ أي منها ﴿عِبَادَ اللَّهِ﴾ أي أوليائه ﴿يَفَجَّرُونَهَا﴾ قال مجاهد: يقودونها إلى حيث شاءوا من الجنة.

قوله تعالى: ﴿يُوفُونَ بِالنَّذْرِ﴾ فيه إضمار [أي] كانوا يوفون بالنذر إذا نذروا في طاعة الله ﴿ويخافون يوماً كان شره مستطيراً﴾ أي فاشياً منتشراً فانشقت السموات وتناثرت الكواكب وكورت الشمس والقمر، ونُسفت الجبال وغارت المياه وتكسرت كل شيء على وجه الأرض من بناء، أو جبل.

قوله تعالى: ﴿وَيُطْعَمُونَ الطَّعَامَ عَلَى حُبِّةٍ﴾ روى عطاء عن ابن عباس أنها نزلت في علي بن أبي طالب رضي الله عنه أجز نفسه يسقي نخلاً بشيء من شعير ليلة حتى أصبح، فلما قبض الشعير طحنوا ثلثه، وأصلحوا منه ما يأكلونه، فلما استوى أتى مسكين فأخرجوه إليه، ثم عملوا الثلث الثاني، فلما تم أتى يتيم فأطعموه، ثم عملوا الباقي، فلما تم أتى أسير من المشركين فأطعموه وطوّوا، فنزلت هذه الآيات.

قوله تعالى: ﴿عَلَى حُبِّةٍ﴾ أي على حب الطعام. المعنى: وهم يشتهونه. وقال أبو سليمان الداراني: على حب الله عز وجل. ﴿إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ لَا نُرِيدُ﴾ قال سعيد بن جبّير: ما تكلموا بذلك، إنما علّم الله تعالى من قلوبهم فأثنى عليهم.

واليوم العَبُوس، الذي تعبس فيه الوجوه، فجعل ذلك من صفة اليوم. والقَمَطَرِير: الشديد. قال أبو عبيدة: العَبُوس القمطيرير والقماطر والعصيب والعصَبَصَب: أشد أشد ما يكون من الأيام وأطولها في البلاء.

﴿فوقاهم الله شرَّ ذلك اليوم﴾ بطاعته في الدنيا ﴿ولقاهم نَصْرَةً﴾ (١) أي حُسناً وبياضاً في الوجوه ﴿وسروراً﴾ في القلوب ﴿وجزاهم بما صبروا﴾ على طاعته ﴿جَنَّةً وَحَرِيراً﴾ وهو لباس أهل الجنة والأرائك: السُّرر في الحِجَال. والزمهرير: البرد الشديد ﴿ودانية﴾ وجزاهم دانية ﴿عليهم ظِلَالُهَا﴾ أي قريبة منهم ظلال أشجارها ﴿وذُلَّتْ قُطُوفُهَا﴾ يتناولون منها قياماً وعوداً، ومضطجعين. والأكواب، الأباريق التي لا عرى لها ﴿كانت قوارير﴾ أي تلك الأكواب قوارير، ولكنها من فضة. قال ابن عباس: لو ضربت فضة الدنيا حتى جعلتها مثل جناح الذباب لم ير الماء من ورائها، وقوارير الجنة من فضة في صفاء القازورة.

وقال الفرَّاء: هذا على التشبيه، المعنى كأنها من فضة، أي لها بياض الفضة، وصفاء كصفاء القوارير.

وفي قوله تعالى: ﴿قَدَّرُهَا تَقْدِيرًا﴾ قولان:

أحدهما: قدَّروها في أنفسهم فجاءت على ما قدَّروا. قاله الحسن. قال الزجاج: جعل الإناء على قدر ما يحتاجون إليه.

والثاني: قدَّرها السَّقَاةُ والخدم على قدر ما يحتاج إليه السادة، فلا يزيد على ريتهم فيثقل الكف ولا ينقص منه فيطلب الزيادة ﴿ويُسْقَوْنَ فِيهَا﴾ أي في الجنة ﴿كأَسَا﴾ كان مِزَاجُهَا زَنْجَبِيلًا ﴿وهو معروف في الدنيا، وهو عروق تسري في الأرض يؤكل رَطْبًا، والعرب تضرب المثل بالزنجبيل والخمر ممزوجين.

وكان طَعْمَ الزَنْجَبِيلِ بِهِ إِذْ ذُقْتَهُ وَسَلَافَةَ الْخَمْرِ

فشراب الجنة على برِّد الكافور وطعم الزنجبيل وريح المسك.

﴿عَيْنًا فِيهَا﴾ أي يسقون عيناً. وسلسبيل: اسم العين وهو صفة لماء كان

(١) الأيات من سورة الدهر ٨ - ١١.

على غاية السلامة. قال مجاهد: سلسيلاً: حديدة الجَرِيَّة. وقال ابن الأَنْبَارِي: السَّلْسِيل: صفة للماء لسَلْسِهِ وسهولة مدخله في الحَلْق، يقال شراب سَلْسَلٌ وسَلْسَالٌ وسَلْسَيْلٌ. حكى الماوردي أن علياً رضي الله عنه قال: معنى الكلام سَلٌ سَيْلاً إليها.

قوله تعالى: ﴿وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ وُلْدَانٌ مُّخَلَّدُونَ﴾ من الخُلْد، ومنه الخَلْدَةُ وهي القُرْطُ ﴿إِذَا رَأَيْتَهُمْ﴾ منتشرين في الخدم ﴿حَسِبْتَهُمْ لُؤْلُؤًا مَّنْشُورًا﴾. وإذا رَأَيْتَ تَمَّ ﴿يعني في الجنة﴾ رَأَيْتَ نَعِيمًا ﴿لا يوصف﴾ ومُلْكًا كَبِيرًا ﴿واسعاً لا يريدون شيئاً إلا قَدَرُوا عليه، ولا يدخل عليهم مَلِكٌ إلا باستئذان.

قوله تعالى: ﴿عَالِيَهُمْ ثِيَابٌ﴾ يعني أهل الجنة. والسندس: رقيق الدِّيَاج. والإستبرق: غَلِيظُه. والخضرة: لون بين البياض، والسواد فهي أَصْلَحُ للعين من غيرها من الألوان، وقد ألبس القوم الأَسَاوِرَ ﴿وسَقَاهُمْ رَبُّهُمْ شَرَابًا طَهُورًا﴾ لا يُحْدِثُونَ منه ولا يبولون ﴿إِنْ هَذَا﴾ الذي وصف من النعيم ﴿كَانَ لَكُمْ جِزَاءً﴾ بِأَعْمَالِكُمْ ﴿وَكَانَ سَعْيِكُمْ﴾ في الدنيا بطاعة الله ﴿مَشْكُورًا﴾ (١) قال عطاء: شَكَرْتُمْ عليه وَأَثْبَتُكُمْ أَفْضَلَ الثَّوَابِ.

وقد ذكرنا أن هذا نزل في حق عليّ رضي الله عنه، وأهل بيته لا يثارهم بالطعام.

كان أبو بكر رضي الله عنه قد خطب فاطمة من رسول الله ﷺ فقال: انتظر بها القضاء. فذكر ذلك لعمر فقال: رَدَّكَ يَا أبا بكر. فخطبها عمر. فقال له مثل ما قال لأبي بكر. فقال أهلُ عليّ لعلي: اخطب فاطمة. فأتى رسول الله ﷺ فسلم عليه فقال: ما حاجتك؟ فقال: ذكرتُ فاطمة. فقال: مرحباً وأهلاً. فخرج فأخبر الناس بما قال. فقالوا: قد أعطاك الأهلَ والمرحَبَ. ثم قال له: ما تُصَدِّقُهَا؟ قال: ما عندي ما أُصَدِّقُهَا إياها. فتزوجها فأهديت إليه ومعها خَمِيلَةٌ وَمِرْفَقَةٌ من أَدَمٍ حَشَّوْهَا لَيْفٍ وَقَرَبَةٍ، وَمُنْخَلٌ وَقَدْحٌ، وَرَحَى وَجِرَابَانِ.

(١) الدهر الأيات ١٨ - ٢٢.

ودخلت عليه وما لها فراش غير جلد كبشٍ ينامان عليه بالليل وتعلف عليه
الناضح بالنهار، وكانت هي خادمة نفسها.

تالله ما ضرها ذلك..

وفي الصحيحين أن رسول الله ﷺ قال لها: «ألا ترضين أن تكوني سيده
نساء هذه الأمة أو نساء المؤمنين؟»

أخبرنا عبد الأول، أخبرنا الداودي، حدثنا ابن أعين، حدثنا الفربري،
حدثنا البخاري، حدثنا الوليد بن عيينة، عن عمرو بن دينار، عن ابن أبي
مليكة عن المسور بن مخرمة، أن رسول الله ﷺ قال: «فاطمة بضعة مني
فمن أغضبها أغضبني».

أخرجاه في الصحيحين.

لما تبختر جمال فاطمة في جلباب كمالها، حين شروع الشرع في وصف
جلالها، أنهض الصديق خاطباً لها في خطابه، فسكت الرسول عن جوابه،
فنهض عمر نهوض الليث في غابه فلم يجبه فاشتد الجوى به، فلما نقل عليّ
أقدامه لخطبتها وجدّ الوحي قد سبقه قدامه: «إن الله أمرني أن أزوج فاطمة
من علي» فتزوجها في صفر وبتى بها في ذي الحجة، فولدت له الحسن في
نصف رمضان سنة ثلاث من الهجرة، وولدت الحسين لثلاث خلون من شعبان
سنة أربع.

وفي الصحيحين من حديث البراء قال: رأيت رسول الله ﷺ واضعاً
الحسن بن علي على عاتقه وهو يقول: «اللهم إني أحبه فأحبه».

وفيها من حديث أبي هريرة عن النبي ﷺ أنه التزم الحسن وقال: «اللهم
إني أحبه فأحبه، وأحب من يحبه».

وفي أفراد البخاري من حديث عمر أن رسول الله ﷺ قال في حق الحسن
والحسين: «هما ريحانتي».

وقد روى أبو سعيد عن النبي ﷺ أنه قال: « الحسن والحسين سيّدا شباب أهل الجنة » .

وكان عليّ بن أبي طالب يقول: الحسن أشبه الناس برسول الله ﷺ من الصدر إلى الرأس، والحسين أشبه برسول الله ﷺ ما كان أسفل من ذلك .

وفي حديث أم سلمة أن النبي ﷺ جَلَّ على الحسن والحسين، وعليّاً وفاطمة كساءً ثم قال: اللهم هؤلاء أهل بيتي وخاصتي أذهب عنهم الرجس وطهرهم تطهيرا . فقالت أم سلمة: وأنا معهم؟ قال: إنك إلى خير .

وكان أحمد بن حنبل إذا سئل عن علي [وأهل بيته] . قال: أهل بيت لا يقاس بهم أحد .

يا بَنِي بنتِ النبي المصطفى
إن لله علينا مَنَناً
أنتم من لم يُردْ مُعطَى الهدى
أنا عبدُ الحق لا عبد الهوى
حبكم يَنفي عن المرء الظنن
حبكم شكرٌ لهاتيك المِنَّن
غير ودّ الناس إياكم ثمن
لعن الله الهوى فيمن لعن
لما وقف المسكين بابهم آثر عليّ فوافقت فاطمة .

ميك حاز العلاء وأدل العدى
طبعه بالجود مُمزج
كفه تهوى السّماح ولو
خلقت للجودِ راحتَه
ما يريد الواصفون له
أنطقت صمّ الصخور فلا
واستعبد الزمنا
هل رأيت الماء واللبنا
أنفقت من غير ظهر غنى
فأرتك العارض الهتنا
حيّرت أوصافه الفطنا
عجب أن تُخرس اللسنا

لما جاءت المديحة على الإيثار ووصف نعيم الجنة لم يذكر في ذلك الحور حفظاً لقلب فاطمة، وكيف يُذكر الحور، وهن ممالك مع الحرّة .

سبحان من كسا أهل البيت نوراً، وجعل عليهم خندقاً يقى الرجس وسوراً،

فإذا تلقَّوا يوم القيامة تلقَّوا حُبورا: ﴿إِنَّ هَذَا كَانَ لَكُمْ جَزَاءً وَكَانَ سَعْيَكُمْ مَشْكُورًا﴾.

ادخرنا لكم نعيماً مقيماً، ومنحنا لكم فضلاً جزيلاً عميماً، وجزيئاً من كان للفقراء رحيماً، أو لستم قد أطعمتم مسكيناً ویتيماً ورحمتم مأسوراً ﴿وَكَانَ سَعْيَكُمْ مَشْكُورًا﴾.

مَنْ مِثْلَ عَلِيٍّ مَنْ مِثْلَ فَاطِمَةَ، كَمْ صَبْرًا عَلَى أَمْوَاجِ بِلَايَا مِتْلَاطِمَةَ، وَأَثْرَا الْفَقْرِ وَنَارِ الْجُوعِ حَاطِمَةَ، فَلَهُمْ نَضَارَةُ الْوَجُوهِ وَالْأَهْوَالُ لِلْوَجُوهِ خَاطِمَةَ، يَا سُرْعَانَ مَا انْقَلَبَ حَزْنُهُمْ سُرُورًا ﴿وَكَانَ سَعْيَكُمْ مَشْكُورًا﴾.

كانت فاطمة بنت النبي ﷺ أحبَّ الناس إليه، وكان عليّ أعزَّ الخلق عليه، وجعل الله ريحانته من الدنيا ولدَيْه، فإذا أحضرهم الحقَّ غداً عندَه ولدَيْه أكرمهم إكراماً عظيماً موفوراً، ﴿وَكَانَ سَعْيَكُمْ مَشْكُورًا﴾.

واعجباً! ذكّر في هذه الآيات نعيم الجنات من الملبوس والمشروبات والمطعمات، والأرائك والقصور والعيون الجاريات، ولم يذكر النساء وهن غاية اللذات، احتراماً لفاطمة أشرف البنات، ومن يصف فاطمة الزهراء لا يذكر حُورا ﴿إِنَّ هَذَا كَانَ لَكُمْ جَزَاءً وَكَانَ سَعْيَكُمْ مَشْكُورًا﴾.

المجلس الثاني والثلاثون في فضل عائشة وأزواج النبي صلى الله عليه وسلم

الحمد لله الواحد القديم، الماجد العظيم، المنان الكريم، الرحمن الرحيم،
أنعم بالعطايا فإنعامه عميم، وستر الخطايا فهو الغفور الرحيم، ابتلى بما شاء،
وهو بما يكون عليم، فالواجب في بلائه الرضا والتسليم، سافرت عائشة مع
الرسول وكان يخصها بالتقديم، فانتزحت لشغلها وانشغل بها عظيم، فحملوا
هَوْدَجَهَا ظَنًّا أَنْ فِي الْكِنَاسِ الرَّيِّمِ، فصادفها صفوانُ فصَدَّرَ الرجل سَلِيمَ،
فبلغها قولُ من باتَ يأفكُ ويهتكُ الحرِيمِ، فما زال السَّليْمُ يبكي بكاء السليم،
حتى بدا هلال الهدى في ليل البلاء البهيم ﴿ لا تحسبوه شرًّا لكم، بل هو خير
لكم لكل امرئ منهم ما اكتسب من الإثم، والذي تولَّى كِبْرَهُ منهم له عذابٌ
عظيم ﴾ (١).

أحمدته كلما عمَّت الغافلين غفلاتهم، وأصلي على رسوله محمد الذي
هلكت به عزّاهم ولائهم، وعلى صاحبه أبي بكر الذي سلّمت إليه قبل الموت
صلاتهم، وعلى عمر الذي تقومت بعدله حالاتهم، وعلى عثمان مقبول المال إذ
مالت بالبخلاء آفاتهم، وعلى عليّ الزاهد في الدنيا إذ منعت أربابها شهواتهم،
وعلى أزواج النبي الطاهرات اللاتي نزهت جهاتهم ﴿ النبيُّ أوّلَى بالمؤمنين من
أنفُسِهِمْ وَأَزْوَاجُهُ أُمَّهَاتُهُمْ ﴾ (٢) وعلى عمه العباس آخذ البيعة له على الأنصار إذ
حُمدت مسعاتهم.

قال الله تعالى: ﴿ إن الذين جاءوا بالإفك عصبة منكم ﴾ (٣) أجمع

(٣) النور ١١.

(٢) الأحزاب ٦.

(١) النور ١١.

المفسرون على أن هذه الآية وما يتعلّق بها بعدها نزلت في قصة عائشة .
والإفك : الكذب . والعصبة : الجماعة .

وفي المخاطب بقوله : ﴿ لا تحسبوه شراً لكم ﴾ (١) قولان :
أحدهما : عائشة وصفوان بن المعطل .
والثاني : رسول الله ﷺ وأبو بكر وعائشة . والمعنى : أنكم تؤجرون فيه ،
والأجر يغطي المكروه .

وفي هذا تسلية للإنسان لما يصيبه من المكاره ، وليعلم أنه ما سلم أحد من
شرّ الناس .
﴿ لكل امرئٍ منهم ﴾ يعني من المعصية الكاذبة ﴿ ما اكتسب من
الإثم ﴾ (٢) أي جزاء ما اجترح من الذنب على قدر حَوْضه فيه .
وأعلم أن رسول الله ﷺ كان يقدّم عائشة على جميع أزواجه .

وفي الصحيحين من حديث عائشة قالت : قال لي رسول الله ﷺ : « رأيتك
في المنام ، ورجل يحملك في سرقة من حرير فيقول : هذه امرأتك . فأقول : إن
يك من عند الله عز وجل يمّمه » .
وكان رسول الله ﷺ تزوج خديجة أول من تزوج ، فولدت له القاسم وعبد
الله وهو الطيب والطاهر ولد في الإسلام فلقب باللقبين . ومن الإناث : زينب
ورقية وأم كلثوم وفاطمة ، ولم يتزوج من خديجة حتى ماتت فتزوج سودة بنت
زمنة ثم عائشة . ولما كبرت سودة أراد طلاقها فسألته أن يدعها في أزواجه ،
وجعلت ليلتها لعائشة . وتزوج عائشة وهي بنت ست ستين وتزوج حفصة فطلقها
تطبيقاً فقال له جبريل : إن الله يأمرك أن تراجع حفصة فإنها صوّامة قوامة .
فراجعها وتزوج أم سلمة وأم حبيبة وزينب بنت جحش ، وزينب بن خزيمة
وجويرة بنت الحارث . وكان قد أصابها في غزاة بني المصطلق . فوعدت في
سهم ثابت بن قيس فكاتبها ، ففرض رسول الله ﷺ كتابتها وتزوجها ، فلما

(٢) النور ١١ .

(١) النور ١١ .

سمع الناسُ بذلك: أرسلوا ما في أيديهم من سبَايا بني المصطلق فأعتق بتزويجه إياها مائة أهل بيت. وتزوج صفية بنت حُيَّيٍّ، وميمونة بنت الحارث، وبنى بها بسَرف، وقدَّر الله موتها في ذلك الموضع.

ولما تعبت خديجة في تربية الأولاد أتاه جبريل فقال له: «اقرأ عليها السلام من ربِّها ومَنِّي وبَشَّرَها ببيت في الجنة من قصب لا صخب فيه ولا نصب».

ولما خطب زينب بنت جحش قالت: ما أنا صانعة شيئاً حتى أوامر ربي. فقامت إلى مسجدها ونزل القرآن في نكاحها. فجاء الرسول الله ﷺ فدخل عليها. وكانت صَوَّامة قوامة تعمل بيدها وتتصدق. ولما تزوج أمَّ حَبِيبَةَ قدم أبو سفيان المدينة في الحُدَيْبِيَّة، فطوت فراشَ رسوله ﷺ وقالت: إنك نجس.

وكان آثر الكل عنده عائشة، لأنها جمعت الجمال والكمال في الذكاء والفتنة والعلم والفصاحة، فبنى بها وهي بنت تسع سنين.

وفي أفراد البخاري من حديث عائشة أنها قال: «يا رسول الله أرأيت لو نزلت وادياً فيه شجرة قد أكل منها ووجدت شجراً لم يؤكل منها في أيها كنت تُرْتَع بعيرك؟ قال: في التي لم يُرْتَع منها». تعني أنه لم يتزوج بكراً غيرها.

أخبرنا يحيى بن علي، أنبأنا ابن المُسَلِّمة، أخبرنا المخلَّص، أخبرنا البَغوي، أخبرنا وهب بن بَقِيَّة، حدثنا خالد بن عبد الله الطحَّان، عن خالد الحذاء، عن أبي عثمان النَّهْدِي، عن عمرو بن العاص أنه أتى النبي ﷺ فقال: من أحبَّ الناس إليك يا رسول الله؟ قال: عائشة. قال: فمن الرجال؟ قال: أبوها. قال: ثم من؟ قال: عمر».

أخرجاه في الصحيحين.

أخبرنا أبو منصور القَرَاز، أنبأنا عبد العزيز بن علي الجُرَيْجِيّ، حدثنا
المخلّص، حدثنا البَغَوِيّ، حدثنا أبو بكر بن خلّاد، حدثنا يحيى بن سعيد،
حدثنا شُعْبَة، عن عمر بن مرّة، عن أبي موسى، قال: قال رسول الله ﷺ:
« فَضْلُ عَائِشَةَ عَلَى سَائِرِ النِّسَاءِ كَفَضْلِ الثَّرِيدِ عَلَى سَائِرِ الطَّعَامِ ».

أخرجاه في الصحيحين .

وفيهما من حديث عائشة أن الناس كانوا يتحرّون بهداياهم يومَ عائشة يبتغون
بذلك مرضاة رسول الله ﷺ .

وفيهما من حديثها عن النبي ﷺ أنه قال: « كُنْتُ لَكَ كَأَبِي زَرَعٍ لِأُمَّ
زَرَعٍ ».

وفيهما من حديثها أن رسول الله ﷺ كان يسأل في مرضه الذي مات فيه
أين أنا غدّاً؟ يريد يومَ عائشة. فأذن له أزواجهُ يكون حيث شاء، فكان في
بيت عائشة حتى مات عندها .

وفي أفراد البخاري من حديث عائشة أن رسول الله ﷺ قال لأم سلمة:
« لَا تُؤْذِنِي فِي عَائِشَةَ فَإِنَّهُ وَاللَّهِ مَا نَزَلَ الْوَحْيُ وَأَنَا فِي لِحَافِ امْرَأَةٍ مِنْكُمْ
غَيْرَهَا ».

وقال أبو موسى ما أشكل علينا أصحاب رسول الله ﷺ حديث قط فسألنا
عنه عائشة إلا وجدنا عندها منه علماً .

وقال عروة: ما رأيت أحداً من الناس أعلم بالقرآن ولا بفريضة، ولا
بحلال ولا بحرام، ولا بشعر، ولا بحديث العرب، ولا بنسب من عائشة .

وكانت غزيرة الكرم . قسمت يوماً سبعين ألفاً وهي ترقع دِرْعَهَا .

وكانت كثيرة التعبد وكانت لها فصاحة .

أخبرنا محمد بن ناصر الحافظ، أخبرنا ثابت بن بُندار، أخبرنا محمد بن

أحمد بن غالب البرقاني، قال: قرأت على أحمد بن حباب الخوارزمي، حدثنا أبو يعقوب البغدادي، حدثنا الحسين بن علي العجلي، حدثنا أبو أسامة، عن هشام بن عروة، لا أدري ذكره عن أبيه أم لا - الشك من أبي يعقوب قال: بلغ عائشة أن أقواماً يتناولون أبا بكر فأرسلت إلى أزفلة «جماعة» منهم فلما حضروا أسدلت أستارها، ثم دنت فحمدت الله تعالى وصلت على نبيه محمد ﷺ وعذلت وقرعت، ثم قالت: أبي وما أبيه! أبي والله لا يعطوه الأبد، ذاك طود منيف، وفرع مديد، هيهات كذبت الظنون أنجح إذ أكديتم، وسبق إذ ونيتم سبق الجواد إذا استولى على الأمد [الغاية] فتى قريش ناشئاً وكهفها كهلاً، يفك عانيها، ويريش مملقها [فقيرها] ويرأب شعبها حتى حلبته قلوبها، ثم استشرى في الله تعالى فما برحت شكيمته وحميته في ذات الله تعالى حتى اتخذ بفنائها مسجداً يحيي فيه ما أمات المبطلون.

وكان رحمه الله عزير الدمعة وقيد الجوارح شجي الشيح، فانقضت إليه نسوان مكة وولدانها يسخرون منه ويستهنئون به ﴿الله يستهزئ بهم ويمدّهم في طغيانهم يعمهون﴾ (١) فأكبرت ذلك رجالات قريش فحجنت له قسيها، وفوقت له سهامها وانتلوه غرضاً، فما فلّوا له صفاة، ولا قصفوا له قناة، ومروا على سبائهم.

حتى إذا ضرب الدين بجرانه وألقى برّكه وورست أوتاده ودخل الناس فيه أفواجاً ومن كل فرقة رسالاً وأشتاتاً اختار الله لنبيه ما عنده، فلما قبض الله تعالى نبيه ﷺ نصب الشيطان رواقه ومدّ طنبيه ونصب حباله، وظن رجال أن قد تحققت أطماعهم ولات حين الذي يرجون فأنى والصديق بين أظهرهم! فقام حاسراً مشمراً، فجمع حاشيته ورفع قُطرية نشز الإسلام على غرب، ولمّ شعثه بطبه، وأقام أودّه بثقافه، فابذقر النفاق بوطاته، وانتاش الدين فنعشه، فلما أزاح الحق إلى أهله وقرّر الرؤوس على كواهلها، وحقن الدماء في أهبها

(١) البقرة ١٥.

أنته منيته، فسَدَّ ثُلُمته ينظيره في الرحمة وشقيقه في السيرة والمعدلة، ذاك ابن الخطاب، لله دَرَّ أَمَّ حملتُ به ودَرَّتْ عليه، فقد أُوْحِدَتْ به، ففتح الكفرة وديخها، وشرَّد الشُّركَ شَدَّرَ مَدَّرَ، ونَفَجَ الأرضَ ونَحَعَهَا، فقامت أكلها ولقظت حبها، ترأَّمه ويَصْدَف عنها، وتصدَّى له ويأبأها، ثم زرع فيها وودَّعها كما صحَّبها، فأروني ما تربيون، أيّ يوم تنقمون: أيوم إقامته إذ عدل فيكم؟ أو يوم طَعَنه فقد نظر لكم؟ أستغفر الله لي ولكم.

وفي هذا الحديث من الغريب: الأزفلة: الجماعة يز ويُعطوه: ينالوه. وأكديتم خبتم. وونيتم: فترتم. والأمد: الغاية. والمملق: الفقير. ويرأب: يجمع. والشعب: المتفرق. واستشري: احتد وانكمش. فما برحت: أي ما زالت شكيمته، وهي الأنفة والحمية. والوقيد: العليل. والشجي: الحزين. والنشيج: صوت البكاء. وانتلوه: أي مثلوه غرضاً للرمي. وقلوا: كسروا. والصفاة: الصخرة الملساء. وقولها على سبائته: أي على حدّه. والجران: الصدر. وهو البرك. ومعنى: فرغ حاشيته وجمع قُطْرِيه: تحزم للأمر وتأهب. والقُطر: الناحية. فرد نشز الإسلام على غَرَب: كذا وقع في الرواية. والصواب على غرة أي ظنة. والطب: الدواء. والأود: العوج. والثقات: تقويم الرماح. وابدقر: تفرق. وانتاش الدين: أزال عنه ما يخاف عليه. ونعشه: رفعه. والأهب: جمع إهاب وهو الجلد. وأوحدت: أي جاءت به منفرداً: لا نظير له. ففتح الكفرة: أذلها. وديخها: أي دوخها. ومعنى شَدَّرَ مَدَّرَ: التفريق. ونحع: شق. ومثله نَفَج. والأكل: الخير. وترأَّمه: تعطف عليه.

الكلام على البسمة

بادِر الأيَّامَ فَالْحَد	يُّ مِنَ الْمَوْتِ قَرِيبُ
بَيْنَمَا يَحْطُرُ فِي أَهْلِ	الْحِمَى لَا يَسْتَرِيبُ
إِذ حَوَاهِ اللَّحْدُ يَوْمًا	مُفْرَدًا فَهُوَ غَرِيبُ
خُذْ نَصِيحًا قَبْلَ أَنْ يُعْ	جِزَكَ الدَّهْرُ الْمَصِيبُ

واحد الأخرى لهو
يوم لا يسلم مغرو
أطع الناصح إذ نا
كم ترى نسمعك النصح
ل يومه يوم عصب
ر ولا يتجو مريب
داك فالموت عجب
وكم لا تستجيب

يا من لا يتعظ بسلف آبائه، يا من لا يعتبر بتلف أو دائه، يا أسير أغراضه
وقتيل أهوائه، يا من عجزت الأطباء عن إصلاح دائه، يا مشغولاً بذكر بقائه
عن ذكر فئائه، يا مغروراً قد حلّ الممات بفئائه، يا معجباً بثوب صحته
يمشي في خيلائه، يا معرضاً عن نصيحة مُشمتاً لأعدائه، يا من يلهو بأمله، ويا
من أجله من ورائه، يجمع العيب إلى الشيب وهذا من أقبح رائه، كم رأيت
مستلباً من سروره وتعمائه، كم شاهدت مأخوذاً عن أحبابه وأبنائه، بينا هو في
غروره دبّ الموت في أعضائه، بينا جرع اللذة فيه شرق بمائه، بينا ناظر
النظير يُعجبه صار عبرةً لنظرائه، ماله ضيع ماله وبقي في بلائه.

باتت همومي تسري طوارقها
هما طريقان فائز دخل الجـ
وفرقه في الجحيم مع تبع الشـ
اقترب الوعد والقلوب إلى اللـ
ما رغبة النفس في البقاء وإن
أيامها غاية إليه ويحدو
وكل ما جمعت وأعجبها
يوشك من فر من منيته
من لم يمت عبطة يمت هرماً
أكف عيني والدمع سابقها
نة حقت به حدائقها
طان يشقى بها موافقها
هو وحب الحياة سائقها
عاشت قليلاً فالموت لاحقها
ها حنياً إليه سائقها
من عيشها مرة مفارقها
في بعض غراته يوافقها
للموت كأس والمرء ذائقها

يا من تجبر على مولاة وتمرد، واستل سيف البغي وجرّد، كم يُنعم عليك
فتنسى وتجدد، كم تشيع من ميت، وترى لحد ملحد، يا قليل الزاد، وألوية
الرحيل تُعقد، يامن بين يديه النار بالأحجار توقد، ينزل اللطف في جمع

شَمْلِكُ وَقَبِيحُ فَعَلِكُ يَصْعَدُ ، يَا قَلِيلَ الْإِنْتِفَاعِ بِالْوَعظِ إِلَى كَمْ تَتَزَوَّدُ .

يَا قَبِيحُ الْمَتَجَرِّدُ كَمْ عَلَيْنَا تَتَعَمَّرُ
كَمْ نُرَاعِيكَ وَنُؤَلِّيكُ وَلِلْإِحْسَانِ تَجْحَدُ
كَمْ أَنْادِيكَ بِوَعظِي أَتُرَى قَلْبُكَ جَلَمَدُ
كَمْ تُرَى أَنْتَ عَلَى الشَّـ رِ إِلَى هِ تَتَزَوَّدُ
أَوْ مَا تَجْزَعُ مِنْ نَا رِ عَلَى الْعَاصِيْنَ تُوقَدُ
فَمَتَى تَحْذِرُ فِي الْإِسـ رَافِ مَا مِثْلِكَ يُوعَدُ

لقد نطقت الغير بالعبّر ، ولقد خبر الأمر من عنده خبر ، وإنما ينفع البصر
ذا بصر ، فاعجبوا لمقصر عمره في قصر ، يا من لا يرى من توبته إلا الوعود ،
فإذا تاب فهو عن قريب يعود ، أرضيت بفوت الخير والسعود ، أعددت عدة
لنزول الأخدود ، أما علمت أن الجوارح من جملة الشهود ، تالله إن حوض
الموت عن قريب مورود ، والله ما الزاد في الطريق بموجود ، والله إن القيامة
تشيب المولود ، والله إن العمر محبوس معدود ، والوجه غداً بين بيض
وسود ، إلى كم هذا الصبا والمراح ، أبقى الشيب موضعاً للمراح ، لقد أغنى
الصبح عن المصباح ، وقام حرب المنون من غير سلاح ، اعوجت القناة بلا قنا
ولا صفاح ، فعاد ذو الشيبة بالضعف تخين الجرح ، ونطقت ألسن الفناء بالوعظ
الصراح ، وا أسفا صمّت المسامع والمواعظ فصاح ، لقد صاح لسان التحذير : يا
صاح يا صاح ، وأنى بالفهم لسكران غير صاح ، أسكرك الهوى سكرًا لا يزاح ،
أو ما تفيق حتى يقول الموت : لا أبرح ، متى يظهر عليك سيما المتقين ، متى
ترقى إلى مقام السابقين ، كأنك بك تذكر قولي ، وقد عرق الجبين ، وخابت
الآمال وعشت الشمال باليمين ، وبرق البصر وجاء الحق اليقين ، ولا ينفع
الانتباه حينئذ يا مسكين ، يا من يوعظ وكأنه ما يسمع ، يا مشغولاً بما يفنى
يحوي ويجمع ، يا من شاب وما تاب في أي شيء تطمع ، يا غافلاً والموت على
أخذه قد أزمع ، ستعرف يوم عرض الكتاب وسوء الحساب عين من تدمع ،
أترك يوم الرحيل إذا ضاق رحب السبيل ما تصنع ، أترك بماذا تتقي هول

ذاك المصْرَع، عجباً لك تُؤثر مايفنى وتعلم ما يبقى أنفع، يا من أماراتُ طَرَدَه
من وجه صدّه تَلَمَع، لقد نادانا لسانُ حالك بدوام القبيح من أفعالك، غير أنا
فيك نَطْمَع.

كم تَعْدِلون وَعَذْلُكُمْ لا يَنْفَعُ ضَاعَ الْحَدِيثُ فَعَلَّمُوا مَنْ يَسْمَعُ

الكلام على قوله تعالى

﴿وَالَّذِي تَوَلَّى كِبْرَهُ مِنْهُمْ لَهُ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾^(١)

قد ذكرنا أن هذا نزل في حق عائشة حين قُذفت. وكِبْرَهُ بمعنى مُعْظَمَهُ.
وقد قرأ ابن عباس كِبْرَهُ بضم الكاف وهما لغتان. والذي تولى كبره ذلك ابن
أبي.

أخبرنا ابن الحُصَيْن، أخبرنا أبو علي التميمي، أنبأنا أبو بكر بن مالك،
حدثنا عبد الله بن أحمد، حدثني أبي، حدثنا عبد الرزاق، حدثنا مَعْمَر، عن
الزُّهْرِي، أخبرني سعيد بن المسيَّب وعُرْوَةُ بن الزُّبَيْر، وعلقمة بن وقاص وعبيد
الله [بن عبد الله] بن عُتْبَةَ عن حديث عائشة زوج النبي ﷺ حين قال لها
أهلُ الإفك ما قالوا فبرأها الله عز وجل مما قالوا، كلهم حدثني بطائفة من
حديثها وبعضهم كان أوعى لحديثها من بعض وأثبت اقتصاصاً، وقد وعيتُ
عن كل واحد منهم الحديث الذي حدثني، وبعضُ حديثهم يصدِّق بعضاً.

ذكروا: أن عائشة زوج النبي ﷺ قالت: كان رسول الله ﷺ إذا أراد أن
يخرج سَفَرًا أَقْرَع بين نسائه فأيتهن خرج سهمها خرج بها رسول الله ﷺ معه
قالت عائشة: فأقْرَع بيننا في غَزَاة فخرج فيها سهمي، فخرجتُ مع رسول الله
ﷺ، وذلك بعد ما أنزل الحجاب، فأنا أُحْمَلُ في هَوْدَجِي وأنزل فيه،
فسِرْنَا، حتى إذا فرغ رسول الله ﷺ من غَزْوِهِ فقفَل، ودنونا من المدينة أذن

(١) النور الآية ١١.

ليلةً بالرحيل فقامت حين أذنوا بالرحيل فمشيت حتى جاوزت الجيش . فلما قضيت شأني أقبلت إلى الرحيل فلمستُ صدري فإذا عقد من جزع أظفار قد انقطع ، فرجعت فالتصمت عقدي ، فحبسني ابتغاؤه ، وأقبل الرهط الذين كانوا يرحلون بي فحملوا هودجي ، فرحلوه على بعيري الذي كنت أركب وهم يحسبون أنني فيه . قالت : وكان النساء إذ ذاك خفافاً لم يهتبن ولم يغشهن اللحم ، إنما يأكلن العُلقة من الطعام ، فلم يستنكر القوم ثقل اليهودج حين رحلوه ورفعوه ، كنت جاريةً حديثة السن فبعثوا الجميل وساروا .

ووجدت عقدي بعدما استمر الجيش ، فجنث منازلهم وليس بها داعٍ ولا مُجيب ، فيممت منزلي الذي كنت فيه ، فظننت أن القوم سيفقدوني فيرجعون إليّ فيينا أنا جالسة في منزلي غلبتني عيني فنمت ، وكان صفوان بن المعطل السلمي ، ثم الذكواني قد عرس من وراء الجيش فأدلى فأصبح عند منزلي ، فرأى سواد إنسان نائم فأتاني فعرفني حين رأيته ، وقد كان يراني قبل أن يضرب عليّ الحجاب ، فاستيقظت باسترجاعه حين عرفني فخرمت وجهي بجلبابي ، والله ما كلمني كلمة ، ولا سمعت منه كلمة غير استرجاعه ، حتى أناخ راحلته فوطئ على يدها فركبها ، فانطلق يقود بي الراحلة حتى أتينا الجيش بعد ما نزلوا موغرين في حرّ الظهرية ، فهلك من هلك في شأني ، وكان الذي تولى كبره عبد الله بن أبي بن سلول .

فقدمت المدينة فاشتكت حين قدمتها شهراً ، والناس يفيضون في قول أهل الإفك ولا أشعر بشيء من ذلك ، وهو يربني في وجعي أنني لا أعرف من رسول الله ﷺ اللطف الذي كنت أرى منه حين أشتكي ، إنما يدخل رسول الله ﷺ ثم يقول : كيف تيكم ؟ فذاك يربني ولا أشعر بالشر ، حتى خرجت بعدما نقيت وخرجت مع أم مسطح قبل المناصب ، وهو مُتبرّزنا ولا نخرج إلا ليلاً إلى ليل ، وذلك قبل أن نتخذ الكنف قريباً من بيوتنا ، وأمرنا أمر العرب الأوّل في التنزه ، وكنا نتأذى بأكنفات أن نتخذها عند بيوتنا ، فانطلقت أنا

وأم مسطح وهي بنت أبي رهم بن عبد المطلب، وأمها بنت صخر بن عامر خالة أبي بكر الصديق، وابنها مسطح في مرطها فقالت: تعيس مسطح. فقلت لها: بئس ما قلت! تسبين رجلاً قد شهد بدرًا؟ قالت: أي هنتاه، أو لم تسمعي ما قال؟ قلت: وماذا قال؟ فأخبرتني بقول أهل الإفك فازددت مرضاً إلى مرض. فلما رجعت إلى بيتي فدخل علي رسول الله ﷺ فقال: كيف تيكم؟ قلت: أتأذن لي أن آتي أبوي؟ قالت: وأنا حينئذ أريد أن أتيقن الخبر من قتلها. فأذن رسول الله ﷺ، فجئت أبوي فقلت لأمي: يا أمته ما يتحدث الناس؟ فقالت: أي بنية هوئي عليك، فوالله لقلما كانت امرأة قط وضيئة عند رجل يحبها ولها ضرائر إلا أكثرن عليها. قلت: سبحان الله، أو قد تحدثت الناس بهذا؟ قالت: فبكيت تلك الليلة حتى أصبحت لا يرقأ لي دمع، ولا أكتحل بنوم ثم أصبحت أبكى.

ودعا رسول الله ﷺ علي بن أبي طالب وأسامة بن زيد حين استلبت الوحي يستشيرهما في فراق أهله، قالت: فأما أسامة بن زيد فأشار على رسول الله ﷺ بالذي يعلم من براءة أهله، وبالذي يعلم في نفسه لهم من الود فقال: يا رسول الله هم أهلك ولا نعلم إلا خيراً. وأما علي بن أبي طالب فقال: لم يضيق الله عليك والنساء سواها كثير، وإن تسأل الجارية تصدقك. قالت: فدعا رسول الله ﷺ بريرة فقال: أي بريرة هل رأيت من شيء يريبك من عائشة؟ قالت له بريرة: والذي بعثك بالحق، إن رأيت عليها أمراً قط أغمصه عليها أكثر من أنها جارية حديثة السن تنام عن عجين أهلها، فتأتي الداجن فتأكله.

فقام رسول الله ﷺ فاستعذر من عبد الله بن أبيي، فقال: وهو على المنبر: يا معشر المسلمين من يعذرني من رجل قد بلغني أذاه في أهل بيتي! فوالله ما علمت على أهلي إلا خيراً، ولقد ذكروا رجلاً ما علمت عليه إلا خيراً، وما كان يدخل على أهلي إلا معي.

فقام سعد بن معاذ الأنصاري فقال: أنا أعذرک منه يا رسول الله، إن كان

من الأوس ضربنا عنقه، وإن كان من إخواننا الخزرج أمرتُنا ففعلنا أمرك .
 قالت: فقام سعدُ بن عبادة وهو سيد الخزرج، وكان رجلاً صالحاً، ولكن
 احتملته الحمية، فقال لسعد بن معاذ: لعمرك لا تقتله ولا تقدر على قتله،
 ولو كان من رهطك ما أحببت أن يقتل. فقام أسيد بن حضير، وهو ابن عم
 سعد بن معاذ، فقال لسعد بن عبادة: كذبت لعمرؤ الله لنقتلنه، فإنك منافق
 تجادل عن المنافقين. فثار الحيات الأوس والخزرج حتى هموا أن يقتلوا
 ورسول الله ﷺ قائم على المنبر، فلم يزل رسول الله ﷺ يخفضهم حتى
 سكتوا وسكت.

قالت: وبكيت يومي ذلك لا يرقأ لي دمع، ولا أكتحل بنوم، ثم بكيت
 ليلتي المقبلة لا يرقأ لي دمع ولا أكتحل بنوم، وأبواي يظنان أن البكاء فالق
 كبدي.

قالت: فبينما هما جالسان عند وأنا أبكي استأذنت عليّ امرأة من الانصار
 فأذنت لها فجلست تبكي معي، فبينما نحن على ذلك إذ دخل علينا رسول الله
 ﷺ فسلم ثم جلس. قالت: ولم يجلس عندي منذ قيل لي ما قيل، وقد لبث
 شهراً لا يوحى إليه في شأني شيء، قالت: فتشهد رسول الله ﷺ حين جلس
 ثم قال: أما بعدُ يا عائشة فإنه بلغني عنك كذا وكذا، فإن كنت بريئة فسيبرئك
 الله عز وجل، وإن كنت ألمت بذنب فاستغفري الله وتوبي إليه، فإن العبد
 إذا اعترف بذنب ثم تاب تاب الله عليه. قالت: فلما قضى رسول الله ﷺ
 مقالته قلص دمعي حتى ما أحس منه قطرة، فقلت لأبي: أجب عني رسول الله
 ﷺ. فقال: والله ما أدري ما أقول لرسول الله ﷺ قالت: فقلت وأنا جارية
 حديثة السن لا أقرأ كثيراً من القرآن: إني والله قد عرفتُ أنكم قد سمعتم بهذا
 حتى استقر في أنفسكم وصدقتم به، ولئن قلت لكم إني بريئة لا تصدقوني
 بذلك، ولئن اعترفتُ لكم بأمرٍ والله عز وجل يعلم أني بريئة تصدقوني، فإني
 والله ما أجد لي ولكم مثلاً إلا كما قال أبو يوسف: ﴿فصبرٌ جميل والله

المستعان على ما تصفون ﴿١﴾. قالت: ثم تحولت فاضطجعت على فراشي.

قالت: وأنا والله حينئذ أعلم أنني بريئة، وأن الله عز وجل مُبرِّتي ببراءتي، ولكن والله ما كنت أظن أن ينزل في شأني وحي يُتلى، ولشأنني كان أحقر في نفسي من أن يتكلم الله عز وجل فيّ بأمر يُتلى، ولكن كنت أرجو أن يرى رسول الله ﷺ في النوم رؤيا يبرئني الله عز وجل بها.

قالت: فوالله ما رام رسول الله ﷺ مجلسه ولا خرج من أهل البيت أحد حتى أنزل الله عز وجل على نبيه، فأخذه ما كان يأخذه من البرحاء عند الوحي حتى إنه ليتحدّر منه مثل الجمان من العرق في اليوم الشاتي من ثقل القول الذي أنزل عليه. قالت: فلما سُري عن رسول الله ﷺ وهو يضحك، قالت: فكان أول كلمة تكلم بها أن قال: أبشري يا عائشة، أما الله عز وجل فقد برأك. فقالت لي أُمي: قومي إليه. فقلت: والله لا أقوم إليه، ولا أحمد إلا الله عز وجل الذي أنزل براءتي.

فأنزل الله عز وجل: ﴿إِنَّ الَّذِينَ جَاءُوا بِالْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِنْكُمْ﴾ العشر الآيات، فأنزل الله هذه الآيات [في] براءتي. قالت: فقال أبو بكر: وكان ينفق على مسطح لقرابته منه وفقره، والله لا أنفق عليه شيئاً أبداً بعد الذي قال لعائشة. فأنزل الله تعالى: ﴿وَلَا يَأْتِلْ أَوْلُوا الْفُضْلِ مِنْكُمْ وَالسَّعَةِ﴾ إلى قوله. ﴿أَلَا تَحِبُّونَ أَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ﴾ (٢). فقال أبو بكر: والله إنّي لأحبّ أن يغفر الله لي. فرجع إلى مسطح النفقة التي كان ينفق عليه، وقال: لا أنزعها منه أبداً.

قالت عائشة: وكان رسول الله ﷺ سأل زينب بنت جحش زوج النبي ﷺ عن أمري ما علمت، وما رأيت وما بلغك؟ قالت: يا رسول الله أحمي سمعي وبصري، والله ما علمت إلا خيراً. قالت عائشة: وهي التي كانت تُساميني من أزواج النبي ﷺ، فعصمها الله بالورع، وطفقت أختها حمّة بنت

(١) يوسف ١١.

(٢) النور ٢٢.

جحش تحارب لها فهلكتُ فيمن هلك .

هذا حديث متفق على صحته .

ونحن نسأل الله تعالى أن يعصمنا من اعتقاد من لا يسمّى ، فإنهم تعتر بهم عند ذكر عائشة حمّى .

أخبرنا ابن الحصّين ، أنبأنا ابن المذهب ، حدثنا أحمد بن جعفر ، حدثنا عبد الله بن أحمد ، حدثني أبي ، حدثنا معاوية بن عمرو ، حدثنا زائدة ، حدثنا عبد الله بن خثيمة ، حدثني عبد الله بن أبي مليكة ، أنه حدثه ذكوان حاجب عائشة أنه جاء عبدُ الله بن عباس يستأذن على عائشة ، فجئت وعند رأسها ابن أخيها عبد الله بن عبد الرحمن فقلت : هذا ابن عباس يستأذن . فأكبَّ عليها ابنُ أخيها فقال : هذا عبد الله بن عباس ، وهي تموت فقلت : دعني من ابن عباس . فقال : يا أماه إن ابن عباس من صالحي بئيك يسلم عليك ويودّعك . فقلت : إيذن له إن شئت . فأدخلته فلما جلس قال : أبشري ، ما بينك وبين أن تلقّي محمداً ﷺ والأحبة إلا أن تخرج الروح من الجسد ، كنت أحبّ نساء رسول الله ﷺ إلى رسول الله ﷺ ، ولم يكن رسول الله ﷺ يحب إلا طيباً وسقطت قلاذتك ليلة الأبواء فأصبح رسول الله ﷺ حتى يصبح في المنزل ، وأصبح الناس ليس معهم ماء فأنزل الله تعالى أن يتيمموا صعيداً طيباً ، وكان ذلك في سببك ، وأنزل الله براءتك من فوق سبع سموات جاء بها الروح الأمين فأصبح ليس مسجد من مساجد الله يُذكر فيه الله تعالى إلا يتلى فيه آناء الليل وآناء النهار . فقلت : دعني منك يا ابن عباس ، والذي نفسي بيده لوددت أني كنت نسيّاً منسياً .

خواني : فضائل عائشة كثيرة بعضها يكفيها ، وبحسبها أن الله أنزل آيات تتلى فيها .

أخبرنا ابن الحصّين ، أنبأنا ابن المذهب ، حدثنا أحمد بن جعفر ، حدثنا عبد الله بن أحمد ، حدثني أبي ، حدثنا سفيان ، عن مجالد ، عن الشعبي ، عن

أبي سلمة، عن عائشة قالت: رأيت رسولَ الله ﷺ واضعاً يده على معرفة فرسٍ وهو يكلم رجلاً.

قلت: رأيتك واضعاً يديك على معرفة فرسٍ دحيه الكلبى وأنت تكلمه.
قال: ورأيت؟ قلت: نعم. قال: ذاك جبريل وهو يقرئك السلام. قالت: وعليه السلام.

انظروا إخواني: كيف لم يواجهها بالسلام لأجل زوجها، فمن هذه حالتها مع جبريل كيف يجوز عليها الزور والأباطيل؟ أما أهل السنة فقلوبهم بالفرج عند ذكر عائشة طائشة، وأما الرافضة فتأخذهم حمى نافضة.

أخبرنا إسماعيل بن أحمد السمرقندي، قال أنشدني عاصم بن الحسين لنفسه:

والدُّها المرْتَضَى أبو بكرِ	وَحَقٌّ مِنْ بَعْلُهَا النَّبِيِّ وَمَنْ
حَتَّى أُوَارَى فِي ظَلْمَةِ الْقَبْرِ	لَا حُلَّتْ عَنْ مِدْحَتِي لَهَا أَبَدًا
يَشْفَعُ فِيَّ صَبِيحَةَ الْحَشْرِ	قَدْ تَيْقِنْتُ أَنَّ وَالِدَهَا
شَرَّفَهُ اللَّهُ مِنْهُ بِالْفَخْرِ	طَاهِرَةٌ تَنْتَمِي إِلَى نَسَبِ
بِالزُّورِ وَالْإِفْكِ عَصَبَةُ الشَّرِّ	لَمَّا رَمَوْهَا لَا دَرَّ دَرُّهُمْ
بِغَيْرِ شَكٍّ فِي مُحْكَمِ الذِّكْرِ	بِرَأْيِهَا اللَّهُ مِنْ مَقَالَتِهِمْ
وَحَقٌّ طَهَّ وَلَيْلَةُ الْقَدْرِ	فَمَا لَهَا مُشْبَهُ يُسَاجِلُهَا
بِهَا وَذِكْرٌ يَبْقَى عَلَى الدَّهْرِ	وَكَمْ لَهَا مِنْ فَضِيلَةٍ نَطَقْتُ
مَا بَيْنَ سَحْرِي وَمُلْتَقَى نَحْرِي	قَالَتْ تَوْفَى النَّبِيِّ خَالِفَةٌ
فَمَا لَهُ فِي الْمَعَادِ مِنْ عُذْرِ	فَلَا رَعَى اللَّهُ مِنْ تَنْقِصِهَا
مَذْهَبِهِ شَتْمُ زَوْجَةِ الطُّهْرِ	وَأَيَّ عَذْرِ لِمُبْدَعِ رَجْسٍ

سجع

هي اختيار العظيم العليّ للنبي، ومذ طفولتها تُعرف بالعرز الأبيّ، ولها عقل الكبار في سن الصبيّ، وهل يضرها قول الجهول الغبيّ، أو يقدرح في ربح

المسك الذكي إلا بهيم ﴿والذي تولّى كبره منهم له عذاب عظيم﴾ (١).

ما تزوج الرسول ﷺ بكراً سواها، ولا أحبّ زوجة كحبه إياها، جاء بها الملك في سرقة فجلاًها، وتكلم الله ببراءتها سبحان من أعطاهما، وما يرمي الأصحاء بالسقم إلا سقيم ﴿والذي تولّى كبره منهم له عذاب عظيم﴾.

واعجباً لمبغضيتها من هم، إن فهمت قولي قلت إن هم، ضرهم والله ما صدر عنهم، خفت، والله عقولهم والآفة تُهيم ﴿والذي تولّى كبره منهم له عذاب عظيم﴾.

ما خفي على حسّادها طهارة ذيلها، غير أن الطباع الرديّة في ميلها، هجمت عليها الأحزان برجلها وخيلها، فكانت طول نهارها وليلها تبكي بكاء اليتيم.

مدوا أبواعهم إلى عرضها فما نالوا، وأكثروا القول ظاهراً وباطناً واحتالوا، ونوعوا أسباب القذف وتكلموا وأطالوا، وهي على طهارتها مما قالوا في مقعد مقيم.

تكلموا فيها بترّها، وراموا ذمّ السماء وهيئات، يا عائها إن عرفت عيباً فهات، كفانا الله شرّ عقوق الأمهات، فإنه قبيح ذميم ﴿والذي تولّى كبره منهم له عذاب عظيم﴾.

ما كان سوى غيّم ثم تجلّى، وانصرف الحزن وتولى بالفرح الذي تولّى، ولبس الممدوح أحسن الحلى وتحلّى، وحمل القاذف إثماً وكلاً، أيقده العقلاء في أمهاتهم، القاذفون كلاً هي منهم عقيم ﴿والذي تولّى كبره منهم له عذاب عظيم﴾.

حوشيت من ريب أو فجور، إنما زيدت بما جرى في الأجور، تنزهت أمّ العُدول أن تجور، إنما وقعت في أغباش ليل ظلام ديجور، ثم بان النور في سورة النور، فنزل في الكلام القديم: ﴿والذي تولّى كبره منهم له عذاب عظيم﴾.

(١) النور ١١.

المجلس الثالث والثلاثون في فضل الصحابة رضي الله عنهم

الحمد لله القديم الأَحَدِيّ، العَظِيم الصَّمَدِيّ، الدائم الأَبَدِيّ، القائم السَّرْمَدِيّ، رفع بقدرته السماء وأجرى بحكمته الماء، وعَلَّمَ آدم الأَسْمَاءَ، وأمَّكَنَهُ مِنَ العِيشِ الهَنِيّ، فخالف بالأكل الصواب، فكشَفَ الخِلافُ عنه الجلباب، فخرج وما يعرف الباب لشؤم ارتكاب المنهيّ، ويستدرك سالف الفوات حتى عطفت على تلك العبرات رحمةً الراحم الخفيّ، فاحذر من الأفعال الخِياث فإنها سبب الالتياث، وتعلّق بالمستغاث ينقذك من جهل العماء فإنه سريع الفرج، إذا اشتد الأمر ضيقاً فرج ﴿وما جعل عليكم في الدين من حرج﴾ (١) رفقاً بالضعيف والقويّ.

من لا دَبَحْنَا به مريضاً صلح، من عاذ ببابه سائلاً فتح، سبحانه لقد جاد وسمّح وحتى على الفاجر الشقيّ، ذلّ من شمع، وقلّ لكماله من تذخ، وخرج الليلُ بقدرته وانسلخ عن النهار النقيّ، تفرّد بالإنعام والجود، وأذلّ الأعناق له بالسجود، وتنزه عن مشابهة كل موجود بالوجود الأزليّ، سَعِدَ من بطاعته يلوذ، ونجا من بحرِيمه يعوذ، وأمره في خلقه نفوذ، فما حيلة المرميّ، يعلم خفيّ الخافي من السرّ، ويسمع أنين المضطر في الضر، ويرى دَبِيبَ الذرّ في البرّ تحت أخفاف المطيّ، لا يعزّب عن سمعه خفيّ الرّكز، ولا يمنع أمره حصّين الحِرز، تعالی أن يشابه المخلوق في العجز بالعز الأبدیّ، يوصف بالحياة والكلام والسمع والنفس، وجلّت صفاته عن توهم الحدس، إنما هو

(١) الحج ٧٨.

وحيّ أنزله روح القدس على قلب النبيّ، يرزق النمل في الرمل والفرخ في العش، ويبعث المُنزّل بالوَيْل والوَدَق والطَّش، خلق السموات والأرض وما بينهما في ستة أيام ثم استوى على العرش، لا كاستواء البشريّ.

يحاسب العبادَ يوم القِصاص، ويسأل عن خفيّ الرياء ودقيق الإخلاص، ويتجلى في الجنة لأهل الخلاص فيلحقه الرائي ويا عزة المرثي، بيده مُلك الطول والعرض، وإذا أجمع الخلائق ليوم العرض، حار من في السموات ومن في الأرض، وانقضت مشيدات المبنيّ.

موصوفٌ بالرضا ويُحذَر منه السَّخَط، معروف بالكرم فاياك والقنط، شرَط عليكم التقوى فقم بالذي شرَط، فإنه لا ينسى أجر التقويّ.

لا يخفى عليه خائنة اللحظ، ولا يحتجب عن سمعه خفيّ اللفظ، وقد نزعك عن الخطايا بأبلغ الوعظ، وننهاك بالعقلي والحسيّ، تنزه عن العنصر والمزاج والطبع، وتقُدس عن الجوارح، وإن وصف بالبصر والسمع، ولا تُعرف صفاته إلا بالنقل والسمع، لا برأي البدعيّ.

قضى بالقضاء قبل خلق الخلق وفرغ، وأنزل القرآن والزمن التَّزْر قد فرغ، لينذركم به ومن بلّغ باللسان العربيّ، وهو المكتوب المسموع المعروف، المحفوظ المتلوّ المألوف، والمتكلّم به بالكلام موصوف، تنزه عن الجرس والعيّ. مسطور في الصحائف والأوراق، منزل من المليك الخلاق، أنزله من فوق السبع الطباق على الرسول الأميّ، كتاب معظّم مبارك لا يداني في لفظه، ولا يشارك بكشف نوره، كلما تدارك عن بصر البصيرة عمي العميّ، نزل بأمر الملك الجليل على النبيّ النبيه النبيل، وسهّلت تلاوته أيّ تسهيل حتى على الصبيّ، به فاقت هذه الأمة على الأمم، وبه نُشر لهذا العالم العَلَم، ومن حكمت هطلت على القلوب ديم فاهترت وربت بالريّ، فركب فيها أغراس الايمان، وأورقت أغصان الإيقان، وانحلت مُعوصات الإشكال بالبيان، حتى وصل إلى فهم الأعجمي.

منع حافظيه اللعب واللهو، ودفع عن متدبريه البطالة والسّهو، فمن استغنى به عن غيره فهو في العيش الرضي، إنه لأجلّ ما تحركت به الأفواه؛ كيف لا والمتكلّم به هو الله، يكون مخلوقاً وقد اتصف به الإله؛ ويلّ للمعتزليّ.

لا يخلّق عن كثرة التكرار ولا يبلى؛ لا يقدر الخلق على مثله حاشا وكلاً، تعرف الملائكة كلّ بيت فيه يُتلى، كمعرفتهم بالكوكب الدرّي.

فاسلك في اعتقادك طريق السلف المرّضيّ، وخذ بملازمة السنن بالسّنن السوّيّ، هذا مذهب المسلم وعقد الحنبليّ.

أحمدته على الفهم القوي، وأستعيذه من الشيطان الرجيم الغويّ، وأشهد له بالتوحيد شهادةً زاد صفاؤها على الوصف العرّفِيّ، وأن محمداً عبده ورسوله استخرجه من العنصر الزكيّ، فبشر بولادته انشقاق الإيوان الكيسرويّ، وجملة بنور الهيئة قبل الزيّ، ونصره بالرعب قبل المشرفيّ، وأرسله بالدليل الجليّ والحكم الشرعيّ، وزهّده في مجالسة الغنيّ الغبيّ، ورغبه في صحبة الفقير في الدنيا الخليّ، وعاتبه في صهيب الروميّ وبلال الحبشيّ والفقير الضعيف القصي ﴿ولا تطرد الذين يدعون ربهم بالغداة والعشيّ﴾ (١).

وصلى الله على محمد القرشي الهاشمي المكي الزمزمي الأبطحيّ المدنيّ التهاميّ، وعلى صاحبه المخصوص بفضيلة ﴿ثانيّ اثنين﴾ وهو في القبر مضاجعه كهاتين، كيف لا وقد كانا رفيقين في الزمان الجاهليّ، وعلى الذي كانت الشياطين تفرّق من ظله وتتفرّق هيبه من أجله، إذا سمعوا خفق نعله هربوا من الأحوذيّ، وعلى مصابريّ البلاء من أيدي الأعداء الذي يستحي منه ملائكة السماء. سلام الله على ذاك الحيّ، وعلى الذي ملئ علماء وخوفاً، وعاهد على ترك الدنيا فأوفى، ونحن والله نحبه أوفى من حب الرافضيّ، وعلى جميع أصحابه وأزواجه وأتباعه على منهاجه ما قام مكلف بالفرض الرسميّ، واستقام نبت في الأرض بالوسميّ وسلم.

(١) الأنعام ٥٢.

قال الله تعالى: ﴿مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ﴾ (١) قال ابن عباس: شهد له بالرسالة. وقوله: ﴿وَالَّذِينَ مَعَهُ﴾ يعني أصحابه ﴿أَشِدَّاءُ﴾ وهو جمع شديد. والرحماء جمع رحيم. والمعنى أنهم يَغْلُظُونَ على الكفار ويتوادون بينهم ﴿تَرَاهُمْ رُكْعًا سَجْدًا﴾ يصف كثرة صلاتهم ﴿يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِنْ اللَّهِ﴾ وهو الجنة ﴿وَرِضْوَانًا﴾ وهو رضا الله عنهم.

﴿سَيِّمَاهُمْ﴾ أي علامتهم ﴿فِي وُجُوهِهِمْ﴾ وهل هذه العلامة في الدنيا، أو في الآخرة؟ فيه قولان

أحدهما: في الدنيا. ثم فيه ثلاثة أقوال:

أحدها: أنها السَّمْتُ الحسن رواه ابن أبي طلحة عن ابن عباس. وقال مجاهد: هو الخشوع والوقار والتواضع.

والثاني: أنه نَدَى الطَّهَّورِ وَثَرَى الأَرْضِ. قاله سعيد بن جبيرة. وقال أبو العالية: لأنهم يسجدون على التراب.

والثالث: أنه السَّهْمُ: وهو اصفرار الوجه من أثر السَّهْرِ. وهو مذهب الحسن وعكرمة.

القول الثاني: أنها في الآخرة. ثم فيها قولان:

أحدهما: أن موضع السجود من وجوههم يكون أشدَّ وجوههم بياضاً يوم القيامة. قاله عطية العوفي. وروي عن ابن عباس أنه قال: صلاتهم تبدو في وجوههم يوم القيامة.

والثاني: أنهم يبعثون غُرًّا مُحَجَّلِينَ من أثر الوضوء. قاله الزجاج، ويدل عليه ما روى مسلم في صحيحه من حديث أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ أنه قال: «أَنْتُمْ الْغُرُّ الْمُحَجَّلُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنْ إِسْبَاغِ الْوُضُوءِ؛ فَمَنْ اسْتَطَاعَ مِنْكُمْ فَلْيُطِلْ غُرَّتَهُ وَتَحْجِلْهُ».

قوله تعالى: ﴿ذَلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَةِ﴾ أي صفتهم. والمعنى: أن صفة محمد وأصحابه في التوراة هكذا.

(١) الفتح ٢٩.

فأما قوله: ﴿ومثلهم في الإنجيل﴾^(١) ففيه ثلاثة أقوال:
أحدها: أن هذا المثل المذكور أنه مثلهم في التوراة هو مثلهم في الإنجيل.
قاله مجاهد.
والثاني: أن المتقدم مثلهم في التوراة، فأما مثلهم في الإنجيل فهو كزرع.
قاله الضحاك.
والثالث: أن مثلهم في التوراة والإنجيل كزرع. ذكره أبو سليمان
الدمشقي.

قوله تعالى ﴿أَخْرَجَ شَطْأَهُ﴾ أي فراخه. يقال قد أشطأ الزرع فهو مُشْطِءٌ
إذا أفرخ ﴿فَازَرَهُ﴾ أي ساواه وصار مثل الأمّ ﴿فَاسْتَغْلَظَ﴾ أي غلظ
﴿فَاسْتَوَى عَلَى سَوْقِهِ﴾ وهو جمع ساق.
وهذا مثل ضربه الله عز وجل للنبي ﷺ، إذا خرج وحده فأتيه بأصحابه،
كما قوى الطاقة من الزرع بما نبت منها حتى كثرت وغلظت واستحكمت.
وفيمن أريد بهذا المثل قولان:
أحدهما: أن أصل الزرع عبد المطلب.

أخبرنا هبة الله أحمد الحريري، أنبأنا محمد بن علي بن الفتح، أخبرنا
الحسين بن شمعون، أنبأنا أبو بكر محمد بن جعفر بن محمد، حدثنا أبو
العباس عيسى بن اسحاق الأنصاري، حدثنا الحسين بن الحارث بن طئيب
الهاشمي، عن أبيه، عن داود بن أبي هند، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس
في قوله عز وجل: ﴿شَطْأَهُ﴾ قال: أصل الزرع عبد المطلب، أخرج شطأه:
أخرج محمداً ﷺ ﴿فَازَرَهُ﴾ بأبي بكر ﴿فَاسْتَغْلَظَ﴾ بعمر ﴿فَاسْتَوَى﴾
بعثمان ﴿عَلَى سَوْقِهِ﴾ علي بن أبي طالب.

والثاني: أن المراد بالزرع محمد.

أخبرنا محمد بن عبد الباقي البزار، أنبأنا أبو عمر الجوهري، أنبأنا
الحسين بن محمد بن عبّيد، أنبأنا إبراهيم بن عبد الله المخزومي، حدثنا

(١) الفتح ٢٩.

إسحاق بن إبراهيم؛ حدثنا علي بن إبراهيم، حدثنا الحسين بن علي الهمداني، حدثنا محمد بن عبد العزيز، عن الضحاك، عن ابن عباس: ﴿كَزَّرَعٍ﴾ قال: الزرع محمد. ﴿أَخْرَجَ شَطْأَهُ﴾ أبو بكر ﴿فَازَرَهُ﴾ بعمر ﴿فَاسْتَغْلَظَ﴾ بعثمان ﴿فَاسْتَوَى عَلَى سُوْقِهِ﴾ بعلي ﴿يَعْجَبُ الزَّرَّاعَ﴾ (١) قال: المؤمنون ﴿لِيَغِيْظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ﴾ قال: يقول عمر لأهل مكة: لا يُعْبَدُ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ بعد يومنا هذا سرًّا.

قال مالك بن أنس: مَنْ أَصْبَحَ وَفِي قَلْبِهِ غِيْظٌ عَلَى أَصْحَابِ رَسُولِ اللهِ ﷺ فَقَدْ أَصَابَتْهُ هَذِهِ الْآيَةُ.

واعلم أن فضائل الصحابة على جميع صحابة الأنبياء ظاهرة، وكان لسببهم سببان:

أحدهما: خلوص البواطن من الشك بقوة اليقين. وإلى هذا أشار رسول الله ﷺ: « مَا سَبَقَكُمْ أَبُو بَكْرٍ بِكَثِيرِ صَوْمٍ وَلَا صَلَاةٍ وَلَكِنْ بِشَيْءٍ وَقَرَّ فِي صَدْرِهِ ».

والثاني: بذل النفوس للمجاهدة والاجتهاد.

وقد عُلِمَ ما جرى لموسى مع أصحابه وعُلِمَ صبر صحابتنا.

ولما استشار رسول الله ﷺ الناسَ يومَ بَدْرٍ قال المِقْدَادُ: والله لو ضربت بطونها حتى تبلغِ بَرَكِ العِمَادِ لتابعنك، ولا نقول كما قال قومُ موسى: ﴿اذهب أنت وربك فقاتلا﴾ (٢).

وكان أبو طلحة يوم أحد يقول: نَحْرِي دُونَ نَحْرِكَ. وقُتِلَ يومئذ زوجُ امرأة وأبوها وابنها وأخوها فقالت: يا رسول الله ﷺ لا أبالي إذا سلِمْتُ مَنْ عَطِبَ!

قال ابن مسعود: إن الله نظر في قلوب العباد فوجد قلب محمد خير قلوب

(٢) المائدة ٢٨.

(١) الفتح ٢٥ - ٢٩.

العباد، فاصطفاه لنفسه فابتعثه برسالته، ثم نظر في قلوب العباد بعد قلب محمد فوجد قلوب أصحابه خير قلوب العباد فجعلهم وزراء نبيه ﷺ .

وقال ابن عمر: كان أصحاب رسول الله ﷺ خير هذه الأمة، أبرها قلوباً وأعمقها علماً وأقلها تكلفاً، قوم اختارهم الله عز وجل لصحبة نبيه ونقل دينه .

قال أبو زُرعة: شهد مع رسول الله ﷺ حجة الوداع أربعون ألفاً من الصحابة، وشهد معه تبوك سبعون ألفاً، وقُبض عن مائة ألف وأربعة عشر ألفاً من الصحابة، ممن روى عنه وسمع منه .

أخبرنا محمد بن عبد الملك، ويحيى بن علي، قالوا: أخبرنا ابن المسلمة، أنبأنا أبو طاهر المخلص، حدثنا البغوي، حدثنا محمد بن عبد المكي، حدثنا محمد بن طلحة المدني، عن عبد الرحمن بن سالم بن عبد الله بن عويم بن ساعدة، عن أبيه، عن جده، قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله اختارني واختار لي أصحاباً، فجعل لي منهم وزراء وأنصاراً، فمن سبهم فعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين، لا يقبل الله منه يوم القيامة صرفاً ولا عدلاً». تفرد برواية هذا الحديث محمد بن طلحة، وكان ثقة .

وفي الصحيحين من حديث أبي سعيد الخدري، عن النبي ﷺ أنه قال: «لا تسبوا أصحابي فإن أحدكم لو أنفق مثل أحد ذهباً ما أدرك مدّ أحدهم ولا أنصيفه» .

أخبرنا هبة الله بن محمد، أخبرنا الحسن بن علي، أنبأنا أحمد بن جعفر، حدثنا عبد الله بن أحمد، حدثني أبي، حدثنا يعقوب، حدثنا أبي، عن محمد بن إسحاق، حدثني صدقة بن يسار، عن عقيل بن جابر، عن جابر بن عبد الله فيما يذكر من اجتهاد أصحاب رسول الله ﷺ في غزاة فغشينا داراً من دور المشركين فأصبنا امرأة رجل منهم، ثم انصرف رسول الله ﷺ راجعاً، وجاء صاحبها وكان غائباً فذكر له مصابها، فحلف لا يرجع حتى يهريق في أصحاب رسول الله ﷺ دمًا .

فلما كان رسول الله ﷺ ببعض الطريق فنزل في شِعْبٍ من الشعاب وقال: من رجلٍ يكلؤنا فانتدب رجل من المهاجرين ، ورجل من الأنصار فقال: نحن يا رسول الله. قال: فخرجا إلى فم الشَّعْبِ دون العسكر. ثم قال الأنصاري للمهاجري: أتكفيني آخره وأكفيك أوله؟ قال: فقال المهاجري: بل اكفي أوله وأكفيك آخره. فنام المهاجري ، وقام الأنصاري فافتتح سورة من القرآن ، فبينما هو فيها يقرأها جاء زوجُ المرأة فلما رأى الرجلَ قائماً عرف أنه ربيبة القوم ، فنزع له السهم فيضعه فيه. قال: فينزعه فيضعه ، وهو قائم يقرأ في السورة التي هو فيها ولم يتحرك كراهية أن يقطعها ، قال: ثم عاد له زوج المرأة الثالثة بسهم فوضعه فيه ، ثم ركع وسجد ، ثم قال لصاحبه: أقعد فقد أُبْتُتْ. قال: فجلس المهاجري ، فلما رآها صاحب المرأة هرب وعرف أنه قد نُذِرَ به ، وإن الأنصاري يفوح دماً من رَمِيَاتِ صاحبِ المرأة قال: فقال له أخوه: يغفر الله لك! ألا كنتَ أذنتني أولَ ما زماك؟ قال: فقال: كنت في سورة من القرآن قد افتتحتها أصلي فيها ، فكرهتُ أن أقطعها ، وأيم الله لولا أن أضعُ ثُغْرًا أمرني رسولُ الله ﷺ بحفظه لقطع نفسي قبل أن أقطعها .

فسبحان من خصَّهم بهذه الفضائل ، وحرسهم من القصور والردائل .

الكلام على البسمة

وعظمتك أجدات صُمّت
وتكلمت عن أعظم
وأرتك قبرك في القبو
ولربما انقلب الشما
ونعتك أزمنة مضت
تبلى وعن صورٍ سبت
ر وأنت حي لم تومت
ت فحل بالقوم الشمت

يا مؤثراً على العرض العرض ، يا صحيحاً قد قتله المرض ، يا جامعاً للمال والعمر قد انقرض ، يا هدف البلايا سيصاب الغرض ، يا بائعاً الدين بتبيل

الغرض، من لك إذا ضقت عند الموت بالأهوال دَرَعاً، وحالت منك الحَلَى
وأجذب المرعى، واجتثَّ البلاء منك أصلاً وفرعاً، سالت الأماقي إذا لم ينفع
الراقي دمعاً، ولم يستطع للأذى ردّاً، ولا للردى دَفْعاً، وأخرس الموتُ منك
لساناً وأصمَّ سَمْعاً، وأضحى خَشِنَ التراب بعد لين الثياب لك دِرْعاً، وأصبحت
لُقى بين القوم في الثرى صرعى، يا من [هو] غرض الآفات ترشقه سهامها
رَشْقاً، لا بد مما وصفنا حتماً وحققاً، فتأهبُ للفناء فقلِّ ما تَبَقى، وتهياً للبلَى
فبعيد أن تتوقى، وأصيحْ لهاتف العير فقد حادثتكَ نُطقاً، وبادر السلامة
فسيستحيل الصَّقْفُ رَنَقاً، واحذر على نفسك أن تخسر وأن تشقى، واعمل ليوم
ترى فيه مدامع الخلائق لا تَرَقاً، وهم في أمر عظيم وأكرمهم عند الله الأتقى،
إن أعطيت بخلت بالمال وبَطِرْت، ومتى نبت رياشك نبت أرضُ الشُّكر
فَطِرْت، كيف بك يوم تُكوى بها جباههم، من لك حين توبخ: ﴿ هذا ما
كنزتم ﴾ (١)

ترمّم المال بالعرض تلمّ
لا سلم المال إذا العرض تلمّ
قد كنت ناديتك والأمر أمّ
فلم تطعني ربّ رأيٍ متهمّ
سمّعك واعٍ وبعقلك الصمّ
موارد الجهل مصادر الندم
ومن رمي بالموقظات لم ينم

قال كعب: إذا وضع العبد الصالح في قبره احتوشته أعماله الصالحة، فتجيء
ملائكة العذاب من قبل رجليه فتقول الصلاة: إليكم عنه فلا سبيل لكم عليه،
فقد أطال القيام لله عز وجل. فيأتونه من قبل رأسه فيقول الصيام: لا سبيل لكم
عليه فقد أطال ظمأه لله عز وجل في دار الدنيا. فيأتونه من قبل جسده فيقول
الحج والجهاد: إليكم عنه فقد أنصب نفسه وأتعب بدنه. ويأتونه من قبل يديه،

(١) التوبة ٣٥.

فتقول الصدقة: كُفوا عن صاحبي فكم من صدقة خرجت من هاتي اليدين حتى وقعت في يد الله عز وجل. فيقال له: نم هنياً طبت حياً وميتاً. وتأتية ملائكة الرحمة فتُفرشه فراشاً من الجنة ودثاراً من الجنة، ويُفصح له قبره مدّاً بصره، ويؤتى بقنديل من الجنة فيستضيء بنوره إلى يوم القيامة.

وقف بعض الحكماء على المقابر فقال: يا أهل القبور، أصبحتم نادمين على ما خلّفتكم في البيوت، وأصبحنا نقتل على ما ندمتم عليه، فما أعجبنا وأعجبكم.

يا أيها الواقف بالقبورِ بين أناسٍ غيَّبِ حُضورِ
قد أسكنوا في خرب مغمور بين الثرى وجندل الصخورِ
ينتظرون صيحة النُّشور لا تكُ عن حظك في غرورِ

قال بعض الصالحين: صليت ركعتين في الليل، ثم وضعت رأسي على قبر ثم نمت، فإذا صاحب القبر يقول: لقد آذيتني منذ الليلة، إنكم تعلمون ولا تعملون، ونحن نعلم ولا نعمل ولا نقدر على العمل، إن الركعتين اللتين ركعتهما خيرٌ من الدنيا وما فيها. ثم قال: جزى الله أهل الدنيا عنا خيراً أقرئهم منا السلام، فإنه يدخل علينا من دعائهم نور أمثال الجبال.

كان الربيع بن أبي راشد يخرج إلى الجبّان، فيقيم طول النهار، ويرجع مكتئباً فيقول له إخوانه وأهله: أين كنت؟ فيقول: كنت في المقابر، نظرت إلى قوم قد مُنعوا ما نحن فيه.

قَالَ مَا صَعَّرُوا الْخُدُودَ وَهَزَّوْا الْأُ

أَرْضَ فِي يَوْمِ مَحْفَلٍ وَرَكُوبِ
ثم أمسوا وقد القبور سكان أطبا
ق الثرى تحت جندل منصوب،
كم كريمٍ منهم يرى الوعد بخلا
مستقل لكثرة الموهوب
إن نفسي صارت علي حسيبي
والملاهي وقلت للنفس توبي
وتنحيت عن طريق اللاهي

الكلام على قوله تعالى

﴿وَلَا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ
وَجْهَهُ﴾ (١)

روى مسلم في صحيحه من حديث سعد بن أبي وقاص قال: نزلت هذه الآية في وفي ابن مسعود وصهيب وعمار، والمقداد، وبلال، قالت قریش لرسول الله ﷺ: إنا لا نرضى أن نكون أتباعاً لهؤلاء، فاطردهم عنك. فدخل من ذلك على رسول الله ﷺ ما شاء الله، فنزلت هذه الآية.

أخبرنا محمد بن عبد الباقي، أخبرنا أحمد بن أحمد الحداد، أخبرنا أبو نعيم أحمد بن عبد الله، حدثنا أبو بكر الصلحي، حدثنا عبيد بن غنام، حدثنا أبو بكر بن أبي شيبة، حدثنا أحمد بن المفضل، حدثنا أسباط بن نصر، عن السدي، حدثنا سعيد الأزدي، عن أبي الكنود، عن خباب بن الأرت قال: جاء الأقرع بن حابس التميمي هو وعيينة بن حصن الفزاري فوجدا رسول الله ﷺ قاعداً مع عمار وصهيب وبلال وخباب في أناس من ضعفاء المؤمنين، فلما راوهم حقروهم فخلوا به فقال: إن وفود العرب تأتيك، فنستحي أن ترانا العرب قعوداً مع هذه الأعبد، فإذا جئناك فأقمهم عنا. قال: نعم. قالوا: فاكتب لنا عليك كتاباً. فدعا بالصحيفة ودعا علياً ليكتب ونحن قعود في ناحية، إذ نزل جبريل عليه السلام فقال: ﴿وَلَا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ﴾ إلى قوله تعالى: ﴿وَإِذَا جَاءَكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِنَا﴾ الآية. فرمى رسول الله ﷺ بالصحيفة، ودعانا فأتيناه وهو يقول: سلام عليكم فدنونا منه حتى وضعنا ركبنا على ركبته. وكان رسول الله ﷺ يجلس معنا فإذا أراد أن يقوم قام وتركنا، فأنزل الله عز وجل: ﴿وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ﴾

(١) الأنعام ٥٢.

قال: فكنا بعد ذلك نقعد مع رسول الله ﷺ، فإذا بلغنا الساعة التي كان يقوم فيها قمناً وتركناه، وإلا صبر إذاً حتى نقوم.

قوله تعالى: ﴿يَدْعُونَ رَبَّهُمْ﴾ المراد بهذا الدعاء خمسة أقوال:

أحدها: أنه الصلاة المكتوبة. قاله ابن عمر وابن عباس.

والثاني: ذِكرُ الله عز وجل. قاله النَّخعي.

والثالث: عبادة الله عز وجل. قاله الضَّحَّاك.

والرابع: تعلُّم القرآن غدوةً وعشيةً قاله أبو جعفر.

والخامس: دعاء الله بالتوحيد والإخلاص وعبادته. قاله الزَّجَّاج.

قوله تعالى: ﴿يُرِيدُونَ وَجْهَهُ﴾ أي يريدونه بأعمالهم.

كانوا يصبرون على المجاعة، ويخلصون الطاعة، ولا يضيعون ساعة، فإيا فخرهم إذا قامت الساعة.

أخبرنا السَّجزيّ، أخبرنا الدِّراوردي، أنبأنا السَّرخسي، حدثنا القُرْبيريّ، حدثنا البخاري، حدثنا يوسف بن عيسى، حدثنا ابن فضيل، عن أبيه، عن أبي حازم، عن أبي هريرة قال: لقد رأيت سبعين رجلاً من أهل الصُّفَّة ما منهم رجل عليه زداء إماماً إزار، وإما كساء قد ربطوا في أعناقهم، فمنها ما يبلغ نصف الساقين، ومنها ما يبلغ الكعبين فيجمعه بيده كراهية أن تُرى عورته. انفراد بإخراجه البخاري.

وفي الصحيحين من حديث سهل بن سعد قال: إن كنا لنفرح بيوم الجمعة، كانت لنا عجوز تأخذ أصول السُّلق فتجعله في قدر لها، وتجعل فيه حبات من شعير، إذا صلينا زرناها فقربته إلينا.

وفي الصحيحين من حديث سعد بن أبي وقاص قال: كنا نغزو مع النبي ﷺ ما لنا طعام إلا ورق الحُبلة، وهذا السَّمُر.

لله در أقوام أخلصوا الأعمال وحققوها، وقيدوا شهواتهم بالخوف وأوثقوها، وسابقوا الساعات بالطاعات فسبقوها، وخلصوا أعمالهم من أشرار الرياء وأطلقوها، وقهروا بالرياضة أغراض النفوس الردية فمحقوها، فعن إبعاد مثلهم وقع نهي النبي ﴿ولا تطرد الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي﴾.

صعدت صحائفهم من الأكدار صافية، وارتفعت أعمالهم بالإخلاص صافية، وأصبحت نفوسهم عن الدنيا متجافية، والناس في أخلاط والقوم في عافية، ففاق المولى منهم على الرئيس القرشي ﴿ولا تطرد الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي﴾.

دموعهم بالأحداث مُحَدِّقَة، ورؤوسه في الأسحار مُطَّرَقَة، وأكفهم بما تسكبه في الخير مُنْفِقَة، ونفوسهم بعد الجدّ من اللوم مشفقة، يردون من حياض المصافاة على أوفى الرّي ﴿يدعون ربهم بالغداة والعشي﴾. خلصوا الأعمال على الأكدار نَفْلًا وقرضًا، واجتهدوا في طاعة مولاهم ليرضى، وحضوا أنفسهم لطلب الحظّ الأحظّ حصًا، وغضوا أبصارهم عن غضّ الشهوات غصًا، فإذا أبصرتهم رأيت أجساداً مَرَضِي وعيوناً قد ألفت السهر فما تكاد تطعم غمضًا، بادروا أعمارهم لعلمهم أنها ساعات تتقضّى، فأمدهم بالعون السرمدي ﴿يدعون ربهم بالغداة والعشي﴾.

ابتلاهم فرضوا وصبروا، وأنعم عليه فاعترفوا وشكروا، وجاءوا بكلّ ما يرضى، ثم اعتذروا، وجاهدوا العدو فما انقضت الحرب حتى ظفروا، فنالوا غاية الإمكان في المكان العلي ﴿يدعون ربهم بالغداة والعشي﴾.

لله درّ أناس أخلصوا العملًا على اليقين ودانوا بالذي أمروا
أولاهم نعمًا فزاد شكرهم ثم ابتلاهم فأرضوه بما صبروا
وفوا له ثم وافوه بما عملوا إذا سيوفهم يومًا إذا نُشِرُوا

قال سعد بن أبي وقاص: لقيت عبد الله بن جحش يوم أحد فقال: ياسعد ألا تدعو الله عز وجل؟ فدعا عبد الله فقال: يا رب إذا لقيت العدو غدًا فلقني

رجلاً شديداً بأسه أقاتله فيك، ويقاتلني، ثم يأخذني فيجدع أنفي وأذني، فإذا لقيتك غداً قلت: يا عبد الله من جدع أنفك وأذنك؟ فأقول: فيك وفي رسولك. فتقول: صدقت.

قال سعد: فلقد رأيتُه آخرَ النهار وإنَّ أنفه وأذنه لمعلقتان في خيط.

وأقبل مصعب بن عمير يوماً إلى رسول الله ﷺ وعليه قطعة من نَمرة قد وصلها ياهاب، فقال رسول الله ﷺ: لقد رأيتُ هذا وما بمكة فتى أنعم عند أبويه منه، ثم أخرجته من ذلك الرغبة في حبِّ الله ورسوله.

ولمّا كان يوم أحد كان معه لواء المهاجرين، فضربه ابن قَمِيّة فقطع يده، ومُصعَب يقول: ﴿وما محمدٌ إلا رسولٌ﴾ فأخذ اللواء بيده اليسرى وحنى عليه، فضرب يده اليسرى فقطعها، فحنى على اللواء وهو يقول: ﴿وما محمدٌ إلا رسولٌ﴾^(١) فقتل ولم يوجد له كفن إلا نَمرة كانوا إذا وضعوها على رأسه خرجت رجلاه، وإذا وضعوها على رجله خرج رأسه، فجعلوا على رجله شيئاً من الإذخر.

ولما تهياً الناس للخروج إلى غزوة مؤتة جعل المسلمون يقولون: صَحِيحِكُم اللهُ ودفع عنكم. فقال ابن رَوَاحَة:

لكنني أسأل الرحمن مغفرةً وضربةً ذات فرغٍ تقذف الزبدا
أو طعنةً بيدي حَرَّانٍ مُجَهَّزة بحربةٍ تُنفذ الأحشاء والكبدا
حتى يقولوا إذا مرُّوا على جدتي أرشدك الله من غازٍ وقد رشداً

أخبرنا محمد بن ناصر، وعلي بن أبي عمر، قالوا: أنبأنا رزق الله وطراد، قالوا: حدثنا أبو الحسين بن بشران، أنبأنا ابن صفوان، حدثنا أبو بكر القرشي، حدثني أبي، حدثنا عبد القدوس بن عبد الواحد الأنصاري، حدثنا الحكم بن عبد السلام، أن جعفر بن أبي طالب حين قُتل دعا الناس: يا عبد

(١) آل عمران ١٤٤.

الله بن رَواحة. وهو في جانب العسكر ومعه ضيلع جمل يَنْهشه، ولم يكن ذاق طعاماً قبل ذلك بثلاث. فرمى بالضلع، ثم قال: وأنت مع الدنيا! ثم تقدّم فقاتل فأصيب إصبه فارتجز:

هل أنت إلا إصبعٌ دَمِيتِ وفي سبيلِ الله ما لقيتِ
يا نفسُ إلا تُقتلي تموتي هذا حياضُ الموتِ قد صليتِ
وما تمّيتِ فقد لقيتِ إن تفعلني فَعَلهما هُديتِ

وإن تأخرتِ فقد شقيتِ

ثم قال: يا نفس إلى أي شيء تتوقين؟ إلى فلانة؟ فهي طالق ثلاثاً. وإلى فلان وفلان، غلمان له، [فهم أحرار] وإلى معجف حائط له، فهو الله ولسوله:

يا نفسُ مالك تَكْرهين الجَنَّةَ طائفةٌ أو لتُكْرهِنَّه
قد طال ما قد كنتِ مطمئنة هل أنت إلا نُطفة في سَنَّة

قد أجلب الناسُ وشَدُّوا الرنَّة

لله در أقوامٍ تعبوا فأريحوا، وزهدوا فأبيحوا، جليت أبصارهم فشاهدوا، وأعطوا سلاح المعونة فجاهدوا، وتأملوا الدنيا وسبروها، وعرفوا حالها وخبروها، فصدت نفوسهم، ما صدّها ما كانت تعبد وأقبلت على قبلة الإعتذار في مناجاة «ظلمت نفسي» فضربت بالدنيا وجه عشاقها، وشمرت في سوق الجِدِّ عن ساقها، ونقضت لتصحیح عملها مخدع الخديعة، ونقضت يد أملها من سراب بَقِيعَة، فحدت ركائب سيرها في إدلاج سُرّاهَا، وزادها نشاطاً حادي الهمة لَمّا حداها، فسبقت إلى الخلال الكرائم، ووصلت إلى الإفضال رأنت نائم.

قالت المَكْرَماتُ لستُ لمختار رٍ ولكن لصامدٍ لي صَمَدًا
ويُكَدّ الجثمانُ والروح والجَا ه طويلاً ولا يَرى الكَنَدَ كَدًا

يا هذا لو صحّت منك العزيمة أوقعت في جيش الهوى هزيمة، إن في
البدن مُضْغَةً إذا صلّحت صلّح البدن، وإذا فسدت فسد البدن ألا وهي القلب،
يا هذا متى حصل الفساد في رأي الملك تشتت الأعوان، ومتى رُمي القدر في
فُوّهة النهر أثر في المشارع.

وإذا كان في الأنابيب خُلْفٌ / وقع الطَّيْشُ في رءوس الصَّغَارِ
يا هذا إن أردت لقاءنا في حضرة القُدُس، واشتاق سمعك إلى نغمات
الأنس، فصم عن لذات النفس وشهوات الحسّ، واصبر على قطع مفاوز
الحزن، واستأنس ببيتك في بيت الوجد، وقضّ نهار المنى بمحادثة الفكر،
واقطع أمل الهوى بقهر العزم، واقرع فضول الكلام بسوط الصمت، وأقم على
طرف طرفك حاجب الغصّ، وانبد إلى كلب الشهوات كسر الصبر، وفرغ دار
عزلتك من شواغل القلب، فإذا سمعت ضجيج محبوس النفس يستغيث من
سجن الزهد لشدة الحصر فصح [به]: يا صاح صبراً على ضيق الحبس،
لعلك تخرج إلى رياض ﴿اجعلني على خزائن الأرض﴾ (١).

وقد صمّت عن لذات دَهْرِي كلها ويومُ لِقَاكم ذاك فِطْر صِيَامِي

(١) يوسف ٥٥.

المجلس الرابع والثلاثون

في فضل أمة محمد ﷺ

الحمد لله خالق الجامد والحساس، ومُبدع الأنواع والأجناس، القوي في سلطانه الشديد الباس، المنزه عن السنّة والنعاس، المخرج رطب الثمار من يابس الأغراس، نفذ قضاؤه فلم يمتنع بأحراس، وقهر عزه كلَّ صعب الميراس لا يعزّب عن سمعه حركات الأضراس، ولا ديبب ذرّ بالليل، في مطاوي قرطاس، نفذت مشيئته فكم مجتهد عاد بالياس، يفعل ما يريد لا بمقتضى تدبير الخلق والقياس، قدّم نبينا محمداً ﷺ عن كل نبي دبرّ وساس، فسبحان من أجزل له العطا، وجعله خير نبي حارب وسطا، وقال لأمته: ﴿وكذلك جعلناكم أمةً وسطا، لتكونوا شهداء على الناس﴾ (١).

أحمدته حمداً يدوم بدوام اللحظات والأنفاس، وأصلي على رسوله محمد الذي شرّعه مستقرّاً ثابت الأساس، وعلى صاحبه أبي بكر الثابت العزم، وقد ارتد الناس، وعلى عمر قاهر الجبابرة الأشواس، وعلى عثمان الصابر يوم الشهادة على مرير الكاس، وعلى عليّ أهدى الجماعة إلى نصّ أو قياس، وعلى عمه وصينو أبيه العباس.

قال الله تعالى: ﴿وكذلك جعلناكم أمةً وسطا﴾ الكاف في قوله: ﴿كذلك﴾ كاف التشبيه، فالكلام معطوف على قوله: ﴿ولقد اصطفيناك في الدنيا﴾ (٢) والتقدير: فكما اخترنا إبراهيم وذريته واصطفيناهم: كذلك

(١) البقرة ١٤٣.

(٢) البقرة ١٣٠.

جعلناكم أمة وسطاً أي عدولاً خياراً . ومثله : ﴿ قَالَ أَوْسَطُهُمْ ﴾ (١) أي خيرهم وأعدلهم .

هُم وَسَطٌ يَرْضَى الْأَنَامَ بِحُكْمِهِمْ إِذَا نَزَلَتْ إِحْدَى اللَّيَالِي بِمُعْظَمِ وَأَصْلُ هَذَا أَنَّ خَيْرَ الْأَشْيَاءِ أَوْسَاطُهَا ، وَأَنَّ الْعُلُوَّ وَالْتَقْصِيرَ مَذْمُومَانِ .

﴿ لَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ ﴾ وفيه قولان :

أحدهما لتكونوا شهداء يوم القيامة للأنبياء . على أممهم بأنهم قد بلغوا .

أخبرنا ابن الحصين ، أنبأنا ابن المذهب ، أخبرنا أحمد بن جعفر ، حدثنا عبد الله بن أحمد ، حدثني أبي ، حدثنا وكيع ، حدثنا الأعمش ، عن أبي صالح ، عن أبي سعيد الخدري ، قال : قال رسول الله ﷺ : يُدْعَى نُوحٌ عَلَيْهِ السَّلَامُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَيُقَالُ لَهُ : هَلْ بَلَغْتَ ؟ فيقول : نعم . فيدعى قومه فيقال لهم : هَلْ بَلَغْتُمْ ؟ فيقولون : ما أئانا من نذير . فيقال لنوح : من يشهد لك ؟ فيقول : محمد وأمته . فذلك قوله تعالى : ﴿ وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا ﴾ . قال : الوسط : العدل . قال : فُتَدْعَوْنَ فَتَشْهَدُونَ لِهِنِ بِالْبَلَاغِ . قال : ﴿ ثُمَّ أَشْهَدُ عَلَيْكُمْ ﴾ .

قال أحمد : وحدثنا أبو معاوية ، عن الأعمش ، عن أبي صالح ، عن أبي سعيد قال : قال رسول الله ﷺ : « يَجِيءُ النَّبِيُّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَمَعَهُ الرَّجُلُ وَالنَّبِيُّ وَمَعَهُ الرَّجُلَانِ وَأَكْثَرُ مِنْ ذَلِكَ . فَيُدْعَى قَوْمَهُ فَيُقَالُ لَهُمْ : هَلْ بَلَغْتُمْ هَذَا ؟ فيقولون : لا . فيقال له : هَلْ بَلَغْتَ قَوْمَكَ ؟ فيقول : نعم . فيقال له : من يشهد لك ؟ فيقول : محمد وأمته . فَيُدْعَى مُحَمَّدٌ وَأُمَّتُهُ . فيقال لهم : هَلْ بَلَغَ هَذَا قَوْمَهُ ؟ فيقولون ، نعم . فيقال : وما علمكم ؟ فيقولون : جاءنا نبينا فأخبرنا أن الرسل قد بلغوا . قال : فذلك قوله عز وجل : ﴿ وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا ﴾ قال : يقول : عدلاً ﴿ لَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ﴾ (٢) .

(٢) البقرة ١٤٣ .

(١) القلم ٢٨ .

القول الثاني: لتكونوا شهداء لمحمد على الأمم اليهود والنصارى
والمجوس، ويكون الرسول شهيداً عليكم بأعمالكم. قاله مجاهد.

واعلم أنه كما فضل نبينا ﷺ على جميع الأنبياء، فضلت أمتنا على سائر
الأمم.

أخبرنا هبة الله بن محمد، أنبأنا الحسين بن علي، أنبأنا أحمد بن جعفر،
حدثنا عبد الله بن أحمد، حدثني أبي، حدثنا عبد الرزاق، حدثنا معمر، عن
همّام بن مئب، حدثنا أبو هريرة، عن رسول الله ﷺ أنه قال: «نحن
الآخرون السابقون يوم القيامة بيد أنهم أوتوا الكتاب من قبلنا، وأوتيناه من
بعدهم فهذا يومهم الذي فرض عليهم فاختلفوا فيه، فهدانا الله له، فهم لنا فيه
تبع، فالיום لنا، ولليهود غداً وللنصارى بعد غد».

قال أحمد: وحدثنا يحيى، عن شعبة، حدثنا أبو إسحاق، عن عمرو بن
ميمون، عن عبد الله قال: كنا مع رسول الله ﷺ في قبة حمراء نحواً من
أربعين فقال: أترضون أن تكونوا رُبْع أهل الجنة. قلنا نعم. قال: أترضون أن
تكونوا ثلث أهل الجنة؟ قلنا: نعم. قال: فو الذي نفسي بيده إني لأرجو أن
تكونوا نصف أهل الجنة، وذلك أن الجنة لا يدخلها إلا نفس مسلمة، وما أنتم
في أهل الشرك إلا كالشعرة البيضاء في جلد ثور أسود، أو السوداء في جلد
ثور أحمر».

قال أحمد: وحدثنا إسماعيل، أنبأنا أيوب، عن نافع، عن ابن عمر، أن
رسول الله ﷺ قال: مثلكم ومثل اليهود والنصارى كرجل استعمل عمالاً
فقال: من يعمل لي من نصف النهار إلى صلاة العصر على قيراط؟ ألا فعلت
النصارى. ثم قال: من يعمل لي من صلاة العصر إلى غروب الشمس على
قيراطين؟ ألا فأنتم الذين عملتم. فغضب اليهود والنصارى فقالوا: نحن كنا
أكثر عمالاً وأقلّ عطاء. قال: هل ظلمتكم من حقكم شيئاً؟ قالوا: لا. قال:
إنما هو فضلي أوتيه من أشياء».

واعلم أن فضيلة هذه الأمة على الأمم المتقدمة وإن كان ذلك باختيار الحق لها وتقديمه إياها إلا أنه جعل لذلك سبباً، كما جعل سبب سجود الملائكة لآدم علمه بما جهلوا، فكذلك جعل لتقديم هذه الأمة سبباً هو الفطنة والفهم واليقين وتسليم النفوس.

واعتبر حالهم بمن قبلهم: فإن قوم موسى رأوا قدرة الخالق في شقّ البحر، ثم قالوا: ﴿اجعل لنا إلهاً﴾ (١). ثم مال كثيرٌ منهم إلى عبادة العجل. وعرضت لهم غزاة فقالوا: ﴿اذهب أنت وربك فقاتلاً﴾ ولم يقبلوا التوراة حتى نُتق عليهم الجبل. ولما اختار سبعين منهم فوقع في نفوسهم ما أوجب تزلزل الجبل بهم.

ولهذا لما صعد نبينا ﷺ إلى حراء في جماعة من أصحابه تزلزل الجبلُ فقال: «اسكنن فما عليك إلا نبيّ، أو صديق، أو شهيد». فكانه أشار إلى أنه ليس عليك من يشكّ كقوم موسى.

ومن تأمل حال بني إسرائيل رأهم قد أمروا بقول ﴿حِطَّة﴾ فقالوا: ﴿حِطَّة﴾ وقيل لهم: ﴿ادخلوا الباب سجّداً﴾ (٢) فدخلوا زحفاً. وقالوا عن نبيهم: هو آدر. ومن مذهبه التشبيه والتجسيم، وهذا من أعظم التغفيل، لأن الجسم مؤلّف، ولا بد للمؤلّف من مؤلّف.

ومن غفلة النصارى: اعتقادهم أن الله تعالى جوهر، والجوهر يتمائل، ولا مثل للخالق. ثم يقولون: عيسى ابنه، وقد علم أن الابن بعض، والخالق سبحانه لا يتجزأ فلا يتبعّض. ثم قد علموا أن عيسى لا يقوم إلا بالطعام، والإله من قامت به الأشياء لا من قام بها.

وقد عرف يقين أمتنا وبذلهم أنفسهم في الحروب وطاعة الرسول، وحفظهم للقرآن، وأولئك كانوا لا يحفظون كتابهم، فلهذا فضّلوا.

(١) الأعراف ١٣٨.

(٢) النساء ١٥٤.

فهم أولُ أمةٍ يدخلون الجنةَ . وقد قال عليه السلام: «أهلُ الجنةِ مائةٌ وعشرون صفًا، أمّتي منهم ثمانون صفًا» .

أخبرنا ابن الحُصَيْن، أنبأنا ابن المذْهَب، أنبأنا أحمد بن جعفر، حدثنا عبد الله بن أحمد، حدثني أبي، حدثنا يزيد، حدثنا بهز بن حكيم بن معاوية، عن أبيه عن جده، عن النبي ﷺ أنه قال: «ألا إنكم تُوفون سبعين أمة أنتم خيرها وأكرمها على الله تعالى» .

فالحمد لله الذي أعطانا بجوده وفضله ما لَسْنَا من أهله .

الكلام على البسمة

لِلنَّقْصِ مِنْ أَعْمَارِنَا مَا يَكْمُلُ	والدهر يُؤْتِنَا ونحن نُؤْمَلُ
تَمْشِي الْمَنُونُ رُؤْيِدَهَا لَتَغْرِنَا	أَبْدًا فَتُدْرِكُنَا ونحن نُهْرُولُ
يَا مُعْجَبًا بِالْعَيْشِ طَالَ بَقَاؤُهُ	بَطْرًا بَقَاؤُكَ فِي الْمَنِيَةِ أَطْوَلُ
عَنْ جَانِبِي دِنْيَاكَ فَارْغَبْ إِنَّهُ	أَوْدَى الْحَرِيصُ وَمَا نَجَا الْمَتَوَكِّلُ
وَإِذَا الْجَفُونَ تَخَلَّصَتْ مِنْ مُجْمَلِ	الشبهات خَلَّصَ نَفْسَهُ مِنْ يَعْقَلُ
دِنْيَا تَسْرُّ بِمَا يَضُرُّ بِمِثْلِهِ	وَأَسْمٌ لَهَا شَهْدٌ وَمَعْنَى حَنْظَلُ

يا هذا: الدنيا دار المحن ودائرة الفتن، ساكنها بلا وطن، واللييب قد فطن، أين من مالٍ إلى حب المال بالآمال وصبًا، وأصبح بين غبوقه وصبوحه لا يعرف وصبًا، وتقلّب بجهله في روضتي هوى وصبيا، وأضحى علم شهواته على قباب عزه منتصبًا، وظلّ ربيع ربه بوفور جمعه خصبًا، وكلما دعي إلى نفعه في عاقبته أبي، أما شارك بمصرعه الفاجع له أمًا وأبا، أما صار إذ رحل نبا، أتراه تزود لمذهبه إذ أذهب ذهبًا، لقد لقي والله إذ نصب الموت شركه نصبا، أين من رضي ظلال البطالة بضلاله ربعا وفنا، أما أدركه التلف في أسوأ حاله ثيابًا وفنا، لقد غادره جفاؤه لِمَا ينفعه جفا، لا يجد مرضه إذ تمكن من جملة شفا، أين من كان مجلسه بين الناس في الصدور، أين من كانت همته

نِضَارُ القُصُورِ، أما استلبه الموتُ من المنازل والقصور، أين من كانت تقوى بسقائه الظهور، أما عدم الظَّهير عند الموت حين الظهور، حام الحِمَام حول حِمَاه فلم ينفعه الحِمَى، ورام راميهِ مراميهِ فرماه إذ رمى، وصاحت به هانفَاتُ الفراق بملء فيها، ولفظته المنازل كأن لم يكن فيها، كأن لم تعلق راحته براحة الهوى إذ زَلَّ قدمه في التلف وهوى، وكأنه ما عزم على غرض ولا نوى إذ جذبته بأيديها النوى، وكأنه ما تحرك من مراد ولا التوى حين أدركه سكون التلف والتوى انبتَ واللّه حَبْلُ بقاءه بأقطع المَدَى، وانتشر منظوم حياته وانقطع المَدَى، فأخرج عن الإنس كأنه ليس من الجنس، وكُفَّ كَفَّهُ في الرَّمْس بعد تصرف الخَمْس، وأصبحت منازلُه إذ لم يصبح بها ولم يُمس كأن لم تَغَنَّ بالأمس.

أخي إنما الدنيا محلّة نَعَصَةٍ ودارُ غرورِ آذنتُ بفراقِ
تزوّدُ أخي من قبل أن تسكن الثّرى ويلتفّ ساقٌ للممات بساقِ
ما أقرب ما هو آت، ما أبعد ما قد فات، ما أغفل الأحياء عما حلَّ
بالأموات.

يا غافلين عن الفنا ليس الفنا عنكم بغافلٍ
أخبرنا يحيى بن علي المدير، أخبرنا عبد الصمد بن المأمون، أخبرنا الدارقطني، حدثنا الحسين بن إسماعيل، حدثنا يوسف بن موسى، حدثنا أبو أسامة، عن بُرَيْد، عن أبي بُرْدَة، عن أبي موسى، عن النبي ﷺ قال: «إن مثلي ومثل ما بعثني الله به كمثل رجلٍ أتى قومه فقال: يا قوم إني رأيت الجيشَ بعيني وأنا النذير العريان، فالنجاه. فأطاعه طائفة من قومه فأدّ لجوا، وانطلقوا على مهلهم فنَجّوا، وكذّبت طائفة منهم فأصبحوا مكانهم فصبحهم الجيش فأهلكهم واجتاحهم. فذلك مثل من أطاعني واتبع ما جئت به ومثل من عصاني وكذب ما جئت به من الحق.»
أخرجاه في الصحيحين.

وروى أبو هريرة عن النبي ﷺ أنه من أحد يموت إلا ندم قالوا: فما ندمه يا رسول الله؟ قال: إن كان محسناً ندم أن لا يكون ازداد، وإن كان مسيئاً ندم أن لا يكون نزع».

يا من لا يسمع قولَ ناصح، أما هذا الشيب دليلٌ واضح، لمن نحدث والقلب غائب، ليتنا نعلم مُستقرّه فنكاتِب، قلنا له: بياضُ الشيب قد فَضَحَكَ فَضَحِكَ، يجمع التقصيرَ إلى التفريط ويضم، وينوي فعلَ الذنوب، فيعزم ويهم، ويحك تأمل هلالَ الهدى فما خفي ولا غمّ، واسمع واعظ العبر فقد زرع الجبال الشّم، وأيقظ قلبك الغافل وهيئات لا تسمع الصّم، وعمّ في بحر حزنك على ذنوب تَعَمّ، فلقد بالغنا في زجرك، يا من بالزجر قد أمّ، فإذا رضيت أن تكون لنفسك مُبيرا فلحى الله ظئراً أشفق من الأمّ.

الكلام على قوله تعالى

﴿كنتم خير أمة أخرجت للناس﴾^(١)

في ﴿كنتم﴾ قولان:

أحدهما: أنه بمعنى الماضي. ثم فيه خمسة أقوال:

أحدها: كان وصفكم في البشارة بكم قبل وجودكم: أنكم خير الناس. قاله الحسن.

والثاني: كنتم في سابق علم الله تعالى وحكمه. قاله ابن مقسم.

والثالث: كنتم في اللوح المحفوظ قد كتبتم خير أمة.

والرابع: كنتم مذ كنتم. والمعنى: ما زلتم. قاله ابن الأنباري.

والخامس: وجدتم وخلقتهم خير أمة.

(١) سورة آل عمران ١١٠.

القول الثاني: أن معنى ﴿كنتم﴾: أنتم. مثل قوله تعالى: ﴿وكان الله غفوراً رحيماً﴾ (١) قاله الزجاج. وقال ابن قتيبة: وقد يأتي الفعل على بنية الماضي، وهو ذاهب، أو مستقبل كقوله: ﴿كنتم﴾ ومعناه أنتم ومثله ﴿إذ قال الله﴾ (٢) أي وإذ يقول. ومثله: ﴿أتى أمر الله﴾ (٣) ومثله ﴿من كان في المهدي﴾ (٤) ومثله ﴿فسقناه إلى بلد ميت﴾ أي فسوقه. قال أبو هريرة: في قوله: ﴿كنتم خير أمة أخرجت للناس﴾: يجيئون بهم والأغلال في أعناقهم، فيدخلون في الإسلام.

قال عطية: يشهدون للأنبياء بالتبليغ.

اعلم أن الخيرية تشمل أمتنا أولها وآخرها، وإن كان للأول فضل السبق.

أخبرنا الكروخي، أنبأنا ابن عامر الأزدي، وأبو بكر الغورجي، قالا: أنبأنا الجراحي، حدثنا المحبوبي، حدثنا الترمذي، حدثنا قتيبة، عن حماد، عن ثابت البناني، عن أنس، عن النبي ﷺ أنه قال: «مثل أمي مثل المطر لا يدرى أوله خير أم آخره».

فإن قيل: هذا يوجب تردداً في تفضيل الصحابة؟ فالجواب: أنه أراد تقريب آخر الأمة إلى أولها في الفضل، كما تقول: لا أدري: أوجه هذا الثوب خير أم مؤخره؟ وقد علم أن وجهه أفضل، لكنك تريد تقريب مؤخره من وجهه في الجود. ذكره ابن قتيبة.

فأما فضل الصحابة فلا يشك فيه، إذ لهم صبرٌ على الحق لا يشاركهم فيه أحد.

كان بلال يعذب في الرمضاء ويقولون له قل: اللات والعزى. وهو يقول: أحد أحد. وكان عمّ الزبير يعلق الزبير، ويدخن عليه بالنار ويقول: ارجع إلى الكفر فيقول: لا أرجع.

(٣) مريم ٢٩.

(٢) النحل ١.

(١) سورة المائدة ١١٠.

أخبرنا عبد الوهاب بن المبارك، أخبرنا أبو الحسن علي بن محمد الخطيب، أنبأنا أحمد بن يوسف، أنبأنا الحسين بن صفوان، أخبرنا أبو بكر القرشي، أخبرنا علي بن الجعد، أخبرنا عمرو بن الشمر، حدثني إسماعيل السّدي، قال: سمعت أبا أراكة قال: صليتُ مع عليّ رضي الله عنه صلاة الفجر، فلما سلم انفتل عن يمينه ثم مكث كأن عليه كآبة، حتى إذا كانت الشمس على حائط المسجد قيد رُمح قلب يده فقال: والله لقد رأيت أصحاب رسول الله ﷺ، فما أرى اليوم أحداً يشبههم، لقد كانوا يُصبحون شُعْثاً غُبْرًا بين أبعينهم أمثال رُكَب المِعْزى، قد باتوا لله سُجْدًا وقيامًا يتلون كتاب الله، يراوحن بين جباههم وأقدامهم، فإذا أصبحوا فذكروا الله مادوا كما يُمِيد الشجر في يوم الريح، وهملت أعينهم حتى تبلّ ثيابهم، والله لكأنّ القوم باتوا غافلين. ثم نهض فما رُئي بعد ذلك مُفْتَرًا يضحك، حتى ضربه ابن مُلْجم.

ولقد جاء من بعد الصحابة سادات برزوا في العلم والعمل.

كان أبو مسلم الخولاني قد علّق في مسجده سوطاً يعذب به نفسه كلما فترت ويقول: أتظن الصحابة أن يستأثروا بمحمد دوننا؟ والله لأزاحمنهم عليه زحاماً حتى يعلموا أنهم قد خلفوا رجالاً.

وكان عامر بن عبد قيس يصلي كل يوم ألف ركعة.

وكان كهّمَس يختم في الشهر تسعين ختمة.

وصلى سليمان التيميّ الفجر بوضوء العشاء أربعين سنة.

وكان سُفْيَان الثَّوْرِي غايَةً في العلم والعمل فغلبه الخوف فصار يبول الدم، فحُمِل ماؤه إلى الطيب فقال: هذا لا يشبه ماء المسلمين هذا ماء الرهبان، هذا رجل فتّت الحزن كبده.

وحُمِل ماء سَرِي السَّقَطِي إلى الطيب فلما نظر إليه قال: هذا بول عاشق. قال حامله: فصعقت وغشي عليّ. ثم رجعت إلى سَرِي فأخبرته فقال: قاتله الله

ما أبصره .

إذا أنا واجهتُ الصَّبَّاءَ عادَ بَرْدُهَا من حَرَ أنفاسي عليه لهيبُ
وقد أكثرتُ في الأَطباءِ قولَهُم ومالي إلا أن أراك طيبُ
يسالمُ قلبي الهمُّ فهو حَليفُهُ وبين جفوني والرقادِ حُرُوبُ

كان أبو عبيدة الخَواص يقول: واشوقاه إلى من يراني ولا أراه.

وكان ولهان المجنون يقول: عَدِمْتُ قلباً يحب غيرك، وثكلتُ خواطر
أنست بسواك .

وقيل لبعض عقلاء المجانين: لِمَ سُميتَ مجنوناً؟ فقال: لَمَّا طال حبسي عنه
في الدنيا سُميتَ مجنوناً لخوف فراقه .

قلبي يحبك ما يُفيد ق وجفني عيني ما ينامُ
قد طال فيك الليلُ حد تسي ما يقال له انصرامُ
والنجمُ فيه راكِدٌ والفجر يمنعُه الظلامُ
ليلٌ بغير نهايةٍ ولكلِّ مفتاحٍ ختامُ
ففي وصلك العيشُ الهند سي وهجرك الموتُ الزوامُ

قال الشَّبلي: جُرْتُ براهب فقلت: لمن تعبَّد؟ فقال: لعيسى، قلت: ولم؟
قال: لأنه بقي أربعين يوماً لا يأكل. فقلت: فعُدَّها عليَّ. فأقمت تحت
صومته أربعين يوماً لم آكل فأسلم.

أخبرنا أبو معمر الأنصاري، أنبأنا محفوظ بن أحمد الفقيه، قال: قال لنا
أبو علي الحسن بن غالب الحيري، سمعت أبا سعيد أحمد بن المبارك البزاز
يقول: سمعت عمي محمد بن أحمد يقول: رأيت في المنام رسولَ الله ﷺ
في جامع الخليفة، وإلى جانبه رجل مكتهل فسألت عنه فقيل: هو عيسى بن
مريم وهو يقول للنبي ﷺ: أليس من أمتي الرهبان؟ أليس من أمتي الأخبار؟
أليس من أمتي أصحاب الصوامع؟ فدخل أبو الحسين بن سمعون فقال له

رسول الله ﷺ : في أمتك مثل هذا ؟ فسكت . فانتبهت .

كانت قلوبهم بالحق متعلقة ، وأنوارهم على الظواهر متألقة ، كلما هدلت
حمامٌ نوحهم هطلت غمامٌ شجّوهم ، دموعهم في الدجى ذوارف لما بين
أيديهم من المخاوف ، يغسلون بالبكاء ذنوبَ الصحائف ، خوفهم شديد وما
فيهم مخاليف ، إذا جنَّ الليلُ فالقدَم واقف ، يحنّون إلى الحبيب حنين شارف ،
الدمع مساعد ، والحزن مساعد ، يفزعون إلى التذكر إذا مسَّهم طائف ، أحوالهم
عجّاب وأمورهم طرائف ، كم بينهم وبين قوم موسى ؟ انقُدوا يا صيَّارَف .

أولئك قومٌ إن بنوا أحسنوا البنَا وإن عاهدوا أوفوا وإن عقّدوا شدّوا
وإن كانت النعماء فيهم جزوا بها وإن أنعموا لا كدروها ولا كدّوا
وحدّثني يا سعدُ عنهم فزدّني جنونا فزدني من حديثك يا سعدُ

علموا أن الدنيا متاع يَفنى فعبروها ، وما عمروها للسكنى ، واشتغلوا بدار
كلما نقضت هذه تُبنى ، طرق الوعظ أسماعهم فتملّحوا المعنى ، يأخذون أهبة
الرحيل ولا يأخذون عرضَ هذا الأدنى ، لا كِبَر عندهم تراهم بين المساكين
والزمنى ، لو تأملتهم رأيت ضلوعاً على المحبة تُحنى ، حلّف صادقهم على هجر
الهوى ، فلا والله ما استثنى ، وأقبلوا على قدَم الفقر ، فلما رأهم أغنى ، ذكروا
الجنة فاشتاقوا ولا شوق قيس إلى لُبني .

قال النبي ﷺ : « اشتاقت الجنة إلى عليّ وعمّار وسلّمان » .

إلى الزهاد في الدنيا جنان الخلد تشتاقُ
عبيدٌ من خطاياهم إلى الرحمن أبّاقُ
حدّثهم نحوه الرغبة والرهبنة فاشتاقوا
وراقّت لهم الدنيا وعاقبتهم فما انعاقوا
عليهم حين تلقاهم سكينات وإطراقُ
يضجّون إلى الله ودمع العين مهُراقُ
توهمهم وقد مالت بسكر القوم أحداقُ

وقد قاموا فلا يَهْجُ عٌ من قد ذاق ما ذاقوا

قال عبد الواحد بن زيد: هجمنا مرةً على نفر من العباد في بعض السواحل، فتفرقوا حين رأونا، فارتقينا على تلك الجزيرة وبتنا تلك الليلة، فما كنا نسمع عامة الليل الصراخ والنفور من النار، فلما أصبحنا طلبناهم وتبعنا آثارهم فلم نرَ أحداً!

نفذت أبصارُ بصائرهم بنور الغيب إلى مشاهدة موصوف الوعد، تعلقت أكفُ الآمال بما عاينت نواظرُ القلوب، فأخمصوا البطون وعضوا الجفون، وأهملوا الدموع على تمللم ملسوع، لو رأيتهم من خوف البين على أرجاء الرجا، الدموع كالسيل والليل قد دجا، ذكروا ظلم النفوس والظلام قد سجا، فمال القلبُ إلى اليأس بفتوى الحجا، فهبَّ عليهم نسيمُ الظن فرجاً فرجاً.

وقفنا فمن باكٍ أجابت دموعه ومعتصمٍ بالصبر لم يملك الصبراً
ومن سائرٍ أجنانه يمينه ومُلِقٌ على أحشائه يده اليسرى
ومن طائشٍ لم يسعد الدمعُ وجده وشرُّ البكا ما استفدَ الأدمع الغزراً
وقد ملقتُ حوصُ الركابِ لبيننا فلم نستطع ضعفاً لشاردها زَجراً

قال بعض الصالحين: لقيتُ غلاماً في طريق مكة يمشي وحده فقلت له: ما معك مؤنس؟ قال: بلى. قلت: أين هو؟ قال: أمامي وخلفي وعن يميني وعن شمالي، ومن فوقني؟ قلت: أما معك زاد؟ قال: بلى. قلت: أين هو؟ قال: الإخلاص والتوحيد والإيمان والتوكل. قلت: هل لك في مرافقتي؟ فقال: الرفيق يشغل عن الله عز وجل ولا أحب أن أرافق من يشغلي عنه طرفة عين. قلت: أما تستوحش في هذه البرية؟ قال: إن الأنس بالله قطع عني كلَّ وحشة، فلو كنتُ بين السباع ما خِفْتُها. قلت: ألك حاجة؟ قال: نعم إذا رأيتني فلا تكلمني فقلت: ادع لي. قال: حجَبَ الله طرْفك عن كل معصية، وألهم قلبك الفكر فيما يرضيه. قلت: حبيبي أين ألقاك؟ قال: أما في الدنيا فلا تحدث نفسك بلقائي، وأما الآخرة فإنها مَجْمع المتقين، فإن طلبتني هناك فاطلبني في زُمْرة الناظرين إلى الله عز وجل. قلت: وكيف علمت؟ قال: بغض طرفي له

عن كل مُحَرَّم واجتنابي فيه كل مُنْكَر ومأثم، وقد سألته أن يجعل جنتي النظر إليه. ثم صاح وأقبل يسعى حتى غاب عن بصري.

وما تلوّم جسمي عن لقائكم إلا وقلبي إليكم شَيِّقٌ عَجَلُ
وكيف يقعد مشتاقٌ يحركه إليكم الحافزان الشوق والأملُ
فإن نهضتُ فمالي غيركم وطّر وإن قعدتُ فمالي غيركم شغلُ
وكم تعرّض لي الأقبام بعدكم يستأذنون على قلبي فما وصلوا

سجع على قوله تعالى

﴿ كنتم خير أمة أخرجت للناس ﴾

سبحان من قدّمنا على جميع الناس، وسقانا من معرفته أروى كاس، وجعل
نيننا أفضل نبي رعى وساس، فلما فضّله على الأمة، وأنعم علينا بعلو الهمة،
قال لنا: ﴿ كنتم خير أمة أخرجت للناس ﴾.

أفي الأمم مثل أبي بكر الصديق، أو عمر الذي أغصّ كسرى بالريق، أو
عثمان الصابر على مرّ المذيق، أو عليّ بحر العلم الغمر العميق؛ أو مثل حمزة
والعباس.

أفيهم مثل طلحة والزبير القرينين، أو سعد وسعيد هيهات من أين، ألهم
صبر خبّاب وخيّب، ومن مثل الاثنين، إن شبهناهم بهم أبعدنا القياس. هل
شجرة الرضوان في أشجارهم، هل وقعة بدر من أسمارهم، إنما عرضت لهم
غزاة في جميع أعمارهم، وجهادنا مع الأنفاس ﴿ كنتم خير أمة أخرجت
للناس ﴾.

أين أصحاب الأنبياء من أصحابنا، هيهات ما القوم من أضرابنا، ولا ثوابهم
في الأخرى مثل ثوابنا، نُتق الجبل فقالوا: أقلنا، ونحن قلنا في كتابنا: على
العينين والراس ﴿ كنتم خير أمة أخرجت للناس ﴾.

ردّوا كتابهم وقد سطر وصلك، وطلبوا صنماً، وقيد الهجر قد فُكّ،

وشكّوا عند الجبل وما فينا من يشك، إن تشبيه المسك باللك وسواس. غمّهم
التغفيل وتناهى، فاعتقدوا للخالق أشباها، فقالوا يوم اليمّ: ﴿اجعل لنا إلهًا﴾
وما في عقائدنا نحن التباس.

أثر الصحابة الفقراء والمجاعة، واشتغلوا عن الدنيا بالطاعة، وسألت النصارى
مائدة للمجاعة، إنما طلبوا قوت الأضراس.

أعد رهبانهم كزهد أويس، أفي متعبدّهم كعامر بن قيس، أفي خائفهم
كالفضيل، هيهات ليس ضوء الشمس كالمقباس.

أفيهم مثل بشر ومعروف، أفي زهادهم مذكور معروف، أفي طوائفهم
طائفة صلّت وقد صلّلت السيوف ورنّت الأقباس.

أفيهم مثل أبي حنيفة ومالك، أو كالشافعي الهادي إلى المسالك، كيف لا
تمدحه وهو أجل من ذلك، ما أحسن بنيانه والأساس.

أفيهم أعلى من الحسن وأنبل، أو ابن سيرين الذي بالورع تُقبّل، أو كأحمد
الذي بذل نفسه وسبّل، تالله ما فيهم مثل ابن حنبل، ارفع صوتك بهذا ولا باس
﴿كنتم خير أمةٍ أُخرجت للناس﴾ (١).

انتهى الجزء الأول من كتاب التبصرة

للإمام أبي الفرج عبد الرحمن بن

الجوزي

ويليه الجزء الثاني وأوله: « الطبقة الثانية ».

(١) آل عمران ١١٠.

فهرسُ الموضوعات

الصفحة	الموضوع
٤-٣	المصنّف والمصنّف
٩	خطبة الكتاب
١٩	الطبقة الأولى فيها أربعة وثلاثون مجلساً:
٢١	المجلس الأول في ذكر آدم عليه الصلاة والسلام
٢٨	الكلام على البسمة: (مختارات وعظية وشعرية)
٣٣	الكلام على قوله تعالى: ﴿التائبون العابدون الحامدون﴾
٣٩	سجع على قوله تعالى: ﴿التائبون العابدون﴾
٤١	المجلس الثاني في قصة قابيل وهابيل
٤٧	الكلام على البسمة: (مختارات)
٥٠	الكلام على قوله تعالى: ﴿وسارعوا إلى مغفرة من ربكم﴾
٥٣	سجع على قوله تعالى: ﴿الذين يُنْفِقون في السراء والضراء﴾
٥٧	المجلس الثالث في ذكر إدريس عليه السلام
٦١	الكلام على البسمة (مختارات)
٦٤	الكلام على قوله تعالى: ﴿قل انظروا ماذا في السموات والأرض﴾ ..
٦٨	سجع على قوله تعالى: ﴿وما تُغني الآياتُ والندُرُ عن قوم لا يؤمنون﴾
	سجع على قوله تعالى: ﴿فهل ينتظرون إلا مثل أيام الذين خلوا من
٦٩	قبلهم﴾
٧٢	المجلس الرابع في ذكر نوح عليه الصلاة والسلام
٧٧	الكلام على البسمة (مختارات)
	سجع على قوله تعالى: ﴿يوم تجد كل نفس ما عملت من خير
٧٩	مُحضراً﴾
٨١	الكلام على قوله تعالى: ﴿ويحذركم الله نفسه﴾

الموضوع

الصفحة

- المجلس الخامس في قصة عاد ٨٥
- الكلام على البسملة (مختارات) ٨٩
- الكلام على قوله تعالى: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غَافِلًا عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ﴾ ٩١
- سجع على قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الْأَبْصَارُ﴾ .. ٩٣
- سجع على قوله تعالى: ﴿هَذَا بَلَاغٌ لِلنَّاسِ وَلِيُنذِرُوا بِهِ﴾ ١٩
- المجلس السادس في قصة ثمود ١٠٠
- الكلام على البسملة (مختارات) ١٠٣
- الكلام على قوله تعالى: ﴿وَاسْتَمِعْ يَوْمَ يُنَادِي الْمُنَادِي﴾ ١٠٥
- سجع على قوله تعالى: ﴿فَذَكَرَ بِالْقُرْآنِ مَنْ يَخَافُ وَعِيدَ﴾ ١١٠
- المجلس السابع في قصة إبراهيم الخليل عليه السلام ١١٢
- الكلام على البسملة (مختارات) ١١٨
- الكلام على قوله تعالى: ﴿قُلْنَا يَا نَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَى إِبْرَاهِيمَ﴾ ١٢٠
- سجع على قوله تعالى: ﴿قُلْنَا يَا نَارُ كُونِي بَرْدًا...﴾ ١٢٢
- المجلس الثامن في قصة بناء الكعبة ١٢٥
- الكلام على البسملة (مختارات) ١٣٢
- الكلام على قوله تعالى: ﴿فِي بُيُوتٍ أُذِنَ لِلَّهِ أَنْ تَرْفَعَ﴾ ١٣٥
- سجع على قوله تعالى: ﴿يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَالْأَبْصَارُ﴾ ١٣٩
- المجلس التاسع في ذكر إسحاق وقصة الذبح ١٤١
- الكلام على البسملة (مختارات) ١٤٥
- الكلام على قوله تعالى: ﴿لَيْسَ بِأَمَانِيكُمْ وَلَا أَمَانِي أَهْلِ الْكِتَابِ﴾ ... ١٤٨
- سجع على قوله تعالى: ﴿مَنْ يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ﴾ ١٥٢
- المجلس العاشر في قصة لوط عليه السلام ١٥٤
- الكلام على البسملة (مختارات) ١٥٧
- الكلام على قوله تعالى: ﴿قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ﴾ ١٦٠

- ١٦٦ سجع على قوله تعالى: ﴿قل للمؤمنين يغضوا من أبصارهم﴾
- ١٦٨ المجلس الحادي عشر في قصة ذي القرنين
- ١٧٣ الكلام على البسمة (مختارات)
- ١٧٦ الكلام على قوله تعالى: ﴿فهل ينظرون إلا الساعة أن تأتيهم بغتة﴾ .
- ١٧٩ سجع على قوله تعالى: ﴿فأنتى لهم إذا جاءتهم ذكراهم﴾
- ١٨١ المجلس الثاني عشر في قصة يوسف عليه السلام
- ١٨٦ الكلام على البسمة (مختارات)
- ١٨٨ الكلام على قوله تعالى: ﴿وقضى ربك ألا تعبدوا إلا إياه﴾
- ١٩٢ سجع على قوله تعالى: ﴿وقل رب ارحمهما كما ربياني صغيرا﴾
- ١٩٤ المجلس الثالث عشر في قصة أيوب عليه السلام
- ١٩٨ الكلام على البسمة
- ٢٠١ الكلام على قوله تعالى: ﴿إني جزيتهم اليوم بما صبروا﴾
- ٢٠٥ سجع على قوله تعالى: ﴿إني جزيتهم اليوم بما صبروا﴾
- ٢٠٧ المجلس الرابع عشر في ذكر قصة شعيب عليه السلام
- ٢١١ الكلام على البسمة (مختارات)
- ٢١٤ الكلام على قوله تعالى: ﴿كلا إذا بلغت التراقي﴾
- ٢١٩ الكلام على قوله تعالى: ﴿ما عندكم ينفد وما عند الله باق﴾
- ٢٢١ المجلس الخامس عشر في قصة موسى عليه السلام
- ٢٢٨ الكلام على البسمة (مختارات)
- ٢٣٠ سجع على قوله تعالى: ﴿إن الأبرار لفي نعيم﴾
- ٢٣٢ سجع على قوله تعالى: ﴿على الأرائك ينظرون﴾
- ٢٣٣ سجع على قوله تعالى: ﴿تعرف في وجوههم نضرة النعيم﴾
- ٢٣٤ سجع على قوله تعالى: ﴿يسقون من رحيق مختوم﴾
- ٢٣٥ سجع على قوله تعالى: ﴿وفي ذلك فليتنافس المتنافسون﴾

الموضوع

الصفحة

- المجلس السادس عشر في قصة موسى والخضر ٢٣٧
- الكلام على البسمة (مختارات) ٢٤٣
- الكلام على قوله تعالى: ﴿يطوف عليهم ولدان مخلدون﴾ ٢٤٦
- سجع على قوله تعالى: ﴿جزاء بما كانوا يعملون﴾ ٢٥٠
- سجع على قوله تعالى: ﴿لا يسمعون فيها لغواً ولا تأثيماً﴾ ٢٥٢
- سجع على قوله تعالى: ﴿وأصحاب اليمين ما أصحاب اليمين﴾ ٢٥٣
- سجع على قوله تعالى: ﴿في سدر مخضوض﴾ ٢٥٣
- المجلس السابع عشر في قصة قارون ٢٥٦
- الكلام على البسمة (مختارات) ٢٦٠
- الكلام على قوله تعالى: ﴿ذرهم يأكلوا ويتمتعوا﴾ ٢٦٢
- سجع على قوله تعالى: ﴿ذرهم يأكلوا ويتمتعوا﴾ ٢٦٦
- المجلس الثامن عشر في قصة بلعام ٢٦٨
- الكلام على البسمة (مختارات) ٢٧١
- الكلام على قوله تعالى: ﴿فاعتبروا يا أولي الأبصار﴾ ٢٧٤
- سجع على قوله تعالى: ﴿فاعتبروا يا أولي الأبصار﴾ ٢٧٩
- المجلس التاسع عشر في قصة داود عليه السلام ٢٨١
- الكلام على البسمة (مختارات) ٢٨٦
- الكلام على قوله تعالى: ﴿أيحسب الإنسان أن يترك سدى﴾ ٢٨٩
- سجع على قوله تعالى: ﴿أيحسب الإنسان أن يترك سدى﴾ ٢٩٢
- المجلس العشرون في قصة سليمان عليه السلام ٢٩٥
- الكلام على البسمة (مختارات) ٣٠٠
- الكلام على قوله تعالى: ﴿القارعة ما القارعة﴾ ٣٠٤
- الكلام على قوله تعالى: ﴿وأما من خفت موازينه﴾ ٣٠٦
- سجع على قوله تعالى: ﴿وما أدراك ماهية نار حامية﴾ ٣٠٩

- المجلس الحادي والعشرون « في قصة بلقيس » ٣١١
- الكلام على البسملة (مختارات) ٣١٥
- الكلام على قوله تعالى: ﴿ لا أقسم بيوم القيامة ﴾ ٣١٧
- سجع على قوله تعالى: ﴿ ينبأ الإنسان يومئذ بما قدم وأخر ﴾ ٣٢١
- المجلس الثاني والعشرون في قصة سبأ ٣٢٣
- الكلام على البسملة (مختارات) ٣٢٦
- الكلام على قوله تعالى: ﴿ رفيع الدرجات ﴾ ٣٢٨
- سجع على قوله تعالى: ﴿ لينذر يوم التلاق ﴾ ٣٢٩
- الكلام على قوله تعالى: ﴿ لا ظلم اليوم ﴾ ٣٣١
- المجلس الثالث والعشرون في قصة يونس عليه السلام ٣٣٥
- الكلام على البسملة (مختارات) ٣٣٩
- الكلام على قوله تعالى: ﴿ أفرايت إن متعناهم سنين ﴾ ٣٤١
- سجع على قوله تعالى: ﴿ ما أغنى عنه ما كانوا يمتعون ﴾ ٣٤٦
- المجلس الرابع والعشرون في قصة زكريا ويحيى عليهما السلام ٣٤٨
- الكلام على البسملة (مختارات) ٣٥٢
- الكلام على قوله تعالى: ﴿ يوم يبعثهم الله جميعا ﴾ ٣٥٥
- سجع على قوله تعالى: ﴿ فينبئهم بما عملوا ﴾ ٣٥٩
- سجع على قوله تعالى: ﴿ أحصاه الله ونسوه ﴾ ٣٥٩
- المجلس الخامس والعشرون في قصة مريم وعيسى عليهما السلام ٣٦١
- الكلام على البسملة (مختارات) ٣٦٦
- الكلام على قوله تعالى: ﴿ يا أيها الذين آمنوا توبوا إلى الله توبةً
نصوحاً ﴾ ٣٦٩
- سجع على قوله تعالى: ﴿ توبوا إلى الله توبة نصوحاً ﴾ ٣٧٣
- المجلس السادس والعشرون في قصة أهل الكهف ٣٧٥

الصفحة	الموضوع
٣٨٠	الكلام على البسملة (مختارات)
٣٨٣	الكلام على قوله تعالى: ﴿قد أفلح المؤمنون﴾
٣٨٧	سجع على قوله تعالى: ﴿الذين هم في صلاتهم خاشعون﴾
٣٨٩	المجلس السابع والعشرون في قصة نبينا ﷺ
٣٩٥	الكلام على البسملة (مختارات)
	الكلام على قوله تعالى: ﴿إنما المؤمنون الذين إذا ذكر الله وجلت
	قلوبهم﴾
٣٩٨	سجع على قوله تعالى: ﴿وجلّت قلوبهم﴾
٤٠٢	المجلس الثامن والعشرون في فضل أبي بكر الصديق رضي الله عنه ..
٤٠٤	الكلام على قوله تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا لا تلهكم أموالكم ولا أولادكم
	عن ذكر الله﴾
٤١٥	سجع على قوله تعالى: ﴿ولن يؤخر الله نفساً إذا جاء أجلها﴾
٤٢٠	المجلس التاسع والعشرون في فضل عمر بن الخطاب
٤٢١	الكلام على قوله تعالى: ﴿وجوه يومئذ ناعمة﴾
٤٢٩	المجلس الثلاثون في فضائل عثمان بن عفان
٤٣٥	الكلام على قوله تعالى: ﴿والله يدعون إلى دار السلام﴾
٤٤٠	سجع على قوله تعالى: ﴿وللذين احسنوا الحسنى وزيادة﴾
٤٤٥	المجلس الحادي والثلاثون في فضائل علي ابن أبي طالب
٤٤٧	الكلام على البسملة (مختارات)
٤٥١	الكلام على قوله تعالى: ﴿إن الأبرار يشربون من كأس كان مزاجها
	كافوراً﴾
٤٥٣	المجلس الثاني والثلاثون في فضائل عائشة وأزواج النبي ﷺ
٤٦٠	الكلام على البسملة (مختارات)
٤٦٥	الكلام على قوله تعالى: ﴿والذي تولى كبره منهم له عذاب عظيم﴾

الموضوع	الصفحة
المجلس الثالث والثلاثون في فضل الصحابة رضي الله عنهم	٤٧٦
الكلام على البسمة (مختارات)	٤٨٣
الكلام على قوله تعالى: ﴿ولا تطرد الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي﴾	٤٨٦
المجلس الرابع والثلاثون في فضائل أمة محمد ﷺ	٤٩٢
الكلام على البسمة	٤٩٦
الكلام على قوله تعالى: ﴿كنتم خير أمة أخرجت للناس﴾	٤٩٨
سجع على قوله تعالى: ﴿كنتم خير أمة أخرجت للناس﴾	٥٠٤
الفهرس	٥٠٧

التبصير

تصنيف

الحافظ جمال الدين أبي الفرج عبد الرحمن بن الجوزي القرشي البغدادي
٥١٠ - ٥٩٧ هجرية

الجزء الثاني

دار الكتب العلمية
بيروت - لبنان

الطبعة الاولى

١٤٠٦ هـ - ١٩٨٦ م

بيروت - لبنان

جميع الحقوق محفوظة

لدار الكتب العلمية - بيروت

يطلب من: **دار الكتب العلمية** بيروت - لبنان
هاتف: ٨٠١٣٣٢ - ٨٠٥٦٠٤ - ٨٠٠٨٤٢
ص: ٩٤٢٤/١١ تليكس : Nasher 41245 Le

الطَّبَقَةُ الثَّانِيَّةُ

فِيهَا مَجَالِسٌ تُشْتَمَلُ عَلَى فُضَائِلِ أَيَّامِ السَّنَةِ وَلِيَالِهَا
الْمَذْكُورَاتِ

فِيهَا أَحَدَ عَشَرَ مَجْلِسًا

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

المجلس الأول

في ذكر عاشوراء والمحرم

الحمد لله الذي طهر بتأديبه من أهل تقريبه نفوساً، وسقى أرباب مصافاته من شراب مناجاته كؤوساً، ودفع كيّد الشيطان عن قلوب أهل الإيمان، فأصبح عنها محبوساً، وصرف عن أهل وداده بلطفه وإسعاده أذى وبوساً، وأذلّ بقهره من شاء من خلقه أعناقاً ورعوساً، وأعادَ ذِكرَ الأصنام بعزّ التوحيد والإسلام مطموساً، وجعل عددَ السنين بجريان الشمس والقمر للحاسبين محروساً، وكرّم عشرَ المحرم وكلمّ في عاشوراء منه نبيّه موسى.

أحمده على نعم لا تحصى عدداً، وما أقضي بالحمد حقّاً، وأشكره ولم يزل للشكر مستحقّاً، وأشهد أنه المالك للرقاب كلها رقاً، كونَ الأشياء وأحكامها خلقاً، وفتح السماء والأرض وكانتا رتقا، وقسم العباد فأسعد وأشقى ﴿هو الذي يُريكم آياته، وينزل لكم من السماء رزقاً﴾^(١).

وأشهد أن محمداً عبده ورسوله أشرف الخلائق خلقاً وخلقاً، ﷺ وعلى صاحبه أبي بكر الصديق الذي حاز كل الفضائل سبباً ويكفيه: ﴿وسيجبها الأتقى﴾^(٢) وعلى عمر العادل فما يُحايي خلقاً، وعلى عثمان الذي استسلم للشهادة

(٢) الليل ١٧.

(١) سورة غافر ١٣.

فما يتوقَّى، وعلى عليٍّ بائع ما يَفْنَى ومشتري ما يبقى، وعلى عمه العباس صينو أبيه حقاً.

اعلموا رحمكم الله إخواني أن شهر المحرّم شهر شريف القَدْر، وإنما سمّي المحرّم، لأن القتال كان يحرم فيه. وقد روي عن جماعة من المفسرين في قوله تعالى: ﴿وَالْفَجْرِ، وليالٍ عَشْرٍ﴾ (١) أنها العَشْرُ الأوائل من المحرّم، وقال قتادة: أراد بالفجر فجر أوّل يومٍ من المحرّم.

أخبرنا أبو بكر محمد بن عبد الباقي البزار، حدثنا أبو محمد الحسن بن علي الجوهري، أنبأنا علي بن أحمد بن محمد بن كيسان، أنبأنا يوسف بن يعقوب القاضي، حدثنا محمد بن أبي بكر، حدثنا أبو عوانة عن عبد الملك بن عمير، عن محمد بن المنتشر عن حميد بن عبد الرحمن الحِميري، عن أبي هريرة قال: سمعت رسولَ الله ﷺ يقول: «أفضلُ الصوم بعد رمضان شهر الله الذي تدعونه المحرّم».

أخبرنا ابن الحُصَيْن، أنبأنا ابن المذهب، أنبأنا أحمد بن جعفر، حدثنا عبيد الله بن أحمد، حدثني خيثمة، حدثني أبو معاوية، حدثنا عبد الرحمن بن إسحاق، عن النعمان بن سعد، عن علي قال: أتى النبي ﷺ رجل فقال: يا رسول الله أخبرني بشهرٍ أصومه بعد رمضان فقال: «إن كنت صائماً شهراً بعد رمضان فصمّ المحرّم، فإنه شهر الله، وفيه يومٌ تاب فيه على قوم، ويُتاب فيه على آخرين».

وقد روى ابن شاهين من حديث ابن عباس عن النبي ﷺ أنه قال «مَنْ صام يوماً من المحرّم فله ثلاثون يوماً».

ومن حديث أنس عن النبي ﷺ قال: «من صام ثلاثة أيام من شهر حرام الخميس والجمعة والسبت كتب الله له عبادة تسع مائة سنة».

(١) الفجر ١ - ٢.

ورويت أحاديث من هذا الجنس لا تثبت، فلهذا تركناها.

ويستحب صيام التاسع والعاشر، أما التاسع فمذهب ابن عباس أنه هو عاشوراء، قال الأزهرى: كأنه تأوّل فيه عَشْرُ الوِرْدِ والعرب تقول: وردت الإبلُ عَشْرًا، إذا وردت يومَ التاسع.

وأما يوم عاشوراء ففي الصحيحين من حديث ابن عباس أن رسول الله ﷺ قدم المدينة فرأى اليهود يصومونه ويقولون: هذا يومٌ عظيمٌ أنجى الله فيه موسى وقومه، وأغرق فرعون وقومه، فصامه موسى شكرًا، فنحن نصومه. فقال رسول الله ﷺ: « فنحن أحقُّ وأولى بموسى منكم » فصامه وأمر بصيامه.

وفيهما من حديث سلمة بن الأكوع أن رسول الله ﷺ أمر رجلاً من أسلم « أن اذّن في الناس: من كان أكل فلْيَصُمْ: يعني بقية يومه. ومن لم يكن أكل فليصم، فإن اليوم يوم عاشوراء. »

أخبرنا محمد بن عبد الباقي البزار، أنبأنا الحسن بن علي، أنبأنا أبو الحسين علي ابن محمد بن كيسان، أنبأنا يوسف بن يعقوب، حدثنا إبراهيم بن بشر، حدثنا سفيان بن عيينة، حدثنا عبيد الله ابن أبي يزيد، قال: سمعت ابن عباس سئل عن صيام يوم عاشوراء فقال: « ما رأيت النبي ﷺ صام يوماً يتحرّى فضله على الأيام إلا هذا اليوم. يعني يوم عاشوراء. وهذا الشهر، يعني شهر رمضان. »

قال يوسف: وحدثنا عبد الواحد بن غياث، حدثنا حماد بن سلمة عن قتادة، عن غيلان بن جرير، عن عبد الله بن معبد الزماني، عن أبي قتادة الأنصاري أن رسول الله عليه وسلم قال: « صوم عاشوراء يكفر العام الذي قبله. »

انفرد بإخراجه مسلم.

وقد روي في فضائل عاشوراء أحاديث موضوعة، فلا فائدة في ذكرها، مثل: من اغتسل، ومن اكتحل، ومن صافح. وكله ليس بشيء.

وقال معاوية بن قرة: صام نوح ومن معه في السفينة قال ابن شاهين: ومن

بلَغنا أنه كان يصوم يوم عاشوراء علي بن أبي طالب وأبو موسى الأشعري، وعليّ ابن الحسين وسعيد بن جبّير وطاوس. وفي الجملة هو يوم عظيم فينبغي أن يُفعل فيه ما يمكن من الخير. [فهو وأمثاله مواسم الخيرات، فاغتموها واحذروا الغفلات].

(الكلام على البسمة)

خُلِقْنَا لأحداث الليالي فرائساً
تجهّز منا للقبور عساكراً
إذا أَمَلَّ أرْحَى لنا من عَنانهِ
أرى الغُصْنَ لما اجْتَثَّ وهو بمائه
نَشِيدُ قصوراً للخلود سفاهةً
وقد نَعَت الدنيا إلينا نفوسنا
لقد ضَرَبَتْ كسرى الملوك وتَبَعًا
نرى ما نرى منها جَهَاراً وقد غدا
وقد فضح الدنيا لنا الموتُ واعظاً

غيره:

أبدأ تفهّمنا الخطوب كروورها
تَلْفَى مَسَامعنا العِظَاتُ كأنما
وصحائف الأيام نحن سُطورها
لَحْد على لحدٍ يَهَالُ ضريحه
من ذا توقّاه المنون وقبّلنا
والتَبَعان تَلاحقاً ومُحَرِّق

ونعودُ في عَمَةٍ كمن لا يفهمُ
في الظل يَرُقُّم وعظّه من يرقمُ
يقرا الأخير وَيَدْرَج المتقدمُ
وبأعظم رَمَمَ عليها أعْظُمُ
عادَ أطاحهم الحِمَامُ وجُرهُمُ
والمنذران ومالك ومتمّمُ

كأنك بما يُزْعج ويَرُوع، وقد قلع الأصول وقطع الفروع، يا نائماً إلى كم هذا المهجوع، إلى متى بالهوى هذا الولوع، أينفعك وقت الموت الدموع، كم لك إلى

التَّقَى عند النَّزْعِ نَزُوعٌ، هِيَاهَاتٍ لَا يَنْفَعُ الذِّكْرُ إِذَا وَالْخِضُوعُ، يَقُولُ: فَرَّقُوا الْمَالَ، فَالْعَجَبُ لَجُودِ الْمُنُوعِ، هَذَا وَمَلَكَ الْمَوْتَ يَسْلُهَا مِنْ بَيْنِ الضُّلُوعِ، رَشَقَكَ سَهْمُ الْمُنُونِ فَمَا أَغْنَتِ الدَّرُوعُ، وَأَتَى حَاصِدُ الزَّرْعِ، وَأَيْنَ الزُّرُوعِ، وَخَلَّتْ مِنْكَ الْمَسَاكِنُ، وَفَرَعْتَ الرَّبُوعَ، وَنَابَ غَرَابُ الْبَيْتِ عَنِ الْوَرَقَاءِ السُّجُوعِ، وَتَمَنَيْتَ أَنْ لَوْ زِدْتَ مِنْ سَجُودِ وَرُكُوعِ، فَاحْذَرِ مَكْرَ الْعَدُوِّ وَلَا تَقْبَلِ قَوْلَ الْخَدُوعِ.

ضَيَّعْتَ وَقَتَكَ فَانْقَضَى فِي غَفْلَةٍ وَطَوَيْتَ فِي طَلَبِ الْخَوَادِعِ أَذْهَرَا
أَفْهَمْتَ عَنِ هَذَا الزَّمَانِ جَوَابَهُ فَلَقَدْ أَبَانَ لَكَ الْعِظَاتِ وَكَرَّرَا
عَايَنْتَ مَا مَلَأَ الصَّدُورَ مَخَافَةً وَكَفَاكَ مَا عَايَنْتَهُ مِنْ أَخْبَرَا

يَا عَجَبًا كَيْفَ أَنْسَ بِالدُّنْيَا مَفَارِقَهَا، وَأَمِنَ النَّارَ وَارْدُهَا، كَيْفَ يَغْفَلُ مِنْ لَا يُغْفَلُ عَنْهُ، كَيْفَ يَفْرَحُ بِالدُّنْيَا مِنْ يَوْمِهِ يَهْدِمُ شَهْرَهُ، وَشَهْرَهُ يَهْدِمُ سَنَتَهُ، وَسَنَتَهُ تَهْدِمُ عُمُرَهُ، كَيْفَ يَلْهُو مِنْ يَقُودُهُ عُمُرُهُ إِلَى أَجَلِهِ، وَحَيَاتِهِ إِلَى مَوْتِهِ.

إِخْوَانِي: الدُّنْيَا فِي إِدْبَارٍ، وَأَهْلُهَا مِنْهَا فِي اسْتِكْثَارٍ، وَالزَّرَاعُ فِيهَا غَيْرُ التَّقَى لَا يَحْصِدُ إِلَّا النَّدَمَ.

قَالَ لِقَمَانَ لِابْنِهِ: يَا بَنِي لِكُلِّ إِنْسَانٍ بَيْتَانِ: بَيْتٌ شَاهِدٌ وَبَيْتٌ غَائِبٌ، فَلَا يُلْهِيَنَّكَ بَيْتُكَ الْحَاضِرُ الَّذِي فِيهِ عُمُرُكَ قَلِيلٌ عَنِ بَيْتِكَ الْغَائِبِ الَّذِي عَمْرُكَ فِيهِ طَوِيلٌ.

إِخْوَانِي: أَنْفَاسَ الْحَيِّ خُطَاهُ إِلَى أَجَلِهِ، وَرَبْمَا أُوْرِدَ الطَّمَعُ وَلَمْ يُضْئِدِرْ. يَا مَنْ يَفْنَى بِبِقَائِهِ وَيَسْتَقَمُّ بِسَلَامَتِهِ وَيُؤْتَى مِنْ مَأْمَنِهِ تَيْقُظُ، الْجَدَّ الْجَدَّ قَبْلَ بَغَاتِ الْمَنَايَا، وَبِمَجَاوِرَةِ أَهْلِ الْبَلِي، لِيَحْلَنَ بِكُمْ مِنَ الْمَوْتِ يَوْمَ ذُو ظَلَمٍ يَنْسِيكُمْ مَعَاشِرَةَ اللَّذَاتِ وَالنَّعَمِ، وَلَا يَبْقَى فِي الْأَفْوَاهِ إِلَّا طَعْمُ النَّدَمِ.

سَلْ بِالزَّمَانِ خَيْرًا إِنَّهُ بِهِ لَعَلِيمٌ
دَاعِي الْإِمَاتَةِ ظَاعِنٌ بِالسَّرِّ وَهُوَ مُقِيمٌ
وَوَرَاءَ ضَيْقِ حَيَاتِهِ نَفْسٌ وَلَيْسَ يَدُومُ

يا سادراً في غيِّه	حَتَّامَ أَنْتَ مُلِيمٌ
لا تُخْذَعَنَّ بِمُنْيَةٍ	أُمَّ الْخَلْبُودِ عَقِيمٌ
حَتَّامَ يَجْذِبُكَ الْمَشِي	بَ بِكَفِّهِ وَتَهْيِيمٌ
وَإِذَا الْمُنْيَةُ أَبْرَقَتْ	فَرَجَاؤُكَ الْمَهْزُومُ
عَشِيقَ الْبَقَاءِ وَإِنَّمَا	طَوْلُ الْحَيَاةِ هَمُومٌ

أين الذين ملكوا الدنيا ونالوا، زالوا سبوقك يا هذا إلى ما إليه آلوا، أين
المغرورون بالآل آلوا إلى الشَّتات، أين المسرورون بالمال مالوا إلى الكِفَات، غَلِقَ
رَهْنُ أَعْمَالِهِمْ وَمَا عَلِقُوا إِلَّا بِالْوَبَالِ، وصارت آصارهم في مصيرهم كالجبال،
فندموا إذ لا ندم ينفع، وندبوا على المصاب، ولكن بعد المصْرَع، وتجرَّعوا كؤوس
البأس من كل مَطْمَع، وضربوا بسيوفٍ من الحسرات إذ تَهَزَّتْ تَقَطَّعَ.

ظَلُّ مِنَ الدُّنْيَا تَقْلُصُ زَائِلًا	وَمُنَى يُذَاقُ عَلَى جَنَاحِ الْعَلَقَمِ
مَا هَذِهِ الْأَمْالُ إِلَّا رَقْدَةٌ	فِيهَا بِأَضْغَاثِ الْأَمَانِيِّ نَحْمٌ
وَالْكَسَلُ فِي رِقِّ الْفَنَاءِ وَإِنَّمَا	لِلنَّائِبَاتِ مُعْرَضٌ مِنْ يَهْرَمِ
أَبْدًا تَفْهَمُنَا الْخَطُوبُ كَرُورِهَا	وَنَعُودُ فِي عَمَةٍ كَمَنْ لَا يَفْهَمُ
تَلْقَى مَسَامِعَنَا الْعِظَاتُ كَأَنَّمَا	فِي الظِّلِّ يَرْقُمُ وَعِظُهُ مِنْ يَرْقُمُ
وَصَحَائِفُ الْأَيَّامِ نَحْنُ سَطُورِهَا	يَقْرَأُ الْأَخِيرَ وَيَدْرُجُ الْمُتَقَدِّمُ
لِحَدِّ عَلَى لِحْدٍ يُهَيِّئُ ضَرْبَهُ	مَعَ أَعْظَمِ رِمَمٍ عَلَيْهَا أَعْظَمُ
مَنْ ذَا تَوَقَّاهِ الْمُنُونُ وَقَبْلُنَا	عَادَ أَطَاحَهُمُ الْحِمَامُ وَجُرَّهُمُ
وَالْتَبَعَانِ تَلَا حَقًّا وَمَحْرَقِ	وَالْمُنْذِرَانِ وَمَالِكِ وَمُتَمِّمِ
وَمَمَالِكُ مُنَعَتْ بِهَا أَرْبَابُهَا	فَتَجَبَّرُوا ثِقَةً بِهَا وَتَعَظَّمُوا
سَلَبُوا ثِيَابَ الْخُنْزَوَانَةِ عَنُوءًا	فَهُوُوا وَشَامِخُ عِزِّهِمْ مَتَهَدَّمُ

الكلام على قوله تعالى

﴿وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ﴾ (١)

روى البخاري ومسلم في صحيحيهما من حديث أبي بكر عن النبي ﷺ أنه قال يوم النحر بمكة: «دماؤكم وأموالكم عليكم حرام كحرمة يومكم هذا، في بلدكم هذا، في شهركم هذا، وستلقون ربكم فيسألكم عن أعمالكم، ألا فلا ترجعوا بعدي ضللاً يضرب بعضكم رقاب بعض».

أخبرنا هبة الله بن الحصين، أنبأنا الحسن بن علي، ابن المذهب، أنبأنا أحد ابن جعفر، حدثنا عبد الله بن أحمد، حدثني أبي، حدثنا محمد بن عبيد، حدثنا الأعمش، عن شقيق، قال: قال عبد الله، قال رسول الله ﷺ: «أول ما يُقضى بين الناس يوم القيامة في الدماء».

قال أحمد: وحدثنا أبو النضر، حدثنا إسحاق بن سعيد، عن أبيه، عن ابن عمر، عن النبي ﷺ أنه قال: «لن يزال المرء في فسحة من دينه، ما لم يُصَبْ دماً حراماً».

انفرد بإخراج هذا الحديث البخاري واتفقا على الذي قبله.

أخبرنا علي بن عبيد الله، أخبرنا أبو الحسين ابن النُّقُور، أخبرنا أبو حفص الكناني، حدثنا البغوي، حدثنا محمد بن عبَّاد المكي، حدثنا حاتم، يعني ابن إسماعيل، عن بشير يعني ابن المهاجر، عن ابن يريدة، عن أبيه أن رسول الله ﷺ قال: «لَقَتْلُ الْمُؤْمِنِ أَعْظَمُ عِنْدَ اللَّهِ مِنْ زَوَالِ الدُّنْيَا».

واعلم أن الله عز وجل اختار هذا اليوم لاستشهاد الحسين.

أخبرنا ابن الحصين، أخبرنا ابن المذهب، أخبرنا أحمد بن جعفر، حدثنا عبد الله بن أحمد، حدثني أبي، حدثنا أبو النُّضْر، حدثنا مهدي، عن محمد بن

(١) الإسرائ ٣٣.

أبي يعقوب، عن ابن أبي نعم، قال جاء رجل إلى ابن عمر، وأنا جالس عنده فسأله عن دم البعوض فقال له: ممن أنت؟ قال: من أهل العراق. قال: انظروا إلى هذا يسأل عن دم البعوض وقد قتلوا ابن رسول الله ﷺ، وقد سمعت رسول الله ﷺ يقول: «هما ريحانتي من الدنيا».

انفرد بإخراجه البخاري.

أخبرنا الكروخي، أنبأنا أبو عامر الأزدي. وأبو بكر الغورجي، أنبأنا الجراحي، حدثنا المحبوبي، حدثنا الترمذي، حدثنا محمود بن غيلان، حدثنا أبو داود الحفري، عن سفيان، عن يزيد بن أبي زياد، عن ابن أبي نعم، عن أبي سعيد الخدري، قال: قال رسول الله ﷺ: «الحسن والحسين سيّدا شباب أهل الجنة».

قال الترمذي: هذا حديث صحيح.

أخبرنا محمد بن عبد الباقي، أنبأنا الجوهري، حدثنا ابن معروف، حدثنا ابن صاعد، حدثنا يوسف بن موسى القطان، حدثنا أبو بكر بن عيَّاش، عن عاصم بن بهدلة، عن أبي ذرّ، عن عبد الله قال: قال رسول الله ﷺ: «هذان ابناي، فمن أحبهما فقد أحبني» يعني الحسن، والحسين عليهما السلام.

أخبرنا علي بن عبد الله، أخبرنا علي بن أحمد بن البشري، أخبرنا عبيد الله ابن محمد بن ربيعة إذناً، قال: حدثني أبو صالح محمد بن أحمد، حدثنا محمد بن عبيد الله البصري، حدثنا عبيد الله بن محمد العبسي، حدثنا أبان بن أبي عيَّاش، عن شهر بن حوشب، عن أم سلمة، قالت: كان جبريل عند النبي ﷺ وحسين معي، فبكى فتركته، فأتى النبي ﷺ، فأخذته فبكى، فأرسلته، فذهب إليه فقال له جبريل: أتجبه يا محمد فقال: نعم. فقال: إن أمّتك ستقتله، فإن شئت أريتك تربة أرضه التي يقتل بها. فبسط جناحه إلى الأرض التي يقتل بها يقال لها كربلاء، وأخذ بجناحه فأراه إياه، قال حماد: فأخبرني أبان، أو غيره أن الحسين لما نزل كربلاء شمّ الأرض، وسألهم عن إسمها فقالوا: كربلاء فقال: كرب

وبلاء فقتل بها .

وروى عبد الله بن نجيب، عن أبيه أنه سار مع علي عليه السلام، وكان صاحب مطهرته فلما حاذى نينوى، وهو منطلق إلى صفين نادى علي: أصبر أبا عبد الله، أصبر أبا عبد الله بشط الفرات. قلت: وما ذاك؟ قال: دخلت على النبي ﷺ ذات يوم وعيناه تفيضان قلت: يا نبي الله أغضبك أحد ما شأن عينيك تفيضان؟ قال: قام من عندي جبريل قبل، فحدثني أن الحسين يقتل بشط الفرات، وقال لي هل لك أن أشمك من تربته قلت: نعم فمد يده، فقبض قبضة من تراب فأعطانيها، فلم أملك عيني أن فاضتا .

وروى عمار بن أبي عمار، عن ابن عباس قال: رأيت النبي ﷺ في المنام نصف النهار أشعث أغبر معه قارورة فيها دم يلتقطه، أو يتتبع فيها شيئاً، قلت: يا رسول الله ما هذا؟ قال: دم الحسين وأصحابه لم أزل أتبعه منذ اليوم. قال عمار: فحفظنا ذلك اليوم فوجدناه قُتل ذلك اليوم.

إنما رحل الحسين إلى القوم، لأنه رأى الشريعة قد رُفِضت، فجدَّ في رفع قواعد أصلها الجَدَّ [ﷺ]، فلما حضروه حصَّروه، فقال: دعوني أرجع. فقالوا: لا، انزل على حكم ابن زياد. فاختر القتل على الذل، وهكذا النفوس الأبية.

تأبى الدناءة لي نفسٌ نفاستها
فلاكتساب العُلا حليٍّ ومُرتحلي
لي همّة ما أظن اللَّحظَ يُدرُكها
لا صاحبتي نفسٌ إن هممت بأن
تسعى لغير الرضا بالرِّيِّ والشَّبَعِ
وفي حِمى المجدِّ مُصنطافي ومُرتبَعِي
إلا وقد جاوزتُ في كل مُمتنعٍ
أرمي بها لهواتِ الموت لم تُطع

ولقد تبع طريقَ الحسين عبدُ الله بن الزبير، فإن الحجاج عرض عليه الأمان فقال: والله لَضربة بسيف في عِزِّ أحبَّ إليَّ من حياة في ذل! وكان يجارهم وينشد:

إصبر عصام إنه شِبْرَاقُ قد سنَّ أصحابك ضَرْبَ الأعناقِ

وقامت الحربُ بنا على ساقٍ

فقليل له : قد لحق فلانٌ وفلانٌ بالحجاج . فأنشد :

فَرَّتْ سَلَامَانُ وَفَرَّتِ النَّمِرُ قد نتلاقى معهم فلا نِفْرَ

وكانوا يرمون بالحجارة ، فيقال له : ما تأمن أن يصيبك حجر ؟ فيقول :

هُوْنٌ عَلَيْكَ فَإِنِ الْأُمُورَ بِكَفِّ الْإِلَهِ مَقَادِيرُهَا

فليس بآتيك منهيها ولا قاصيرُ عنك مأمورها

ولبس درعاً وجاء يودّع أمه أسماء فقالت : ما هذا الدرع ؟ فقال : والله ما

لبسته إلا لأقوي نفسك !

فإني ليعنيني عن السيف عزمي فهل فيه ما يغنيه عن كف ضاربٍ

إذا عرض الدنيا الآن صلابها شمختُ بأنفي عنه وازورَّ جانبي

فلا تنتسب إلا إلى بعد همة ولا تكتسب إلا بحرَّ المقانِبِ

فإن دتبات السجايا إذا هوى بها المرء لم ينفعه عزُّ المناصبِ

لله در هذه الأنفس ، فما أعزها ، وهذه الهمم فما أرفعها !

ولما رأوا بعضَ الحياةِ مذلةً عليهم وعزَّ الموتِ غير محرمٍ

أبوا أن يذوقوا العيشَ والذمَّ واقعٌ عليه وماتوا ميتةً لم تُذمَّ

ولا عجب للأسد إن ظفرت بها كلابُ الأعادي من فصيحٍ وأعجمٍ

فحرَّبةٌ وحشيٍ سقتُ حمزة الردي وحْتَفَ عليّ في حُسامِ ابنِ مُلْجَمِ

أخبرنا علي بن عبيد الله ، أخبرنا علي بن أحد السري ، أنبأنا عبد الله بن

بَطَّة ، حدثنا أبو حامد محمد بن هارون الحضرمي ، حدثنا هلال بن بشر ، حدثنا

عبد الملك بن موسى عن هلال بن ذكوان ، قال : لما قتل الحسين مطرنا مطراً

بقي أثره في ثيابنا مثل الدم .

قلت: لما كان الغضبان يحمراً وجهه، فيتبين بالخمرة تأثير غضبه، والحقُّ سبحانه ليس بجسم، أظهرَ تأثيرَ غضبه بجمرة الأفق حين قُتل الحسين.

وبالإسناد قال ابن بطة: وحدثنا إسماعيل ابن إسحاق القاضي، حدثنا سليمان ابن حرب، عن حماد بن زيد، عن هشام، عن محمد بن سيرين، قال: لم تر هذه الحمرة في السماء حتى قُتل الحسين.

قال ابن بطة: وحدثنا أبو ذر الباغندي، حدثنا حماد بن الحسين الوراق، قال: سمعت علي بن أخي شعيب بن حرب يقول: ناحت الجنُّ على الحسين ابن علي فقالت جنية:

جاءت نساءَ الحيِّ يبكين شجياتٍ ويلطمن خدوداً كالدنانير نقياتِ
ويلبسن ثياب السُّود بعد القصياتِ

وروينا في حديث أنه حفظ من قول الجن:

مَسَّحَ النَّبِيُّ جَبِينَهُ فَلَهُ بَرِيْقٌ فِي الْخُدُودِ
أَبَوَاهُ مِنْ عَلِيٍّ قَرِيْشٍ وَجَدَّهُ خَيْرُ الْجُدُودِ
وقال جني آخر.

أبْكَى قَتِيلاً بِكَرْبَلَاءِ مُضْرَجَ الْجِسْمِ بِالْدمَاءِ
أَبْكَى قَتِيلاً بِكَى عَلَيْهِ حُزْناً بَنُو الْأَرْضِ وَالسَّمَاءِ
أَبْكَى قَتِيلاً الطُّغَاةَ ظُلماً بغيرِ جُرمِ سِوَى الْوَفَاءِ
هَتَّكَ أَهْلُوه فَاسْتَحَلُّوا مَا حَرَّمَ اللهُ فِي الْإِمَاءِ
يَا بَأَيِّ جِسْمِهِ الْمَعْرَى إِلَّا مِنَ الدِّينِ وَالْحِيَاءِ
كُلُّ الرِّزَايَا لَهَا عَزَاءُ وَمَالِذَا الرُّزْءُ مِنْ عَزَاءِ

وروينا أن صخرة وجدت قبل مبعث النبي ﷺ بثلاث مائة سنة، وعليها مكتوب باليونانية:

أيرجو معشرٌ قتلوا حُسيناً شفاعَةَ جَدِّه يومَ الحسابِ

ويح قاتل الحسين! كيف حاله مع أبويه وجده!

لا بد أن ترد القيامة فاطمٌ وقميصها بدم الحسين ملطخٌ
ويل لمن شفعأؤه خصماًؤه والصُّور في يوم القيامة يُنْفَخُ

إخواني: بالله عليكم من قَبَّح على يوسف بأبي وجهٍ يَلْقَى يعقوب!

لما أسر العباس يوم بدر سمع رسول الله ﷺ أنينه فما نام، فكيف لو سمع
أنين الحسين؟

لما أسلم وحشيٌّ قال له: غيَّب وجهك عني. هذا والله والمسلم لا يؤاخَذ بما كان
في الكفر، فكيف يَقْدِر الرسولُ ﷺ أن يُبصر من قتل الحسين؟

★ ★ ★

قوله تعالى: ﴿وَمَنْ قَتَلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لَوْلِيَّهِ سُلْطَانًا﴾ (١).
لقد جمعوا في ظلم الحسين ما لم يجمعه أحد، ومنعوه أن يرد الماء فيمن ورد،
وأن يرحل عنهم إلى بلد، وسبوا أهله وقتلوا الولد، وما هذا حَدٌّ دَفَع عن
الولاية هذا سوء مُعْتَقَد.

نعب الماء من بين أصابع جَدِّه، فما سَقَوْه منه قطرة!

كان الرسول ﷺ من حُب الحسين يقبل شفتيه، ويحمله كثيراً على عاتقيه،
ولما مشى طفلاً بين يدي المنبر نزل إليه، فلو رآه مُلْقَى على أحد جانبيه
والسيوف تأخذه والأعداء حوالبه والخيل قد وطئت صدره ومشت على يديه،
ودماؤه تجري بعد دموع عينيه لضجَّ الرسول ﷺ مستغيثاً من ذلك ولعزَّ عليه.

كربلا ما زلت كـرباً وبلاً
كم على تُرْبِكَ لما صُرعوا
يا رسول الله لسوعايتهم
ما لقي عندك أهل المصطفى
من دمٍ سالٍ ومن دمٍ جرى
وهم ما بين قتل وسباً

(١) الإسراء ٣٣.

من رَمِيضٍ يُمْنَعُ الظَّلَّ وَمِنْ
 لَرَأَتْ عَيْنَاكَ فِيهِمْ مَنظَرًا
 لَيْسَ هَذَا لِرَسُولِ اللَّهِ يَا
 غَارِسٌ لَمْ يَأُلْ فِي الْغَرَسِ لَهُمْ
 جَزَرُوا جَزَرَ الْأَضْحَايِ نَسْلَهُ
 هَاتِفَاتٍ يَا رَسُولَ اللَّهِ فِي
 قَتْلُوهُ بَعْدَ عِلْمٍ مِنْهُمْ
 يَا جِبَالَ الْمَجْدِ عَزًّا وَعَلًّا
 جَعَلَ اللَّهُ الَّذِي نَالَكُمْ
 لَا أَرَى حُزْنَكُمْ يُنْسِنِي وَلَا

عَاطِشٌ يُسْقَى أَنْيَابَ الْقَنَا
 لِلْحَشَا شَجْوًا وَللْعَيْنِ قَدَى
 أُمَّةَ الطَّغْيَانِ وَالْمَيْسِنِ جَزَا
 فَأَذَاقُوا أَهْلَهُ مُرَّ الْجَنَسِي
 ثُمَّ سَاقُوا أَهْلَهُ سَوَاقَ الْإِمَا
 بُهْرَ السَّعْسِي وَعَثْرَاتِ الْخُطَا
 أَنَّهُ خَامِسُ أَصْحَابِ الْكَسَا
 وَبَدُورَ الْأَرْضِ نَوْرًا وَسَنَا
 سَبَبَ الْوَجْدِ طَوِيلًا وَالْبُكََا
 رُزْأَمٌ يُسَلَّى وَلَوْ طَالَ الْمَدَى

سبحان من رفع للحسين بقتله مكانا، ودمغ من عاداه، فعاد بعد العز مهانا،
 ما ضره حين الشهادة من أوسعه خذلانا ﴿وَمَنْ قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لَوْلِيَهُ
 سُلْطَانًا﴾ هلك أهل الزينج والعناد، وكانهم ما ملكوا البلاد وعاد عليهم اللعن كما
 عاد على عاد، أين يزيد أين زياد، كأنها ما كانا لا كانا ﴿فَقَدْ جَعَلْنَا لَوْلِيَهُ
 سُلْطَانًا﴾.

تمتعوا أياماً يسيرة، ثم عادت أجنحة الملك كسيرة، وبقيت سيرة الحسين
 أحسن سيرة، ومن عزت عاقبته والسيرة فكان لم يلق هوانا ﴿فَقَدْ جَعَلْنَا لَوْلِيَهُ
 سُلْطَانًا﴾.

مُزَّقُوا وَاللَّهُ كُلَّ مُتَمَرِّقٍ، وتفرقوا بالشتات أي متفرق، وظنوا أنهم رفوا ما
 جَنَوْا فَتَحَرَّقَ، إن ناصر المظلوم لا يتوانى ﴿فَقَدْ جَعَلْنَا لَوْلِيَهُ سُلْطَانًا﴾.

تعزوا على [مثل] الحسين وطالوا، وظنوا بقاء الملك لهم بما احتالوا، وكيل
 لهم من الذم أضعاف ما كالوا، وعجل قلعهم من السلطة فزالوا سُلْطَانًا سُلْطَانًا
 ﴿فَقَدْ جَعَلْنَا لَوْلِيَهُ سُلْطَانًا﴾.

ويلهم لو دبروا أمرهم لرفعوا بطاعة الحسين قَدْرهم ، ملكوا أياماً ثم بقي
الخزري دَهْرهم ، اشتغلوا اليوم بتسييحكم ، ودعوا ذكرهم أهواناً ﴿ ومن قُتل
مظلوماً فقد جعلنا لولّيه سلطاناً ﴾ . وصلى الله على محمد ، وآله وصحبه وسلم .

المجلس الثاني

في ذكر رجب

الحمد لله الذي فلق النوى والحب، وخلق الفاكهة والأبّ، وأبغضَ وكرِه وأحبّ، وأمراضَ وداوى وطبّ، أنشأ الحيوان بقدرته فدبّ، وبناه فأحسن تدبيره حين ربّ، فالعجب لمربوبٍ يجحد الرب، عمّ إنعامه فلم ينس في البحر الحوت، وفي البر الضب، أحده على تبليغنا هذا الشهر الشريف الأصبّ، وأشكره على إيمان به في القلوب صبّ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له شهادةً اجتمع بها مراد التوحيد واستتبّ، وأن محمداً عبده ورسوله المسمّى الأمين صغيراً وما شب، ثم قهر الأعداء فألبسهم الزنار والقبّ وأجيب عنه لكل من عابه وسبّ ﴿تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ﴾^(١) وعلى صاحبه أبي بكر الذي خلق صافياً في الصحبة ولب، وعلى عمر الذي قمع كلّ جبارٍ على الكفر أكبّ فكبّ، وعلى عثمان المناجي طويلَ ليلته مناجاة الصب، وعلى عليّ أشجع من حامى عن الإسلام ودبّ، وعلى عمه العباس الذي أتته السحاب لما ذكر اسمه وهبّ.

اللهم بارك لنا في شهر رجب الأصمّ واحفظنا فيه من موجبات السخط والذم، وحطنا حياطةً ننسى بها لطف الأب والعم، عمّنا بأياديك يا خير من أعطى وعمّ.

اعلموا إخواني أن شهركم هذا شهر محرّم. وقد أخبرنا أبو علي بن محبوب،

(١) المسد ١.

أنبأنا طراد ابن محمد، أنبأنا الحسين بن عمر بن برهان، حدثني عثمان بن أحمد، حدثنا إسحاق ابن إبراهيم الحلبى، حدثنا الحسن بن علي بن يزيد الصدائى، [قال] حدثنا أبي، عن هارون بن عنتره، عن أبيه عن علي بن أبي طالب، قال: قال رسول الله ﷺ « إن شهر رجب شهر عظيم من صام منه يوماً جزى [الله] له ألف سنة، ومن صام منه يومين جزى [الله] له ألفي سنة، ومن صام منه ثلاثة أيام جزى [الله] له [صوم] ثلاثة آلاف سنة، ومن صام من رجب سبعة أيام غُلقت عنه أبواب جهنم، ومن صام منه ثمانية أيام فتحت له أبواب الجنة الثمانية، فيدخل من أيها شاء، ومن صام منه خمسة عشر يوماً بدلت سيئاته حسناتٍ ونادى مناد من السماء قد غُفر لك فاستأنف العمل » .

وروي من حديث أنس عن النبي ﷺ قال: « إن في الجنة نهراً يقال له رجب، من صام يوماً من رجب سقاه الله عز وجل من ذلك النهر » .

وروي من حديث أبي سعيد عن النبي ﷺ أنه قال: « رجب من الشهور الحرم، وأيامه مكتوبة على أبواب السماء السادسة، فإذا صام الرجل منه يوماً، وجرّد صومه لتقوى الله نطق الباب، ونطق اليوم وقالوا: يا رب اغفر له . وإذا لم يتم صومه بتقوى الله لم يستغفرا له، وقيل له: خذ حظ نفسك » .

وقد رويت أحاديث كثيرة في فضائله من هذا الجنس، غير أنها لا تثبت ولا تصح، فلذلك تجنبنا ذكرها .

[وما يروى فيه من صلاة الرغائب، فحديث لا أصل له، وإني لأغار لصلاة التراويح من صلاة الرغائب، وإنما يتهم بوضعها ابن جهضم] .

وقد روي عن علي ابن أبي طالب أنه قال: يعجبني أن يفرّغ الرجل نفسه في أربع ليال: ليلة الفطر، وليلة الأضحى، وليلة النصف من شعبان، وأول ليلة من رجب .

وروي أن عمر بن عبد العزيز كتب إلى عدي بن أرطاة: إن عليك بأربع

ليال، فإن الله يُفرغ فيهن الرحمة إ فراغاً. فذكر هذه الليالي الأربع.

وقال قيس بن عبّاد: في اليوم العاشر من رجب يحو الله ما شاء ويثبت.

وقد أغري القُصّاص والمتزهدون بالتحريض على صومه، وإنما يصومه كلّ من يصوم السنة. قال حنبل سألت أبا عبد الله أحد بن حنبل عن صيام رجب فقال: من كان يصوم السنة، وإلا فلا يصمه متوالياً يكره له ذلك، ولا يشبه برمضان.

وقد كان عمر بن الخطاب يضرب أكفّ الناس في رجب حتى يضعوها في الطعام ويقول: كلوا فإنما هو شهر كانت الجاهلية تعظّمه.

ودخل أبو بكرّة على أهله فرأى عندهم سيلاً وكيزاناً فقال: ما هذا؟ قالوا: رجب نصومه. فقال: أ جعلتم رجباً كرمضان فألقى السلال والكيزان.

قال عمرو الزاهد: حدثنا ثعلبة، عن سلمة، عن الفراء، عن الأصمعي، وعن ابن الأعرابي، عن الفضل قال: كلّ العرب تقول: رجبت فلاناً أرجه رجباً ورجوباً، إذا عظّمته. قال ثعلب: وإنما سمّي رجباً لتعظيمه. قال سليمان الشاذّ كوفي: إنما سمّي الأصم، لأن العرب كانت لا يُغير بعضها على بعض فيه، ولا تحمل فيه السلاح، وكانوا لا يسمعون قعقعة السلاح، فسمي أصمّ به. وأما تسميته برجب مضر، فلأنها كانت تعظّمه أشد من جميع العرب، فأضيف إليها.

وقد خصه خلق كثير من العوامّ بإخراج الزكاة فيه. وهذا جهل منهم، فإن الزكاة إنما تجب في المال إذا حال الحول عليه، فمتى ملك النصاب في المحرم مثلاً وجبت الزكاة في المحرم، فمى آخرها إلى صفر أئم، لأنها حقوق الفقراء فُرِضت لحاجتهم، فلا وجه للتأخير. وقد يروي القُصّاص في رجب من الفضائل وأفعال الطاعات أشياء كثيرة لا نرى ذكر شيء منها لعلمنا بعدم صحته، بل نقول: ينبغي للإنسان أن يبادر [إلى] فعل الخير على الدوام والله الموفق.

(الكلام على البسمة)

ألا يا غافلاً يُحصَى عليه
 يصاح به ويُذَر كلَّ يوم
 تَأهَّبَ للرحيل فقد تدافى
 وأنت رَخِيَّ بال في غرور
 ومِ ذَنْبٍ أُتِيتَ على بصيرة
 تحاذر أن تراك هناك عينٌ
 ومِ حاولتَ من أمرٍ عظيم
 ومِ من مَدخَلٍ لو مِتَّ فيه
 وُقِيتَ السوءَ والمكروه فيه
 ومِ من نعمةٍ لله تُسمي
 من العمل الصغيرة والكبيرة
 وقد أنستَه غفلتَه مَصِيرَه
 وأنذرك الرحيلَ أخَّ وجيرَه
 كأن لم تقترفَ فيها صغِيرَه
 وعينُك بالذي تأتي قريره
 وإنَّ عليك لَللَّعِينُ البصيرة
 مُنعتَ برحمةٍ منه وخيرَه
 لكنتَ به نكالاً في العشيرَه
 ورُحمتَ بنعمةٍ فيه ستيرَه
 وتصبحَ ليس تعرفها كثيرَه

يا من بين يديه الموت والحساب، والتوبيخ الشديد والعتاب، وعليه بأفعاله
 وأقواله كتاب، وقد أذنب كثيراً غير أنه ما تاب، وكلما عوتب خرج من باب
 إلى باب، إلى متى هذا الجهل، وإلام هذا العاب، ما أظنك حاضراً عدوك فيمن
 غاب.

أَيَقْظَانُ أَنْتَ نَائِمٌ فكيف يطيق النومَ حيرانَ هائِمٌ

ألسنت الذي دُمَّت على الخطايا وعصيت، وبارزت بالقبيح وما استحيت،
 وعلمت تحريم الذنب ثم أتيت، وعرفت عظيم الجزاء وتناسيت، ستكف [منك]
 الخمس بعد الحركة واللمس، وسيذهب اليوم كما ذهب أمس، وسيبدل النطق
 بالسكوت والهمس، وستعدم نور القمر وضوء الشمس، وسيقلع البستان ويبيس
 الغرس، وقد قرب وقت الغمس في بحر الرمس، وسيُنسى ذو العالم الدرس
 [بالدرس]:

لا تلبس الدهرَ عل غيرة فما لموت الحيِّ من بُدِّ

ولا يخادعك طويلُ البقا فتحسب الطولَ من الخلدِ
يتقدُّ ما كان له آخرُ ما أقرب المهد من اللحدِ

يا من يُنصح، وليس منه إلا الإياء، أين الأجداد أين الآباء،
أين الإخوان أين الأقرباء، أدرك القوم بعد القهر السبأ، فبكى
لسوء مُنقلبهم الغرباء، تالله لقد قامت بالمواعظ الخطباء، ولقد أذنتُ برحيل
الجيش النُقباء، ولكن قد عمّت الغفلة والغباء، وكأن قد كفت عن الدواء
الأطباء، وهل مرض القلوب إلا حُبّ الدنيا، فعلى الدنيا العفاء:

أقلُّ قليلها يكفيك منها ولكن لست تقنع بالقليلِ
ومن هذا الذي يتقى وتبقى مضاربه بمدرجة السيولِ
ويحك أنت في القبر محصور إلى أن ينفخ في الصُور، ثم راكب، أو مجرور،
حزين أو مسرور، مُطلق أو مأسور، فما هذا اللهو والغرور. الحازم من تزود لما
به قبل أن يصير لمآبه.

إخواني: إنكم تغدون وتروحون في آجال قد غيّبت عنكم، فانظروا
لخلاصكم قبل انقضاء أعماركم، الوحا الوحا، فالطالب حثيث، تذكروا تلك
الصرعة بين الأهل وهم لا يقدرّون على ضرّ ولا نفع، والله ما بات عاقل قط
إلا على فراش حذر، إنما هو دبيب من سقم، ثم تؤخذون بالكظم، فإن زلت
القدم لم ينفع ندم، لا توبة تُنال، ولا عثرة تُقال، ولا فداء بمال.

أَغْفَلُ والدهر لا يَعْفَلُ وأنسى الذي شأنه أعْضَلُ
ويطمعني أنسي سـالم وداء السلامة لي أقتلُ
ويمضي نهاري وليلي معاً بما غيره الأحسن الأجمَلُ
وأمّل أني أفوت الحمام أمان لعمرك لي ضلّلُ
وكيف يرى آخرُ أنه سيقتى وقد هلك الأولُ
فحتى متى أنا لا أرعوي وكم ذا أقول، ولا أفعلُ
أيا ذاهلاً ونداء الحتوفِ في الناس توقظ من يذهلُ

ألا أين أهل النعم العزيز وأين الأجد والبزل
تناولهم من قلال القصور فأهلكهم مُزَعَجٌ مُعْجَلٌ

قل للذين أعرضوا عن الهدى فما تبعوا، وخوفوا يوم الردى فما ارتدعوا،
وسمعوا المواعظ فكأنهم ما سمعوا، تقلبوا كيف شئتم، وما شئتم فاصنعوا.

غداً توقى النفوس ما كسبت ويخصد الزارعون ما زرَعُوا
إن أحسنوا أحسنوا لأنفسهم وإن أساؤوا فبئس ما صنعُوا

لله در أقوام بادروا الأعمال واستدركوها، وجاهدوا النفوس حتى ملكوها،
وتأهبوا لسبيل التوبة، ثم سلكوها، وعرفوا عيوب العاجلة فتركوها، استعملهم
الأدب في جمادى كرجب.

يا هذا إذا هممت بخير، فبادر هواك لثلاث تغلب، وإذا هممت بشر فسوف
هواك لعلك تغلب.

الحكمة نور الفطرة، والصواب فرع الروية، والتدبير قيمة المهمة، والهوى ضد
الحزم، ثقّف نفسك بالآداب قبل صحبة الملوك، فإن سياسة الأخلاق مراقبي
المعالي.

قال بزرجهر: أخذت من كل شيء أحسن ما فيه، حتى من الكلب
والغراب والهرة. قيل: وما أخذت من الكلب؟ قال: ذبّه عن حرّيمه، وإلفه
لأهله. قيل: فمن الهرة؟ قال: رفقها عند المسألة، ولين صياحها. قيل: فمن
الغراب؟ قال: شدة حدّره.

يا هذا صنّ حياة عقلك عن مخالطة غوغاء نفسك، من طلب المعالي استقبل
العوالي، من لازم الرقاد فاته المراد، من دام كسله خاب أمله.

من صغرت نفسه فهمته أبلغ في قصده من المحن
وقل ما التذّ بالسرور فتى لم يجنّه من عواقب الحزن

لولا سخط نفس أبي بكر عليه لمفارقة هواها ما نال مرتبة «أنا عنك راضٍ»
لولا عري أوتيس ما لبس حلة «يشفع في مثل ربعة ومضر».

الكلام على قوله تعالى:

﴿إن عدة الشهور عند الله اثنا عشر شهراً في كتاب الله﴾ (١)

قال المفسرون: نزلت هذه الآية من أجل النسيء الذي كانت العرب تفعله . والنسيء تأخير الشيء ، وكانت العرب تحرم الشهور الأربعة . هذا مما تمسكت به من ملة إبراهيم ، فربما احتاجوا إلى تحليل المحرم لحرب تكون بينهم ، فيؤخرون تحريم المحرم إلى صفر ، ثم يحتاجون إلى تأخير صفر ، ثم كذلك حتى تتدافع الشهور ، فيستدير التحريم على السنة . فكانوا يستنسئون الشهر الحرام ويستقرضونه .

قال الفراء: كانت العرب في الجاهلية إذا أرادوا الصدد من منى ، قام رجل من بني كنانة يقال له نعيم بن ثعلبة ، وكان رئيس الموسم فيقول: أنا الذي لا أعاب ولا أحاب ولا يرد لي قضاء . فيقولون: أنسنا شهراً يريدون أخرجنا حرمة المحرم ، فاجعلها في صفر . فيفعل ذلك . وقال مجاهد: أول من أظهر النسيء جنادة بن عوف الكِنَاني ، فوافقت حجة أبي بكر الصديق ذا القعدة ، ثم حج النبي ﷺ في العام القابل في ذي الحجة ، فذلك حين قال: «إن الزمان قد استدار كهيئته يوم خلق الله السموات والأرض» .

أخبرنا عبد الأول ، أنبأنا الداودي ، أنبأنا ابن أعين ، حدثنا القُرْبَري ، حدثنا البخاري ، حدثنا محمد بن سلام ، أخبرنا عبد الوهاب ، أنبأنا أيوب ، عن محمد بن أبي بكر ، عن النبي ﷺ أنه قال: إن الزمان قد استدار كهيئته يوم خلق الله السموات والأرض ، السنة اثنا عشر شهراً ، منها أربعة حرم ثلاثة متواليات : ذو

(١) التوبة ٣٦ .

القعدة وذو الحجة والمحرم ورجب مضر [الذي] بين جمادى وشعبان .

أخرجاه في الصحيحين .

قال العلماء: أعلم الله عز وجل بهذه الآية أن عدد شهور المسلمين التي يعدونها اثنا عشر شهراً على منازل القمر . وقوله: ﴿ في كتاب الله ﴾ أي في اللوح المحفوظ الذي كتبه الله يوم خلق السموات والأرض ﴿ منها أربعة حرم ﴾ وإنما سماها حُرماً لمعنيين: أحدهما: تحريم القتال فيها . والثاني: لتعظيم إنتهاك الحرمات فيها .

وقوله تعالى: ﴿ ذلك الدين القيم ﴾ قال ابن قتيبة: يعني الحساب الصحيح ، والعدد المستوى .

﴿ فلا تظلموا فيهن أنفسكم ﴾ اختلفوا في هذه الكناية على قولين: أحدهما أنها تعود على الأثني عشر شهراً . قاله ابن عباس . فيكون المعنى: لا تجعلوا حرامها حلالاً ، ولا حلالها حراماً كفعل أهل النسيء .

والثاني: أنها ترجع إلى الأربعة الحرم ، وهو قول قتادة والفرء واحتج بأن العرب تقول لما بين الثلاثة إلى العشرة: لثلاث خلون ، وأيام خلون . فإذا جازت العشرة قالوا: خلّت ومضت . ويقولون: لما بين الثلاثة إلى العشرة هن وهؤلاء ، فإذا جزت العشرة قالوا: هي وهذه ، إرادة أن يُعرف اسم القليل من الكثير .

وفي المراد بهذا الظلم قولان: أحدهما: أنه خص النهي عن الظلم بهذه الأشهر ، لأن شأن المعاصي يُعظّم فيها أشد من تعظيمه في غيرها ، لفضلها على ما سواها كما عظّمت طاعة الحرم ومعصيته ، وإن كان العبد مأموراً بذلك في غيرها . هذا قول الأكثرين .

والثاني: أن المراد بالظلم فيهن فعل النسيء ، قاله ابن إسحاق .

واعلم أن تفضيل بعض الشهور على بعض ليكون الكف عن الهوى ذريعة إلى

استدامة الكف في غيرها، تدريجاً للنفس إلى فراق مألوفها المكروه شرعاً.

فبادروا في هذا الشهر من الخير كل مُمكن مادام الأمر يمكن، واعلموا أن العمر لا قيمة لأوقاته وزمان الصحة لا مثل لساعاته، فحاسبوا أنفسكم قبل الحساب، وأعدّوا للسؤال صحيحَ الجواب، واحفظوا بالتقوى هذه الأيام، واغسلوا عن الأجرام قبيح الإجمام، قبلَ ندم النفوس حين سيقاقها، قبل طمس شمس الحياة بعد إشراقها، قبل ذوق كأس مرّة في مذاقها، قبل أن تدور بدور السلامة في أفلاك محاقها، قبل أن تُجذب الأبدانُ إلى القبور بأطواقها، وتفتّرش في اللحود أخلاق أخلاقها، وتنفصل المفاصل بعد حُسن اتساقها، وتشتد شدة الحشرات حاسرةً عن ساقها، وتظهر مُحبّات الدموع بسرعة اندلاقها، وتتقلب القلوبُ في ضنك ضيق خناقها، ويطول جزع من كان في عمره ناقهاً، وتبكي النفوس في أسرها على زمان إطلاقها:

ألا يا لقومي لحيّ ردي	وللمرء يجهل ما في غد
وللميت جمع أمواله	لآخر في الحيّ لم يجهّد
سئليك أهلك والحاملون	وأعضاء جسمك لم تبرّد
ويصبح مالك للوارثين	وأنت شقيت ولم تحمد

هذا حادي المات قد أسرع، هذه سيوف الملمات قد تقطع، هذه قصور الإخوان بلقّع، مال صاحب المال، فإذا المال يوزّع، أنفعه حرصه حين سلب ما جمع أجمع، إنما هذه الدنيا فخذ منها أودع، إن وصلتْ فعلى نية أن تقطع، وإن بذلت فبعزيمة أن تمنع، انتظر سلّبها يا مشغولاً بها: وتوقع أسفاً لكبّد على حبّها تتقطع، أتراها أنها ما علمت أنها تخدع، أفيها حيلة، أم في وصلها مطمّع، أين كسرى أين قيصر، أين تبّع، أين حاتم الجود أين من كان يجمع، أين قيس وسحبان أين ابن المقفّع، إنها لتمحو العين، ثم للأثر تقلّع، إن لك مقنعاً في وعظها لو كفاك المقنع، يا مفرقاً في البلى، قل لمن تجمع، إذا خلوت وخلّيت فكيف تصنع؟، أترى أنت عندنا، أو ما تسمع، يا أطروش الشقوة أما الحديث

معك أما التخويف لك ، واعجباً رجب الأصم أم أنت :

أدعني لفرقتكم في انهمالها سحُـبُ
مَسْمَعِي إِذ عَدَلُوا فِي صَبَابِي رَجَبُ
من مُبْلَغِ قَوْمِي عَلَى قَرْبِهِمْ وَبُعْدِ أَسْمَاعٍ مِنَ الْوَاعِظِينَ
هَبُّوا فَقَدْ طَالَتْ بِكُمْ نَوْمَةٌ وَانْتَبَهُوا مِنْ رَقْدَةِ الْغَافِلِينَ
حَثُّوا مَطَايَا الْجِدِّ تَرْفُلَ بِكُمْ نَاجِينَ فِي النَّاجِينَ أَوْ مُعْذِرِينَ
سَلُّوا قِيَابَ الْمَلِكِ عَيْنِ مَعْشَرٍ كَانُوا لَهَا مِنْ قَبْلِكُمْ مُبْتَنِينَ
تُخْبِرُكُمْ عَنْ زَمَنِ لَمْ يَزَلْ يَحْدُو لِقَوْمٍ مَضَوْا لِأَعْيُنٍ
قَدْ شَاخَ جَدُّ النَّاسِ فِي بَاطِلٍ وَضَرَبُوا فِي غَمْرَةٍ حَائِرِينَ
وَأَطْبَقَ الشَّرُّ عَلَى جَمْعِهِمْ وَدَقَّ شَخْصُ الْحَقِّ فِي الْعَالَمِينَ
وَرَكَضُوا فِي الْجَوْرِ رَكْضاً فَمَا تَحْسَبُهُمْ تَقْوَى حَيَاءٍ وَدِينٍ
تَسْرَهُمْ خِضَاءُ دَنِيَاهُمْ قَدْ أَمِنُوا الدَّهْرَ وَبِئْسَ الْقَرِينَ
فَإِنْ يَكُونُوا مِنْ أَنْسَابِ دَرَوَا فَإِنِّي كُنْتُ مِنَ النَّاصِحِينَ
مَعْذِرَةٌ مِنِّي إِلَى حَاضِرٍ وَأَثَرٌ فِي صَحْفِ الْغَابِرِينَ
يَا عَجَباً مِنْ نَاصِحٍ لَمْ يُطْعَمْ كَمْ حَازِمٌ قَدْ ضَاعَ فِي الْجَاهِلِينَ

لله دَرَّ قَوْمٍ فَهَمُّوا مِنَ الْوُجُودِ ، وَتَأَمَّلُوا الْمَقْصُودَ ، وَاشْتَغَلُوا بِطَاعَةِ الْمَعْبُودِ ،
وَانْتَبَهُوا وَالْخَلْقَ رَقُودَ ، يَصِفُونَ الْأَقْدَامَ [يَنَاجُونَ الْمَلِكَ الْعَلَامَ] وَيَصِفُونَ الْهَمَمَ ،
وَيَصِفُونَ تَقْصِيرَهُمْ وَيَصِفُونَ الشُّكْرَ لِلنَّعْمِ ، تَحْمَلُوا تَعَبَ السَّهْرِ ، وَكَابَدُوا مَشَقَّةَ
الظَّهْمِ ، وَأَخْلَصُوا الْعَمَلَ فَزَادَ عَمَلُهُمْ وَتَمَّ ، وَجَرَى الْقَدَرُ فَرَضُوا ، وَلَمْ يَعْتَرِضُوا بَلَمَ
وَلَمَّا ، فَيَا حَسَنَ مُجْتَهِدِهِمْ يَذْكُرُ الذَّنْبَ فَيُبَكِّي نَدَمًا .

إخواني: اسلكوا جادة القوم، لعل مشاعلهم تلوح لكم، تعلقوا بغبارهم،
لعل الحادي ينوه بكم، صوّتوا بالقوم عسى يقف بعض الساقاة لكم، ابكوا على
تأخركم، لعل عطف الرحمة تنعطف نحوكم.

أومض لي على الغويئر بارق فهاج من وميضه التأسفُ

لهفي على عيش مضى برامة
يا مالكي رِقَّ المحب قسماً
ويا حُدَاة الطَّعْن قد أسلمني
لعلني أن أشتفي بنظرة
ففي الضلوع جَمرة ما تنظفي
أوردَ مشتاقاً به تلهُفُ
عليكمُ بجهه تعطفوا
إلى الضَّنَا فِراقكم لي فقفوا
يبلُّ منها المستهامُ المدنَّفُ
وفي الشئون عبرة ما تُنزفُ

إخواني: كأنكم بالحافظ الذي حرسكم وقد حصدكم بعد أن غرسكم،
وبعث الموت فسبب فرسكم وفرسكم، فلينوا إلى التقى في هذه الاشهر، وخلوا
شرسكم ﴿فَلَا تَظْلِمُوا فِيهِمْ أَنْفُسَكُمْ﴾ (١).

هذه أوقات مُعظِّمة وساعات مكرَّمة وقد صيرتم ضحايها بالذنوب عتمة،
فبيصوا بالتوبة صحفكم المظلمة، فالملك يكتب خطاكم ونفسكم ﴿فلا تظلموا
فيهم أنفسكم﴾.

لقد ضيعتم مُعظم السنَّة فدعوا من الآن هذه السنَّة، واسمعوا المواعظ فقد
نطقت بالسنَّة، ودعوا الخطايا فيكفي ما قد وكسكم ﴿فلا تظلموا فيهم
أنفسكم﴾.

البدار البدار قبل القوت، الحذار الحذار فقد قرب الموت، اليقظة اليقظة فقد
أسمع الصوت، قبل أن يضيق الحساب محبسكم ﴿فلا تظلموا فيهم أنفسكم﴾
لا بد أن تنطق الجوارح وتشهد عليكم بالقبايح، فاملأوا الأوقات بالعمل
الصالح، فإنكم إذا نزلتم بطون الصفائح أنسكم ﴿فلا تظلموا فيهم أنفسكم﴾.

اعزموا اليوم على ترك الذنوب، واجتهدوا في إزالة العيوب، واحذروا سخط
علام الغيوب، واكتبوا على صفحات القلوب مجلسكم ﴿فلا تظلموا فيهم
أنفسكم﴾.

(١) التوبة ٣٦

المجلس الثالث

في ذكر المعراج

الحمد لله فالق الحَبِّ والنَّوى، وخالق العبد وما نوى، المَطَّلَع على باطن الضمير وما حوى، بمشيئته رَشَد من رَشَد، وغوى من غوى، ويارادته فسد ما فسد، واستوى ما استوى، صَرَف من شاء إلى الهدى وعطف من شاء إلى الهوى، قَرَّب موسى نَجِيًّا وقد كان مَطْوِيًّا من شدة الطوى، فمَنَحَه فَلَاحًا، وكَلَّمَه كِفَاحًا، وهو بالواد المقدس طُوًى، وعَرَجَ بِمُحَمَّدٍ إِلَيْهِ فَرَأَهُ بِعَيْنَيْهِ، ثم عاد وفراشه ما انطوى. فأخبر بقربه من ربه وحدث بما رأى وروى، فأقسم على تصديقه من حرسه بتوفيقه عن قُوًى ﴿وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ * مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ﴾ (١).

أحده على صَرَفِ الهمم والجوى، حمد من أناب وارعوى، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له فيما نَشَرَ وطوى، وأن محمداً عبده ورسوله أرسله وعودُ الهدى قد ذوى، فسقاه ماءَ المِجَاهِدَةِ حتى ارتوى، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وعلى أبي بكر الصديق صاحبه إن رحل، أو ثوى، وعلى الفاروق الذي وسم بجذّه، جبين كل جبار وكوى، وعلى ذي النورين الصابر على الشهادة ساكناً ما التوى، وعلى عليّ الذي زهد في الدنيا، فباعها وما احتوى، وعلى عمه العباس الذي منع الله به الخلافة عن غير نبيّه وزوى.

قال الله عز وجل: ﴿وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ﴾.

(١) سورة النجم ١ - ٢.

هذا قسم. وفي النجم خمسة أقوال:

أحدها: أنه الثريا. رواه العوفي عن ابن عباس. قال ابن قتيبة: والعرب تسمي الثريا، وهي ستة أنجم نجماً. وقال غيره: هي سبعة أنجم، فسته ظاهرة، وواحد خفي، يمتحن الناس به أبصارهم.

والثاني: الرجوم من النجوم، وهي ما يُرمَى به الشياطين. رواه عكرمة عن ابن عباس.

والثالث: أنه القرآن نزل نجوماً متفرقة. رواه عطاء عن ابن عباس. وقال مقاتل: كان ينزل نجوماً، ثلاث آيات وأربع آيات ونحو ذلك.

والرابع: نجوم السماء كلها. روي عن مجاهد. فعلى هذا هو اسم جنس.

والخامس: أنها الزهرة قاله السدي. فعلى قول من قال: النجم [هو] الثريا يكون «هوى» بمعنى غاب. ومن قال: هي الرجوم يكون هويها في رجم الشياطين ومن قال القرآن، يكون هوى نزل. ومن قال: نجوم السماء كلها، ففيه قولان:

أحدها: أن هويها حين تغيب. **والثاني:** أن تنتثر يوم القيامة.

قوله تعالى: ﴿ مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ ﴾ هذا جواب القسم والمعنى: ما ضلّ عن طريق الهدى، والمراد به رسول الله ﷺ ﴿ وَمَا غَوَى ﴾.

قوله: ﴿ وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَى ﴾ أي ما يتكلم بالباطل. وقال أبو عبيدة: عن بمعنى الباء. وذلك أنهم قالوا: إنه يقول القرآن من تلقاء نفسه.

﴿ إِنْ هُوَ ﴾ أي ما القرآن ﴿ إِلَّا وَحْيٌ ﴾ من الله ﴿ يُوحَىٰ عِلْمَهُ شَدِيدُ الْقُوَى ﴾ أي علم جبريل النبي ﷺ. وكان من قوته أنه قلع قرينات قوم لوط وحملها على جناحه فقلبها عليهم. وصاح بشمود فأصبحوا خامدين.

﴿ فاستوى وهو بالأفق الأعلى ﴾ فيه قولان :

أحدهما : فاستوى جبريل : وهو يعني النبي ﷺ . والمعنى أنها استويا بالأفق الأعلى لما أسري برسول الله ﷺ . قاله الفراء .

والثاني : فاستوى جبريل وهو ، يعني جبريل ، بالأفق الأعلى على صورته الحقيقية ، لأنه كان يتمثل لرسول الله ﷺ إذا هبط عليه بالوحي في صورة رجل ، وأحب رسول الله ﷺ أن يراه على حقيقته فاستوى في أفق المشرق فملاً الأفق ، فيكون المعنى : فاستوى جبريل بالأفق الأعلى في صورته ، قاله الزجاج . والأفق الأعلى : مَطْلَع الشمس ، وإنما قيل له : الأعلى ، لأنه فوق جانب المغرب في صعيد الأرض ، لا في الهواء .

قوله تعالى : ﴿ ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّى ﴾ قال الزجاج دنا : بمعنى قَرَّب . وتدلى : زاد في القُرْب ومعنى اللفظين واحد .

وفي المشار إليه بقوله : ﴿ ثُمَّ دَنَا ﴾ ثلاثة أقوال :

أحدها : أنه الله . روى البخاري ومسلم في الصحيحين من حديث شريك ابن أبي نمر عن أنس قال : « ثم دنا الجبار رب العزة » وقد قال الخطابي : هذا من غلط شريك راوي أنس .

قال ابن الجوزي : قلت : وإذا كان الدنو لا على ما يُعقل في الأجسام ، كان المراد به القُرْب المذكور في قوله تعالى : « من تقرب مني شيراً تقربت منه ذِراعاً » فإن قيل : كيف يصح هذا ، وقد حُصِرَ قَدْرُ المسافة ؟ قلنا : إنه مثل بأقرب الأشياء كما قال : ﴿ ونحن أقرب إليه من حبل الوريد ﴾ (١) .

والثاني : ثم دنا محمد من ربه . قاله ابن عباس .

والثالث : أن جبريل دنا من محمد . قاله الحسن .

والقَابُ: القَدْرُ. وقال ابن فارس: القاب ما بين المَقْبُضِ والسِّتَةِ، وهي ما عَطَفَ من طَرَفِي القَوْسِ. وقال ابن قتيبة: قَدْرٌ قَوْسِينَ. وقال الكسائي: أراد بالقوسين قوساً واحداً.

﴿أَوْ أَدْنَى﴾ بل أدنى. ﴿فَأَوْحَى﴾ الله عز وجل ﴿إِلَى عَبْدِهِ مَا أَوْحَى﴾. ما كَذَبَ الفُؤَادُ ما رَأَى ﴿قال ابن عباس: رأى ربه عز وجل، والمعنى: ما أوهمه فؤاده أنه رأى ولم يرَ.

﴿وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَى﴾ قال ابن عباس: رأى محمد ربه: وبيان هذا: أنه لما تَرَدَّدَ لأجل الصلوات رأى ربه مرة أخرى. وقال كعب: قَسَمَ اللهُ عز وجل كلامه ورؤيته بين محمد وموسى، فرآه محمد مرتين، وكلمه موسى مرتين.

قوله تعالى: ﴿عِنْدَ سِدْرَةِ الْمُنْتَهَى﴾ السِّدْرَةُ: شجرة النَّبَقِ، وهي فوق السماء السابعة. وهو في الصحيحين من حديث مالك بن صعصعة. وقد روى مسلم في صحيحه عن ابن مسعود أنها في السماء السادسة. وإنما سميت بسدرة المنتهى، لأن إليها ينتهي ما يُصْعَدُ به من الأرض فيُقْبَضُ منها، وإليها ينتهي ما يُهْبَطُ به من فوقها، فيقبض منها، وإليها ينتهي علم الملائكة.

﴿عِنْدَهَا جَنَّةُ الْمَأْوَى﴾ قال ابن عباس: هي عن يمين العرش، وهي منزل الشهداء.

﴿إِذْ يَغْشَى السِّدْرَةَ مَا يَغْشَى﴾ (١) قال ابن مسعود: غشيها فراش من ذهب ﴿مَا زَاغَ الْبَصَرُ﴾ أي ما عدل بصر رسول الله ﷺ يميناً ولا شمالاً ﴿وَمَا طَغَى﴾ أي ما جاوز ما رأى.

وهذا كان في ليلة المعراج. واتفق العلماء على أن هذا المعراج كان بمكة قبل الهجرة، واختلفوا في المدة التي كانت بينها على أربعة أقوال.

أحدها: سنة. قاله ابن عباس.

(١) النجم ١٦.

والثاني: ستة أشهر. قاله السُّدي.

والثالث: ثمانية عشر شهراً. قاله الواقديّ. ذكر هذه الأقوال عنهم أبو حفص بن شاهين.

والرابع: ثمانية أشهر.

فأما الهجرة فإنها كانت في يوم الاثنين ثاني عشر ربيع الأول، أعني اليوم الذي قدّم فيه رسولُ الله ﷺ المدينة. فعلى القول الأول يكون المعراج في ربيع الأول. وعلى الثاني والثالث، يكون في رمضان. وعلى الرابع يكون في رجب. وقد ذكر محمد بن سعد، عن الواقديّ عن أشياخ له قالوا: كان المعراج ليلة السبت لسبع عشرة ليلة خلت من رمضان قبل الهجرة بثمانية عشر شهراً. إلا أنه لما اشتهر ذكر المعراج برجب ذكرناه فيه.

أخبرنا هبة الله بن محمد بن الحصين، أنبأنا أبو علي الحسن بن علي التيمي، أنبأنا أحمد بن جعفر، حدثنا عبد الله بن أحمد، حدثني أبي، حدثنا عفان، حدثنا همام بن يحيى، قال: سمعت قتادة يحدث عن أنس بن مالك، عن مالك بن صعصعة حدثه أن النبي ﷺ حدثهم عن ليلة أُسري به قال: بينا أنا في الحطيم، وربما قال قتادة في الحجر مضطجع، إذ أتاني آت، فجعل يقول لصاحبه: الأوسط بين الثلاثة. قال: فأتاني فقدّ وسمعت قتادة يقول: فشقّ ما بيّن هذه إلى هذه. قال قتادة: فقلت للجارود، وهو إلى جنبي ما يعني؟ قال: من تُغرة نحره إلى شِعْرته. وقد سمعته يقول من قصّه إلى شعْرته، قال فاستخرج قلبي. قال: فأنتيت بطسّت من ذهب مملوءة إيماناً وحِكْمَةً فغُسل قلبي، ثم حُشي، ثم أعيد ثم أتيت بدابةً دون البغل، وفوق الحمار أبيض. فقال له الجارود: أهو البراق يا أبا حزة؟ قال: نعم. يقع خطُّوه عند أقصى طرفه.

قال: فحُمِلت عليه فانطلق بي جبريل، حتى أتى السماء الدنيا فاستفتح فقيل: من هذا؟ قال جبريل قيل: ومن معك؟ قال: محمد، قيل: أو قد بُعث إليه؟ قال: نعم، فقيل: مرحباً به ونعم المجيء جاء. قال: ففتح له فلما خلصت إذا

فيها آدم قال: هذا أبوك آدم فسلم عليه. قال: فسلمت عليه فرد السلام، ثم قال: مرحباً بالابن الصالح والنبى الصالح.

ثم صعد حتى أتى السماء الثانية، فاستفتح فقيل: من هذا؟ قال: جبريل قيل: ومن معك؟ قال: محمد. قيل: أو قد أرسل إليه؟ قال: نعم قيل: مرحباً به ونعم المجيء، جاء. قال: ففتح [لنا] فلما خلصت إذا بيحيى وعيسى، وهما ابنا الخالة، قال: هذا يحيى وعيسى فسلم عليهما. قال: فسلمت عليهما فرداً السلام، ثم قال: مرحباً بالأخ الصالح والنبى الصالح.

ثم صعد حتى أتى السماء الثالثة فاستفتح فقيل: من هذا؟ قال: جبريل. قيل: ومن معك؟ قال: محمد قيل: وقد أرسل إليه؟ قال: نعم. قيل: مرحباً به، ونعم المجيء جاء. قال: ففتح فلما خلصت إذا يوسف. قال: هذا يوسف فسلم عليه، فسلمت عليه فرداً السلام ثم قال: مرحباً بالأخ الصالح، والنبى الصالح.

ثم صعد حتى أتى السماء الرابعة، فاستفتح فقيل: من هذا؟ قال: جبريل. قيل: ومن معك؟ قال: محمد. قيل: أو قد أرسل إليه؟ قال: نعم. قيل: مرحباً به ونعم المجيء جاء، قال: ففتح فلما خلصت إذا إدريس، قال: هذا إدريس فسلم عليه. فسلمت عليه فرداً السلام ثم قال: مرحباً بالأخ الصالح، والنبى الصالح.

ثم صعد حتى أتى السماء الخامسة، فاستفتح قيل: من هذا؟ قال: جبريل. قيل: ومن معك؟ قال: محمد. قيل: أو قد أرسل إليه؟ قال: نعم قيل: مرحباً به، ونعم المجيء جاء. ففتح له، فلما خلصت إذا أنا بهارون قال: هذا هارون فسلم عليه. فسلمت عليه فرد السلام، ثم قال: مرحباً بالأخ الصالح والنبى الصالح.

ثم صعد حتى أتى السماء السادسة فاستفتح قيل: من هذا؟ قال: جبريل قيل: ومن معك؟ قال: محمد. قيل: أو قد أرسل إليه؟ قال: نعم. قيل: مرحباً به ونعم المجيء جاء ففتح له فلما خلصت، إذا أنا بموسى، قال: هذا موسى فسلم عليه، فسلمت عليه فرد السلام، ثم قال: مرحباً بالأخ الصالح، والنبى الصالح. قال: فلما جاوزت بكى فقيل له: ما يبكيك؟ قال: أبكي لأن غلاماً بعث بتعدى

يدخل الجنة من أمتة أكثر مما يدخلها من أمتي !.

قال: ثم صعد حتى أتى السماء السابعة فاستفتح، قيل: من هذا؟ قال: جبريل .
قيل: ومن معك قال: محمد . قيل: أو قد أرسل إليه؟ قال: نعم . قيل: مرحباً به
ونعم المجيء جاء . قال: ففتح فلما خلصت إذا إبراهيم قال: هذا إبراهيم فسلم
عليه، فسلمت عليه فرد السلام، ثم قال: مرحباً بالإبن الصالح والنبي الصالح .

قال: ثم رفعت إلى سِدْرَةِ المنتهى فإذا نَبَقُها مثل قِلَالٍ هَجَرٍ، وإذا ورقها مثل
أذان الفيلة، فقال: هذه سِدْرَةُ المنتهى . قال: وإذا أربعة أنهار: نهران باطنان،
ونهران ظاهران، فقلت: ما هذا يا جبريل؟ قال: أما الباطنان فنهران في الجنة،
وأما الظاهران فالنيل والفرات .

قال: ثم رفع لي البيت المعمور . قال قتادة: وحدثنا الحسن عن أبي هريرة، عن
النبي ﷺ أنه رأى البيت المعمور يدخله كل يوم سبعون ألف ملك ثم لا
يعودون فيه إلى يوم القيامة .

ثم رجع إلى حديث أنس . ثم أتيت بإناء من خمر، وإناء من لبن، وإناء من
عسل، قال: فأخذت اللبن قال: هذه الفطرة أنت عليها وأمتك .

قال: ثم فرضت عليّ الصلاة خمسين صلاة كل يوم وليلة، قال: فرجعت،
فمررت على موسى فقال: بم أمرت؟ قلت: أمرت بخمسين صلاة كل يوم . قال:
إن أمتك لا تستطيع خمسين صلاة، وإني قد خبرت الناس قبلك، وعالجت بني
إسرائيل أشدَّ المعالجة، فارجع إلى ربك عز وجل فاسأله التخفيف لأمتك قال:
فرجعت فوضع عني عَشْرًا، فرجعت إلى موسى فقال: بم أمرت؟ قلت: بأربعين
صلاة كل يوم . قال: إن أمتك لا تستطيع أربعين صلاة [في] كل يوم، وإني
قد خبرت الناس قبلك [وعالجت بني إسرائيل أشدَّ المعالجة] فارجع إلى ربك
فاسأله التخفيف لأمتك . قال: فرجعت فوضع عني عَشْرًا آخر فرجعت إلى
موسى فقال: بم أمرت؟ قلت: أمرت بثلاثين صلاة كل يوم قال: إن أمتك لا
تستطيع ثلاثين كل يوم، وإني قد خبرت الناس قبلك، وعالجت بني إسرائيل

أشدَّ المعالجة، فارجع إلى ربك فأسأله التخفيفَ لأمتك. قال: فرجعت فوضع عني عَشْرًا آخر، فرجعت إلى موسى فقال: بم أمرت؟ فقلت: بعشرين صلاة كل يوم. فقال: إن أمتك لا تستطيع عشرين صلاة كل يوم، وإني قد خبرت الناس قبلك، وعالجت بني إسرائيلَ أشدَّ المعالجة، فارجع إلى ربك فأسأله التخفيفَ لأمتك. قال: فرجعت فأمرت بعَشْرَ صلوات كل يوم قال: فرجعت إلى موسى قال: بم أمرت؟ قلت: بعشر صلوات كل يوم. فقال: إن أمتك لا تستطيع عشر صلوات كل يوم، وإني قد خبرت الناس قبلك وعالجت بني إسرائيلَ أشدَّ المعالجة، فارجع إلى ربك، فأسأله التخفيفَ لأمتك. قال: فرجعت فأمرت بخمس صلوات كل يوم، فرجعت إلى موسى فقال: بم أمرت قلت: أمرت بخمس صلوات كل يوم قال: إن أمتك لا تستطيع خمس صلوات كل يوم، وإني قد خبرت الناس قبلك وعالجت بني إسرائيلَ أشدَّ المعالجة، فإجع إلى ربك فأسأله التخفيفَ قال: قلت: قد استحييتُ من ربي، ولكني أرضى، وأسلمَ فلما جاوزت نادى منادٍ: قد أمضيتُ فريضتي وخففتُ عن عبادي.

أخرجاه في الصحيحين وليس لمالك بن صعصعة في الصحيح غيره.

وفي الصحيحين من حديث أبي ذر، عن رسول الله ﷺ أنه ذكر أنه مرَّ بآدم وعن يمينه أسودة، وعن يساره أسودة، فإذا نظر قبل يمينه ضحك، وإذا نظر قبل يساره بكى، فقال: يا جبريل من هذا؟ قال آدم: وهذه الأسودة التي عن يمينه وشماله نسَم بنيه، عن يمينه أهل الجنة، وعن يساره أهل النار.

وفي أفراد مسلم من حديث أنس عن النبي ﷺ قال: أتيت بالبراق فركبته فسار بي حتى أتيت بيت المقدس، فربطت الدابة بالحلقة التي يربط فيها الأنبياء، ثم دخلت فصلت ركعتين.

وقد روى حديث المعراج جماعة منهم علي بن أبي طالب، وابن مسعود، وحذيفة وأبو ذر، وابن عباس وأبو سعيد، وأبو هريرة، وجابر، وأم هانسيء في آخرين.

الكلام على البسمة

يا صاح إن كنت لبيباً حازماً
 وإن أردت أن تفوز في غدي
 لا تهو دنياك، فإن حبهما
 غدارة فكل من حلت له
 وإنما تخدم من أهانها
 فكن بها مثل غريب مُصلح
 فإنما عمر الفتى سوق له
 يا عجباً لمعشر أتهم الد
 ولا شروا مع علمهم زوالها
 إياك والتسويق فالعاقل من
 وإنما الموت مُغير هائل
 والقبر إما روضة للمتقي
 يا لهفتي من اشتقاق حُفرتي
 وموقفي أسأل عما قد جنت
 وحين يأتيني كتابي فأرى
 فإن يناقشني فعبد هالك

فكن لأسباب الهوى مُراغماً
 فكن تقياً واهجر المحارماً
 رأسُ الخطايا يُكسب المآتما
 لا بد أن تذيقه العلقماً
 كما تُهين من أتاها خادماً
 أزواده على الرحيل عازماً
 يروح عنها خاسراً وغنائماً
 نيا فلم يبنوا بها المكارماً
 بها جناناً ونعيماً دائماً
 يُنجز ما كان عليه عازماً
 أعظم به على النفوس حاجماً
 أو حفرة النار تصيب الظالماً
 ومحشري إلى الحساب راغماً
 يداي من سوء فأبقى واجماً
 فيه الذي أتيتهُ مكاتماً
 وإن عفا نجوت منها سالماً

إخواني: هذا شهر رجب قد رحل أكثره وبان، ونور شعبان قد لاح وبان،
 وقد سار إلى ديار الفوز رُكبان، وأقدم الشجاع، وولّى الجبان، هذا الشهر
 الأصم يُؤذنكم بإقلاعه، ويخبركم برحيله ووداعه، فأيكم ودّعه وقد أودّعه ما
 ينفعه غدا، وأيكم داوم المعاصي فلم يُقلع حتى غدا، ويل لمن ذهب عنه شهر
 رجب وانصّرم، وهو في عداد من هجر الهدى وصّرم، كيف يرجو الفضل
 والكرم من اجترم، وما احترم.

أكثر هذا الشهر قد مضى وتولى عنكم معرضاً، وبقية قد نادى للتوبة

مُعْرَضاً ، فاحذروا أن يفوتكم الغفران مع الرضا . أين من استدرك باقي ساعاته وقضى ، وطالب نفسه بالإجابة واقتضى ، أين من خاف لذب السعير وحرّ لظى ، فبادر إلى ما يُؤثّر من الخير ويُرْتَضَى ، أين من جرّد سيف التوبة على الخطايا وانتضى ، قبل أن يعود بعد التحريض حرّصاً .

آه لأوقات مضت من رجب ، لا سبيل إلى رجوعها ، وأهلاً بنفوس صبرت فيه على عطشها وجوعها ، ويأسفاً لأعمال ما يُقبّل شيء من مرفوعها ، ولأصوات رُدّت لعدم صيدق مسموعها .

إخواني : فارقوا خطاياكم قبل مفارقتة ، وسابقوا بالتوبة رحيله قبل مسابقتة ، واعلموا أن الأوقات عليكم شاهدة بما هي منكم مُشاهدة ، فالخذار الخذار أن يفوت وقت الاقتدار ، فما زالت الدنيا تُخدع وتغر ، ثم ترحل وتمرّ .

عَتَّتْكَ دِنْيَاكَ الْخُلُوبُ وَحَبَّهَا فِي الْكِفِّ عُوْدُ
أَمَا إِسَاءَتَهَا فَقَدْ كَانَتْ وَحُسْنَاهَا وَعُوْدُ

لغربان الموت على ديارنا نعيب ، ونحن نحرص على ما لطالبه نعيب ، الخلق بأسرهم في قبضة التلف أسرى ، وما يُعدّونه إرباحاً يعود غداً خُسرأً ، سيف المنون ما يَنبُو ولا يقنع ، وبطن الأرض يأكل الخلائق وما يشبع .

إخواني : لا للموت بالاستعداد تنتظرون ، ولا بالقلوب في الذكر تحضرون ، وكأنكم للتلف تأمنون ، أو بالوعيد ما تؤمنون ، أمّا علمتم أنكم ترحلون ، أما ترون الأقران أين ينقلبون ، كأننا والله بنا إذ قدمنا وقد ندّمنا ، ووضع الحساب وقدمنا ، وطلبنا ما يرضى من العمل فعدّمنا ، وريح المتقون بالتقى وحرّمنا ، وأقمنا لقراءة الصحف ، فلما فهمنا همّنا ، فرحم الله عبداً استدرك بقية هذا الشهر ، فرمما لا يرى مثله في الدهر ، قبل أن يؤخذ بشدة القهر ، ويحاسب على فعل السر والجهر .

واعلموا أن اليوم السابع والعشرين منه يوم معظّم .

أخبرنا أبو الحسن الأنصاري، أنبأنا عبد الله بن علي الآبَنُوسِي، أنبأنا عبد الملك بن عمر البزَّاز، أنبأنا أبو حفص بن شاهين، حدثنا أحمد بن عبد الله البزار، حدثنا علي بن سعيد الرَّقِّي، حدثنا ضَمْرَةَ، عن ابن أبي شَوذْب، عن مطر الورَّاق، عن شهر ابن خُوْشَب، عن أبي هريرة قال: « من صام يوم سبوع وعشرين من رجب كتب له صيام ستين شهراً ». وهو اليوم الذي نزل فيه جبريل على النبي ﷺ وأول يوم هبط فيه .

قوله تعالى

﴿سبحان الذي أسرى بعبده ليلاً﴾^(١)

معنى التسييح: التنزيه عن كل سوء . واعلم أن الله تعالى سبح نفسه عند كل عظيم لما كان اختلاف الليل والنهار من عجائب الأمور، ومما لا يقدر عليه غيره، ثم ادعى المشركون وجود شريك معه نزّه نفسه عن ذلك فقال: ﴿فسبحان الله حين تمسون وحين تُصبحون﴾^(٢) ولما اختار عائشة لنبيه فقذفت سبح نفسه أن يختار للمختار إلا خيرة فقال: ﴿سبحانك هذا بهتان عظيم﴾^(٣) ولما أسرى بنبيه ﷺ فكذبه الكفار سبح نفسه، لأن قدرته لا تعجز . والمنعم عليه بذلك أهل فقال: ﴿سبحان الذي أسرى بعبده ليلاً﴾ .

وأسرى بمعنى سِرَّ عبده . ويقال: سرّيت وأسريت، إذا سرت ليلاً . وقد جاءت اللغتان في القرآن . قال تعالى: ﴿والليل إذا يسر﴾ .

والمراد بعبده ها هنا: محمد ﷺ .

قوله سبحانه وتعالى: ﴿من المسجد الحرام﴾ فيه قولان: أحدهما: أنه من نفس المسجد قاله الحسن، وقتادة، ويؤيده ما ذكرنا في حديث مالك بن صعصعة: «بينا أنا في الحطيم أو في الحجر» .

(٣) سورة النور ١٦ .

(٢) سورة الروم ١٧ .

(١) الاسراء ١ .

الثاني: أنه أُسْرِيَ به من بيت أم هانئ. ذكره جماعة من المفسرين، فعلى هذا يعني بالمسجد الحَرَم، والحرم كله مسجد.

وأما المسجد الأَقْصَى، فهو بيت المقدس. وقيل له الأَقْصَى، لُبُعْد المسافة بين المسجدين. ومعنى ﴿بَارَكْنَا حَوْلَهُ﴾ أن الله تعالى أجرى الأنهار وأنبت الأشجار. وقيل: إنه مقرّ الأنبياء ومَهَبَط الملائكة. قال أبو هريرة: دخل بيت المقدس، وصَلَّى فيه بالأنبياء ثم عُرِجَ به إلى السماء.

واعلم أن الإسراء كان إلى بيت المقدس، والمعراج من هنالك إلى السماء، وإنما جعل كذلك لأربعة فوائد:

الفائدة الأولى: أنه لو أخبر بصعوده إلى السماء في بدء الحديث، لاشتد إنكارهم، ولو وصفها لهم لم يكن عنده عِلْمٌ بذلك، فلما أخبرهم بيت المقدس، ووصفهم لهم دلَّ صِدْقُهُ في ذلك على صدقه في حديث المعراج.

وفي الصحيحين من حديث جابر بن عبد الله، عن النبي ﷺ أنه قال: «لما كذَّبْتَنِي قريش قمت في الحِجْر، فَجَلَا اللهُ لي بيتَ المقدس، فطفقت أخبرهم عن آياته وأنا أنظر إليه». وروى عروة عن عائشة قالت: لما أُسْرِيَ برسول الله ﷺ أصبح يحدث الناس بذلك، فسعى رجال من المشركين إلى أبي بكر، فقالوا: هل لك في صاحبك يزعم أنه أُسْرِيَ به إلى بيت المقدس؟ قال: وقد قال ذلك؟ قالوا: نعم. قال: إن كان قال ذلك لقد صدق. قالوا: تصدقه أنه ذهب إلى الشام في ليلة، وجاء قبل أن يُصْبَحَ؟ قال: نعم إني لأصدقه في خبر السماء في غَدْوَة أوروحة. فلذلك سَمِّي أبو بكر الصديق.

الفائدة الثانية: أنه سَيَّرَه في الأرض يستأنس، ثم درج إلى الصعود إلى السماء، فهو نظير قوله: ﴿وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَا مُوسَى﴾ (1) فلما أنس بالخطاب حُمِّلَ الرسالة إلى فرعون.

(1) طه ١٧.

الفائدة الثالثة: أن الأنبياء جُمعوا هنالك، فصلى بهم، فبان فَضْلُهُ بالتقديم عليهم في دار التكليف. وكان ائتمامهم به مشيراً إلى نَسْخِ شرائعهم بَشْرَعِهِ.

الفائدة الرابعة: أنه مرَّ بالنواحي التي كَلَّمَ عندها موسى، ثم صعد، فكَلَّمَ في السموات ليظهر التفاوتُ بتقدّمه.

ومذهب أهل السُنَّة أنه رأى رَبَّهُ ليلة المعراج. وقد ذكرنا ذلك عن ابن عباس وكعب.

أخبرنا ابن المذْهَب، أخبرنا أحمد بن جعفر، حدثنا عبد الله بن أحمد، حدثني أبي، حدثنا أسود بن عامر، حدثنا حمّاد بن سلمة، عن قتادة، عن عكرمة، عن ابن عباس.

قال: قال رسول الله ﷺ: « رأيت ربي تبارك وتعالى ».

وقد تعلّق من أنكر ذلك بإنكار عائشة أن يكون رآه. والجواب من ثلاثة أوجه:

أحدها: أنه رأيٌّ منها لا رواية، فلا يقاوم رواية من روى عن رسول الله ﷺ أنه قال « رأيتُ رَبِّي ».

والثاني: أنها نفَتَ والعمل على الإثبات.

والثالث: أنها كانت في زمن المعراج صغيرة، ولم تكن عند رسول الله ﷺ، وقول الرجال العلماء من الصحابة مقدّم.

وقد زعم قوم أن المعراج كان مناماً. ويرد قولهم أن المشركين أنكروا عليه ما قال، ولو كان مناماً لم ينكره أحد.

وقد رأى تلك الليلة الجنة والنار.

أخبرنا هبة الله بن محمد، أنبأنا الحسن بن علي، أنبأنا أحمد بن جعفر، حدثنا عبد الله بن أحمد، حدثني أبي، حدثنا وكيع، حدثنا حماد بن سلمة، عن علي بن

زيد، عن أنس ابن مالك، قال: قال رسول الله ﷺ: «مررت ليلة أُسري بي على قومٍ تُقرّص شفاههم بمقاريض من نار، قلت: من هؤلاء قال: خطباء أهل الدنيا ممن كانوا يأمرّون الناس بالبِرِّ وينسون أنفسهم، وهم يتلون الكتاب أفلا يعقلون.

إخواني: قفوا ليلة المعراج على قدم الشكر، تارةً لما أنعم الله على نبيكم من إسرائه، وتارةً للإنعام عليكم بالإيمان بمِعْراجِه، والذي ناله المصطفى من الارتفاع والعلوّ يحث أمتَه على التماس القرب والذنوّ، فالسعيد من تأهّب للقاء ربه بتأديب نفسه وتطهير قلبه.

بأيّ عينٍ تراني يا من بارزني وعصاني، بأيّ وجهٍ تَلقاني، يا من نسي عظمة شأني، خاب المحجوبون عني، وهلك المبعدون مني:

يا من يحدث نفسه	بدخول جنات النعيم
إن كنت متقياً فأند	ت على الصراط المستقيم
لا ترجون سلامة	من غير ما قلب سليم
فاسلك طريق التقي	من وظنّ خيراً بالكرم
واذكر وقوفك خائفاً	والناس في أمرٍ عظيم
إمّا إلى ذل الشقا	وة أو إلى العِز المقيم
فاجعل تقاك وقايةً	في الحشر من نار السّموم
واغنم حياتك واجتهد	وأنبأ إلى الربّ الرحيم

سبحان من أسرى بعبدِه فأصبح الحُساد أسرى، قصرت دولته قيصر، وكسرت هيبتَه كِسرى، أقامه بالليل من وطائه ودثاره، ورفعَه فوق السموات بقوته واقتداره، وأراه ما في جنته، وما في ناره، وأوحى إليه ما أوحى من أسرارِه، ثم أعاده في الليل إلى مسكنه وقراره، وجاوز أفق الشمس والقمر، وعلا على الملائكة والبشر، وفاز بالتقريب والنظر، وما حضر أحد قط حيث حضر، ارتقى إلى مقام القُرب بقدميه، والأملك تحفُّ به من جانيه، وجبريل يمشي

خادماً بين يديه، والرب قد أنعم بتقريبه إليه، وكشف له الحجاب حتى رآه بعينه، فحماه بالطفاه من الزَّيغ في طريقه، وأيّده بإسعافه وإسعاده وتوفيقه، وعضَّده في صدقه بتصديق صِدِّيقه، سبحان من رفعه فوق الأفلاك، وقَدَّمه على الأنبياء والأُملاك، وإنه والله أهلُّ لذاك، لأنه أطول القوم في جهاد أهل الإِشراك ذِيلاً ﴿سبحان الذي أسرى بعبده ليلاً﴾ .

طَيَّبَهُ بِأَزْكَى الْخَلَائِقِ، ثُمَّ رَفَعَهُ [عَلَى أَزْكَى الْخَلَائِقِ] فَوْقَ السَّبْعِ الشَّدَادِ الطَّرَائِقِ، فَيَا فَخْرَ ذَاكَ الْمَقْدَمِ السَّابِقِ رَجُلًا وَخَيْلًا ﴿سبحان الذي أسرى بعبده ليلاً﴾ .

أَوْقَدَ لَهْدَايَةِ الْخَلْقِ سِرَاجَهُ، وَشَادَ قَوَاعِدَ دِينِهِ وَأَبْرَاجَهُ، وَقَوَّى دَلِيلَهُ وَأَظْهَرَ احْتِجَاجَهُ، فَالْخِزْيَ كُلَّ الْخِزْيِ لِمَنْ جَحَدَ مَعْرَاجَهُ، وَيَلًا لَهُ وَيَلًا ﴿سبحان الذي أسرى بعبده ليلاً﴾ .

كَلَّمَهُ كِفَاحًا، وَمَنَحَهُ فَلَاحًا، وَسَقَاهُ مِنْ شَرَابِ الْمَحَبَّةِ رَاحًا، يَمِيلُ بِأَعْطَافِهِ مَيْلًا ﴿سبحان الذي أسرى بعبده ليلاً﴾ .

أَصْلَحَ بِتَدْبِيرِهِ طَبَاعَ الْمَرْضَى، وَجَعَلَ طَاعَتَهُ عَلَى الْخَلْقِ قَرَضًا، وَضَمَّنَ أَنْ يُعْطِيَهُ حَتَّى يَرْضَى، كَيْلًا يُحْصِرَ مَا يُعْطَى وَزَنًا وَكَيْلًا ﴿سبحان الذي أسرى بعبده ليلاً﴾ .

عَاشَ فِي الدُّنْيَا بِالقِنَاعَةِ، وَصَبَرَ عَلَى الْفَقْرِ وَالْمَجَاعَةِ، وَيَكْفِيهِ فَخْرًا شَرَفُ الشَّفَاعَةِ، وَشَغْلُهُ ذِكْرُ الْقِيَامَةِ وَالسَّاعَةِ أَنْ يَكُونَ مَلَكًا، أَوْ قَيْلًا ﴿سبحان الذي أسرى بعبده ليلاً﴾ .

كَانَ يَجُوعُ فَيَشُدُّ الْحَجَرَ، وَيَفْتَقِرُ فَيَصَابِرُ الضَّرَرَ، رَاضِيًا بِالظُّمِّ وَقَطْرُ الْمَطَرِ مِنْ سَحَابِ الدُّنْيَا يَجْرِي سَيْلًا ﴿سبحان الذي أسرى بعبده ليلاً﴾ .

سَبْحَانَ مَنْ شَرَّفَنَا بِهَذَا الرَّسُولِ، وَرَزَقَنَا مُوَافَقَةَ الْمَنْقُولِ، فَنَحْنُ أَهْلُ السَّنَةِ لَا أَهْلُ الْفُضُولِ، لَا نَزَالَ عَلَى الصَّرَاطِ وَلَا نَزُولُ، مَا نَعْرِفُ مَيْلًا ﴿سبحان الذي أسرى بعبده ليلاً﴾ .

أسرى بعبدہ لیلاً ﴿﴾ .

فخر نبینا أجلّ وأعلیٰ ، ومناقبه من الشمس أجلیٰ ، وذكره فی قلوبنا ، والله
أحلی عند قیس من لیلی ﴿﴾ سبحان الذی أسرى بعبدہ لیلاً ﴿﴾ .

والحمد لله وحده .

المجلس الرابع

في ذكر فضائل شعبان

الحمد لله أحق من شكر، وأولى من حمد، وأكرم من تفضل، وأرحم من قصد، المعروف بالدليل، وبالذليل عبد، القديم لم يولد ولم يلد، أحاط علماً بالمعلومات وحواسها، وأنشأ المخلوقات بالقدره وبنائها، وأظهر الحكيم في الموجودات إذ براها، ومن يتلمح حكمها لما رآها، فلينظر بالفهم وليفتقد، تعرّف إلى خلقه بالبراهين الظاهرة، وأظهر في مصنوعاته العجائب الباهرة، وتفرّد في ملكه بالقدره القاهرة، ووعد المتقين الفوز في الآخرة، فالبشرى للموعود بما وعد. تعالى أن يشبه ما صنعه وأن يقاس بما جمعه، سبحانه لا وزير له ولا شريك معه، نادى موسى ليلة الطور فأسمعه، فاعلم هذا واعتقد، وتمسك بالكتاب والسنة ولا تمل عنها وسلم إليها، وتسلم العلم منها، ولا تنطق برأيك وظنك فيها، هذا مذهب أهل السنة لا تنقص ولا تزد.

أحدّه حمداً إذا قيل سعد، وأصلي على رسوله محمد خير مولود وولد.

عن أبي سلمة قال: «حدثني عائشة: قالت: ما كان رسول الله ﷺ يصوم من شهر من السنة أكثر من صيامه من شعبان، كان يصومه كله».

أخرجاه في الصحيحين.

وفيهما من حديث عائشة قالت: «كان رسول الله ﷺ يصوم حتى نقول لا يفطر، ويفطر حتى نقول لا يصوم، وما رأيت رسول الله ﷺ استكمل صيام شهر قط إلا شهر رمضان، وما رأيت في شهر أكثر منه صياماً في شعبان».

وفي لفظ انفراد به مسلم قالت: كان يصومه إلا قليلاً.

أخبرنا محمد ناصر بسنده عن عائشة قالت: كان رسول الله ﷺ يصوم شعبان كله حتى يصليه برمضان، ولم يكن يصوم شهراً تاماً إلا شعبان، فإنه كان يصومه كله، فقلت: يا رسول الله إن شعبان لمن أحب الشهور إليك أن تصومه. فقال: «نعم يا عائشة، إنه ليس من نفس تموت في سنة إلا كُتِبَ أجلها في شعبان، فأحب أن يكتب أجلي، وأنا في عبادة ربي وعمل صالح».

وعن أسامة بن زيد، قال: قلت يا رسول الله رأيتك تصوم في شعبان صوماً لا تصومه في شيء من الشهور، إلا في شهر رمضان، قال: «ذاك شهر يغفل الناس عنه بين رجب وشهر رمضان تُرْفَعُ فيه أعمالُ الناس، فأحب أن لا يُرْفَعَ عملي إلا وأنا صائم».

واعلم أن الأوقات التي يغفل الناس عنها معظمة القدر لاشتغال الناس بالعبادات والشهوات، فإذا تأبّر عليها طالب الفضل دلّ على حرصه على الخير. ولهذا فضّل شهودُ الفجر في جماعة لغفلة كثير من الناس عن ذلك الوقت، وفضّل ما بين العشاءين، وفضل قيام نصف الليل ووقت السحر.

عن عائشة قالت: ذكر لرسول الله ﷺ ناس يصومون رجياً فقال: «فأين هم عن صيام شعبان».

قالت لؤلؤة مولاة عمّار: كان عمّار يتهيأ لصوم شعبان، كما يتهيأ لصوم رمضان. وكان عمرو بن قيس الملائي إذا دخل شعبان أغلق حانوته، وتفرغ لقراءة القرآن في شعبان ورمضان.

وعن الحسن بن شهيل، قال: قال شعبان: يا رب جعلتني بين شهرين عظيمين فما لي؟ قال: جعلت فيك قراءة القرآن.

وقد ذكرنا في حديث أن الآجال تكتب في شعبان.

وعن عثمان بن محمد بن المغيرة بن الأحنس أن رسول الله ﷺ قال: «تقطع

الآجال من شعبان إلى شعبان، حتى إن الرجل ينكح، ويولد له، ولقد خرج اسمه في الموتى» .

فهذا الحديث، وحديث عائشة لم يعين فيها متى يكون ذلك من شعبان، وقد روي في حديث عائشة عن النبي ﷺ أنه قال: ليلة النصف من شعبان تنسخ فيها الآجال والأرزاق.

وقال أبو هريرة: إذا كان هلال شعبان دُفع إلى ملك الموت صحيفة يقبض من فيها إلى شعبان من قابل، فإن الرجل ليغرس الغرس ويبنى البنيان، وينكح ويولد له ويظلم ويفجر، وما له في السماء اسم، وما اسمه إلا في صحيفة الموتى إلى أن يأتي يومه الذي يقبض فيه أو ليلته.

فيا أيها الغافل تنبه لرحيلك ومسراك، واحذر أن تستلب على موافقة هوك، انتقل إلى الصلاح قبل أن تنتقل، وحاسب نفسك على ما تقول وتفعل، ولا تغفل عن التدارك الله الله لا تفعل.

الكلام على البسمة

قد آن بعد ظلام الجهل إبصاري	الشبُّ صُبْحُ يناجيني بإسفارِ
ليلُ الشبابِ قصيرٌ فاسرِ مُبتدراً	إنَّ الصباحُ قُصَارَى المَدْلِجِ السَّارِي
كم اغتراري بالدينا وزُخرفها	أبني بناها على جُرْفِ لها هاري
ووعدِ زورٍ وعهدٍ لا وفاء له	تعلمُ الغَدَرَ منها كلُّ غَدَارِ
داراً مآثمها تبقى ولذتها	تفنى ألا قبحت هاتيك من دارِ
فليت إذ صقرت مما كسبت يدي	لم تعلق من خطاياها بأوزارِ
ليس السعيدُ الذي دنياه تُسعدُه	إنَّ السعيدُ الذي ينجو من النارِ

لقد بالغت المواعظ، وبلغت أيَّ إبلاغٍ، وأي بلوغٍ، وأنت تتلون هكذا وهكذا، ثم ترُوعُ إياك وسُورِ الهوى فسُورِ الهوى ما يسوغُ، وقد رأيت غيرك أفلا يتعظ الملدوغُ، يا مُمَجِّلاً قد أجدب عامه، يا مُعْرِفاً قد أهلك قلبه سامه،

يا مقتول الهوى قد قطعه حُسامه، أما علمت أن الرامي لا تطيش سهامه، أين
الظَّبَاءُ الكُنْسُ، أين الكَمِيّ الأَشْوَسُ، أين من تكبَّرَ وعبس تساوى في القبور
اللِّين والأَحْمَسُ، واعتدل في اللُّحود النَّطُوق والأُخْرَسُ، ورمى الكلَّ سهمُ المنون
فقرطس، وعرّوا في العراء من حلَّهم فتائل الملبس.

ونادتنا الرسوم وهُنَّ صُمَّ
وكان اليأسُ أجَلَ فانصرفنا
ومَنطِقها المعاجِم والسَّطَارُ
ودمعُ العين نجْراه انحدارُ

زار عمرُ بن عبد العزيز قبورَ آبائه، ثم رجع وهو يبكي، فقال لأصحابه:
ناداني التراب: ألا تسألني عما صنعتُ بأحبابك؟ فقلت: ما فعلت؟ قال:
فصلتُ الكفَّين من الساعدين والقدمين من الساقين، وفعلتُ وفعلت. فلما وليت
ناداني: ألا أدلك على كفن لا يبلى؟ قلت: بلى. قال: التقوى.

إخواني: سلوا المقابر بألسنة الفكر تجبكم بكلام العبر:

عُوجوا فحيّوا لنُعمِ دِمْنَةَ الدار
أقوى وأقفر من نُعمِ وغيرها
ماذا تُحيّون من نُويِّ وأحجار
هوجُ الرياح بهاري التُّربِ مَوَارِ
وقفتُ فيها سِراةَ اليوم أسأها
عن آل نُعمِ أموناً عبْرَ أسفارِ
فاستعجمتُ دارُ نُعمي ما تُكلِّمنا
والدارُ لو كلِّمتنا ذاتُ أخبارِ
فما وجدتُ بها شيئاً أعيج به
إلا الثَّام وإلا مَوْقِدُ النارِ

أما يكفي العاقل تجاربه، أما أيقظ الفطن نوائبه، غلب الموتُ فمن ذا يغالبه،
قهر الخلقُ فمن ذا يجاربه، كأنكم به قد دبَّت عقاربه، قل للمفرط وقد حانت
مصائبه، القلب غائب فكيف نعاتبه، لقد قتل الهوى آلة بلا آلة، فما لكم وماله،
خلوا له ماله، كم طالبُ مرادٍ ما ناله، كم لذة أفنيت وأبقتَ قاله، إياكم وإيا
الدنيا، فإنها محتالة.

ومكاسبُ الدنيا وإن كثرت فما
فعليك بالفعل الجميل فإنه
يبقى سوى تبعاتها والمأم
أنس المقيم غداً وزادُ المعْدَم

كان حبيب العجمي إذا أصبح بكى، وإذا أمسى بكى، فسئلت زوجته عن بكائه، فقالت: يخاف والله إذا أمسى أن لا يصبح، وإذا أصبح أن لا يمسي، يقول لي: إن ميتاً فافعلي كذا، واصنعي كذا.

وكان شَمَيْطُ بن عَجْلان يقول: أيها المغترّ بصحته، أما رأيت ميتاً من غير سقم، أيها المغترّ بطول المهلة، أما رأيت مأخوذاً من غير علة؟!

كان شيخ متعبد في تيم الله يجتمع إليه فتیان الحي فيعظهم، فإذا أرادوا أن يتفرقوا قال: يا إخوانه قوموا قيام قومٍ قد يسوا من المعاودة لمجلسهم خوفاً من ورطات الذنوب، وخوفاً من خطفات الموكّل بالنفوس فيبكي. ويبكي.

وكان يزيد الرقاشي يقول: إلى متى تقول غداً أفعل كذا، وبعد غدٍ أفعل كذا أغفلت سفرك البعيد ونسيت الموت، أما علمت أن دون غدٍ ليلةٌ تُحترَم فيها أنفُسُ، أما رأيت صريعاً بين أحبابه، لا يقدر على ردّ جوابهم؟!!

مضى أناسٌ وأصبحنا على ثقة أنا سنُتبعُ بالأشجان تُعتلجُ إن أدلجوا وتخلّفنا وراءهم وما نسير فإننا سوف ندلجُ

الكلام على قوله تعالى

﴿أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ نَجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾^(١).

قام تميم الداري ليلةً إلى الصباح بهذه الآية، وكذلك الربيع بن خثيم قام بها ليلة لم يزد.

قال الحسن: لا يجعل الله عبداً أسرع إليه كعبدي أبطأ عنه.

وقال شَمَيْطُ بن عَجْلان: الناس ثلاثة: فرجل ابتكر الخير في حداثة سنه، ثم داوم عليه حتى خرج من الدنيا فهذا المقرب. ورجل ابتكر عمره بالذنوب

(١) الجائفة ٢١.

وطول الغفلة ثم راجع بتوبة، فهذا صاحب يمين، ورجل ابتكر الشرَّ في حادثة سنه، ثم لم يزل فيه حتى خرج من الدنيا، فهذا صاحب شمال.

إخواني: المعاصي تنكس الرأس، وما مخلَّط كمن كاس، ولا بان على رمل كمحكِّم الأساس، إن بينهما كما بين الطهارة والأنجاس، وعلى وجه الطائع نور طاعته وعلى وجه العاصي ظلام مخالفته، وعند الموت يُتلقى هذا بالبشارة، ويقع هذا في الخسارة، وفي القبر يفتش هذا مهَادَ الفلاح، ويُلقى ذاك على حسك القِيَّاح، وعند الحشر هذا يركب وذاك يُسحب، ثم يقال للعصاة: هلاَّ ذكركم وللطائعين: سلامٌ عليكم بما صبرتم. كم بين خَجَلٍ يَدِلُّ وبين طائعٍ يُدِلُّ. إياكم إياكم والذنوب، احذروا عواقب العيوب، لقد ورَّطت الذنوبُ أربابها، أيَّ إبطاء، وأسعطت أصحابها أيَّ إسعاط، وأبعدتهم عن أغراضهم أشواطاً بعد أشواط، وضربت عليهم سرادقاً من الندم بعد فُسطاط، هذا جنى الجناية فأين التقي المحتاط. تنبهوا لهذا يا أصحاب اللَّمَمِ السَّمَّاط، تيقظوا فهذا الموتُ بكم قد أحاط، إياكم والزلل، فكم من دم قد أشاط، أذيتم أنفسكم بالذنوب فمهلاً كم إفراط، هذا العدوُّ مرَّاصِدٌ فعليكم بالريِّاط، هذا الفتور، وإنما مهرُ الجِدَّةِ النشاط، سار الصالحون وقد سلكتهم غير الصراط، ما الذي شغلكم عن أهل المحبَّة؟ جَمَعِ الحَبَّةَ والقيراط، كانوا يصومون وأنتم مُفطرون، ويقومون وأنتم نائمون، ويبكون خوفاً، وأنتم تضحكون.

روي عن هشام، قال: بلغني أن منادياً ينادي من أول الليل: أين العابدون. فيقوم ناس فيصلون، ثم ينادي في وسط الليل: أين الفائزون فيقوم ناس فيصلون. ثم ينادي في السحر أين المستغفرون، فيقوم ناس فيصلون. فإذا أصبح قال: أين العافلون.

يا من إذا صلى خَفَّفَ، وإذا كال طَقَّفَ، وإذا دعي تخَلَّفَ، وإذا قيل له تَبُّ سَوَّفَ، ما يؤثِّرُ عنده قول من حدَّرَ وخوف، ثم يطمع في لحاق الصالحين، فما أنصف، جدَّ القومُ وأنت قاعد، وقربوا وأنت متباعد، كم بين راغب وزاهد، كم

بين ساهر وراقدا، شغلهم حُبُّ مَوَلاهم عن لذات دنياهم، اسمع حديثهم إن كنت ما تراهم، خوْفهم الشديد قد أزعج وأقلق، وحذرهم العظيم قد أتلف وأحرق، وحادي جِدِّهم مُجَدِّ ما يترَفَّق، كلما رأى طول الطريق نصَّ وأعَنَّق، وكيف يَحْسُنُ الفُتور، وأوقات السلامة تُسْرَق، دموعهم في أنهار الخدود تجري وتندفق، يكاد حزينهم لكثرة الذنوب يَشْرَق، يشتاقون إلى الحبيب والحبيب إليهم أشوق، يا حُسْنهم في الدجى ونورهم قد أشرق، والحياء فائض والرأس قد أطْرَق، والحنين، والأنين قد أخرسا الحام المطوق، والأسير يبكي ويشكو، ويرجو أن يُعْتَق، فإذا جاء النهار دخلوا سُوراً من التَّقَى بعد خندق، تعرّفهم بسياهم وللصدق رَوْنَق، اسلك طريقهم، وسلِّ مُعِينهم تُوَفَّق. احذر من الهوى، فالهوى عدوُّ أزرَق، يا من كلما أتهمَّ ناصحه أنجد، وكلما غرَّب شرَّق، قد بقي القليل، وهذا الرهن يغلق.

أستغفر الله الذي بقضائه مطر السحاب وأخصب الأب
تَبّاً لقبوم أذهبوا أوقاتهم لعباً وأشهد أنهم تَبُّوا
وصبوا إلى الدنيا فكلهم بها كلف يُغَرِّ بِجَبِّها صَبُّ
شئوا الحروب على حطام زائل وعلى فساد غرائز شَبُّوا
رقدوا فما فقدت كرى أجفانهم حتى إذا حان الردى هَبُّوا
لَبُّوا وقد دعت الدعاء إلى الخنا فجميعهم خطئوا فما لَبُّوا

يا قليل النظر في أمره، يا غافلاً عن ذكر قبره، أما نقل الموت واحداً واحداً، وها هو قد أضحي نحوك قاصدا، كم سلب ولداً وأخذ والدا، إلى متى تصبح جاهلاً وتُمسي ماردا، وتُحَثَّ على النهوض وما تبرح قاعدا، متى يذوب دمع ما يزال جامدا، متى ينقص جهل ما يفتأ زائدا، يا من إذا قاربه النُّصح أضحي متباعدا، لقد نظرت لنفسك نظراً فاسداً، كم أشمت بك عدوا، وأفرحت حاسدا، يا نائماً عن خلاصه راقدا؛ يا مريضاً ما نرى له عائدا، كم نوضح الأمثال ونضرب حديداً بارداً، أترضى هذا الحال أن يكون زاد الارتحال، تذكّر عبث اليمين والشمال، إذا خابت جميع الآمال، ورأيت حسرة ما

جمعتَ من مال، وتيقنت فراق الأيتام والأطفال، وحملت همًّا خفتَ عنده
 الجبال، وبان لك أن حديث المنى مُحال، يا مؤثر الغيِّ تأمل رشدك، يا راحلاً
 عن قليل تعرّف قَصْدك، أصلح بالتقى يومك، قبل أن تلقى غدك، إياك
 والهوى ودَع متعوِّدك :

أصبحتَ عاديّت للصِّبا رُشدك جهلاً وأسلمت للهوى قَوْدكُ
 حتى متى لا تُفِيق من سِنّة ولا يداوي مُفَنِّد فَنَدك
 تُعمل في صيّد كلّ صائدة ختلك طَوراً وتارة طَرَدك
 ترمي التي إن أصاب ظاهرها سهمك شكّت بجدّه كِبَدكُ

كان الحسن يقول: حادِثوا هذه القلوب، فإنها سريعة الدُّثور، وأفرعوا هذه
 الأنفس فإنها طُلّعة، وإنها تنازع إلى شر غاية، فتبصروا وتشدّدوا، فإنما هي أيام
 قلائل وإنما أنتم ركّب وقوف، يوشك أن يُدعى أحدكم فيجيب ولا يلتفت،
 فانتقلوا بصالح ما بحضرتكم.

يا هذا زاحمٌ باجتهادك المتقين، وسِرٌّ في سرِّب أهل اليقين، هل القومُ إلا
 رجال طرَقوا بابَ التوفيق ففتح لهم، وما نياس لك من ذلك.

إذا أعجبتك خصالُ امريء فكُنْه يكن منك ما يُعجِبكُ
 فليس على الجُودِ والمكرَمات إذا جئتها حاجِبٌ يَحْجِبكُ

لقد رضيت لنفسك الغيِّنة، وبعثت الدار الشريفة بالدار المهينة، وأعجبتك
 مع عقلك ما يعجب الأطفال من الزينة، أتراك ما علمت أن الدنيا صحبة
 سفينة، إن ذُكر الصالحون فليست فيهم، وإن عدَّ الأبرار، فما أنت معهم، وإن
 قام العبّاد لم ترَ بينهم، ويحك أتطمع في الحصاد، ولا بدّر لك، أترجو الأرباح
 ولا تجارة معك، تبني بلا أساس، ولا يثبت البناء، وتحمل على عسكر الهوى،
 بلا عزم فلا تصل إلى مراد، ويحك دُم على الحميّة يزل أثرُ التخليط، واستوثق
 من عقْد العزم خوفاً أن ينحلّ، فإن عرض تقصير يوهن فاستدرك تُعَنّ:

إذا ما عقدت العقد ثم تركته
وما اليد لولا أختها بقوية
ولا كل محتاج إلى ما يشده
ترفع عن التعذير غير مذمّم
ولم تثنه عقداً وهى ذلك العقد
ولا الرجل لولا الرجل تمشي ولا تعدو
فيعسف إلا والوهاء له وكد
إلى شرف الإعذار يخلص لك الحمد

ويحك ضاق الوقت، فمتى تتزود، تعب الرائض وما ترك المتعود .

عجبت للطالب الأمر البصير بما فيه
وللمكسب على مال يثمره
وللمداوي ضنى جسم عراه وقد
فذكر النفس هولاً أنت راكبه
لا تحقرن من الآثام محتقراً
إذا أتيت المعاصي فاخش غايتها
من الغي إذ يسعى له طلباً
وسوف يصبح منه المال منتهباً
دعا إلى نفسه الأوجاع والوصباً
وكربة سوف تلقى بعدها كرباً
كل امرئ سوف يجزى بالذي اكتسباً
من يزرع الشوك لا يحصد به عنباً

لتعظمن على أهل المخالفات الآفات، ولتقطعن أفئدة المفرطين بالزفرات،
وليشتهن الفاجر في الخلوات بالجلوات، ولتمورن السوق يوم السوق، إلى سوق
المحاسبات، ولتسيلن الدماء بعد الدموع على الوجنات، وليتحسرن أهل
المعاصي، إذا لاحت درجات الجنات، ولينادين منادي الجزاء، يُخبر بتفاوت
العطاء ووقوع السيئات ﴿أم حسب الذين اجترحوا السيئات أن نجعلهم كالذين
آمنوا وعملوا الصالحات﴾ .

المجلس الخامس

في ذكر ليلة النصف من شعبان

الحمد لله الذي لا ناقض لما بنّاه، ولا حافظ لما أفناه، ولا مانع لما أعطاه، ولا رادّ لما قضاه، ولا مظهر لما أخفاه، ولا ساتر لما أبداه، ولا مُضِلّ لمن هداه، ولا هادي لمن أعماه، أنشأ الكون بقدرته وما حواه، ورزق الصّون بمنته ومَنّته من والاه، ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ﴾ (١). خلق آدم بيده وسوّاه، وأسكنه في حرم قُربهِ وحماه، وأمره كما شاء ونهاه، وأجرى القضاء بموافقتة هواه، فنزعت يدُ التفريط ما كساه، ثم تاب عليه فرحه واجتباؤه، وحالُه ينذر من يسعى فيما اشتهاه، وطرد إبليسَ وكانت السموات مأواه فأصمّمه بمخالفتة كما شاء وأعماه، وأبعده عن بابه للعصيان وأشقاه وفي قصته نذير لمن خالفه وعصاه. ألان الحديد لداود كما تمنّاه، يأمن لابسُه من يلقاه، ثم صرع صانعه بسهم قدر ألقاه، فلما تسوّر المحراب خصّمها، أظهر جدال التوبيخ فخصّمها ﴿وظنّ داودُ أنما فتنّاه﴾ (٢) وذهب ذو النون مغاضباً، فالتقمه الحوت وأخفاه، فندم إذ رأت عيناه ما جنت يدها، فلما أقلقه كُرب ظلامِ تغشّاه تضرع مستغيثاً ينادي مولاه: ﴿إني كنت من الظالمين، فاستجبنا له ونجّيناه﴾ (٣).

تعالى ربنا وسبحانه، وحاشاه أن يخيب راجيه وينسى من لا ينساه، أخذ موسى من أمه طفلاً وراعاه، وساقه إلى حجّر عدوه فربّاه، وجاد عليه بنعم لا تُحصَى وأعطاه، فمشى في البحر، وما ابتلت قدماه، وتبعه العدو فأدركه الغرق

(٣) الأنبياء ٨٧.

(١) الاسراء ٢٣

(٢) ص ٢٤

وواراه، فقال: آمنت: فإذا جبريل يسدّ فاه، وكان من غاية شرفه ومنتهاه أنه خرج يطلب ناراً فناداه: ﴿يا موسى إني أنا الله﴾ وشرف أمته شرفاً بيّناً أولاه ﴿وأني فضلتكم على العالمين﴾^(١) بكنتم خير أمة أخذناه.

خلق محمداً واختاره على الكلّ واصطفاه، وكشف له الحجاب عند قاب قوسين قرآه، وأوحى إليه من سيره المستور، ما أوحاه، ووعداه المقام المحمود وسيلغنه مناه.

فالحمد لله الذي دلنا بنبيّه عليه وعرفناه، وأجلنا بالقرآن العظيم القديم وعلمناه، وهدانا إلى بابه بتوفيق أودعناه، حمداً لا ينقضي أولاه، ولا ينفد آخراه.

وصلى الله على محمد ما تحركت الألسن والشفاه، وعلى آله وصحبه صلاة دائمة تدوم بدوام ملك الله، وسلّم تسليماً.

عباد الله إن ليلتكم هذه النصف، عظيمة القدر وعجيبة الوصف، يطّلع الله فيها على العباد، فيغفر لكلّ ما خلا أهل العناد.

عن عائشة رضي الله عنها قالت: فقدتُ رسولَ الله ﷺ ذات ليلة فخرجت، فإذا هو بالبقيع رافع رأسه إلى السماء فقال: كنت تخافين أن يحيف الله عليك ورسوله؟ قلت: يا رسول الله، ظننت أنك أتيت بعض نساءك. فقال: «إن الله عز وجل ينزل ليلة النصف من شعبان إلى السماء الدنيا، فيغفر لأكثر من عدد شعير غنم كلبٍ».

وعنها أيضاً قالت: كانت ليلة النصف من شعبان ليلتي، فبات رسول الله ﷺ عندي، فلما كان في جوف الليل فقدته، فأخذني ما يأخذ النساء من الغيرة، فتلفعت بمرطبي، أمّا والله ما كأني مرطبي خزّاً ولا قرّاً، ولا حريراً، ولا ديباجاً، ولا قطناً، ولا كتّاناً. قيل: فممّ كان؟ قالت: كان سداه شعراً،

(١) البقرة ٤٧ - ١٢٢.

وَلَحْمَتَهُ مِنْ أَوْبَارِ الْإِبْلِ. قَالَتْ: فَطَلَبْتَهُ فِي حُجْرٍ نَسَّاهُ فَلَمْ أَجِدْهُ، فَانصَرَفْتُ إِلَى حَجْرَتِي، فَإِذَا بِهِ كَالثُوبِ السَّاقِطِ عَلَى وَجْهِ الْأَرْضِ سَاجِداً وَهُوَ يَقُولُ فِي سَجُودِهِ: سَجِدُ لَكَ سَوَادِي وَخِيَالِي، وَآمَنُ بِكَ فُوَادِي، هَذِهِ يَدَايِ وَمَا جَنَيْتُ بِهِمَا عَلَى نَفْسِي، يَا عَظِيماً يُرْتَجَى لِكُلِّ عَظِيمٍ اغْفِرِ الذَّنْبَ الْعَظِيمَ، أَقُولُ كَمَا قَالَ دَاوُدُ عَلَيْهِ السَّلَامُ أَعْفَرَ وَجْهِي بِالترَابِ لِسَيِّدِي، وَحُقَّ لَهُ أَنْ يَسْجُدَ وَجْهِي لِلَّذِي خَلَقَهُ، وَشَقَّ سَمْعَهُ وَبَصَرَهُ. ثُمَّ رَفَعَ رَأْسَهُ ﷺ فَقَالَ: اللَّهُمَّ ارزُقْنِي قَلْباً نَقِيّاً مِنْ الشَّرِكِ لَا كَافِراً وَلَا شَقِيّاً. ثُمَّ سَجَدَ وَقَالَ: أَعُوذُ بِرِضَاكَ مِنْ سَخَطِكَ، وَأَعُوذُ بِعَفْوِكَ مِنْ مَعَاقِبَتِكَ، لَا أَحْصِي ثَنَاءً عَلَيْكَ أَنْتَ كَمَا أَثْنَيْتَ عَلَيَّ نَفْسِكَ. قَالَتْ: ثُمَّ انصَرَفَ وَدَخَلَ مَعِيَ فِي الْخَمِيلَةِ وَبِي نَفْسٌ عَالٍ فَقَالَ: مَا هَذَا النَّفْسُ يَا حَمِيرَاءُ؟ قَالَتْ: فَأَخْبَرْتَهُ فَطَفِقَ يَمْسَحُ بِيَدِهِ عَلَى رِكْبَتِي وَيَقُولُ: «وَيْحَ هَاتَيْنِ الرِّكْبَتَيْنِ مَاذَا لَقَيْتَا فِي هَذِهِ اللَّيْلَةِ لَيْلَةَ النِّصْفِ مِنْ شَعْبَانَ، إِنْ اللَّهُ تَعَالَى يَنْزِلُ إِلَى سَمَاءِ الدُّنْيَا فَيَغْفِرُ لِعِبَادِهِ إِلَّا لِلْمُشْرِكِ أَوْ مَشَاحِنَ».

وَفِي رِوَايَةٍ أُخْرَى عَنْ عَائِشَةَ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: يَا حَمِيرَاءُ أَمَا تَدْرِينَ مَا هَذِهِ اللَّيْلَةُ؟ هَذِهِ لَيْلَةُ عِتْقَاءِ مِنَ النَّارِ بَعْدَ شَعْرِ غَمِّ كَلْبٍ. قُلْتُ: يَا نَبِيَّ اللَّهِ، وَمَا بِالْغَمِّ كَلْبٌ؟ قَالَ: لَيْسَ فِي الْعَرَبِ قَوْمٌ أَكْثَرَ غَمًّا مِنْهُمْ، لَا أَقُولُ فِيهِمْ سِتَّةَ: مُدْمَنٌ خَمْرٍ وَلَا عَاقٍ وَالِدِيهِ، وَلَا مَصْرٌ عَلَى رَبِّهَا، أَوْ زَنَاءٌ، وَلَا مُصَارِمٌ وَلَا [مَصُورٌ] وَلَا قَتَاتٌ.

وَرَوَى عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ «يَطَّلِعُ اللَّهُ إِلَى خَلْقِهِ لَيْلَةَ النِّصْفِ مِنْ شَعْبَانَ، فَيَغْفِرُ لِعِبَادِهِ إِلَّا لِاثْنَيْنِ: مَشَاحِنَ وَقَاتِلِ نَفْسٍ».

وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «لَيْلَةُ النِّصْفِ مِنْ شَعْبَانَ يَغْفِرُ اللَّهُ لِعِبَادِهِ، إِلَّا لِلْمُشْرِكِ، أَوْ مَشَاحِنَ؟».

قُلْتُ: وَالظَّاهِرُ مِنَ الْمَشَاحِنِ أَنَّهُ الَّذِي بَيْنَهُ وَبَيْنَ أَخِيهِ الْمُسْلِمِ عِدَاوَةٌ. وَقَدْ قَالَ الْأَوْزَاعِيُّ: هُوَ الَّذِي فِي قَلْبِهِ شَحْنَاءٌ لِأَصْحَابِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ.

وَرَوَى عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: يُسْحُ اللَّهُ الْخَيْرَ فِي أَرْبَعِ

ليال سَحًا: الأضحى، والفطر، وليلة النصف من شعبان، تُنسخ فيها الآجال والأرزاق ويكتب فيها الحاج، وفي ليلة عرفة إلى الأذان.

وفي حديث عن أبي أمامة عن النبي ﷺ أنه قال: خمس ليالٍ لا يُردّ فيهن الدعاء. فذكر منهن ليلة النصف من شعبان.

وروى ابن كِرْدَوْس عن أبيه، عن النبي ﷺ أنه قال: «من أحيا ليلتي العيدين، وليلة النصف من شعبان لم يمُت قلبه يوم تموت القلوب».

وعن عليّ أنه قال: «إذا كان ليلة النصف من شعبان قال الله تعالى: هل من سائل فأعطيه؟ هل من مستغفر فأغفر له؟ هل من مسترزق فأرزقه؟ حتى ينفجر الفجر. فأمرنا رسول الله ﷺ بقيام ليلتها، وصيام نهارها».

وقال حكيم بن كيسان: يطلع الله إلى خلقه في ليلة النصف من شعبان، فمن طهره في تلك الليلة زكاه إلى مثلها من قابل.

روي عن عكرمة في قوله تعالى: ﴿فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ﴾ (١) قال: في النصف من شعبان يدبر الله أمر السنة ويُنسخ الأحياء من الأموات، ويكتب حاج بيت الله الحرام، فلا يزيد فيهم أحداً، ولا ينقص منهم أحداً.

واعلم أن الرواية بهذا عن عكرمة مضطربة، فتارة يروي هكذا، وتارة يروي أنها ليلة القدر كباقي المفسرين. وقد سبقت الأحاديث أن الآجال تكتب في شعبان، فجائز أن يختص شعبان بما يتعلق بالآجال، ويكون القدر العام في ليلة القدر.

وقد رويت لهذه الليلة خمس صلوات، ليس في أسانيدھا شيء صحيح، ولا فيها ما يثبت، فلذلك سكتنا عن ذكرها، فإن الحديث إذا لم يصح كان وجوده كالعدم.

(١) الدخان ٤.

الكلام على البسمة

سَهْمَ المنايا أبداً صائبٌ
بيننا الفتى في عَيْشه ناعِمٌ
وكلُّ يومٍ مرّاً من عُمره
والنَّفْسُ دَيْنُ الموتِ عندِ الورى
يا عجباً من عالمٍ آمِنٍ
أين الذين استَبَقُوا للنَّهْيِ
طوتهم الأجداثُ في ضيقها
يدعو إليه الناسَ مُستعْرِضاً
تغرُّه الأيامُ حتَّى قضَى
يخدوه للتَّرحالِ مُستنْهضاً
ودَيْنُه لا بد أن يقتَضِيَ
من غَدْرُه أو سيفه المنتَضِي
واغْتَبَقُوا بالمشربِ المرتَضِي
وعادَ من يهواهم مُعْرِضاً

أين الحبيب والخليل؟ ودعا، أين الرفيق؟ رحل عنكم ودعا، أبقى الموت لكم في الحياة مطمعا؟ أخذ الصغير والكبير معاً، صاح بالوالد والولد فأسرعا، جز على القبور ترى القوم خُشعاً، أين الفهم والتدبر، أين أهل الجهل والتكبر، أين من فسح لنفسه في الزلل، أين الفهم والتدبر، أين أهل الجهل والتكبر، أين من فسح لنفسه في الزلل، أين من خانها بقبیح العمل، بينا هو يعمر في رباعها، وقد اشتراها وما باعها، يحفر فيها الأنهار، ويغرس فيها الأشجار، والممالك تدور حول الدار [والسراري بحسنها تسر، ونحوها قد زانها الدر، والتخوت تملأ الصناديق، وركن العز في الدنيا وثيق، والمال يُجمع فوق المال، والخيال تردي في الجلال، والمراكب من الحلي تصاغ، وقد منحت الصحة إلى الفراغ، ثم ساعد ساعد الشباب كف الهوى على الاستلاب، والعود قد رث ثم عاد، والبطش في الملك بطش عاد، وقد أسكرت من قبل شرب الخمر لذة النهي والأمر، صاحت بين البيّن أغربة البيّن، فمزقت العين وأسخت العين، تالله لقد استلب صاحب القصر بكف القسر، فصار بالقهر أهدوثة الدهر. ولقد كان على غاية المنى في أول الشهر، فواعجباً لجنة صارت كالصريم بعد الزهر].

نُسُودِي بصوتٍ أيّما صوتٍ
كأنّ أهل الغيِّ في غيِّهم
ما أقرب الحيِّ من الموتِ
قد أخذوا أمناً من الفوتِ

كَمْ مُصْبِحٍ يَعْمُرُ بَيْتاً لَهُ لَمْ يُمَسِّ إِلَّا خَرِبَ الْبَيْتِ
هَذَا وَكَمْ حَيٍّ بِكَيْ مَيِّتاً فَأَصْبَحَ الْحَيُّ مَعَ الْمَيِّتِ

يا مشغولاً بما لديه عما بين يديه، يا غافلاً عن الموت وقد دنا إليه، يا ساعياً إلى ما يضره بقدميه، يا مختار المؤذي له من حالتيه، يأمن الدهر وقد رأى صرْفَيْهِ، كَمْ عَائِنٍ مَيِّتاً لو اعتبر بعينه، إنما أغار على شبابه هاجم على قُودِيهِ، أينفعه يوم الرحيل دمع يملأ خديه؟ يا من يصير عن قليل إلى حُفْرَةٍ، تنبّه لنفسك من هذه السَّكْرَةِ، لو أنك تذكَّرت لحدك كيف تَبَيْتَ وحدك، ويباشر الترابُ خَدَّكَ، وتتقسَّم الديدان جلدك، ويضحك المحب بَعْدَكَ ناسياً عنه بَعْدَكَ، والأهلُ قد وجدوا المالَ، وما وجدوا فَعْدَكَ، إلى متى وحتى متى ترك رُشدَكَ، أما تُحْسِنُ أن تُحْسِنَ قَصْدَكَ، الأمرُ مُجَدِّ جِدّاً فالزم جِدَّكَ.

ذهب الأُحِبَّةُ بعد طُولِ تَوَدُّدٍ ونأى المزارُ فأسلموك وأقشعوا
خذلوك أفقر ما تكون لغربة لم يؤنسوك وكُربَةً لم يدفعوا
قُضِيَ القضاءُ وصرت صاحب حُفْرَةٍ عنك الأُحِبَّةُ أعرضوا وتصدَّعوا
إخواني: إنكم تَعْدُونَ وتروحون في آجالٍ قد غيَّبت عنكم، لا تدرون متى تهجم عليكم، فالوْحا الوْحا فالطالب حَيْثُ.

يَجِدُّ بنا صَرْفُ الزَّمانِ وَنَهْزُلُ وَنُوقِظُ بالأحداثِ فِيهِ وَنَعْفَلُ
وما الناس إلا ظاعِنٌ أو مودَّع وَمُسْتَلَبٌ مستعجَلٌ أو مُوجَّلُ
وما هذه الأيام إلا مَنازِلُ إذا ما قَطَعْنَا منزلاً بانَ مَنْزِلُ
فَناءٌ مُلْحٌ ما يُعِيبُ جَمِيعَنَا إذا عاشَ منا آخِرٌ ماتَ أوَّلُ
وكم صاحبٍ لي كنت أكره فقده تسلَّمه مِنِّي الفَناءُ المعجَّلُ

اسمعوا عظة الزمان إن كنتم تسمعون، وتأملوا تقلب الأحوال إن كنتم تبصرون.

قال يحيى بن معاذ: لو سمع الخلائق صوت النياحة على الدنيا من السنة

الفناء ، لتساقطت القلوب منهم حُزناً ، ولو رأت العقول بعين الإيمان نزهة الجنة
لذابت النفوس شوقاً ، ولو أدركت القلوب كُنْه المحبة لخالقها ، مفاصلها ولها .
فسبحان من أغفل الخليفة عن كُنْه عين هذه الأشياء ، وألهام بالوصف عن
حقائق هذه الأنباء :

من نال من جوهر الأشياء بُغِيته يَأْسِي وَيَحْقِرُ قوماً حَظَّهُم عَرَضُ
إِنِّي لأعجب من قوم يَشْفَهُمُ حَبُّ الزخارف لا يَدْرُونَ ما الغرضُ
ألا عقولٌ أَلَا أحلامٌ تَزْجُرُهُم بلى عقولٌ وأحلامٌ بها مَرَضُ

إخواني : من آثر قِنَاع القناعة حاطَه من رداء الردى ، ومتى ساعد الفقر ساعدُ
الصبر قلع قلعة الحِرْص ، فاستنارت طريق الهدى بمصباح اليقظة ، ومتى تأججت
نيران الخوف أحرقت مواطن الهوى ، وطردت عنه الدنيا :

تزوّد من الدنيا فإنك هالك وتترك للأعداء ما أنت مالكُ
ووسّع طريقاً أنت سالكه غداً فلا بد من يوم تضيق المسالكُ

الكلام على قوله تعالى

﴿ حم والكتاب المبين ﴾

اختلف المفسرون في ﴿ حم ﴾ على قولين :

أحدهما : أنها من المتشابه الذي استأثر الله بعلمه . وهذا مذهب جماعة من
المفسرين .

والثاني : أنها معروفة المعنى . ثم لهؤلاء فيها قولان : أحدهما : أنها حروف من
أسماء . ولهؤلاء فيها ثلاثة أقوال : أحدها : أنها من الرحمن . قال ابن عباس : الر ،
وحم ، ون ، اسم الرحمن على الهجاء .

والثاني : أن الحاء مفتاح اسمه حميد والميم مفتاح اسمه مجيد ، قاله أبو العالية .

والثالث: أن الحاء مفتاح كل اسم ابتدأه حاء مثل حكيم وحليم وحيّ. والميم مفتاح كل اسم ابتدأه ميم مثل ملك ومجيد. حكاه أبو سليمان الدمشقي.

والقول الثاني: أن معنى حم: قُضي ما هو كائن. زواه أبو صالح عن ابن عباس. كأنه يصير إلى حمّ الأمر.

قال المفسرون: حم قسم جوابه: ﴿إنا أنزلناه﴾ والهاء كناية عن الكتاب، وهو القرآن. ﴿في ليلة مباركة﴾ وفيها قولان: أحدهما أنها ليلة القدر. قاله الأكثرون.

والثاني: ليلة النصف من شعبان: وقد ذكرناه عن عكرمة. ﴿إنا كنا مُنذرين﴾ أي مخوفين عقابنا. ﴿فيها يُفَرَّق﴾ أي يُفصل ﴿كل أمر حكيم﴾ (١).

اجتهدوا الليلة في محو ذنوبكم واستغيثوا إلى مولاكم من عيوبكم، هذه ليلة الإنابة فيها تفتح أبواب الإجابة، أين اللأئذ بالجَناب، أين المتعرض بالباب، أين الباكي على ما جنى، أين المستغفر لامرٍ قد دنا، كم منقول في هذه الليلة من ديوان الأحياء مُثبت في صحف أهل التلّف والفنا، فهو عن قريب يفجأ بالممات، وهو مقيم على السيئات، ألا ربّ فرح بما يؤتى قد خرج اسمه مع الموتى، ألا ربّ غافل عن تدبير أمره قد انفصمت عرى عمّره، ألا ربّ معرض عن سبيل رشده، قد آن أوان شقّ لحدّه، ألا ربّ رافلٍ في ثوب شبابه قد أزف فراقه لأحبابه، ألا ربّ مقيم على جهله قد قرب رحيله عن أهله، ألا ربّ مشغول بجمع ماله قد حانت خيبة أماله، ألا ربّ ساعٍ في جمع حطّامه قد دنا تشتيت عظامه، ألا ربّ مُجدّ في تحصيل لذاته قد آن خراب ذاته، أين من كان مثلاً هذه الأيام في منازل ينسأ في طمأنينته إزعاج منازل، مشغولاً بشهواته مغروراً بعاجله؟ أما أصاب مقاتله سهم مقاتله؟ أما ظهر خساره عند حساب معامله؟ أين المعتذر مما جنّاه فقد اطلع عليه مولاه؟ أين الباكي على تقصيره قبل تحسّره

(١) الدخان ٤.

في مَصِيرِهِ، يا مطروداً ما درى، تعاتب ولا تفهم ما جرى، متى تُرَى على الباب
ترى:

تعالوا كل من حضرا لنطرق بابَه سَحَرا
ونبكي كلنا أسفا على من بات قد هُجِرا

روي عن كعب الأحبار رضي الله عنه قال: إن أهل الجنة ليفرحون بدخول
شهر رمضان من الحور والخزنة والولدان، كما يفرح أهل النار من ذرية آدم
بدخول الجنة إذا سكنوها، وذلك أن الله عز وجل يبعث جبريل عليه السلام في
ليلة النصف من شعبان فيقول: السلام عليكم أيتها الجنان، أنا جبريل الأمين
رسول رب العالمين تزييني وتجددني وازدادني نوراً وتلاثني، وافتحي أبواب
مقاصيرك المرجانية، وحجالك العبقرية التي بطائنها من إستبرق، وحشوها
أذفريات المسك، وأخرجي متضمنات المخلوقات التي لم يطمئنهن إنس قبلهم ولا
جان، فإن الله عز وجل قد أعتق في ليلتك هذه عدد نجوم السماء، وعدد أيام
الدنيا ولياليها، وعدد ورق الشجر وزنة الجبال، وعدد الرمال.

يا مضيعاً اليومَ تضيعه أمس، تيقظ ويحك فقد قتلت النفس، وتنبه للسُّعود
فإلى كم نحس، واحفظ بقية العمر، فقد بعث الماضي بالبخس.

أطل جفوة الدنيا وتهوين شأنها فما العاقل المغرورُ فيها بعامل
يرجى خلوداً معشرٌ ضلَّ ضلهم ودون الذي يرجون غولُ الغوائل
وليس الأمانى للبقاء وإن مضت بها عادةٌ إلا تعاليلُ باطل
وما المفلتون أجمل الدهر فيهم بأكثر ممن في عداد الحبايل
يسار بنا قصد المنون وإننا لنسعف أحياناً بطي المراحل
غفلنا عن الأيام أطول غفلة وما جوبها المخشي منها بغافل

إخواني: حبال الأمل رثاث، وساحر الهوى نقاث، رحل الأقران إلى ظلام
الأحداث، لله ما صنعت الأحداث في الأحداث، أفسدتم بآههم، فإذا هم

بلاهم، أي والله وعاث، باتوا شيباعاً من الأمل، فإذا هم غرّاث وبان لهم أن ما كانوا فيه من الهوى أضغاث واستغاثوا بالخلاص، وقد فات الغياب، عجباً لهم مالهم صير النوى مالهم في الميراث، فدبروا أنتم أحوالكم فغداً ترون أموالكم للورّاث، أسفاً لأجسام ذكورٍ وعقول إناث:

أكبّ بنو الدنيا عليها وإنها لتنهاهم الأيام عنها لو انتهوا
مضى قبلنا قديماً قرون كثيرة ونحن وشيكاً ما سنمضي كما مضوا
سيكون حزناً حول قبرك ساعةً ولا يبرحون القبر إلا وقد سلوا
رأيتُ بني الدنيا إذا ما سموا بها هوت بهم الدنيا على قدر ما سموا

يا من يجول في المعاصي قلبه وهنمه، يا مؤثر الهوى على التقى لقد ضاع
حزمه، يا معتقداً صحته فيما هو سقمه، يا من كلما زاد عمره زاد إثمه، يا طويل
الأمل وقد رقّ عظمه، أما وعظك الزمان وزجرحك ملّمه، أين الشباب قل لي
قد بان رسّمه، أين زمان المرح، لم يبق إلا اسمه، أين اللذة ذهب المطعوم
وطعمه، كيف يقاوى المقاوي، والموت خصمه، كيف خلاص من قد أغرق فيه
سهمه، يالديغ الأمل قد بالغ فيه سمّه، يا قليل العبر، وقد رحل أبوه وأمه، يا
من سيجمعه اللحد عن قليل ويضمّه، كيف يوعظ من لا يعظه عقله ولا فهمه،
كيف يوقظ من نام قلبه لا عينه ولا جسمه.

إذا لم تكن دنياك دار إقامةٍ فما لك تبنيها بناءً مُقيمٍ
وما صحّ ودّ الخلل فيها وإنما يُعزُّرُ بودٍ في الحياة سقيمٍ
وجدتُ بني الأيام في كل موطنٍ يعدّون فيها شقوةً كنعيمٍ
تزيدك فقراً كلما ازددت ثروةً فتلقى غنياً في ثيابٍ عديمٍ

المجلس السادس

لاستفتاح شهر رمضان

الحمد لله اللطيف الرؤوف العظيم المتأن، الكبير القدير القديم الديان، الغنيّ العليّ القويّ السلطان، الحليم الكريم الرحيم الرحمن، الأول فالسبّوق لسبّقه، المنعم فما قام مخلوقٌ بحقه، الموالى بفضلِهِ على جميع خَلْقِهِ بشرائف المنائح على توالي الزمان، جلّ عن شريكٍ وولد، وعزّ عن الاحتياج إلى أحد، وتقدّس عن نظير وانفرد، وعلم ما يكون وأوجد ما كان. أنشأ المخلوقات بحكمته وصنّعها، وفرّق الأشياء بقدرته وجمّعها، ودحا الأرضَ على الماء وأوسعها ﴿والسمااءَ رَفَعَهَا ووضع الميزان﴾ (١).

سالت الجوامدُ لهيبته ولانت، وذلت الصعاب لسطوته وهانت، وإذا بطش ﴿انشقت السمااءُ فكانت ورْدَةً كالدهان﴾ (٢).

يُعزّ ويذل، ويفقر ويغني، ويُسعد ويُسقي، ويبقي ويُفني، ويشين ويزين، وينقض ويبيّن ﴿كلّ يومٍ هو في شأن﴾ (٣).

قدّر التقدير فلا رادّ لحُكمه وعلم سرّ العبد وباطن عَزْمِهِ ﴿وما تحمّل من أنثى ولا تَضَعُ إلا بعلمه﴾ (٤)، ولا ينتقل قدمٌ من مكان.

مدّ الأرض فأوسعها بقدرته، وأجرى فيها أنهارها بصنّعتِهِ، وصبغ ألوان نباتها بحكمته، فمن يقدر على صبغ تلك الألوان. تَبَّتْهَا بِالْجِبَالِ الرُّوَاسِي فِي

(٣) الرحمن ٢٩.

(٤) فصلت ٤٧.

(١) الرحمن: ٧.

(٢) الرحمن ٣٧.

نواحيها، وأرسل السحاب بمياه تُحْيِيها، وقضى بالفناء على جميع ساكنيها ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ﴾ (١).

من خدَمه طامعاً في فضله نال، ومن لجأ إليه في رَفَع كربه زال، ومن عامله أربحه وقد قال: ﴿هل جزاء الإحسان إلا الإحسان﴾ (٢).

إلهٌ يُثِيب عِبَادَه وَيُعاقِب، ويهب الفضائل وَيَمْنَح المناقب، فالفوز للمتقي والعِزُّ للمراقِب ﴿ولمن خاف مقامَ رَبه جَنَّتَان﴾ (٣).

أنعم على الأمة إحسانه، وعاد عليها بفضله وامتنانه، وجعل شهرها هذا خصوصاً بعميم غفرانه ﴿شهرُ رمضانَ الذي أنزِل فيه القرآن﴾ (٤).

أحمده على ما خصَّننا به فيه من الصيام والقيام، وأشكره على بلوغ الآمال وسُبُوغ الإنعام، وأشهد أنه الذي لا تحيط به العقول والأذهان، وأن محمداً أفضل خلقه وبريته، المقدَّم على الأنبياء ببقاء معجزته، الذي انشق ليلة ولادته الإيوان، وعلى أبي بكر الصديق رفيقه في الغار، وعلى عمر فتاح الأمصار، وعلى شهيد الدار عثمان، وعلى عليّ كاشف غمِّه سيد الشجعان وعلى عمه العباس المطهر من الأرجاس، الذي دُعي به فسأل من السحاب تهتان.

قال الله عز وجل: ﴿شهر رمضان الذي أنزل فيه القرآن﴾.

إنما سُمِّي الشهر شهراً لشهرته في دخوله وخروجه. قاله النحاس. وأما أسماء الشهور فذكر أبو منصور الأزهري عن المفضل قال: كانت العرب في الجاهلية تقول لرمضان ناتق، ولشوال وعيل، وللمحرم مؤتمر، ولصفر ناجر، ولربيع الأول خوآن، ولربيع الآخر بُصَّان، ولجُمادى الأولى رُبِّي، ولجُمادى الآخرة حنين، ولرجب الأصم، ولشعبان عادل. قال: وكانت عاد تسمي هذه الأشهر بهذا، فلما نقلت العرب أسماء هذه الأشهر سموها بما وقعت فيه من الزمان. قال ثعلب:

(٣) الرحمن ٤٦.

(٤) سورة البقرة ١٨٥.

(١) الرحمن ٢٦.

(٢) الرحمن ٦٠.

سمي رمضان لأن الإبل تَرْمُض فيه من الحرّ، وسمي شوال لأن الألبان كانت تَشُول فيه أي تذهب وتقلّ. وسمي ذو القعدة لأنهم كانوا يقعدون فيه. وذو الحجة لأنهم كانوا يحجّون فيه. والمحرمّ لتحرّم القتال فيه. وصفر لأنهم كانوا يطلبون القطر فيه، يقال صَفِر السَّقاء إذا خَلَ. وربيع لأنهم كانوا يربعون فيها. وجمادى، لأن الماء يجمد فيها. ورجب من التعظيم، يقال رَجَبه يَرْجَبُه إذا عظّمه. وقال شمّر: ومنه سمي رجب. وشعبان، لأنهم يتفرقون ويتشعبون فيه. وقال قُطرب: سمي صفرًا لأنهم كانوا يخرجون إلى بلاد تسمى الصفرية يمتارون منها.

وقد أحدثت العرب لأسماء شهور الأعاجم أسماء. فنقلت من خط أبي بكر بن الأنباري في كتاب قد صنعه أبو محمد الصُّبْحِي قال: لَقَّبَت العرب شهور العجم بألقاب غير ما سمّتها به العجم: تشرين الأول أحد وثلاثون يوماً والعرب تسميه مُطْلَقاً، والثاني ثلاثون يوماً واسمه عند العرب طَلِيْق، وتسمي التَّشْرِينَيْن القَصَّابَيْن لفسوّ الموت فيهما، وكثرة من يموت، وكانون أحد وثلاثون يوماً، واسمه عند العرب مجدح، وكانون الآخر اسمه عند العرب حديج، وتسميها أيضاً شَيَّان، وملحان للثلج، وبياضه وشدة البرد قال الكُمَيْت:

وأصبحت الآفاق حُمْراً جُنُوبها بَشَيَّان أو ملحان فالأيوم أَشَيَّبُ

ويقال لها أيضاً: الهزاز لشدة البرد. وشباط تسعة وعشرون يوماً، واسمه عند العرب فريح، وآذار أحد وثلاثون يوماً، واسمه عند العرب مسهل. ونيسان ثلاثون يوماً، واسمه عندهم صحان، وحزيران ثلاثون يوماً واسمه عندهم واقد، وتموز أحد وثلاثون يوماً، واسمه عندهم ضرام، وأيلول ثلاثون يوماً، واسمه عندهم طلق.

قوله تعالى: ﴿الَّذِي أَنْزَلَ فِيهِ الْقُرْآنَ﴾ (١) فيه أربعة أقوال:

(١) البقرة ١٨٥.

أحدها: أنه أنزل القرآن في شهر رمضان إلى السماء الدنيا جملة واحدة. وروى عكرمة عن ابن عباس قال: أنزل القرآن في رمضان ليلة القدر إلى بيت العزة من سماء الدنيا جملة واحدة، ثم أنزل نجوماً.

والثاني: أنزل القرآن بفرض صيامه. قاله مجاهد والضحاك.

والثالث: أنزل في فضله القرآن. قاله سفيان بن عيينة.

والرابع: ابتدء فيه بإنزال القرآن. قاله ابن إسحاق وأبو سليمان الدمشقي.

قوله تعالى: ﴿هُدًى للناس﴾ أي بياناً لهم. والبيّنات: الآيات الواضحات. والفرقان: المفرّق في الدين بين الضلالة والشبهة.

أخبرنا أبو القاسم بن الحصين بسنده عن نافع بن أويس أن أباه حدثه أنه سمع أبا هريرة يقول: قال رسول الله ﷺ: «إذا دخل رمضان فتحت أبواب الرحمة وغلقت أبواب جهنم وسُلسلت الشياطين».

وقد رويناه أيضاً عالياً عن أبي سهيل نافع بن مالك فذكره. وقال: فتحت أبواب الجنة. أخرجاه في الصحيحين. ونافع يكنى أبا سهيل، وهو من تابع التابعين، والزهري من التابعين، فقد روى الزهري عمّن هو دونه، فهو يخرج في رواية الأكاير عن الأصاغر. وقد روى جماعة من الصحابة عن التابعين فروى ابن عمر، وابن عمرو، وابن الزبير، وأنس وأبو هريرة كلهم عن كعب. وقد روى جماعة عن أولادهم، فروى أبو بكر الصديق عن عائشة حديثين، وروى العباس عن ابنه الفضل حديثاً وعن ابنه عبد الله حديثاً، وروى سليمان التيمي عن ابنه المعتمر حديثين، وروى أبو بكر ابن عيَّاش، عن ابنه ابراهيم حديثاً، وروى أبو داود السجستاني عن ابنه حديثين، في خلق يطول ذكرهم.

أخبرنا أبو منصور القرّاز بسنده عن أنس بن مالك قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله ليس بتاركٍ أحداً من المسلمين صبيحة أول يوم من رمضان إلا غفر له».

أخبرنا محمد بن أبي طاهر بسنده عن أبي هريرة، عن النبي ﷺ قال: « إذا كان أول ليلة من شهر رمضان صُفِّدَت الشياطين ومردة الجن، وغُلِّقت أبواب جهنم فلا يفتح منها باب، وفتحت أبواب الجنان، فلم يغلق منها باب وينادي منادٍ: يا باغي الخير أقبل، ويا باغي الشر أقصر، ولله عتقاء من النار، وذلك في كل ليلة ».

أخبرنا عبد الأول بسنده عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: « من صام رمضان إيماناً واحتساباً غُفِرَ له ما تقدم من ذنبه ».

أخرجاه في الصحيحين.

وقد أخرجاه من حديث يحيى بن أبي كثير عن أبي سلمة ولفظه: « من قام رمضان إيماناً واحتساباً ».

أخبرنا أبو نصر أحمد بن منصور الهنائي بسنده عن علي بن أبي طالب قال: كان رسول الله ﷺ إذا استهلَّ شهرُ رمضان استقبل القبلة بوجهه، ثم قال: اللهم أهله علينا بالأمن والإيمان، والسلامة والإسلام، والعافية والمحللة، والرزق الحسن، ودِّفاع الأَسقام والعَوْن على الصلاة والصيام، وتلاوة القرآن، اللهم سلِّمنا لرمضان وسلِّمنا منا حتى ينقضي وقد غفرت لنا، ورحمتنا، وعفوت عنا. ثم يُقبل على الناس بوجهه فيقول: يا أيها الناس إنه، إذا استهل شهر رمضان فُتِّحت أبواب السماء، وأبواب الرحمة وأبواب الجنان، وغُلِّقت أبواب النار، وسُئِلت الشياطين، وكان لله عز وجل عند كل فِطْر عَتقاء من النار، ونادى منادٍ كلَّ ليلة: اللهم أعطِ كلَّ ممسك تلفاً، وأعطِ كلَّ مُنفق خلفاً. فإذا استهل هلال شوال نودي المؤمنون أن اغدوا إلى جوائزكم، وأقلِّ ما يجازي به الرجل أن يُكتب له ألف ألف حسنة، ويُمحى عنه ألف ألف سيئة.

أخبرنا محمد بن منصور بسنده عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: « إذا كان أول ليلة من شهر رمضان نظر الله عز وجل إلى خلقه، وإذا نظر الله إلى عبْد لم يعدِّبه أبداً، ولله في كل ليلة ألف ألف عتيق من النار ».

قال أبو عمرو: فشككت في شيء من هذا الحديث، فكتبته من الحسن بن

يزيد ، وكنت سمعته أنا والحسن بن عبد الله بن الحكيم ، حدثنا القاسم بن الحكم العريبي ، عن الضحَّاک ، عن ابن عباس أنه سمع النبي ﷺ يقول : « إن الجنة لتتجد وتزيّن من الحول إلى الحول لدخول شهر رمضان . فإذا كانت أول ليلة من شهر رمضان هبت ريح من تحت العرش يقال لها : المثيرة فتصق ورق أشجار الجنات ، وحلق المصاريح فيسمع لذلك طنين لم يسمع السامعون أحسن منه ، فيشرقن الحور العين حتى يقفن على شجر الجنة فينادين : هل من خاطب إلى الله عز وجل ، فيزوجه ؟ ثم يقلن : يا رضوان ما هذه الليلة ؟ فيجيبهن بالتلبية ، ثم يقول : يا خيرات حسان هذه أول ليلة من شهر رمضان فتفتح فيها أبواب الجنات للصائمين من أمة محمد ﷺ ، ويقول الله عز وجل : يا رضوان افتح ابواب الجنان ، يا مالك أغلق أبواب الجحيم عن الصائمين من أمة محمد ﷺ ، يا جبريل إهبط إلى الأرض ، فصقّد مرّة الشياطين ، وغلّهم في الأغلال ، ثم أقذف بهم في لُجج البحار حتى لا يفسدوا على أمة حبيبي صيامهم . قال : ثم يقول الله عز وجل : في كل ليلة من شهر رمضان ثلاث مرات : هل من سائل فأعطيه سؤله ، هل من تائب فأتوب عليه ؟ هل من مستغفر فأغفر له ؟ من يُقرض المليء المُعدم الوفي غير الظلوم ؟ » .

قال : والله عز وجل في كل ليلة من شهر رمضان عند الإفطار ألف ألف عتيق من النار ، فإذا كان ليلة الجمعة ، أو يوم الجمعة أعتق في كل ساعة ألف ألف عتيق من النار كلهم قد استوجب العذاب ، فإذا كان آخر ليلة من شهر رمضان أعتق الله عز وجل في ذلك اليوم بعدد ما أعتق من أول الشهر إلى آخره ، فإذا كانت ليلة القدر يأمر الله عز وجل جبريل فيهبط في كُتّبة من الملائكة معه لواء أخضر ، فيركز اللواء على ظهر الكعبة ، وله ستائة جناح منها جناحان لا ينشرهما إلا في ليلة القدر ، فينشرهما تلك الليلة ، فيجاوزان المشرق والمغرب قال : ويث جبريلُ الملائكة في هذه الأمة ، فيسلّمون على كل قائم وقاعد ومصلٍ وذاکر ، فيصافحونهم ويؤمنون على دعائهم حتى يطلع الفجر ، فإذا طلع الفجر نادى جبريل : يا معشر الملائكة الرحيل الرحيل . فيقولون : يا جبريل ما صنع الله في حوائج المؤمنين من أمة محمد ﷺ ؟ فيقول : إن الله عز وجل نظر إليهم في هذه الليلة ، فعفى عنهم وغفر لهم إلا أربعة . قال رسول الله ﷺ : وهؤلاء الأربعة

مُدْمَن خمر، وعاقَ لوالديه، وقاطع رَحِيم، ومشاحِن. فقيل: يا رسول الله وما المشاحِن؟ قال: هو المصارِم. فإذا كانت ليلة الفطر سميت ليلة الجائزة، فإذا كان غداة الفطر يبعث الله تعالى الملائكة في كل بلد، فيهبطون إلى الأرض، فيقومون على أفواه السكك، فينادون بصوت يسمعه جميع من خلق الله إلا الجن والإنس فيقولون: يا أمة محمد اخرجوا إلى رب كريم يغفر الذنوب العظيم. فإذا برزوا في مُصَلَّاهم يقول الله تعالى: يا ملائكتي ما جزاء الأجير إذا عمل عمله؟ فتقول الملائكة: إلهنا وسيدنا جزاؤه أن توفيه أجره. فيقول الله تعالى: أشهدكم يا ملائكتي أنني قد جعلت ثوابهم في صيامهم شهر رمضان وقيامهم رِضاي ومغفرتي فيقول الله عز وجل: سلوني فوعزتي وجلالي لا تسألوني اليوم شيئاً في جمَعكم هذا لأخرتكم، إلا أعطيتكموه، ولا لدنيا إلا نظرت لكم، وعزتي لأسترنَّ عليكم عثراتكم ما راقبتموني، وعزتي لا أخزیکم، ولا أفضحکم بين أصحاب الحدود، أو الجدود. شكَّ أبو عمرو. انصرفوا مغفوراً لكم قد أرضيتموني، ورضيت عنكم. قال فتفرح الملائكة، ويستبشرون بما يعطي الله عز وجل هذه الأمة إذا أفطروا.

وعن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «أعطيت أمتي حسنَ خصال في شهر رمضان لم تُعطهن أمةٌ قبلهم: خلُوف فم الصائم أطيب عند الله من ريح المسك، وتستغفر لهم الملائكة حتى يُفطروا، ويزين الله كلَّ يوم جنَّته، ثم يقول: يوشك عبادي الصالحون يُلْقوا عنهم المؤنة، أو الأذى، ويصيروا إليك. وتُصَقَّد مردةُ الشياطين فلا يَخْلصون إلى ما كانوا يخلصون إليه في غيره، ويُغْفَر لهم في آخر ليلة. قيل: يا رسول الله أهي ليلة القدر؟ قال: لا ولكن العامل يوقى أجره إذا قضى عمله.

وعن ابن عباس وعائشة قالا: كان رسول الله ﷺ إذا دخل شهر رمضان أطلق كلَّ أسير، وأعطى كل سائل.

وذكر أبو جعفر بن أبي شيبة في كتاب العرش، عن كعب قال: قال الله تعالى: يا موسى بن عمران إني أمر حملة العرش أن يُمسكوا عن العبادة، إذا دخل شهر رمضان، وأن يقولوا كلما دعا صائم رمضان: آمين. فإني آليت على

نفسى أن لا أردّ دعوة صائم رمضان .

الكلام على البسملة

مَنْ نَالَهُ دَاءٌ دَوَّ بِذَنْوِبِهِ فليأت في رمضان بابَ طيبه
فخلُوف هذا الصوم يا قوم اعلموا أشهى من المسلك السَّحِيقِ وطيبه
أو ليس هذا القولُ قولَ مَلِيكِكُمْ الصومُ لي وأنا الذي أجزي به

أين من كان معكم في رمضان الماضي؟ أما أفنته آفات المنون القواضي، أين من كان يتردد إلى المساجد في الظلم؟ سافر عن داره منذ زمان ولم، أين من صبر على مشقة الجوع والظما، غاب فما آبَ ومضى فما، أين الذين ارتفعت أصواتهم بالأدعية خرجت تلك الجواهر من تلك الأوعية، أين من جمع مالا ووفرا، وأغلق من ظفّره بالمراد ظفرا، ومشى إلى أغراضه جمزا وطفرا، أما أخرج الموت كفه صفرا؟ أما أعاد دياره بالخراب قفرا؟ كانت تلاحظه عيون الأجداد خزرا وتلمحه وهو في لذاته شزرا، فنقلته وهو أنقل بالوزر أزرا، ثم طال عذابه وإنما نال نزرا، وأوطأته جمرا لا يشبه جمرا فبان في أسره أذلّ الأسرى.

سَلِ الأَيَّامَ مَا فَعَلْتَ بِكِسْرِي وقَيِّصِرِ والقصورَ وساكنيها
أَمَا اسْتَدْعَتْهُمُ لِلْمَوْتِ طُورًا فلم تَدْعِ الحليمَ ولا السَّفيها
دَنَتْ نَحْوَ الدَّيِّيِّ بِسَهُمِ خَطْبِ فأصمته وواجهت الوجيها
أَمَا لَوْ بِيَعْتَ الدُّنْيَا بِفَلْسِ أنفِتْ لعاقِل أن يشتريها

إخواني: تفكروا لماذا خلّقتم فالتفكر عبادة، وامثلوا أمر الإله فقد أمر عباده، والتفتوا عن أسباب الشقاء إلى أسباب السعادة، واعلموا أنكم في نقص من الأعمار لا في زيادة.

آه لِنَفْسٍ أَقْبَلَتْ عَلَى العَدُوِّ وَقَبِلَتْ، وبادرت ما يؤذيها من الخطايا وعجلت، من لها إذا نُوقِشت على أفعالها وسئلت، وقررت بقبائحها يوم الحشر

فخجلت، وقيدت بقيود الندم على التفريط وكبتت، وشاهدت يومَ الجزاء قُبْح ما كانت عملت، وسلَّ عليها سيفُ العتاب يومَ الحساب فقتلت.

أيها الغافل عن فضيلة هذا الشهر، اعرف زمانك، يا كثير الحديث فيما يؤذي احفظ لسانك، يا مسؤولاً عن أعماله اعقل شانك، يا متلوئنا بالزلل اغسل بالتوبة ما شانك، يا مكتوباً عليه كلُّ قبيح تصفح ديوانك.

أَقْلِيلُ كَلَامِكَ واحترز من شره إن البلاء ببعضه مقرون
وَكُلُّ فَوَادِكٍ باللسان وقل له إن الكلام عليكما موزون
فَزِنَاهُ فَلَئِكَ مُحْكَمًا فِي قِلَّةِ إن البلاغة في القليل تكون

يا من أكثر عمره قد مضى، يا من نفسه مع اللحظات تقتضى، يا من قد أنذرته سلب القرين معرضاً، كيف يحترس العريان من سيفٍ مُنتَضَى، إن كان ما فرط يوجب السخط فاطلب في هذا الشهر الرضا، يا كثير القبائح غداً تنطق الجوارح، أين الدموع السوافح على تلك القبائح، ياذا الداء الشديد الفاضح، ما أعسر مرض الجوانح، هذا الشيب دليلٌ واضح، وهو في المعنى عدولٌ ناصح، جائحته لا تشبه الجوانح، يُضَعِّضُ الأركان الصحائح، يسدُّ أبوابَ اللهو والممازح، والموتُ في خِلاله مُبين لائح، أين زادك يا أيها الرائح، أين ما حصلت هل أنت رايح، يا أسفي لهذا النازح، كيف حاله في الضرائح، من له إذا أوثقه الذابح، من له إذا قام النَّائح، واستوى لديه العائب والمادح، ولم ينفعه في بطون الصفائح، إلا عملٌ إن كان له صالح، أتراه يعتقد أن النصيح مازح، ضاعت المواعظ، إلا أن الموعوظ سكرانٌ طافح.

يا من قد سارت بالمعاصي أخباره، يا من قد قُبْح إعلانه وإسراره، يا فقيراً من الهدى أهلكه إعساره، أتؤثر الخُسْران قل لي، أو تختاره؟ يا كثير الذنوب وقد دنا إحضاره، يا أسيراً في حبس الطرد لا ينفعه إحضاره، نقدك بهرج إذا حكَّ معياره، كم ردَّ على مثلك درهمه وديناره، يا مُحترقاً بنار الحِرْص حتى متى تخبو ناره، المذكرون بينكم قد أصبحوا كالسَّهار، وأنتم قد جعلتم المواعظ مثلاً

الأسهار، وكان القرآن عندكم صوتٌ مِزْمَارٌ، وقد ضاعت في هذه الأمور
الأعمار، فأين يكون لهذا الغرس إثمار:

مَضَى زَمَانِي وَتَقَضَّى الْمَدَى فليتي وفقت هذا الزمَيْن
أرْزَمْتَ النَّارَ وَعَارَضْتَهَا فليعجب السامعُ للمُرْزَمَيْن
ليت دموعي بمنى سبَّلت ليثرب الحجاج من زمين

الكلام على قوله تعالى

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ ﴾^(١)

كتب: بمعنى فُرِضَ. أخبرنا أبو بكر بن حبيب، أنبأنا أبو سعيد بن أبي
صادق، أخبرنا أبو عبد الله بن باكوية، قال سمعت حسان بن أحمد الهاشمي
يقول. سأل المأمون علي بن موسى الرضا: أي شيء فائدة الصوم في الحكمة؟
فقال: عَلِمَ اللهُ ما ينال الفقير من شدة الجوع، فأدخل على الغني الصوم ليذوق
طعم الجوع ضرورة، حتى لا ينسى الفقير من [شدة] الجوع. فقال المأمون: أقسم
بالله لا كتبت هذا إلا بيدي!

وللصوم آداب يجمعها: حفظ الجوارح الظاهرة، وحراسة الخواطر الباطنة،
فينبغي أن يتلقى رمضان بتوبة صادقة، وعزيمة موافقة. وينبغي تقديم النية وهي
لازمة في كل ليلة، ولا بد من ملازمة الصمت عن الكلام الفاحش والغيبة فإنه
ما صام من ظلَّ يأكل لحوم الناس، وكفُّ البصر عن النظر إلى الحرام، ويلزم
الحذر من تكرار النظر إلى الحلال.

أخبرنا ابن الحصين بسنده عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: « من لم
يدع قول الزور والعمل به والجهل، فليس لله حاجة أن يدع طعامه وشرابه. »

إنفرد بإخراجه البخاري.

(١) البقرة ١٨٣.

وفي الصحيحين من حديث سَهْل بن سعد قال: قال رسول الله ﷺ: « لا يزال الناس بخير ما عَجَّلوا الفِطْرَ » .

وفي حديث أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: يقول الله عز وجل: « إن أحبَّ عبادي إليَّ أَعَجَّلهم فِطْرًا » .

وفي حديث سليمان بن عامر عن النبي ﷺ أنه قال: « إذا أفطر أحدكم فليُفطر على تمر ، فإن لم يجد فليُفطر على ماء ، فإنه له طَهُورٌ » .

وفي حديث أنس عن النبي ﷺ أنه قال: « إذا قُرَّب إلى أحدكم طعامه وهو صائم فليقل: بسم الله ، والحمد لله ، اللهم لك صُمت ، وعلى رزقك أفطرت ، وعلىك توكلت ، سبحانك اللهم وبحمدك ، إنك أنت السميع العليم » .
ويستحب السحور وتأخيره :

وفي الصحيحين من حديث أنس عن النبي ﷺ أنه قال: « تسحَّروا فإن في السحور بركة » .

وينبغي للصائم أن يتشاغل طوله نهاره بالذكر والتلاوة ، وكان الشافعي رضي الله عنه يختم في رمضان ستين ختمة .

أخبرنا الكروخي بسنده عن الزُّهري قال: تسبيحة في رمضان خير من ألف تسبيحة في غيره .

حقُّ شهر الصيام شيان إن كنت من الموجبين حقَّ الصيام
تقطع الصوم في نهارك بالذِّكْر وتُفني ظلامه بالقيام

أخبرنا أبو القاسم الجريري بسنده عن عمر بن الخطاب قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: ذاكر الله عز وجل في رمضان مغفور له ، وسائل الله عز وجل فيه لا يجيب » .

وعن قيس الجُهني قال: إن كل يوم يصومه العبد من رمضان يجيء يوم

القيامة في عمامة من نور في تلك العمامة قصر من دُرّ له سبعون ألف باب، كل باب ياقوتة حمراء؟

ويستحب للصائم أن يفطر الصوَّام إذا أمكنه.

أخبرنا هبة الله بن محمد بسنده عن زيد بن خالد الجهني، عن النبي ﷺ قال: «من فطر صائماً كان له، أو كُتِبَ له مثل أجر الصائم من غير أن ينقص من أجر الصائم شيئاً، ومن جهَّز غازياً في سبيل الله كان له، أو كُتِبَ له مثل أجر الغازي في سبيل الله، غير أنه لا ينقص من أجر الغازي شيئاً.»

فبادروا إخواني شهركم بأفعال الخير، وأفردوها عن الخطايا لتكون وحدها لا غير، واعلموا أن شهركم هذا شهر إنعام ومير، تعرف حرمة الملائكة والجن والطير، وهاً لأوقاته من زواهر ما أشرفها، ولساعاته التي كالجواهر ما أظرفها، أشرقت لياليها بصلاة التراويح، وأنارت أيامها بالصلاة والتسبيح، حلَّيتها بالإخلاص والصدق، وثمرتها الخلاص والعِتق.

تَيْقِظْ يا غافل وانهض ببدارك، فمالك لأهلك، وأنت ضيفٌ بدارك، واستدركٌ قديمك وأصلح بالتقى حديثك، وامنع لسانك اللغو واجعل الذكر حديثك، وصحح بمجانبة الهوى إيمانك ويقينك، وتدرَّع كلماتي هذه في حرب الغرور يقينك، إلى متى في حب البطالة منكمش، وبلذات الكسل جدلان دهِش، وإذا فات الهوى بيت من الحزن ترتعش، أما رأيت ذا مالٍ وأملٍ لم يعيش، أما شغلك الموت عن زخرفٍ قد نُقش، أما تعلم أنك للموت في القبر تفتersh، أما تحذر يوماً لا تجد الماء من العطش، عجباً لموقن بالقيامة، لم يجع ولم يعطش.

كان أصحاب أبو هريرة يعتكفون في رمضان، ويقولون: نُظَهَّرَ صيامنا.

واعتكف أبو محمد الجريدي في الحرم سنة لم يمدّ رجله، ولم يضطجع، فقيل له: كيف قدرت على هذا؟ فقال: عِلِمَ صِدْقَ باطني فأعاني على ظاهري.

إخواني: هذا شهر التيقُّظ، هذا أولن التحفُّظ، إخواني بين أيديكم سفر، والأعمارُ فيها قصر، وكلكم والله على خطر، كونوا على خوف من القدر، واعرفوا قدر من قدر، وتذكروا كيف عصيتم وستر، وأيم الله لو قمتم على البصر، وسجدتم شكراً على الإبر وما وفيتم بشكر نعيم محتقر، أما طوى القبيح والجميل نشر، أما بعضُ نعمه السمعُ والبصر.

إخواني: آن الرحيلُ وما عندكم خبر، إلى كم توعظون ولا تتعظون، وتوقظون ولا تتيقظون، وتتعجبون الناصح ولا تقبلون، ويكفي في البيان رؤية الأقران يرحلون ﴿أَفَسِحْرٌ هَذَا أَمْ أَنْتُمْ لَا تُبْصِرُونَ﴾^(١) أكلفتم ما لا تطيقون، أكلفتم بما لا تفهمون، ما لكم من مآلكم معرضون، ما هذا الفتور وأنتم سالمون، ما هذا الرقاد وأنتم مُنتهبون:

أَقْضِي الدهرَ من فِطْرٍ وَصَوْمٍ وَأَخِذْ بُلْغَةً يَوْمًا بِيَوْمٍ
وَأَعْلَمْ أَنَّ غَايَتِي الْمُنَايَا فَصَبْرًا تِلْكَ غَايَةَ كُلِّ قَوْمٍ
فَإِنْ تَقِفَ الْحَوَادِثُ دُونَ نَفْسِي فَهَا يَتْرَكُنْ إِشْمَامِي وَرَوْمِي

كم مؤمل إدراك شهرٍ ما أدركه، فاجأه الموتُ بغتةً فأهلكه، كم ناظر إلى يوم صومه بعين الأمل طمسها بالممات كفُّ الأجل، كم طامع أن يلقاه بين أترابه ألقاه الموت في عُقر تراه.

استغفر الله بقلب مُنيب يعلم أن الموت منه قريبُ
مأخوذُ مالٍ حريباً يشتكي وعادِمُ الدين الأخيذُ الحريبُ
والإنس جنسٌ كلُّه ظالم والمنصف العادلُ فيهم قريبُ
والعيشُ محبوبٌ أتاك الأذى منه فواهاً للبغيض الحبيبُ
اصبر إذا العام سطا جَدُّبه فطالما جاءك عامٌ خصيبُ
خاطبت أقواماً فلم يسمعوا فهل تشبهت بهم يا خطيبُ
تغسل كفيك من الزهم ألا

(١) الطور ١٥.

أيها المجتهد هذا ربيع جدك، أيها الطالب هذه أوقات رُفدك، تيقظ أيها الغافل من سِنَّة البطالة، تحفظ أيها الجاهل من شُبّه الضلالة، اغتم سلامتك في شهرك قبل أن تُرتمن في قبرك، قبل انقراض مدتك وعدم عدَّتكَ وازماع قُوَّتكَ وانقطاع صوتك، وعثور قدَمك وظهور ندمك، فإن العمر ساعات تذهب وأوقات تُنهب. وكلها معدود عليك والموت يدنو كل لحظة إليك.

أخبرنا أبو بكر بن حبيب العامري بسنده عن محمد بن علي الحرّبي، قال: سمعت أحد ابن المغلس، قال: سمعت سريّاً السقطي يقول: السنّة شجرة، والشهور فروعها، والأيام أغصانها، والساعات أوراقها وأنفاس العباد ثمرتها، ف شهر رجب أيام توريقها، وشعبان أيام تفرّيعها، ورمضان أيام قطفها، والمؤمنون قُطّافها. هذه الأشهر الثلاثة المعظّمة كالجمرات الثلاث، فرجب كأول جمرة تحمى بها العزائم، وشعبان كالثانية تذب فيها مياه العيون، ورمضان كالثالثة تورق فيها أشجارُ المجاهدات، وأي شجرة لم تورق في الربيع قُطعت للحطب! فيا من قد ذهبت عنه هذه الأشهر، وما تغير أحسن الله عزاءك!

إخواني: إنما شرع الصوم ليقع التقلل، فأما من أوثق الرّزمة فما له نية في البيع، إذا استوفيت العشاء تكدر الليل بالنوم، وإذا استوفيت السحور تجبّط النهار بالكسل، وإنما شرع السحور ليتقوى المتقلل من العشاء، ولينتبه الغافل، وما أرى رمضان إلا زادك شبعاً وغفلة.

واعجباً لو عرض عليك أن تشرب شربة ماء في رمضان لما شربت، ولو ضربت، وأنت فيه تغشّ في البيع، وتطفّف في الميزان، فإذا خرج شربت الخمر في شوال، أما كان الناهي عن هذا هو الناهي عن ذلك ﴿أفتؤمنون ببعض الكتاب وتكفرون ببعض﴾ (١).

تالله لو قيل لأهل القبور: تمنّوا لتمنوا يوماً من رمضان، إلى متى أنت في ثياب

(١) البقرة ٨٥.

البَطْرَ أما تعلم مصير الصَّوْرَ، عجباً لك تَؤْمَنُ، وتَأْمَنُ الغَيْرَ، أما ينفعك ما ترى من العَيْبَرِ، أَصُمَّ السَّمْعَ، أم غُشِيَ البَصْرَ، تالاه إنك لعلّى خطر، آن الرّحيلُ ودنا السَّفَرِ، وعند الممات يأتيك الخبر، كلما خرجت من ذنوب دخلتَ في آخر، يا قليل الصفا، إلى كم هذا الكَدْرَ، أنت في رمضان كما كنت في صفر، إذا خسرت في هذا الشهر، فمتى تَرَبِّحُ، وإذا لم تسافر فيه نحو الفوائد فمتى تَبْرَحُ، يا من إذا تاب نقض، يا من إذا عاهد غدر، يا من إذا قال كَذِبَ، كم سترناك على معصية، كم غَطَّيناك على مُخْزِيَةٍ.

يا عامراً ما يَفْطُنُ	يا هالكاً ما يَفْطُنُ
يا ساكن الحجرات ما	لك غير قَبْرِكَ مَسْكُنُ
أحدث لربك توبةً	وسيلها لك مُمَكِّنُ
فكأن شخصك لم يكن	في الناس ساعة تُدْفِنُ
وكان أهلك قد بكوا	سِراً عليك وأعلنوا
فإذا مضت بك ليلة	فكأنهم لم يَحْزَنُوا
الناس في غفلاتهم	ورحى الميتة تطحن
ما دون دائرة الردى	حصن لمن يتحصن
مالي رأيتك تطمئن	إلى الحياة وتركن
وجعت ما لا ينبغي	وبنيت ما لا تسكن
وسلكت فيما أنت في الـ	دنيا به متيقن
أظننت أن حوادث الـ	أيام لا تتمكن

المجلس السابع

لانتصاف شهر رمضان

الحمد لله الأحديّ الذات، العليّ الصفات. الجليّ الآيات الوفيّ العِدّات، رافع السموات وسامع الأصوات، عالم الخفّيات ومحيي الأموات، تنزّه عن الآلات، وتقدّس عن الكيفيّات، وتعظّم عن مشابهة المخلوقات، جلّ عن الآباء والأمّهات والنبات، ثبّت الأرض بالأطواد الراسيات، وأحيّاها بعد موتها بالسُّحب المطرات، فإذا أرخت عزّاليها ضحك باخضاراه النبات، وقالت المبتدعات بألسن الإشارات: ﴿اعلموا أن الله يُحيي الأرض بعد موتها قد بيّنا لكم الآيات﴾ (١).

إذا بسط بساط الدلّ تزلزلت أقدام أهل الثّبات، وإذا نشر رداء الفضل غمر الذنوب الموبقات، ﴿يقبل التوبة عن عبّاده ويعفو عن السيئات﴾ (٢).

حيّ بحياة تنزّهت عن طارق الممات، عالم بعلم واحد جميع المعلومات، قادر بقدرة واحدة على جميع المقدورات، أراد فلانت لهيبته صعب المراتد، وسمع فلم يعزّب عن سمعه خفيّ الأصوات، وأبصر سواد العين في أشد الظلمات، استوى على العرش لا كاستواء المخلوقات، وينزل إلى سماء الدنيا مرويّ بنقل عن الثقات، ويراه المؤمنون في الجنة بالعيون الناظرات، نصّفه بالنقل المبين بصحته سقيم الشبهات، من غير تكييف في الأوصاف، ولا تشبيه في الذوات، فهل علينا ملام، أم هو طريق النجاة، أحده على جميع الحالات حدّاً يدوم بدوام الأوقات، وأقرّ بوحدانيته كافرّاً باللات، وأشهد أن محمداً عبده

(١) الحديد: ١٧.

(٢) الشورى: ٢٥.

ورسوله أرسله بالأدلة الواضحات، ﷺ، وعلى صاحبه أبي بكر الناهض يوم الرّدة على أقدام الثبات، القائم بنصر الإسلام وقد قعد أهل العزّات، القائل: أقاتلهم ولو لم أجد غير البنات، وعلى عمر العادل في القضيات، كان إذا مشى فرّق الشيطان من تلك الخطوات، وعلى عثمان المتهدج بالقرآن في الظلمات، الصابر على الشهادة بأيدي العداة، وعلى عليّ ذي المناقب العاليات، المخصوص بأخوة الرسول دون ذوي القرابات، وعلى عمه العباس الذي بالسؤال به سالت عزالي السحب الماطرات.

أيها الناس: إن شهركم هذا قد انتصف، فهل فيكم من قهر نفسه وانتصف، وهل فيكم من قام فيه بما عرف، وهل تشوّقت هممكم إلى نيل الشرف، أيها المحسن فيما مضى منه دم، وأيها المسيء وبّخ نفسك على التفریط ولم، إذا خسرت في هذا الشهر متى تريح، وإذا لم تسافر فيه نحو الفوائد فمتى تبرح. كان قتادة يقول: كان يقال من لم يُغفر له في رمضان فلن يُغفر له!

أخبرنا أبو بكر بن أبي طاهر البزار بسنده عن سلمة بن وردان قال: سمعت أنس بن مالك يقول: ارتقى سيدنا رسول الله ﷺ المنبر فقال: آمين، ثم ارتقى ثانية فقال آمين. ثم استوى عليه، فقال آمين. فقال أصحابه: علام أمنت يا رسول الله؟ فقال: أتاني جبريل فقال: يا محمد رَغِمَ أنف امرئ أدرك والديه، أو أحدهما، فلم يُدْخلاه الجنة. فقلت: آمين. ثم قال: رَغِمَ أنف امرئ أدرك شهرَ رمضان، فلم يُغفر له. فقلت: آمين.

أخبرنا محمد بن عبد الباقي بسنده عن أنس بن مالك قال: قال رسول الله ﷺ «هذا رمضان قد جاء، تفتح فيه أبواب الجنات وتغلق فيه أبواب النار، وتغلّ فيه الشياطين بعد امرؤ أدرك رمضان لم يغفر له، إذا لم يغفر له فمتى؟!».

وبالإسناد عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: رَغِمَ أنف رجل دخل عليه رمضان، ثم انسلخ قبل أن يُغفر له.

إذا الروضُ أمسى مُجْدَباً في ربيعهِ ففسي أيّ حينٍ يَسْتَنيرُ ويُخْصِبُ

أخبرنا عبد الله بن علي المقرئ بسنده عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: « إن أمتي لن يجزوا أبداً ما أقاموا شهر رمضان. فقال رجل من الأنصار: يا رسول الله وما خزيهم؟ قال: من إضاعتهم شهر رمضان بانتهاك المحارم، فمن عمل سوءاً، أو زنى، أو سرق، فلن يقبل منه شهر رمضان، ولعنه الله عز وجل والملائكة إلى مثلها من الحول، فإن مات قبل شهر رمضان فليستبشر بالنار، فاتقوا شهر رمضان، فإن الحسنات تضاعف فيه، وكذلك السيئات. »

عباد الله إن شهركم هذا لا قيمة له، ولا يمكن استدراك ما ضاع بالتفريط.

أخبرنا محمد بن عبد الباقي بسنده عن أبي هريرة، عن النبي ﷺ قال: « من أفطر يوماً من رمضان من غير مرض، ولا رخصة لم يقض عنه صيام الدهر كله وإن صامه. »

قال يحيى بن معين: أبو المطوس اسمه عبد الله بن المطوس ثقة.

وذكر أبو بكر الآجري في كتاب النصيحة أن مذهب إبراهيم النخعي أن من شرب الخمر في رمضان كان عليه صوم ثلاثة آلاف يوم.

قال: وقال سعيد بن المسيب: عليه صوم شهر متتابع. وقال الربيع ابن أبي ربيعة بن عبد الرحمن: عليه صيام إثني عشر يوماً، لأن الله أوجب صيام شهر من إثني عشر شهر.

أخبرنا هبة الله بن محمد بسنده عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: كل عمل ابن آدم يضاعف: الحسنة عشر أمثالها إلى سبعمائة ضِعْف إلى ما شاء الله، يقول الله عز وجل: إلا الصوم فإنه لي وأنا أجزي به، يدع طعامه وشهوته من أجلي، وللصائم فرحتان: فرحة عند فطره، وفرحة عند لقاء ربه، ولخُلُوف فيه أطيب عند الله من ريح المسك. « الصوم جنة. »

أخرجاه في الصحيحين.

عباد الله: فرحة الحس عند الإفطار تناول الطعام، وفرحة الايمان بالتوفيق

يا هذا قدّم دستور الحساب قبل الغروب، فإن وجدت خللاً فأرّقه برقة استغفار، فإذا جاء السحر فاعقد عقْد الزُّهد في الدنيا عند نية الصوم، وتجرّع جرّعة دمة في إناء ركعة لعلك تطلّع على خبايا خفايا ما أعد للصائمين من مستور ﴿ فلا تعلم نفس ما أخفي لهم من قُرّة أعين جزاءً بما كانوا يعملون ﴾ (١).

الكلام على البسمة

قل للمؤمّل إن الموت في أترك وليس يخفى عليك الأمر من نظرك
 فيمن مضى لك إن فكّرت معتبر ومن يمّت كل يوم فهو من نُذرك
 دارّ تسافر عنها من غدٍ سفرًا فلا تؤوب إذا سافرت من سفرك
 تُضحى غداً سمرًا للذاكرين كما كان الذين مضوا بالأمس من سمرك

يا مضيع الزمان فيما ينقص الإيمان، ما أراك في رمضان إلا كجأدى وشعبان، أما يشوقك إلى الخير ما يشوق، أما يعوقك عن الضيّر ما يعوق، متى تصير سابقاً يا مسبوق، إلى متى سوق الشوق إلى سوق الفسوق، أول الهوى سهل، ثم تتخرق الخروق، كلما حصد نباته بمنجل الصبر أخرجت العروق، وإن لذيذ شربه فشربه شجى في الخلق، وإنما لذات الدنيا كخطف البروق، ميّز بين ما يفنى وما يبقى ترّ الفروق، خلّ التواني إن شئت أن تفوق، عليك حافظ وضابط، ليس بناسٍ ولا غالط، يكتب الكلمات السواقط، وأنت في ليل الحدّث خابط، تتعرض في الصباح والمساء للمساخط، يا من قد شاب إلى كم تغالط، لا بد لليل من فجر منير كاشط، كيف ينهض للعب واللهو الأشاميط، ماذا بقي، وهذا الشيب واخط، أما تستحي وأنت في الإثم وارط، ياقاعداً عند التقي وهو في الهوى ناشط، كلما رفعت لم تردّ إلا المهابط، تيقظ لنفسك فقد مضى الفارط، وابك على ذنبك ويكفي الفارط، أصلح ما بقي، وأقبل من الوسائط،

جاهدْ هواك في الدنيا فالفخر للمرابط، انظر لمن تعاشر واعرف لمن تخالط، احذر جزاء القِسْط عليك يا قاسِط، لا تغترر بالسلامة، فرما قبض الباسط، في لنا بالشروط ونحن نفى بالشرائط، ذكر نفسك بالموت ذاك الشديد الضاغط، إذا تحيَّرت في الأمور وزال الجأش الرابط، لا تنفع الأقارب، ولا تدفع الأراهِط، ونفس النَّفس يخرج من سَمِّ إبرة خائط.

باع قومٌ جاريةً قبيل رمضان، فلما حصلت عند المشتري قال لها: هيئي لنا ما يصلح للصوم. فقالت: لقد كنت قبلكم لقوم كل زمانهم رمضان!

لله در أقوام تفكروا فأبصروا، ولاحت لهم الغاية فما قصَّروا، وجعلوا الليل رَوْحَ قلوبهم والصيام غذاء أبدانهم، والصدِّق عادة ألسنتهم والموت نُصَبَ أعينهم.

كتب رجل إلى داود الطائي: عِظْني. فكتب إليه: أمّا بعد فاجعل الدنيا كيومٍ صُمِّتته عن شهوتك، واجعل فطرك الموت، فكأن قد صرت إليه. فكتب إليه: زدني. فكتب إليه: أمّا بعد فارضَ من الدنيا باليسير مع سلامة دينك، كما رضي أقوامٌ بالكثير مع ذهاب دينهم. والسلام.

كان داود الطائي قد ورث من أبيه عشرين ديناراً، فأنفقها في عشرين سنة. وكان جالساً في داره، فإذا وقع سقفٌ تقدّم إلى موضع آخر إلى أن بقي دهليز الدار، فمات فيه، وتحت رأسه لَبِنَةٌ، فدخل عليه ابن السماك فقال: اليوم ترى ثوابَ ما كنت تعمل!

ورآه بعض أصحابه في المنام فقال له: أوصني. فقال: داوِ قُرُوحَ باطنك بالجوع، واقطع مَقَاوِرَ الدنيا بالأحزان، وآثر حُبَّ الله على هواك ولا تبال متي تلقاه.

طوبى لعبدٍ بالغٍ في حِذاره، واحتقرَ بكفِّ فِكْرِهِ قَبْرَهُ قبل احتفاره، وانتهبَ زمانه بأيدي بَدَارِهِ، وأعدَّرَ في الأمر قبل شَيْبِ عِذاره، ولم يرض في زاده

بتقليله واختصاره، ورأى عَيْبَ الهوى فلم يَصْطَلْ بناه، ودافع الشهواتِ وصابر
 المكاره، إنْ بحث عنه رأيتَه صائِمَ نهاره، وإن سألت عن ليله فقائم أسحاره،
 وإن تلمَّحْتَه فالزفير في إصعاده والدمع في انحداره، ولا يتناول من الدنيا إلا
 قَدْر اضطراره، باعها فاشترى بها ما يبقى باختياره، هل فيكم متشبهٌ بهذا أو
 على نِجَارِه؟

ياحُسْنُه ومصابيح النجوم تُزهر والناس قد ناموا، وهو في الخير يَسْهَر، غسل
 وجهه من ماء عينه وعَيْنَ العَيْنِ أَطهر، فلما قَضَى وِرْدَ الدَّجَى، جلس يتفكَّر،
 فخطر على قلبه كيف يموت وكيف يُفبر، وتصور صحائفه كيف تُطوى وكيف
 تُنشر، فهام قلبه في بَوَادِي القلق وتخيَّر، فطلَّق الدنيا ثلاثاً، وهل يُستوطن
 مَعَبَر.

طوى مُدَّةً من دهره دار زخرفٍ إلى أبدٍ ذي سُندسٍ وحريِرٍ
 ألا تلكم الدار التي حلَّ أهلُها بناءً عن الخطبِ المخوفِ شطيرٍ
 لهم ما اشتهوا فيها مسوقاً إليهم مقوداً إذا شاءوا بغير جَريرٍ

الكلام على قوله تعالى:

﴿شهر رمضان الذي أنزل فيه القرآن﴾ (١)

إخواني: استدرکوا باقي الشهر، فإنه أشرف أوقات الدهر، واحصروا
 النفوس عن هواها بالقَهْر، وقد سمعت بالحور العين فاهتموا بالمَهْر.

أخبرنا أبو منصور القزَّاز بسنده عن ثابت، عن أنس بن مالك عن النبي
 ﷺ قال: «أفضلُ الصدقة صدقةُ رمضان».

عباد الله: اعلّموا أن النصف الأخير أفضل من الأول، لأن فيه العشرِ وليلة
 القدر، والأعمال تُضاعف بشرف وقتها ومكانها.

(١) البقرة ١٨٥.

قد بلغ الشهرُ إلى نصفه وليس عني الشهرُ بالراضي
ظلمتُ صومَ الشهرِ في حقه يا ويلتا إن عدلَ القاضي
أترى صحَّ لك صوم يوم، أترى تسلم في شهرك من لوم، أترى لفيك
خلوق أم فيك خلاق، من فطرَ صائماً فله أجر صائم، فاجتهد أن تصون
رمضان ستين يوماً.

أيها الراقدُ عن نهزته ما يروع السيفُ حتى يُشهراً
وأبي المجدِ لقد فازَ به سالك فيه الطريقَ الأوعراً
إنما أنت ضيفُ أصبحت في مترك، وما في يديك ودیعةٌ عندك، ويوشك
الضيف أن يرتحل، والودیعة أن تُردّ. إبكِ على نفسك أيامَ الحياة بكاء من ودّع
الدنيا:

قد كَشَفَ الدهرُ عن يقيني قِنَاعَ شَكِّي في كل شَيِّ
لا بد من أن يحلَّ موتٌ عَقْدَةَ نَفْسٍ من كل حَيِّ

متى تتبع أوصافَ الإنصاف، إلى متى ترضع أخلافَ الخِلاف، أيقظك
الدهر وأرشدك الوعظ فهمت، وحدتك الموتُ فما فهمت، ألبَّ حبُّ الدنيا
بُلبك، وأقلبَ هواها مستقيمَ قلبك، كم نوقظ عقلك سنة بعد سنة. وهو لا
يزداد إلا رقّاداً، وسنة، كم نرُمي هدفَ سمعك برشقِ كلام لم يلذع أصلَ قلبك
بجبه ملام:

عَيْنُ المنيّةِ يَقْظِي غير مُطْرِقَةٍ وطرْفُ مَطْلُوبها مُذْ كان وسنانُ
جهلاً تمكّن منه حين مَوْلده والنُّطقِ صاحٍ ولُبُّ المرءِ سكرانُ

لقي راهبٌ راهباً فقال: أترضى حالتك التي أنت عليها للموت؟ قال: لا.
قال: فهل عزمت على توبة من غير تسويف؟ قال: لا. قال: فهل تعلم داراً تعمل
فيها سيوى هذه؟ قال: لا. قال: فهل للإنسان نَفْسَان إذا ماتت واحدةٌ عمِل
بالأخرى؟ قال: لا. قال: فهل تأمن هجومَ الموت على حالتك هذه؟ قال: لا.

قال: فما أقام على ما أنت عليه عاقل!

صعد عمر بن عبد العزيز المنبر فقال: إن كنتم على يقين فأنتم حمقى، وإن كنتم في شك فأنتم هلكى. ثم نزل.

ودخل عليه رجل متغير اللون فقال: ما بك؟ قال: أمراض وأعلال. قال: لتصدقني قال: ذقت حلاوة الدنيا مرةً.

وهبني كتمت الحق إذ قلت غيره أتخفى على أهل العقول السرائر
أيا ذلك إن السر في الوجه ناطق وإن ضمير القلب في العين ظاهر

قال صالح المري: كان عطاء السلمي قد اجتهد حتى انقطع، فقلت له يوماً: إني مكرمك بكرامة فلا تردّ كرامتي. فبعثت إليه شربة من سويق مع ولدي، وقلت له: لا تبرح حتى يشربها. فجاء فقال: قد شربها. فبعثت له في اليوم الثاني مثلها، فجاء فقال: ما شربها. فأتيت إليه فلمته وقلت: ردّدت عليّ كرامتي، وهذا يقويك على العبادة. فقال: يا أبا بشر لقد شربتها في أول يوم، واجتهدت في اليوم الثاني فلم أقدر، كلما هممت بشربها ذكرت قوله تعالى: ﴿وطعاماً ذاغصة﴾^(١) قال: فقلت: أنا في وادٍ، وأنت في وادٍ!

أطلت وعنفتني يا عدّول بليت فدعني حديثي طويل
هواي هوى باطن ظاهر قديم حديث لطيف جليل
ألا مالذا الليل لا ينقضي كذا ليل كلّ محبّ طويل
أبيت أساهر نجم الدجى إلى الصبح وحدي ودمعي يسيل

لله درّ تلك القلوب الطاهرة، أنوارها في ظلام الدجى ظاهرة، رفضت حلية الدنيا وإن كانت فاخرة، كم تركت شهوةً وهي عليها قادرة، باتت عيونها والناس نيام ساهرة، زفرات الخوف تثير سحابّ الأجفان الماطرة، يتدّبون على الذنوب، وإن كانت نادرة، كم بينك وبينهم يا بائع الآخرة، شيب وعيب أمثال

(١) المزمل ١٣.

سائرة، أملّ مع هَرَم هذه نادرة، كم أقوام أَمَلُوا هذا الشهر فخاب الأمل، أين هم خَلُوا في الأُلْحَاد بالعمل، تالله إن نسيان النَّقْل في العَقْل خَلل، أما يكفي زَجْر المقيم بمن رحل:

كُلُّ حَيٍّ فَقْصَرَاهُ الْأَجَلُ	ليس لِلخَلْق بِذَا المِوتِ قَبْلُ
نُوبٌ قُلُنْ لِعَادِ قَبْلُنَا	أَنْ مَن ذَاتِ العِمَادِ المَرْتَحِلُ
وَاسْتَوَى مَن ذَلِكِ الشَّرْبُ الَّذِي	صَارَ عِلًّا لِسِوَاهِمُ وَنَهْلُ
أَلْبَسَتْ نَاسًا سِوَاهِمُ حَلِيهِمُ	ثُمَّ بَزَّتْهُ فِرَاحُوا بِالعَطَلُ
فَكَأَنَّ الدَّهْرَ لَمْ يَجْمَعْ لَهُمُ	رَغَدَ العِيشِ وإِعْزَازَ الدُّوَلُ
فَاسْأَلِ الإِيوَانَ عَن أربَابِهِ	كَيْفَ حَلَّتْ بِهِمُ تَلِكِ الرِّحَالُ
نَقَلْتَهُمُ عَن فِضَاءٍ وَاسِعِ	يَسْرَحُ الطَّرْفُ بِهِ حَتَّى يَمَلَّ
نَحْنُ أَعْرَاضُ خُطُوبِ إِنْ رَمَتْ	عَادَتِ الأُذْرَاعُ لِينًا كَالْحَلَلُ
وَإِذَا مَا اخْتَلَفَتْ أَسْهُمُهَا	فَأَصَابَتْ بَطْلَ القَوْمِ بَطْلُ

يا من عمره قد وهى في سلك الهوى فهو متهافت، متى تستدرك في هذه البقية بالتقية الفائت، متى يشبع النوم فتجتمع الموم الشتات، أيها المريض البالي وما يبالي بوصف ناعت، إلى متى أنت بالعيوب إلى علام الغيوب متماقت، متعرض صباحاً للساخط ومساء للماقت، وتعمل بالأغراض في الإعراض عمل العفارت، يا متكلماً في ضره فأما في نفعه فساكت، كلما نقص أجله زاد أمله، وهذا متفاوت، أما رأيت المنايا تحصد المنى في المنابت، كم مقهقه رجع القهقري إلى حزن باكت، كأنك بالموت إذ ثوى قد فزع الثوابت، ونزل بك إذ نزل بك إلى حيرة باهت، يا جاهلاً قد غرّ، لقد سرّ بفعلك الشامت:

كَأَنَّكَ بِالمُضِيِّ إِلَى سَبِيلِكَ	وَقَدْ جَدَّ المَجْهَوزِ فِي رَحِيلِكَ
وَجِيءَ بِغَاسِلٍ فَاسْتَعَجَّلُوهُ	بِقَوْلِهِمْ لَهُ افْرُغْ مَن غَسِيلِكَ
وَلَمْ تَحْمَلِ سِوَى خِرْقٍ وَقُطْنِ	إِلَيْهِمُ مَن كَثِيرِكَ، أَوْ قَلِيلِكَ
وَقَدْ مَدَّ الرِّجَالَ إِلَيْكَ نَعْشًا	فَأَنْتَ عَلَيْهِ مُمْتَدًّا بِطُولِكَ

وَصَلُّوا ثُمَّ إِنَّهُمْ تَدَاعَوْا
فَلَمَّا أَسْلَكُوكَ نَزَلَتْ قَبْرًا
أَعَانِكَ يَوْمَ تَدْخُلُهُ رَحِيمٌ
فَسَوْفَ تَجَاوِرُ الْمَوْتَى طَوِيلًا
أَخِي إِنِّي نَصَحْتُكَ فَاسْتَمِعْ لِي
أَلَسْتَ تَرَى الْمَنَائِمَا كُلَّ يَوْمٍ
بِحَمْلِكَ فِي بُكُورِكَ أَوْ أُصَيْلِكَ
وَمَنْ لَكَ بِالسَّلَامَةِ فِي نُزُولِكَ
رُءُوفًا بِالْعِبَادِ عَلَى دُخُولِكَ
فَدَعْنِي مِنْ قَصِيرِكَ أَوْ طَوِيلِكَ
وَبِاللَّهِ اسْتَعْنْتُ عَلَى قَبُولِكَ
تُصِيْبِكَ فِي أَخِيكَ وَفِي خَلِيلِكَ

إخواني: هذه أيام تُصَان، هي كالتاج على رأس الزمان، وصل توقيع القِدَم من الرحيم الرحمن ﴿شهر رمضان الذي أنزل فيه القرآن﴾.

ياله من وقت عظيم الشأن تجب حراسته، مما إذا حَلَّ شان، كأنكم به قد رحل، وبأن ووجه الصَّلح ما بان ﴿شهر رمضان الذي أنزل فيه القرآن﴾.

من اللازم فيه أن تُحرس العينان، ومن الواجب أن يحفظ اللسان، ومن المتعين أن تُمنع من الخطى في الخطأ القدمان ﴿شهر رمضان الذي أنزل فيه القرآن﴾.

زِنُوا أفعالكم في هذا الشهر بميزان، واشتروا خلاصكم بما عَزَّ وهان، فإن عجزتم فسَلُّوا المَعِين وقد أعان ﴿شهر رمضان الذي أنزل فيه القرآن﴾.

قد ذهب نصف البضاعة في التفريط والإضاعة، والتسويق يَمُحِق ساعة بعد ساعة، والشمس والقمر بحسبان ﴿شهر رمضان الذي أنزل فيه القرآن﴾.

يا واقفًا في مقام التحير هل أنت على عَزْم التغيير؟ إلى متى ترضى بالنزول في منزل الهوان. هل مضى من يومك يومٌ صالح سلِمْتَ فيه من جرائم القبائح، تالله لقد سبق المتقي الرابع وأنت راضٍ بالخسران. عينك مُطلقة في الحرام، ولسانك منبسط في الآثام، ولأقدامك على الذنوب إقدام، والكلُّ مُثبِت في الديوان. قلبك غائب في صلواتك وفكرك ينقضي في شهواتك، فإن رَكَن إليك معاملٌ في معاملاتك دخلت به خانَ من خان أكثر كلامك لغو وهذر، والوقت بالتفريط شذَر مَذَر،

وإن اغتبت مسلماً لم تُبْق ولم تَدْر، الأمان منك الأمان. تالله لو عقلت
حالك، أو ذكرت ارتحالك، أو تصوّرت أعمالك لبنيت بيت الأحزان. سيشهد
رمضان عليك بنطق لسانك ونظر عينيك، وسيشار يوم الجمع إليك شقي فلان،
وسعد فلان. في كل لحظة تُقَرَّب من قبرك، فانظر لنفسك في تدبير أمرك، وما
أراك إلا كأول شهرك، الأول والآخر سيّان، قد ذهب من الشهر النصف وما
أرى من عمك النصف، فإن كان في الماضي قد قَبِح الوصف، فقم الآن.

والحمد لله وحده.

المجلس الثامن

في ذكر العَشرِ و ليلة القدر

الحمد لله عالم السر والجهر، وقاصم الجبابرة بالعز والقهر، مُحْصِي قطرات الماء وهو يجري في النهر، فضَّل بعض المخلوقات على بعض حتى أوقات الدهر ﴿لَيْلَةُ الْقَدْرِ خَيْرٌ مِنْ أَلْفِ شَهْرٍ﴾ (١). فهو المتفرد بإيجاد خلقه المتوحد بإدراك رزقه، القديم فالسَّبْق لسببه، الكريم فما قام مخلوقٌ بحقه، عالم بسر العبد وسامع نطقه، ومقدّر علمه وعمله وعمره، وفعله، وخلقُه، ومجازيه على عيبه وذنبه وكذبه وصدقه، المالك القهَّار، فالكل في أسر رقه، الحليم الستار، فالخلق في ظل رفقهِ، أرسل السحاب تُخاف صواعقه ويُطمع في ودِّقه، يزعج القلوب رَواعده ويكاد سنا برقه، جعل الشمس سراجاً والقمر نوراً بين غربه وشرقه.

أحمده على الهدى وتسهيل طرقه، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له في رتقه وفتقه، وأن محمداً عبده ورسوله أرسله والضلال عامٌ فمحاها بمحقه، صلى الله عليه وعلى آله وصاحبه أبي بكر السابق بصدقه، وعلى عمر كاسر كِسرى بتدبيره وحذقه، وعلى عثمان جامع القرآن بعد تبديده في رقه، وعلى عليّ واعذرونا في عشقه، وعلى عبيد العباس مشاركته في أصله وعرقه.

قال الله عز وجل: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ﴾ (٢). الهاء في ﴿أَنْزَلْنَاهُ﴾ كناية عن القرآن، وذلك أنه أنزل جملة في تلك الليلة إلى بيت العزة، وهو بيت في السماء الدنيا.

(٢) القدر ١.

(١) القدر ٣

وفي تسميتها بليلة القدر خمسة أقوال :

أحدها: أنها ليلة العظيمة، يقال: لفلان قَدْر. قاله الزُّهْرِيُّ. ويشهد له: ﴿وما قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ﴾ (١).

والثاني: أنه الضيق. أي هي ليلة تضيق فيها الأرض عن الملائكة الذين ينزلون. قاله الخليل بن أحمد ويشهد له: ﴿ومن قَدَّرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ﴾ (٢).

والثالث: أن القدر الحُكْمُ كأن الأشياء تقدر فيها. قاله ابن قتيبة.

والرابع: لأن من لم يكن له قَدْرٌ صار بمراعاتها ذا قَدْرٍ. قاله أبو بكر الورَّاق.

والخامس: لأنه نزل فيها كتاب ذو قَدْرٍ، وينزل فيها رحمة ذات قَدْرٍ، وملائكة ذوو قَدْرٍ. حكاها شيخنا علي بن عبيد الله.

قوله تعالى: ﴿وما أدراك ما ليلةُ القدر﴾ (٣) هذا على سبيل التعظيم لها والتشويق إلى خبرها.

في قوله تعالى: ﴿ليلةُ القدرِ خَيْرٌ من ألفِ شهر﴾ قولان:

أحدهما: أنها من زمان بني إسرائيل، ثم في ذلك قولان: **أحدهما:** ما رواه عطاء، عن ابن عباس أن رسول الله ﷺ ذكر له رجل من بني إسرائيل حمل السلاح على عاتقه ألف شهر، فعجب رسول الله ﷺ لذلك وتمنى أن يكون ذلك في أمته، فأعطاه الله تعالى ليلة القدر، وقال: هي خير من ألف شهر التي حمل فيها الإسرائيلي السلاح في سبيل الله،

والثاني: أن الرجل كان فيما مضى لا يستحق أن يقال له عابد حتى يعبد الله ألف شهر، فجعل الله ليلة القدر خيراً من ألف شهر التي كانوا يعبدون فيها.

(٣) القدر ٢.

(١) سورة الزمر ٦٧.

(٢) سورة الطلاق ٧.

والقول الثاني: أن الألف شهر من هذا الزمان. قال مجاهد: قيامها والعمل فيها خير من قيام ألف شهر من هذا الزمان وصيامها ليس فيها ليلة القدر. وهذا قول قتادة واختيار الفراء وابن قتيبة والزجاج.

قوله تعالى: ﴿تَنْزَلُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ﴾^(١) قال أبو هريرة: الملائكة ليلة القدر في الأرض أكثر من عدد الحصى.

وفي الروح ثلاثة أقوال: أحدها: أنه جبريل. قاله الأكثرون. وفي حديث أنس عن النبي ﷺ أنه قال: إذا كانت ليلة القدر نزل جبريل في كُتُبِكَة من الملائكة يصلون ويسلمون على كل عبد قائم، أو قاعد يذكر الله عز وجل.

والثاني: أن الروح طائفة من الملائكة لا تراهم الملائكة، إلا تلك الليلة، ينزلون من لَدُنْ غروب الشمس إلى طلوع الفجر. قاله كعب ومقاتل بن حيان.

والثالث أنه ملك عظيم من الملائكة. قاله الواقدي.

قوله تعالى: ﴿فِيهَا﴾ أي في ليلة القدر. قوله عز وجل: ﴿يَاذُنْ رَبِّهِمْ﴾ أي بأمر ربهم والمعنى: ما أمر به وقضاه. ﴿من كل أمر﴾ قال ابن قتيبة: أي بكل أمر. قال المفسرون: ينزلون بكل أمر قضاه الله تعالى في تلك السنة إلى قابل.

قوله تعالى: ﴿سَلَامٌ هِيَ﴾ أي ليلة القدر سَلَامٌ. وفي معنى السلام قولان: أحدهما: أنه لا يحدث فيها داء، ولا يُرْسَل فيها شيطان. قاله مجاهد.

والثاني: أن معنى السلام الخير والبركة. قاله قتادة.

واعلم أن ليلة القدر باقية إلى يوم القيامة. قال أبو ذر رضي الله عنه: سألت رسول الله ﷺ فقلت: يا رسول الله أخبرني عن ليلة القدر في رمضان هي، أو في غيره؟ قال: بل هي في رمضان. قلت: تكون مع الأنبياء ما كانوا، فإذا قُبِضُوا رفعت، أم هي إلى يوم القيامة؟ قال: بل هي إلى يوم القيامة. قلت: في

(١) القدر ٤.

أي رمضان هي؟ قال: التمسوها في العشر الأول، والعشر الآخر. قلت: في أيّ العشرين هي؟ قال: ابتغوها في العشر الأواخر، لا تسألني عن شيء بعد. ثم حدثت وحدثت فقلت: يا رسول الله أقسمت عليك بحقّي عليك لما أخبرتني في أيّ العشر هي؟ فغضب عليّ غضباً لم يغضب علي مثله قال: « التمسوها في السبع الأواخر، لا تسألني عن شيء بعدها ».

وقد ذهب قوم إلى أنها ليلة سبع عشرة من رمضان.

أنبأنا عبد الوهاب بن المبارك بسنده عن زيد بن أرقم أنه سُئِلَ عن ليلة القدر فقال: هي ليلة سبع عشرة لا شك فيها. ثم قال: ليلة الفرقان يوم التقى الجمعان.

واعلم أن الجمهور على أنها في العشر الأواخر، وأنها تختص بالأفراد، واختلفوا في الأخص بها، فذهب الشافعي رحمه الله إلى ليلة إحدى وعشرين، ويدل عليه حديث أبي سعيد، وهو في الصحيحين قال: أري رسول الله ﷺ ليلة القدر، ثم أنسيها قال: أراني أسجد في ماء وطين. فوالذي أكرمه لرأيته يصلي بنا صلاة المغرب ليلة إحدى وعشرين، وإن جبهته وأرنبة أنفه لفي الماء والطين.

والثاني: ليلة ثلاث وعشرين. وروى مسلم في أفراده من حديث عبد الله بن أنس، عن النبي ﷺ أنه قال: « أراني صبيحتها أسجد في ماء وطين » فمطرنا ليلة ثلاث وعشرين، فصلى بنا رسول الله ﷺ، وإن أثر الماء والطين على جبهته وأنفه.

وأخبرنا ابن الحصين بسنده عن عكرمة قال: قال ابن عباس: أتيت وأنا نائم فقيل لي: إن الليلة ليلة القدر. فقمتم، وأنا ناعس فتعلقت ببعض أطناب فسُطِط رسول الله ﷺ، فأتيت رسول الله ﷺ، فإذا هو يصلي فنظرت في تلك الليلة، فإذا هي ليلة ثلاث وعشرين.

أخبرنا محمد بن ناصر بسنده عن ابن عباس رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ كان ينضح الماء في وجوه نسائه ليلة ثلاث وعشرين من رمضان.

تفرد بإخراجه أبو بجر .

والثالث: ليلة خمس وعشرين، وروى هذا المعنى أبو بكر، عن رسول الله

ﷺ .

والرابع: ليلة سبع وعشرين أخبرنا ابن الحصين بسنده عن ابن عمر رضي

الله عنها قال: قال رسول الله ﷺ: « من كان متحرراً فليتحربها ليلة سبع وعشرين . أو قال: تحربوها ليلة سبع وعشرين .

انفرد بإخراجه مسلم .

أخبرنا ابن ناصر بسنده عن زرّ بن حبّيش قال: أخبرنا أبي بن كعب عن ليلة القدر، فحلف لا يستثني أنها ليلة سبع وعشرين . فقلت: بم تقول ذلك يا أبا المنذر؟ فقال: بالآية، أو بالعلامة التي قال رسول الله ﷺ: أنها تصبح من ذلك اليوم تطلع الشمس وليس لها شعاع . أخبرنا ابن الحصين بسنده عن عاصم عن زرّ قال: قلت لأبي بن كعب: أبا المنذر أخبرني عن ليلة القدر . قال: صاحبنا يعني ابن مسعود رضي الله عنه كان إذا سُئِلَ عنها قال: من يقيم الحول يصبها . فقال: يرحم الله أبا عبد الرحمن، أما والله لقد علم أنها في رمضان، ولكن أحب أن لا تتكلموا وأنها ليلة سبع وعشرين لم يستثن قلت: أبا المنذر أتى أعلم ذلك؟ قال: بالآية التي قال لنا رسول الله ﷺ: صبيحة ليلة القدر تطلع الشمس، لا شعاع لها كأنها طست حتى ترتفع .

لفظ المقدمي . قال ابن ناصر: عالٍ صحيح .

أخبرنا علي بن عبيد الله بسنده عن عكرمة عن ابن عباس أن رجلاً أتى نبي الله ﷺ فقال: يا رسول الله إني شيخ كبير يشقّ علي القيام فمُرني بليلة لعل الله عز وجل أن يوفقني فيها لليلة القدر: فقال: عليك بالسابعة .

أخبرنا أبو منصور القزاز بسنده عن معاوية بن أبي سفيان رضي الله عنها أن النبي ﷺ قال: « ليلة القدر ليلة سبع وعشرين » .

وهذا مذهب عليّ عليه السلام، وابن عباس رضي الله عنهما. وقد روي عن ابن عباس أنه استدل على ذلك بشيئين:

أحدهما: أن السبعة تتكرر في المخلوقات، فالأرض سبع.

والثاني: أن قوله «هي» هي الكلمة السابعة والعشرون. وقال عبدة بن أبي لبابة: ذُقْتُ ماء البحر ليلة سبع وعشرين فوجدته عَذْبًا.

واستدل بعضهم بأن ليلة القدر تكررت في هذه السورة ثلاث مرات وهي تسعة أحرف، والتسعة إذا كرّرت ثلاثاً كانت سبعة وعشرين.

والخامس: مشكوك فيه. أخبرنا ابن الحصين بسنده عن أنس، عن عبادة بن الصامت رضي الله عنه قال: خرج علينا رسول الله ﷺ وهو يريد أن يخبرنا بليلة القدر فتلاحيّ رجلان، فقال رسول الله ﷺ: «خرجت لأخبركم بليلة القدر فتلاحيّ رجلان فرُفِعَت، وعسى أن يكون خيراً لكم، فالتمسوها في التاسعة، أو السابعة، أو الخامسة».

انفرد بإخراجه البخاري.

قال أحمد: وحدثنا حيوة، عن ابن شريح، عن بقيقة، عن بجير بن معدان، عن عبادة بن الصامت، أن رسول الله ﷺ قال: ليلة القدر في العشر البواقي من قامهن ابتغاء حسبتهن، فإن الله يغفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر، وهي ليلة وتر تسع أو سبع، أو خامسة، أو ثالثة، أو آخر ليلة.

وقال رسول الله ﷺ: «إن أماراة ليلة القدر أنها صافية كأن فيها قمراً ساطعاً ساكنة صاحية لا برّد فيها، ولا حرّ، ولا يجلّ لكوكب أن يرمتي به حتى يُصْبِح، وإن أمارتها أن صبيحتها تخرج مُستوية ليس لها شعاع مثل القمر ليلة البدر، لا يجلّ للشيطان أن يخرج معها يومئذ».

قال أحمد: وأخبرنا سليمان بن داود، عن عمران القَطَّان عن قتادة عن أبي ميمونة عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال في ليلة القدر إنها

ليلة سابعة، أو تاسعة وعشرين، إن الملائكة تلك الليلة أكثر من عدد الحصى.

أخبرنا محمد بن عبد الله القاضي، ويحيى بن علي المديري بسندهما عن حميد عن الحسن أن رسول الله ﷺ قال: «اطلبوا ليلة القدر في العشر الأواخر التاسعة والسابعة والخامسة وآخر ليلة، وهي ليلة بلجة لا حارة ولا باردة، ولا يُرمى فيها بنجم ولا ينبج فيها كلب».

أخبرنا الكروخي بسنده عن ابن عيينة بن عبد الرحمن قال: حدثني أبي قال: ذكرت ليلة القدر عند أبي بكره فقال: ما أنا بملتسمها لشيء سمعته من رسول الله ﷺ، إلا في العشر الأواخر، فإني سمعته يقول: «التمسوها في تسع بقين أو سبع بقين، أو خمس بقين، أو ثلاث بقين أو آخر ليلة».

قال الترمذي: وأخبرنا عبد بن حميد، عن عبد الرزاق عن معمر، عن أيوب، عن أبي قلابة أنه قال: ليلة القدر تنتقل في العشر الأواخر.

وقد روي عن مجاهد قال: ليلة القدر ليلة أربع وعشرين أخذه من حديث واثلة بن الأسقع، عن النبي ﷺ قال: أنزلت التوراة لست مضين من رمضان، وأنزل الإنجيل لثلاث عشرة خلت من رمضان، وأنزل الزبور لثمان عشرة خلت من رمضان، وأنزل الفرقان لأربع وعشرين خلت من رمضان.

وقال سعيد بن جبير: كنا مع ابن عباس في المسجد الحرام، فحفق رأسه خفقة فقال: أي ليلة هذه؟ قلنا ليلة أربع وعشرين. قال: الليلة ليلة القدر، لأن الملائكة نزلوا من السماء، وعليهم ثياب بيض.

قلت: والحكمة في إخفائها أن يتحقق اجتهاد الطالب، كما أخفيت ساعة الليل وساعة الجمعة. وقد كان النبي ﷺ يجتهد في العشر ما لا يجتهد في غيره كان يسهر ليلة ويحمل كفه فيشد مئزره ويقوم الليل كله.

وقد أخبرنا أبو عبد الله السلال بسنده عن أبي هريرة، عن النبي ﷺ أنه قال: «من قام ليلة القدر إيماناً واحتساباً غُفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر».

أخبرنا محمد بن عبد الباقي البزار بسنده عن عائشة رضي الله عنها قالت :
كان رسول الله ﷺ في العَشرِ الأواخرِ من رمضان يُحْيِي الليلَ كُلَّهُ ، ويوقظ
أهله ويشد المِئزرَ .

أخرجاه في الصحيحين .

وفي أفراد مسلم من حديث عائشة رضي الله عنها قالت : كان رسول الله ﷺ
يُجْتَهِدُ في العَشرِ ما لا يُجْتَهِدُ في غيره .

وفي الصحيحين من حديثها قالت : كان رسول الله ﷺ يعتكف العَشرَ
الأواخرِ من رمضان حتى توفاه الله عز وجل . وأخرجاه من حديث ابن عمر
أيضاً قال : اعتكف رسول الله ﷺ العَشرَ الأولِ من رمضان ، فأتاه جبريل عليه
السلام فقال : إن الذي تطلب أمامك .

وفي الصحيحين من حديث أبي هريرة عن النبي ﷺ أنه قال : « من قام ليلة
القدر إيماناً واحتساباً غُفِرَ له ما تقدّم من ذنبه » .

وكذلك في حديث عبادة بن الصامت عن رسول الله ﷺ : « غُفِرَ له ما
تقدم من ذنبه وما تأخر » .

قالت عائشة رضي الله عنها : يا رسول الله إذا وافقت ليلةَ القَدْرِ فما أدعو ؟
فقال : « قولي : اللهم إنك عَفُوٌّ تَحِبُّ العَفْوَ فاعف عني » .

وقد كان السلف يتأهبون لها . فكان لَتَمِيمِ الدارِي حَلَّةٌ بألف درهم يلبسها في
الليلة التي يُرْجَى أنها ليلة القدر . وكان ثابت وحميد يغتسلان ويتطيبان ويلبسان
أحسن ثيابهما ، ويتطيبان مساجدهما في الليلة التي تُرْجَى فيها ليلة القدر .

إخواني : والله ما يَعلُو في طلبها عَشرٌ ، لا والله ولا شَهْرٌ ، لا والله ولا دَهْرٌ .
فاجتهدوا في الطلب ، فرب مجتهد أصاب .

أخبرنا محمد بن ناصر بسنده عن قتادة ، عن أنس رضي الله عنها قال : لما

دخل رمضان قال رسول الله ﷺ « إن هذا الشهر قد دخل عليكم فيه ليلة خير من ألف شهر، من حُرّمها فقد حرم الخير كله، ولا يحرم خيرها إلا كل محروم ».

الكلام على البسملة

أَكْذَحَ لِنَفْسِكَ قَبْلَ الْمَوْتِ فِي مَهْلٍ
 إِنْ الْمَتِيَّةُ مَوْرُودٌ مِنْ أَهْلِهَا
 وَفِي اللَّيَالِي وَفِي الْأَيَّامِ تَجْرِبَةٌ
 بَعْدَ الشَّبَابِ يَصِيرُ الصُّلْبُ مُنْحَنِيًّا
 يُفْنِي النُّفُوسَ وَلَا يُبْقِي عَلَى أَحَدٍ
 لِمَسْتَقْبَرٍ وَمِيقَاتٍ مَقْدَرَةٌ
 وَمَنْ تَعَاقَرَهُ الْأَيَّامُ تُبَدِّلُهُ
 خَلَّوْا بِرُوجًا وَأَوْطَانًا مَشِيدَةً
 فَيَا لِهَ سَفَرًا بُعْدًا وَمَعْتَرِبًا
 بِمَوْحَشٍ ضَيِّقٍ نَاءٍ مَحَلَّتَهُ
 كَمْ مِنْ مَهِيْبٍ عَظِيمِ الْمَلِكِ مُتَّخِذٍ
 أَضْحَى ذَلِيلًا صَغِيرِ الشَّأْنِ مَنْفَرِدًا
 وَقَبْلَكَ النَّاسُ قَدْ عَاشُوا وَقَدْ هَلَكُوا
 يَا أَيُّهَا الرَّجُلُ النَّاسِي لِمَصْرَعِهِ
 أَكْذَحَ لِنَفْسِكَ مِنْ دَارٍ تُزَايِلُهَا
 وَلَا تَكُنْ جَاهِلًا فِي الْحَقِّ مُرْتَابًا
 لَا بَدَّ مِنْهَا وَلَوْ عُمِّرْتَ أَحْقَابًا
 يَزْدَادُ فِيهَا أَوْلُو الْأَبَابِ أَلْبَابًا
 وَالشَّعْرُ بَعْدَ سَوَادٍ كَانَ قَدْ شَابَا
 لَيْلٌ سَرِيْعٌ وَشَمْسٌ كَرَّهَا دَابَا
 حَتَّى يَعُودَ شُهُودُ النَّاسِ غِيَابًا
 بِالْجَارِ جَارًا وَبِالْأَصْحَابِ أَصْحَابَا
 وَمُؤْنِسِينَ وَأَصْهَارًا وَأَنْسَابَا
 كُسَيْتَ مِنْهُ لَطَوْلُ النَّأْيِ أَثْوَابَا
 وَلَيْسَ مِنْ حَلَّةٍ مِنْ غِيْبَةٍ آبَا
 دُونَ السُّرَادِقِ حُرَّاسًا وَحُجَّابَا
 وَمَا يَرَى عِنْدَهُ فِي الْقَبْرِ بَوَّابَا
 فَأَضْرَبَ الْحَيُّ عَنِ ذِي النَّأْيِ إِضْرَابَا
 أَصْبَحْتَ مِمَّا سَتَلْقَى النَّفْسُ هَرَّابَا
 وَلَا تَكُنْ لِلَّذِي يُؤْذِيكَ طَلَّابَا

يا من أمله إلى أجله يقوده، أنت على يقين من نيل ما تريده، كم من غصن غَضٍ كسر عوده، كم ملك عاتٍ تفرقت جنوده، لقد طرق الموتُ الغَيْلَ فهلكت أسوده، كم هدَّ الموتُ من جبل، كم رحَّل إلى القبور ونقل، فرغ المنازل وأخلى

الحلّل وأعرى في العراء أصحاب الحلّل، ونقض بمعول التلف ركن الأمل، ومحا
من كتاب اللهو سطور الجدّل، وصاح بصوته الهائل: جاء الأجل، لقد غرك من
الأماني لموعها وإنّ أشقى النفوس طمّوعها، إنها الدنيا قد صرّت ضرّوعها، وم
جرّ جريرة ما جنّ جرّوعها، طوبى لنفس طال عنها جوعها، وُصِفَتْ لها الجنة
فاشْتد نُزوعها، تفكرت في تقصيرها فسالت دموعها، ما عندك خبّر مما تحوي
ضلوعها:

أرأيت من داء الصبابة عائدًا ووجدت في شكوى الغرام مُساعدًا
هيهات ما تَرِد المطالب نائماً عنها ولا تصيل الكواكب قاعدًا
إن جواهر الأشياء يظهرها سبّكها، وإن قلوب الموقنين قد زال شكّها. ياذا
الكسل هذا زمان النشاط، ياذا الأنفة إن للتوبيخ ألم السيّاط.

إخواني: راعوا حقّ هذه الأيام مها أمكنكم، واشكروا الذي وهب لكم
السلام ومكّنكم، فكم مؤمّل لم يبلغ ما أمّل، وإن شككت فتلمح جيرانك
وتأمّل، كم من أناس صلوا معكم في أول الشهر التراويح، وأوقدوا في المساجد
طلباً للأجر المصابيح، اقتنصهم قبلّ تمامه الصائد فقهروا، وأسرتهم المصايد
فأسروا، وغمّسهم التلف في بجره فمقلّوا، ولم ينفعهم المال والآمال لما نُقلّوا،
أدارت عليهم المنون رحاها، وحكّ وجوههم الثرى فمحاها، فأعدمتهم صوماً
وفطراً، وزودتهم من الحنوط عطراً، وأصبح كل منهم في اللحد سَطراً، هذا
حالك يا من لا يعقل أمراً، كم تحرّض وما ينفع التحريض، ونعرض لك باللوم
وما يُجدي التعريض، يا من لا ينتبه بالتصريح ولا بالتعريض، يا متعوّصاً ما
يفنى عما يبقى بسّس التعويض، يا مسوداً صحائفه متى يكون التبييض، قد
أمهلناك في الزمان الطويل العريض، كم يقال لك، ولا تقبل، والحرّ تكفيه
الملامة، أمارّة الخير ما تخفى، طرّف الفتى يُخبر عن ضميره، تالله إن رانضك
لمتّقّف يَضَع الهناء مواضع النّقب، لو ارعويت لاستويت، لو صحّ منك الهوى
أرشدت للحيل، زاخيم التائبين وادخل في حزب البكّائين.

وكلّ غريب للغريب نسيب

قال يحيى بن معاذ: يا بن آدم طلبت الدنيا طلب من لا بد له منها، وطلب الآخرة طلب من لا حاجة له إليها، والدنيا قد كُفيتُها، وإن لم تطلبها، والآخرة بالطلب منك تنالها، فاعقل شأنك يا بن آدم. حُقَّت الجنة بالمكاره، وأنت تكرهها، وحُقَّت النار بالشهوات، وأنت تطلبها، فما أنت إلا كالمريض الشديد الداء، إن صبرتْ نفسه على مضض الدواء اكتسبت بالصبر عافية الشفاء، وإن جزعت نفسه مما يلقي طالت به علته:

وفي الشيب ما ينهي الحكيم عن الصبَا إذا استوقدت نيرانه في عذاره
 وأي امرئ يرجو من العيش غبطةً إذا اصفرَّ منه العودُ بعد اخضراره
 والله في عَرْض السمواتِ جنةً ولكنها محفوفةٌ بالمكاره
 أمتُ نفسك حتى تحيها، فعاقبة الصبر حلوة.

كم صبرَ بشر عن مُشتهى حتى سمع: كُلُّ يا من لم يأكل.

ما مدَّ سِجَاف: ﴿نِعَمَ الْعَبْدُ﴾ على قَبَّة ﴿ووهبنا له أهله﴾ حتى جُرَّب في أمانة ﴿إنا وجدناه صابراً﴾.

إن الألم ليحمد إذا كان طريقاً إلى الصحة، وإن الصحة لتؤدِّم إذا كانت سبيلاً إلى المرض، أي فائدة في لذة ساعة أوقعت غمًا طويلاً، ما فهم مواعظ الزمان من أحسن الظنِّ بالايام، إياك أن تسمع كلام الأمل، فإنه غرور محض:

أما ترى الدهر لا يتقى على حال
 متى بان الفتى قالوا دنا أجل
 بَدَلْ يؤول إلى منع وعافية
 وما سُررتْ بأيام الكمال فما
 تلقى المخاوف في الدنيا ونأمنها
 وتستدِّم إلينا كلَّ شارقة
 لذآذة لم تُنل إلا بمؤلة
 طوراً بأمنٍ وطوراً جا بأوجال
 يا هل أرى في الليالي غير آجال
 تجرّ داءً ونكسٌ بعد إبلال
 تناقص الشيء إلا عند إقبال
 ونطلب العِزَّ في الدنيا بإذلال
 وما لها مُبغض فينا ولا قالي
 وصحة لم تدم إلا بإعلال

إذا استوطنت السلامة فتذكر العَطَب، وإذا طاب لك الأمن فتفكر في
المخاوف، وإذا لذت لك العافية فلا تنسِ قُرْب السقم، وإن كنت محباً لنفسك
فلا تسيئ إليه بالزلل، إن طالب الدنيا لا ينال منها حظاً إلاّ بقوت نصيب من
الآخرة.

هل العُمُر إلا ثلاثة أيام: يومٌ انقضى بما فيه، ذهبت لذته وبقيت تبعته،
ويومٌ مُنتظرٌ ليس منه إلا الأمل، ويومٌ أنت فيه قد صاح بك مؤذناً بالرحيل
فاصبر فيه عن الهوى، فإن الصبر إذا وصل إلى المحبوب سهل.

الكلام على قوله تعالى

﴿سَلَامٌ هِيَ حَتَّى مَطَلَعِ الْفَجْرِ﴾^(١)

إخواني: إن شهر رمضان قد قُرِبَ رحيله وأزِفَ تحويله، وهو ذاهب عنكم
بأفعالكم وقادِمٌ عليكم غداً بأعمالكم، فياليت شعري ماذا أودعتموه وبأي
الأعمال ودَّعتموه؟ أتراه يرحل حامداً صنيعكم، أو ذامناً تَضْييعكم؟ ما كان
أعظم بركات ساعاته، وما كان أحلى جميع طاعاته، كانت ليالي عتقٍ ومباهاة،
وأوقاته أوقات خدم ومناجاة، ونهاره زمان قُرْبَة ومصافاة، وساعاته أحيان
اجتهاد ومعاناة، فبادروا البقية بالتقية قبل فوات البرِّ، ونزول البرِّية، وتخلَّى
عنك جميع البرِّية.

أين المخلص المتعبد، أين الراهب المتزهد، أين المنقطع المتفرّد، أين العامل
المجوّد، هيهات بقي عبْد الدنيا، ومات السيد، وهلك من خطؤه خطأ وعاش
المتعمّد، وصار مكان الخاشعين كلّ منافق متمرّد، رحل عنك شهرُ الصيام،
وودَّعك زمان القيام، ولحَّ النصيح وقد لام، أفتشرق شمس الإيقاظ وتنام،
فاستدرك ما قد بقي من الأيام، قد رأيتك توائمت في الأولى والثانية والثالثة، فما
بعد أن دنا الصباح.

(١) القدر ٥.

أخبرنا ابن الحصين بسنده عن سعيد بن جبير عن ابن عمر رضي الله عنهما ، قال: قال رسول الله ﷺ : « إذا كان آخر يوم من شهر رمضان أعتق فيه مثل جميع ما أعتق » .

أنبأنا زاهر بن طاهر بسنده عن الحسن قال: قال رسول الله ﷺ : « إن لله في كل ليلة من شهر رمضان ستمائة ألف عتيق من النار ، فإذا كان آخر ليلة أعتق بعدد من مضى » .

وقد روينا في حديث ابن عباس رضي الله عنهما عن النبي ﷺ قال: « إذا كانت آخر ليلة من رمضان أعتق الله عز وجل في ذلك اليوم بعدد ما أعتق من أول الشهر إلى آخره » .

وقد كان عبد الرحمن بن الأسود يُحيي ليلة الفطر ويقول: هي ليلة غفلة .
وقد روينا عن النبي ﷺ أنه قال: « من أحيا ليلتي العيد ، وليلة النصف من شعبان لم يميت قلبه يوم تموت القلوب » .

وكان جعفر الصادق يدعو في آخر رمضان فيقول: اللهم رب رمضان ، منزل القرآن هذا شهر رمضان الذي أنزل فيه القرآن وقد تصَّرم ، أي رب فأعوذ بوجهك الكريم أن يطلع الفجر من ليلتي هذه ، أو يخرج رمضان ولك عندي ذنب تريد أن تعذبني يوم ألقاك .

ومن المتعلق بالصيام إخراج زكاة الفطر ، حدثنا أبو القاسم بن الحصين بسنده عن جرير بن عبد الله قال: قال رسول الله ﷺ : « إن شهر رمضان معلق بين السماء والأرض لا يرفع إلا بزكاة الفطر » .

وينبغي أن يكون الاجتهاد في أواخر الشهر أكثر من أوله لشيئين :
أحدهما: لشرف هذا العشر ، وطلب ليلة القدر . فقد روينا فيما تقدم :
« اطلبوها في خمس بقين ، أو ثلاث ، أو آخر ليلة » .

والثاني: لوداع شهر لا يُدرى هل يلقى مثله، أم لا .

إخواني: ليلة القدر ليلة يُفتح فيها الباب، ويقرب فيها الأحاب، ويُسمع الخطاب، ويردّ الجواب، ويُسنّى للعاملين عظيم الأجر ﴿سلامٌ هي حتى مطلع الفجر﴾ .

يسعد به المواصيل، ويتوفر فيها الحاصل، ويُقبل فيها المجامل، فيا ربح العامل في البحر ﴿سلامٌ هي حتى مطلع الفجر﴾ .

ليلة تتقى فيها الوفود، ويحصل لهم المقصود بالقبول والفوز والسعود، أترى ما يؤلمك أيها المطرود هذا الهجر ﴿سلامٌ هي حتى مطلع الفجر﴾ أخلصوا وما أخلصت قصدك، وبلغوا المراد وما بلغت أشدك، وكلما جئت بلا نية ردك، أو ليس ما يؤثر عندك شديد هذا الزجر ﴿سلامٌ هي حتى مطلع الفجر﴾ .

أيقظ نفسك لما بين يديها، وانتظر ما سيأتي عن قليل إليها، وأسمعها المواعظ فقد حضرت لديها، واقبل نصحي وخذ عليها ضرب الحجر ﴿سلامٌ هي حتى مطلع الفجر﴾ . هذه أوقات يربح فيها من فهم ودرى، ويصل إلى مراده كل من جدّ وسرى، ويُنكّ فيها العابي وتُطلق الأسرى، تقدّم القوم وأنت راجع إلى ورا، أو ليس كل هذا قد جرى وكأنه لم يجر ﴿سلامٌ هي حتى مطلع الفجر﴾ .

وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم .

المجلس التاسع في ذكر عيد الفطر

الحمد لله موَفِّر الثواب للأحباب ومكْمِّل الأجر، وباعث ظلام الليل
يَنسُخه نور الفجر، المحيط علماً بجائنة، الأعين وخافية الصَدْر، ومعلِّم الإنسان ما
لم يعلم به ولم يَدْر، المتعالي عن دَرَك خواطر النفس وهو اجس الفِكْر، الموالي
رزقه فلم يَنس النمل في الرمل، والفرخ في الوكْر، جلَّ أن تناله أيدي الحوادث
على مرور الدهر، وتقدَّس أن يخفى عليه باطن السرِّ وظاهر الجهر، مِنَّه تيجان
الرؤوس، وقلائد النحر ﴿هو الذي يسيرٌم في البرِّ والبحر﴾ (١) أحصى عدَّة
الرمل في الفيافي، والنمل في القفر، وشاء فأجرى كما شاء تقدير الإيمان
والكفر، أغنى وأفقر فيآرادته وقوع الغناء والفقر، وأصمَّ وأسمع فبمشيئته أدرك
السمع ومنع الوقْر، أبصَّر فلم يَخْف عليه دَيِّب الذرِّ في البر، وسمع فلم يَعْزب عن
سمعه دعاء المضطر في السرِّ، وقَدَّر فلم يَحْتج إلى معين يمده بالنصر، وأجرى
الأقذار كما شاء في ساعات العصر، فهو الذي هدانا إليه بواضح الدليل وسليم
السر، وخصنا من بين الأمم بشهر الصيام والصبر، وغسل به ذنوب الصائمين
كغسل الثوب بماء القطر، فله الحمد إذ رزقنا إتمامه، وأرانا عيد الفطر.

أحمده حمداً لا منتهى لعدده، وأشهد بتوحيده شهادة مُخلص في معتقده،
وأشهد أن محمداً عبده ورسوله الذي نبع الماء من بين أصابع يده، صلى الله عليه
وعلى صاحبه أبي بكر الصديق رفيقه في شدائده، وعلى عمر كهف الإسلام
وعضده، وعلى عثمان جامع القرآن فسقياً لمتبذده، وعلى عليٍّ كافي الحروب

(١) يونس ٢٢.

وشجعانها بمفرده، والمضطجع ليلة خروجه على مَرَقده، وعلى عمه العباس مقدّم بيت هاشم وسيّده.

عباد الله: إن يومكم هذا العيد قد ميّز فيه الشقي والسعيد، فكم فرح بهذا اليوم مسرور وهو مطرود مهجور.

وقد روينا في حديث ابن عباس رضي الله عنهما عن النبي ﷺ أنه قال: إذا كانت غداة الفطر بعث الله تعالى ملائكة في كل بلد، فيهبطون إلى الأرض، فيقومون على أفواه السكك، فينادون بصوت يسمعه جميع من خلق الله إلا الجن والإنس فيقولون: يا أمة محمد اخرجوا إلى رب كريم يغفر الذنب العظيم. فإذا برزوا في مصلاهم يقول الله عز وجل: يا ملائكتي ما جزاء الأجير إذا عمل عمله؟ فيقولون: إلهنا وسيدنا جزاؤه أن توفيه أجره. فيقول الله تعالى: يا ملائكتي أشهدكم أنني قد جعلت ثوابهم في صيامهم شهر رمضان وقيامهم رضائي ومغفرتي. ويقول الله عز وجل: سلّوني فوعزتي وجلالي لا تسألوني اليوم شيئاً في جمّعكم هذا لآخرتكم إلا أعطيتكموه، ولا لدنيا إلا نظرت لكم. انصرفوا مغفوراً لكم قد أرضيتموني ورضيت عنكم».

وقد سبق هذا الحديث بإسناده فيما تقدم.

وأول وظيفة تختص بالعيد الغُسل، ثم البكور والخروج على أحسن هيئة، إلا أن يكون معتكفاً فيخرج في ثياب اعتكافه، ويُخرَج معه زكاة فطره، فإن كان قد أخرجها قبل ذلك بيوم، أو يومين جاز، وإن صلى العيد ولم يخرجها أخرجها بعد ذلك على وجه القضاء، فإذا مشى في الطريق غضّ بصره.

قال بعض أصحاب سفیان الثوري: خرجت معه يوم عيد فقال: إن أول ما بدأ به في يومنا هذا غضّ البصر. ورجع حسّان بن أبي سنان من عيده فقالت امرأته: كم من امرأة حسناء قد رأيت؟ فقال: ما نظرت إلا في إبهامي منذ خرجت إلى أن رجعت!

ويستحب أن يأكل قبل الصلاة، بخلاف الأضحى. وفي حديث أنس رضي الله عنه عن النبي ﷺ أنه كان يأكل سبع تمرات يوم الفطر قبل أن يخرج إلى المصلى.

أنبأنا زاهر بن طاهر بسنده عن سعيد بن المسيّب قال: كان المسلمون يأكلون يوم الفطر قبل الصلاة، ولا يفعلون ذلك يوم النحر. وإذا صلى العيد رجع في غير الطريق.

أخبرنا هبة الله بن محمد بسنده عن ابن عباس رضي الله عنهما أن النبي ﷺ كان يأخذ يوم العيد في طريق، ويرجع في غيره. وهذا يحتمل أشياء منها: أنا قد روينا أن الملائكة تقف على أفواه السكك يوم العيد، فيقولون للناس: اخرجوا إلى رب كرم يغفر الذنب العظيم. فيكون الاستحباب في تغيير الطريق أن يمر على ملاً منهم لم يمر عليهم ليحصل له البركة بدعائهم. ويحتمل أن يكون ليُلقَى قوماً من المسلمين ما لقيهم، فيدعو لهم ويدعون له. ويحتمل أن يكون للتفاؤل بتغيير الحال، كأنه خرج وعليه ذنب، ورجع مغفوراً له.

ولا يُسنّ التطوع قبل صلاة العيد، ولا بعدها في موضع صلاة العيد. وقد رويت صلاة لليلة وليوم العيد ليس فيها شيء يثبت، ولا يصح، فلهذا تنكّبنا ذكرها. وينبغي لمن وسّع عليه أن يوسع على الفقراء في هذا اليوم، ويتطوع بإطعام من قدر.

أخبرنا محمد بن ناصر بسنده عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: كان رسول الله ﷺ يأمرنا يوم الفطر أن نُفطرَ الفقراء من إخواننا، وكان يقول: «من فطر واحداً يُعتق من النار، ومن فطر اثنين كتب له براءة من الشرك وبراءة من النفاق، ومن فطر ثلاثة وجبت له الجنة وزوجه الله من الخور العين». قال: وكان يأمرنا أن نطعم الخبز واللحم والخبز، والزيت، والخبز واللبن. وكان يقول: «آدموا طعامكم، يُؤدّم لكم عيشكم». يقول: يلبّته.

ويستحب إتباع رمضان بست من شوال؛ أخبرنا هبة الله بن محمد بسنده عن

أبي أيوب الأنصاري رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: « من صام رمضان وأتبعه بستّ من شوال كان كمن صام الدهر ».

انفرد بإخراجه مسلم.

وقد ذكر العلماء أن السر في هذا أن أيام السنّة ثلاثمائة وستون يوماً، وهذه الستة مع رمضان ستة وثلاثون، والحسنة بعشر أمثالها فمن دام على هذا فكأنه كمن صام الدهر. وقد روي نحو هذا مرفوعاً.

أخبرنا علي بن عبيد الله بسنده عن ثوبان أن رسول الله ﷺ قال: « صيام رمضان بعشرة أشهر، وصيام ستة أيام شهرين، فذلك صيام سنة ».

أخبرنا حماد بن سلمة بسنده عن الأزرق بن قيس، عن رجل من بني تميم قال: كنا عند باب معاوية، ووضعت الموائد، فجعل أبو ذر يأكل، وجعلت أنظر إليه فقال: ما شأنك يا أحمق؟ أتريد أن تشغلني عن طعامي؟ فقلت: ألم تزعم على الباب أنك صائم. فقال أبو ذر: بلى. ثم قال: قرأت من جاء بالحسنة فله عشر أمثالها سمعت رسول الله ﷺ يقول: « صومُ شهر الصبر وثلاثة من كل شهر صوم الدهر » وقد صممت ثلاثة أيام من الشهر، فأنا صائم الشهر كله.

وبالإسناد، حدثنا حمّاد بن سلمة، عن ثابت بن أبي عثمان النهدي أن أبا هريرة رضي الله عنه كان في سفر فلما نزل ووضعت السّفرة بعثوا إليه، وهو يصلي فقال: إني صائم، فلما كادوا أن يفرغوا جاء فجعل يأكل، فنظر القوم إلى رسولهم فقال: ما تنظرون؟ قد والله أخبرني أنه صائم. فقال أبو هريرة: صدق، إني سمعت رسول الله ﷺ يقول: « صومُ شهر الصبر، وثلاثة أيام من كل شهر صوم الدهر ». وقد صممت ثلاثة أيام من أول الشهر، وأنا مُفطر في تخفيف الله، وصائم في تضعيف الله عز وجل ».

الكلام على البسملة

عيدي مقيم وعيد الناس مُصيرفٌ والقلبُ مني من اللذات مُنحرفُ

ولي قرينان مالي منها خلفٌ طولُ الحنين، وعين دَمْعُهَا يَكِفُ
يا من يفرح في العيد بتحسين لباسه، ويوقن بالموت وما استعد لبأسه، ويغترّ
بإخوانه وأقرانه وجَلَّاسِهِ، وكأنه قد أمِن سرعةً اختلاسه، كيف تقرّ بالعيد،
عينٌ مطرود عن الصلاح، كيف يضحك سِنَّ مَرْدُود عن الفلاح، كيف يُسرّ من
يُصرّ على الأفعال القَبِيحِ، كيف لا يبكي من قد فاته جزيلاً الأرباح، النَّوْحُ
أحقُّ بك من السرور يا مغرور، والحزن أجدر بك من جميع الأمور، والجِدُّ أولى
بك من التواني والفُتُور، كيف يُسرّ بعيده من تاب ثم عاد، كيف يفرح بالسلامة
من آثامه في ازدياد.

أخبرنا محمد بن أبي منصور بسنده عن أبي ثابت الخطّاب قال: سمعت إبراهيم
بن موسى يقول: رأيت فتحة الموصلي يوم عيد، وقد رأى على الناس الطيّاليس
والعمائم فقال لي: يا إبراهيم أما ترى ثوباً يتبلى، وجسداً يأكله الدود غداً؟ هؤلاء
قوم قد أنفقوا خزائنتهم على بطونهم وظهورهم ويقدمون على ربّهم مفاليس.

أخبرنا عمر بن ظُفر بسنده عن أبي بكر الشقاق قال: سمعت أحد بن عيسى
يقول: نظر بعض العلماء يوم الفطر إلى الناس وشغلهم بما هم فيه من الأكل
والشراب واللباس فقال: لئن كانوا هؤلاء قد أنبأهم الله عز وجل أنه قد تقبّل
منهم صيامهم وقيامهم، لقد كان ينبغي لهم أن يكونوا أصبحوا مشاغليلاً بأداء
الشكر، ولئن كان يخافون أنه لم يقبل منهم، فقد كان ينبغي لهم أن يكونوا
أشغل وأشغل.

أخبرنا عبد الرحمن بن محمد بسنده عن عبد الله الصوفي سمعت مظفر بن
سهل قال: قال أبو بكر المروزي: دخلت على أبي بكر بن مُسَلِّم صاحب قنطرة
بردان يوم عيد فوجدته وعليه قميص مرقوع مطبق، وقدامه قليلُ خرثوب
يقْرِضه فقلت: يا أبا بكر اليوم يوم عيد الفطر تأكل الخرنوب؟ فقال لي: لا
تنظر إلى هذا، ولكن انظر إن سألتني من أين لك هذا؟ أي شيء أقول!

أخبرنا أبو بكر الصوفي بسنده عن أبي الربيع النهدي قال: أخبرني إدريس بن

يجي قال: دخلت على أبي عباد الخوَّاص يوم عيد فاستأذنت عليه، فخرج إلي وهو يبكي ويَنُوح على نفسه قال: فدخلت معه فقال: إني ذكرت اليوم تنعم الناس، وما هم فيه من الذات، فأحببت أن أتنعم بما ترى.

وكان صالح بن عبد الجليل إذا انصرف يوم العيد جمع عياله، وجلس يبكي فيقول له إخوانه: هذا يوم سرور. فيقول: صدقتم، ولكنني عبدٌ أمرني سيدي أن أعمل له عملاً فعملته، فلا أدري أقبله مني أم لا؟ فالأولى بي طول الحزن!

أخبرنا محمد بن عبد الباقي عن هناد بن إبراهيم قال: سمعت محمد بن القاسم يقول: كان الشَّبلي يوم العيد ينوح ويصيح، ويصرخ وعليه ثياب سود وزرق، فاجتمع الناس إليه فسألوه عن نوحه وبكائه فقال:

تزيّن الناسُ يومَ العيد للعيد وقد لبثتُ ثيابَ الزُّرقِ والسُّودِ
وأصبح الناسُ مسروراً بعيدهمُ ورُحْتُ فيك إلى نوحٍ وتعيدِ
فالناسُ في فرحٍ والقلبُ في ترحٍ شتان بيني وبين الناسِ في العيدِ

وخرج الشَّبلي يوم العيد وهو يقول:

للناسِ فِطْرٌ وعيدٌ إني فريدٌ وحيْدٌ
يا غيائي ومُنْاي أتمَّ لي ما أريدُ

واجتمع الناس إليه فسألوه الدعاء، فمدَّ القوم أيديهم فجعل يدعو فكان من دعائه: اضربهم بسياط الخوف، أقبل بهم بأزمة الشوق، أعنهم بملاحظات الفُهوم، كن لهم كما كنت لمن لم تكن له بأن صرت كلاً له.

وقيل له يوم عيد: يا أبا بكر اليوم يوم عيد. فقال:

الناسُ بالعيد قد سرُّوا وقد فرحوا وما فرحتُ به والواحد الأحدِ
لما تيقنتُ أني لا أعينكم غمّضتُ عيني فلم أنظر إلى أحدِ

ورئي يوم عيد خارجاً وهو يقول:

إذا ما كنتَ لي عيداً فما أصنع بالعيدِ
جرى حبك في قلبي كجرى الماء في العودِ

والله ما عيد يعقوب إلا لقاء يوسف، ولا أيام تشريق الصديق إلا الغار. يا من عزم على المعاصي في شوال أالشهر احترمت، أم لرب الشهر، ويحك! رب الشهرين واحد. تقول أصلح رمضان، وأفسد غيره، وعزمك في رمضان على الزلل في شوال أفسدت رمضان، إذا طالبت نفسك في شوال بشرب الخمر فذكرها سيلان العين على الخد في اللحد، وعمل البلى في المفاصل، لعل الكف يكف.

هيئات ليس المحب من غيره البعد والهجر، ولا المخلص من حرّكه الثواب والأجر، لكنه من تساوى عنده الوصل والصدّة، وإلفه على كل حال الجِدّة والكدّة.

يا راكباً تطوي المهامة عيسه فتريه رَضْرَاصَ الحصى مُتْرَضْرَاصَا
بلغ رعاك الله سگان العضى مني التحية إن عرضت معرضاً
وقل انقضى زمن الوصال وودنا باقٍ على مرّ الليالي ما انقضى

الكلام على قوله تعالى

﴿ألا إن أولياء الله لا خوف عليهم ولا هم يحزنون﴾ (١)

أخبرنا عبد الأول بسنده عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله تعالى قال: من عادى لي ولياً فقد آذنته بالحرب، وما تقرب إلي عبدي بشيء أحب إلي مما افترضت عليه، وما يزال عبدي يتقرب إلي بالنوافل حتى أحبه، فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به، وبصره الذي يبصر به، ويده التي يبطش بها، ورجله التي يمشي بها، ولئن سألني لأعطينه، ولئن

(١) يونس ٦٢.

استعاذني لأعيدنه، وما تردّدت في شيء أنا فاعله، تردّدي عن نفس المؤمن يكره الموت، وأنا أكره مساءته» .

وفي حديث أنس رضي الله عنه عن النبي ﷺ، عن جبريل عليه السلام عن ربه عز وجل قال: « من أهان لي ولياً فقد بارزني بالمحاربة، وإني لأسرع شيء إلى نصرته أوليائي وإني لأغضب لهم أشدّ من غضب الليث الحرب »

أخبرنا محمد بن أبي طاهر عن حميد، عن أنس رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: « إن من عبّاد الله من لو أقسم على الله لأبره » .

أخبرنا محمد بن ناصر بسنده عن زيد بن أسلم، عن عطاء بن يسار قال: قال موسى عليه السلام: (يا ربّ من أهلك الذين هم أهلك الذين تظلمهم في ظل عرشك؟ قال: هم البريئة أيديهم الطاهرة قلوبهم الذين يتحابون بجلاي، الذين إذا ذُكرت ذكروا بي، وإذا ذُكروا ذكرت بذكرهم، الذين يُسبغون الوضوء في المكاره، ويُنيبون إلى ذكري، كما تنيب النُّسور إلى وكورها ويكلفون بجي، كما يكلف الصبيّ بحب الناس ويغضبون لمحارمي إذا استُحلت، كما يغضب النمر إذا حُرِب) .

أخبرنا ابن ناصر بسنده عن وهب بن منبه قال: قال الحواريون: يا عيسى من أولياء الله الذين لا خوف عليهم، ولا هم يحزنون؟ فقال عيسى عليه السلام: الذين نظروا إلى باطن الدنيا حين نظر الناس إلى ظاهرها، والذين نظروا إلى آجل الدنيا، حين نظر الناس إلى عاجلها فأماتوا منها ما خشوا أن يميتهم، وتركوا ما علموا أن سيتركهم، فصار استكثارهم منها استقلالاً وذكّرهم إياها فواتاً، وفرحهم بما أصابوه منها حُزناً، فما عارضهم من نائلها رفضوه، أو من رفعتها بغير الحق وضعوه، خلقت الدنيا عندهم فليسوا يجدّونها، وخربت بينهم فليسوا يعمرونها، وماتت في صدورهم، فليسوا يُحيونها، يهدمونها فينون بها آخرتهم ويبيعونها فيشترون بها ما يبقى لهم، رفضوها، فكانوا برفضها فرحين، وباعوها فكانوا يبيعها راجحين، نظروا إلى أهلها صرعى قد حلّت بهم المثلّات،

فأحيوا ذُكِر الموت، وأماتوا ذكر الحياة، يحبون الله، ويحبون ذِكره، ويستضيئون بنوره، لهم خبر عجيب، وعندهم الخبر العجيب، بهم قام الكتاب وبه قاموا، وبهم نطق الكتاب، وبه نطقوا، وبهم عم الكتاب، وبه علموا، ليسوا يرون نائلاً، ولا أماناً دون ما يَرجون، ولا خوفاً دون ما يَحذون.

وقد روى ذكر عدد الأولياء في أحاديث لا تصح.

أخبرنا أبو الحسن الأنصاري بسنده عن عطاء، عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «الأبدال أربعون رجلاً، وأربعون امرأة، كلما مات رجل أبدل الله مكانه رجلاً، وكلما ماتت امرأة أبدل الله مكانها امرأة».

أخبرنا محمد بن عبد الباقي بسنده عن الأعمش، عن سالم بن أبي الجعد، عن كعب رضي الله عنه قال: «لم يزل في الأرض بعد نوح عليه السلام أربعة عشر يُدفع بهم العذاب».

أخبرنا ابن ناصر بسنده عن سفيان بن عيينة قال: قال أبو الزناد: لما ذهبت النبوة وكانوا أوتاد الأرض أخلف الله مكانهم أربعين رجلاً من أمة محمد ﷺ يقال لهم الأبدال، لا يموت الرجل منهم حتى ينشئ الله مكانه آخر يخلفه، وهم أوتاد الأرض، لم يفضلوا الناس بكثرة الصيام، ولا بكثرة القيام، ولا بحسن التخشع، ولا بحسن الخلية، بل بصدق الورع وحسن النية، وسلامة القلوب والنصيحة لجميع المسلمين، وعلامة ذلك أنهم لا يعلنون شيئاً، ولا يؤذنون أحداً، ولا يتناولون على أحد تحتهم، ولا يحقرونه، ولا يحسدون أحداً فوقهم، ليسوا بمتخشعين ولا متهاوتين، ولا بمعجبين، ولا يحبون الدنيا، ليسوا اليوم في خشية وغداً في غفلة.

رمضان القوم دائم، شواهم كذلك صائم، وأعيادهم سرور القوم بالمحبوب، وأفراحهم بكمال التقى وترك الذنوب، إذا جنَّ عليهم الليل عادت القلوب بالمناجاة جُداً، وإذا جاء النهار سلكوا من الجدِّ جدداً، يجمعون همهم فيما

أهمَّهم إذا بات هم الغافل بدداً، جزموا على ما عزموا، وما انهزموا، أبداً
 أعيادهم بقرب القلوب إلى المحبوب دائمة، وأقدامهم في الدجى على باب اللجأ
 قائمة، وأرواحهم بالاشتياق إلى الملك الخلاق هائمة، قرَّبهم مولاهم وأدنى،
 فالنفوس عن الفاني الأذنى صائمة، تزَيَّنت لهم لذات الدنيا معاً، فما وجدت في
 قلوبهم لها موضعاً، لما وجدوا كسرةً وخلقاً أُنْعَمًا.

قالوا غدا العيدُ ماذا أنت لابسهُ فقلت خِلقَةُ ساقِ حَبِّهِ جُرْعَا
 فقرَّ وصَبَّرَهما ثوبانِ تحتها قلبٌ يرى إلفه الأعيادَ والجمْعَا
 أحرى الملايس أن يُلقَى الحبيبَ بها يومَ التزاورِ في الثوبِ الذي خلَعَا
 الدهر لي مآتم إن غيبت يا أملي والعيد ما كنت لي مدًّا ومُسْتَمِعَا

إخواني: ليس العيد ثوباً يميز الخيلاء جره، ولا تناول مطعم بكف شره لا
 يؤمن شره، إنما العيد لبس توبة عاصٍ تائب يسرّ بقدم قلب غائب.

أخبرنا أبو بكر الصوفي بسنده عن الحيري، عن ابن باكوية الشيرازي قال:
 أنشدني أبو الحسن الخنظلي قال: سمعت الشبلي ينشد يوم العيد:

ليس عيدُ المحب قصد المصلَّى وانتظار الخطيب والسلطانِ
 إنما العيد أن تكون لدى الـ حباً كريماً مقرباً في أمانِ

يا من وقى رمضان على أحسن حال، لا تتغير بعده في شوال، يا من رأى
 العيد ووصل إليه، متى تشكر المنعم. وتثني عليه، كم من صحيح هياً طيب عيده،
 صار ذاك الطيب في تلحيده، سلبتهم والله أيدي المنون، فأنزلتهم فقراً ليس
 بمسكون، فهم في القبور بعد البيان خرسون، ومن نيل آمالهم، أو بعضها
 آيسون، وهكذا أنتم عن قريب تكونون، وقد دلَّهم على صدق قولي ما تعملون،
 أما ترون الأتراب كيف يتقلبون، أترى ضلَّت الأفهام، أم عميت العيون،
 أفسحرو هذا، أم أنتم لا تبصرون.

إلى متى ترضون من العمل بالفساد، ومن السلع بالكاسد، وتنسون الختف

الرابض المستأسد، لقد أَسْمَتُمْ بكم كلَّ حاسد، يا مظهرون ضد ما به الكتاب وارد، إلى متى تُبْهَرَجُونَ والبصيرُ ناقد، كيف يكون حالكم وهو عليكم شاهد:

عجبتُ من مستيقظٍ والقلبُ منه راقِدُ
مضيِّعٍ لدينِه وللذنوبِ زائِدُ
كأنه على مَدَا ه مُهْمَلٌ وخالِدُ
فأحسنوا أعمالكم فهي لكم قلائدُ
ولا تُضيعوا واجباً واجتهدوا وجاهِدُوا

لله در أقوام تلمَّحوا العواقب فعملوا عمل مراقِب، وجاوزوا الفرائض إلى طلب المناقب، علَّتْ هِمَمَهُم عن الدنيا وارتفعت، وكفَّت الأُكْف عن الأذايا وامتنعت، ووسَّعت خَطَاها إلى الفضائل وسعت، من يجبَ العِزَّ يدأب إليه، وكذا من طَلَب الدرَّ غاصَ عليه، كانوا إذا ابتلاهم مولاهم يصبرون، وإذا أعطاهم مُنَاهم يشكرون، وإذا استراح البطَّالون يدأبون، فلو رأيتهم يوم يقول: ﴿هذا يومكم الذي كنتم توعدون﴾ (١) ﴿لا خوف عليهم ولا هم يحزنون﴾ (٢).

زال الخوف عنهم واندفع، فأفادهم حزنهم في الدنيا ونفع، وتمَّ السرور لهم واجتمع، وزال الحِجَاب بينهم وبينه وارتفع، فهم إلى وجه الكريم ينظرون ﴿لا خوف عليهم ولا هم يحزنون﴾.

قوله تعالى: ﴿الذين آمنوا وكانوا يتقون﴾ (٣).

قطعوا بوحدانيته، واجتمعوا على طاعته، وامتنعوا من مخالفته وارتبضوا في رياض معرفته، واضطبعوا بأردية خِدْمته، واطلعوا بالعلوم على هَيْبته، فيا بُشراهم يوم يحضرون ﴿الذين آمنوا وكانوا يتقون﴾.

امتلوا ما أمرهم به مولاهم، واجتنبوا ما عنه نهاهم، فإذا أخرجهم من الدنيا

(٣) يونس ٦٣

(١) الأنبياء ١٠٣.

(٢) يونس ٦٢.

وتوفاهم استقبلوا الرُّوحَ والريحانَ وتلقاهم، فإذا حضروا لديه أكرم مشواهم، وكشف الحجاب فأشهدهم وأراهم، وهذا غاية ما كانوا يأملون ﴿الذين آمنوا وكانوا يتقون﴾ .

كانوا يتقون الشُّركَ والمعاصي، ويجمعون على الأمر بالخير والتواصي، ويجذرون يوم الأخذ بالأقدام والتواصي، فاجتهد في لحاقهم أيها العاصي، قبل أن تَبْعْتَكَ المنون ﴿الذين آمنوا وكانوا يتقون﴾ .

قوله تعالى

﴿لهم البشرى في الحياة الدنيا وفي الآخرة﴾^(١)

روى جابر بن عبد الله رضي الله عنه، عن النبي ﷺ أنه قال: «هي الرؤيا الصالحة يراها العبد أو تُرى له» .

كانت قلوبهم في خدمته حاضرة، ونفوسهم في طاعته مثابرة، وألسنتهم على الدوام ذاكرة، وهممهم إلى ما يرضيه مُبادرة ﴿لهم البشرى في الحياة الدنيا وفي الآخرة﴾ .

منازلهم عنده عظيمة، وأنفسهم عليه كريمة، كانت قلوبهم من الشكّ سليمة، ساروا إلى الجهاد على خَيْلِ العزيمة، فإذا وَقَعَتْهم للعدوّ كاسرة ﴿لهم البشرى في الحياة الدنيا وفي الآخرة﴾ .

زَمُّوا مطايا الصّدق وساروا، وجالوا حولَ دارِ الكرمِ وداروا، ونهضوا إلى مرضيه وثاروا، وطلبوا عدوّهم فأوقعوا به وأغاروا، فبها حسنهم إذا توجهوا إلى الصلاة واستداروا، والدموع في محاربتهم ماطرة ﴿لهم البشرى في الحياة الدنيا وفي الآخرة﴾ .

أقبل القوم فقبلوا، وعرفوا لماذا خُلِقوا فعملوا، إذا رجع الناس إلى لذاتهم

(١) يونس ٦٤ .

عادوا إلى عباداتهم، وإذا سكن الخلق إلى أوطانهم سكنوا إلى حُرقات أشجانهم،
وإذا أقبل التجار على أموالهم أقبلوا على تفقد أحوالهم، وإذا التذ الغافلون بالمنام
على جنوبهم تلذذوا في القيام بكلام محبوبهم، فلو ذقت كؤوس المناجاة الدائرة
في خيمة الدجى الدائرة ﴿لم البشرى في الحياة الدنيا، وفي الآخرة﴾ .

نصّبوا الآخرة بين أيديهم وجدّوا، ومثّلوا المنادي يناديهم فاستعدوا،
وتضرّعوا في طلب الإعانة فأمدّوا، وأقبلوا إلى الباب صادقين فما ردّوا، ففازوا
بالأرباح الجمّة الوافرة ﴿لهم البشرى في الحياة الدنيا وفي الآخرة﴾ .

أقلقهم ذِكر الذنوب فما ناموا، وشوقهم رجاء المطلوب فقاموا، وذكروا
العرض يوم تبديل الأرض فاستقاموا، وتفكروا في تصرّم العمر فاجتهدوا
وداموا، وتذكروا سالف الذنب فوبّخوا النفوس ولاموا، وباتت أعينهم ساهرة
لذكر أرض الساهرة ﴿لهم البشرى في الحياة الدنيا وفي الآخرة﴾ .

أذبلوا الشّفاء يطلبون الشّفاء بالصيام، وأنصّبوا لما انتصبوا الأجساد يخافون
المعاد بالقيام، وحفظوا الألسنة عما لا يعنى عن فضول الكلام، وأناخوا على باب
الرجاء في الدجى إذا سجى الظلام، فأنشّبوا محاليب طمعهم في العقو، فإذا
الأظافر ظافرة ﴿لهم البشرى في الحياة الدنيا وفي الآخرة﴾ .

يا هذا سبقك القوم وتخلّفت، ومضى أكثر العمر وتسوّفت، ثم تعصي المنعم
بالنعم فما أنصفت، وتؤثر الضلال على الهدى وقد عرفت، أما تخاف أن تقول
إذا حضرت ووقفت: ﴿تلك إذا كرت خاسرة﴾ (١) .

يا من بين يديه الحساب والصراط، وهو عظيم الجراءة كثير الانبساط،
متكاسل في الطاعات وفي المعاصي ذو نشاط، يدعى إلى العلو ويأبى إلا
الانهباط، أمؤمنة هذه النفس بالوعيد أم كافرة .

يا مبارزاً مولاه لم يخف من بطشه، يا مقبلاً على الهوى لا تغتر بنفسه، تفكر

(١) النازعات ١٢ .

في من سكن الثرى بعد لين فرشته ، وانتبه بالتعريض قبل ظهور التصريح بفحشه ،
أما أبقاك وأراك سِوَاك محمولاً على نَعْشِه إلى أن أُلْقِي في الحافرة .

يا خاسراً فاته جزيل الأرباح ، يا من أبعدته عنا خطاياهِ القَباح ، يا من لو
انتبه لنفسه لبكى عليها وناح ، أتاَمَن عليها أن تؤخذ على بعض الاجتراح ،
فيفعل بها فاقرة .

أيقظنا الله وإياكم من هذه الرقدة ، وحفظ إيماننا ، ولا أذاقنا فقده .

المجلس العاشر

في عشر ذي الحجة

الحمد لله العالم بعدد الرمل، والنمل والقطر، ومصرف الوقت والزمن والدهر،
الخبير بخافي السر وسامع الجهر، القدير على ما يشاء بالعز والقهر، أقرب إلى
العبد من العنق إلى النحر ﴿ هو الذي يسيركم في البر والبحر ﴾ (١).

القديم فلا إله سواه، الكريم في منحه وعطاياه، القاهر لمن خالفه وعصاه،
خلق آدم بيده وسواه، واستخرج ذريته كالذرة. أنعم فلا فضل لغيره، وقضى
بنفع العبد وضيره وأمضى القدر بشره وخيره، فحث على الشكر والصبر. أحاط
علماً بالأشياء وحواسها، كيف لا وهو الذي بناها، وقهر المضادات فسواها بلا
معين يمهده بالنصر. لا كيف له ولا شبيهه، ولا يجوز عليه التشبيه، عالم السر وما
يعرض فيه، متنزه عن تصور الفكر. أقسم في القرآن بصنعتة، والقسم على
الحقيقة بقدرته، فتأمل ما تحت القسم من فائدته ﴿ والفجر وليال عشر والشفع
والوتر ﴾ (٢).

أحده حداً ليس له نهاية، وأقر له بالتوحيد، فكم دلت عليه آية، وأصلي
على رسوله محمد الذي ما ردت له راية، صلاة تصل إليه في القبر. وعلى ضجيعه
أي بكر الصديق، وعمر الشديد في الحق الوثيق، وعثمان المحب الشفيق، وعلي
الرفيع القدر، وعلى عمه أي الفضل العباس، الشريف الأصل كريم الأغراس،
الذي نسبه في الأنساب لا يقاس.

(١) يونس ٢٢.

(٢) الفجر ١.

قال الله تعالى: ﴿وَالْفَجْرِ وَلَيَالٍ عَشْرٍ﴾ الفجر: ضوء النهار إذا انشق عنه الليل.

وفي المراد بهذا الفجر ستة أقوال:

أحدها: أنه الفجر المعروف الذي هو بدء النهار. قاله علي بن أبي طالب، وعكرمة، وزيد بن أسلم والقرطبي.

والثاني: صلاة الفجر.

والثالث: النهار كله، فعبر بالفجر عنه، لأنه أوله. والأقوال الثلاثة عن ابن عباس.

والرابع: أنه فجر يوم النَّحْرِ خاصة. قاله مجاهد.

والخامس: فجر أول يوم من ذي الحجة. قاله الضحاك.

والسادس: أول يوم من المحرم تنفجر منه السنة. قاله قتادة.

قوله عز وجل: ﴿وَلَيَالٍ عَشْرٍ﴾ فيها أربعة أقوال:

أحدها أنه عشر ذي الحجة. رواه عطية عن ابن عباس، وبه قال مجاهد ومسروق، وقتادة، والضحاك، والسدي، ومقاتل.

والثاني: أنها العشر الأواخر من رمضان، قاله أبو ظبيان عن ابن عباس.

والثالث: العشر الأول من رمضان. قاله الضحاك.

والرابع: العشر الأول من المحرم. قاله يمان بن رثاب.

قوله تعالى: ﴿والشفع والوتر﴾ قرأ حمزة والكسائي: والوتر بكسر الواو وفتحها الأكثرون، وهما لغتان والكسر لقريش وتميم وأسد، والفتح لأهل الحجاز.

وللمفسرين في الشفع والوتر عشرون قولاً:

أحدها: أن الشفع يوم عرفة ويوم الأضحى ، والوتر ليلة النحر. رواه أبو أيوب الأنصاري رضي الله عنه، عن النبي ﷺ .

والثاني: أن الشفع يوم النحر والوتر يوم عرفة. رواه جابر عن النبي ﷺ .

والثالث: أن الشفع والوتر الصلاة، منها شفع، ومنها وتر. رواه عمران بن حصين، عن النبي ﷺ .

والرابع: أن الشفع الخلق كله، والوتر الله عز وجل، رواه عطية عن ابن عباس.

والخامس: أن الوتر آدم، شُفِع بزوجته عليها السلام. رواه مجاهد عن ابن عباس.

والسادس: أن الشفع يومان بعد يوم النحر، وهو النَّفَرُ الأول، والوتر اليوم الثالث وهو النفر الأخير. قاله عبد الله بن الزبير.

والسابع: أن الشفع صلاة الغداة، والوتر صلاة المغرب. حكاه عطية العوفي.

والثامن: أن الشفع الركعتان من صلاة المغرب، والوتر الركعة الثالثة. قاله أبو العالية والربيع بن أنس.

والتاسع: أن الشفع والوتر الخلق كله منه شفع، ومنه وتر. قاله ابن زيد.

والعاشر: أن العدد منه شفع، ومنه وتر. قاله الحسن.

والحادي عشر: أن الشفع عشر ذي الحجة، والوتر أيام من الثلاثة قاله الضحاك.

والثاني عشر: أن الشفع هو الله لقوله تعالى: ﴿ مَا يَكُونُ مِنْ نَجْوَى ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ ﴾^(١) والوتر هو الله لقوله تعالى: ﴿ قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ﴾ قاله سفيان ابن عيينة.

(١) سورة المجادلة ٧.

والثالث عشر: أن الشفع آدم وحواء، والوتر هو الله تعالى. قاله مقاتل بن سليمان.

والرابع عشر: أن الشفع هو الأيام والليالي والوتر اليوم الذي لا ليلة معه، وهو يوم القيامة، قاله مقاتل بن حيان.

والخامس عشر: أن الشفع درجات الجنات لأنها ثمان، والوتر دركات النار لأنها سبع، فكان الله عز وجل أقسم بالجنة والنار. قاله الحسين بن أبي الفضل.

والسادس عشر: أن الشفع تضادّ أوصاف المخلوقين: عزّ وذل، وقُدرة وعجز، وقوة وضعف، وعلم وجهل، وحياة وموت. والوتر انفراد صفة الله سبحانه: عزّ بلا ذل، وقدرة بلا عجز، وقوة بلا ضعف، وعلم بلا جهل، وحياة بلا موت. قاله أبو بكر الوراق.

والسابع عشر: أن الشفع الصفا والمروة، والوتر البيت.

والثامن عشر: أن الشفع مسجد مكة والمدينة، والوتر بيت المقدس.

والتاسع عشر: أن الشفع القرآن في الحج والتمتع، والوتر الأفراد.

والعشرون: الشفع العبادات المتكررة كالصلاة والصيام والزكاة، والوتر العبادة التي لا تتكرر، وهي الحج. حكى هذه الأربعة أبو إسحاق الثعلبي.

قوله تعالى: ﴿وَاللَّيْلِ إِذَا يَسَّرَ﴾ (١) قرأ ابن كثير ويعقوب: ﴿يَسْرِي﴾ بياء في الوصل والوقف، ووافقهما في الوصل نافع وأبو عمرو، وقرأ ابن عامر وعاصم وحزرة والكسائي: ﴿يَسَّرَ﴾ بغير ياء في الوصل والوقف.

قال اللغويون منهم الفراء والزجاج: والاختيار حذف حرف الياء لثلاثة أوجه:

أحدها: لمشاركتها من الآيات.

(١) الفجر: ٤.

والثاني: لاتباع المصحف.

والثالث: أن العرب قد تحذف الياء وتكتفي منها بكسر ما قبلها، وأنشدوا:
كفَّكَ ما يُليقُ درهماً جوداً وأخرى تُعطى بالسيف الدماً

وفي قوله تعالى: ﴿يَسْرُ﴾ قولان: أن الفعل لليل، ثم في ذلك قولان:
أحدهما: إذا يسري ذاهباً. رواه عطية عن ابن عباس. وهو قول الجمهور.

والثاني: إذا يسري مُقبلاً. قاله قتادة.

والقول الثاني: الفعل لغيره، والمعنى: إذ يسرى فيه، كما يقال: ليلٌ نائم،
أي ينام فيه. قاله الأخفش.

قوله تعالى: ﴿هل في ذلك﴾ أي فيما ذكر ﴿قسَمَ لذي حجر﴾^(١) أي عقل.
وسمي الحجر حجراً، لأنه يحجر صاحبه عن القبيح، وسمي عقلاً لأنه يعقل
عمّا لا يحسن، وسمي النهي، لأنه ينهى عمّا لا يجمل. ومعنى الكلام:
أن من كان ذا لبٍ عليم أن ما أقسم الله به من هذه الأشياء فيه دلائل على
توحيده وقدرته، فهو حقيق أن يقسم به.

وجواب القسم: ﴿إن ربك لبالمرصاد﴾^(٢) فاعترض بين القسم وجوابه قوله
تعالى ﴿لم تر كيف فعل ربك بعد﴾^(٣).
والمشهور أن المراد بالعشر، عشر ذي الحجة.

أخبرنا هبة الله بن محمد بسنده، عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: قال
رسول الله ﷺ: «ما من أيامٍ العملُ الصالح فيها أحبّ إلى الله عز وجل من
هذه الأيام» يعني أيام العشر. قالوا: يا رسول الله، ولا الجهاد في سبيل الله عز
وجل؟ قال: «ولا الجهاد في سبيل الله عز وجل، إلا رجلاً خرج بنفسه وماله
ثم لم يرجع من ذلك بشيء».

(٣) الفجر ٦.

(١) الفجر ٥.

(٢) الفجر ١٤.

انفرد بإخراجه البخاري .

أخبرنا هبة الله بن محمد بسنده عن مجاهد عن ابن عمر رضي الله عنهما عن النبي ﷺ قال: « ما من أيام أعظم عند الله ولا أحب إليه العمل فيهن من هذه الأيام العشر فأكثرُوا فيهن التهليل والتكبير والتحميد » .

أخبرنا عبد الله بن علي المقرئ بسنده عن جابر بن عبد الله رضي الله عنه ، قال: قال رسول الله ﷺ: « إن أفضل أيام الدنيا العشر . قالوا: يا رسول الله، ولا مثلهن في سبيل الله؟ قال: ولا مثلهن في سبيل الله، إلا من عفر وجهه في التراب » .

وقد روي في حديث ابن عباس رضي الله عنهما عن النبي ﷺ: أن كل يوم من أيام العشر يعدل صيام سنة، وليلة جمع تعدل ليلة القدر .

قال أبو عثمان النهدي: كانوا يعظمون ثلاث عشرات: العشر الأول من ذي الحجة، والعشر الأخير من رمضان، والعشر الأول من المحرم .
اعلموا رحمكم الله أن عشركم هذا ليس كعشر، وهو يحتوي على فضائل عشر:

الأولى: أن الله عز وجل أقسم به فقال: ﴿وليلٍ عشر﴾^(١) .

والثانية: أنه سماه الأيام المعلومات فقال تعالى: ﴿ويذكروا اسم الله في أيام معلومات﴾^(٢) قال ابن عباس: هي أيام العشر .

والثالثة: أن رسول الله ﷺ شهد له بأنه أفضل أيام الدنيا .

والرابعة: حث على أفعال الخير فيه .

والخامسة: أنه أمر بكثرة التسبيح والتحميد والتهليل فيه .

والسادسة: أن فيه يوم التروية . وفي حديث ابن عباس عن النبي ﷺ أنه

(٢) الحج ٢٨ .

(١) الفجر ٢ .

قال: « من صام العشر فله بكل يومٍ صوم شهر، وله بصوم يوم التروية سنة »
قال الزاهدي: وإنما سمي بيوم التروية، لأن عرفات لم يكن بها ماء، فكانوا
يتروون من الماء إليها.

والسابعة: أن فيه يوم عرفة وصومه بستين.

والثامنة: أن فيه ليلة جمع، وهي ليلة المزدلفة. وقد سبق بيان فضلها.

والتاسعة: أن فيه الحج الذي هو ركن من أركان الصلاة.

والعاشرة: وقوع الأضحية التي هي علم للملّة الإبراهيمية، والشريعة
المحمدية. ومن أراد أن يضحى كره له إذا دخل عليه عشر ذي الحجة أن يأخذ
بشترته، وأن يقلّم أظفاره، أو يخلق شعره، وليتشبه بالمُحْرَمِينَ. ومن أصحابنا من
قال يَحْرَمُ ذلك كله.

أخبرنا علي بن عبيد الله بسنده، عن سعيد بن المسيّب قال: سمعت أم سلمة
رضي الله عنها زوج النبي ﷺ تقول: قال رسول الله ﷺ: « من كان له ذبح
يذبحه، فإذا أهلك هلال ذي الحجة، فلا يأخذ من شعره، ولا من أظفاره شيئاً
حتى يضحّي ».

ما لنفسي عن معادي غفلت
أيها المغرور في لهو الهوى
أفّ للدنيا فكم تخدعنا
ربّ ريح بأناس عصفت
وكذاك الدهر في تصريفه
ويد الأيام من عاداتها
أين من أصبح في غفلته
أصبحت آماله قد خسرت
فعدت أمواله قد فرقت
جز على الدار بقلب حاضر
أتراها نسيت ما فعلت
كل نفس ستري ما عملت
كم عزيز في هواها خذلت
ثم ما أن لبثت أن سكنت
قدم زلت وأخرى ثبتت
أنها مفسدة ما أصلحت
في سرور ومسرادات خلّت
وديوار لهوه قد خربت
وكان داره ما سكنت
ثم قل يا دار ماذا فعلت

أوجهٌ كانت بُدوراً طَلَعَا وشُموساً طَالَمَا قد أَشْرَقَتْ
 قالت الدار تَفَانُوا فمَضُوا وكذا كُلُّ مقيمٍ إن ثَبِتْ
 عَايَنُوا أفعالهم في تُرْبِهِم فاسألُ الأجداد عما اسْتُودِعْتُ
 كُلُّ نفسٍ سوف تَلْقَى فِعْلَهَا وَيَحُ نفسٍ بهواها شُعِلَتْ
 إنما الدنيا كظُلِّ زَائِلٍ أو كأحلامٍ منامٍ ذَهَبَتْ

أين من ملك وقهر، واستعمل في حَفَرَ النهر ونَهَرَ، ضَمَّ الموت ذلك البشر،
 وأخذ التلفُ ذلك الشَّرَّ ونقضت الآفاتُ قَوِيَّاتِ المِرَر، وعلموا أنه لا يُصْلِح
 الأشرَ البشرَ، واستبانوا أن يَبِيعهم ببيعِ العَرَر.

كم راعت المنون سِرْباً سرباً، كم أثارت قَسْطاً وحَرْباً، تالله لقد جالت بُعْداً
 وقُرْباً، فاستلبت البعدي وذوي القربي، كم عمّرت بخراب دُورهم تُرْباً، فسَلَّ بها
 حال سَلْبها كيف استلبتهم سَلْباً

أين ملوكها وأمراؤها، ومدّأحها وشعراؤها وسُحراؤها وخُدامها، وأحرارها
 وعبيدها وأسراها وغناؤها بالأموال وثراؤها، باكرتهم والله بُكراؤها فأعجر
 إبطاءهم إيرادها، فضمّتهم عن قليل صحراؤها.

أما الجديدان من ثوبي ومن جسدي فَيَبليان ولا يبلى الجديدان
 بُردُ الشباب وبُردُ الناسج ابتذلاً وهل يدوم على البُرْدَيْنِ بُردان
 الدهرُ لنوان أعيناً ثالثٌ لهما وكم أتاك بأشباه وألوان
 لو كان يعرف دنياه مصاحبها أرادها لعدوّ دون إخوان
 وما أبالي وأرداني مبرّاة من العيوب إذا ما الحتف أرداني

يا من قد سارت بالمعاصي أخباره، يا من قد قَبِحَ إعلانه وإسراره، يا فقيراً
 من الهدى أهلكه إعساره، أتؤثر الخسران قل لي، أو تختاره، يا كثير الذنوب وقد
 دنا إحصاره، يا مأسوراً في حبس الزلل لا ينفعه إحصاره، نَقْدُك بَهْرَجُ إذا
 حك معياره، كم رَدَّ على مثلك درهمه وديناره، يا محترقاً بنار الهوى متى تحبو
 ناره، ما يلين قلبك لغامز، وما يُرى لما تشتهي متجاوز، ما هذا الفعل فعل

فائز، إن مطيع الزمان حال عاجز، وإن بيّن يدك لمفاوز، فيها أهوال وهزاهز
نقومك ولا تستوي، من يغيّر الغرائز؟

أيتها النفس اسمعي لقلبي أنت من الحياة في أصيل
وفي غرور أمل طويل فلا يغرّتك ضحى التأميل
فقد دنت شمّسك للأفول

عباد الله: هذه الأيام مطايا فأين العُدّة قبل المنيا، أين الأنفة من دار
الأذايا، أين العزائم أروضيم بالدنيا، إن بليّة الهوى لا تشبه البلايا، وإن خطيئة
الإصرار لا كالخطايا، يا مستورين ستظهر الخبايا، سرّية الموت لا تشبه السرايا،
قضية الزمان كالقضايا، راعي السلامة يقتل الرعايا، رامي المنون يَصمي الرّمايا،
ملك الموت لا يقبل الهدايا. أيها الشاب ستسأل عن شبابك، أيها الكهل تأهّب
لعتابك، أيها الشيخ تدبّر أمرك قبل سدّ بابك، كنت في بداية الشباب أصلح،
فيا عجباً كيف أفسد من أصلح، يا مريض القلب قف بباب الطبيب، يا
مبخوس الحظ اشك فوات النصيب، لذّ بالجناب ذليلاً، وقف على الباب طويلاً،
واتخذ في هذا العشر سبيلاً، واجعل جناب التوبة مقبلاً، واجتهد في الخير تجد
ثواباً جزياً، قل في الأسحار: أنا تائب، ناد في الدجى: قد قدّم الغائب:

أنا المسيء المذنب الخاطي المفرط البيّن إفراطي
فإننا تعاقب أنا أهلّ له وأنت أهلّ العفو عن خاطي
ألجأني إلى الذل أنا الجاني، وألقاني الزلل على باب الأسف بدمعي القاني،
ولقد أفرح شأني من خوف شانيء شاني:

اعف عني وأقلني عثرتي ياعبادي للمّات الزمن
لا تعاقبني فقد عاقبني ندم أتلف رُوحِي والبَدَن
لا تطير وسناً عن مقلّة أنت أهديت لها طيب الوسن
إن تؤاخذني فمن ذا أرّجني وإذا لم تعف عن ذنبي فمَن

الكلام على قوله تعالى

﴿ألم تر كيف فعل ربك بعاد﴾^(١)

خَوَّفَ المخالفين ما فعل بنظرائهم. وفي إرم أربعة أقوال:

أحدها: أنه اسم أمة من الأمم، ومعناه: القديمة. قاله مجاهد.

والثاني: أنه اسم قبيلة من قوم عاد. قاله قتادة.

والثالث: أنه اسم لجد عاد لأنه عاد بن عوض بن إرم بن سام بن نوح. قاله

إسحاق. وقد قرأ ابن مسعود وابن عمر: ﴿بعاد إرم﴾ على الإضافة.

والرابع: أنه اسم بلدة.

ثم فيها ثلاثة أقوال:

أحدها: أنها دمشق. قاله سعيد بن المسيّب وعكرمة

والثاني: الإسكندرية. قاله محمد بن كعب.

والثالث: أنها مدينة صنعها شدّاد بن عاد. قاله كعب.

فيخرج على قوله تعالى ﴿ذات العِمَاد﴾ أربعة أقوال:

أحدها: أنهم كانوا أهل عمُد وخيام.

والثاني: أن المراد بالعناد: الطُّول. قاله الزجاج، يقال: عمد إذا كان طويلاً.

والثالث: ذات الشدة.

والرابع: ذات البناء المحكم.

قوله تعالى: ﴿التي لم يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلَادِ﴾ فيه قولان:

(١) الفجر ٦.

أحدهما: القبيلة في طولها وقوتها.
والثاني: المدينة.

أخبرنا عبد الخالق بن أحمد بن يوسف بسنده عن وهب بن منبه، عن عبد الله ابن قلابة أنه خرج في طلب إبل له شردت، فبينما هو في صحارى عدن أبين في تلك الفلوات، إذ هو قد وقع على حصن، حول ذلك الحصن قصور كثيرة، فلما دنا منها ظن أن فيها أحداً يسأله عن إبله فإذا لا خارج، ولا داخل. فنزل عن ناقته فعقلها ثم استل سيفه، ودخل من باب الحصن، فإذا هو بباين عظيمين لم يرى في الدنيا شيء أعظم منها، ولا أطول. وفي البابين نجوم من ياقوت أبيض وياقوت أحمر تضيء البابين ما بين الحصن والمدينة، فلما رأى الرجل أعجبه وتعاضمه الأمر فدخل، فإذا هو بمدينة لم ير الرءاون مثلها قط، فإذا هو في قصور كل قصر معلق تحتة أعمدة من زبرجد وياقوت. ومن فوق كل قصر منها عُرف. ومن فوق الغرف عرف مبنية بالذهب والفضة واللؤلؤ والياقوت والزبرجد، وكل مصاريع تلك القصور وتلك الغرف مثل مصارع باب المدينة بالياقوت الأبيض والأحمر، مفروشة تلك القصور وتلك الغرف باللؤلؤ، وبنادق المسك والزعفران، فلما عاين الرجل ذلك ولم ير أحداً هاله ذلك، وأفرعه ثم نظر في الأزقة، فإذا هو بشجر في كل زقاق منها قد أثمر، وتحت الأشجار أنهار مطردة يجري ماؤها في قنوات من فضة، فقال الرجل: إن هذه للجنة التي وصف الله عز وجل.

ثم حمل معه من لؤلئها وزبرجدها، ثم عاد إلى بلده، فأظهر ما كان معه وأعلم الناس أمره. فبلغ ذلك معاوية بن أبي سفيان فكتب إلى صنعاء فجيء به، فسأله عما رأى، فأخبره فأنكر ذلك، فأراه ما قد أخذ منها لؤلؤاً قد اصفر، وبنادق مسك لم يجد لها ريحاً، ففتتها فإذا ريح المسك، فبعث إلى كعب وقال: إني دعوتك إلى شيء رجوت أن يكون علمه عندك هل بلغك أن في الدنيا مدينة مبنية بالذهب والفضة عُمدها زبرجد وياقوت، وحصباؤها لؤلؤ؟ فقال: نعم هي إرم ذات العماد التي بناها شداد بن عاد. قال: حدثنا حديثها. فقال: إن عاداً الأول كان له ابنان شديد وشداد، فهلك عاد، وملك ابناه البلاد، ولم يبق أحد إلا في طاعتها، ثم مات شديد فملك شداد وحده، فكانت له الدنيا جميعاً،

وكان مَوْلَعاً بقراءة الكتب، وكلما مرَّ بذكر الجنة دعتَه نفسه إلى أن يبني مثلها عتوّاً على الله عز وجل، فأمر على صنعها مائة قهرمان مع كل قهرمان ألف من الأعوان، ثم قال: انطلقوا إلى أطيب فَلَآةٍ في الأرض، وأوسعها فاعملوا لي مدينة من ذهب وفضة، وياقوت، وزبرجد، ولؤلؤ تحت تلك المدينة أعمدة من زبرجد، وفوق القصور غرف من فوق الغرف غرف، واغرسوا تحت تلك القصور في أزقتها أصناف الثمار، وأجروا تحتها الأنهار، فإني أسمع في الكتب صفة الجنة، وأنا أحب أن أجعل مثلها في الدنيا. فقالوا: كيف نقدر على ما وصفت لنا من الزبرجد والياقوت والذهب والفضة؟ قال: أستم تعلمون أن ملك الدنيا كلها بيدي؟ قالوا: بلى. قال: فانطلقوا إلى معادن الزبرجد والياقوت والذهب والفضة، وخذوا ما في أيدي الناس من ذلك. وكتب إلى كل ملك في الدنيا يأمره أن يجمع ما في بلاده من جواهرها، ويحفر معادنها، فجمعوا ذلك في عشر سنين، وكان عدد الملوك مائتين وستين ملكاً، وخرج الفعلة فتبددوا في الصحارى، فوقعوا على صحراء عظيمة نقية من الجبال والتلال، فإذا هم بعيون مطردة فقالوا: صفة التي أمرنا بها. فأخذوا بقدر الذي أمرهم من الطول والعرض وأجروا قنوات الأنهار، ووضعوا الأساس وأرسلت إليهم الملوك بالزبرجد والياقوت والذهب، والفضة، واللؤلؤ، والجوهر، وأقاموا في ذلك ثلاثمائة سنة، وكان عمرُ شداد تسعمائة سنة، فلما أتوه فأخبروه بفراغهم منها قال: انطلقوا فاجعلوا عليها حصناً، واجعلوا حول الحصن ألف قصر عند كل قصر ألف عَلم يكون في كل قصر وزير من وزرائي. ففعلوا، ثم أخبروه فأمر ألف وزير من خاصته، ومن يثق به أن يتهيأوا للنقل إلى إرم ذات العماد، وأمر من أراد من نسائه وخدمه بالجهاز، فأقاموا في جهازهم عشر سنين، ثم سار بمن أراد، فلما بلغ إلى مسيرة يوم وليلة بعث الله عليه وعلى أصحابه، وعلى من كان معه صيحةً من السماء، فأهلكتهم جميعاً، ولم يدخل إرم ولا أحد ممن كان معه، ولم يُقدَّر على أحد منهم حتى الساعة.

وروى الشَّعْبِيُّ عن دَغْغَلِ الشَّيبَانِيِّ عن علماء حمير قالوا: لماهلك شدَّاد بن عاد

ومن معه من الصيحة ملك بعده ابنه ابن شداد ، وقد كان أبوه خلّفه بحضرموت على ملكه وسلطانه فأمر بحمل أبيه من تلك المغارة إلى حضرموت ، وأمر فحفرت له حفيرة في مغارة فاستودعه فيها على سرير من ذهب ، وألقى عليه سبعين حلّة منسوجة بقضبان الذهب ، ووضع عند رأسه لوحاً عظيماً من ذهب وكتب عليه :

اعتبر بي أيها المغر	رورُ بالعُمر المديد
أنا شداد عادٍ	صاحب الحصن العميد
وأخو القوة والبأ	ساء والملك المشيد
دان أهـل الأرض لي	من خوف وعيدي
وملكت الشرق والغـر	ب بسلطان شديد
وبفضل الملك والعُدّ	ة فيه والعديد
فأتي هودّ وكننا	في ضلالٍ قبل هود
فدعانا لو قبلنا	ه في الأمر الشديد
فعصينا وننادي	تُ ألهل من مجيد
فأتتنا صيحة تهـ	وي من الأفق البعيد
فتوافقنا كزرع	وسقاً يتدا حصيد

قوله تعالى

﴿ وثمود الذين جابوا الصخر بالواد ﴾

قطعوه ونقبوه ﴿ وفرعون ذي الأوتاد ﴾^(١) فيه ستة أقوال :

أحدها : أنه كان يعذب الناس بأربعة أوتاد يشدهم فيها ، ثم يرفع صخرة فتلقى على الإنسان فتشده . قاله ابن عباس .

والثاني : أن المعنى : ذو البناء المحكم . قاله الضحاك .

(١) الفجر ٩ .

والثالث: أن المراد بالأوتاد الجنود، كانوا يشدون مُلكه. وهذه الأقوال الثلاثة عن ابن عباس.

والرابع: أنه كان يبني مناراً يذبح عليها الناس.

والخامس: أنه كان له أربع أسطوانات يأخذ الرجل فيمدّ كل قائمة منه إلى أسطوانة فيعذبه. روي القولان عن سعيد بن جبّير.

والسادس: أنه كانت له أوتاد وأرسان وملاعب يلعب له عليها. قاله عطاء وقتادة.

قوله تعالى: ﴿الذين طغوا في البلاد﴾^(١) يعني عاداً وثموداً وفرعون عملوا بالمعاصي وتجبروا على أنبياء الله تعالى، فأكثروا فيها الفساد بالقتل والمعاصي.

﴿فصبّ عليهم ربك سوط عذاب﴾ قال ابن قتيبة: إنما قال: سوط عذاب، لأن التعذيب قد يكون بالسّوط. وقال الزجاج: جعل سوطه الذي ضربهم به العذاب.

﴿إن ربك لبالمرصاد﴾ أي يرصد من كفر به بالعذاب. قال الأزهري: المرصاد المكان الذي يجد فيه الراصد العدو.

سجع على قوله تعالى

﴿إن ربك لبالمرصاد﴾

أين من أصبح بلذاته مغتبطاً، أمسى في صماته مُغتبطاً، أين من كان أمره فُرطاً، ندّم إذ ارتكب غلطا، أين من سلك سبيلاً شَطَطاً، نزل لحداً ما فيه وطاً، وجأه الملّكان فأفزعا وأفرطاً، وافتضح بقبيحه وانكشف الغطا.

ما بين يَوْمِ المهينات وبين يَوْمِ المغريّات

(١) الفجر ١١.

إذا تَأَمَّلْتَ بَعِيداً إلا كما بين ها وهاتِ
قل للمشغولين بالفساد الواقفين مع العناد : إلى متى ظَلَمَ العباد ، كم مُسْتَلَب ما
نال المراد ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمُرْصَادِ﴾ .

أما عَادَ العذابُ على عاد ؟ أما أَمْرَضُ وما عاد ، أين من ادَّعى الربوبية ، أو
كاد ؟ كاده الجَبَّارُ فيمن كاد ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمُرْصَادِ﴾ . بيناهم في ظلم المظالم سَلَب
على أقبح فعله الظالم ، فبات يَقْرَعُ سِنَّ نادم ، ولكن لما عَثَرَ الجواد . أَخَذَ اللهُ في
مَضِيْقِهِ ، وَأَغْصَنَهُ الموت بريقه ، وبقي متحيراً في طريقه لا ماء ولا زاد . كأنك
بك قد بلغت النَّبوة ، وصرعت سرعةً تعجزك الأوبة . وقمت تَعْرَضُ يومئذ
سَلَعِ التوبة ، ولكن وقت الكساد ، فلا تغتر بمالك وقصرك ، ولا تَعَجَّبَ بِنَهْيِكَ
وأمرك ، يا طائر الهوى ستؤخذ من وَكْرِكَ ، وما تُعْجِزُ الصيَّادُ ، ﴿إِنَّ رَبَّكَ
لَبِالْمُرْصَادِ﴾ .

من لك إذا سئلت عن خلقك وجوزيت بأقبح عملك ، تالله إن تُنبت من
ذلك فكل عَشْرَكَ أعياد .

كم أرشدك إلى رشادك ، وأنت على فسادك ، كم أدعوك إلى إسعادك ، وأنت
مع سعادك ، ضُرب بوقُ رحليك ، وما اهتممت بزادك ، أنا في وادٍ وأنت في
واد . لقد بالغتُ لك في النصائح وقمت مُنذِراً عَقْبِي القبائح ، والطريقُ واضح
والعَلَمُ لائح ، ﴿ومن يُضِلل الله فما له من هادٍ﴾ (١)

والحمد لله وحده .

المجلس الحادي عشر

في ذكر يوم عرفة

الحمد لله الذي لهيئة عظمته تحرك الساكن وارتج، ولعظيم قدرته التطمت
أمواج البحر وثج، ومن يسير بلائه استغاث الشديد الصبر وضج، وإلى كثير
عطائه قطع قاصدوه العميق الفج، الذي أظهر في شهركم هذا من دماء القرابين
السفح والشج، وأحب من أكثر الدعاء فيه وألح ولج، وسماه ذا الحجّة وشرع
فيه إلى بيته الحج، الذي استدعى من شاء إلى زيارة بيته العتيق، وحرك عزم
القاصد وأعانه بالتوفيق، وسهل للسالكين إلى حرمة مستوعر الطريق، ووعد
الطائعين القبول، وهو بإنجاز الوعد خليق، وأزعج قاصديه عن مساكنهم،
وأخرجهم من أماكنهم بالتشويق، فرضوا من أهلهم وفريقهم بالبعد والتفريق،
وسارت بهم الاينق عن الربيع الأنيق، وجدّت بهم النجائب من كل بلدٍ سحيق،
فأقبلوا بين ماشٍ على قدميه استسعاها يقين الصديق ﴿وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِنْ
كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ﴾ (١).

أحمده حمد موقن آمن به وعرفه، وأشكره على إدراك ذي الحجّة، ويوم
عرّفة، وأشهد له بنفي المثل في الذات والصفة، وأن محمداً عبده ورسوله أرسله
بالرحمة وبالرأفة وصفه، وعلى صاحبه أبي بكر الصديق الذي حالفه، وما
خالفه، وعلى عمر الذي رفض الدنيا أنفة، وعلى عثمان الذي جهّز جيش العسرة
وأسعفه، وعلى عليّ الذي ما أشكل علم إلا وكشفه، وعلى عمه العباس الذي
عظّم الله بيته وشرفه.

(١) الحج ٢٧.

عباد الله: إن يومكم هذا يومٌ قد عظم الله أمره، ورفع على الأيام قدره.
وقد روينا أن الله تعالى أقسم به فقال: ﴿وَالشَّفْعِ وَالْوَتْرِ﴾ (١) فذكرنا عن
النبي ﷺ أنه قال: «الشفعُ يوم النحر والوتر يوم عرفة» وروى أبو هريرة رضي
الله عنه، عن النبي ﷺ أنه قال في قوله تعالى: ﴿وشاهدٍ ومشهود﴾ (٢)
قال: الشاهد والمشهود يوم عرفة.

ومن فضائله أن الله عز وجل أنزل فيه: ﴿اليومَ أكملتُ لكم دينكم﴾ (٣).
أخبرنا هبة الله بن محمد بسنده عن طارق بن شهاب قال: جاء رجل من
اليهود إلى عمر رضي الله عنه فقال: يا أمير المؤمنين إنكم تقرءون آية في كتابكم
لو علينا معشر اليهود نزلت لاتخذنا ذلك اليوم عيداً. قال: وأي آية هي؟ قال:
قوله تعالى: ﴿اليومَ أكملتُ لكم دينكم وأتممتُ عليكم نعمتي ورضيت لكم
الإسلام ديناً﴾ قال: فقال عمر رضي الله عنه: والله إني لأعلم اليوم الذي نزلت
فيه على رسول الله ﷺ، والساعة التي نزلت فيها على رسول الله ﷺ، نزلت
عشية عرفة يوم الجمعة.

أخرجاه في الصحيحين.

ومن فضائله أن الله تعالى يباهي بالحاج فيه ملائكته، ويعم بالغفران.
أخبرنا سعد الخير بن محمد، عن يونس بن يوسف، عن ابن المسيب، قال:
قالت عائشة رضي الله عنها: إن رسول الله ﷺ قال: ما من يوم أكثر من أن
يعتق الله فيه عبداً من النار من يوم عرفة، وإنه ليدنو، ثم يباهي بهم الملائكة
فيقول: ما أراد هؤلاء.

انفرد بإخراجه مسلم.

أخبرنا إسماعيل بن أحمد بسنده عن أبي الزبير، عن جابر قال: قال رسول الله

(٣) المائدة ٣.

(٢) البروج ٣.

(١) الفجر ٣.

صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : « إذا كان يوم عرفة ينزل الله تبارك وتعالى إلى السماء الدنيا فيباهي بهم الملائكة فيقول: انظروا إلى عبادي أتوني شُغْبًا غُبْرًا من كل فج عميق، أشهدكم أنني قد غفرت لهم، فقال رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : « فما من يوم أكثر عتيقاً من يوم عرفة » .

أخبرنا عبد الله بن علي المقرئ بسنده عن أيوب، عن أبي الزبير، عن جابر ابن عبد الله رضي الله عنهما قال: قال رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : « إن عَشِيَّةَ عرفة ينزل الله عز وجل فيه إلى السماء الدنيا، فيقول الله تعالى للملائكة: انظروا إلى عبادي هؤلاء شُغْبًا غُبْرًا جاءوني من كل فج عميق ضاجين يسألوني رحمتي، ولم يروني ويتعوذون بي من عذابي ولم يروني. فلم ير يوم أكثر عتيقاً، ولا عتيقة منه، ولا يغفر الله فيه لمختال » .

أخبرنا إسماعيل بن أحمد، قال: أخبرنا أبو الغنائم بن أبي عثمان بسنده، عن الصباح بن موسى، عن أبي داود الشَّعْبِي، عن ابن عمر رضي الله عنهما قال: سمعت رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقول: لا يبقى أحدٌ يوم عرفة في قلبه مثقال ذرة من إيمان، إلا غُفِرَ له. فقال رجل: لأهل معرفت يا رسول الله أم للناس عامة؟ قال: لا بل للناس عامة .

فأما ثواب صائمه، فأخبرنا ابن الحصين بسنده عن عبد الله بن معبد، عن أبي قتادة أن رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ سئل عن صوم يوم عرفة فقال: « كفارة سنتين » . وأخبرناه عالياً عبد الرحمن الأنطاقي بسنده عن عبد الله بن معبد، عن أبي قتادة أن رجلاً قال: يا رسول الله أرأيت صيام يوم عرفة؟ قال: أحتسب على الله أن يكفر السنة الماضية والباقية .

انفرد بإخراجه مسلم. وفي لفظ: إني أحتسب على الله أن يكفر السنة التي قبله والسنة التي بعده » .

أخبرنا هبة الله بن محمد بسنده عن حماد بن سلمة، عن عطاء الخراساني أن

عبد الرحمن بن أبي بكر دخل على عائشة رضي الله عنها يوم عرفة، وهي صائمة، والماء يرشُّ عليها فقال لها عبد الرحمن: أفطري. فقالت: أفطر وقد سمعت رسول الله ﷺ يقول: « إن صوم يوم عرفة يكفر العام الذي قبله ».

واعلم أن صومه مستحب لغير الحاج. فأما الحاج فلا يستحب له صومه ليتقوى على الدعاء ولكونه ضيقاً لله تعالى.

فأما ما يختص بالذكر فيه فمنه التكبير عقيب الصلوات المفروضات، فابتدأه في حق المحلّ: صلاة الفجر يوم عرفة. وفي حق المحرّم صلاة الظهر من يوم النحر، ويجتمعان في صلاة العصر آخر أيام التشريق. وصفة التكبير شفع: الله أكبر الله أكبر، لا إله إلا الله، والله أكبر، والله أكبر، والله الحمد.

ومن الأذكار ما أخبرنا به أبو الفتح ابن أبي القاسم بسنده عن حماد بن أبي حميد، عن عمران بن شعيب، عن أبيه، عن جده أن النبي ﷺ قال: « خير الدعاء يوم عرفة، وخير ما قلت أنا والنبيون من قبلي: لا إله إلا الله وحده، لا شريك له، له الملك، وله الحمد وهو على كل شيء قدير ».

وقد رويت صلاة ليوم عرفة ليس فيها شيء يصح، ولا يثبت فلذلك تنكّبناها.

وكان ابن عمر رضي الله عنها يُحيي ليلة النحر، وقد ذكرنا في فضل إحيائها حديثاً فيما تقدم.

واعلموا أن يوم النحر يوم عظيم قال ﷺ: « أفضل الأيام عند الله عز وجل يوم النحر، ثم يوم النفر ».

وقد سبق ذكر آداب العيد، وما يُفعل في يوم النحر، أن لا يأكل حتى يفرغ من الصلاة، وأن يضحى من أمكته.

وفي حديث عائشة رضي الله عنها، عن النبي ﷺ أنه قال في الأضحية: « إنها لتأتي يوم القيامة بقرونها وأشعارها وأظلافها، وإن الدم ليقع من الله

بمكان قبل أن يقع على الأرض، فطيبوا بها نفساً» .

وروي عنه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أنه قال: بكل شعرة حسنة . وقال صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لفاطمة رضي الله عنها: « قومي إلى أضحيتك فاشهديها ، فإن لك بكل قطرة من دمها أن يغفر الله لك ما سلف من ذنوبك . فقليل له : هذا لآل محمد خاصة ؟ قال : بل هي لآل محمد وللناس عامة » .

أنبأنا أحمد بن علي بن المجلى بسنده، عن عيسى بن علي بن عيسى بن داود ابن الجراح، قال: قرىء على أبي القاسم بن زيد، وأنا أسمع قيل له: حدثكم عمرو بن النضر الغزال، عن عصمة، عن أبي جعفر أنه قال: « أول قطرة من دم الأضحية كفارة لأربعة آلاف خطيئة » .

ومن شرف يوم النحر أن الله سبحانه وتعالى ابتلى به الخليل بذبح ولده، وقد ذكرنا القصة في أول الكتاب .

الكلام على البسمة

فكَّرتَ يا مُعرضاً عن الوعظ صَفْحَا	لك في المشيب أكَبَّر الوعظ لو
ل عِدَارِيكَ والمَفَارِقِ صُبْحَا	أهدت الأربعون منه إلى لَيْ
رض فَعَجْرًا من بعدما كُنَّ جُنْحَا	عاد فَوْدَاك والذوائب والعا
ض على الكَرَّة من شِطَّاطِك رُمْحَا	وهب الشيب قَوْسَه لك واعتا
ت يَرى خُسْرانها والرَّيْحَا	عَمَلُ المرء كالتجارة عند المو
مَ دَمًا لهم ولا المدائِحِ مَدْحَا	فلحى الله مَعَشْرًا لا يبرون الذَّ
بِحُطَام الدنيا وبالدين سَمْحَا	كلُّ ذي غفلةٍ تراه بخيلاً
عيد فِطْرًا يأتي عليه وأضحى	بات من جهله وأضحى يظن الـ
لامرئٍ آمِنٍ من النار لَفْحَا	كذَّبتَه الظنونُ ما العيد إلا

لله در أقوام أعيادهم قبولُ الأعمال، ومرادهم أشرف الآمال، وأحوالهم تجري على كمال، وحلَّاهم التَّقَى، ويا له من جمال .

أنبأنا زاهر بن طاهر بسنده عن محمد بن يوسف بن عبد الله قال : سمعت أبا ثابت الخطاب يقول : رأيت فتحاً الموصلي في يوم عيد أضحى وقد شمَّ ريح العناز فدخل إلى زقاق فسمعته يقول : تقرب المتقربون بقربانهم ، وأنا أتقرب بطول حزني ، يا محبوباً كم تركني في أزقة الدنيا محزوناً . ثم عُشيَ عليه ، وحُمِلَ فدفناه بعد ثلاث .

أين من ضحى بشهوات نفسه فأمات حظها ، أين من حثها على لحاق السلف الصالح وخصها ، أين من خوفها حسابها ، وحدرها عرضها ، أين من قطع من طول المجاهدة طولها وعرضها ، وأين أدرك من مقامات المقبولين ولو بعضها ، أين من أعمل عزائم الوفاء وأهمل همم الجفاء وقصد نقضها ، يا من يسر بعيد ، وقد تعدى الحدود ، أترضى أن تحشر فتتحسر لفوات المقصود . لقد أسمعك المواعظ من إرشادها نصحا ، وأخبرك الشيب أنك بالموت تُقصد وتُنحى ، وشرح الزمان حال من شرح قبلك شرحاً . أين من فرح بعيد الفطر وعيد الأضحى ؟ أما تزود الخنوط من العطر ، وفي القبر أضحى ﴿ يا أيها الإنسان إنك كادح إلى ربك كدحاً ﴾ (١) .

جَمَعُوا لِيَنْتَفِعُوا فَلَمَّا أَنْ دَعَوْا	أَمْوَالَهُمْ حِينَ الرَّدَى لَمْ تَنْفَعِ
وَاسْتَدْفَعُوا بِالْمَالِ كُلَّ مَضْرَةٍ	حَتَّى أَقَى الْأَمْرَ الْعَزِيزُ الْمُدْفَعِ
وَكَاثِمَهُمْ لَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ الَّذِي	جَمَعُوا بَمَرَأَى لِلخُطُوبِ وَمَسْمَعِ
هَتَفَ الْحِمَامِ بِكُلِّ حَيٍّ مِنْهُمْ	فَأَجَابَهُ مُسْتَكْرِهَا كَالطَّيْعِ
وَأَرَاهُمْ فِي مَضْجَعٍ وَأَتَاهُمْ	مَنْ مَطَّلَعَ وَسَقَاهُمْ مِنْ مَكْرَعِ

يا من كلما جذب عن لوه رسب ، هذا يريد الموت لك في الطلب ، بادر قبل القوات فالزمان يُنتهب ، وانتظر سلب الدهر ما وهب ، أين الجامع المانع للذهب ؟ ذهب ، أين مُخاضم الأقدار ، قل لي من غلب ؟ أتاه الفاجع فاقترب وما ارتقب ، وأبرزه من قصره ولطالما احتجب ، يا معرُضاً عنا عنك التعب ، يا

(١) الانشقاق ٦ .

هاجرأ لنا إلى كم ذا الغضب، يا مُضغَة يا علقَة خِدْمَتنا نَسب، يا مُؤثراً غيرنا
 بعث الدُرَّ بالخشب، أما يسوقك إلى الخير ما يشوق؟ أما يعوقك عن الضَّير، ما
 يعوق؟ متى ترجع حرّاً يا مرَّقوق، متى تصير سابقاً يا مسبوق،، إياك والهوى،
 فكم قتل عاشقا معشوق، أولُ الهوى سهَّل، ثم تتخرق الخروق، كلما حُصد نباته
 ينجل الصبر أخرجت العروق، إن لَدَّ شربه في الفم، فشربه شجاً في الحَلوق،
 وإنما لذات الدنيا مثل خَطْف البروق، ميّز بين ما يفنى وما يبقى ترى الفروق،
 خَلَّ خِلَّ التواني إن أردت أن تفوق، تالله ما نصحك إلا مُحِبّاً، أو صدوق.

ستعلم أيها العاصي ما أتيت، وستدري يوم الحساب من عصيت، وستبكي دماً
 لِقُبْح ما جنيت، كأنك بالموت قد جاء فانتهيت وارعويت، وتذكّرت تلك
 الخطايا فتعست وبكيت، وأخلي منك البيتُ شئت، أو أبيت، وصحت بلسان
 الأسف: ﴿رَبِّ ارْجِعُونِي﴾^(١) وليت، انهض يا حيّاً قادراً قبل أن تسمي باسم
 ميت، ويحك تأمل أمرك وافتح عينيك، ويحك كم تُعبي من الذنوب عليك، إن
 سهام الموت قد فوّقت إليك، اقبل نصحي، وقم نادماً على قدميك، وأحسّها
 أرضَ عرفة، وقل: لبيك اللهم لبيك.

الكلام على قوله تعالى

﴿وَأَذِّنْ فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا﴾^(١)

قال المفسرون: لما فرغ إبراهيم عليه الصلاة والسلام من بناء البيت أمره الله
 تعالى أن يؤذّن في الناس بالحج، فقال إبراهيم: يا رب وما يبلّغ صوتي؟ قال:
 أذنّ وعلّيّ البلاغ، فعلا أبا قُتَيْبَس وقال: يا أيها الناس، إن ربكم قد بنى بيتاً
 فحجّوه. فأسمع من أصلاب الرجال وأرحام النساء ممن سبق في علم الله عز وجل
 أن يحج فأجابوه: لبيك اللهم لبيك.

وقوله: ﴿رِجَالًا﴾ أي مُشاة. وقد حج إبراهيم وإسماعيل ماشيين، وحج

(١) الحج ٢٧.

الحسن بن علي عليهما السلام خمساً وعشرين حجةً ماشياً، والنجائب تُقَاد معه،
وحج أحمد بن حنبل رضي الله عنه ماشياً مرتين.

سجع على قوله تعالى

﴿وَأَذِّنْ فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا﴾^(١)

أمر الله نبيه الخليل بعد بناء بيته الجليل أن ينادي عبده إلى الفضل الجزيل،
ليحط عنهم مولاهم كلَّ وِزْرٍ ثَقِيلٍ، فقال سبحانه وتعالى ﴿وَأَذِّنْ فِي النَّاسِ
بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا﴾.

يا إبراهيم نادهم ليحصل نفعهم في معادهم، وأزعجهم بندائك من بلادهم،
وأخرجهم عن أهلهم وأولادهم، فليقصداوا بآبي مُسرِّعين عِجَالًا ﴿وَأَذِّنْ فِي
النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا﴾.

يا غافلاً عني أنا الداعي، يا متخلفاً عن زيارتي، أنا ألقى الساعي، يا
مشغولاً عن قصدي لو عرفت اطلاعي، أنا أقمتُ خليلي يدعو إلى سبيلي،
وأقبلت بنتولي على محبي إقبالاً ﴿وَأَذِّنْ فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا﴾.

لله دَرَّ أقوام فارقوا ديارهم، وعانقوا افتقارهم، وآثروا غبارهم وطهروا
أسرارهم، يدعون عند البيت قريباً سميعاً، ويقفون بين يديه بالذل جميعاً،
ويسعون في مراضيه سعيّاً سريعاً، وقد ودَّعوا مطلوب شهواتهم توديعاً، فأفادهم
مولاهم أن رجَّعهم كيوم أخرجهم أطفالاً.

هَجَرُوا الكَدْرَ، وهاجروا إلى الصَّفَا، وقصدوا المروة، بعد أن أموا الصَّفَا،
وحَدَرُوا الرَّدَّ وخافوا الجفا، وتعلقت آمالهم بمن هو حسبهم وكفى.

نَادِ زُوَّارِي أَنَا أَدْعُوهُمْ نَحْوَ بَيْتِي لِنَالُوا شَرْقًا
فَهُمْ وَفَدِي إِذَا مَا نَزَلُوا بَحْرِي إِذْ دَنَوْا مُزْدَلَفًا

(١) الحج ٢٧.

ولهم عندي مزيدٌ ولهم من نوالي ما أحبوا طَرَفًا
فارقوا أوطانهم إذ قصدوا نحو باي يَطْلُبون الزُّلْفَى
فلهم منِّي مها أَمَلُوا سلفاً يَنمى وَيُنْشِي خَلْفًا

قد أحرَمَ القومُ على الحلال فأحرِموا أنتم عن الحرام، منعوا أنفسهم من
الطَّيب فاحذروا أنتم جيْفة الهوى، يا حُسْنهم وقد نَزَعوا المَخِيط، ونَزَعوا عن
التضييع والتفريط، وملأوا بالتضرع البسيط، فارقوا لأجل مولاهم أولادهم،
وأعروا عن رقيقِ الثياب له أجسادهم، وتركوا في مَرَاضِيَة محبوبهم ومُرادهم،
فأصبحوا قد أعطاهم مولاهم وأمَسوا وقد أفادهم.

استسَعاهم إليه فاجتهدوا وجدُّوا، وتزوَّدوا التقوى في طريقهم واستعدوا،
وأتعبوا الأعضاء في خدمته وكَدُّوا، وطرقوا بأنامل الرجاء بابَ اللَّجَأ، فما
رُدُّوا، ناداهم وهم في الأصلاب والأرحام، واستصلحهم لزيارة بيته الحرام،
وأكرمهم بالغفران فيا نعم الإكرام، ورَحِمَ شَعَثَ الرءوس وغُبَارَ الأقدام، وأنتم
إن بَعُدْتُم عن ذلك المقام، فقد شاركتموهم في الإيمان والإسلام، فارغبوا
بالتضرع إلى المليك العلام، فإنه معروف بالفضل موصوف بالإنعام.

ذكر عن مالك بن أنس رحمه الله تعالى قال: صحبت جعفر الصادق رضي
الله عنه، فلما أراد أن يلبِّي تغَيَّرَ وجهه وارتعدت فرائضه فقلت: ما لك يا بن
رسول الله ﷺ؟ فقال: أردت أن ألبي. قلت: فما يوقفك؟ قال: أخاف أن
أسمع غير الجواب!

وقف مُطَرَّف، وبكر ابنا عبد الله فقال مُطَرَّف: اللهم لا تردَّهم من أجلي.
وقال بكر: ما أشرفه من مقام لولا أفي فيهم!

وروي عن الفضيل بن عياض أنه وقف بعرفة والناس يدعون وهو يبكي
بكاء الثكلى المحترقة، فلما كادت الشمس أن تسقط قبض على لحيته، ثم رفع رأسه
إلى السماء وقال: وآسوأته منك وإن عَفَوْت!

أخبرنا أبو بكر بن حبيب بسنده عن علي بن هزارد الصوفي قال: سمعت ابن محبوب تلميذ أبي الأديان يقول: ما رأيت خائفاً إلا رجلاً واحداً، كنت بالموقف فرأيت شاباً مُطرقاً منذ وقف الناس إلى أن سقط القُرْصُ، فقلت له: يا هذا ابسط يدك للدعاء، فقال لي: تَمَّ وَحَشَّةٌ. فقلت له: فهذا يوم العفو عن الذنوب. قال: فبسط يده ووقع ميتاً.

أخبرنا أبو بكر بن حبيب بسنده عن أبي بكر محمد بن داود الدينوري قال: سمعت أبا عبد الله بن الجلاء يقول: كنت بذى الحليفة وشاب يريد أن يُحْرَمَ، فكان يقول: يا رب أريد أن أقول: لبيك اللهم لبيك، فأخشى أن تجيبني بلا لبيك، ولا سَعْدِيكَ. يردّد ذلك مراراً، ثم قال: اللهم لبيك. مدّها صوتها، وخرجت روجه. رحمة الله عليه.

وقال سريّ: لقيت في طريق الحج حبشية فقلت: إلى أين؟ قالت: الحج. قلت: الطريق بعيد. فقالت:

بعيدٌ على كَسْلانٍ أو ذي مَلالَةٍ فأما على المشتاق فهو قريبٌ
ثم قالت: يا سريّ إنهم يرَوْنه بعيداً ونراه قريباً، فلما وصلت البيت رأيتها تطوف كالفتى الشاطر، فنظرت إليها فقالت: يا سريّ أنا تلك العبدة لما جئته بضعفي حَمَلِي بقوّته.

لما حجَّ الشَّيْلي، وأشرف على جدران مكة قال:

أَبْطَحان مكة هذا الذي أراه عِياناً وهذا أنا!
ثم غُشي عليه، فلما أفاق قال:

هذه دارهُم وأنت مُجِيبٌ ما بقاء الدموع في الآفاق

أخبرنا أحمد بن أحمد الهاشمي، وحدثنا عنه ابن ناصر، قال: أخبرنا أحمد بن علي بن ثابت بسنده عن الحسين بن عبد الرحمن قال: حج سعيد بن وهب ماشياً

فبلغ منه وجهد فقال :

قَدَمِيَّ اعْتَوِرَا رَمَلِ الْكَثِيبِ واطرقبا الآجِنَ من ماء القَلِيبِ
رُبَّ يَوْمٍ رُحْمًا فِيهِ عَلَى زَهْرَةَ الدُّنْيَا فِي وَادِ خَصِيبِ
وَسَمَاعٍ حَسَنِ مِنْ حَسَنِ صَخْبِ الْمِزْهَرِ كَالطَّبِّي الرَّيِّيبِ
فاحسبا ذاك بهذا واصبِرا وخُذَا من كل قَنٍ بِنصِيبِ
إنما أمشي لأني مُذْنَبٌ فلعل الله يعفو عن ذنوبي

كأني الآن بالمحامل تئنّ، وبالزّوأمّل تحنّ، وبالمطيّ تُرزم، وبالخفون تُسجِم،
والشوقُ إلى البيت قد عمّل عمله، والمؤمّل يلاحظ أمله :

ولي أتة الشاكي وإن بُعد المدى ما بيننا وتنفسُ المكروبِ

قوله تعالى

﴿وعلى كل ضامر﴾^(١)

أي رُكباناً على ضُمر من السفر. نجائب تحمل الأحمال، صوابر على
الإنضاء والإتعب، ترقل بالزائرِين إلى رب الأرباب، ادخرت لهم التحف
والبشائر، ونظرت إلى صبرهم على فراق العشائر، ودعوتهم إلى نيل الأمل
الوافر، ورحمت شعث الشعث وغبار المسافر، وكتبت في حسناتهم خطوات كل
ذي خُفّ وحافر، وأربحت تجارة كل واردٍ نحوِي وصادر، وأعدت لهم إلى منازلهم
وما فيهم خاسر، فنادهم: ﴿يأتوك رجلاً وعلى كل ضامر﴾.

قوله تعالى

﴿يأتين من كل فج عميق﴾

يأتين: فعل للنوق. وقرأ الأعمش وابن أبي عبلة ﴿يأتون﴾ على أنه فعل

(١) الحج ٢٧.

للرجال، والنج العميق: المكان البعيد.

صبروا على مشاق الطريق بين هبوط، وصعود ومضيق، واحتملوا لأجلي خلق الرفيق، ورضوا من فريقهم بالبعد والتفريق، وحديث بهم المطايا من كل بلد سحيق، وجانبوا ما يشين وصاحبوا ما يليق، وصابروا ظلماً الشفاء وقلة الريق، فلأسقينهم يوم لقائي من السلسيل والرحيق، فنادهم ﴿يأتوك رجالاً وعلى كل ضامر يأتين من كل فج عميق﴾.

قوله تعالى

﴿ليشهدوا منافع لهم﴾

وهي ربح التجارة في الدنيا والثواب في الآخرة.

سبحان من إلى بيته حملهم ويفناؤه أنزلهم، وإلى حرمة أوصلهم، وبإخلاص قصده جمّلهم، فلقد جمع الخير الجمّم لهم ﴿ليشهدوا منافع لهم﴾.

حرّكهم بتوفيقه فثاروا، واستدعاهم إلى بيته فساروا، وأوصلهم إلى حرمة فزاروا، فبأحسنهم في الطواف إذا سقوا وداروا، واجتمعوا بالآمال حول البيت واستداروا، فضافهم من أضافهم إلى الأحباب وأنزلهم ﴿ليشهدوا منافع لهم﴾.

يا كثرة ما أعطاهم من العطايا، يا شرف ما أنالهم من الهدايا، فلقد تلقاهم بالجود والتحايا، وحطّ عنهم من الذنوب والخطايا ما أثقلهم. أتعبهم المشي وأزعجهم المركوب، وكان ذلك هيئاً في قُرب المحبوب، فأنعم عليهم بكل مطلوب، وقابلهم بالعفو عن الذنوب وقبّلهم. تعلقوا بذيل رحمتي ولطفي، وسألوني مودتي وعطفي، واشتغلوا بي دون غيري ويكفي ﴿فلا تعلم نفس ما أخفي لهم﴾ (١).

(١) السجدة ١٧.

إخواني: إن لم نصِّل إلى ديارهم فلنصل انكسارنا بانكسارهم، إن لم نقدر على عرفات فلنستدرك ما قد فات، إن لم نصِّل إلى الحجِّر، فلينلن كلَّ قلبٍ حجِّر، إن لم نقدر على ليلة جمِّع ومنى، فلننقم بمآثم الأسف ها هنا. أين المنيب الأواب أين المجدِّ السابق، هذا يومٌ يُرحم فيه الصادق، هذا أوان يطلِّع فيه الخالق، يا مؤملاً مثله قد لا يوافق، من لم يُنبِّ في هذا اليوم، فمتى ينيب، ومن لم يُجب في هذا الوقت فمتى يجيب، ومن لم يتعرَّف بالتوبة فهو غريب، ومن لم يُقرَّ بالعفو فماله من نصيب، أسفاً لعبدٍ لم يُغفر له اليوم ما جنى، كلما همَّ بخير نقض الطرد ما بنى، حضرَّ مواسم الأرباح فما حصَّل خيراً ولا اقتنى، ودخل بساتين الفلاح فما مدَّ كفاً ولا جنى، ليت شعري من منا خاب، ومن منا نال المنى. فيا إخواني: إن فاتنا نزول منى، فلننزل دموع الحسرات ها هنا، وكيف لا نبكي ولا ندري ماذا يُراد بنا، وكيف بالسكون وما نعلم ما عنده لنا:

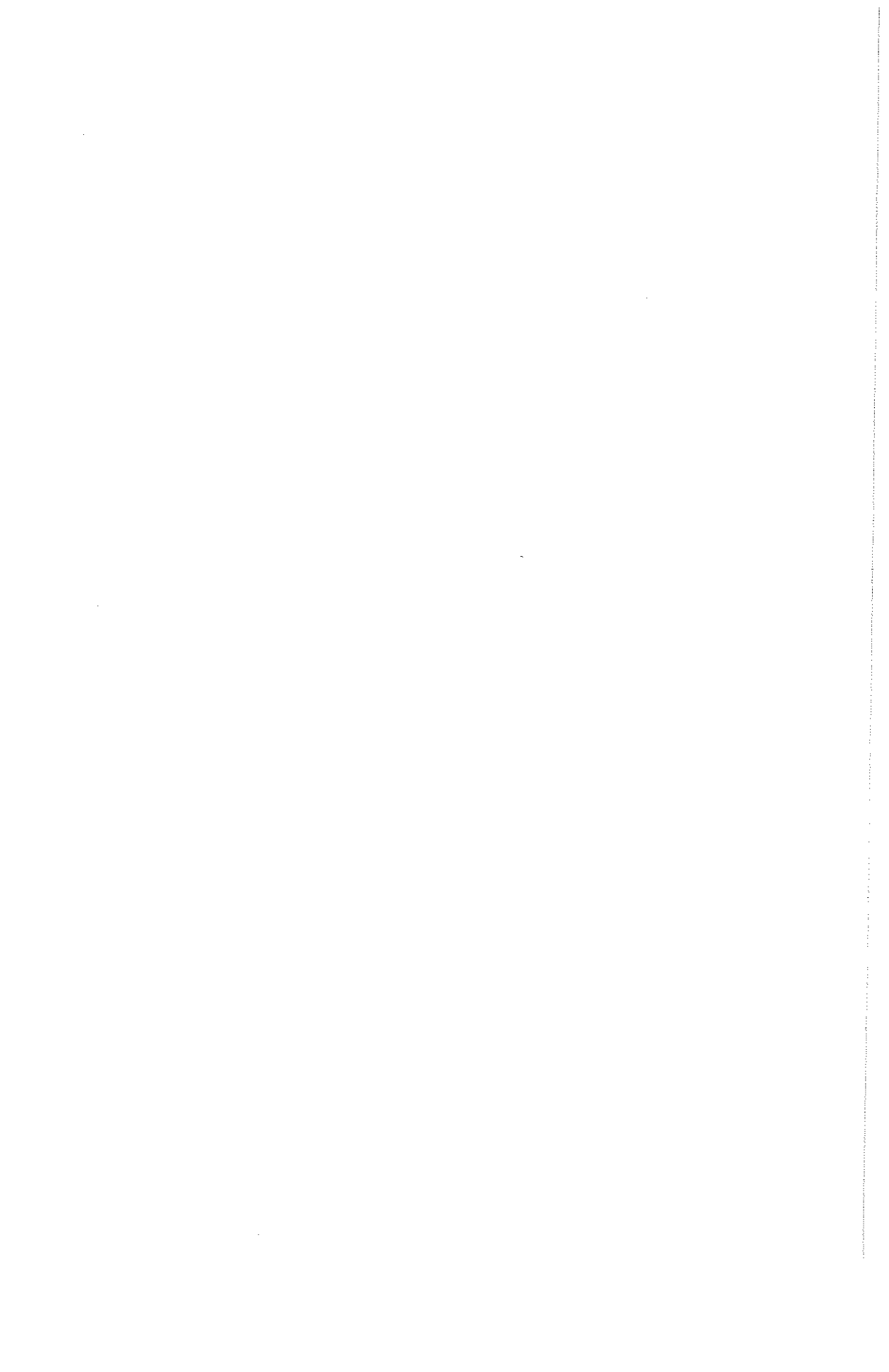
فلذا الموقفِ أعددنا البكا ولذا اليوم الدموع تُقتنسى

اللهم إنا نقف لك على الأقدام، كقيام القاصدين البيت الحرام، يا غافر الذنوب اغفر ذنوبنا، يا ستار العيوب استر عيوبنا، يا كاشف الكروب اكشف كربنا، يا منتهى الآمال بلِّغنا مطلوبنا. برحمتك يا أرحم الراحمين.

الطبقة الثالثة

تشتمل على ذكر خلق ابن آدم والأرض والسموات

فيها ثلاثة مجالس



المجلس الأول

يذكر فيه خلق ابن آدم

الحمد لله الخالق بقدرته ما دبّ ودرج، الفائق بصنعتة ما التأم وارتج، الراتق بحكمته ما افترق وانفرج، الدالّ علّ وحدانيته بالبراهين والحجج، أنشأ الأبدان من النطف وحفظ فيها المهج، ونورّ العيون فأحسن في تركيبها الدّعج، وأنطق اللسان فأبان سبيل المراد ونهج، وعلمّ الإنسان البيان، فإذا خاصم فلج، بقدرته، سكن المتحرك فما زال ولا اختلج، ولهيئته تحرك الساكن فتغّير وانزعج، طوى اللطف في تكاليف الخلائق ودرج ﴿وَمَا جَعَلْ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾^(١) خلق البحرين هذا عذب فُرات وهذا ملح أجاج ومرج، واستخرج بدائع الودائع من بواطن اللّجج، وعلمّ ما ظهر في الأرض، ورأى ما فيها ولج، بصير يرى جريان الدماء في باطن الودج، سمع يدرك بسمعه صوت الباكي إذا نشج، لا يخفى على بصره في سواد الليل سواد الثّج ولا يعزب عن سمعه أنين المدّنف يرجو الفرّج، أنزل كلاماً قديماً من ورد بجره ارتوى وابتهج، قرأناً عربياً غير ذي عوج. أحده حمد من جمع المحامد في حده ودرج، وأشهد أنه العظيم القدر الرفيع الدرّج، وأصلي على رسوله محمد الذي إلى قاب قوسين عرج، وعلى صاحبه أبي بكر الصديق الذي لا يبغضه إلا الرّعاع الممج، وعلى عمر الذي يفوح من ذكره أذكى الأرج، وعلى عثمان الذي جمع الإنفاق إلى الصّهر فازدوج، وعلى عليّ المجمع على حبه، فإن خرج شخص من الإجماع خرج، وعلى عمه العباس الذي افتخر به بيت الخلافة وابتهج.

(١) الحج ٧٨.

قال الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ سَلَالَةٍ مِنْ طِينٍ﴾ (١).

المراد بالإنسان هاهنا آدم عليه السلام. والسَّلَالَةُ فَعَالَةٌ، وهي القليل بما يُسَلُّ، فاستلَّ من كل الأرض. وقد روى أبو موسى رضي الله عنه، عن النبي ﷺ أنه قال: إن الله خلق آدم من قبضة قبضها من جميع الأرض، وقد ذكرنا قصة آدم عليه السلام في أول الكتاب.

قوله تعالى: ﴿ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نَظْفَةً﴾ يعني ابن آدم. والمراد بالنظفة المني ﴿في قرار﴾ يعني الرحم ﴿ومكين﴾ أي حريز قد هبىء لاستقراره فيه.

قوله تعالى: ﴿ثُمَّ خَلَقْنَا النَّظْفَةَ عَلَقَةً﴾ والعلقة دَمٌ عَبِيْطٌ جامد. وسميت عَلَقَةً لتعلقها بما تمرُّ به، فإذا جفَّت فليست عَلَقَةً. والمُضْغَةُ لَحْمَةٌ صغيرة، وسميت بذلك، لأنها بقدر ما يُمَضَّغ.

﴿فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَامًا فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْمًا ثُمَّ أَنْشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ﴾ (٢). وفي محل هذا الإنشاء قولان: أحدهما: بطن الأم. ثم صفة الإنشاء فيه قولان: أحدهما: نفخ الروح. رواه عطاء عن ابن عباس، وبه قال أبو العالية والشَّعْبِيُّ.

والقول الثاني: أنه بعد خروجه من بطن أمه.

ثم في صفة هذا الإنشاء أربعة أقوال:

أحدها: أن ابتداء ذلك الإنشاء أنه استهل، ثم دُلَّ على الثَّدْيِ وتقلَّب من حال إلى حال. رواه عطية عن ابن عباس.

والثاني: أنه استواء الشَّبَاب. قاله ابن عمر.

والثالث: خروج الأسنان والشعر. قاله الضحَّاك.

(١) المؤمنون ١٢.

(٢) المؤمنون ١٤.

والرابع: إعطاء العقل والفهم. حكاة الثعلبي.

﴿فَتَبَارَكَ اللَّهُ﴾ أي تعالى ورَفَع ﴿أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ﴾^(١) أي المصوِّرين

والمقدِّرين.

أخبرنا هبة الله بن محمد، أنبأنا الحسن بن علي التميمي، أنبأنا أحمد ابن جعفر، حدثنا عبد الله بن أحمد، حدثني أبي، حدثنا أبو معاوية، حدثنا الأعمش، عن زيد بن وهب، عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: حدثنا رسول الله ﷺ وهو الصادق المصدوق: « إن أحدكم يُجمع خلقه في بطن أمه أربعين يوماً نطفة، ثم يكون علقة مثل ذلك، ثم يكون مضغاً مثل ذلك، ثم يرسل الله إليه الملك فينفخ فيه الروح، ويؤمر بأربع كلمات: رزقه وأجله وعمله وشقيّ أم سعيد. فوالذي لا إله غيره إن أحدكم ليعمل بعمل أهل الجنة، حتى ما يكون بينه وبينها إلا ذراع، فيسبق عليه الكتاب فيعمل له بعمل أهل النار، وإن أحدكم ليعمل بعمل أهل النار حتى ما يكون بينه وبينها إلا ذراع فيسبق عليه الكتاب، فيختم له بعمل أهل الجنة فيدخلها. »

أخرجاه في الصحيحين.

وفي أفراد مسلم من حديث حذيفة بن أسيد رضي الله عنه، عن النبي ﷺ أنه قال: « إذا مرَّ بالنطفة ثنتان وأربعون ليلة بعث الله إليها ملكاً، فصورها وخلق سمعها وبصرها، وجلدها ولحمها وعظامها، ثم قال: يا رب أذكر أم أنثى، فيقضي ربك ما شاء، ويكتب الملك. ثم يقول: يا رب رزقه؟ فيقضي ربك ما شاء، ويكتب الملك، ثم يخرج الملك بالصحيفة في يده، فلا يزيد على ما أمر ولا ينقص. »

قال علماء المتطبِّين: أول الأحوال الحادثة في المني أن يكون له زبد، ثم يوجد النفخ مندفعاً إلى وسط الرطوبة إعداداً لمكان القلب، ثم تتميز الأعضاء ويتنحى بعضها عن مماسة بعض، ويحيط بالجنين ثلاثة أغشية: غشاء تُنسج فيه العروق، وغشاء ينصب فيه بؤل الجنين، وغشاء يجمع الرطوبة إلى ترشح من الجنين.

(٣) المؤمنون ١٤.

وللرأس أربعة عظام: [ثلاثة] كالجدران وواحد كالقاعدة، وجعلت هذه الجدران أصلب من اليافوخ، لأن السقطات والصدمات عليها أكثر، ويخفف القحف لمعينين:

أحدهما: لثلاث يتنقل على الدماغ.

والثاني: لينفذ منه البخار.

ومن العظام ما هو أساس للبدن كفقار الصلب يُبنى عليه، كما يُبنى السقف على الخشبة الأولى، ومنها كالمجنّ كالقحف، فإنه جنة للدماغ من الآفات. وخلق جوهر الدماغ بارداً رطباً ليناً دسماً. فأما برده فلامرين:

أحدهما: تعديل الحرارة التي تنفذ إليه من القلب.

والثاني: لثلاث يحترق لكثرة ما يتأدى إليه من حركات الروح في التخيل والفكر [والتفكر والذكر]. وهذه القوى الثلاث مسكنها الدماغ، فموضع التخيل البطنان المقدمان من بطون الدماغ، وموضع الفكر البطن الأوسط، وموضع الحفظ المؤخر من بطون الدماغ. وأما رطوبته ولينه فلثلاث تُجفّفه الحركات، وأما خلقه دسماً، فليكون ما ينبت فيه من العصب ليّناً.

وقد جُلّل الدماغ بغشاءين:

أحدهما: رقيق يليه، والآخر صفيق يلي العظم. وإنما خلقا ليكونا حاجزين بين الدماغ والعظم.

وأما العين فإنما جعلنا اثنتين ليتكونا إذا عرضت لإحداها آفة قامت الأخرى بالبصر، وكل عين مركبة من عشرة أجزاء، وهي سبع طبقات وثلاث رطوبات، والطبقات كقشور البصل إن أصابت بعضها آفة نابت الأخرى. والرطوبات يقع النظر بالوسطى، وهي صافية منيرة. والرطوبتان من جانبيها، فواحدة موضوعة خلفها تقرب من طبيعتها تتناول الغذاء، أو تقلبه إلى طبعها، فتتناول منه الرطوبة المبصرة. والرطوبة الثانية تُنّدي المبصرة لثلاث تجفّف. وخلق

الهُدْبُ ليدفع ما يطير إلى العين وليعدّل الضوء بسواده .

وأما الأذن فجعل لها صدف مُعَرَّجَ ليجمع الصوت . وخلق الأنف لينحصر فيه الهواء فيعتدل في حلوله قبل أن يَنفُذَ إلى الدماغ والرئة، ثم هو سِتْرٌ للفضلات المنحدرة . واللسان آلة لتقليب الممضوغ، وتقطيع الصوت في إخراج الحروف، وإليه تمييز الذوق .

والشفتان غطاء للخم والأسنان ومحسباً للعباب، ومُعِيناً على الكلام وجبالاً .

واللِّهَاءُ: جوهر لَحْمِي معلق على أعلى الخنجر، ومنفعته تدريح الهواء لئلا يَقْرَعَ ببرده الرئة فجأة . وليمنع الدخان والغبار كأنه باب مُوصَد على مخرج الصوت بقدره .

والأسنان اثنان وثلاثون سِناً، فمنها ثِنْتَانِ من فوق، وثنيتان من تحت، وربَاعِيَتَانِ من فوق، ورباعيتان من تحت، ونابان من فوق، ونابان من تحت، ثم الأضراس وهي عشرون من كل جانب من الفم خمسة، فمنها الضّوآحك، وهي أربعة أضراس تلي الأنياب إلى جنب كل ناب من أسفل الفم، وأعلاه ضاحك، ثم بعد الضوآحك الطواحن، ويقال لها: الأَرْحَاءُ، وهي اثنا عشر طاحناً من كل جانب من الفم واحد من فوق، وواحد من أسفل، فالأنياب للكسر، والرباعيات للقطع، والأضراس للطحن .

وخرَزَ العنق سَبْعَ، وَقَفَّارَ الصَّدْرَ إحدى عشرة فَقْرَةً، والصدر مؤلّف من سبعة أعظم، والساعد مؤلّف من عظمين متلاصقين يسميان الزنْدَيْنِ والفوقاني الذي يلي الإبهام أدق، والسفلافي أغلظ، لأنه حامل .

وعظام الأصابع غير مجوّفة لتكون أقوى على الثبات في الحركة والقبض، وطال بعضها لتستوي عند القبض . والظفر سَدٌّ للأملة، وآلة للحكّ والتنقية .

والصُّلْبُ مَسْلُكُ النخاع، والمعدة تَهْضُمُ بجمرة في لحمها وجمرة أخرى مكتسبة من الأجسام المجاورة، والطحال مُنْفَرَشٌ تحتها من اليسار، وهو وعاء لبعض فضلاتها . وللكبد عرقان أحدهما يجذب إليها الطعام فيطبخه ويوجهه في

العرق الآخر إلى البدن ويبعث الماء منه إلى الكليتين، والرغوة الصفراوية إلى المرارة، والرسوب السوداوي إلى الطحال.

والقلب مخلوق من لحم قوي، ليكون أبعد من الآفات، وقد أميل يسيراً إلى اليسار ليعبد عن الكبد، وله زائدتان كالأذنين فهما كخِرَانتَيْن يَتَقَبَلان النسيم، ويُرسلانه إلى القلب بقدر.

والمرارة كيسٌ معلق من الكبد إلى ناحية المعدة، تجذب الخلط الغليظ والمرار الأصفر، فينقي الكبد عن الفضول ويسخنها، ولولا أن المرارة تجذب المرارة الصفراء لسرت إلى البدن مع الدم، فتولد منها البرقان الأصفر، فهي تجذبه وتغذف منه جزءاً إلى المعى، فيغسل ما فيها من الأثقال بلذعه وتحريكه لها، وجزءاً إلى المعدة ليعينها بجزارتها على الهضم.

وجميع عظام البدن بعدد أيام السنة يظهر منها للحبس مائتان وخمسة وستون، والباقية صغار تسمى السّمسمانية.

وقد روى مسلم في أفرادهِ من حديث عائشة رضي الله عنها عن النبي ﷺ أنه قال: « خُلِقَ كُلُّ إنسانٍ من بني آدم على ستين وثلاث مائة مَفْصَلٍ، فمن كَبَّرَ اللهُ وَحَمِدَ اللهُ وَهَلَّلَ اللهُ وَسَبَّحَ اللهُ وَاسْتَغْفَرَ اللهُ وَعَزَلَ حجراً عن طريق الناس، أو شوكة أو عظماً، أو أمر بمعروف، أو نهى عن منكر عدّد تلك الستين والثلاثمائة، فإنه يمشي حينئذ وقد زَحَرَخَ نفسه عن النار.»

وعضل البدن خمسمائة وتسع وعشرون عضلة.

والمرارة بيت الصفراء، والرئة بيت البلغم، والطحال بيت السوداء، والمثانة بيت البرودة والكلية بيت الشهوة، والقلب بيت النفس.

وفي بعض هذا ما يحرك الفكر فيوجب العلم بعظمة الخالق سبحانه، فيحث على امتثال أمره واجتناب نواهيه.

وقد كان بعض العلماء في مَرَكَبِ فهاج البحر، فأخَرَجَ كتابَ التشريح

ونشره نحو السماء كالمستشفع به، فأنكر قومٌ ذلك، فقال بعض العلماء: كأن يقول: يا من هذا من آثار حكمته وصنعتة اكشف عنا!

الكلام على البسمة

لا تَرُقِدَنَّ لعينك السَّهَرُ
انظر إلى عَبرِ مصرِّفة
ما زِلْتَ تسمع أو ترى عَبراً
فإِذَا جَهِلْتَ ولم تجدْ أحداً
وَإِذَا نظرت تريد مُعْتَبِراً
أنت الذي تُمسي وتصبح في الـ
أنت المصرِّف كان في صِغَرِ
أنت الذي تَنعاه خَلَقْتَهُ
أنت الذي تُعْطَى وتُسَلَّبُ لا
أنت الذي لا شيء منه له
والحادثات صُروفها عَجَبٌ
يَبغي بنو الدنيا عِمَارَتِهَا
عَجَباً من الدنيا ومن غيرِ الد
ما زِلْتَ مُذْ صُوِّرْتَ في سَقَرِ
يا من يؤمِّلُ أنت منتظر
ماذا تقول وأنت في غُصَصِ
ماذا تقول وقد وُضِعْتَ على
ماذا تقول وأنت في جَدَثِ
ماذا تقول وقد لحقت بما
تَبغي البقاء ولا بقاء لنا
كم قد عَفَتْ عينٌ لها أثَرٌ

وانظر إلى ما تصنع الغَيرُ
ما دام يمكن طَرْقَكَ النظرُ
إن لم يَخُنْكَ السَّمْعُ والبَصَرُ
فَسَلِ الزَّمانَ فعنده الخَبَرُ
فانظر إليك ففِيكَ مُعْتَبِرُ
دنيا وكل أمورهِ غَرُّ
ثم استقلَّ بشخصيه الكِبَرُ
يَنعاه منه الشَّعرُ والبَشَرُ
يُنجيه من أن يُسَلَّبَ الحَذَرُ
وأحقُّ منك بمالكِ القَدَرُ
والعيش فيه الصَّفْو والكَدَرُ
وَلِيخْرِبنَ جميعُ ما عمروا
نِيا وكيف تصرَّف الغَيرُ
وستنقضي وسيُنقضي السَّقَرُ
أَمْلاً يطول، ولست تنتظرُ
ماذا تقول وأنت مُحْتَضَرُ
ظَهَرَ السَّريِرُ وأنت تُبْتَدِرُ
ماذا تقول وفوقك المدَرُ
يجري عليه الرِّيحُ والمَطَرُ
تَتعاورُ الرِّوَحَاتُ والبَكَرُ
درستُ ويَدْرُسُ بعدها الأثرُ

الدنيا مَعْبَرٌ فاقنع باليسير، وليكن همك في الرحيل والمسير، كم من جامعٍ لها

فرَّقته، ومن مُحِب لها أهلكته ومزَّقته، ومن قنع بالبلُغة فيها سلِم، ومن أكثر منها أسِف ونَدِم .

عليك بتقوى الله واقنع برزقه فخيرُ عباد الله من هو قانعُ
ولا تُهَلِّك الدنيا ولا طَمَعُ لها فقد يُهَلِّك المغرورَ فيها المطامِعُ
وصبراً على نوبات ما ناب واعترفُ فما يستوي حُرٌّ صَبُورٌ وجازعُ
أعاذلُ ما يُغني الثراء عن الفتى إذا حَشْرَجت بالنفس منه الأضالعُ

مرَّ أبو حازم رحمه الله عليه بجزار فقال: يا أبا حازم خذ من هذا اللحم.
فقال: ليس معي درهم. فقال أنا أنظرك. فقال: أنا أنظر نفسي.

وقال بكر بن عبد الله: يكفيك من الدنيا ما قنعت به .

كان ابن السَّكِّ رحمه الله يقول:

إني أرى من له قُنُوعٌ يَعْدِلُ من نالَ ما تَمَنَّى
والرزقُ يَأْتِي بلا عِناءٍ وربما فات من تَعَنَّى

كان وهب بن مُنَبِّه يعظ عطاء الخراساني ويقول له: ألم أخبر أنك تأتي الملوك
وتحمل علمك إليهم؟ يا عطاء ارض بالدُّون من الدنيا مع الحكمة، ولا تَرْضَ
بالدون من الحكمة مع الدنيا، ويحك يا عطاء إن كان يُغْنِيك ما يكفيك فإن
أدنى ما في الدنيا يكفيك، وإن كان لا يُغْنِيك ما يكفيك، فليس من الدنيا شيء
يكفيك .

نَصِفَ القُنُوعَ وأَيْنَا يَقْنَعُ أو أينَا يَرْضَى بما يَجْمَعُ
لله دَرٌّ ذوي القنَاعَةِ ما أصقَى معاشَهُم وما أوسَعُ
من كان يبغِي أن يلدَّ وأن تُهدى جوارحه فما يَطْمَعُ
فَقَرَّ النفوس بقدر حاجتها وغنَى النفوس بقدر ما تَقْنَعُ

عَمْرِي أُوَيْسَ رَحِمَةَ الله عليه، حتى جلس في قَوْصرة. وقدم بشر الخافي من
عبادان ليلاً وهو مُتَزَّرٌ بحصير. وكان أبو معاوية الأسود يلتقط الخِرْقَ من

الزابل ، ويغسلها ويلفّقها فيقال له : إنك تُكسى خيراً من هذا فيقول : ما ضَرَّهم ما أصابهم في الدنيا جَبَر الله تعالى لهم بالجنة كلّ مصيبة .

وأُتي إبراهيم بن أدهم بستين ألفاً فردّها وقال : كرهت أن أمحو اسمي من ديوان الفقراء .

رأت عُدّي فاسترأست رَحيلي
ترجّي قُفولي لها في الثَّويّ
لقد قدّفت بي صَعَب المرامِ
سأقتى العفاف وأرضى الكفافِ
ولا أتصدّي لمُدح الجوادِ
وأعلم أن ثياب الرجاءِ
وأن ليس مُستغنياً بالكثيرِ
سبيلك إن سواها سبيلي
لعلّ المنية قبل القُفولِ
واستجملت لي غير الجميلِ
وليس غنى النفس جور الخليلِ
ولا أستعدّ لمُدح البخيلِ
تُحلّ العزیز محلّ الذليلِ
من ليس مُستغنياً بالقليلِ

كتب حكيم إلى أخ له : أما بعد فاجعل القنوع ذُخراً ، ولا تعجل على ثمرة لم تُدرِك ، فإنك تدركها في أوانها عَذبة ، والمدبرُ أعلم بالوقت الذي يصلح لما تؤمّل ، فثق بخيرته لك في أمورك كلها .

أخبرنا محمد بن عمر الفقيه بسنده عن يحيى بن عروة بن أذينة قال : لما أتى أبي وجماعة من الشعراء هشام بن عبد الملك ، فأنشدوه ، فلما عرف أبي قال : أُلست القائل :

لقد علمتُ وما الإسراف من خلقي
أسعى له فيعني تطلبه
أنّ الذي هو رزقي سوف يأتيني
ولو قعدت أتاني لا يعنيني

فهلّا جلست في بيتك حتى يأتيك ؟ فسكت أبي ولم يجبه ، فلما خرجوا من عنده جلس أبي على راحلته ، حتى أتى المدينة ، وأمر هشام بجوائزهم ، فقعد أبي فسأل عنه ، فلما خبر بانصرافه ، قال : لا جرم والله ليَعلمن أن ذلك سيأتيه . ثم أضعف له ما أعطى واحداً من أصحابه وكتب له فريضتين .

إذا ضَنَّ من ترجو عليك بنفعه فدعّه فإنّ الرزق في الأرض واسعٌ
ومن كانت الدنيا مُناه وهمّه سباه المنى واستعبده المطامعُ
ومن عقل استحيى وأكرم نفسه ومن قنع استغنى فهل أنت قانعٌ

الكلام على قوله تعالى ﴿ثُمَّ إِنَّكُمْ بَعْدَ ذَلِكَ لَمَيْتُونَ﴾

يا من هو على محبة الدنيا مُتَهالك، أما علمت أنك عن قليل هالك، أما
تيقنت أن الدنيا محبوب تارك، ثم لست لها بعد العلم بها بتارك، قدر أنك ملكت
الممالك، أما الأخير سلبك من أهلك ومالك، هذا حسام الموت مسلول، ليس
بكال ولا مفلول، وكل دم أراقه مظلول، أذلّ والله أصعب الحُمس وفتك قَبراً
بالأسود الشمس، وفلّ السيف ولم يُفلّ بالترس، وساوى في القبر بين الزنج
والفرس، وأعاد الفصحاء تحت البلاء كالحرس، ومحا بالترح أثر الفرح بالعرس:

يغدو ابن آدم للمعاش فيل قاه الحِمَام بأضيق الطَّرِقِ
لا يَبْهَجَن بِمُلْكِهِ مَلِك فالبدر غايته إلى المحقِّ

أين الوالدون وما ولدوا، أين الجبارون وأين ما قصدوا، أين أرباب المعاصي
على ماذا وردوا، أما جنوا ثمرات ما جنوا وحصدوا، أما قدموا على أعمالهم في
مآلهم ووقدوا، أما خلّوا في ظلمات القبور؟ بكوا والله وانفردوا، أما ذلّوا وقلّوا
بعد أن عتوا ومرّدوا، أما طلبوا زاداً يكفي في طريقهم ففقدوا، أما حلّ الموت
فحلّ عقّد ما عقّدوا، عاينوا والله كلّ ما قدّموا ووجدوا، فمنهم أقوام شقّوا
وأقوام سعدوا:

لا والدٌ خالِدٌ ولا وِلْدٌ كلُّ جليد يَخُونه الجَلْدُ
كأن أهل القبور لم يسكنوا الدُّ ورّ ولم يَحْيِي منهم أحدٌ
ولم يكونوا إلا كهَيْئتهم لم يولدوا قبلها ولم يلدوا
يامن نعى من مضى كذاك غداً تُنعي، فبادر فقد أتاك غداً

يا ناسي الموت وهو يذكره مالك بالموت إذ أتاك يدُ
 دارك دارٌ يموت ساكنها دارك يبلي جديدها الأبدُ
 تبكي على من مضى وأنت غداً يوردك الموتُ في الذي وردوا
 لو كنت تدري ماذا يريد بك الـ مَوْتُ لأبكي جفونك السُّهُدُ

أين الذي ملكوا ونالوا؟ زالوا، وستتول إلى ما إليه آلوا، هذا مصيرنا
 يامعاشر الغافلين، واللحود بيوتنا بعد الترف واللين، والقيامة تجمعنا وتُنصّب
 الموازين، والأهوال عظيمة فأين المتفكّر الحزين ﴿إنما تُوعدون لآتٍ، وما أنتم
 بمُعجزين﴾ (١).

يا رهين الآفات والمصائب، يا أسير الطارقات النواذب، إياك وإيتا الآمالِ
 الكواذب، فالدنيا دارٌ، ولكن ليست بصاحب، أما أرتك في فعلها العجائبِ
 فيمن مشى في المشارق والمغرب، ثم أرتك فيك شيب الذوائب، إن سهام الموتِ
 لَصوائب، لا يردها محارب ولا يفوتها هارب، تدبّ إلينا ديبب العقارب، بينا
 نسمع صوت مزهر، صار صوت نادب، يا أسير حب الدنيا، إن قتلتك من
 تطالب، كأنك بك قد بيت فرحاً مسروراً فأصحت ترِحاً مثبوراً، وتُرك
 مالك لغيرك موفوراً، وخرج من يدك، فصار للكُلّ شورى، وعانيت ما فعلت
 في الكتاب مسطوراً، وعلمت أنك كنت في الهوى مغروراً، واستحالت صبا
 الصبّا، فعادت ذبوراً، وأسكنت لحداً تصير فيه مأسوراً، ونزلت جدتاً خرباً إذ
 تركت قصرأ معموراً، ودخلت في خبر كان ﴿وكان أمر الله قَدراً
 مقدوراً﴾ (٢).

وما هذه الدنيا بدار إقامة فيحزن فيها القاطنُ المترحلُ
 هي الدار إلا أنها كمفازة أناخ بها ركبٌ وركبٌ تحمّلوا
 وإنا لمن مرّ الجديدين في الوغى إذا مرّ منها جحفل كَرَّ جحفلُ
 تجرد نصلًا والخلائقُ مفصلٌ وتنبض سهماً والبرية مقتلُ

(٢) الأحزاب ٣٨.

(١) الأنعام ١٣٤.

وما خَلَفْنَا مِنْهَا مَفَرًّا لِهَارِبٍ فكيف لمن رام النجاةَ التخيُّلُ
وكلٌّ وإن طال الثَّوَاءُ مصيره إلى مَوْرِدٍ ما عنه للخَلْقِ مَعَدْلُ

الموت مُسْرِعٌ مجذَّ غير راثٍ، والأموال عن قليل تَمْضِي للوارث، وكأنك
بوقوع الحادثات وحصاد الحارث، يا طويل الأمل هل قلبك لابت، لا تسمعن
المحال، فلست بماكث، يا مطالباً بالحِجَّة، وهو لاعب عابث، يا معاهداً باللسان
والعزم ناكث، يا من أعماله إذا فتَّتَتْ خباثت، صرَّح الشَّيْب، وطال ما مَجْمَع
ووضَّح فجره، وما كان قد تبَلَّج، أوضَّح طريق الحذر وبين المنهج، أين
الشباب؟ رحل مُسْرِعاً وهَمَلَج، إنَّ نار الفراق في القلب تتأجَّج، إن فؤاد
المتفكر يكاد أن ينضج، هذه خيول الرحيل قد أقيمت تُسْرَج، والشكوك قد
أزيلت والحق أبلَّج، هذا وأنت بالمعاصي مُعْرَى وتَلْهَج، لك كأس من المنون
صِرْف لا يُمَزَّج، يا من هو في الكفن عن قليل مُدْرَج، يا لابساً حَلَّة من البلاء
لم تُنْسَج، يا من بضاعته إذا نُقِدت كلها بَهْرَج، يا سالكاً طريق الهوى عَوْسَج،
كيف الطمع في المرتجى والباب مُرْتَج، يا من ضيقت الذنوب خِناقَه أين المخرج،
يا عظيم فقرك في القبر من منك أحوج، ما هذا الغرور أيّ مطمئن لم يُزَعَج:

أخَلَقَ الدهرُ الشَّبَابَ الحَسَنَا ما أظن الوقتَ إلا قد دَنَا
قد قَطَعْنَا في التصابي بُرْهَةً وجررْنَا في الذنوب الرَسَنَا
وركبنا عَيْنًا جهلاً به فوجدناه علينا لا لنا
وشرَّينا الدُّونَ بالدِّينِ فما عُذْر من قد باع ببيعاً غُنَا

لقد بان السبيل ولاح المنهج، فما للقلب عن الهدى قد عرَّج، أما يُزَعجك
الترهيب؟ أما يَشُوقُكَ الترعيب؟ إلام تروغ عن النصح روغان الذَّيْب، وتلفَّت
إلى أحاديث المني الأكاذيب قف على باب ﴿وإن كُنَّا لخطائين﴾ (١) لتسمع: «لا
تترَّيب»، من التوفيق رَفُض التواني، ومن الخذلان مسامرة الأمانِي.

(١) يوسف ٩١.

إخواني: نذيركم قد صدق، والمجتهد قد سبق، وقد مضى نهارُ العمر، وبقي الشفق، وآخر جرعة اللذة شرّق، وصاحب الدنيا منها على فرق. رب غصن ناضر كسير إذا سبق، رب زرع قامت سوقه رماه العرق. أين الرقيق ساقه سواق ما رفق، هذا وكلكم يدري أين انطلق، أما رأيتم مضجعه في القبر بالحدق، واعجباً لقلب المتفكر كيف ما احترق، أما شاهدتموه وقد تقطعت منه العلق، وتقمّص بعد عرّيه جلاباب الخوف والفرق، وخرس لسانه، وقد طال ما نطق:

فما تزودّ مما كان يجمعه إلا حنوطاً غداة البيّن في خرق
وغير نفخة أعوادٍ يشبّ له وقلّ ذلك من زادٍ لمنطلق

أيها المتيقظون وهم نائمون، أبنون ما لا تسكنون، وتجمعون ما لا تأكلون، كونوا كيف بشتم فستنقلون ﴿ثم إنكم بعد ذلك لميتون﴾^(١). يا مقيمين سرحلون، يا مستقرين ما تتركون، يا غافلين عن الرحيل ستظعنون، أراكم متوطنين تأمنون المنون ﴿ثم إنكم بعد ذلك لميتون﴾.

طول نهاركم تلعبون، وطول ليلكم ترقدون، والفرائض ما تؤدون، وقد رضيت عن الغالي بالدون، لاتفعلوا ما تفعلون ﴿ثم إنكم بعد ذلك لميتون﴾ أما الأموال فتجمعون والحقّ فيها ما تُخرجون، وأما الصلاة فتضيعون، وإذا صليتم تنفرون. أترى هذا إلى كم يكون ﴿ثم إنكم بعد ذلك لميتون﴾ أين العتاة المتجبرون، أين الفراعنة المتسلطون، أين أهل الخيلاء المتكبرون، قدرّوا أنكم صيرتم كههم، أما تسمعون، ﴿ثم إنكم بعد ذلك لميتون﴾ ما نفعتهم الحصون، ولا ردّ المال المصون، هبت زعزع الموت، فكسرت الغصون، قدرّوا أنكم تزيدون عليهم ولا تنقصون ﴿ثم إنكم بعد ذلك لميتون﴾ تقلبوا من اللذات في فنون، وأخرجهم البطر إلى الجنون، فأتاهم ما هم عنه غافلون ﴿كم تركوا من جنات وعبور﴾ ﴿ثم إنكم بعد ذلك لميتون﴾.

لو حصل لكم كل ما تحبون، ونما جميع ما تؤتون، ونلتم من الأمانى ما

(١) المؤمنون ١٥.

تشتهون، أينفعكم حين ترحلون؟ ﴿ثم إنكم بعد ذلك لمتون﴾ . إلى متى وحتى متى تُنصحون وأنتم تكسبون الخطايا تجرحون، أأمنتم وأنتم تَسرحون ذئبًا هلاك، فلا تبرحون ﴿ثم إنكم بعد ذلك لمتون﴾ .

لا تفرحوا بما تفرحون، فإنه لغيركم حين تُطرحون، وإياكم من يراكم من يراكم تَمرحون، قد خسرتم إلى الآن فما ترجون ﴿ثم إنكم بعد ذلك لمتون﴾ .

ويحكم الدنيا دار ابتلاء وفتون، وقد زجركم عنها المفتون، وكم رأيت من هالكٍ بها مفتون، وكانكم بكم قد حملتم على المتون، كم أدلكم على النظافة وتختارون الأتون.

المجلس الثاني

في ذكر السموات وما فيهن

الحمد لله الذي رفع السموات مزينة بزينة النجوم، ومثبت الأرض بجبال في أقاصي التخوم، عالم الأشياء بعلم واحد، وإن تعدد المعلوم، ومقدر المحبوب والمكروه والمحمود والمذموم، لا ينفع مع منعه سعي، فكم مجتهد محروم، ولا يضر مع إعطائه عجز فكم عاجز وافر المقسوم، اطلع على بواطن الأسرار، وعلم خفايا المكتوم، وسمع صوت المريض المدنف المحروم، وأبصر وقع القطر في سحاب مركوم ﴿وَمَا نُنزِلُهُ إِلَّا بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ﴾ (١).

جل أن تحيط به الأفكار، أو تتخيله الوهوم، وتكلم فكلامه مسموع مقروء مرقوم، وقضى فقضاؤه إذا شاء إنفاذه محتوم، وبتقديره معصية العاصي، وعصمة المعصوم، ﴿اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ﴾ (٢).

قضى على الأحياء بالمات، فإذا بلغت الحلقة فات المقصود المرام، وعزّ المطلوب المروم، ونقل الآدمي عن جملة الوجود إلى حيز المعدوم، وبقي أسير أرضه إلى يوم عرضه والقدوم، فإذا حضر حسابه نُشر كتابه المختوم، وجوزي على ما حواه المكتوب، وجمعه المرقوم ﴿وَعَنَتِ الْوُجُوهُ لِلْحَيِّ الْقَيُّومِ﴾ (٣).

أحمده حمداً يتصل ويدوم، وأشهد أنه خالق الأعيان والرسوم، وأصلي على رسوله محمد صلاة تبلغه على المروم، وعلى صاحبه أبي بكر الصديق على السائل والمحروم، وعلى عمر المنتصف بين الظالم والمظلوم، وعلى عثمان المتهدج إذا رقد

(٣) طه ١١١.

(٢) البقرة ٢٥٥.

(١) الحجر ٢١.

النَّوْم ، وعلى عليّ الذي حاز الشرف والعلوم ، وعلى عمه العباس سيد الأعمام
على الخصوص والعموم .

قال الله تعالى : ﴿ أَفَلَمْ يَنْظُرُوا إِلَى السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا وَزَيَّنَّاهَا وَمَا لَهَا
مِنْ فُرُوجٍ ﴾ (١) .

خلق الله عز وجل الماء ، فثارمنه دخان فبنى منه السموات . قال : قال أبو
القاسم ابن أبي برة : السماء بيضاء لكن من بعدها تُرى خضراء . وقال الربيع بن
أنس : السموات

أولها : مَوْجٌ مَكْفُوفٌ ،

والثانية : من صخرة ،

والثالثة : من حديد .

والرابعة : من صُفْرٍ ، أو نحاس .

والخامسة : من فضة .

والسادسة : من ذهب .

والسابعة : من ياقوتة حمراء .

وقال إياس بن معاوية : السماء على الأرض مثل القُبَّة .

وقال أبو الحسين ابن المنادي : لا اختلاف بين العلماء أن السماء على مثال الكرة
فإنها تدور بجميع ما فيها من الكواكب ، كدَوْر الكرة على قُطْبَيْن ثابتين غير
متحرّكين ، أحدهما في ناحية الشمال ، والآخر في ناحية الجنوب . وكرة الأرض
مبنية في وسط كرة السماء كالنقطة من الدائرة .

وفي حديث العباس رضي الله عنه عن النبي ﷺ أنه قال : « هل تدرّون كم
بين السماء والأرض ؟ قالوا : الله ورسوله أعلم . قال : بينها مسيرة خمسمائة سنة ،

(١) سورة ق ٦ .

ومن كل سماء إلى سماء مسيرة خمسمائة سنة . وكَفَّ كل سماء خمسمائة سنة ، وفوق السماء السابعة بحر بين أسفله وأعله ، كما بين السماء والأرض .

قال العلماء : وكذلك الأرضون السبع في كثافتها ، وبعُد ما بين الواحدة والأخرى فذلك مسيرة أربع عشرة ألف سنة ، سوى ما تحت الأرض من الظلمة والنور ، وما فوق السموات من الحُجب والظلمة إلى العرش . وهذا على قَدْر مسير الآدمي الضعيف ، فأما الملّك ، فإنه يَحْرُق ذلك في ساعة واحدة .

وفي حديث حُدَيْفَةَ رضي الله عنه عن النبي ﷺ : « إن الله عز وجل لما أْبْرَمَ خَلْقَهُ ، فلم يبق غير آدم خلق شمسين من نور عرشه ، ثم أرسل جبريل فَأَمَرَ جناحه على وجه القمر ثلاث مرات ، فمحا عنه الضوء وبقي فيه النور » .

وفي الصحيحين من حديث أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال : « إن الشمس تذهب حتى تسجد بين يدي ربها عز وجل ، فتستأذن في الرجوع فيؤذن لها » .

وأصغر النجوم بقدر الدنيا مرات . وفي السماء السابعة البيت المعمور يدخله كلَّ يوم سبعون ألف ملك ، ثم لا يعودون إليه . وبعُد السماء السابعة سِدْرَةَ المنتهى إليها ينتهي ما يعرج من الأرض ، فيقبض منها ، وإليها ينتهي ما يُهْبَطُ به من فوقها فيقبض منها .

وبعد هذا الكرسي . قال ﷺ : « ما السموات السبع في الكرسي إلا كحَلْقَةِ مُلْقَاةٍ في أرض فَلَآةٍ » ثم العرش ، وهو ياقوتة حمراء .

فأما الملائكة ففي أفراد مسلم من حديث عائشة رضي الله تعالى عنها ، قالت : قال رسول الله ﷺ : « خلقت الملائكة من نور » .

ومن أعظم الملائكة خَلْقًا حملة العرش وعددهم اليوم أربعة أحدهم على صورة البشر قد وكل بالدعاء لنسل الآدمي ، والآخر على صورة النسر قد وكل بالدعاء لأجناس الطير ، والآخر على صورة الثور قد وكل بالدعاء للنسل البهيمة ، والآخر على صورة السبع قد وكل بالدعاء لأجناس السباع ، فإذا جاءت القيامة زيد فيهم أربعة .

أخبرنا عبد الأول بن عيسى، عن محمد بن المنكدر، عن جابر قال: قال رسول الله ﷺ: «أذن لي أن أحدث عن ملك من ملائكة الله من حملة العرش ما بين شحمة أذنه إلى عاتقه مسيرة سبعمائة سنة».

أخبرنا عبد الأول بسنده عن سعيد بن أبي سعيد المقبري، عن أبي هريرة، عن النبي ﷺ: «إن الله عز وجل أذن لي أن أحدث عن ملك قد مرقت رجلاه الأرض وعنقه مثنية تحت العرش، وهو يقول: سبحانك ما أعظمك ربنا، قال: فیردّ عليه، ما یعلم ذلك الذي یحلف بن كاذبا».

وقال عبد الله بن سلام: لما خلق الله عز وجل الملائكة، واستووا على أقدامهم رفعوا رؤوسهم إلى السماء فقالوا: ربنا مع من أنت؟ قال: مع المظلوم حتى يؤدّي إليه حقه.

فأما أعمال الملائكة، فجمهورهم مشغول بالتعبّد كما قال الله سبحانه وتعالى ﴿يَسْبَحُونَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ﴾ (١).

أخبرنا ابن الحصين بسنده عن مؤرّق، عن أبي ذر رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إني أرى ما لا ترون وأسمع ما لا تسمعون، أطّت السماء وحقّ لها أن تئطّ، ما فيها موضع أربع أصابع، إلا عليه ملك ساجد».

ومن الملائكة موكل بعمل، فمنهم حملة العرش قد وكلوا بحمله، وجبريل صاحب الوحي والغلظة، فهو ينزل بالوحي، ويتولى إهلاك المكذّبين، وميكائيل صاحب الرزق والرحمة وإسرافيل صاحب اللوح والصّور، وعزرائيل قابض الأرواح، وله أعوان وهؤلاء الأربعة هم المقسمات أمراً. ومنهم كتّاب على بني آدم وهم المقبّات، ملكان في الليل وملكان في النهار.

أخبرنا هبة الله بن محمد، أنبأنا الحسن بن علي، أنبأنا أحمد بن جعفر، حدثنا عبد الله بن أحمد، حدثني أبي، حدثنا عبد الرزاق، حدثنا معمر، عن همام،

(١) الأنبياء ٢٠.

عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ أنه قال: « الملائكة يتعاقبون فيكم ، ملائكة بالليل وملائكة بالنهار ، ويجتمعون في صلاة الفجر ، وصلاة العصر ، ثم يعرج إليه الذين باتوا فيكم فيسألهم وهو أعلم: كيف تركتم عبادي؟ فقالوا: تركناهم وهم يصلون وأتيناهم وهم يصلون » .

أخرجاه في الصحيحين .

ومنهم موكل بالشمس ، ومنهم موكل بالقطر ، والرعد صوت ملك يزرع السحاب ، والبرق ضربه إياه بمخاريق . ومنهم موكل بالرياح والأشجار . قال ابن عباس رضي الله عنهما : ليس من شجرة تخرج إلا معها ملك موكل بها .

ومنهم ملائكة سيّاحون في الأرض يتبعون مجالس الذكر ، وملائكة يبلّغون رسول الله ﷺ من أمته السلام ، وملائكة موكلون بمكة والمدينة ليمنعوا عنهما الدجال إذا خرج .

ومن الملائكة من هو مشغول بغرس شجر الجنة .

قال الحسن : إن أحدهم ليفتر فيقال له : مالك؟ فيقول : فتر صاحبي عن العمل . فكان الحسن يقول : أمدّوهم رحكم الله .

وقال كعب : إن في الجنة ملكا يصوغ حلية أهل الجنة منذ يوم خلق إلى أن تقوم الساعة !

أخبرنا محمد بن ناصر ، عن صفوان بن عمر وقال : سمعت خالد بن معدان يقول : إن لله عز وجل ملائكة أربعة يسبحون تحت العرش ، يسبح بتسبيحهم أهل السموات ، يقول الملك الأول : سبحان ذي الملك والملكوت . ويقول الثاني : سبحان ذي العزة والجبروت ويقول الثالث : سبحان الحي الذي لا يموت .

وقال هارون بن رثاب : حلة العرش ثمانية يتجاوبون بصوت رخم تقول أربعة : سبحانك وبمحمدك على حلمك بعد علمك ، وتقول الأربعة الأخر : سبحانك وبمحمدك على عَفْوِكَ بعد قُدْرَتِكَ .

وقال سعيد بن جبير: « أتى جبريلُ النبيَّ ﷺ فقال: إن أهل السماء الدنيا سجدوا إلى يوم القيامة، وأهل السماء الثانية ركعوا إلى يوم القيامة، وأهل السماء الثالثة قيام إلى يوم القيامة ». وقد روينا أن ملكاً نصفه من نار، ونصفه من ثلج، وهو يقول: يا من أَلَّفَ بين الثلج والنار، فلا النار تذيب الثلج، ولا الثلج يطفىء النار، أَلَّفَ بين عبادك المؤمنين.

الكلام على البسمة

بينما المرء غافل إذ أتاه	من يد الموت سالب لا يُصدِّدُ
فتأهَّبُ لما له كلُّ نفسٍ	عُرْضة الأَسْرِ إنما الأمرُ جدُّ
خاب من كان همه هذه الد	نيا فأضحى من نيلها يَسْتَمِدُّ
فجَنَّها إن أسعدت مُستعار	ليس من ردّه لمن نال بُدُّ
كم أدالت من أهلها وأزالت	ذا جلال من نعمة لا تُحدُّ
بدلته من طيب معناه فقراً	عادماً ما حوى ولم يُغنِ جدُّ
أين من كان ناعم الوجه أضحى	ما له من نهاية الحسن ضيدُّ
قد محاه ثراه حين حواه	وهى معصم وكف وزندُّ
وجفا أنسه أخ كان برّاً	وصديق دان وصحب وجندُّ
واستوى في البلى رئيس ومرُّ	ؤوس وأعيان بالأسر حرُّ وعبدُّ

يا غافلاً قد طُلب، يا مخاصماً قد غُلب، يا واثقاً قد سُلِب، يا حازماً قد خُلب كأنه به قد قُلب، إياك والدنيا فما الدنيا بمأمونة، وتزوّد للسفر، فلا بد من مؤونة، إذا قدرت على الكمال فلا ترضِ دونه، واصدق في أمرك تأتلك المعونة، أين المغرورون بغرورها أين المسرورون بسرورها؟ صاح بهم الموت فأجابوا، واستحضرهم البلى فغابوا، ظنوا بلوغ الآمال وتوهموا، واعتقدوا دوام السلامة فلم يَسَلَمُوا، وأعلموا بالرحيل، وكأنهم لم يعلموا؛ وناولوا أنفسهم أعتة الهوى وسَلَمُوا، كم هتف بهم نذير الفراق فلم يفهموا، فلما بلغوا منتهى الآجال ولم يظلموا، خلّوا في الحادهم بما كانوا قدّموا.

وَلَسْنَا بِأَبْقَى مِنْهُمْ غَيْرَ أَنْنَا أَقْمَنَا قَلِيلًا بَعْدَهُمْ وَتَقَدَّمُوا

أَفْ لِنَفْسٍ تُؤْثِرُ مَا يَصِيرُهَا، مَا تَرَعُوِي، وَقَدْ مَرَّ نَظِيرُهَا، مَا تُصْنَعِي إِلَى
المواعظ، وَقَدْ قَالَ نَذِيرُهَا، أَمَا نَهَاهَا لَمَّا عَلَاهَا قَتِيرُهَا، أَمَا لَاحَ لَبِصَرِ البَصِيرَةِ
مَصِيرُهَا، أَمَا يَرْجِعُ إِلَى العُقُولِ مُسْتَشِيرُهَا، أَتَقْدِرُ عَلَى نَفْسٍ إِنْ تَلَفَتْ تَسْتَعِيرُهَا؟
قُلْ لِهَذَا النَفْسِ الجَهُولَةِ فِي فِعْلِهَا وَيَجْهَلُهَا إِنَّمَا تَسْعَى فِي قَتْلِهَا، أَمَا لَهَا عَيْرٌ مِمَّنْ كَانَ
قَبْلُهَا، كَأَنَّهَا بِهَا تَبْكِي عَلَى الأَيَامِ كُلِّهَا، إِذَا حَانَتِ المَنِيَةُ وَبَعَثَتْ بَعْضَ رَسَلِهَا،
وَعَبَثَتْ يَدُ القَاطِعِ بِمَوْصُولِ حَبْلِهَا، وَامْتَدَّتْ كَفُّ الأَجْلِ إِلَى عَرَى الأَمَلِ تَحْلُهَا.

تَسَاوَى النَّاسُ فِي طُرُقِ المَنَايَا فَمَا سَلِمَ الصَّرِيحُ وَلَا الهَجِينُ
تَدْيِيًا البَقَاءِ مِنَ اللَّيَالِي وَمِنْ أرواحنا تُوقِى الدِّيُونُ
كَأَنَّا قَدْ شَكَّكْنَا فِي المَنَايَا وَعِنْدَ جَمِيعِنَا الخَبْرُ اليَقِينُ

إِخْوَانِي: تَأَمَّلُوا العَوَاقِبَ تَأَمَّلْ مِنْ يَرِاقِبِ، وَتَفَكَّرُوا فِي النِّهَايَةِ فَعَيْنَ العَقْلِ
تَرَى الغَايَةَ، المَوْتَ قَرِيبًا أَمَّ، كَمْ أَهْلَكَ مِنْ أُمَّمٍ، لَقَدْ ارْتَهَنَ الذَّمُّ وَتَشَبَّتَ
بِاللَّمَمِ، فَيَا مَنْ سَتَخَلَّقُ مِنْهُ الرَّمَمَ أَسْمَاعُ أُمَّ صَمَمِ، مِنْ ارْتَحَلَ بِغَيْرِ الطَّبَعِ حَسَنُ
وَخَزَمِ، مِنْ عِلْمِ شَرَفِ المَطْلُوبِ جَدًّا وَعَزَمِ، إِنَّمَا يَكُونُ الاجْتِهَادُ عَلَى قَدْرِ الهِمَمِ،
إِنَّمَا يَنَاقَسُ فِي المَطْلُوبِ عَلَى حَسَبِ القِيمِ:

وَحَبُّ دُنْيَاكَ طَبَّعَ فِي المَقِيمِ بِهَا وَقَدْ مُنِيتَ بِقِرْنٍ مِنْهُ غَلَابِ
لَمَّا رَأَيْتَ سَجَايَا الدَّهْرِ تُرْحِضُنِي رَدَدَتْ قَدْرِي إِلَى صَبْرِي فَأَعْلَى بِي
وَالعَقْلُ يَسْعَى لِنَفْسِي فِي مَصَالِحِهَا فَمَا لَطَبَعَ إِلَى الآفَاتِ جَذَابِ
احذَرُ مِنَ النَّاسِ أَدْنَاهُمْ وَأَبْعَدَهُمْ وَإِنْ لَقُوكَ بِتَبْجِيلٍ وَتَرْحَابِ
كَلَّمْتُ بِاللَّحْنِ أَهْلَ اللِّحْنِ أَوْنَسَهُمْ لِأَنَّ عَيْبِي عِنْدَ القَوْمِ إِعْرَابِي
عِنْدَ الفِرَاقِ أَسْرَابِي مَجْبَاةُ إِذْ لَسْتُ أَرْضَى لِأَرَابِي بِأَرَابِ

أَيُّهَا الشَّابُّ تَدَبَّرْ أَمْرَكَ فَإِنَّكَ فِي زَمَنِ الرِّيحِ وَوَقْتِ البَدْرِ، وَإِبَانَ الفَضَائِلِ،
احذَرُ أَنْ يَجْدَعَكَ العَدُوُّ عَنِ نَفْسِكَ هَذَا الجَوْهَرَ فَتُنْفِقَهُ بِكَفِّ التَّبْدِيرِ، تَاللَّهِ لَمْتُ
فَعَلْتَ لِتَغْرَسَ بِذَلِكَ شَجَرَةَ النَّدَامَةِ، فَيَسَاقُطُ عَلَيْكَ مِنْ كُلِّ فَنٍّ مِنْهَا فَنٌّ

حسرة. واعرف قَدْرَ ما تَوَمَّنَ به هذا الجوهر من الفضائل، واحذر من اختلاس العدو له، فصايرُ فكأن قد انقضى الموسم.

واعلم أن الشيطان يُرَاصدك ليفتنك، وقوة الطبع له عليك، والشباب شُعبة من الجنون، فاكسر عادية الهوى بوهن أسبابه.

وقال أبو موسى: طوبى لمن وقى شرَّ شبابه. وقال أبو بكر ابن عيَّاش: وددتُ أنه صُفح لي عما كان في الشباب، وأن يدي قُطعت!

واعلم أنه لما كان جهاد الشباب ومخالفة الطبع صعباً صار الشابُّ التائب حبيب الله عز وجل.

إخواني: من رأى التناهي في المباديء سلِّم، ومن لم ير العواقب شغله ما هو فيه عمّا بين يديه.

يا هذا: أمّا ما قد مضى من ذنوبك، فليس فيه حيلة إلا التدارك، فرب مُدرك لما فات، الأسى بالأسى. وأنا أضرب لك مثلاً لتحذر فيما بعد جنس ما كان قبل: إذا راق الحلواء لمحموم اعترك الهوى والعقل، فالهوى ينظر إلى العاجل، والعقل يتلمّح العواقب، فإن آثر مشورة العقل منع نفسه عمّا تشتهي نظراً إلى ما إليه الصبر ينتهي، فإذا زالت حمّاه تناول من غير أذى ما اشتهاه، وإن اجتذبه رائق المشتهى فأنساه المنتهى تمّتّع يسيراً ببلوغ الغرض، فزاد به ذلك المرض، وربما ترقّى إلى الموت، ولا تدارك بعد القوت. فيا عجباً لمختار العاجل، وهو يعلم ندمه في الآجل، لقد ضيّع موهبة العقل الذي به شرف الآدمي، وزاحم البهائم في مقام النظر إلى الحاضر.

الكلام على قوله تعالى

﴿وَتَرَى كُلَّ أُمَّةٍ جَانِيَةً﴾ (١)

الجانية: الجالسة على الرُّكب. والمعنى أنها غير مطمئنة، والأقدام يوم القيامة

(١) الجانية ٢٨.

مثل النَّبْلِ في الجعبة، والسعيد من يجد لقدميه موضعاً.

قوله تعالى ﴿كُلُّ أُمَّةٍ تُدْعَى إِلَى كِتَابِهَا﴾ (١) فيه قولان:

أحدهما: كتاب حسناتها وسيئاتها. رواه أبو صالح عن ابن عباس.

والثاني: كتابها الذي أنزل على رسولها. ذكره الماوردي.

قال ابن مسعود: الأرض كلها نار يوم القيامة والجنة من ورائها يرون أكوابها وكواعبها، ويَعْرِقُ الرجل حتى يرشح عرقه في الأرض قامةً، ثم يرتفع إلى أنفه وما مسّه الحساب بعد. قالوا: وممّ ذاك؟ قال: مما يرى الناس يُصنع بهم. قيل له: فأين المؤمنون؟ قال: على كراسي قد ظلّل عليهم بالغمام ما طول ذلك اليوم عليهم إلا كساعة من نهار.

يا من قد ملأ كتابه بالقبيح، وهو عن قليل رهن الضريح، ألا تمحو قُبْح ما سَطَرْت، هَلَّا تدبرت ما تُمَلِّي ونظرت، لقد سوّدت الكتاب بالزلل، وأكثر ما دخل المنطق الدّخْل، وحتّام وإلام؟ أتقي شيء بعد وهن العظام؟

يا دائماً على هجره وإعراضه، يا ساعياً في هواه وأغراضه، يا من قد أخذ بناء جسمه في انتقاضه، عليل الخطايا لا يزال في إمرضه، هذا عسكر المات قد دنا بارتكاضه، هذا برق العتاب قد لَجَّ بإيماضه، كيف قدر جفن العاصي على إغماضه، كيف ينسى ما قد مات قدماً من أبعاضه، ولو سمع صخرُ الفلاة لومك، أو ذاق الألم من إمضاضه، لعادت جلاميدُ الفلاة كَرَصْرَاضه، يا من يعلم غلط عُذْره، ووجه إدحاضه، يا ساعياً إلى ما يؤذي بركاضه، يا هاجراً نصيحه ليته أبغض قبيحه كإبغاضه، استقرض المالكُ بعض مالك، وتقعّد عن إقراضه، لقد أندرِك سهمُ الردى وقوعه قبل إنباضه، فأحدّد حدّ حديدته وأسنّه بمقراضه:

بادرْ بمعروفك آفاتِه فبئنة الدنيا على القُلْعَة

(١) الجانية ٢٨.

وازرع زروعاً يُرتضى ريعها يوماً فكلُّ حاصدٍ زرعه
أف لعيش آخره الندامة، آه من سفرٍ نهايته بداية القيامة.

إخواني: هذا نذير الموت قد غدا يقول: الرحيلُ غدا، كأنكم والله والأمر
معا، طوبى لمن سمع فوعى، كيف بكم إذا صاح إسرافيل في الصُّور بالصُّور،
فخرجت تسعى من تحت المدر، وقد رُجَّت الأرض، وبُستت الجبال، وشخصت
الأبصار لتلك الأهوال، وطارت الصحائف فقلِّق الخائف، وشاب الصَّغار، وبان
الصَّغار، وزفرت النار، وأحاطت الأوزار، ونُصب الصراط، وآلت السِّياط،
وحضر الحسابُ وقوي العذاب، وشهد الكتابُ وتقطعت الأسباب، فكم من
شيخ يقول: واشيبتاه، وكم من كهلٍ ينادي: واخيبتاه، وكم من شاب يصيح:
واشباباه، برزت النارُ فأحرقت، وزفرت غضباً فمزقت، وتقطعت الأفتدة
وتفرقت، وقامت ضوضاء الجدل، وأحاط بصاحبه العمل، والأحداقُ قد سالت
والأعناقُ قد مالت، والألوانُ قد حالت، والمحنُ قد توالى، أين عدتُّك لذلك
الزمان، أين تصحيح اليقين والإيمان، أترضى يومئذ بالخسران؟ أما تعلم أنك كما
تدين تدان؟ كم في كتابك من زلل، كم في عملك من خلل، هذا، وقد قرُب
الأجل، إي والله أجلّ، كم ضيَّعت واجباً وفرصاً، ونقضت عهداً مُحكماً نقضاً،
وأتيت حراماً صريحاً محضاً، يا أجساداً صِحاحاً فيها قلوبٌ مرصّى.

عباد الله: أطول الناس حُزناً في الدنيا أكثرهم فرحاً في الآخرة، وأشد الناس
خوفاً في الدنيا أكثرهم أماناً في الآخرة. يقول الله عز وجل: «أنا لا أجمع على
عبدٍ خوفين ولا أمنيّين، إذا أمني في الدنيا أخفته في الآخرة، وإذا خافني في
الدنيا أمنتته في الآخرة».

إخواني: المؤمن يتقلّب في الدنيا على جمرات الحذر في نيران الخوف، يهرب
العاقبة، ويجذر المعاقبة، فالنار متمكّنة من سويداء قلبه، إن هو هفاً توقّدت في
باطنه نارُ الندم، وإن تذكّر ذنباً اضطربت نار الحزن، وإن تفكر في مُنقلبه
التهبت نار الحذر، وإن صفا قلبه لمحبة خالقه صار القلب جمرَةً بنار الفرق، فإذا

ورد القيامة عادت ناره نوراً يسعى بين أيديهم وبأيمانهم، فإذا جازَ على الصراط لم تقاوم نارُ التعذيب نيرانَ التهذيب، فتنادى بلسان الاعتراف بالتفضيل: جُزُ فقد أطفأ نورك لهي!

فإن هو حضر القيامة على زلّل لم تصدق توبته منه، فأوجب ذلك خمودَ نوره فقد خبّت نارُ حذرهِ في باطن قلبه، فإذا لفحته جهنم فأحرقت ظاهره أحسّت بأثر شُعلة الخوف في باطنه فكفّت كفّها عنه. فلو قيل لها: أين شدة شدتك، وأين حديدة حدّتك لقلت: لا مقاومة لي بنيران باطنه، وإن قلت:

يُحرق بالنار من يحسُّ بها فمن هو النار كيف يحترق
هذه صفة المؤمن فأين إيمانك هذا لذي الحسنات، وقد خسر ميزانك، شأنك الخطايا فهلاً قرح شأنك يا مهملاً نفسه سيشهد جلدك ومكانك، اليقظة اليقظة يا نيام، الحذر الحذر فقد سلّ الحسام، الزهد الزهد قبل الفطام، كأنكم بكم في أثواب السقام ترومون الخلاص، وقد عزّ المرام، فستدمون على ما مضى من الآثام، وتحرس الألسن وينقطع الكلام.

إخواني: أحضروا القلوب لهذا الملام، تالله ما أكرم نفسه من لا يهينها، ولا يزينها من لا يشينها.

ودخل عثمان رضي الله عنه على غلام له يعلف ناقته، فرأى في علفها ما كره، فأخذ بأذن غلامه فعركها، ثم ندم فقال: افعل بي ما فعلت بك، فأبى الغلام، فلم يدعه حتى فعل، فجعل عثمان رضي الله عنه يقول له: شدّد شد. حتى ظن أنه قد بلغ منه مثل ما بلع، ثم قال عثمان واهاً لقصاص الدنيا قبل قصاص الآخرة.

كان القوم تحت حجر المحاسبة، وكانك مُطلق.

كان ابن السّمك يقول: ألا منتبه من رقدته، ألا مستيقظ من غفلته، ألا مُفنيق من سكرته، ألا خائف من صرّعته، أقسم بالله لو رأيت القيامة تخفق

بزلازل أهوالها وقد علّت النارُ مُشرفةً على أهلها، وجيء بالنبيين والشهداء
لسرك أن يكون لك في ذلك الجمع منزلة وزلفى.

أبعد الدنيا دار مُعتمَل، أم إلى غير الآخرة مُنتقل؟ كلا والله لقد صمّت
الأسماع على المواعظ، وذهلت القلوب على المنافع.

وعظ أعرابي ابنه فقال: أي بني إنه من خاف الموت بادر الفوت، ومن لم
يكبح نفسه عن الشهوات أسرع به التبعات، والجنة والنار أمامك.

فياليتني هامداً لا أقومُ إذا نهضوا ينفضون اللّم
ونادى المنادي على غفلةٍ فلم يبق في أذنٍ من صمّم
وجاءت صحائفٌ قد ضمّنت كباثر آثامهم واللّم

(سجع)

يا أسفاً للعصاة في مآبها، إذا قلقت لقطع أسبابها، وغابت في الأسى عند
حضور عتابها ﴿كلّ أمة تُدعى إلى كتابها﴾. قامت الأمم على أقدامها فأقامت
تبكي على إقدامها، وسالت عيونٌ من عيون غرامها ندماً على آثامها في أيامها
واحتقابها ﴿كلّ أمة تُدعى إلى كتابها﴾.

ظهرت أهوالٌ لا توصف، وبدت أمور لا تُعرف وكُشفت حالاتٌ لم تكن
تكشف، إن لم تنتبه لهذا فأنت أعرف، ستعلم من يلوم نفسه عند عذابها ﴿كلّ
أمة تُدعى إلى كتابها﴾ قيدت جهنم فبدت بأزمّتها، فبكت النفوسُ على دناءة
همّتها، كم من ديونٍ تعلقت بذمتها، على أنه يكفيها ما بها ﴿كلّ أمة تدعى إلى
كتابها﴾.

أنت تدري ما كتابك، وستبكي والله عند عتابك، وستعلم حالك يوم
حسابك، إذا كلّت كلّ الألسن عن جوابها ﴿كلّ أمة تُدعى إلى كتابها﴾ يا له
يومٍ لا كالأيام، تيقظ فيه من غفل ونام، ويجزن كل من فرح في الآثام، وتيقن
أن أحلى ما كنت فيه أحلام، واعجباً لضحك نفس البكاء أولى بها ﴿كلّ أمة

تدعى إلى كتابها ﴿﴾.

كم من نفس ترى بعين الصلاح تفعل الخير في المساء والصبح، عملت أعمالاً
ترجو بها الفلاح، فلاح لها ما لم يكن في حسابها ﴿﴾ كل أمة تدعى إلى كتابها ﴿﴾.

ذَكَرَ اللهُ نفوسنا مُرَّ شرايها، وجعلنا ممن مدَّ باع التقوى فباع وشرى بها،
وحفظنا إذا حارت النفوس لشدة أوصايها، ورزقنا قبولَ موعظته فقد أوصى بها
﴿﴾ كل أمة تدعى إلى كتابها ﴿﴾.

المجلس الثالث في ذكر الأرض وعجائبها

الحمد لله القديم في مجده، الكريم في رِفْدِهِ، الرحيم، فكل خير من عنده، اللطيف في حال بَعْبِدِهِ، مَدَّ الأَرْضَ بقدرته والعجبُ في مَدِّهِ، وزينها بنباتها، وألوان وَرَدِهِ، وسقاها كأس القطر بواسطة بَرَقِهِ وَرَعْدِهِ، وجمع في الغصن الواحد بين الشيء وصيدِه، وَقَوْمِ الثَّارِ بِلِماءٍ من حر الشمس، وَبَرْدِهِ، إله خَوْفٍ بوعيدِه، وشَوْقٍ بوعدِه، وَقَدَّرَ فاهتدى مَنْ هَدَاهُ وَضَلَّ مَنْ لَمْ يَهْدِهِ، وسمع فلم يَعْزَبَ عن سمعه صوت المضطرِّ بعد جَهْدِهِ، وأبصر فرأى جريان دم العبد في عِرْقِهِ وَجِلْدِهِ، وعلم ما في باطن سِرِّهِ من بَرِّهِ وَحَقْدِهِ، وَعَزَمَهُ وَحَزَمَهُ، وَبُغِضَهُ وَوُدَّهُ، وَعَمَّهُ وَفَكَرَهُ، وعلمه وقصدِه، وَحَلَمَهُ وَحَبَهُ وَزَهَدَهُ، وَلَفَّهُ وَنَقَضَهُ، وَأَخَذَهُ وَرَدَّهُ، وَقَدَّرَ أَعْمَالَهُ فِي حَيَاتِهِ وَحَالَهُ فِي لَحْدِهِ، وَجَعَلَ فِي الْحِكْمَةِ نَسِيانَ أَهْلِهِ مِنْ بَعْدِهِ، فَإِنْ كَانَ صَالِحاً عَبَّقَ فِي قَبْرِهِ نَشْرُ وَرَدِهِ، وَإِنْ كَانَ عَاصِياً خَلَّى بِقَبِيحِهِ وَخَطِيءٍ بَبُعْدِهِ، فَسَبْحَانَ مَنْ لَا يَعْتَرِضُ الْعَقْلَ عَلَى أَعْمَالِهِ، بَلْ يَقِفُ عَلَى حُدِّهِ ﴿وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ﴾ (١).

أحده حمداً لا يَقْدِرُ الْخَلَائِقُ عَلَى عَدِّهِ، وَأَصْلِي عَلَى رَسُولِهِ وَعَبْدِهِ، وَعَلَى صَاحِبِهِ أَبِي بَكْرٍ الصِّدِّيقِ الَّذِي كَانَ الْإِسْلَامَ مُنْحَلًّا لَوْلَا قُوَّةُ شِدَّتِهِ، وَعَلَى عَمْرِ وَحِيدِ التَّنْدِيرِ فِي السِّيَاسَةِ وَفَرْدِهِ، وَعَلَى عَثْمَانَ قَائِمِ اللَّيْلِ، وَالدمع يجري على خَدِّهِ، وَعَلَى عَلِيِّ الْمَصْلِيِّ مَعَ الرَّسُولِ قَبْلَ بَلُوغِ رُشْدِهِ، وَعَلَى عَمِّهِ الْعَبَّاسِ الَّذِي أَخَذَ لَهُ الْبَيْعَةَ عَلَى جَنْدِهِ.

(١) الإسراء ٤٤.

قال الله تعالى: ﴿وَالأَرْضَ مَدَدْنَا وَأَلْقينا فيها رَواشي وَأُنبتنا فيها من كل شيء مَوْزُون﴾ (١).

قال ابن عباس: خلق الله عز وجل الماء، فكان على متن الريح، وخلق الحوت فوق الماء ثم كبس الأرض عليه فاضطرب النون فمادت الأرض، فأثبتت بالجبال.

وقال السُّدِّي عن أشياخه: أخرج الله عز وجل من الماء دخاناً سماً عليه، فسماه سماء، ثم أيس الماء فجعله أرضاً واحدة، ثم فتقها فجعلها سبع أرضين، فالأرض على حوت في الماء، والماء على ظهر صفاة، والصفاءة على ظهر ملك، والملك على صخرة، والصخرة والحوت في الريح قال وهب: واسم الحوت بهموت.

وقال قتادة: عُمُران الأرض أربعة وعشرون ألف فرسخ في مثلها، فالسُّدِّي والهند من ذلك اثنا عشر ألف فرسخ في مثلها، وهم ولد حام، والصين ثمانية آلاف فرسخ في مثلها وهم ولد يافث. والروم ثلاثة آلاف فرسخ في مثلها، والعرب ألف فرسخ، وهم والروم جميعاً من ولد سام.

عن النبي ﷺ قال: «لما خلق الله الأرض جعلت تَمِيد فخلق الجبال، فألقاها عليها فاستقرت، فتعجبت الملائكة من خلق الجبال فقالت: يا رب هل من خلقك شيء أشد من الجبال؟ قال: نعم الحديد. قالت: يا رب فهل من خلقك شيء أشد من الحديد؟ قال: نعم النار. قالت: يا رب فهل من خلقك شيء أشد من النار؟ قال: نعم الماء. قالت: يا رب فهل من خلقك شيء أشد من الماء؟ قال: نعم الريح. قالت: يا رب فهل من خلقك شيء أشد من الريح؟ قال: نعم ابن آدم يتصدق بيمينه يخفيها عن شماله.»

قال العلماء: أول جبل وضع على الأرض جبل أبي قُبَيْس، وكان أول من بني فيه رجل يقال له أبو قُبَيْس، فسمي بذلك. وكان يقال له في الجاهلية

(١) الحجر ١٩.

الأمين، لأن الركن كان مستودعاً فيه من زمان الطوفان، وهو أحد الأخشين.
ومن مشاهير الجبال جبل ثور بمكة، والحجون جبل واحد بالمدينة، وجبل العرج
بين مكة والمدينة يمضي إلى الشام حتى يتصل بلبنان، ثم يتصل بجبال أنطاكية
والمصيصة، فيسمى هنالك اللكام.

وفي سرنديب الجبل الذي أهبط عليه آدم وعليه العود والفلفل وفيه دابة
المسلك، وجبل الروم الذي سدّ فيه ذو القرنين على يأجوج ومأجوج طوله
سبعائة فرسخ وينتهي إلى البحر المظلم.

وقد ذكر قدامة أن الذي وجد في الإقليم الأول من الجبال تسعة عشر، وفي
الإقليم الثاني سبعة وعشرون جبلاً، وفي الإقليم الثالث أحد وثلاثون، وفي الرابع
أربعة وعشرون، وفي الخامس تسعة وعشرون، وفي السادس أربعة وعشرون،
وفي السابع أربعة وعشرون أيضاً. فجميع ما عرف من الجبال مائة وثمانية
وتسعون جبلاً. وقد أحصيت المعادن كاللجص والنورة، فوجدوها سبعائة معدن.

**والأقاليم سبعة: فالإقليم الأول: الهند، والثاني: الحجاز، والثالث: مصر،
والرابع: بابل، والخامس: الروم، والسادس: الترك ويأجوج ومأجوج،
والسابع: الصين. ومقدار كل إقليم سبعائة فرسخ. والبحر الأعظم محيط بذلك
كله يحيط به جبل قاف. وأما الأنهار فمنها: النيل والفرات ودجلة وسيحان
وجيحان.**

وكان قد أوحى الله تعالى إلى دانيال عليه السلام: احفر لي نهرين بالعراق
فقال: إلهي بأي مساح، وبأي رجال؟ فأوحى إليه أن أعد سكة حديد،
وعرضها، واجعلها في خشبة فألقها خلف ظهرك، فإني باعث إليك الملائكة
يعينونك، فحفر فكان إذا انتهى إلى أرض أرملة، أو يتيم حاد عنها حتى حفر
دجلة والفرات.

ومن العجائب في الدنيا: عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما قال: من
العجائب التي وصفت في الدنيا أربع: منارة الإسكندرية عليها مرآة حديد يقعد

القاعد تحتها قبل طلوع الشمس وقبل غروبها، فيرى من بالقسطنطينية وبينها
عَرْض البحر. وسوداني من نحاس على قضيب من نحاس على باب الشرقي
برومية. فإذا كان أوان الزيتون صفر ذلك السوداني، فلا يبقى سودانية إلا
جاءت معها بثلاث زيتونات: زيتونتان في رجلها، وزيتونة في منقارها فألقته
على ذلك السوداني، فتحمل أهل رومية فيعصرون ما يكفيهم لسُرْجهم وإدامهم
إلى العام المقبل. ورجل من نحاس بأرض اليمن مادّ يده إلى وراء يقول: ليس
ورائي مذهب ولا مَسْلُك، وهي أرض رَجْرَاجَة لا يستقر عليها الأقدام غزاها
ذو القرنين في سبعين ألفاً، فخرج عليهم نمل كالبخاقيّ، فكانت النملة تحطف
الفارس عن فرسه. وبطة من نحاس على عمود من نحاس فيما بين الهند والصين.
فإذا كان يوم عاشوراء شربت البطة من الماء حاجتها، ومدت منقارها، فيفيض
من فيها من الماء ما يكفيهم لزروعهم ومواشيهم إلى العام المقبل.

قال العلماء: أول من سكن الأرض الجن، وكانوا يعبدون الله عز وجل، ثم
تناول بعضهم بعضاً بالقتل. قال ابن عباس: الجن ضعفاء الجان.

قال مجاهد: ملك الأرض كلها أربعة: مؤمنان وكافران، فأما المؤمنان:
سليمان بن داود، وذو القرنين عليها السلام. والكافران: نمرود وبخت نصر.

وقال كعب: ساكن الأرض الثانية الريح العقيم، وساكن الأرض الثالثة
حجارة جهنم، وفي الرابعة كبريت جهنم، وساكن الأرض الخامسة حيات جهنم،
وساكن الأرض السادسة: عقارب جهنم، وفي السابعة إبليس موثق يد أمامه، ويد
خلفه، ورجل أمامه، ورجل خلفه، فتأتيه جنوده بالأخبار في مكانه ذلك.

فأما الجن فهم ثلاثة أنواع: جان وجنّ وشياطين. وكلهم خلقوا قبل آدم. وفي
الجان ثلاثة أقوال: أحدها: أنه أبو الجن. رواه الضحاك عن ابن عباس، وهو
مخلوق من مارج من نار. والمارج: لسان النار الذي يكون في طرفها إذا التهبت.

والثاني: أن الجان هو إبليس. قاله الحسن وعطاء.

والثالث: أن الجان مسيخ الجن كما أن القردة والخنازير مسيخ الإنس. رواه

عكرمة عن ابن عباس .

فأما الشيطان، فهو كل متجبر عاتٍ من الجن، وكذلك المارد والعفريت .
وفي إبليس قولان : أحدهما : أنه كان من أشرف الملائكة . والثاني : أنه كان من
الجن . قال مجاهد : لإبليس خمسة أولاد : نبر والأعور، ومسوط، وداسم،
وزلنبور . فأما نبر فهو صاحب المصائب يأمر بشق الجيوب ولطم الخدود، وأما
الأعور فيأمر بالزنا، ومسوط صاحب الكذب يلقي الرجل فيخبره بالشيء
فيتحدث الرجل به، وداسم : يوقع بين الرجل وأهله، وزلنبور يركز رايته في
السوق ويوقع بينهم .

الكلام على البسمة

أَضْحَكَ سِنَّكَ بَعْدُ الْأَمَلِ وَلَمْ يُبِكَ عَيْنَكَ قُرْبُ الْأَجَلِ
كَأَنَّكَ لَمْ تَرَ حَيًّا يُسَاقُ وَلَمْ تَرَ مَيِّتًا عَلَى مُعْتَسَلِ

قال للذين غفلوا ولعبوا كأنهم قد تعبوا، ما لهم عبرة في الذين ذهبوا، أما
الكأس بيد الساقى، ومنه شربوا .

سَيَّرَ اللَّيَالِي إِلَى أَعْمَارِنَا خَبَبُ فَمَا تَبِينِ وَلَا يَغْتَاقَهَا نَصَبُ
كَيْفَ النِّجَاءِ وَأَيْدِيهَا مَصْمَمَةٌ بَدَبْحُنَا بُدَى لَيْسَتْ لَهَا نَصَبُ
وَهَلْ يُؤْمَلُ نَيْلَ الشَّمْلِ مَلْتَمًا سَفَرٌ لَهُمْ كُلَّ يَوْمٍ رِحْلَةٌ عَجَبُ
وَمَا إِقَامَتُنَا فِي مَنْزِلٍ هَتَفَتْ فِيهِ بِنَا مُذْ سَكْنَا رَبْعَهُ نُوبُ
وَأَذْنَتْنَا وَقَدْ تَمَّتْ عِمَارَتُهُ بِأَنَّهُ عَنِ قَلِيلٍ دَائِرٌ خَرِبُ
أَزَّرَتْ بِنَا هَذِهِ الدُّنْيَا فَمَا أَمَلُ إِلَّا لَرَيْبِ الْمَنِيَا عِنْدَهُ أَرْبُ
لَيْسَتْ جَمِيعُ سَهَامِ الْمَوْتِ طَائِشَةٌ وَهَلْ تَطِيشُ سَهَامَ كُلِّهِ نَصَبُ
وَنَحْنُ أَغْرَاضُ أَنْوَاعِ الْبَلَاءِ بِهَا قَبْلَ الْمَاتِ فَمَرْمِيٍّ وَمُرْتَقِبُ
أَيْنَ الَّذِينَ تَنَاهَوْا فِي ابْتِنَائِهِمْ صَاحَتْ بِهِمْ نَائِبَاتُ الدَّهْرِ فَانْقَلَبُوا

انتبهوا يا نيام، افهموا هذا الكلام، قد بقيت لكم أيام، هذا عود الحياة قد

يبس، وتُور الشباب بالشيب منطمس، ولسان الفرح بالترّح قد خرس، وسواء في الموت المهمل والمحترس، ولا فرق عنده بين اللين والشرس.

إخواني: كم رأيتم من قبر مندرس، إخواني: كم تلي عليكم زجر ودرس.
إخواني: كأنكم في كف المختلس، إنما هو نفس منطلق وكأن قد حُبس، ترى متى ينقَى هذا القلب الدنس، إلى كم ذا المريض كل يوم ينتكس، إنما أنت بقية الراحلين فاعتبر بهم وقس:

نائباتٌ في كل يوم تنوبُ وخطوبٌ تأتي وتمضي خطوبُ
ما عجيبٌ مكر الزمان ولكن ثقة النفس بالزمان عجيبُ
كم دعيتني إلى زخارفها الدن يا فنادت منّي الذي لا يجيبُ
ومتى ساءحت خيلاً بحظّ خالفتها فاسترجعته الخطوبُ
كم إلى كم نذود عنها ونهَى غير أن القلوب ما تستجيبُ
وصلاح الأجسام سهل ولكن في صلاح القلوب يعنى الطيبُ

الدنيا بحر عجاج، ليس راكبه بناج، الدنيا كظلمة ليل داج، ليس فيها إلا الزهد سراج، هدوءها انزعاج وسكونها اختلاج، ضيقة الفجاج كدرة المزاج، لا تغرّتك، ولو ألبستك التاج، وقد خاطر من حمل في الوحل الزجاج، تريك السلامة تغريراً وتمويهاً، وتظهر المحاسن والقبائح وتخفيها، تبين كل كف كانت تبنيها، ما تعنذر إلى جريحها كبراً وتيها:

هي الدنيا فلا يغررك منها زخارف تستغر ذوي العقول
أقلّ قليلها يكفيك منها ولكن ليس تقنع بالقليل

محن الدنيا ولذاتها أنموذج ما في الآخرة، فلو أصغى سمع القلب فهم.

لما أهديت معاذة العدوية إلى صلة بن أشيم أدخله ابن أخيه الحمام، ثم أدخله بيتاً مطيباً، فقام يصلي حتى برق الفجر، فقامت فصلت. قال: فأتيته فقلت: يا عم أهديت إليك ابنة عمك فقامت تصلي؟! فقال يابن أخي أدخلتني أمس بيتاً، أذكرتني به النار، ثم أدخلتني الليلة بيتاً أذكرتني به الجنة، فما زال فكري

فيها إلى الصباح!

يا أيها الراحِل وما له رَوَاحِل، يكفي في الوعظ أربعون كَوَامِل، كلهن من فِعْل الخير عَوَاطِل، متى تسمع قول العاذِل، متى تُوَظَّر المكاتبات بالرسائل، أما أنت في صف الحرب تُقَاتِل، هذا العدو يَنْصِب الحبائل قد فَوَّق السهم، وأمَّ المَقَاتِل، إلى متى ترضى باسم جاهل، إلى متى تُؤثر لقب غافل، كم تَعِد بالتوبة وكم تماطل، أين قلبك؟ قلبك على مَراحِل.

كم أسمعك الموت وعيدك، فلم تنتبه حتى قطع وريدك، ونقض منزلك وهدم مَشِيدك، ومزَّق مالك وفرق عبيدك، وأخلى دارك وملاً بيدك، أما رأيت قَرِينك؟ أما أبصرت فقيدك، يا ميتاً عن قليل مهَّد تمهيدك، وانظر لنفسك مجتهداً، وحقَّق تجويدك، لقد أمرضك الهوى وفي عَزْمه أن يزيدك، ياعجباً للجاهل المغرور كيف يشتغل بعمارة الدُّور، قد بَعث الموت للرحيل المنشور، السَّقام أَقلامه واللحودُ السطور:

خُذْ ما صفا لك فالحياءُ غرورُ	والموت آتٍ واللييب خبيرُ
لا تعتنِ على الزمان فإنه	فلك على قُطْب الهلاك يدورُ
تَعْفُو السطور إذا تقادم عهدها	والخَلْق في رِقِّ الحياة سطورُ
كلٌّ يفرّ من الردى ليفوته	وله إلى ما قرّ منه مصيرُ
فانظر لنفسك فالسلامة نُهْزة	وزمانها ضافي الجناح يطيرُ
مرآة عيشك بالشباب صقيلة	وجناح عمرك بالمشيب كسيرُ
بادر فإن الوقت سيفٌ قاطعٌ	والعمر حيشٌ والشبابُ أميرُ

قوله تعالى

﴿فَإِذَا انشَقَّتْ السَّمَاءُ فَكَانَتْ وَرْدَةً كَالدِّهَانِ﴾ (١)

قال المفسرون: تنفرج السماء من المجرة لنزول من فيها يوم القيامة. ﴿فكانت

(١) الرحمن ٣٧.

وَرْدَةٌ كالدَّهَانِ ﴿١﴾. فيها قولان: أحدهما: أنها الفرس الوردة تكون السماء كلونها. قاله أبو صالح والضحاك. قال الفراء: الفرس الوردة تكون في الربيع إلى الصُّفْرَةِ، فإذا اشتد الحرّ كانت حمراء، فإذا كان بعد ذلك كانت إلى العُبْرَةِ. فشبهه تلون السماء بتلون الوردة من الخيل. قال الزجاج: الكُمَيْت: الورد يتلون، فيكون لونه في الشتاء خلاف لونه في الصيف، ولونه في الفصل خلاف لونه في الشتاء والصيف، فالسما تتلون من الفزع.

والثاني: أنها وردة النبات، وقد تختلف ألوانها إلا أن الأغلب عليها الحمرة. ذكره الماوردي.

وفي الدهان قولان: أحدهما: أنه واحد الأديم الأحمر. قاله ابن عباس.

والثاني: أنه جمع دهن، والدهن تختلف ألوانه بخضرة وحمرة وصفرة. حكاه اليزيدي، وإلى نحوه ذهب مجاهد. وقال الفراء: شبه تلون السماء بتلون الوردة من الخيل، وشبه الوردة في اختلاف ألوانها بالدهن.

قوله تعالى: ﴿فَيَوْمَئِذٍ لَا يُسْأَلُ عَنْ ذَنْبِهِ إِنْسٌ وَلَا جَانٌّ﴾ (١) فيه ثلاثة أقوال: أحدها: لا يُسْأَلُونَ لِيَعْلَمَ حَالَهُمْ، لأن الله تعالى أعلم منهم بذلك.

والثاني: لا يُسْأَلُ بعضهم بعضاً عن حاله لإشغال كل منهم بنفسه. والقولان عن ابن عباس.

والثالث: لا يُسْأَلُونَ عن ذنوبهم لأنهم يُعرفون بسيماهم فالكافر أسود الوجه، والمؤمن أقرّ مُحجَّل من أثر وضوئه. قاله الفراء. وقال الزجاج: لا يُسْأَلُ عن ذنبه بسيفهم، ولكنه يسأل سؤال توبيخ.

قوله تعالى: ﴿يُعْرَفُ الْمُجْرِمُونَ بِسِيمَاهُمْ﴾ (٢) قال الحسن: بسواد الوجوه، وزرق الأعين ﴿فَيُؤْخَذُ بِالنَّوَاصِي وَالْأَقْدَامِ﴾ فيه قولان: أحدهما: أن خزنة جهنم تجمع بين نواصيهم إلى أقدامهم من وراء ظهورهم، ثم يدفعونهم على

(٢) الرحمن ٤١.

(١) الرحمن ٣٩.

وجوههم في النار . قاله مقاتل .

والثاني: يؤخذ بالنواصي والأقدام، يُسحبون إلى النار . ذكره الثعلبي .

وروى مردويه الصائغ قال: صلى بنا الإمام صلاة الصبح، فقرأ سورة الرحمن، ومعنا علي بن الفضيل بن عياض، فلما قرأ: ﴿يُعْرِفُ الْمَجْرَمُونَ بِسِيَاهِمُ﴾ خرّ مغشياً عليه، حتى فرغنا من الصلاة، فلما كان بعد ذلك قلنا له: أما سمعت الإمام يقرأ: ﴿حورٌ مقصورات في الخيام﴾ فقال شغلني عنها: ﴿يُعْرِفُ الْمَجْرَمُونَ بِسِيَاهِمُ﴾ .

قوله تعالى: ﴿هذه جهنم التي يكذب بها المجرمون﴾ يعني المشركين . قال رسول الله ﷺ: «يؤتى بجهنم يومئذ لها سبعون الف زمام مع كل زمام سبعون ألف ملك يجرونها» .
إنفرد بإخراجه مسلم .

قوله عز وجل: ﴿يَطُوفُونَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ حَمِيمٍ آنٍ﴾ الحميم: الماء الحار . والآني: الذي قد انتهت شدة حره . والمعنى انهم يسعون بين عذاب الجحيم، وبين الحميم إذا استغاثوا من النار جعل غياثهم الحميم الشديد الحرارة .

عن النبي ﷺ أنه قال: «إن الحميم ليصّب على رؤوسهم فينفذ الحميم حتى يخلص إلى جوفه حتى يَمْرُق من قدميه ثم يعاد كما كان» .

قوله عز وجل: ﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّاتٌ﴾ وفيه قولان: أحدهما: قيامه بين يدي ربه يوم الجزاء . **والثاني:** قيام الله على عبده بإحصاء ما اكتسب .

قال مجاهد: «وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّاتٌ» وهو الذي إذا همّ بمعصية ذكر مقام ربه عليه فيها فانتهى . وقال أبو موسى: جنتان من ذهب للسابقين وجنتان من فضة للتابعين .

قال الحسن البصري: كان في زمن عمر بن الخطاب رضي الله عنه شاب يلازم المسجد والعبادة، فعشقه امرأة فأتته في خلوة فكلمته، فحدّث نفسه بذلك فشهق شهقة فغشي عليه، فجاء عمّ له فحمله إلى بيته، فلما أفاق قال: يا

عم انطلق إلى عمر رضي الله عنه، فأقرئه مني السلام وقل له: ما جزاء من خاف مقام ربه؟ فانطلق عمه فأخبر عمر رضي الله عنه فأتاه عمر رضي الله عنه، وقد شهق فمات، فوقف عليه عمر وقال: لك جنتان.

عن النبي ﷺ قال: «سبعة يظلهم الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله: الإمام العادل، وشاب نشأ في عبادة الله عز وجل، ورجل قلبه معلق بالمساجد، ورجلان تحابا في الله اجتمعا عليه وتفرقا عليه، ورجل تصدق بصدقة أخفاها، حتى لا تعلم شاله ما تنفق يمينه، ورجل ذكر الله عز وجل خالياً ففاضت عيناه، ورجل دعت امرأه ذات منصب وجمال إلى نفسها فقال: إني أخاف الله عز وجل.»

أخرجاه في الصحيحين.

وقال يحيى ابن أبي كثير: لا يُحمد ورعٌ امرئ حتى يُشفي على طمع، ويقدر عليه، فيتركه حين تركه الله عز وجل.

آه من نفس ما يقرّ قرارها، طلعت شمس الشيب وما خبت نارها، ما لاحت لها شهوة إلا قلّ اصطبّارها، ما بانّت لها موعظة، فبان اعتبارها، كم وعظها ليّلها ونهرها نهارها، الذنب لباسها، والجهل شعارها، كم نكثت النصائح، وما تقل أوزارها، كم تقوّم وما يصلح أوزارها، كم تلاءم لطفًا وما يرعوي نفاها، كلما جذبتها أملكها زاد اغترارها، إلى كم من المعاصي، أما يلزمها عارها، أساء تدبيرها، أم قبّح اختيارها، من يأخذ بيدها إذا طال عثارها.

إن النفس إذا أطمعت طمعت، وإذا أقنعت باليسير قنعت، فإذا أردت صلاح مرضها، فبتك غرضها، احبس لسانها عن فضول كلماتها، وغض طرفها عن محرّم نظراتها، وكفّ كفها عن مؤذي شهواتها، إن شئت أن تسعى لها في نجاتها.

إخواني: علامة الاستدراج العمى عن عيوب النفس، ما ملكها عبدٌ إلا عزّ، وما ملكت عبداً إلا ذلّ:

الحرصُ في كل الأفانين يصمُّ أما رأيت كل ظَهْرٍ يتنصمُّ
وعروةً من كل حيّ تنصمُّ أما سمعت الحادِثات تختصمُّ
بل حبك الأشياء يُعْمي ويصمُّ

قال مالك بن دينار: يقول الله عز وجل: وعزتي إني لأهَمُّ بعذاب أهل الأرض، فإذا نظرت إلى أهل الجوع والعطش من مخافتِي، صرفت عنهم العذاب.

وقال ميمون بن مهران: الذِّكرُ ذِكْران: ذكر باللسان، وأفضل منه ذكر الله عند ما يُشرف عليه من معاصيه.

عن النبي ﷺ قال: كان الكِفْلُ من بني إسرائيل لا يتورَّع من ذنب، فأتته امرأة فأعطاها ستين ديناراً، فلما قعد منها مقعد الرجل أرعدت وبكت فقال: ما يبكيك؟ قالت: هذا عمل لم أعمله قط. فقال: اذهبي والذنانير لك. ثم قال: والله لا يعصي الله الكِفْلُ أبداً، فمات من ليلته، فأصبح مكتوباً على بابهِ: قد غَفَرَ اللهُ للكِفْلِ.

يا من لا يترك ذنباً يتقدر عليه، يا من أكثر عمله الذي له عليه، كم ضيَّعت في المعاصي عَصراً، كم حملت على الأزر، من الوزر أزرأ، أترضى أن تملأ الصحائف عيباً وخسراً، أما يكفي سلب القرين وعظماً وزجرأ، لقد ضيَّعت شطراً من الزمان، فاحفظ شطراً، ما أبقت لك الصحة حُجَّةً، ولا تركت عُذراً، كم نعمة نزلت بك، وما قرنتها شكراً، تقابلها بالمعاصي فتبدل العرف نُكراً، كم سترك على الخطايا، وأنت لا تُقلع دهرأ، كم نمت عن صلاة وم شربت خراً، كان الشيب هلالاً، وقد صار بدرأ، تعاهد ولا تفي إلى كم غَدراً، أطل عليك الأمد، فصار القلب صَحْراً؟ إنما بقي القليل فصبرأ يا نفسُ صبرأ.

صيا من شاب مفرقة تصابي وإن طلب الصبا والقلب صابي
أعادل راضي لك شيب رأسي ولو لا ذاك أعياك اقتضابي

كفَى بالشيب من ناهٍ مُطَاع على كُرهٍ ومن داعٍ مُجَابِ
حَطَّطْتُ إلى النهي رَحْلِي وكَلَّتْ مطيئةً بساطلي بعدَ الهَبَابِ
وقُلْتُ مسلماً للشيب أهلاً بهادي المخطئين إلى الصوابِ
يذكرني الشبابُ وميضُ بَرَقِ وسجعِ حماميةٍ وحنينِ نابِ
أفجعَ بالشبابِ ولا أعزَى لقد غفلَ المعزَى عن مُصَابِي

سجع

يا دائم الخطايا والعصيان، يا شديد البطر والطغيان، ربح المتقون، ولك
الخسران ﴿ولمن خافَ مقامَ رَبِّهِ جَنَّتَانِ﴾ يا معتكفاً على زكَّله وذنبه، لا يؤثِّر
عنده أليم عتبه، أمّا المصراً فقد طمس على قلبه، فلا ينفعه وعظ اللسان ﴿ولمن
خافَ مقامَ رَبِّهِ جَنَّتَانِ﴾.

كم خوِّفت وما تخاف، يا من إذا أمر بالعدل خَاف، الويل لك يا صاحب
الإسراف ﴿وَلَمَن خافَ مقامَ رَبِّهِ جَنَّتَانِ﴾. لو رأيت أهلَ الزَّيغِ والعنادِ
وأربابَ المعاصي والفسادِ مُقرَّتين في الأصفادِ ﴿سَرابيلهم من قَطِرانٍ﴾ (١)
﴿ولمن خافَ مقامَ رَبِّهِ جَنَّتَانِ﴾. قد سُدَّتْ في وجوههم الأبواب، وغضب
عليهم ربُّ الأرباب، والنارُ شديدةُ الالتهاَب، والعذابُ فيها ألوانٌ ﴿ولمن خافَ
مقامَ رَبِّهِ جَنَّتَانِ﴾ أعرَضَ عنهم الرَحيْمُ، ومنعهم خيرَه الكَريم، ويتقلَّبون في
الجحيمِ ﴿يَطُوفُونَ بَيْنَها وبين حِمِيمٍ أَن سَعِيرهم قد أحرَق، وزمهريرهم قد
مزَّق، ونورُ المتقين قد أشرق، ﴿متكئين على فُرُشٍ بطائنها من استبرقٍ وجنى
الجَنَّتَيْنِ دان﴾ (٢).

سارت بهم إلى الجدِّ المطايا، فأجزلت لهم جزيل العطايا، ولأرباب الخطايا
النيران. من عليهم بنعيم ما من، لا يخطر لمن يتوهم ويظن، وقد كفانا صفة
الخور من وصفهن ﴿كأنهن الباقوتُ والمرجانُ﴾.

(٢) الرحمن ٥٤.

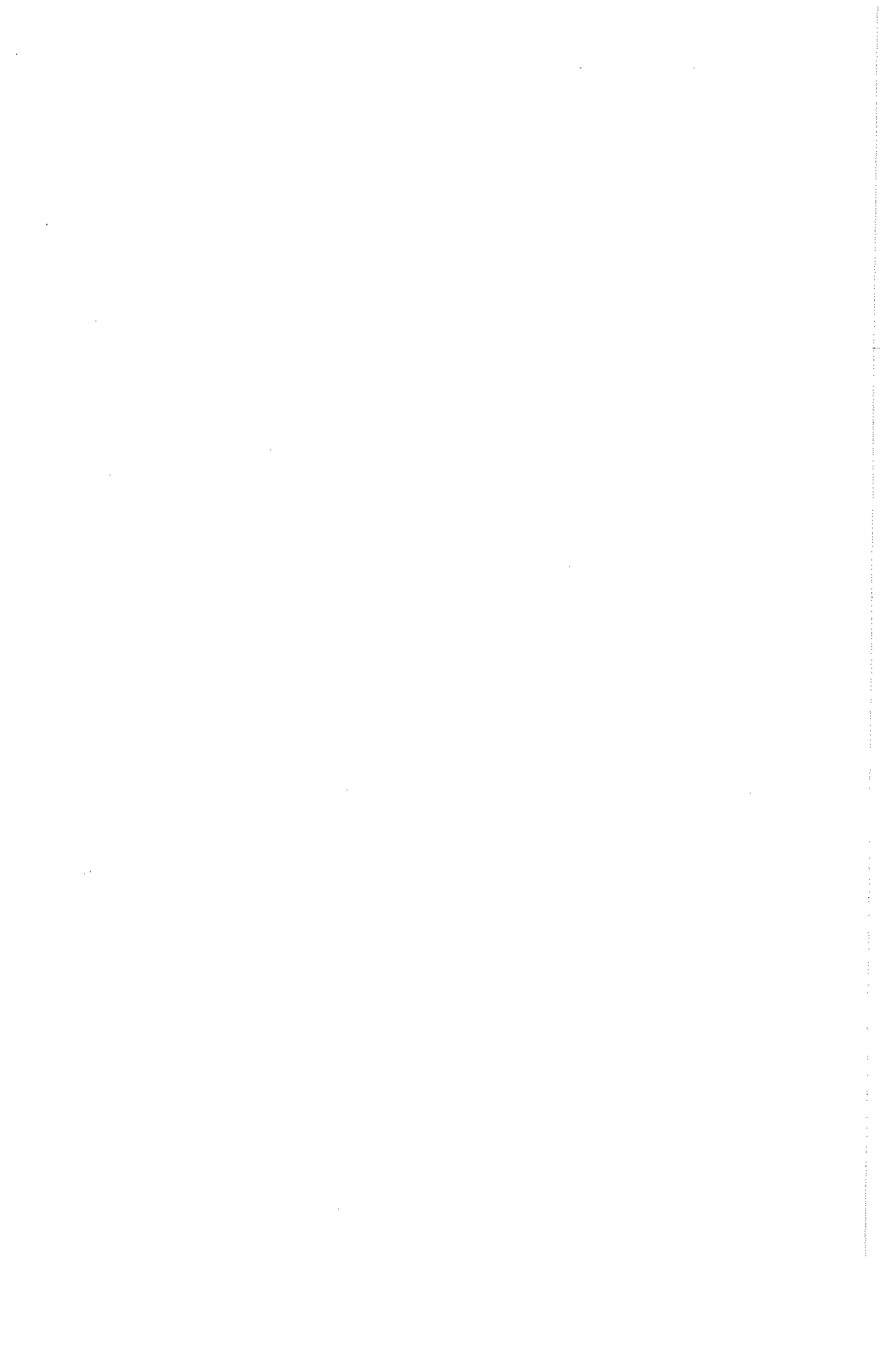
(١) إبراهيم ٥٠.

أيها العاصي قد اجتهدنا في صلاحك، وعرضنا في التجارة لأرباحك، وأنت
على المعاصي في مسائك وصباحك، وبعدُ فما نئأس من فلاحك ﴿كلَّ يومٍ هو
في شانٍ﴾ ﴿ولن خاف مقام ربه جنتان﴾ .

الطبقة الرابعة

تشتمل على فضائل العلم والمعاملات

فيها ثمانية وعشرون مجلساً



المجلس الأول في فضائل العلم والعمل

الحمد لله الذي بيده الإيجاد والإنشاء، والإماتة والإحياء، والإعانة والإبداء، والإنعام والآلاء، والرَّخَص والغلاء، والحظ والغلاء، والعافية، والبلاء، والداء والدواء، وخلق آدم، وخلق لأجله الأشياء، فمن جرَّاه كانت الأرض والسماء، والظلمات والأضواء، والصبح والمساء والرياح والماء، وعلمه العِلْم فأنجلت عنه الظلمات، وعرفه خَطَّ الخط فجاء الهجاء: الألف والباء، والتاء والثاء، والجيم والحاء والحاء والذال والذال والراء، والزاي والسين والسين والصاد والصاد والطاء، والظاء والعين والغَيْن والفاء، والقاف والكاف واللام والميم والنون والهاء والواو واللام الألف والياء.

وبثَّ من نَسَله الرجال والنساء، فمنهم العالم الذاكِر، ومنهم الجاهل النَسَاء، وأكثرهم الغافلون وأقلُّهم الألباء، وليست زَرْقاء الهامة كالأعشى، ولا النهارُ كالليل إذا يَغشى، ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾^(١).

أحمده له بتوفيقى لحمده الآلاء، وأقرَّ بأنه مالك الملك يؤتي الملك من يشاء، وينزع الملك ممن يشاء، وأصلي على رسوله محمد أشرف ركبِ حَوْتِه الببءاء، وعلى صاحبه أبي بكر الصديق مُصاحبه إن وقعت الشدة، أو الرِّخاء، وعلى عمر الفاروق الذي دوَّخ الكفر فذلت له الأعداء، وعلى عثمان الصابر وقد اشتد به البلاء، وعلى علي الذي حصل له دون الكل الإخاء، وعلى عمه العباس الذي سألت الصحابة به الغيث فسالت السماء.

(١) فاطر ٢٨

قال رسول الله ﷺ: « إن مثل العلماء في الأرض كمثل النجوم في السماء يَهْتَدَى بها في ظلمات البرّ والبحر، فإذا انطمست النجوم أوشك أن تضلّ الهداة ».

وهذا المثل من أَوْقَع المِثَال، لأن طريق التوحيد والعلم بالآخرة لا يدرك بالحِسّ، وإنما يُعْرَف بالدليل، والعلماء هم الأدلاء، فإذا فُقدوا ضلّ السالك.

وفي الصحيحين من حديث عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما، عن النبي ﷺ أنه قال: « إن الله عز وجل لا يقبض العلم انتزاعاً ينتزعه من الناس، ولكن يقبض العلم بقبض العلماء، حتى إذا لم يبق عالم اتخذ العباد رؤوساً جهّالاً، فسئلوا فأفتوا بغير علم فضّلوا وأضلوا ».

أخبرنا ابن الحصين بسنده عن صفوان بن عسّال أن النبي ﷺ قال: « إن الملائكة لتضع أجنحتها لطالب العلم رضي بما يطلب ».

وذكر أبو سلمان الخطّابي في معنى وَضَعها أجنحتها ثلاثة أقوال: أحدها: بسَط الأجنحة. والثاني: أن المراد به التواضع لطالب العلم. والثالث: النزول عند مجالس العلم وترك الطّيران، لقوله ﷺ: « ما من قوم يذكرون الله تعالى، إلّا حَفَّت بهم الملائكة ».

وفي الصحيحين من حديث سهل بن سعد رضي الله عنهم أن النبي ﷺ قال لعلي عليه السلام: « واد لأن يهدي الله بك رجلاً واحداً خير لك من أن يكون لك حُمْر النّعم ».

وروى أبو الدرداء رضي الله عنه، عن النبي ﷺ أنه قال: « من سلك طريقاً يطلب فيه علماً سلك الله به طريقاً من طرق الجنة، وإن العالم لِيَسْتَغْفِر له من في السموات، ومن في الأرض، والحيتان في الماء، وإن فضل العالم على العابد كفضل القمر ليلة البدر على سائر الكواكب، وإن العلماء ورثة الأنبياء، فإن الأنبياء لم يورثوا ديناراً ولا درهماً، وإنما ورثوا العلم، فمن أخذه أخذ بحظّ وافر ».

وقال معاذ بن جبل رضي الله عنه : تعلّموا العلم ، فإن تعلّمه لله خشية ، وطلبه عبادة ، ومُدارسته تسبيح ، والبحث عنه جهاد ، وتعليمه لمن لا يعلمه صدقة ، وبذله لأهله قرّبة ، وهو الأنس في الوحدة ، والصاحب في الخلوة .

وقال كعب : أوحى الله تعالى إلى موسى عليه السلام : أن تعلّم يا موسى الخير علمه للناس ، فإني منور لمعلم الخير ، ومتعلمه في قبورهم حتى لا يستوحشوا في مكانهم .

وقال عيسى عليه السلام : من تعلّم وعلم وعمل فذلك يدعى عظيماً في ملكوت السماء .

وقال ابن عباس رضي الله عنهما : خيرّ سليمان بن داود عليه السلام بين العلم والمال والملك ، فاختار العلم ، فأعطي المال والملك معه .

وقال بعض الحكماء : ليت شعري أيّ شيء أدرك من فاته العلم ؟ وأي شيء فات من أدرك العلم .

ولا يخفى فضل العلم ببديهية العقل ، لأنه الوسيلة إلى معرفة الخالق وسبب الخلود في النعيم الدائم ، ولا يُعرف التقرب إلى المعبود إلا به ، فهو سبب لمصالح الدارين .

قال الحسن : لولا العلماء لصار الناس مثل البهائم . وقال المعافى بن عمران : كتابة حديث واحد أحبّ إليّ من قيام ليلة .

وكيف لا يقول هذا ؟ وقد قال النبي ﷺ : « يوزن مداد العلماء مع دم الشهداء ، فيرجح مداد العلماء على دم الشهداء » .

ومن آداب العالم : أن يترك فضول الدنيا ليتبعه الناس ، فإن الاستدلال بالفعل أقوى من الاستدلال بالقول ، فإن الطبيب إذا أمر الحمية ، ثم خلط لم يلتفت إلى قوله .

أخبرنا علي بن عبد الله بسنده عن أبي همام الكلاعيّ ، عن الحسن أنه مرّ

ببعض القراء على بعض أبواب السلاطين فقال: أفرحتم جباهكم، وفرطحتم نعالكم، وجئتم بالعلم تحملونه على رقابكم إلى أبوابهم، فزهّدوا فيكم! أما إنكم لو جلستم في بيوتكم حتى يكونوا هم الذين يُرسلون إليكم لكان أعظم لكم في أعينهم، تفرّقوا فرق الله بين أعضائكم!

وقال الحسن: إن الزبانية إلى فسقة حلة القرآن أسرع منهم إلى عبدة الأوثان، فيقولون: ربنا ما بالنّا يتقدمون إلينا؟ فيقول الله تعالى: ليس من يعلم كمن لا يعلم!

أخبرنا يحيى بن علي بسنده عن الربيع بن سليمان قال: سمعت الشافعي يقول: من قرأ القرآن عظمت قيمته، ومن تفقّه نبل قدره، ومن كتب الحديث قويت حجّته، ومن تعلم اللغة رقى طبّعه، ومن تعلّم الحساب جزّل رأيه، ومن لم يصن نفسه لم ينفعه علمه.

سمعت إسماعيل بن أحمد يقول: سمعت عبد الله بن عطاء يقول: سمعت أبا نصر الحواري يقول: سمعت أبا حاتم الرازي يقول بسنده عن يونس بن عبد الأعلى يقول: سمعت الشافعي يقول: كتبت حكيم إلى حكيم: يا أخي قد أوتيت علماً، فلا تدنّس علمك بظلمة الذنوب، فتبقى في الظلمة يوم يسعى أهل العلم بنور علمهم.

والمأخوذ على المتعلم: أن يطلب العلم للعمل به. ففي الحديث: «من طلب العلم ليباهي به العلماء، أو يُماري به السفهاء، أو ليصرف وجوه الناس إليه لم يرح رائحة الجنة».

وفي أفراد مسلم من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، عن النبي ﷺ أنه قال: «إن أول الناس يقضي فيه يوم القيامة ثلاثة، فذكر منهم رجلاً تعلّم العلم وعلمه وقرأ القرآن فيقال له: ما عملت! فيقول: تعلمت فيك العلم وعلمته وقرأت القرآن. فيقال: كذبت ولكنك تعلمت، ليقال هو عالم فقد قيل. وقرأت القرآن ليقال هو قارئ وقد قيل. ثم أمر به، فسحب على وجهه حتى ألقي في النار».

أخبرنا أبو منصور، وعبد الرحمن بن محمد بسندهما عن أبي جعفر عبد الله بن إسماعيل بن توبة. يقول: رأيت أبا بكر الأدمي القاريء في النوم بعد موته، يمد يده فقلت له: تلك الليالي والمواقف والقراء؟ فقال لي: ما كان شيء أضر علي منها، لأنها كانت للدنيا. فقلت له: فإلى أي شيء انتهى أمرك؟ قال: قال لي تعالى: آليتُ على نفسي أن لا أعدب أبناء الثمانين.

الكلام على البسمة

تَبَيُّ وَنَجْمَعُ وَالْأَثَارُ تُتَدْرَسُ
 ذَا اللَّبِّ فَكَّرَ فَمَا فِي الْخُلْدِ مِنْ طَمَعِ
 أَيْنَ الْمُلُوكِ وَأَبْنَاءِ الْمُلُوكِ وَمَنْ
 وَمَنْ سِيَوْفَهُمْ فِي كُلِّ مَعْرَكَةٍ
 أَضْحَوْا بِمَهْلِكَةٍ فِي وَسْطِ مَعْرَكَةٍ
 وَعَمَّهُمْ حَدَثٌ وَضَمَّهُمْ جَدَثٌ
 كَانَهُمْ قَطُّ مَا كَانُوا وَمَا خَلَقُوا
 وَاللَّهُ لَوْ أَبْصَرْتَ عَيْنَاكَ مَا صَنَعْتُ
 لِعَايِنَتْ مَنْظَرًا تَشْجَى النُّفُوسُ بِهِ
 مِنْ أَوْجِهِ نَازِرَاتٍ حَارٍ نَازِرَهَا
 وَأَعْظَمٍ بِالْيَاثِ مَا بِهَا رَمَقٌ
 وَالسِّنُّ نَاطِقَاتٌ زَانِهَاتٌ أَدَبُ
 نَكَّسَهُمُ أَلْسُنٌ لِلدَّهْرِ فَاغْرَةٌ
 عَرَوْا عَنِ الْوَشْيِ لَمَّا أَلْبَسُوا حَلَلًا
 وَصَارَ لُبْسُ الصَّفَايَا مِنْ خَلَاتِلِهِمْ
 حَتَّمَ يَا ذَا النَّهْيِ لَا تَرَعُوي سَفَهًا

وَنَأْمَلُ اللَّبِّثَ وَالْأَرْوَاحَ تُخْتَلَسُ
 لَا بُدَّ مَا يَنْتَهِي أَمْرٌ وَيَنْعَكْسُ
 كَانُوا إِذَا النَّاسُ قَامُوا هَيْبَةً جَلَسُوا
 تُخْشَى وَدُونَهُمُ الْحَجَّابُ وَالْحِرْسُ
 صَرَغِي وَمَاشِي الْوَرَى مِنْ فَوْقَهُمْ يَطْسُ
 بَاتُوا وَهُمْ جُثَّتْ فِي الرَّمْسِ قَدْ حُسُوا
 وَمَاتَ ذِكْرُهُمْ بَيْنَ الْوَرَى وَنُسُوا
 يَدُ الْبَلَى بِهِمُ وَالِدُودُ يَفْتَرَسُ
 وَأَبْصَرْتُ نُكْرًا مِنْ دُونِهِ النُّكْسُ
 فِي رَوْنِقِ الْحَسَنِ كَيْفَ تَنْطَمَسُ
 وَلَيْسَ تَبْقَى وَهَذَا وَهِيَ تَنْتَهَسُ
 مَا شَأْنَهَا شَانَهَا بِالْآفَةِ الْخِرْسُ
 فَاهَا فَاهًا لَهُمْ إِذْ بِالرَّدَى وَكِسُوا
 مِنَ الرَّعَامِ عَلَى أَجْسَادِهِمْ وَكُسُوا
 جُونُ الثِّيَابِ وَقَدَمًا زَانَهُ الْوَرَسُ
 وَدَمْعُ عَيْنِكَ لَا يَهْمِي وَيَنْجِسُ

يا غافلاً عن نفسه أمرك عجيب، يا قتيل الهوى داؤك غريب، يا طويل الأمل ستدعى فتجيب، وهذا عن قليل وكل آت قريب، هلا تذكرت لحدك

كيف تبيت وحدك، ويُبَاشِر الثرى خدك، وتقتسم الديدان جلدك، ويضحك
المحبُّ بَعْدَكَ ناسياً عنه بَعْدَكَ، والأهل مُدُّ وجدوا المآل ما وجدوا فَعَدَكَ، إلى
متى وحتى متى تترك رشدك، أما تُحَسِّن أن تحسن إلينا قَصْدَكَ، الأمر جدُّ
مُجَدِّ فلازم جِدَّكَ.

ذَهَبَ الأَحِبَّةُ بعد طُولِ توددٍ ونَأَى المزارُ فأسلموك وأقشَعُوا
خَذْلوكَ أفقرَ ما تكون لغيره لم يؤنسوك وكُرْبَةً لم يدفَعُوا
قُضِيَ القضاءَ وصرتَ صاحبَ حُفْرَةٍ عنك الأَحِبَّةُ أَعْرَضُوا وتصدَعُوا
ووجد على قبر مكتوب:

سِعْرَضَ عن ذكري وتُنسى مودّتي ويحدث بَعْدِي للخليل خليلُ
إذا انقطعت يوماً من العيش مُدَّتِي فإن غناء الباكيات قليلُ

إلى متى هذا التخليط والموت بكم محيط، أين الأخ والخليط، بادرهما موتٌ
نشيط، كيف يلهو هذا الشَّمِيط، وله أسدٌ مُسْتَشِيط، عليه وسخٌ وما يُمِيط، لا
بل دمٌ عَيْبِط، يا ربما انقبض النشيط، تيقظ فكم هذا الغَطِيط، اقبل نصحي،
واسمع من الوسيط، يا ذا التحرك في الهوى، لا بد له من سكون، على هذا
كانت الدنيا وعليه تكون، لا يغيرتك سَهْلها فبعد السهل حُزُون، لا تنظر إلى
فرحها، فكل فرح حُزُون، تأمل فعلها بغيرك فبُغْضُ المُقْبِح يهون، إن روحك
دَيْن المات، وستقضى الديون، ما فرحها مُسْتَتَم ولا ترَحها مأمون، ما أضحكت
السنن، إلا وأبكت العيون، إياك وإيا المومِس الحُثُون، إنها لدار الغرور ومنزلٌ
للمنون، كم نلوم على الغَبْن وما يعقل المغبون، مهلاً أضعتم المواعظ قلبُ هذا
مفتون، يا لائماً لي في الهوى، ما ذا هوى هذا جنون.

أيها الغافل عما بين يديه لا يذكر الموت، ولا يلتفت إليه، شغله عن العواقب
ما لديه وألهاه ماله عمّا عليه:

يا لِقومِي للأملِ المغرورِ ولجَاج لا ينقِضي في الصدورِ
ولنفسٍ مخدوعةٍ بالأُماني ولهم مُوَكَّلٍ بسُرورِ

وانقباض الحياة عمّا يرجي
 يَلْتَحِيهِ الزَّمَانُ فِي كُلِّ يَوْمٍ
 يَتَمَنَّى فِي الْعَيْشِ مَا لَيْسَ يَلْقَا
 وَلِعَيْنِ غَفَّتْ عَنِ الْأَجْلِ الْيَقْظَا
 كُلَّ يَوْمٍ يَهِيضُ لِلْمَرْءِ عَظْمًا
 يَجْمَلُ الْمَوْتَ بَيْنَ جَنِيهِهِ إِذَا يَفُ
 كُلُّ نَفْسٍ فِي مَسْتَقَرٍّ عَلَيْهَا

يا من يجوب شرق الهوى، ثم يقطع غربه، فكم له من طلعة في طلبه وغربة،
 كأنه بسيف الأسف قد سلّ من جفنه فأسال من جفنه غربه.

قال بعض أصحاب الحسن: ليت ابن آدم لم يُخلق. فقال حبيب العجمي:
 فقد وقعت فاحتالوا!

تالله ما اهتمّ بالخلاص إلا أهل التقي والإخلاص، أيامهم بالصلاح زاهرة،
 ودولتهم للعدو قاهرة، وأعينهم في الدجى ساهرة، يخافون العرض على أرض
 الساهرة، والعقول للنفوس ناهية أمره، وأخلاق الثياب على أخلاق طاهرة،
 والدنيا عليهم، والقلوب صابرة، وفي الجملة باعوا الدنيا، فاشتراها بها الآخرة.

قال أبو يزيد: جمعت أسباب الدنيا، فربطتها بجبل القنوع، ووضعتها في
 منجنيق الصدق، ورميت بها في جبل اليأس، فاسترحت:

قَرَّبَ الْحِرْصُ مَرَكَبًا لَشَقِيٍّ
 مَرَجِبًا بِالْكَفَافِ يَأْتِي عَفِيًّا
 ضِلَّةً لَامِرِيٍّ يَشْمُرُ فِي الْجَمْرِ
 دَائِبًا يُكْثِرُ الْقَنَاطِيرَ لِلْوَا
 حَبَا كَثْرَةَ الْقَنَاطِيرِ وَلَوْ كَا
 يَغْتَدِي يَرْحَمُ الْأَسِيرُ أَسِيرًا
 يَحْسِبُ الْحِظَّ كُلَّهُ فِي يَدَيْهِ

إنما الحرص مَرَكَبُ الْأَشْقِيَاءِ
 وَعَلَى الْمُتَعَبَاتِ ذِيلُ الْعَفَاءِ
 عَ لَعِيشٍ مَشْمُرٍ لِلْفَنَاءِ
 رِثٌ وَالْعَمْرُ دَائِبًا لَانْقِضَاءِ
 نَ لَرَبِّ الْكِنُوزِ كَنْزُ بَقَاءِ
 جَاهِلًا أَنَّهُ مِنَ الْأَسْرَاءِ
 وَهُوَ مِنْهُ عَلَى مَدَى الْجُوزَاءِ

ذلك الخائب الشقي وإن كان يرى أنه من السعداء

الكلام على قوله تعالى

﴿فاليوم لا تظلم نفس شيئاً﴾ (١)

ميزان العدل يوم القيامة مستقيم اللسان، تبين فيه الذرة، فيجزي العبد على الكلمة قالها في الخير، والنظرة نظرهما في الشر، فيا من زاده من الخير طفيف، احذر ميزان عدل لا يحيف.

أخبرنا ابن المذهب بسنده عن أبي عبد الحنبل قال: سمعت عبد الله بن عمرو ابن العاص يقول: قال رسول الله ﷺ: «إن الله عز وجل يستخلص رجلاً من أمتي على رؤوس الخلائق يوم القيامة، فينشر عليه تسعة وتسعين سجلاً كل سجل مد البصر؛ ثم يقول له: أتنكر من هذا شيئاً؟ أظلمتكَ كتبتي الحافظون؟ قال: لا يا رب فيقول: ألك عذر، أو حسنة؟ فيبته الرجل فيقول: لا يا رب فيقول: بلى؛ إن لك عندنا حسنة واحدة لا ظلم اليوم عليك؛ فيخرج له بطاقة فيها: أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً عبده ورسوله، فيقول: أحضروه. فيقول: يا رب ما هذه البطاقة مع هذه السجلات؟ فيقال: إنك لا تظلم، قال: فتوضع السجلات في كفة، والبطاقة في كفة. قال: فطاشت السجلات وثقلت البطاقة».

البطاقة: القطعة.

أخبرنا محمد بن أبي طاهر بسنده عن يونس بن عبيد، عن الحسن قال: بينا عائشة رضي الله عنها عند رسول الله ﷺ بكت؛ فقال رسول الله ﷺ: ما يبكيك؟ قالت: يا رسول الله هل تذكرون أهليكم يوم القيامة؟ فقال رسول الله ﷺ: أمّا في ثلاثة مواطن، فلا يذكر أحدٌ أحداً: عند الميزان حين يوضع حتى يعلم أثقل موازينه أو تخفّ، وعند الكتاب حين يقال ﴿هاؤم اقرءوا كتابية﴾ (٢)

(١) ياسين ٥٤.

(٢) الخاقعة ١٩.

حتى يعلم أين يقع كتابه في يمينه، أو في شماله، أو وراء ظهره. وعند الصراط حين يوضع بين ظَهْرِي جهنم حتى يعلم أينجو، أم لا ينجو.

(أخبرنا) الكَرُوخي بسنده عن الأعمش، عن أبي صالح، عن أبي هريرة رضي الله عنه، وعن أبي سعيد رضي الله عنهما قالا: قال رسول الله ﷺ يؤتى بالعبد يوم القيامة فيقول له: ألم أجعل لك سمعاً وبصراً، ومالاً وولداً، وسخرت لك الأنعامَ والحَرْثَ، وتركتك ترأساً وترتَع، أكنت تظن أنك ملاقي يومك هذا؟ فيقول: لا، فيقول: اليوم أنساك كما نسيتني.

أخبرنا ابن الحُصَيْن بسنده عن شعبة، عن قتادة عن أبي سعيد الخدري، عن أبي بكر الصديق رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «يخلص المؤمنون يوم القيامة من النار، فيحبسون على قنطرة بين الجنة والنار، فيقتص لبعضهم من بعض مظالم كانت بينهم في الدنيا، حتى إذا هُذِّبوا ونُقِّوا أُذِن لهم في دخول الجنة».

قوله تعالى: ﴿وَلَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ (١)

أتراك بأي عمل تُجْزَى، أتراك تُهَنَّى، أو تُعْزَى، قلبك عند الصلاة في غيبة، ولسانك في الصوم في غيبة، وما صفت لك في العمر ركعة، وقد مرَّ أكثر الأجل بسرعة، فانتبه قبل أن يفوت التدارك، وفرِّغ قلبك، قبل أن تفرغ دارك.

أنبأنا أحمد بن الحسين بن عثمان العطار بسنده عن جعفر بن الحسن، عن أبيه، عن الحسن بن علي، عن علي رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: إن في الجنة لشجرة يخرج من أعلاها ومن أسفلها خيل من ذهب مُسْرَجَة ملجمة بلجم من در وياقوت، لا تروث ولا تبول لها أجنحة خطوها مدَّ بصرها، فيركبها أهل الجنة فتطير بهم حيث شاءوا، فيقول الذين أسفل منهم

(١) يس ٥٤ . .

درجة: يا رب بيم بلغ عبادك هذه الكرامة كلها؟ قال: فيقال لهم: إنهم كانوا يصلون الليل وأنتم تنامون، وكانوا يصومون، وكنتم تأكلون، وكانوا ينفقون، وكنتم تبخلون، وكانوا يقاتلون، وكنتم تجبنون.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ الْيَوْمِ فِي شُغْلٍ فَاكِهُونَ﴾^(١)

وقرأ نافع، وأبو عمرو في شغل يأسكان الغين، وقرأ ابن يعمر في شغل بفتح الشين وإسكان الغين. وقرأ أبو هريرة في شغل بفتحهما.

وللمفسرين في المراد بذلك الشغل قولان: أحدهما: أنه افتضاض الأبكار.

أخبرنا موهوب بن أحمد بسنده عن عكرمة، عن ابن عباس رضي الله عنهما «إن أصحاب الجنة اليوم في شغل» قال في افتضاض الأبكار. والثاني: النعمة. قاله مجاهد.

وقال الحسن: شغلهم نعيمهم عما فيه أهل النار من العذاب.

وفي قوله تعالى: فاكهون أربعة أقوال: أحدها: فرحون. قاله ابن عباس.

والثاني: مُعْجِبُونَ. قاله الحسن. **والثالث: نَاعِمُونَ.** قاله مقاتل. **والرابع: ذُوو فَاكِهَةٌ،** كما يقال لابن تامر. قاله أبو عبيدة.

وقرأ أبو جعفر: فكهون. وهل هي بمعنى القراءة الأولى؟ فيه قولان:

أحدهما: أنها بمعنى واحد. كما يقال: حاذِرٌ وحذِرٌ. قاله الفراء. **والثاني: أن الفكه: الذي يتفكه،** يقال: فلان يتفكه بالطعام. قاله أبو عبيدة.

قوله تعالى: ﴿هُمْ وَأَزْوَاجُهُمْ فِي ظِلَالٍ﴾^(٢)

الأزواج: الحلائل. والظلال جمع ظل. وقرأ حمزة والكسائي في ظلل. قاله الفراء وهي جمع ظل، وقد تكون الظلال جمع ظلة أيضاً.

(٢) ياسين ٥٦.

(١) ياسين ٥٥.

قال المفسرّون: المراد بالظلال كنا القصور. والمقصود أن بناء الجنة محكم عال، فلو كان هناك شمس كان في ظلهم ما يرده.

أخبرنا عبد الأول أخبرنا الداودي، أنبأنا ابن أعين، حدثنا الفرّبري، حدثنا البخاري، عن معمر عن همام بن منبه، عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «أولُ زمرة تلج الجنة صورتهم على صورة القمر ليلة البدر، لا يبصقون فيها، ولا يمتخطون، ولا يتغوّطون، أنيتهم فيها الذهب وأمشاطهم من الذهب والفضة ومجامرهم الألوة ورشحهم المسك، ولكل واحد منهم زوجتان يرى مخ سؤقهما من وراء اللحم من الحسن، لا اختلاف بينهم ولا تباغض، قلوبهم قلب واحد، يستحون الله بكرة وعشيا.»

وقال كعب: لو أن امرأة من نساء أهل الجنة بدأ مِعصمها لذهب ضوء الشمس!.

أخبرنا محمد بن منصور، عن عباد بن راشد، عن ثابت البناني، قال: كنت عند أنس بن مالك، فقدم عليه ابن له من غزاة فساء له، ثم قال: ألا أخبرك عن صاحبنا فلان؟ قال: بينما نحن في غزاتنا قافلين، إذا ثار وهو يقول، وأهلناه وأهلناه. ففُرنّا إليه فظننا أن عارضاً عرض له فقلنا له: ما شأنك؟ فقال: إني كنت أحدث نفسي أن لا أتزوج حتى أستشهد، فيزوجني الله تعالى الحور العين، فلما - طالت عليّ الشهادة حدثت نفسي في سفري هذا: إن أنا رجعت تزوجت، فأتاني آتٍ في منامي فقال: أنت القائل: إن أنا رجعتُ تزوجت؟ قم فقد زوجك الله العيّناء. فانطلق بي إلى روضة خضراء مُعشبة فيها عَشْر جوارٍ في يد كل جارية صنعة تصنعها لم أر مثلهن في الحُسْن والجمال، قلت لهن: فيكن العيّناء؟ قلن: لا نحن من خدمها، وهي أمامك، فانطلقت، فإذا أنا بروضة أعشَب من الأولى، وأحسن فيها عشرون جارية في يد كل جارية صنعة تصنعها ليس العَشْر إليهن بشيء من الحسن والجمال. قلت: فيكن العيّناء؟ قلن: لا، ونحن من خدمها، وهي أمامك. فمضيت، فإذا أنا بروضة أخرى أعشَب من الأولى، والثانية وأحسن، فيها أربعون جارية في يد كل جارية صنعة تصنعها ليس العشر

والعشرون إليهن بشيء في الحسن والجمال فقلت: فيكن العيناء؟ قلن: لا نحن من خدمها، وهي أمامك. فانطلقت، فإذا أنا بياقوتة مجوفة فيها سرير عليها امرأة قد فضلت السرير قلت: أنت العيناء؟ قالت: نعم مرحباً فذهبت أضع يدي عليها فقالت: مة ان فيك شيئاً من الروح بعد، ولكن فطرك عندنا الليلة.

قال: فما فرغ الرجل من حديثه حتى نادى مناد: يا خيل الله اركبي وأبشري بالجنة. قال: فجعلت أنظر إلى الرجل، وأنظر إلى الشمس، ونحن مُصافون العدو، وأذكر حديثه فما أدري أيُّهما رأيتُه بَدَرَ أول؟ هو أو الشمس سقطت أول؟

فقال أنس: رحمه الله تعالى.

سج

يا هذا لقد بلغ القوم الآمال، ونالوا ملكاً عظيماً لا يزال، فأين ذاك التعب، وتلك الأثقال، وبقي المدح والترحُّ زال، ﴿هم وأزواجهم في ضلال﴾.

طالما نصبوا في خدمة ذي الجلال، فشغلتهم عن اللذات أشغال، وأزعجتهم عن الشهوات أوجال، وقلقهم الموت إذا خطر بالقلب وجال، فإذا وردوا تلقوا بالنوال، ﴿هم وأزواجهم في ضلال﴾.

بالغ القوم في التحقيق، وأخذوا بالأمر الوثيق، وأنذرهم الموت فما أبلغهم الرفيق، فجدوا حتى خرجوا من المضيق، فأما البطال، فإنه لما تلمح الطريق، رآه قد طال.

صام القوم عن الشهوات، وقاموا لله في الخلوات، وحسبوا الألسن عن فضول الكلمات، وتركوا في الجملة جملة اللذات، فانقضى رمضان صومهم، وجاء شوال، ﴿هم وأزواجهم في ضلال﴾.

كم بينك وبينهم، أسخن الشر عينك، وأقر الخير أعينهم، نالوا الحظ ونلت

الْحَضِيضُ، أَيْنَ أَنْتَ، وَأَيْنَ هُمْ، وَإِنَّمَا يُكَالُ لِلْعَبْدِ كَمَا كَالُ.
 سَبْحَانَ مَنْ أَصْلَحَهُمْ وَسَاحَمَهُمْ، وَعَامَلَهُمْ فَأَرْبَحَهُمْ، وَأُنْتَى عَلَيْهِمْ وَمَدَحَهُمْ،
 وَأَقَالَ مُجْتَرِحَهُمْ وَقَالَ: ﴿هُمُ وَأَزْوَاجُهُمْ فِي ظِلَالٍ﴾.
 قَطَعُوا الْمَهَامِهِ ففَازُوا، وَعَبَرُوا قَنَاظِرَ الْخَوْفِ وَجَازُوا، وَنَالُوا غَايَةَ الْمَنَى
 وَحَازُوا، فَسَلِمَ الرِّيحُ وَرَأْسُ الْمَالِ ﴿هُمُ وَأَزْوَاجُهُمْ فِي ظِلَالٍ﴾.

قوله تعالى: ﴿عَلَى الْأَرَائِكِ مُتَكِّئُونَ﴾

قال ثعلب: لا تكون الأريكة إلا سريراً في قبة عليه شواره ومتاعه، والشوار
 متاع البيت.

تعبوا فأريحوا، وزهدوا فأبيحوا، زال نصبهم، وارتفع تعبهم، وحصل
 مقصودهم، ورضي معبودهم.

قوله تعالى: ﴿وَلَهُمْ مَا يَدْعُونَ﴾ أي ما يتمنون. قال ابن قتيبة: العرب تقول
 ادَّع ما شئت. أي تمن ما شئت. وقال الزجاج: هو مأخوذ من الدعاء والمعنى:
 كل ما يدعو به أهل الجنة يأتيهم.

وقوله: ﴿سَلَامٌ﴾ يدل من ما. والمعنى: لهم ما يتمنون سلام، أي هذا مني
 أهل الجنة أن يسلم الله عز وجل عليهم. و﴿قَوْلًا﴾ منصوب على معنى: لهم
 سلام، يقوله الله قولاً. وفي حديث جابر رضي الله عنه، عن النبي ﷺ أن الله
 عز وجل يقول: السلام عليكم يا أهل الجنة. فذلك قوله عز وجل: ﴿سَلَامٌ
 قَوْلًا مِنْ رَبِّ رَحِيمٍ﴾ فينظر إليهم، وينظرون إليه، ولا يلتفتون إلى شيء من
 النعيم ما داموا ينظرون إليه حتى يحتجب عنهم.

سجع

أين المستعدون لهم الأمر الجسيم، أين المخاطر في طلب ذا الفضل العظيم، أين
 المتأهب لخلع الفوز والتقديم ﴿سَلَامٌ قَوْلًا مِنْ رَبِّ رَحِيمٍ﴾.

لو رأيتهم في دار الإقامة، على غاية الفوز والسلامة، وعلى القوم حُلل الكرامة، والمَلِك يُسْمِعهم كلامه العزيز القديم، ﴿سَلَامٌ قَوْلًا مِنْ رَبِّ رَحِيمٍ﴾ .

حَلُّوا في جوار الجَبَّار، فحلوا بضائع الأسحار، فجوزوا أن قيل لهم: جُوزوا بلا عِثَار، وأشرفُ في جناتِ تجري من تحتها الأنهار، أن أشرف عليهم الكريم بكل تكريم، ﴿سَلَامٌ قَوْلًا مِنْ رَبِّ رَحِيمٍ﴾ .

قالما تَمَلَّمُوا تَمَلَّم السَّلِيم، وبكوا في الدَّجى بكاء اليتيم، فانقشع الأمر إلى أن سامحَ الغريم، فأحلَّهم برضوانه جناتِ النعيم، والعيون تجري من رحيق وتَسْنِم، وواسطة ذلك العِقد المَثْمَن النظيم، ﴿سَلَامٌ قَوْلًا مِنْ رَبِّ رَحِيمٍ﴾ (١) .

(١) ياسين ٥٨ .

المجلس الثاني في ذكر الطهارة

الحمد لله مُحَكِّمِ المخلوق، ومُتَّفِنِ الصنعة، ومَالِكِ يوم الحشر والجزاء والرَّجْفَةِ، المقدَّرِ ما شاء، فمن ذا الذي يستطيع دَفْعَهُ، أراد فلم ينتفع العبد إن بذل جُهدَهُ ووسعهُ، وعلم إخلاص النية من مقصود السُّمعة، وسمع فلم يَمْنَعِ اختلافُ اللغاتِ سَمْعَهُ، وأبصر حتى جَوَّفَ الجَوْفَ، وجريان الدَّمعة، وشرع فشهدت العقول بصحة الشَّرعة، ومنع فمن ذا الذي يعطي ما قدَّرَ مَنْعَهُ، صفاته كذاته، وما يُشْبِهُ الصانعُ صنَّعَهُ، الاستواء معلوم والكَيْفُ مجهول، والايان به واجبٌ، والسؤال عنه بدعة.

أحمده حمداً يدوم ما دامت الأيام السبعة، وأشهد أنه فالق الحب عن الطَّلعة، وأصلي على رسوله محمدٍ المبعوث بأفضل شريعة، وعلى أبي بكر أول من جمع هذه الرُبعة، وعلى عمر فتاح الأمصار، فكم قلع قلعة، وعلى عثمان الصابر على مضيض تلك الصرعة، وعلى عليّ الذي مدائحهُ، أنفق من كل سلعة، وعلى عمه العباس أبي الخلفاء، وأكرم بهذا البيت رفعة.

أخبرنا أبو الحسن الأنصاري بسنده عن يحيى أن زيدا حدثه أن أبا سلام حدثه، عن أبي مالك الأشعري قال: قال رسول الله ﷺ: «الطَّهْوَرُ شَطْرُ الإيْمَانِ، والحمد لله تَمَلُّأُ المِيزَانَ، وسبْحانَ الله والحمد لله تَمَلَّانِ، أو تَمَلَّأُ ما بين السَّماءِ والأَرْضِ، والصلاة نور، والصدقة برهان، والصبر ضياء، والقرآن حجة لك أو عليك، كل يَغْدُو فبائِعٌ نفسه فمُعْتَقها أو مُوبِقها».

انفرد بإخراجه مسلم.

اعلم أن الطهارة على أربعة أضرب:

الضرب الأول: تطهير البدن عن نجسٍ أو حَدَثٍ، أو فضلة من البدن. فأما طهارة الأنجاس ففي الصحيحين من حديث ابن عباس عن النبي ﷺ أنه مرّ بقبرين فقال: «إنهما ليعذبان وما يعذبان في كبير: أما أحدهما، فكان لا يستنزه من البول».»

قال الخطابي: معناه أنها لم يعذب في أمر كان كبير عليهما فعله، أو يشق.

وروى الدارقطني عن أبي هريرة رضي الله عنه، عن النبي ﷺ أنه قال: «استنزهوا من البول، فإن عامة عذاب القبر منه.»

وأما طهارة الأحداث ففي التفريط فيها وعيد شديد. ففي الصحيحين من حديث عبد الله بن عمرو بقال: تخلف عنا رسول الله ﷺ في سفرة سافرناها، فأدركنا ونحن نتوضأ، فجعلنا نمسح على أرجلنا، قال: فنادى بأعلى صوته، مرتين، أو ثلاثاً: «ويل للأعقاب من النار.»

وفي حديث ابن مسعود رضي الله عنه، عن النبي ﷺ أنه قال: «إن الله عز وجل أمر بعبدٍ من عباده أن يُضرب في قبره مائة جلدة، فلم يزل يسأل ويسأل حتى صارت جلدة واحدة، فامتلاً قبره عليه ناراً، فلما أفاق قال: لم جلدتموني؟ قالوا: إنك صليت صلاةً بغير طهور، ومررت على مظلومٍ فلم تنصره.»

وقد مُدح إسباغ الوضوء.

أخبرنا: هبة الله بن محمد بسنده عن جامع بن شداد قال: سمعت عمران بن أبان يحدث عن عثمان رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «من أمم الوضوء كما أمره الله عز وجل، فالصلوات المكتوبات كفارة لما بينهن.»

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا توضأ العبدُ المسلم، أو المؤمن فغسل وجهه خرجت من وجهه كلُّ خطيئةٍ نظر إليها بعينه مع الماء، أو مع آخر قطر الماء، أو نحو هذا، فإذا غسل يديه خرجت من يديه كل

خطيئة بطشتها يداه مع الماء، أو مع آخر قطر الماء، حتى يخرج نقياً من الذنوب».

انفرد بإخراج الحديثين مسلم.

وأما غسل الجنابة فروى أبو داود من حديث عليّ عليه السلام أنه قال: من ترك موضع شعرة من جنابة لم يغسلها فُعل به كذا وكذا من النار، قال عليه السلام: فمن تمّ عاديته رأسي. وكان يَجْزُّ رأسه.

وأما الفضلات فنوعان: أوساخ تعري البراجم والأسنان. قال مجاهد: أبطأ المَلِكُ عن رسول الله ﷺ، ثم أتاه فقال: لعلّي، أبطأتُ؟ قال: قد فعلت. قال: وما لي لا أفعل، وأنتم لا تتسوّكون، ولا تقصّون أظفاركم، ولا تُنقّون بَرّاجمكم! قال ابن الأنباري: البراجم: الفُصوص التي في فصول ظهور الأصابع، تبدو إذا جُمعت وتغمض إذا بسطت. والرّواجب: ما بين البراجم، بين كل بُرّجتين راجبة.

أخبرنا عبد الأول بسنده عن أبي الزناد عن الأعرج، عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «لولا أن أشق على أمتي، أو على الناس، لأمرتهم بالسواك عند كل صلاة».

أخرجاه في الصحيحين.

وأخرجا من حديث حذيفة قال: كان رسول الله ﷺ يشوّص فاه بالسواك.

قال أبو عبيد: الشوّص والموّص: الغسل. وقال ابن الأعرابي: الشوص: الدلك والموص: الغسل.

أخبرنا عليّ بن عبد الله، وأحمد بن الحسين، وعبد الرحمن بن محمد بسندهم عن معاوية بن يحيى، عن الزهري، عن عائشة رضي الله عنها، عن النبي ﷺ أنه قال: «تفضل الصلاة التي يستاك لها على الصلاة التي لا يستاك لها سبعين ضعفاً، ويفضل الذكر الخفي على غيره من الذكر بسبعين ضعفاً».

وأما الأجزاء : فقص الشارب ، ورتف الإبط وحتق العانة ، وتقليم الأظفار .

والضرب الثاني: تطهير الجوارح عن الآثام . قال الله عز وجل : ﴿ إِن السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا ﴾ (١) .

واعلم أن الجوارح كالسواقي توصل إلى القلب الصافي والكبير ، فمن كفها عن الشر جلّت معدة القلب بما فيها من الأخلاط فأذابتها ، وكفى بذلك حمية ، فإذا جاء الدواء صادف محلاً قابلاً .

ومن أطلقها في الذنوب أوصلت إلى القلب وسخ الخطايا ، وظلم المعاصي ، فلو وضع الدواء كان بينه وبين القلب حجاب ، فلا تكاد الجوارح تسلم من الخطايا إلا بالعزلة ، فمن أمكنه فما أحسنه ، ومن لم يمكنه تحمّظ في مخالطته للخلق ، تحمّظ المجاهد في الحرب .

والضرب الثالث: تطهير القلب عن الأخلاق المذمومة من الحرص والحقد والحسد والكبر وغير ذلك ، ولا يمكن معالجته من أدوائه بدوائه حتى تقع الحمية التي وصفناها في كفّ الجوارح ، ثم يعالج كلّ داء بدوائه . وكم من متعبد يباليغ في كثرة الصلاة والصوم ولا يعاني صلاح القلب ، وقد يكون عنده الكبر والرياء والتفان والجهل بالعلم ، ولا يحسّ بذلك ، وقد يكون تطلّعه إلى تقبيل يده وإجابة دعائه ، وهذه آفات لا دواء لها إلا الرياضة بالعلم ليقع التهذيب بإصلاح دائه ، وإنما تنفع العبادة تظهر آثارها وتبين لذاتها مع إصلاح أمراض القلب .

أخبرنا أبو بكر بن حبيب بسنده عن عبد الرحيم بن يحيى الدبلي قال : حدثني عثمان بن عمارة فقال : وردتُ الحجرة مرةً فإذا أنا بمحمد بن ثوبان وإبراهيم بن أدهم وعباد المقرئ ، وهم يتكلمون بكلام لا أعقله ، فقلت لهم : يرحمكم الله ؛ إني شابٌّ كما ترون أصوم النهار ، وأقوم الليل وأحجّ سنةً وأغزو سنةً ، ما أرى في نفسي زيادةً . فشغل القوم عني حتى ظننت أنهم لم يفهموا كلامي ، ثم حان من واحد منهم التفاتة فقال : يا غلام إنّ همّ القوم لم يكن في كثرة الصلاة والصيام ،

(١) الإسراء ٣٦ .

إنما كان همُّ القوم في نفاذ الأبصار حتى أبصروا .

الضرب الرابع: تطهير السرِّ عمّا سوى الله عز وجل . وهذه المرتبة العليا ، ولم تحصل إلا لمن تجلّت له أوصاف الحبيب ، فدخل في دائرة المحبة .

أخبرنا عمر بن زفر بسنده ، عن سعيد بن عبد العزيز قال : أخبرنا أحمد بن أبي الخواري قال : سألت محموداً أبا سليمان وأنا حاضر : ما أقرب ما يتقرب به إلى الله عز وجل فبكى أبو سليمان ، ثم قال : مثلي يُسأل عن هذا ! أقرب ما يتقرب به إليه أن يطلع على قلبك ، وأنت لا تريد من الدنيا والآخرة إلا هو .

قال ابن جهضم : وحدثنا عبد الجبار بن بشران قال : سمعت سهلاً يقول : من نظر إلى الله عز وجل قريباً منه بعد عن قلبه كل شيء سوى الله عز وجل ، ومن طلب مرضاته أَرْضاه الله عز وجل ، ومن أسلم قلبه إليه تولى الله جوارحه .

قال ابن جهضم : وحدثني أحمد بن عليّ قال : حدثني عباس بن عبد الله الهاشمي قال : سمعت سهل بن عبد الله يقول : ما من ساعة إلا والله مُطَّلِع على قلوب العباد ، فأَيَّ قلب رأى فيه غيره سلَّط عليه إبليس .

قال ابن جهضم : وحدثني عمر بن يحيى قال : سئل الشَّيْبَلِيُّ عن قوله عز وجل : ﴿ قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ ﴾ (١) فقال : أبصارَ الرءوس عمّا حرم الله ، وأبصارَ القلوب عمّا سوى الله عز وجل .

أخبرنا أبو بكر بن حبيب بسنده عن عليّ بن عبد العزيز ، قال : سمعت أحمد ابن أبي الخواري يقول : بات أبو سليمان ذات ليلة ، فلما انتصف الليل قام ليتوضأ فلما أدخل يده في الإناء بقي على حاله حتى انفجر الصبح ، وكان وقت الإقامة فخشيت أن تفوت صلاته فقلت : الصلاة يرحمك الله فقال : لا حول ولا قوة إلا بالله ، ثم قال : يا أحمد أدخلت يدي في الإناء ، فعارضني عارضٌ من سرِّي : هَبْ أنك غسلت بالماء ما ظهر منك ، فماذا تغسل قلبك ؟ فبقيت متفكراً حتى قلت :

(١) النور ٣٠ .

بالمهوم والأحزان فيما يفوتي من الأُنس بالله عز وجل .

يا هذا إذا توضأت بغير نية قيل للماء : ابدل له البَلل لا الطهارة ، فإذا نويت
قيل له : طهارة الظاهر ، فإذا صفا قلبك ، فقد حصلت طهارتك حقيقة !

(الكلام على البسمة)

أرى الناس سَفَرًا في طريق المتالفِ فَمِنْ بالغِ أخرى المديّ ومُشارِفِ
وما بَطْنٌ هذي الأرض إلا قرارةً وأرواحنا مثلُ السيول الجوارِفِ
وما الدهرُ إلا جَوْلَةٌ ثم أولَةٌ ونحن بمِرْصادِ الرقيبِ المشارِفِ

أيها المتفكر في القبور الدوارس ، الباكي على من كان به يستأنس ، إبكِ
مُطلقاً ما يَرْعوي بِنَقْلِ أهلِ المحابِسِ ، تيقظ لِلخِلاصِ ، فإلى كم أنت ناعس ،
وقم مبادراً للَقَوْتِ ، فإلى كم أنت جالس ، ليت شعري متى تنزود ، ومتى تُبيض
القلبَ الأسود ، أين الفرار والرقيب بالمرصد ، إلى متى مع الزلل والإسراف ، إلى
كم مع الخطايا والإقتراف ، أين الندم ، وأين الإعتراف ، لقد سمعت من الوعظ
كلَّ شافٍ كاف ، أنت فيما ينفعك قاعد ، وفيما يضر ناهض ، تتوب بلسانك ،
وتضر بجناحك ، أتناقض ؟ الشرُّ في باطنك داخل في الغوامض ، أسدُّ الشرى في
البيع والشرا ، فإذا يرى الخديعة خلا المرابض ، يا غافلاً عما قد أعدَّ له أمكر
هذا أم بله ، ما عُدُّر من تعثر في ظلمات العيب ، بعد إضاءة نور الشيب ، يا أسفي
من للمحتضر ، إذا علم من قد حضر ، وقلِّب الطَّرْفَ متحيراً ونظر ، ورأى
العجائب ، وقلِّب البصر ، وندم على إغفاله زاد السفر ، وجرى دمع الأسي ، ثم
انهمر واحتاج إلى قليل من الزاد وافتقر ، ولم ينفعه كل مسثور مدخر ، وتقطع
فؤاده أسفاً وانفطر ، إن هذا لعبرة لمن اعتبر ، إن كان قد سبقك الغير فأنت على
الأثر ، يا هذا الحسابُ شديد والطريق بعيد ، وقد خاف من لاخوف عليه ،
فكيف سكن من لا أمن له !

كان أبو بكر الصديق رضي الله عنه يقول : ودِدْتُ أني شَعْرَةٌ في صدر

مؤمن .

وكان عمر رضي الله عنه يقول: وَدَدْتُ أَنِّي أَفْلَيْتُ كَفَافًا لَا عَلِيَّ، وَلَا لِي، لَوْ أَنِّي لِي الدُّنْيَا وَمَا فِيهَا لَأَفْتَدَيْتُ بِهَا مِنْ هَوْلِ الْمَطَّلَعِ، لَوْ أَنِّي لِي الدُّنْيَا وَمَا فِيهَا لَأَفْتَدَيْتُ بِهَا مِنْ هَوْلِ مَا أَمَامِي قَبْلَ أَنْ أَعْلَمَ مَا الْخَبِيرُ.

لَمَّا طُعِنَ عُمَرُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ لَهُ ابْنُ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: لَيْتَهُنَّكَ الْجَنَّةُ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ. فَقَالَ: غُرٌّ بِهَذَا غَيْرِي يَا بَنَ عَبَّاسٍ قَالَ: وَلَمْ لَا أَقُولُ لَكَ هَذَا؟ فَوَاللَّهِ إِنْ كَانَ إِسْلَامُكَ لَعِزًّا، وَإِنْ كَانَتْ هِجْرَتُكَ لَفَتْحًا، وَإِنْ كَانَتْ وَلَايَتُكَ لَعَدْلًا، وَلَقَدْ قُتِلْتُ مَظْلُومًا. فَقَالَ: تَشْهَدُ لِي بِذَلِكَ عِنْدَ اللَّهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ؟ فَكَأَنَّهُ تَلَكَّأَ فَقَالَ لَهُ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ مِنْ جَانِبِهِ: نَعَمْ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ، نَشْهَدُ لَكَ بِذَلِكَ عِنْدَ اللَّهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ.

هذا خوف عمر رضي الله عنه، وأين مثل عمر! كانت الصوامت تنطق بفضله، وهو أسير خوفه وحُزنه، ولو رأيتَه لقلت له:

سَلْ عَنِ فَضَائِلِكَ الزَّمَانَ فَتُخْبِرَا أَوْ لَا فَدَعَّه وَأَدْعَى الشَّرْفَ الَّذِي مَا احتاج يوماً أن يقام بشاهدٍ فلقد جمعت مناقباً ما استجمعتُ فضل الأنام وأنت أثبتهم قِراً لو لَمْ تَمْلِكْكَ الْأُمُورُ قِيَادَهَا فتقدّم الأمراء غير منازع ما بين مجدك والمحاول مثله	فنظير مجدك لا أراه ولا يُرى أعيان الأنام، فلست تلقى مُنْكِراً حقُّ أزال الشكَّ واجتاحت المرآة مشهورة ما استعجمت فتفسراً في حمل نائبة وأعجلهم قِراً صفتُ قُرى مما عرى ووهت عرى فوراء زنكد كلُّ زند قد ورى إلا كما بين الثريِّ والثريِّ
---	--

وكان عمر رضي الله عنه يقول: لو أني بين الجنة والنار لا أدري إلى أيتهما أصير، لاخترت أن أكون رماداً، قبل أن أعلم إلى أيتهما أصير.

وكان عليٌّ عليه السلام يقول: آه من قلة الزاد، بعد السفر، ووحشة الطريق! واعجباً لخوفهم مع التقوى، وأمنك مع المعاصي!

يا سكران الهوى متى تفيق، رحل الأجاب وما عرفت الطريق، واتسعت

الرَّحَابِ وَأَنْتِ فِي الْمَضِيقِ ، وَقَدْ بَقِيَ الْقَلِيلُ ، وَتَعْصُّ بِالرِّيقِ ، وَتَعَايِنُ زَفِيرَ الْمَوْتِ ،
 وَتَعَالِجُ الشَّهِيْقَ ، وَيَبْطُلُ الْقَوِيُّ وَيَخْرُسُ الْمُنْطِيقُ ، وَتُغْمَسُ فِي بَجْرِ التَّلْفِ ، وَمَنْ
 لِلْغَرِيقِ ، وَيَخْلُو بِيَدِنَاكَ الدُّوْدُ لِلتَّقْطِيعِ وَالتَّمْزِيقِ ، وَخَرِبَ الْحِصْنَ وَحَطَمَ الْغُصْنَ
 الْوَرِيقِ ، وَخَلَوْتَ بِأَعْمَالِكَ وَتَجَافَاكَ الصَّدِيقُ ، فَإِذَا قَمْتَ مِنْ قَبْرِكَ فَمَا تَدْرِي فِي
 أَيِّ فَرِيقٍ ، يَا مُعْرَضاً كُلِّ الْإِعْرَاضِ عَنِّي ، كَمْ رَسُولٍ قَدْ أَتَاكَ مِنِّي ، وَيَحْكُ عَنِّي
 أَمْنِيَةَ الْمُتَمَنِّيِّ ، أَتَصْرَعُ عَلَى مَعْصِيَتِي وَتَقُولُ ظَنِّي ، أَتَنْقُضُ عَزْمَكَ مَعِي ، وَمَعَ الْعَدُوِّ
 تَبْنِي ، أَتَتْرِكُ كَلَامِي ، وَتَخْتَارُ أَنْ تَغْنِي ، يَا لِلْهُوَى كَمْ صَارَ بَشْرَكَه ، كَمْ عَقَلَ عَقْلاً ،
 فَدَارَ فِي فَلَكِهِ ، كَمْ غَيَّرَ نُوراً مِنَ الْهُدَى بِحَلْكَهِ ، كَمْ بَطَلَ بَطْلاً فِي حَرْبِهِ وَمُعْتَرَكِهِ ،
 كَمْ أَبْكَى مَغْروراً بَعْدَ لَهْوِهِ وَضَحْكِهِ ، كَيْفَ يَفْرَحُ مَنْ الْمَوْتِ بَيْنَ يَدَيْهِ ، وَكَيْفَ
 يَلْهُو مِنْ مَالِهِ بِلَاؤُهُ عَلَيْهِ ، وَكَيْفَ يَغْفَلُ وَرُسُلَ الْمَوْتِ تَخْتَلِفُ إِلَيْهِ ، كَيْفَ يَلْتَذُّ
 بُوْطَنَهُ مِنْ يَرَى اللَّحْدَ بَعَيْنِيهِ :

إِنِّي أَبْثُكَ مِنْ حَدِيثِي وَالْحَدِيثُ لَهُ شَجُونُ
 غَيَّرْتُ مَوْضِعَ مَرْقِدِي لَيْلًا فَنَافَرَنِي السُّكُونُ
 قُلْ لِي فَأَوْلُ لَيْلِيَّةٍ فِي الْقَبْرِ كَيْفَ تُرَى تَكُونُ؟!

الكلام على قوله تعالى:

﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَتُصْبِحُ الْأَرْضُ

مُخْضِرَةً ﴾ (١)

المراد بالماء هاهنا المطر . وقد جعل الله عز وجل الرياح سبباً لإثارتها ، فقال عز وجل : ﴿ وَاللَّهُ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا ﴾ (٢) وكان النبي ﷺ ينزعج إذا رأى الريح ، أو الغيم .

أخبرنا هبة الله بن محمد بسنده عن أبي النَّضْرِ ، عن سليمان بن يسار ، عن

(٢) فاطر ٩

(١) الحج ٦٣ .

عائشة رضي الله عنها قالت: كان رسول الله ﷺ إذا رأى غيماً أو ريحاً عرف ذلك في وجهه، فقلت: يا رسول الله الناس إذا رأوا الغيم فرحوا رجاء أن يكون فيه المطر، وأراك إذا رأيته عرفت في وجهك الكراهية. فقال: يا عائشة ما يؤمنني أن يكون فيه عذاب؟ قد عذب قوم بالريح، وقد رأى قوم العذاب فقالوا: « هذا عارضٌ ممطرنا ».

أخرجاه في الصحيحين.

وقال ابن عباس: الرياح ثمان: أربع رحمة، وأربع عذاب. الرحمة: المبررات، والمنشيرات، والمرسلات، والرِّخَاء. والعذاب: العاصف، والقاصيف، وهما في البحر، والعقيم والصَّرَصْر، وهما في البرّ.

وفي الصحيحين من حديث عائشة رضي الله عنها قالت: كان رسول الله ﷺ إذا عصفت الريح قال: اللهم إني أسألك خيرها، وخير ما فيها، وخير ما أرسلت به، وأعوذ بك من شرّها، وشر ما أرسلت به.

وروى ابن عمر رضي الله عنهما قال: كان رسول الله ﷺ إذا سمع صوت الرعد والصواعق قال: « اللهم لا تقتلنا بغضبك، ولا تهلكنا بعذابك، وعافنا قبل ذلك ».

قال ابن عباس: الرعد صوت ملك يزجر السحاب، كما ينطق الراعي بالغنم، وكان ابن الزبير إذا سمع صوت الرعد يقول: إن هذا وعيد شديد لأهل الأرض. وقال شهر بن حوشب: الرعد ملك موكل بالسحاب، يسوقه كما يسوق الحادي الإبل، يسبح كلما خالفت سحابة صاح بها، فإذا اشتد غضبه طار النار من فيه.

وسمع سليمان بن عبد الملك صوت الرعد فانزعج، فقال عمر بن عبد العزيز: هذا صوت رحمة فكيف لو جاء بسخط؟!

وقال علي كرم الله وجهه: البرق مخاريق بأيدي الملائكة، يسوقون بها

السحاب. وقال أبو الجلد: البرق هو تلالؤ الماء، والصواعق مخاريق، يُزجر بها السحاب.

قال عطاء: الصاعقة لا تصيب ذاكر الله تعالى.

وقال ابن عباس: ما من عام أكثر مطراً من عام، ولكن الله تعالى يصرفه في الأرضين.

قال عطاء بن أبي رباح: قال موسى عليه السلام: يا رب هذا الغيث لا ينزل، وينزل فلا ينفع؟ قال: لكثرة الزنا وظهور الربا.

وقال عمر رضي الله عنه: إن الرَّجْف من كثرة الزنا، وإن قحوط المطر من قضاة السوء، وأئمة الجور.

أخبرنا عبد الوهاب بن المبارك بسنده، عن محمد بن واسع، عن سمير بن نهار، عن أبي هريرة رضي الله عنه، عن النبي ﷺ قال: «قال ربكم عز وجل: لو أن عبادي أطاعوني لسقيتهم المطر بالليل، وأطلعت عليهم الشمس بالنهار، ولم أسمعهم صوت الرعد.

قال هارون: وحدثنا عفان بن مبارك، عن فضالة قال: سمعت الحسن يقول: كانوا يقولون - يعني أصحاب النبي ﷺ - الحمد لله الذي لو جعل هذا الخلق خلقاً دائماً لا يتصرف لقال الشاك في الله عز وجل: لو كان لهذا الخلق رباً لحادثته، وإن الله تعالى قد حادث بما ترون من الآيات، إنه قد جاء بضوء طبق ما بين الخافقين، وجعل فيها معاشاً وسراجاً وهاجاً، ثم إذا شاء ذهب بذلك الخلق، وجاء بظلمة طبقت ما بين الخافقين، وجعل فيها سكناً، ونجوماً وقمرأ منيراً، وإذا شاء بنى بناءً جعل فيه المطر والرعد والبرق والصواعق، وإذا شاء صرف ذلك، وإذا شاء ببرد يُقرِّف الناس، وإذا شاء جاء بحرٌ يأخذ بأنفاس الناس ليعلم الناس أن لهذا الخلق ربا يجادته بما يرون من الآيات كلها، كذلك إذا شاء ذهب بالدنيا وجاء بالآخرة.

وكان النبي ﷺ إذا استسقى يقول: اللهم اسق عبادك وبهائمك، وانشر رحمتك، اللهم اسقنا غيثاً هنيئاً مريئاً غداً طبقاً، عاجلاً، غير راثث نافعاً غير ضار، اللهم اسقنا سقياً وادعة نافعة.

قال أنس: أصابنا مطر في زمن رسول الله ﷺ، فحسر رسول الله ﷺ ثوبه حتى أصابه المطر وقال: إنه حديث عهد بربه.

وفي لفظ: كان رسول الله ﷺ يلقي ثيابه أول مطرة تمطر.

وقال عكرمة: كان ابن عباس إذا مُطر يقول: يا عكرمة اخرج الرياح، أخرج كذا حتى يصيبه المطر.

وقال عبيد بن عمير: يبعث الله ريحاً فتقيم الأرض، ثم يبعث المثيرة، فتثير السحاب، ثم يبعث المؤلفة فتؤلفه، ثم يبعث اللواقح فتلقح الشجر.

وقال عكرمة: ينزل الله عز وجل الماء من السماء السابعة، فتقع القطرة منه على السحاب مثل البعير. قال كعب: والسحاب غربال المطر، ولولا السحاب لأفسد ما يقع عليه.

وقال ابن عباس: المطر مزاجه من الجنة، فإذا كثر المزاج كثرت البركة، وإذا جاء القطر من السماء فُتحت له الأصداف، فكان لؤلؤاً.

وفي حديث أبي أمامة رضي الله عنه، عن النبي ﷺ أنه قال: «عند نزول الغيث تفتح أبواب السماء، ويستجاب الدعاء».

قال المفسرون: إذا نزل القطر على الأرض اهتزت، أي تحركت للنبات، فإذا أراد الخروج ارتفعت عنه فهو معنى قوله عز وجل ﴿وَرَبَّتْ وَأَنْبَتْ مِنْ كُلِّ زَوْجٍ﴾ (١) أي من كل جنس ﴿بِهَيْجٍ﴾ أي أنه يهيج ويسر.

يا من قد أجدبت أرض قلبه، متى تهبّ ريح المواعظ فتشير سحاباً، فيه

(١) الحج ٥.

رعود تخويف، وبروق خشية، فتقع قطرة على صخر القلب، فيتروى ويُنبت!؟
يا من أجدبت أرض قلبه، واشتغل عنها ولها، أخرج إلى صحراء التيقظ
واستسق لها، هيهات ان تخضر أرض القلب حتى يتروى الخد من عين العين. لا
تياس من جذب الجذب، فليس بمستحيل أن يستحيل.

سجع

سبحان المتفرد بالقدرة، فلا تقدر الخلائق قدره، أنعم فمن يطيق شكره،
كلا إن الغافل في سكرة ﴿أنزل من السماء ماء فتصبح الأرض مخضرة﴾^(١).

جلّ صفةً وعزّ اسماً، وبسط أرضاً، ورفع سماً، وأنزل من السماء ماء، فحمي
النبات فسموه جمرة «فتصبح الأرض مخضرة».

تعرفه القلوب والألباب، ويسبحه الصحو والضباب، انبعث الغيم فما توقف
السحاب، أقبل الرعد في صرة «فتصبح الأرض مخضرة».

تأخر الغيث فتمكن الضرّ، ثم جاء فالمؤمن بذلك سرّ، فاستغاث النبات مما
عرّ، فجاء بعد أن كان قد مرّ، كم كرّ كرة بعد كرة «فتصبح الأرض
مخضرة».

أصبح الثرى عطشان ينادي، واليبس عليه ظاهرٌ بادي، فصاح الرعد
بالسحاب صياح الحادي، فتروى الوادي، وسالت الجرة «فتصبح الأرض
مخضرة».

انبعث السحاب فطبّق الأرجا، وصاح البدوي في البدو: النجا، والجرون
متلفعة بالغثا، دب ثم نعش، ثم قَطَّقَطَ، ثم أفرط، ثم جاء بكرة «فتصبح الأرض
مخضرة».

انكشفت سماء الأرض عن بدورها، وأذنت الغائبات النبات في حضورها،

(١) الحج ٦٣.

ولم تَخُنْ الأرضُ من بَدْرِ نباتها ذرَّةً « فتصبح الأرضُ مخضرةً » .

أحضرت أمهات الزرع عن نباتها، واجتمعت الأغصان بالقطر بعد شتاتها،
وتزينت للناظرين بأنواع نباتها، ولقد كانت عرَّةً « فتصبح الأرضُ مخضرةً » .

فشت الزينة في الصحارى والبرى، وأظهرت عجائب القدرة فيما يرى، وأشاع
الثرى كما ترى من المكتوم سيره « فتصبح الأرضُ مخضرةً » .

ماتت تحت الأرض كل البذور، فإذا الرعد ينفخ في الصور، فضحك النورُ
بالنور لما سره « فتصبح الأرضُ مخضرةً » .

قام ميت البذر من حُفْرته، وقدم بعد طول سفرته، ومنح النبات لكثرتِه
قاعة ومُعْتَرَّةً « فتصبح الأرضُ مخضرةً » .

تكلمت الأطيَّار، والمعنى مفهوم، وارتاحت بنطقها حتى البوم، وتبدلت
الأرضُ، الفرخ من الهموم، فانقلبت تلك الغموم كلها مسرَّةً « فتصبح الأرضُ
مخضرةً » .

جيدت الأرضُ فروت التراب، وأجيدت المواعظ فهل أحضرت
الألباب؟!، وما يؤثر اللوم والعتاب، إلا عند نفسٍ حرَّةً « فتصبح الأرضُ
مخضرةً » .

والحمد لله وحده، وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم .

المجلس الثالث في ذكر الصلاة

الحمد لله الذي أوضح سبيل هدايته لأرباب ولايته، وأبّهج وحرّك أهل عبادته إلى معاملته وأزعج، وأبدع بدائع قدرته في محكم صنعه وأخرج، وأوقد نيران محبته في أفئدة احبته وأجج، من عرف لطفه ثنى عطفه إليه وأدلج، ومن خاف عتبه ترك ذنبه وتحرّج، يُحب الإخلاص في الأعمال، ولا يخفى عليه البهرج، حلیم فإن غضب مكرّ بالعبد واستدرج، لا يُعترّ بجلمه، فكم عقاب في الحلم أدرج، واعتبر بأبيك إذ فسح لنفسه في شهوة وأمرج، وحام حول المنهى اغتراراً بالصفح وعرج، كيف أصبح إكرامه بمير الهوان يُمزج، وأضحى ينسج الصوف إذ عرى عما يُنسج، وصار مغبر القدمين بعد فرس العزّ المُسرج، ولم تزل تجري دموع عينيه إلى أن تاب عليه وفرج، لا يخفى عليه ضمير القلب، وإن تلوى اللسان ومجمّج، ولا يغيب عن بصره في سواد الليل طرف أدعج، يُبصر جرّي اللبن يسري في العروق نحو المخرج، وينزل إلى السماء الدنيا فأين الذي بالمناجاة يلهج، فيستعرض الحوائج إلى أن يلوح الفجر ويتبلج، وما انتقل ومن عقل رأى الحق أبلج، هذا مذهب من القرآن القديم والنقل القويم مُستخرج، وهو المنهاج العظيم، فلا تعرّج عن المنهج.

أحمده على ما سرّ وما أزعج، وأشهد بوحدانيته بغير تلجّج، شهادة موقن ما لجلّج، وأن محمداً عبده ورسوله الذي محاسن الشرائع في شريعته تُدرّج، صلى الله عليه وآله وعلى أبي بكر أول من أنفق من ماله وأخرج، وعلى عمر الذي اضطر كسرى إلى الهرب وأحوّج، وعلى عثمان المظلوم، وقد عدل، وما عدل ولا عرج، وعلى

عليّ مبيد الطغاة، وآخرهم المخدج، وعلى عمه العباس الذي قرن الله نسبه بنسب الرسول وأزواج.

أخبرنا: هبة الله بن محمد، قال: حدثنا الحسين بن علي التميمي، أنبأنا أحمد ابن جعفر، حدثنا عبد الله بن أحمد، حدثني أبي، حدثنا الوليد بن مسلم، سمعت الأوزاعي يقول: حدثني الوليد بن هشام المعيطي، حدثنا معدان بسنده إلى ابن أبي طلحة اليعمرى، قال: لقيت ثوبان مولى رسول الله ﷺ فقلت: أخبرني بعملٍ أعمله يدخلني الجنة، أو قال: قلت بأحب الأعمال إلى الله فسكت، ثم سألته الثانية فسكت، ثم سألته الثالثة فقال: سألت عن ذلك رسول الله ﷺ فقال: «عليك بكثرة السجود، فإنك لا تسجد لله سجدة، إلا رفعك الله بها درجة، وحطّ عنك بها خطيئة» قال معدان: ثم لقيت أبا الدرداء، فسألته فقال لي مثل ما قال لي ثوبان.

انفرد بإخراجه مسلم.

إعلم ان الله عز وجل عظم قدر الصلاة، لأنها أوقى خدمة العبد، والمراد من العبد التعبد، وهي جامعة بين خضوع بدنه، ونطق لسانه، وحضور قلبه، وإن الله تعالى جعل عبادة ملائكته بين سجود وركوع وذكور، وذلك مجموع في الصلاة، وليس لنا فعل يدخل به الكافر في حكم الإسلام، ويخرج بتركه المسلم من الإسلام إلا الصلاة، فإن عندنا أن الكافر إذا صلى حُكم بإسلامه، سواء صلى مع جماعة، أو منفرداً فيُجبر عندنا على الإسلام.

وعن أبي حنيفة روايتان إحداهما: كقولنا. والثانية: اشترط ان يكون في جماعة. وقال الشافعي: إذا صلى الحرّ في دار الإسلام، حُكم بإسلامه.

وأما تارك الصلاة فلا يختلف مذهبنا عن مذهب أحمد رضي الله عنه أنه يقتل حدّاً أو كفراً. فيه روايتان. إحداهما: يقتل لكفره. وهو قول عمر وابن مسعود وابن عباس وجماعة وجابر والشعبي، والأوزاعي رضي الله عنهم. وقد دل على هذا ما أخرجه مسلم في أفراداه من حديث جابر عن النبي ﷺ أنه قال:

« بَيِّن العبد وبين الكفر ترك صلاة » .

والرواية الثانية: يقتل حَدًّا، لا أنه يكفر. وهو قول مالك والشافعي. وقال أبو حنيفة: يُحْبَس ولا يستتاب، ولا يُقْتَل.

واعلم أن الشرع، عَظَّمَ أمر الصلاة، وضرب الأمثال بفضلها.

أخبرنا عبد الملك بن أبي القاسم، أنبأنا أبو عامر الأزدي، وأبو بكر الغُورَجِيّ، قالا: أخبرنا أبو محمد الجراحي، أنبأنا أبو العباس المحبوبي، أنبأنا الترمذي، حدثنا قتيبة، حدثنا الليث عن أبي الهادي، عن محمد بن إبراهيم، عن أبي سلمة، عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: « أرأيتم لو أن نهراً بباب أحدكم يغتسل فيه كل يوم خمس مرات، هل يبقى من درنه شيء قالوا: لا. قال: فذلك مثل الصلوات الخمس يمحو الله بهن الخطايا » .

أخرجاه في الصحيحين.

وفي أفراد مسلم من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، عن النبي ﷺ انه قال: « الصلوات الخمس، والجمعة إلى الجمعة، ورمضان إلى رمضان، مكفّرات لما بينهن إذا اجتنبت الكبائر » .

وفي أفراد من حديث عثمان رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: « ما من امرئ مسلم تحضره صلاة مكتوبة، فيحسن وضوءها وخشوعها وركوعها إلا كانت كفارة لما قبلها من الذنوب، ما لم تؤت كبيرة، وذلك الدهر كله » .

أخبرنا سعيد بن أحمد بسنده إلى مجاهد، عن عبد الله بن عمر رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: « استقيموا ولن تُخْصُوا، واعلموا ان فضل أعمالكم الصلاة، ولا يحافظ على الوضوء إلا مؤمن » .

وقد فضّل الشرعُ تقديم الصلاة في أول الوقت.

ففي الصحيحين من حديث ابن مسعود رضي الله عنه، قال: سألت رسول الله ﷺ أيّ العمل أحبُّ إلى الله تعالى؟ قال: « الصلاة على وقتها » .

وفضلت الصلاة في الجماعة .

ففي الصحيحين من حديث ابن عمر رضي الله عنه ، عن النبي ﷺ أنه قال :
« صلاة الجماعة تفضل على الصلاة الفَذِّ بسبع وعشرين درجة » .

وروى أنس بن مالك عن النبي ﷺ أنه قال : « من صلى أربعين يوماً في
جماعة لم تفته ركعة واحدة كتب الله له براءتين : براءة من النار ، وبراءة من
النفاق » .

أخبرنا محمد بن ناصر بسنده قال البغوي : سمعت عبد الله بن عمر
القواريري يقول : لم تكن تفوتني صلاة العتمة في جماعة ، فنزل بي ضيف فشغلت
به ، فخرجت أطلب الصلاة في قبائل البصرة ، فإذا الناس قد صلّوا ، وخلت
القبائل ، فقلت في نفسي : روي عن النبي ﷺ أنه قال : « صلاة الجماعة تفضل
على صلاة الفذ خساً وعشرين درجة » . وروى « سبعاً وعشرين » . فانقلبت إلى
منزلي ، فصليت العتمة سبعاً وعشرين مرة ، ثم رقدت فرأيتني مع قومٍ راكبي
أفراس ، وأنا راكب فرساً كأفراسهم ، ونحن نتجاري فالتفت إليّ أحدهم ،
فقال : لا تُجهد فرسك ، فلست بلاحقنا . فقلت : فلم ذاك ؟ قال : إنا صلينا
العتمة في جماعة .

وورد الثواب لمنتظر الصلاة .

فروي في الصحيحين من حديث أبي هريرة رضي الله عنه ، عن النبي ﷺ أنه
قال : « لا يزال أحدكم في صلاة ما كانت الصلاة تحبسه لا يمنعه إلا انتظارها » .

وفي حديث عبد الله بن عمر رضي الله عنهما : لا يزال أحدكم في صلاة ما
كانت الصلاة تحبسه لا يمنعه إلا انتظارها » .

وفي حديث عبد الله بن عمر رضي الله عنهما قال : صلينا مع رسول الله ﷺ
المغرب فعقب من عقب ، ورجع من رجع ، فجاء رسول الله ﷺ يحسّر ثيابه عن
ركبتيه فقال : « أبشروا يا معشر المسلمين ، فهذا ربكم قد فتح باباً من أبواب

السماء يُباهي بكم الملائكة يقول: « هؤلاء عبادي قضاوا فريضة، وهم ينتظرون أخرى ».

وقد عظم الصف الأول فروى في الصحيحين من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، عن النبي ﷺ أنه قال: « لو يعلم الناس ما في الصف الأول، ثم لم يجدوا إلا أن يستهموا لاستهموا ».

وفي أفراد مسلم من حديث أبي هريرة أيضاً، عن النبي ﷺ أنه قال: « لو يعلم الناس ما في الصف المقدم لكانت قرعة ».

وقد أمر المصلي بخفض رأسه استعمالاً لأدب الخدمة، فروى مسلم في أفراده من حديث جابر بن سمرة، قال: قال رسول الله ﷺ: « لَيَنْتَهَيْنَ أقوامٌ يرفعون أبصارهم إلى السماء في الصلاة، أو لا ترجع إليهم ».

وأمر المصلي بالثبوت في الركوع والسجود؛ حدثنا الكروخي بسنده، عن عمير، عن أبي مَعْمَر، عن أبي مسعود الأنصاري، قال: قال رسول الله ﷺ: « لا تُجْزَى صلاةٌ لا يقيم فيها الرجل يعني صلُّه في الركوع والسجود ».

وفي حديث ابن شيبان عن النبي ﷺ أنه قال: لا ينظر الله تعالى إلى رجل لا يقيم صلُّه في الركوع والسجود ».

واعلم أن المقصود بالصلاة، إنما هو تعظيم المعبود، وتعظيمه لا يكون إلا بحضور القلب في الخدمة. وقد كان في السلف من يتغير إذا حضرت الصلاة ويقول: أترؤن بين يدي من أريد أن أقف؟!

وأنت تعلم أن من حضر قلبه في تعظيم سُلْطانه، فحضر بين يديه من يعرف من إلى جانبه امتلاً بهيبة المعظم، فإذا أردت استجلاب حضور قلبك الغائب، ففرِّغه من الشواغل مها استطعت.

وقد كان أرباب التفكير من السلف يشاهدون في كل شيء عبرة، فيذكرون بالأذان نداء العرض، وبطهارة البدن تطهير القلب، وبستر العورة طلب ستر

القبايح من عيوب الباطن، وباستقبال القبلة صرّف القلب إلى المقلّب، فمن لم تكن صلاته هكذا فقلبه غافل.

يا هذا إذا صلّيت والقلب غائب وجوده، فالصلاة كالعدم، وهو بالرّوم مقيم، وله بالشام قلب، يا ذاهل القلب في الصلاة حاضر الذهن في الهوى، جسده في الحراب وقلبه في بلاد الغفلة.

جاء مملوك إلى سيده فقال: ضاعت ميخلاة الفرس، فقام السيد يصلي، فلما فرغ من الصلاة قال: هي في موضع كذا، وكذا: فقال الغلام: يا سيدي أعد الصلاة، فإنك كنت تفتش على الميخلاة!

قال الحسن: يا ابن آدم إذا هانت عليك صلاتك، فما الذي يعزّ عليك؟

ولما كان المطلوب حضور القلب جاء الوعد بالثواب الجزيل عليه. أخبرنا ابن الحصين بسنده عن زيد بن أسلم، عن زيد بن خالد الجهني قال: قال رسول الله ﷺ: «من صلّى سجدتين لا يسهو فيها، غفر الله له ما تقدم من ذنبه».

وفي حديث عبادة بن الصامت رضي الله عنه، عن النبي ﷺ أنه قال: «من توضع فأسغ الوضوء ثم قام إلى الصلاة: فأتم ركوعها وسجودها، والقراءة فيها قالت: حفظك الله كما حفظتني. ثم يصعد بها إلى السماء، ولها ضوء ونور، فتفتح لها أبواب السماء حتى تنتهي إلى الله عز وجل، فتشفع لصاحبها. فإذا لم يتم ركوعها ولا سجودها ولا القراءة فيها قالت: ضيعك الله كما ضيعتني. ثم أصعدت إلى السماء وعليها ظلمة فأغلقت دونها أبواب السماء، فلقت كما يلف الثوب الخلق، فيضرب بها وجه صاحبها».

الكلام على البسمة

لا تأسفنَ لأمرٍ فاتٍ مَطْلَبه هيات ما فائت الدنيا بمرود
إذا اقتضت أخذتْ نَقْدًا وإن سئلت فدأبها بالأمانى والمواعيد
وما السرورُ بها الموروث آخره أن يُتبع الحرصَ إلا قلبٌ مَكْدودٍ

وللتأسف يَبْقَى كُلُّ مُدَّخِرٍ وللمنيّة يَغْدُو كُلُّ مَوْلُودٍ

يا مخلوقاً من علق، اكتف من الدنيا بالعلق، واحذر في ريّ الهوى من
شَرَقٍ، وتذكّر يوم الرحيل ذاك القلق، وتفكّر في هاجمٍ يسوّي بين الملوك
والسوق؛ وتأهب له، فرجماً بكَرٍّ، وربما طرق، يا من شاب وما تاب، استلب
باقي الرمق، أبعد الحلم جهل، أم بعد الشيب نزع، كان الشباب غُصْنًا غُضًّا
فخلّي عن ورق، وأنت في الشباب كالشيب تجري على نسق، يا غريقاً في الهوى
صحّ من قبل الغرق، كم طالبٍ خلاصاً لما فات ما اتفق.

ليأتينك من الموت ما لا يقبل رشوة، ولا مالا، إذا حال على القوى والقويم
مالاً، يا مختار الهوى جهلاً وضلالاً، لقد حَمَلت أزرِك أوزاراً ثَقَالاً، إياك
والمنى فكم وعد المنى مُحَالاً، كم قال لطالب نِعَمٍ: نَعَم سأعطيك نوالاً وقد
نوى: لا.

كم سقى الموتُ من الحشرات كؤوساً، كم فرّغ ربّعاً عامراً مأنوساً، كم طمس
بدوراً وشُموساً واستلب نعيماً، ثم أعطى بوساً، وأذل جابرة كانوا شوساً،
وأغمض عيوناً ونكّس رؤوساً، وأبدل التراب عن الثياب ملبوساً.

إذا كان ما فيه الفتى عنه زائلاً فشتان فيه أدرك الحظ أو أخطأ
وليس يقي يوماً سرورٍ وغبطة بُحزن إذا المعطي استرد الذي أعطأ
ذهب الشاب الأسود، وانقضى العيش الأرغد، وقال الشيب: أنا الموت وما
أبعد، هذا، وقلبُ الغافل كالجلمد:

لا يدع إن ضحكك القتير فبكي لضحكته الكبيرُ
عاصى العزاء عن الشبا ب وطاوع الدمع الغزيرُ
سُقياً لأيام مضت فطويلها عندي قصيرُ
سقى الشباب وإن عفى آثار معهده القتيرُ
ما كان إلا الملك أو دى بل هوى وهوى السرييرُ

هُوْنٌ عَلَيْكَ فَإِنِّهَا خَلَعَ أَعَارِكَهَا مُعِيرُ
وَالدَّهْرُ يَقْسِمُ مَرَّةً نَفْلًا وَأَوْنَةً يُغَيِّرُ

كلُّ راحات الدنيا هموم وكروب، أما دوام العيش بالمشيب مشوب .

نظر سليمان بن وهب وزير المهدي يوماً في المرأة فرأى شيئاً كثيراً فقال:
عيبٌ لا عدمناء .

أنت كل يوم إلى القبر تتقرب، وسترحل إلى البلى وتتغرب، وسياًكل المحب
بعدك ويشرب، وكأنك إذا ذكرت أضرب، فخذ العدة، فخيّل الشدة تسرب
واسمع نصحي فنصحي مجرب، يا هذا إحذر الأمل، وبادر العمل، فكأنك
بالأجل على عجل. أما الأعمار كل يوم ناقصة، أما الفجائع واردة واقصة: أما
النكبات لأهلها معاقصة، أما كفّ الموت قابضة قانصة، فأنتي لساكن الدنيا
بالسلامة الخالصة، كأنك بالموت قد ثلّب وقدح، وأورى زناد الرحيل وقدح،
وخلت كفتك يا من تعب وكدح، وتساوى لديك من ذمّ ومن مدح، ما هذه
العمارة لدار خراب، كلما عمرها قومٌ صاح بينهم للبين غراب، أتبني وأنت
تنقض، هذا العجّاب:

رُبَّ شَرِيفِ الْبِنَاءِ عَلَيْهِ بِالشَّيْءِ وَالسَّاجِ كَانَ بَانِيهِ
كَأَنَّما الشَّمْسُ فِي جِوَانِبِهِ بِاللَّيْلِ مِنْ حُسْنِهِ تَبَاهِيهِ
تَحَارَ فِي صَحْنِهِ الرِّيحُ كَمَا يَحَارُ سَارِي الظَّلامِ فِي التَّيِّهِ
كَانَتْ صَحُونٌ فِيحٌ تَضِيقُ بِهِ فَالشَّبْرُ فِي القَبْرِ صارَ يَكْفِيهِ

الجِدَّةُ الجِدَّةُ قَبْلَ بَغْتَاتِ المَنِيَا، البِدَارُ البِدَارُ، قَبْلَ حُلُولِ الرِّزَايَا، لِيَحْلَنَ بِكُمْ
مِنَ المَوْتِ يَوْمَ ذُو ظَلَمٍ يَنسِيكُمْ مَعَاشِرَةَ اللِّذَاتِ وَالنَّعَمِ، وَلَا يُبْقِي فِي الأَفْوَاهِ إِلا
طَعْمَ النِّدَمِ:

سَلْ بِالزَّمَانِ خَبِيراً إِنِّي بِهِ لَعَلِيمٌ
وَاهِي الأَمَانَةِ ظَاعِنٌ بِالمرءِ وَهُوَ مَقِيمٌ

لا تُخَدَعْنَ بِبُيُوتَةٍ أُمَّ الْخُلُودِ عَقِيمٌ
 وإذا المنيّة أبرقت فرجاؤك المهزوم
 عُشيق البقاء وإنما طول الحياة هموم

ما هذه الخصال المذمومة، أيؤثر الفهُوم لذة مَسْمُومة، إن هذه لعقول
 مرجومة، متى تيقظ هذه النفوس الملوّمة، إنها لظالمة وكأنها مظلومة، تُعاهدوا
 والعهودُ كلّ يوم مهدومة، لتتمنّين أن تكون في غد معدومة، لتعلمن أن
 اختياراتها كانت مشؤومة، من لها إذا بدت لها خصال مكتومة، كيف تصنع إذا
 نشرت الصحف محتومة، ما هذا الحرص الشديد والأرزاق مقسومة، تصحب
 حزينّة وتسمي مهمومة، أتقدر على رد ما يُقدّر والأُمور محتومة، أسفاً لها الموتُ
 يطلبها وهو نُؤومة، ما حاربت جندَ هوى إلا وعادت مهزومة، يا لها موعظة بين
 المواعظ كالأيام المعلومة أحسن من اللآلئ المنثورة. والعقود المنظومة.

الكلام على قوله تعالى:

﴿إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُمْ مِنَّا الْحُسْنَىٰ أُولَٰئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ﴾^(١)

سبب نزولها أنه لما نزل: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ حَصَبُ
 جَهَنَّمَ﴾^(٢) شق ذلك على قريش وقالوا: شتم آلهتنا، فجاء ابن الزبيري فقال: ما
 لكم؟ قالوا: شتم آلهتنا قال: وما قال؟ فأخبروه فقال: ادعوه لي. فلما دعى رسول
 الله ﷺ قال: يا محمد هذا شيء لآلهتنا خاصة، أول لكل من عبد من دون الله؟
 قال: بل لكان من عبّد من دون الله عز وجل. قال ابن الزبيري: خُصِمْتُ وربّ
 هذه البنية! أأست تزعم أن الملائكة عباد صالحون، وأن عيسى عبد صالح، وأن
 عزيزاً عبداً صالحاً؟ فهذه بنو مليح يعبدون الملائكة، وهذه النصارى تعبد
 عيسى، وهذه اليهود تعبد عزيزاً. فضجّ أهل مكة، فنزلت هذه الآية. قاله ابن
 عباس.

(٢) الأنبياء ٩٨.

(١) الأنبياء ١٠١.

اسم ابن الزَّبَعْرِيِّ: عبد الله كان يهجو أصحاب رسول الله ﷺ والزعبري:
بفتح الباء .

قال المفسرون: وإنما أراد بقوله: ﴿وما تعبدون﴾ الأصنام؛ لأنه لو أراد
الملائكة والناس لقال ومن .

والحسني عند العرب: كلمة توقع كل محبوب ومطلوب؛ قال امرؤ القيس:
فصيرنا إلى الحسنى ورقّ كلامنا ورُضت فذلت صعبةً أيّ إذلال
وقوله تعالى: ﴿أولئك عنها﴾ أي عن جهنم ﴿مُتَعَدُونَ﴾ والبعد طول
المسافة . والحسيس: الصوت تسمعه من الشيء، إذا مرّ قريباً منك .

وقال ابن عباس: لا يسمع أهل الجنة حسيس أهل النار، إذا نزلوا منازلهم
من الجنة ﴿وهم فيما اشتت أنفسهم خالِدُونَ﴾ (١) .

أخبرنا عبد الأول بسنده إلى عطاء بن يسار، عن أبي هريرة أن النبي ﷺ
كان يوماً يحدث وعنده رجل من أهل البادية فقال: إن رجلاً من أهل الجنة
استأذن ربه في الزرع فقال له: أو لست فيما شئت؟ قال: بلى، ولكني أحب أن
أزرع. فأسرع وبذر فبادر الطرف نباته، واستواؤه واستحصاده، فيقول الله عز
وجل: دونك يا بن آدم لا يشبعك شيء. فقال الأعرابي: يا رسول الله لا نجد
هذا إلا قُرَشِيًّا، أو أنصاريًّا، فإنهم أصحاب زرع، فأما نحن فللسنا بأصحاب
زرع. فضحك رسول الله ﷺ .

انفرد باخراجه البخاري .

قوله تعالى: ﴿لا يحزنهم الفزع الأكبر﴾ فيه أربعة أقوال: أحدها: أنه
النفخة الأخيرة رواه العوفي عن ابن عباس .

والثاني: أنها إطباق النار على أهلها . رواه ابن جبّير عن ابن عباس .

(١) الانبياء ١٠٢ .

والثالث: أنه ذَبَح الموت بين الجنة والنار . قاله ابن جُرَيْج .

والرابع: أنه حين يُؤمَّر بالعبد إلى النار . قاله الحسن .

قوله: ﴿وتتلقاهم الملائكة﴾ اختلفوا في محلِّ التَّلَقِّي على قولين: أحدهما: أنه إذا قاموا من قبورهم . قاله مُقَاتِل .

والثاني: على أبواب الجنة . قاله ابن السائب .

قوله: ﴿هذا يومكم الذي كنتم توعدون﴾^(١) فيه إضمار: يقولون هذا يومكم الذي كنتم توعدون فيه الجنة .

أين من يعمل لذلك اليوم ، أين المتيقِّظ من سِنَةِ النوم ، أين من يلحق بأولئك القوم ، جدُّوا في الصلاة ، وأخروا في الصوم ، وعادوا على النفوس بالتوبيخ واللوم ، ليتك إن لم تقدر على الإشمام لطريقتهم حصَّلت الرِّوْم .

قوله تعالى: ﴿يوم نطوي السماء﴾ وذلك بمحو رسومها ، وتكدير نجومها ، وتكوير شمسها ﴿كطي السَّجَل﴾ وفي السجل أربعة أقوال:

أحدها: أنه ملك . قاله علي بن أبي طالب ، وابن عمَر ، والسُدِّي .

والثاني: كاتب كان لرسول الله ﷺ . رواه أبو الجوزاء ، عن ابن عباس .

والثالث: السجل بمعنى الرجل . روي عن ابن عباس . قال: شيخنا أبو منصور اللُّغَوِي: وقد قيل: السجل بمعنى لغة الخبشة: الرجل .

والرابع: أنها الصحيفة . رواه ابن أبي طلحة ، عن ابن عباس . وبه قال مجاهد والفرَّاء وابن قتيبة .

وقرأت على شيخنا أبي المنصور قال: قال أبو بكر بن دُرَيْد: السجل: الكتاب والله أعلم . ولا التفت إلى قولهم أنه فارسي معرب .

والمعنى: كما يُطَوَّى السجل على ما فيه من الكتاب . واللام بمعنى على . وقال

(١) الأنبياء ١٠٣

بعض العلماء: المراد بالكتاب المكتوب؛ فلما كان المكتوب ينطوي بانطواء الصحيفة جعل السجل كأنه يَطْوِي الكتاب.

ثم أستأنف فقال: ﴿ كما بدأنا أولَ خَلْقِ نُعيدُه ﴾^(١) وفي معناه أربعة أقوال: أحدها: كما بدأناهم في بطون أمهاتهم حفاةً عرأةً عُراً، كذلك نعيدهم يوم القيامة.

أخبرنا عبد الأول بسنده، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس، عن النبي ﷺ أنه قال: « إنكم تُحشرون حفاةً عرأةً عُراً، كما بدأنا أولَ خَلْقِ نُعيدُه وعداً علينا إنا كنا فاعلين ».

أخرجه في الصحيحين.

والغزل: القلف، يقال هو أقلف وأغرل وأغلف بمعنى واحد.

وفي بعض الأحاديث بهما. ومعناه: سالمين من عاهات الدنيا وآفاتها لا جذام بهم ولا برص ولا عَمَى، ولا غير ذلك من البلايا، لكنهم يحشرون بأجساد مصححة لخلود الأبد، إما في الجنة، وإما في النار، والبهم من قول العرب: أسود بهم وكُميت بهم وأشقر بهم: إذا كان لا يخالط لونه لون آخر، فكذلك هؤلاء يبعثون معافين عافية لا يخالطها سقم.

والثاني: أن المعنى: أنا نهلك كل شيء كما كان أول مرة، رواه العوفي عن ابن عباس.

والثالث: أن السماء تمطر أربعين يوماً كمنى الرجال، فينبتون بالمطر في قبورهم، كما ينبتون في بطون أمهاتهم. رواه أبو صالح عن ابن عباس.

والقول الرابع: أن المعنى: قُدرتنا على الإعادة، كقدرتنا على الإبتداء. قاله الزجاج.

(١) الأنبياء ١٠٤.

يا له من يوم ما أعجب أحواله، وما أصعب أهواله، وما أكثر أحواله، مريض طرده لا يُرجى له، ذُكر القيامة أزعج المتقين وخوف العرّض أقلق المذنبين، ويوم الحساب أبكى العابدين، وأرى قلبك عند ذكره لا يلين.

أخبرنا محمد بن ناصر بسنده عن عبد الرحمن بن محمد المكارى، عن موسى الجهني قال: سمعت عون بن عبد الله يقول: ويحي كيف أغفل، ولا يُغفل عني، أم كيف تهنيئني أمعشتي، واليوم الثقيل ورائي، أم كيف لا يطول حزني ولا أدري ما فعل في ذنبي، أم كيف أؤخر عملي، ولا أعلم متى أجلي، أم كيف يشتد عَجبي بالدنيا، وليست بداري، أم كيف أجمع لها، وفي غيرها قراري، أم كيف تعظم رغبتني فيها، والقليل منها يكفيني، أم كيف آمن فيها، ولا يدوم فيها حالي، أم كيف يشتد حرصي عليها، ولا ينفعني ما تركت منها بعدي، أم كيف أوترها، وقد ضرت من أثرها قبلي، أم كيف لا أفك نفسي من قبل أن يعلّق رَهني.

قال عبد الله بن الحسن بن عبد العزيز الجروي، قال: حدثنا عبد الله بن يوسف الدمشقي، قال: حدثنا محمد بن سليمان بن بلال، أن أمه عثّامة كُفّ بصرها، فدخل عليها ابنها يوماً، وقد صلّى فقالت: أصليتم أيّ بني؟ فقال: نعم. فقالت:

عَثّام مالِكِ لاهية	حَلّت بدارك داهية
ابكي الصلاة لوقتها	إن كنت يوماً باكية
وابكي القرآن إذا تُلي	أن كنت يوماً تالية
تتلينه بتفكّر	ودموع عينك جارية
فالיום لا تتلينه	إلا وعندك تالية
لهفي عليك صباية	ما عشت طول حياته

يا غافلاً عن القيامة، ستدري بمن تقع الندامة، يا مُعرضاً عن الإستقامة، أين وجه السلامة، يا مبنياً بالقدرة سينقض بناؤك، ويا مستأنساً بداره ستخلو

أوطانك، يا كثير الخطايا سيخف ميزانك، يا مشغولاً بلهوه سينشر ديوانك، يا أعجمي الفهم متى تفهم، أتعادي النصيح، وتوالي الارقم، وتؤثر على طاعة الله كسب درهم، وتفرح بذنب عقوبته جهنم، ستعلم حالك غداً ستعلم، سترى من يبكي ومن يندم، إذا جثا الخليل وتزلزل ابن مريم، يا عاشق الدنيا، كم مات متيم، يا من إذا خطرت له معصية صمم، ما فعلك فعل من يريد أن يسلم، ما للفلاح علامة، والله أعلم إن كان ثم عذر فقل وتكلم.

أيها المثخن نفسه بجراحات الشباب، حسبك ما قد مضى سوّدت الكتاب، أبعد الشيب وعظ، أو زجر، أو عتاب، هيهات تفرقت وصل الوصل وتقطعت الأسباب.

حسبك ما قد مضى من اللعب فتب إلى الله فعل مرتقب
طواك مرّ السنين فاطو ثياب اللد هو واخلع جلايب الطرب
وتب فإن الجحيم تنتظر الأشد يب إن مات وهو لم يتب
تظهر منها عليه أغلظ ما تظهره للشباب من غضب

السّجع على قوله تعالى ﴿كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُ﴾ .

يا من لا يؤثر عنده وعده ووعيدة، ولا يزعجه تخوفه وتهديده، يا مطلقاً ستعقله يده، ثم يفنيه البلى ويبيده، ثم ينفخ في الصور فيبتدأ تجديده ﴿كما بدأنا أول خلق نعيده﴾ .

فرقنا بالموت ما جمعنا، ومزقنا بالتلف ما ضيعنا، فإذا نفخنا في الصور أسمعنا، نحكم الميعاد في الميعاد ونجيده ﴿كما بدأنا أول خلق نعيده﴾ .

كم حسرة في يوم الحسرة، ومم سكرة من أجل سكرة، يوماً قد جعل حسين ألف سنة قدره، كل ساعة فيه أشد من ساعة العسرة، نبني فيه ما نقضناه ونشيد ﴿كما بدأنا أول خلق نعيده﴾ .

قربنا الصالحين منا، وأبعدنا العاصين عنا، أحببنا في القدم وأبغضنا، فمن

قضينا عليه بالشقاء أهلكننا، فهو أسير البعد وطريدته، ومن سبقت لهم منا الحسنى، فنحن نُنعم عليه ونفيده ﴿ كما بدأنا أول خلق نعيده ﴾ .

يومٌ كلُّه أهوال، شُغله لا كالأشغال، يتقلقل فيه القلب والبال، فتذهل عقول النساء والرجال، ومن شدة ذلك الحال لا ينادي وليده .

تجري العيون وابلاً وطلاً، وترى العاصي يقلق ويتقلّى، ويتمنى العودَ فيقال: كلاً. والويلُ كل الويل لمن لا نريده. تخشع فيه الأملاك، وتطير فيه الضحاك، ويعز على المحبوس الفكاك. فأما المؤمن التقي فذاك عبده .

إخواني: إرجعوا بحسن النزوع والأوبة، واغسلوا بمياه الدموع ماضي الحوبة، وقد نصبنا للمذنب شرَك التوبة، أفترى اليوم تصيده .

يا من لا يزال مطالباً مطلوباً، يامن أصبح كل فعله محسوباً، إن حرَّكك الوعظُ إلى التوبة صرت محبوباً، وإن كان الشقا عليك مكتوباً فما ينفع ترديده .

المجلس الرابع

في ذكر الزكاة

الحمد لله الذي لا واضع لما رفع، ولا رافع لما وضع، ولا واصل لما قطع، ولا مفرّق لما جمع، سبحانه من مقدر ضرّ ونفع، زحّم فالكّل حُكّمه كيف وقع، أمرّض حتى ألقى على شفاً، ثم شفى الوجع، وواصل من شاء، ومن شاء قطع، جعل العصاة في خفارة الطائعين، وفي كنف القوم وسع، ﴿ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لهدمت صوامع وبيع﴾ (١).

أحمده على ما أعطى ومنع، وأشكره إذ كشف للبصائر سير الخدع، وأشهد بأنه واحد أحكم ما صنع، وأن محمداً عبده ورسوله أرسله والكفر قد علا وارتفع، وفرّق بمجاهدته من شرّه ما اجتمع، ﷺ وعلى صاحبه أبي بكر الذي نجم نجم سعادته يوم الردّة وطلع، وعلى عمر الذي عزّ الإسلام به وامتنع، وعلى عثمان المقتول ظلماً وما ابتدع، وعلى عليّ الذي دحض الكفر بجهادته وقمّع، وعلى عمه العباس الذي سئل به سئل السحاب فهمع. اللهم يا من إلى بابه كلّ راغب رجع، اجعلنا ممن بالمواعظ انتفع، واحفظنا من موافقة الطّبع والطّمع وانفعني بما أقول وكل من استمع.

قال الله تبارك وتعالى: ﴿والذين يكتزون الذهب والفضة، ولا يُنفقونها في سبيل الله فبشرهم بعباب ألیم﴾ (٢).

الكنز: ما لم يؤدّ زكاته. أخبرنا عبد الأول بسنده عن الليث بن سعد، عن

(٢) التوبة ٣٤.

(١) الحج ٤٠.

نافع أن عبد الله بن عمر قال: ما كان من مال تؤدَّى زكاته فليس بكنز، وإن كان مدفوناً، وما ليس مدفوناً لا تؤدى زكاته؛ فإنه الكنز الذي ذكره الله عز وجل في كتابه.

وفي قوله: ﴿ولا يُنْفِقونها﴾ قولان، ذكرهما الزجاج:

أحدهما: أن المعنى يرجع إلى الكنوز.

والثاني: إلى الفضة. وقال أبو عبيدة: العرب إذا أشركوا بين اثنين قصرّوا فأخبروا عن أحدهما استغناءً بذلك، وتخفيفاً بمعرفة السامع أن الآخر قد شاركه ودخل معه في ذلك الخبر:

ومن يك أمسى بالمدينة رحله فإني وقّارٌ بها لغريبٌ
قوله تعالى: ﴿فبشرهم بعذابٍ أليمٍ﴾. أي اجعل مكان الإشارة هذا.

قوله عز وجل: ﴿يوم يُحْمَى عليها في نار جهنم﴾^(١). يعني الأموال. قال ابن مسعود: ما من رجل يُكْوَى بكنز فيوضع دينار على دينار، ولا درهم على درهم، ولكن يوسّع في جلده فيوضع كل دينار على حدّته.

وقال ابن عباس: هي حية تطوى على جنبه وجبهته فتقول: أنل مالك الذي بخلت به.

أخبرنا هبة الله بن محمد بسنده عن المحرور بن سويد، عن أبي ذر رضي الله عنه قال: أتيت رسول الله ﷺ وهو في ظل الكعبة فقال: هم الأخرسون وربّ الكعبة. قالها ثلاث مرات. قال: فأخذي غمّ وجعلت أنتفس، قال: قلت هذا شرّ حدث فيّ. قال: قلت: من هم؟ فذاك أبي وأمي؟ قال: الأكثرون أموالاً إلا من قال في عباد الله، هكذا وهكذا، وقليل ما هم، ما من رجل يموت فيترك غمّاً أو إبلاً، أو بقراً ولا يؤدّي زكاتها، إلا جاءته يوم القيامة أعظم ما تكون، وأسمّن حتى تطأه بأظلافها وتنطحه بقرونها حتى يقضي الله بين الناس،

(١) التوبة ٣٥.

ثم تعود أولاهها على أخراها .

أخراجه في الصحيحين (١)

وبالإسناد عن جابر قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: « ما من صاحب إبل لا يفعل فيها حقها إلا جاءته يوم القيامة أكثر ما كانت قط، وقعد لها بقاع قرقر تنطحه بقرونها وتطؤه بقوائمها، ولا صاحب غنم لا يفعل بها حقها إلا جاءت أكثر ما كانت، وقعد لها بقاع قرقر تنطحه بقرونها وتطؤه بأظلافها ليس فيها جماء ولا منكس قرنها، ولا صاحب كنز لا يفعل فيه حقه، إلا جاء يوم القيامة شجاعاً أقرع يتبعه فاغراً فاه، فإذا أتاه مرّ منه فيناديه ربه: خذ كنزك الذي خبأته فإني عنه أغنى منك، فإذا رأى أن لا بد له منه سلك بيده في فيه فيقضمها قضم الفحل .»

انفرد بإخراجه مسلم .

وفي أفراد من حديث أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ أنه قال: « ما من صاحب ذهب ولا فضة لا يؤدي منها حقها، إلا إذا كان يوم القيامة صُفِّحت له صفائح من نار فأحمي عليها في نار جهنم، فيكوي بها جبهته، وجنبه وظهره، كلما تردّت أعيدت إليه أولاهها أعيدت أخراها أعيدت إليه في يوم كان مقداره: خمسين ألف سنة حتى يُقضى بين العباد، فيرى سبيله، إما إلى الجنة، وإما إلى النار .»

أخبرنا عبد الأول بسنده عن عبد الله بن دينار، عن أبيه، عن أبي صالح، عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «من أتاه الله مالاً فلم يؤدّ زكاته مثل له ماله شجاعاً أقرع له زبيبتان يطوّقه يوم القيامة يأخذ بلهزمتيه، يعني شذقيه يقول: أنا مالك، أنا كنزك، وتلا هذه الآية: ﴿ وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَبْخُلُونَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ هُوَ خَيْرًا لَّهُمْ ﴾ الآية» (١) .

إنفرد بإخراجه البخاري .

(١) آل عمران ١٨٠ .

فإن قيل: لم يخص الجبّاه والجنوب والظهور من بقية البدن؟

فجوابه من وجهين: أحدهما: أن هذه المواضع مجوّفة فيصل الحرّ إلى أجوافها، بخلاف اليد والرجل، وكان أبو ذر يقول: بشر الكنازين بكّي في الجبّاه، وكّي في الجنوب، وكّي في الظهر حتى يلتقي الحرّ في أجوافهم.

الثاني: أن الغني إذا رأى الفقير انقبض، وإذا ضمه وإياه مجلس ازورّ عنه، وولاه ظهره، فكوّيت تلك المواضع منه، قال أبو بكر الورّاق.

قوله تعالى: ﴿هَذَا مَا كَنَزْتُمْ لِأَنفُسِكُمْ﴾^(١) المعنى: هذا ما ادخرتم لأنفسكم ﴿فذوقوا ما كنتم تكنزون﴾ أي عذاب ذلك اليوم.

واعلم أن الزكاة أحد أركان الإسلام. قال عليه السلام: «بُنِيَ الإسلام على خمس» فذكر منهن الزكاة.

وينبغي للمتيقظ أن يفهم المراد من الزكاة، وذلك ثلاثة أشياء.

أحدها: الابتلاء بإخراج المحبوب. **والثاني:** التنزه عن صفة البخل المهلك. **والثالث:** شكر نعمة المال، فليتذكر إنعام الله عليه إذ هو المعطي لا المعطى.

وعليه ألا يؤخّرها إذا حال الحول، لأنها حق للفقير، ويجوز تقديمها على الحول، ولا يجوز إعطاء العوّض باعتبار القيمة. وينبغي أن ينتقي الأجود للفقير، فإن الذي يعطيه هو الذي يلقاه يوم القيامة، فليتخير لنفسه ما يصدّق به، وأن يقدم فقراء أهله ويتحرى بها أهل الدين، ولا يبطل صدقته بالمن والأذى، فليعط الفقير بانسراح ولطف حتى كأن الفقير هو الذي يُنعم بما يأخذه، وليستر عطاءه أهل المروءات فإنهم لا يؤثرون كشف ستر الحاجة، فإن خطر له أن الزكاة ينبغي أن تشاع لئلا يتهم الإنسان، ففي من لا يستحي إذا أخذها كثرة، فليشعها عند أولئك، وليترك أرباب الأنفة تحت ستر الله عز وجل.

(١) التوبة ٣٥.

الكلام على البسمة

غَوَالِبُ رَاحَةِ الدُّنْيَا عَنَاءٌ وَمَا تَعطِيهِ مِنْ هَيْبَةِ هَبَاءٍ
 وَمَا دَامَتْ عَلَى عَهْدٍ بِخَلْقٍ وَلَا وَعَدَتْ فَكَانَ لَهَا وَفَاءٌ
 تُذِيقُ حَلَاوَةً وَتُذِيقُ مُرًّا وَلَيْسَ لَذَا وَلَا هَذَا بَقَاءٌ
 وَتَجْلُو نَفْسَهَا لَكَ فِي المَعَاصِي وَفِي ذَاكَ الجَلَاءِ لَهَا الجَلَاءُ
 إِذَا نَشَرْتَ لَوَاءَ المُلْكِ فِيهَا لَوَى قَلْبَ الغَنِيِّ لَهَا اللِّوَاءُ
 فَدَعَّهَا رَاغِبًا فِي ظِلِّ عَيْشٍ وَمُلْكَ مَالِهِ أَبَدًا فَنَاءُ

عجباً لمن عرف الدنيا، ثم اغتر، أما يقيس ما بقي بما مرّ، أيؤثر لبيب على الخير الشرّ، أيجتر الفطن على النفع الضر، كم نعمة عليك قد سلّفتها، وما قمت بفريضة كلّمتها، إذا دعيت إلى التوبة سوّفتها، وإن جاءت الصلاة ضيّعتها، وإذا قمت في العبادة خفّفتها، وإذا لاح لك وجه الدنيا ترشّفتها، لقد آفتك آفة الدنيا وما أفتها، إنها لدار قلعة تضيّفتها، أو ليس قد شييت وما عرفتها، كم حيلة في مكاسبها تلطّفتها، ولو شغلتك عنها آيات تأفّفتها، كم بادية في أرباحها تعسّفتها، كم قفار في طلبها طُفتها، كم كذبات من أجل الدنيا زخرفتها، لقد استشعرت محبتها، إي والله والتحقّفتها، تحضر المسجد وقلبك مع النبي ألفتها، أو ما يكفيك أموالك وقد ألفتها، تا الله لو علمت ما تجني عفتها. أنسيت تلك الذنوب التي أسلفتها، ألسّت الذي تذكّرتنا، ثم خفّفتها، آه لمراحل أيام قطعها وخلّفتها، آه لبضائع عمر بدّرت فيها وأتلفتها، لو أردت خيراً وبجّنتها وعفتها، لو قبلتها بالوفاق، فهلا خالفتها؟

إخواني: قولوا للمفرط الجاني، قال لك الشيب: أما تراني، أنا كتاب المنون والضعف عنواني، وليس في السطور إلا أنك فاني:

أنكرت سلّمى مشيباً عراني ورأتني غير ما قد تراني
 أشرف الشيب على لمتي وشباب المرء ظلّ للزمان
 إنما أنت لما قد ترى لا يغرنك ضمان للأمازي

هل ترى من عائش خالدٍ كم ترى من هالكٍ قد صار فاني
لو أعنت العين إذا أبصرت واعظاتي بفؤادي لكفاني
أي شيء أتقيسي والردى بين جنبي بعيني يداني
كل يوم ناقصٌ دولةً من بقائي جاذبٌ مني عنائي
وألاقيه بلا جنة فإذا شاء أن يذمي لحنيني رماني
تابعٌ يتبع ماضيي كما يتبع العاملُ جرّاً للساني
لذة الدنيا إذا ما حضروا فإذا غابوا فشغل للأماني
ما اطمان الدهرُ حتى تقضوا فكأن لم أرهم في مكانٍ

أين أهل العزائم، رحلوا وماتوا، أين أهل اليقظة ذهبوا وفاتوا، قف على
قبورهم تجد ريح العزم، تنفس عندها تحب روح الحزم، أقبلوا بالقلوب على
مقلبيها، وأقاموا النفوس لدى مؤدبها، ومدّوا الباع من باع التسليم إلى صاحبها،
وأحضروا الأخرى فنظروا إلى غايتها وسهروا الليالي كأنهم قد وكلوا برعى
كواكبها، ونادوا نفوسهم صبراً على نار البلاء لمن كواكبها، ومقتوا الدنيا فما
مال الملأ إلى ملاعبها، واشتاقوا إلى الحبيب، فاستطالوا مدة المقام بها.

أنتم على البعد همومي إذا غيبتم وأشجاني على القرب
لا أتبع القلب إلى غيركم عني لكم عين على قلبي

إن لم تكن معهم في السحر، فتلمح آثار الحبيب عليهم وقت الضحى، واقرأ
في صحائف الوجوه سطوير القبول بمداد الأنوار، وجوة ينهاها الحسن أن تتقنعا.

أين أنت من القوم، كم بين اليقظة والنوم، يا بعيد السلامة، قد قربت منك
النعام يا عديم الاستقامة، ما أرى لنجاتك علامة، أعمالك لا تصلح للجنة،
وخصالك الباطنة أوصاف.

إلى متى إلى متى جدّ في غير الجد والكماش، إلى كم في الظلام، وقد نسخت
الأعباش، تمكّن حبّ الدنيا من القلب، فما يخرج منه منقش، ولاح نور الفلاح
وكيف يبصر خفاش، أمّا النهار فأسير الهوى في المعاش، وأما الليل فقتيل المنام

في الفراش، كيف يصحب الصلحاء مَنْ هَمَّتْهُ صُحْبَةُ الأوباش، وهل يبارز في
صف الحرب خَوَارٍ ضَعِيفِ الجاش، دخل حب الدنيا، فاستبطن بَطْنَ المَشَاش.

مِثْلُ الشَّيْبَةِ كَالرَّيْبِ إِذَا مَا جِيَدٌ فَاخْضَرَّتْ لَهُ الأَرْضُ
فَالشَّيْبُ كَالْمَحَلِّ الْجَمَادِ لَهُ لَوْنَانِ مُعَبَّرٌ وَمُبَيَّنٌ
سَنَحَتْ لَهُ ذَهْيَاءُ مِنْ كَثَبٍ دَانَتْ خُطَاهُ وَمَا بِهِ أَيْضُ
تَرَكَ الْجَدِيدُ جَدِيدَهُ هَمَلًا لَا الصَّوْنَ يُرْجِعُهُ، وَلَا الرَّحْضُ
وَتَعَاقَبَ التَّفْتِيشُ يَقْدَحُ فِي صَمِّ الصَّفَا فَيُظَلُّ يَرْفُضُ

الكلام على قوله عز وجل:

﴿لَنْ تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا تَحِبُّونَ﴾ (١)

المعنى: لن تنالوا البر الكامل، وبعض المفسرين يقول: المراد بالبرها هنا
الجنة، ولن يدرك الفضل الكامل، إلا ببذل محبوب النفس.

أخبرنا عبد الأول بسنده عن إسحاق بن عبد الله بن طلحة، أنه سمع أنس
بن مالك يقول: «كان أبو طلحة أكثر أنصاري بالمدينة مالا من نخل، وكان
أحب أمواله إليه بيرحاء وكانت مستقبله المسجد، وكان رسول الله ﷺ
يدخلها ويشرب من ماء فيها طيب. قال أنس: فلما نزلت هذه الآية: ﴿لَنْ
تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا تَحِبُّونَ﴾ قام أبو طلحة فقال: يا رسول الله إن الله
تعالى يقول: ﴿لَنْ تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا تَحِبُّونَ﴾ وإن أحب أموالي إلي
بيرحاء، وإنها صدقة لله أرجو برّها وذخرها عند الله فضعها حيث أراك الله.
قال: فقال رسول الله ﷺ: «بَخِ ذَاكَ مَالٌ رَابِحٌ، أَوْ رَائِحٌ - شَكَ ابْنُ مَسَلَمَةَ -
وَقَدْ سَمِعْتُ مَا قُلْتَ، وَإِنِّي أَرَى أَنْ تَجْعَلَهَا فِي الأَقْرَبِينَ». قال أبو طلحة: أفعل
ذلك يا رسول الله، فقسمها أبو طلحة في أقاربه وبني عمه.

أخرجاه في الصحيحين. ورواه حميد عن أنس فقال فيه: لو استطعت أن

(١) آل عمران ٩٢.

أَسْرَهَا لَمْ أَعْلَمَهَا . فَقَالَ : اجْعَلْهُ فِي فَقْرَاءِ أَهْلِكَ .

وقال مجاهد : كتب عمر بن الخطاب إلى أبي موسى أن يبتاع له جارية من سَبْيِ جُلُودَاءِ فِجْلٍ ، فدعاها عمر فأعتقها ، ثم تلا هذه الآية : ﴿ لَنْ تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا تَحِبُّونَ ﴾ .

وقال ابن عمر : خَطَرَتْ هَذِهِ الْآيَةُ بِيَالِي : ﴿ لَنْ تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا تَحِبُّونَ ﴾ . ففكرت فيما أعطاني الله عز وجل ، فما وجدت شيئاً أحب إلي من جارييتي رميته فقلت : هي حُرَّةٌ لوجه الله ، فلولا أني لا أعود في شيء جعلته لله لنكحتها . فأنكحها نافعاً فهي أم ولده .

أخبرنا محمد بن ناصر بسنده ، عن عبد العزيز بن رواد ، عن نافع ، قال : كان ابن عمر إذا اشتدَّ عُجْبُهُ بشيء من ماله قربه لربه عز وجل . قال نافع : كان بعض رقيقه قد عرفوا ذلك منه ، فربما شمَّرَ أحدهم ، فلزم المسجد فإذا رآه ابن عمر على تلك الحالة الحسنة أعتقه ، فيقول له أصحابه : يا أبا عبد الرحمن والله ما بهم إلا أن يخذعوك ! فيقول ابن عمر : فمن خدعنا بالله المخذعنا له ! .

قال نافع : فلقد رأيتنا ذات عشية ، وراح ابن عمر على نَجِيبٍ له قد أخذه بمال ، فلما أعجبه سَيَّرَهُ أَنَاخَهُ مَكَانَهُ ، ثم نزل عنه وقال : يا نافع انزعوا زِمَامَهُ وَرَحْلَهُ وَجَلَّلُوهُ وَأَشْعَرُوهُ وَأَدْخِلُوهُ فِي الْبُدْنِ .

وروى بشر بن دعلوف عن الربيع بن خثيم أنه وقف سائل على بابه فقال : أطمعوه سكرًا ، فإن الربيع يحب السكر .

واعلم أن الإنفاق يقع على الزكاة المفروضة ، وعلى الصدقة النافلة ، وعلى الإيثار والمواساة للإخوان ، فمن أخرج لله عز وجل شيئاً ، فليكن من أطيب ماله ، وليوقن المضاعفة .

أخبرنا ابن الحصين بسنده عن سعيد بن يسار ، عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « من تصدق بعدل تمرة من كسب طيب - ولا

يصعد إلى الله إلا الطيب - فإن الله يتقبلها بيمينه ، ثم يرببها لصاحبها كما يربي أحدكم فلُوّه حتى يكون مثل الجبل .»

وفي أفراد مسلم من حديث أبي مسعود الأنصاري قال : جاء رجل إلى رسول الله ﷺ بناقة مخطومة فقال : هذه في سبيل الله . فقال رسول الله ﷺ : « لك بها يوم القيامة سبعمائة ناقة كلها مخطومة .»

أخبرنا يحيى بن علي بسنده ، عن يونس بن عُبَيْد ، عن الحسن ، عن أنس قال : قال رسول الله ﷺ : « إن الصدقة لتطفئ غضب الرب ، وتدفع ميتة السوء .»

أخبرنا موهوب بن أحمد بسنده عن يزيد الرقاشي ، عن أنس ، عن رسول الله ﷺ أنه قال : « تصدّقوا فإن الصدقة فكاك من النار ، والصدقة تمنع سبعين نوعاً من البلاء أهونها الجدّام والبرص .»

وفي حديث بُرَيْدَةَ رضي الله عنه ، عن النبي ﷺ . أنه قال : ما يُخرج أحد شيئاً من الصدقة حتى يفك لِحْيِي سبعين شيطاناً .

وينبغي للمتصدق أن يُصلح نيته ، فيقصد بالصدقة وجه الله عز وجل ، فإن لم يقصد وجه الله لم تُقبل منه . وينبغي ان يتخيّر الحلال .

ففي أفراد مسلم من حديث ابن عمر رضي الله عنه ، عن النبي ﷺ أنه قال : لا يقبل الله صدقةً من غُلُول .»

وكان الحسن يقول : أيها المتصدق على المسكين برحمة ، ارحم من ظلمت .

وأن يتخيّر الأجود ، فقد قال الله تعالى : ﴿ أَنْفَقُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا كَسَبْتُمْ ، وَمِمَّا أَخْرَجْنَا لَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ ، وَلَا تَيَمَّمُوا الْخَبِيثَ مِنْهُ تُنْفِقُونَ ﴾ (١) . وقال عروة بن الزبير : إذا جعل أحدكم لله شيئاً ، فلا يجعل له ما يستحي ان يجعل لكرّيمه ، فإن الله تعالى أكرم الكرماء وأحق من اختيار له .

ثم ينبغي ان يكون إخراج المحبوب في زمان صحة المعطي ، وزمان فاقة

(١) البقرة ٢٦٧ .

المعطى، وليقدّم الأقرباء، ويقدم من الأقارب من لا يميل إليه بالطبع. ففي حديث أبي أيوب الأنصاري عن النبي ﷺ أنه قال: «أفضل الصدقة الصدقة على ذي الرحم الكاشح».

وليخرج المعطي ما سهل وإن قلّ. فقد روى جابر بن عبد الله، عن النبي ﷺ أنه: سئل: أي الصدقة أفضل؟ فقال: جهداً المقلّ.

وقال الحسن: أدركنا أقواماً كانوا لا يردون سائلاً إلا بشيء، ولقد كان الرجل منهم يخرج من بيته فيأمر أهله ألا يردوا سائلاً.

ومن آداب العطاء ان يكون سراً، فإن صدقة السر تطفئ غضب الرب عز وجل، قال عبد العزيز بن عمير: الصلاة تُبلغك نصف الطريق، والصوم يبلغك باب الملك، والصدقة تُدخلك عليه.

الكرِيم حر لأنه يملك ماله، والبخيل عبْدٌ لأن ماله يملكه، أما علمت ان رسول الله ﷺ طُبع على أشرف الأخلاق وقد وصف نفسه عليه الصلاة والسلام فقال: «يأتى الله لي البخل» وأعطى غنماً بين جبلين فتحير الذي أعطاه في صفة جوده فقال: هذا عطاء من لا يخشى الفقر، فلما سار في فيا في الكرم تبعه صديقه فجاء بكل ماله فقال: ما أبقيت لأهلك؟ قال: أبقيت الله ورسوله:

سبق الناس إليها صَفْقَةً لم يُعد رائدُها عنها بَعْبِنُ
هِرَّةً للجُود صالت نَشوء لم يكدّر عندها العُرْفُ بَمْنُ
طلبوا الشاء فوافى سابقاً جَذَعٌ غَبَّر في وجه المسن

نزع أبو بكر مَخِيط الهوى فمزّقه عليّ، رمى الصديقُ جهازَ المطلّقة فوافقه عليّ حتى رمى الخاتم: -

جَبَّبَ الفقرَ إليه أنه سُودد وهو بذاك الفقرِ يَغْنَى
وشريفُ القوم من بقى لهم شرفَ الذكرِ وخالى المالَ يَفْنَى
ما اطمانَ الوَفْر في بَحْبُوحَة فرأيت المجدَ فيها مُطْمَئِنّاً

تُهدم الأموال من أساسها أبداً ما دامت العلياء تُبنى
كان السلف يؤثرون عند الحاجة ، ويقدمون الأجودَ المحبوب .

أخبرنا عبد الأول بسنده إلى أبي حازم عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رجلاً
أتى رسول الله ﷺ فبعث إلى نسائه فقلن ما عندنا إلا الماء فقال رسول الله
ﷺ : من يَضُم هذا أو يُضِيف هذا ؟ فقال رجل من الأنصار : أنا فانطلق به إلى
امرأته فقال : أكرمي ضيفَ رسول الله ﷺ فقالت : ما عندنا إلا قوتُ
الصبيان ، فقال : هيئي طعامك وأصلي سراجك ونومي صبيانك إذا أرادوا
عشاء ففعلت ثم قامت كأنها تُصلح سراجها فأطفاه فجعل يريانه أنها يأكلان ،
فباتا طاويين ، فلما أصبح غدا إلى رسول الله ﷺ فقال : ضحك الله الليلة ، أو
عجب ، من فعالكما . فأنزل الله تعالى : ﴿ وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ
خَصَاصَةٌ وَمَن يوقِ شَحْنِ نَفْسِهِ فَاُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾ .

أخبرنا عبد الوهاب بسنده إلى محمد بن عبيد ، عن ابن الأعرابي قال استشهد
باليرموك عكرمة بن أبي جهل وسهيل بن أبي جهل وسهيل بن عمرو بن الحارث
ابن هشام وجماعة من بني المغيرة ، فأتوا بماء وهم صرعى ، فتدافعوه حتى ماتوا ولم
يدوقوه ! أتى عكرمة بالماء فنظر إلى الحارث بن هشام ينظر إليه فقال : ابدأوا
بهذا فنظر سهيل إلى الحارث بن هشام ينظر إليه فقال : ابدأوا بهذا فماتوا كلهم
قبل ان يشربوا ، فمر بهم خالد بن الوليد فقال : بنفسي أنتم !

نقّه ابنُ عمر من مرض فاشتهدى سمكة ، فلما قدّمت إليه جاء سائل فناوله
إياها .

واشتهى الربيعُ بنُ حُثَيْمٍ حلّواء ، فلما صنعت دعا بالفقراء فأكلوا ، فقال أهله :
أتعبتنا ولم تأكل فقال : وهل أكل غيري !

كم بينك وبين الموصوفين كما بين المجهولين والمعروفين ، آثرت الدنيا وآثروا
الدين ، فتلمّح تفاوت الأمر يا مسكين ، أمّا الفقير فما يخطر ببالك ، فإذا جاء

سائلٌ أغلظت له في مقالِك، فإن أعطيته فحقيراً يسيراً من رديء مالك. إلى كم
تتعب في جمع الحطام وتشقى، وتؤثر ما يفنى على ما يبقى: -

يُحصي الفتى ما كان من نفقاته ويضيع من أنفاسه ما أنفقاً
لم يعتصم ملك يشيد ملكه حصناً يُغرّ به ويحفر خندقاً
وكأنما دنيا ابن آدم عرسه أخذت جميع ترائه إذ طلقاً

السجع

على قوله تعالى: ﴿لَنْ تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا تَحِبُّونَ﴾

عباد الله: إلى متى تجمعون ما لا تأكلون، وتبنون ما لا تسكنون، والجد في
بيوتكم تدخرون، والرديء إلى الفقير تُخرجون ﴿لَنْ تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا
تَحِبُّونَ﴾.

حركوا هممكم إلى الخير وأزعجوا، وحثوا عزائمكم إلى الجدِّ وأدليجوا،
والتفتوا عن الحرص على المال وعرجوا، وآثروا الفقير بما تؤثرون.

ويحكم! السيرُ حثيث، ولا مُنجد لكم ولا مُغيث، فبادروا بالصدقة
المواريث، ﴿وَلَا تَيَمَّمُوا الْخَبِيثَ مِنْهُ تُنْفِقُونَ﴾ كم قطعت الأمالُ بتاً. كم مُصيف
ما أربع ولا شتى، كم عازم على إخراج المال ما تأتي، سبقتهُ المنون، ﴿لَنْ تَنَالُوا
الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا تَحِبُّونَ﴾ يا حريصاً ما يستقر، يا طالباً للدنيا ما يقِر، إن
كنت تُصدّق بالثواب فتصدّق في السر بالمحجوب المصون ﴿لَنْ تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى
تُنْفِقُوا مِمَّا تَحِبُّونَ﴾.

يا بخيلاً بالفتيل شحيحاً بالنّقيير، يا صريعاً بالهوى إلى متى عقير، تختار
لنفسك الأجدود، ولربك الحقير، ما لا يصلح لك من الشيء تُعطيه الفقير، فما
تختار لنا كذا يكون.

اكتسابك على أغراضك أنفقت، أمرجت نفسك في الشهوات وأطلقت،

ونسيت الحسابَ غداً وما أشفقت فإذا رحمت الفقير وتصدقت أعطيتَ الرديَّ
الدُّونَ .

أما المسكينُ أخوك من الوالدين فكيف كففت عن إعطائه اليدين ، كيف
تحتُّ على النَّفلِ ، والزكاةُ عليك دينٌ ؟ وأنتم فيها تتأولون .

يا وحيداً عن قليل في رَمْسِه ، يا مستوحشاً في قبره بعد طول أنسه ، لو قدَّم
خيراً نفعه في حَبْسِه . ﴿ ومن يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون ﴾ (١) .

تجمع الدينار على الدينار لغيرك ، وينساک من أخذ كلَّ خيرك ، ولا تزودت
منه شيئاً لسيرك ، هذا هو الجنون ﴿ لن تنالوا البرَّ حتى تُنفقوا مما تحبون ﴾ .

(١) الحشر ٩ .

المجلس الخامس في ذكر الصيام

الحمد لله خالق الدُّجَى والصباح ومُسَبِّب الهدى والصلاح، ومقدِّر الغُوم والأفراح، الجائد بالفضل الزائد والسَّمَاح، مالك الملك المنجي من الملُك، ومسيِّر الفلُك والفلُك مسيِّر الجنَّاح، عزَّ فارتفع، وفرَّق وجمع، ووصل وقطع، وحرَّم وأباح، ملك وقدر، وطوى ونشر، وخلق البشر وفطر الأشباح، رفع السماء وأنزل الماء، وعلم آدم الأسماء، وذرى الرياح، أعطى ومنع، وأنعم ومدح، وعفا عمن اجترح، وداوى الجراح، علم ما كان ويكون، وخلق الحركة والسُّكون، وإليه الرجوع والركون في الغد والرواح، يتصرف في الطُّول والعرض، وينصب ميزان العدل يوم العَرْض ﴿الله نور السموات والأرض مثل نوره كمشكاة فيها مصباح﴾ (١).

أحمده وأستعينه، وأتوكل عليه وأسأله التوفيق لعملٍ يقرب إليه، وأشهد بوحدانيته عن أدلة صِحاح، وأن محمداً عبده المقدم، ورسوله المعظم، وحبيبه المكرَّم، تفديه الأرواح، صلى الله عليه وآله وعلى أبي بكر رفيقه في الغار، وعلى عمر فتاح الأمصار، وعلى عثمان شهيد الدار، وعلى عليّ الذي يفتك رُعبه قبل لبس السلاح، وعلى العباس عمه صنو أبيه أقرب من في نسبه يليه.

اعلموا ان الصوم من أشرف العبادات، وله فضيلة ينفرد بها عن جميع التعبُّدات، وهي إضافته إلى الله عز وجل بقوله عز وجل: «الصوم لي وأنا أجزي به».

(١) النور ٣٥.

أخبرنا ابن الحصين بسنده عن الأعمش، عن أبي صالح، عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ « كلُّ عمل ابن آدم يضاعف الحسنة بعشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف إلى ما شاء الله، يقول الله عز وجل: إلا الصوم فإنه لي، وأنا أجزي به، يدع طعامه وشرابه وشهوته من أجلي، وللصائم فرحتان: فرحة عند فطره، وفرحة عند لقاء ربه، ولخلاف فيه أطيّب عند الله من ريح المسك، الصوم جنة.

قال أحد: وحدثنا أحمد بن عبد الملك، عن سهل بن سعد، عن النبي ﷺ أنه قال: « إن للجنة باباً يقال له: الريان يقال يوم القيامة: أين الصائمون؟ هلموا إلى باب الريان، فإذا دخل آخرهم أغلق ذلك الباب. وفي لفظ: فلم يدخل منه أحدٌ غيرهم.

هذان الحديثان في الصحيحين.

أخبرنا ابن الحصين بسنده عن رجاء بن حيوة، عن أبي أمامة قال: أنشأ رسول الله ﷺ غزواً فأتيته فقلت: يا رسول الله ادع لي بالشهادة. فقال: اللهم سلّمهم وغنّمهم. قال: فعزونا فسلمنا وغنمنا. قال: ثم أنشأ رسول الله ﷺ غزواً ثانياً فأتيته فقلت: يا رسول الله ادع لي بالشهادة. فقال: اللهم سلّمهم وغنّمهم. قال: فعزونا فسلمنا وغنمنا، ثم أنشأ رسول الله ﷺ غزواً ثالثاً، فقلت: يا رسول الله قد أتيتك مرتين أسألك أن تدعو الله لي بالشهادة فقلت: اللهم سلّمهم وغنّمهم، يا رسول الله فادع الله لي بالشهادة. فقال: اللهم سلّمهم وغنّمهم. قال: فعزونا، فسلمنا وغنمنا، ثم أتيت بعد ذلك فقلت: يا رسول الله مرني بعمل آخذه عنك ينفعني الله به. قال: « عليك بالصوم، لأنه لا مثل له ».

وكان أبو أمامة وامرأته وخادمه لا يلقون إلا صياماً، فإذا رأوا عندهم ناراً أو دخاناً بالنهار في منزلهم عرفوا أن قد اعتراهم ضيف. قال: ثم أتيت بعد ذلك فقلت: يا رسول الله إنك قد أمرتني بأمر، وأرجو ان يكون الله عز وجل قد نفعني به، فمرني بأمر آخر ينفعني الله به، قال: « اعلم انك لا تسجد لله سجدة

إلا رفع الله لك بها درجة أو حط، أو قال وَحَطَّ - شك مَهْدِيّ - عنك بها خطيئة.

أخبرنا عبد الوهاب الخافظ بسنده عن أبي بُرْدَةَ، عن أبي موسى قال: خرجنا غازين في البحر، فبينما نحن والريحُ لنا طيبةً، والشراعُ لنا مرفوع، فسمعنا منادياً ينادي: يا أهل السفينة قِفُوا أخبركم حتى والى بين سبعة أصوات. قال أبو موسى: فقمتم على صدر السفينة فقلت: من أنت، ومن أين أنت؟ أو ما ترى ما نحن فيه، وهل نستطيع وقوفاً؟ فأجابني الصوت: ألا أخبركم بقضاءِ قضاءه الله عز وجل على نفسه؟ قال: قلت: بلى أخبرنا. قال: فإن الله سبحانه قضى على نفسه أنه من عطش نفسه لله في يوم حارّ كان حقاً على الله أن يُرويه يوم القيامة. قال: فكان أبو موسى يتوحّى ذلك اليوم الحار الشديد الحر الذي يكاد ينسلخ فيه الإنسان فيصومه!

واعلم ان للصوم آداباً منها: كَفَّ النظر واللسان عن الفضول، والإفطار على الحلال وتعجيله، وأن يفطر على تمر. قال وهب بن منبه: إذا صام الإنسان زاع بصره فإذا أفطر على حللوة عاد بصره.

ويقول إذا أفطر: اللهم لك صُمت، وعلى رزقك أفطرت، وعليك توكلت. ويستحب السحور وتأخيرهُ.

وفي الصحيحين من حديث أبي هريرة، عن النبي ﷺ أنه قال: « إذا كان أحدكم يوماً صائماً، فلا يَجْهَل، ولا يَرُفُث، فإن امرؤ قاتله، أو شتمه فليقل: إني صائم. ».

وقد لا تَخْلُص النية، ولا يَحْصُل الأجر: أخبرنا أبو بكر بن عبد الباقي بسنده عن أبي سعيد المَقْبُرِي، عن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: رُبَّ صائمٍ حظه من صيامه الجوعُ والعطش، ورب قائمٍ حظه من قيامه السهر. ».

فأما ما يستحب صيامه، فقد كان جماعة من السلف يصومون المحرم.

وقد اخرج مسلم في أفراده من حديث أبي هريرة، عن النبي ﷺ انه قال: «أفضل الصيام بعد رمضان شهر الله المحرم».

وفي أفراده من حديث أبي قتادة عن النبي ﷺ أنه قال في صوم يوم عاشوراء: «يكفر السنة الماضية».

وفي الصحيحين من حديث عائشة رضي الله عنها قالت: ما كان رسول الله ﷺ يصوم في شهر من السنة أكثر من صيامه من شعبان، كان يصومه كله.

وفي أفراده من حديث أبي أيوب، عن النبي ﷺ أنه قال: «من صام رمضان، ثم أتبعه ستاً من شوال، فذلك صيام الدهر».

وفي أفراده من حديث أبي قتادة أن النبي ﷺ قال: «من صام يوم عرفة إني أحتسب على الله ان يكفر السنة التي قبله، والسنة التي بعده».

وفي أفراده من حديث أبي هريرة، عن النبي ﷺ قال: «إن أبواب الجنة تُفتح في يوم الإثنين والخميس».

أخبرنا ابن الحصين بسنده عن أبي سعيد المقبري قال: حدثني أسامة بن زيد قال: قلت: يا رسول الله، إنك تصوم لا تكاد تُفطر، وتُفطر لا تكاد تصوم إلا يومين إن دخلاً في صيامك، وإلا صُمتها. قال: أي يومين؟ قلت: يوم، الإثنين والخميس. قال: ذاك يومان تُعرض فيها الأعمال على رب العالمين، فأحب أن يُعرض عملي وأنا صائم».

ويستحب صيام ثلاثة أيام من كل شهر. ففي الصحيحين من حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: «أوصاني خليلي ﷺ بثلاث: صيام ثلاثة أيام من كل شهر، وركعتي الضحى، وأن أوتر قبل أن أنام».

وفي حديث أبي ذر رضي الله عنه قال: قال لي رسول الله ﷺ: إذا صمت من الشهر ثلاثة أيام، فصم ثالثَ عشر، ورابعَ عشر، وخامسَ عشر».

وفي الصحيحين من حديث عبد الله بن عمر قال: قال رسول الله ﷺ:

« أَحَبُّ الصِّيَامِ إِلَى اللَّهِ صِيَامُ دَاوُدَ عَلَيْهِ السَّلَامُ: كَانَ يَصُومُ يَوْمًا، وَيُفْطِرُ يَوْمًا، وَأَحَبُّ الصَّلَاةِ إِلَى اللَّهِ صَلَاةُ دَاوُدَ، كَانَ يَنَامُ نِصْفَ اللَّيْلِ، وَيَقُومُ ثُلُثَهُ، وَيَنَامُ سُدُسَهُ » وَقَدْ كَانَ جَمَاعَةٌ مِنَ السَّلَفِ يَغْتَنِمُونَ الْعَمْرَ، فَيَسْرُدُونَ الصَّوْمَ وَلَا يَفْطِرُونَ إِلَّا الْأَيَّامَ الْمَحْرَمَةَ. وَكَانَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يَسْرُدُ الصَّوْمَ، وَسَرَدَهُ أَبُو طَلْحَةَ أَرْبَعِينَ سَنَةً، وَأَبُو أَمَامَةَ. وَسَرَدَتْهُ عَائِشَةُ، وَعُرْوَةُ وَسَعِيدُ بْنُ الْمُسَيْبِ.

أخبرنا المحدثان: ابن عبد الملك، وابن ناصر قالا: أنبأنا أحمد بن الحسن بن خيرون قال: قرىء على أبي علي بن شاذان: أخبركم أبو بكر الأرموي القاريء، حدثنا أحمد بن عبيد، حدثنا محمد بن يزيد، حدثنا عبد العزيز قال: قال نافع: خرجت مع ابن عمر في بعض نواحي المدينة، ومعه أصحاب له، فوضعوا سفرًا لهم فمر بهم راع، فقال له عبد الله: هلم يا راعي فأصيب من هذه السفارة فقال: إني صائم. فقال له عبد الله: في مثل هذا اليوم الشديد حرّه، وأنت بين هذه الشعاب في آثار هذه الغنم، وبين هذه الجبال ترعى هذه الغنم وأنت صائم؟ فقال الراعي: أبادر أيامي الخالية. فعجب ابن عمر وقال: هل لك أن تبسنا شاة من غنمك نجتزرها نطعمك من لحمها ما تفضل عليه ونعطيك ثمنها؟ قال: إنها ليست لي إنها لمولاي. قال: فما عسيت أن يقول لك مولاك إن قلت: أكلها الذئب؟ فمضى الراعي، وهو رافع إصبه إلى السماء، وهو يقول: فأين الله؟

قال: فلم يزل ابن عمر يقول: قال الراعي، فأين الله! فما عدنا أن قدم المدينة، فبعث إلى سيده فاشترى منه الراعي والغنم فأعتق الراعي، ووهب له الغنم.

وقد كان بعض السلف يبكي عند الموت فقيل: ما يبكيك! قال: أبكي على يوم ما صمته وليلته ما قمتها!

فاغتنموا إخواني زمنكم، وبادروا بالصحة سقمكم، واحفظوا أمانة التكليف لمن أمنكم، وكانكم بالحميم، وقد دفنكم، وبالعامل في القبر قد ارتهنكم.

الكلام على البسمة

ألم يأن تركي ما عليّ ولا ليَا
وقد نال مني الدهر وبيض مفرقي
أصوت بالدينا وليست تجيبي
وما تَبْرُحُ الأيام تحذف مُدَّتِي
أليس الليالي غاصباتي مُهَجَّتِي
وتُسكِنني لحداً لذي حُفْرة بها
فيا ليتني من بعد موتي ومبعثي
وعزّمي على ما فيه إصلاحُ حالِيَا
بكرّ الليالي والليالي كما هيَا
أحاول أن أبقي وكيف بقائِيَا
بعد حساب لا كعدّ حسابِيَا
كما غصبت قبلي القرون الخواليَا
يطول إلى أخرى الليالي ثوآيَا
أكون تراباً لا عليّ ولا ليَا

يا من ذنوبه كثيرة لا تُعدّ ووجه صحيفته بمخالفته قد اسودّ، كم ندعوك إلى
الوصال وتأتي إلا الصدّة، أما الموت قد سعى نحوك وجدّ، أما عزم ان يُلْحَقك
بالأب والجد. أما ترى مُعَمَّاً أتربّ الثرى منه الخد، كم عاينت متجبّراً كفّ
الموت كفه الممتد، فاحذر ان يأتي على المعاصي، فإنه إذا أتى أبي الردّ، إلى كم
ذا الصبّ والمراح، أبقى الشيب موضعاً للمزاح، لقد أغنى الصباح عن المصباح،
وقام حربّ المنون من غير سلاح، اعوجّت القناة بلا قنأ ولا صِفَاح، فعاد ذو
الشبية بالضعف ثخين الجراح، ونطقت ألسن الفناء بالوعظ الصّراح، وأسفا
صمّت المسامع والمواعظ فصّاح، لقد صاح لسان التحذير، يا صاح يا صاح،
وأنتى بالفهم لمخمور غير صاح، لقد أسرك الهوى سكرأ شديداً لا يُزاح، وما
تفيق حتى يقول الموت: لا برّاح.

ألا تُبصر الآجال كيف تخرّمت
وأنت بكأس القوم لا بد شارب
وكل امرئ للهلك والموت صائر
فهل أنت فيما يصلح النفس ناظر
لقد وعظ الزمن بالآفات والمحن، ولقد حدّث بالطعن كل من قد ظعن،
ولقد أنذر المطلق في أغراضه المرتهن، تالله لو صفت الفطن أبصرت ما بطن.

إخواني: أمر الموت قد علن، كم طحّطح الردى، وم طحن، يا بائعاً لليقين

مشترياً للظنن، يا مؤثراً للردائل في اختيار الفتن، إنَّ السُّرور والشُّرور في قرآن،
أنت في المعاصي مُطلق الرِّسن، وفي الطاعة كذبي وسن، يا رضيع الدنيا، وقد آن
فِطامه، يا طالب الهوى، وقد حان حِمَامه .

قال وهب بن منبه: إنَّ لله منادياً ينادي كل ليلة: أبناء الخمسين: هلموا
للحساب، أبناء الستين، ماذا قدَّمتم، وماذا أخَّرتم؟ يا أبناء السبعين عدُّوا أنفسكم
في الموتى:

كَبَّرْتَ وَقَارِبْتَ نِصْفَ الْمَائَةِ	وَبَدَّلْتَ يَا شَيْخَ بِالتَّسْمِيَةِ
وَقَدْ نَشَرَ الشَّيْبُ فِي عَسْكَرِ الدِّ	شَبَابٍ عَلَى رَأْسِكَ الْأَلْوِيَةِ
تَحَوَّلَ إِلَى تَوْبَةٍ لَا تَحُورُ	عَسَاهَا تَكُونُ هِيَ الْمُنْجِيَةِ
وَلَا تُطَلِّقُ اللَّحْظَ فِي رِيْبَةٍ	وَلَا تَسْأَلُنْ فِتْنَةَ مَا هِيَ
وَهَلْ غَيْرَهَا قَدْ تَذَوَّقْتَهُ	فَكَمْ تَعْتَدُ الْإِثْمَ وَالْمَعْصِيَةَ

إلى كم يا ذا المشيب، أما الأمر منك قريب، كم تعب في وعظك خطيب، كم
عالجك طبيب، إنه لمرض عجيب، إنه لداء غريب عَظْمٌ واهن، وقلْبٌ صليب،
يا هذا لا شيء أقل من الدنيا، ولا أعزَّ من نفسك، وها أنت تُنْفِقُ أَنْفَاسَ
النفسِ النفيسة على تحصيل الدنيا الخسيسة، متى يقنعك الكَفَاف، متى يردك
العَفَاف متى يقوِّمك الثَّقَاف، إنك لتأبى إلا الخلاف، مقاليدك تُقال، وركعاتك
خِفاف، يا قبيح الخصال يا سئء الأوصاف، يا مُشْتَرِيًّا بِسِنِّي الخِصْبِ السنينِ
العجاف، قف متديراً لحالك، فالمؤمن وقاف، وتذكَّرْ وعيد العصاة، ويحك أما
تخاف:

مَا مِنْ الْخِزْمِ أَنْ تَقَارِبَ أَمْرًا	تَطْلُبُ الْبُعْدَ عَنْهُ بَعْدَ قَلِيلٍ
وَإِذَا مَا هَمَّتْ بِالشَّيْءِ فَانظُرْ	كَيْفَ مِنْهُ الْخُرُوجُ قَبْلَ الدَّخُولِ
لَا مَقْرَأًا مِنَ الْمَقَادِيرِ لَكِنْ	لِلْمَعَاذِيرِ عِنْدَ أَهْلِ الْعُقُولِ

ويحك إن الدنيا فتنة، وكم فيها من محنة، غير أنها لا تحفَى على أهل الفطنة،
لا يعزّ ذليلها، ولا يودى قتلها، من سكنها خرج، وساكنها منزوع:

إنما الدنيا بلاءٌ ليس في الدنيا ثبوتٌ
 إنما الدنيا كيبستِ نسجته العنكبوتُ
 كلُّ من فيها لعمري عن قريب سيموتُ
 إنما يكفيك منها أيها الراغبُ قوتُ

يا هذا انتقم من حرصك بالقناعة، فمن مات حرصه، عاشت مروءته. خلّ
 فضول الدنيا وقد سلمت، إن لم تقبل نصحي ندمت، البلغة منها ما يقوت،
 والزاهد فيها ما يموت، فأعرض عنها جانباً، وكن لأهلها مجانياً، وإذا أقلقك
 هَجِيرِ المجاعة فلذ بالصبر في ظل القناعة.

الكلام على قوله تعالى

(١) ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ وَنَعَّمْ مَا تَوْسَّوسُ بِهِ نَفْسَهُ﴾

الإنسان: ابن آدم، وما توسوس به نفسه: ما تحدّثه به، ويكُنّه في قلبه. وهذا
 يبحث على تطهير القلب من مساكنة الوسوس الرديئة تعظيماً لمن يعلم.

قال بعض السلف: إذا نطقت فاذكر من يسمع، وإذا نظرت فاذكر من
 يرى، وإذا عزمت فاذكر من يعلم.

قوله تعالى: ﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ﴾ الوريد: عرق في باطن
 العنق، وهما وريدان بين الحلقوم والعلياوين، والعلياوان: القصبستان الصفراوان في
 متن العنق، وحبل الوريد هو الوريد، فأضيف إلى نفسه لاختلاف لفظي اسمه.

سجع على قوله تعالى:

(٢) ﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ﴾

يا مُطْلِقاً نَفْسَهُ فيما يشتهي ويريد، اذكر عند خطواتك المبدىء المعيد، وخَفُ
 قُبْح ما جرى، فالملك يرى، والملك شهيد ﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ
 الْوَرِيدِ﴾.

(٢) ق ١٦.

(١) ق ١٦.

هَلَّا اسْتَحَيْتَ مَنْ يِرَاكْ إِذْ رَكِبْتَ مِنْ هَوَاكَ مَا نَهَاكَ ، سَتَبْكِي وَاللَّهِ عَيْنَاكَ
مِمَّا جَنَّتْ يَدَاكَ ، أَمَا تَعْلَمُ أَنَّهُ بِالْمُرْصَادِ فَقُلْ لِي أَيْنَ تَحِيدُ ﴿ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ
حَبْلِ الْوَرِيدِ ﴾ .

لَوْ صَدَقَ عِلْمُكَ بِهِ لِرَاقِبَتِهِ ، وَلَوْ خِفْتَ وَعِيدَهُ فِي الْحَرَامِ مَا قَارَبْتَهُ ، وَلَوْ
عَلِمْتَ سُمُومَ الْجَزَاءِ فِي كَأْسِ الْهَوَى مَا شَرِبْتَهُ ، لَقَدْ أَضَعْنَا الْحَدِيثَ عِنْدَ سَكْرَانٍ
يَمِيدُ ﴿ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ ﴾ .

قَالَ بَعْضُ السَّلَفِ : مَرَرْتُ بِرَجُلٍ مَنفَرْدٍ فَقُلْتُ لَهُ : أَنْتَ وَحَدُكَ ؟ فَقَالَ : مَعِيَ
رَبِّي وَمَلَكَايَ . فَقُلْتُ : أَيْنَ الطَّرِيقُ ؟ فَأَشَارَ نَحْوَ السَّمَاءِ ثُمَّ مَضَى وَهُوَ يَقُولُ : أَكْثَرَ
خَلَقِكَ شَاغِلٌ عَنْكَ .

رَاوَدَ رَجُلٌ امْرَأَةً فَقَالَتْ : أَلَا تَسْتَحْيِي ؟ فَقَالَ : مَا يِرَانَا إِلَّا الْكَوَاكِبُ .
فَقَالَتْ : وَأَيْنَ مَكُونِكُهَا ؟ .

كَأَنَّ رَقِيبًا مِنْكَ يِرْعَى خَوَاطِرِي وَآخِرَ يِرْعَى نَاطِرِي وَلِسَانِي
فَمَا نَظَرْتُ عَيْنَايَ بَعْدَكَ نَظْرَةً لَغَيْرِكَ إِلَّا قَلْتُ قَدْ رَمَقَانِي
وَلَا بَدَرْتُ مِنْ فِيِّ بَعْدَكَ لَفْظَةً لَغَيْرِكَ إِلَّا قَلْتُ قَدْ سَمِعَانِي
وَلَا خَطَرْتُ فِي غَيْرِ ذِكْرِكَ خَطْرَةً عَلَى الْقَلْبِ إِلَّا عَرَجَّتْ بَعِينَانِي

قَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ إِذْ يَتَلَقَّى الْمُتَلَقِّيَانِ ﴾ وَهُمَا الْمَلَكَانِ يَتَلَقِيَانِ الْقَوْلَ وَيَكْتَبَانِهِ ، عَنْ
الْيَمِينِ كَاتِبِ الْحَسَنَاتِ ، وَعَنِ الشَّمَالِ كَاتِبِ السَّيِّئَاتِ ﴿ قَعِيدٌ ﴾ أَيُّ قَاعِدٍ .
وَالْمَعْنَى : عَنِ الْيَمِينِ قَعِيدٌ ، وَعَنِ الشَّمَالِ قَعِيدٌ .

وَرَوَى أَبُو أَمَامَةَ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ قَالَ : « كَاتِبُ الْحَسَنَاتِ عَلَى يَمِينِ الرَّجُلِ ،
وَكَاتِبُ السَّيِّئَاتِ عَلَى شِمَالِهِ ، وَكَاتِبُ الْحَسَنَاتِ أَمِينٌ عَلَى كَاتِبِ السَّيِّئَاتِ ، فَإِذَا
عَمِلَ حَسَنَةً كَتَبَهَا لَهُ صَاحِبُ الْيَمِينِ عَشْرًا ، وَإِذَا عَمِلَ سَيِّئَةً قَالَ لِمُصَاحِبِ الشَّمَالِ :
أَمْسِكْ . فَيَمْسِكُ عَنْهُ سَبْعَ سَاعَاتٍ ، فَإِنْ اسْتَغْفَرَ مِنْهَا لَمْ يَكْتُبْ عَلَيْهِ شَيْءٌ ، وَإِنْ لَمْ
يَسْتَغْفِرْ كُتِبَتْ عَلَيْهِ سَيِّئَةٌ وَاحِدَةٌ . »

وفي حديث علي رضي الله عنه، عن النبي ﷺ أنه قال: «مَقْعَدُ مَلِيكَكَ عَلَى تَنِيَّتِكَ، فَلَسانِكَ قَلَمُها وَرِيقُكَ مِدَادُها» .

سجع على قوله تعالى:

﴿عَنْ اليمين وعن الشمال قعيد﴾^(١)

ما ظنك بمن يحصي جميع كلماتك، ويضبط كلَّ حركاتك، ويشهد عليك بحسناتك تُرْفَعُ الصَّحائفُ، وهي سُود، وعمل المنافق مَرْدُود، يحضره الملكان لدى المعبود، يا شرَّ العبيد ﴿عَنْ اليمين وعن الشمال قعيد﴾ .

يضبطان على العبد ما يجري من حركاته، وما يكون من نظراته وكلماته، واختلاف أمورهِ وحالاتهِ، لا ينقص ولا يزيد ﴿عَنْ اليمين وعن الشمال قعيد﴾ .

قال سفيان الثوري يوماً لأصحابه: أخبروني لو كان معكم من يرفع الحديث إلى السلطان، أكنتم تتكلمون بشيء؟ قالوا: لا . قال: فإن معكم من يرفع الحديث إلى الله عز وجل .

قوله تعالى: ﴿ما يلفظ من قولٍ إلا لديه رقيب عتيد﴾^(٢) أي: ما يتكلم من كلام فيلفظه، أي يرميه من فيه إلا لديه رقيب عتيد، أي حافظ، وهو الملك الموكل به، والعتيد الحاضر معه أينما كان .

السجع على قوله تعالى:

﴿ما يلفظ من قولٍ إلا لديه رقيب عتيد﴾

يا كثير الكلام حسابك شديد، يا عظيم الإجمام عذابك جديد، يا مؤثراً ما يضره ما رأيك شديد، يا ناطقاً بما لا يُجدي، ولا يُفيد ﴿ما يلفظ من قولٍ إلا لديه رقيب عتيد﴾ .

(٢) ق ١٨ .

(١) ق ١٧ .

كلامك مكتوب وقولك محسوب، وأنت يا هذا مطلوب، ولك ذنوب وما تتوب، وشمسُ الحياة قد أخذت في الغروب، فما أقسى قلبك من بين القلوب، وقد أتاه ما يصدع الحديد ﴿ ما يلفظ من قولٍ إلا لديه رقيب عتيد ﴾ .

أتظن أنك متروك مهمل، أم تحسب أنه ينسى ما تعمل، أو تعتقد أن الكاتب يغفل، هذا صائح النصائح من أقبل، يا قاتلاً نفسه بكفّه لا تفعل، يا من أجله ينقص وأمله يزيد، ﴿ ما يلفظ من قولٍ إلا لديه رقيب عتيد ﴾ .

أنا من خَوْفِ الوعيدِ	في قيامٍ وقعودِ
كيف لا أزداد خَوْفاً	وعلى النمار ورودي
كيف جَحْدِي ما تجرّمـ	ت وأعضائي شهودي
كيف إنكاري ذنوبي	أم تُرى كيف جُحودي
وعليّ القولُ يُحصّـي	برقيبٍ وعتيدِ

قوله تعالى: ﴿ وجاءت سكرة الموت بالحق ﴾ وهي غمّته وشدته التي تَغشى الإنسان، وتغلب على عقله. وفي قوله: ﴿ بالحق ﴾. قولان ذكرهما الفراء: أحدهما: بحقيقة الموت. والثاني: بالحق من أمر الآخرة.

قوله تعالى: ﴿ ذلك ﴾ أي ذلك الموت. ﴿ ما كنت منه تحيد ﴾. أي تهرب وتفتر.

قوله تعالى: ﴿ ونُفخ في الصور ﴾. وهي نفخة البعث ﴿ ذلك يومُ الوعيد ﴾ أي يوم وقوع الوعيد.

قوله تعالى: ﴿ وجاءت كُلُّ نفسٍ معها سائقٌ وشهيد ﴾. وفيه قولان: أحدهما: أنه ملك يسوقها إلى محشرها. قاله أبو هريرة. والثاني: أنه قرينها من الشياطين سمي سائقاً، لأنه يتبعها، وإن لم يحثها.

وفي الشهيد ثلاث أقوال: أحدها: أنه ملك يشهد عليها بعملها. قاله عثمان بن عفان والحسن. وقال مجاهد: الملكان سائق وشهيد. وقال ابن السائب السائق:

الذي يكتب عليه السيئات . والشهيد : هو الذي كان يكتب له الحسنات .

والثاني : أنه العمل يشهد على الإنسان . قاله أبو هريرة .

والثالث : الأيدي والأرجل تشهد عليه بعمله . قاله الضحّاك .

إخواني احذروا من العَرَضِ على مَأْلك الطُّول والعَرَضِ ، وأعدُّوا الجواب إذا سئِلتم عن الفَرَضِ ، أين الحياء من قُبْح المضمّرات ، أين البكاء على سالف الخطّرات ، أين الخوف من الجواء على خُطوات الخطيئات .

كتب يوسف بن أسباط إلى حذيفة المرعشيّ : أما بعد : فإني أوصيك بتقوى الله سبحانه ، والعمل بما علّمك الله تعالى ، والمراقبة حيث لا يراك إلا الله عز وجل ، والاستعداد لما ليس لأحدٍ فيه حيلة ، ولا يُنتفع بالندم عند نزوله ، فاحسِرْ عن رأسك قِناعَ الغافلين ، وانتبه من رَقدة الموتى ، وشمرْ للسباق غداً ، فإن الدنيا ميدان المسابِقين ، ولا تغترّ بمن أظهر النُّسك ، وتشاغل بالوصف ، وترك العمل بالموصوف ، واعلم يا أخي أنه لا بُدَّ لي ولك من المقام بين يدي الله تعالى ، يسألنا عن الدقيق الخفيّ ، وعن الجليل الخافي ، ولست آمنُ أن يسألني ، وإياك عن وسواس الصدور ولحظات العيون ، والإصغاء للاستماع ، واعلم أنه لا يُجزِي من العمل القول ، ولا من البذل العِدّة ولا من التوقّي التّلاوم .

يا من معاصيه كثيرة مشهورة ، يا من نفسه بمن يجني عليها مسرورة ، أفي العين كمه أم عشيّ ، أم الأمر إليك يجري كما تشأ ، أعلّى القلب حجاب أم غشا ، أيا من إذا قعد عصي ، وكذا إذا مشى ، كلُّ فعلك غلط ، كل عملك سَقَط ، أترى هذا العقل اختلط ، أما قومٌ بهذا الشَّمَط ، أما علّم الشَّيبُ على حُرُوف الموت ونقَط ، لقد عزم الأجل على النهوض ، وطال ما أقام والدنيا قروض ، قَصْرُ يَبْنَى وجسْمٌ منقوض ، شَيْبٌ وعيبٌ يزحلق الفروض :

إلى متى أنت في ذنوبٍ قلبك من أجلها مريضُ
أقرضتَ عمراً فمرّاً خلّسا وأن أن تطلّب القروض
فاحذر مجيء الحِمَامِ بَعْتَا وأنت في باطلٍ تخوضُ

سجع على قوله تعالى :

﴿ لقد كنت في غفلة من هذا ﴾ (١)

كأنك بالعمر قد انقضى، وهجم عليك المرض، وفات كلُّ مراد وغرض،
وإذا بالتلف قد عَرَضَ أَخْذَا ﴿ لقد كنت في غفلة من هذا ﴾ .
شَخَّصَ البَصْرُ، وسكن الصَّوْتُ، ولم يمكن التداركُ للْفَوْتِ، ونزل بك ملك
الموت، فسامت الرُّوحَ وحازَى ﴿ لقد كنت في غفلة من هذا ﴾ .
عالجت أشدَّ الشدائد، فيا عجباً مما تُكابِد، كأنك قد سَقِيت سَمَّ الأَسَاوِدِ،
فقطَّعَ أَفْلاذًا ﴿ لقد كنت في غفلة من هذا ﴾ .
ثم درجوك في الكفن، وحلوك إلى بيت العفن، على العيب القبيح والأفن،
وإذا الحبيب من التراب قد حَفَنَ، وصرت في القبر جُدَاذًا ﴿ لقد كنت في غفلة
من هذا ﴾ .

وتسرَّبت عنك الأقارب تسري، تقدُّ في مالك وتَفْرِي، وغاية أمرهم أن
تجري دموعهم رذاذًا ﴿ لقد كنت في غفلة من هذا ﴾ .

بلغت الروحُ إلى التراقي، ولم تعرف الراقي من الساقِي، ولم تدرِ عن الرِّحِيلِ
ما تلاقِي، عَيَاذًا بالله عيَاذًا ﴿ لقد كنت في غفلة من هذا ﴾ .
قفلوا الأقفال وبضعوا البضاعة، ونسوا ذِكْرَكَ يا حبيهم بعد ساعة، وبقيت
هناك إلى أن تقوم الساعة، لا تجد وَزْرًا ولا معَاذًا ﴿ لقد كنت في غفلة من
هذا ﴾ .

ثم قمت من قبرك فقيرا، لا تملك من المال نَقِيرًا، وأصبحت بالذنوب
عَقِيرًا، فلو قدَّمت من الخير حقيرًا صار ملجأً وملاذًا، ﴿ لقد كنت في غفلة من
هذا ﴾ .

ونُصِبَ الصراط والميزان، وتغيَّرت الوجوه والألوان، ونودي: شَقِي فلان
بن فلان، وما ترى للعُدْر نفاذا ﴿ لقد كنت في غفلة من هذا ﴾ .
كم بالغ عدولك في الملام، وكم قعدت في زَجْرِكَ وقام، فإذا قلبك ما استقام،
قطع الكلام على ذا ﴿ لقد كنت في غفلة من هذا ﴾ .

وصلى الله على محمد وآله وصحبه .

(١) ق ٢٠ .

المجلس السادس في ذكر الحج

الحمد لله الملك القديم، الواحد العزيز العظيم، الشاهد سامع ذكّر الذاكِر، وحمّد الحامد، وعالم ضمير المريد ونية القاصد، لعظمتِه خضع الراكع، وذلّ الساجد، وبهده اهتدى الطالب وأدرك الواجد، رفع السماء فعلاًها، ولم يحتج إلى مساعد، وألقى في الأرض رواسي راسخات القواعد، تنزه عن شريك مُشاقق، أو نِدّ معانِد، وعزّ عن ولد وجلّ عن والد، وأحاط علماً بالأسرار والعقائد، وأبصر حتى ديبب النمل في الجلامد، وسطاً فسالت هيبته صِعاب الجوامد، ويقول في الليل: «هل من سائل»؟ فانتبه يا راقد. بني بيتاً أمر بقصده، وتلقّى الوافد، وأقسم على وُحْدانيته وما ينكر إلا معانِد ﴿والصفات صفّاً فالزاجرات زَجراً فالتاليات ذِكراً إن إلهكم لوَاحِد﴾.

أحمده على الرخاء والشدائد، وأقرّ بتوحيده إقرار عابد، وأصلي على رسوله الذي كان لا يخيب السائل القاصد، وعلى صاحبه أبي بكر التقي النقي الزاهد، وعلى عمر العادل، فلا يراقب الولد ولا الوالد، وعلى عثمان المقتول ظلماً بكف الحاسد، وعلى عليّ البحر الخضمّ، والبطل المجاهد، وعلى عمه العباس أقرب الأقارب والأبعد.

قال الله تعالى: ﴿ولله على الناس حجّ البيت﴾ (١) فرض الله عز وجل حج البيت بهذه الآية.

وقوله: ﴿من استطاع إليه سبيلاً﴾. قال النحويون: ﴿من﴾ بدل من الناس،

(١) آل عمران ٩٧.

وهذا بدل البعض كما تقول: ضربتُ زيداً رأسه.

أخبرنا عبد الله بن محمد بن عبد الله النسفي بسنده عن محمد بن عبّاد بن جعفر، عن عبد الله بن عمر قال: قيل: يا رسول الله ما الاستطاعة إلى الحج؟ قال: «الزاد والراحلة».

واعلم أن المجيب قد يجيب عن المشكّل، ويترك الظاهر ثقةً بعلم السامع، وإلا فقد يكون له زاد وراحلة، فإذا أخرج إلى الحج لم يكن له ما يترك لعياله، أو لم يكن له ما يدبّره في معاشه.

واعلم أن وجوب الحج موقوف على وجود البلوغ، والعقل، والحرية، والإسلام، والزاد والراحلة. ويشترط في وجود الراحلة أن تكون صالحة لمثلها ورحلها وآلتها، لأنه قد يكون كبير السنّ، فلا يمكنه الركوب على القتب، وأن يكون وجود الزاد والراحلة فاضلاً عما يحتاج إليه من مسكن وخادم إن احتاج إليه، ونفقة لعياله إلى أن يعود وقضاء دين إن كان عليه، وأن يكون له إذا رجع ما يقوم بكفايته من عقار، أو بضاعة، أو صناعة، ثم ينبغي أن ينظر في أمن الطريق وسعة الوقت. إلى غير ذلك.

وقد روي عن النبي ﷺ أنه قال: «من قدر على الحج، ولم يحج فليمت إن شاء يهودياً، وإن شاء نصرانياً».

وقال ابن مسعود في قوله تعالى: ﴿لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ (١) قال: طريق مكة يمنعهم من الحج.

وقد ذكرنا في أول هذا الكتاب بناء البيت وفوائده، وفضل الحجّ الأسود.

وفي حديث أبي هريرة عن النبي ﷺ أنه قال في الركن اليماني: «وكَلَّ اللهُ عز وجل به سبعين ألف ملك، فمن قال: أسألك العفو والعافية، ربنا آتانا في الدنيا حسنة، وفي الآخرة حسنة، وقينا عذاب النار قالوا: آمين».

(١) الأعراف ١٦٠.

وعن عبد الله بن عمر عن النبي ﷺ أنه قال: « من طاف بالبيت سبعاً وصلى خلف المقام ركعتين، فهو عدلٌ مُحَرَّرٌ ».

أخبرنا يحيى بن علي بسنده عن الأوزاعي، عن عطاء، عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: « إن لله عز وجل في كل يوم وليلة عشرين ومائة رحمة تنزل على هذا البيت: ستون للطائفين، وأربعون للمصلين، وعشرون للناظرين ».

وفي حديث ابن عمر رضي الله عنهما، عن النبي ﷺ أنه قال: « من طاف بالبيت لم يرفع قدماً ولم يضع أخرى إلا كتب الله عز وجل لها بها حسنة، وخطأ عنه بها خطيئة، ورفع له بها درجة ».

وفي حديث ابن عباس رضي الله عنهما، عن النبي ﷺ أنه قال: « من طاف بالبيت خمسين مرة خرج من ذنوبه كيوم ولدته أمه ».

وفي حديث بُرَيْدَةَ رضي الله عنه، عن النبي ﷺ أنه قال: « النفقة في الحج تُصَاعَفُ، كالنفقة في سبيل الله تعالى: الدرهم بسبعائة درهم ».

فأما حج الماشي: فأخبرنا أبو منصور، وعبد الرحمن بن محمد، بسندهما عن إسماعيل بن أبي خالد، عن زاذان قال: مرض ابن عباس مرضاً شديداً، فدعا ولده فجمعهم فقال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: « من حجَّ من مكة ماشياً حتى يرجع إلى مكة كتب الله له بكل خطوة سبعمائة حسنة من حسنات الحرم. فقيل له: وما حسنات الحرم؟ قال: بكل حسنة مائة ألف حسنة ».

وروت عائشة رضي الله عنها، عن النبي ﷺ أنه قال: « إن الملائكة لتصافح رُكبان الحج، وتعتنق المشاة ».

وأما فضيلة الحج: فأخبرنا هبة الله بن محمد بسنده، عن أبي صالح، عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: « الحج المبرور ليس له جزاء إلا الجنة، والعمرتان - أو العُمرَة - إلى العمرة تكفّر ما بينهما ».

أخبرنا محمد بن محمد الوراق بسنده عن أبي حازم، عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «من حجَّ هذا البيت، فلم يرفث، ولم يفسق رجع كما ولدته أمه».

الحديثان في الصحيحين.

وروي عن عليّ كرم الله وجهه، عن النبي ﷺ أنه قال: «من أراد دنيا وآخرة، فليؤمَّ هذا البيت، ما أتاه عبدٌ يسأل الله تعالى دنيا إلا أعطاه منها ولا آخرة إلا ادخر له منها».

وينبغي لمن أراد الحج أن يفهم معنى الحج، فإنه يشار به إلى التجرد لله عز وجل ومفارقة المحبوبات.

وليتذكر بأهوال الطريق الأهوال بعد الموت وفي القيامة، وبالإحرام الكفن، وبالتلبية إجابة الداعي، وليحضّر قلبه لتعظيم البيت، وليتذكر بالالتجاء إليه التجاء المذنب، وبالطواف، الطواف حول دار السيد ليرضي، وبالسعي بين الصفا والمروة التردد إلى فناء الدار، وبرمي الجمار رمي العدو.

وكما أن للأبدان حجًا، فللقلوب حج؛ فإنها تنهض بأقدام العزائم، وتمتطي غوارب الشوق، وتفارق كلَّ محبوب للنفس، وتصابر في الطريق شدة الجهد، وترد مناهل الوفاء لا غدُران الغدر، فإذا وصلت إلى ميقات الوصل، نزعت مخطط الآمال الدنيوية، واغتسلت من عين العين، ونزلت بعرفات العرفان، ولبت من لباب اللب، ثم طافت حول الإجلال، وسعت بين صفا الصفا، ومروة المروة، فرمت جمار الهوى بأحجار، فوصلت إلى قُرب الحبيب، فلو ترنمت بشرح حالها لقال: :

لا والذي قصد الحجيح لبيته
والحجر والحجر المقبل تلتقي
لا كان موضعك الذي ملكته
لي أنة الشاكي إذا بعد المدى
من بين ناء طارق وقريب
فيه الشفاه وركنه المحجوب
من قلب عبدك بعد ذا لحبيب
ما بيننا وتنفس المكروب

ولما عبر الخليل هذه الحالة قيل له: قد بقي عليك ذبّح يجانس هذا الحج، ليس له إلا الولد، وما المراد إراقة دمه، بل فراغ قلبك عنه، يا خليلي من المسنون استسنان الإبل، وألاً يكون في المذبوح عيب، فاختر ذبّحك هل فيه عيب، أو هو سليم مُسَلَّم؟ فقال له: ﴿إني أرى في المنام أني أذبحك﴾ فأجابه: ﴿افعل ما تؤمر﴾. فعلم حصول الكمال وعدم العيوب، ثم قال له: استخذد مدّيتك، وأسرع مرّ السكين على حلّقي وإذا عدت إلى أمي، فسلمّ عليها عني. هذا قول من لم يلمّ بقلبه خوف ألم!

مِخْنَتِي فِيكَ أَنْي لَا أَبَالِي بِمِخْنَتِي
يَا شَفَائِي مِنَ السَّقَا م وَإِنْ كُنْتَ عَلَيَّ

وإذا وصل الحاج إلى المدينة المشرفة، فيجعل على فكره تعظيم من يقصده، وليتخايل في مساجدها وطرقاتها نقل أقدام المصطفى هناك وأصحابه، وليتأدب في الوقوف، وليستشفع بالحبيب، وليأسف إذ لم يحظ برؤيته، ولم يكن في صحابته.

وما رُمْتُ من بعد الأحيّة سلوةً ولكنني للنائبات حمُولُ
وما شرقي بالماء إلا تذكُّراً لماء به أهل الحبيب نزولُ
وينبغي لمن عاد من الحج أن يتقوى رجاءه للقبول، ومحو ما سلف، وليحذر من تجديد زلّل.

وقد سئل الحسن البصري: ما الحج المبرور؟ فقال: أن تعود زاهداً في الدنيا راغباً في الآخرة.

أخبرنا أبو منصور القرّاز بسنده عن عبد الرحمن بن عبد الباقي قال: سمعت بعض مشايخنا يقول: قال علي بن الموقّ: لما تمّ لي ستون حجّة خرجت من الطواف وجلست بجذاء الميزاب، وجعلت أفكر لا أدري أيّ شيء حالي عند الله عز وجل، وقد كثر تودّدي إلى هذا المكان؟ فغلبتني عيني، فكأن قائلاً يقول لي: يا عليّ أتدعو إلى بيتك إلا من تحبه؟ قال: فانتبهت، وقد سرّى عني ما

(الكلام على البسمة)

غفلتُ وليس الموتُ في غفلةٍ عني
 أشيّد بُنياني وأعلم أنني
 كفانيَ بالموتِ المنعصِ واعظاً
 وكم للمنايا من فنون كثيرة
 ولو طرقتُ ما استأذنتُ من يجني
 وقد كنتُ أفدي نازيه من القدي
 ستسجنني ياربُّ في القبر برهةً
 ولي عند ربي سيئات كثيرة
 وما أحدٌ يجني عليّ كما أجني
 أزلُّ، لمن شيّدته ولن أُنبي
 بما أبصرتُ عيني وما سمعتُ أذني
 تميتُ وقد وطّنتُ نفسي على فنّ
 كما أفقدتني من أحبُّ بلا إذنٍ
 فغطيتُ ما قد كنتُ أفديه بالعينِ
 فلا تجعل النيرانَ من بعده سجنِي
 ولكنني عبدٌ به حسن الظنِّ

من للعاصي إذا دُعي فحضر، ونشر كتابه ونظر، لم يُسمع عذره وقد
 اعتذر، وناقشه المولى فما غفر، آه لراحلٍ لم يتزود للسفر، ولخاسر إذا ربح
 المتقون افتقر، ولمحروم جنة الفردوس حلّ في سقر، ولفاجر فضحه فجوره
 فاشتهر، وملتكبر بالذل بين الكل قد ظهر، وإلى محمول الى جهنم، فلا ملجأ له
 ولا وزر، آه يوم تكوّر فيه الشمس والقمر، يا كثير الرياء قل إلى متى تُخلصُ،
 يا ناسي الأتكال إن كالأ فمتلصّص، ما يتخلص من معامل، ولا هو عند الله
 مُخلص، الدهر حريصٌ على قتلك يا من يحرص، تفكر فيمن أصبح مسروراً
 فأسمى وهو متنعص، ومتى أردت لذة فاذا ذكر قبلها المنعص، وتعلم أن الهوى
 ظلٌّ والظل متقلص، وخذ على نفسك لا تسامحها ولا ترخص، حائط الباطل
 خراب، فإلى كم تجصّص، أين الهمُّ المجتمع تفرّق فما ينتفع، يدعوك الهوى
 فتتبع، وتحدّثك المنى فتستمع، كم زجرك ناصح فلم تطع، سار الصالحون يا
 منقطع، مالذي عاقك لهوٌ مُختدع، شرواً ما يبقى بما يفنى، وأنت لم تشر ولم
 تبع، أين تعبههم؟ نسخ بالروح ولم يضع، تلمح العواقب، فلتلمحها العقل
 وضع، كأنه ما جاع قط من شع.

جُزُّ عَلَى الشُّونِيزِيَّةِ أَوْ عَلَى قَبْرِ أَحْمَدَ ، وَمَيِّزٌ مِنْ أَطَاعَ مِنْ أَضَاعَ فَمَنْ أَحْمَدُ ؟
 قُبُورُ الصَّالِحِينَ تُؤَنَسُ الزَّائِرُ ، وَقُبُورُ الظَّالِمَةِ عَلَيْهَا ظِلَامٌ مُتَوَافِرٌ ، جُدُّ عَلَى قُبُورِ
 العُبَادِ وَنَادٍ فِي ذَلِكَ النَّادِ : أَيُّهَا الأُودِيَّةُ وَالوَهَادُ ، مَا فَعَلْتَ تِلْكَ الأُورَادِ :

تَعَاهَدْتِكَ العِهَادَ يَا طَلَلُ خَبَّرَ عَنِ الظَّاعِنِينَ مَا فَعَلُوا
 فَقَالَ لَمْ أُدْرِ غَيْرَ أَنَّهُمْ صَاحِ غِرَابُ البَيِّنِ فَاحْتَمَلُوا
 لَا طَابَ لَيْلِي وَلَا النَّهَارَ لِمَنْ يَسْكُنُنِي أَوْ يَرُدُّهُمْ قَقَلُ
 وَلَا تَحَلَيْتِ بِالرِّيَاضِ وَبِالنَّوْ رَ وَمَغْنَايَ مِنْهُمْ عَطِلُ
 خَلَّ هَذَا فَمَا عَلَيْكَ لَهُمْ قَلْتِ أُنِينَ وَأَذْمَعِ هُطَلُ
 وَأُنِّي مُقْفَلُ الضَّمَائِرِ عَنِ حُبِّ سِوَاهُمْ مَا حَتَّتِ الإِبِلُ
 فَقَالَ هَلَا اتَّبَعْتَهُمْ أَبَدًا إِنْ نَزَلُوا مَنْزِلًا ، وَإِنْ رَحَلُوا

سبحان من قسم الأقسام ، فلقوم يقظة ولقوم منام .

قال وهب بن منبه : كان في بني إسرائيل رجلان بلغت بهما عبادتهما أن مشيا
 على الماء ، فبينما هما يمشيان في البحر إذا هما برجل يمشي في الهواء فقالا له : يا عبد
 الله بأي شيء أدركت هذه المنزلة ؟ فقال : بيسير من الدنيا : فطمت نفسي عن
 الشهوات وكففت لساني عما لا يعنيني ، ورغبت فيما دعاني ، ولزمت الصمت .
 فإن أقسمت على الله أبرّ قسمي ، وإن سألته أعطاني .

يا بعيداً عن الصالحين ، يا مطروداً عن المفلحين ، لقد نصّب الشيطانُ
 الأشرارَ وجعل حبَّ الفخِّ هواك ، وم رأيت مأسوراً وسط ذاك ، وليس المراد
 الآن إلّاك ، احذر فخّه فهو بعيد الفكّك ، كم يومٍ غابت شمسُه وقلبك غائب ،
 وم ظلام أسبل ستره وأنت في عجائب ، كم ليلةٍ بالخطايا قطعتهما ، وم من
 أعمال قبيحة رفعتها ، وم من ذنوب جمعتها والصحف أودعتها ، كم نظرة ما تحلّ
 ما خفت ولا منعتهما ، كم من موعظة تعيها وكأنك ما سمعتها ، وم من ذنوب
 تعيب غيرك بها أنت صنعتها ، وم أمرتك النفس بما يؤذي فأطعتها ، يا موافقاً
 لنفسه آذيتها ، خالفها وقد نفعتهما :

طوى نفسه عنك الشبابُ المزايلُ
 نسير إلى الآجال في كل ساعةٍ
 ولم أرَ مثلَ الموتِ حقّاً كأنه
 وما أقبحَ التفريطَ في زمنِ الصِّبَا
 ترحلّ عن الدنيا بزادٍ من التَّقَى
 فأسلمتَ للشَّيبِ الذي لا يزائلُ
 وأيامنا تُطوى وهنَّ مراحِلُ
 إذا ما تخطَّته الأمانِيُّ باطلُ
 فكيف به والشَّيبُ في الرأسِ شاملُ
 فعُمرك أيامٌ وهنَّ قلائِلُ

الكلام على قوله تعالى

﴿إِنَّ الَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَابَ اللَّهِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ﴾ (١)

كان مُطَرِّف بن عبد الله يقول: هذه آية القُرَّاء .

ومعنى يتلون يقرءون .

وفي أفراد البخاري من حديث عثمان رضي الله عنه، عن النبي ﷺ أنه قال:
 «خيركم من تعلّم القرآن وعلمه» .

أخبرنا هبة الله بن محمد بسنده، عن عبد الرحمن بن زيد العقبلي، عن أبيه عن
 أنس، قال: قال رسول الله ﷺ: «إن لله عز وجل أهلين من الناس . فقيل: مَنْ
 أهلُ الله منهم؟ قال: أهلُ القرآن هم أهلُ الله وخاصته» .

أخبرنا علي بن عبيد الله، وأحمد بن الحسن، وعبد الرحمن بن محمد بإسنادهم،
 وعن عُقبة بن عامر قال: قال رسول الله ﷺ: «لا يعذب الله قلباً وعى
 القرآن» .

أخبرنا الكروخي بسنده عن محمد بن كعب القرشي قال: سمعت عبد الله بن
 مسعود قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «من قرأ حرفاً من كتاب الله تعالى
 فله به حسنةٌ، والحسنة بعشر أمثالها، لا أقول آلم حرف، ولكن الألف حرف،

(١) فاطر ٢٩ .

واللام حرف، والميم حرف.»

أخبرنا ابن الحصين بسنده عن عبد الله بن عمرو، عن النبي ﷺ أنه قال: «يقال لصاحب القرآن يوم القيامة: اقرأ وارْقَ وارْتَل في الدنيا، فإن منزلك عند آخر آية تقرؤها.»

واعلم أن لتلاوة القرآن آداباً: منها: أن يقرأ وهو على وضوء متأدباً مُطَرَقاً مرتلاً بتحزين وبكاء، مُسِرّاً معظماً للكلام والمتكلم به، مُحَضِراً لقلبه، متدبراً لما يتلوه.

وقد كان في السلف من يَحْتَم في كل يوم وليلة. وقد كان عثمان رضي الله عنه يَحْتَم في الوتر. ومنهم من كان يَحْتَم خَمْتين.

وقد كان الشافعي رضي الله عنه يَحْتَم في رمضان ستين ختمة، ومنهم من يَحْتَم ثلاث ختمات، وهؤلاء الذين غلب عليهم انتهاب العمر، ومنهم من كان يَحْتَم في كل أسبوع اشتغالاً بنشر العلم، ومنهم من كان يَحْتَم كل شهر إقبالاً على التدبر.

وقد روى أبو ذر رضي الله عنه، عن النبي ﷺ أنه قام ليلة بآية يرددها: ﴿إِنْ تَعَذَّبْتُمْ فَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ (١).

وقام تميم الداري بآية: ﴿أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ﴾ (٢). وكذلك قام بها الربيع بن خثيم.

وقال أبو سليمان الداراني: إني لأقيم في الآية أربع ليال، أو خمس ليال.

وقد بقي بعض السلف سنتين في ختمة.

قال ابن مسعود رضي الله عنه: من ختم القرآن فله دعوة مستجابة.

وقال عبد الرحمن بن الأسود: من ختم القرآن نهراً غُفِر له ذلك اليوم، ومن ختمه ليلاً غُفِر له تلك الليلة.

(٢) سورة الجاثية ٢١.

(١) سورة المائدة ١١٨.

أخبرنا إسماعيل بن أحمد قال: أنبأنا ابن النُّقُور، أنبأنا ابن حبابة، حدثنا البغوي حدثنا هُدْبَةَ، حدثنا حماد بن مسلمة، عن أبي مسكين، عن طلحة بن مصرف قال: من ختم القرآن في أي ساعة من النهار كانت صلَّت عليه الملائكةُ حتى يُمسي، أو أي ساعة من الليل كانت، صلَّت عليه الملائكةُ حتى يُصبح.

وقد روى ابن عباس عن النبي ﷺ أنه قال: «إن الرجل الذي ليس في جوفه من القرآن شيء كالبيت الحَرَبِ».

وروى سعد بن عبادة عن النبي ﷺ أنه قال: «ما من امرئ يقرأ القرآن، ثم ينساه إلا لقي الله عز وجل يوم القيامة، وهو أجذَم».

وفي حديث جابر بن عبد الله رضي الله عنه، عن النبي ﷺ أنه قال: «اقرأوا القرآن، وابتغوا به الله عز وجل من قَبْل أن يأتي قومٌ يقيمونه مقامَ القِدْح يتعجلونه ولا يتأجلونه».

قال ابن مسعود: ينبغي لحامل القرآن أن يُعرف بليته إذ الناس نائمون، وبنهاره إذ الناس مفرطون، وبجُزئه إذ الناس يفرحون، وببكائه إذ الناس يضحكون، وبصمته إذ الناس يخوضون.

أخبرنا ابن ناصر قال: حدثنا عبد القادر، أنبأنا يوسف، أنبأنا الحسن بن علي التميمي، حدثنا أحمد بن جعفر، حدثنا عبد الله بن أحمد، حدثنا علي بن مسلم، حدثنا سيَّار، حدثنا جعفر قال: سمعت مالك بن دينار يقول: يا حَمَلَةَ القرآن ماذا زرع القرآن في قلوبكم؟ فإن القرآن ربيعُ المؤمنين، كما أن الغيث ربيع الأرض، وقد ينزل الغيثُ من السماء إلى الأرض فيصيب الحُشَّ فتكون فيه الحَبَّة فلا يمنعها تن موضعها أن تخضرَّ وتهتزَّ وتحسُن، فيا حملة القرآن، ماذا زرع القرآن في قلوبكم؟

قال الفُضَيْل رحمه الله: حاملُ القرآن حاملُ راية الإسلام، لا ينبغي أن يلهو مع من يلهو، ولا يسهو مع من يسهو، ولا ينبغي أن يكون له إلى أحد حاجة، «إلى الخلفاء إلى من دونهم»، وينبغي أن تكون حوائج الناس إليه.

وقال أحمد بن حنبل رضي الله عنه: رأيت ربَّ العزة عز وجل في المنام فقلت يا رب: ما أفضل ما يتقرب به المتقربون إليك، فقال: بكلامي يا أحمد. فقلت: يا رب بفهم، أو بغير فهم؟ فقال: بفهم، وبغير فهم.

قوله تعالى: ﴿وأقاموا الصلاة﴾ المعنى: ويقومون الصلاة، وهو إتمامها بحدودها في مواقيتها.

قال بعض السلف: رأيت بجبل اللكام شاباً مُصَفِّراً يصليّ العشاء الآخرة، ثم يصفّ قدميه، فيختم القرآن في ركعتين، ثم يبكي إلى الفجر.

قوله تعالى: ﴿وأنفقوا مما رزقناهم سراً وعلانية﴾ كانوا إذا قدروا على السرّ لم يُخرجوا الصدقة علانية، لأن صدقة السرّ تزيد على العلانية سبعين ضعفاً.

وفي الصحيحين أن أبا طلحة قال: أحب أموالي إليّ بئرحاء، وهي صدقة لله تعالى لو قدرت أن أسره لم أعلنه.

يا مقصراً في أعماله بخيلاً بماله، لا تسألوا عن حاله يوم ترحاله، يا دائم الخسران فما يربح، يا مقبياً على المعاصي ما يبرح، متى رأيت من فعل فعلك أفلح، تقبل من العدو، ولا تقبل ممن ينصح، قم على قدم الطلب فاقرع الباب بالأدب يفتح، صاحب أهل الخير تكن منهم، واستفد خصالهم وخذ عنهم.

قوله تعالى: ﴿يرجون تجارة﴾ أي يرجون بفعلهم تجارة ﴿لن تبور﴾ أي لن تفسد ولن تكسد. وهذا جواب قوله تعالى: ﴿إن الذين يتلون كتاب الله﴾.

لَمَّا سمعوا مضاعفة الأجر في قوله تعالى: ﴿مثل الذين ينفقون أموالهم في سبيل الله كمثل حبة أنبئت سبع سنابل في كل سنبلة مائة حبة﴾^(١). ثم سمعوا قوله تعالى: ﴿فيضاعف له أضعافاً كثيرة﴾^(٢). قال ابن عباس: لا ينقض عددها.

(٢) البقرة ٢٤٥.

(١) البقرة ٢٦١.

وقال أبو هريرة: إن الله تعالى يكتب للمؤمن بالحسنة الواحدة ألف حسنة، ولما سمعوا لفظ «القرضُ في ذمة الله» بادروا بالأموال.

أخبرنا يحيى بن علف المدير، بسنده، عن عبد الله بن مسعود قال: لما نزل قوله تعالى: ﴿من ذا الذي يقرض الله قرضاً حسناً، فيضاعفه له أضعافاً كثيرة﴾ (١). قال أبو الدحداح يعني لرسول الله ﷺ: وإن الله تعالى ليريد منا القرض؟ قال: نعم: قال: أرني يدك يا رسول الله. قال: فناوله يده فقال: إني قد أقرضتُ ربي حائطي. قال: وحائطه فيه ستمائة نخلة، وأم الدحداح فيه وعيالها، فجاء أبو الدحداح فنادى: يا أم الدحداح. قالت: لبيك. قال: اخرجي من الحائط، فقد أقرضته ربي عز وجل، وفي رواية أخرى أنها لما سمعت ذلك عمدت إلى صبيانها تخرج ما في أفواههم وتنفض ما في أكمامهم، فقال النبي ﷺ: «كم من عِدْق رَدَّاح في الجنة لأبي الدحداح».

سبحان من خلق تلك النفوس واختارها، وصفأها بالتقى، ورفع أقدارها، وجعل حِمَى معرفته وجنته دارها، فإذا مرّت على النار أطفأ نورها نارها، قوم تيقظوا في أمورهم وعقلوا، وحاسبوا أنفسهم فما أضاعوا ولا غفلوا، وحاربوا جنود الهوى فأسروا وقتلوا، وتدبروا منازل اليقين مع سادة المتقين ونزلوا، فأولئك لهم جزاء الضعف بما عملوا.

إخواني: رحل من أصيفه وبقي من لا أعرفه، سلّ عنهم الشعثُ الغبور، وزر إذا اشتفتهم القبور.

لَمَنْ الطُّولُ كَأَنَّهُنَّ (م) بَجَزَعٍ ذِي سَلَمٍ سَطُورٌ
تَطْوِي مَعَالِمَهَا الصَّبَا طَوْرًا وَتَنْشُرُهَا الدَّبُورُ
وَكَفَتْ بِهَا مَنْ أَدْمَعِي فِي الرِّكْبِ غَادِيَّةٌ دَرُورُ
وَلَقَلَّ مَا تُجْدِي الدَّمُو عٌ وَيَنْفَعُ الصَّبَّ الزَّفِيرُ
أَقْوَتٌ مِنَ الْحَيِّ الدِّيَا رُ فَمَا لَهَا فِي الْعَيْنِ نَوْرُ

(١) البقرة ٢٤٥.

سجع على قوله تعالى ﴿يرجون تجارة لن تبور﴾^(١)

كانوا يقومون الدتيجور، ببكاء مطرود مهجور، ورعد قلوبهم مقلق زجور،
فامتلات بالخيرات الحجور ﴿يرجون تجارة لن تبور﴾.

رفضوا الدنيا شغلا عن الزينة، وأذلوا نفوسهم فعادت مسكينة، وعلمو أن
الدنيا سفينة، فتهيأوا للعبور ﴿يرجون تجارة لن تبور﴾.

يؤثرون بالطعام، ويؤثرون الصيام، ويأملون فضل الإنعام، فما كانت إلا
أيام حتى اخضرت البذور ﴿يرجون تجارة لن تبور﴾ بعثوا الأموال الحبيبة إلى
بلاد البعث الغربية، فإذا الأرباح عن قريب قريبة، وعلى هذا التجارة تدور
﴿يرجون تجارة لن تبور﴾.

العليل عليل، والأنين طويل، والعيون تسيل، وما مضى إلا القليل حتى فرح
الصبور ﴿يرجون تجارة لن تبور﴾.

يقفون وقوف مسكين، ويدلون ذل مستكين، فنالوا المقام الأمين، وانشعب
قلب الحزين بأكمل الحبور ﴿يرجون تجارة لن تبور﴾ سليمهم كالسليم، وحزنهم
مقيم، يحذرون الجحيم، ويرجون النعيم في كمال الحبور ﴿يرجون تجارة لن
تبور﴾.

للقلب مع الدنيا نبا، كلما عارضه الهوى نبا، يندبون نذب الأسرى الغربا،
والزفات على ذنوب الصبا، تزيد على الصبا والذبور ﴿يرجون تجارة لن
تبور﴾.

يا من يدفن ماله تحت الأرض، ولا يفهم معنى القرص، سيخرج الوارث
بالفرض إلى الدرهم والدور. ﴿يرجون تجارة لن تبور﴾.

سبحان من قضى لقوم سرورا، وعلى آخرين ثورا، فما لهم من نور
﴿يرجون تجارة لن تبور﴾.
والله سبحانه وتعالى أعلم.

(١) فاطر ٢٩.

المجلس السابع في الأخوة والصدقة

الحمد لله الذي لطف بالبرايا إذ برأهم وبرَّ، وروَّح أرواح أهل الصلاح براح
الفلاح وسرَّ، واطَّلَع على ضمير من نوى سيرٍ من أسرَّ، وقَدَّرَ الأشياء، فقضى
الخير، وقضى الشر، وأمات وأحيا وأفقر وأغنى، ونفعَ وضرَّ، جفَّ القلم
بتقديره فمضى الأمرُ واستقرَّ، بقدرته تقطع المراكبُ البحرَ والمركوبُ البرَّ،
لُطفه عظيم وجوده عميم قد استمر «رُبَّ أشعث أغبر لو أقسم على الله لأبرَّ»
سميع يسمع المدنَّف المضطر، بصير يرى في دُجَى الليل الذرَّ، علم بانكسار من
نَدِم وإصرار من أصرَّ، حلِيم فإن سَطَا رأيت الأمرَ الأمرَّ، ما أَلطفه بعبده
يدعوه لرفع ما عرَّ ﴿فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ صُورَهُ مَرَّ﴾ (١).

يمدُّ رواق الظلام، فإذا لاح الصباح فرَّ، وينير النهار، فإذا انقضى عاد الليل
وكرَّ، فالقمر آية الليل والشمسُ تجري لمستقر.

أحمده على إنعام، كلما احتلبَ درَّ، وأقر بوحدانيته عن دليل قد استقر،
وأصلي على رسوله محمد الذي عمَّت رسالته البحر والبر، وعلى صاحبه أبي بكر
المنفيق حتى تخلَّل وَرَزَّ، وعلى عمر الزاهد، فما غرَّه ما غرَّ، وعلى عثمان الذي
ارتفع بالكرم فبرَّ وأبرَّ، وعلى عليّ الذي ما أقدم قط ففرَّ، وعلى عمه العباس
المقدم نسباً، والفخر قد استقر.

قال الله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي أَيْدَكَ بِنَصْرِهِ وَبِالْمُؤْمِنِينَ﴾ (٢) أيديك بمعنى قوَّاك
بنصره وبالمؤمنين وألف بين قلوبهم. التأليف: الجمع على ما يشاكل. والمراد بالآية

(٢) الأنفال ٦٢.

(١) يونس ١٢

الأوس والخزرج، وهم الأنصار، وكانت بينهم عداوة في الجاهلية، فألف الله عز وجل بينهم، وهذا من أعجب الآيات، لأنهم كانوا ذوي أنفة شديدة، فلو أن رجلاً لطم رجلاً لقاتلت عنه قبيلته حتى تُدرك ثأره، قال لهم الإسلام إلى أن يقتل الرجل ابنه وأباه في طاعة الله عز وجل.

وقد روى أبو الأحوص، عن ابن مسعود في قوله تعالى: ﴿لَوْ أَنفَقْتُ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مَا آَلَفْتُ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ﴾^(١) قال: هم المتحابون في الله تعالى.

أعلم أن المعنى الجامع بين المسلمين الإسلام، فقد اكتسبوا به أخوة أصلية، ووجب عليهم بذلك حقوق لبعضهم على بعض.

وفي الصحيحين من حديث النعمان بن بشير، عن النبي ﷺ أنه قال: «مَثَلُ الْمُؤْمِنِينَ فِي تَوَادُّهِمْ وَتَرَاحُمِهِمْ، وَتَعَاطُفِهِمْ مَثَلُ الْجَسَدِ إِذَا اشْتَكَى مِنْهُ عَضْوٌ تَدَاعَى لَهُ سَائِرَ الْجَسَدِ بِالسَّهَرِ وَالْحُمَّى».

وفي الصحيحين من حديث النعمان بن بشير، عن النبي ﷺ أنه قال: «مَثَلُ الْمُؤْمِنِينَ فِي تَوَادُّهِمْ وَتَرَاحُمِهِمْ، وَتَعَاطُفِهِمْ مَثَلُ الْجَسَدِ إِذَا اشْتَكَى مِنْهُ عَضْوٌ تَدَاعَى لَهُ سَائِرَ الْجَسَدِ بِالسَّهَرِ وَالْحُمَّى».

وفيها من حديث أبي موسى، عن النبي ﷺ أنه قال: «الْمُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِ كَالْبُنْيَانِ يَشُدُّ بَعْضُهُ بَعْضًا» وشبك بين أصابعه.

وفيها من حديث أنس رضي الله عنه، عن النبي ﷺ أنه قال: «وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، لَا يُؤْمِنُ عَبْدٌ حَتَّى يَحِبَّ لِأَخِيهِ مَا يَحِبُّ لِنَفْسِهِ».

وفي حديث مسلم: لجاره أو لأخيه.

وفيها من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، عن النبي ﷺ أنه قال: «حَقُّ الْمُسْلِمِ عَلَى الْمُسْلِمِ خَسَنٌ: يَسَلِّمُ عَلَيْهِ إِذَا لَقِيَهِ، وَيَسْمَعُهُ إِذَا عَطَسَ، وَيَعُودُهُ إِذَا مَرَضَ، وَيَشْهَدُ جَنَازَتَهُ إِذَا مَاتَ، وَيَجِيبُهُ إِذَا دَعَا».

(١) الأنفال ٦٣.

وإذا ثبتت هذه الحقوق للاشتراك في الإسلام، فكلما زادت المخالطة وصفاً زادت الحقوق، مثل القرابة والمجاورة والضيافة والصحبة والصدقة، والأخوة الخاصة في الله عز وجل.

فأما حق القرابة، فمعلوم: وجوب بر الوالدين، وتقديم الأم في البر ووجوب صلة الرحم.

وفي الصحيحين من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه، عن النبي ﷺ أنه قال: «مَنْ أَحَبَّ أَنْ يُوسَّعَ اللَّهُ عَلَيْهِ فِي رِزْقِهِ، وَيُنْسَأَ لَهُ فِي أَثَرِهِ فَلْيَصِلْ رَحِمَهُ».

وأما حق الجار ففي الصحيحين من حديث ابن عمر، وعائشة عن النبي ﷺ أنه قال: «مَا زَالَ جَبْرِيلُ يُوصِينِي بِالْجَارِ حَتَّى ظَنَنْتُ أَنَّهُ سَيُورَّثُهُ».

وأما حق الضيف، ففي الصحيحين من حديث أبي هريرة، عن النبي ﷺ أنه قال: «مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ، فَلْيُكْرِمْ ضَيْفَهُ».

وأما حق الصحبة فقال مجاهد: صحبت ابن عمر، وأنا أريد أن أخدمه فكان يخدمني أكثر.

وأما حق الصدقة، فإنها تُطلق على ما دون الأخوة، فالأخوة هي المرتبة العليا، وإنما تقع الأخوة الصادقة إذا حصل التشاكل بين الأخوين في أصل الوضع، وفي الصحيحين من حديث عائشة رضي الله عنها، عن النبي ﷺ أنه قال: «الْأَرْوَاحُ جُنُودٌ مَجْنُونَةٌ فَهَا تَعَارَفَ مِنْهَا اثْتَلَفَ، وَمَا تَنَافَرَ مِنْهَا اخْتَلَفَ».

قال أبو سليمان الخطابي رحمه الله: ومعنى هذا الحديث: الإخبار عن مبدأ كَوْنِ الأرواح وتقدّمها الأجساد، على ما روى أن الله عز وجل خلق الأرواح قبل الأجساد بكذا وكذا، فأعلم النبي ﷺ أنها خُلقت على ائتلاف واختلاف، فتأتلف الأجساد في الدنيا، وتختلف على حسب ما وقع في مبدأ، الخَلقة.

وفي هذا الحديث دليل على أن الأرواح ليست بأعراض وأنها كانت موجودة قبل الأجساد، وأنها تبقى بعد الأجساد، ويؤيد هذا معنى قوله عليه الصلاة

والسلام: «أرواح الشهداء في حواصل طير خُضِرَ تَعْلُقُ في ثمر الجنة».

وهذه الأخوة الخاصة هي التي عقدها رسول الله ﷺ بين أصحابه، وقد علم أن الأخوة العامة في قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾ واقعة قبل عقده، غير أنه أراد الأمر الخاص.

وفي الصحيحين من حديث أنس رضي الله عنه عن النبي ﷺ أنه آخى بين عبد الرحمن بن عوف، وسعد بن الربيع. وقد آخى بين خلق كثير ذكرتهم في كتاب التلقيح.

وهذه الأخوة هي التي توجب المحبة في الله عز وجل، وهي أوثق عرى الإيمان، كذلك روى البراء بن عازب، عن النبي ﷺ أنه قال: «أوثق عرى الإيمان أن تحب في الله، وتُبغِضَ في الله».

ومن جملة ثواب المتحابين ما روي في الصحيحين من حديث أبي هريرة، عن النبي ﷺ أنه قال: «سبعة يظلهم الله في ظله، يوم لا ظلَّ إلا ظلُّه» فذكر منهم رجلين تحابَّتا في الله عز وجل اجتمعا عليه، وتفرقا عليه.

أخبرنا هبة الله بن محمد بسنده، عن أبي الحباب، عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «إن الله عز وجل يقول يوم القيامة: أين المتحابُّون بجلالي؟ اليوم أظلمهم في ظلِّي، يوم لا ظلَّ إلا ظلِّي».

انفرد بإخراجه مسلم.

وبالإسناد عن أبي مسلم الخولاني قال: أتيت مسجد أهل دمشق، فإذا حلقة فيها كهول من أصحاب محمد ﷺ، وإذا شاب فيهم أكحل العين برآق الثنايا، كما اختلفوا في شيء ردَّوه إلى الفتى، فقلت لجليس لي: ما هذا؟ قال: هذا معاذ ابن جبل فجنَّت من العشيِّ، فلم يحضر، فغدوت من الغد، فلم يجيء، فخرجت فإذا أنا بالشاب يصلِّي إلى سارية، فركعت، ثم تحوَّلت إليه، وقال: فسلم فدنوت منه فقلت: إني أحبك في الله تعالى. قال: فمدني إليه وقال: كيف قلت؟ قلت: إني أحبك في الله. قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «المتحابُّون في الله

على منابر من نور، في ظل العرش يوم لا ظل إلا ظله» .

قال: فخرجت حتى لقيت عبادة بن الصامت، فذكرت حديث معاذ بن جبل فقال: سمعتُ رسولَ الله ﷺ يحكي عن ربه عز وجل يقول: « حَقَّتْ محبتي للمتحابِّين فيّ، وحقت محبتي للمتباذلين فيّ، وحقت محبتي للمتزاوِّرين فيّ، والمتحابون في الله على منابر من نور في ظل العرش، يوم لا ظل إلا ظله» .

وفي حديث عمرو بن عبَّسة، عن النبي ﷺ أنه قال: « إن الله عز وجل يقول: حقت محبتي للذين يتحابُّون من أجلي، وحقت محبتي للذين يتصافون من أجلي» .

وفي حديث أبي سعيد الخدري، عن النبي ﷺ أنه قال: « إن الله عز وجل عباداً على منابر من نور في ظل العرش يَغْبِطُهُمُ الشَّهَدَاءُ . قيل: من هم؟ قال: المتحابُّون في جلال الله عز وجل» .

واعلم أن هذا الثواب في هذه المحبة إنما يكون إذا كانت لله تعالى خالصة لا يشوبها شيء من الكدر، ومتى قويت محبة الله سبحانه وتعالى في القلب، قويت محبة أوليائه والصالحين من عباده، فلينظر الإنسان من يؤاخي، ومَن يجب، ولا ينبغي أن يتخير إلا من قد سلَّم عقله ودينه . وقد قال عليه السلام: « المرء على دين خليله، فلينظر أحدكم من يُخالل» .

وفي الصحيحين من حديث ابن مسعود، عن النبي ﷺ أنه قال: المرء من أحبَّ» .

فإذا أحبَّ شخصاً، فليُعلمه، وروى المقدم بن معدي كَرَب، عن النبي ﷺ أنه قال: إذا أحبَّ أحدكم أخاه، فليُعلمه إياه .

وقال عمران بن حطان: لقد أحببتُ في الله عز وجل ألفَ أخٍ كلهم أعرف اسمه واسم أبيه وقبيلته، ومكان داره .

وقال أبو زُرعة بن عمرو بن جرير: ما تحاب رجلان في الله عز وجل، إلا

كان أفضلها أشدهما حباً لصاحبه .

وكان يقول: اصحب من إذا صحبته زانك، وإن خدمته صانك، وإذا أصابتك خصاصة مانك، وإن رأى منك حسنة سر بها، وإن رأى منك سقطة سترها، ومن إذا قلت صدق قولك، ومن هو فوقك في الدين، ودونك في الدنيا، وكل أخ وجليس، وصاحب لا تستفيد منه في دينك خيراً، فانبذ عنك صحبته .

فإذا صفت المحبة وخلصت وقع الشوق والتزاور، وصار بذل المال أحقر الأشياء، فأما التزاور فقد ذكرنا فضيلته .

وقد كان عمر بن الخطاب يذكر الأخ من إخوانه في بعض الليل فيقول: يا طُولها من ليلة! فإذا صَلَّى المكتوبة غدا إليه فاعتقه .

وقال مجاهد: إذا مشى أحد المتحابين إلى الآخر، فأخذ بيده، فضحك إليه تحاتت خطاياها، كما يتحات ورق الشجر .

أخبرنا عبد الرحمن بن محمد، قال: أنبأنا أبو بكر الخطيب، أخبرني عبد العزيز الأزجي، حدثنا عبد الله بن محمد بن سليم العلاف، [عن معروف الكرخي] قال: إمش ميلاً صلّ جماعة، امش ميلين صل جمعة امش ثلاثة أميال عدّ مريضاً، امش أربعة أميال شيع جنازة، امش خمسة أميال شيع حاجاً، أو معتمراً، امش ستة أميال شيع غازياً في سبيل الله، امش سبعة أميال بصدقة من رجل إلى رجل، امش ثمانية أميال أصلح بين الناس، امش تسعة أميال صلّ رَحماً وقرابة، امش عشرة أميال في حاجة عيالك، امش أحد عشر ميلاً في معاونة أخيك، امش بَرِيداً والبريد اثنا عشر ميلاً - زُرْ أَخاً في الله عز وجل!

وأما بذل المال فهل ثلاث مراتب: أهونها: المساهمة في المال، وأوسطها: المواساة، وأعلىها: تقديم الأخ في المال على النفس .

وقد روينا أنفا: « حَقَّتْ محبتي للمتبادلين في » .

قال ابن عمر : لقد رأيتنا ، وما أحدنا بأحقّ بديناره ودرهمه من أخيه المسلم .

وقال الحسن : كنا نعدُّ البخيلَ الذي يُقرض أخاه !

وقال : ليس من المروءة أن يربح الرجلُ على صديقه .

وقال أبو جعفر الباقر لأصحابه : هل يُدخل أحدكم يده في كُمِّ صاحبه ،

فيأخذ منه ما يريد ؟ قالوا : لا . قال : فلستم بإخوان .

وقد كان بعضهم يتلطف في إيصال البرِّ إلى إخوانه فيأتي بالصرّة فيها

الأربعائة والخمسةائة ، فيودعها أحدهم ، ثم يلقاه بعد فيقول : انتفعوا بها فهي لكم .

وعلى هذا لا ينبغي للأخ أن يُجحف بأخيه فيما يأخذ منه ، وإن علم أنه لا

كلفة عليه في ذلك ، فإن النبي ﷺ قال له أبو بكرٍ زمن الهجرة : قد علقت ناقتين ، فخذ إحداها فقال : بالثمن .

هيهات ! رحل الإخوان ، وأقام الخوَّان ، وقلَّ أن ترى في الزمان ، إلا من إذا

دُعِيَ مان .

الكلام على البسمة

أجِدُّ الديارَ كما عهدتُ وإنما
يا وِحدتي ما أكثر الإخوان لي
في كلِّ مَطْرَحِ نظرةٍ حوِلي أخ
راعٍ معي أبداً ، فإن هي أعجفت
أشْريه من خَفْضِ المعيشةِ غالياً
ألقاهمُ عددَ الكواكبِ كثرةً
شكّوايَ أي أفقدُ الجيرانا
نظراً وأكثرَ فيهم الخوَّاناً !
صنوّ إذا همز الغنى الأفتاناً
إبلي تقلّب ، أو يعدن سمانا
ويبيعي في صنكها مجاناً
حوِلي وألقى وحدي الحدثاناً

إخواني : إن البخل والجهل للقلوب قد خالط ، فما يُعرف من يُخالط .

كان السلف يتعاشرون بنزع الغلّ على مناصحة النفوس ، فصارت عشرة

العشيرة على موافقة الهوى بدخن الضمير، كانوا يميلون على الدنيا بالذم، فصار الميل إليها بالقلب، تمالأوا على حبها ومالوا، فإذا فرّت عن صديقهم أعرضوا ومالوا، فافتح بصر البصيرة، فعلى هذا تراهم، ثم التفت عنهم وإياهم:

اسمعي مني أثبتك شاني إنما يُبدي ضميري لساني
كم أخ لي كان مني فلما أن رأى الدهر جفاني قد جفاني
لم يرعني غير خيل غادر موتر نحري لقوس الزمان
مستعدّ لي بسهم عندما أن رأى الدهر رماني قد رماني

كان الأخ في الله يخلف أخاه في أهله، إذا مات أربعين سنة! وكان الرجل إذا أراد شين أخيه طلب حاجته من غيره.

خرج إبراهيم بن أدهم رحمه الله في سفر، ومعه ثلاثة نفر، فدخلوا مسجداً في بعض المفاوز والبرد شديد، وليس للمسجد باب، فلما ناموا قام إبراهيم، فوقف على الباب إلى الصباح، فقبل له: لم تم؟ فقال: خشيت أن يصيبكم البرد، فقمتم مقام الباب!

وجاء رجل من السلف إلى بيت صديق له، فخرج إليه فقال: ما جاء بك؟ قال: علي أربعائة درهم، فدخل الدار فوزنها، ثم خرج فأعطاه، ثم عاد إلى الدار باكياً فقالت زوجته: هلاً تعلّلت عليه إذا كان إعطاؤه يشقّ عليك؟ فقال: إنما أبكي لأني لم أفتقد حاله فاحتاج أن يقول لي ذلك!

هل تحسان لي رفيقاً رفيقاً أو تصيبان لي صديقاً صدوقاً
قد فشا العدر والخيانة في النا س فما إن أرى رفيقاً شفيقاً

أخبرنا عبد الوهاب بن المبارك بسنده عن رباح بن الجراح قال: جاء فتّح الموصلي إلى منزل صديق له يقال له: عيسى التّمّار، فلم يجده في المنزل، فقال للخادم: أخرجني لي كيس أخي. فأخرجته ففتحه فأخذ منه درهمين. وجاء عيسى فأخبرته الخادم فقال: إن كنت صادقة فأنت حرة. فنظر فإذا هي صادقة. فعتقت!

أخبرنا أبو بكر بن حبيب قال أبو سليمان الداراني: كان لي أخ في الله عز وجل فقلت له يوماً، أعطني دراهم. فقال: كم تريد؟ فسقط من عيني، وخرجت أخوته من قلبي بقوله: كم تريد.

واعلم أنه إذا علت مرتبة الأخوة وقع فداء الأخ بالنفس.

أخبرنا عبد الرحمن بن محمد بسنده، عن محمد بن داود قال: سمعت أبا بكر القرطبي وأبا عمرو الأدمي يقولان وكان يتأخيان في الله تعالى: خرجنا من بغداد نريد الكوفة، فلما سرنا في بعض الطريق، إذا نحن بسبعين رابضين على الطريق، فقال أبو بكر لأبي عمرو: أنا أكبر منك سنًا فدعني أتقدمك، فإن كان حادثة اشتغلا بي عنك وجزت أنت، فقال له أبو عمرو: نفسي ما تسأخني بهذا، ولكن نكون جميعاً في مكان واحد، فإن كانت حادثة كنا جميعاً. فجازا جميعاً بين السبعين، فلم يتحرّكا ومرّا سالمين.

وركب أخوان في الله تعالى في البحر، فكسّر بهما المركب، فجعللا يسبحان ويتعلق أحدهما بالآخر، فقال أحدهما للآخر: إن تعلقت بي هلكتنا جميعاً، فدعني فربما سلم أحدنا فقال: ظننتُ أي أنا أنت، فإذا وقع الفراق فنعم. ففتحني عنه، فقدّرت لها السلامة فلم يصحبه ذلك باقي عمره.

إخواني: نسخ في هذا الزمان رسم الأخوة وحكمه، فلم يبق إلا الحديث عن القدماء، فإن سمعت ياخوان صديق فلا تصدّق.

ما هذه الألف التي قد زدتم فدهوتم الخوان بالإخوان
ما صح لي أحد أصيره أخاً في الله حقاً، لا ولا الشيطان
إما مول عن ودادي ماله وجّه وإما من له وجهان

الكلام على قوله تعالى :

﴿الذين يذكرون الله قياماً وقعوداً وعلى جنوبهم﴾ (١)

في المراد بهذا الذكر ثلاثة أقوال :

أحدها : أنه الذكر في الصلاة ، يصلي الإنسان قائماً ، فإن لم يستطع فقاعداً ، فإن لم يستطع فعلى جنب . هذا قول عليّ وابن مسعود ، وابن عباس وقتادة .

والثاني : أنه ذكر في الصلاة وغيرها .

والثالث : أنه الخوف . فالمعنى يخافون الله في جميع تصرفاتهم .

أخبرنا هبة الله بن محمد بسنده ، عن أبي صالح قال : سمعت أبا هريرة يقول : قال رسول الله ﷺ قال الله عز وجل : « أنا عند ظنّ عبدي بي ، وأنا معه حين يذكرني ، إن ذكرني في نفسه ذكرته في نفسي ، وإن ذكرني في ملأٍ ذكرته في ملأٍ خير منه ، ومن تقرب إلى شبراً تقربت منه ذراعاً ، ومن تقرب إلى ذراعاً ، تقربت إليه باعاً ، ومن جاءني يمشي جثته هرولة » .

أخرجاه في الصحيحين .

وفي أفراد مسلم من حديث أبي هريرة ، عن النبي ﷺ أنه قال : سبق المفردون قالوا : وما المفردون ؟ قال : الذاكرون الله كثيراً ، والذاكرات » .

وفي أفراد من حديث أبي هريرة أيضاً عن النبي ﷺ أنه قال : لا يقعد قومٌ يذكرون الله إلا حفتهم الملائكة وعشيتهم الرحمة ونزلت عليهم السكينة وذكرهم الله فيمن عنده » .

وفي حديث أنس رضي الله عنه ، عن النبي ﷺ أنه قال : « ما من قوم اجتمعوا يذكرون الله لا يريدون بذلك إلا وجه الله إلا ناداهم منادٍ من السماء : قوموا مغفوراً لكم ، قد بُدلت سيئاتكم حسنات .

(١) آل عمران ١٩١

أخبرنا محمد بن عبد الباقي البزار بسنده عن أبي صالح، عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ « إن الله تعالى ملائكة يطوفون في الطرق يلتمسون أهل الذكر، فإذا وجدوا قوماً يذكرون الله تعالى تنادوا: هلموا إلى حاجتكم. فيحفونهم بأجنحتهم إلى السماء، قال: فيسألهم ربهم تبارك وتعالى - وهو أعلم بهم: ما يقول عبادي؟ قالوا: يذكرونك ويسبحونك ويمجدونك. قال: وهل رأوني؟ فيقولون: لا والله يا رب ما رأوك. قال: فيقول: فكيف لو رأوني؟ قال: فيقولون: لو أنهم رأوك لكانوا أشدَّ لك عبادة، وأشدَّ لك تمجيداً، وأكثر تسبيحاً. قال: فيقول: وما يسألوني؟ قالوا: يسألونك الجنة قال: فيقول: وهل رأوها؟ فيقولون: لا والله يا رب ما رأوها. فيقول: فكيف لو رأوها فيقولون: لو رأوها كانوا أشدَّ عليها حرصاً، وأشدَّ لها طلباً وأعظم فيها رغبة فيقول: فسم يتعوذون! يتعوذون! قال: يقولون: من النار قال: يقول: فهل رأوها؟ قال: فيقولون: لا والله ما رأوها. قال: يقول: كيف لو رأوها؟ قال يقولون: لو رأوها كانوا أشدَّ منها فراراً، وأشدَّ لها مخافة قال: فيقول: فأشهدكم أني قد غفرت لهم. قال: يقول ملك من الملائكة: فيهم فلان ليس منهم، إنما جاء لحاجة فيقول، هم الجلساء لا يشقى بهم جليسهم».

أخرجاه في الصحيحين.

وفي حديث أبي الدرداء رضي الله عنه، عن النبي ﷺ: « إن الله عز وجل يقول: أنا مع عبدي ما ذكرني، وتحركت بي شفتاه».

وفي حديث أنس رضي الله عنه، عن النبي ﷺ أنه قال: « يقول الله تعالى: أخرجوا من النار من ذكرني يوماً، أو خافني في مقام».

وفي حديثه عنه عليه الصلاة والسلام أنه قال: « إذا مررتم برياض الجنة فارتعوا». قالوا: يا رسول الله، وما رياض الجنة؟ قال: « مجالس الذكر».

وكان داود عليه الصلاة والسلام يقول: إلهي مررتُ على ملاء يذكرونك فجاوزتهم، فاكسر الرجل التي تليهم.

واعلم أن الذاكرين تختلف أحوالهم .

فمنهم من يؤثر قراءة القرآن ويقدمه على كل ذكر . وقد كان فيهم من يختم كل يوم ومنهم من يختم ختمتين .

ومنهم من أكثر ذكره التهليل والتسبيح والتحميد .

ففي الصحيحين من حديث أبي هريرة رضي الله عنه ، عن النبي ﷺ أنه قال : من قال : « لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، له الملك وله الحمد ، وهو على كل شيء قدير في كل يوم مائة مرة كانت له عدل عشر رقاب ، وكتبت له مائة حسنة ومحيت عنه مائة سيئة ، وكانت له حرزاً من الشيطان يومه ، ذلك حتى يمسي ، ولم يأت أحدٌ بأفضل مما جاء به إلا أحد عمل أكثر من ذلك . ومن قال في يومه مائة مرة : سبحان الله وبجمده حطت خطاياها ، وإن كانت مثل زبد البحر . »

وقال سعيد بن عبد العزيز قلت لعمر بن هانيء : أرى لسانك لا يفتر من ذكر الله عز وجل ، فكم تسبح كل يوم ؟ قال : مائة ألف ، إلا أن تخطيء الأصابع .

وقال محمد بن ثابت البناني : ذهبت ألقتُ أبي ، وهو في الموت فقلت : يا أبت قل : لا إله إلا الله . فقال : يا بني خلّ عني فأني في وردي السادس ، أو السابع !

ذَكَرَكَ لِي مُؤَنَسٌ يُعَارِضُنِي يَعِدُنِي عَنْكَ مِنْكَ بِالظَّفَرِ
وَكَيْفَ أُنْسَاكَ يَا مَدَى هِمَمِي وَأَنْتَ مَنِّي بِمَوْضِعِ النَّظَرِ

ومن الذاكرين من غلب على قلبه حبُّ المذكور ، فلا يزال في الذكر والتعبّد .

أخبرنا ابن حبيب بسنده قال : سمعت فاطمة أخت أبي عليّ الروذباري تقول : سمعت أخي يقول : سمعت الجنيّد يقول : ما رأيت أعبد الله من سريّ

السَّقَطِي، أتت عليه ثمان وسبعون سنة ما رُئي مُضْطَجِعاً، إلا في علة الموت.
ومن الذاكرين من صار الذكر له إلفاً لا عن كلفة، فما له هم غيره، فهو
يذكر أبدأً على جهة الحضور.

وقال بِمَجْمَشِ الْجَلَّاب: صحبت أبا حفص النيسابوري اثنتين وعشرين سنة، فما
رأيته ذَكَرَ الله تعالى على حد الغفلة والانبساط، ما كان يذكر الله إلا على سبيل
الحضور والحُرْمَة والتعظيم، وكان إذا ذكر الله تعالى تَغَيَّرَ عليه حاله، حتى كان
يَرى ذلك جَمِيعاً من حضره.

وقال بعض السلف: صحبت في طريقي رجلاً أسود، فكان إذا ذكر الله
تعالى أبيضاً!

وشُغِلت عني فَهَمُّ الحديثِ سِوَى ما كان منك وعندكم شُغْلِي
وأديم نحو محدثي نظري أن قد فهمتُ وعندكم عَقْلِي
أين أهل الأذكار، أين قُورَامُ الأسحار، أين صُورَامُ النهار، خلت والله منهم
الديار، وامتلات بهم القِفَار، فصل إليهم، وصل عليهم فهم الأحرار.

سلامٌ على أهل الحِمَى عدد الرملِ وَقَفْتُ وَقُوفَ العَيْثِ بَيْنَ طُلُولِهِ
وَمَا رِمْتُ حَتَّى خَالَني الرِّيمُ رِمَةً خَلِيلِي قَدْ عَذَبْتَانِي مَلَامَةً
فَلَا بَرَحْتُ عيني تنوبُ عن الحَيَا لِيَالِي لَا رَوْضُ الكَثِيبِ بِلَا نَدَى
وَقَلَّ لَهُ التَّسْلِيمُ من تَائِقِ مِثْلِي بِمُنْسَكِبِ سَحٍّ وَمِنْهَمِلِ وَبُلِّ
وَأُذْرَفَ أَطْيَارِ الحِمَى الدَمْعَ من أَجْلِي كَأَنَّ لَمْ يَطْفُ في دِمْنَةِ أَحَدٍ قَبْلِي
بَدَمْعٍ على تلكِ المَنَاهِلِ مُنْهَلٍ وَلَا شَجَرَاتُ الأَبْرَقَيْنِ بِلَا طَلِّ

السجع على قوله تعالى:

﴿الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ﴾^(١)

سبحان من قضى على الغافلين كسلاً وقُعُوداً، ورفق المتقين علواً وصعوداً، ومنحهم من إنعامه فوزاً وسُعوداً بمطلوبهم ﴿يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ﴾.

أنعم عليهم فأعطاهم، واستخلصهم واصطفاهم، وقليل ما هم، اشتغل الناس بدنياهم واشتغلوا بذكر محبوبهم ﴿يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ﴾.

قنعوا بأذون المطعم واللباس، وألقوا نفوسهم في المساجد كالأخلاس، يمشون بالسكينة بين الناس وما دروا بهم في دروبهم ﴿يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ﴾.

اكتفوا من الليل بيسير النوم، واشتغلوا بالصلاة وبالصوم، وكانت والله همم القوم في صلاح قلوبهم ﴿يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ﴾.

تناولوا لقم الترتيل وقالوا: هذه للجوع تُزيل، فهم يقنعون بالقليل في مطعمومهم ومشروبهم ﴿يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ﴾.

قاموا قيام المستعد، ووردوا بحر الجود العبد، وتسلحوا سلاح العزم والجِدّة في جميع حروبهم ﴿يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ﴾.

لبسوا ثياب السفر، ورحلوا على أكوار السهر، فلو سمعت وقت السحر ترم طروبهم ﴿يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ﴾.

تناولوا كؤوس الدمع يتجرعون، فلو رأيتهم في طريق الخضوع يتضرعون والقوم يقلقون ويضرعون في ستر عيوبهم ﴿يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ﴾.

(١) آل عمران ١٩١.

يستغيثون إلى الحق ويشكون، واليتامى في الذل يحكون، وجملة الأمر أنهم
يبكون على قبح مكتوبهم ﴿يذكرون الله قياماً وقياماً وعوداً وعلى جنوبهم﴾.

يعتذرون من زلل القدم، ويتمنون بعد الوجود العدم، وقد بعثوا رسالة
الندم مع مندوبهم ﴿يذكرون الله قياماً وقياماً وعوداً وعلى جنوبهم﴾.

قلبتهم الأشجان، وغيّرتهم الأحزان، ينزعجون لما قد كان من سالف ذنوبهم
﴿يذكرون الله قياماً وقياماً وعوداً وعلى جنوبهم﴾.

أما الليل فسهارى، وأما النهار فأسارى، وكأنهم بالحبّة سكارى في شروقهم
وغروبهم ﴿يذكرون الله قياماً وقياماً وعوداً وعلى جنوبهم﴾.

لو أصغيت في الدجى واستمعت، وأحضرت قلبك عندهم وجممت،
وهيهات ليتك اطلعت على بعض كروبهم ﴿يذكرون الله قياماً وقياماً وعوداً وعلى
جنوبهم﴾.

كانت رقدة ثم بقيت النياحة، فانتقلوا من حضرة الحظر إلى الإباحة،
واستبدلوا بالرياضة الراحة، فلم يبق أثر لجدوبهم ﴿يذكرون الله قياماً وقياماً وعوداً
وعلى جنوبهم﴾.

المجلس الثامن

في ذكر العزلة

الحمد لله الواحد القديم الجبار، القادر العظيم القهار، والمتعالي عن درك
الخواطر والأفكار، المنفرد بالعز والقهر والإقتدار، الذي وسّم كلَّ مخلوق بسمته
الإفتقار، فأظهر آثار قدرته بتصرف الليل والنهار، سميع يسمع لا كالأسماع،
بصير يُبصر لا كالأبصار، قادر مرید حکيم، علم بالأسرار، يُبصر ذبيب النملة
السوداء في الليلة الظلماء على القار، ويسمع أنين المذنب يشكو ما به من أضرار،
كَلَّمَ موسى كِفَاحاً لما قضى الأجل وسار، ورآه نبينا ﷺ دلَّ على ذلك القرآن
والأخبار، ويراه المؤمنون إذا نزلوا دار القرار، صِفَاتُهُ كذاتهِ، والمشبهة كُفَّار،
نَقَّرَ ونَمَّرَ وأربابُ البحث في خَسَار، هذا سيف السُّنَّة، فتناوَلَهُ باليمين لا
باليَسَار، واضرب به كَفَّ « كَيْفَ » ورأس « لِمَ » وعُنُق « ثُم » وخُذْ للتنزيه من
التشبيه بالثَّار ﴿أَفَمَنْ أُسِّسَ بُنْيَانَهُ عَلَى تَقْوَىٰ مِنْ اللَّهِ وَرِضْوَانٍ خَيْرٌ أَمْ مَنْ أُسِّسَ
بُنْيَانَهُ عَلَىٰ شَفَا جُرْفٍ هَارٍ﴾ (١).

أَحْمَدُهُ فِي الإِعْلَان والإِسْرَار، وَأَشْهَدُ بِوَحْدَانِيَّتِهِ بِأَصْحِ إِقْرَار، وَأَصْلِي عَلَى
رَسُولِهِ مُحَمَّدٍ سَيِّدِ الأنْبِيَاءِ الأطْهَار، وَعَلَى أَبِي بَكْرٍ رَفِيقِهِ فِي الدَّارِ وَالغَار، وَعَلَى
عَمْرِ قَامِعِ الكُفَّار، وَعَلَى عَثْمَانَ شَهِيدِ الدَّار، وَعَلَى عَلِيٍّ قَسِيمِ النَّار، وَعَلَى عَمِّهِ
العَبَّاسِ أَخِذِ البَيْعَةِ لَيْلَةَ العَقْبَةِ عَلَى الأنْصَار.

أخبرنا عبد الأول بسنده عن عطاء بن يزيد، عن أبي سعيد الخدري قيل: يا
رسول الله أي الناس خير؟ قال: رجلٌ يجاهد بنفسه وماله، ورجلٌ في شِعبٍ من

(١) التوبة ١٠٩.

الشعاب يَعْبُدُ رَبَّهُ، وَيَدْعُ النَّاسَ مِنْ شَرِّهِ.

أَخْرَجَاهُ فِي الصَّحِيحِينَ.

أَخْبَرَنَا أَبُو الْحَسَنِ عَلِيُّ بْنُ مُحَمَّدٍ الْبِزَارِ، قَالَ: أَنْبَأَنَا رِزْقُ اللَّهِ بْنِ عَبْدِ الْوَهَّابِ بِسَنَدِهِ عَنْ عَبْدِ الْعَزِيزِ أَبِي حَازِمٍ، عَنْ أَبِيهِ، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «إِنَّ مِنْ خَيْرِ مَعَايِشِ النَّاسِ لِمَنْ رَجُلٌ مُمَسِّكٌ بِعَنْانِ فَرَسِهِ يَطِيرُ عَلَى مَتْنِهِ، كَلِمًا سَمِعَ هَيْعَةً، أَوْ قَرَعَةً طَارَ عَلَى مَتْنِ فَرَسِهِ يَلْتَمِسُ الْمَوْتَ وَالْقَتْلَ مَكَانَهُ، وَرَجُلٌ فِي رَأْسِ شَعْفَةٍ مِنَ الشَّعَافِ، أَوْ بَطْنِ وَادٍ مِنْ هَذِهِ الْأَوْدِيَةِ يَقِيمُ الصَّلَاةَ وَيَعْبُدُ رَبَّهُ حَتَّى يَأْتِيَهُ الْيَقِينُ، لَيْسَ مِنَ النَّاسِ، إِلَّا فِي سَبِيلِ خَيْرٍ.

قال أبو عبيدة: الهَيْعَةُ: الصوت. قال الطَّرْمَاحُ:

أَنَا ابْنُ حُمَاةِ الْمَجْدِ مِنْ آلِ مَالِكٍ إِذَا جَعَلَتْ خُورُ الرِّجَالِ تَهْبَعُ وَالخُنُورُ جَمْعُ خَوَّارٍ وَهُوَ الضَّعِيفُ. وَالشَّعْفَةُ وَاحِدَةُ الشَّعَافِ، وَهِيَ رَعُوسُ الْجِبَالِ، وَهِيَ الشَّمَارِيخُ، وَالشَّنَاخِيبُ وَاحِدُهَا شُنُخُوبَةٌ.

وروي عن عقبه بن عامر قال: قلت يا رسول الله: ما النجاة؟ قال: «املكْ عليك لسانك، وليسعك بيتك وابك على خطيئتك.

قال الشيخ: وهذه الأحاديث تدل على فضل العزلة.

وقد كان السلف يُؤثرونها ويمدحونها فقال عمر بن الخطاب: خذوا بحظكم من العزلة.

وقال سعد بن أبي وقاص: والله لو ددت أن بيني وبين الناس باباً من حديد لا يكلمني أحدٌ، ولا أكلمه حتى ألحق بالله تعالى.

وقال ابن مسعود لأصحابه: كونوا ينابيع العلم مصابيح الليل أحلاس البيوت، جدد القلوب خلقتان الثياب، تعرفون في أهل السماء وتحفون على أهل الأرض.

وقال أبو الدرداء: نِعِمَّ صَوْمَعَةُ الرَّجُلِ بَيْتَهُ يَكْفُفُ فِيهَا بَصْرَهُ وَلِسَانَهُ، وَإِيَّامَ
وَالسُّوقِ، فَإِنَّهَا تُلْهِي وَتُلْغِي.

وقال ابن عباس: لولا مخافة الوسواس لرحلت إلى بلادٍ لا أنيس بها، وهل
يُفسد الناس إلا الناس!

كان أبو جهم الأنصاري بدرياً وكان لا يجالس الناس، وكان يعتزل في
بيته، فقالوا له: لو جالست الناس وجالسوك؟ فقال: وجدت مقاربة الناس
شراً.

وقال أبو حذيفة: والله لوددت أن لي إنساناً يكون في مالي، ثم أغلق عليّ باباً
فلا يدخل عليّ أحد حتى ألقى بالله عز وجل.

وقال الحسن: صوامع المؤمنين بيوتهم.

وقال سعيد بن المسيب وابن سيرين: العزلة عبادة.

وقال عمر بن عبد العزيز: إذا رأيت الرجل يطيل الصمت، ويهرب من الناس
فاقربوا منه، فإنه يلقى الحكمة.

وكان عثمان بن أبي دهرش إذا رأى الفجر أقبل عليه بثه وقال: الآن أصير
مع الناس، فلا أدري ما أجني على نفسي!

وقال داود الطائي: فرّ من الناس كما تفر من الأسد.

وأوصى سفيان الثوري بعض أصحابه فقال: إن استطعت أن لا تخالط في
زمانك هذا أحداً فافعل، وليكن همك مرمّة جهازك.

وكان يقول: هذا زمان السكوت، ولزوم البيوت.

وجاء رجل إلى الفضيل فجلس إليه فقال: ما أجلسك إليّ؟ فقال: رأيتك
وحدك. فقال: إما أن تقوم عني، وإما أن أقوم عنك. فقال: أنا أقوم أو صني.
فقال: أخف مكانك، واحفظ لسانك.

وجاء رجل إلى شُعَيْب بن حرب فقال: ما جاء بك؟ فقال: جئت أونسك.
فقال: أنا أعالج الوحدة منذ أربعين سنة!

وقال مالك بن أنس: كان الناس الذين مضوا يحبون العزلة والإنفراد من
الناس.

وقال بشر الحافي: مَنْ عامل الله بالصدق استوحش من الناس.

وقد كان أحمد بن حنبل يحب العزلة، وإبراهيم بن أدهم، وسليمان الخواص،
ويوسف بن أسباط، وحذيفة المرعشي في خلق كثير.

واعلم أن العزلة لا ينبغي أن تقطع عن العلم والجماعات، ومجالس الذكر
والاحتراف للعائلة، وإنما ينبغي أن يعتزل الإنسان ما يؤذي، وقد يخاف من
المخالطة المباحة أذى فيجتهد الإنسان في ترك ما يخاف عواقبه.

ويبعد حضور القلب مع المخالطة للناس، إلا أن يكون لمعنى.

وقد قال شعيب بن حرب: الناس ثلاثة: رجلٌ تعلّمه فيقبل منك، ورجل
تتعلم منه، واهرب من الثالث.

وقد كان الثوري يقول: أقلّ من معرفة الناس.

وقال إبراهيم بن أدهم: لا تتعرّف إلى من لا تعرف، وأنكر مَنْ تعرّف!

إنني نظرتُ إلى الزمنا	ن وأهليه نظراً كفاني
فعرفتُهُ وعرفتُهُم	وعرفت عِزِّي مِنْ هَوَانِي
فحملت نفسي بالقننا	عة عنهم وعن الزمانِ
وتركتها بعفافها	والزهدي في أعلى مكانِ
فلذاك أجنب الصديد	ق فلا أراه ولا يراني
فتعجّبوا لمعالتِ	وهب الأقاصي والأداني
وانسلّ من بين الزحّا	م فماله في الخلق ثاني

وفصل الخطاب في هذا: أن الناس على ضربين: عالم وعابد. فالعالم لا ينبغي له أن يتقطع عن نفع الناس، فإنه خلف الأنبياء، وليعلم أن هداية الخلق أفضل من كل عبادة.

وفي الصحيحين أن النبي ﷺ قال لعلي عليه السلام: «والله لأن يهدي الله بك رجلاً واحداً خير لك من حُمُر النَّعَم». فمتى ما جاء الشيطان فحسن للعالم الانقطاع عن الخلق في الجملة، فذاك خديعة منه، ولقد حسن لكثير من السلف دَفَنَ كتبهم ومَحَوْ علمهم، وهذا من الخطأ العجيب، بل ينبغي للعالم أن يعتزل عن شرٍّ ما يؤذي، ويبرز لمن يستفيد، فظهوره أفضل من إخفائه.

فأما إن كان عابداً فالعابد لا ينافس في هذا، فإن من القوم من شغلته العبادة، كما روي أن الحسن رأى رجلاً متعبداً فأتاه فقال: يا عبد الله ما يمنعك من مجالسة الناس؟ قال: ما أشغلي عن الناس. قال: فما منعك أن تأتي الحسن؟ فقال: ما أشغلي عن الحسن. قال: فما الذي شغلك عن الحسن؟ قال: إني أمسي وأصبح بين ذنب ونعمة، فرأيت أن أشغل نفسي بالاستغفار للذنب، والشكر لله تعالى على النعمة. فقال له: أنت عندي أفقه من الحسن!

وقال رجل لعامر بن عبد قيس: قِفْ فكلِّمْنِي. فقال: أمسِكِ الشمس!

ومن القوم من استغرقتهم محبة الله تعالى والأنس به فاستوحش من الخلق. قيل لغزوان الزاهد: لو جالست إخوانك؟ فقال: إني أصيب راحة قلبي في مجالسة من عنده حاجتي.

تعبني راحتني وأنسي انفرادي وشفائي الضنا ونومي سهادي
لست أشكو بَعَادَ من صدَّ عني أيُّ بُعدٍ وقد تَوَى في فؤادي
هو يَحْتَال بين قلبي وعيني هو ذاك الذي يُرَى في السَّوادِ

فهؤلاء عزلتهم أصلح لهم، بل لا ينبغي أن تشغلهم العزلة عن الجماعات ومجالسة العلماء، فإن فعلوا كان ذلك من الشيطان. وإنما نأمر العوامَّ باعتزال الشر، فحسب فإنه الجهادُ في حقهم.

واعلم ان السمع يوصل إلى القلب خبرَ المسموعات، والبصرُ خبرَ المنظورات، ورب نظرةٍ نقشت في القلب صورةً فَبَعُدَ مَحْوُهَا، فإن الإنسان ليمشي في الأسواق فيتغيّر قلبه، والعزلة توجب السلامة من ذلك؛ وقد كان في الصالحين من إذا خرج للسوق فكسب ما يكفيه قام إلى المسجد.

فالبَدَارَ البَدَارَ إلى حفظ القلوب بالعزلة عن كل ما يؤذي.

الكلام على البسمة

ما عُذِرُ من جَرِّ عاصيَا رَسْتَه ما عُذِرَه بعدَ أربعين سَنَه
أكلما طالت الحياةُ به أطال عن أخذ حِذْرَه وَسَنَه
قل لي إذا متَّ كيف تنقص من سيئة أو تزيد في حَسَنَه

يا مريضاً ما يعرف أوجاعه، يا مضيع العمر بالساعة والساعة، يا كثير الغفلة وقد دنت الساعة، يا ناسياً ذِكرَ النارِ إنها لنزاعة، كأنه وملك الموت قد أزعجه وأراعه، وصاح بالنفس صيحة فقلت: سمعاً وطاعة، ونهضت تعرضُ كاسد التوبة، وهيهات غلق الباعة يا سيء النظر لنفسه في وجه شمس، فهَمَّكَ غَيْمٌ، بين دائك ودوائك حِجاب، لو أهَمَّتْكَ نفسك سَعيتَ لها في الخلاص، لو رضيت بالبلغة ما استرهن قلبك كسب الحطام، لو قنعت كلاب الصيد بالمنبوذ ما كانت السَّواجير في حُلوقها.

طَلَبْتُكَ يا دُنْيَا فأعددت في الطلبِ فما نِلْتُ إلا الهَمَّ والغَمَّ والنَّصَبَ
فلما بدَا لي أنني لست واصلاً إلى لذة إلا بأضعافها تَعَبَ
وأسرعت في ذنبي ولم أقضِ شهوتي هربت بديني منك إن نفع الهربِ
تَسرَّبتُ أخلاقي قُنوعاً وعِفَّةً فعندي بأخلاقي كنوزٌ من الذهبِ
ولم أرَ حَظًّا كالقُنوع لأهله وأن يُجَمِّلَ الإنسانُ ما عاش في الطَلَبِ

يا من قد مال بالآمال إلى جمع المال، كأنك به إلى غيرك قد مال، واعجباً بالحرص تجمعونه، وبالأمل تحفظونه، وبالغفلة تأكلونه، وفي الهوى تصرفونه،

المال نعمة فمن أنفق بعضه في الخير أقام للباقي حارساً، إذا سمعت النعمة نعمة الشكر ألبت، ولبت بالمزيد، وإذا لم تشكر، وقد وفرت نفرت، وما كل شاردٍ بمرود، واعجابه ممن فرح بلذة يعلم سرعة زوالها، وأعجب من ذلك الحساب عليها.

أشد الغم عني في سرور تيقن عنه صاحبُه زوالاً
 أين من لبس الحرير والقز، وحرّك الجواد تحته وهزّ، وتعاطم على أبناء جنسه وعزّ، وقهر وغلب وسلّب وبزّ، ذبحه سيفُ المنون وما قطع ولا حزّ، فتسلّب الحبيبُ بعد فراقه وجزّ، وأكله الدود، وقد كان يستزري الأوز، بينا هو قد ركض في أغراضه وكرّ خرّ فليل: كيف بات؟ قيل: مرّ. فألبسه الغاسل ثوباً لا كفه ولا زرّ، فرحل عن داره التي بها اغتر، واستعمل الحفّار لتمهيد لحدّه المرّ، واستلبه جذباً عنيماً وجرّ، ورجع أهله لا يقدرّون له على نفع ولا ضرر، وندم حين سكن البرّ إذ ما اتقى ولا برّ، وطولب بما أعلن من عمل وأسرّ، ووجد الله، وقد أحصى عليه الدرّ، وبقي مكانه أسيراً لا يرى إلا الشر.

هذي منازلهم وقد رحلوا	وعلى الكراهة غيرها نزلوا
رحلوا وأبقوها لغيرهم	إن المنازل والغنى دُول
شادوا مبانيها وما سكنوا	إلا نزول الضيف وانتقلوا
وتفرقت عنهم أقاربهم	وجنودهم وخلّوا بما عملوا
يا أمل الدنيا وقد عصفت	بالناس قبلك خانك الأمل
أتروم جهلاً أن تقيم بها	ووراءك الأيام والأجل

يا هذا إذا أسلمك الأتراب، تسلّمك التراب، كيف يفرح بحياته من يعلم أنها مطية ممانته، يا من هجم الشيطان عليه، وهو في بادية المخالفة، فسباه فباء: فاشتره الهوى بثمان بخس، تالله لو كنت في حصن التقى ما قدر عليك، إلى كم يستخدمك اهوى وأنت حرّ طال تشبّهك في التشبّط بزحل، فانهض بركة عطارده في الهرب مما يؤذي.

تَعَرَّضَ لِجِيَادِ الْمُجَاهِدِينَ ، لَعَلَّ بَعْضَهُمْ يَسْتَصْحَبُكَ .

أَمَا بَلْفَكَ لُطْفٌ : هَلْ مِنْ سَائِلٍ ؟ أَمَا سَمِعْتَ عَفْوٌ : هَلْ مِنْ تَائِبٍ ؟ .

☆ وَتَذَنِّبُونَ فَنَاتِيكُمْ فَنُعْتَذِرُ ☆

لا تَيْأَسْ فَبَابِ الرَّجَاءِ مَفْتُوحٌ ، لَا تُلْقُ بِيَدِكَ فَعَلَمَ الْقَبُولِ يُلُوحُ :

عَسَى وَعَسَى مِنْ بَعْدِ طُولِ التَّفَرُّقِ عَلَى كُلِّ مَا نَرْجُو مِنَ الْعَيْشِ نَلْتَقِي
وَلَوْ ظَفِرَتْ عَيْنِي بِرُؤْيَاكَ سَاعَةً لَكُنْتُ عَلَى عَيْنِي مِنَ الْعَيْنِ أَتْقِي

إِخْوَانِي : لَيْسَ كُلُّ مَنْ قَالَ : أَنَا تَائِبٌ كَانَ تَائِبًا ، إِنَّمَا التَّائِبُ مَنْ صَبَرَ عَلَى
فَقْدِ الْأَغْرَاضِ صَبْرَ السَّحْرَةِ عَلَى الصَّلْبِ ، وَاعْتَذَرَ مِنْ جُنَايَاتِهِ اعْتِذَارَ النَّابِغَةِ إِلَى
النِّعْمَانِ ، وَخَضَعَ خَضُوعَ الْجَرَبِ لِلطَّلَاطِي ، وَتَضَرَّعَ تَضَرَّعَ الصَّبِيِّ إِلَى الْمُؤَدَّبِ .

لَا تَتَأَنَّ وَإِنْ طُرِدْتَ ، وَلَا تَبْرَحْ وَإِنْ زُجِرْتَ : -

إِذَا هَجَرُوا عِزًّا وَصَلْنَا تَذَلًّا وَإِنْ بَعَدُوا يَأْسًا قَرُبْنَا تَعَلًّا
وَإِنْ أَغْلَقُوا بِالْهَجْرِ أَبْوَابَ وَصْلِهِمْ وَقَالُوا ابْعُدُوا عَنَا طَلَبْنَا التَّوَصُّلًا
وَإِنْ مَنَعُونَا أَنْ نَجُوزَ بِأَرْضِهِمْ وَلَمْ يَسْمَعُوا الشُّكُورَى وَرَدُّوا التَّوَسُّلًا
أَشْرْنَا بِتَسْلِيمٍ وَإِنْ بَعُدَ الْمَدَى إِلَيْهِمْ وَكَلَّفْنَا الرِّيَاحَ لِتَحْمِيلًا

الكلام على قوله تعالى :

﴿ تَتَجَافَى جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ ﴾ (١)

تتجافى : أي ترتفع . والآية في قُوَامِ اللَّيْلِ .

أخبرنا هبة الله بن محمد بسنده ، عن معاذ بن جبل ، عن النبي ﷺ : ﴿ تتجافى
جنوبهم عن المضاجع ﴾ قال : قيام العبد من الليل .

قال أحمد : وحدثنا علي بن عبد الله بسنده ، عن أبي سعيد الخدري قال : قال

(١) السجدة ١٦ .

رسول الله ﷺ: « ثلاثة يضحك الله إليهم: رجل يقوم من الليل، والقوم قد صفوا للصلاة، والقوم إذا صفوا للقتال ».

قال أحمد: وحدثنا رَوْحٌ وعفان، قال: أنبأنا حاد بن سلمة، قال: أخبرنا عطاء بن السائب، عن مَرَّةَ عن ابن مسعود، عن النبي ﷺ أنه قال « عَجِبَ رَبُّنا من رجلين: رجلٌ ثار عن وِطائِهِ ولحافِهِ من بين حِجَّتِهِ وأهلِهِ إلى صلاتِهِ، فيقول ربُّنا: يا ملائكتي انظروا إلى عبدي ثار من فراشِهِ ولحافِهِ من بين حِجَّتِهِ وأهلِهِ إلى صلاتِهِ، رغبةً فيما عندي، وشفقةً مما عندي. ورجلٌ غزا في سبيلِ الله عز وجل فانهزم، فعلم ما عليه في الفرار، وما لَه في الرجوع، فرجع حتى أُهريقَ دَمُهُ، فيقول الله عز وجل: انظروا إلى عبدي رجع رغبةً فيما عندي، ورهبةً مما عندي حتى أُهريقَ دمه ».

وروى أبو أمامة رضي الله عنه، عن النبي ﷺ أنه قال: « عليكم بقيام الليل، فإن ذأب الصالحين قبلكم، وهو قُرْبَةٌ إلى ربكم، ومغفرةٌ للسيئات، ومَنْهَةٌ عن الإثم ».

وقال الحسن البصري: لم أجد من العبادة شيئاً أشدَّ من الصلاة في جوف هذا الليل.

وقال أنس بن مالك رضي الله عنه: فينا نزلت معاشرَ الأنصار: ﴿ تتجافى جنوبهم عن المضاجع ﴾^(١) كنا نصلي المغرب، فلا نرجع إلى رحالنا حتى نصلي العشاء مع النبي ﷺ.

واعلم ان السلف كانوا في قيام الليل على سبع طبقات.

الطبقة الأولى: كانوا يُحْيُونَ كَلَّ الليل، وفيهم من كان يصلي الصبح بوضوء العشاء. وكان ابن عمر يحبي الليل. ومن القوم سعيد بن المسيَّب وصفوان

(١) السجدة ١٦

بن سليم المدتيان، وفُضَيْل بن عِيَّاض، ووهيب ابن الورد المكيان، وطاووس ووهب ابن منبّه اليمنيان، والربيع بن خثيم والحكم الكوفيان، وأبو سليمان الداراني وعلي بن بكّار الشاميان، وأبو عبيد الله الخواص، وأبو عاصم البغداديان، ومنصور بن زاذان وهشيم الواسطيان، وحبيب أبو محمد، وأبو جابر السلماني الفارسيان، ومالك بن دينار، وسليمان التيمي، ويزيد الرقاشي، وحبيب بن أبي ثابت، ويحيى البكاء البصريون.

الطبقة الثانية: كانوا يقومون شَطْرَ الليل، منهم عبد الله بن عباس. قال ابن أبي مُلَيْكَةَ: صحبته وكان يقوم شَطْرَ الليل يُكثِرُ في ذلك والله التسبيح.

الطبقة الثالثة: كانوا يقومون ثلث الليل. وفي الصحيحين من حديث عبد الله بن عمر عن النبي ﷺ انه قال: «أحبُّ الصلاة إلى الله عز وجل صلاة داود، كان ينام نصف الليل، ويقوم ثلثه، وينام سدسه».

وفي حديث عمرو بن عَبَّسَةَ، عن النبي ﷺ أنه قال: «أقرب ما يكون الرب من العبد في جوف الليل الآخر، فإن استطعت أن تكون ممن يذكر الله عز وجل في تلك الساعة فكن».

وروي أن داود عليه السلام قال: يا رب أيّ ساعة أقوم لك؟ فأوحى الله عز وجل إليه: لا تقم أول الليل ولا آخره، ولكن قم في وسط الليل، حتى تخلو بي، وأخلو بك وارفع إليّ حوائجك.

وسأل داود عليه السلام جبريل عليه السلام: أيّ الليل أفضل فقال: ما أدري، إلا أن العرش يهتزّ في السحر.

الطبقة الرابعة: كانوا يقومون سُدُسَ الليل، أو خُمُسَهُ.

الطبقة الخامسة: كانوا لا يراعون التقدير، وإنما كان أحدهم يقوم إلى أن يغلبه النوم، فينام، فإذا انتبه قام. قال سفیان الثَّوْرِي: إنما هي أول نومة، فإذا انتبهت فلا أقبلها.

الطبقة السادسة: قوم كانوا يصلُّون من الليل أربع ركعات أو ركعتين. وقد روينا عن النبي ﷺ أنه قال: « صلُّوا من الليل ولو أربعاً صلُّوا، ولو ركعتين ». وفي حديث أبي هريرة رضي الله عنه، عن النبي ﷺ أنه قال: « من استيقظ في الليل، وأيقظ امرأته فصلِّيا جميعاً ركعتين، كُتِبَا من الذاكرين الله كثيراً والذاكرات ».

الطبقة السابعة: قوم يُحيون ما بين العشاءين، ويصلُّون في السحر، فيجمعون بين الطرفين.

وفي أفراد مسلم من حديث جابر رضي الله عنه، عن النبي ﷺ أنه قال: « إن في الليل لساعة لا يوافقها عبد مسلم، يسأل الله فيها خيراً إلا آتاه إياه وذلك كل ليلة ».

ومن أراد قيام الليل، فلا يكثر من الأكل والشرب، ولا يُتعب أعضائه في النهار بالكدِّ، ولا يعمل معصية، وليستعن بالقيولة.

وأما آداب الباطن: فأن يكون القلب سليماً للمسلمين، ولا بد له من خوفٍ مُقلق، أو شوقٍ مُزعج.

كان شدّاد بن أوّس إذا أوى إلى فراشه كأنه حَبَّة على مَقْلَى، ثم يقول: اللهم إن جهنم لا تدعني أنام، فيقوم إلى مُصَلَّاه.

وكان طاووس يفرش فراشه، ثم يضطجع، فيتقلّى كما تتقلّى الحبة على المقلّى، ثم يثب فيتطهر ويستقبل القبلة حتى الصباح ويقول: طير ذكر جهنم نوم العابدين!

وقالت بنت الربيع بن خثيم له: يا أبت مالي أرى الناس ينامون، ولا أراك تنام فقال: يا بنية إن أباك يخاف البيّات.

وقالت أم عمر بن المنكدر: يا بني أشتهي أن أراك نائماً. فقال: يا أماه والله إن الليل ليردُّ عليّ فيهُولني فينقضي عني، وما قضيتُ منه أربي.

وكان زَمْعَةُ العابد يقوم فيصليّ ليلاً طويلاً، فإذا كان السَّحَر نادى بأعلى صوته: يا أيها الرِّكْبُ المرسون، أَكُلْ هذا الليل تَرَقِدون، ألا تقومون فترحلون!!

فيسمع من ها هنا باكٍ، ومن ها هنا داعٍ، ومن ههنا متوضيٍّ؟ فإذا طلع الفجر نادى بأعلى صوته يقول: عِنْد الصبّاح يَحْمَدُ القومُ السُّرَى .

أخبرنا أبو بكر بن حبيب، بسنده عن أحمد بن أبي الحواري. قال: دخلت على أبي سليمان، وهو يبكي فقلت له: ما يبكيك؟ فقال لي: يا أحمد، ولم لا أبكي، وإذا جَنَّ الليلُ ونامت العيون وخلا كلُّ حبيبٍ بحبيبه، وافترش أهلُ المحبة أقدامهم، وجرت دموعهم على خدودهم، وقطرت في محاريبهم، أشرف الجليل سبحانه وتعالى فنادى جبريلَ، بَعِينِي من تلذذٍ بكلامي، فلم لا تنادي فيهم: ما هذا البكاء؟ هل رأيتم حبيباً يعذبُ أحبّابه؟! أم كيف يَجْمَلُ بي أن أعذب قوماً إذا جَنَّهم الليلُ تملّقوني؟ فيبي حلفتُ إذا وردوا عليّ في القيامة لأكشِفَن لهم عن وجهي الكريم، حتى ينظروا إليّ وأنظر إليهم.

وقال أحمد بن أبي الحواري أيضاً: سمعت أبا سليمان يقول: بينا أنا ساجد ذهب بي النوم، فإذا أنا بجوّراء قد ركضتني برجلها، وقالت: حبيبي أترقد والمَلِكُ يَقْظان ينظر في المتهجّدين في تهجدهم! بؤساً لعينٍ آثرت لذة نومٍ على لذة مناجاة العزيز، قم فقد دنا الفراغُ، ولقي المحبّون بعضهم بعضاً، فما هذا الرقاد، حبيبي وقرّة عيني؟ أترقد عينك وأنا أرتبي لك في الخدور؟ فوثبتُ فزعاً، وقد عرقتُ استحياء من توبيخها إياي، وإنّ حلاوة منطقتها لفي سمعي وقلبي.

وكان أبو بكر رضي الله عنه لِقِصَرَ أمّله، يوتر أولَ الليل وعمر لتأميل الخِدْمَةِ يؤخره إلى آخر الليل. وعثمان يتهجّد في آناء الليل. وعليّ يستغفر في أواخر الليل.

قام القومُ على أقدام ﴿قُمَ الليلَ﴾ فبان في القوم سرٌّ ﴿وتقلّبك في

الساجدين ﴿١﴾ لولا قيام تلك الأقدام ما كان يؤدَّى حق «هل من سائل» يا غافلين عما نالوا، لقد ملّتم عن التقى، وما مالوا، قاموا في غفلات الراقدين، فقبولوا بجزاء لم يطلع عليه غير غيرة لهم.

ما أطيب أملهم في المناجاة، ما أقربهم من طريق النجاة، ما أقل ما تعبوا، وما أيسر ما نصبوا، وما كان إلا القليل ثم نالوا ما طلبوا، لو ذاق الغافل شراب أنسهم في الظلام، أو سمع الجاهل صوت حنينهم في القيام، وقد نصبوا لِمَا انتصبوا له الأقدام، وترنّموا بأشرف الذكر، وأحلى الكلام، وضربوا على شواطئ أنهار الصدق الخيام، وركزوا على باب اليقين بالحق الأعلام، وزمّوا مطايا الشوق إلى دار السلام، وسارت جنود حبهم والناس في الغفلة نيام، وشكّوا في الأسحار ما يلقون من وقع الغرام، ووجدوا من لذة الليل، ما لا يحظر على الأوهام، وإذا أسفر النهار تلقّوه بالصيام، وصابروا الهواجر بهجر الشراب، وترك الطعام، وتدرّعوا دروع التقى خوفاً من الزلزل والآثام، فنورهم يُخجل شمس الضحى، ويؤزري بدر التمام، فلاجلهم تُنبت الأرض ومن جرّاهم يجري الغمام، وبهم يُسامح الخطّاءون، ويصفح عن أهل الإجمام، فإذا نازهم الموت طاب لهم كأس الحِمَام، وإذا دفنوا في الأرض فخرت بحفظها تلك العظام، فعلى الدنيا إذا ماتوا من بعدهم السلام.

عن لذيذ المضاجع	تتجافى جنسهم
مُستجيري وطامع	كلهم بين خائف
للعيون الهواجع	تركوا لذة الكرى
طالعا بعد طالع	ورعوا أنجم الدجى
بانصباب المدامع	واستهلت دموعهم
لم تقع في المسامع	فأجيبوا إجابة
أو ليائي بضائع	ليس ما تصنعونه

(١) الشعراء ٢١٩.

تأجروني بطاعتي ترهبوا في البضائع
وابذلوا لي نفوسكم إنها في ودائعهم

لو رأيت رياح الأسحار تحرك أشجار القلوب، فتقع ثمار المحبة!

يا لذة خلوتهم بالحبي، يا وفور نصيهم من ذلك النصيب.

هبت رياح وصالهم سحرا لحدائق الأشواق في قلبي
واهتز عود الوصل من طرب وتساقطت ثمرة من الحب
ومضت خيول الهجر سادرة مطرودة بعساكر القرب
وبدت شمس الوصل خارقة بشعاعها لسرادق الحجب
وصفا لنا وقت أضاء به وجه الرضا عن ظلمة العتب
وبقيت ما شيء شاهده إلا ظننت بأنه حبي

السجع على قوله تعالى:

﴿ تتجافى جنوبهم عن المضاجع ﴾ (١)

لو رأيتهم بين ساجد وراكع، وذليل مخمول متواضع، ومنكسر الطرف من الخوف خاشع، فإذا جن الليل حن الجازع ﴿ تتجافى جنوبهم عن المضاجع ﴾.

نفوسهم بالمحبة علقبت، وقلوبهم بالأشواق فلققت، وأبدانهم للخدمة خلقت، يقومون إذا انطبقت أجفان الهاجع: ﴿ تتجافى جنوبهم عن المضاجع ﴾.

يبادرون بالعمل الأجل، ويمجتهدون في سد الخلل، ويعتذرون من ماضي الزلل، والدمع لهم شافع ﴿ تتجافى جنوبهم عن المضاجع ﴾.

سبق والله القوم، بكثرة الصلاة والصوم، فإذا أقبل الليل حاربوا النوم والعزم في الطوالع ﴿ تتجافى جنوبهم عن المضاجع ﴾.

(١) السجدة ١٦.

ينادي منادي تائبهم: لا أعود، والمنعم ينعم بالقبول ويجود، هم والله من الكون المقصود، فما حيلة المطرود والمعطي مانع ﴿تتجافى جنوبهم عن المضاجع﴾ .

كن يا هذا رفيقهم، ولُحْ وإن شقَّ مَضيقهم، واسلك ولو يوماً طريقهم، فالطريق واسع ﴿تتجافى جنوبهم عن المضاجع﴾ .

اهجر بالنهار طيبَ الطعام، ودَعْ في الدَجَى لذيذَ المنام، وقل لأغراض النفس: سلام، والله يدعو إلى دار السلام، فما يُقعد السامع ﴿تتجافى جنوبهم عن المضاجع﴾ .

يا من يرجو مقام الصالحين، وهو مقيم مع الغافلين، ويأمل منازل المقربين، وهو ينزل مع المذنبين، دَعْ هذا الواقع. الصدق الصدق فيه تَسْلَم، الجِدَّ الجِدَّ فيه تَعَنَّم، البِدَار البِدَار، قبل أن تَنَدَم، هذا هو الدواء النافع ﴿تتجافى جنوبهم عن المضاجع﴾ والله أعلم.

المجلس التاسع في ذكر الأمر بالمعروف

الحمد لله مدبّر الليالي والأيام، ومصرّف الشهور والأعوام، المنفرد بالكمال والتمام، الملك القدوس السلام، تنزه جلاله عن درك الأفهام، وتعالى كماله عن إحاطة الأوهام، ليس بجسم، فيشبه الأجسام، ولا بمتجوّف، فيحتاج للشراب والطعام، ارتدى برداء الكبرياء والإعظام، وأبصر ما في بواطن العروق، ودواخل العظام، وسمع أخفى القول وألطف الكلام، لا يعزب عن سمعه صريف الأقدام، ولا يخفى على بصره دبيب النمل تحت سُجف الظلام، إله رحيم عظيم الإنعام، وربّ قدير شديد الانتقام، قدر الأمور فأحسن إحكام الأحكام، ومصرّف الحُكم في فنون النُقْض والإبرام، بقدرته هبوبُ الريح وتسيير الغمام، ﴿ومن آياته الجوار في البحر كالأعلام﴾^(١).

أحمد حمداً يبقى على الدوام، وأقرّ بوحدانيته كافرأ بالأصنام. وأصلي على رسوله محمد شفيح الأنام، وعلى صاحبه أبي بكر أول سابق إلى الإسلام، وعلى عمر الذي كان إذا رآه الشيطان هام، وعلى عثمان الذي أنهض جيش العسرة بنفقتة وأقام، وعلى عليّ البحر العُطّامط، والأسد الضرغام، وعلى عمه العباس أبي الخلفاء الأعلام.

اعلموا أن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر أصل الدين، فإنه شغل الأنبياء، وقد خَلَفهم فيه خلفاؤهم، ولولاه شاع الجهل وبَطُلَ العِلْم.

(١) الشورى ٣٣.

أخبرنا محمد بن عبد الباقي البزار بسنده، عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «لتأمرن بالمعروف ولتنهون عن المنكر، أو ليسلطن الله شيراركم على خياركم، فيدعوا خياركم فلا يستجاب لهم».

أخبرنا علي بن عبد الله بسنده عن جرير، عن رسول الله ﷺ قال: «ما من قوم فيهم رجل يعمل بالمعاصي، وهم أعز منه وأمنع لا يغيرون إلا أصحابهم الله بعقاب».

واعلم أنه قد اضمحلّ في هذا الزمان الأمر بالمعروف حتى صار المعروف منكراً، والمنكر معروفاً، وهذا زمن قوله عليه الصلاة والسلام: «بدأ الإسلام غريباً، وسيعود كما بدأ».

وقد ضرب رسول الله ﷺ مثلاً للمُنكر والساكت عن الإنكار.

أخبرنا ابن الحصين بسنده إلى عامر قال: سمعت النعمان بن بشير يخطب - وأوماً بإصبعه إلى أذنيه - : سمعتُ رسولَ الله ﷺ يقول: «إن مثل القائم على حدود الله، والواقع فيها، والمداهن فيها مثل قوم ركبوا سفينة، فأصاب بعضهم أسفلها وأوعرها وشرها، وأصاب بعضهم أعلاها، فكان الذين في أسفلها إذا استقوا الماء مروا على من فوقهم فأذوهم، فقالوا: لو خرقتنا في نصيبنا خرقتنا، واستقينا منه، ولم نُؤذ من فوقنا، فإن تركوهم وأمرهم هلكوا جميعاً، وإن أخذوا على أيديهم نجواً جميعاً».

أخرجاه في الصحيحين.

واعلم أن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر واجب على الخلق.

وفي أفراد مسلم من حديث أبي سعيد، عن النبي ﷺ أنه قال: «من رأى منكم منكراً، فاستطاع أن يغيّر بيده فليفعل، فإن لم يستطع بيده فبلسانه، فإن لم يستطع فبقلبه، وذلك أضعف الإيمان».

وفي حديث أبي سعيد أيضاً، عن النبي ﷺ أنه سئل: ما أفضل الجهاد؟ فقال: «كلمة عدل عند سلطان جائر».

وقال الشافعي رحمه الله: أشد الأعمال ثلاثة: الجود من قلة، والورع في خلوة وكلمة حق عند من يُرجى ويخاف.

وفي حديث عبد الله بن عمر عن النبي ﷺ أنه قال: «إذا رأيت أمتي تهاب الظالم أن تقول له: أنت ظالم، فقد تودّع منهم».

وفي حديث ابن مسعود عن النبي ﷺ أنه قال: «إن من كان قبلكم كانوا إذا عمل العامل منهم بالخطيئة نهاه الناهي تعذيراً، فإذا كان الغد جالسه وواكله وشاربه، كأنه لم يره على خطيئته بالأمس، فلما رأى الله عز وجل ذلك منهم ضرب بقلوب بعضهم على بعض، ثم لعنهم على لسان داود وعيسى بن مريم، والذي نفسي بيده لتأمرن بالمعروف، ولتنهون عن المنكر، ولتأخذن على يد السفية فلتأطرنه على الحق أطراً، أو ليضربن الله بقلوب بعضكم على بعض، ثم يلعنكم كما لعنهم».

وفي حديث أبي بكر الصديق رضي الله عنه، عن النبي ﷺ أنه قال: «إن الناس إذا رأوا المنكر، فلم يغيروه، أوشك أن يعمهم الله عز وجل بعقابه».

وفي حديث أبي هريرة رضي الله عنه، عن النبي ﷺ أنه قال: لتأمرن بالمعروف ولتنهون عن المنكر، أو ليسلطن الله شراركم على خياركم، فيدعو خياركم، فلا يستجاب لهم».

قال مالك بن دينار: قرأت في التوراة: من كان له جار يعمل بالمعاصي، فلم ينهه فهو شريكه.

وقال مسعر: أمر ملك أن يخسف بقرية فقال: يا رب فيها فلان العابد. فأوحى الله تعالى إليه: أن به فابداً، فإنه لم يتمر وجهه في ساعة قط.

وينبغي للأمر بالمعروف أن يلطف، فقد قال الله تعالى: ﴿فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لِيْنَا﴾ (١).

(١) طه ٤٤.

ومر أبو الدرداء برجل قد أصاب ذنباً، وكانوا يسبونه فقال لهم: رأيتم لو وجدتموه في قليب ألم تكونوا مُستخرجيه؟ قالوا: بلى. قال: فلا تسبوا أحاكم، واحدوا الله الذي عافاكم. قالوا: أفلا تُبغضه؟ قال: إنما أبغض عمله، فإذا تركه فهو أخي.

ورأى محمد بن المنكدر رجلاً يكلم امرأة في موضع خرب فقال: إن الله تعالى يراكم، سترنا الله وإياكم.

أخبرنا ابن ناصر بسنده عن ثابت البناني قال: كان صلة بن أشيم يخرج إلى الجبان فيتعبد فيها، وكان يمر على شباب يلهون ويلعبون فيقول لهم: أخبروني عن قوم أرادوا سفراً فحادوا بالنهار عن الطريق، وناموا بالليل، متى يقطعون سفرهم؟ فكان كذلك يمر بهم فيعظهم، فمر بهم ذات يوم، فقال لهم ذات يوم هذه المقالة، فقال شاب منهم: يا قوم إنه والله ما يعنى بهذا غيرنا، نحن بالنهار نلهو، وبالليل تنام، ثم أتبع صلة، فلم يزل يختلف معه إلى الجبان، ويتعبد معه حتى مات.

ومرّ بصلة بين أشيم فتى يجرد ثوبه فهم أصحاب صلة أن يأخذوه بألستهم أخذاً شديداً فقال صلة: دعوني أكفكم أمره. ثم قال له: يا بن أخي إن لي إليك حاجة. قال: وما هي؟ قال: أحب أن ترفع إزارك. قال: نعم ونعمي عين! فرفع إزاره.

فقال صلة لأصحابه: هذا أمثل مما أردتم، لو شتمتموه وآذيتموه لشمتمكم.

وقال سليمان التيمي: ما أغضبت أحداً فقيل منك.

وقال فتح بن شخرف: تعلق رجل بامرأة ومعه سكين لا يدنو منه أحد إلا عقره، وكان شديد البدن، فبينما الناس كذلك والمرأة تصيح مرّ بشر بن الحارث، فدنا منه وحك كتفه بكتف الرجل، فوقع الرجل إلى الأرض، ومرت المرأة ومر بشر، فدنوا من الرجل وهو يرشح عرقاً فسألوه: ما حالك؟ فقال: ما أدري، ولكن حاكني شيخ وقال: إن الله عز وجل ناظر إليك، وإلى ما تعمل. فضغفت

لقوله وهبته هيبَةً شديدة لا أدري مَنْ ذلك الرجل . فقالوا له : ذاك بشر بن الحارث . فقال : واسوأُتاه كيف ينظر إليّ بعد اليوم ! وحُمّ من يومه ذاك . ومات يوم السابع .

وينبغي للآمر بالمعروف أن يحذّر مِنْ فعلٍ ما نهي عنه ، وترك ما أمر به .

فقد أخبرنا عبد الأول بسنده عن أمانة قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « يُجاء بالرجل يوم القيامة ، فيلقى في النار ، فتندلق أقتابُ بطنه في النار ، فيدور كما يدور الحمار برحاه ، فيجتمع أهلُ النار عليه فيقولون : أي فلان ما شأنك ، أليس كنت تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر ؟ قال : كنت آمرم بالمعروف ، ولا آتية وأنهاكم عن المنكر وآتية . »

أخرجاه في الصحيحين .

واعلم انه إذا هدّب الأمر نفسه ، أثر قوله ، إما في زوال المنكر ، أو في انكسار المذنب ، أو إلقاء الهيبة له في القلوب .

خرج إبراهيم الخوَّاص لإنكار منكر ، فنجح عليه كلب ، فما قدر على الوصول إلى مكان المنكر ، فرجع إلى مسجده وتفكّر ساعة ، ثم قام فجعل الكلب يتبصّبص حوله ولا يؤذيه حتى أزال المنكر ، فسئل عما جرى له فقال : إنما نجح عليّ لفسادٍ دخل عليّ في عقْد بني وبين الله عز وجل فلما رجعت ذكرته فاستغفرت .

الكلام على البسمة

يَسَّرْ بَصْفُو عِشْتَه الْجَهْوُلُ	وَتُعْجِبَه الْإِقَامَةُ وَالْحَلُولُ
وَدُونُ مَقَامِه حَادٍ حَيْثُ	عَنِيْفُ السَّوْقِ وَالْمَوْتُ السَّبِيلُ
سَبِيلُ مَا تَوَجَّه فِيهِ سَقْرُ	فَكَانَ لَهُمْ إِلَى الدُّنْيَا قُفُولُ
طَرِيقِي يَسْتَوِي لِلْمَخْلُقِ فِيهِ	مَسَالِكُهُمْ وَيَخْتَلِفُ الْمَقِيلُ
تَغْرُهُمْ زَخَارِفُ دَارِ دُنْيَا	غَوَائِلُهَا بِجَمْعِهِمْ تَعْوَلُ

تطوف عليهم بكؤوس لَهْوٍ وَمَزْجُ كؤوسها الداءُ الدخيلُ
وتَصْقِلُ وجهها لهم خِداًعاً وتحت صقالها السيفُ الصَّيْلُ

يا هذا قد صانك بالحلال، فلا تبتذل، وبالقناعة فلا تذلل، وطهرك من
الأدناس فلا تتوسخ، ودعاك إلى الأرباح فلا تتوقف، ويحك إذا خدمت الدنيا
رأت نفسها فتدلتت، وإذا أعرضت عنها عرفت قدرها فتدلتت، « اخذمي من
خدمتي واستخذي من خدمتك ». يا جامع الدنيا لغيره جمعاً يعوقه عن سيره .

ماذا تؤمِّل لا أبالك في مال تموت وأنت تمسكه
أنفِيق فإنَّ الله يُخلفه لا تَمْضِ مذموماً وتتركه
ما لم يكن لك فيه قطَّ منفعةٍ مما جمعتَ فلست تملكه

يا هذا : إنما فضل العاقل لنظره في العواقب، فأما من لا يرى إلا الحاضر
فطفل :

تَصنّفوا الحياةَ لجاهلٍ أو غافلٍ عما مضى منها وما يُتوقَّعُ
ولن يغالط في الحقيقة نفسه ويسومها طمعَ المُحال فتتبعُ

قد أعدَّ لك كأساً لا يشبه الكؤوس، موت يسلب الأرواح ويختلس
النفوس، ورحلة لا تدري بالسعود، أو بالنحوس، إلى الحدِّ ضيق وعَر ما مهَّدته
الفؤوس، تُحطُّ فيه ذليلاً وأنت مَحسوب منكوس، لا يُشبه المطامير، ولا
يُجانس الحُبوس، المدر فيه فراشُ والتراب فيه لبوس، أترى يكون لك روضةٌ
أو يشبه الناموس، كم مِحنةٍ يلقى ذلك الملقى المرموس، رفقا إذا وطئت الأحداث،
فالأجدات تدوس، ثم يُنْفَخ في الصور فتطير إلى الأكف الطُروس، وتُجَنَّى ثمار
الجزء يومئذ من قديم الغُروس، وتشتد الشدائد في قَمطيرِ عبُوس، وتذل العتاةُ
الجبابرة المتغطرسون الشُّوس، ويتساوى في الخضوع الأتباعُ والرءوس، وتُقَسَّم بين
الخلائق خِلعُ السُّعود، وملابس النُّحوس. واعجباً لجمود ذهنك، وأنت في
الإعراض تنُوس، كم بهُرج ورَمَل، وكم تُجلى عليك عروس، أهذا الذي تسمعه
كلامُ الخالق، أو صوت الناقوس، يا مؤثراً شهوةً لحظةً تجني له حربَ

البسوس، يا من قد غلب الأطباء دواؤه، أمرض أنت، أم ممسوس، تُعني بعلاجك «بقراط» وتحير «جالينوس» سبحان من خلق قلبك من حجارة، تعالى الملك القدوس، واعجباً لعقلك! العرض مبدول، والعرض محروس، جل همك من الدنيا وحظ الأخرى منك مبخوس، ثوبك جديد صحيح، ولكن القلب منكوس، وبلوغ الخمسين مُنذر، وفي الستين تضرَب الكؤوس، هذا قدر النصائح، أفاخذك بالدبوس.

أنت في دنياك ضيفُ والتواني منك حيفُ
 مرّ بالقرّ شتاءً وأتى بالحرّ صيفُ
 خاسرٌ مَنْ نَقَدَهُ حَيْـ من تقوم السوق زيفُ
 فاغتم أجراً وذكراً حسناً فالوقت سيفُ

صيح على فرس الجدّ، وقد فرس الغابة، مجالس الذكر فصول، وتعبئة المواعظ شربات، فاصبر على مرارة المركب، لعل الأخلاق تحسن.

واعجباً تفيق في المجلس، فتنطق بلفظ توبة، كما يفيق المجنون، فيتكلم بكلمة حكمة، فإذا عادت السوداء خلط!

أيفيق من مرض كئيب إذا جنّ الظلام عليه أتسا
 متى كان مرض الجسد عن أخلاط مجتمعة سهلت مداواته، ومتى كان مرض الجسد التغيير عن فساد في القلب، فيا قرب التلف، مداواة العشى ممكن، وأما مداواة الجنون فيتعدّر.

جعلت لعراف اليامة حكمه وعراف نجد إنهما شفياني
 فقالا: شفاك الله والله ما لنا بما ضمنت منك الضلوع يدان

حظ قلبك من هذا الكلام حظّ الصدى من سمعك، علتك علة طريفة يتحير في مثلها المداوي، تسرع في طلب الدنيا إسراع جواد، وأنت في طلب الآخرة جبان. إن لاح لك ذنب وثبت وثب فهُد، وإن حرّصت على طاعة

أخذك فالجُ ابن أبي دؤاد .

خُذَ الوَقْتَ أَخَذَ اللِّصُّ وَاسْرَفَهُ وَاخْتَلَسَ فَوَائِدُهُ قَبْلَ الْمَنَائِمِ الدَّوَائِبِ
وَلَا تَعَلَّلْ بِالْأَمَانِي فَإِنَّهَا عَطَايَا أَحَادِيثِ النُّفُوسِ الْكُوَاذِبِ
وَدُونَكَ وَرِدُّ الْعَمْرِ مَا دَامَ صَافِيًا فَخُذْ وَتَزَوَّدْ مِنْهُ قَبْلَ الشَّوَائِبِ

الكلام على قوله تعالى :

﴿ فَإِذَا نَفَخَ فِي الصُّورِ فَلَا أَنْسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا

يَتَسَاءَلُونَ ﴾ (١)

في هذه النفخة قولان : أحدهما : أنها الأولى ، والثاني : أنها الثانية . والقولان عن ابن عباس .

وأما الصُّورُ : فروى عبد الله بن عمرو بن العاص أنه سأل النبي ﷺ عن الصور فقال : « هو قرْنٌ ينفخ فيه » .

وقال مجاهد : الصور كهيئة البوق . وحكي ابن قتيبة أن الصور : القرْنُ في لغة قوم من أهل اليمن ، وأنشدوا :

نَحْنُ نَطْحُنَاهُمْ غَدَاةَ الْجَمْعَيْنِ
بِالصَّائِحَاتِ فِي غُبَارِ النَّقْعَيْنِ
نَطْحًا شَدِيدًا لَا كَنَطْحِ الصُّورَيْنِ

أخبرنا أبو منصور بن محمد بن عبد المالك ، بن خيرون بسنده ، عن أبي هريرة قال : حدثنا رسول الله ﷺ في طائفة من أصحابه فقال : إن الله تبارك وتعالى لما فرغ من خلق السموات والأرض خلق الصور ، فأعطاه إسرافيل ، فهو واضع على فيه شاخص ببصره إلى الأرض ينظر متى يؤمر . قلت : يا رسول الله وما الصُّور ؟ قال : القرْنُ . قال : قلت : فكيف هو ؟ قال : عظيم والذي بعثني

(١) المؤمنون ١٠١

بالحق، إن أعظم دارة فيه كعرض السماء والأرض، فينفخ ثلاث نفخات:

النفخة الأولى: نفخة الفزع. **والثانية:** نفخة الصعق. **والثالثة:** نفخة القيام

لرب العالمين عز وجل، فيأمر الله عز وجل إسرافيل بالنفخة الأولى فيقول: انفخ نفخة الفزع، فينفخ نفخة الفزع، فيفزع أهل السموات والأرض، إلا من شاء الله، فيأمره فيمدّها ويطيّلها فلا يفتّر، وهي التي يقول الله عز وجل: ﴿وما ينظر هؤلاء إلا صيحة واحدة ما لها من فواق﴾ (١) فيسير الله تعالى الجبال، فتمر مرّ السحاب فتكون سراباً فترتج الأرض بأهلها رجّاً، فتكون كالسفينة الموقرة في البحر تضربها الأمواج تكفأ بأهلها، أو كالقنديل المعلق بالعرض ترجه الأرياح، وهي التي يقول الله عز وجل: ﴿يوم ترجف الراجفة تتبعها الرادفة. قلوب يومئذ واجفة﴾ (٢). فتميد الأرض بالناس على ظهرها، فتذهل المراضع، وتضع الحوامل ويشيب الولدان، وتطير الشياطين هاربة من الفزع حتى تأتي الأقطار، فتلقاها الملائكة فتضرب وجوهها فترجع، ويولّي الناس مُدبرين ما لهم من الله من عاصم ينادي بعضهم بعضاً، وهو الذي يقول الله عز وجل ﴿يوم التناد﴾ (٣) فيبيناهم على ذلك تصدّعت الأرض فانصدعت من قطر إلى قطر، فرأوا أمراً عظيماً لم يروا مثله، وأخذهم من ذلك الكرب والهول ما الله به عليم، ثم نظروا إلى السماء، فإذا هي كالمهل، ثم انشقت فانتثرت نجومها وانخسفت شمسها وقمرها.

قال رسول الله ﷺ: والأموات يومئذ لا يعلمون بشيء من ذلك. قال أبو هريرة: يا رسول الله، فمن استثنى الله تعالى حين قال: ﴿فَفَزَعَ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ، إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ﴾ (٤)؟ قال: أولئك الشهداء وقاهم الله، فزع ذلك اليوم وأمنّهم منه، وهو عذاب يبعثه الله على شيرار خلقه يقول الله عز وجل: ﴿إِنْ زَلْزَلَتِ السَّاعَةُ شَيْءٌ عَظِيمٌ. يَوْمَ تَرَوُنَّهَا تُذْهِلُ كُلَّ مَرْصِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمَلٍ حَمْلَهَا، وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَى، وَمَا هُمْ

(٣) غافر ٣٢.

(١) ص ١٥.

(٤) النمل ٨٧.

(٢) النازعات ٦ - ٨.

بسكاري، ولكن عذاب الله شديد ﴿١﴾. فيمكنون في ذلك البلاء، ما شاء الله، إلا أنه يطول عليهم، ثم يأمر الله عز وجل إسرأفيل فينفخ نفخة الصعق، فيصعق أهل السموات والأرض إلا من شاء الله، فإذا اجتمعوا جاء ملك الموت إلى الجبار فيقول: قد مات أهل السموات والأرض إلا من شئت فيقول الله عز وجل وهو أعلم: من بقي؟ فيقول: أي ربّ بقيت أنت الحي الذي لا تموت، وبقيت حملة عرشك، وبقي جبريل وميكائيل. فيقول: إني كتبت الموت على من تحت عرشي، فيموتان، ثم يأتي ملك الموت، فيقول: قد مات جبريل وميكائيل فيقول وهو أعلم: من بقي؟ فيقول: بقيت أنت الحي الذي لا تموت، وبقيت حملة العرش وبقيت أنا، فيقول الله عز وجل: فليمت حملة العرش، فيموتون ويأمر الله تعالى العرش فيقبض القرن من إسرأفيل، ثم يقول: ليمت إسرأفيل فيموت. ثم يأتي ملك الموت فيقول: يا رب قد مات حملة عرشك، فيقول الله عز وجل وهو أعلم: فمن بقي؟ فيقول: بقيت أنت الحي الذي لا تموت، وبقيت أنا. فيقول الله عز وجل: أنت خلقت من خلقي خلقتك، لِمَا رأيت فمت. فيموت.

وفي رواية ابن أبي الدنيا: مت ثم لا تحيا.

فإذا لم يبق إلا الله عز وجل طوى السماء والأرض كطيّ السجل للكتاب، ثم دحاها ثم قال: أنا الجبار، لمن المُلْك اليوم - ثلاث مرات - فلا يجيبه أحد فيجيب نفسه فيقول: لنفسه: لله الواحد القهار.

ثم يبسط الأرض بسطاً يمدها مدة الأديم، لا ترى فيها عوجاً ولا أمناً، ثم يزجر الله الخلق زجرة واحدة، فإذا هم بالساهرة على ظهرها، ثم ينزل الله تعالى ماءً من تحت العرش كمني الرجال، ثم يأمر السماء أن تمطر فتمطر أربعين يوماً، حتى يكون الماء فوقهم اثني عشر ذراعاً، ثم يأمر الله عز وجل الأجساد أن تنبت كنبات الطرائث، أو كنبات البقل، حتى إذا تكاملت أجسادهم، فكانت كما

(١) الحج ١ - ٢.

كانت قال الله عز وجل: لِيَحْيِيَ حَمَلَةَ الْعَرْشِ، فَيَحْيُونَ، فَيَأْمُرُ اللَّهُ إِسْرَافِيلَ، فَيَأْخُذُ الصُّورَ فَيَضَعُهُ عَلَى فِيهِ، ثُمَّ يَقُولُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ: لِيَحْيِيَ جَبْرِيْلُ وَمِيكَائِيْلُ. فَيَحْيِيَانِ، ثُمَّ يَدْعُو اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ الْأَرْوَاحَ فَيُؤْتِي بِهَا تَتَوَهَّجُ أَرْوَاحُ الْمُسْلِمِينَ نُورًا، وَالْأُخْرَى ظُلْمَةً، فَيَقْبِضُهَا جَمِيعًا، ثُمَّ يَلْقِيهَا فِي الصُّورِ، ثُمَّ يَأْمُرُ إِسْرَافِيلَ أَنْ يَنْفِخَ نَفْخَةَ الْبَعْثِ، فَتَخْرُجُ الْأَرْوَاحُ كَأَنَّهَا النَّحْلُ قَدْ مَلَأَتْ مَا بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ، فَيَقُولُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ: وَعِزَّتِي وَجَلَالِي لَتَرْجِعَنَّ كُلُّ رُوحٍ إِلَى جَسَدِهَا. فَتَدْخُلُ الْأَرْوَاحُ فِي الْخِيَاشِمِ، ثُمَّ تَمْشِي فِي الْأَجْسَادِ، مَشْيَ السَّمِّ فِي اللَّدِيغِ، ثُمَّ تَنْشَقُّ الْأَرْضَ عَنْهُمْ سِرَاعًا.

فَأَنَا أَوَّلُ مَنْ تَنْشَقُّ عَنْهُ الْأَرْضُ، فَيَخْرُجُونَ مِنْهَا سِرَاعًا مُهْطِعِينَ إِلَى الدَّاعِي، حِفَاةَ عِرَاقِ غُرْلًا، ثُمَّ يَقْفُونَ مَقْدَارَ سَبْعِينَ عَامًا لَا يَنْظُرُ إِلَيْكُمْ وَلَا يَقْضِي بَيْنَكُمْ، فَتَبْكُونَ حَتَّى تَنْقَطِعَ الدَّمُوعُ، ثُمَّ تَدْمَعُونَ دَمًا، وَتَعْرِقُونَ حَتَّى يَبْلُغَ ذَلِكَ مِنْكُمْ أَنْ يُلْجِمَكُمْ، أَوْ يَبْلُغَ الْأَذْقَانَ، فَتَصِيحُونَ وَتَقُولُونَ: مَنْ يَشْفَعُ لَنَا إِلَى رَبِّنَا عَزَّ وَجَلَّ فَيَقْضِي بَيْنَنَا فَتَقُولُونَ: مَنْ أَحَقُّ بِذَلِكَ مِنْ أَبِيكُمْ آدَمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ، خَلَقَهُ اللَّهُ بِيَدِهِ، وَنَفَخَ فِيهِ مِنْ رُوحِهِ وَكَلَّمَهُ قَبْلًا، فَيَأْتُونَ آدَمَ فَيَطْلُبُونَ ذَلِكَ إِلَيْهِ فَيَأْتِي وَيَقُولُ: مَا أَنَا بِصَاحِبِ ذَلِكَ، فَيَسْتَقْرُونَ الْأَنْبِيَاءَ نَبِيًّا نَبِيًّا، كُلَّمَا جَاءُوا نَبِيًّا أَبِي عَلَيْهِم.

قال رسول الله ﷺ: حتى يأتوني، فأنطلق معهم حتى آتي قدام العرش فأخبر ساجدًا، حتى يبعث الله تعالى ملكًا، فيأخذ بعضدي فيرفعي ويقول لي: يا محمد. فأقول: نعم يا رب. فيقول: ما شأنك؟ وهو أعلم فأقول: يا رب وعدتني الشفاعة. فشغعتني في خلقك، واقض بينهم. فيقول: قد شغعتك. فأرجع فأقف مع الناس، فبينما نحن وقوف إذ سمعنا حسًا من السماء شديدًا فهالنا. فينزل أهل السماء الدنيا فيأخذون مصافهم، ثم ينزل أهل السماء الثانية بمثل من نزل من الملائكة، ومثلي من فيها من الجن والإنس حتى يأخذوا مصافهم، حتى ينزل الجبار تبارك وتعالى في ظلل من الغمام، ويحمل عرش ربك فوقهم يومئذ ثمانية، وهم اليوم أربعة، أقدامهم في تخوم الأرض السفلى والأرض إلى حجرهم،

والعرش على مناكبهم لهم زجل من تسييحهم، يقولون: سبحان ذي العزة
والجبروت، سبحان ذي الملك والملكوت، سبحان الحي الذي لا يموت سبحان
الذي يميت الخلق، ولا يموت، سُبوح قُدُّوس، سبحان ربنا الأعلى رب الملائكة
والروح، فيضع الله كرسيه حيث شاء من أرضه، ثم يقول: يا معشر الجن
والإنس إني قد أنصت لكم منذ خلقتكم إلى يومكم هذا، أسمع قولكم وأنظر
أعمالكم، فأنصتوا، فإنما هي أعمالكم وصحفكم تُقرأ عليكم، فمن وجد خيراً
فليحمد الله، ومن وجد غير ذلك فلا يلومنَّ إلا نفسه.

ثم يأمر الله جهنم فيخرج منها عنق مظلم ثم يقول الله عز وجل: ﴿وامتازوا اليوم
أيها المجرمون. ألم أعهد إليكم يا بني آدم أن لا تعبدوا الشيطان إنه لكم عدو
مبين﴾ إلى قوله: ﴿هذه جهنم التي كنتم توعدون﴾^(١) فيميِّز الله الناس وتجنسو
الأمم، فيقضي بين خلقه إلا الثقلين الجن والإنس، فيقضي الله بين الوحش
والبهائم، حتى إنه ليقيد الجماء من ذات القرن، فإذا لم تبقى تبعة عند واحدة
لأخرى يقال لها: كوني تراباً، فعند ذلك يقول الكافر: ﴿يا ليتني كنت
تراباً﴾^(٢).

فيقضي الله بين العباد، فيكون أول ما يقضي فيه الدماء، فيأمر الله كل من
قتل فيحمل رأسه تشخب أوداجه، فيقول: يا رب سل هذا فيم قتلني؟ فلا تبقى
نفس قتلها قاتل، إلا قُتل بها، ولا مظلمة ظلم بها إلا أخذ بها، وكان في مشيئة
الله عز وجل إن شاء عذبه، وإن شاء رَحِمه، ثم يقضي بين من بقي من خلقه
حتى لا تبقى مظلمة لأحد عند أحد، إلا أخذها المظلوم من الظالم، حتى إنه
ليكلّف شائب اللبن بالماء، ثم يبيعه ان يخلّص اللبن من الماء، فإذا فرغ من ذلك
نادى مناد يُسمع الخلائق كلهم فيقول: ألا ليلحق كل قوم بأهتهم، وما كانوا
يعبدون من دون الله عز وجل، فلا يبقى أحد عبد شيئاً من دون الله عز وجل،
إلا مثلت له الآلهة بين يديه، ويجعل الله عز وجل يومئذ ملكاً من الملائكة على

(١) يس ٥٩ - ٦٣

(٢) النبأ ٤٠.

صورة عَزِير، ويجعل ملكاً من الملائكة على صورة عيسى بن مريم، فيتبع هذا اليهود، ويتبع هذا النصراني، ثم قادتْهم آلهتهم إلى النار، فإذا لم يبق إلا المؤمنون، وفيهم المنافقون بدأهم الله عز وجل فقال: يا أيها الناس ذهب الناس فالحقوا بآلهتكم، وما كنتم تعبدون. فيقولون: ما لنا إله إلا الله، وما كنا نعبد غيره، فيكشف لهم عن ساق ويتجلى لهم من عظمته ما يعرفون انه ربهم تعالى، فيخرون سُجداً على وجوههم، ويختر كلُّ منافق على قفاه، فيجعل الله أصلابهم كصياصي البقر، ويضرب الله الصراط بين ظهراي جهنم كحد السيف عليه كلاليب، وخطاطيف وحسك كحسك السعدان، فيمرّون كطرف العين، أو كلمح البصر، أو كمرّ الريح، أو كأجاويد الخيل، أو كجياذ الرجال، فناجٍ مُسَلَّم، وناجٍ مخدوش، ومكدوش على وجهه في جهنم.

قال رسول الله ﷺ: فأتي باب الجنة، فأستفتح، فيفتح لي، فإذا دخلت فنظرت إلى ربي عز وجل خررت ساجداً.

تم الكتاب بحمد الله تعالى

والحمد لله رب العالمين

فهرس الموضوعات

الصفحة	الموضوع
٣	الطبقة الثانية فيها مجالس تشتمل على فضائل أيام السو لياليها المذكورات وفيها أحد عشر مجلساً
٥	المجلس الأول في ذكر عاشوراء والمحرم
٨	الكلام على البسمة
١١	الكلام على قوله تعالى: ﴿ولا تقتلوا النفس التي حرم الله إلا بالحق﴾
١٩	المجلس الثاني في ذكر رجب
٢٢	الكلام على البسمة
٢٥	الكلام على قوله تعالى: ﴿إن عدة الشهور عند الله اثنا عشر شهرا في كتاب الله﴾
٣٠	المجلس الثالث في ذكرى المعراج
٣٨	الكلام على البسمة
٤٠	قوله تعالى: ﴿سبحان الذي أسرى بعبده ليلاً﴾
٤٦	المجلس الرابع في ذكر فضائل شعبان
٤٨	الكلام على البسمة
٥٠	الكلام على قوله تعالى: ﴿أم حسب الذين اجترحوا السيئات أن نجعلهم كالذين آمنوا وعملوا الصالحات﴾
٥٥	المجلس الخامس في ذكر ليلة النصف من شعبان
٥٩	الكلام على البسمة
٦٠	الكلام على قوله تعالى: ﴿حم والكتاب المبين﴾
٦٥	المجلس السادس لاستفتاح شهر رمضان

- ٧٢ الكلام على البسمة
- ٧٤ الكلام على قوله تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا كتب عليكم الصيام﴾
- ٨٠ المجلس السابع لانتصاف شهر رمضان
- ٨٣ الكلام على البسمة
- ٨٥ الكلام على قوله تعالى: ﴿شهر رمضان الذي أنزل فيه القرآن﴾
- ٩١ المجلس الثامن في ذكر العشر وليلة القدر
- ٩٩ الكلام على البسمة
- ١٠٢ الكلام على قوله تعالى: ﴿سلام هي حتى مطلع الفجر﴾
- ١٠٥ المجلس التاسع في ذكر عيد الفطر
- ١٠٨ الكلام على البسمة
- الكلام على قوله تعالى: ﴿ألا إن أولياء الله لا خوف عليهم ولا هم
يخزنون﴾
- ١١١
- ١١٦ قوله تعالى: ﴿لهم البشرى في الحياة الدنيا وفي الآخرة﴾
- ١١٩ المجلس العاشر في عشر ذي الحجة
- ١٢٧ الكلام على قوله تعالى: ﴿ألم تر كيف فعل ربك بعاد﴾
- ١٣١ قوله تعالى: ﴿وثمود الذين جابوا الصخر بالواد﴾
- ١٣٢ سجع على قوله تعالى: ﴿إن ربك لبالمرصاد﴾
- ١٣٤ المجلس الحادي عشر في ذكر يوم عرفة
- ١٣٨ الكلام على البسمة
- ١٤٠ الكلام على قوله تعالى: ﴿وأذن في الناس بالحج يأتوك رجالاً﴾
- ١٤١ سجع على قوله تعالى: ﴿وأذن في الناس بالحج يأتوك رجالاً﴾
- ١٤٤ قوله تعالى: ﴿وعلى كل ضامر﴾
- ١٤٤ قوله تعالى: ﴿يأتين من كل فج عميق﴾
- ١٤٥ قوله تعالى: ﴿ليشهدوا منافع لهم﴾
- الطبقة الثالثة تشتمل على ذكر خلق ابن آدم والأرض والسموات فيها

١٤٧	ثلاثة مجالس
١٤٩	المجلس الأول يذكر فيه خلق ابن آدم
١٥٥	الكلام على البسملة
١٥٨	الكلام على قوله تعالى: ﴿ثم إنكم بعد ذلك لميتون﴾
١٦٣	المجلس الثامن في ذكر السموات وما فيهن
١٦٨	الكلام على البسملة
١٧٠	الكلام على قوله تعالى: ﴿وترى كل أمة جاثية﴾
١٧٤	سجع على قوله تعالى: ﴿كل أمة تدعى إلى كتابها﴾
١٧٦	المجلس الثالث في ذكر الأرض وعجائبها
١٨٠	الكلام على البسملة
١٨٢	قوله تعالى: ﴿فإذا انشقت السماء فكانت وردة كالدهان﴾
١٨٧	سجع على قوله تعالى: ﴿ولمن خاف مقام ربه جنتان﴾
١٨٩	الطبقة الرابعة: تشتمل على فضائل العلم والمعاملات فيها ثمانية وعشرون مجلساً
١٩١	المجلس الأول في فضائل العلم والعمل
١٩٥	الكلام على البسملة
١٩٨	الكلام على قوله تعالى: ﴿فاليوم لا تظلم نفس شيئاً﴾
١٩٩	قوله تعالى: ﴿ولا تجزون إلا ما كنتم تعملون﴾
٢٠٠	قوله تعالى: ﴿إن أصحاب الجنة اليوم في شغل فاكهون﴾
٢٠٠	قوله تعالى: ﴿هم وأزواجهم في ظلل﴾
٢٠٢	سجع على قوله تعالى: ﴿هم وأزواجهم في ظلل﴾
٢٠٣	قوله تعالى: ﴿على الأرائك متكئون﴾
٢٠٣	سجع على قوله تعالى: ﴿سلام قولاً من رب رحيم﴾
٢٠٥	المجلس الثاني في ذكر الطهارة
٢١٠	الكلام على البسملة

الصفحة	الموضوع
٢١٢	الكلام على قوله تعالى: ﴿ألم تر أن الله أنزل من السماء ماء فتصبح الأرض مخضرة﴾
٢١٦	سجع على قوله تعالى: ﴿أنزل من السماء ماء فتصبح الأرض مخضرة﴾
٢١٨	المجلس الثالث في ذكر الصلاة
٢٢٣	الكلام على البسملة
٢٢٦	الكلام على قوله تعالى: ﴿إن الذين سبقتم لنا الحسنى أولئك عنها مبعدون﴾
٢٣٣	المجلس الرابع في ذكر الزكاة
٢٣٧	الكلام على البسملة
٢٤٦	المجلس الخامس في ذكر الصيام
٢٥١	الكلام على البسملة
٢٥٣	سجع على قوله تعالى: ﴿ونحن أقرب إليه من حبل الوريد﴾
٢٥٥	سجع على قوله تعالى: ﴿عن اليمين وعن الشمال قعيد﴾
٢٥٥	السجع على قوله تعالى: ﴿ما يلفظ من قول إلا لديه رقيب عتيد﴾
٢٥٨	سجع على قوله تعالى: ﴿لقد كنت في غفلة من هذا﴾
٢٥٩	المجلس السادس في ذكر الحج
٢٦٤	الكلام على البسملة
٢٦٦	الكلام على قوله تعالى: ﴿إن الذين يتلون كتاب الله وأقاموا الصلاة﴾
٢٧١	سجع على قوله تعالى: ﴿يرجون تجارة لن تبور﴾
٢٧٢	المجلس السابع من الأخوة والصدقة
٢٧٨	الكلام على البسملة
٢٨١	الكلام على قوله تعالى: ﴿الذين يذكرون الله قياماً وقعوداً وعلى جنوبهم﴾
٢٨٧	المجلس الثامن في ذكر العزلة
٢٩٢	الكلام على البسملة

الصفحة	الموضوع
٢٩٤	الكلام على قوله تعالى: ﴿تتجافى جنوبهم عن المضاجع﴾
٣٠٠	السجع على قوله تعالى: ﴿تتجافى جنوبهم عن المضاجع﴾
٣٠٢	المجلس التاسع في ذكر الأمر بالمعروف
٣٠٦	الكلام على البسمة
	الكلام على قوله تعالى: ﴿فإذا نفخ في الصور فلا أنساب بينهم يومئذ ولا
٣٠٩	يتساءلون﴾